

جمهورية السودان

جامعة النيلين

كلية الدراسات العليا

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام ما بين ١٨٧٦ - ١٩٢٤م

بمقتضى مقدم للحصول على درجة الدكتوراه
في التاريخ الحديث

إعداد الطالب :

محمد علي الأحمد

إشراف الأستاذ الدكتور :

عبد الوهاب عبد الرحيم المبارك

وجب ١٤٢١ هـ / أيلول ٢٠٠٠ م

جامعة النيلين
كلية الدراسات العليا

علاقة الدولة العثمانية بالسرب في بلاد الشام بين عامي ١٨٧٦-١٩٢٤م

إعداد الطالب
محمد علي الأحمد

إشراف

الاستاذ الدكتور: عبدالوهاب عبد الرحيم المبارك

. قدمت هذه الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

٢٠٠٠م

**علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام
بين 1876- 1924 هـ**

**إشراف الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عبد
الرحيم المبارك**

إعداد الطالب : محمد علي الأحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى أبناء الأمة الإسلامية من العرب والأتراك الذين جمعتهم الرابطة العثمانية في ظل دولة الخلافة، وآمنوا بأن الإسلام هو المنهج الإلهي المتكامل، الذي لا تستقيم الحياة إلا به، فحملوا لواءه والتقوا على شريعته وأحكامه، فكانت علاقاتهم أنموذجاً ناجحاً قابلاً للبناء مرة أخرى إن التقوا على جامعته بعيداً عن العصبية العرقية والقومية.

إلى الذين ترنو أبصارهم لرؤية هذه العلاقات تظلل العرب والأتراك من جديد تحت راية الإسلام، ويعملان معاً لإقامة دولة الخلافة لإسعاد أجيالهم القادمة تحت لوائها، من أجل غدٍ مشرق وحضارة مجيدة.

إليهم أهدي هذا الجهد المتواضع، لعل فيه نفعاً وحافزاً لهم على تجاوز رواسب الماضي وأخطائه، للنهوض مرة أخرى، والتيقظ والتنبيه لمكائد الأعداء التي فرقتهم وأطاحت برمز قوتهم ووحدتهم دولة الخلافة، وأبعدتهم عن بعض، عسى أن يكون تكاتفهم سبيلاً لاستعادة عزتهم واسترجاع مقدساتهم الضائعة.



من أقوال ومواقف الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني:

انصحوا الدكتور هرتسل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، فإنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحدٍ من أرض فلسطين... فهي ليست ملك يميني... بل ملك الأمة الإسلامية... لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه... فليحتفظ اليهود بملايينهم... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً، فإنهم يستطيعون أنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن...

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة، وهذا أمر لا يكون. إنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة.

السلطان عبد الحميد الثاني
استانبول 1901م



العهد الحميدي

وقد بعث الله الخليفة رحمةً
أقام به الديان أركان دينه
وصاغ النُّهى منه سوار عدالةٍ
وكم لأُمير المؤمنين مآثمٌ
ويشهد حتى الأجنبى بفضلَه
سلامٌ على العهد الحميدي
إلى الناس إن الله للناس يرحمُ
فليست على رغم المدى تتهدمُ
به ازدان من خود الحكومة
معصمٌ
بهن صنوف الناس تدري وتعلمُ
فكيف يسيء الظن من هو مسلمُ
إنه لأسعد عهدٍ في الزمانِ
وأنعمُ

شاعر العراق العلامة
جميل صدقي الزهاوي



الخلافة الإسلامية

ضجت عليك مآذنٌ ومنابرٌ
الهند والهةٌ ومصر حزيمةٌ
والشام تسألُ والعراق وفارسُ
نزعوا عن الأعناق خير قلادةٍ
من قائل للمسلمين مقالةً
عهد الخلافة فيه أول ذائد
إني أنا المصباحُ لست بضائع

أمير الشعراء
أحمد بك شوقي

الرموز والمصطلحات الواردة في الكتاب

ص: صفحة

ت: توفي.

ج: جزء.

ج: جزء.

ح: حلقة

مج: مجلد.

هـ: هجري.

م: ميلادي إذا اقترنت بالتاريخ.

م: مجلد إذا اقترنت بالكتاب.

ق: قسم.

د.ت: بدون تاريخ.

د.ن: بدون ناشر.

ع: عدد.

المقدمة

تعد العلاقات القائمة على التعاون والانسجام سبيلاً ناجحاً من سبل نهوض الدول والشعوب، لا سيما إن كانت قائمةً بين دول وشعوبٍ متجانسةً فكرياً وأيديولوجياً ومتجاورةً جغرافياً، وتستند في سعيها للتقارب والائتلاف إلى قواسم مشتركة بينها، الأمر الذي يوفر لها فرص التكامل والازدهار والنجاح.

وكانت العلاقة بين العرب والدولة العثمانية، ولمدة أربعة قرون متتالية امتدت بين 1516-1916م، مثلاً وأنموذجاً للعلاقات الإيجابية وذات طابع مميز، اختلفت حوله آراء المؤرخين تبعاً للمنطلقات الفكرية التي يصدرون عنها أثناء نظرهم لتلك العلاقات، فالبعض يعلها احتلالاً واستعماراً من خلال تقييمها، على أنها إخضاع دولة لدول وشعوب أخرى سياسياً وعسكرياً، وأن ذلك مصادرة لاستقلالها، والبعض الآخر يعلها بمثابة فتح عسكري، وإبراز للهوية الفكرية والثقافية والحضارية من قبل العثمانيين للشعوب العربية.

وفي الحقيقة فإن العالم العربي كان يعاني من التفتت والضياع والتناحر عند بدء علاقة العثمانيين به، وعندما فتح العثمانيون الأقطار العربية في المشرق والمغرب العربيين، وحكموها بصيغة سياسية تحفظ لها هويتها الحضارية من خلال مؤسسة الخلافة الإسلامية واستجمعوا الطاقات والإمكانات المتوفرة في البلاد العربية، وخاصة منها الكوادر البشرية، ووجهوها في مجال التوسع العسكري والسياسي، حيث امتد نفوذهم إلى دول أوروبا الشرقية، ففتحوها وأسمعوها صوت الحق ونداء التوحيد، وعرفوها على النور الساطع الذي تحمله الحضارة الإسلامية، حضارة المعرفة والإبداع العلمي في الميادين المعرفية كافة.

ولما كانت بلاد الشام أقرب البلاد العربية إلى الدولة العثمانية بحكم الجوار الجغرافي، فقد أفاد هذا القرب لتكون أولى البلاد العربية التي امتد إليها الفتح العثماني، ولتتخذ معبراً تنفذ منه الجيوش العثمانية لفتح سائر تلك البلاد وبسط سلطانها عليها، كمصر والجزيرة العربية وبلدان المغرب الغربي، ولهذا فقد اكتسبت علاقة العرب في بلاد الشام بالدولة العثمانية أهمية خاصة، فهي من جهة ذات علاقات مميزة

جغرافياً وسياسياً واقتصادياً، بسبب الامتداد الجغرافي المتجاور بين البلاد العثمانية وبلاد الشام، ومن جهة ثانية كان لانطباع العلاقة بين العرب في بلاد الشام والدولة العثمانية بالطابع الإسلامي، دور فعال في تأخير الاحساس بالتمايز القومي كحاكم ومحكوم بين العنصرين العربي والتركي، بفضل الاندماج في إطار الرابطة العثمانية التي جمعتهم في إطار إسلامي فريد تجلّى بالجامعة الإسلامية، ولم تظهر النعرة القومية إلا بوصول التيار القومي التركي إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية، بعد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني وإسقاطه، لأن هذا الخليفة يمثل التيار الإسلامي الذي يجمع العرب والتركي ضمن الرابطة العثمانية الإسلامية، ومن جهة ثالثة تقدمت بلاد الشام على سائر البلاد العربية الأخرى في ظهور الوعي القومي ويقظته فيها، بفعل العوامل المختلفة التي تسببت في بروزه، مما أدى إلى التناظر بين العرب والأتراك، جراء جنوح التيار القومي الطوراني بقيادة جمعية الاتحاد والترقي إلى سياسة التتريك العدائية ضد العرب، وسعيها لتطبيق هذه السياسة المتطرفة في بلاد الشام، مما أدى إلى تخريب البناء العثماني المكون من العرب والتركي، وتدهور العلاقات التدريجي بدءاً من عام 1909م حتى 1918م مع نهاية الحرب العالمية الأولى، حتى وصلت إلى درجة القطيعة حينذاك، ثم دخولها مرحلة القطيعة الفعلية بتقطيع ما تبقى من أسباب الالتقاء بين العرب والأتراك، بإلغاء الخلافة والانقلاب الجذري على نظامها الإسلامي عام 1924م، لهذا فإن علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام خلال أكثر من أربعة قرون، وخاصة في الفترة بين عامي 1876-1924، على درجة كبيرة من الأهمية، نظراً لشمول هذه الفترة للمراحل المتلاحقة لتطور العلاقة بين الدولة العثمانية والعرب في بلاد الشام، ومن ثم مناقشة هذه المراحل واحدة تلو الأخرى، وتفصيل جوانبها وبيان أثرها على مصير دولة الخلافة وعلى البلاد العربية على حد سواء، وعلى ضوء ذلك يمكن إيراد أهم الأسباب والمبررات التي دعت لاختيار موضوع هذا الكتاب:

1. إمطة اللثام عن عوامل الترابط والالتقاء في علاقة الدولة العثمانية مع العرب أثناء الفترة التي شملتها الدراسة، لما لتلك العوامل من أهمية كبيرة في بيان نقاط القوة والضعف في العلاقات العربية العثمانية، وأهمية ذلك أيضاً في إمكانية

استمرار تلك العلاقات، وفي التأثير عليها لتكون سبباً من أسباب إسقاط الخلافة العثمانية .

2. كشف العوامل التي طرأت فيما بعد وأسهمت في إيجاد فجوة بين الطرف العربي والطرف العثماني، وأثرت في إحداث التباعد بينهما، وبالتالي في القضاء على الدولة العثمانية.

3. إعطاء الصورة الحقيقية لطبيعة تلك العلاقة، بما يغطي الفترة التي شملها هذا الكتاب، وكشف حقيقة الأطراف التي اشتركت مجتمعة في انقلاب الاتحاديين على الخلافة، ومعالجة هذا الموضوع وفق المنهجية التي سلكها الباحث، ومن الزاوية التي ناقشها.

4. الوقوف على الآثار والنتائج التي نتجت عن انتهاج جماعة الاتحاد والترقي السياسة الطورانية العنصرية ضد العرب في بلاد الشام، وأثر ذلك على مواقفهم لدفعهم نحو الرد على الاتحاديين، ومن ثم لتنتهي الأمور إلى قطع العلاقات العربية العثمانية . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب يحتوي على ثمانية فصول رئيسة، إضافةً للتمهيد والمقدمة والخاتمة، وألحق به ثلاثة ملاحق تتعلق بالمواضيع التي عالجه.

حاول الباحث في التمهيد تقديم تصور عن حالة العالم العربي، لا سيما منطقة بلاد الشام والمناطق المحيطة بها كالعراق والجزيرة العربية، قبيل بدء العلاقات بين الدولة العثمانية والعرب في بلاد الشام، وبيان الأهمية الاستراتيجية للفتح العثماني للبلاد العربية من حيث حمايتها من الغزو الاستعماري الحديث، ووقوعها في وقت مبكر تحت وطأته لو لم يمتد النفوذ العثماني الإسلامي نحوها.

وفي الفصل الأول كان الحديث عن بدء علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام، في الفترة التي ابتدأ فيها الفتح العثماني لهذه البلاد عام 1516م، ثم امتداد هذا الفتح نحو مصر عام 1517م، وقدم ممثل أمير الحجاز إلى القاهرة لتقديم الولاء والإخلاص للدولة العثمانية الإسلامية ، ومبايعة السلطان سليم الأول كخليفة للمسلمين وخادم للحرمين الشريفين، كما تم الحديث في هذا الفصل عن أصل العثمانيين ونشأة

دولتهم وامتدادها وتوسعها، وختم ببيان أوضاع بلاد الشام الإدارية في ظل الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة بين بدء الفتح العثماني لبلاد الشام عام 1516م، ولغاية بدء الفترة التي تولى فيها الخلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، وهي عام 1876م ، مع بيان أن بلاد الشام حافظت على تقسيماتها الإدارية طوال الفترة المذكورة.

وتناول الفصل الثاني علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين عام 1876م وعام 1909م، وبدء به باستعراض سلسلة الحروب العنيفة والمتواصلة التي خاضها العثمانيون بمشاركة العرب لهم، ودافع الفريقان دفاعاً مجيداً عن حياض الدولة الإسلامية العثمانية ضد الهجمات المكثفة التي تعرضت لها هذه الدولة، حيث رمى الأوروبيون مجتمعين بمشاركة روسيا القيصرية لهم، الدولة العثمانية عن قوس واحدة، بغية إخراجها من المناطق التي امتد إليها نفوذها في أوروبا الشرقية، ومن ثم إضعافها وإسقاطها، كما تناول الفصل الثاني التيارين القوميين العربي والتركي ، اللذين برزا في فترة خلافة عبد الحميد الثاني، وأظهرا توجهاتهما في الدعوة إلى الانفصال بين العرب والعثمانيين وأثر ذلك على إضعاف دولة الخلافة وإفنائها، وكانت بلاد الشام مهد التيار الأول الذي نشأ ونما فيها بفضل عوامل عديدة ساعدت على نشوئه، وأيقظت الوعي القومي في هذه البلاد ، وتمثلت هذه العوامل في الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، وحملة إبراهيم بن محمد علي باشا الألباني على بلاد الشام عام 1830م، ثم المدارس والكلليات العلمية والإرساليات التبشيرية، إضافةً للجمعيات السياسية والأدبية والصحافة والطباعة، وهذه مجموعها هيأت المناخ المناسب في بلاد الشام لنشر الوعي القومي العربي، ودعت إلى التأثير بالغرب ، والترويج للفكر الأوروبي في العادات والتقاليد وأساليب الحياة المختلفة على الطريقة الغربية، مما أوجد جيلاً منطبعاً بهذا الطابع في بلاد الشام، وعرف منهم طبقة من الدعاة للفكر الغربي عرفوا بالرواد الأوائل، عملوا عبر كتاباتهم في الصحافة، ونشرهم الثقافة التغريبية على إيجاد تيار يسعى لإحداث تباعد بين العرب والعثمانيين، ويحاول النفخ في بوق القومية لكلا الجانبين العربي والعثماني، من أجل الوصول إلى التفريق بينهما، وفصم عرى الترابط والتواصل التي تجمعهما في إطار الرابطة العثمانية، أما التيار الثاني، وهو التيار القومي التركي الطوراني، فقد تم التعريف به وبجذوره القومية، وأنه يرجع في نشأته إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد

اتخذ تسميات عدة في مراحل تطوره، تبدأ تحت اسم " العثمانيون الجدد " ، ثم شكل تنظيمًا بديلاً للتنظيم الأول وامتداداً له ، أطلق عليه جمعية تركيا الفتاة، وانتهى بإحداث تنظيم جديد تسمى بجمعية الاتحاد والترقي، وكان هذا التيار في مراحل تطوره ينادى بإلغاء الدولة العثمانية وإقامة دولة حديثة تأخذ النظام الجمهوري أساساً لأسلوب الحكم، مع التركيز على استبدال الدستور والتشريعات والقوانين العثمانية القائمة على الاقتباس من المنهج والنظام الإسلامي في الحكم، إلى قوانين وتشريعات وأنظمة حكم مقتبسة من الغرب ومن قوانينه ونظمه، بمعنى تحويل الدولة من إسلاميتها إلى دولة غربية علمانية في الشكل والمضمون، وختم هذا الفصل بالحديث عن موقف هذا التيار الطوراني العدائي للعرب، وسعيه لإيجاد شرح في العلاقات العربية العثمانية تمهيداً لإبعاد العرب عن دولة الخلافة وإنهائها .

وعالج الفصل الثالث علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين عامي 1876-1909، لكن من زاوية أخرى، وهي الحديث عن التيارات الإسلامية الداعية إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية في هذه المرحلة ، التي وصفت بأنها مرحلة العلاقات الجيدة بين العرب في بلاد الشام وبين الدولة العثمانية، ويرجع الفضل في هذا إلى الخليفة عبد الحميد الثاني، الذي كرس جهده من أجل إبقاء البلاد العربية، وبالأخص بلاد الشام، ضمن نطاق السيادة العثمانية، بعد إدراكه كثافة الهجمة الأوروبية للسيطرة على هذه البلاد، ولأجل ذلك سعى بكل الامكانيات المتاحة للدولة لخدمة البلاد العربية وإحداث نهضة فيها، والتأكيد لأبنائها على مكانتهم الرفيعة في الدولة العثمانية، ومتابعته شخصياً لشؤون هذه البلاد، واصطفائه مستشارين ووزراء منها للإسهام في ذلك، فكان التيار الإسلامي الأول الذي حرص على العلاقات العربية العثمانية في هذه المرحلة، هو التيار العثماني الذي تمثلته مؤسسة الخلافة بشخص السلطان عبد الحميد الثاني، وتم التركيز أثناء الحديث عن هذا التيار على شخصية السلطان عبد الحميد الثاني، ثم الحديث عن أدواره ومواقفه في المحافظة على العلاقات العربية العثمانية وفي تقويتها، من خلال الكلام عن إعلان الدستور "المشروطة الأولى" عام 1876م، وموقف السلطان عبد الحميد ثم موقف العرب من الشامييين من إعلان الدستور ومن أحداثه، وكذلك الكلام عن علاقة السلطان عبد

الحميد بالعرب في بلاد الشام، من حيث تقريبيهم منه، وتعيين شخصيات بارزة منهم في مواقع قيادية في الدولة، وكذا اهتمامه بفلسطين، وهي القضية الإسلامية الأولى التي حظيت بكل رعاية ومتابعة شخصية منه ، وتسجيله المواقف الخالدة التي حفظها له التاريخ في رفض أية مساومة للصهيونية العالمية على أية ذرة تراب من ثراها الطهور، على الرغم من كل أساليب الترغيب والترهيب التي اتبعتها اليهودية العالمية معه، ودفع عرشه وملكه ثمناً لذلك، وقضى شامخاً في نهاية المطاف، وختم الحديث عن هذا التيار ببيان موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الجامعة الإسلامية، ونجاحه الباهر في استثمارها وتوظيفها من أجل تقوية مؤسسة الخلافة وجمع العالم الإسلامي حولها، ومن ثم استخدامها ورقة رابحة لإخافة أوروبا بها ومقاومة الهجمة الاستعمارية الجديدة.

أما التيار الإسلامي الثاني، فهو التيار العربي الإسلامي في بلاد الشام، الذي تباينت مواقف زعمائه ورموزه في النظرة إلى العلاقة بين العرب والدولة العثمانية، ومع اتفاق معظم قادة هذا التيار على ثوابت علاقة العرب بالعثمانيين، إلا أن البعض منهم خرج عن هذه القاعدة في السعي إلى الانفصال بين طرفي الرابطة العثمانية العرب والأتراك، ودعا إلى نقل الخلافة إلى العرب مع الإبقاء على السلطنة العثمانية، وهذا ما برز في مواقف عبد الرحمن الكواكبي وآخرين من المنادين بالقطيعة بين العرب والعثمانيين.

وقد تشكل هذا التيار من اتجاهات عدة ، مثَّل كل اتجاه منها وجهة نظر تختلف كلياً أو جزئياً عن وجهة النظر الأخرى، وعرف لكل اتجاه من هؤلاء شخصية أو أكثر تعبر عنه، وكان من أشهر رجال الاتجاهات المذكورة، كل من جمال الدين الأفغاني، أبو الهدى الصيادي، عبد الرحمن الكواكبي، محمد رشيد رضا، عبد الحميد الزهراوي، عبد القادر المغربي، رفيق العظم، شكيب أرسلان.

وتتناول الفصل الرابع علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1909-1914م، وهي المرحلة التي شهدت تأزم العلاقات بين العرب والعثمانيين، بسبب السياسة التتريكية التي سارت عليها جماعة الاتحاد والترقي عقب توليها السلطة في الدولة العثمانية، بعد الانقلاب الذي قامت به ضد الخليفة عبد الحميد الثاني، وقد انفرد

هذا الفصل عن الفصل الذي يليه بمناقشة دور التيار التركي الطوراني في إدخال العلاقات مع العرب في بلاد الشام في حالة من التوتر والتدهور، جراء سياسة هذا التيار العدوانية تجاههم، في حين ناقش الفصل الخامس، التيار القومي العربي ودوره في إيصال العلاقات إلى حالة التدهور في الفترة نفسها التي تحدث عنها الفصل الرابع، وكلاهما يشير إلى حالة الضعف التي وصلتها الدولة العثمانية في تلك الفترة .

ابتدأ الفصل الرابع بتمهيد عن بداية التحول في العلاقات بين العرب الشاميين والاتحاديين وتوجه هذه العلاقات نحو الانحدار، ثم تطرق إلى الحدث الذي ختم به عهد السلطان عبد الحميد الثاني، والذي لعب دوراً هاماً في الفترة اللاحقة، وهذا الحدث هو تعيين الشريف الحسين بن علي أميراً على الحجاز، وتسليمه منصب الشرافة لمكة المكرمة بعد شغور هذا المنصب، وكان هذا التعيين عام 1908م.

وناقش الفصل الرابع بعد ذلك خلع الاتحاديين للخليفة عبد الحميد الثاني، ودور اليهود الأتراك المعروفين بيهود الدونمة في الانقلاب عليه، ومن ورائهم الصهيونية العالمية في تحريك أدواتها وتنظيماتها السرية للقيام بالانقلاب المذكور، وخاصة الحركة الماسونية، التي استطاعت التغلغل في جماعة الاتحاد والترقي وتنظيم معظم رجال هذه الحركة البارزين في صفوفها، ومن ثم القيام بالانقلاب على عبد الحميد الثاني وخلعه، وتحدث هذا الفصل أيضاً عن موقف العرب في بلاد الشام من الانقلاب على عبد الحميد، واستعرض الخطوات التي خطاها الاتحاديون في سياستهم التتريكية ضد العرب في بلاد الشام، في مجالات التعليم واللغة والوظائف الحكومية، وفي المجلس النيابي أيضاً، وختم بالحديث عن التتريك الديني، وهو محاربة الاتحاديين لإسلامية الدولة العثمانية في مجالات الحياة المختلفة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة.

وجاء الفصل الخامس ليناقدش علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام في الفترة ذاتها التي ناقشها الفصل الرابع بين 1909-1914م، لكن بالتطرق إلى التيار القومي العربي وأثره على العلاقات في الفترة المذكورة.

تحدث هذا الفصل أولاً عن موقف العرب في بلاد الشام من سياسة التتريك الاتحادية، وكان من الأحداث البارزة في هذه الفترة ضمن هذا السياق ثورة الكرك

التي قامت عام 1910م، واعتقال عزيز المصري ومحاكمته، وما أسفر عنه هذا الحدث من نقمة عارمة شملت العرب في بلاد الشام ضد مسلك الاتحاديين نحوهم ونحو بلادهم، وتعمدهم الإساءة إلى الرابطة العثمانية التي آخت بين العرب والأتراك. وتحدث هذا الفصل في فقرته الثانية عن اتجاهات الأحزاب والجمعيات العربية الناشئة في بلاد الشام في الفترة المذكورة، وعن موقفها من السياسة الاتحادية، ونظرتها المستقبلية لعلاقة العرب في بلاد الشام بالدولة العثمانية، وقد تبلورت اتجاهات الأحزاب المذكورة إلى اتجاهات ثلاثة طفت على السطح، وهي: الاتجاه التوفيقي المؤيد لاستمرار العلاقات العربية العثمانية، وينضوي تحت هذا الاتجاه جمعية الإخاء العربي العثماني والمنتدى الأدبي وحزب اللامركزية وحزب الحرية والائتلاف وجمعية بيروت الإصلاحية، وكان المؤتمر العربي في باريس أيضاً من مؤيدي هذا الاتجاه، ثم الاتجاه المناهض بانفصال العرب عن العثمانيين وقطع العلاقات معهم، ودعا إلى هذا التوجه جمعية العربية الفتاة والجمعية الثورية العربية وجمعية النهضة اللبنانية، أما الاتجاه الثالث فهو الداعي إلى استقلال بلاد الشام ثم اتحادها بعد ذلك مع الدولة العثمانية في وحدة تشبه وحدة المجر مع النمسا، ويمثل هذه المجموعة كل من الجمعية القحطانية وجمعية العهد.

وناقش الفصل السادس علاقة العرب في بلاد الشام مع الدولة العثمانية في الفترة بين عامي 1914-1916م، وكانت سياسة جمال باشا التعسفية التي اتبعها مع العرب في بلاد الشام هي القضية الأولى التي ناقشها هذا الفصل، وهي السبب الأول لإثارتهم وتحريك مشاعرهم نحو الثورة ضد الاتحاديين، وبحث في الفقرة الثانية الثورة العربية الكبرى وأثرها على العلاقات العربية العثمانية، وتلا ذلك الحديث عن أسباب الثورة العربية الكبرى، ثم موقف العرب من اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، ويضم موقف الشريف الحسين بن علي، وموقف عرب بلاد الشام من هذه الحرب، ويأتي الحديث بعد ذلك عن مقدمات الثورة العربية الكبرى، من حيث سعي بريطانيا أولاً للتفاهم مع العرب في بلاد الشام كي يتحركوا ضد الدولة العثمانية، ثم سعيها لمفاوضة الشريف الحسين بن علي، والتركيز على الاتفاق معه حول إعلان الثورة، وهو ما أدى إلى خوض جولات من المفاوضات بين البريطانيين والحسين،

انتهت بتوقيع الاتفاق بينهما بعد مفاوضات طويلة ، وعرفت تاريخياً بمفاوضات حسين مكماهون.

وختم هذا الفصل بالحديث عن الوضع السياسي لبلاد الشام بعد الاتفاق بين مكماهون والحسين ابن علي، حيث ظهر الغدر البريطاني بالعرب من خلال اتفاقهم السري مع الفرنسيين، في الوقت نفسه الذي كانوا يفاوضون فيه العرب ويتفقون مع ممثلهم الشريف الحسين، وشاع نبأ الاتفاق الفرنسي البريطاني في بلاد الشام، فأحدث ردة فعل بين أبنائها، لكن الانكليز أمضوا اتفاقهم مع الحسين، عبر إطلاق وعود كاذبة له ولعرب بلاد الشام بالحريّة والاستقلال ، وإقامة دولة عربية لهم تشمل الحجاز والشام والعراق، مما جعلهم يمضون في ثورتهم ضد العثمانيين دون تلقي تأكيدات قوية، ودون توثيق مكتوب لتلك الوعود اللفظية الفضفاضة.

وقد تكلم الفصل السابع عن الثورة العربية الكبرى وانطلاقها الأولى في العاشر من حزيران عام 1916م من مكة المكرمة، بعد أن بذلت جهود حثيثة قبل هذا التاريخ بقليل، استعداداً لأن يكون بدء الثورة من دمشق، وفق ما خطط له الشريف الحسين وابنه فيصل، ومعهما قادة الحركة القومية في بلاد الشام، وحال دون ذلك عوامل عدة، من أهمها تنبه جمال باشا القائد العام للقوات العثمانية في هذه البلاد لما يجري من تحركات اشتبه بها، فسعى لإبطالها، ولذلك ألغيت خطة انطلاق الثورة العربية من دمشق، وتطرقت هذه الفقرة أيضاً لموقف حكومة الاتحاد والترقي من إعلان الثورة العربية، بما في ذلك الإجراءات التي اتخذها الاتحاديون بعد سماعهم نبأ إعلان الثورة. وتم التعريف في هذا الفصل بلورنس وشخصيته، ثم إيراد الأدوار التي قام بها في الثورة العربية، وكان ذلك في المجالات الآتية:

1. لورنس يحث العرب على الثورة ضد العثمانيين.
2. لورنس مع الأمير فيصل بن الحسين في توجيه الثورة العربية.
3. دور لورنس في معارك الثورة العربية.
4. لورنس يسرق من دمشق إكليل (تاج) صلاح الدين الأيوبي.

ثم ناقش هذا الفصل مبايعة الشريف الحسين بن علي ملكاً على العرب، واعتراف الدول الكبرى آنذاك بهذه البيعة، لكنه كان اعترافاً جزئياً، كملك على الحجاز فقط، وهو ما يؤكد النوايا السيئة للانكليز وحلفائهم تجاه العرب وطمعهم في اقتسام هذه البلاد، وخوفهم من أن يكون للعرب دولة تضم أقطارهم التي استقلت عن الدولة العثمانية، كي لا يكون لهم شوكة وقوة تعيد للأذهان دولة الخلافة التي يطمح الحسين بن علي أن يكون خليفة فيها، وهو ما لا يريده الانكليز والفرنسيون والروس، بعد أن عملوا كثيراً لإسقاطها.

بعد ذلك ناقش هذا الفصل اتفاقية سايكس بيكو وانعكاساتها على العرب في بلاد الشام، وبيان مخاطرها بما تفرضه على هذه البلاد من استعمار مستقبلي، لا سيما في فلسطين التي وضعها الانكليز تحت وصايتهم، لإتاحة الفرصة لليهود من أجل الهجرة إليها، وإقامة دولة إسرائيل على أرضها، وفي هذا السياق تطرق الحديث إلى وعد بلفور وموقف العرب في بلاد الشام إضافة لموقف الشريف حسين منه ومن اتفاق سايكس بيكو لتزامن الاعلان عنهما، وكذلك موقف الاتحاديين من وعد بلفور. وجرى نقاش كذلك حول المحاولة التي أشير إليها في إعادة العلاقات بين العرب والعثمانيين أثناء اشتعال الحرب بينهما، بعد وصول قوات الثورة العربية إلى حدود بلاد الشام عند العقبة، في طريق خروجها من الجزيرة العربية باتجاه الشام، وقد قام بهذا المسعى قائد القوات العثمانية الجديد في بلاد الشام المعروف بجمال باشا الصغير، لكن الجهود المبذولة باءت بالفشل، على الرغم من صدقها وجديتها، ولم يتم الصلح بين العرب والعثمانيين، مع إمكانية نجاحه لو أبدى الطرف العربي التجاوب معه.

وفي نهاية هذا الفصل تم استعراض حركة جيش الثورة العربية ومسيره في ملاحقة القوات العثمانية المنسحبة من بلاد الشام، من العقبة وحتى مرج دابق شمالي حلب، حيث خرجت القوات العثمانية من هذه البلاد، وأقيمت الحكومة العربية في دمشق لمدة تقل عن سنتين قبل الاجتياح الفرنسي والبريطاني لبلاد الشام، وقتل استقلالها في مهده، إضافة للحديث عن تقييم للثورة العربية ضمن الحديث عن علاقة العثمانيين مع العرب في بلاد الشام بين أهداف هذه الثورة ونتائجها، وبيان أن

العلاقات بين الدولة العثمانية وبلاد الشام قد قطعت بعد خروج العثمانيين من هذه البلاد. لتدخل في مرحلة القطيعة الفعلية مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918م. أما الفصل الثامن والأخير، فقد استعرض العلاقة بين العرب في بلاد الشام والدولة العثمانية في الفترة التي تلت خروج القوات العثمانية من بلاد الشام في نهاية سنة 1918م، وحتى عام 1924م، وفيها انتهت العلاقات السياسية والإدارية بين الفريقين المشتركين بالأخوة الإسلامية، وانحلت الرابطة العثمانية التي جمعتهم خلال قرون أربعة سلفت، ودخلت هذه العلاقات مرحلة القطيعة الفعلية، وقد ناقش هذا الفصل الظروف الناشئة في هذه الفترة، والتي استُكمل من خلالها تقطيع ما تبقى من روابط بين العرب والعثمانيين، حيث تطرق إلى انهيار الدولة العثمانية وتقسيم أراضيها بين الحلفاء، ثم ناقش ما أثير على ساحة العلاقات العربية العثمانية من محاولة التقارب من جديد بين تيار الكماليين (نسبة لمصطفى كمال أتاتورك) وبين العرب في بلاد الشام، ويمثلهم في هذه المرحلة الحكومة العربية في دمشق، وفيصل بن الحسين بن علي، الذي بويع ملكاً على سورية الشمالية (سوريا الحالية)، ثم تناول هذا الفصل بروز تيار مصطفى كمال أتاتورك، بالتعريف بشخصه أولاً، والحديث عن جوانب شخصيته ثانياً، وما قام به مصطفى كمال بعد تمكنه من الوصول إلى سدة الحكم من إجراءات وتدابير تهدف برمتها إلى استكمال القطيعة بين العرب والعثمانيين، ويأتي في مقدمة ذلك إلغاء السلطنة العثمانية، والتطرق إلى مؤتمر لوزان عام 1923م، وأن من مستلزمات توقيع الصلح مع الحلفاء في لوزان إلغاء السلطنة العثمانية، ثم الإعلان عن قيام الجمهورية التركية الحديثة على أسس علمانية، عمل مصطفى كمال على إلغاء السلطنة لأجل الإعلان عن الجمهورية، وتبع ذلك الخطوة الأهم والأقوى وقعاً وتأثيراً على العالم الإسلامي، وهي إلغاء الخلافة الإسلامية وطرد آخر الخلفاء العثمانيين، وكان من متطلبات هذه الخطوة القيام بالإجراءات الانقلابية المتتابعة والسريعة، والتي فصل مصطفى كمال من خلالها بين الأتراك وماضيهم الحضاري العثماني المجيد، مع إدراك الأهمية القصوى لهذا التاريخ العريق نظراً لارتباطه بالعرب بعلاقات وروابط، كانت النظم الإسلامية التي أخرجها مصطفى كمال من حيز التطبيق العملي في جوانب الحياة العثمانية العامة للفرد والدولة والمجتمع، الأساس الذي قامت عليه هذه العلاقات، فكان إبعاد الإسلام عن الدولة

العثمانية، والانقلاب الجذري على نظمه بمثابة تكريس وتثبيت لقطع العلاقات العربية العثمانية السابقة.

لقد شمل هذا الكتاب ضمن المدة الزمنية التي تحدث عنها، المراحل المختلفة التي مرت بها، العلاقات العربية العثمانية، لكن ما يميزها هو التحول الجذري المتعمد بين مرحلتين هما: انتقالها من المرحلة الأولى التي ميزت العهد العثماني بكامله بعلاقات طيبة وممتازة مع العرب بشكل عام، وعرب بلاد الشام بشكل خاص، إلى المرحلة الثانية التي عرفت بعهد الاتحاديين، وقد تعمد الاتحاديون تشويه علاقة العثمانيين بالعرب، وخططوا لذلك وتعاملوا معهم بطريقة متشددة وعدائية حادة، بحيث يثيروا كوامن العرب لكي يتحركوا ويردوا بالمثل على السياسة الطورانية التتريكية ضدهم، وقد نجحوا في ذلك، لمعرفتهم بطبيعة العربي وبما يثيره ويخرجه عن توازنه، من أجل تحميل العرب كذلك مسؤولية تدهور العلاقات بين الطرفين، ومن ثم لتحميلهم مسؤولية إسقاط الدولة العثمانية التي حملت راية الخلافة باسم الإسلام بالإشتراك معهم لأكثر من أربعة قرون متتالية، لذلك فإن الفترة التي انتقلت فيها العلاقات بين العرب في بلاد الشام والعثمانيين بين 1909 و 1918م، من العلاقات الحسنة والطيبة إلى العلاقات السيئة والمتأزمة، حتى قطعت في نهاية المطاف بانتهاء هذه الفترة، إنما هي فترة الاتحاديين، ولا يمكن اعتبارها جزءاً من التاريخ العثماني، حتى وإن لم تسقط هذه الدولة إلا بسقوط الخلافة عام 1924م على يدي مصطفى كمال أتاتورك، بل ولعل تأخير الإعلان عن نهاية هذه الدولة حتى عام 1924م، إنما كان من أجل انجاز الفصل الأخير من فصول تدميرها وإسقاطها، من خلال ما قام به مصطفى كمال أتاتورك من خطوات وإجراءات ضدها، وكذلك لا يمكن تحميل السلاطين العثمانيين مسؤولية الإساءة للعرب، لأن هذه الفترة لم يكن لهم دور أو تدخل في علاقاتهم مع العرب فيها، وكان الاتحاديون مستبدين بالسلطة، يحكمون قبضتهم على سياسة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية، وعلى كل جزئية من شؤونها، وقد اتبعوا كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل أن يهيمنوا على الدولة، ويديروها بصلاحيات الخليفة التي اغتصبوها، ومنعوه من ممارسة تلك الصلاحيات، إلا التوقيع على ما يصدر من قرارات، من أجل إكسابها صفة الشرعية، وليذروا الرماد في عيون عامة الناس ليخدروهم ويسكتوهم عن أفعالهم وممارساتهم وسياستهم الخرقاء في إدارة الدولة، ولا أدل على هذا

من خطوتهم القاتلة التي اتخذوها بإشراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، لهذا كانت مهمة الباحث شاقة وصعبة في بيان هذه الحقيقة للتاريخ، وتوضيح ما علق في أذهان الأجيال المتعاقبة من أبناء العرب منذ نهاية دولة الخلافة العثمانية وحتى اليوم الحاضر، من أن ما نفذه الاتحاديون ضد العرب من سياسات عدائية وممارسات عنصرية تتركية، إنما ينسب إلى العثمانيين، وأن هذه الصورة وهذه القناعة ترسخت في عقول ونفوس الأجيال العربية على أنها سياسة العثمانيين العامة تجاه العرب، ولذلك أطلقوا على علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام، بل وفي سائر بلدانهم، صفات تارةً سميت احتلالاً، وتارةً سميت استعماراً، ويضربون الأمثلة على ذلك من ممارسات الاتحاديين، ومن سياستهم خلال السنوات التسع الأخيرة ضد العرب وضد بلادهم وضد ما يسمون بـ أحرارهم وشهداءهم الذين أعدمهم جمال باشا في عامي 11915 و 1916م، وكانت مهمة الباحث شاقة وعسيرة في تحليل الوثائق والمعلومات المتعلقة بهذه الأحداث، التي تلامس في حساسيتها مشاعر ووجدان كل عربي، وأدرك الباحث من خلال المعلومات المتوفرة عن تلك الأحداث، والتي صدرت عن المعنيين بها، ممن ساهموا في صنعها، أن الحقيقة المجردة تقتضي القول إن ما نسب من أفعال إلى العثمانيين عبر تاريخ علاقاتهم الطويل مع العرب، إنما كانت من صنع الاتحاديين ومن ملوكهم ضد العرب، وكان ذلك تشويهاً متعمداً وإساءة مقصودة أريد منهما الإساءة للعثمانيين، ونسبة ما ليس من أفعالهم إليهم، كما تقتضي الأمانة العلمية القول بأن العثمانيين لم يكونوا بريئين من الأخطاء والنقص، لا سيما في علاقاتهم مع العرب، وفي إدارتهم لبلادهم، فقد عانت البلاد العربية، والشام في مقدمتها، من التخلف الاجتماعي ومن ضعف التعليم وانتشار الجهل والأمية، وقلة العناية بالمرافق الصحية، ومن سوء الإدارة وانتشار الرشوة وقسوة الكثير من الولاة وشدهم في فرض الأتاوات على الناس وفي جمع الضرائب، كل هذا كان يحدث في البلاد العربية، وخاصة بلاد الشام، لكونها أقرب الولايات العربية إلى العاصمة العثمانية، الأمر الذي يجعل إحكام السيطرة عليها وإدارتها بمركزية شديدة أكثر سهولة من الولايات العربية الأكثر بعداً عن مركز الدولة وعن عاصمتها، لكن ذلك كله على الرغم من حدوثه، لم يكن متعمداً من الولاة العثمانيين ضد العرب وبلادهم، وإنما يقع بفعل الظروف العامة التي تعاني منها الدولة العثمانية، لانشغالها بالحروب العسكرية المتواصلة وهي تدفع عن نفسها

الحمالات العسكرية المكثفة التي تشنها دول أوروبا ضدها لإضعافها وإسقاطها، ولذلك فهي مقصورة إدارياً ومتخلفة تكنولوجياً وعلمياً، لأنها لم تترك لها أية فرصة لالتقاط أنفاسها، ومن ثم لتفكر في تطوير نفسها صناعياً وعلمياً وتحسن واقع ولاياتها وأقاليمها، هذا عدا أن سلاطينها لم تكونوا جميعاً على درجة واحدة من الكفاءة والخبرة والإخلاص في خدمة البلاد، وبالمستوى الجيد من العلم والاهتمام بتطوير الدولة، فكان منهم القادة والسلاطين العظام البارزين، الذين ابدوا توجهات جادة ورغبة صادقة لتحديثها والارتقاء بمستواها، وبذلوا جهوداً بارزة سجلها لهم التاريخ كمآثر حسنة لهم، وكان منهم الجهلة والضعاف والأميون وأصحاب الشهوات، الغارقين بملذاتهم اللاهثين وراء اللهو والترف والمجون، والذين لم يصلوا لعرش السلطنة إلا لأنهم الأولى من حيث الترتيب العائلي الوراثي باستلام هذا الموقع، وفضلاً عن هذا وذاك، فإن جميع المآخذ والعيوب والمساوئ التي نسبت إلى العثمانيين خلال الفترة الطويلة من عمر العلاقات بين العرب والعثمانيين، من عام 1516م وحتى 1909م، كانت أخطاءً إدارية وسلوكية، لم تחדش جوهر العلاقات العربية العثمانية، ولم تمس الجانب القومي للعرب أو تتعرض بالإساءة لإسلامهم وعقيدتهم، بل كانت على العكس من ذلك تماماً تقوم على الأسس والروابط الإسلامية، وكانت اللغة العربية مكرمةً محترمةً خلال العهد العثماني بكامله، ولذلك كان العرب لا يعترضون على الارتباط مع العثمانيين بالرابعة العثمانية والجنسية العثمانية، وكان العرب المسلمون، وهم الأغلبية الساحقة في جميع البلاد العربية، بما فيها بلاد الشام، يدينون بالولاء والانتماء للدولة العثمانية، على الرغم من كل التقصير والخلل في جوانب الحياة المختلفة، ولا يفكرون ولو مجرد تفكير بالخروج على هذه الدولة، أو السعي بالانفصال عنها، بل كانوا يعتبرون إسقاطها من المحرمات التي لا يجوز بأي حال الاقترب منها، ولهذا فإن هذه القضية كانت من القضايا الرئيسية التي أراد الباحث تجليتها والكشف عن حقيقتها، وإزالة التشويه والظلم الذي لحق بالعثمانيين في علاقاتهم بالعرب بسببها، وكذلك بيان موقف العرب المدافع عن الدولة العثمانية وعن رايها الإسلامية طوال عهدها الطويل.

لقد كانت الفترة الزمنية التي تناولها هذا الكتاب بالبحث والتحليل فترة خصبةً مليئةً بالأحداث الجسام التي عانت منها الأمة الإسلامية عرباً وأتراكاً، ولما كانت العلاقة بينهما تشهد تطوراً ملحوظاً وسيراً نحو الانحدار والتدهور، وتعاني من التآزم والتوتر في

مراحلها الأخيرة، فإن مناقشة هذه العلاقات بشكل موضوعي ومتجرد، مسألة تتطلب الإطلاع على الكتابات التي كتبت عنها وتناولتها بالعرض والسرد، سواء ممن صنعوا الأحداث بأنفسهم، ثم دونوا ما قاموا به من أعمال ، أو شاركوا في صناعتها، أو عاصروا الحقبة ذاتها ونقلوا ما جرى فيها، إما بالنقل عن المعنيين مباشرة ، أو بطريق المشاهدة أو السماع، كما تقتضي ربط مراحل العلاقات بعضها ببعض، واستقصاء ما يمكن استقصاؤه من روايات الجانبين العربي والتركي، علاوة على استجلاء الصورة عن تلك المراحل ممن أرخوا لها من الكتاب والمؤرخين الغربيين، خاصة أولئك الذين تمكنوا من متابعة أحداث هذه الفترة الحيوية والهامة من العلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، ممن كان لهم إقامة في أراضي الدولة العثمانية، بحكم عملهم الوظيفي، أو ارتباطهم بمصالح اقتضت وجودهم في هذه البلاد، كالسفراء الأجانب للدول الأوروبية والملحقين العسكريين والقناصل لتلك الدول، ومما لا شك فيه أن الإطلاع على ما دون هؤلاء، أمر يواجه صعوبات عدة من أهمها عدم وصول ما دونوه باللغات الأجنبية وبلغات الأخرى ، خاصة اللغة التركية والانكليزية والفرنسية ، مع العلم أن هذا الأمر لم يكن حائلاً دون الإطلاع على ما كان متوفراً منها في المكتبات التي استقى منها الباحث مادته العلمية، بالاستعانة ببعض العارفين بهذه اللغات كتابةً وقراءةً ، لأن الإطلاع على ما كتب في تلك اللغات من وجهات النظر الأخرى ، أياً كانت اتجاهاتها الفكرية يمكن الباحث من معرفة الآراء المتباينة حيال القضايا المطروحة على بساط البحث، وبالتالي إثريه ويساعد على الإلمام بجوانبه المختلفة ، وعلى اختيار الأقرب للصواب والموضوعية العلمية.

ويجدر بالذكر أن تلك المراجع الأجنبية والتركية أفادت البحث في أمور كثيرة، خاصة في الفترة التي حكم فيها الاتحاديون الدولة العثمانية، واتبعوا فيها سياسة التتريك ضد العرب، وبعض تلك الكتب كان لمؤلفيها دورٌ بارز في صناعة الأحداث، ومؤلفو البعض الآخر من المتابعين لها عن كثب أثناء إقامتهم في عاصمة الدولة العثمانية، أو في كبريات مدن بلاد الشام، وإضافةً لما سبق سعى الباحث للاستفادة من الكتب الأجنبية والتركية المنقولة إلى اللغة العربية والمعرّبة، وخاصة كتب المذكرات التي روى فيها أصحابها على شكل يوميات تذكروها أو سرد لأحداث ساهموا في

صنعها، وهذه الكتب مهمة للغاية في الإفصاح عن الكثير من الحقائق التي تحتاج لتحليل ومناقشة، من أجل اختيار الأقرب إلى الصواب فيها، هذا عدا الاستقاء من المذكرات العربية التي كتبها زعماء الحركة السياسية العربية، الذين كان لهم البصمات الواضحة على توجهات الأحداث وما آلت إليه، أو كتبها أشخاص عاصروهم والتقوا بهم وسمعوا منهم، ثم نقلوا ما أخذوه في مؤلفاتهم وكتبهم، وقد أفاد منها الباحث في العديد من فصول هذا الكتاب ، وخاصة في ثانيا الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، ومن الصعوبات التي واجهت الباحث في هذا المجال عدم توفر الكثير من الكتب التي تحدثت عن هذه الفترة، مما تطلب بذل الجهود الكبيرة لاستقدامها من بلدان أخرى يتوفر فيها نسخ إما مصورة أو مخطوطة بخط اليد، أو البحث عنها في المكتبات الخاصة بالأفراد، والحصول عليها عن طريق بعض الأصدقاء الذين ساهموا مع الباحث بجهود مشكورة، وهم يتفانون دائماً في خدمة العلم، ويضحون بأوقاتهم وجهودهم في معاونة الباحثين ، وقد أفاد من الكثيرين من هؤلاء الذين لم يكن الوصول إليهم أو الاستفادة منهم بالأمر السهل أو الميسور في كثير من الحالات.

وفي السياق ذاته لا بد من التنويه إلى أن الباحث سعى بكل ما توفر لديه من وسائل السعي للاستفادة من العديد من الدوريات العربية القديمة التي كانت تصدر في الفترة التي تناولها الكتاب، وبعض هذه الدوريات ليس متوفراً على الورق وليس مطبوعاً، بل هو على أشرطة الميكروفيلم، ونظراً لأهمية المادة العلمية التي تعني البحث، والمنسوخة على تلك الأشرطة، أمضى الباحث فترات طويلة في قراءة ما تحتويه الأشرطة المذكورة، من أجل استخلاص ما يلزم من نصوص ووثائق تتعلق بالكثير من فقرات البحث، للاستفادة منها واقتباس ما يهم البحث وتوثيقه، ويأتي في مقدمة ذلك، الاستفادة من جريدة القبلة التي كانت جريدة الشريف الحسين بن علي، ولسان حال الثورة العربية الكبرى، إضافة لعدد من الجرائد الأخرى المنسوخة على الميكروفيلم كالمؤيد والاتحاد العثماني وجريدة فلسطين وغير ذلك.

كما استفاد الباحث من الدوريات العربية المطبوعة، وخاصة منها القديمة التي اشتملت على المقالات الكثيرة لرجال الحركة السياسية العربية المشاركين في صنع

أحداث تلك الفترة، ومن ذلك مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلة المنار لمحمد رشيد رضا، ومجلة المقتطف، ومجلة الهلال ومجلة المشرق، إضافة للعديد من الدوريات العربية العريقة والمعاصرة، ومن أهمها مجلة العربي الكويتية، ومجلة المستقبل، ومجلة المجتمع الكويتية التي كانت من أبرز مراجع البحث، لاشتمالها على مذكرات رضا نور المعاصر للأحداث، وهي ذات أهمية كبيرة في تزويد البحث بمادة علمية خصبة، خاصة في الفصلين السابع والثامن.

تلك هي الخطوات الرئيسية التي اتبعتها الباحثة في عمله أثناء إعداد هذا الكتاب حتى أخذ شكله النهائي، وهي ليست سوى جهد المقل، عمل من خلالها على تقديم ما أعانه الله عز وجل على إنجازه في هذا الجهد العلمي المتواضع، لدراسة العلاقات بين الدولة العثمانية والعرب في بلاد الشام، في الفترة الزمنية التي كانت إطاراً للبحث، لاستجلاء الصورة وبيان حقيقة تلك العلاقات في الفترة المذكورة، وبيان دور تلك العلاقات على الخلافة العثمانية وما آلت إليه، لأخذ الدروس والفوائد منها وتقديمها للأجيال القادمة، عسى أن يكون فيها تنبيه وتذكير، وتلمس لمواطن الخلل ونقاط الضعف، لتفيد منها الأمة في إعادة البناء من جديد نحو غدٍ ومستقبل مشرق تنعم فيه الأمة بدولة الخلافة وتنفيؤ ظلالها، فإن حاله التوفيق والنجاح في تحقيق بعض ما أراد الوصول إليه، فهو الفضل والعناية والكرم من المولى عز وجل، وإن كان النقص والتقصير عن بلوغ المراد، فحسبه أنه بذل جهد المستطاع، ولا يكون الكمال إلا لذات الكبير المتعال، ومن صفات البشر القصور، وهو يرجو من كل من يطلع على فصول هذا الكتاب وموضوعاته أن لا يظنّ بأية نصيحة أو تصويب يرفع من مستوى الكتاب العلمي ويحقق الفائدة لكتابه، وحاله في ذلك يقول : رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي، وفي الختام يسأل الله القبول، فهو ولي التدبير، وهو المستعان، وله الحمد على كل حال.

التمهيد

تمهيد

-أوضاع بلاد الشام قبيل الفتح العثماني لها:

يستلزم الحديث عن أوضاع بلاد الشام، وما يمر بها من أحداث، معرفة أثر تلك الأحداث على ما يجاورها من بلدان، وصلة ذلك بمحيطه العربي العام، من أجل إعطاء صورة واضحة عن الحالة التي كانت قائمة في منطقة الشام وسائر البلدان العربية، لكون الأحداث تتداخل بشكل مؤثر ومتأثر في آن معاً، والأمثلة القريبة من ذلك منذ الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، وحتى العصر الراهن كثيرة، فالفتح الإسلامي لبلاد الشام امتد الى جانبيها في كل من العراق ومصر، ونابليون حين احتل مصر عام 1798م، فكر باحتلال الشام وتحرك عملياً لتنفيذ ذلك، ومحمد علي باشا الألباني حين أقام دولته في مصر، سعى أيضاً لاحتلال الشام، وحرك جيوشه إليها بقيادة ابنه إبراهيم، والشيء ذاته بالنسبة للعراق، فما أن اجتاحت المغول ثم التتار أرض العراق مقر الخلافة الإسلامية العباسية، حتى توجهوا غرباً لاحتلال الشام، وأيضاً آل زنكي حين أنشأوا إمارتهم في الموصل، توسعوا غرباً وألحقوا بها بلاد الشام، بل وجعلوا عاصمة ملكهم دمشق، ونورد هذه الأمثلة التاريخية، للتدليل على التلازم في العلاقات بين بلاد الشام وجارياتها من الشرق والجنوب مصر والعراق، والتي يتم إعطاء لمحة عن أوضاع هذه المنطقة قبيل بدء العلاقات بين بلاد الشام والعثمانيين، كي تكون الصورة متكاملة أثناء الحديث عن الأحوال العامة لبلاد الشام قبيل الفتح العثماني لها⁽¹⁾.

لقد عانت بلاد الشام من ويلات الحروب والدمار، إثر تعرضها للحملات الصليبية المنظمة، التي بدأت تتعرض لها منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وهي حينذاك تابعة عملياً للخلافة الإسلامية العباسية الضعيفة في بغداد - وأخذت الشام تقاوم الهجمات الصليبية بما هياه الله لها من قادة آل زنكي، الذين كانوا قادة عند السلاجقة، ثم ما لبثوا أن كوّنوا مملكة جديدة في هذه المنطقة مركزها الموصل عام 532هـ/1127م وبعدها وسعوا دائرة نفوذهم، وعملوا على توحيد بلاد الشام تحت إمرتهم، وإثر وفاة عماد الدين زنكي نجح ابنه نور الدين في ذلك، فبسط قوته على بلاد الشام، وأنشأ دولة قوية، جعل مقرها دمشق سنة 549هـ/1154م، وخاض ضد الصليبيين حروباً عنيفة باسم الاسلام، في سبيل الحفاظ على هوية هذه البلاد وحضارتها الإسلامية، أمام الموجات الصليبية الزاحفة نحوها، تحت شعار الصليب، يملؤها الحقد على الشرق الإسلامي وجاءت بحجة تخليص الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين، ولم تتمكن الأمة التغلب على الحملات الصليبية وإخراجها من بلاد الشام في عهد آل زنكي، على الرغم من خوض عماد الدين وابنه نور الدين ملاحم ومعارك عديدة ضد الصليبيين على ثرى الشام، فخلفهم الأيوبيون في حكم بلاد الشام، وحمل راية الجهاد ضد الصليبيين، وكانت المعركة الكبرى على يدي صلاح الدين يوسف بن أيوب، المؤسس الحقيقي

(1) انظر: عن الارتباط التاريخي بين مصر والشام: البدوي، إبراهيم أحمد، قادة التحرير العربي في العصر الحديث، دن، القاهرة، 1958، ص79 .

للسلطنة الأيوبية في بلاد الشام ومصر، وهي معركة حطين⁽¹⁾ سنة 583هـ / 1187م، المعركة الفاصلة التي ألحقت الهزيمة الكبرى بالصلبيين، وطهرت القدس من دنسهم، وطردتهم منها، ومع الانتصار الساحق لصالح الدين، إلا أنه لم يتمكن من إنهاء الوجود الصليبي العسكري بالكامل من بلاد الشام ومصر، فقد بقيت جيوب عسكرية قليلة للصلبيين في بعض الإمارات والقلاع العسكرية، التي كانوا يتحصنون بها في أماكن متفرقة من الشام ومصر، ولم يُقْضَ على تلك الجيوب بالكامل إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، حين سقط حصن عكا آخر معقل للصلبيين في بلاد الشام في يوم 18/ مايو أيار سنة 1291م/ 690هـ على أيدي المماليك البحرية، في عهد السلطان خليل بن قلاوون، الذين خلفوا الأيوبيين في حكم هذه البلاد⁽²⁾.

لم يكد الخطر الصليبي يزول حتى داهم العالم الإسلامي الخطر المغولي من الشرق، فقد خرجت القبائل المغولية من مناطقها (مناطق الصين وحدود تركمانستان ومنغوليا) متجهة نحو الغرب بقيادة زعيمها المشهور جنكيزخان، ودخلت بلاد فارس في سنة 1221م / 617هـ، لكنها انحسرت وتراجعت بوفاة جنكيزخان عام 623هـ / 1227م.

وعاود الخطر يتهدد بلاد الشام مرة أخرى، حين بدأ حفيد جنكيزخان القائد التتري هولاكو زحفه نحو الغرب من جديد، فسيطر على بلاد فارس، وزحف إلى بغداد سنة 656 هـ / 1258م، وقضى على الخلافة العباسية فيها، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، وعاث في الأرض فساداً، قتلاً وذبحاً في المسلمين، وإحراقاً للمدن ولمعالم الحضارة فيها، ولم يسلم من أيدي التتار شيء، أحرقوا المدن الشامية حلب وحماة وحمص ودمشق وعجلون وصيدا، إلى أن وصلوا غزة بين فلسطين ومصر، فاجتمعت العساكر الإسلامية الأيوبية الهاربة من مدن الشام بمصر هرباً من التتار، فلما انتظمت أحوالهم، واستجمعوا قواهم عزم المظفر قطز على قتال التتار، فصفعهم صفعاً عسكرياً ردهم على أدبارهم انتقاماً لكرامة وحرمة هذه الديار

(1) ابن أبي شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1466م) الروضتين في أخبار الدولتين، (النورية والصلاحية)،

رواية يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي، (2ج، 1مج)، نشر: دار الجيل، بيروت، دت، ج2، ص75.

- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين، إسماعيل بن علي بن محمود (ت732هـ/1331م) المختصر في أخبار البشر،

(2ج / 1مج)، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج3، ص71.

ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (ت749هـ / 1349م)، تنمة المختصر في أخبار البشر (2ج)، تحقيق أحمد

رفعت البدرائي، نشر دار المعرفة، طبعة أولى، بيروت، 1970، ج2، ص146.

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت774هـ / 1372م) البداية والنهاية (7مج / 14ج) نشر دار الفكر، بيروت،

1986م، ج12، ص320.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص24- ابن الوردي، تنمة المختصر، ج2، ص336- ابن كثير، البداية والنهاية،

ج13، ص319

المقدسة، وذلك في معركة عين جالوت عام 658هـ/1260م⁽¹⁾، ثم تبعهم الظاهر بيبرس بأمر من قطز حتى أخرجهم من الديار الشامية منهزمين، وبعد هذا الانتصار على التتار امتحاناً ناجحاً للسلطنة المملوكية في أول عهدها، ثم تولى قيادة المماليك الظاهر بيبرس، الذي يعد المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية⁽²⁾، ومع ظهور المماليك في بلاد الشام ومصر، وانقراض الدولة العباسية، ظهرت العناصر السلجوقية ذات المذهب الإسلامي السني في شمالي العراق وآسيا الصغرى وأقاموا مملكة لهم في تلك المناطق وردوا عنها الهجمات البيزنطية من الجهات الشمالية المتاخمة لهم⁽¹⁾.

وقد ظهرت في ظل دولة السلاجقة قبائل تركية تعاونت معها وجاهدت البيزنطيين تحت لوائها، واشتهر من تلك القبائل قبيلة عثمان التي قويت شوكتها في هذه الفترة، مطلع القرن السابع الهجري⁽²⁾، وتخيرات مناطق آسيا الصغرى فأقامت فيها، وبدأت تتوسع نحو الشمال والغرب.

كما برزت في هذه الفترة الدولة الصفوية في بلاد فارس كقوة ناشئة، وهي تنسب إلى صفى الدين الذي توفي سنة 1334م، فخلفه ابنه الشاه اسماعيل الصفوي المؤسس الفعلي للدولة الصفوية، وقد اتخذ من المذهب الشيعي الإثني عشري مذهباً رسمياً لدولته، وتعصب له وعمل على حمايته ونشره في المناطق المجاورة له في الجنوب والغرب باتجاه الأناضول والعراق، فضم بلاد فارس كلها خلال عشر سنوات، وضم العراق إلى دولته الصفوية، وبذلك دخل ميدان الصراع على النفوذ في منطقة الأناضول ضد العثمانيين في الشمال، وضد المماليك في الغرب أمراء بلاد الشام، والصراع على زعامة العالم الإسلامي مع العثمانيين بالذات⁽³⁾، لأن العثمانيين آنذاك كانوا في عنفوان قوتهم، ويعتبرون أنفسهم حماة العالم الإسلامي السني في وجه الغرب من جهة، وفي وجه الشيعة الصفويين من جهة أخرى، بينما اعتبر البعض ذلك صراعاً على مناطق النفوذ في منطقة الشرق الأدنى بما فيها المنطقة العربية في الشام والعراق.⁽⁴⁾

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص205

- ابن الوردي، تنمة المختصر، ج2، ص297

- ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص220

- كرد علي، محمد، خطط الشام (6ج)، نشر مكتبة النوري، طبعة ثالثة، دمشق، 1983، ج2، ص104-109 .

- بيهيم، محمد جميل، الحلقة المفقودة من تاريخ العرب، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، طبعة أولى، مصر،

1950م، ص14 .

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص222-224

- رافق، عبد الكريم، المشرق العربي في العهد العثماني، نشر المطبعة الجديدة، دمشق، 1986م، ص3 .

(1) مؤنس، حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1992/ ص17-19

(2) كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الأول عن أصل العثمانيين ونشأة دولتهم وتوسعها

(3) رافق، المشرق العربي، ص10-11

(4) الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مقترى عليها (4ج)، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984

ج1، ص10، ص18-19

تلك هي الصورة العامة لأوضاع المشرق العربي قبيل الفتح العثماني لبلاد الشام، ولدى الالتفات إلى أوضاع بلاد المغرب العربي في ذلك الحين، نجد أن الأمور تكاد تكون شبيهة بالأوضاع في بلاد الشام وما جاورها، ذلك أنه بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام 897هـ/1492م، بدأت الجيوش الإسبانية تلاحق المسلمين الفارين بدينهم طلباً للنجاة من التنصير والذبح في إسبانيا، إلى الشواطئ والسواحل المغربية في الطرف الآخر من البحر المتوسط، حيث يلتجأ هؤلاء المسلمين إلى إخوانهم في العقيدة سكان أقطار المغرب العربي وأخذت البحرية الإسبانية تنزل الحملات الحربية على البر المغربي مقابل السواحل المغربية والتونسية والجزائرية والليبية، واتخذت هذه الحرب طابعاً سياسياً دينياً صليبيّاً، إذ لم يقنع الإسبان بالقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، بل خطوا خطوة لاحقة بمطاردة المسلمين إلى مهاجرهم الجديد في شمال أفريقيا، ووجدت هذه الحرب مباركة وتأييداً وتشجيعاً من البابا الرابع في الفاتيكان، فاحتل الإسبان عُنَابَة سنة 1463م/868هـ واحتلوا وهران سنة 1509م/915هـ، واحتلوا تونس سنة 1535م/942هـ وفرضوا على الحفصيين حكمها معاهدة مهينة.⁽¹⁾

أما في منطقة الخليج العربي وسواحل البحر الأحمر في اليمن وعدن، فقد كان الغزو الاستعماري الحديث لهذه المناطق، متمثلاً بالبرتغاليين والإسبان، فكان التحرك تجاه بلاد الشام ومنطقة البحر الأحمر والخليج العربي ضرورياً وملحاً لحماية هذه البلاد من الغزو الصليبي الجديد، إضافة لحماية المسلمين في شمال أفريقيا، ومن يهاجرون إليهم من الأندلس، أحد الأسباب الرئيسة في هذه المرحلة التي حدثت بالعثمانيين العمل على التوسع تجاه البلاد العربية، والسعي لفتحها لتحقيق هذه الأهداف، وهذا بالتأكيد انعكس سلبياً على حرسكة العثمانيين في أوروبا الشرقية وتوسعهم هناك، وهو تعليل منطقي يكمن وراءه توقف فتوحاتهم في أوروبا، وتوجههم نحو الشرق الإسلامي العربي لحمايته من الخطر البرتغالي الاستعماري الصليبي⁽²⁾، الذي كان قد استشرى منذ نجاح البرتغاليين في الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح في طريق تجارتهم إلى الهند، وبالتالي سعيهم لانتزاع النشاط التجاري البحري في المحيط الهندي من أيدي العرب المسلمين، ومحاولتهم تطويق الشرق الإسلامي بالاستيلاء على منافذه إلى بحار الشرق، واستولى البرتغاليون لذلك على جزيرة سقطرة التي تتحكم في مضيق باب المندب عند مدخل البحر الأحمر، كما استولوا على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية حتى مسقط، وسيطروا على مضيق هرمز عند مدخل

- خليل، إبراهيم أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، نشر جامعة الموصل، العراق، طبعة أولى، 1989م، ص 21-25، فرومكين، دايفد، سلام ما بعده سلام، ترجمة: أسعد كامل إلياس، نشر: شركة رياض

الريس للنشر، طبعة أولى، لندن، 1992، ص 33-35 .

(1) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 25-32

(2) منسي، محمود صالح، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دن، القاهرة، 1972م، ص 20 .

- جميل، سيار، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، نشر مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ص 38-39

الخليج العربي، كما حاول البرتغاليون بالتعاون مع الحبشة توجيه حملة بحرية ضد الحجاز للاستيلاء على جدة، لكن هذه الحملة فشلت لهبوب ريح بحرية عاتية تسببت في إفشالها⁽¹⁾، على أن البعض يرجع سبب هذه الحملة وغيرها من المحاولات الأخرى في الاقتراب من الحجاز، الى الصراع الأزلي بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، بل إن تكرار ذلك حدا بالصحافة الأوروبية آنذاك إلى نشر أخبار تلك الحملات، والتحريض على استمرارها، وخلق شعور لدى الأوروبيين ضد العالم الإسلامي والمقدسات الإسلامية، ومباركة السياسة الاستعمارية بنزوعها النزعة الدينية في تأكيد العداء من العالم المسيحي للعالم الإسلامي، لدرجة أن أحد الكتاب الفرنسيين دعا إلى إبادة المسلمين، والوصول إلى مكة والمدينة، ونقل رفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى متحف اللوفر بباريس⁽²⁾، ونظراً لأهمية هذه الأماكن المقدسة في الحجاز عند العثمانيين نجدهم يخذون إجراءات وتدابير وقائية، لمحاربة النفوذ البرتغالي والغربي الاستعماري في المحيط الهندي والخليج العربي وأفريقيا الشرقية، وفك الحصار البحري الذي فرضه هؤلاء على العالم العربي والإسلامي، والحيلولة دون وقوع الديار المقدسة الحجازية في أيديهم⁽³⁾.

لقد مرت البلاد العربية في المشرق والمغرب بأوضاع غاية في الخطورة والأهمية، وبلاد الشام كانت على الدوام تعاني كغيرها من هذه الديار الإسلامية من العنت والظلم والجور من العتاة والمستعمرين، وكانت تتعرض لأشرس حملة استعمارية حضارية كادت تفقدها هويتها، بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، وانهيار وضعف دولة المماليك التي تحكمها مع مصر عند بدء الفتح العثماني لها، ويظهر هذا عند اصطدامهم بالعثمانيين وانهزامهم أمامهم، فجاء العثمانيون بمثابة منقذين لهذه البلاد الإسلامية من الخطر الداهم الذي يهددها من الاستعمار الغربي الحديث، الذي بدأت طلائعه منذ ذلك الوقت، وردوا عنها تلك الهجمة الاستعمارية الشرسة، وحفظوا حضارتها وهويتها من الضياع، ولم يكن دخولهم للبلاد العربية استعماراً ولا استعباداً كما تؤكد الدراسات العلمية المنصفة، وهو ما نتبينه في الفصل الأول عن الفتح العثماني لبلاد الشام كخطوة أولى، ثم سائر البلاد العربية خطوة لاحقة، وعن أسباب ذلك الفتح ومبرراته ونتائجه، على أنه المرحلة الأولى في العلاقات العربية العثمانية، التي بدأت من خلاله وتأطرت وتثبتت مع مرور الزمن، ثم

(1) منسي، حركة اليقظة العربية، ص20. وانظر: الطيبي، أمين توفيق، المواجهة العثمانية البرتغالية في القرن السادس عشر، مجلة الاجتهاد، بيروت، السنة(11) العدد (43) صيف عام 1999م، ص167 .

(2) ليفين، زاء، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمه عن الروسية: بشير السباعي، نشر: دار ابن خلدون، طبعة أولى، بيروت، 1978م، ص132-133 .

مصطفى، أحمد، أصول التاريخ العثماني، نشر دار الشرق، طبعة ثانية، بيروت، 1986م، ص86-87 .

(3) طربين، أحمد، التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة أولى، بيروت، 1987م، ص38-39 .

- منسي، حركة اليقظة العربية، ص20

-TOYNBEE, ARNOLD JOSEPH, The Modern World Turkey, Green Wood Press, Publishers, New York 1927. P.292

تتابع أطوارها إلى أن انقطعت وانفصلت في النهاية، وهو ما تبينه الفصول اللاحقة من هذا الكتاب.



الفصل الأول
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
"تأسيس العلاقات"



1- أصل العثمانيين ونسبهم

قبل الحديث عن أصل العثمانيين، ونشأة دولتهم وتطورها حتى بدء العلاقات الإدارية والسياسية بينهم وبين بلاد الشام، لابد من القول إن العثمانيين ظلّوا ظلماً كبيراً، ولم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية، استهدفت التشهير بها والنيل منها، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما الاستعمار الأوروبي والصهيونية العالمية... وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل، أو حقد، تلك الآراء المخطئة والظالمة معاً في مؤلفاتهم، واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية، واقترن ذكرها في أفئدتهم بمظالم ومحن تكسبت على رعاياها من استغلالهم بضرائب تعسفية، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم، ومن تخلف، ومن إجراء مذابح عامة، ومن عزلة فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمرض، وغفل أولئك المتحاملون أو تغافلوا في كثير من الأحيان عن عمد وحقد، عن الخدمات التي أسدتها الدولة العثمانية لولاياتها العربية بوجه خاص، وهي خدمات يجب أن تذكر لها، فالموضوعية تقتضي أن تذكر المزايا التي تؤثر لها، والمآخذ التي تسجل عليها، وليس من الإنصاف إغفال المزايا الحسنة لأية دولة، والاقتصار على إبراز عيوبها، بل التجرد والعدل يقتضيان عرض الجانبين معاً⁽¹⁾.

لقد حارب العثمانيون أوروبا في جبهات عدة، وكانوا منشغلين بتلك الحرب الطاحنة لفترات طويلة، ولما احتل الأوروبيون البلاد العربية، سطروا تاريخ بني عثمان وعلاقة دولتهم بالبلاد العربية حسب آرائهم وتوجهاتهم العدائية الحاقدة على العثمانيين، باعتبارهم خصوماً لهم⁽²⁾ ولما كان العرب في حالة من التردّي والضعف، بعد أن صارت بلادهم فريسة للاستعمار الأوروبي الحديث، تلقف كثير من مفكريهم ما كتبه الأوروبيون عن علاقاتهم بالعثمانيين، خاصة أولئك الذين تربوا على أيدي المستعمرين وفي أحضانهم من أعداء الإسلام، "معتمدين على آراء أسيادهم"⁽³⁾.

إن دراسة التاريخ العثماني بشكل جدي ومتعمق ومنصف تحتاج إيراد وجهات النظر المختلفة في تقويمها لهذا التاريخ وتفسيرها له، إضافة لبيان ما ألحق به من تحريف وتزوير وما حاق به من كذب وافتراء وتحامل عليه، لأن ذلك له كبير الأثر على العلاقات بين العرب والعثمانيين، حيث يعد ذلك إساءةً بالغةً لكلا الطرفين، وسعي متعمد لدى الطرف العربي ليحمل الحقد والبغضاء على العثمانيين وتاريخهم

(1) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص5، 7.
ليلي أحمد، ليلي عبد اللطيف، موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين، نشر: دار الكتاب الجامعي، طبع مطبعة الجبلاني، طبعة أولى، القاهرة، 1987، ص5-6.
(2) مانتران، روبر (مستشرق فرنسي) تاريخ الدولة العثمانية (ج2) ترجمه عن الفرنسية: بشير السباعي، نشر: دار الفكر، طبعة ثالثة، القاهرة، 1993م، ج1، ص11-12- المقدمة.
(1) حسون، علي، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، نشر: المكتب الإسلامي، طبعة ثالثة، بيروت 1983م، ص53.
- النمر، إحسان، نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني، د.ن، د.ت، ص15-16.

المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإسلام والحضارة الإسلامية ولأن تلك الفترة التاريخية من نتاج الحضارة الإسلامية، وجزء مهم جداً من التاريخ الإسلامي، حرص فيه طرف مسلم، وهم العثمانيون على إضافة لبناتٍ مرصعةٍ بالمجد والضياء، إلى صرح تلك الحضارة المشرقة التي شيدها الراشدون والأمويون والعباسيون ومن تلاهم من الأيوبيين والمماليك، وهذا يعني بالتالي الإساءة الواضحة والمقصود للحضارة الإسلامية التي طالما ربط العثمانيون المسلمون جهادهم عبر قرون بها، ليكونوا السد المنيع خلال تلك القرون أمام الغزو الاستعماري لوطنا العربي الإسلامي، فقد ورثنا إياه أجدادنا موحداً متماسكاً عزيزاً، بذلوا وضحوا حتى صانوه وحفظوه، ومنعوا الغرب الأوروبي الصليبي من أن يهناً باستعمارهم والسيطرة عليه، والبقاء في ربوعه، والتمتع بثرواته وخبراته، ولهذا يرى الباحث أن العثمانيين لم يكونوا محتلين للوطن العربي، وليسوا استعماريين، ولا أعداءً للعرب، بل إخوة لهم في العقيدة والدين والتاريخ المشترك، ومن يعتقد غير ذلك هو أحد اثنين: إما جاهل بحقائق التاريخ ونواميس الكون وسنن الله في خلقه، وقد يعذر لنقاء سريرته، إن كانت نظرته خالية من التحامل، وإما حاقد على العثمانيين، لأن تاريخهم مرتبط بالإسلام، ويتفق في توجهه مع التيار الذي سعى لقطع كل الأواصر والروابط والأوردة والشرابين التي سقت الجسد الإسلامي العثماني، حين ضم العنصرين العربي والتركي برباط الإسلام لقرون عديدة، دون ظهور أية نزعات يشم منها التفرقة المنتنة بينهما، وعمل ذلك التيار بعد رعايته لعقود عديدة من أعداء الأمة الإسلامية من اليهود والانكليز، وبتخطيط منظم ودقيق ومحكم غاية الأحكام حتى وصلوا إلى ما يريدون، كما سيأتي في الفصول القادمة من هذه الدراسة.

تأتي تسمية العثمانيين نسبةً إلى جدهم عثمان خان بن أرطغرل، وهذا موضع اتفاق بين المؤرخين، لكن الاختلاف ناشئ عن أصلهم ونسبهم قبل عثمان، فهناك نظريات عدة حول ذلك، أحدها ترجع قبائلهم في أصولها قبل جدهم الأكبر سليمان شاه إلى يافث من أولاد نوح (عليه السلام)، وأن جدهم عثمان هو من نسل عثمان بن عفان، إذ كان لسليمان شاه أربعة أولاد، توجه اثنان منهم إلى بلاد العجم، وهما سُفُر وندندار، وتوجه اثنان إلى بلاد الروم هما أرطغرل وكون وغدي، وقدموا على السلطان علاء الدين السلجوقي، وكان سلطان بلاد قرمان، فأكرمهما وأذن لهما بالإقامة في أرضه⁽¹⁾، بينما تشير رواية أخرى إلى أنهم ينحدرون من سلالة عَيْص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وتورد تسلسل نسبهم بين إبراهيم الخليل وبين جدهم سليمان شاه، وينتظم في شجرة النسب هذه ثلاثة

(1) ابن أبي السرور، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي (ت بعد 1071هـ/1661م) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، نشر: دار البشائر، طبعة أولى، دمشق، 1995م، ص8-14 - دحلان، أحمد بن زيني (ت1304هـ/1886م)، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام (ا ج)، طبع نظارة المعارف، نشر المكتبة الحقبانية/ استانبول، 1986م، ص109-110 .
أورخان، محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عصره، نشر: دار الأنبار، الطبعة الأولى، الرمادي، العراق، 1987

وأربعون جداً، وقد اكتسبوا صفة غازي بدءاً من سليمان شاه، إلى أن أطلق على سليم الأول خليفة غازي⁽²⁾، وأياً كان نسب العثمانيين قبل جدهم سليمان شاه، فإن بداية ظهورهم كان قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري، حين صار للترك وجود مكثف في منطقة الأناضول الإسلامي أكثر منه من بلاد فارس وأذربيجان، عندها نشأت إمارات تركية عدة تحت حكم السلاجقة ضمن مناطق نفوذهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، لكن الدولة العثمانية قُدِّر لها أن تستمر وتتوسع بعد انقراض تلك الدويلات التركية، وأن تصبح امبراطورية مترامية الأطراف فيما بعد، وأن تكون أطول دول الترك عمراً، وأن تتولى قيادة العالم الإسلامي نحواً من خمسمائة عام⁽¹⁾، إذ عَمَّرَت 623 عاماً من 1299م حتى 1922م، وأن أرطغرل الملقب بـ أوج بك أي محافظ الحدود، جاء على رأس قبيلته فاستقروا في آسيا الصغرى في منطقة سوكون SOEGOD شمال غرب الأناضول، تحت رعاية الأمير السلجوقي علاء الدين كيقباز الأول سلطان بلاد كرمان⁽²⁾، فارين أمام زحف جنكيزخان القائد المغولي الذي اجتاحت تلك المنطقة في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث أكرمهم علاء الدين، وسمح لهم بالاقامة في أرضه، فأستأذنه لجهاد الكفار، فأذن لهم، وأظهروا شجاعة وكفاءة قتالية عالية، فمنحهم تلك الأراضي ليدافعوا عن حدود سلطنته ضد الدولة البيزنطية المجاورة لدولته⁽³⁾ ومع إيراد كوبرلي لهذه النظرية عن المؤرخ الانكليزي جيبونز GIBBONS لكنه لا يؤيدها⁽⁴⁾، ويأتي بنظريات أخرى، منها نظرية جيزة، GIESE أحد المؤرخين الألمان المتخصصين في الدراسات التركية، والتي تقول إن طائفة الأخيان في الأناضول، لعبت الدور الأهم في تأسيس الدولة العثمانية، ويرد فيها روايتان على شكل أساطير، مأخوذتان من الحوليات العثمانية القديمة،

- (2) سالنامه، سالنامه ولاية حلب (باللغة العثمانية) مطبعة مدينة حلب، طبعة أولى، حلب، 1318هـ / 1900م، ص45-46 .
 زمبارو، إدوارد فون، (مستشرق نمساوي ت1949م) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمه إلى العربية زكي محمد حسين، نشر دار الرائد العربي، بيروت، 1980م، ص239 .
 - صالح، الطورانيه التركية، ص 11-12
 (1) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية (ج5)، ج3، تاريخ الأتراك وحضارتهم، ترجمه عن الألمانية نبيه فارس ومنير البعلبكي، نشر: دار العلم للملايين، طبعة ثالثة، بيروت، 1961م، ج3، ص5 .
 - وانظر: مجلة الهلال، السنة الأولى/1892م، عدد سبتمبر أيلول، 10 صفر 1310هـ، ص3، العثمانيون والسلطان عثمان الغازي مؤسس الدولة العلية العثمانية .
 (2) بلاد كُرْمَان: ولاية مشهورة بين فارس وسجستان وخراسان، وهي بلاد كثيرة النخل والزروع والمواشي تشبه البصرة في كثرة الثمر وسعة الخيرات، وأهلها أهل سنة وجماعة، وقد كانت أيام الدولة السلجوقية من أعمار البلدان، وكرمان أيضاً مدينة بين غزنة وبلولادوبلااد الهند.
 ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ / 1228م) معجم البلدان (ج5) دار صادر ودار بيروت، بيروت 1957، ج4، ص45.
 (3) كوبرلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمه عن التركية أحمد السعيد سليمان، نشر دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م، المقدمة، ص9
 - سرهنك، إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار (ج3)، نشر وطبع المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، (1312هـ/1894م)، ج1، ص482-486 . وانظر: ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص14، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص33-35
 (4) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص13-23

وفيها محاولة لدعم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بأسيا الصغرى بتدخل إلهي⁽¹⁾.

أما الرواية الأولى فمفادها أن الأمير عثمان كان يتردد إلى منزل أحد العلماء المسلمين، تسميه المصادر التركية أنه بالي⁽²⁾، والعربية: أدب عالي⁽³⁾، ولعل الاختلاف عائد إلى اللهجة وطريقة اللفظ عند العرب والأتراك لأن الكلمة واحدة، وأن هذا العالم المسلم كان مقيماً في قرية مجاورة لمدينة أسكي شهر⁽⁴⁾، وأن عثمان رأى ابنة هذا العالم واسمها "مال خاتون" أكثر من مرة فأعجب بها، ثم خطبها من أبيها فرفض أن يزوجه إياها، وبقي عثمان يتردد على منزل أستاذه الفقيه أدب عالي ويزوره باستمرار، ومرة في إحدى زيارته، غفا عثمان إغفاءة، رأى في المنام القمر ينبثق هلالاً من صدر هذا الفقيه، ثم ينمو ويكبر حتى أكتمل بدرًا، وعندئذ توارى في ظهره، ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال، امتدت أغصانها في جميع الأرجاء حتى غطت مناطق واسعة، ثم انسابت المياه من جذور هذه الشجرة في أنهار دجلة والفرات والنيل والدانوب، وبعدها هبت ريح قوية، حولت أوراق الشجرة إلى نصل سيف بارز، كان في مقبضه خاتم مرصع بالياقوت والزمرد، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما أستيظ من إغفائه، ولما قص على مضيفه هذه الرؤيا - وكان عالماً بتأويل الأحلام - بشره بأن أسرة آل عثمان ستحكم العالم.

ووافق على أن يزوجه ابنته⁽⁵⁾ وبهذا اعتنق الأمير عثمان جد العثمانيين ومؤسس دولتهم الدين الإسلامي، وتبعه الأتراك العثمانيون، وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية، أو من عقائد أخرى إلى الإسلام⁽⁶⁾.

أما الرواية الثانية فنقول: إن أرطغرل - والد عثمان - قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين، وقبل أن يأوي إلى فراشه، جاء الزاهد بكتاب ووضعه على الرف، فسأله عثمان عن هذا الكتاب؟ فأجابه: بأنه القرآن الكريم، واستفسر منه عن محتواه، فقال له صاحب الدار: إنه كلام الله، أنزله للناس على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، وحمل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه واقفاً حتى الصباح، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكاً يبشره بأنه

(1) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص14

(2) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص23

(3) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص36

(4) أسكي شهر، يرد اسم هذه المدينة مكتوباً بكلمة واحدة: أسكيشهر، وأسكي معناها في اللغة التركية: قديم، وتدخل هذه الكلمة في أسماء الأماكن، فيقال أكس شهر بمعنى المدينة القديمة، وأسكي شهر تقع في الجزء الغربي من إقليم الأناضول الأوسط على نهر يورصوق، وهو فرع من نهر سقاريا، وتمتعت هذه المدينة بشهرة واسعة عبر عصور التاريخ.

المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص116

الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص35

(5) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص13-14، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص35

(6) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص36

وذريته سيعلو قَدْرُهم جيلاً بعد جيل على مدى القرون والدهور لقاء احترامه القرآن⁽¹⁾، ومهما يكن من أمر، فلا ترتقي هذه الروايات عن أن تكون روايات أسطورية، لا يُبنى عليها حدث تاريخي كبير ارتبط بدولة من أكبر دول العالم، وغيرت مجرى الأحداث التاريخية، لقرون عديدة، وما زالت تؤثر في صنع أحداث التاريخ إلى يومنا هذا، ويرى الشناوي أن صلات العثمانيين الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية سنية - كانت عاملاً مهماً على اعتناقهم الدين الإسلامي بسهولة ويسر، وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان.

وسار عثمان في إرادته لدولته ومن جاء بعده على هدي الإسلام، وكانوا متحمسين لعقيدتهم الإسلامية، وكانوا يحكمون دولتهم وفق نظام الشورى، بمجلس شورى من العلماء والفقهاء والمختصين⁽²⁾.

وفي رواية أخرى أن شجرة آل عثمان تبتدأ من قايه آل والد كوندز آل ب (سليمان شاه)، وأن هذه الأسرة كانت تنزعم عشيرة قايي الأكثر أصالة من جميع العشائر الأربع والعشرين من أترك أو غوز⁽³⁾ ويتفق كوبرلي مع هذا الاتجاه، إذ يقول: تجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذي أنجب أسرة عثمان، والذي يعتبر بالضرورة النواة الأولى للدولة العثمانية، عنصر غزي أو تركماني، لا يفترق في ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة، أما ما ذهب إليه بعض المؤرخين المعاصرين من أن العثمانيين ينتمون إلى بطن آخر من بطون الترك يقال له قانكلي، فرأي لا أساس له، وقد سكنت بعض المصادر، فلم تذكر إلى أي قبيلة من قبائل الغز ينتمي العثمانيون، لكن مصادر أخرى صرحت بانتفاء العثمانيين إلى قبيلة من قبائل الغز هي قايي، ومن هذه المصادر سلجوقنامه، الذي كتبه يازيجي أوغلي في عهد السلطان مراد الثاني، والواقع أن انتفاءهم إلى الغز لا يتناقض مطلقاً مع انتفاءهم إلى قبيلة قايي⁽¹⁾، يتبين من الروايات السابقة عن أصل العثمانيين ونسبهم واعتناقهم الإسلام، أن هؤلاء القوم من أصول تركية، من قبائل عدة عاشت في ظل السلاجقة الأتراك⁽²⁾، ذوي العقيدة الإسلامية الصحيحة على مذهب أهل لسنة، وأنهم اعتنقوا الإسلام عن طريقهم، ثم حملوا هذا الدين عقيدةً وجهاداً بعد تأسيس دولتهم، يفتحون به

(1) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص23

(2) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص37-38، مجلة الهلال، عدد (1) سنة أولى، ص3

(3) أوغلو، عبد القادر ده ده، السلاطين العثمانيون، ترجمه عن التركية: محمد جان، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع، طبعة أولى، تونس، 1990م، ص13، 6 .
وانظر: شرف، عبد الرحمن، تاريخ الدولة العثمانية (2ج) باللغة العثمانية، طبع نظارة المعارف، طبعة ثانية، استنبول 1315هـ 1897م، ج1، ص5
- وانظر:

KONYA BUYUKSEHIR BELEDİYESİ YAYIN ORGANİDİR, Yıl: 4 SAYI: 24
MART, NİSAN, 1999.P.6

(1) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص118-199، خليل، تاريخ الوطن العربي، ص14-20- سرنك، حقائق الأخبار، ج1، ص482، 486-488

(2) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص145، 121

البلاد وينشرونه، وأنهم كانوا سبباً ووسيلة لنشر الإسلام ونقله وإيصاله إلى بلدان ومناطق جديدة فتحوها ووسعوا دولتهم بضمها إليهم⁽³⁾ وكان الإسلام أيضاً سبباً لإعزازهم وقوتهم، لأن الله أدان لهم البلاد وفتحها لهم، لأنهم حملوا دينه ودعوته إلى العالمين ينشرونها ويعملون لإعلاء كلمة الله، وإيصالها إلى شعوب وأمم لم تعرف الإسلام من قبل، فاعتنقته عن طريقهم.

2- نشأة وتوسع الدولة العثمانية حتى عهد سليم الأول:

يعد عثمان بحق مؤسس الدولة العثمانية، حيث أخذت إمارة بني عثمان في عهده شكل دولة، بعد أن وطد والده أرطغرل حكم عشيرته على الأراضي التي وكل إليه أن يحكمها، فعمل عثمان بعد ذلك على توسيع رقعة إمارته، ووضع النظم الإدارية لها، ثم أعلن استقلالها عن دولة السلاجقة بعد أن كانت تابعة لها، إثر هجوم المغول على الدولة السلجوقية سنة 1300م وقضائهم عليها⁽⁴⁾ فاستولى نتيجة لذلك على قلعتي أسكي شهر وقره حصار⁽²⁾، وبنى مسجداً في يكي شهر⁽³⁾، وعين الموظفين لإقامة شعائر الإسلام وتطبيق الشريعة، وجعل عاصمته أسكي شهر، ولقب نفسه باديشاه آل عثمان، وبالتدريج اقترب من نيقية وبروسه، ثم فتح حصن بروسه عام 1326م (BROUSSE)، وفتح ابنه أورخان سوكورد، وتوفي عثمان بعد ذلك وعمره سبعون عاماً، ودفن في بروسه العاصمة الجديدة للدولة الناشئة، وتحولت الإمارة في هذا الوقت إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود وسكان وجيش نظامي وإدارة تشرف على شؤون الحكم⁽⁴⁾، تناوب على عرش السلطنة العثمانية منذ عهد مؤسسها الأول أرطغرل، إلى حين ابتداء المرحلة لثانية من عمرها إن جاز التعبير، وهي مرحلة توسعها جنوباً باتجاه بلاد الشام، ومن ثم تغلغلها إلى سائر البلدان العربية، ثمانيّة من السلاطين هم أرطغرل، عثمان، أورخان، مراد الأول، بايزيد الأول (يلدرم، يعني الصاعقة)، محمد الأول (جلبي)، مراد الثاني، محمد (الفتاح)، بايزيد الثاني (الولي)، وتولى السلطنة بعده ابنه سليم الأول (ياووز) بمعنى: القاطع، أول من اتخذ لقب سلطان خليفة⁽⁵⁾.

(3) ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص5

(1) ليلي أحمد، الدولة العثمانية، ص118، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص39-40

- نامق كمال بك، عهد الفتح، ترجمه عن التركية: عبد العزيز الخانجي، نشر: مطبعة محمود توفيق، دت، ص26

- المحامي، الدولة العلية، ص116-118

(2) يوجد عدة أماكن في تركيا باسم قره حصار، أي القلعة السوداء، ويقصد بها هنا: بلدة أفيون قره حصار القريبة من قونية. المحامي، الدولة العلية، ص118

(3) يكي شهر، تلفظ الكاف هنا نوناً، فتصبح بني شهر، ومعناها: البلد الحديث، وتكتب باللغة التركية Yehisehir، وتقع إلى الشمال من بورصة.

انظر: المحامي، الدولة العلية، ص118، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص8

(4) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص15-16، شرف، تاريخ الدولة العثمانية/ ج1، ص5 مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص36-38.

- أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص13، سالنامه حلب، ص46

(5) المحامي، الدولة العلية، ص113-118، 179، 160، 153، 149، 137، 129

وكان يطلق على أمراء العثمانيين وقادتهم قبل اعتناقهم الإسلام لقب/ ألب، بمعنى: البطل، أو المحارب، لذلك كان جدهم الأول قاية ألب، والد كوندز ألب (سليمان شاه) وجد أرطغرل، يشار إليه بهذه الصفة "ألب"، أما بعد اعتناقهم الإسلام، فقد اتخذوا لقب غازي، كلقب ديني يطلق من باب التشريف على المجاهدين الدعاة للإسلام، الذين يجاهدون الكفار لنشر الإسلام، وأطلق لقب غازي طوراً بمفرده، وطوراً مقروناً باللقب الأول ألب⁽¹⁾، كما أطلق على المؤسسين الثلاثة الأوائل من العثمانيين وهم أرطغرل وعثمان وأورخان، لقب بكوات، وأطلق على من جاءوا بعدهم سلاطين، وولي الدولة العثمانية طوال مدتها التي استغرقت ستمائة وثلاثة وعشرين عاماً، من 1299م/ حتى 1922م، أربعون حاكماً، وكان اللقب سلطان مستعملاً اقترن بسلاطينها، فأطلق أول ما أطلق على مراد الأول بن أورخان، حتى آخر السلاطين عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز 1922م⁽²⁾.

سلك أورخان مسلك أبيه في توطيد أركان الدولة، وكانت همته منصرفة إلى توسيع رقعة دولته الإسلامية، كما أن سليمان شاه، وهو ولي العهد حينذاك، قد بدأ فتوحاته في الروملي⁽³⁾ بمعاونة الصدر الأعظم خير الدين باشا، وبهذا تقوت أسس الدولة عما كانت عليه، وفي هذه الفترة لجأ أورخان إلى وسيلة جديدة تكفل له زيادة جيشه، وتوفير أعداد كثيرة من المقاتلين ذات ولاء شديد للدولة، وهي الدوشرمة⁽⁴⁾، وكان أورخان متمسكاً بأحكام الإسلام، لذا اندفع في فتوحاته ينشر الإسلام في اتجاه أوروبا، واتخذ لجيشه رايةً كانت شعار العثمانيين في حروبهم ومعاركهم، ثم تحولت إلى رمز دولتهم وعلمها، وهي عبارة عن قطعة قماش أحمر، في وسطها هلال، وتحت الهلال صورة سيف، أطلقوا عليه ذا الفقار تيمناً بسيف الرسول صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾. ومن أبرز أعمال أورخان نقل مقر حكومته إلى بورصة لحسن موقعها ثم فتح

- زمبارو، معجم الأنساب، ص 239-240، أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص 33-49

(1) كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص 147، أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص 6

- ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 14

- لويس، استنبول، ص 45-46.

(2) كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، المقدمة.

(3) الروملي: اسم أطلقه العثمانيون على المناطق التي افتتحوها من قارة أوروبا. انظر: نامق، عهد الفتح، ص 29

(4) الدوشرمة: استندت إلى الإنكشارية، وهي كلمة تركية مركبة من جزئين يني شاري، بمعنى الجند الجديد، حيث كانت أساس الإنكشارية، والدوشرمة نظام قام على أساس التجنيد الدوري للفتية الذكور من رعايا السلطنة العثمانية المسيحيين الأرثوذكس، حيث تقوم الدولة بجمع أعداد هائلة من أطفال البلاد المسيحية التي يفتحنها في أوروبا، وهم الأطفال الذين يشردون بعد الحروب ويبقون بلا أبوين وبلا معيل لهم، ويدخلونهم الإسلام، ثم يدرّبونهم على أساليب الحرب والقتال، وكانت تُنتقى منهم نسبة كبيرة من موظفي الدولة، ويرى أن الإنكشارية الذين شكل أورخان جيشه الجديد منهم عام 1327م، نالوا التشجيع من العالم الصوفي جاجي بكتاش، الذي اشتهر بورعه، حين توجه بكوكبة منهم السلطان أورخان إلى بكتاش وعرضهم عليه، فدعا لهم هذا العالم الصوفي النقي بأن يجعل وجوههم بيضاء وضياء، وأن تكون سيوفهم بتارة في كل معركة يخوضونها لنصرة الإسلام، انظر: الحصري، البلاد العربية ص 16-17، المحامي مصطفى، تاريخ الدولة العثمانية، ص 123 ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 17-19

(1) ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 19

ويركز الشناوي على إسلامية الدولة العثمانية، ويذكر أنها "دولة غلب عليها الطابع الإسلامي وتميزت به، واتسمت به تشريعاتها وممارساتها في نظام الحكم والإدارة، وكان للهيئة الإسلامية في الدولة مركز مرموق، يطلق على رئيسها المفتي أو مفتي إستانبول، ثم أطلق عليه فيما بعد: شيخ الإسلام، وكانت الهيئات القضائية والدوائر ذات

الطابع والنشاط الديني تخضع لسلطاته، وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته، ويعملون على الرجوع إليها كلما أقدموا على مشروع خطير، وكان المفتي يصدر فتوى تجيز الحروب وعقد الصلح، وكانت الدولة تهتم عبر تاريخها الطويل بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة، وكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية في معظم المعارك الضارية التي خاضتها ضد الأوربيين، إذ كانت الدولة العثمانية تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام، وسار خلف القوات العثمانية القضاة والمفتون، ومن يختص بهذا الشأن من رجال الهيئة الإسلامية الحاكمة، ويسير في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر، ويعمل الجميع على غرس بذور الإسلام في الأقاليم المفتوحة، مما ساعد على نشر الإسلام في أوروبا، وبذلك اقترنت حركة الفتوح بالدعوى إلى الإسلام ونشره، كما غدت المدن التي اتخذها العثمانيون عواصم تباعاً وهي قونية، بروسة - أدرنة، استنبول، مدناً إسلامية، وأقام السلاطين العثمانيون وأفراد الأسرة العثمانية المساجد والمعاهد والمدارس التي تدرس علوم الشريعة، وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للأنفاق من ريعها على تلك المؤسسات الدينية وكانت الدولة العثمانية تؤكد عملياً في شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً كاملاً بالإسلام، فنجد القانون (قانون نامه) الذي أصدره سليمان المشرع (القانوني) توج بعبارة: القانون نامه السلطاني الذي يتفق مع الشريعة الإسلامية، كما أن اهتمام الدولة بتنظيم الحج إلى الحجاز وإشرافها عليه فعلياً، على اعتباره الركن الخامس للإسلام، وأن واجب ولي الأمير تيسير الحج أمام الراغبين بأداء هذه الفريضة، وكانت الدولة تعتني بطريق الحج الطويلة المؤدية إلى الحج، وتشير أربع قوافل رئيسية من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة، وفق نظام رتيب، ويرافق القوافل قوات عسكرية يقودها أحد كبار العسكريين يسمى سردار الحج، وهذه القوافل هي قافلة الحج الشامي لحجاج الشام وكردستان والجزيرة الفراتية، وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وحجاج استنبول، وكان عدد حجاج قافلة الشام يتراوح كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً.

والقافلة الثانية تضم حجاج مصر وشمال إفريقيا والثالثة لحجاج العراق وفارس، أما الرابعة فلحجاج اليمن وماليزيا وأندونسيا وغيرها.

ولضمان سلامة الحجاج وراحتهم، أقامت الدولة العثمانية على طول طرق الحج الخانات (الفنادق)، والحصون في البادية لحراسة الآبار، والمخافر لأجل الأمن والحراسة.

فالأهمية الاستراتيجية لفريضة الحج غير غائبة عن تفكير السلاطين العثمانيين، لا سيما وأنهم كما وصفهم دحلان، أنهم من أحسن الحكام المسلمين، وأن دولتهم من أحسن الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين، لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة، صديقو العقيدة، ناصرون لأهل السنة، قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء الصالحين، وليس عندهم شيء من الزيغ والإبتداع... قائمون بشعائر الإسلام، لا سيما في الحرمين الشريفين، فإن لهم فيها الصدقات والخيرات الكثيرة، وقائمون أيضاً بشعائر الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار " ولأهمية الحج الدينية اعتنى السلاطين والخلفاء العثمانيون به =

= بشكل خاص كقوة من قوى التلاحم الداخلي للصف الإسلامي، وكعامل من عوامل التقارب بين أقاليم الوطن العربي المختلفة، وبين الدولة العثمانية، فكان الحج يؤدي هذه الوظيفة المزدوجة، والحج يسمح للعثمانيين بأن يؤكدوا دورهم كل سنة باعتبارهم القوة الإسلامية الرئيسية في العالم الإسلامي بالحفاظ على لقب خادم الحرمين.

وفي اتجاه آخر شجعت الدولة العثمانية التصوف بين العثمانيين، وتركت لمشايخ الصوفية حرية واسعة في إقامة الزوايا وحلق الذكر، وانتشرت الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً في معظم أقاليم الدولة، ومدت يد العون للطرق الصوفية التي تنشر الإسلام عن علم ودراية ودراية، ومن أشهر الطرق الصوفية: النقشبندية والمولوية والبكتاشية والرفاعية.

وكان شهر رمضان دليلاً آخر يقوي الاتجاه القائل بإسلامية الدولة العثمانية، وفيه تحرص السلطات على مراعاة أحكام الصيام، وعدم السماح لأحد بانتهاك حرمة شهر الصوم لذلك لم يكن بجروء أحد، مهما كان مركزه سواء كان مسلماً أو غير مسلم على الإفطار في أثناء النهار، طوال نهار الصوم، ومن يفعل ذلك يخضع لعقوبات مقررّة من الدولة ويعرفها الناس = بحياتهم اليومية، ومن مآثرهم أيضاً التي شهد لهم التاريخ بها في خدمتهم للإسلام، تباري السلاطين العثمانيون في عمارة المساجد، فبعد أن كانت استنبول عاصمة للفن البيزنطي، أصبحت غابة من نور، بأسقامتها من المنائر الشاهقة المتناسقة، تشع على الأفق ضياء الإسلام، ويذكر التاريخ أن أبرز سلاطين آل عثمان استعظم على نفسه أن يلقب بحامي الحرمين الشريفين، فاتخذ بدلاً منه خادم الحرمين الشريفين، كما سيأتي لاحقاً في هذا الفصل.

انظر: دحلان، أمراء البيت الحرام، ج2، ص109، مانتران، تاريخ الدولة العثمانية ج1، ص561-563
- العجلوني، محمد، ذكرياتي عن الثورة العربية، نشر: مكتب الحرية، طباعة مطبعة دير الروم، عمان، دت، ص16-17 .

- الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص10-11، ص54-66، ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص14
- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص24 الصفصافي، الدولة العثمانية، ص324-327

ما تبقى من آسيا الصغرى قبل أزميد وأزنيك وإمارة قره سي الواقعة غرب الأناضول، ثم اتجه لتنظيم شؤون دولته، وسن التشريعات والنظم اللازمة لاستتباب الأمن، وفتح المدارس وبناء المساجد، ومن آثاره أنه أسس مدرسة عالية في بورصة، وأخرى في مدينة أزنيك⁽¹⁾ وقضى عشرين سنة في صقل النظم المدنية والعسكرية للدولة⁽²⁾.

توفي أورخان سنة 761هـ/1360م، وتولى السلطنة ابنه مراد الأول، فوسع أرجاء الدولة باحتلال أنقرة، وفي عهده صارت الدولة العثمانية في مصاف الدول الكبرى في ذلك العصر⁽¹⁾ ففتح أدرنة سنة 1361م، ثم تحولت مقدونيا وتراقيا، وألروملي.

- كما تسمى حديثاً - إلى أراضي عثمانية بعد فتحه لها، وفتح بلغاريا سنة 1388م⁽²⁾، وقد اغتاله أحد الصرب، بعد معركة عنيفة معهم، طعنه بخنجر وهو يستعرض قتلى المعركة، فكانت وفاته في 15 شعبان 791هـ/1388م، استشهداً في معارك التوحيد ضد أهل التثليث من الصرب والمجر والبلغار⁽³⁾ وتابع ولده بايزيد الأول فتوحاته في أوروبا حيث أخضع ما تبقى من بلاد البلغار ثم مقدونيا، وشدد الحصار على القسطنطينية فلم يتمكن، وعقد صلحاً مع ملكها بشرط دفع عشرة آلاف ليرة ذهباً من عملة وقتها، على أن يجيزوا للمسلمين بناء جامع فيها لإقامة شعائر الدين الحنيف، وفي هذه الأثناء أغار تيمورلنك على بلاد آسيا الصغرى، فتصدى له السلطان بايزيد وتقاتلا قتالاً عنيفاً في سهول أنقرة، وسقط السلطان بايزيد في أيدي المغول أسيراً، وأسر معه ابنه موسى، وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى، ولم يعرف مصير ابنه مصطفى، وتوفي السلطان بايزيد في القفص الحديدي المسجون فيه في 15 شعبان 805هـ/1403م، وتجزأت الدولة العثمانية من جديد إلى إمارات بعد وفاة السلطان بايزيد، حيث استقل الصرب والبلغار وأقاليم أخرى عن الدولة، واختلف أولاده فيما بينهم، ولم يتفقوا على تنصيب أي منهم على السلطنة، ثم انفرد محمد الأول (جلبي) بالسلطنة، بعد أن دارت حروب عدة بينه وبين إخوته، تغلب عليهم فيها، واعتبر بهذا المؤسس الثاني للدولة العثمانية بعد الخطر الذي لازمها أثناء اقتتال

- عائشة أوغلي، عائشة عثمان، مذكراتي (والدي السلطان عبد الحميد)، ترجمه عن اللغة العثمانية صالح سعداوي، نشر: دار البشير، طبعة أولى، عمان، 1991م .

- جارشلي، أمراء مكة، ص16، النمر، نظرات ص17-248، 18-249

- زين، زين نور الدين، نشوء القومية العربية، نشر دار النهار، طبعة ثامنة بيروت، 1972، ص20-29

- العظم، خالد، المذكرات (3ج) نشر الدار المتحدة، طبعة أولى، بيروت، 1972م ج1، ص11-19، 13 .

(1) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص30-32، المحامي، الدولة العلية، ص123-124

(2) مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص46

(1) نامق، عهد الفتح، ص30-31

- كفاوار، جمال، تكون الدولة العثمانية، ترجمة: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، بيروت، السنة (11)، العددان (41،42)، شتاء

وربيع عام 1999م، ص57 .

(2) مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص48-49

(3) نامق، عهد الفتح، ص31

الاخوة على الملك، لانشغاله في سني حكمه في حروب داخلية لإعادة الأراضي والمناطق التي خسرتها الدولة بعد وفاة والده، وبتوحيده لأراضي السلطنة ثانية فاجأه الموت في سنة 824هـ/1421⁽¹⁾ فتولى مقاليد الحكم ابنه السلطان مراد الثاني في سنة 842هـ/1421م، "الذي قرن إلى مهمة الحاكم قناعة الحكيم وبطل السيف في بداية الجهاد، لنشر أحكام القرآن الجليل في بلاد اليونان"⁽²⁾ وفتح بعض المناطق في أوربا الشرقية كبلاد الصرب ومناطق من أراضي النمسا وسالونيك من اليونان ثم تنازل عن الحكم لابنه محمد الثاني (الفاتح)، ثم عاد لإدارة الدولة ومحاربة الأعداء الذين طمعوا بتولي السلطان محمد الصغير السن وبعد حروب عديدة وقبل أن يكمل ما بدأه توفي في سنة 855هـ/1451، فعاد ابنه محمد الثاني وتولى مقاليد السلطنة، ونقل جثمان والده إلى مدينة بورصة ودفنه فيها⁽³⁾.

وجاء الفاتح محمد الثاني إلى إدارة السلطنة العثمانية والدولة ثابتة الأركان واسعة الأرجاء، لكنها لم تفتح القسطنطينية، فكان فتحها على يديه كما مر معنا في هذا الفصل، ويعد الفاتح بحق من أعظم سلاطين بني عثمان، وعلى الرغم من المواقف العظيمة والجهود المضنية التي بذلها أجداده في تدعيم ركائز الدولة العثمانية، لكنه جعل لها موقعاً جديداً إلى نهاية التاريخ البشري في افتتاحه القسطنطينية، وكان في ريعان الشباب حين فتحها عمره لا يتجاوز العام الحادي والعشرين، كان شديد التدين، ختم القرآن في مدة قصيرة على يد المولى الكوراني أحمد بن إسماعيل، وكان يتكلم التركية والعربية والفارسية والروسية واللاتينية، وجعل من القسطنطينية عاصمة جديدة للدولة، وجعل لها اسماً جديداً هو استانبول، أي مدينة الإسلام، وصارت بعد فتحها بمثابة جامعة يهرع إليها طلاب العلم من كل ناحية⁽⁴⁾ ويشهد له أحد العثمانيين ممن كتبوا عن تاريخهم من منطلق شيوعي علماني لا ديني، وكما يقال: والفضل ما شهدت به الأعداء، يقول عنه⁽⁵⁾: "كان شديد الإيمان بالإسلام، فهو يعنف الكفر في إحدى رسائله حيث يقول: لن أغمض عيني للنوم، ولن أتذوق نعم الدنيا، ولن أبحث عن الملذات، حتى أدوس أصنام عبدة الأصنام والآلهة المزيفة التي يصنعها المسيحيون من الأشجار والنحاس والفضة والذهب والأصباغ، بحوافر حصاني إلى أن تذوب تحتها، وحتى أزيل ظلم أولئك من سائر بقاع الأرض، من الشرق إلى الغرب، في سبيل رفعة كلمة وشأن الرب الحقيقي والنبى العظيم محمد".

(1) المحامي، الدولة العلية، ص137-152

(2) نامق، عهد الفتح، ص36

(3) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص36

- سر هنك، حقائق الأخبار، ج1، ص506، المحامي، الدولة العلية، ص153-159

(4) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص38-55، نامق، عهد الفتح، ص37-43

- اورخاني، السلطان عبد الحميد الثاني، ص20

الزین، عدنان ساري، الثورة العربية الكبرى من منظور إسلامي، نشر: دار الينابيع، عمان، 1995م ص20.

(5) قفلجملی، التاريخ العثماني، ص58

والحقيقة لا يمكن القول بعد هذا الكلام إلا أن هذا السلطان الفاتح هو قائد أنموذج في الإخلاص لإسلامه والسعي للدعوة إليه ونشره، واستشعاره لثقل المسؤولية في حمل الرسالة التي يؤديها⁽¹⁾، وإضافة لفتح القسطنطينية، قام محمد الثاني بفتوحات أخرى في بلاد اليونان والبوسنة والألبان وشواطئ جزيرة القرم وبلاد المجر، وكانت له مهارة في الأعمال المدنية تعادل خبرته في الأعمال الحربية، فسمى الحكومة بالباب العالي، وجعل لها أربعة أركان هي الوزير، وقاضي عسكر، والدفتردار (وزارة المالية الآن) والنيشانجي وهو كاتب سر السلطان، وتوفي الفاتح عن ثلاث وخمسين عاماً في سنة 886هـ/1481م⁽²⁾ فتولى السلطنة السلطان بايزيد الثاني سنة 886هـ/1481م وكان ميالاً للسلم أكثر منه إلى الحرب، محباً للعلوم الأدبية، لذلك سماه مؤرخو الترك بايزيد الصوفي وأطلق عليه أيضاً (الولي) لتدينه، وكان له ثمانية أولاد، توفي منهم خمسة في صغرهم، وبقي ثلاثة هم كركود وأحمد وسليم، وقد خرج هؤلاء

(1) على الرغم من عظمة تلك المواقف للسلطين العثمانيين في نشرهم للإسلام والدعوة إليه، لكن البحث الموضوعي يقتضي بيان ما وقع فيه هؤلاء السلطين من أخطاء لا تتفق مع تفانيهم وجهادهم، فالسلطان محمد الفاتح هو الذي ابتدأ فكرة قتل الإخوة، كي لا ينافسوه في الحكم، والتي هي نكتة كبيرة في أخلاق السلطين العثمانيين، وقد اعتبرها بعض المؤرخين الأوروبيين صورة عن ظلم ووحشية العثمانيين، كما حاول مؤرخون عثمانيون تبريرها بالقول: "إن هذه الواقعة من الضروريات المؤسفة التي كانت ترغم السلطان على قتل أشقائه، والحقيقة أن هذه الواقعة هي حكمة من حكم سياسة تأسيس الدولة العثمانية وثباتها وتقدمها، وهي وظيفة شاقة جداً، ومن الضروريات التاريخية والسياسية الكبرى جداً أن يحمل من يصعد عرش السلطنة وظيفة شاقة جداً، مثل قتل منافسيه في السلطة". فالسلطين العثمانيون الذين عملوا بمبدأ قتل الإخوة، أخطأوا في ذلك وخالفوا الشرع بارتكابهم هذه الكبيرة، وهي قتل النفس، ومتروك أمرهم إلى الله في ذلك، وبقي أمر قتل الإخوة متبعاً ومطبقاً إلى أن جاء السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (998-1026هـ/1590-1617م). وبدل فكرة ولاية العهد، فجعلها في أكبر أفراد الأسرة العثمانية سناً، بعد أن كانت محصورة في أكبر أبناء السلطان. ولا شك أن للسلطين العثمانيين أخطاء أخرى إضافة لفكرة قتل الأخوة، منها مجاهرة بعضهم بشرب الخمر، والانغماس بحياة المجون والتهتك والعبث وسط حريم السلطان مثل السلطان سليم الثاني والسلطان أحمد الثالث ومراد الخامس، وأخذ السلطين بمبدأ إخصاء العبد مع تحريم الشريعة له.

انظر: أوغلو، السلطين العثمانيون، ص24-28، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص655-680 المحامي، الدولة العلية، ص161، كردعلي، خطط الشام، ج2، ص228-229، جيب، هاملتون، وهارولد بون، المجتمع الإسلامي والغرب (3ج)، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، نشر دار المعارف، القاهرة، 1971م ج1، ص54-55، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: جيب، المجتمع الإسلامي، بازلي، قسطنطين (سفير روسيا في لبنان، عاش في سوريا الطبيعية بين 1839-1853م)، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمه عن الروسية: طارق معصراني، نشر: دار التقدم، موسكو، 1989م، ص40، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: بازلي، سوريا وفلسطين. وينظر الرشدي إلى ما نسب إلى محمد الفاتح من قتله لأخيه، أنها حادثة موضوعة، لا أصل لها من الواقع، دسها أعداء العثمانيين على الفاتح، لتثويه سيرته وللتقليل من شأن أعماله العظيمة.

انظر: الرشدي: محمد الفاتح، ص417-418، حسون، الدولة العثمانية، ص142

(1) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص42-55

المحامي، الدولة العلية، ص160-178

الأولاد على أبيهم، وفي النهاية تنازل لابنه سليم عن السلطنة بناءً على ضغط الانكشارية في سنة 918هـ/1512م، وتوفي بعد ذلك بعشرين يوماً⁽²⁾.

بهذه المرحلة تكون الدولة العثمانية قد توسعت شمالاً وغرباً، فضمت إلى سلطانها دول أوروبا الشرقية، بلغاريا ورومانيا والمجر والبوسنة وألبانيا وصربيا والجبل الأسود ومقدونيا وقسم من أراضي اليونان، حتى وصلت إلى مشارف فيينا، وتوسعت شرقاً حتى حدود بلاد فارس، والطريق ممهدة لها الآن لتمتد وتتوسع جنوباً، فتضم أقطار الوطن العربي، بدءاً من بلاد الشام، فمصر، والحجاز واليمن، ثم بلاد المغرب العربي حتى تصل إلى حدود مراكش على سواحل المحيط الأطلسي، وتتطلب المرحلة المقبلة من الفتوح سلطاناً قوياً ذا شكيمة، وقد توفر هذا في السلطان سليم الأول الملقب بـ (ياوز) أي القاطع، وكأنه مهياً من العناية الإلهية ليكون بداية العهد الجديد من العلاقات مع البلاد العربية، حيث تتجه أنظاره إلى بلاد الشام بوابة هذا الفتح، فما هي أوضاع بلاد الشام في هذه الفترة؟! وهل هي قابلة لتكون فاتحة الخير في العلاقات بين العثمانيين والعرب؟ تلك العلاقات التي تستمر قروناً عدة، تكون بلاد الشام خلالها ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

3- العلاقات بين العرب والعثمانيين في بلاد الشام قبل الفتح العثماني لها

إن العرب اليوم يعيشون مواقف عديدة حيال تقييم التاريخ العثماني، وتنشطر نزعاتهم الفكرية والنظرية تجاه هذا التاريخ، ولكل من أصحاب تلك المواقف فئات عريضة من المناصرين والمؤيدين⁽¹⁾ ومن المعارضين والمتحاملين، فهناك التفسير القومي للعلاقات العربية العثمانية، الذي يعتبر التاريخ العثماني تخلفاً ورجعيةً وانحطاطاً، إضافة لكون ارتباطه بالوطن العربي استعماراً واحتلالاً مقنعاً باسم الدين⁽²⁾، وهذا التيار يستبعد الإسلام من مقومات الأمة العربية، ويستند إلى فكرة علمانية الدولة، وأن لا دور للمشاعر الدينية الإسلامية عند العرب في القواسم المشتركة بينهم، وبرز هذا التيار في النصف الأول من القرن العشرين، حيث تشكلت أحزاب وتيارات سياسية عديدة في الوطن العربي تتبنى هذا التيار، وكان من أبرز مؤسسيه ورواده ساطع الحصري، وجمال عبد الناصر، ومن الأحزاب التي تشكلت

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص55، ويذكر ابن أبي السرور أن بابيزيد الثاني كان من أهل الخير، محباً للعلماء والفقراء، وقد دخل الخلوة (لتصوفه وتقواه) وجلس فيها أربعين يوماً، ودخل معه الخلوة محي الدين أفندي، والد المفسر المشهور أبو السعود ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص59-60.

المحامي، الدولة العلية، ص179-187

(1) انظر جميل: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ص38-39

(2) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1/ص25. يقول الشناوي: وفي مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأشباههم، ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثماني للعالم العربي بأنه كان شراً مستطيراً، ولعل أحدث هذه الأصوات ما كتبه بعض مستشاري الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة في الميثاق الذي صدر في الحادي والعشرين من شهر مايو/ أيار عام 1962م، إذ قالوا: إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنعاً باسم الدين والدين منه براء.

على أساسه، الاتحاد الاشتراكي في مصر، وحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا والعراق، وكانت الأحزاب الاشتراكية في باقي أقطار الوطن العربي من نتائج هذا التيار⁽³⁾ ويعتبر بعض المؤرخين القوميين أن دخول العثمانيين البلاد العربية هو الفصل الختامي من قصة تحطيم الزعامة العربية، وأن العثمانيين لم يكونوا عند حسن ظن البلاد العربية، وأضاعوا الحلم الجميل الذي راود تلك البلاد عن نشر الاسلام، وكان الوجود العثماني في تلك البلاد غدراً بها⁽⁴⁾ وأنها دولة استعمارية استعمرت الوطن العربي قروناً عدة⁽¹⁾ وقضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد، وضربت المدنية التي سقطت عليها في الأقطار الواسعة التي احتلتها⁽²⁾.

وهناك التفسير الشيوعي الماركسي للتاريخ، الذي يبني نظريته للتاريخ العثماني، ولعلاقة البلاد العربية بالعثمانيين، على أساس الصراع الطبقي، والتناقض بين طبقات المجتمع، وأن دخول العثمانيين للبلاد العربية، ثم انتهاء الوجود العثماني من تلك البلاد، هو نتيجة حتمية لتطور المجتمع والصراع بين الطبقات⁽³⁾.

على أن مدرسة تاريخية ثالثة تنطلق في تفسيرها للتاريخ من منطلقات إسلامية، تنظر إلى التاريخ العثماني نظرة ملؤها الإعجاب والتقدير لجهود العثمانيين في أدائهم لدورهم الحضاري في ربط البلاد العربية بهم، وسعيهم لضم تلك البلاد إلى دولتهم، من أجل الحفاظ على هويتها، وحفظها من الخطر الاستعماري الصليبي الغربي، الذي بدأت بواكره تظهر مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادي⁽⁴⁾، ويشارك هذه المدرسة في هذه النقطة الكثير من المؤرخين المعاصرين المنصفين، ممن لا ينتمون إلى تلك المدرسة⁽⁵⁾.

(3) تيوخونوا، تاتيانا (باحثة في معهد الاستشراق بموسكو)، ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي، نشر: دار التقدم، موسكو، 1987م، ص 8-10، 9-13 ..

(4) البديوي، قادة التحرير العربي، ص 79، ص 96

صالح، جهاد، الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، نشر: دار الصداقة، الطبعة الأولى، بيروت، 1987، ص 41 .

(1) طلاس، مصطفى، الثورة العربية الكبرى، دار الشورى، طبعة ثالثة، بيروت، دت، ص رافق، المشرق العربي، ص 44-50

- خضور، أديب، الصحافة السورية، نشر: دار البعث للصحافة والنشر، دت، ص 23 .

(2) كرد علي، محمد، المذكرات (4ج)، نشر مطبعة الترقى، دمشق، 1948، ج 2، ص 525-526 ، وظهرت نقمة كرد علي على العثمانيين وعداؤه لهم بأن اعتبر رأيه هذا مجمعاً عليه من مؤرخي الغرب!!!

(3) قفلجمللي، حكمت، التاريخ العثماني (رؤية مادية)، عرّبه عن التركية. فاضل لقمان، نشر: دار الجليل، طبعة أولى، دمشق، 1987م .

- لوتسكي، فلاديمير بوريسوفيتش (مؤرخ سوفياتي مستعرب)، تاريخ الأقطار العربية الحديث، نشر دار الفارابي،

طبعة سابعة، بيروت، 1980م، ص 8، 34، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية،

ماركس، كارل، المسألة الشرقية (حول القوميات في الدولة العثمانية)، ترجمة: جوزيف عبدالله، نشر: دار

الحداد، الطبعة الأولى، بيروت، 1980، ص 164، 190-192 .

(4) حسون، الدولة العثمانية، ص 53-54.

- الشناوي، الدولة العثمانية، ج 1، ص 25-32

- ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 5

(5) لويس، برنارد (يهودي أمريكي)، استتابل وحضارة الدولة العثمانية، ترجمة سيد رضوان علي، نشر جامعة بنغازي، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1973، ص 149 .

ومما يجدر الإشارة إليه في سياق الحديث عن المدرسة الإسلامية التاريخية ونظرتها للتاريخ العثماني، أن بعض من ينسبون أنفسهم إليها، وليسوا مؤرخين متخصصين، يركزون فيما يكتبون عن العثمانيين على الجوانب الإيجابية في تاريخهم، دون الإشارة إلى ما يشمله ذلك التاريخ من أخطاء وسلبات لحقت بهم، يقتضي البحث التاريخي الحيادي والموضوعي أن ينوه إليها⁽¹⁾ باعتبار أن العثمانيين شأنهم في ذلك شأن سائر دول الإسلام التي سبقتهم، وكان لها الكثير من الأخطاء، وذكرها مؤرخو الإسلام قديماً وحديثاً، والعثمانيون كأسلافهم لهم من ذلك ما يظهر على سطح الأحداث، ويقتضي الإنصاف الإشارة إليه، نورد ما يستلزمه النقاش من تلك القضايا والمآخذ في ثنايا البحث ضمن السياق الطبيعي لها، ويرى الباحث أن الكتاب والمؤرخين الذين لا يتعرضون إلا للإيجابيات مؤخذون في ذلك، لأنه لا يمكن أن تكون الأمور إيجابية كلها، بل لابد من أن يكون فيها الإيجابي والسلبي، والسلطين العثمانيون بمن فيهم الخلفاء العظام، كالخليفة عبد الحميد الثاني لهم أخطاء، إذ لم يكن التزام دولهم بالإسلام الالتزام الكامل الذي لا شائبة فيه، بل هناك الكثير من الجوانب التي جانبوا فيها الصواب خلال إدارتهم لهذه الدولة الواسعة الأرجاء الكثيرة الأعراق والأجناس، إن تدقيق النظر في تاريخهم بلاد الشام وباقي الأقطار العربية في إطار الدولة العثمانية يؤكد وجود تجاوزات من الولاة لسلطاتهم القانونية، وارتكابهم أعمالاً، يمكن تسميتها فظائع في حالات معينة، وممارستهم الظلم والقسوة تجاه السكان، خاصة ضد أعداء أولئك الولاة وخصومهم السياسيين والعسكريين المناوئين لهم "لكن ذلك لا يندرج على الفترات التي اتسمت بالهدوء والأبهة والإشعاع العثماني، أحببنا أم كرهننا، وهل يعقل أن نسود ونحقد ونعيب القرون كلها التي كان الحكم العثماني فيها على البلاد العربية، نتيجة سياسة الاتحاديين خلال عشر سنوات، وهم الذين أساءوا بحق إلى البلاد العربية، وذهبوا إلى مسخ مقومات تراثها وحضارتها، وكانت سياستهم وخيمة العواقب، ليس فقط على البلاد العربية، بل أيضاً على الدولة العثمانية برمتها، بتعزيزهم تفكيك أوصالها، وإثارة النعرة الوطنية لدى بقية الأجناس"⁽²⁾ مما سيأتي تفصيله مدعماً بالوثائق والبراهين في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

لقد اكتسب الفتح العثماني لبلاد الشام والبلدان العربية الأخرى أهمية تاريخية بالغة، حين أدرك السلطين العثمانيون في أوج فتوة دولتهم وقوتها، المخاطر المحدقة

- مونس، الش - ورق الاس - لامي، ص 31 -

=منسي، حركة البقطة العربية، ص 19-22، طربين، التجزئة العربية، ص 38-39، الصفصافي، أحمد المرسي، الدولة العثمانية والولايات العربية، بحث مقدم للمؤتمر الخامس للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، نشر مركز بحوث دراسات العهد العثماني، طبعة أولى، تونس، 1984م، ص 323-324 .

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر: أبو غنيم، زياد، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، ومع الإجلال للكاتب ووجهات نظره في طريقة عرض الكتاب، وتقدير جهوده في كتابه المذكور، إلا أن الكتاب يصنف في السياق الذي أشرنا إليه.

(2) التميمي، عبد الجليل، العرب والأثراك في إطار الدولة العثمانية، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 17-18/ عام 1980م، السنة السابعة، ص 91-92 .

بالبلاد العربية، وهم حينذاك قوة رئيسة على الساحة الدولية تحسب لها القوى الكبرى حسابها، فعملوا على ضم هذه البلاد إلى دولتهم، وجعلها ضمن مناطقهم، وبسط سيادتهم عليها مراعاة لأمر اقتضاها الواجب الإسلامي تجاهها، فالعثمانيون قصدوا تحقيق تلك الأهداف التي كان في مقدمتها منع تسرب النفوذ الصفوي الإيراني إلى البلاد العربية في بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية لمنع الشيعة الصفويين من نشر المذهب الشيعي الصفوي في تلك البلاد، وتكوين امبراطورية شيعية في قلب العالم الإسلامي السني وتحويله نحو المذهب الشيعي⁽²⁾، وهذا مطلب رئيس لو لم يسع العثمانيون لتحقيق سواه لكفاهم فخراً بنجاحهم في تحقيقه، والحفاظ على العالم الإسلامي متمسكاً بالإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة، كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وإجماع جمهور علماء المسلمين على ثوابت العقيدة الإسلامية الصافية، كما جاءت في هذين المصدرين الرئيسيين.

فكيف وأن العثمانيين ضمنوا وحدة العالم الإسلامي السني، وأوقفوا المد الشيعي الصفوي، بل حَجَموه وحجروا عليه التوسع عن دائرته القطرية في إيران، بعد أن استخلص السلطان سليم الأول العراق منهم سنة 1514 هـ⁽³⁾ كما سيأتي لاحقاً، فهذا إنجاز عظيم يذكر للعثمانيين، ويدين لهم المسلمون فيه، في جميع أقطار العالم الإسلامي عبر الأجيال اللاحقة لذلك.

أما الأهداف الأخرى فهي لا تقل أهمية عن الهدف المشار إليه آنفاً، وترتبط تلك الأهداف بالأحداث الدولية التي جرت وقتذاك في أوروبا وفي حوض البحر المتوسط، وانعكاساتها على مجريات الأحداث في المنطقة العربية، وعلى الدولة القائمة آنذاك كالدولة العثمانية والصفوية والمملوكية، وكان الفتح العثماني يرمي إلى ضمان السيادة العثمانية على حوض البحر المتوسط الشرقي وإبعاد نفوذ البندقية وجنوة عن منطقة الخليج العربي وسواحلها⁽⁴⁾، بعد أن نجح الصليبيون في الوصول إلى الهند بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح بقيادة البرتغالي فاسكو دي جاما، ثم ما لبثوا أن بدأوا يهاجمون موانئ المسلمين من الشرق على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي وشواطئ البحر المتوسط الشرقية المحاذية لبلدان المغرب العربي ومصر، وشواطئ بلاد الشام المطلة على البحر المتوسط، للوصول إلى القدس الشريف، واسترجاعه من المسلمين بعد انهزامهم في الحروب الصليبية على أيدي الأيوبيين والمماليك فكانت المهارة والتجربة التي اكتسبها قراصنة البحر الأوروبيون، تدل دلالة واضحة على أهمية الحملات الصليبية البحرية، بعد أن سكنت ريح الحملات الصليبية البرية،

(2) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 21-25، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص 24

(3) منسي، حركة البقطة العربية، ص 20-22

- الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص 18، حسون، الدولة العثمانية، ص 55

- عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، نشر دار الكتاب الجامعي، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1986م، ص 16، 22 .

(1) طربين، التجزئة السياسية، ص 34-35، الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص 20-21

واستغل الغرب ضعف الجانب البحري لدى المسلمين، فسلخوا هذا المسلك، وأطلوا على المشرق الإسلامي في مطالع القرن السادس عشر، وكان أنصار دي جاما من البرتغاليين يقودهم هنري، الذي تلقب بالأمير، ويذكرنا بأمرأء الحروب الصليبية من أمثال آل تولوز، كما يكشف لنا الصليب الذي رسمه على ظهره، عن الروح الصليبية التي كانت تسيطر عليه، ويفسر لنا لقب الملاح الذي يحملة، التعصب الصليبي المهيمن على تحركات هؤلاء الأوروبيين في تلك الحقبة الزمنية⁽²⁾، فكان نشوء الدولة العثمانية وبروزها على الساحة الدولية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمة الإسلامية رداً عملياً على الغرب الصليبي، الذي حاول الالتفاف على العالم الإسلامي ومهاجمته من الشرق، بعد أن سقطت عواصم في أوروبا الشرقية والوسطى واحدة تلو الأخرى⁽¹⁾، لكن الدولة العثمانية أحست بالخطر الذي يشكله الصليبيون على الجهة الأخرى، وهي العالم العربي، فتحركوا سريعاً لرد الغارة عن البلدان العربية، وحماية البلاد من الموجة الاستعمارية الجديدة، لكن هذا التحرك هل هو بداية العلاقات العربية العثمانية؟ أم كانت البداية قبل ذلك، والحقيقة أن العلاقات لم تبدأ بالفتح العثماني لبلاد الشام في مطلع القرن السادس عشر، بل سبقت هذا الحدث سلسلة من الاتصالات بين السلاطين العثمانيين وحكام البلاد العربية قبل ذلك التاريخ، وتدل تلك الاتصالات دلالة واضحة على شعور العثمانيين بقربهم من البلاد العربية من الناحية الروحية والعقائدية، وانطلاق السلاطين العثمانيين بالتوجه نحو إخوانهم في العقيدة من قناعاتهم بتلك الأخوة التي تربطهم والعرب المسلمين في الثقافة والعقيدة واللغة المشتركة، وهي اللغة العربية لغة القرآن الكريم، بل إن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة السلجوقية، والدويلات التي تأسست في الأناضول قبل العثمانيين في الفترة ما قبل بروز الدولة العثمانية، ثم ما لبثت الدولة العثمانية أن سارت على النهج نفسه الذي سار عليه السلاجقة في احترام العرب وحبهم والتقرب منهم والتودد إليهم، وكانت القاهرة على وجه الخصوص عاصمة المماليك، ومكة المكرمة عاصمة الحجاز، كونهما أهم الحواضر الإسلامية الدينية آنذاك، تحظيان بذلك التقرب، وتتمتعان بالاحترام الكبير في نفوس العثمانيين لمكانتهما المميزة دينياً وحضارياً، وأن السلاطين العثمانيين كثيراً ما استنجدوا بالعلماء العرب، وعينوهم في مناصب عليا في الدولة⁽²⁾، وفي المجال العسكري سجل وجود العنصر العربي في الجيش العثماني حضوراً واضحاً منذ عهد أورخان ومراد، كذلك كانت بورصة عاصمة العثمانيين قبل القسطنطينية قد أمّها المشارقيون والمغاربة بوقصد الاتجار ومواكبة الأحداث السياسية الهامة يومئذ، وفضلاً عن ذلك فقد تمتع المسؤولون العثمانيون والمماليك قبل

(2) مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 40-43، جميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ص 38-39

- حسون، الدولة العثمانية، ص 54-55 خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 25-30

(1) مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 45، منسي، حركة البيظنة العربية، ص 28

- الصفصافي، الدولة العثمانية، ص 327

(2) التميمي، عبد الجليل، دراسات في التاريخ العربي العثماني، نشر مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، تونس، 1994، ص 14

عقدين من فتح القسطنطينية بعلاقات طيبة، ويترجم عن ذلك تبادل السفراء وتعدد المهام المختلفة، والزواج وتبادل الهدايا والمعلومات بينهما⁽¹⁾.

وعلى المستوى الحضاري والثقافي، كانت اللغة العربية قبل الفتح العثماني للوطن العربي وبعده، أحد القنوات التعبيرية عن الثقافة والأدب، وأن اصطلاحات العلوم العثمانية أغلبها بالعربية، وكان تعلم اللغة العربية أحد الشروط الأساسية لتولي المناصب الدينية العليا للدولة، وعلى الخصوص منصب الإفتاء والقضاء والتدريس، وهذا يقود إلى القول: إن العثمانيين حموا اللغة العربية ودافعوا عنها، واستعملوها كوسيلة لإنتاجهم الفقهي والتاريخي، ولا بد من الذكر هنا بأن مكتبات تركيا تضم حالياً أكثر من ثلاثمائة ألف مخطوطة باللغة العربية، وهو ما يشكل أهم رصيد حضاري للأمة العربية على الإطلاق في العالم، بل إن اللغة التركية وقعت تحت تأثير اللغة العربية، وهو ما يفسر وجود أكثر من ثلاثين ألف كلمة عربية متولدة أو منحوتة عنها في القاموس الطبي التركي، وأن قاموس شمس الدين المشهور ضم ثلاثة عشر ألف كلمة عربية، وقاموس علي نظيما ورشاد، الذي نشر سنة 1901م، قد ضم هو الآخر ثمانية عشر ألف كلمة عربية، وتمتعت اللغة العربية بكونها تشكل 30% من مجموع الألفاظ العثمانية المتداولة، واستمر الأمر كذلك حتى المراحل التاريخية المتأخرة إلى ما بعد انتهاء الخلافة العثمانية، ومحاولات التتريك التي مارسها الاتحاديون، ثم العلمانيون أنصار مصطفى كمال أتاتورك على مدار عقود متعددة، حيث ضم قاموس مصطفى جهاد أوزون الصادر عام 1952م، تسعة عشر ألف لفظة عربية من مجموع أربعين ألفاً، وأن المعجم العثماني التركي لفريد ده دوللي المطبوع سنة 1970م سجل وجود عشرين ألف لفظة عربية من مجموع خمسين ألفاً. وفي مجال الخط العربي، برع العثمانيون وأثروه جمالياً وفنياً، حيث شهد لهم به المتضلعون في هذا الفن⁽²⁾.

ولدى الالتفات لتفحص طبيعة العلاقات بين العثمانيين والعرب بعد فتح القسطنطينية سنة 857هـ/ 1453م، يتبين جلياً أنها ازدادت متانة وعمقاً، حيث أظهر السلطان محمد الفاتح اهتماماً خاصاً بنوعية العلاقات المستقبلية مع العرب، وعلى الخصوص مع أشرف مكة، ومع سلاطين المماليك في مصر، عندما وجه مبعوثين إلى زعماء المساميين يومئذ، وكانت تلك الرسائل قد حررت باللغة العربية، وهذا يشير إشارة واضحة إلى تدين هؤلاء السلاطين العثمانيين، والتزامهم بالاسلام على مذهب أهل السنة، وحرصهم على تطبيق الإسلام في سلوكهم ومعاملاتهم وممارستهم للسلطة العليا في الدولة⁽³⁾، وكان هؤلاء السلاطين يبتغون من تلك المراسلات التأكيد على أهمية العلاقات الدينية والسياسية بينهم وبين العرب المسلمين، والتركيز على المعاني الإيمانية ذات الدلالة الواضحة على الانشداد إلى الطرف العربي، والحرص في بقاء التواصل والتقارب، والسعي إلى زيادته وتوسيع دائرته، ويلحظ الدارس لطبيعة المناخ

(1) المرجع نفسه، ص13، ص25

(2) التميمي، دراسات، ص15-16

(1) التميمي، دراسات، ص13

السياسي خلال العقدين اللذين سبقا فتح القسطنطينية، مدى الاهتمام المشترك والحرص الذي أظهره العثمانيون والمماليك في الدفاع عن الجبهة الإسلامية لسواحلها وأسطولها التجاري، والعمل على ضمان النظام والأمن في الولايات التابعة لكل منهما، ودل ذلك دلالة واضحة على العلاقات الودية للغاية بينهما⁽²⁾.

وكانت لدى السلطان الشاب محمد الثاني ابن السلطان مراد الثاني (833هـ/1429م - 886هـ/1481م) الملقب بالفاتح، كما يظهر من خلال مواقفه المتعددة وتصوره للقضايا، توجهات واهتمامات يمكن تسميتها (بالاتجاه العربي) يظهر فيها تعلقه الروحي بمصدر الوحي في مكة المكرمة، وعرف عنه دفاعه عن الإسلام، وخوضه المعارك المشرفة تحت لوائه بكل بسالة وشجاعة⁽³⁾.

وكانت انجازات محمد الفاتح بعد انتصاره ذات دلالات كبيرة، تظهر أن عهداً جديداً فتح في العلاقات بين الدولة العثمانية الناشئة والدول العربية التي تشكل في الحقيقة قلب العالم الإسلامي، إذ أطلق على القسطنطينية بعد هذا الفتح، اسم استانبول، أي مدينة الإسلام، أخذاً من التركيب اللفظي لإسلام بول، كما خصص فيها أحد الأحياء لكل الأقليات، ومنها الأقلية العربية التي جاءت من أجزاء عديدة من بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية، واستقرت في منطقة يطلق عليها "تحت القلعة" وحدث تزواج كثير بين النساء العربيات من عكا وغزة والرملة وحواران وبين الجنود المسلمين في استانبول بغرض تعميرها⁽⁴⁾ بل إن محمد الفاتح قد وجه مبعوثين إلى كل زعماء المسلمين في عصره، أحاطهم علماً بالفتح العظيم للقسطنطينية، وقدم لهم معلومات متنوعة ومفيدة، يستنتج منها توجهات محمد الفاتح، والخطوط العامة لتحركه السياسي في الالتفات نحو العالم العربي، ويفهم من الرسالتين اللتين أرسلهما إلى إينال سلطان مصر، وإلى شريف مكة، أن التركيز على العلاقة الأخوية القائمة على هدي الإسلام وعقيدته، كان بارزاً وواضحاً.

ففي رسالة إلى سلطان مصر المملوكي إينال، افتتح خطابه إليه بأسلوب ديباجي واضح فيه الاحترام والتقدير نحو مصر ذات التاريخ العريق، والتي تمتعت بعلاقات طيبة مع سلاطين العثمانيين الأوائل، ويؤكد الفاتح في رسالته حرصه على تأمين حركة الجهاد التي بدأها أجداده، وقد سبقه من السلاطين، ثم يفصل السلطان الفاتح في رسالته إلى الملك الأشرف إينال مجريات الأحداث قبل وأثناء وبعد فتح القسطنطينية، ويطلق على الاستعدادات العسكرية الضخمة التي أتمها قبل المعركة، وعلى المعارك الحربية التي خاضها الجيش الإسلامي العثماني، وعلى استماتة المدافعين من البيزنطيين في الدفاع عن مدينتهم، وما قابل ذلك من تضحيات ضخمة للتغلب على صلابة التحصينات وصمودها وشراسة المعركة التي استمرت أربعاً وخمسين يوماً وليلاً "حاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعاً وخمسين

(2) المرجع السابق، ص24

(3) التميمي، دراسات، ص25

(1) المرجع نفسه، ص28-29

يوماً وليلة⁽²⁾، ثم يلفت نظره إلى الأهمية الدينية للمعركة بأن "صيرنا معابد عبدة الأصنام، مساجد أهل الإسلام"، وبعد ختام رسالته الطويلة، وسرد كامل التفاصيل فيها، يؤكد له حرصه على أن يدعو له الدعوات الطيبة من أجل تمتين العلاقات بين الدولتين⁽³⁾.

أما رسالة الفاتح إلى شريف مكة والمدينة، الشريف العجلاني⁽¹⁾ والتي حررت باللغة العربية، وبأسلوب أدبي رائع، فافتتحها السلطان محمد الثاني بإعطاء أمير الحجاز الأوصاف التي تدل على التعظيم والتبجيل، والتي عادة لا تمنح إلا لأعلى سلطة في العالم الإسلامي "أمير المسلمين وولي المؤمنين وسلطان بيت الله، وعلاء الله والدين" وتدل أيضاً على السعي لإرضاء الأوساط الدينية في مكة لكسب دعمهم وتأييدهم لشخصه وسياسته، إضافة لسعي محمد الفاتح لإظهار نشاطاته في خدمة الإسلام أمام المسلمين حجاج بيت الله الحرام الذين يلتقون في موسم الحج، ويرى التميمي أن الفاتح ربما قصد من وراء ذلك أن يُقَلَّد مسؤولية دينية أعلى في العالم الإسلامي، وهي الخلافة، ويدعم رأيه صدور مجموعة من الإشارات عن محمد الفاتح تؤيد هذا الاعتقاد لديه، منها حرصه أن يجعل من استانبول مقراً للخلافة، وهي "مهية" بأمر الله لمقر الخلافة الإسلامية" كما جاء في رسالته إلى شريف مكة⁽²⁾.

ثم يخاطب السلطان محمد الفاتح شريف مكة بأنه اختار الحاج محمد الزيتوني كمبعوث إليه، حاملاً إليه هذه البشري العظيمة مع رسالة وهدية "هدية لكم خاصة ألفي فلوري⁽³⁾ من الذهب الخالص التام الوزن العيار، والمأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة آلاف فلوري أخرى للفقراء، منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصة بالحرمين، والباقي للمتمكنين⁽⁴⁾ المحتاجين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، زادهما

(2) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن، يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/1469م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (16ج) تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت، 1992م، ج6، ص49.

(3) التميمي، دراسات، ص30-29.

= ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص50، 59، 74

- التميمي، دراسات، ص30، الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، دت، ص24.

(1) اسم أمير مكة في رسالة الفاتح هو علاء الدين السيد الحسيني العجلاني الذي توفي 829هـ/1426م، وفي زمن كتابة رسالة محمد الفاتح كان بركات بن حسن بن عجلان قد أصبح أميراً على مكة للمرة الثالثة، في سنة 851هـ/1447م بمنشور من السلطان المملوكي. انظر: جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمه عن التركية خليل علي مراد، نشر مركز الخليج العربي، العراق، 1985م، ص16-17.

(2) التميمي، دراسات، ص30-31

(3) جارشلي، أمراء مكة، ص25-26

الفلوري: عملة مدينة جنوة الإيطالية، وكانت قيد التداول في الدولة العثمانية أيضاً إلى جانب عدد آخر من العملات المحلية غير الرسمية، وهي عملة ذهبية.

(4) المتمكنين هم المسلمون الذين يأتون إلى مكة المكرمة من بلدان العالم الإسلامي المختلفة، ليجاوروا الحرم المكي (الكعبة المشرفة) في مكة، وبعضهم يجاور الحرم المدني (في المدينة المنورة) بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم، فيأتي هؤلاء = للإقامة بجوار الحرمين الشريفين في مكة والمدينة للعبادة ولكسب الأجر والثواب على نية إقامتهم وعلى تعبدهم لله عز وجل في المسجدين المكي والنبوي، وغالباً ما يستقر هؤلاء في مكة والمدينة ولا يرجعون إلى بلدانهم.

الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقدهم، وإشعار كيفية السير إلينا وتحصيل الدعاء منهم إلينا باللفظ والإحسان⁽¹⁾.

ولقد أخذ السلطان محمد الثاني بنظر الاعتبار كون أمراء مكة تحت إدارة الدولة المملوكية في مصر أثناء إرسال الرسول، لذا فإنه أرسل رسالة ثانية إلى السلطان المملوكي يعلمه بالأمر بتاريخ 20/ جمادى الآخرة سنة 857هـ/1453م⁽²⁾.

على أن بعض السلاطين العثمانيين قبل السلطان محمد الثاني (الفتاح) قد عملوا على إقامة علاقات مع أمراء مكة، وأمراء مصر أيضاً، فهذا السلطان الرابع بايزيد الأول بن مراد الأول، الملقب بـ"بيلدرم بمعنى الصاعقة" (761هـ/1360م-805هـ/1403م) يرسل إلى الخليفة في مصر يبشره بانتصاراته على الجموع الصليبية، وهزيمته لهم، وفتح حصن نيكوبولي، فيرد عليه الخليفة من مصر بالتهاني له ملقباً بإياه بسلطان إقليم الروم⁽³⁾، ودل استعمال كلمة إقليم هنا على أن الخليفة يعتبر هذا النصر نصراً للعالم الإسلامي بأكمله، طالما حققه أحد أقاليم الخلافة الإسلامية. ثم يليه السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح، (806هـ/1403م-855هـ/1451م) في إرسال الرسائل إلى السلطان المملوكي الأشرف برسباي يبشره بفتح قلعة كوكرك جينلوك في منطقة الدانوب بتاريخ 831هـ/1427م، ومما جاء في رسالته إليه: "التفقد عن أحوال العساكر المسلمين وجنود الموحدين، جعلهم الله تعالى أبداً وسرمداً غالبين، وصير أعدائهم هاربين، والاستخبار عن قصة مشركي انكرس ومن تابعهم من أعداء الدين، خذلهم الله تعالى إلى يوم البعث واليقين"⁽⁴⁾ والرسالة طويلة، ويليه تسع رسائل أخرى متبادلة بين السلطان مراد الثاني وبين السلطان برسباي، ومن أهم تلك الرسائل أيضاً رسالة أرسلها السلطان مراد الثاني إلى برسباي يبشره أيضاً بفتح لمنطقة سلانيك، وتدل ديباجتها وسياقها على المستوى الإيماني الرفيع الذي تتمتع به نفوس هؤلاء السلاطين المجاهدين، فهو يقول في بداية الرسالة "الحمد لله الذي أعد أعلام الدين، بإعلاء كلمة الحق المبين، ورفع لواء أهل الإيمان بلمعان بارقة سيوفهم على ظلمات الكفرة والمشركين، وفتح علينا أبواب النصر والظفر بكسر أحزاب الشياطين.. إلى أن يقول: ففي غدوة اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة، بالتكبير والتهليل شرعنا بالحرب، فلما نصبت الرايات الإسلامية المنصورة المنسوبة إلى آيات الفتح والظفر على الكفار، وجاء نداء نصر من الله وفتح قريب من اليمين واليسار وآية: وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل

انظر: الثَّقَيَّ الفاسي، محمد بن أحمد بن علي (ت832هـ/1428م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (ج2) تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر: دار الكتاب العربي، طبعة أولى، بيروت، 1985م ج1، ص135-140.

(1) التميمي، دراسات، ص31

(2) جارشلي، أمراء مكة، ص16-17

(3) النمر، نظرات، ص15-16

(4) الحصري، البلاد العربية، ص20

كان زهوقاً، ومن فوق، ففتحت بالصولة الأولى قبيل الضحوة الكبرى من ذلك اليوم"⁽¹⁾.

وكانت الرسائل التي يرسلها السلاطين العثمانيون إلى أشرف مكة وإلى مماليك مصر، تجاب من قبلهم، مع الشكر والإعراب عن السرور والابتهاج، بما تحتويه من أخبار إنتصارات الإسلام والمسلمين العثمانيين. فها هو شريف مكة يجيب على رسالة محمد الفاتح برسالة جوابية طويلة يقول فيها: "بعد ذكر وصول الرسول والرسالة، وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحوايها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين، وما هي إلا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام"⁽²⁾ وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير، وتحصيل ذلك المهم الخطير.. إلى أن يقول: وبشئنا بذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام، والسلوك بمسالك أجدادكم الكرام، رَوَّحَ الله أرواحهم، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم، وفي إظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة"⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن العلاقات التي قامت بين السلاطين العثمانيين والبلاد العربية على المستويين الديني والدبلوماسي (الاتصالات وتبادل الرسائل) لم يأت لبلاد الشام ذكر فيها، فكيف يكون هذا؟! والجواب على ذلك أن بلاد

(1) المصدر نفسه، ص22-24

(2) يشير هنا إلى الحديث الشريف الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي فيه البشارة بفتح القسطنطينية، وقد حاول المسلمون بعد ذلك فتح القسطنطينية محاولات عدة من قبل الأمويين والعباسيين، ولم يتمكنوا من ذلك إلى أن جاء محمد الفاتح ففتحها سنة 857هـ/1453م) وبذلك تحققت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبشارته بفتحها، ومدحه صلى الله عليه وسلم للجيش الذي يفتحها، والأمير الذي يقود ذلك الجيش، أما نص الحديث الشريف فهو: عن عبد الله بن بشر الخثعمي عن أبيه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش" حديث صحيح عن بشير الغنوي، كما هو عند الحاكم في مستدركه. ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت241هـ/855م) المسند (ج6) دار الفكر، بيروت، دت، ج4، ص، 335، ج5، ص234، 232. وأورده السيوطي في الجامع الصغير. انظر:

=السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير (ج2)، نشر: دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، 1981، ج2، ص402، رقم الحديث 7227، أما الألباني فقد خرجه واعتبره ضعيفاً وضعفه في ضعيف الجامع الصغير، وقد رواه الحاكم في مستدركه إضافةً للإمام أحمد بن حنبل، ورواه كلاهما عن بشر الغنوي، وقال عنه الحاكم حديث صحيح، سيشار لهذا المصدر فيما بعد: السيوطي: الجامع الصغير وقد خرجه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، يقول راوي الحديث: فدعائي مسلمة بن عبد الملك، فسألني، فحدثته، فغزا القسطنطينية.

الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير (ج6/3مج)، نشر المكتبة الإسلامية، طبعة ثانية، بيروت، 1978م، ج5، ص9، وقال عنه حديث ضعيف.

- وعن محاولات فتح القسطنطينية انظر: المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، نشر: دار النفائس، طبعة سادسة، بيروت، 1988م، ص156-164، سيشار. وانظر: الرشدي، سالم، محمد الفاتح، نشر: دار العلم للملايين، طبعة ثانية، بيروت، 1969م، 178-179.

(1) الحصري، البلاد العربية، ص28

- التميمي، دراسات، ص31-32، وللاطلاع على تفاصيل تلك الرسائل المتبادلة بين محمد الفاتح وأمراء العرب في الحجاز ومصر، يراجع: التميمي، دراسات، ص33-46

الشام كانت تابعةً لسلطة المماليك في مصر، فالعلاقات بين المماليك والعثمانيين هي بطبيعة الحال علاقات بين بلاد الشام ومصر وبين العثمانيين، على أن المماليك هم أمراء هذه البلاد ومسؤولون عنها ويمثلونها سياسياً وإدارياً في العلاقات الدولية، ويبدو ذلك واضحاً من الصدام العسكري الذي حدث بين المماليك والعثمانيين عند بدء فتح العثمانيين لبلاد الشام حين جاءت القوات المملوكية إلى أطرافها الشمالية للدفاع عنها، والوقوف في وجه العثمانيين الزاحفين نحوها، باعتبارها جزءاً من أراضي الدولة المملوكية، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً. ولا شك أن المراسلات التي ذكرناها أنفاً تبين بجلاء وجود علاقات طيبة بين العثمانيين والعرب، وتعطي فكرة صريحة عن مبلغ اهتمام السلاطين العثمانيين بإذاعة أخبار انتصاراتهم على أعداء الإسلام، إلى مختلف الأقطار الإسلامية بوجه عام، والبلاد العربية بوجه خاص، وأن ذلك أكسب العثمانيين مكانة معنوية رفيعة ساعدت مساعدة كبيرة على تقبل العرب للعثمانيين عندما فتحوا بلادهم باسم الاسلام، ثم استمرارهم في قبول العثمانيين والانسجام معهم خلال مدة حكمهم الطويلة للبلاد العربية دون خلافات ومشاكل تذكر بينهم.

الفتح العثماني لبلاد الشام

تعددت الآراء في تحليل الأسباب والدوافع التي كانت وراء توجه الدولة العثمانية في فتوحاتها نحو الجنوب باتجاه أراضي بلاد الشام⁽¹⁾ التي كانت في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، العاشر الهجري تابعة لدولة المماليك الجراكسة في مصر وعاصمتها القاهرة⁽²⁾، وكانت البلاد الشامية والمصرية في عهد المماليك قد وصلت إلى درجة من الضعف والانحطاط حفزت السلطان سليم على التعجيل في ضمها إلى دولته، ولا سيما أنه شعر بعدم انتظام الأمور لهؤلاء المماليك فيهما، وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم عليهما، وقد تدهورت أحوالهما الاقتصادية والاجتماعية، يقول كرد علي: "خرج الناس بعد وقائع الصليبيين والمغول، وما أعقبها من الأوبئة والزلازل والمجاعات أعرى من مغزل، وأزمنت الفوضى في أرجائها، وأحس الناس بحالة الضعف في البلاد، فأخذوا يتطلعون إلى الدولة العثمانية، وكانت إلى الشام ومصر أقرب الدول الإسلامية ال كبرى، إذ ذاك في إبان شبابها"⁽²⁾. وعن أسباب ذلك الفتح،

(1) بلاد الشام: ويقال لها الشام كذلك، مهموز بالالف ولا يهمز، وتسمى بلاد الشام أيضاً الشَّام بفتح أوله وسكون همزته، والشَّام بفتح همزته، مثل نُهر ونهر، لغتان ولا تمد، وفيها لغة ثالثة هي الشَّام بغير همز، كذا يزعم اللغويون، وقد جاءت في شعر قديم ممدودة، قال زامل بن عُقير الطائي: وتَأَيَّ بالشَّام مفيدِي خسرات يَفُذُّن قَلْبِي قَدًّا والشَّام تذكر وتؤنث، ورجل شَامِي وشَّام وشَامِي، ولا يقال: شَام، لأن الألف عوض من ياء النسبة، فإذا زال الألف عادت الياء، وأشَّام الرجل، إذا أتى الشام، قال جماعة من أهل اللغة: يجوز ألا يهمز، فيقال الشام جمع شامة، سميت الشام كذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض، فشبهت بالشامات.

وحَدَّ الشام من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، أما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم (البحر المتوسط)، وهي خمسة أجناد، جند قنسرين، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص. وسميت بالشَّام لتشَّام بني كنعان بن حام إليها، أو لأن سام بن نوح أول من نزلها، فجعلت السنين شيئاً، وكان اسمها الأول: سوري، وفي رواية سورية، وبها أمهات المدن والعواصم، وفي سواحلها عكا وصور وعسقلان. وقيل سميت الشام: لأنها شمال الكعبة، وقيل لشامات في أرضها سود وبيض، وقيل: إن أول من سكنها من الخلفاء سماها بهذا الاسم، وإنها سرور لمن رآها.

وكذلك استعملت كلمة سورية كمرادف لبلاد بر الشام، وأطلقت في الغالب على البلاد التي تحدها جبال طوروس شمالاً وسيناء وخليج العقبة جنوباً والبحر المتوسط غرباً، وبادية الشام شرقاً، وتنوع الأسماء بالنسبة للشَّام، فهي عند الإفرنج وغيرهم من الأجانب سورية، وهي بر الشام بالنسبة للعرب، واسم سورية لا يرد في الكتب العربية إلا قليلاً، وورد في رواية أن هرقل عندما خرج منها بقدم الفتح الإسلامي لها قال: وداعاً يا سورية، فإني لا أراك بعد الآن إلى أبد الدهر. انظر: الطبري، محمد ابن جرير (ت 310هـ/922م) تاريخ الرسل والملوك (11ج) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار سويدان، الطبعة الثانية، بيروت، 1967م، ج3، ص603.

- البكري، أبو عبيد الله، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م)، المسالك والممالك (2ج)، تحقيق: أدريان فان ليومن وأندري فيري، نشر: الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1992م، ج1/ص460-47.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص311-315.

- البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت 739هـ/1328م) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، (3ج)، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الجيل، طبعة أولى، بيروت، 1992م، ج2، ص775-776.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 911هـ/1505م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، نشر: مكتبة لبنان، طبع دار القلم، بيروت، 1975م، ص335.

- مكاريوس، شاهين، حسر اللثام عن نكبات الشام، د.ن، طبعة أولى/ مصر، 1895م ص3-4.

- غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (1840-1876م)، نشر معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، دار الجيل، القاهرة، 1962م، ص14-15.

(1) انظر التمهيد، فيه بيان لحالة المنطقة العربية قبيل الفتح العثماني لبلاد الشام.

(2) كرد علي، خطط الشام، ج2، ص205.

هناك رأي يقول إن الفتوحات العثمانية في أوروبا وصلت لدرجة لا يستطيعون معها التقدم واكتساب أراضي ومواقع جديدة، بسبب ضراوة المقاومة الأوروبية في التصدي للعثمانيين، وتكتل الدول الصليبية ونجاحها في إيقاف زحفهم، وهذا قول مردود، لأنه بمجرد وفاة السلطان سليم الأول عاود ابنه سليمان القانوني التوجه نحو أوروبا مرة ثانية، فأوغل في قلبها حتى أستولى على بودابست عاصمة المجر سنة 1526م، ووصل أسوار فيينا سنة 1529م، ويرجع السبب الحقيقي في التوجه لفتح البلاد العربية، والتوقف عن التقدم على الجبهة الأوروبية، إلى رغبة العثمانيين بقيادة السلطان سليم، حماية الشرق الاسلامي من الخطر البرتغالي الاستعماري الصليبي، الذي كان قد استشرى منذ نجح البرتغاليون في الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح⁽³⁾.

وهناك رأي آخر يرجع توجه العثمانيين لفتح بلاد الشام إلى الحالة السياسية التي اشتدت فيها الهجمة الصليبية على البلاد العربية، وكان المماليك البحرية يحكمون مصر والشام منذ سنة 651هـ/1253م، ثم حكمها المماليك الجراكسة مدة 139 سنة، ابتدأت بالسلطان برقوق، وانتهت بقانصوه الفوري الذي قتل في المعركة التي فتح فيها العثمانيون بلاد الشام كما سيأتي، وكانت بداية دولتهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة هـ/784هـ/1282م، وانقضاؤها سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هـ/923هـ/1517م⁽¹⁾، وقد عجز المماليك عن مواجهة حملات الفرنجة، التي تتعرض لها البلاد العربية حينذاك، وكانوا إلى ذلك الوقت يعدون حماة العالم الإسلامي والإسلام، فظهر عجزهم عن حماية الديار الإسلامية واضحاً بعد الانتصارات المدوية التي حققها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، وبعد صد المغول وجحافل تيمورلنك، وكان ممالك مصر زعماء مصر والشام، ويدعون لأنفسهم قيادة العالم الإسلامي، وحملوا لقب (حماة الإسلام والمسلمين)⁽²⁾ فكان ضعف المماليك في هذه الفترة وعجزهم عن رد الهجمة الصليبية عاملاً رئيساً في تقدم العثمانيين نحو بلاد الشام لفتحها، والوقوف في وجه الزحف الاستعماري الغربي نحو البلاد الإسلامية⁽³⁾. وثمة تبرير ثالث لاتجاه العثمانيين نحو الشرق الإسلامي، ألا وهو رغبة السلطان سليم في إخضاع العالم الإسلامي بما يضمنه من أماكن إسلامية مقدسة في دولة واحدة تحت سيادته، حتى يدعم مركز الدولة العثمانية كقوة إسلامية سنية في مواجهة أعدائه الذين كانوا يتمثلون في أوروبا المسيحية، ودولة الفرس الشيعية، ويعلل منسي تحول العثمانيين نحو الوطن العربي إلى إحساسهم بخطر جيرانهم الصفويين الفرس، الأمر الذي جعل المواجهة بينهما

وانظر: مسعد، بولس، الدولة العثمانية في لبنان وسورية (حكم أربعة قرون) د.ن، 1967م، ص7-9.

(3) منسي، حركة البقطة العربية، ص19-20، رافق، المشرق العربي، ص56

(1) الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن (ت1237هـ/1822م) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3ج)، نشر دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت، 1997م، ج1، ص28-29.

(2) إيفانوف، نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمه عن الروسية: يوسف عطا الله، نشر: دار الفارابي، بيروت، طبعة أولى، 1988م، ص37.

(3) الصفصافي، الدولة العثمانية، ص327 – مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص86-78
Toynbee, The Modern World Turkey.P.292

أمراً محتملاً، ففي فارس قامت منذ 1501م دولة الأسرة الصفوية، التي سيطر عليها شعور قومي ديني بزعامة الشاه إسماعيل الصفوي، فسعى هذا الأخير إلى إعلاء المذهب الشيعي في الأقطار العربية المجاورة لفارس، فغزا العراق 1508م من أجل ضم مزارات الشيعة في النجف وكربلاء، بل ساورته أطماع نشر المذهب الشيعي في الأناضول، حيث استجاب لدعوته بعض رعايا السلطان، فانتشر بينهم مذهب شيعي فوضوي يسمى قزل باش (أي الرأس الأحمر) فكان من الطبيعي أن تهب الدولة العثمانية السنية لمواجهة هذا الزحف الشيعي، الذي يحمل خطراً على كيان الدولة العثمانية من أساسه⁽¹⁾ ويؤكد هذا التوجه ويدعمه ما أورده ابن أبي السرور أثناء ذكره للسلطان بايزيد الثاني والد السلطان سليم الأول: (وفي أيامه ظهر إسماعيل شاه بن الشيخ حيدر في بلاد العجم (مؤسس الدولة الصفوية في إيران) وذلك سنة خمس وتسعمائة هـ، وكان يسفك الدماء ويظهر البدع، ويظهر مذهب الرافضة الشيعية⁽²⁾)، وينقل الطبّاخ صورة أوضح عن مسلك إسماعيل الصفوي تجاه المسلمين السنة وقد تكون تلك الصورة أكثر دلالة على شدة اندفاع السلطان سليم في التصدي للصفوي وإيقاف ممارساته "أراد السلطان سليم قبل أن يتصدى لقانصوه الفوري أن يتوّد لأهل السنة من رعيته ورعية الفوري، بأن يغزو إسماعيل الصفوي المتغلب على بلاد الفرس، وكان شيعياً غالباً، وأكره الفرس على التشيع والغلو المفرط في الدين، وقتل علماء السنة، وأحرق كتبهم، ونش قبر المشايخ، وأحرق عظامهم، فلما بلغ ذلك سليماً تحركت نفسه لقتاله، وعدّ ذلك من أفضل الجهاد"⁽³⁾.

ويمكن القول إن ما ذكر من آراء عن أسباب الفتح العثماني لبلاد الشام، أنها أسباب وجيهة ينظر إليها كدوافع حقيقية تكفي لانطلاق العثمانيين في ذلك الفتح.

لكن ما ذكر من أسباب، قد تكون أسباباً غير مباشرة، ويشير المؤرخون إلى الأسباب المباشرة التي دفعت العثمانيين لبدء العمل العسكري لفتح بلاد الشام، حيث ظلت علاقة العثمانيين ببلاد الشام والبلاد العربية الأخرى، علاقات مجاملة ومؤازرة - كما مر معنا في بداية هذا الفصل - بما كان يتم بينهم من المراسلات، وتبادل الوفود والهدايا⁽⁴⁾، ثم طرأت أمور جعلت السلطان سليم يتحرك نحو بلاد الشام، وهي أن المماليك بقيادة السلطان قانصوه الفوري آخر سلاطينهم، تحالفوا مع الصفويين لإيقاف التوسع العثماني من الجنوب والشرق، فالصفويون من الشرق، والمماليك من الجنوب في بلاد الشام، وتحرك الفوري على محوريين متناقضين في العلاقة مع العثمانيين، فهو من جهة، حاول أن يلعب دور الوسيط بين العثمانيين والصفويين، بأن أرسل مبعوثاً من قبله إلى الباب العالي في استانبول للتوسط، لكن السلطان سليم رفض

(1) منسي، حركة البقطة العربية، ص20-22، المحامي، الدولة العلية، ص188-189

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص57-58

- خليل، تاريخ الوطن العربي، ص21-24

(3) الطبّاخ، محمد راغب، (ت1370هـ/1951م) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (7ج)، نشر المطبعة العلمية، طبعة أولى، حلب،

1923م، ج3، ص122.

(4) الصفصافي، الدولة العثمانية، ص327

استقبال مبعوث المماليك، وطرده من بلاده⁽¹⁾، وهو من جهة ثانية كان يدس لواليه على المناطق الشمالية في الشام، يحرضه على العثمانيين، ويغريه بقتال السلطان سليم، وكان السلطان سليم حد المزاج يرى بنفسه ما يدبره قانصوه الغوري من مكائد ضد الدولة العثمانية ويحمل ذلك بنفسه على الغوري⁽²⁾، ويؤكد هذا الرأي خوف المماليك من اكتساح بلاد الشام من قبل السلطان سليم، بعد استيلائه على مملكة ذي القدرية التركمانية، فعملوا على الوقوف في وجه العثمانيين والدفاع عن بلاد الشام، كونها تابعة إدارياً وسياسياً لهم، وكانت سيطرة السلطان سليم على مملكة ذر القدرية من الأسباب التي عجلت في سقوط الشام بيد العثمانيين كما يراها كرد علي⁽³⁾، وكانت عائلة آل ذي القدر تمت بصلات قرابة للعثمانيين عن طريق المصاهرة، وكان السلطان بايزيد الثاني قد حاول ضم مملكتهم إلى الدولة العثمانية، ولم يتمكن⁽⁴⁾، فسعى السلطان سليم لإكمال ما بدأه والده، لتكون له حدود مباشرة مع بلاد الشام، كون مملكة ذي القدرية⁽⁵⁾ تفصل بينهم وبين الشام، فكان إضعاف السلطان سليم لمملكة كبرى وهي مملكة إسماعيل الصفوي شاه إيران، وقضاؤه على مملكة صغرى، هي مملكة ذي القدرية، قد مهد الطريق أمامه لفتح بلاد الشام⁽⁶⁾.

وهنا نجد منسي ينحي باللائمة على السلطان المملوكي قانصوه الغوري، ويعتبر المتسبب في إسراع السلطان سليم لافتتاح بلاد الشام لأنه "وقف موقفاً مائعاً غير حاسم ولا محدد من الصراع بين العثمانيين والصفويين، فهو أولاً: لم يلتزم الحياد بين الدولتين، بل كان يؤوي بعض الأمراء العثمانيين المناوئين للسلطان سليم، وثانياً: لم يؤيد الصفويين ضد العثمانيين، ولو فعل ذلك لسانده في وقف الزحف العثماني، وحصر جيش العثمانيين بين قوتين، وقطع خط الرجعة عليهم"⁽¹⁾. والحقيقة أن الموقف الثاني مستبعد التنفيذ من قبل قانصوه الغوري الذي يحكم بلاد الشام ومصر باسم الإسلام، والمسلمون في هذه البلاد متمسكون بالإسلام على مذهب أهل السنة، بالإضافة إلى أن مستشاري وقادة الدولة من المماليك من المسلمين السنة، وقانصوه الغوري نفسه مسلم سني، يحكم الدولة الإسلامية على مذهب أهل السنة، لا يقبل لنفسه التحالف مع الشيعة ضد أهل السنة، ولو أنه فكر بذلك لأنقلب عليه المماليك من حوله، ولوقف في وجهه جميع علماء البلاد وقضاتها وفقهائها، لأن هذا خط أحمر، لا يقبلون

(1) حسون، الدولة العثمانية، ص56، الطبّاخ، إعلام النبلاء، ج3، ص122

(2) الطبّاخ، إعلام النبلاء، ج3، ص116-120

- كرد علي، خطط الشام، ج2، ص207-208

(3) كرد علي، خطط الشام، ج2، ص202

(4) كرد علي، خطط الشام، ج2، ص202

(5) مملكة ذي القدرية، دولة حكمتها أسرة تركمانية، وهي تقع في المنطقة الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول، كانت عاصمتها مدينة مرعش تارة، وتارة مدينة البستان، قامت هذه الدولة سنة 780هـ، وتولاها عشرة أمراء، أولهم زين الدين قره جه، وآخرهم علاء الدولة بن سليمان، الذي قتله سنان باشا وأخاه وبعض أولاده، واستولى على ديارهم باسم سلطان العثمانيين.

انظر: كرد علي، خطط الشام، ج2، ص202

(6) كرد علي، خطط الشام، ج2، ص207-208، سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص582

(1) منسي، حركة اليقظة العربية، ص23

من الغوري تجاوزه، وخيانة عقيدة الأمة بالتحالف مع دولة شيعية ضد أهل السنة العثمانيين حتى ولو كانوا أعداء، ويهددون ملكه وبلاده.

ومن الأسباب المباشرة التي أشار إليها المؤرخون، والتي أسهمت في التعجيل بالمعركة بين العثمانيين والمماليك، أن المماليك منعوا قوافل الميرة والإمدادات من الوصول إلى جيش السلطان سليم وهو في طريقه لقتال الصفويين، وكانت تلك القوافل تمر من مناطق نفوذ مملكة بني قدر في الأطراف الشمالية والشرقية لبلاد الشام، قال ابن أبي السرور في ذلك: "وقد أصر الغوري القوافل من الذهاب السلطان، فغضب وثار فيه الهمة لأخذ مصر، وإزالة دولة الجراكسة، وأخذ ما في أيديهم من الملك"⁽²⁾.

وإضافة إلى ما تقدم يورد الطَّبَّاح سبباً دفع السلطان سليماً للتعجيل في فتحه بلاد الشام، وهو أنه كان يسعى ليحوز على قيادة العالم الإسلامي، ويحظى بلقب خليفة، لأن "أحب الأمور إلى السلطان سليم الأول، هو أن يلقب بالخليفة، ويدعى خادم الحرمين الشريفين، وهما مكة وبيت المقدس، لأنه كان يرى إذا أحرز هذه المنزلة، وجبت له الطاعة على المسلمين كافة أياً كانوا، لذا جعل الاستيلاء على الشام ومصر نصب عينيه، ونوى إذا فتحهما أن يقبض على الخليفة العباسي وكان يومئذ مقيماً في مصر، فيكرهه على خلع الخلافة عن نفسه، والنزول له عنهما، ثم يفتح مكة، فتعترف له بلاد العرب بالإمامة على المسلمين كافة، وهكذا يحق له أن يلقب نفسه بالخليفة خادم الحرمين الشريفين"⁽¹⁾.

وهنا لا بد من القول من أن الطَّبَّاح يريد أن يرجع الفتح العثماني للبلاد العربية إلى النزعة الشخصية الأنانية للسلطان سليم، لكن - وعلى الرغم من تحامل الطَّبَّاح على العثمانيين وتهكمه بالسلطان سليم - ومع ذلك نرى أن هذا الرأي قد يكون منسجماً وتوجهات السلطان سليم الإسلامية، لا حباً للظهور، وبحثاً عن الألقاب كما يصوره الطَّبَّاح، لأن موقف السلطان سليم هذا يوضع ضمن السياق العام لمواقف العثمانيين ككل، لأنه يحتمل أن يكون السلطان سليم بما عرف عنه من الشهامة، ومن المطالعات الواسعة للتواريخ وحبها لها، وخاصة باللغة العربية والتركية، وتأليفه باللغة العربية⁽²⁾، فإن ذلك ينسجم والرأي القائل إنه سعى لفتح بلاد الشام وسائر البلاد العربية، ليضمها إلى دولته، من أجل حمايتها من الدول الاستعمارية الطامعة فيها، ومن الخطر الشيعي الصفوي الداهم الزاحف نحوها، ولأجل تحقيق ذلك فلا بد له من كسب تأييد البلاد العربية، وإقامة العلاقات الطيبة معها، لأن ذلك يعطيه الشرعية الإسلامية في سبيل الدفاع عنها والتحدث باسمها، إذ لا يحق له تنفيذ مشروعه الإسلامي هذا، إلا من منطلقات إسلامية بحتة، تحت مظلة الخلافة الإسلامية، وخدمة الحرمين الشريفين، إذ أن الرابطة الإسلامية، العقيدة والأخوة الإسلامية، هما المبرران الوحيدان اللذان تقبلهما شعوب البلاد العربية المسلمة للسكون عن الفتح العثماني للبلاد العربية، ولنسمع ما يقول أحد دعاة التيار القومي في هذا السياق "وقد مهدت رابطة الدين

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص 72-74

(1) الطَّبَّاح، إعلام النبلاء، ج3، ص 121-122

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص 71

الطريق أمام السلطان سليم العثماني سنة 922هـ/1516م، ومن خلفه في استيلائهم على البلاد العربية، ولم يلاقوا صعوبة في التغلب على المماليك في مصر والشام والحجاز... وخضعت البلاد العربية للدولة العثمانية، لأنها كانت دولة إسلامية، ولأن سلطانها لقب بخليفة المسلمين⁽¹⁾.

هذا إضافة للحماس الشديد الذي يدفع العثمانيين ويسيطر على مشاعرهم - وهم المسلمون السنة - من أجل السعي لفتح بلاد الشام⁽²⁾، لا سيما بعد الذي حدث على الجناح الغربي للوطن العربي من نزوح المسلمين من الأندلس بعد سقوطها إلى أقطار المغرب العربي، وتعرضهم بالرغم من ذلك للنزوح - إلى ملاحقة الحملات الصليبية الإسبانية والبرتغالية، وتقدم تلك الحملات واقتربها من بلاد المشرق العربي في بلاد الشام ومصر، وسواحل البحر الأحمر والخليج العربي، فكان تقدم العثمانيين نحو بلاد الشام مراعاةً لذلك، وإجراءً وقائياً اتخذوه لتجنيب هذه البلاد حملات صليبية جديدة، بعد انحسار تلك الحملات لفترة لا تزيد على مائة وخمسين عاماً عن بلاد الشام.

1- بداية الفتح وأحداثه

في ظل الأوضاع التي عانت منها البلاد العربية قبيل الفتح العثماني لبلاد الشام، أخذت أنظار المسلمين الذين طالبت معاناتهم تتجه نحو القوة الإسلامية المتنامية، والتي تجسدت في الدولة العثمانية، "التي أرسلتها العناية الإلهية لإنقاذهم، وكانت حينذاك سمعة العثمانيين في الأوج عند مطلع القرن السادس عشر⁽³⁾، وكأن الشعوب العربية أخذت تنهياً للتأقلم مع الأوضاع الجديدة التي تبدأ بفتح العثمانيين لبلاد الشام وإذا نظرنا إلى الاستعدادات والتهيئة للمعركة الفاصلة لدى الطرفين المملوكي والعثماني، نجد أن ابن زنبيل مؤرخ الدولة المملوكية يسهب ويطنب في وصف استعدادات السلطان المملوكي قانصوه الغوري لمعركة الحسم، ويقترب منه في الوصف ابن إياس مبدئياً تعاطفاً واضحاً مع المماليك⁽¹⁾.

فالسلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني توجه إلى حدود بلاده الجنوبية، وكما يقول ابن أبي السرور: كان معه عسكر عظيم، وكان يلي بلاد الشام من قبل المماليك عدد

(1) الشهابي، الأمير مصطفى، القومية العربية (تاريخها، قوامها، مراميها)، نشر: معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، طبعة ثانية، القاهرة، 1961م، ص 38.

وانظر: منسي، حركة اليقظة العربية، ص 28، 34، إيفانوف، الفتح العثماني ص 65

(2) وقد أرجع لوتسكي الذي يفسر الأحداث التاريخية من منطلق نظريته الشيوعية الماركسية، الفتح العثماني للبلاد العربية إلى العامل الإقتصادي فقال: إن الذي استهوى الفاتحين العثمانيين لفتح الاقطار العربية، قبل كل شيء هو رغبتهم في فرض الاستغلال الإقطاعي على الجماهير الشعبية العربية. ولاشك أن خير رد عليه يكمن في عدم الرد عليه، لأن كل الوقائع والأحداث بين العثمانيين والعرب في مراحل العلاقات بينهم تؤكد عكس هذا الرأي.

انظر: لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 34، 8

(3) إيفانوف: الفتح العثماني، ص 45.

من الأمراء، يقول ابن زنبيل: كان محمود بن رمضان حاكماً على البلاد والضيع من ديار بكر إلى حد حكم الجراكسة وأضنة وجميع بلادها، وبلاد مرعش وأعمالها إلى ديار بكر كانت تحت حكم الأمير دولتباي، وكان عليه حمل مال تلك البلاد إلى مصر، وكان هو ثالث الغزالي وخير بك في الفتنة، وكانوا الثلاثة معاً متفقين على أخذ مصر من الجراكسة، وتملكها للسلطان سليم، وكانوا يكتبوه ويكتبهم، ويراسلوه ويراسلهم إلى أن حصل ما حصل.. وحلب كان نائبها خير بك، وحماة كان نائبها قنبردي، وحمص وتوابعها كان نائبها الأمير أصلان بن بداق، ودمشق الشام نائبها قنبردي الغزالي⁽²⁾ ويزيد ابن إياس الصورة وضوحاً بالقول: كان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما، وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردي الغوري عز ملكه، وأما نواب البلاد الشامية والحلبية، فالمقر السيفي سيباي بن بختجا نائب الشام والمقر السيفي خاير بك بن ملباي نائب حلب، وتمرار الأشرفي نائب طرابلس، وجان بردي الغزالي نائب حماة، ويوسف الذي كان نائب القدس انتقل إلى نيابة صفد، ونائب غزة دولاباي، وقد أضيف إليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة⁽³⁾. ويتابع ابن زنبيل وصف استعدادات الغوري، إذ يخاطب الغوري أغاوات جيشه وقيادته، ويحثهم على التجهز الكامل للمعركة الفاصلة، وكأنه مدرك لأهميتها، ويحسب الحساب الدقيق لها، لا سيما مع العثمانيين، والأخبار تصله عنهم وعن حجم قواتهم العسكرية وخبرتهم وشدة بأسهم، يقول ابن زنبيل: فلما بلغ السلطان الغوري رحمه الله قدوم السلطان سليم إلى مصر، وتحقق ذلك، جمع أمراء دولته وأكابر مملكته، فاجتمعوا عنده واشتوروا فاتفق رأيهم على ملاقاته السلطان سليم قبل أن يأتي إلى بلادهم، فتجهز العسكر في ثلاثة أيام، وخرجوا من مصر في يوم السبت السادس عشر ربيع آخر من

(1) كلا المؤرخين من المماليك، لهذا نجدتهما يثنيان على شجاعة طومان باي وغيره من أمراء المماليك ويقللان من شأن الأسلحة النارية العثمانية ومن الانتصار العثماني الساحق على المماليك. انظر في هذا: مصطفى، أحمد عبد الرحيم، أصول التاريخ العثماني، نشر دار الشروق، ط2، بيروت، 1986م، ص85.

(2) ابن زنبيل، أحمد بن علي الرمالي المحلي (ت980هـ/1572م) سيرة السلطان الغوري مع السلطان سليم خان، مخطوط على شريط ميكروفيلم، رقم الفيلم3033، رقم المخطوط3633، رقم البكرة61، مكتبة الجامعة الأردنية، عمّان، قاعة الميكروفيلم، إنتاج شريط الميكروفيلم: معهد المخطوطات العربية، القاهرة، سجل رقم1371، ص3-4.

(3) ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت930هـ/1448م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور (5ج)، الأجزاء (2-5) نشر الهيئة العامة للكتاب، طبعة ثالثة، مصورة عن طبعة ثانية، القاهرة، 1984م، ج5، ص3-7.

شهور سنة إحدى وعشرين وتسعمائة⁽¹⁾، وخرج مع الغوري في جيشه الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وكان الغوري قد خاطب الخليفة بقوله: اعمل يَرْفَكَ إلى السفر، وكن على يقظة، فإني مسافر إلى حلب بسبب ابن عثمان، وقال للقضاة الأربعة مثل ذلك، فقالوا: المرسوم مرسومك⁽²⁾، وقبيل رحيل السلطان الغوري مصر أخلع على الأمير طومان باي، وقرره نائب الغيبة بالقاهرة إلى أن يحضر، وانطلق السلطان الفوري وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة، ووصل حلب الخميس العاشر من جمادى الآخرة 922هـ/1516م، وكان دخوله يوم مشهود، وقدمه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه بالشام، فلما أصبح الأربعاء حادي عشر رجب سنة 922هـ/1516م، رحل السلطان إلى مرج دابق⁽³⁾، فأقام به إلى يوم الأحد الخامس عشر

(1) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص2-6

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص15، الجبرتي، عجائب الآثار، ج1، ص29، ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص74

(3) مرج دابق: المَرْجُ: الأرض الواسعة فيها نبت كثير، تَمْرُجُ فيها الدواب، أي تذهب وتجيء.

و: دَاقِقٌ: بكسر الباء، وقد روي بفتحها، وآخره قاف، قرية قرب حلب من أعمال عَزَاز، بينها حلب أربعة فراسخ، عندها مَرْجٌ مُغْشِبٌ نزهة، وعزاز تبعد عن حلب 45 ميلاً، جعلت مركز قضاء سنة 1340هـ، تولاها قائم مقام ملحق بحلب، ودايق من الأماكن المشهورة في قضاء عزاز، ومما اشتهرت به دابق تاريخياً، أن بنو مروان من الأمويين كانوا ينزلونه، كان سليمان بن عبد الملك بن مروان قد عسكر فيه، وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي إليه الجزية، فشنتى بدابق شتاء بعد شتاء، ثم مرض في إثر ذلك ومات، ودفن إلى جانب قبر عبد الله بن مسافع المدفون بالتل عند دابق، قال الجوهري: دابق اسم البلد، والأغلب عليه التذكير والتأنيث والصرف، لأنه في الأصل اسم نهر، وقد يؤنث، وكان بنو مروان ينزلونه إذا غزوا الصائفة إلى ثغر المصيصة في شمال بلاد الشام، ولم يزل هذا الاسم (مرج دابق) باقياً إلى عصرنا هذا (عصر الشيخ راغب الطباخ صاحب أعلام النبلاء، وهو مطلع القرن العشرين) وفيه قرية باسم دابق، فيها نحو مائة بيت، ويلاصق دابق من الجهة الشمالية تل كبير، فيه قبر سليمان بن عبد الملك، وعليه قبة مَسْوَرَةٌ يزوره الناس ويتبركون به، وهو مشهور هناك بمزار الشيخ بركات، ويمر بالقرب من دابق نهر قويق، وتربة هذه الأراضي ببلونية، ويستعمل أهل حلب هذا الطين المعروف بالببلون في حماماتهم، لإزالة القشرة التي تحصل في شعر = الرأس لرطوبته، والآن لم يبق مرج دابق مرجاً على وضعيته الأصلية، بل أصبح اليوم معموراً بالقرى، التي يزيد عددها على خمسين قرية، منها قرية مارع، احتميلات، صوران، جبرين، راعل. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص416-417، ج5، ص100، البغداد، مرصد الاطلاع، ج2، ص503، الحميري، الروض المعطار، ص231

من رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد داهمته عساكر سليم شاه بن عثمان، فصلّى السلطان الصبح، وصار يرتب العساكر بنفسه⁽¹⁾، ويعطي ابن زنبيل صورة أكثر تشاؤماً مما ذكره ابن إياس، فيقول: وطاف الغوري في حلب خالٍ من العسكر، ما فيه سوى قدر ألفين نفر من العسكر وغير العسكر، وكان سبب ذلك أن الغوري لما أقبل على حلب، دخلوا فيها وأخرجوا الناس من بيوتهم، وفسقوا في حريمهم وأولادهم وآدوهم الإيذاء الكلي، فبسبب ذلك قامت أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما أصابهم منهم⁽²⁾، ثم يصف ابن زنبيل الجيشين وعددهما فيقول: كان جيش الغوري اثنا عشر ألف رجل، بينما جيش العثمانيين مائة وخمسين ألف رجل، والتقى الجيشان، وكانت ابتداء الحرب يوم الأحد ثالث عشر من رجب سنة 922هـ الموافق 24 آب 1516م، وفي البداية كانت المعركة لصالح المماليك الجراكسة، ثم هجم العثمانيون هجمة واحدة فانكسر المماليك شر هزيمة⁽³⁾، وهنا تختلف الروايات، فابن زنبيل يقول: إن أحد عبيد الغوري قطع رأسه ورماها في الجب⁽⁴⁾، في حين يروي ابن إياس أن أحد مرافقي الغوري طلب منه عندما رأى هزيمة المماليك أن يهرب، وقال له: إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فأنج بنفسك، واهرب إلى حلب، فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج أبطل شقته وأرعى حنكه، وألفّت بعدها فرسه على أنه يهرب، فمشى خطوتين، وانقلب من على الفرس إلى الأرض، وخرجت روحه ومات من شدة قهره، وقيل فقعت مرارته، وطلع من حلقه دم أحمر،... وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر، ولا وقف له على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى،

- الغزي، كامل بن حسين بن مصطفى (ت 1345هـ/1926م) نهر الذهب في تاريخ حلب (3ج) نشر المطبعة المارونية، حلب، 1342-1345هـ/1923-1926م، ج1، ص347-377، الطبّاخ، إعلام النبلاء، ج3،

ص164-166

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص63-68

(2) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص16

(3) ابن زنبيل، سيرة السلطان افوري، ص25-27

- ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص69-70

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (ت 953هـ/1546م)، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، نشر: وزارة الثقافة، دمشق، 1964م، ص229-230.

- سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص529

(4) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص28، الطبّاخ، إعلام النبلاء، ج3، ص158-160

فكان الأرض قد انشقت وابتلعت جثته في الحال، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر⁽¹⁾، ويؤكد ابن أبي السرور أن الغوري ذهب تحت سنابك الخيل، وما عرف مكانه⁽²⁾ وبانهزام المماليك أخذ العسكر العثماني كل أموالهم التي أتوا بها إلى أرض المعركة، وهي لا شك كنوز كثيرة وصفها ابن زنبيل "ثم أخذ العسكر العثماني كل غنائم المماليك وكل التحف التي حملها قانصوه الغوري في سنين الذهب، جمعوها، جمعوها في ساعة... والذي لم يأخذه الفوري إلى معركة مرج دابق، تركه في خزائن حلب في قلعتها، أخذه السلطان سليم"⁽³⁾. ومما نقل أن الغوري لما خرج إلى ملاقة ابن عثمان أخذ معه مائة قنطار ذهب دنانير، ومائتين قنطار فضة، وقصده أن يجعل ذلك جوامك للعسكر، ونوى أنه إذا نصره الله على الروم وكسرهم لم يرجع حتى يلطم القسطنطينية ويأخذها من السلطان سليم⁽⁴⁾.

أما فلول جيش المماليك المنهزمة، فولت أدبارها منسحبةً إلى حلب، فمنعتهم حلب من دخولها، فانهزموا عنها، وكان أصل سعادة أهل حلب وقعة الغوري⁽⁵⁾ وأضاف ابن زنبيل تفاصيل أخرى عن نتائج المعركة "ولما وقعت الكسرة على الغوري، رجعت المشايخ إلى حلب، ينتظرون قافلةً يسافروا معها إلى مصر، فلما علموا بقدم السلطان سليم إلى حلب اختشوا من سطوته، فخرجوا من حلب، وقصدوا دمشق، منهم في الطريق والسلطان سليم قادم، فلاحت إليهم منه نظرة، فقال: من هؤلاء؟ قالوا له: هؤلاء مشايخ كانوا جاؤا بصحبة الغوري، فلما كسر وقتل يريدون الذهاب إلى بلادهم، فقال: حينئذ جاءوا يحاربوني، وأمر بإحضارهم، فلما مثلوا بين يديه، أمر بضرب أعناقهم جميع، فراحوا شهداء لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العظيم، وكانوا نحو ألف نفر، وكان السلطان سليم له جرأة وإقدام على القتل"⁽⁶⁾.

والحقيقة أن إيراد قتل هؤلاء المشايخ أمر ممكن الحدوث، خاصة أثناء الحروب، لا سيما إن لم يكن برفقة القائد المسلم علماء صالحون يأمرونه بالمعروف وينهونه عن

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص71

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص77، سرهنگ، حقائق الأخبار، ج1، ص529 وانظر: النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (ت990هـ/1582م) البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، نشر دار اليمامة، الرياض، دت، ص24.

(3) ابن زنبيل، سيرة السلطان الغوري، ص28-30، الطبّاخ، أعلام النبلاء، ج3، ص169 - سرهنگ، حقائق الأخبار، ج1، ص529

(4) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص30

(5) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص33، الطبّاخ، أعلام النبلاء، ج3، ص166

(1) ابن زنبيل، سيرة السلطان الفوري، ص40

المنكر، ومع أن الأمر ممكن الحدوث، لكن الأرجح أن السلطان سليم لم يفعل ذلك، لأكثر من سبب، من ذلك أنه يدخل بلاد الشام لأول مرة، وهي المدخل المناسب لتكون بداية علاقاته مع السكان العرب المسلمين طيبة، ويبدو لي أنه حريص على إيجاد مثل هذه العلاقات الطيبة، سيما وأنه جاء إليها بتوجهات إسلامية صادقة كقائد مسلم، ويصطحب معه نخبة من كبار رجال الحكم، فهم علماء وقضاة وشيوخ الطرق الصوفية المشهورة كالرفاعية والنقشبندية والمولوية والأحمدية⁽²⁾، والعثمانيين معروف تصوفهم، ورعايتهم للطرق الصوفية وتشجيعها، ومن ذلك ما أورده ابن أبي السرور عن السلطان سليم نفسه عند عودته إلى استانبول بعد فتحه لبلاد الشام، من وقوع حادثة مشابهة لهذه، قال ابن أبي السرور: "جرى نقاش في أدرنة، لما ذهب إليها السلطان سليم، وكان السلطان سليم قد أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن (مستودعات الدولة) فتنبه مفتيه العالم الفاضل مولاي علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجمالي، وذهب إلى الديوان العالي، ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان إلا لحادث عظيم، فتحير أهل الديوان، وقد أجله أهل الديوان واحترموه، فقال: أريد أن ألقى السلطان، ولي معه كلام، فعرف به السلطان، فأذن له وحده، فدخل وسلم عليه وجلس، ثم قال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخره السلطان، وقد سمعت أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً، لا يجوز قتلهم شرعاً، فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم خان، وقال: إنك تتعرض لأمر السلطنة، وليس ذلك من وظيفتك، قال: بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم.

فانكسرت عند ذلك سورة غضبه، فعفا"⁽¹⁾. فهذا يستدل به على حب السلطان سليم للعلماء، والتزامه بأحكام الشرع إن وجد من يذكره بها، ومن الحوادث التي تذكر كشاهد على ذلك أنه: "لما افتتح مصر، وجد بها قاضي مكة قاضي القضاة صلاح الدين محمد بن أبي السعود بن إبراهيم بن ظهيرة، وكان الغوري حبسه بمصر من غير ذنب، بل للطمع بماله فلما أنكر الغوري في مرج دابق، أطلق سراحه طومان باي، ولما وصل السلطان سليم إلى مصر، جاء إليه القاضي صلاح الدين، فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن إليه وجهه إلى مكة معزراً مكرماً"⁽²⁾.

انتصر العثمانيون على المماليك في مرج دابق، وأظهرت نتائج المعركة التباين في قوة كلا الطرفين، واختلال موازين القوى العسكرية بينهما من حيث أعداد الطرفين المتحاربين، والتفوق الكبير للعثمانيين عددياً، وإضافةً لذلك فقد أسهمت خبرات العثمانيين القتالية، واستعمالهم للأسلحة المتطورة، وخاصة المدفعية، في إحرازهم النصر الساحق على المماليك، وعلاوة على ذلك كان للخلافات الداخلية في جيش المماليك أثر سلبي عليهم، وبفضل الخيانات التي حدثت في صفوفهم أيضاً، وعلى

(2) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص10، 59

(1) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص92-93

(2) ابن أبي السرور، المصدر السابق، ص96-98

الأخص ما أورده المؤرخون من خيانة خاير بك للمماليك وانحيازه للعثمانيين⁽³⁾، وذكر بازلي إلى أن السلطان سليماً، وبعد تحطيمه الجيش الغوري، انضم إليه حكام المناطق في لبنان، أمراء جنوب لبنان وجبال لبنان الشرقية، الذين اشتهر منهم الأمير فخر الدين المعني الثاني (باني مجد الدروز) وساعده بأسلحتهم، فثبتهم في إقطاعاتهم الموروثة، كما يضيف نقلاً عن وثيقة مخطوطة في الأرشيف الوطني في باريس، بأن معركة مرج دابق عام 1516م، حضرها الأمير فخر الدين المعني، والأمير منصور الشهابي، وجمال الدين اليميني من عائلة تنوخ، الذين قدموا لمساعدة جانبردي الغزالي (حاكم دمشق من قبل أمير المماليك قانصوه الفوري)، وحين دخل السلطان سليم دمشق منتصراً، مثّل أمامه الأمير فخر الدين برفقة الغزالي، وقد أدهشت بلاغته سليماً، الذي كَرَّمه ومنحه شرف الأولوية على كل أمراء سورية، وكلفه بحل خلافاتهم⁽⁴⁾.

وعلى أثر الهزيمة الساحقة التي مُنيَ بها المماليك⁽²⁾، دخل السلطان سليم حلب، "واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم، وخطب له أهلها بما كانوا يقولونه لسلطين مصر بـ خادم الحرمين الشريفين، فلما خطب للسلطان سليم بهذا فرح بذلك واستبشر، وخلع على الخطيب جَلَّتْه التي كان يلبسها⁽³⁾ ويزيد الطبّاخ على ذلك "أن أهل حلب استقبلوا السلطان سليم في الميدان الأخضر بالتكبير والتسبيح، وهم يقرأون: (وما رَمِيتُ إذ رَمِيتُ، ولكن الله رمى) فأمنهم وقابلهم بالإجلال والإكرام، وتصدق على الجانب الخاص العام⁽⁴⁾.

وقد ارتحل السلطان عن حلب سائراً باتجاه دمشق، ليدخلها في 26 أيلول 1516م، بعد أن افتتح في طريقه إليها المدائن حماة وحمص، وعين على تلك المدن ولأهلاً من طرفه، وقابل من بها من العلماء، فأحسن وفادتهم، وفرّق الإنعامات على المساجد، وأمر بترميم الجامع الأموي بدمشق⁽⁵⁾، وتوجه السلطان سليم بعد دمشق قاصداً مصر لفتحها، وكان الغوري عندما خرج لملاقاة السلطان سليم قد عين نائباً عنه طومان باي، فأرسل إليه سليم الأول يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الدولة العثمانية على مصر، مقابل ترك المماليك ولأهلاً لتلك الدولة عليها، فلم يقبل طومان باي، واستعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود المصرية الشامية في العريش، والتقى الجيشان وهزم المماليك، فانسحب طومان باي وتحصن في القاهرة،

(3) اللخمي الإشبيلي، علي بن محمد (ت بعد 923هـ/1526م)، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس آرنست، نشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962.

SAAB. HASSAN. The Arab Federalists of The Ottoman Empire. Dgambatam N.V1958 P.108

- طقوش، محمد سهيل، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، نشر: دار بيروت المحروسة، طبعة أولى، بيروت، 1995م، ص155-156.

(1) بازلي، سوريا وفلسطين، ص28

(2) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج3، ص63

(3) دحلان، الدولة العثمانية، ج2، ص141-142.

(4) الطبّاخ، إعلام النبلاء، ج3، ص168، كرد علي، خطط الشام، ج2، ص211

(5) ابن طولون، إعلام الوري، ص239

وتبعه الجيش العثماني إلى القاهرة، فالتقى الجيشان في الريدانية عند أبواب القاهرة، وبعد قتال انكسر جيش طومان باي المملوكي أمام الجيش العثماني، وفر طومان باي إلى جنوب مصر، ودخل السلطان سليم القاهرة في 8 محرم 923هـ/1517م، ثم قبض على طومان باي بخيانة بعض من معه، وشنق بأمر السلطان سليم بباب زويله في القاهرة في 13 نيسان 1517م/ 21 ربيع الأول 923هـ⁽¹⁾. قال الجبرتي: ولما خلص له أمر مصر (السلطان سليم) عفا عن بقي من الجراكسة وأبنائهم، ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية، بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلل الحرمين والأنبار، ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين، ومصارف القلاع والمرابطين، وأبطل المظالم والمكوس والمغارم، ثم رجع إلى بلاده، وأخذ معه الخليفة العباسي، وانقطعت الخلافة والمبايعة، وأخذ صحبتته ما انتقاها من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده، بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة⁽²⁾.

وبعد أن أتم السلطان سليم فتح مصر، عزم على تجهيز جيش إلى الحجاز، "فاجتمع القاضي صلاح الدين بن ظهيرة بوزير مولانا السلطان سليم، وقال له: لا حاجة إلى تجهيز جيش، فإن الشريف بركات⁽³⁾ يكفيكم هذا الأمر، ويحصل لمولانا السلطان المطلوب، وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم، وأنه أول من يطيع مولانا السلطان، ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والأقطار الحجازية، ويكفي بدلاً عن الجيش أن تبعثوا له توقيعاً شريفاً من مولانا السلطان، فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم، فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات، وأن يكون ولده أبونمي مشاركاً، كما كان في مدة السلطان الغوري، وكتب القاضي صلاح الدين للشريف بركات الأخبار بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلقتان عظيمتان، واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبونمي، وجعل ذلك صحبتته الأمير مصلح بك، وبعث معه محملاً، وكان ذلك على إقبال شهر الحج، فلما قدم الأمير مصلح مع المحمل، ومعه الخلستان والتوقيع الشريف، وخلصه للكعبة المعظمة، خرج لمقابلته إلى الزاهر الشريف بركات وولده جمال الدين محمد أبو نمي، وكثير من الأشراف وغيرهم في موكب عظيم، ولبس الشريف وولده الخلستان، ودخلوا مكة، وأخذوا البيعة لمولانا السلطان سليم، ودعوا له بالخطبة وحصلت

(1) النهر والي، البرق اليماني، ص24

- ابن طولون، إعلام الوري، ص236-237

- اللخمي الإشبيلي، الدر المصان، ص: ط.

- سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص529-530

- كرد علي، خطط الشام، ج2، ص215

- المحامي، الدولة العلية، ص192-193

(2) الجبرتي، عجائب الآثار، ج1، ص29، سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص531

(3) الشريف بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان (858-931هـ/1454-1525م) شريف حسني ولد بمكة وولي إمارتها بعد وفاة أبيه سنة 903هـ، وكان فاضلاً حسن التدبير، استعان عليه الأتراك بأخيه هزاع، فقبضوا عليه سنة 907هـ/ وكنلوه وحملوه إلى مصر، فهرب من مصر، ورجع إلى مكة، فملكها سنة 908هـ، واستمر بها إلى أن توفي.

طاعة الناس وانقيادهم بالرضى والقَبُول⁽¹⁾، وبهذا ضمن السلطان سليم دخول الحجاز تحت سلطة الدولة العثمانية بدون قتال، وصار الحجاز بشكل فعلي تابعاً للدولة العثمانية إدارياً وسياسياً ودينياً، وبذلك يكون السلطان سليم الأول فاتح الشام ومصر والحجاز قد حاز عملياً على لقب خادم الحرمين الشريفين، ولقب بـ خليفة المسلمين كأول سلطان عثماني ينال لقب سلطان خليفة، ويستمر إطلاق لقب الخليفة على من سيأتي من السلاطين العثمانيين، لكن هؤلاء الخلفاء لم يستعملوا هذا اللقب بشكل فعلي إلا بعد اشتداد الهجمة الدولية على الدولة العثمانية، وتآلب الدول الاستعمارية عليها⁽²⁾، حينذاك يستعمل السلطان عبد الحميد هذا اللقب من أجل إثارة مشاعر المسلمين لمساندة دولة الخلافة الإسلامية والنهوض للدفاع عنها في وجه المؤامرات الدولية المكثفة التي تتعرض لها⁽³⁾، أما بالنسبة لعناية السلاطين العثمانيين بالحجاز والصُّرة التي يرسلونها للحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فقد استمر العثمانيون بعد فتح بلاد الشام ومصر، والقضاء على الدولة المملوكية، ودخول الحجاز تحت طاعتهم طوعية، استمروا في إرسال أوقاف الصرة إلى الحجاز سنوياً⁽⁴⁾، كما أنهم قبلوا وطبقوا مراسيمها، وأضافوا إلى مقدار الصرة أيضاً، وقد زاد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) مقدار الصرة المرسلة إلى مصر، التي كان السلطان سليم ووالده بايزيد الثاني يرسلانها إلى الحرمين الشريفين، لأنهما كانا يستشعران مسؤولية العناية بالحرمين وسائر المقدسات الإسلامية في بلاد الشام كالمسجد الأقصى في القدس والمسجد الإبراهيمي في الخليل والمسجد الأموي في دمشق، "وكان السلطان سليم كوالده

(1) النهر والي، البرق اليماني، ص24-25، ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص96-89 - دحلان، الدولة العثمانية، ج2، ص143-144، سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص531 وانظر: محاسنة، محمد حسين، صفحات من تاريخ آل البيت، نشر: مطبعة البهجة، الطبعة الأولى، إربد، الأردن، 1998م، ص134.

(2) منسي، حركة اليقظة العربية، ص30، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص87.

(3) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص66، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص87

- جميل، تكوين العرب الحديث، ص154

(1) بدأ إرسال السلاطين العثمانيين الأوائل الصرة إلى مكة والمدينة، وهي الإعانات، (صرة Surre)، وكان أول من أرسلها هما

السلطان بايزيد بن مراد، الملقب بـ يلدرم، (761هـ-805هـ/1360-1403م)، وابنه السلطان محمد الأول الملقب بـ: جلبي،

(781-824هـ/1379-1421م)، وبعد ذلك أخذ السلطان مراد الثاني بن محمد الأول، جلبي (806-855هـ/1403-1451م)

يرسل إلى مكة والمدينة والقدس وخليل الرحمن (صرة) مقدارها 3500 فلوري (سبق تعريفه في هذا الفصل)، فقد كان مقدار

الصرة التي أرسلت في سنة 855هـ/ 1451م، في عهد بايزيد الثاني والد السلطان سليم الأول

ما يعادل 801 كيس (والكيس يحوي عشرة آلاف قرش ذهبي، أما كيس الفضة (الأقجة) فيحوي خمسين ألف قرش

في بداية القرن الثامن عشر)، وفيما عدا الصرة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح عقب فتح القسطنطينية، لا يعرف

كم أرسلت في السنوات التالية، أما صرة ابنه بايزيد الثاني، التي كانت مخصصة لأهل مكة والمدينة مناصفة، فقد

كان مقدارها أربعة عشر ألفاً من الدوكات (Duka)، (والدوكا عملة ذهبية تعادل 200 أفجة أي 200 قطعة فضة).

انظر: جارشلي، أمراء مكة، ص25-26، إيفانوف، الفتح العثماني، ص75. وانظر حول لقب خادم الحرمين الشريفين: عزب،

خالد، لقب خادم الحرمين الشريفين، مجلة الاجتهاد، بيروت، السنة(11)، العدد (43)، صيف عام 1999م، ص75، سي

كثير المحبة لأهل الحرمين الشريفين، حسن الالتفات إليهم، كثير الاحسان والتعطف عليهم، وضاعف الصرة التي كان يجهزها والده للمقدسات الإسلامية"⁽²⁾.

وبإتمام فتح بلاد الشام وإلحاق الحجاز ومصر لها تنتهي المرحلة الأولى من فتح العثمانيين لأقطار الوطن العربي، ويليهما لاحقاً إكمال ما بدأه السلطان سليم على يدي ولده السلطان سليمان، ويقفل هذا السلطان راجعاً إلى الشام، ويكمل رحلة العودة إلى القسطنطينية، وأراد بفتحه الشام ومصر أن يبدأ جمع ما تفرق من أجزاء البلاد الإسلامية، وأن يعلي كلمة الاسلام، وبإتمام فتح الأقطار العربية تُضم جميع سواحل البحر المتوسط الآسيوي والأوروبي إلى الراية الإسلامية، تحت كلمة الخلافة التي سعى السلطان سليم أن ينال شرف حملها، ويكمل ذلك بحياسة مفاتيح الحرمين الشريفين⁽³⁾.

(2) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص96

(3) نامق، عهد الفتح، ص40-42

2- العثمانيون ومسألة الخلافة

اختلفت الآراء، وتعددت المواقف وتباينت حول انتقال مؤسسة الخلافة⁽¹⁾ ولقبها وشعارها ومقرها إلى العثمانيين إثر الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر، وما نتج عن ذلك من احتكاك بين السلطان العثماني سليم الأول والخليفة العباسي المتوكل على الله⁽²⁾، والحقيقة أنه لا بد من التأكد على أن الخلافة تمثل في النظام السياسي الإسلامي القاعدة الأصلية التي يقوم عليها ويستند إليها هذا النظام، وهي تمثل أيضاً في المفهوم الإسلامي السلطة التي تقوم نيابةً عن الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يعد القائد الأعلى للدولة الإسلامية، وقد عرفها الماوردي بأنها: خلافة النبوة في حراسة الدين والدنيا⁽³⁾، وعرفها ابن خلدون بأنها: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدينية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا⁽⁴⁾، ومن الناحية العملية فقد نشأ نظام الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتخاب أبي بكر الصديق كأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم، وتوالى الخلفاء الراشدون عقب خلافة

(1) الخلافة والخليفة لفظان لغويان مشتقان من الفعل خَلَفَ، والخَلْف: ضد القُدَام قال تعالى: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم (البقرة 255)، وخَلَفَ ضد تقدم وسلف، والمتأخر لقصور منزلته يقال له خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخَلْف: الرديء، والمتأخر لا لقصور منزلته يقال له خَلْفٌ، قال تعالى: فخلف من بعدهم خَلْفٌ (الأعراف/169)، والخَلْف: الظهر، خلف فلان فلاناً إذا كان خليفته، يقال: خَلَفَهُ في قومه خلافةً، وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي، استخلفته: جعلته خليفتي، واستخلفه: جعله خليفة، والخليفة: الذي يُسْتَخْلَفُ ممن قَبْلَهُ، والجمع خُلَاف، والجمع خُلَفاء، والخلافة: الإمارة، قال الزجاج: جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه، وقال غيره: الخليفة، السلطان الأعظم. انظر: الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد (ت502 هـ/1108م)، مفردات غريب ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، نشر: دار القلم والدار الشامية، طبعة أولى، بيروت، 1992م ص239-295.

- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711 هـ/1311م) لسان العرب (15ج) نشر دار صادر، بيروت، 1968م، ج9، ص82-97.

- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817 هـ/1415م) القاموس المحيط (4ج)، نشر دار الجيل، بيروت، دت، ج3، ص140-142.

(2) المتوكل على الله: هو المتوكل الثالث (870-950 هـ/1466-1543م) محمد بن يعقوب (المستمسك بالله) بن عبد العزيز (المتوكل الثاني) بن يعقوب العباسي، آخر خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر، نزل له أبوه عن أعمال الخلافة سنة 914 هـ، قيل دخول السلطان سليم الأول مصر، فلما دخلها سليم سنة 922 هـ/1517م قبض عليه وأخذه معه إلى الأستانة، ولم يقبض على أبيه الكبير سنة، فمكث مدة في الأستانة، ثم أطلقه السلطان سليم قبل وفاته، فعاد إلى مصر، وأجرى له كل يوم 60 درهماً، فأقام إلى أن توفي فيها، وبوفاته انقرضت الخلافة العباسية بمصر وغيرها، وكان أديباً فاضلاً له شعر. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام (8ج)، نشر: دار العلم للملايين، طبعة ثامنة، بيروت، 1989م، ج7، ص147.

(3) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت450 هـ/1058م)، الأحكام السلطانية، تحقيق عبد الرحمن عميرة، نشر: دار الاعتصام، القاهرة، 1994م، ص60.

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808 هـ/1405م) المقدمة (3ج)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، نشر دار نهضة مصر، طبعة ثالثة، القاهرة، 1981-79م، ج2، ص578.

أبي بكر، وهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وانتقلت الخلافة بعد ذلك إلى البيت الأموي، حيث دامت الخلافة في بني أمية في دمشق إلى سنة 132هـ، وبسقوط خلافة الأمويين على أيدي بني العباس، تتابع خلفاء بني العباس في بغداد إلى السنة التي قضى فيها هولاء على آخر خلفائهم سنة 656هـ/ 1258م، ودخلت الخلافة بعد الراشدين في مرحلة الحكم الوراثي، ثم انتقلت قيادة العالم الإسلامي بعد بني العباس إلى المماليك في مصر، فتوالى عليها المماليك البحرية، فالمماليك الجراكسة، الذين قضى السلطان سليم الأول على دولتهم بفتح مصر عام 1517م، بعد هزيمته لهم في مرج دابق⁽²⁾. ولم يتخذ المماليك لأنفسهم لقب خلفاء، بل كان الخلفاء من العباسيين الذين هربوا إلى مصر إثر استيلاء هولاء على بغداد وقتله الخليفة فيها، تقدم أحد بني العباس، وهو أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله بعد ثلاث سنوات إلى سلطان مصر الظاهر بيبرس الذي بايعه بالخلافة، وتكونت به الخلافة العباسية الثانية بالقاهرة⁽³⁾، ولم يكن لهذه الخلافة من نفوذ سياسي، بل كان طابعها الديني الصوري هو القائم، وهو ما كان يحتاجه المماليك لتأييد سلطانهم، ولم يكن للخليفة من عمل إلا أن يبارك من استطاع أن يحصل على السلطان⁽⁴⁾. وزيادة على ذلك كان المماليك يتحكمون بالخليفة ويعرضونه للمهانة والإذلال، ضاربين منصبه ومقامه جانباً في سبيل تحقيق مصالحهم وتنفيذ سياستهم، وقد ذكر ابن تقي بردي عن السلطان إينال أنه وبخ الخليفة وأمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة بأخيه يوسف، في يوم الخميس ثالث رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة، ثم سَفَر الخليفة القائم بأمر الله المذكور إلى سجن الإسكندرية، فسجن بها مدة سنين، ثم أطلق من السجن وسكن بالإسكندرية إلى أن مات بها في أواخر سنة 862هـ⁽¹⁾.

ويشار هنا إلى أن فتح مصر، ومن ثم دخول الحجاز في طاعة العثمانيين أمران ضروريان مكملان لفتح بلاد الشام من قبل السلطان سليم، لأن في ذلك إضفاء الشرعية الدينية على الفتح العثماني للبلاد العربية، على اعتبار أن العلاقة الدينية التي

(2) الشعبوني، محمد، موقف البلدان المغاربية من مسألة الخلافة (ر.ج)، إشراف عبد الجليل التميمي، نوقشت عام 1992م في تونس، مركز الرسائل الجامعية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمّان، ص35-38.

(3) المحامي، الدولة العلية، ص194، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص231

(4) الشعبوني، موقف، ص38

(1) ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص68

قامت على أساس العقيدة ثم الخلافة الإسلامية، هي الأساس الذي بنيت عليه العلاقات العربية العثمانية بشكل رسمي، توج بفتح بلاد الشام ومصر، وضمن ولاء الحجاز، وقد دخلت تلك العلاقات مرحلة جديدة يمكن تسميتها مرحلة العلاقات الجيدة بين الدولة العثمانية كسلطة حاكمة لبلاد الشام، وبين العرب سكان هذه البلاد، ورعايا هذه الدولة منذ الفتح وحتى مطلع القرن العشرين، وكان العامل⁽²⁾، الأهم في إدخال العلاقات العربية العثمانية هذه المرحلة الحسنة، بعد المقدمات المشجعة قبل الفتح العثماني لبلاد الشام، هو كون الأتراك العثمانيين مسلمين، مما جعل الغالبية المسلمة من مواطني البلاد العربية بما فيها بلاد الشام، في أغليبيتهم يقبلون الحكم العثماني، وبخاصة في وقت ضعفت فيه الدولة الإسلامية، وأصبحت الأطماع الأوروبية تهدد العالم الإسلامي، واعتبر المسلمون في البلاد العربية الدولة العثمانية امتداداً لدولة الخلافة الإسلامية، فانضوا تحت لوائها، وتعاون العرب مع العثمانيين في ظل دولة الإسلام⁽³⁾.

لقد تناول المؤرخون مسألة انتقال الخلافة من الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله إلى السلطان العثماني بالأخذ والرد، فالروايات تشير إلى أن السلطان سليم الأول لما التقى الخليفة حمله معه إلى استانبول، وأجبره على التنازل عن الخلافة، والاختلاف قائم حول هذه القضية من جانبين: الأول أن السلطان سليم اصطحب معه الخليفة إلى استانبول بعد أن قفل راجعاً إليها من فتح بلاد الشام ومصر، والثاني أن السلطان سليم أجبر الخليفة على التنازل له عن لقب الخلافة، والواقع أن المؤرخين العرب المسلمين المعاصرين لهذا الحدث لم يتطرقوا إلى اصطحاب السلطان سليم للخليفة إلى استانبول، ولا إلى إجباره على التنازل له عن الخلافة، فابن زنبيل، وهو مؤرخ المماليك من خلال كتاب سيرة السلطان الأشرف قانصوه الغوري، لم يتطرق لمسألة الخلافة وتنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم الأول عنها⁽¹⁾، كما أن ابن إياس المعاصر لهذه الأحداث، هو الآخر لم يأت على ذكر التنازل عن الخلافة وانتقالها للسلطان العثماني⁽²⁾، في حين يُظهر الجبرتي تعاطفاً واضحاً مع المماليك، ويظهر ازوراراً جلياً عن العثمانيين، بل ويعرض بهم في سياق حديثه عن معركة مرج دابق الحاسمة وما سبقها وما تلاها، ويشير إشارة عابرة إلى ما حدث بين الخليفة والسلطان سليم حين يقول عن هذا الأخير "ثم رجع إلى بلاده، وأخذ منه الخليفة العباسي"⁽³⁾ ونلاحظ معه ابن أبي السرور، وهو ممن أرخوا للدولة العثمانية يركز على سجايا آل

(2) بني المرجة، موفق، صحوة الرجل المريض، نشر: دار البيارق، طبعة ثامنة، بيروت، 1996م، ص46.

(3) الدجاني، يعقوب كامل، الثورة العربية الكبرى، نشر: دار القدس، عمان، 1991م ص14-16. وانظر: موسى، سليمان، من تاريخنا الحديث (الثورة العربية: الأسباب، المبادئ، الأهداف)، نشر لجنة تاريخ الأردن، طبعة أولى، عمّان، 994م، ص9

- إيفانوف، الفتح العثماني، ص65-66

وانظر: خليل، تاريخ الوطن العربي، ص63

(1) ابن زنبيل، سيرة السلطان الغوري، ص23-30

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص69-73

(3) الجبرتي، عجائب الآثار، ج1، ص29

عثمان، ويشيد بالسلطان سليم وبمآثره في حسن التعامل مع سكان البلاد الشامية والمصرية وكذلك مع أشرف الحجاز، دون أن يلفت النظر إلى مسألة التنازل عن الخلافة⁽⁴⁾، غير أن الطَّبَّاح، وعلى الرغم من تأخر فترته، إلا أنه يأت بخبر بصيغة التشكيك فيه حين يقول: "قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان، عظمه وأجلسه وجلس بين يديه، فأشيع أنه قال له: أصلكم من أين؟ فقال له: من بغداد، فقال له ابن عثمان: نعيدكم إلى بغداد كما كنتم"⁽⁵⁾.

ويتجه المؤرخون المعاصرون في هذه القضية الخلافية اتجاهاً، أولهما: اتجاه يرى أن السلطان سليماً لم يكره الخليفة العباسي على التنازل عن الخلافة، مع احتمال أن يكون قد اصطحبه معه إلى عاصمة ملكه استانبول، وأن الخليفة لم يتنازل له عن الخلافة، ويستندون في هذا إلى جملة أدلة وقرائن تعضد وجهة نظرهم، ومن تلك الأدلة:

1- لم يرد في كتابات المؤرخين الرسميين الذين اصطحبهم السلطان سليم معه إلى مصر ما يدل على أن الخليفة المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان سليم، فكتابات المؤرخ التركي أحمد فريدون، وهي نوع من اليوميات التي تسجل ما فعله السلطان في مصر حتى عودته، لا تشير إلى هذه الحادثة، مع أنها ذكرت تفاصيل دقيقة، وتصف هذه اليوميات الخليفة العباسي بأنه الخليفة المتوكل على الله محي الدين من آل العباس.

2- إن ابن إياس المعاصر لدخول السلطان سليم إلى مصر، قد دوّن الكثير من الوقائع العثمانية، دون أن يذكر شيئاً عن التنازل.

3- إن أقرب المؤلفات التاريخية إلى عهد السلطان سليم هو المعروف بـ تاج التواريخ، لمؤلفه سعد الدين ابن شيخ الإسلام الذي صاحب سليماً أثناء غزوة مصر، وهو لا يذكر شيئاً عن الخلافة.

4- إن نقود السلطان سليم لا تحمل لقب خليفة.

5- إن الخطباء في مصر ذكروا سليماً بلقب سلطان.

6- إن السلطان سليم كان يبعث الرسائل إلى ابنه، ونائبه في استانبول ابنه الأمير سليمان، يخبره بتفاصيل الأحداث، ولم يرد في رسائله خبر التنازل من المتوكل عن الخلافة له.

(4) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص 96-98
(5) الطَّبَّاح، إعلام النبلاء، ج 3، ص 168

7- إن لقب خليفة فقد أهميته منذ زمن طويل، ولم يكن السلاطين بحاجة إلى اللقب، ويبدو أن السلطان سليم نفسه لم يكن ليهيم به، لأن الخليفة المتوكل وقع في أسرهم، وكان يستطيع إرغامه على التنازل عن الخلافة، لكنه لم يفعل ذلك.

8- إن من الوثائق المهمة التي تدعم الرأي القائل بعدم التنازل، وثيقة رستم باشا عبد الكريم، وكان وزيراً في عهد السلطان سليمان بين سنتي 1544-1552م، وهي مؤرخة سنة 1557م، تشير إلى ألقاب السلطان جميعها، دون أن يكون من بينها لقب خليفة⁽¹⁾.

أما الاتجاه الثاني، فيرى أن التنازل عن الخلافة قد وقع من الخليفة المتوكل على الله إلى السلطان سليم الأول، وأنه سلمه الآثار النبوية، التي تعتبر شعار الخلافة، وهي البردة النبوية، وبعض شعيرات من لحية الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيف النبي صلى الله عليه وسلم المسمى ذو الفقار، والبيرق، كما سلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين، وقد انتقلت هذه الآثار إلى استانبول مع عودة السلطان سليم إليها، وهي محفوظة في مسجد أبي أيوب الأنصاري باستانبول، ويستدل أصحاب هذا الاتجاه على أن التنازل قد تم فعلاً، بأن أصحاب الاتجاه الأول ينفون التنازل عن الخلافة للتشكيك في شرعية الخلافة العثمانية⁽²⁾، وهناك رأي ثالث يرى أن التنازل لم يحدث من الخليفة للسلطان سليم، ويقدم أصحاب هذا الرأي وجهة نظر توفيقية مفادها أن السلطان سليم لم يأخذ الخليفة العباسي إلى استانبول، وأن الخلافة ظلت في المتوكل على الله حتى وفاته عام 1543م، بعد ذلك مباشرة انتقلت إلى العثمانيين، وأن السلطان سليماً كان شغوباً بنقل كل ثمين من مصر إلى الأستانة، وأن السلاطين العثمانيين لم يهتموا في بداية الأمر بإبراز صفة الخلافة في ذلك الوقت المبكر لأسباب منها: أن الخلافة وقتئذ كانت قد فقدت مكانها، ولم يعد الخليفة أكثر من رمز للتبرك، بينما كان العثمانيون يبنون مجدهم في ذلك الوقت على أساس القوة العسكرية وحدها، ولم يكونوا بحاجة إلى قوة روحية تشد أزهرهم في مواجهة أوروبا⁽³⁾، ويرى بروكلمان أن الرواية التي تقول إن السلطان سليم قد أخذ الخليفة العباسي إلى استانبول من بين الرهائن الآخرين الذين أخذوا، ثم أكره على التنازل عن الخلافة، ومن ثم أطلق سراحه، لا تعدو عن كونها أسطورة، "والحقيقة أن سليماً قد أعلن نفسه قبل ذلك خليفة على المسلمين في خطبة الجمعة وبوصفه خليفة استلم في شهر آب سنة 1517م مفاتيح الكعبة"⁽³⁾.

(1) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 65-66، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 86-87 - الحصري، البلاد العربية، ص 42-46

(1) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 46، الصفصافي، الدولة العثمانية، ص 329 طقوش، العثمانيون، ص 161

سرهنك، حقائق الأخبار، ج 1، ص 531

(2) منسي، حركة اليقظة العربية، ص 29-30

(3) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية (الدولة العثمانية) ج 3، ص 63-64 - طقوش، العثمانيون، ص 161

والحقيقة أن قضية التنازل عن الخلافة كما ورد في بعض الآراء الآنف الذكر، ليست بالمهمة كثيراً، لأنه سواء تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم أم لم يتنازل له، فإن شرعية حكم العثمانيين للبلاد العربية باسم الإسلام لن تكون مظلتها هذه الإجراءات الشككية، التي يرى الباحث أن السلطان سليم لا يحرص عليها كثيراً⁽¹⁾، ولا يعول عليها أيضاً، لأنه يستند إلى ما هو أقوى وأهم منها، ألا وهو القوة العسكرية من جهة كما يقول منسي⁽²⁾، والرابطة الإسلامية المبنية على الأخوة في العقيدة والدين من جهة ثانية، وعلى ضم الأماكن المقدسة إلى الدولة، واستلام مفاتيح الحرمين على أثر إعلان أشرف الحجاز الولاء له، وإتمام عملية تسليم المفاتيح في مصر⁽³⁾، بالإضافة إلى أن السلطان سليماً قد أعلن نفسه خليفة على المسلمين منذ دخول الشام بعد مرج دابق، ثم خطب له كخليفة بحلب، وهو ما يراه الباحث، استناداً إلى ما قاله المؤرخون من أن السلطان سليماً "دخل حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم، حاملين المصاحف على رؤوسهم، وخطب له أهلها بما كانوا يقولونه لسلطين مصر بـ خادم الحرمين الشريفين، فلما خطب للسلطان سليم بهذا فرح بذلك واستبشر، وخلع على الخطيب حلتة التي كان يلبسها"⁽⁴⁾.

لقد حقق السلطان سليم الأول بجهده وجهاده الدؤوب الهدف الذي سعى إليه في ضم أجزاء مهمة من البلاد العربية إلى الدولة العثمانية، وهي بلاد الشام، ومصر والحجاز، وتكتمل فكرة الضم تلك في عهد خلفه وولده السلطان سليمان القانوني (المشرع)، حيث تصبح جميع البلاد العربية ولايات عثمانية ضمن وحدة سياسية متكاملة هي دولة الخلافة، وصحيح أن السلاطين الأوائل لم يطلق عليهم خلفاء، لكنهم جمعوا ما تفرق من البلاد الإسلامية، وأعلوا كلمة الإسلام، بالإضافة على سواحل البحر المتوسط الآسيوية والأوروبية⁽⁵⁾.

(1) لا كما ورد عند الطباخ من أن السلطان سليماً كان شديد الرغبة في القبض على الخليفة، وفي إجباره أن يخلع الخلافة عن نفسه وينزل له عنها، ويفتح مصر والشام والحجاز لينال طاعة المسلمين له، الطباخ، إعلام النبلاء جـ3، ص121-122

(2) منسي، حركة اليقظة العربية، ص30

(3) ابن أبي السرور، المنح الرحمانية، ص30

(4) دحلان، الدولة العثمانية، ج2، ص141-142

SAAB, The Arab Federalists. P. 108

(5) نامق، عهد الفتح، ص40-42

فالخلافة هي موحدة هذه البلاد عملياً، دون النظر إلى إشكالية التسمية اللفظية للسلطان بـ: خليفة⁽¹⁾، وعندما شعر العثمانيون بأهمية تلك التسمية في مواجهة الدول الصليبية بما فيها روسية، عندها أصروا على التمسك اللفظي بلقب خليفة لإشهاره في وجه الأعداء لإخافتهم بها، لأن هؤلاء الأعداء يدركون تأييد العالم الإسلامي للعثمانيين، وأن المسلمين في العالم الإسلامي هم رصيد الخلافة البشري، أخذ الخليفة العثماني يلوح بهم كسلاح يستخدمهم في مواجهة تلك الدول الصليبية، وكان أول استخدام لهذا اللقب في معاهدة كوجك كينارجي التي وقعت سنة 1774م بين السلطان العثماني عبد الحميد الأول (1203-1137هـ/ 1734-1789م) وإمبراطورة روسيا كاترين الثانية، وبموجب هذه المعاهدة وافقت روسيا على أن يكون للسلطان العثماني - خليفة للمسلمين - الحق في حماية المسلمين في شبه جزيرة القرم، وهذا ينسجم مع السياسة الإسلامية التي تبنتها الدولة العثمانية في مواجهة أعدائها⁽²⁾.

ويذكر الجميل إلى أن السلطان محمود الثاني (1199-1255هـ/ 1785-1839م) هو أول صاحب مشروع لتطبيق الخلافة، من أجل مواجهة قوة أوروبا وتقدمها، وكانت أسبابه سياسية محضة كعلاج للحالة التي وصلت إليها دولته العثمانية، وكأحد الأساليب الإصلاحية لإنقاذها، تحت اسم التنظيمات⁽³⁾، إلا أن هذه المحاولات المتكررة لتطبيق نظام الخلافة، باعتبارها الرمز الإسلامي لشرعية النظام العثماني، لم تأخذ مكانها الطبيعي كصفة ملازمة للسلطين العثمانيين، على أنهم أئمة المسلمين وخلفاؤهم، بسبب سلسلة المشكلات المزمنة التي تعاني منها الدولة في الداخل والخارج، بحيث لم يعط العثمانيون فرصة كافية لالتقاط الأنفاس، والبحث في المؤسسات المدنية لنظام الخلافة، وسن التشريعات والأنظمة التي تكسبها الصفة السياسية المتطورة المواكبة لمستجدات المرحلة التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، وهي الفترة التي عاشتها أوروبا بعد الثورة الفرنسية، على أن مجال البحث يخص الجوانب السياسية لنظام الخلافة، وفي المسائل التشريعية القابلة للتطوير، بما لا يتدخل في النصوص العامة الواردة في مصادر التشريع، التي لا سبيل للاجتهاد فيها كأساس يعتمد عليه في استنباط النظم السياسية، وبعد وفاة السلطان محمود الثاني سعى ابنه عبد المجيد الأول أن يسن نظاماً وتشريعات، إكمالاً لما بدأه والده من إصلاحات

(1) وقد أشار برنارد لويس إلى الألقاب التي أطلقت على القادة العثمانيين خلال الفترات الزمنية المتتابعة أثناء تطور دولتهم وتوسعها، وهي تلقى الضوء على طبيعة تلك الألقاب متناسبة مع ظروف إطلاقها على القادة العثمانيين يقول لويس: بدأت الدولة العثمانية كإمارة مجاهدي الثغور، ولم يُدع رئيسها لقباً أعلى من لقب أمير الثغور (أوج بيك باللغة التركية أو: أمير الغازين، أي المقاتلين في الجهاد الإسلامي ضد الكفار، وهكذا كان الحكام العثمانيون الأوائل قد قنعوا بلقب (الغازي)، (المجاهد)، ففي لوحة منقوشة من سنة 1337م، يدعو الحاكم العثماني أورخان نفسه بـ: السلطان بن السلطان، الغازي بن الغازي بن الغازي، سيد حدود الأفاق، بطل العالم، ويعرف أحمددي شاعر القرن الرابع عشر الميلادي، والذي تعتبر قصته عن العثمانيين أقدم مصدر تاريخي عثماني مكتوب بقوله: إنه أداة دين الله، وخدام الله، والذي يظهر الأرض من رجس الشرك... وسيف الله. انظر: لويس، استانبول، ص45-46

(2) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص66، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص87

عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص50-51، الشعبوني، موقف، ص39

(3) الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث ص152-153، ص157

وتنظيمات، وعمل على تنشيط الدولة العثمانية، وبعث الحياة فيها من جديد، بإعلان ونشر مشروع الإصلاحات التي تميز بها عهد والده⁽¹⁾، ونجد الفكرة نفسها تنبعث من جديد على يدي السلطان عبد الحميد الثاني (1258-1337هـ/1842-1918م) حين تولى الخلافة عام 1876م، فأخذ يعمل على إحياء مشروع الخلافة متلازماً مع فكرة الجامعة الإسلامية، نظراً لإدراك هذا السلطان حجم المخاطر التي تتعرض لها الدولة العثمانية في عهده، والتي صارت تتهدد كيان الدولة ككل⁽²⁾، فكان العمل على إحياء التضامن الإسلامي تحت مظلة الخلافة، ضرورة ملحة لمواجهة الموقف الخطر الذي تعاني منه دولة الخلافة كما سيأتي في الفصل الثاني.

- أوضاع بلاد الشام الإدارية في ظل العثمانيين بين 1516-1876م:

انضوت بلاد الشام وشقيقاتها مصر والحجاز تحت لواء الدولة العثمانية إثر الفتح العثماني لها، وقد ترك العثمانيون الوضع الإداري لبلاد الشام كما كان في السابق أيام حكم دولة المماليك لها، فكانت بلاد الشام تقسم إلى ثلاث ولايات هي: حلب في الشمال، ودمشق في الجنوب وتشمل بعض الساحل، وطرابلس التي تمتد على ما بقي من الساحل، وتقسم الولاية إلى ألوية (سناجق)، وعلى رأس كل لواء مدير (سجقدار)⁽¹⁾، وينقل الحصري عن علي أفندي الذي كان أميناً عاماً للدفتر الديواني، وألف رسالةً عنوانها: قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان، يعني: قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان، وكان تأليفها عام 1018هـ/1609م، أي في عهد السلطان أحمد الأول ابن محمد الثالث، ويبين في تلك الرسالة أن الدولة العثمانية كانت تقسم حينذاك إلى 32 إيالة منها 14 عربية، ولم يكن في هذه التقسيمات الإدارية تمييز للبلاد العربية عن غيرها إدارياً، ومن هذه الإيالات التي تخص بلاد الشام:

- 1 - إيالة (ولاية) الشام، تقسم إلى 11 لواء، وهي لواء دمشق، لواء القدس الشريف، لواء غزة، لواء صفد، لواء اللجون، لواء نابلس، لواء عجلون، لواء صيدا مع بيروت، لواء

(1) الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ص 153
(2) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 45-46، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 51-52
خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 66، الشعوني، موقف، ص 40
الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ص 153-154، منسي، حركة اليقظة العربية، ص 30
(1) بيهيم، محمد جميل، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، نشر مكتبة عيسى الحلبي، طبعة أولى، القاهرة، 1950م، ص 37.
رافق، المشرق العربي، ص 67-68

كرك مع شوبك، لواء عكا. 2- إيالة (ولاية) طرابلس الشام. 3- إيالة (ولاية) حلب. 4- إيالة (ولاية) الرقة أو الرها⁽²⁾.

ويبدو أن بعض التعديلات الإدارية كانت تطرأ على تلك التقسيمات بين الحين والآخر، حيث يشير بيهم إلى أن بلاد الشام كانت في بداية القرن الثامن عشر، تقسم إلى خمس باشويات (نسبة إلى باشا)⁽³⁾ هي: 1- الشام، 2- صيدا، 3- فلسطين، 4- طرابلس، 5- حلب، هذا عدا إيالة تدمر، وإيالة عجلون، وهي الملحقة بباشوية فلسطين، وكان لكل إيالة مجلس شورى، يتألف من كبار العلماء (علماء الشريعة) والموظفين والأعيان، ويرأسه نائب السلطنة، وله الإشراف على الشؤون المالية والإدارية، وأما القضاء، فكان منوطاً بالقضاة الشرعيين، ماعدا الدعاوي الجنائية والجزائية، فكانت من اختصاص الموظف المسمى: (قاضي باشا)، وهو من قادة الجند، ويليه في حق استماع هذه الدعاوى (التفكجي باشا) وهو كرئيس الضباط⁽⁴⁾.

وأما في نهاية الفترة العثمانية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد كانت الشام مقسمة إدارياً إلى خمس ولايات، ويذكر ذلك شاهين مكاريوس جامع كتاب حسر اللثام وهو متوفى عام 1910م يقول: وأما أقسام الشام الإدارية على حسب نظام حكومتها الحالي، فهو أن البلاد مقسومة إلى خمس ولايات، أولها: ولاية حلب، وهي القسم الشمالي من البلاد. والثانية: ولاية بيروت، وهي السواحل البحرية المعروفة وما يليها في داخلية البلاد من اللاذقية شمالاً إلى حيفا جنوباً. والثالثة: ولاية الشام أو سورية، وقاعدتها مدينة دمشق، وهي تشمل داخلية البلاد وشرقيها. والرابعة: متصرفية القدس، وهي تشمل جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود القطر المصري. والخامسة: متصرفية لبنان، وأمرها معروف، ولهذه المتصرفية نظام خاص واستقلال إداري، ولها والٍ تعينه الدول

(2) الحصري، البلاد العربية، ص 230-234

(3) الباشا: لفظة تستخدم في بلاد الشام، وتطلق عادة على من يصل لرتبة لواء فما فوق في الجيش أو الشرطة، وقال النهروالي: هي لقب تعظيم بمعنى: رئيس. انظر: النهروالي، البرق اليماني، ص 75

(4) بيهم، الحلقة المفقودة، ص 38

مع الباب العالي كل عشر سنين⁽¹⁾، وموقعها في أواسط بلاد الشام بين ولايتي سورية وبيروت.

وجميع الولايات الشامية تابعة في أمورها العسكرية إلى مشير العرض الهمايوني الخامس من فرق الجيش العثماني، ومركزه في دمشق. وتقسم الولاية إلى متصرفيات، والمتصرفية إلى قائمقاميات، وهذه بدورها تقسم إلى مديريات في كل بلاد الدولة العثمانية، وفي كل مديرية وما فوقها مجلس للإدارة ومجلس للجنايات⁽²⁾.

أما فلسطين فكانت تقسم كوحدة إدارية إلى المناطق التالية:

1- في الشمال متصرفية عكا، تشمل أفضية حيفا طبريا صفد، متصرفية نابلس، وتشمل قضائي جنين وطولكرم، وكلها تتبع ولاية بيروت.

2- في الجنوب: متصرفية القدس، تشمل: أفضية القدس، يافا، غزة، الخليل، بئر السبع، وتخضع مباشرة للحكومة المركزية في الأستانة⁽³⁾، أما مناطق شرق الأردن، فجعلت جزءاً من ولاية دمشق، وكانت متصرفية القدس لاستقلالها وأهميتها تقيم علاقاتها واتصالاتها مباشرة مع وزارة الداخلية العثمانية دون أن تتبع أي ولاية من الولايات⁽⁴⁾.

كانت بلاد الشام، شأنها شأن سائر ولايات الدولة العثمانية وأقاليمها تعاني في كثير من الأحيان من سوء الأوضاع الاقتصادية، وقلة العناية بالمرافق والخدمات، ولهذا ظهرت المجاعات وتفشت الأمراض، وكان التعليم محدوداً، وربما كانت أسباب ذلك كله لانشغال الدولة في الحروب، و"الفتن الداخلية التي لا تنقطع في مناطق بلاد الشام"⁽⁵⁾ وكان للجيش الإنكشاري دور رئيس في إثارة الفوضى والفتن في الدولة العثمانية، واستمر الحال على هذه الفوضى حتى تمكن السلطان محمود الثاني بن عبد

(1) وأراد بالدول هنا: الدول الأوروبية التي تنتظر إلى جبل لبنان ذي الأغلبية السكانية من النصارى أن له وضعاً خاصاً، تشرف عليه وتعمل على حماية هؤلاء النصارى، وخاصة فرنسا، التي تعتبر النصارى المارونيين في لبنان تابعين دينياً لها، فكانت تتسق مع الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى لرعاية مصالحهم، وأظهروا في تلك الحرب وما بعدها ميولاً وولاءً صريحاً لفرنسا وطالبوا بالانفصال عن الشام. انظر: الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(2) مكاريوس، حسر اللثام، ص13-14، الحكيم، يوسف، سورية والعهد العثماني، نشر: المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966م، ص16.

(3) وسبب هذا اللاحق المباشر بالعاصمة استانبول هو تخوف الدولة العثمانية من الدسائس والمؤمرات والخطط التي كان اليهود بالتآمر مع بريطانيا والدول الأوروبية آنذاك لشراء الأراضي في فلسطين وتكثيف هجرة اليهود إليها، لإيجاد دافع يعطي اليهود الحق في إقامة دولة لهم في فلسطين. انظر حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (1897-1909م)، دن، بيروت، 1978م، ص76-84.

(4) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص67-70.

(5) بينهم، الحلقة المفقودة، ص39.

الحميد الأول (1199-1255هـ/1785-1839م) من حل ذلك الجيش وتشكيل الجيش النظامي، وكان ذلك في 16 يونيو 1826م الموافق 10 ذي القعدة 1241هـ، وكان قد شكلت الانكشارية في سنة 1361م بعد 465 سنة على تأسيسها⁽⁴⁾ فدخلت البلاد في عهد جديد، خصوصاً عقب أن أعلن ابنه السلطان عبد المجيد الأول (1237-1277هـ/1861-1822م) الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات، وقال عنها مسيو دولافلاي: إنها لتركيا بمثابة الثورة الفرنسية لفرنسا⁽⁵⁾.

تناولت هذه التنظيمات الإدارة والجند والمالية، وبمقتضاها أصبحت ولاية سورية تتألف من ثمانية سناجق (ألوية) وهي: دمشق، بيروت، طرابلس، اللاذقية، عكا، حماة، البلقاء، حوران، أما حلب فقد صارت ولاية مستقلة، ثم انفصلت بيروت عن دمشق عام 1888م، وصارت ولاية ثالثة، وكانت تتألف من: بيروت، عكا، طرابلس، اللاذقية، نابلس⁽¹⁾.

وكانت أوضاع بلاد الشام على العموم مستقرة، والسلطة الرسمية تفرض هيبتها على أنحاء البلاد، ويعين قائد الولاية من قبل الدولة، وعموم الموظفين في كل منطقة من سكانها، "فالسُلطة في الحجاز للأشراف، وفي الشام لأسر عربية عديدة، فلبنان كان يحكمه الشهابيون والمعنون، وبنو ساعد في حوران وعجلون، وآل جبار في السلمية وشرق حلب، والحارثيون في اللجون ونابلس، وكانت هذه الأسر مستقلة داخلياً في مقاطعاتها"⁽²⁾ وقد أشاد مكاريوس بحالة استتباب الأمن والاستقرار في أيامه أواخر القرن التاسع عشر بقوله:

"وكان سلاطين آل عثمان العظام الذين أسسوا هذه الدولة، يريدون أن يعيش الناس في ظلهم آمنين مستريحين، فاتخذوا العدل لهم شعاراً، وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد مناراً، وأبقوا لكل أمة حكموها الخيار في المحافظة على نفسها وتقاليدها ودينها، فضمنوا بذلك ارضاء الأهالي من كل جنس ومذهب عن دولتهم، وحب هؤلاء الأقوام لحكومتهم، وتسليم الأفراد والجماعات لإرادتهم، حتى دانت لهم الرقاب، وخضعت لهيبتهم الطوائف، يمثل هذا قامت سلطة آل عثمان واتسع نطاقها، وازداد سؤدها، وعظمت قوتها، ورسخ قدمها في البلدان الكثيرة التي ملكتها ببسالة سلاطينها وقوادها، وقد عادت هذه السياسة القديمة الناجمة عن نيات حميدة وأسرار طاهرة عادلة بجميع ما قصد منها، بحيث لم يمض الوقت القصير على العرش العثماني، إلا وأضحت رايته الهلالية تخفق في جهات كثيرة من الأرض، تظلل بظلها أمماً كثيرة رتعت في بحبوحه العدل والأمن والطمأنينة، مع أنها

(4) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص676، المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص124.

(5) المرجع السابق، ص39، انظر: مكاريوس، حسر اللثام، ص24-25.

(1) المرجع نفسه، ص39-40.

(2) الشهابي، القومية العربية، ص38-39.

SAAB. The Arab Federalists. P.110

كانت سبباً لإلقاء الرعب في قلوب كل عدو يحاول أن يأتي أمراً منكراً لفساد في سريرته، أو مطامع في نفسه⁽³⁾.

ويجدر بالذكر هنا ما كان يقوم به السلاطين العظام من أعمال جلييلة في سبيل توفير الأمن والاستقرار في ربوع بلاد الشام، والسعي لتأمين سبل الحياة الكريمة للسكان، وحراسة القوانين العادلة والسهر على تطبيقها، فهذا السلطان سليمان القانوني، ابن السلطان سليم الأول (974-900هـ/ 1494-1566م) الملقب بصاحب القرن، لاتفاق ولادته في أول القرن العاشر الهجري، وكان ينادى بصاحب الكمالات العشر، إشارة إلى حسن أخلاقه، قد عمل على إخماد المتمردين وقتلهم التي ثارت بعيد بلاد الشام، وذلك حين أبدى جانبردي الغزالي تمرداً، وطاوعته نفسه الاستقلال بالشام في بداية عهد السلطان سليمان، فوجه إليه السلطان سليمان حملة بقيادة الوزير فرحات باشا في سنة 1520م/926هـ انتهت بقتل الغزالي على مشارف دمشق، وعين السلطان سليمان الوالي إياس باشا بدلاً عنه في السنة المذكورة⁽¹⁾، وكان السلطان سليمان القانوني الذي عرف بهذا الاسم لسنه التشريعات والقوانين التي تنظم الدولة (المشرع) قد أصدر أوامره للقضاة وأهل الشرع بقوله: "إن بقاءكم في الحياة متوقف على استقامتكم وقسطكم، وإذا اتخذتم الصرامة، فلتكن صرامة عادلة"⁽²⁾ ولهذا اعتبر مكاريوس أن ما حدث في لبنان عام 1860م من فتنة بين النصاري والمسلمين، وما رافق ذلك من مذابح واضطرابات لم تكن بقصد أحد من السلاطين أو رجال دولتهم الأمراء، بل من العمال، ومن تعدي الفئات التي أبادها السلطان محمود الثاني، ولم ينج هؤلاء من القصاص الصارم عندما بلغ خبر فعلتهم أذان السلطان⁽³⁾، ويضاف إلى ذلك ما كان يقوم به السلاطين العثمانيون من عمل جليل، من خلال تأمين طريق الحج والعناية به⁽⁴⁾، ومع ضخامة هذا العمل وأهميته بالنسبة للعالم الإسلامي برمته، فقد اعتبره البعض عملاً بسيطاً ثانوياً، بل وزيادة على ذلك، جعله وسيلة لانتقاص العثمانيين الذين كانوا يقدمون الأموال الطائلة للقبائل المقيمة في مناطق طريق الحج من أجل كفايتهم حتى لا يهاجموا حجاج بيت الله الحرام وينهبوا امتعتهم⁽⁵⁾، وقد سعى السلطان عبد الحميد الثاني، ومنذ سني حكمه الأولى على تأمين الخدمات العامة لبلاد الشام، خاصة في مجال تحسين شبكة الطرق، لا سيما مد الخط الحديدي الحجازي، الذي كان يربط العاصمة استانبول بمكة والمدينة، مروراً بحلب ودمشق وعَمَّان ومَعان، وأية خدمة تعادل هذه الخدمة، التي حرص من خلالها على تمتين العلاقات بين الحكومة العثمانية ورعاياها العرب سكان هذه البلاد، انطلاقاً من الشعور الصادق بقدسية العلاقة بين هذين الطرفين، وهذا يأتي لاحقاً توضيحه وبيانه في الفصل الثاني.

(3) مكاريوس، حسر اللثام، ص 22-23، P.110، SAAB.The Arab Federalists.

(1) كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١١١، الحلقة المفقودة، ص 39

(2) مجلة الهلال، عدد (2)، سنة أولى، أكتوبر 1892م، ص 33-35، الكاتب تحرير الهلال.

(3) مكاريوس، حسر اللثام، ص 25

(4) انظر ص 23 من هذا الفصل.

(5) الصوريكي، محمد علي الكردي، شرق الأردن والعهد الفيصلي (1918-1920)، نشر: دار عمار، طبعة أولى، عَمَّان، 1993، ص 17.

لقد كان التأثير العثماني على تغيير بنية المجتمع في بلاد الشام والبلاد العربية الأخرى محدوداً جداً، فقد احتفظ العثمانيون بالبناء الاجتماعي والاقتصادي، الذي كان سائداً في هذه البلاد قبل دخولها في حوزتهم، ولم يفرضوا عليها القوانين والأنظمة العثمانية الصرفة، لئلا يخلوا بتنظيماتها، بل على العكس من ذلك قد قبلوا بالولاء للعربية والإسلام، انقياداً لطبيعتها الإسلامية على المدى البعيد⁽¹⁾ تاركين لشعوب هذه البلاد مؤسساتهم السابقة وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم⁽²⁾، لهذا فإن ما درج عليه الكتاب الغربيون، ومن استعمروا نفوسهم من الكتاب الشرقيين، من نسبة كل تأخر وقصور للدولة العثمانية إنما هو محض إغراض وإقتراء، وكأننا كنا متقدمين آنذاك، وأمسك بنا الأتراك وأرجعونا إلى الوراء، إن هذا من ثمار الدعاية اللئيمة التي أوجدها المستعمرون للقضاء على هذه الدولة واقتسام ممالكها، وقد قضت هذه الدولة شهيدة الواجب الإسلامي، تحمل السلاح تدافع عن ديار الإسلام بعدما عمرت ستة قرون، حكمها قانون واحد لا قانونين، وجمع بينها وبين الدول العربية، ألا وهو قانون الإسلام، لا كما فعل المستعمرون حين جثموا على صدر البلاد العربية، وكان العرب شركاءها في الإدارة لبلادهم، وكانت رحيمةً ليس فقط على الشعوب الإسلامية، بل الشعوب غير الإسلامية أيضاً⁽³⁾.

إن النهج الذي نهجه السلاطين العثمانيون في تعاملهم مع البلاد العربية، ضمن علاقات الأخوة القائمة بين الطرفين، كان نهجاً حكيماً وصائباً سارت عليه تلك الدولة منذ بداية علاقاتها مع بلاد الشام وحتى نهاية عهد عبد الحميد الثاني، وقد خلقت تلك العلاقات بين العرب والعثمانيين وحدة سياسية جمعتهم جميعاً في دولة واحدة، أكسبت البلاد العربية استقراراً كانت تفقده منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وفي ظل الدولة العثمانية لم تعد بين البلاد العربية حدود سياسية فاصلة، ولا حواجز جمركية تقف في وجه انتقال العربي من بلد لآخر، وممارسة ألوان من النشاط دون أية قيود⁽⁴⁾، وذلك يرجع إلى الرابطة الإسلامية التي ربطت العرب بالعثمانيين عبر الفترة الطويلة من العلاقات بينهم، وكانت تلك الرابطة أقوى الروابط، ذابت فيها عناصر الجنس والوطن، وكانت العاطفة الدينية والوطنية ممتزجتان في نفوس العرب والعثمانيين، بحيث كان من الصعب الفصل بينهما، ولم يكن كيان العروبة منفصلاً عن الإسلام، وإنما كان عامل شدة وتثبيت للعلاقة بين العرب والعثمانيين خلال المرحلة القادمة من العلاقات، التي ازدادت وتوثقت في فترة خلافة السلطان عبد الحميد الثاني، التي يتناولها الفصل الثاني من الدراسة بالتفصيل والتوضيح.

(1) SAAAb.TheAra Federalists. P.109

(2) منسي، حركة البقطة العربية، ص32

(3) النمر، نظرات، ص15-16، 248-249، وانظر: لويس، استانبول، ص149، زين، نشوء القومية العربية، ص27

(1) منسي، حركة البقطة العربية، ص34

الفصل الثاني
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1876-1908م
"العلاقات الجيدة"



- مقدمة: العرب و العثمانيون في رد الحملات الصليبية الأوروبية:

اتسمت علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بعد فتحها عام 1516م، وحتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بداية حكم الخليفة عبد الحميد الثاني 1876م، بالعلاقات الطبيعية، كان العرب في هذه البلاد خلال الفترة المذكورة يدينون بالولاء للدولة العثمانية، ولما كانت أغلبية سكان هذه البلاد من المسلمين السنة، فقد جاء انقيادهم لها من إدراكهم بأنها وريثة الخلافة الإسلامية بعد العباسيين، وأن العثمانيين لم ينتزعوا البلدان العربية من أيدي العرب أنفسهم، بل من أيدي السلاطين المماليك، الذين حكموا بلاد الشام ومصر والحجاز بعد انحلال الخلافة العباسية باسم الإسلام، وخلفهم العثمانيون في ذلك، وقد نالت البلاد العربية إلى حد كبير استقلالاً ذاتياً في ظل العثمانيين في الفترة بين عامي 1516م وحتى 1908م⁽¹⁾ وكانت سلطة الدولة العثمانية تتمثل بالوالي والحامية العسكرية، والحكام الإداريين التابعين للوالي في المدن والألوية والقرى، وما خلا ذلك فإن سائر الموظفين من أبناء البلاد العربية، لهذا فإن العلاقة بين العرب والعثمانيين في بلاد الشام كانت تسودها روح التفاهم منذ تأسيسها، وإلى أن بدأت رياح القوميات تهب على هذه البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتبث بذور الشقاق والفرقة بين العرب، والعثمانيين، وتؤلب كلا منهما على الآخر، تحت غطاء التعليم والثقافة، بأساليب ووسائل جديدة، يسمونها عوامل النهضة، ثم يقررون بعد ذلك أن الكراهية والشحناء والتباغض والتنافر هي المفردات التي تتميز بها العلاقات بين العرب في بلاد الشام وبين العثمانيين، فهذه تعاميم وعبارات مبالغ فيها⁽²⁾، بل يمكن القول إنها تجانب الحقيقة، بروحها أعداء العثمانيين والعرب على حد سواء، من ذوي الاتجاهات التقريبية⁽³⁾ الذين كتبوا عن العثمانيين، وسعوا من خلال كتاباتهم تلك إلى غرس هذه الأفكار في عقول الأجيال التي أعقبت تلك الفترة، فحملت الانطباع عن الثمانين بأنهم مستعمرون مخربون، تميز عصرهم بالجهل والتخلف والرشوة والمحسوبية وغير ذلك⁽⁴⁾.

وتؤكد الحقائق التاريخية أن العثمانيين ومنذ نشأة دولتهم ينظرون إلى العرب نظرة إكرام، وينظرون إلى الولايات العربية التي دخلت في ظل دولتهم بعد عام 1516م نظرة تختلف عن سائر الولايات الأخرى، لأن سكان هذه الولايات يتكلمون اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وقد شغل عدد كبير من العرب وظائف عالية "حساسة" في الدولة العثمانية، وكانت الوظائف مفتوحة أمامهم، ووصل كثيرون منهم إلى مناصب وزراء وأعيان وصدارة عظمى وشيخ الإسلام، وإلى جميع دوائر الدولة العليا⁽¹⁾، يقول جب: إن سوريا أكثر من أية ولاية آسيوية أخرى، أفادت مادياً من ضمها إلى الإمبراطورية العثمانية، نتيجة للعلاقات التجارية التي أقامتها مع بلدان

(1) برو، توفيق، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، نشر: دار طلاس، طبعة أولى، دمشق، 1991، ص25-26. وانظر: الحصري، البلاد العربية، ص45-46، موسى، من تاريخنا الحيث، ص9

(2) زين، نشوء القومية العربية، ص20-22، وانظر: النمر، نظرات، ص20-21

(3) انظر: عازوري، نجيب، بقطة الأمة العربية، تعريب أحمد أبو ملحم، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دت، ص196-197، خضور، الصحافة السورية، ص23، الحصري، البلاد العربية، ص47

(4) الشهابي، القومية العربية، ص42

(1) زين، نشوء القومية العربية، ص26-27

أخرى، إذ كانت تتمتع بنظام اجتماعي واقتصادي وقّرا لها شيئاً من الحياة المزدهرة، ومن الإنصاف القول إن العثمانيين لم يحاولوا قط دمج العنصر العربي أو تتركه، إلا بعد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني من قبل حزب الاتحاد والترقي عام 1908م⁽²⁾.

اخطت الدولة العثمانية طريقها إلى النجاح والعظمة، ووصلت غاية توسعها وامتدادها في عهد السلطان سليمان القانوني (الأول) ابن السلطان سليم الأول، وذلك بإدخاله البلاد العربية الآسيوية والأفريقية تحت مظلة سلطتها وسيادتها، لكنها ما لبثت أن انكفأت على نفسها، وبدأ الضعف يدب في أوصالها شيئاً فشيئاً، وأخذت تسير نحو الانحطاط والانحدار، من جميع الوجوه المادية والمعنوية⁽³⁾، وكانت أسباب ذلك التراجع متعددة من أهمها تكثيف الدول الأوروبية الغربية حربها لها، بعد أن وصلت حدود امبراطوريتها إلى أطراف فيينا، متضمنة دول البلقان جميعها، أو ما يسمى دول أوروبا الشرقية، وقد انطلقت أوروبا في هجومها المعاكس على العثمانيين من الروح الصليبية التي تنادت لرد الزحف الاسلامي العثماني عن بلادها، لوصوله مرحلة باتت تهدد كياناتها بما تعلنه من استمرارها في الجهاد في سبيل الله، لفتح روما بعد القسطنطينية، مروراً بالنمسا وفرنسا وغيرهما من دول أوروبا الغربية، فكان هذا التوجه العثماني بمثابة ناقوس الخطر الذي نبه المجامع الكنيسية الغربية وزعاماتها الروحية والسياسية من أجل طرد المارد الاسلامي العثماني، والسلاح القصيدة الدينية ذاته الذي يتقدم العثمانيون نحوهم تحت لوائه، وتحقيقاً لذلك أخذت تلك الدول الصليبية ترفع شعار الصليب وتدعوا بعضها لتناسي خلافاتها، وتتداعى لحمل السلاح وتوحيد القوى تحت لواء قداسة البابا، الذي استجاب فأعلن إشارة الخطر في أوروبا، ودعاها إلى اتحاد مسيحي جديد ضد الغزاة المسلمين وذلك إيماناً ببداية حروب صليبية حديثة، ما انفك بابوات روما يعلنونها لقرون سابقة سلفت، وقد أورد بيهم تسلسلاً لتلك الحروب بشكل مقتضب نذكرها هنا لبيان أهميتها وأثرها في إضعاف الدولة العثمانية، وإشغالها عن الالتفات للبناء الداخلي وتنظيم وتطوير ولاياتها، تمهيداً للقضاء عليها في وقت لاحق واقتسام ممتلكاتها:

- 1- حرب المجر سنة 1396م، وفيها اتحدت المجر وبعض الإفرنسيين والألمان وورهبان رودس والفلاخ، وكان النصر حليف العثمانيين.
- 2- حرب ألبانيا سنة 1470م، وفيها اتحد إسكندر الألباني مع جيرانه على الدولة العثمانية في حرب دامت 25 سنة وانتهت بانتصار العثمانيين.
- 3- حرب البندقية سنة 1472م وفيها اتحد البنادقة وأتباع البابا وأمير نابولي، وكان النصر حليف العثمانيين.
- 4- حرب الدول المتحدة سنة 1472م، وفيها اتحدت البنادقة وأتباع البابا وفرنسا ونابولي وورهبان رودس، وكانت حرباً بحرية لم تسفر عن نصر حاسم لأي من الفريقين.

(2) جب، المجتمع الاسلامي، ج2، ص30

(3) الحصري، البلاد العربية، ص47

- 5- حرب الدول المتحدة 1501م، وفيها اتحد البنادقة والبابا ونابولي وفرنسا ورودس والتحمت الحرب في البر والبحر، وعقد الصلح قبل حسم الحرب عسكرياً.
 - 6- حرب النمسا سنة 1532م، وفيها اتحدت النمسا وإسبانيا وألمانيا والبابا ضد العثمانيين، وخاضوا حرباً ضدهم انتهت بالصلح.
 - 7- حرب الدول المتحدة سنة 1538م، وفيها اتحدت البندقية وإسبانيا ومالطة والبابا وجنوة والبرتغال، وكانت الحرب برية وبحرية انتصر فيها العثمانيون.
 - 8- حرب الدول المتحدة سنة 1560م، وفيها اتحدت إسبانيا والبابا وجنوة وفلورنسا ومالطة وصقلية ونابولي وموناكو، وكانت الحرب بحرية لم تسفر عن نتيجة حاسمة.
 - 9- حرب البندقية سنة 1517م، وفيها اتحدت البندقية وإسبانيا والبابا وموناكو، وكانت الحرب بحرية، ظهر فيها تفوق الدول المتحدة التي احتلت بعض الجزر.
 - 10- حرب النمسا سنة 1663م، وفيها اتحدت النمسا وفرنسا وألمانيا، وكانت الحرب برية، انتصر فيها هؤلاء على الدولة العثمانية.
 - 11- حرب النمسا سنة 1683م وفيها اتحدت النمسا وبولونيا وساكس وبافاريا، وكانت الحرب برية"، انتصر فيها العثمانيون، وطاردوا الجيوش النمساوية وحلفاءها حتى حاصروا فيينا، ولكن أوروبا التي اهتزت جزئاً لهذا الانتصار بادرت إلى نجدة النمسا، فارتد العثمانيون عنوةً، وخسروا خسارة كبيرة كانت بداية الانحدار والضعف في الدولة العثمانية.
 - 12- حرب النمسا 1684م، وفيها اتحدت النمسا وبولونيا والبندقية ورهين مالطة والبابا وروسيا، وكانت حرباً بحرية هائلة استمرت إلى سنة 1695م، انتهت بانكسار دولة الخلافة العثمانية وجلائها عن المجر.⁽¹⁾
- وإضافة إلى هذه الحروب الصليبية التي حمل لواءها باباوات روما، انصبت على الدولة العثمانية حروب أخرى كانت ذات صبغة سياسية ودينية في آن واحد، وكانت من آثار إثارة الفاتكان للصليبيين في أوروبا من أجل "تطهير أوروبا من الكافرين!!" وكان البابا يشجعها وينشطها شخصياً بوسائل كثيرة منها منحة الأوسمة والألقاب التي كان يمنحها لأبطال تلك الحروب، وقد أطلق على أسطفان ملك البغدان لقب: بطل النصرانية وحامي الديانة المسيحية.
- واستمراراً لتلك الحملات الصليبية المكثفة، حملت روسيا على عاتقها مسؤولية تعتبرها إكمالاً وريفاً لأدوار دول أوروبا الغربية، في العمل المكثف لإضعاف الدولة العثمانية، من خلال شنّها حرباً طويلة على شكل حلقات متتابعة للغرض ذاته وأهمها:

(1) بَيَّهْم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، نشر: شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، 1954، ص 72-73 .

- 1- سنة 1677م بسبب التجاء خان إقليم أوكرين في القوازق، وقعت الحرب ثم جرى الصلح سنة 1681م.
- 2- سنة 1695م تعدى الروس على بلاد القوازق فردهم العثمانيون وانتصروا على روسيا.
- 3- سنة 1696م عاد بطرس روسيا فاحتل ميناء آزاق في قفقاسيا.
- 4- سنة 1711م قام العثمانيون بأخذ الثأر وانتصروا على الروس وكادوا يأسرون القيصر.
- 5- سنة 1736م اتحدت روسيا والنمسا على الدولة العثمانية في حرب كان سببها بولونيا فانتصر العثمانيون.
- 6- سنة 1768م عادت الحرب ثانية بسبب مطامع روسيا، فانتصر العثمانيون.
- 7- سنة 1774م استؤنفت الحرب وانتصر الروس.
- 8- سنة 1787م بدأ الروس الحرب وساندتهم النمسا وانتصروا ثانية على الدولة العثمانية.
- 9- سنة 1806م احتلت روسيا الأفلاق والبغدان فخفت تركيا لمحاربتها وناصريتها انكلترا، فطلبت روسيا الصلح.
- 10- سنة 1828م أعلنت روسيا الحرب بسبب اليونان وانتصرت.
- 11- سنة 1853م وهي حرب القرم التي اتحدت فيها فرنسا وبريطانيا ضد روسيا وانتصرت الدولة العثمانية فيها.
- 12- سنة 1877م أعلنت روسيا الحرب باسم تحرير البلقان بالاتفاق مع بعض دوله، وكان لها ما أرادت حيث خرج العثمانيون من عدد من مناطق البلقان وانتصرت روسيا.⁽¹⁾

فالملاحظ من هذه الحروب المنظمة المخطط لها، أنها كانت ترمي إلى إبقاء الدولة العثمانية في أتون الحرب من أجل إرهاقها، لا لشيء إنما لكونها تحمل الاسلام وتجاهد في سبيل نشره، ولو كان لها هدف غير هذا لما تجمعت كل الدول الأوروبية، على الرغم مما بينها من الصراعات واختلاف المصالح، ولما حاربتها ورمتها على قوس واحدة، ولا شك أن العرب عامة وأبناء بلاد الشام خاصة، كانوا شركاء العثمانيين في هذه الحروب، وكانوا يدفعون ضريبة لهذه الدولة التي هم جزء منها ورعايا لها، ضريبة الأنفس والأرواح، إذ كان الجيش الإسلامي العثماني يتكون من المسلمين من جميع ولايات الدولة العثمانية، في حين كانت الدولة العثمانية تقضي غير المسلمين من الخدمة الاجبارية في جيشها تطبيقاً لحكم الشرع الاسلامي في هذا الخصوص، مقابل دفع هؤلاء الجزية التي أوجبها الاسلام عليهم.⁽¹⁾ فهذه الحروب التي أخذت بأعناق بعضها البعض مدة خمسمائة سنة متوالية، وهي الجزء الأكبر من عمر

(1) بيهيم، فلسفة التاريخ العثماني، ص75-76
(1) الشناوي، الدولة العثمانية، ج1، ص98

الدولة العثمانية، كانت من أعظم عوامل انحطاطها، خصوصاً أنها صرفتها عن الأخذ بأسباب التمدن الحديث والقيام بأي إصلاح وتجديد⁽²⁾.

في خضم تلك الصراعات التي تخوضها الدولة العثمانية ضد أعدائها العديدين، ظهرت عليها علائم الضعف والانحسار، وذلك في مطلع القرن التاسع عشر، وشعر الخلفاء العثمانيون آنذاك، خاصة السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (1199-1255هـ/1785-1839م) أن الدولة تحتاج لدماء جديدة كي تبعث فيها الحياة ثانية، بعد سلسلة النكسات والحروب التي تعرضت لها، لا سيما بعد أن أخذت الدول الأوروبية تضيق الخناق عليها عسكرياً وسياسياً، إذ بدأ الأوروبيون في هذا القرن بفتح جبهة ثانية على العثمانيين، إضافة للجبهة العسكرية التي يحاربونهم فيها، هذه الجبهة هي إثارة الروح القومية في داخل أرجاء الدولة العثمانية وبين شعوبها وأعراقها المختلفة بما فيهم العرب⁽³⁾، وكان على العثمانيين أن يديروا المعركة بكفاءة وتوازن، بحيث يحموا حدود دولتهم الخارجية، وفي الوقت ذاته يحافظوا على الاستقرار الداخلي، من خلال إبقاء البنية الاجتماعية للدولة متماسكة، واستيعاب ردود الأفعال الأتينية التي يحركها الأعداء لخلخلة البناء الداخلي للأمة من خلال إثارة العصبية العرقية بين عناصرها.

فكانت أولى خطوات الإصلاح على يدي السلطان محمود الثاني، بعد أن وصل الضعف في الدولة حداً لا يمكن الإغضاء عنه، مع الإحساس بدقة الظرف الذي تمر به الدولة، وتمثل ذلك بإصداره فرماناً يقضي بحل الانكشارية في 15 حزيران 1826، بعد أن وقفت هذه الفرق العسكرية بالمرصاد لكل إصلاح تحاول إفشاله، وتتدخل في شؤون الدولة صغيرها وكبيرها، علاوةً على أنها السبب في كثير من الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة في حروبها الأخيرة، خاصة مع روسيا، وفي المقابل أمر هذا السلطان بتأسيس جيش عثماني مدرب حسب النظام الفرنسي⁽⁴⁾.

(2) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص76

(3) انظر عن الإنكشارية: الفصل الأول، ص22. وانظر: الحصري، الدولة العثمانية، ص16-17
ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص17-19، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص40-43، رشيد رضا، مجلة المنار، م1، ع37، 19 رجب 1316هـ، ص743، الإصلاح في الدولة العلمية.

(1) شرف، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص300، الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص17
- طلس، محمد أسعد، تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث)، نشر: دار الأندلس، بيروت، 1963، ص25.
- الهلال عدد 3، سنة أولى، 1982م، ص68-69، سعدون، فواز، الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني، نشر: دار النهار، طبعة أولى، بيروت، 1994م، ص17.
- الجميل، سيار، تكوين الغرب الحديث، نشر: دار الشروق طبعة أولى، عمان/ 1997م، ص386، - الحصري، الدولة العثمانية، ص76-81

- ويشار في هذا السياق إلى أن مفهوم الإصلاح الذي درج المؤرخون المعاصرون على إطلاقه على الخطوات التي اتخذها السلاطين العثمانيون في القرن التاسع عشر، وعدّوها سمةً من سمات تلك المرحلة، إنما رُوِّج له دعاء التغريب من ذوي الفكر العلماني، وأضافوا عليه هذه الصفة الحسنة "الإصلاح" وهو في الحقيقة كان يأخذ شكلاً آخر يسعى إليه الوزراء الماسونيون أنصار التغريب في الدولة العثمانية، ويهدف إلى إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحكم، واستبدالها بأنظمة وتشريعات مستمدة من القوانين المدنية الغربية، ويظهر ذلك من الخطوات التي اتخذها هؤلاء الوزراء في عهد السلطان عبد المجيد الأول وعبد العزيز كما وجد تيار آخر للإصلاح من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها التي تعتبر المنهاج الرباني المتكامل للإصلاح ويرى

وجاء السلطان عبد المجيد الأول بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني عام 1839م، لتزداد الحملة في عهده ضراً في التحرك الجاد لاستحداث قوانين جديدة في الدولة، تهدف إلى مواكبة الغرب في التشريعات والاقتباس منه، وفي الوقت ذاته تحل تلك القوانين محل التشريعات المستمدة من الشريعة الإسلامية في شتى المسائل والقضايا، ويبرز هنا دور الشخصيات المحيطة بالسلطان عبد المجيد الأول مثل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) والوزراء، وهؤلاء جميعاً من أنصار التغريب (التجديد، الإصلاح) وكانت الخطوة الباهرة بإصدار القانون المعروف بـ خط شريف كلخانة في 1839/11/3م، "أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن السراي"⁽²⁾، أصدره الصدر الأعظم، ووزير خارجيته رشيد باشا، وذلك سنة 1839م.

ورشيد باشا عضو بارز في المحفل الماسوني⁽¹⁾، تقلد منصب الصدر الأعظم، بعد أن كان سفيراً للدولة العثمانية في فرنسا وعدة دول أوروبية، فانبهر بالأنظمة البرلمانية الغربية، فلما تقلد منصبه عزم على تطبيق تلك الأنظمة، بأن يجعل لبلاده دستوراً "عصرياً"⁽²⁾ ويعتبر هذا القانون طعناً مباشراً للتشريعات الإسلامية في "الشفاف"⁽³⁾ لكونه تناول الشريعة الإسلامية بالتحريف، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين، فجاء هذا القانون الخطير الذي يظن أن رجال الدولة اعترفوا بأن القوانين الإسلامية لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم، ولا بد من الأخذ بأساليب الغرب، ولو

هؤلاء أن في ذلك التطبيق إخراج للدولة من مشكلاتها التي تعاني منها، انظر: فرغل، حسن محمود حسن، مدحت باشا والي بغداد، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1994م، ص 56-57، مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 254-255

(2) شرف، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص 341، الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص 18 - مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 252، - سرحان، محمد، النظام العثماني، نشر: دار دمشق للطباعة طبعة أولى، دمشق، 1993م، ص 20-22.

(1) يقول شريف مارودين إن رشيد باشا كان متأثراً بالأفكار الغربية، وكان عضواً في المحفل الماسوني، وكان سفراء بريطانيا وفرنسا قد افتتحوا محافل ماسونية جديدة في عاصمة الدولة العثمانية في هذه الفترة، حيث افتتح السفير البريطاني هنري بالور (HENRY BULWER) في سنة 1857م، أول محفل ماسوني بريطاني في الدولة العثمانية، وبعد سنة واحدة من سنة 1858م، افتتح السفير الفرنسي لدى الدولة العثمانية محفلاً ماسونياً فرنسياً في أراضي الدولة العثمانية، وكان من أعضاء المحفل الماسوني الفرنسي آنذاك: هم علي باشا، فؤاد باشا، مصطفى فاضل باشا، رشيد باشا، سليمان باشا، أدهم باشا، منيف باشا، انظر:

- MARDIN, SERIF, THE GENESIS OF YOUNG OTTOMAN THOUGHT, UNIVERSITY PRESS PRINCETON NEW JERSEY P. 115-116.

- CREASY, HISTORY OF THE OTTOMAN TURKS P. 531.

(2) طلس، تاريخ الأمة العربية، ص 25-26

(3) مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 252

تعارض ذلك مع الشرائع والسنن، وهذا الإعلان وحده يكفي للدلالة على أن رجال الدولة في ذلك الحين لم يكونوا أقل رغبة في "الإصلاح" ولا جرأة عليه من الكماليين⁽⁴⁾.

وكانت خطوات رشيد باشا العملية تقضي بوضع قانون جديد للعقوبات وفق القوانين الحديثة، واستقدم رجلاً من فرنسا ليضع تفاصيل ذلك القانون، فأحس الناس بخطورة الفكرة، وساد الشعور العام بالاستياء من أعمال رشيد باشا، حين وجدوا أن الدولة تساوي بينهم وبين اليهود والنصارى، وتستبدل بالشريعة الحنيفية قوانين النصارى، وتخلع الأزياء القديمة الإسلامية، وتتخذ زي النصارى، واعتبر رشيد باشا آلة في يد النصارى يتسترون به للقضاء على الإسلام⁽⁵⁾.

وكانت الدولة في عهد السلطان عبد المجيد الأول قد وصلت إلى حالة الانهيار، وكانت مديونيتها كبيرة، وتأتي كلمات فؤاد باشا لنابليون الثالث ملك فرنسا لتؤكد هذا الضعف، ولتظهر أدوار هؤلاء "الإصلاحيين" في إضعافها، بل والتآمر عليها، وكان فؤاد باشا يومئذ سفيراً للدولة العثمانية في باريس، قال له: "إن دولتنا أقوى دول الأرض، إذ تعاقب عليها قرنان ودول أوروبا تهدم من بنائها الشاهق من الخارج، ونحن نهدم من الداخل، والبناء لا يزال قائماً"⁽¹⁾.

وبانتقال الخلافة إلى السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني⁽²⁾ (1293-1245هـ/ 1830-1876م) تشتد الهجمة على الدولة العثمانية، ويأخذ التآمر عليها بعداً جديداً، حيث بدأ دعاة التغريب اتخاذ مزيد من الخطوات العملية، وتكثيف الجهود من أجل القضاء على النظام العثماني الإسلامي، يقول الحكيم مصوراً طبيعة الموقف بين السلطان عبد العزيز وخصومه دعاة التغريب: "حاول وزراؤه جره إلى التقرب من حكم الشورى، فدبروا عليه مؤامرة، انتهت في النهاية إلى خلعها عن العرش، فأشاعوا أنه انتحر، لكن الرأي العام في العاصمة وغيرها بقي مرتاباً، في إشارة إلى انتحاره، مرجحاً صحة اغتياله في نتيجة مؤامرة كان بطلها مدحت باشا،

(4) مؤنس، المرجع السابق، ص 252

(5) مؤنس، الشرق الإسلامي، ص 254-255

(1) البستاني، سليمان، عبرة وذكرى (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده)، تحقيق خالد زيادة، نشر: دار الطليعة، بيروت، 1978، م 87.

(2) سالنامه ولاية حلب، ص 89

- MARDEN, THE GENESIS OF YOUNG OTTOMAN. P. 107

- CREASY, HISTORY OF THE OTTOMAN TURKS. P. 548

الذي لقب بأبي الأحرار⁽³⁾، وإضافة لذلك ازداد التنافس الدولي في هذه الفترة بين الدول الاستعمارية، بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وغيرها على ممتلكاتها، وبدأت تظهر في هذه المرحلة ما يسمى حينذاك بـ: المسألة الشرقية، وهي ما تعارف عليه الكتاب والسياسيون بأنها النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانتها⁽⁴⁾.

ويبدو من تحليل الموقف بين السلطان عبد العزيز (فترة حكمه 1861-1876م) وبين دعاة التغريب أركان حكمه، أنهم كانوا مدبرين للأمور بشكل دقيق، بحيث وضعوا هذا السلطان أمام خيار واحد ولا بديل له، هو الاستمرار في الخطوات التي بدأها منذ أيام والده محمود الثاني، وما حققه في عهد أخيه عبد المجيد الأول، وذلك بإدخال الدولة في مرحلة جديدة هي القيام بانقلاب أبيض، من خلال قلب أنظمة الحكم وتشريعاته من الشريعة الإسلامية والقوانين المستمدة منها إلى القوانين والتشريعات الغربية التي يستحدثونها، وفي الطرف المقابل فإن السلطان عبد العزيز كان منتبهاً لكل الخطوات التي يقوم بها أركان حكمه ووزراؤه، ويعمل أيضاً بدقة وحذر، ضمن هذا الجو

(3) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص20، وأنظر: أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص33

(4) Kurdakal, Necdet, Osmanli imparatorlugundan orta Doguya, Belgelerle Sark Meselesi, Dergah Tayinlaribirinci - Sirma, ihsan Sureyya, Birkac Sahife Tarih Baski, 1976,

P. 34, 54, 87, 163 Esya YAYINLARI, Ikinci Baski Konya, 1991, P.10

(*) وعُرفت المسألة الشرقية أيضاً بأنها مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا. وقال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأنها مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين الدول المسيحية، والمسألة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها، أي منذ أن وطأت أقدام الترك ثرى أوروبا، وأسسوا دولتهم الضخمة، فمنذ أن ظهرت صولة الترك في أوروبا أخذت بعض الدول على عهدها معاداة الدولة ومطاردتها، والعمل على إخراجها من هاته القارة. كامل، مصطفى، المسألة الشرقية، د. ن، مصر، 1898م، ص3-4، سيشار لهذا المصدر فيما بعد: كامل، المسألة الشرقية= ومن التعريفات الأخرى للمسألة الشرقية

- أنها حل المملكة العثمانية بالنظر إلى مصالح الدول الأوروبية ومطامعها، وقد يريدون بها الدردنيل خاصة، وهو قلب المملكة العثمانية، وقد مضى قرنان وهم يختلقون الأسباب لتمزيقها، ليس لأنها إسلامية وهم مسيحيون، وإنما يريدون التغلب على دولة غربية عنهم لغةً وخلقاً وديناً، وهم يريدون فرقاً عظيماً بين الغرب والشرق في كل شيء، انظر: لبيب، حسين، تاريخ المسألة الشرقية، نشر دار الهلال، مطبعة الهلال، مصر، 1921، ص4، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: لبيب، المسألة الشرقية. وانظر العدوي، قادة التحرير العربي، ص114.

- وعرفها مؤلف كتاب ثورة العرب الكبرى بأنها: نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها، أو التي كانت تحت حكمها من جهة ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لسد أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى. انظر:

= مجهول، ثورة العرب الكبرى، نشر: وزارة الثقافة، طبعة ثانية، عمان، 1991م، ص4، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: مجهول، ثورة العرب.

وذكر مؤلف ثورة العرب أن المسألة الشرقية سبب معظم المشاكل التي وقعت في العالم من القرن السادس عشر إلى اليوم، حيث قررت أوروبا طرد الدولة العثمانية من الأراضي التي احتلتها العثمانيون من أوروبا الشرقية، ثم اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، وتبع ذلك في مطلع القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى، اقتسام البلاد العربية الواقعة ضمن أملاك تلك الدولة بين الدول المنتصرة في الحرب تنفيذاً لسياسة تقسيم أملاك العثمانيين، كما جاء في اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م، انظر: مجهول، ثورة العرب، ص4-5.

المشحون بالتوتر والتوجس بينه وبينهم، امتصاصاً لحنقهم عليه وتجنباً لأي عمل قد يقومون به ضده.

فأظهر مرونة في التصديق على التشريعات والقوانين التي سنّها حسين عوني باشا (المرتبط بالمحفل الماسوني⁽¹⁾)، والتي تراعي حقوق الأقليات، وامتدت فترة إصدار التشريعات واستحداث القوانين سنوات عديدة من عهده، ففي حقل القانون أصدرت الحكومة ما بين سنتي 1861-1863م عدداً من التشريعات لتنظيم المعاملات التجارية، وفي سنة 1868م صدر قانون الجنسية العثمانية، وفي سنة 1869م صدر الجزء الأول من "المجلة" مجلة الأحكام العدلية، وهي القانون المدني العثماني، المستمد من روح الشريعة الإسلامية، ومن القوانين الغربية الحديثة معاً، وضعها مجموعة مشرعين برئاسة جودت باشا، وفي حقل الإدارة صدر سنة 1864م قانون لتنظيم الولايات على أساس جديد، مستمد من الأنظمة الإدارية الفرنسية، وفي سنة 1864م التفتت الحكومة العثمانية أيضاً إلى مسألة التعليم، فأنشأت بالتعاون مع الحكومة الفرنسية المدرسة الثانوية التي عرفت باسم: المدرسة الثانوية الامبراطورية في جلاتا ساراي، والتي عدت أولى مدرسة عثمانية يدرس فيها الطلاب المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب ويدرسون منهاجاً أوروبياً حديثاً باللغة الفرنسية، وفي سنة 1869م اتخذت الحكومة خطوة أخرى بإنشاء نظام للتعليم الرسمي التابع للدولة⁽²⁾. وكانت الدولة آنذاك قد وصلت لمرحلة السقوط، بعد الذي لحق بها من هزائم عسكرية، ومن مأزق مالية كبيرة جداً، وكان السلطان عبد العزيز متهماً من قبل أعدائه ومناوئيه على أنه مسرف ومبذر ومتشغل عن إدارة الدولة، ومتابعة همومها ومشاكلها بلهوه وعبثه وأسفاره، وذهب المؤرخون في تحليل ذلك مذاهب، إذ يعزو بعضهم إنهيار الدولة وضعفها إلى إسرافه وإهماله لشؤونها، بل وزيادة على ذلك إلى جهله واستبداده⁽²⁾ ويؤكد السلطان عبد الحميد أن السبب وراء التشهير بعمه عبد العزيز هو عمله على تقوية جيش الدولة العثمانية وأسطولها، وكانت هذه التقوية تخيف كلاً من

(1) سرحان، النظام العثماني، ص22
(1) جحا، شفيق، التنظيمات، أو حركة الإصلاح في الامبراطورية العثمانية 1856-1876م، مجلة الأبحاث (فصلية) تصدر عن الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة (18)، العدد (2)، حزيران، 1965م، ص114-116 .
- وانظر: زين، نشوء القومية العربية، ص36، 38، الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص20
(2) لبيب، المسألة الشرقية، ص79، طلس، تاريخ الأمة العربية، ص32

فرنسا وبريطانيا وروسيا، كونهم يعملون على إضعاف الدولة العثمانية وإنهاكها لاسقاطها، فجاءت خطوة السلطان عبد العزيز في تقوية الجيش والاسطول بمثابة إحباط لخططهم، وهجوم معاكس على تلك الخطط يهدف إلى إثبات لوجود قوة العثمانيين، ووقوف في وجه تلك الدول الطامعة، ويقول السلطان عبد الحميد بهذا الخصوص: "وإنها لحقيقة أن الجيش والاسطول كانا قويين في عهد عمي السلطان عبد العزيز، لدرجة أن الروس كانوا يجفلون عادة من قوة الجيش مثلهم في ذلك مثل الفرنسيين والانكليز بالنسبة لقوة الاسطول، وفي حربنا مع الصرب والجبل الأسود لفتت الأنظار فعالية الجيش عندما سحق رجالنا المتطوعين من الضباط الروس، ولهذا السبب حاولوا بقدر ما وسعهم الجهد إسقاط عمي من نظر الشعب بالشائعات التي لفقوها عن إسرافه وسقوطه في الملذات، ووصلوا أخيراً إلى ما يأملون، وبهذا لم يتخلصوا فقط من السلطان عبد العزيز، وإنما نجحوا أيضاً في تمزيق الجيش والأسطول اللذين بناهما... عندما توليت العرش لم أكن أعلم بهذه الحقائق، وإنما ابتدأت بمعرفتها واحدة بعد واحدة بالتجربة"⁽³⁾ ويرد آخرون إضافة للسلطان عبد الحميد على أن عبد العزيز سبب إفلاس الدولة، ويرجع ذلك إلى أنها بدأت تخسر مواردها، بسبب تقلص نفوذها عن كثير من المناطق التي كانت تبسط سيطرتها عليها، لخروجها عن سلطة العثمانيين، الأمر الذي أدى في النتيجة إفلاس الدولة مالياً"⁽¹⁾ بقول ببيهم: "كانت خزينة الدولة قد أعلنت الإفلاس في عهد السلطان عبد العزيز، رغم أن الأموال التي استلفها في مدة عشرين سنة حتى عام 1219هـ/1875م بلغت ثلاثة مليارات وثلاثة عشر مليون فرنك ذهبي"⁽²⁾.

ويبدو أن الحملة على السلطان عبد العزيز تكثفت بعد إحساس وزرائه بأنه يسعى للالتفاف على خططهم وبرنامجه، فقرروا التخلص منه، ومن ثم عملوا على تشويه سيرته، وشن الحملة الدعائية ضده، أما السلطان نفسه فقد شعر باقتراب ساعة الصفر بينه وبينهم، وأخذ يسعى لإيقاف أو على الأقل لتأخير أي تدبير يتخذ ضده وبدأ عملياً يسير في الاتجاه المعاكس، وكان يتوقع أن يعزلوه، ليولوا مكانة مراد الخامس ابن

(3) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص139-140

وانظر: أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص33

(1) MARDIN. THE GENESIS OF YOUNG OTTOMAN THOUGHT, P. 135

(2) ببيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص173

أخيه عبد المجيد، ولربما لاحظ صلتهم القوية به، فعمل على "الحد من نفوذ الأمير مراد، الذي كان يدور نشاطه بفلك المجامع والمحافل الماسونية واليهودية"⁽³⁾ ويظهر أن ميدان المناورة أمام عبد العزيز ضعيف جداً، وأن أنصاره في معركته هذه مع طاقمه الحكومي المسيطر على الأوضاع قلائل، وليس لديه من خيارات سوى مواجهة المصير الذي يخطط له أعداؤه هؤلاء، إذ بات من المؤكد اللعب بالورقة الأخيرة تجاهه، ورقة عزله، وإزاء ذلك كله ومع ازدياد كتابة الصحافة الأوروبية عن أوضاع الأرمن في السلطنة العثمانية⁽⁴⁾، صارت الفرصة مواتية جداً لإحكام الخنادق عليه وعزله، لا سيما وأن لعبة العزل جاهزة في مثل هذه الأوضاع لخليفة مشلول الإرادة، ومع ذلك يرفض التسليم لخصومه السياسيين والانقياد لهم حتى في هذا الظرف الصعب جداً بالنسبة له، وقد وصف التميمي حالة التجاذب هذه حين قال: كان عبد العزيز عنيداً متقلباً، لم يلبث أن اختلف مع رجال الإصلاح وتدخل في أعمالهم، وشهد عهده معارضة الأحرار للحكم الاستبدادي والمطالبة بإنشاء النظام النيابي الدستوري⁽¹⁾ وواضح من كلمة الأحرار أنها تطلق على الماسونيين دعاة التغريب الذين يعارضون عبد العزيز الآن وفيما بعد عبد الحميد الثاني.

المهم هنا أن الأمور سارت بالاتجاه الذي أراده الأحرار الماسونيون المسلمون رجال الإصلاح، وعزلوا عبد العزيز في 1876/5/30م بالقوة ثم وجد في 1876/6/4م مقتولاً في سجنه⁽²⁾، ويؤكد هذا ما قاله السلطان عبد الحميد في مذكراته وهو يتهم السر عسكر حسين عوني بقتله حين قال: "خلال مدة قليلة لذلك رأى وجوب إزالة الخطر بأي صورة من الصور وهذا هو السبب الذي أدى إلى حادث استشهاد السلطان عبد العزيز والتخلص منه"⁽³⁾، ولا شك أن أصابع الاتهام موجهة إلى هؤلاء الإصلاحيين، لأنهم وجدوا الحل المناسب بقتله، خشية أن يجري أية اتصالات وهو في السجن مع من يخالفهم الرأي، ويدل على ذلك ما قاله سرهنك، وهو من المعاصرين لتلك الفترة، ومن مؤرخي الدولة العثمانية قال: وسبب خلع السلطان عبد العزيز ثم وفاته أن مدحت باشا وحسين عوني باشا وغيرهما اتفقوا على قتله منعاً لحصول القلاقل المستقبلية ما دام على قيد الحياة، وليكونوا في مأمن من الانتقام فيما بعد، وقيل إنهم كلفوا بقتله اثنين من العداوية، بعد أن اتفقوا على ذلك مع أحد البكوات الذي كان انتخبه السلطان عبد العزيز لمرافقته أثناء عزله، ودخلت العداوية من شبابيك البستان وتمكنوا من قتل السلطان بمررت خصيتيه، ثم حصل ما حصل، وشيعت جنازة

(3) سرحان، النظام العثماني، ص22

(4) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص128، سرحان، النظام العثماني، ص22

(1) طربين، أحمد مظاهر من إدارة ولاية سورية في عهد مدحت باشا، مقدم للمؤتمر الخامس للدراسات العثمانية، جمع وتقديم، عبد الجليل التميمي، نشر مركز بحوث دراسات العهد العثماني، طبعة أولى، تونس، 1984، ص345.

(2) CREASY, HISTORY OF THE OTTOMAN TURKS P. 548

(3) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، تحقيق: محمد حرب عبد الحميد، نشر: دار القلم، طبعة ثالثة، دمشق، 1991م، ص90.

السلطان، ودفن بجانب أبيه السلطان محمود الثاني رحمهما الله رحمةً واسعة⁽⁴⁾ ويزيد محمود رشيد رضا الصورة وضوحاً، فيربط عزل عبد العزيز وقتله بما بُدء به من خطوات من قبل تركيا الفتاة في عهد والده محمود الثاني، ثم أخيه عبد المجيد الأول، إلى أن يقول: إن السلطان عبد المجيد صرح في خطابه عند إعلان التنظيمات الخيرية في كلخانة أن الضعف والخلل قد طرأ على الدولة، وأنه لا بد من تلاقي الخطر بالنظام الذي أعلنه بتدبير أساطين الدولة في عهده، لكن ذلك النظام لم يعد للدولة قوتها، فخلعوا عبد العزيز، وقتلوه، أو ألجأوه إلى قتل نفسه بيده سنة 1293 هـ/1876م، بحجة أن استبداده كان حائلاً دون إصلاح الدولة وتجديد شبابها، ولولا بعده مراداً، ولم يلبثوا أن خلعوه في تلك السنة⁽¹⁾ أما لوتسكي فيؤكد قتل العثمانيين الجدد (ليكي عثمانلر) أو ما يسمون رجال تركيا الفتاة، وهم أنفسهم الاصلاحيون الماسونيون دعاة التعريب، للسلطان عبد العزيز، مشيراً بشكل واضح إلى دور مدحت باشا في ذلك، والذي سيبرز دوره لاحقاً في عهد عبد الحميد الثاني ليصبح المحرك الأول لهذه الفئة، يقول لوتسكي: كان على صلة بالعثمانيين الجدد مدحت باشا ... وبعد مجيء العثمانيين الجدد إلى السلطة واصلوا نشاطهم عن طريق تدبير الدسائس ضد الطفحة الحاكمة، إذ بعد مرور ثلاثة أيام على الانقلاب، أزاحوا بصورة نهائية عبد العزيز، الذي اغتيل في ليلة ثاني من حزيران 1876م، وجاء في البيان الرسمي: "أن سمو الباديشاه أودى بحياته في نوبة جنونية"⁽²⁾ وكانت رجال تركيا الفتاة هؤلاء يخططون أيضاً للتخلص من آل عثمان جميعاً عن طريق القتل، ومن ثم يحكمون الدولة بنظام سياسي جديد على أساس النظام الجمهوري العلماني البعيد عن الاسلام، وكانوا قد سعوا قبل ذلك إلى خلع عبد العزيز بحجة أنه بذر أموال خزينة الدولة العثمانية، واستعدوا فتوى من شيخ الاسلام خير الله بن حسن أفندي، ونص صيغة الفتوى: "إذا كان زيد أمير المؤمنين بذر ما في بيت المال من حقوق المسلمين، وعمل فيها بالهوى، فهل يجوز خلعه؟! فأجاب: يجوز، لكن السبب الأصلي لخلعه والقضاء على البيت العثماني بأجمعه إعلان الحكم الجمهوري، ففي المدة التي كان السلطان مراد الخامس في حالة جنون، دعت الحكومة أمراء البيت العثماني لضیافة أقامتھا، الغرض منها الفتك بآل عثمان، وقد نَمى الخبر على حقيقته إلى السلطان عبد الحميد الثاني، قبل جلوسه، فاعتذر، ولهذا لم نطفروا بمرادهم"⁽³⁾.

وبموت السلطان عبد العزيز طويت صفحة من صفحات التاريخ العثماني، ليأتي بعدها أهم وأخطر مرحلة من مراحل هذه الدولة، متمثلةً بعهد السلطان عبد الحميد

(4) سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص721-723، أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص33. وانظر: شقيرات، أحمد صدقي، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، 1864-1918، نشر: دار الآء، الطبعة الأولى، عمان، 1992م، ص44.

(1) كوثراني، وجيه، مختارات سياسية من مقالات رشيد رضا في مجلة المنار، نشر: دار الطليعة، طبعة أولى، بيروت، 1980م، ص228، وانظر: الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص20.

(2) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص379، وانظر: أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص33.

(3) عبد الله بن الحسين، المذكرات، نشر: أمين أبو الشعر، الطبعة الرابعة، عمان، 1965م، ص27، كرد علي، المذكرات، ج2، ص623.

الثاني، وقد سبق هذا العهد مرحلة انتقالية تمهيدية له، إذ اعتقد مدحت باشا ورجاله من أعمدة الحركة الماسونية (العثمانيون الجدد) أنهم قد وصلوا إلى أهدافهم بقتل عبد العزيز، فبايعوا ولي العهد مراداً الخامس سلطاناً جديداً يوم 5 جمادى الآخرة 1293هـ/1876م، وكان الجو العام في الدولة مشحوناً بالتوتر السياسي والاجتماعي، يقول سرهنك: "كانت الأحوال مضطربة، والجرائد تكتب المقالات الطويلة، طالبة تشكيل مجلس شورى من نواب تنتخبهم الأمة، وسن القانون الأساسي"⁽¹⁾ ولما كانت المسؤوليات كبيرة على عاتق السلطان الجديد، ولم يكن على قدر من الكفاءة، إذ يلقي السلطان عبد الحميد لاحقاً باللائمة على عمه عبد العزيز حين ترك له المجال أكثر من اللازم في حرية الحركة⁽²⁾، فكان انضمامه للمحفل الماسوني على يدي ولي عهد بريطانيا، الذي كان على صداقة قوية به⁽³⁾، ولم يكن يعي خطورة عمله هذا وكما يقول السلطان عبد الحميد لأنه كان طيب القلب، وكان من طبيعته أنه يندفع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى أنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله عدم لياقة اشتراكه - وهو خليفة المستقبل - في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستنتج عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص ممن يدعون أنهم أنصار التجديد أن يحرضوه على إدمان الخمر، وزينوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوروبية⁽⁴⁾.

ويذكر حجا أن السلطان مراد كان على اتصال وثيق بالعثمانيين الأحرار، وعلى تقاهم معهم، فأصدر في الحال أمراً بتنشيط الوزارة التي شكلها عمه عبد العزيز قبل وفاته بضغط من هؤلاء الأحرار، والتي ضمت رشدي باشا صدىراً أعظماً، وحسين عوني ومدحت باشا، وعين حسن خيرى أفندي شيخاً للإسلام، الذي كان متفاهماً مع هؤلاء أيضاً وخلعوا عبد العزيز بفتوى منه، وبتبنيها أخذت الوزارة الجديدة تدبر شؤون الدولة، لكن فرصة (الأحرار) لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما تبين لهم أن السلطان الجديد مصاب بانحياز عصبي، وأنه لا يصلح للحكم⁽¹⁾، ويروى أن خبر قتل حسن الشركسي للسر عسكر وناظر الخارجية وصل للسلطان مراد وهو يتناول الطعام، فاضطرب عقله وصار بعدها لا يميز الوزراء من بعضهم، ولما ساءت أحواله وزاد مرضه، عرض الوزراء الأمر على أخيه الأمير عبد الحميد، وأن يستلم مقاليد الدولة، فنصحهم بالتأني وعدم التسرع في الأمور، ونظر الأطباء حال السلطان مراد، فقرروا إصابته بداء عضال لا يرجى شفاؤه، ولما كانت مصلحة السلطنة تحتاج إلى من ينظر في شؤونها، اجتمع الوزراء، واستقر رأيهم في المجلس المنعقد يوم الأربعاء العاشر من شعبان 1293هـ/30 أغسطس آب 1876م، على خلفه ومبايعة أخيه السلطان عبد الحميد خان، بعد أن استفتوا شيخ الإسلام دولتوا خير الله أفندي، فأفتى بالجواز، وعلى

(1) سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص724، زيماور، معجم الأنساب، ص240

(2) عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص178

(3) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص19

(4) عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص178-179

(1) حجا، التنظيمات، ص130

ذلك تقرر وجوب مبايعة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني⁽²⁾ لأنهم أرادوا شخصاً في الموقع الأول على رأس الدولة يضمن تطبيق برنامجهم الذي يسيرون به ويعملون على تطبيقه طيلة ثلاثين سنة سبقت بتصميم أكيد وببطء وحذر واعتدال⁽³⁾، وبعد مفاوضات مفصلة وصريحة بين الوزراء الأحرار وعبد الحميد الثاني وافق هذا الأخير على أن يتبع سياسة إصلاحية متحررة، وتعهد بأن يمنح الدستور الذي أطلعه مدحت باشا على مسودة له⁽⁴⁾، وعند الوصول إلى بداية حكم الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول، لا بد من النظر في طبيعة علاقات الدولة العثمانية مع العرب في بلاد الشام ومستواها، لمتابعة تطور تلك العلاقات، وما طرأ عليها من طوارئ، من أجل ربطها بتسلسلها الزمني، باعتبار العلاقات في فترة السلطان عبد الحميد واسعة العقد الذي ازدان به جيد الأمة العثمانية المسلحة والتي كان العرب والأتراك من عناصرها البارزين، لالتصاق لفظة مسلم آنذاك بلفظة عثماني⁽¹⁾، دون النظر إلى جنسه العربي أو التركي. وتمثل العلاقات بين عناصر الدولة الإسلامية العثمانية صمام الأمان الذي اجتهد السلاطين العثمانيون منذ قيام دولتهم وحتى نهاية عهد عبد الحميد الثاني على الإمساك به بعناية وحذر وحرص، وخاصة بين العرب والعثمانيين المنحدرين من أصل تركي، بناة الدولة العثمانية وعمودها الفقري، منطلقين في ذلك من عقيدتهم الإسلامية الصافية، التي تعني بالنسبة لهم التعامل مع المسلمين من كافة أنحاء دولتهم كإخوة لهم في الإسلام، ومع غير المسلمين من يهود ونصارى كأهل ذمة في ظل دولة الانتماء العقائدي، الدولة العلمية العثمانية، التي لم تكن عنصرية أو عرقية حتى عام 1909م⁽²⁾ وكانت النزعة الإسلامية غالبية على العصبية الجنسية والرابطة القومية حتى التاريخ المذكور آنفاً⁽³⁾، لأجل هذا كان لا بد من النظر إلى العلاقات العربية العثمانية، خاصة عرب بلاد الشام لأهميتهم المميزة دون العرب الآخرين في الأقاليم العربية الأخرى التابعة للدولة العثمانية، لكونهم بوابة العلاقات، ابتدأت العلاقات العربية العثمانية بهم، وكذلك كانوا القفل الذي قفل به على تلك العلاقات في نهايتها مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عام 1918م.

ومع ابتداء القرن التاسع عشر، اشتدت الهجمة على الدولة العثمانية وازدادت شراسة وضراوة، واستعمل أعداء هذه الدولة سلاحين هامين أولهما إثارة المسألة الشرقية، التي تلونت في هذا القرن باللون الديني، إذ أنها عدت امتداداً للحروب الصليبية، وسعت الدول الاستعمارية الصليبية مع حلول هذا القرن، ونتيجة لضعف

(2) سر هنك، حقائق الأخبار، ج1، ص727-728، الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص21

(3) جحا، التنظيمات، ص125

(4) المرجع السابق، ص130

(1) برو، العرب والترك، ص26

- منسي، حركة البقطة العربية، ص35

(2) مسعود، جمال عبد الهادي، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية)، نشر: دار الوفاء، طبعة أولى، المنصورة، مصر، 1994م، ص6-7

(3) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (12ج/1مج) نشر مؤسسة الرسالة، طبعة خامسة، بيروت، 1982م، ج1، ص17.

الدولة العثمانية إلى إثارة الفتن بين دول أوروبا الشرقية، وتأليب شعوب تلك الدول على التمرد على الدولة العثمانية، ومدّهم بالسلاح صراحةً للتخلص من حكم المسلمين العثمانيين، وقد نجحوا في إخراج منطقة البلقان بدولها العديدة مثل صربيا والبوسنة والهرسك وألبانيا وبلغاريا وهنغاريا والمجر ومقدونيا والجبل الأسود، من ممتلكات الدولة العثمانية وفصلها عنها بحجة إعطائها استقلالها، وما كاد ينتهي القرن التاسع عشر ويبدأ القرن العشرين، إلا وتلك المناطق كلها منسلخة عن جسم الدولة العثمانية⁽¹⁾.

أما السلاح الثاني الذي استخدمته الدول الصليبية العالمية في القضاء على الدولة العثمانية، فهو سلاح القوميات، إذ أن تلك الدول بدأت تكثف تركيزها على سكان بلاد الشام وخاصة النصارى منهم، وذلك بإثارتهم على العثمانيين، فقد كان سوادهم يرى أن لا صلة دينية، ولا صلة قومية تصلهم بالدولة العثمانية، وكانت المدارس الأجنبية التي أخذت تنتشر في بلاد الشام وتزداد مع تعاقب عقود القرن التاسع عشر، تزرع في نفوس المنتسبين إليها، ومعظمهم نصارى، أن لا صلة بينهم وبين العثمانيين، وعليهم ألا يبالوا بتاريخ المسلمين، وأن يطالبوا بنزع رقعة الحكم العثماني عن أعناقهم، ويأتي في هذا الفصل دور تلك المدارس الأجنبية والمؤسسات التبشيرية في إفساد العلاقات العربية العثمانية، وفي التأليب الطائفي بين المسلمين والنصارى، ومن المهم هنا القول إن العلاقات بين العرب الشاميين والعثمانيين.

بدأت تتأثر بالأفكار التي تروجها البعثات التبشيرية والمدارس الأجنبية التي يمكن تسميتها في هذه الفترة بطلائع الغزو الاستعماري الحديث لهذه البلاد، وظهر كذلك الدور البارز لمن يسميهم الكتاب القوميون العرب بالرواد الأوائل، أو المستنيرين، أو رواد النهضة العربية في القرن التاسع عشر⁽²⁾، وهي مسميات لا تخرج جميعها عن تسميتهم بعملاء الاستعمار أو جند الإستعمار، أو رسل التغريب ودعائه⁽³⁾ وكان هؤلاء "المتتورون رواد النهضة" مرتبطون بالجمعيات الماسونية السرية المبنوثة في أرجاء الدولة العثمانية، والتي أخذت تزداد وتنتشر في أقاليم تلك الدولة، بما فيها الأقطار العربية عامة، وبلاد الشام على وجه الخصوص، وكان السلاطين العثمانيون المخلصون للأمة العثمانية الإسلامية، متيقظون ومتنبهون وحذرون من ألاعيب الماسونية ونشاطاتها في ولايات الدولة العثمانية، وكانت هذه الدولة بين أول الدول التي ناهضت الماسونية منذ سنة 1748م، وأن بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين الجمعيات السرية، فكان السلاطين النظام ينظرون بعين النفور

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص18، علي حسون، الدولة العثمانية، ص142

- مسعود، الدولة العثمانية، ص5

(2) القلعي، قدر، الثورة العربية الكبرى (جبل الفداء)، نشر: شركة المطبوعات، طبعة أولى، بيروت، 1993م، ص47.

(3) حسون، الدولة العثمانية، ص143

إلى كل ما يتستر تحت حجاب الظلمة، وإذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا إلى إلغائها وتشتيت شمل أصحابها.

وكانت الماسونية قد ظهرت في أراضي الدولة العثمانية منذ سنة 1738م في كورفو، إلا أن آثار هذا المحفل قد طُمست مدة مائة سنة، حتى تأسس في تلك الجزيرة سنة 1837م محفل آخر عرف باسم محفل فيثاغورس، كان الأول تحت رعاية المحفل الإنكليزي الأعظم، ثم تأسست محافل أخرى في الأستانة وفي أزمير وغيرهما، بعضهما تابع للشرق الأعظم الإنكليزي، وبعضها للفرنساوي، أو الإيطالي، إلى أن أنشأ الأخ: الكلي الاحترام البرنس حليم باشا مجمعاً وطنياً ترأسه وتعددت محافله، على أن هذه المحافل بقيت تشتغل في الظلمة كمألف عادة البنائين الأحرار، حتى صار الانقلاب العثماني الأخير قبل ثلاث سنوات فأخذت تتباهى وتنسب إليها، الحكم الدستوري⁽¹⁾.

ويذكر الشهابي أن الجمعيات التي اتخذت صفة جمعيات خيرية وحلقات دينية، وأخذت تنتشر في أرجاء الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت على ارتباط وثيق برجال تركيا الفتاة⁽²⁾ الذين قاموا بالانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني كما سيأتي لاحقاً.

أما الغزي فيشير إلى أن منتصف القرن التاسع عشر كان معروفاً فيه لدى عامة الناس أمر الجمعيات الماسونية في بلاد الشام، من خلال ما عرفه من أخبار تلك الجمعيات في مدينة حلب، ويقول تحت عنوان: الحزب الماسوني في حلب: "ابتداء وجود هذا الحزب في حلب غير معلوم على وجه التحقيق، أخبرني من أثق به أنه رأى في حلب سنة 1848م/1265هـ ختماً مكتوباً عليه: (هذا ختم جمعية الماسون في حلب)، فالظاهر أنهم كانوا موجودين فيها قبلاً خفية، ولم يثبت وجودهم فيها علناً إلا في سنة 1885م/1303هـ، فقد وفد عليها في هذه السنة مقدم منهم، ونزل في محلة العزيرية (أحد أحياء مدينة حلب) ودعا إليها بعض الناس علناً، فتبعه عدد عظيم من شبان الملك الثلاث، وصاروا يجتمعون عند بعضهم، تارةً جهراً، وتارةً سراً، على أن عددهم لم يزل أخذاً بالازدياد يوماً فيوماً، يقول بعض غلاتهم إن حزبهم هذا مما أسسه سليمان بن داود، والمعتدلون منهم ينكرون ذلك، ويقولون: إن تأسيس ابتداء حزبهم كان في حدود القرن الخامس عشر الميلادي"⁽¹⁾.

فالأتجاهان السابقان اللذان سار فيهما أعداء الدولة العثمانية يرميان إلى القضاء عليها وإلى إسقاطها، ويسلكون في ذلك كل السبل التي توصلهم إلى أهدافهم، ومن أهمها إثارة النعرات العصبية، وخاصة التعصب القومي الذي كان غائباً تماماً طوال

(1) لويس شيخو (أب يسوعي لبناني)، السر المصون في شبيعة الفرمايون (الماسونية) مجلة المشرق (كاتوليكية شهرية) السنة (14)، عدد (8) آب سنة 1911م، ص606-607، مسعود، الدولة العثمانية، ص37

- الشهابي، القومية العربية، ص45، زين، نشوء القومية، ص73

(2) الشهابي، القومية العربية، ص45

(1) الغزي، نهر الذهب، ج1، ص221-222

عمر هذه الدولة الطويل باستثناء السنوات الأخيرة بعد عام 1909م حتى عام 1924م، وهي الفترة التي برزت فيها بشكل سافر القومية الطورانية وظهرت بعدها القومية العربية كرد فعل ناتج عنها يأتي الحديث عنها لاحقاً.

ولذلك يمكن القول إن الجهات المعادية للدولة الإسلامية العثمانية، من دول استعمارية أوروبية، ومن يهودية عالمية، ورأس حريتها الصهيونية، وسلاحها القوي الماسونية، قد أدركت بعد الصراع العنيف والشرس مع هذه الدولة أنهم لن يتمكنوا من القضاء عليها إلا بنخرها من الداخل، والقوميات هي وسيلة ذلك، وبقاء البلاد العربية جزءاً منها هو بمثابة شريان حياة متجدد لها، وخاصة بلاد الشام على أساس أن الشام تجاوزها جغرافياً، وفي الوقت ذاته تضم بين سكانها أقليات وطوائف من غير المسلمين يمكنهم اصطناعها والتأثير عليها من منطلقات دينية بحتة، وخاصة في لبنان، وقد نجحوا عملياً في جعل هذا الجزء من بلاد الشام موطئ قدمهم وبؤرة تحركهم بتحريك النصارى فيه ليكونوا نواة التيار القومي الذي ركزوا جهودهم لاجاده لمقاومة دولة الخلافة الإسلامية وإنهائها، فالتوقيت مناسب جداً، إذ إنها ضعيفة عسكرياً واقتصادياً، وثالث الأتافي هو الروح القومية التي تعد مكملَةً للسلطين السابقين في القضاء عليها، والحقيقة أن هذا السلاح الأخير (القومية) يعول عليه كثيراً، إذ تستطيع الدولة العثمانية فيما لو فُعِلَت مؤسسة الخلافة التي تحكمها أن تنهض من جديد وتهدد أوروبا مرة أخرى، إذا قُبِضَ لها خليفة هُمام مخلص كعبد الحميد الثاني، فلا يستطيعون عندئذ مقاومته عسكرياً، ويؤكد هذا التحليل للوضع القائم قبيل استلام عبد الحميد الثاني الخلافة، ما حدث فعلاً بشكل عملي في عهده، حيث استطاع أن يؤجل سقوط الدولة ثلث قرن بحنكته وسياسته وعمله الدؤوب والمخلص على الجبهات كافة داخلياً وخارجياً، وكان استعماله كل سهامه من كنانته بالطريقة والتوقيت المناسب، عامل رئيس في ذلك النجاح الذي حققه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التيار المعادي له كان أقوى منه بكثير، إضافة لما وقت فيه من أخطاء أسهمت في تغلب أعداء دولة الخلافة عليها وإسقاطها عملياً، وإن كان تم ذلك بعد خلعها عن عرش الخلافة بعقد ونصف من الزمن، ويمكن أثناء دراسة وتحليل شخصية عبد الحميد الثاني ومواقفه وأعماله إدراك كل هذه الجوانب التي يشار إليها هنا، وأثر كل جانب على العلاقات العثمانية مع العرب في بلاد الشام.



المبحث الأول

التيار الداعي إلى الانفصال بين العرب والعثمانيين.

أولاً: التيار القومي العربي في بلاد الشام.

أ- نشأته

عُدَّت التيارات القومية التي بدأت بالظهور مع مطلع القرن التاسع عشر ظاهرةً وسمَةً من سمات هذا القرن، وكان الشعور القومي في بلاد الشام قد أخذ بالبروز مع حلول النصف الثاني منه⁽¹⁾، وإن كان لم يتبلور على شكل تيار إلا في مطلع القرن العشرين، وكان التركيز على إثارة عرب الشام ضد الدولة العثمانية بالاعتماد على النزعة القومية، والسكان في بلاد الشام أغلبهم من المسلمين، ويوجد أقليات كالنصارى واليهود، والنصارى بدورهم ينقسمون إلى طوائف عدة كالكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس والأرمن والمارونين، وكانت الرابطة الإسلامية تغلب على العلاقات بين عرب الشام المسلمين وبين العثمانيين⁽²⁾، بينما لا يجد النصارى في بلاد الشام أية روابط وصلات تربطهم بالعثمانيين، فكانوا والحالة هذه التربة الخصبة التي نبتت فيها الأفكار والجمعيات المعادية للدولة العثمانية، والتي استخدمت لتتخر جسد هذه الدولة وتسعى لاسقاطها، ويذهب المؤرخون المعاصرون إلى اعتبار وسائل الغزو الثقافي الغربي أخذت تنرى على أقطار المشرق الاسلامي بما فيها بلاد الشام منذ مرحلة مبكرة بدأت في القرن الثامن عشر، وازدادت حضوراً وتأثيراً، حتى أصبحت وكأنها مقدمات وطلائع الاستعمار الحديث الذي سيطر على البلاد العربية تدريجياً، وانتهى بتقاسم بلاد الشام والعراق حسب اتفاقات سايكس بيكو، يذهبون إلى أنها وسائل ساهمت في نشر الوعي القومي عند العرب، وكانت عوامل يقظة ونهضة⁽³⁾، وهي في حقيقتها عوامل فرقة بين العرب والعثمانيين، ووسائل لهدم ما كان بني وأسس على قواعد ثابتة من التفاهم والعمل المشترك، الذي كان عنوان العلاقات العربية العثمانية خلال قرون سلفت، وكيف تكون عوامل نهضة ولم تأت بأي تقدم تكنولوجي أو مادي للبلاد العربية، بل جاءت بأفكار ومبادئ هدامة مخربة، سعى المبشرون الفرنسيون

(1) ستودارد، لوثر، حاضِر العالم الاسلامي (ع ج) تعريب وتحقيق الأمير شكيب أرسلان، ترجمة عجاج نويهض، مطبعة عين الحلبي، القاهرة، 1923م، ج4، ص84.

(2) زين، نشوء القومية العربية، ص46، ص60.

(3) انظر: زيادة، نقولا، الجذر التاريخي للثورة العربية الكبرى، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية الكبرى لمجموعة باحثين، نشر الشركة الأردنية العالمية للنشر والتوزيع، طبعة أولى، عمان، 1969م، ص19.

= - دروزه، محمد عزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، نشر المكتبة العصرية، بيروت، د. ت، ص56، 90-98.

- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تعريب: علي حيدر الركابي، نشر: مطبعة الترقى، دمشق، 1946، ص24.

- قلعي، الثورة العربية، ص47، العدو، قادة التحرر العربي، ص126، منسي، حركة اليقظة العربية، ص69.

- وانظر: موسى، سليمان، الثورة العربية الكبرى، العوامل التي أدت إليها وتفاعلاتها، المجلة الثقافية، (فصلية) تصدر عن الجامعة الأردنية، العدد 38، عدد أيار-تموز 1996م، ص255.

تحت راية الصليبية العالمية، وبرعاية الدول الرائدة في استعمار الشعوب كفرنسا وبريطانيا، إلى بثها ونشرها بين سكان بلاد الشام، كي تؤتي ثمارها وتزرع الفرقة والتباغض والتنافر بينهم وبين العثمانيين⁽¹⁾، وإذا جاز تسمية تلك العوامل عوامل نهضة فكرية، فهذه نتيجة طبيعية لها، لأنها استخدمت الوسائل الفكرية لنشرها بين سكان بلاد الشام كالكتب والمدارس والجمعيات الخيرية وغيرها، وأما الصحافة والطباعة اللتان اعتبرت بعض عوامل النهضة، فهما حقيقة وسائل مساهمة في نشر الوعي والعلم والمعرفة لكنهما استخدمتا للأغراض ذاتها التي توخاها دعاة التغريب، في سبيل إيجاد الفجوة بين العرب والعثمانيين، وفي ذلك يقول بَيَّهْم: "وتسرب الوعي القومي إلى العناصر التي تتألف منها السلطنة، فوجدت أوروبا في ذلك أمنيته لإجلاء التركي المسلم الغريب عن الأمصار الأوروبية، وتحرير العناصر المسيحية منه، فعطفت جميعها على المطالبين من رعايا السلطنة بالاستقلال، وكانت - وعلى رأسهم روسيا وفرنسا - ما أن ترى خموداً في مساعي هؤلاء الرعايا الاستقلالية حتى تزيدها ضراماً"⁽²⁾.

لهذا لا بد من استعراض العوامل والأسباب التي ساعدت على بلورة تيار قومي عربي سعى بشكل فعال للتباعد عن العثمانيين، مع الإشارة إلى أهمية ودور كل منها في إيجاد ذلك التيار، ويقسم المؤرخون المعاصرون تلك العوامل إلى عوامل رئيسة ومباشرة، وإلى عوامل مساعدة غير مباشرة، لكن مع دراسة تلك العوامل تظهر أهميتها من التأثير على العلاقات العربية في بلاد الشام مع الدولة العثمانية.

وترجع بدايات الاحتكاك بين بلاد الشام والدول الغربية من الناحية الثقافية إلى القرن السادس عشر، عبر اتصال رجال الدين المسيحيين بحواضر أوروبا في فلورنسة والبندقية وفيينا وباريس، وقد استثمرت الكنيسة البابوية الغربية علاقاتها مع نصارى بلاد الشام، لإعداد أجيال من القسس والبطارقة من أجل التبشير بالنصرانية وإيجاد مواطني قدم للتبشير الاستعماري في بلاد الشام⁽³⁾.

ب- العوامل المساعدة على انتشار الوعي القومي العربي في بلاد الشام:

1- الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م.

قائد نابليون بونابرت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة 1798م بهدف معلن هو تهديد المصالح البريطانية في البحر الأبيض المتوسط والهند ومنطقة الشرق الأدنى كلها، وبعد احتلاله مصر سعى ليضم إليها بلاد الشام، وفقد بجيشه عبر الشريط الساحلي حتى وصل عكا، لكن هذه المدينة استعصت عليه فأوقفت اندفاعه تجاه الشام،

(1) سرحان، النظام العثماني، ص22

(2) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص172. وانظر: ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص84

(1) بَيَّهْم، الحلقة المفقودة، ص210

وارتد خائباً بعد أن حاصرها لمدة ثلاثة شهور، وعاد نابليون إلى مصر ولم يتمكن من دخول بلاد الشام⁽²⁾، ويرى " بني المرجة " أن حملة نابليون على الشام خطوة مبكرة في التطلع إلى ميراث الدولة العثمانية، وسعي حثيث للتعجيل بالقضاء عليها، ويؤكد هذا أسبقيتها في الحصول على الامتيازات الأجنبية منذ عهد السلطان سليمان القانوني (فترة حكمه 926هـ-974هـ/1520-1566م)، إضافةً لدور فرنسا التخيبي في ساحل الشام خلال القرن التاسع عشر، هذا خلا دورها البارز في رعاية الحملات التبشيرية على بلاد الشام في القرن المذكور⁽³⁾، ويشار إلى أن حملة نابليون لعبت دوراً في إحداث صدمة عنيفة هزت كيان العرب وأيقظتهم من سباتهم العميق، وأشعرتهم بشخصيتهم، وباستنادها إلى الاسلام، وأثبتت الحملة للعرب أن هناك أمماً أكثر تقدماً وأكثر عملاً وإنتاجاً من الأمة العربية... فكان ذلك دافعاً للعرب إلى العمل والانتاج ليعوضوا ما فاتهم⁽¹⁾ ويبدو أن هذا الدور الذي أعطي لحملة نابليون على بلاد الشام مبالغ فيه، إذ لم يحدث أي احتكاك بين نابليون وعرب الشام، بحيث يتأثرون بأفكاره وتوجهاته⁽²⁾ ويذكر الحلاق في الاتجاه الآخر دوراً تخريبياً كان نابليون يسعى لتحقيقه، هو أن يساهم من خلال سيطرته على بلاد الشام في خدمة اليهود بالسعي لتقسيم أراضي الدولة العثمانية، واحتلال الأراضي الفلسطينية، واقتطاعها من أملاك العثمانيين، وإعطاء اليهود تسهيلات للهجرة إلى تلك الأراضي، على أنها أجدادهم، فيردعون إليها لتجديد بنائها وإعمارها وهي الفكرة التي نادت بها الصهيونية وانبثقت عن مؤتمر بال في سويسرا عام 1897م، وينطلق نابليون في سعيه لاحتلال بلاد الشام إضافة لمنطلقاته الاستعمارية، في كون هذه البلاد وملك لليهود، ومن منطلق تعاطفه معهم يطمح لتحويل ذلك التعاطف إلى إنجازات حقيقية يقدمها لليهود عن طريق حل المسألة الشرقية وتقسيم أراضي الدولة العثمانية⁽³⁾.

(2) فريجات، حكمت عبد الكريم، الثورة العربية الكبرى وقضايا العرب المعاصرة، نشر: دار الثقافة، طبعة أولى، عمّان، 1990، ص 12.

(3) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 303

(1) فريجات، الثورة العربية، ص 12-13

(2) انظر: الحصري، الدولة العثمانية، ص 150-151، الذي لا يرى وجود أدنى تأثير لحملة نابليون في النهضة العربية الحديثة.

(3) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 42-45

2- حملة إبراهيم بن محمد علي باشا على سورية – عام 1830م.

جاء محمد علي باشا الألباني الأصل إلى مصر مع الفرقة الألبانية ضمن الجيش العثماني المكلف بإخراج الفرنسيين من مصر إثر احتلالهم لها عام 1798م، وأتاحت الظروف الفرصة لمحمد علي أن يبرز في مصر، حين طردت الفرقة الألبانية بزعامه طاهر باشا، الوالي العثماني خسرو باشا في عام 1803م من قلعة القاهرة، واحتلوها بمساعدة المماليك، ثم اغتال بعض الألبانيين طاهر باشا، ربما بدسيسة من محمد علي، الذي أصبح زعيم الألبانيين، وقد استلم محمد علي الحكم في مصر عام 1805م واعترفت الدولة العثمانية به حاكماً على مصر.

وفي سنة 1832م سبّر محمد علي باشا حملة إلى بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم، واكتسحت جيوشه هذه البلاد، وأقام فيها حكومةً، وعمل على إدارتها، ووصلت جيوشه إلى أقصى حدود بلاد الشام الشمالية عند الأناضول، فشعرت الدول الأوروبية باختلال موازين القوى بين الدولة العثمانية وحاكم مصر، ومارست كل من فرنسا وبريطانيا ضغوطاً على محمد علي، وأجبرته على سحب جيوشه من بلاد الشام عام 1840م وتوقيع معاهدة كوتاهية⁽¹⁾، ويذكر بعض المؤرخين أن الحكم إبراهيم بن محمد علي باشا لبلاد الشام في الفترة بين 1831-1840م دور كبير في ظهور النهضة العربية الحديثة، وذلك عن طريق نشر العلم والمعرفة⁽²⁾، إضافة لكونه فتح الباب أمام البعثات التبشيرية التي ولجت بلاد الشام على شكل إرساليات وجمعيات أتيح لها مجال عمل كبير، كانت تمارس فيه نشاطات تبشيرية تدعوا من خلالها إلى التبرم من العثمانيين والثورة ضدهم، وإذاعة البيانات حول حرية العرب واستقلالهم، وفي ذلك تحريض واضح لعرب بلاد الشام على الدولة العثمانية ذات الولاية الشرعية على هذه البلاد⁽³⁾، انطلاقاً من كونها الدولة الإسلامية التي تحكم هذه البلاد باسم الإسلام، اعتماداً على الوشائج والروابط الإسلامية التي توثق العلاقة بين العثمانيين والعرب في الشام، ولذلك يمكن اعتبار حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام عاملاً من عوامل التحريض والإثارة لسكان هذه البلاد ضد العثمانيين، لاتباعها سياسة متسامحة إزاء حركة الإرساليات التبشيرية الغربية التي وفدت إلى بلاد الشام كطلائع الغزو الاستعماري الحديث لهذه البلاد، ووسيلة من وسائل الدعاية له وتهيئة السكان لقبوله والرضا به⁽⁴⁾.

3- الإرساليات التبشيرية.

(1) رافق، المشرق العربي، ص284-286، 303، زين، نشوء القومية، ص45-46

(2) فريجات، الثورة العربية، ص13-14

(3) عز الدين، نجلاء، العالم العربي، ترجمة عن الانكليزية محمد يوسف نجم وآخرون، نشر: مؤسسة فرانكلين ودار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دت، ص126-127، وانظر: انطونيوس، يقظة العرب، ص25

(4) الجميل، تكوين العرب الحديث، ص497، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص112-113

أخذت الإرساليات التبشيرية تفد إلى المنطقة العربية منذ القرن الرابع عشر الميلادي على شكل موجات، وكانت بلاد الشام بشكل خاص هدفاً من أهداف الحركة التبشيرية، نظراً لأهميتها بالنسبة للصليبية العالمية في هجمتها على العالم الإسلامي⁽⁵⁾، من حيث تبوأ هذه البلاد موقعاً مميزاً بين ولايات الدولة العثمانية، علاوةً على أنها تضم الطوائف النصرانية في مدنها، خاصة في لبنان، إضافةً لأهمية بلاد الشام الدينية لدى النصارى في العالم، لوقوع مدينة القدس ومدينة بيت لحم مهد المسيح عليه السلام ضمن أراضي هذه البلاد، لذلك وأبت الدول الصليبية الغربية وفي مقدمتها انكلترا وفرنسا على إرسال الإرساليات التبشيرية إلى هذه البلاد، لتؤدي وظيفة مزدوجة، تيشّر بالنصرانية من ناحية، وتبذر بذور الشقاق والكراهية بين سكان الشام ضد الدولة العثمانية، مستغلةً الشعور القومي كوسيلة لايجاد هذه الفجوة في العلاقات بين العرب والعثمانيين، وذلك باعتبار العامل الرئيس في إنكفاء روح العداء ضد العثمانيين أن النصارى في لبنان وسائر أقاليم بلاد الشام مواطنين غرباء في بحر واسع من السيادة العثمانية، وبكلام بسيط لم يشعروا في ظل الحكم العثماني بأن الحكومة العثمانية حكومتهم⁽¹⁾ وينظر زين إلى الحرب الطائفية من لبنان عام 1860م على أنها حركة طائفية صليبية أثارها الحركات التبشيرية ضد الدولة العثمانية من أجل استغلالها في الایجاد المبرر للدول الأوروبية وخاصة فرنسا كي تتدخل بشكل مباشر، وتتذرع بذلك لإرسال قوات عسكرية لحماية أتباع الصليب من النصارى في لبنان، ويستند زين في اعتبار تلك الفتنة طائفية بحتة، ولم تكن ذات دوافع وطنية أو قومية تسعى لاستقلال العرب أو مجدهم، أو لحرية لبنان وسيادته، من أن عناصرها والقائمين عليها من المارونيين النصارى، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هؤلاء النصارى لا يجدون في الدولة العثمانية أية صلات تربطهم بها وأنها ليست حكومتهم وأنهم غرباء عنها⁽²⁾ ولا شك أن الدارس لفتنة عام 1860م في لبنان ينحى بها هذا المنحى، وأنها لا تخرج عن كونها ذات دوافع صليبية بتحريك استعماري من فرنسا، ويؤيد هذا موقف صاحب حسر اللثام عن نكبات الشام، من خلال تأكيده أن الدولة العثمانية تنشر العدل في ربوع بلاد الشام بين رعاياها من النصارى والمسلمين وتساهي بينهم في الحقوق والواجبات، وأنها استخدمت كافة التدابير التي تراعي حقوق النصارى في لبنان وبلاد الشام عموماً، بما في ذلك إجراءات تجاه الوالي في سبيل الحفاظ على الأمن والاستقرار وعلى حقوق الناس وممتلكاتهم هناك، يقول صاحب حسر اللثام: "إن الفتنة والمذابح التي ورد ذكرها في تاريخ الشام، لم تكن بقصد أحد من السلاطين أو رجال دولتهم الأمراء، بل من العمال الأردباء، ومع ذلك فهم لم ينجوا من القصاص الصارم عندما بلغ خبر فعلهم أذان السلطان".⁽³⁾

(5) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص165، الجميل، تكوين العرب، ص497، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص112

(1) زين، نشوء القومية العربية، ص46

(2) زين، المرجع السابق، ص47

(3) مكاربوس، حسر اللثام، ص24-25، وانظر: بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص169-170

ولما كانت فرنسا تحرص ومنذ وقت مبكر إلى الحصول على الامتيازات في بلاد الشام لحماية الرعايا المسيحيين هناك من أهل البلاد الأصليين، وأنها ترغب في الحصول على التسامح والتساهل من طرف الحكومة العثمانية تجاه المسافرين الفرنسيين الوافدين لزيارة الأماكن المقدسة النصرانية في فلسطين، ومنح هؤلاء حرية الإقامة والتنقل داخل الأراضي المقدسة، فقد عمل ملك فرنسا لويس الرابع عشر ومنذ سنة 1649م على أخذ ضمانات من العثمانيين في إطار معاهدة صداقة تم بموجبها "فرض الحماية الفرنسية على المسيحيين المارونيين المقيمين في جبل لبنان من أراضي الدولة العثمانية"⁽²⁾ ونصت المادة الأولى من معاهدة سنة 1740م، التي حصل فيها فيلنيف Villeneuve على عدم إحراج الكنائس الفرنسية وعدم مضايقتها في ممارسة مهمتها في مضائق الامبراطورية العثمانية، وكذلك في معاهدة 1856م التي حملت الدولة العثمانية على الاعتراف لفرنسا بحق الإشراف على شؤون النصارى الكاثوليك من رعايا الدولة العثمانية، لا سيما في بلاد الشام، وتحديدًا في لبنان⁽³⁾ وبقدوم بعثات تبشيرية أمريكية إلى بلاد الشام سنة 1820م، ودعوتها للمذهب البروتستانتي نشطت الإرساليات اليسوعية إلى بلاد الشام سنة 1831م، وأصبح التنافس بين إرساليات هاتين الطائفتين على أشده في فتح المدارس المتعددة أو المؤسسات الطبية، أو محاولة تنصير الأهالي، وإيجاد تبعية محلية تكون ركيزة لهم في هذه البلاد⁽⁴⁾، وكانت الأهداف التبشيرية الداعية إلى الروح الصليبية وإلى النصرانية تستتر وراء تلك الوسائل العلمية والطبية والخيرية من مدارس ومراكز طبية وجمعيات، وتخفي خلفها الأطماع السياسية والمطامع الاقتصادية التي كانت تعمل من أجلها هذه الإرساليات.

وإضافة للإرساليات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وجدت إرساليات من بلدان أخرى تسعى لإيجاد مناطق نفوذ دينية لها كغطاء أيضاً للوصول للأهداف السياسية والاقتصادية، فنجد الإرساليات الإيطالية والنمساوية والدنماركية تحاول الحصول على مواقع لها في بلاد الشام، وخاصة في فلسطين، هذا إضافة للإرساليات الروسية، والألمانية والانكليزية، وكانت السياحة والتنقيب عن الآثار والتجارة وأعمال الخير الصحية والإنسانية مقاصدها المعلنة، وكان التعاون بينها قائماً، من أجل تنسيق الجهود وتقاسم الأدوار في أرجاء الدولة العثمانية لرصد الحركات السياسية لهذه الدولة، ومتابعة التطورات أولاً بأول، ولقياس مستوى العلاقات بين السلطة المركزية العثمانية وبين رعاياها العرب في بلاد الشام وتقويم الجهود التي تبذلها وبشكل نشط وفعال في التأثير على تلك العلاقات، وإثارة المشاعر الكامنة عنصرياً وطائفيّاً ودينياً، وتأليب أنباء الشام على الدولة العثمانية انطلاقاً من تلك الأفكار الهدامة، التي نجح العثمانيون وسلاطينهم المسلمون في إزابتها والقضاء عليها، عبر روح التسامح

(2) فريجات، حكمت عبد الكريم، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى، نشر: دار المستقبل، طبعة ثانية، عمان، 1987م، ص 30-31.

(3) فريجات، المرجع السابق، ص 31-32.

(4) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 34-35. وانظر: عن النشاط التبشيري الموسع في بلدان العالم الاسلامي وأهداف ومخاطر ذلك النشاط: بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 165-173 وانظر: الريماوي، سهيلة، جمعية العربية الفتاة السرية، نشر دار مجدلاوي، طبعة أولى عمان، 1988م، ص 37.

والحرية الدينية الممنوحة لغير المسلمين من أبناء الطوائف النصرانية الموجودة في هذه البلاد، لكن تلك الإرساليات التبشيرية والدول الاستعمارية الأوروبية التي تقف وراءها، تتابع دون ملل أو فتور جهودها وتنشئ الجمعيات الدينية والهيئات التي تكسبها صفات رسمية مقبولة لدى الناس، تحت أسماء مشبوهة أمثال شهود يهوه، المعمدانين، السبتيين، البهائيين، القاديانيين، الماسونيين، الروتاريين، اللونز، الأسود، وغيرهم⁽¹⁾ وكلها لغرض واحد خدمة الاستعمار ولنشر تعاليم الكنائس المسيحية الغربية بين سكان بلاد الشام من المسلمين، والسعي لتنصيرهم، متخذين من التعليم والطب وسائل فعالة يقدمونها بين يدي أهدافهم الحقيقية وهي التبشير، ومن ذلك توزيع الكتب المقدسة مترجمة إلى اللغة العربية على أبناء بلاد الشام، أما في الجانب الطبي فيقول الدكتور أرهادس طبيب إرسالية التبشير في طرابلس الشام: "يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك"⁽²⁾ ومن أجل ضمان الوصول لأهدافهم التبشيرية يستغلون الظروف السيئة التي يمر بها الناس لتحقيق مآربهم الشخصية ومصالح دولهم السياسية⁽³⁾، ولم يكونوا يتورعون في فرض آرائهم على المريض أثناء مقاساته الآلام، ويجرعونه أفكارهم قبل أن يجرعونه دواءهم، فلم يكونوا يوافقوا على معالجة المريض إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح، كما حدث في بلدة الناصرة في السودان، وبلدة عثمان في اليمن⁽⁴⁾.

ومثلما يستخدم الرجال في عملية التبشير كذلك النساء يؤدين العملية ذاتها أثناء الزيارات التي يقمن بها لمنازل المسلمين، أو إلقاءهن المحاضرات العامة أو قيامهن بمهنة التمريض، فكانوا يقومون بالتبشير في مستشفيات النساء، ويرسلون النساء الطبيبات إلى البيوت لمعالجة المرضى، وهدفهن عرض بضاعة التبشير عليهن، فكانوا يرون "أن الممرضة لا تعمل على تخفيف الألم عن المرضى، بل تحمل إليهم أيضاً رسالة المسيح"⁽⁵⁾.

وكانت الوسائل الرئيسية لتنفيذ خطط التبشير هي المدارس والمؤسسات العلمية التي تقبل أبناء المسلمين للدراسة فيها لتنفيذ مخططاتها يقول جيب Gessup أحد رؤساء البعثات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية: "إن التعليم إنما هو وسيلة إلى غاية فقط في الإرساليات المسيحية وهذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية"⁽⁶⁾.

(1) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 166-167

(1) شاتليه، أ. ل، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، نشر: المطبعة السلفية، القاهرة، 1350 هـ/ 1931 م/ ص 36-37.

(2) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 35-36 ج

(3) الخالدي، مصطفى، وفروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، نشر: المكتبة العلمية، طبعة أولى، بيروت، 1953 م، ص 56.

(4) الخالدي، المرجع نفسه، ص 54

(5) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 37

لقد عملت المؤسسات والبعثات التبشيرية في بلاد الشام على تنشئة جيل جديد على أسس غربية، وكانت المدارس والمؤسسات التعليمية هي الوسائل التي استخدمت لتحقيق ذلك كي تربي جيلاً من الناشئة المتأثر بالأفكار الغربية، والتي كانت عاملاً فعالاً في تنمية الشعور القومي العدائي نحو العثمانيين⁽¹⁾، ويرى زين أن هذه القضية مبالغ فيها، وأن جل الدور الذي قامت به تلك البعثات التبشيرية هو نشر المعرفة الحقيقية عن المسيحية، وتقديم خدمات طبية، وأن أعظم نفع تحقق عن جهود المبشرين هو ازدياد عدد الموارد الذين أصبحوا يقرأون ويكتبون، ونشأ جيل من المتعلمين الذين شغلوا مراكز عالية في الدولة العثمانية وأصبح هذا الجيل المتسرب للأفكار الغربية فيما بعد وسيلة لنشر العداء للدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تسود في هذا العهد فكرة الرابطة الإسلامية، وتغلب على الفكرة القومية، فكان دعاة الانفصال عن العثمانيين أقلية ينتمي معظم أفرادها إلى الفئات غير الإسلامية في المجتمع العربي، بحيث أنها لا تمثل إطلاقاً رأي الغالبية الساحقة من العرب المسلمين، الذين كانوا ينظرون إلى الامبراطورية العثمانية على أنها امبراطورية إسلامية⁽²⁾.

4- المدارس والكليات العلمية.

ظهرت المدارس الحديثة في بلاد الشام كثمرة طبيعية للنشاط الذي قامت به الأرساليات التبشيرية، وقد قسمت هذه المدارس إلى قسمين، الأول أنشأته البعثات التبشيرية الاستعمارية لعدد من الدول الأوروبية من أهمها فرنسا وأمريكا وبريطانيا، وبوصول الحملات التبشيرية إلى بلاد الشام منذ فترة مبكرة في بداية القرن السابع عشر، أنشئت المدارس في هذه البلاد، وهي وإن كانت سابقة للفترة التي يعنى البحث بدراستها لكنها كانت ذات صلة وثيقة بهذه الفترة، لكونها مهدت السبيل لإنشاء مدارس أخرى في القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني منه تحديداً، أما القسم الثاني فهي المدارس الوطنية، بعضها أسسته مؤسسات أو أفراد من أبناء بلاد الشام، وبعضها أنشئ من الجهات الرسمية في الدولة العثمانية بقصد تطوير التعليم، وزيادة عدد منشآته ودوائره لإحداث نهضة وإزدهار في هذا المجال.

واتخذ المبشرون النصارى من التعليم ستاراً لغايات دينية مستغلين بذلك روح التسامح الديني التي أظهرتها الدولة العثمانية في هذه الفترة⁽¹⁾، وكانت طليعة تلك المدارس مدرسة الحاووقة في لبنان عام 1632م، وفي حلب أنشأت أول مدرسة بعد الحاووقة عام 1662م، وكانتا بفضل الرهبنات الوطنية⁽²⁾.

(1) انطونيوس، بقطة العرب، ص56

- فريحات، الثورة العربية، ص14

(2) زين، نشوء القومية، ص50-54، ص60

(1) قنوة صلاح، قنوة سالم عبد الله، موقف الصحافة العربية في فلسطين من الحركة الوطنية (1920-1935م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمان، 1994م، ص4.

(2) برو، العرب والترك، ص33، فريحات، السياسة الفرنسية، ص38

وتبع ذلك إنشاء المبشرين الأجانب مدارس حديثة كانت أولاها مدرسة عينطورة، أسسها المبشرون اليسوعيون في لبنان عام 1734م⁽³⁾، وكانت الإرساليات التبشيرية الأمريكية التي قدمت إلى لبنان سنة 1820م قد فتحت حتى سنة 1860م لا أقل من 33 مدرسة⁽⁴⁾ وكان الصراع واضحاً والتنافس شديداً بين الإرساليات الأمريكية والفرنسية، فقد افتتحت في بيروت مدرسة طومسون الأميركي سنة 1845م، ومدرسة عبية التي أنشأها فان ديك الأميركي بالتعاون مع بطرس البستاني عام 1847م⁽⁵⁾، وقيل عام 1846م⁽⁶⁾ كما أسس اليسوعيون مدارس في بيروت عام 1839م، وغزير عام 1843م، وزحلة عام 1844م⁽⁷⁾، وفي حلب أنشأ الأمريكيون مدارس عدة كان منها مدرسة الخواجة فورد الأميركي سنة 1848م، ومدرسة الدكتور إدّي سنة 1852م⁽⁸⁾.

وبعد تسامح ابراهيم باشا حين دخوله بلاد الشام 1831م، اشتد التنافس بين أنصار هذه المذاهب النصرانية، حيث أخذ اليسوعيون الكاثوليك التابعين للفرنسيين بمنافسة الأميركيين البروتستانت ونشطت جمعياتهم مثل جمعية الأخوان الماريين وأخوان المذهب المسيحي واللعازيين والجزويت وبنات الصدقة وسيدات نزاريت وأخوان القديس جوزيف وغيرها تقيم داخل بلاد الشام حتى وسط الجماعات السكانية قليلة العدد مدارس ابتدائية تستقبل أكثر الناس فقراً، وتؤمن لهم التعليم والأكل واللباس⁽¹⁾، فالإضافة للمدارس التي افتحوها في الأعوام 1839، 1843، 1844م، افتتحو مدارس في حلب سنة 1873م، 1878م، ومدرسة في دمشق سنة 1872م⁽²⁾، وأنشأ الآباء اليسوعيون مدرسة غزير (إحدى قرى جبل لبنان) التي انتقلت إلى بيروت سنة 1875م، وتحولت إلى جامعة القديس يوسف (اليسوعية)⁽³⁾.

وفي بيروت أنشأت المدرسة العالمية (الكلية) عام 1866م، وتطورت حتى أصبحت الجامعة الأميركية لاحقاً⁽⁴⁾ كما أنشأ الروم الأرثوذكس مدرستهم في مدينة حمص سنة 1850م، وأخرى لهم أيضاً في لبنان نفسها، وثالثة أسموها المصلبة في القدس سنة 1855م⁽⁵⁾.

(3) فريحات، السياسة الفرنسية، ص38، برو، العرب والترك، ص33، وانظر:

طرزي، الفيكونت فيليب دي، تاريخ الصحافة العربية، (ع ج/2 مج)، نشر: المطبعة الأدبية، بيروت، 1913م، 1914م، ج2، ص6.

(4) زين، نشوء القومية، ص51

(5) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص37

(6) فريحات، السياسة الفرنسية، ص38

(7) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص166، فريحات، السياسة الفرنسية، ص38-39

(8) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص37

(1) فريحات، السياسة الفرنسية، ص38-39

(2) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص166، فريحات، السياسة الفرنسية، ص39

(3) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص166، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص37

(4) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص37، فريحات، الثورة العربية، ص17، طرزي، تاريخ الصحافة، ج2، ص6

(5) الريماوي، المرجع نفسه، ص37

وقد كانت هذه المؤسسات التبشيرية توجه من البابا في روما ومن حكومة فرنسا توجيهاً مباشراً، "توجيهاً دينياً من روما، وتوجيهاً دينياً وسياسياً من فرنسا"⁽⁶⁾، وكانت أهدافهم واضحة وثابتة، هي بث العادات والتقاليد الفرنسية، ونشر العلوم والثقافة الفرنسية، وقد بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في هذه المدارس ما يقرب من أربعين ألف تلميذ، يزدادون عاماً بعد عام⁽⁷⁾ يقول طرزي: "وكانت الحكومة الفرنسية تمد بالمال المدارس الكاثوليكية، كما أن الجمعيات البروتستانتية كانت تجود على المدارس الانجيلية بسخاء وافر"⁽⁸⁾ ومنذ سنة 1864م، وضعت برامج للمدارس التابعة لفرنسا في بلاد الشام، شبيهة بتلك التي تُدرّس في فرنسا، لأن أهدافهم كما يقولون هي: "أن يقدموا إلى تلاميذهم النصرى العلم مع التعليم، وفي الوقت نفسه يريدونهم أن يعرفوا فرنسا ويحبونها"⁽¹⁾ يقول الشهابي: أما المسيحيون فقد كان سوادهم يرى أن لا صلة دينية ولا صلة قومية تصلهم بالدولة العثمانية، وكانت المدارس الأجنبية خاصة "تبعد تلاميذها المسيحيين عن تاريخ العرب وتاريخ العثمانيين على السواء، وكانت توجيهم أن لا يبالوا بتاريخ يهم المسلمين وحدهم ولا ناقة للمسيحي فيه ولا جمل"⁽²⁾ فكانت هذه المهن الصحية والتعليمية التي تعد أنبل المهن وأشرفها تستخدم كوسائل لغايات التبشير الديني أولاً ثم التبشير التجاري والسياسي ثم تعتبر أساساً متيناً للاستعمار⁽³⁾، ثم كانوا قبل ذلك وأهم من ذلك وسائل لزرع الفتن الداخلية والقلق في ربوع بلاد الشام بين السكان أنفسهم كطوائف دينية ومذاهب اجتماعية، وبين تلك الطوائف والدولة العثمانية، ومن المعالم البارزة في ذلك فتنة لبنان عام 1860م، التي أثارها فرنسا لتتخذها ذريعة من أجل التدخل العسكري في هذا الجزء الحيوي من أجزاء بلاد الشام والمهم جداً استقراره بالنسبة للدولة العثمانية، لوجود الطائفة النصرانية المارونية فيه في منطقة جبل لبنان.

كذلك استخدمت بريطانيا اليهود في بلاد الشام من أجل إثارة الفتن أيضاً بين الطوائف في هذه البلاد، فقد أثار نداء نابليون بإعطاء فلسطين لليهود، حفيظة بريطانيا وأيقظ سياستها الرامية إلى دعم اليهود ومناقسة فرنسا في الشرق عن طريق، استغلال عواطفهم الدينية نحو فلسطين، فعمدت إلى استثمار إمكاناتهم وقدراتهم (المميزة) في تعميق وتحريك الفتن الطائفية، وإثباتاً لحسن نواياهم تجاه راعيهم بريطانيا، ولكفاءتهم العالية في هذا المضمار، فقد أدوا دوراً بارزاً في فتنة 1860م في لبنان، وزادوا في ضرام ناراها، فقامت الدولة العثمانية بالقبض على بعض منهم، بعد أن علمت دورهم في هذه الفتن.⁽⁴⁾

(6) الخالدي، التبشير والاستعمار، ص111-112، فريجات، السياسة الفرنسية، ص39

(7) فريجات، السياسة الفرنسية، ص39

(8) طرزي، تاريخ الصحافة، ج2، ص6

(1) الخالدي، التبشير والاستعمار، ص112، فريجات، السياسة الفرنسية، ص40

(2) الشهابي، القومية العربية، ص43

(3) فريجات، السياسة الفرنسية، ص41

(4) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص52-55، انطونيوس، يقظة العرب، ص96-97

وإلى جانب هذه المدارس الأجنبية، أسس في بيروت عدد من المدارس الوطنية، فقد أنشأ بطرس البستاني المدرسة الوطنية، وأسس البطريرك غريغوريوس المدرسة البطريركية سنة 1865م، وأنشأ يوسف الدبس مدرسة الحكمة سنة 1874م، كما أنشئت المدرسة الوطنية سنة 1878م بإدارة الحاج غنوم الفناوي في طرابلس⁽¹⁾، وأنشأ أهل طرابلس سنة 1881م مدرسة أطلقوا عليها مدرسة كفتين⁽²⁾.

وعلى المستوى الرسمي كان التعليم ذا مستوى ضعيف، وكانت المدارس الحكومية العثمانية في بلاد الشام (المدارس الأميرية) قليلة العدد قبل عهد مدحت باشا الوالي العثماني على هذه البلاد في سنة 1878م، اشتهر من تلك المدارس مكتب الرشيدية في القدس الذي تأسس عام 1868م، ومكتب الرشيدية العثماني ومدرسة شعبة المعارف في حمص، ومدرسة حكومية في حماة افتتحت عام 1888م، والمدرسة الرشيدية العسكرية في بيروت⁽³⁾.

وقد أسهم مدحت باشا أثناء ولايته على الشام في إنشاء مدارس جديدة بعد اطلاعه على أوضاع التعليم فيها، وحَوَّل أموال الأوقاف لاستحداث المدارس ودور العلم، فأسس مدارس المقاصد الخيرية في المدن الشامية، وسن تشريعاً إلزامياً للتعليم يلزم الآباء بإرسال أولادهم إلى المدارس إذا وصلوا سن السادسة من العمر، ووضع عقوبة لمن يتخلف عن ذلك⁽⁴⁾. تلك هي أهم المدارس التي سعت البعثات التبشيرية إلى بث أفكارها عن طريقها، وحاولت جاهدةً تنشئة جيل جديد على أسس غربية في بلاد الشام⁽⁵⁾ وكانت تحرص من خلال مناهجها التربوية والتعليمية أن تؤدي دوراً حيوياً في إحياء الشعور والنزعة القوميات في نفوس العرب، من أجل تكوين تيار ينادي بالأفكار الغربية، ويدعو إلى الانفصال عن العثمانيين، ومع ذلك لم تتمكن الرسائل التبشيرية من تحقيق هذا الهدف، إذ بقي المنادون بالانفصال عن العثمانيين في هذه الفترة وحتى عام 1909م، قلة قليلة، ظلت أصواتها غير مسموعة لدى عامة الناس في بلاد الشام، لغلبة الروح الإسلامية العميقة في نفوسهم، والتي لا تقبل الانفكاك عن العثمانيين حملة الراية والخلافة الإسلامية، والتي تحكمهم وترتبط بهم باسم الإسلام⁽¹⁾.

(1) الريماوي، جمعية تركيا الفتاة، ص37

(2) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص37-38

(3) الريماوي، المرجع السابق، ص38، زين، نشوء القومية، ص59

(4) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص38، برو، العرب والترك، ص34-35 ويذكر هنا أن التعليم الحكومي في بلاد الشام كان ضعيفاً في ظل الدولة العثمانية، إذ لم يكن في دمشق في عام 1320هـ/1902م إلا مدرسة ثانوية واحدة كان عنوانها الرسمي المكتب الإعدادي وكان الدمشقيون يسمونها مكتب عنبر، وعنبر ثري يهودي من يهود دمشق أصحاب الملايين بنى لنفسه داراً واسعة في دمشق على الطراز الشرقي، ثم صارت هذه الدار من أملاك الدولة، انظر: القاسمي، صلاح الدين (ت1334هـ/1915م) أثاره (صفحات من تاريخ النهضة العربية أوائل القرن العشرين) تحقيق محي الدين الخطيب، نشر: المطبعة السلفية، القاهرة، 1959م، ص أ-د، المقدمة، وانظر: القلعي، الثورة العربية، ص84-85

(5) عازوري، يقظة الأمة العربية، ص201-203، زين، نشوء القومية، ص50-51، الشهابي، القومية العربية، ص43-44

(1) زين، نشوء القومية، ص58، 69

إلى أن جاء ما يبرر الخروج عنهم والوقوف في وجوههم بعد خلع السلطان عبد الحميد والمجاهرة بالدعوة الطورانية العنصرية ضد العرب.

5- الجمعيات العلمية والأدبية.

لم تكثف الإرساليات والبعثات التبشيرية بإنشاء المدارس والكليات في بلاد الشام من أجل إيجاد جيل يؤمن باستبدال الرابطة الإسلامية التي تحكم العلاقة بين العرب والعثمانيين بالرابطة القومية، بل عمدت إلى إقناع فئات من العرب في بلاد الشام، لا سيما من المسيحيين، بالسعي للخروج عن سلطة الدولة العثمانية، والجهر بحمل الفكرة القومية ومعاداة العثمانيين، في سبيل الوصول إلى قطع العلاقات معهم، وذلك عن طريق تكوين الجمعيات السياسية السرية المناهضة لهم، متخذةً من بعض الإجراءات التي تطبقها مؤسسة الخلافة العثمانية الإسلامية بقيادة الخليفة عبد الحميد الثاني، وصيلة وذريعة تضخمها وتبرزها وتقدمها للرأي العام في أنحاء بلاد الشام على أنها استبداد ودكتاتورية وحكم مطلق وتسلط، إلى غير ذلك من العبارات والألفاظ المنتقاه بعناية ودقة متناهية من أعداء الإسلام، وصياغتها بقوالب جديدة تنفر الشعوب العربية المسلمة منها، على أنها تتعارض مع الأماني المشروعة لهذه الشعوب في النهضة والازدهار والرفق، لذلك يجب على تلك الشعوب محاربتها والوقوف منها موقف العداء، من أجل التخلص من ربة الاستعباد ومن نير الاستبداد وما شابه ذلك من الكلمات الخطابية التي تؤثر في مشاعر الناس، وتبعث فيهم روح الانفصال والتمرد والنفور ممن تطلق عليه هذه الأوصاف، وتولد في نفوسهم الكراهية والحقد اللذان يدفعان إلى الخروج عن السلطة الشرعية للدولة العثمانية في بلاد الشام، والعمل ضدها انسياقاً مع تلك الأفكار المسمومة والهدامة التي يروجها دعاة التغريب ورسل التبشير في سبيل قطع العلاقات العربية العثمانية وفصلها، والتي هي قوة حضارية تستند إليها الأمة الإسلامية بما فيها العرب من صمودها في وجه الغزو الثقافي والفكري الغربي، الذي تكثفت حملاته في نهاية القرن التاسع عشر، وكان بمثابة تمهيد للغزو العسكري والاقتصادي الذي حل بالشام مع مطلع القرن العشرين ولهذا يمكن القول إن الإرساليات التبشيرية التي بدأت تبرح أرض الشام أوائل القرن السابع عشر⁽¹⁾، وتسارع الخطى وتزداد نشاطاً في القرن الثامن عشر، وتصبح ظاهرةً وسمة بارزة في القرن التاسع عشر⁽²⁾، قد نجحت في نقل نشاطها، العلمي والطبي إلى ميدان آخر هو النشاط السياسي⁽³⁾، فسعت إلى تكوين الجمعيات السياسية التي تعمل لزعة الاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمع العثماني من الداخل، بإثارة العرب وتحريضهم ضد نظام الخلافة الذي يحكمهم باسم الإسلام، ويعمل بسياسة حكيمة تنزع العصبيّة الجنسية من العنصرين العربي والتركي طوال الفترة التي ظلت فيها راية العثمانيين ربوع بلاد الشام عبر أربعة قرون متتالية، لكن وبالرغم من ذلك بدأت إثارة النعرات

(1) فريجات، السياسة الفرنسية، ص30

(2) فريجات، المرجع السابق، ص31

(3) برو، العرب والترك، ص40، فريجات، السياسة الفرنسية، ص51، 49

العصبية بالتركيز على التعصب القومي، فكان تأليف الجمعيات خدمةً لهذا الغرض، وكانت بيروت من أهم مراكزها، التي اختيرت للعمل ضد الدولة العثمانية على المدى الطويل، وإثارة نار الفتنة والفرقة بين الشعبين العربي والتركي الشقيقين⁽⁴⁾.

وقد تزامن تشكيل تلك الجمعيات مع تأسيس المدارس والكليات التعليمية التي عنيت بإنشائها الإرساليات التبشيرية الأوروبية والأمريكية⁽⁵⁾، وسار الأمران كالخطين المتوازيين جنباً إلى جنب تحت رعاية وعناية المبشرين النصارى وبجهودهم الحثيثة في هذا المضمار، وأهم تلك الجمعيات:

أ- جمعية الآداب والعلوم: تسمى هذه الجمعية بهذا الاسم، أو كما تسمى بـ: جمعية الفنون والعلوم، تشكلت تحت رعاية الإرساليات الأميركية بواسطة عميلين هما بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وكان أهدافهما نشر الثقافة الغربية والتوجيه الغربي، ولم ينتسب لهذه الجمعية خلال عامين بعد تأسيسها سوى خمسين عضواً من بلاد الشام كافة، كلهم من النصارى⁽¹⁾، وكان تأسيس هذه الجمعية سنة 1847م، ومن الشخصيات التي انتسبت إلى هذه الجمعية أيضاً نوفل نوفل ونعمة ثابت وميخائيل مشاققة، من الشخصيات الأجنبية فاندريك، تشرشل، جرجس هواتين، إليي سميث، وتدل هذه الأسماء الأميركية أنها المنشأ والتوجه، وكان لها دورا بارز في نشوء الحركة القومية العربية، ساهمت في الدعوة لهذه الحركة ونشرها من خلال المحاضرات والندوات، واستمرت في ذلك حتى عام 1852م حيث انحطت هذه الجمعية وتشتت شمل منتسبيها⁽²⁾.

ب- الجمعية الشرقية: وأسس هذه الجمعية المبشرون اليسوعيون الكاثوليك منافسةً للمبشرين الأمريكيين، وذلك سنة 1850م، وكان أعضاؤها من العرب المسيحيين ومن الأجانب المسيحيين، ومن أبرز أعضائها العرب إبراهيم النجار، والشاعر هنا أبو صعب ورزق الله خضراء، وكان الأب دوبرنيير من الأجانب⁽³⁾، ويظهر من أسماء الأعضاء أنهم كلهم نصارى، وأنها جمعية طائفية نصرانية.

ج- جمعية شمس البر: أنشئت في بيروت سنة 1869م، فرعاً لجمعية اتحاد الشبان المسيحية في انكلترا، وهي جمعية أدبية خطابية، وكان لها فروع في كافة المدن الشامية⁽⁴⁾.

و- جمعية زهرة الآداب: تأسست في بيروت سنة 1873م، ضمت خريجين من مدرسة البستاني الوطنية منهم سليمان البستاني، اسكندر عازار، إبراهيم اليازجي،

(4) حسون، الدولة العثمانية، ص143

(5) الريماوي، سهيلة، صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام، 1850-1908م، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد (6) ربيع الأول 1402هـ/كانون الثاني 1982م، ص134-135.

(1) حسون، الدولة العثمانية، ص143

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص91، فريجات، الثورة العربية، ص18، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص43

(3) فريجات، الثورة العربية، ص18

(4) فريجات، الثورة العربية، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص44

وغيرهم، توجهاتها الظاهرية أدبية تهدف للتمرن على الإلقاء والخطابة والدرس والبحث، وهي رابطة لربط المنتسبين لمدرسة البستاني وتجميعهم على أساس طائفي، من أجل مقاومة الدولة العثمانية والدعوة للانفصال عنها.⁽¹⁾

هـ-جمعية المقاصد الخيرية: وهي من أشهر الجمعيات التي نشأت في بلاد الشام في هذه الفترة، أسست في بيروت سنة 1880م من نخبة من الأدباء المسلمين، وهدفت إلى تنشئة الناشئة المسلمين على أسس إسلامية، ومن نشاطاتها تأسيس مدرستين للبنات ومدرستين للذكور⁽²⁾، ويبدو أنه كان لها نشاطات مشبوهة مرتبطة بأعداء الدولة العثمانية من الحركات الماسونية الهدامة، وأن لها صلات من دعاة الانفصال لتقطيع الأواصر والعلاقات مع العثمانيين، لذلك ضيق العثمانيون الخناق عليها واعتقلوا بعض أعضائها، ويؤكد هذا أنها كانت تلقى الدعم والتأييد من مدحت باشا⁽³⁾، الذي كان آنذاك من الناشطين في حركة العثمانيين الجدد (أعضاء حركة تركيا الفتاة الماسونية)، وكان مدحت باشا آنذاك والياً على بلاد الشام، فعمل على استبدال المقاصد الخيرية لمجلس المعارف سنة 1882م، الذي ضم أيضاً جمعية المقاصد الخيرية الدمشقية⁽⁴⁾، ومن الجمعيات الأخرى التي عرفت في هذه المرحلة الجمعية الماسونية التي تألقت في دمشق باسم محفل سوريا⁽¹⁾ وفي طرابلس الجمعية الخيرية الأرثوذكسية الطائفية، وفي القدس كان هناك جمعيتان وطنيتان الأولى جمعية سوسنة صهيون، وهي فرع لجمعية الشبان المسيحية في لندن، تأسست سنة 1877م، والثانية جمعية الغيرة المسيحية الطائفية لطائفة الروم الأرثوذكس، أما باقي المدن السورية كحلب وحمص وحمص، فلم يكن فيها جمعيات⁽²⁾.

و-الجمعية العلمية السورية: وكانت من أشهر الجمعيات التي أنشأت عام 1857م، وبلغ عدد أعضائها 150 عضواً، وضمت شخصيات من كافة نواحي الشام، إضافة

(1) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص44، فريحات، الثورة العربية، ص19

(2) الحصري، البلاد العربية، ص94-95

- فريحات، الثورة العربية، ص19، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص38

(3) هو أحمد شفيق بن القاضي الحاج حافظ محمد أشرف، حفيد الروسقلي الحاج علي أفندي، ولد 1238هـ/1822م، في الاستانة، حفظ القرآن وهو في العاشرة، سمي لذلك حافظ شفيق، تعلم في الديوان الهمايوني (السلطاني) وتعلم في جامع الفاتح المنطق والمعاني والفقه والحكمة وأتقن الفارسية والعربية، عين في عدة مناصب حكومية، كقلم الديوان في الباب العالي، وعين والياً على نيش عام 1860م، ثم والياً على الطونة (الدانوب) عام 1864م لمدة ثلاث سنوات، ثم والياً على بغداد، ثم والياً على أدرانة، ثم صار صديراً أعظم عام 1872م، عزل السلطان عبد العزيز بالاتفاق مع حسين عوني ورشدي باشا، ثم عينه السلطان عبد الحميد صديراً أعظم مرة ثانية فأظهر حينها إعجابه بالانكليز وأظهر نزعه لحركة تركيا الفتاة الماسونية المطالبة بالتغريب في الدولة العثمانية ورغم كونه والياً ناجحاً لكنيسة كان صديراً أعظم قليل الخبرة، عزله السلطان عبد الحميد ثم عينه والياً على سورية ثم نفاه إلى الطائف ومات فيها، ويتهم السلطان عبد الحميد بأنه أرسل له من دس له السم هناك، توفي سنة 1885م

انظر: مدحت باشا، المذكرات، تعريب يوسف حتاتة، نشر: المطبعة الهندية، طبعة أولى، مصر، د. ت، ص5، 36-37، 50-54، 90-93. وانظر: أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، نشر: مكتبة النهضة المصرية، طبعة ثالثة، القاهرة، 1971م، ص28-63.

(4) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص44، مدحت باشا، المذكرات، ص36-37

(1) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص44

(2) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص44

لإنضمام شخصيات مصرية لها، على اختلاف العقائد الدينية للمنتسبين لها، فكان من أعضاء مجلس إدارتها الشيخ الدريدي محمد أرسلان رئيس مجلس إدارتها، وحسين بيهيم، وهو مسلم سني، ومن المصريين الأعضاء فيها سليمان أباطة.

ومن أهالي دمشق كل من جبران أسبر، ورفائيل شامية، وعبد اللطيف مارديني، وغيرهم، وكان لها نشاطات أدبية من أبرزها إلقاء ثلاث عشرة محاضرة في الآداب، وتمثيل ثلاث مسرحيات⁽³⁾، والملاحظ أن تشكيلة المنتسبين لهذه الجمعية توحى بتوجهاتها القومية وطموحها لتكون رابطة تضم المعارضين للدولة العثمانية والخارجين عن سلطتها لضربها من الداخل، ولذلك حرصوا على إدخال المسلمين بين أعضائها من أجل ضرب الاسلام بأيدي أبنائه، ومحاربة دولته الموحدة دولة الخلافة من المنتسبين إليه، وساروا وعملوا في هذا الاتجاه لتنفيذ ذلك⁽⁴⁾.

ز-جمعية بيروت السرية: وتعد هذه الجمعية أول عمل منظم في حركة القومية العربية، ألفتها نخبة مختارة من شبيبة لبنان، الذين تلقوا العلم في الكلية الأمريكية البروتستانتية في بيروت عام 1875م/1292هـ، وتسير على خطى جمعية العثمانيين الجدد (بني عثمانليار)⁽¹⁾ الماسونية الداعية إلى قطع العلاقات العربية العثمانية، وهي ذات تطلعات صريحة ورغبة جازمة في فصل لبنان بما يعتقدونه بأنه وطنهم المسيحي، عن جسم الدولة العثمانية⁽²⁾ كما تعد هذه الجمعية أول حزب سياسي يجاهر بالعداء للعثمانيين، ويسمى دولتهم باسم تركيا، ومن أهم مبادئ هذه الجمعية فصل الدين عن الدولة، واعتبار الجنس العربي هو الأساس والأحق في الخلافة، "الغريب من تلك الجمعية النصرانية إتهامها للدولة العثمانية باغتصاب الخلافة الإسلامية من العرب، والتفريط في الدين مع العلم أن أعضاءها ليسوا بمسلمين"⁽³⁾ وينقل زين عن أحد الخمسة الذين أسسوا هذه الجمعية، وهو من أعمدة الحركة الماسونية في لبنان في القرن التاسع عشر المسمى فارس نمر⁽⁴⁾، ما رواه له شخصياً من معلومات وتفاصيل على هذه الجمعية، تبين بدايات تكون الفكر القومي، وتوجه ذلك التيار القومي بعد تشكله إلى العمل المنظم والمدرّس في إثارة الشعور العدائي ضد العثمانيين في المدن الشامية كافة، يقول عن تلك البدايات: إن فكرة القومية لم تكن بعد قد وجدت طريقها

(3) فريجات، الثورة العربية، ص18-19، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص91. وانظر: كامل، محمود، الاسلام والعروبة، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص136.

(4) حسون، الدولة العثمانية، ص143، قلججي، الثورة العربية، ص80

(1) برو، العرب والترك، ص40، زين، نشوء القومية العربية، ص59-60. - الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص58

(2) برو، المرجع السابق، ص40-41، قلججي، الثورة العربية، ص80

(3) حسون، الدولة العثمانية، ص143

(4) ويشير دروزة إلى أن فارس نمر ويعقوب صروف، وهما لبنانيان منشئا مجلة المقتضب كانا من أعضاء جمعية بيروت السرية، وكانا عضوين في المحافل الماسونية، وينشران المقالات التي تؤيد أهداف هذه الجمعية، وتضرب على وتر الوحدة الإسلامية المسيحية من الوجهة الوطنية والقومية، انظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص94. وانظر: محافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، نشر: الأهلية للنشر والتوزيع، طبعة ثانية، بيروت، 1978م، ص130، وكذلك: أنطونيوس، يقظة العرب، ص82، الجميل، تكوين العرب الحديث، ص515، ويذكر الجميل أن شاهين مكاريوس كان مع النمر وصروف في التعريف بالحركة الماسونية.

إلى وجدان العامة من الناس، وكان ولاء الناس، كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية، يقوم على أساس ديني طائفي، وكانت الوحدة القومية في مثل هذه الظروف أمر يستحيل قيامه، وكان هؤلاء الشبان الذين ينتمون إلى هذه النخبة (الجمعية) يطالبون بتحرير لبنان من الحكم التركي، وكان أخطر ما أقلق نفوسهم هو احتقار الأتراك لهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة، والواقع أن المسلم كان يتكلم عن الامبراطورية العثمانية أنها امبراطوريته، أما المسيحي فكان يشعر دوماً بأنه واحد من رعايا السلطان، وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومية، لكن لم يمض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى أنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم يبقى لهم أن يتعاونوا مع المسلمين، لكي يكونوا لهم سنداً وعوناً، فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك كجبهة واحدة مترابطة، ولم يكن هنالك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى "العروبة" فالعروبة كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية، وأن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك، وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل للتحرر من الحكم التركي، والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة، وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك.

ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى، هي إدخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت، وكان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين، بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، للانتماء إلى الجمعية السرية، وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين إلى المحافل الماسونية، وعلموا بوجود جمعية سرية، وقد اتفق الجانبان المسلمون والمسيحيون على محاربة الظلم التركي واستبداده، على أساس العروبة، وعلى مبدأ المساواة بين العرب والأتراك، غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية، وهو طرد الأتراك من ولاية سوريا، التي كانت تشمل آن ذاك سنجق لبنان المستقل ذاتياً، وبذلك أضاعوا سانحةً قل أن يوجد الزمان بمثلها⁽¹⁾.

وتدل هذه الصراحة والوضوح التي يتحدث بها فارس نمر الماسوني اللبناني عضو جمعية بيروت السرية على أهمية هذه الجمعية وخطورتها الكبيرة في التأثير على سير العلاقات العربية العثمانية في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها دولة الخلافة العثمانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بعد أن تكالبت عليها الدول

(1) زين، نشوء القومية العربية، ص 61، وانظر:

- كوتلوف، ل. ن، تكون حركة التحرر الوطني (منتصف القرن التاسع عشر، 1908م)، ترجمة عن الروسية سعيد أحمد، نشر: وزارة الثقافة، دمشق، 1981م، ص 396.
- أوكي، ميم كامل، السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية، ترجمة عن التركية: إسماعيل صادق، نشر: الزهراء للإعلام العرب، طبعة أولى، 1992م، ص 63

الأوروبية الاستعمارية، وأخذت تعمل تحت شعار المسألة الشرقية على اقتسام ممتلكات الرجل المريض، وتكمن الخطورة في الضرب على وتر العنصرية، وعلى وتر إثارة الفرقة والفتنة بين العرب في بلاد الشام وبين العثمانيين، وانبرى هؤلاء الماسونيون بخطتهم المدروسة هذه يركزون على كلمة أتراك وعرب، ليقولوا للناس أن هذين الجنسيتين مختلفان غير مؤتلفين، وينبغي أن نميز بينهما، وتعمدوا لترويج بضاعتهم إدخال المسلمين بين صفوفهم، ليزدروا الرماد في أعين المسلمين، كي تكون بضاعتهم مقبولة لديهم، لأنه بدون مسلمين بينهم سينظر إليهم نظرة الريبة والشك والعداء، ومع ذلك، وعلى الرغم من تزيينهم لخلطهم بالخليط الديني الباهت لاستمالة المسلمين إليهم، ولإسكات السلطات الرسمية عنهم، فلم يكن الإقبال عليهم كبيراً، ولم ينضم إليهم إلا القلة القليلة من أبناء المسلمين، ربما لانكشاف أمرهم من قبل الحكومة العثمانية ومن واليها على بلاد الشام، وتحذير الحكومة للناس من إفساد هذه "النخبة" الماسونية، ويبدو أن أمر هذه الجمعية السرية الخطيرة التي تعمل لإفساد علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام، تحت غطاء العمل للعروبة والاسلام، قد صار معروفاً لدى عامة الناس، لأن عامة المسلمين حينذاك كانوا على ولاء تام وانقياد كامل لدولة الخلافة العثمانية لأنها دولتهم تحكمهم بالاسلام حسب وصف فارس نمر لإنتماء الناس وولاءهم الديني للدولة العثمانية في ذلك الوقت⁽¹⁾ فلم تنفعهم الشعارات البراقة في خلق جو عام مشحون بالعداء للعثمانيين، بل بقيت الرابطة العثمانية هي الصفة الغالبة على علاقات العثمانيين بعرب بلاد الشام، وبقيت تلك الدعوات إلى العداء للعثمانيين وإلى تأليب الناس عليهم تحت ذريعة الاستبداد والظلم، واستعمال كلمة تركي بدل عثماني لزرع الشقاق وإيجاد الفجوة والفرقة، بقيت نشازاً وأصواتاً غريبة غير مقبولة لدى جمهور المسلمين وهم الأغلبية بين سكان بلاد الشام، وفشلت الحملة العدائية لتكوين رأي عام ضد العثمانيين، وساعد على ذلك سياسة الخليفة عبد الحميد الثاني الايجابية تجاه العرب في التحبب إليهم ومحاربة النزعات الاقليمية الطائفية وامتصاصها من صفوفهم، وإلى هذا الفشل يشير مروج دعوة الانفصال فارس نمر والمرارة تأكل قلبه لعدم استجابة المسلمين في بلاد الشام للثورة على العثمانيين، حين يقول: "وبذلك أضاعوا سانحةً قل أن وجود الزمان بمثلها"⁽²⁾ فما الذي حدث بعد ذلك؟ يستنتج من الجو العام أن دعوة الجمعية هذه لم تأخذ أبعادها ولم تنجح، هذا عدا عن افتضاح أمرها لدى الأجهزة الحكومية التي تحارب الدعوات الهدامة تنفيذاً لسياسة السلطان عبد الحميد في محاربة تلك الدعوات، والحفاظ على استقرار المجتمع وعلى سلامة الأمة وسيادة النظام في أرجاء الدولة، "وفي زمن ما يقع بين 1882م و1883م أوقفت هذه الجمعية السرية الثورية – التي ظلت تعمل سراً دون أن يعلم أحد بها-

(1) زين، نشوء القومية، ص60

(2) زين، نشوء القومية، ص61

نشاطها وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعيةً منحلّةً، وبعد سنوات قليلة تأسست جمعيات سريةً أخرى⁽²⁾.

لكن وبتوقف نشاط هذه الجمعية السرية، هل توقف العمل التحريضي ضد العثمانيين في بلاد الشام؟ الحقيقة أن ذلك النشاط لم يتوقف، فكان ثمة تحركات مريبة يقوم بها هؤلاء النخبة الماسونيون دعاء التغريب، انسجاماً مع توجههم في إثارة الاضطرابات والنيل من مكانة العثمانيين في نفوس عرب الشام، ويمكن القول إن ذلك جزء من مخطط عام ينفذه المنتسبون إلى المحافل الماسونية في ولايات الدولة العثمانية بما فيها ولاية سورية، تحت تسميات متعددة وشعارات مختلفة كالإصلاح ومقاومة الظلم والاستبداد، بالاتفاق مع الدول الاستعمارية الراعية لتلك المنظمات المشبوهة والموجهة لها، خاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا⁽³⁾، ويدل على ذلك ما ظهر من منشورات سنة 1880م في لبنان وباقي سناجق بلاد الشام، والتي "تشجب الفساد والظلم المتفشين في الحكم التركي، وتدعو الناس لقلب نظام الحكم"⁽⁴⁾ وكان أصحاب هذه المناشير يهدفون إلى إثارة الروح الوطنية في نفوس العرب، فنادوهم أن يذكروا أمجادهم الغابرة، وأن يثوروا على الأتراك، وأن يطردوهم من الأرض العربية فيتحروا من فساد الحكم التركي واستبداده⁽¹⁾ ومما يؤكد على الارتباط الوثيق بين تلك الجمعيات والأحزاب السرية التي تعمل في بلاد الشام، ويبين الدور الكبرى، والحركة الماسونية العالمية، للوصول إلى الهدف المشترك في القضاء على الدولة العثمانية وإضعافها، وهي في أضعف أدوارها في هذه المرحلة نهاية القرن التاسع عشر، هو أن سفراء تلك الدول الاستعمارية، وخاصة بريطانيا وفرنسا، كانوا يرصدون مجريات الأحداث في بلاد الشام، وقيسون درجة نبض الشارع وردود أفعال الناس تجاه النشاطات التي يقوم بها أعضاء تلك المنظمات السرية المعادية للدولة العثمانية، ومن ثم يرسلون بها إلى دولهم لمتابعتها هناك، واتخاذ القرارات المناسبة لكل تطور وطارئ يجري في بلاد الشام، من حيث نجاح تلك الجمعيات السرية في علمها أو فشلها، ومواكبة ذلك على المستوى السياسي الرسمي في علاقات تلك الدول مع الدولة العثمانية صاحبة الولاية والسيادة على بلاد الشام، بحيث يؤدي هذا التنسيق والمتابعة في نهاية المطاف إلى تحقيق النتائج المرجوة في تكوين رأي عام داخلي في الشام يعادي العثمانيين، ويقبل فكرة أتراك وعرب كما يروج لها رسل التغريب دعاء القومية، والتغطية بها على مفهوم عثمانيين ورابطة عثمانية التي لا تعترف بالنزعة العرقية العنصرية بين أبناء هذه البلاد وبين دولتهم دولة الخلافة العثمانية، وبهذا

(2) زين، المرجع نفسه، ص 61

(3) لمعرفة دور المحافل الماسونية في ولاية سورية العثمانية نهاية القرن التاسع عشر، وعن مفاصل تلك المحافل وأدوارها التخريبية وارتباطها بالدول الاستعمارية، انظر: شيخو، لويس، السر المصون في شعبة العزمسون، مجلة المشرق، سنة (14)، العدد (7) تموز، 199م، ص 529-539.

(4) زين، نشوء القومية، ص 61-62، مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص 186-187

(1) زين، المرجع السابق، ص 62

وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 94-95، انطونيوس، بقطة العرب، ص 83

الخصوص يذكر زين أن المناشير التي تصدر كانت "تعلق على الجدران بعد منتصف الليل بالقرب من قصر القنصليات الأجنبية في بعض المدن السورية، ولا سيما في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا، وهي في جملة التعابير العلنية عن الشعور الوطني، الذي كان يتأجج في صدور العرب، وقد اعترف فارش باشا أن جمعيتهم السرية كانت مسؤولة عن كتابة عدد من هذه المناشير، وأن عدداً منها كان بخط يده، وقد كانت هذه المناشير الثورية صغيرة في حجمها بحيث يستطيع الواحد أن يخبئها في جيب سترته"⁽²⁾.

أما موقف القنصل الانكليزي في بيروت تجاه هذه المناشير فهو كما يلي: "28 حزيران 1880م شعر وكيل القنصل العام الانكليزي في بيروت، السيد جون ويكسون (ج.ت. غوشن/ G.T. Goshen) برقياً على هذا الأمر الخطير، وهو أن مناشير ثورية قد ظهرت على جدران مدينة بيروت، وأعقب البرقية برسالة مؤرخة في (3) تموز 1880م، يقول فيها: إن مثل هذه المناشير قد ظهرت مراراً في بيروت، وهي تناشد الأهليين أن يثوروا على الأتراك."⁽¹⁾

ويضيف وكيل القنصل العام قائلاً: "لست أشك في أن هناك جمعية سرية في سوريا تعمل منذ خمس سنوات وأن لها فروعاً في بغداد وفي الأستانة، وقد تكون هذه الجمعية هي التي تصدر هذه المناشير"⁽²⁾، وقد ضمن رسالته نسخة أصلية من هذه المناشير مكتوبة باليد، وصورة من منشور آخر، ويظن ديكسون أن هذه هي المرة الثالثة التي كانت تعلق فيها هذه المناشير على الجدران في شوارع بيروت⁽³⁾ واستمر ظهور المناشير الثورية حتى أواخر سنة 1880م في سوريا، ثم أرسل ديكسون رسالة إلى ف.ر. سانت جون F.R. St. John، القائم بأعمال السفارة البريطانية في استانبول تحدث فيها عن المناشير الثورية التي ظهرت في بيروت، وأعرب عن رأيه بأنها ليست من عمل أفراد غير راضين عن الحالة السياسية، بل إنها من عمل جمعية سرية لها فروع في سائر أنحاء البلاد، وأن كاتب تلك المناشير رجل كثير الثقافة، يجيد عربية القرآن ويعرف الشعر العربي ... ومما لا شك فيه أن بعض هذه المناشير صدر عن الجمعية السرية التي تأسست في بيروت، غير أن ديكسون في رسالته إلى قنصل بريطانيا في تركيا لا ينفي احتمالات أخرى، منها أن تكون قد صدرت عن هيئات أخرى، إذ أن هناك رأياً شائعاً بين المسلمين والنصارى أن صاحب هذه المناشير هو الوالي مدحت باشا، لكن ديكسون يعود وينفي هذا الاحتمال، وبعد ستة أشهر أي في 17 كانون الثاني 1881م يعلل ديكسون هذه المناشير تعليلاً جيداً يجمع فيه بين مختلف الآراء، ويوجد بينها جاعلاً مصدر المنشورات جمعية المقاصد

(2) زين، المرجع السابق، ص 62

وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 94-95، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 83

(1) زين، نشوء القومية، ص 62، زين، أسباب الثورة العربية الكبرى، ص 42، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية، سبقت الإشارة إليه سابقاً.

(2) زين، المرجع نفسه، ص 62

(3) زين، المرجع نفسه، ص 62-63، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 83

الخيرية التي تعمل تحت إمرة مدحت باشا، لأن بعض الناقمين على الحكم قد انضم إلى هذه الجمعية، وأن الجمعية الثورية هي التي تسبب في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية، وأن مدحت باشا كان سراً أحد أعضائها، وأنه هو الذي أسسها ورعاها، لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية⁽¹⁾، وأنه ما يزال على اتصال وثيق بهذه الجمعية الثورية، ويختم ديكسون رسالته بالقول إن هذه المناشير التي ظهرت يجب أن تعتبر تعبيراً عن نقمة عابرة دون أن يترتب عليها أية نتائج ذات خطورة وأنها تشير إلى أن في الأفق بوادر تدمر، وأن المسلم كالمسيحي أخذ يبدي معارضة ضد الحكم التركي إلى جانب الموقف الانكليزي يظهر الموقف الفرنسي أيضاً متابع لما يجري في بلاد الشام، إذ يبعث سنكفيتس (Sienkiewicz) القنصل الفرنسي العام في بيروت برسالة مؤرخة في 2 حزيران 1880م إلى فريسسينيه (Freycinet) وزير الخارجية الفرنسية، يذكر فيها شيئاً عن ظهور هذه المناشير في بيروت ودمشق، ويقول إنها تناشد الأهليين المطالبة باستقلال سوريا الذاتي، وفي رسالته الثانية إلى وزارة الخارجية الفرنسية أشار القنصل العام إلى ظهور المناشير التي أشار إليها القنصل البريطاني ديكسون.⁽²⁾

ويرى انطونيوس أن القناصل الأجانب حاولوا التقليل من شأن جمعية بيروت السرية حين وصفوها بأنها تظاهرة فائرة أثارت قليلاً غريزة الفضول في نفس جمهور جامد، في حين يرى العرب المعاصرون لتلك الجمعية نقيض ذلك من خلال مشاهداتهم وملاحظاتهم، وأن تأثير تلك المناشير التي صدرت عن جمعية بيروت السرية كان عاماً⁽³⁾ ويمكن تفسير هذا التباين في النظرة إلى دور جمعية بيروت السرية ونشاطاتها في إثارة النعرة العصبية العربية ضد دولة الخلافة العثمانية على أن نهاية القرن التاسع عشر كانت تغلب عليه الروح الإسلامية على النزعة القومية بين سكان بلاد الشام، وإن كان سنجق لبنان قد تأثر منذ وقت مبكر قبل غيره من أقاليم الشام بالتأثيرات القومية الوافدة من الغرب، لاحتكاكه المباشر بالدول الأوروبية، نظراً للعلاقات التجارية بينه وبين مدن أوروبا الغربية كالبندقية وجنوة وغيرهما، هذا عدا العلاقات الدينية بين نصارى لبنان والكنيسة الغربية في روما، وولاء هؤلاء النصارى لتلك الكنيسة وفرنسا، وتصريحاتهم الكثيرة حول ذلك، وإضافة لما ذكر فإن الروح القومية، وإن لم تصبح تياراً قوياً مسيطراً على حياة الناس وأفكارهم في هذه الفترة، بفضل سياسة الخليفة عبد الحميد الثاني الحكمة، حين أماتت العصبية القومية في عهده، ونجحت في أداء تلك الروح الشريرة المنتنة، التي ما لبثت أن أطلت برأسها من جديد بعد عزلة من الخلافة، وسيطرة الاتحاديين على مقدرات الأمور في الدولة

(1) زين المرجع السابق، ص 63-65، انطونيوس، بقطة العرب، ص 84 وأنظر: الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 59، إذ تبين سهيلة الريماوي أن مدحت باشا سكت عن نشاطات الجمعية السرية الثورية وعن منشوراتها، وفي ذلك تأكيد لصله مدحت باشا بتلك الجمعيات المثيرة للعداء بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام.

(2) زين، المرجع السابق، ص 63، زين، أسباب الثورة العربية، ص 42، عوض، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث، نشر: مكتبة المحتسب، طبعة أولى، عمان، 1983م، ص 86، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: عوض، دراسات. زين، أسباب الثورة العربية الكبرى، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية الكبرى، سبق الإشارة إليه، ص 42-43

(3) انطونيوس، بقطة العرب، ص 85

العثمانية، وعزفهم على الوتر الطوراني القومي، مما أثار حفيظة العرب القومية، ونفورهم من الاتحاديين، ووصول الأمور إلى درجة اليقظة في العلاقات، وهو ما يتم تفصيله في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

ح- جمعية حقوق الملة العربية: وتأتي هذه الجمعية كرديف لجمعية بيروت السرية، وأنشأت بعدها بست سنين عام 1881م في بيروت أيضاً، وهي تسعى إلى التحريض على العثمانيين، وتسميهم بالأتراك تركيزاً على النعرة العصبية، لإثارة العرب عليهم، وتضم كذلك أعضاء من النصاري والمسلمين، ولها فروع في مدن أخرى غير بيروت مثل دمشق وطرابلس وحيداً، وكانت تنادي بالوحدة الإسلامية المسيحية ضمن الإطار القومي العربي، وتوزع المنشورات المخطوطة باليد، ولعل بعض المنشورات التي أشار إليها القنصل البريطاني في بيروت كان صادراً عنها⁽¹⁾ "والتي تحت العرب على الاتحاد واليقظة والتمرد على الاستبداد الحميدي"⁽²⁾، وكانت تلك المنشورات "تتوج بسيف مسلول ومكتوب تحته بيت شعر منسوب لإبراهيم اليازجي، يقول:

لنطلبين بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه أرب

أما تلك المناشر فكانت مكتوبة بخط اليد، وملقاة في الأزقة والشوارع، وأن منها ثلاثة "محفوظة" في سجلات وزارة الخارجية البريطانية، أحدها بصورته الأصلية⁽¹⁾ وفي هذه الفترة أيضاً وأثناء ولاية مدحت باشا على بلاد الشام عام 1878-1880م، ظهرت حلقة الشيخ طاهر الجزائري العلمية، والتي ضمت لفيماً من المنبهرين بالثقافة الغربية والدعاة لها⁽²⁾، ومن زعماء التيار القومي في ذلك الوقت، الذين كانوا على صلة برجال جمعية بيروت السرية وجمعية تركيا الفتاة الماسونيين⁽³⁾، واشتهر منهم الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم البخاري، ورفيق العظم، ومحمد كرد علي، وسليم الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي الشهير بالانكليزي، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد الرحمن الشهبندر، وكانت هذه الحلقة ذات الطابع الظاهري العلمي، والخفي السياسي، قد نشأت باسم جمعية خيرية، ونشأت برعاية مدحت باشا وتشجيعه لها على النشاط السياسي العدائي للسلطان عبد الحميد ودولة الخلافة العثمانية، وما أن علم السلطان عبد الحميد بأمرها حتى أمر بإلغائها، وتوجيه التهمة للشيخ الجزائري ومن معه بالتحريض على دولة الخلافة، والعمل على إفساد العلاقات العربية العثمانية، وإذاعة النداءات ضد السلطان، مما جعل أعضاء هذه الحلقة يفرون إلى مصر، ويعيشون هناك لممارسة النشاط العدائي ضد الدولة العثمانية، بحماية بريطانيا التي تحتل مصر

(1) زين، نشوء القومية، ص 62-63، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 94-95

(2) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 131، عوض، دراسات، ص 86

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 94-96

انطونيوس، بقطة العرب، ص 84

(2) الريماوي، صفحات، ص 136

(3) الشهابي، القومية العربية، ص 49، عوض، دراسات، ص 86-87، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 54،

الريماوي، صفحات، ص 137

حينذاك⁽⁴⁾، ومما يذكر هنا أن هؤلاء المذكورين أعضاء حلقة الشيخ طاهر الجزائري كان قسم منهم على ارتباط وثيق بالقنصليات الفرنسية والانكليزية في بيروت، وعلى تنسيق معها في العمل ضد الدولة العثمانية، وقد أعدمهم جمال باشا لاحقاً بعد إدانتهم، إثر مصادرة وثائق تلك القنصليات في عام 1914م، ويتم بيان ذلك في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

ط- جمعية النهضة العربية: انبثق عن حلقة الشيخ طاهر الجزائري بعد ذلك جمعية النهضة العربية⁽¹⁾ (الوطنية) كما يسميها دروزة⁽²⁾، إضافة لحلقة دمشق الصغيرة، وينتمي إليها شبان يتمردون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري، المسماة حلقة دمشق الكبرى، وكان ذلك في دمشق سنة 1903م، وكان هؤلاء من ذوي النزعة القومية العربية الذين ينادون بالانفصال عن العثمانيين⁽³⁾ بينما يحدد دروزة تاريخ تأسيسها عام 1906م، وأنه تأسس فرع لها في الآستانة، تولى محب الدين الخطيب الإشراف عليه، ثم أسس فرعاً آخر لها في اليمن، ويرى الشهابي أنها كانت بادئ الأمر سرية عام 1903م، ثم تحولت إلى علنية عام 1906م، وأن عبد الكريم الخليل كان من مؤسسيها، ثم أوجد فرعاً لها في صيدا يعمل تحت إشرافه، كونه من أهل صيدا⁽⁴⁾.

- وأخيراً فإن آخر ما أسس من جمعيات عربية تدعوا للانفصال عن العثمانيين، وعلى إثارة الروح القومية العربية ضد دولة الخلافة العثمانية، جمعيتان هما:

ي- جمعية رابطة الوطن العربي: التي أنشأها نجيب عازوري الذي لجأ إلى فرنسا للتحريض من هناك ضد الدولة العثمانية، وكان ذلك سنة 1904م وقبل 1905م، وتدعوا هذه الجمعية إلى فصل بلاد الشام والعراق عن الدولة العثمانية، وإلى تحريرهما من سيطرة الترك، وكانت توجه نداءات نارية تحض العرب على الثورة ضد العثمانيين⁽⁵⁾.

ك- وجمعية أخرى أنشأها خير الله خير الله باسم عصبة الوطن العربي سنة 1905م وكانت تسلك مسلك جمعية رابطة الوطن العربي في تحريك النعرة القومية في نفوس العرب ضد ما تسميهم الأتراك، وتدعو إلى الخروج عليهم ونبذ أية علاقة تربط العرب بهم، وتكوين رأي عام معادي للعثمانيين يقوم على موقف قومي بحت⁽⁶⁾.

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص98-99، الشهابي، القومية العربية، ص52-53، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص131-132، القلعي، الثورة العربية، ص84-85

(1) الشهابي، القومية العربية، ص52، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص133-134

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص99 وانظر: القلعي، الثورة العربية الفتاة، ص56

(3) الشهابي، القومية العربية، ص52-53، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص56

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص99-102، الريماوي، صفحات، ص137-138، ص145-154

(5) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص102، محافظة الاتجاهات الفكرية، ص134

(6) دروزة، المرجع نفسه، ص102

وهكذا تشكلت الجمعيات السرية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي يطلق عليه محافظة عهد التسلط الحميدي⁽¹⁾، والواقع أنه عهد مليء بالأحداث الساخنة التي تتفاعل وتتدافع بين التيارات الفكرية القائمة آنذاك، وقد وقف السلطان عبد الحميد وقفةً حازمةً قويةً في التصدي لتلك التيارات التي يراها بأمر عينه تنقض على دولته من داخلها في هجمة شرسة، وبتخطيط من الدول الاستعمارية، ومن المنظمات الماسونية العالمية، وبتنسيق مع هؤلاء العرب المندفعين بدوافع مختلفة، بعضها عن سوء قصد وعن نية مبيتة مع الأعداء للتخريب وإفساد علاقة العثمانيين بالعرب من الداخل، وبعضها عن بساطة وسذاجة انجراراً وراء شعارات جذابة عاطفية، ظاهرها فيها الرحمة للعرب والمسلمين كالحرية والاستقلال والنهوض، وباطنها من قبلها العذاب والشقاق والغزو الفكري والثقافي، وتقطيع أواصر الأخوة مع إخوة العقيدة والتاريخ والمصير المشترك وهم المسلمون العثمانيون، الذين ما انفكوا يحملون راية الاسلام ليردوا عن الأمة بكاملها، بمن هم منها "العرب"، ومع من صمدوا في وجه الحملات الصليبية المكثفة خلال قرون سلفت، في سبيل الحفاظ على الوحدة السياسية والطبيعية للأمة العربية متكاملة مترابطة، دون الالتفات إلى ما يتحملون في سبيل ذلك من اتهامات ظالمة تصمم بالتخلف والجهل وغير ذلك، وهذه الأوصاف وإن كان بعضها صحيحاً بحكم الواقع، لعدم التفرغ من أجل إحداث نهضة علمية أو تقنية أو عمرانية، بالانشغال في دوامة الحروب المفروضة عليها، لكن ذلك لا ينقص من قدر هذه الدولة التي حاربت الأعداء في الخارج، كي لا يقطعوا أوصالها، وحاربت عملاء تلك الدول الكبرى من الداخل، الذين دأبوا يثيرون الفلاقل والاضطرابات والمتاعب في أراضيها، تحت ذرائع ووسائل اختلقها الدول الاستعمارية لا سيما فرنسا وبريطانيا، واستخدمت هؤلاء العرب كأدوات لخدمة أهدافها في القضاء على القوة الحقيقية للأمة الإسلامية، التي تتمثل في العلاقات المتينة بين العرب والعثمانيين، والتي هي أيضاً روح مباركة باعثة على الصمود في وجه الهجمة الحضارية على الأمة الإسلامية وعلى دولة الخلافة، ويوم تمكنوا من الاختراق لهذا الجدار المتين، ونسفه بالعصبية القومية، عندها تمكنوا من هزيمة الأمة حضارياً في القضاء على وحدتها وعلى رمزها الممثل بالخلافة كما سيأتي توضيح ذلك لاحقاً في هذه الدراسة.

6- الصحافة والطباعة.

ارتبط اسم الطباعة مع الصحافة نظراً لتعرف بلاد الشام عليهما في فترة متلاحقة، إضافة لكونهما متلازمتان من حيث كونهما مظهران من مظاهر انتشار الوعي والثقافة والتعليم، ولاعتماد إحداها على الأخرى، إذ لولا الطباعة ما انتشرت الصحافة، لأنها الوسيلة الأساس لظهورها.

(1) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص132

وقد عرفت بلاد الشام الطباعة قبل مصر، ولا سيما لبنان لاحتكاكها ببلاد الغرب، خاصة إيطاليا، إذ ظهرت أول صحيفة في البندقية سنة 1566م وتسمى غازته (Gazetta)⁽¹⁾، ثم ظهرت في بلاد الشام متأخرة عن ذلك التاريخ، في ولاية طرابلس في دير قزحيا بواسطة بعض رهبان الطائفة المارونية سنة 1610م⁽²⁾، وقد جلب هؤلاء الرهبان فكرة الطباعة من روما بعد انتهاء مدة بعثتهم، ثم عرفت العاصمة العثمانية الطباعة بعد ذلك عام 1728م بصورة رسمية بأمر خاص من السلطان تدعمه فتوى شيخ الإسلام عبد الله أفندي، وكان هذا إيذاناً بانبثاق فجر جديد للنهضة السورية في تلك الآونة⁽³⁾، وكانت ولاية حلب قد سبقت غيرها من المدن الشامية بالازدهار الثقافي الذي حظيت به قبلها ولاية بيروت في القرن الثامن عشر، إذ يتبين من استعراض تاريخ الصحافة والطباعة في حلب، أنها استقدمت بعض المحررين الصحفيين من بيروت للعمل في حلب، وكان للطوائف المسيحية الدور الأكبر في إنشاء المطابع والصحف في حلب وتطورهما⁽⁴⁾، يقول دروزة في ذلك: كانت الطباعة وسيلة من وسائل اتساع نطاق الوعي في البلاد العربية، بما كان يصدر عنها من صحف ونشرات وكتب، ومما يؤثر أن حلب سجلت سبقاً في هذه الحركة، حيث قام فيها أولى المطابع العربية، وذلك سنة 1702م، ومن أولى ما يذكر من المطابع العربية، مطبعة في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية سنة 1816م⁽¹⁾.

ثم تطورت الطباعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فصارت المطابع تعمل بالبخار، وتصدر أمهات الكتب ونفائسها، ففي العام 1881م طبع في مطبعة بيروت الأمريكية (57500) مجلد، وبيع منها في السنة نفسها حوالي (15715) مجلداً أدبياً، و(23472) مجلداً علمياً، وكان يوجد في دمشق أربع مطابع، هي: مطبعة الولاية، ومنها تطبع الجريدة الرسمية بالعربية والتركية، ومطبعة الحجر، وهي للحكومة، ومطبعة مجلس المعارف، وكانت قبلاً لجمعية المقاصد الخيرية، ومطبعة حبيب خالد⁽²⁾.

واستمر عمل المطابع وجهدها وازداد اتساعاً بقية القرن التاسع عشر إلى أن وصل حتى سنة 1908م نهاية عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، فأثمر آلاف الكتب

(1) طرزي، تاريخ الصحافة، ج1، ص6، وانظر: زيدان، جرجي (ت1333هـ/1914م) تاريخ آداب اللغة العربية (ع ج) تعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، 1914م، ج4، ص51، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: زيدان تاريخ آداب العربية. - برو، العرب والترك، ص36، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص39-40.

(2) الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية (2 ج) نشر دار المعارف، مصر، 1969م، ج1، ص13، 17.

(3) الرفاعي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، ص17-18، ص20-21.

(4) البخيت، محمد عدنان، بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني، نشر لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م، ص118-119.

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص129-130.

(2) مجلة المقتطف، م7، ج8، ص465-469.

وانظر: برو، العرب والترك، ص36، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص40، دروزة، نشأة الحركة العربية،

ص131

العلمية والأدبية والدينية والتاريخية، مما أحدث نهضة علمية شاملة في أرجاء بلاد الشام، عدت جزءاً من النهضة العربية العلمية الحديثة⁽³⁾.

أما الصحافة فقد ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر رسمية أميرية، ثم ما برحت أن تنتقل إلى ملكية الأفراد⁽⁴⁾، وشهدت ازدهاراً وانتشاراً كبيرين بعد سنة 1850م وكان للطوائف المسيحية في بلاد الشام، خاصة في بيروت وحلب الدور الأكبر في إنشاء الصحف وتطويرها، وقد أنشأ خليل خوري سنة 1858م جريدة الأخبار في بيروت أطلق عليها لفظ جرنال (كلمة فرنسية معناها يومي)⁽⁵⁾ ثم تتابع إنشاء الصحف والمجلات في هذه الفترة، وظهر منها صحف البعثات التبشيرية مثل مجموع الفوائد، وهي أول صحيفة عربية تصدر على الأرض الشامية، ومراة الأحوال في استانبول سنة 1855م، أصدرها رزق الله حسون⁽¹⁾.

وقد لعب مدحت باشا أثناء ولايته على بلاد الشام عام 1878م دوراً مهماً في دعم الصحافة التي تدعو إلى إثارة الوعي القومي العربي، والتي تدعو إلى الانبهار بالغرب والسير على منواله، يقول الرفاعي في ذلك: "كان مدحت باشا الوالي السند القوي للصحافة الحرة في الولايات المتحدة السورية، فقد كان يزور إدارة جريدة الجنان للمعلم بطرس البستاني عند مجيئه إلى بيروت، ويثأفكاره بواسطتها، فيصدر العدد منها بجميع مواده لغاية واحدة كالحث على كراهية الحاكم الظالم، ومحبة الحاكم العادل"⁽²⁾. إلى أن يقول: "يمكن القول: إن مدحت باشا صنع المعجزات، فازدادت فكرة الوطنية السورية العربية، وتغير الاتجاه من العرب والسوريين أنفسهم، وظهر المجهود الضخم المنظم من الجمعيات السرية والأفكار العلمية على صفحات الجرائد لبناء نظام اجتماعي مؤسس على مبادئ المدنية"⁽³⁾. فمدحت باشا كان والياً للدولة العثمانية على الشام، ويشجع الصحافة المأجورة للدول الاستعمارية عن طريق الجمعيات السرية المرتبطة بتلك الدول وبالماسونية، يشجعها على كراهية الدولة التي هو موظف عندها وممثلاً لها، ويفترض أن يكون مخلصاً لها، لا مثيراً للكراهية ضدها والحدق عليها، ويبدو أن السلطان عبد الحميد الثاني، وهو الخليفة المتابع بدقة وانتباه

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص131، طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص7

(4) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص40

(5) طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص7

(1) خضور، الصحافة السورية، ص52-53

(2) الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية، ج1، ص126

(3) الرفاعي، المرجع نفسه، ص136

بالغين لمجريات الأمور في دولته، وخاصة في بلاد الشام، لأهميتها القصوى بالنسبة له، لما تضمنه من تيارات فكرية معادية للدولة بشكل عام ولشخصه بشكل خاص، يبدو أنه قد انتبه لحركات مدحت باشا المشبوهة، فعمل على عزله أولاً، ثم أصدر في جمادى الأولى 1305هـ/الموافق 3 كانون الثاني عام 1888م قانوناً يؤكد ويدعم نظام الرقابة على الطباعة والكتب والمنادين والبائعين المتجولين، مع وجوب طلب تصريح لهؤلاء بالعمل بإذن مسبق، مع تأكيد سلطة الرقابة عليهم، وكذلك ينظم عقود ضبط ومصادرة المطابع السرية التي تدار خارج القانون⁽⁴⁾ ثم أصدر السلطان عبد الحميد قانوناً جديداً آخر سنة 1894م، الموافق 21 جمادى الآخرة سنة 1312هـ، لتنظيم شؤون الطباعة، ومصادرة كل المطبوعات والمنشورات التي لها طبيعة هياج وإثارة العقول للقيام بفتنة وعصيان⁽¹⁾.

ولعل هذه الإجراءات المنظمة لشؤون الصحافة والطباعة، دون المساس بالكلمة المسؤولة فيها، لما ما يبررها إذا علمنا أن الإرساليات التبشيرية والجمعيات الماسونية السرية، تقوم بنشاطات سرية وعلنية مكثفة، في سبيل زعزعة الاستقرار السياسي والاجتماعي في بلاد الشام، ودفع العرب فيها للثورة على الدولة العثمانية حاملة راية الخلافة الإسلامية، من أجل تخريب العلاقات القائمة بين سكان بلاد الشام المسلمين العرب وبين دولتهم الراعية لهم، والمؤتمنة على مصالحهم، وظهر ذلك جلياً مما تقدم تفصيله عن الإرساليات التبشيرية وعن الجمعيات العربية السرية التي قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي عهد عبد الحميد الثاني بعد عام 1876م، والتي كانت توزع المنشورات السرية التي تحرض على السلطان نفسه وعلى دولته، وتبث الأفكار المهدمة للعلاقات بين العرب والعثمانيين، كما هو الحال من المنشورات التي وزعتها الجمعية السرية في عام 1881م، وما بعده مما تقدم تفصيله في هذا الفصل، ولذلك عمد السلطان عبد الحميد إلى تلك الإجراءات ليحفظ الدولة من التخريب التي يقوم

(4) الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية، ج1، ص149

(1) الرفاعي، المرجع نفسه، ج1، ص162، 171

به هؤلاء المنتمون لجميعات سرية تخريبية تحت سمع وبصر الوالي المعين من قبله على بلاد الشام، وهو مدحت باشا⁽²⁾، لأجل هذا قامت الدنيا على الخليفة عبد الحميد الثاني ولم تقعد، من قبل دعاة التغريب القوميين، الذين رأوا في إجراءاته تحجماً لهم ومتابعةً لأنشطتهم، وتيقظاً في الوقاية من إفسادهم وخططهم وفتنهم، ويكفي لمعرفة تلك المواقف من هؤلاء الأعداء لدولة الخلافة، أن نقرأ ما كتبه طرزي عن الخليفة عبد الحميد الثاني، فقد وضع صورة له في كتابه، وكتب تحت تلك الصورة اسم السلطان عبد الحميد وعبارة: سلطان العثمانيين وأكبر عدو للصحافة والصحفيين، ثم أورد بيتين من الشعر يحسن ذكرهما لما فيهما من دلالة بليغة على مدى الحقد والعداء للسلطان عبد الحميد، والبيتان هما:

أعطيتُ ملكاً فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يُخلعُه
ومن غدا لا بساً ثوب النعيم بلا شكر عليه فعنه الله ينزعُه⁽¹⁾

ويضاف إلى ما سبق قول خضور: حاربت هذه الصحف بإخلاص الطاغية العثماني (عبد الحميد) والولاة من بعده⁽²⁾. ومع كل الحملة المكثفة التي تركز فيها تلك الصحف الحاقدة على العثمانيين والمأجورة للغرب، والمرتبطة بالجمعيات الماسونية نجد أنها لم تغفل من السلطان عبد الحميد، بل وكانت تزداد كثرة وانتشاراً، وربما أغلق بعضها أو أوقف عن الصدور لبعض الوقت، لكنها كانت تعمل وتتجهج على السلطان عبد الحميد، وتثير الفتن والدسائس، تحت غطاء الثقافة والعلم والمعرفة⁽³⁾.

وكان أرباب تلك الصحف عندما يصل لدرجة الإحساس بالخطر من ملاحقة السلطات العثمانية له نتيجة تحريضه ودسائسه ضدها في بلاد الشام، يهربون إلى مصر ملجأ هؤلاء الخارجين على الدولة والمعادين لها، وكانت مصر خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد بعد

(2) الرفاعي، المرجع نفسه، ج-1، ص 120

(1) طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج-2، ص2

(2) خضور، الصحافة السورية، ص76

(3) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص128، وانظر: الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص41-42

عام 1876م قد احتلتها بريطانيا، ووفرت على أراضيها وبشكل مقصود ومخطط له مأوى وملاذاً للمعادين من أبناء بلاد الشام للدولة العثمانية والخارجين عليها⁽⁴⁾.

وقد أدت صحف لبنان التي يغلب عليها النصارى والطابع الطائفي الديني العدائي للدولة العثمانية دولة الخلافة، دوراً عدائياً لتلك الدولة، إذ كانت تعمل جاهدة على إثارة النعرة الطائفية، ولما شعرت تلك الصحف بشدة الضغط العثماني عليها بسبب تحريضها على الطائفية الدينية، تراجعت وخفت من لهجتها الطائفية، واستخدمت من اللغة القومية⁽¹⁾ لايجاد النفور والتباعد بين العثمانيين والعرب، ومن أبرز تلك الصحف صحيفة الشهباء التي أصدرها عبد الرحمن الكواكبي في حلب سنة 1878م، وصحيفة الاعتدال أيضاً أصدرها الكواكبي، وقد أصدرها الكواكبي عام 1879م بعد إغلاق سابقتها الشهباء⁽²⁾، ومن الصحف البيروتية الطائفية صحيفة البشر، والمصباح، وتراث الفنون والجنان، والجنة، ولسان الحال، ومن المجالات المقتطف، وغيرها⁽³⁾.

وكانت تلك الصحف والمجلات بمجموعها تعمل على نشر الوعي والثقافة، وتبحث في الشؤون المختلفة وبلغ مجموعها في الفترة بين عام 1858م و1915م ثمان وتسعين مجلة وصحيفة وجريدة⁽⁴⁾ تعمل على نشر الوعي القومي لدى العرب⁽⁵⁾، وتدعو إلى خروجهم على العثمانيين وإلى الابتعاد عنهم.

7- دعاة التغريب (الرواد الأوائل).

(4) الريماوي، المرجع السابق، ص42، محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص108، 189، ص217-218

عازوري، يقظة الأمة العربية، ص69

(1) الريماوي، المرجع السابق، ص42

(2) الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية، ج1، ص122-125

- خضور، الصحافة السورية، ص54-76

(3) طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص25-47، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص42

(4) البخيت: بحوث، ص118-119، ص166-167

(5) خضور، الصحافة السورية، ص67، رافق المشرق العربي، ص363

يطلق المؤرخون المعاصرون⁽⁶⁾ لقب الرواد الأوائل على مجموعة من الشخصيات من الذين عاشوا في القرن التاسع عشر، لا سيما في النصف الثاني منه، واشتهروا بعدائهم للدولة العثمانية وبارتباطهم بالماسونية العالمية، وولائهم للدول الاستعمارية كفرنسا وبريطانيا، وابنهارهم بالثقافة والفكر الغربيين، وتركيزهم على النعرة العصبية الجنسية في تناولهم للعلاقات العربية العثمانية وعدد كبير منهم نصارى لبنانيون⁽⁷⁾، مستخدمين في ذلك وبشكل متعمد الألفاظ التي تظهر الجفوة والتنافر والعداء بين العرب والعثمانيين، وعلى وجه التحديد يستعملون لفظة تركي مقابل عربي عند الحديث عن العثمانيين، أما سبب تسميتهم رواداً وأوائل: فذلك لكونهم أسهموا إسهاماً خاصاً في الدعوة صراحةً لنشوء تيار يحمل الفكرة القومية هدفاً وسبيلاً وعنواناً لمحاربة العثمانيين، وقد سبقوا بني قومهم ودينهم سواء كانوا مسلمين أو نصارى في حمل هذه الفكرة والسعي لتنفيذها، وكان ذلك في زمن لم تظهر فيه من الدولة العثمانية أية بادرة توحى بالتفريق بين العرب والعثمانيين كعنصرين مشتركين في تكوين الأمة العثمانية المسلمة تحت مظلة الرابطة العثمانية⁽¹⁾، بل على العكس من ذلك كانت سياسة السلاطين العثمانيين منذ بدء علاقاتهم بالعرب عام 1516م وحتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد، تقوم على إذابة الفكرة القومية ومحاربتها وتجاهلها، لقناعتهم بأن تحريك هذه النعرة يقضي على كيان الدولة ويفتتها ويذهب ريحها، لذلك كانت توجهات هؤلاء المسمون بالرواد للنفخ في نار الفتنة وإضرارها بين الإخوة من عرب وعثمانيين في وقت تغلب عليه الرابطة العثمانية على الدعوات القومية والعرقية، تعد عملاً تحريضياً للإضرار بالشعبين المسلمين العرب والعثمانيين، وضرباً لوحدة الأمة وصفها وإضعافها من أجل تمكين الأعداء المتربصين بها من القضاء عليها وتقسيمها واحتلال أراضيها، وهذا ما حدث بعد معاهدة سايكس بيكو عام 1915م ويمكن القول إن إحياء الروح القومية في هذه المرحلة من الطرف العربي يصب في مصلحة أعداء الاسلام، ويطعن الأمة المسلمة من الخلف، في وقت تحتاج لجهود المخلصين من أبناء الاسلام عرباً وعثمانيين لرد الهجمة الاستعمارية عن البلاد الاسلامية عامة، والعربية خاصة، وكان هؤلاء الرواد أدوات الغزو الثقافي والفكري في ايجاد التباعد بين العرب والعثمانيين، ونشر الفكر والثقافة الغربيين⁽²⁾ من خلال الجمعيات الماسونية والمدارس والأرساليات التبشيرية⁽³⁾ إذ تضافرت هذه العوامل مجتمعة في تكوين التيار القومي العربي الداعي للانفصال عن جسم الدولة العثمانية، والذي اشتهر من رموزه شخصيات أهمها:

(6) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص46، فريحات، الثورة العربية، ص20

برو، العرب والترك، ص38، رافق، المشرق العربي، ص364

(7) مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص176

أوكي، السلطان عبد الحميد، ص63، وانظر:

عبود، مارون (ت1382هـ/1962م)، رواد النهضة الحديثة، نشر: دار الثقافة، بيروت، 1966م، ص81، 204،

210، 235، 243.

(1) ستودارد، حاضر العالم الاسلامي، ج4، ص114

(2) محمد محمد سن، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص78-79

(3) عازوري، يقظة الأمة العربية، ص201

أديب إسحاق:

من نصارى دمشق (ت1302هـ/1885م)، وكان أديباً شاعراً خطيباً، ولد في دمشق وتعلم فيها، ثم رحل إلى مصر، والتقى بجمال الدين الأفغاني، ثم رحل إلى باريس، وكان معجباً بالثقافة الفرنسية، يغرف منها في كل مقالاته وأبحاثه، يستشهد بأفكار المفكرين الفرنسيين المشهورين أمثال روسو وهوغو، وكان كذلك معجباً بأفكار ومبادئ الثورة الفرنسية، مثل الحرية والمساواة وإقامة الجمهورية، نقد الاستبداد وفساد الإدارة العثمانية، والدفاع عن الحرية والمساواة، وبحث في العواطف الوطنية والقومية، نقل عنه الكواكبي كثيراً وكثيراً، مع العلم أن الاثنين كانا متأثرين بالأفغاني، وأعضاء في المحفل الماسوني الشرقي الفرنسي، ولم يتطرق في كتابه الدرر للدفاع عن العرب والأمة العربية، بل كان كلامه يركز على العثمانية والشرق، وهذا واضح الدلالة على تأثره بفكر أستاذه الأفغاني، كما تأثر بالكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد، ويعد من رواد الفكر السياسي العربي في عصره، ومن الأوائل الذين نقلوا مفاهيم علم السياسة في فرنسا والغرب إلى العرب⁽¹⁾.

- فرنسيس فتح الله بن نصر مراش :

من نصارى حلب (ت1291هـ/1874م)، انتظم في الجمعيات السرية التي تعمل ضد الدولة العثمانية فطاردته الأجهزة الأمنية ثم لجأ إلى فرنسا هرباً منها، وكان يكتب المقالات في الصحف العربية والفرنسية يندد فيها بمساوئ الدولة العثمانية وظلم عمالها، ويدعو إلى مناوأتها له كتاب غاية الحق، عبر فيه عما يريد من انتقاد لمساوئ الظلم والاستبداد بأسلوب قصصي، وفيه تحريض على نبذ الذل والعبودية، طبعة في حلب 1865م⁽¹⁾ وكان من الذين كتبوا بالعربية، ونقلوا الأفكار الأوروبية الحديثة التي تتناقض الأفكار التي كانت سائدة في الأقطار العربية في أيامه⁽²⁾.

- عبد الله بن فتح الله نصر الله مراش: هو من نصارى حلب أيضاً (ت1318هـ/1900م) لجأ إلى أوروبا مراراً من مطاردة السلطات التركية له، عمل

(1) موسى، الفكر العربي، ص47-63

- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص143

- زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص249

- الزركلي، الأعلام، ج1، ص285، طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص105-108

- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص235-248

- آل جندى، أدهم، أعلام الأدب والفن (ج2)، نشر: مطبعة مجلة صوت سورية، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1954-

1958م، ج2، ص348-349

- سركيس، يوسف إيان، معجم المطبوعات العربية والمعربة (ج2)، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دبت، ج1، ص418.

- برو، العرب والترك، ص39

- قلنجي، الثورة العربية، ص53

- ليفين، الفكر الاجتماعي، ص71

(1) زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص215، طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، ص141

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص144، برو، العرب والترك، ص39

رافق، المشرق العربي، ص365، ليفين، الفكر الاجتماعي، ص65

آل جندى، أعلام الأدب، ج2، ص26-27، سركيس، معجم المطبوعات، ج2، ص173

(2) موسى، الفكر العربي، ص31، 42

بالصحافة في فرنسا ومصر، وأنشأ الصحف (مصر القاهرة)، (الحقوق)، كوكب الشرق)، وفي لندن جريدة (مرآة الشرق) وكانت كل مقالاته حديثاً عن مساوئ الدولة العثمانية وانتقاداً لها⁽³⁾.

- فتح الله مراش: حلي أيضاً: يكتب المقالات والخطب الشديدة اللهجة في التهجم على الفساد في الدولة العثمانية، يبعث بتلك المقالات إلى باريس وينشرها بين الشاميين هناك ومزج بلاغته بعلم التفريق بين العرب والعثمانيين، ونجح في تحريك النفوس ضد العثمانيين وفي النيل من الجامعة الإسلامية وتمزيقها⁽⁴⁾.

- نجيب عازوري:

نصراني من لبنان (1394هـ/1916م) كرس كتاباته في الدعوة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وانخرط في الجمعيات السرية الماسونية يعمل من خلالها في السياسة المعادية للعثمانيين ونشر الوعي القومي العربي، رحل إلى مصر ثم إلى باريس، وأنشأ هناك جمعية باسم عصبة الوطن العربي⁽¹⁾، نادى من خلال ذلك بفصل الدين عن الدولة في دعوة صريحة إلى العرب المسلمين كي ينادوا بخليفة عربي، ويستخدم حشداً من الألفاظ والمصطلحات التي ينتقص فيها من شخص الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، مستخدماً في حديثه عن العلاقات العربية العثمانية لفظ: عربي وتركي، تركيزاً على النزعة القومية وإبرازاً لها، ويكيل الشتائم والسباب للعثمانيين، يقول "كيف يجروا التركي عبد الحميد الإدعاء بأنه الخليفة، وكيف يكون خليفة ولا يفهم العربية، وهو كاذب يسرق رعاياه ويحكم بالإعدام على حجاج مكة ويوفر الحماية للمجرمين، ويتلقى رفات كل السفراء المعتمدين لديه⁽²⁾ من يمعن النظر في هذه الكلمات السوقية وفي هذا الاسفاف والسقوط من رجل يعتبره الكتاب القوميون والمؤرخون المعاصرون من زعماء يقظة العرب ومن رواد النهضة العربية⁽³⁾، يجد كيف يقود هذا الأديب الأمة العربية نحو النهوض في مثل هذه الكلمات ظاهرة الحقد على العثمانيين، وهو النصراني الغيور جداً على الخلافة الإسلامية؟ وكيف تكون الخلافة في رجل "تركي لا يفهم العربية" علماً أن الخليفة عبد الحميد الثاني يتقن اللغة العربية، ثم يظهر عازوري حرصاً بالغاً على الاسلام والمسلمين، ويتساءل بأسلوب استنكاري "وكيف يكون خليفة لا يفهم العربية وقد بلغ الخامسة والستين من العمر،

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص144

- طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص278-281. اليازجي، إبراهيم، مجلة الضياء، م2، سنة ثانية، مطبعة المعارف، مصر، 1899-1900م، ص344-352.

(4) برو، العرب والترك، ص38-39

مجلة المقتطف م36، ج3، آذار 1910م، صفر 1328هـ، النهضة الدستورية، ص258

(1) الزركلي، الأعلام، ج8، 12، قلعي، الثورة العربية، ص87

- ليفين، الفكر الاجتماعي، ص150-151، حسون، الدولة العثمانية، ص214، موسى، الفكر العربي، ص194-197

(2) عازوري يقظة الأمة العربية، ص220-221، زين، نشوء القومية، ص74

(3) انطونيوس، يقظة العرب، ص103، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص145

فريجات، الثورة العربية، ص28، برو، العرب والترك، ص38-39

النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، نشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص150.

ولم يؤد فريضة الحج بعد⁽⁴⁾، ويقول أيضاً "أما الحكومة التركية إذا كان من الجائز أن يطلق هذا الاسم على جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم"⁽⁵⁾ وهذا ومثله كثير إذ تفيض صفحات كتابه بالشتم والإفتراءات وتزوير الحقائق⁽⁶⁾، ليثبت من خلال ذلك أن العثمانيين كلهم مفسد قطاع طرق، وأن السلطان عبد الحميد هو رأس هذه العصاة المجرمة كما يسميهم، فكيف ينظر القارئ العادي غير المتعمق بدراسة تاريخ العثمانيين، إلى علاقة هذه الدولة المسلمة برعاياها من العرب المسلمين بعدما يقرأ كل هذا التشويه والتزوير والإساءة المقصودة؟ على أن هذا لا يعني تبرير أي موقف للعثمانيين وسلطانهم وولايتهم، لأن هؤلاء السلاطين والولاة وجد من بينهم أناس منحرفين عن جادة الحق، وكذلك كان هناك ضعف كبير في الدولة العثمانية وتقصير في جوانب كثيرة لا يمكن الإغضاء عنها، لا سيما في الفترة الأخيرة من عمرها، حيث كانت ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، آيلة للسقوط، ومنحدرّة لدرجة كبيرة، وبقيت علائم الضعف بادية تماماً عليها حتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني، على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققها، ولا ينكرها كل ذي بصيرة منصفة، يأتي ذكرها لاحقاً في هذا الفصل، وأخرت سقوطها لمدة ثلث قرن من الزمان.

- لويس الصابونجي: نصراني حليبي (ت1350هـ/1931م) أصله من ديار بكر ذو ثقافة أوروبية وتعليم غربي يعرف اللغات العربية والتركية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والانكليزية، قضى معظم حياته في أوروبا، وله نشاط صحفي في صحفها، ينشر المقالات الكثيرة التي ينتقص فيها العثمانيين والتي يطعن بها فيهم، ويحض فيها العرب التمرد على الدولة العثمانية والمطالبة بحقوقهم منها⁽¹⁾.

- رزق الله حسون:

نصراني حليبي من طائفة الأرمن (ت1297هـ/1880م) رحل إلى الأستانة وأصدر فيها جريدة مرآة الأحوال باللغة العربية، يعرض فيها بالسلطات التركية، فأغلقت هذه السلطات جريدته وحاكمته وحكمت عليه بالإعدام، فهرب إلى بريطانيا، وأصدر فيها جريدة قوية اللهجة في انتقاداتها للعثمانيين، وكان شديد الانتقاد للعثمانيين في المقالات التي ينشرها في الصحف الانكليزية أيضاً وهو يعد من أدباء الشام الذين أسهموا في الايقاظ والتوعية القومية الحديثة⁽¹⁾.

(4) عازوري، يقظة الأمة العربية، ص220

(5) عازوري، يقظة الأمة العربية، ص61

(6) انظر على سبيل المثال لا الحصر: ص31، 61، 65-66، 181، 183، 184، 186، 196-197

(1) الزركلي، الأعلام، ج5، ص247، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص145

- ليفين، الفكر الاجتماعي، ص151-152، آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص335-336

سركيس، معجم المطبوعات، ج2، ص1177-1178

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص245، طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، ص105

- زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص248، ليفين، الفكر الاجتماعي، ص79

- كوتلوف، تكون حركة التحرر الوطني، ص401، سركيس، معجم المطبوعات، ج1، ص753

وقد نقل لنا موسى صورة توضح دور رزق الله حسون في عملية التقريب وولاءاته للدول الأجنبية، وعدائه للعثمانيين، وسعيه في تنفير العرب منهم، حين قال: "كان يعمل لمصلحة الروس،... وهذا أمر غير مستغرب آنذاك من أرثوذكسي سوري، لأن الروس كانوا حماة الأرثوذكس في سورية ولبنان، وفي الشرق بالذات، ثم سافر إلى انكلترا، فوضع قلمه في خدمة انكلترا، التي كانت تطمع في كثير من ممتلكات الدولة العثمانية، لذلك كان من هنا يرسل صيحاته إلى السوريين يحرضهم على خلع نير السلطان العثماني الجائر!! والتحرر من الخلافة العثمانية الظالمة والمستبدة، وكان يريد بهذا أن يهدم صرح العلاقات بين العرب والأتراك، وعندما اندحر الأتراك أمام الروس في عام 1877م، عبّر عن فرحته وشماتته بقصيدة لاهية... إلى أن يقول: وهكذا نلاحظ أن رزق الله حسون الذي انتقد مفاصل الحكم العثماني، ودعا السوريين والعرب إلى الانتفاض عليهم، لم يكن خالي الفرض تماماً، بل كان يعمل مع الروس والانكليز من أجل القضاء على الامبراطورية العثمانية"⁽²⁾، وفي هذا دلالة كافية، لا أوضح ولا أفصح من بيانها لدوره في السعي لقطع العلاقات العربية العثمانية.

- ناصيف اليازجي:

نصراني من قرية كفر شيما بلبنان من دروز لبنان من آل جنبلاط (ت1287هـ/1871م) أصله من حمص ووفاته في بيروت درس في مدارس الرسائل التبشيرية في بيروت، ودخل عضواً في الجمعية السورية عام 1847م، ثم أصبح أستاذاً في الجامعة الأمريكية في بيروت لأدب اللغة العربية، وله مؤلفات عدة في علوم العربية وفي المنطق وفي الطب، وكان لعلمه وأفكاره أثر كبير في أفراد أسرته، وخاصة في الدعوة إلى تحرر العرب القومي.⁽¹⁾

- إبراهيم اليازجي: (ت1324هـ/1906م):

وهو ابن ناصيف اليازجي النصراني اللبناني، من مواليد بيروت عام 1847م، تلقى العلم على يدي والده، وهو من دروز لبنان كوالده من أسرة جنبلاط، كان رئيساً لتحرير جريدة النجاح، ثم ترجم الكتاب المقدس، تشبع بالأفكار القومية، ثم انضم إلى الجمعية السورية عام 1868م، وأنشد في أول اجتماع لها قصيدته المشهورة التي تعد أول صوت للحركة القومية العربية في محاربة العثمانيين في وقت مبكر، وكان مطلع قصيدته:

(2) مجلة المقتطف، م36، ج3، آذار، 1910م، ص224-230

موسى، الفكر العربي، ص29

وانظر: دقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر المعاصر، دارا لشرق، حلب، ص

(1) طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، ص82

- موسى، الفكر العربي، ص189 ، آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص279

زيدان، تاريخ أدب العربية، ج4، ص234 ، سرقيس، معجم المطبوعات، ج2، ص1935

الزركلي، ج7، ص350-351 ، فريجات الثورة العربية، ص21

عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص114-115

- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص81-90

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
وقصيدته الأخرى المشهورة التي مطلعها:
دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواظها النواعس
ويدعو فيهما إلى الثورة على العثمانيين، ويخص العرب على حكمهم والخروج عليهم⁽²⁾.



(2) فريجات، الثورة العربية، ص21-22، زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص240
القلعجي، الثورة العربية، ص48-49
- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص210-218
- زيادة، نقولا، أبعاد الثورة العربية الكبرى، نشر وزارة الشباب، طبعة ثانية، عمان، 1995م، ص39.
- موسى، الفكر العربي، ص192
- طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص88، آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص283
- غرايبة، عبد الكريم، الثورة العربية الكبرى والعالم العربي، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية، سبق
الإشارة إليه ص148، ص160، عوض، دراسات، ص85.

- بطرس البستاني (ت1300هـ/1883م):

من نصارى لبنان، ولد في قرية الدبية بجوار دير القمر سنة 1819م، تخرج من مدرسة عين ورقة، ثم صار مدرساً فيها فيما بعد، وصار بعد ذلك مدرساً في مدارس الارساليات التبشيرية في بيروت، له مؤلفات في اللغة العربية، وأنشأ مجلة الجنان سنة 1870م، وله دائرة المعارف، وتوثقت صلته بالارسالية التبشيرية الأمريكية، وكان يلقي في الجمعية الأدبية التي أسستها الأرسالية التبشيرية الأميركية المحاضرات التبشيرية، كما أسس المدرسة⁽¹⁾ الوطنية، وكان له نشاط بارز في الحركة القومية العربية وفي الحض على التحرك ضد العثمانيين.

- خليل غانم: (1321هـ/1903م) :

هو خليل بن إبراهيم بن خليل غانم، من الأدباء، تمكن من اللغة الفرنسية، وكان يكتب وينظم فيها كأنه من أبنائها، وكان جريئاً فيه ميل إلى السياسة، تقلب في مناصبها في بيروت والأستانة انتخب في مجلس المبعوثان العثماني بعد إعلان الدستور عام 1876م، ولما حل المجلس غضب خليل غانم وبدأ يكتب المقالات يهاجم فيها السلطان عبد الحميد، فلاحقته السلطات العثمانية، فهرب إلى باريس، ووفق يكتب في السياسة ضد العثمانيين، وأصدر جريدة في جنيف سماها (الهلال) وتولى تحرير جريدة فرنسية اسمها فرانس انترناشونال، وظل يكتب حول السياسة العثمانية وينتقدها، وتوفي وهو على ذلك عام 1903م، وهو يعد من أنصار حركة تركيا الفتاة (الماسونية)، وعاد السلطان عبد الحميد بشكل عنيف وجاد وقوي⁽²⁾ تلك هي أهم الشخصيات التي لمع نجمها في القرن التاسع عشر، وكان لها حضور مميز على الساحة السياسية والفكرية والاجتماعية، من خلال الكتابة الصحافية والأدبية والتأليف، ومما لا شك فيه أن تلك الشخصيات قد شاركت مشاركة فعالة في تهيئة الأجواء مع غيرها من الشخصيات الكثيرة التي عاشت في الفترة الزمنية نفسها، ورفدت العوامل بالأخرى التي أسهمت في تكوين التيار القومي العربي، الذي أخذ يظهر على الساحة في البلاد العربية، ولا سيما في بلاد الشام في عصر طرحت فيه مسألة القوميات لتفتت الامبراطورية العثمانية وإضعاف الرابطة الدينية التي تستند إليها في صمودها في وجه الغزو الثقافي الفكري الذي تغذيه بريطانيا وفرنسا باسم القومية، وطرح هذه الفكرة كبديل عن الرابطة الدينية⁽¹⁾، ويمكن اعتبار نهاية القرن التاسع عشر فترة

(1) الزركلي، الأعلام، ج2، ص58، آل جندى، أعلام الأدب والفن، ج2، ص248
عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص115-117، زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص269
فريجات، الثورة العربية، ص22-23، برو، العرب والترك، ص60
ليفين، الفكر الاجتماعي، ص70-75، كوتلوف، تكون حركة التحرر الوطني، ص401
سركيس، معجم المطبوعات، ج1، ص557، موسى، الفكر العربي، ص190-191
(2) الزركلي، الأعلام، ج2، ص313، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص188-289
زيدان، تاريخ آداب العربية، ص، كوتلوف، تكون حركة التحرر الوطني، ص422
= - صويص، سليم، ألتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها، دن، طبعة أولى، 1970م، ص44-45، سركيس، معجم المطبوعات، ج2، ص1405
(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص78، ص111، 280

مزاحمة أو منافسة الفكرة القومية لفكرة الرابطة الدينية، وسعي دعاة التغريب الحثيث، وبذلهم النشاط المكثف على الأصعدة كافة للوصول إلى هدفهم في جعل الفكرة القومية تأخذ مكانها الطبيعي في نفوس وعقول المسلمين العرب تدريجياً، بحيث تصبح هي السائدة في مطلع القرن العشرين، مع التركيز على التخلص من مؤسسة الخلافة العثمانية ممثلة بشخص السلطان عبد الحميد نفسه السند القوي المدافع بعناد عن الرابطة الدينية العثمانية وعن الخلافة الإسلامية، كوسيلة حافظة للدولة العثمانية الإسلامية⁽²⁾ وقد لعب التيار القومي الطوراني دوراً مهماً جداً فيما أسند إليه من مهام بتخطيط من الماسونية العالمية وبريطانيا وغيرها من دول أوروبا، في إسقاط عبد الحميد وإنهاء دوره، ومن ثم لدفع الحرب بعد التهيئة التي قاموا بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتنمية الشعور القومي لديهم، دفعهم إلى الاعلان صراحة بطلبهم الانفصال والاستقلال عن العثمانيين⁽³⁾ تخلصاً من العبء الثقيل المسلط عليهم من الطورانيين دعاة الانفصال والتتريك فيكون والحالة هذه الجو مهياً من الطرفين القوميين العربيين الطوراني لفصم عربي الرابطة العثمانية القائمة بينهما حتى الآن⁽⁴⁾، وهذا ما حدث فعلاً، وما يتم تفصيل جوانبه في الفصل الثالث من هذا البحث، بعد إلقاء الأضواء على دور التيار الفكري القومي الطوراني وبدايات تأسيسه ودوره في الفترة التي سبقت إسقاط عبد الحميد، وتولى الاتحاديين زمام السلطة في دولة الخلافة.

ثانياً: التيار القومي الطوراني.

- العثمانيون الجدد ... جمعية تركيا الفتاة ... جمعية الإتحاد والترقي.
أ- نشأته:

ترجع نشأة حركة العثمانيين الجدد (بني عثمانيلر) إلى منتصف القرن التاسع عشر، أسسها مجموعة من الشخصيات العثمانية بعد بداية حركة التنظيمات التي ظهرت كمرحلة أولى في عهد السلطان محمود الثاني عام 1839م، وأكملها بعده ابنه السلطان عبد المجيد الأول، وكان ذلك بضغط من تلك الشخصيات العثمانية⁽²⁾، وكانوا في البداية أفراداً مشتتين وأفكارهم متباعدة، كان اسم جمعيتهم أولاً ترقّي واتحاد ثم غيروا التسمية إلى اتحاد وترقي⁽³⁾.

ثم ازداد الصراع بين هؤلاء وبين السلطة العثمانية الرسمية بقيادة السلطان عبد العزيز، وكانوا قد وصلوا إلى المراكز القيادية الأولى في الدولة كمنصب الصدر الأعظم والوزراء وقائد

(2) محمد محمد حسين، المرجع نفسه، ج1، ص17-20، زين، نشوء القومية، ص73

(3) حسون، الدولة العثمانية، ص214، مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص12-13

(1) الشهابي، القومية العربية، ص62-63

(2) جحا، التنظيمات، ص144، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص224، ليفين، الفكر الاجتماعي، ص61، 132

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص377-378

(3) AYVERDi, SAMiHA, TURK TARiHiNDE OSMANLi OSiRLARi (3CiLD),

UCUNCU CiLD, iSTANBUL, 1976, CiLD, 3 P52, 54 YiLDiZ, - DAMLA YAYiNEVi,

HAKKi DURSUN, BUYUK iSLAM TARiHi Dogustam Gunmuze (14cild), CAg YAYin

iSTANBUL, 1989, cild, 12. P. 65-68 LAi

الجيش وغير ذلك من المناصب، وسبق ذلك أن خرج الكثير من هؤلاء إلى أوروبا، واستقروا في العديد من عواصمها مثل جنيف وباريس ولندن، وصاروا يكتبون المقالات الصحفية والأدبية التي تشتهر بالعثمانيين، وتنتقد الأوضاع المتردية في الدولة، ويطالبون السلطان السير بالدولة في طريق الإصلاح لمواكبة النظم السياسية في أوروبا، بعد احتكاكهم بالغرب واطلاعهم على تراثه الفكري، وتأثرهم بالأفكار الغربية، وكان هؤلاء قد انخرطوا في سلك الحركة الماسونية العالمية المسماة (البناء الحر) التي ظهرت في أراضي الدولة العثمانية منذ 1738م، وحاربها السلاطين العثمانيون العظام، وشرعوا من القوانين التي تحظر على العثمانيين الانخراط في الجمعيات السرية، لما رأوا من عظيم خطر الماسونية على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية⁽¹⁾.

وكانت فئة من العثمانيين الجدد قد تلقوا تعليمهم في المدارس والكلية التبشيرية التي انتشرت في أرجاء الامبراطورية العثمانية مثل كلية روبرت في استانبول، فأنجبت تلك المدارس جيلاً جديداً من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية، وصاروا يطالبون بالإصلاحات في الدولة انطلاقاً من ذلك⁽²⁾، وقد تبلورت أهداف دعاة التغريب والتحرر من العثمانيين الجدد (Liberalism)⁽³⁾ في الحركة والدستور والحياة البرلمانية النيابية، معلنين الشعارات البراقة التي ترفعها الماسونية وهي الإخاء والمساواة والحرية والعدالة، ويرجع أصل الماسونية (البناء الحر) إلى اليهودية التي اتخذت تعاليمها أساساً لإنشاء المحفل الأكبر في عام 1716م/1129هـ⁽⁴⁾، وقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون قولهم: "إلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم"⁽⁵⁾ وقد ظهرت المحافل الماسونية في الدولة العثمانية سنة 1738م في كورفو برعاية المحافل الفرنسية والانكليزية والاطالية، ثم انتشرت المحافل الماسونية في كل من الأستانة وأمير وسلاطيك ومناستير وغيرها من المناطق العثمانية، إضافة إلى المحافل التي انتشرت في كل مصر والشام وسائر الدول والمناطق التابعة للعثمانيين⁽⁶⁾ واشتهر من الشخصيات العثمانية التي عرف تجمعها في البداية العثمانيون الجدد أو شباب العثمانيين ما قبل عام 1850م، واتخذ شكلاً رسمياً عام 1865م، كل من ضيا باشا ونامق كمال ونوري بك وعلي سوافي ومحمد بك ورشاد بك ورفعت بك وأغا أفندي ومصطفى فاضل، وأظهروا دعوتهم من خلال منشوراتهم بأنها لا تتعارض مع مبادئ

(1) شيخو، السر المصون، مجلة المشرق، سنة 14، عدد 8، آب 1910، ص 606-607 حسون، الدولة العثمانية، ص 190-191

(2) جحا، التنظيمات، ص 114-117.

(3) KARAL, ENVER ZİYA - DÜNYA TARİHİ OSMANLI TARİHİ (8 cilt) TÜRK -

TARİH KURUMU YAYINLARI, ANKARA, 1983, cilt, 8, P. 510

(4) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج 1، ص 280

(5) حسون، الدولة العثمانية، ص 190، حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص 284-285.

(6) مجلة المقتطف، المجلد (27)، ج 5، (1) أيار، 1902م، ص 425-428، ج 6، (1) حزيران 1902، ص 584

(7) شيخو، السر المصون، مجلة المشرق، السنة (14) ع (8)، آب 1911م، ص 607

- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARİHİ CİLD, 6. P. 379, 382-391.

الاسلام، وأن التقدم الأوروبي ومبادئ الثورة الفرنسية التي رفعها ودعا إلى نشرها هؤلاء الماسونيون مستقيان من قيم شبيهة بالقيم الاسلامية، وسموا رابطتهم تلك رابطة الاتفاق الوطني⁽¹⁾ وقبل أن تتوسع دائرة العثمانيين الجدد، وتستوعب الشخصيات المذكورة آنفاً، كانت قد ضمت كلاً من علي سوافي وضيا باشا ونامق كمال، ثم هرب هؤلاء بعد انكشاف أمرهم في استانبول إلى باريس سرّاً بمساعدة السفير الفرنسي في استانبول، حيث التقوا هناك بمن كان سبقهم إليها من رفاقهم الأدباء والصحفيين، وفي العاشر من آب سنة 1867م اجتمع هؤلاء جميعاً في منزل مصطفى فاضل في باريس، وقرروا تأسيس منظمة سياسية جديدة دعواها جمعية تركيا الفتاة، ووضح من التسمية أنها على شاكلتها من الجمعيات الماسونية الثورية المنتشرة في أنحاء العالم، والتي تعمل الماسونية العالمية على تأسيسها واصطناع الأنصار وتنظيمهم فيها وتوسيع انتشارها في كافة الدول من أجل خدمة أهدافها وتحقيق مصالحها، وقد اشتهر من أسماء تلك الجمعيات: إيطاليا الفتاة، فرنسا الفتاة، اسبانيا الفتاة، العربية الفتاة، مصر الفتاة⁽²⁾، وكان من بين جماعة الأحرار العثمانيين الذين هربوا إلى باريس الداماد محمود ابن صهر السلطان محمود الثاني مع ولديه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله سنة 1899م، ثم لحقهم الزعيم الألباني اسماعيل كمال بك، وتتابع هرب هؤلاء الماسونيين من أراضي الدولة العثمانية إلى عواصم أوروبا باريس ولندن وجنيف ومصر⁽³⁾.

ب- موقف التيار الطوراني من العلاقات العربية العثمانية:

لقد كانت حركة الماسونيين الأحرار العثمانيين في بدايتها حركة اصلاحية تهدف إلى إحداث تغيير ونهوض في الدولة العثمانية، وكانت أغراضها المعلنة عند نشوئها الاصلاح الداخلي في أجهزة الدولة وإداراتها من النواحي المختلفة لتجنيبها السقوط، لكن يبدو أن هذا الغرض المعلن كان غطاءً وستاراً لتمرير المرحلة وكسب الوقت من أجل الدعاية وتجميع المؤيدين والأنصار، وتجنباً لردود الفعل لدى عامة الناس في أرجاء الدولة العثمانية، مع إظهار أن مبادئ الحركة لا تتعارض مع الاسلام ومع القيم الاسلامية، حتى لا يجدوا مقاومةً ومعارضةً فيقضى عليهم وهم في البداية، وحتى هذه الحيلة وهذا الأسلوب لم ينطلبان على مؤسسة الخلافة، إذ اصطدموا بالسلطان عبد العزيز، ونظراً لإحكامهم السيطرة على مرافق الدولة، بعد أن عملوا طيلة ثلاثين سنة تقريباً ووجوا سياسة الاصلاح التي يدعونها بتصميم أكيد وببطء وحذرو⁽¹⁾، لأن

(1) جها، التنظيمات، ص120-121، دروزه، نشأة الحركة العربية، ص178

(2) جها، التنظيمات، ص123، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص225-226

شيخو، السر المصون، مجلة المشرق سنة 14، عدد 7، تموز 1911م، ص526-527، عدد 8، آب، ص607

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص104، ميكوش، مصطفى كمال، ص55-56

(3) زين، نشوء القومية، ص75، فريجات، الثورة العربية، ص33-34

دروزة، نشوء الحركة العربية، ص101-103

(1) جها، التنظيمات، ص125

- لوفريغ، ستيفن همسلي (فرنسي عاش في العراق بين 1920-1945م)، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، نشر: دار الحقيقة، الطبعة الأولى، بيروت، 1978م، ص30.

السلطان عبد العزيز كان بحذاقته وبما يظهره له من تحركات، وبما يواجهونه به من مواقف أدرك أن هدفهم المخفي هو إسقاط الدولة وتغييرها إلى حكم جمهوري، وانتهى الصراع بينه وبينهم إلى أن قتلوه وتخلصوا منه، ثم ما لبثوا أن جاءوا بمراد الخامس الماسوني المتفق معهم على ترتيبات تسليمهم مقدرات الأمور بشكل مباشر، لكن الأمور لم تسير كما خططوا لها إذ جاء مرض مراد بمثابة إفشال لخطتهم، وجاء السلطان عبد الحميد الثاني، وكان على دراية بكل خططهم من خلال متابعاته لمجريات الأحداث منذ أيام عمه السلطان عبد العزيز، يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: "كنت أعلم أن كمال بك وضيا بك ورشدي بك وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يعاقرون الخمر ويتحدثون، وذات مرة قال مدحت باشا: ليس في الأسرة المالكة العثمانية خير يرجى، ولم يبق إلا الاتجاه نحو الجمهورية"⁽²⁾ ويشير السلطان عبد الحميد إلى اتفاق الأحرار الماسونيين العثمانيين مع الانكليز في خطوات مدروسة للقضاء على الدولة العثمانية، يقول: "كانوا قبل هذا قد نهضوا لتهريب أخي السلطان مراد من القصر وهو بملابس النساء، وظهر أن الذين تصدوا لهذا العمل الفاشل بعض الشخصيات الماسونية مثل مدحت باشا، وانكلترا كانت دائبة على تسير الفتنة عن طريق الماسونية"⁽¹⁾ ثم يقدم السلطان عبد الحميد للتاريخ ما علمه عن العثمانيين الأحرار الماسونيين بقوله: لا بد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سمو أنفسهم (الأتراك الشبان، أو تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الانكليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل، ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات، وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية⁽²⁾ فالمسألة في غاية الوضوح تخطيط وسعي منظمات وجادان من أجل القضاء على الخلافة العثمانية، استطاع السلطان عبد الحميد بمتابعاته وحرصه أن يقدم الدليل القطعي على أن هدف الماسونيين العثمانيين هو إسقاط الخلافة وإقامة نظام علماني يستبق الاسلام عن الدولة العثمانية ويعلنها جمهورية يتولى الحكم فيها هؤلاء المنتسبون إلى تركيا الفتاة من الأحرار الماسونيين العثمانيين الجدد.

وإذا كان رجال تركيا الفتاة عند استلام السلطان عبد الحميد لم يتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم الحقيقية في القضاء على دولة الخلافة وإعلان النظام العلماني، بفضل سياسة عبد الحميد ودهائه ومقدرته على استيعابهم ومسايرتهم إلى حين، ريثما يستخدم أوراقاً أخرى في اللعب معهم بعد تمكنه من ضبط الأمور والسيطرة عليها، فإن ذلك لا يعني أنهم توقفوا عن السعي للوصول لذلك، إذ أنهم تابعوا نشاطهم المخفي والعلمي في ظل حكم عبد الحميد الثاني للإيقاع به، وكان إعلان دستور عام 1876م إحدى الخطوات على طريق ذلك، لكنه أدار اللعبة بذكاء، وتمكن من الإفلات منهم،

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص106

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع نفسه، ص106

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع نفسه، ص115-116

ولما لم يجدوا بُدأً من الاصطدام به بعد إفشاله لخططهم في الوصول إلى ما يريدون من خلال إعلان الدستور، حين وضعوا في مواد ذلك الدستور. وهذا كله بإشراف وتخطيط وتنفيذ مدحت باشا ما يسحب صلاحيات السلطان ويضعها في يد الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) بحيث يصبح السلطان مشلول الإرادة، وبالتالي تعد هذه الخطوة بمثابة تقليص لصلاحيات السلطان، أو بصورة أخرى جعله رمزاً روحياً كخليفة، ووضع إحدى مواد الدستور تخول صلاحية حل مجلس النواب وانعقاده منوطة بالصدر الأعظم وبشكل أكثر وضوحاً إعلان لفصل الدين عن الدولة وفصل السلطة عن الخلافة، وهذا ما أشار إليه السلطان عبد الحميد نفسه في مذكراته حين قال: في الأيام التي كانت اللجنة الدستورية تدرس وتبحث في القانون الأساسي (الدستور) أتى نامق كمال وهو أحد أعضاء تلك اللجنة، إلى السراي وطلب سرعة مقابليتي ... كان في أشد حالات الاضطراب، قال: "لا بد أن تتدخلوا في القانون الأساسي الذي يعد الآن، وإلا فمعاذ الله ستنتهي الدولة العثمانية، قال إن مدحت باشا يضغط عليه بحكم الصداقة الوطيدة بينهما وقد تم التفاهم مع سليمان باشا، ويبدو أنهم سينقلون كل حقوق السلطان إلى المجلس ... الدولة العثمانية موحدة في شخصكم وأنتم اليد الأمانة لصاحبها الحقيقي وهو الله، فإذا كان في سلطتكم واقتداركم عقد المجلس في حالة ضرورة، فإنه من حكمة الدولة.

ضرورة أن يكون من سلطتكم تعطيل هذه اللجنة الدستورية"⁽¹⁾ إذاً كان التخطيط من جماعة تركيا الفتاة الماسونيين إحداث انقلاب أبيض عن طريق الدستور، يؤدي في النتيجة إلى سحب صلاحيات الخليفة وسلب إرادته، بحيث لا يكون له قدرة أو قرار في إدارة الدولة، ويصبح منصبه كخليفة منصباً رمزياً ولقبه لقباً فخرياً، وتدار كل شؤون الدولة من وراء ظهره، وهذا ما وصلوا إليه بعد الانقلاب العسكري الذي نفذوه ضده في سنة 1909م⁽²⁾، بحيث صار الخليفة من بعده أخوه السلطان محمد رشاد بن عبد المجيد الأول (محمد الخامس) أداة بين أيديهم، لا حول له ولا قوة، واستمر الحال كذلك إلى أن انسحب الاتحاديون جماعة الاتحاد والترقي من الساحة، بعد انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا عام 1918م، واستلام الكماليين (مصطفى كمال أتاتورك ومؤيدوه) الحكم، وإلغاء السلطنة ومن ثم إلغاء الخلافة عام 1924م، تنفيذاً للخطة نفسها التي وضعتها بريطانيا من قبل للاتحاديين الماسونيين، وأكمل السير في تنفيذها مصطفى كمال أتاتورك من بعدهم⁽¹⁾، وهو ما يتم بيانه في الفصول اللاحقة من الدراسة.

وعلى مستوى العلاقات العربية العثمانية، ودور جماعة تركيا الفتاة في التأثير على تلك العلاقات، يمكن القول إن هذه الفئة (العثمانيين الجدد) لم يظهر لهم أي دور عدائي ضد

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص114-115، وانظر:

أرسكين، مسز ستورث، فيصل ملك العراق، ترجمة عن الانكليزية عمر أبو النصر، دبت، بيروت، 1934م، ص30-31

(2) شيخو، السر المصون، مجلة المشرق سنة 14، عدد 8، آب، 1911م، ص607، زين، نشوء القومية، ص73

(1) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص155

العرب في الفترة التي سبقت انقلاب جمعية الاتحاد والترقي، وتعليل ذلك بسيط، وهو أن شخصية السلطان عبد الحميد القوية، أتاحت له فرصة القبض على زمام الأمور في الدولة.

وتوجيه السياسة الداخلية بصورة تذيب النعرة القومية لدى الجانبين العربي والعثماني⁽²⁾، فكان يقف بالمرصاد للمسألة القومية يقاومها بكل ما أوتي من قوة، وقد أشاد المؤرخون الذين أرحوا لتلك الفترة بمواقفه الحازمة في التربص لأية إثارة للمسألة القومية، فيحاربها ويميتها في مهدها، وظهرت تلك الإشادة جلياً حتى من الكتاب والمؤرخين القوميين، على الرغم من اقتراءاتهم الكثيرة على السلطان عبد الحميد، وتعمدهم إظهار الحق عليه والتشويه لسيرته⁽³⁾ ومع نجاح عبد الحميد الثاني في التصدي للعصبية القومية، وعدم السماح لها بأي ظهور، لكن ذلك لا يعني أن الفكرة القومية العربية والطورانية التركية لم تكون موجودتين، فقد كانت كل من فرنسا وبريطانيا تغذيان هذه النزعة لدى الجانبين وتنشطاتها⁽⁴⁾ وتدعم بشكل مباشر الزعماء الماسونيين من الطرفين القائمين عليها إذ "كانت جمعية تركيا الفتاة على اتصال وثيق بالعناصر السياسية الفرنسية، وأن مصطفى فاضل جعلها على اتصال أيضاً مع دوائر وزارة الخارجية الفرنسية"⁽⁵⁾، وكما لاحظنا عند الحديث عن الجمعيات السرية في بلاد الشام متابعة قناصل فرنسا وبريطانيا لنشاط القوميين العرب العدائي للدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، فإن المتابعة والتحريك كانا ديرنهما في الوقوف مع التيار التغريبي العثمانية والمساندة له ضد مؤسسة الحكم (Westernization)، فقد دخل هذا التيار مرحلة جديدة من التحريك ضد السلطان عبد الحميد الثاني منذ سنة 1889م، حيث أنشأت جمعية باسم جمعية الاتحاد والترقي (Union and Progress)، خرجت هذه الجمعية من تحت عباءة جمعية تركيا الفتاة أو العثمانيين الجديد فهي نفسها لكنها باسم جديد، ويبدو أن السلطان عبد الحميد نجح في

(2) أوكي، ميم كامل، السلطان عبد الحميد، ص 62-63

برو، العرب والترك، ص 58

(3) عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 240-241، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 177-185

مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص 23، طلاس الثورة العربية الكبرى، ص 56

العدوى، قادة التحرير العربي، ص 122-124، زين، نشوء القومية، ص 56-58

منسي، حركة اليقظة القومية، ص 66، 69، 86

(4) زيادة، نقولا، العروبة في ميزان القومية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، 1950، ص 51.

(5) صويص، أتاتورك، ص 42-43

العقد السابع من القرن التاسع عشر في تشيت شمل جمعية تركيا الفتاة وأرغم أعضاءها على الهرب والاختباء⁽¹⁾، كما أنه من الممكن أنها أرادت تغيير اسمها والظهور باسم جديد من أجل اكتساب أنصار ومؤيدين جدد، قد يغلب أن إجراءات الدولة العثمانية وملاحقتها لهم وتشهيرها بهم، على أنهم يسعون لإلغاء الخلافة، وإقامة نظام علماني ملحد تدعمه الماسونية، ويحقق أهداف اليهود في فلسطين، وأهداف الدول الأوروبية الاستعمارية في تقسيم الدولة العثمانية واحتلال بعض المناطق منها، كل هذا قد يكون كشف حقيقة حركة تركيا الفتاة الماسونية أمام الرأي العام في الدولة العثمانية، فأرادوا من جراء استحداث الاسم الجديد تقديمها للعامة من الناس ثبوت ومظهر جديدين، لتتابع نشاطها بأسلوب آخر، وبمرحلة متطورة، ممكن اعتبارها مرحلة العمل الثوري المنظم لإسقاط السلطان عبد الحميد، وتحقيق الأهداف المخطط لها، وينسجم مع هذا ما عبرت عنه المستشرقة الانكليزية آماوتلن حين قالت: "كانت لجنة الاتحاد والترقي هي التسمية التي أطلقت على جماعة تركيا الفتاة السرية، كانت حركة فكرية تحررية، ولدها اليأس من سياسة الاضطهاد القاسي التي كان يباشرها عبد الحميد، تحولت في مقدونية إلى حقيقة سياسية واقعة، لقد انتقلت أوروبا لنفسها الآن، فإن الثورة ضد السلطان أصبحت تعرف بثورة تركيا الفتاة بدأت في مقدونيا، كانت من عمل جماعة من شعبه الخاص الذين ثاروا عليه"⁽²⁾ فجمعية الاتحاد والترقي هي تسمية جديدة لجمعية تركيا الفتاة أو العثمانيين الجدد أو الأحرار العثمانيين، وكلها تسميات واحدة للحركة الماسونية الناشئة آنذاك لإسقاط الخلافة، وقد أسس هذه الجمعية في مقدونية إبراهيم تمو (IbrahimTemo) المولود في منطقة Mat بألبانيا سنة 1865م، أسسها هو وأربعة من رفاقه هم ديرويس هيماء، ومحمد رشيد قفقاسيا، وعبد الله جودت، واسحاق سوكونتي، ويشير آقيون أن إبراهيم تيمو من أعرق مؤسسي الماسونية في البلقان، وأن لديه وثائق تثبت أنه يهودي⁽³⁾ وكان ذلك في سنة 1889م في مقدونيا، ثم صار لها نادي في استانبول بالإضافة إلى ستة وعشرين فرعاً في

(1) عبد الحميد، محمد، أبو الثائرين الفريق عزيز المصري، نشر دار أخبار اليوم، مصر، دت، ص12، زين، نشوء القومية، ص75

(2) وتلن، ألما (مستشرقة انكليزية) عبد الحميد ظل الله على الأرض، ترجمة عن الانكليزية: راسم رشدي، نشر دار النيل للطباعة، القاهرة، 1950، ص185-187

(3) - AKGUN, MUSTAFA, YAHUDI NiN TAHTA KiLiCi, BASKi, 2, ANKARA, 1994, P.5

الولايات، ولما زار تيموفي سالونيك مركز جمعية الاتحاد والترقي والتقى بجمال باشا، أعرب عن خيبة أمله وقال: "إن هذه الجمعية ليست الجمعية التي أسستها والتي تمت بالدعاية لها في الخارج، إن هذه الجمعية نتاج مناسيتيرو سالونيك"⁽²⁾ ويقول رامزور عن تأسيس هذه الجمعية ومراحل تطورها "بدأت تركيا الفتاة عملها 1989م وانتهت منه باستعادة الدستور 1908م، وخلع السلطان 1909م، وبعبارة أخرى سلمت الحكم إلى من يقوم به بعد ذلك"⁽³⁾ أما المراحل التي مرت بها جماعة تركيا الفتاة، فهي: أولها: من سنة 1889م حتى سنة 1897م، كانت الغاية فيها خلع السلطان عبد الحميد، كان اسمها في هذه المرحلة ترقى واتحاد، عرف السلطان بوجودها سنة 1892م، فنفي بعض أفرادها وفر البعض الآخرون إلى باريس، ومن بقي سجن.

ثانيها: وتمتد من سنة 1897- حتى 1906م، وهنا صار علمها خارج الأمبراطورية في باريس وجنيف والقاهرة، وكان أحمد رضا قد انتقل إلى باريس قبل ذلك بقليل، فكان محور الجمعية في الخارج، وكان الأمير صباح الدين المحور الثاني للجمعية، أو القطب الثاني، وفي هذه الفترة صدرت صحف في الخارج، تعمل كلها لتوضيح موقف الجمعية أمام الرأي العام العالمي، ولتنوير الرأي العام التركي، من هذه الصحف التي نشرت بالتركية (مشورت) في باريس، يقصد أنها إنتاج المحافل الماسونية التي تتمركز في كل من سالونيك ومناسيتير، انظر: (وميزان) في القاهرة، و(عثمانلي) في جنيف، وكان غوثلث هذه الصحف في القاهرة.

ثالثها: يبدأ سنة 1906م، حيث عادت للعمل داخل الامبراطورية مع أنها لم تنقطع عن العمل في الخارج⁽⁴⁾ ويلمس المرء من خلال تقارير السفراء الأجانب في العاصمة العثمانية استانبول وفي المدن العربية في بلاد الشام، أن هؤلاء السفراء يرصدون تطور حركة تركيا الفتاة، ويتابعون نشاطاتها بدقة، من خلال دأبهم على إرسال التقارير إلى دولهم، إذ يشير السفير البريطاني في الأستانة في تقرير له إلى دخول هذه الحركة مرحلة جديدة، وهي تكثيف النشاط الإعلامي ضد دولة الخلافة، وبداية التحدي العلني للسلطة المركزية في عقر دارها في استانبول، من خلال إلصاق

(2) كلشي، حسن، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة: محمد الأرنؤوط، نشر: قدسية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، إربد، الأردن، 1991م.

- رامزور، أرنست، أ.، تركيا الفتاة وثورة 1908م، ترجمه عن الانجليزية: صالح أحمد العلي، نشر: مكتبة الحياة، مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، صويص، أتاتورك منفذ تركيا، ص43

-BUYUK KULUR ANSiK LOPEDiSi (12ciIT), BASKENT YAYiNLARi, ANKARA, 1984, ciIT. 6. p. 2376

- KARA, OSMANLi TARiHi, CILt,8, p. 510-577

(3) رامزور، تركيا الفتاة، ص49-51

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص12-13، وانظر:

ميكوش، داجوبرت فون (مستشرق ألماني)، مصطفى كمال المثل الأعلى، عربه عن الألمانية: كامل. ص. مسيحة، نشر: المكتبة الأهلية، طبع مطبعة الوفاء، بيروت، 1933م، ص55-56.

المنشورات على جدران المساجد، حيث الصق منشوران على جدران المساجد في سنة 1894م، أحدهما بتاريخ 27 كانون الثاني من السنة المذكورة آنفاً، وأصفا على جدران جامع السليمانية وجامع الفاتح، وهي تدعو إلى الثورة، والمنشور الآخر مؤرخ في 9 تشرين الثاني سنة 1895م، وفيه يذكر صاحبه أنه في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني ألصقت مناشير طويلة على أبواب الجوامع الرئيسة في الآستانة، وعلى مدخل قاعات الاحتفالات في قصر يلدز، هاجم فيها أصحابها السلطان عبد الحميد وحكومته بعنف وبلغة نارية، وكان السلطان عبد الحميد قبل توزيع هذه المنشورات بيوم واحد قد وجد رسالة مغلفة موضوعة على منضدته في مكتبه الخاص، وفيها إنذار له، أنه إذا لم يصدر لمضمون المناشير فإن حياته في خطر⁽²⁾.

وازداد نشاط جمعية الاتحاد والترقي قوة من حيث التخطيط والتنظيم والتنفيذ، وكان الأمور تنذر بحدوث أمر ما قريباً، ففي عام 1902م عقدت تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) أول مؤتمر لها في باريس: أكد فيه المؤتمر عزمهم الوطيد على متابعة الكفاح في سبيل أهدافهم الأساسية الوطنية⁽¹⁾ وفي هذا المؤتمر انشقت عن جماعة الاتحاد والترقي مجموعة برئاسة الأمير صباح الدين، الذي كان شكل جمعية التشبث الشخصي وعدم المركزية، وبدل انشقاؤه على وجود تيارين متناقضين داخل حركة القوميين العثمانيين، فعلى الرغم من تركيز الجميع على وجوب الإصلاحات والمطالبة بالحكم النيابي الدستوري (المشروطية) إلا أن الأمير صباح الدين ومؤيديه يرون ضرورة إشراك أبناء القوميات الأخرى المكونة للدولة العثمانية في إدارة البلاد العثمانية بعد نجاح انقلابهم على السلطان عبد الحميد، وإعطاء الولايات العثمانية التي تضم قوميات أخرى استقلالاً ذاتياً على أساس مبدأ اللامركزية في إدارة الدولة، وسأنده في هذا الاتجاه أبناء القوميات الأخرى الذين حضروا المؤتمر ومنهم العرب، ويمكن تسمية جناح الأمير صباح الدين بالجناح المعتدل وشعر الأمير صباح الدين أن التيار الآخر في جمعية الاتحاد والترقي هو المسيطر في توجيه الأمور كما يريدون، فاعتزل العمل السياسي بشكل عام، واتجه أنصاره لاتخاذ مواقف معادية للاتحاد والترقي بسبب طورانيتها، ثم ألغوا حزباً خاصاً بهم لمعارضة الجمعية وتوجهاتها.

أما الاتجاه الآخر أو التيار الآخر المكون لجماعة الاتحاد والترقي – وهم الأغلبية – فكان يرى تكوين دولة مركزية موحدة تصهر القوميات الأخرى في بوتقتها، وتذيب الشعور القومي لدى عناصر تلك القوميات، وإرغام هؤلاء على الالتزام والتقييد بكافة الإجراءات التي ستتخذ فور تشكيل الدولة الجديدة بعد نجاح الثورة والانقلاب، والعمل على تنريك الدولة والعناصر الأخرى القومية، وإعلاء شأن القومية الطورانية، وقد تبلورت أهداف كل من الجناحين المكونين لجمعية تركيا الفتاة، وكانت الغلبة للجناح الثاني المتشدد، حيث عمل بشكل فوري على تطبيق منهجه في إدارة الدولة بتنريك العناصر الأخرى وإشهار سيف القومية الطورانية صراحة في وجه القوميات الأخرى

(2) زين، نشوء القومية، ص73-74، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص394

(1) زين، المرجع السابق، ص75

وخاصة في البلاد العربية⁽¹⁾، ولا شك أن التيار القومي الطوراني المكون من أغلبية المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي قد حاز على دعم وتأييد الماسونية العالمية، وكان حُب هؤلاء من المنتمين للمحافل الماسونية، يقول محمد حرب عبد الحميد في تعليقه على هذه القضية أثناء تحقيقه لمذكرات السلطان عبد الحميد "كان أعضاء فروع الاتحاد والترقي في كل من القاهرة وجنيف وباريس من الماسونيين، لكن الاهتمام الرئيس العالمي الذي أولته الماسونية الدولية انصب على كادر الماسونيين في مقدونيا، ذلك لأن حركة الاتحاد والترقي في سلانيك، وهي مركزها، كانت الحركة العسكرية لهذه الجمعية، وكان كل ضباط الجيش هناك، باستثناء اثنين فقط، ماسوناً، والأربعة الكبار في الاتحاد والترقي في منطقة مقدونيا ماسون وهم: محمد طلعت باشا، مانياسي زادة رفيق بك، مدحت شكري بلدا، اسماعيل جانبولا، وكان الجميع في أول مركز عمومي للاتحاد والترقي باستثناء واحد- من الماسونيين"⁽²⁾ وقد ضمت الاتحاد والترقي عرباً بين صفوفها، وكان منهم بعض القواد العسكريين، منهم الفريق محمود شوكت العراقي الأصل، وضابط آخر هو الفريق عزيز علي المصري من مصر⁽³⁾، لأنها كانت تقبل أبناء الأجناس الأخرى غير الأتراك "حيث كانت خليطاً من الأجناس والأديان يسوده الترك ويأتي بعدهم فيه اليهود مباشرة"⁽⁴⁾، لذر الرماد في العيون من أجل كسب تأييد ومناصرة جميع أبناء العناصر العرقية المكونة منها الامبراطورية العثمانية، بما فيهم العرب، حتى أنها أعلنت أنها ستحارب الحركات الانفصالية التي كانت تقوم بها الأقليات⁽⁵⁾، من أجل ضمان نجاح برنامجها، حتى أن الجناح المعتدل فيها أعلن مبدأه السياسي العام: الامبراطورية العثمانية للعثمانيين، ثم ما لبثت جمعية الاتحاد والترقي أن عقدت مؤتمرها الثاني سنة 1907م في باريس بزعامة "الأحرار" وإشرافهم (يقصد: الماسونيين) وظهر بشكل جلي من بيان هذا المؤتمر أنها تتأهب لإعلان الثورة على السلطان عبد الحميد⁽¹⁾، وهي المرحلة الأخيرة من خططها وبرنامجها للقضاء على دولة الخلافة وإسقاط السلطان⁽²⁾، وتطبيق توجهاتهم العلمانية على الدولة في النظام السياسي وفي الجوانب المتعددة لها.

إذاً حتى هذه الفترة عام 1908م، قبيل الانقلاب العسكري على السلطان عبد الحميد الثاني، نجحت جمعية الاتحاد والترقي الماسونية في إخفاء نواياها وتوجهاتها الرامية لإقامة دولة علمانية على أسس طورانية لكسب العرب إلى صفها، وقد حصلت

(1) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص394-395، برو، العرب والترك، ص64، فريجات، الثورة العربية، ص34-35

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، تعليق المحقق، هامش ص116-117

(3) فيضي، سليمان، المذكرات (في غمرة النضال) نشر: دار القلم، بيروت، د.ت، ص67، عوض، بحوث في تاريخ العرب، ص95، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص396

عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص12، رامزور، تركيا الفتاة، ص20-21

(4) انطونيوس، بقطة العرب، ص107، مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص24

(5) زين، نشوء القومية، ص75-76

(1) زين، المرجع السابق، ص76

(2) رازور، تركيا الفتاة، ص13

على سكوت غالبيتهم عن نشاطاتها المعادية لدولة الخلافة والساعية لتقطيع الأواصر القائمة بين العثمانيين والعرب، علاوة على حصولها على انضمام كثير من العرب إلى صفوفها ومشاركتهم لأعضائها في الانقلاب على السلطان عبد الحميد، بل وأكثر من هذا، لولا ثقل الضباط العرب ودورهم في هذه الحركة الماسونية لما نجح الانقلاب على عبد الحميد، إذ كان الدور الأكبر والأبرز والأهم في الحركة الانقلابية لقائد الجيش العثماني المرابط في مقدونيا وهو محمود شوكت العربي العراقي الأصل، حين توجه بجيشه واحتل العاصمة استانبول وأسقط السلطان، وكان شوكت هذا عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، ويرى امزور أن الجمعية السرية التي أثرت في الجيش الثالث المرابط في مقدونيا بقيادة شوكت، والذي سار إلى استانبول وقام بالانقلاب، لم تكن من منظمات تركيا الفتاة في المنفى في أوروبا، كما لم يكن الوريث الشرعي للمنظمة التركية الأولى التركية الفتاة التي أنشئت في الامبراطورية العثمانية⁽³⁾ في حين يروي شيخو أن الحركة الماسونية التي ينتسب إليها قادة جمعية الاتحاد والترقي وأغلب أعضائها، قد أخذت تتظاهر بأنها هي التي قلبت سلطة السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁴⁾ ولعل رامزور ينفي صلة الانقلابيين في الجيش الثالث العثماني المرابط في مقدونيا بقيادة الفريق محمود شوكت بالانقلاب على الخلافة وإسقاطها، ليحاول إقناع القارئ بأن هذا الجيش كان وطنياً، وأن هدفه كان فقط الإطاحة بنظام حكم السلطان عبد الحميد، من أجل إصلاح أوضاع الدولة المتردية، وليثبت بأن للانقلاب على الخليفة عبد الحميد لتحقيق أهداف سياسية كبرى، عملت الماسونية والدول الكبرى، لا سيما بريطانيا عقوداً بشكل منظم ودقيق للوصول إليها، في حين أن اعترافات الماسونية تؤكد ذلك كما ذكرنا آنفاً، إضافة إلى رواية السلطان عبد الحميد نفسه وتأكيد ذلك، حين يقول: "لا بد للتاريخ يوماً أن يُفصح عن ماهية الذين سمو أنفسهم "الأتراك الشبان"، أو: "تركيا الفتاة وعن ماسونيتهم، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الانكليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل"⁽¹⁾ ويقول أيضاً: "كان الانجليز يثيرون على اتحاديي مناستر، ويثير الألمان علي اتحاديي سالونيك، كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل، ونجاح الانكليز باستخدام اتحاديي مناستر كان مصيبة بالنسبة لي، لأنهم كانوا سيزيلونني ويصلون إلى مرادهم، ولم أكن أخاف من اتحاديي الألمان، لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف انجلترا، اتحاديو سلانيك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية تحركوا بكل من أنور وينايزي، اغتيل شمسي باشا، وأضاع اتحاديو مناستر المحاولة ... أسقطني اتحاديو سلانيك عن العرش، ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار (المانيا) وكأن المسألة حلم"⁽²⁾.

(3) رامزور، المرجع السابق، ص 117

(4) شيخو، السر المصون، مجلة المشرق، سنة (14) عدد (8) آب 1911م، ص 607

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 115

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع السابق، ص 150-151

وبنجاح انقلاب جمعية الاتحاد والترقي عام 1909م على السلطان عبد الحميد الثاني خليفة المسلمين، وإقصائه عن الخلافة تنتهي المرحلة الأولى من دور هذه الجمعية في التأثير على العلاقات العربية العثمانية، والتي تميزت بأنها مرحلة إعداد وتنظيم وحركة وعمل للوصول إلى السلطة، ومن ثم تقوم بالدور المنوط بها من قبل الماسونية وبريطانيا وفرنسا، وهو دور إثارة النعرة الطورانية في وجه العناصر المكونة للدولة العثمانية، وخاصة العرب، في مسعى مدبر ومخطط له يرمي إلى دفع العرب للابتعاد عن العثمانيين، وذلك للوصول بهذين العنصرين العربي والعثماني إلى درجة القطيعة، وبالتالي تحقيق الهدف الأكبر وهو إلغاء الخلافة، التي يعد العرب من أهم أنصارها وحمائتها، ويتلاحمهم مع العثمانيين تبقى هذه المؤسسة السياسية الإسلامية العروة الوثقى التي تجمعهم للوقوف في وجه الأعداء وإحباط مخططاتهم وأهدافهم الاستراتيجية، وخاصة تمكين اليهود من فلسطين، وتمكين بريطانيا وفرنسا من تجزئة الدولة العثمانية وابتلاع ولاياتها واحدةً واحدةً، من ذلك السيطرة على بلاد الشام لجزء من هذا المخطط، الذي نجحوا في تحقيقه في ظل الاتحاديين في العقد الثاني من القرن العشرين بُعيد الحرب العالمية الأولى، وهو ما يتم بيانه في الفصل الرابع.

الفصل الثالث
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1876 - 1909م
"العلاقات الجيدة"



-التيارات الداعية إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية " تيارات الرابطة العثمانية/ الجامعة الإسلامية"

أولاً: التيار العثماني الإسلامي " مؤسسة الخلافة/ الخليفة عبد الحميد الثاني

تم البحث في الفصل السابق في تفاصيل التيار الأول الذي سعى إلى الانفصال في العلاقات السياسية بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، وناقش هنا التيار الثاني، الذي أظهر حرصاً على استمرار تلك العلاقات، واتخذ مواقف معينة، وسلك مسلكاً فيه تدعيم لتلك العلاقات وتثبيت لها، ويتصدر التيار الثاني مؤسسة الخلافة ممثلة بشخص السلطان عبد الحميد الثاني، ولا بد قبل مناقشة القضايا التي أبدى من خلالها عناية

وتمسكاً بالعلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، من إلقاء الأضواء على شخصية السلطان عبد الحميد، لأن ذلك يسهم في تجلية الصورة وبيان حقيقة الفكرة.

1- شخصية السلطان عبد الحميد الثاني.

على الرغم من كل ما قيل مع أو ضد الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول، فإن هذا الخليفة كان ملء السمع والبصر، وكان واحداً من السلاطين العظام، والقادة البارزين في التاريخ العثماني خاصة والاسلامي عامة، ويمكن القول إنه ترك بصمات واضحة لا ينكرها ذو بصر وبصيرة في التاريخ، ويشير آقيون إلى بعض ميزات هذا الخليفة من بين الميزات الكثيرة التي تميز بها، من تلك الصفات ميزتان حميدتان هامتان: الأولى: أنه كان على اطلاع واسع بالعلوم الشرعية الإسلامية، ولذلك كان يعرف جيداً أخلاق اليهود وخططهم ومكرهم وعداءهم للإسلام. الثانية: أنه كان سياسياً داهيةً ذا حنكة وبعد نظر، وعد بأنه ذو خصائص سياسية يوضع في مصاف السياسيين من الطراز الأول⁽¹⁾.

ولد السلطان عبد الحميد الثاني يوم الأربعاء 21/سبتمبر، أيلول 1842م/ 1258هـ، والده هو السلطان عبد الحميد الأول (1277-1237هـ/ 1822-1861م) وجده السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (1199-1255هـ/ 1785-1839م)⁽²⁾، وفي عهد جده محمود، ثم أبيه عبد المجيد الأول بدأت الدولة العثمانية تتجه إلى إدخال الإصلاحات في شؤون الدولة، وأمورها، بضغط من تلك الشخصيات المتنفذة والمتحكمة في إدارة الدولة، المتأثرة بالأفكار الغربية، فكانت بداية حركة التغريب منذ عهد السلطان محمود الثاني بصورة رسمية، وبدأ أول مرسوم سلطاني بشأن التنظيمات عام 1839م، وتوالت الإصلاحات في عهد عبد المجيد الأول، فأصدر فرمانين عام 1854م و1756م وعرفت الفترة هذه بعهد التنظيمات، وكان السلطان عبد المجيد ينفذ في هذه الإصلاحات ما يمليه وزيره المسيطر عليه رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، وكانت هذه الإصلاحات عبارة عن تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، واستبدال النظم المأخوذة من الشريعة الإسلامية بالنظم الغربية وتستلهم هذه الإصلاحات أيضاً الفكر الغربي في القوانين ومؤسسات الدولة، وبتوجيه رشيد باشا ومن معه من رجال الحكم من العثمانيين الجدد، رجال

(1) - AKGUN, MUSTAFA, YAHHDiNiN TAHTA KiCiL, P. 46

(1) السلطان عبد الحميد، المذكرات، مقدمة المحقق، ص 17

- أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 83

OZTUNA, YiLMAZ, BUYUK OSMANLi TARIHi (10 cild), OTUKEN NESRiYAT.

A.S, iSTanbul,- 1994, cild,5. P. 361

- KiSAKUREK, NECiP FAZiL, ULU HAKAN II ABDUL HAMiD HAN, YAYiNLaRi

BUYUK dogu, iSTANbUL, 1977, P. 285-291

- أوزتونا، يلماز، السلطان عبد الحميد الثاني وصورة واضحة لسياسته، مجلة الفيصل، العدد (200)، تموز - آب - 1993م، ص 123 .

تركيا الفتاة، سارت حركة التغريب في الدولة، وتمكن هؤلاء فيما بعد من إحكام السيطرة عليها في عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني (1861-1876م)⁽²⁾.

نشأ عبد الحميد الثاني وهو يرى بنفسه تمكن التيار التغريبي من الدولة وسيطرته عليها، ويدرك جيداً أن جده محمود الثاني وولده عبد المجيد الأول وعمه عبد العزيز كانوا واقعين تحت تأثير التيار المسمى العثمانيون الجدد، رجال تركيا الفتاة، ولما وصلوا إلى مرحلة من الثقة بأنفسهم وقوتهم في تنفيذ خططهم، ووجدوا السلطان عبد العزيز يعرقل عملهم ويعيق تحركهم تخلصوا منه، وفاوضوا مراداً الخامس، وهو عضو في جمعيتهم الماسونية⁽¹⁾، ليستلم السلطنة، وكان ما أرادوا، لكن جنون السلطان مراد، جعلهم يلجأون للأمير عبد الحميد الثاني، ولديه من العمر آنذاك أربعاً وثلاثين سنة يقول بيهم: "ارتقى عبد الحميد إلى العرش عقب حادثين ارتكبهما حزب تركيا الفتاة الذي كان يتزعمه مدحت باشا، وذهب ضحيتهما كل من عمه السلطان عبد العزيز، وأخيه السلطان مراد، فتركاً في نفس السلطان الخوف من هذا الحزب، وربما تركاً في قرارة نفسه أيضاً الحقد على هؤلاء المتجاسرين على سلفيه المالكيين، والرغبة في الثأر منهم، ومما كان يحجب إليه الخلاص من هذا الحرب اعتقاده بوجود أيد روسية وإنكليزية كانت تتعاكس من وراء ستار في قضية خلع السلطان عبد العزيز وقتله، لذلك فإن السلطان ما أن استولى على العرش، واستقر به المقام حتى نكل بالعهود التي قطعها قبل توليه الحكم، لحزب مدحت باشا، فاستهل ذلك بتنحيه مدحت باشا من الصدارة ونفيه وإبعاد أنصاره"⁽²⁾، وهكذا نجد أن عبد الحميد الثاني نشأ وترعرع وعاش شبابه في ظل أوضاع استثنائية تعيشها الأسرة العثمانية والدولة في آن معاً، بحيث لا يستطيع أن يتجاهل ما يجري حوله إن أراد أن يكون خليفة فعالاً وحاكماً ناجحاً، فكانت بداية عهده بعد مبايعته على الخلافة في عام 1876م بداية حساسة ومهمة للغاية، يعمل فيها التغريبيون رجال تركيا الفتاة على التمسك بكافة الانجازات التي حققوها في عهد أسلافه، جده وعمه وأبيه، وكانت النزعات القومية والعرقية في عهده كامنة مستترة في بداياتها، تسعى بنفسها وبتحريك من الغرب ومن الماسونية العالمية، لتطل برأسها، ومن ثم لتكبر وتنمو وتصبح لها المكانة التي أخذتها في وقت لاحق، ولذلك فإن السلطان عبد الحميد، ومنذ تسلمه مقاليد الخلافة شمر عن ساعد الجد، وبدأ عهداً جديداً في حياته، مقدراً حساسية المرحلة ودقتها، وواعياً

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، مقدمة المحقق، ص17، جأ، التنظيمات، ص122-128
(1) السلطان عبد المجيد الثاني، المذكرات، ص115، عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص178-179، جأ، التنظيمات، ص130، سرحان، النظام العثماني، ص22، رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 532، السنة 9/11/ يونيو حزيران، 1981م، ج3، ص38، وانظر: الشوابكة، أحمد فهد، حركة الجامعة الإسلامية، نشر مكتبة المنار، الطبعة الأولى، الزرقاء، الأردن، 1984، ص21.
(2) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص175، سرنك، حقائق الأخبار، ج1، ص727-728، أورشان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص77-78

لمعنى التواني والركون إلى الدعة والراحة، وبدأ يعمل على محاور عدة بكل همة ونشاط⁽¹⁾.

أولها: استيعاب ما يجري حوله من سيطرة دعاة التغريب الماسونيين مثل حسين عوني ورشدي باشا ومدحت باشا على مقدرات الدولة وإدارتهم لسياساتها حسب مطامحهم الشخصية أولاً، ولأنهم وانقيادهم للدول الأوروبية وللماسونية العالمية، وتنسيقهم معها ثانياً.

ثانيهما: العمل على النهوض بالدولة من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، إذ وصلت الدولة في نهاية عهد عمه عبد العزيز قبيل استلامه زمام الأمور إلى درجة السقوط والانحيار⁽²⁾، فكانت ميزانيتها خالية من أية نقود، ورصيد عجزها كبير، بلغت ديونها حينذاك 300 مليون ليرة ذهبية⁽³⁾، فعمل على تسديدها وإنهاءها، ونجح إلى حد كبير، وفي هذا يقول السلطان عبد الحميد: عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة، وفُقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة، أي إلى العُشر، وذلك بعد دفع ما تطلّبه حربان كبيرتان، وسحق بعض تمردات داخلية، أما ناظم بك ورفاقه فقد رفعوا هذا الرقم بعد تولي الاتحاد والترقي الحكم بعدي، من ثلاثين مليون ليرة، حيث كان حينما تركت الحكم إلى أربع مائة مليون ليرة، يعني إلى ثلاثة عشر أمثاله⁽⁴⁾.

ثالثها: العمل على درء الخطر الداهم وإيقاف انتشاره ومحاولة احتوائه، والمتمثل في يقظة القوميات المكونة للدولة العثمانية، ويتصدرها القومية التركية الطورانية، ثم القومية الأرمنية، ثم القومية العربية، فالأكراد، فالصرب، فالبلفار، وغيرها من العناصر العرقية المنضوية تحت الراية الإسلامية العثمانية، وكان يهيمه في مقدمة هؤلاء الجانب العربي بشكل خاص، لأن له من الأهمية الشيء الكبير، إذ يقدر الخليفة عبد الحميد دور العرب في استقرار دولته وفي الحفاظ عليها، ولذلك بالغ في اجتهاده للتمسك بالعرب وبالعلاقات طيبة وممتازة معهم، ليس انطلاقاً من المصالح الفردية لشخصه، وإنما لأهمية تلك العلاقات من الناحية الاستراتيجية لدولته.

(1) يشير إلى ذلك الرحالة المجري اليهودي الأصل الذي عايش السلطان عبد الحميد في استانبول فترة من الزمن، وخبره عن قرب يقول عنه: لم يأت في تاريخ الشرق سلطان شرقي يحب الشغل والهمة التي لا تكل ولا تمل كالسلطان عبد الحميد، فإنه يقضي يومه من الصباح باكراً، إلى أن ينتهي المساء مهتماً بقضاء أشغال الدولة، ومهام السلطنة، انظر: ثامباري، أرمينوس، جلالة السلطان عبد الحميد خان، مجلة المقتطف م14، ج11، عدد آب سنة 1890م، ص722، وانظر: عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص39-40، وتلن، عبد الحميد، ص78-79، 117 وانظر: KARAL, OSMANLI TARİHİ, CİLT, 8, P.3.

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص39

(3) وتشير وتلن إلى هذا المبلغ بقولها: بلغت ديون تركيا الأهلية عام 1875م 200 مليون جنيه استرليني وربما كان ذلك يساوي 300 مليون ليرة عثمانية فتكون بذلك الروايتان متطابقتين. انظر: وتلن، عبد الحميد، ص7-8

(4) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص68

وهكذا تولى السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة العثمانية في الدولة العثمانية في الأول من أيلول عام 1976م، وأقال رشدي باشا في 20 كانون الأول من العام نفسه وعين مدحت باشا صدراً أعظماً بدلاً منه⁽¹⁾، وبهذا تمكن من إسكات التيار التغريبي من رجال تركيا الفتاة، وهم ما يطلق عليهم المؤرخون لقب الإصلاحيين⁽²⁾، وسمو بذلك لأنهم يسيرون في إصلاح أحوال الدولة حسب طريقتهم الخاصة، لأنهم يرون أن تأخر الدولة وانهيارها راجع إلى تمسكها بالنظم الإسلامية والتشريعات والقوانين المستمدة من الشريعة، وسبيل إصلاحها ونهوضها يكون باقتضاء أثر الغرب الأوروبي، والسير على منهاجه في الحكم والإدارة، واقتباس التشريعات والأنظمة منه، بينما يرى السلطان عبد الحميد، وجوب أخذ النافع المفيد من الغرب بما يتعلق بالإدارة والاقتصاد والسياسة والتعليم والنظم العسكرية مع الحفاظ على النظام السياسي الإسلامي يقود الدولة العثمانية نحو ذلك لتطوير والتحديث، وهنا نقطة الاختلاف بينه وبين مدحت باشا وغيره من دعاة الإصلاح التغريبيين من رجال حكمة، فكيف سارت الأمور بعد ذلك، والتباين واضح والخلاف الجوهري موجود بينه وبينهم حول النظام والدستور والإصلاح؟! في الحقيقة أن مدحت باشا ومن معه لجأوا إلى السلطان عبد الحميد عندما شعروا أنه الوحيد الذي ستؤول إليه الخلافة والسلطنة من آل عثمان بعد حادثة جنون أخيه مراد الخامس حسب ترتيبه بين أفراد البيت العثماني⁽¹⁾، وجاءوه بمسودة الدستور (القانون الأساسي أو المشروطة)⁽²⁾ كما يسمونه، وعرضوه عليه، فماذا جرى بعدها؟!

2- إعلان الدستور (القانون الأساسي) عام 1876م وموقف السلطان عبد الحميد منه.

شعر السلطان عبد الحميد أن لا بد من الانحناء للعاصفة كي تمر، ومن ثم يستطيع أن يتحرك لتنفيذ ما يراه مناسباً للنهوض بالدولة والخروج من مأزقها التي وصلت إليه، وفي الوقت نفسه يسير في طريق الإصلاح محاولاً التوفيق بين خطته وخطة وزرائه الذين فاوضوه في ذلك قبل استلامه السلطة، وهنا لا بد من التعرض لنقطة جوهريّة، وهي القول بأن مدحت باشا ومن معه قد اشترطوا على عبد الحميد ابتداءً وقبل الموافقة منهم على مبايعته بالخلافة بأن يطبق برنامجهم الذي طرحوه على سابقة عمه عبد العزيز، فوافق على ذلك، وكانت موافقته بمثابة المفتاح الذي سلموه

(1) وتلن، عبد الحميد، ص 67، ج 1، التنظيمات، ص 130، أوزتونا، السلطان عبد الحميد، ص 123

(2) برو، العرب والترك، ص 44، منسي، حركة اليقظة العربية، ص 53

(1) ج 1، التنظيمات، ص 130

(2) الدستور: هو مجموعة القوانين والأحكام التي تعاقب على وضعها رجال الدولة، حتى استجعت الكلي والجزئي من حقوق الحاكم والمحكوم، ورتبت أصول المحاكمات، وفصلت قواعد القضاء وعينت جميع ما يضمن إجراء العدل، وضبط الأمن، وبسط الحرية، واستخراج موارد الثروة ثم كان من جملة أجزائه القانون الأساسي، الذي ظل دعاة الإصلاح (التغريب) يطالبون بإنفاذه ثلاثين عاماً أو يزيد.

أما الدستور الذي نحن بصده فهو الحكم النيابي على الطراز الحديث، حيث تحكم الأمة نفسها بنفسها، مع حفظ حقوق الخليفة الأعظم، وتنتظر على إنفاذ مضمون الدستور النظامي حرفاً حرفاً. انظر: البستاني، عبرة وذكرى، ص 85

إياه ليلج إلى سدة الحكم ويتولى السلطة في الدولة⁽³⁾، لكن السلطان عبد الحميد يرد على ذلك بأنفة وإباء، مبيناً أن العزف على وتر القوميات والمطالبة الأوروبية بحماية النصارى في دول البلقان ثم إعلان الدستور أو القول بالمشروطية هما وسيلتان أوريبتان لتقسيم الدولة العثمانية وإسقاطها يقول عبد الحميد: "رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في استانبول (عام 1877م) ما عَرَفْتُ عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين، بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا، ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية، كانوا يعملون في سبيل هذا الهدف على صورتين: الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم، والثانية: القول بالمشروطية لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا، إستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السم، فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل للحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم في الدول التي لا تتمتع بوحدة قومية"⁽¹⁾ ثم يرد على الادعاء بأن مدحت باشا ومن معه لم يوافقوا على تعيينه سلطاناً إلا بعد موافقته على شروط سرية طلبوها منه فوافق عليها يقول: "يقال إن مدحت باشا تحدث معي في ارتقائي العرش أثناء تولي أخي السلطنة، وإنه اشترط عليّ بعض الشروط، لكي أستطيع أن أصبح سلطاناً، ويقال أيضاً: إن ههالشروط هي: إعلان القانون الأساسي (الدستور) وتعيين ضيا بك وكمال بك في السراي، ويقال: إن تنازلي عن العرش في حالة شفاء أخي من ضمن هذه الشروط، ومع ذلك فلم يكتف بهذا، بل أخذ عليّ - كما يشاع - تعهداً بتنازلي عن العرش في حالة شفاء أخي مراد، وحتى إنه قيل: إن اضطهادي لمدحت باشا كان من أجل حصولي على هذا التعهد منه. لا أصل لهذا، والحقيقة هي أن كلاً من الصدر الأعظم رشدي باشا ومدحت باشا أجريا معي - أثناء مرض أخي - محادثة، لكن أحداً منهما لم يتحدث معي في أي شرط، كذلك لم يجعل في موضوع الحديث شرطاً من الشروط، في هذه المحادثة لم يتحدث عن مرض أخي بشيء، ولم يذكر شيئاً عن ارتقائي العرش، وكل ما هناك أنهما أخبراني بأن مدحت باشا قال إنه وجد من أخي السلطان مراداً رغبة في القانون الأساسي، وأن بعض الاستعدادات قد حدثت في هذا السبيل، وحاولت أن أعرض عليهما أفكار في الموضوع، وقلت لهما: إنني حريص على إعلان القانون الأساسي (الدستور)⁽²⁾ وهكذا تم إعلان الدستور (القانون الأساسي

(3) كان مدحت باشا بعد ما عين صدرأ أعظماً من شكل لجنة مؤلفة من ستة عشر موظفاً مدنياً وعشرة من علماء الشريعة الإسلامية، وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور الذي استوحى من الدستور البلجيكي، تحت اسم قانون أساسي، فأصبح الدستور البلجيكي المعدل دستوراً للدولة الإسلامية العثمانية بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة، وصار الإسلام دين الدولة فقط وليس دستوراً كما كان: انظر: حسون، الدولة العثمانية، ص 194.

THE CREASY, HISTORY OF THE OTTOMAN TURKS. P 5448

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 144-145.

- KARAL, OSMANLI TARİHİ, Cilt, 8, P. 40-57

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 117-118، وانظر: ميكوش، مصطفى كمال، ص 11-12. شاكر، محمود التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، نشر: المكتب الإسلامي، طبعة ثانية، بيروت، 1987، ص 198-199.

أو المشروعية) من قبل السلطان عبد الحميد، لكن في الزمان المناسب، حيث استطاع استثمار الظرف استثماراً جيداً لصالح الدولة العثمانية، إذ بينما يجتمع سفراء الدول الكبرى في استانبول في مقر البحرية العثمانية في 23 كانون أول 1976م بحضور أدهم باشا والكفوي باشا كممثلين للدولة العثمانية، لبحث أوضاع تلك الدولة⁽¹⁾ التي تصفها وتلن آنذاك بأنها غارقة في بحر من الفوضى، ويشار إليها بالرجل المريض، وهو وصف لم يكن يبعد كثيراً عن الحقيقة⁽²⁾ أعلن السلطان الدستور بعد أن أبعد مدحت باشا، بحيث يتخلص من هيمنته على الدولة، وتوافق ذلك مع إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية، وكانت خطوة عبد الحميد عن دراسة وتخطيط وتفكير في الموضوع منذ مدة، وهو ما يؤكد بنفسه، نافياً أن يكون ذلك بضغط من مدحت باشا، حين يقول: "الحقيقة أنني كنت أفكر في هذا في تلك الأعوام، ولا سيما أنني أعلنت القانون الأساسي بعد إبعاد مدحت باشا، ودعوت المجلس للانتقاد عند دخولنا الحرب، وأمرت أن تستمر أعمال المجلس طوال وقت الحرب، أما الباقي فكذب، فكيف أكون سلطاناً وأوقع على مستند يأخذه علي وزير، ويجرؤ على وضع شرط على سلطانه"⁽³⁾.

لم يتأخر إعلان الدستور (القانون الأساسي) كثيراً عن الخطوة التي سبقتها، وهي إقالة رشدي باشا من الصدارة العظمى، وتعيين زعيم حركة التغريب (الاصلاح) مدحت باشا، إذ كان تعيينه في 20 كانون الأول 1876م، وفي 23 كانون الأول 1876م وبينما يعقد ممثلو الدول الكبرى مؤتمرهم في استانبول لتقرير ما سيفرضونه على الدولة العثمانية من مطالب وإجراءات، دوت أصوات المدفعية في سماء العاصمة العثمانية معلنة مولد الدستور الجديد الذي أعلن المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، كما نص هذا الدستور على إقامة مجلسين هما مجلس المبعوثان (النواب) ينتخب أعضاؤه من قبل الشعب في جميع أنحاء الدولة العثمانية، ومجلس الشيوخ (الأعيان) يعينون من قبل الخليفة، ويتمتع أعضاء المجلسين بالحصانة، فلا يخضعون لقوانين الدولة، كما نص القانون الأساسي على تشكيل محكمة عليا، وعلى اعتبار مبدأ اللامركزية كأسلوب في الإدارة يتبع ويطبق في كافة ولايات الدولة العثمانية⁽⁴⁾، وقد أشاد بسمارك عضو المانيا في هذا

(1) المحامي، الدولة العلمية، ص 590-591، ص 593

(2) وتلن، عبد الحميد، ص8، ليب، المسألة الشرقية، ص80، حجاج، سعيد رزاق، الأكراد والأرمن في العصر الحميدي، دن، طبعة أولى، القاهرة، 1991م، ص13.

(3) عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص118، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص120، وانظر: بيهيم، محمد جميل، تركيا وأطوارها، مجلة العرفان، مجلد 9، ج7، نيسان 1924م، ص623-624.

- شاكور، التاريخ الاسلامي (العهد العثماني)، ص192-193

-FAZİL, ULU HAKAN II ABDUL HAMİD HAN, P. 292

(1) سر هنك، حقائق الأخبار، ج1، ص729

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص167، 216-219، الحصري، البلاد العربية، ص257-260.

حسون، الدولة العثمانية، ص194، جها، التنظيمات، ص130-131، وتلن، عبد الحميد، ص67، 88 رامزور، تركيا الفتاة، ص43، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص30-31

المؤتمر مخاطباً علي ناظم باشا على مسمع السلطان عبد الحميد الثاني، بخطوة السلطان عبد الحميد الموقفة بإعلان العمل بالدستور في هذا التوقيت، لإسكات ممثليه الدول الكبرى، ثم إنه عندما عطل العمل بالدستور عام 1877م، كانت هذه الخطوة أيضاً ناجحة، من أجل اتخاذ الإجراءات المناسبة للحفاظ على استقرار الدولة العثمانية، التي تضم قوميات وأجناساً متعددة، كما يذكر بأن تعطيل الدستور لم يكن سبباً في التعجيل بإسقاط الدولة العثمانية⁽²⁾، وقد أشاد بسمارك عضو المانيا في هذا المؤتمر، مخاطباً علي ناظم باشا على مسمع السلطان عبد الحميد الثاني، بخطوة السلطان عبد الحميد الموقفة بإعلان العمل بالدستور في هذا التوقيت، لإسكات ممثلي الدول الكبرى ثم إنه عندما عطل العمل بالدستور عام 1877م، كانت هذه الخطوة أيضاً ناجحة، من أجل اتخاذ الإجراءات المناسبة للحفاظ على استقرار الدولة العثمانية التي تضم قوميات وأجناساً متعددة، كما يذكر بأن تعطيل الدستور لم يكن سبباً في التعجيل بإسقاط الدولة العثمانية⁽³⁾. ويروي سرهنك الأسباب التي ارتأها السلطان عبد الحميد لحل المجلس اجتمع مجلس المبعوثان في سراي بشكطاش وافتح بحضور جلالة السلطان عبد الحميد الثاني، وقرأت خطبة عظيمة عن لسانه، وأخذ بعد ذلك يعد جلساته في 4 ربيع الأول، ويتذكر فيما يعرض عليه من المسائل، وقد امتدح سيرة كثير من الجرائد الوطنية والأجنبية على اختلاف أنواعها ومشاربها، وقالت تلك الصحف: "إن حسن سيرة وانتظام جلساته يدل على ترقى الأمم العثمانية، لكن من الأسف أن استعمل بعض أعضائه حدة في أمور لا لزوم للخوض فيها في ذلك الوقت، ولما كان بعض دول أوروبا لا تحب أن ترى اتفاق الأمة العثمانية، وأن يكون لها مجالس نيابية ثورية، أخذت تدس الدسائس من يوم ظهور هذا المجلس إلى عالم الوجود، ولما خافت الدولة، من أن رواج الدسائس الأجنبية بين بعض الأعضاء يؤدي بلا شك إلى المشاكل والاختلالات التي أرادت الدولة التخلص منها بتشكيل هذا المجلس، فتكون جلبت على نفسها الضرر من حيث أرادت المنفعة، صدر أمر سلطاني بعد اتفاق وزراء الدولة وأعيانها بإرجاء اجتماعه إلى أجل غير محدود في 10 صفر 1295هـ/1879م"⁽⁴⁾.

ثم يقدم سرهنك تبريراً لخطوة إيقاف اجتماعات مجلس المبعوثان بقوله: وقد قال كثير من عقلاء الأمة الذين خبروا أحوال الدولة العثمانية وأحوال شعوبها، ووافقهم على قولهم هذا من تنزهوا عن الأغراض من رجال سياسة الدول الأجنبية بعدم إمكان تأليف مجلس كهذا للأمة العثمانية في ذلك الوقت، لأسباب عديدة أهمها: "عدم تجانس الأمة العثمانية، وميل جميع الطوائف غير المسلمة بها إلى ترويج مصلحة الدولة الأوروبية التي تستند عليها تلك الطائفة، لأنه من المصائب التي ابتليت بها هذه الدولة،

(2) أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 106-119

(3) - DANIŞ MEND, İSMAIL HAMİ, İZAHLI OSMANLI TARİHİ KRONOLOJİSİ (4)

YAYINEVİ, İSTANBUL, 1972, CİLT. 4. P310-311 (5cild), TÜRKİYE

(1) سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص730، رامزور، تركيا الفتاة، ص43-44

أن مالت كل طائفة غير مسلمة بها إلى دولة أوروبية، ومنها عدم بلوغ الأمم في تغريق الجامعة العثمانية، لينالوا بذلك مآربهم الخاصة، وأشد هذه الدول ممانعةً لذلك دولة روسيا جارة الدولة العثمانية القوية البطش المعادية لهم من قديم الزمان، ذات الحكومة المطلقة. والسلطة الاستبدادية، وهي أسباب جديرة بالاعتبار، يوافق على صوابيتها كل من عرف حال الحكومة والأمة العثمانية، وتنزهه عن الأغراض والغايات"⁽²⁾ ويشكك لبيب في جدية إعلان الدستور عام 1876م، ويعتبر ذلك أقرب إلى التمثيل الروائي منه إلى الشكل الجدي المزمع تنفيذه⁽³⁾.

3- موقف العرب في بلاد الشام من إعلان الدستور عام 1876م.

كان إعلان الدستور في عام 1876م بمثابة فرحة كبرى سرت في البلاد العثمانية لدى جميع مواطني الدولة، على أنه تحول بالبلاد ونحو المشاركة الشعبية في اتخاذ القرارات التي تصلح أحوالها وترتقي بها، وتحسن الظروف العامة التي تعاني منها كالجهل والفقر وانعدام الخدمات والمرافق العامة، وقد عبر النصارى في بلاد الشام عن فرحتهم بإعلان الدستور عام 1876م، يقول الأب فرديناند توتل اليسوعي الحلبي: "وكان المسيحيون يهنئون بعضهم بعضاً، كأنهم نجوا من الموت، وأخذوا يعيشون عمراً جديداً"⁽¹⁾ أما يوسف الحكيم (وهو من نصارى لبنان وكان قاضياً) فيرى في إعلان الدستور 1876م إطلاقاً لحرية الصحافة التي كانت مقيدة، ويقول: وبعد إعلان الدستور أصبحت حرية إبداء الرأي مصونة ضمن النظام⁽²⁾، هذا على المستوى الشعبي، أما على المستوى السياسي، فقد اعتبر أنصار التعريب أو رجال تركيا الفتاة، وهو المطالبون بإعلان الدستور، وقد رأينا أنهم ليسوا من العنصر التركي فقط، وإنما من كافة العناصر العرقية التي تتكون منها الدولة العثمانية، بمن فيهم العرب، اعتبر هؤلاء أن إعلان الدستور جاء استجابة لمطالبهم من السلطان وبخطيط ومتابعة من قادتهم، وعلى رأسهم مدحت باشا، وبعبارة أخرى أنهم أرغموا السلطان عبد

(2) سرنك، حقائق الأخبار، ج1، ص730

(3) لبيب، المسألة الشرقية، ص80

(1) توتل، الأب فرديناند اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب، أخبار اللاتين الروم وما إليهم، 1855-1963م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 58-

1963م (14 مايو 1908)، ج2، ص98.

(2) الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، بيروت، 1964م، ص34-35.

الحميد الثاني على إعلان الدستور، ووضعوه أمام هذا الخيار الذي لا بديل عنه، ووجد السلطان نفسه في مأزق-حسب رأيهم- فكان الخروج منه موافقتهم والنزول عند مطالبهم للخروج من المأزق، يقول رامزور في هذا: "لقد خضع السلطان عبد الحميد لمستشاريه الأحرار، إلى أن شعر بالطمأنينة على عرشه لدرجة تكفي للاستغناء عنهم، لقد كانت الحرب الروسية (وكانت روسية أعلنت الحرب على الدولة العثمانية للمرة الرابعة خلال القرن التاسع عشر في 4 نيسان 1977م) نعمةً له من الله، لأنها يسرت له عذراً لتأجيل البرلمان"⁽¹⁾.

وكان العرب في بلاد الشام عند إعلان الدستور عام 1876م قد شاركوا في التعبير عن اغتباطهم بهذه الخطوة من السلطان عبد الحميد، وشاركوا بفعالية في مجلس المبعوثان العثماني، فكان منهم عدداً من النواب من مدن الشام جميعها، عرف منهم يوسف حنا الخالدي عن القدس، ونافع الجابري عن حلب، وخالد الأتاسي عن حمص، وحسين بيهم ونقولا نقاش عن بيروت ونوفل عن طرابلس الشام، والأمير أمين أرسلان عن جبل لبنان.⁽²⁾ ولما كان التيار القومي العربي في حالة نمو وتصاعد في هذه الفترة من العلاقات العربية العثمانية⁽³⁾، وجد الداعون لهذا الاتجاه والحاملون له أنفسهم في الخندق نفسه الذي يقف فيه دعاة التغريب (الاصلاحيون الأتراك) ضد السلطان عبد الحميد، لأن الجميع حينذاك لا يتكلمون عن نزعات انفصالية لدى لكل منهم، بل يوحّدون مواقفهم للسير بالدولة العثمانية في اتجاه النهوض والتطوير، لكن على المنهج الغربي واقتفاءً لأثر الغرب وتتبعاً لخطواته، لهذا وقف الجميع منأبناء التيار التغريبي عرباً وأتراكاً في وجه السلطان عبد الحميد في البرلمان الجديد يوجهون إليه الانتقادات، وكان أبرز هؤلاء النائب بكيشهرلي زادة أحمد أفندي، وهو من النواب الأتراك، يوسف ضيا الخالدي نائب القدس، حيث وجهوا اللوم إلى السلطان عبد الحميد بأنه المسؤول عن الحرب الروسية العثمانية وعن هزيمة العثمانيين فيها، وصاغوا خطاباً بعضه موجه بشكل شخصي إلى السلطان باللاتهام له عن تلك الحرب، ألقوه في الرد على خطاب العرش، ومما جاء فيه: "إن عدم الكفاية وعدم الأهلية التي يتصف بها القائمون على

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص44-45.

الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص25، مجهول، ثورة العرب، ص59.

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص167، مجهول، ثورة العرب، ص59.

(3) القلعي، الثورة العربية، ص85-87. وانظر:

العساف، مصطفى عبد الرحمن، الفكر السياسي في سورية في ظل الانتداب الفرنسي، 1920-1946م، ر.ج، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1997م، ص3.

- صالح، قاسم محمد، و: الدروع، قاسم، النهضة العربية الكبرى، نشر: المطابع العسكرية، عمان، 1989م، ص43.

آلة الحكم لمّا يستوجب اللوم والتقبيح، فلو أن هؤلاء سيروا الأمور الدبلوماسية والعسكرية بشكل أنسب لما أصاب الدولة ما أصابها من الكوارث⁽¹⁾ وعندما طرحت هذه الصيغة على التصويت نالت 51 صوتاً ضد 37 صوتاً، وسرعان ما كان لهذا الهجوم أثره، فأدى إلى استقالة قائد المدفعية الذي كان الهجوم مركزاً عليه، فتبعه الصدر الأعظم بالاستقالة⁽²⁾.

تبرهن نتيجة التصويت تلك على سيطرة التغريبيين أو المعارضة لبعد الحميد على مجلس النواب، ويشكل العرب قوة فعالة في هذا المجلس، لدرجة أن خطاب يوسف ضيا الخالدي دفع السلطان عبد الحميد إلى اتخاذ قرار إيقاف جلساته وإيقاف العمل بالدستور، وكان الخطاب المذكور عبارة عن تقرير موقع من ستة عشر نائباً، بينوا فيه أن إجراء السلطان عبد الحميد الذي أدخل فيه تعديلات هامة في الوزارة، ألغى بموجبها منصب الصدارة العظمى، واستبدل بها تسمية أخرى هي منصب رئيس الوزراء، تمثيلاً مع الحكم الدستوري، فاعتبر هؤلاء النواب خطوة السلطان مخالفة صريحة للدستور، لا يبررها صدق نية السلطان، وأنها خالفت المواد 27، 29، 115، 161 من الدستور، عندئذ لجأ السلطان عبد الحميد إلى حل مجلس النواب إلى أجل غير مسمى، وأصدر أمره بنفي عشرة من النواب، من زعماء التيار التغريبي، مباشرة إلى خارج الأستانة، وهم رئيس ذلك التيار المعارض بكشهرلي زادة أحمد أفندي، وبدران أفندي و خليل غانم نائباً بيروت، ومانوق أفندي، ونافع أفندي الجابري نائباً حلب، ويوسف ضا بك الخالدي نائب القدس، وأربعة نواب آخرون من الأتراك⁽³⁾.

ويبدو أن السلطان عبد الحميد شعر أن قوة هؤلاء المعارضين الذين أوصلوه إلى الحكم، قد أخذت تزداد، وربما يشل ذلك حركته ويقيده، ويقترّب به من الموقف الذي اصطدم به هؤلاء مع عمه عبد العزيز، وأدى إلى خلع و قتله، فاتبع معهم سياسة المهادنة والمداواة إلى حين تسمح له الظروف بتمكين نفسه وتثبيت أركانه، يقول رامزور: "لقد خضع السلطان عبد الحميد لمستشاريه الأحرار، إلى أن شعر بالطمأنينة على عرشه لدرجة تكفي الاستغناء عنهم"⁽¹⁾ واعتبر أن إعلان الدستور وانتخاب البرلمان ثم انعقاده، خطوة مهمة لإسكات التيار المعارض له وتهئية القائمين عليه وإيصالهم لدرجة يشعرون معها في موقف الأقوى في عملية التجاذب مع السلطان،

(1) برو، الغرب والترك، ص 44-45، وانظر: الحكيم، سورية، والعهد العثماني، ص 25

(2) برو، العرب والترك، ص 45، نقلاً عن عثمان نوري، عبد الحميد ودور سلطنتي، ج 1، ص 260-261

(3) برو، المرجع السابق، ص 45-46، نقلاً عن نوري، عبد الحميد، ج 1، ص 339-346

محافظه، الاتجاهات الفكرية، ص 105-106، حجاج، الأكراد والأرمن، ص 17

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص 44، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 31

الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص 21

بدليل وصولهم إلى إعلان الدستور، وانتخاب مجلس النواب وتتابع جلساته يقول حجاج يصنف تلك الحالة: "ظل عبد الحميد يواجه حروباً خارجية متعاقبة، وأزمات سياسية عنيفة متلاحقة، وثورات قوية مدمرة تصاعدت بها أوروبا والقوى المسيحية التي بقيت خاضعة للدولة العثمانية، فضلاً عن معارضة داخلية نشيطة منظمة في شكل جمعيات سرية وعلنية، مدنية وعسكرية، اتخذت لها برامج سياسية ظاهرة للمطالبة بتنفيذ أحكام الدستور، وباطنها الإحاطة بحكم عبد الحميد"⁽²⁾ فكان هذا التدبير من عبد الحميد خطوةً وفرصةً ثمينة اغتنمها لالتقاط أنفاسه وإعادة ترتيب أوراقه، من أجل إعادة هيكلة الدولة من جديد، وبناء مؤسساتها على طريقته التي يراها هي الأنسب والأجح لبناء الدولة والنهوض بها، مع الحفاظ على خطها العام السابق وتمسكها بثوابتها الأصلية في إبقاء المرجعية والدستور هو الإسلام والشريعة الإسلامية، إذ يعتقد عبد الحميد أن الإسلام بمنهجه الرباني المتكامل، وبخصائصه الصالحة لكل زمان، سيمكنه من مواكبة النهضة الحديثة، ومن تحديث مرافق الدولة ومؤسساتها وخطوة عملية لتنفيذ هذه السياسة، كان لا بد من الوقوف بحزم وصلابة في وجه التيار المعارض، واتخاذ القرارات التي يستطيع من خلالها الوصول إلى ذلك، وهذا كله نابع من تمسكه بالإسلام وتدينه الذي عرف به⁽³⁾ "فقد كان له مفهومه الخاص في إدخال عناصر المدنية إلى بلاده، حيث لا يريد من الغرب الحضارة بمعنى الثقافة والتراث، فللشرق الإسلامي حضارته المتكاملة المتفوقة على حضارتهم، وإن الدولة العثمانية في حاجة إلى العلوم الحديثة، وبالتدريج وليس دفعةً واحدةً"⁽¹⁾، وكانت أولى تلك الخطوات إيقاف العمل بالدستور وحل البرلمان في 13 فبراير شباط 1878م⁽²⁾، وكانت الخطوة الثانية أن عزل مدحت باشا عن الصدارة العظمى (رئاسة

(2) حجاج، الأكراد والأرمن، ص22

(3) وتلن، عبد الحميد، ص111، 178

- مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص242

(1) حجاج، الأكراد والأرمن، ص23

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص44، الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص25.

الوزراء)⁽³⁾ في 5 فبراير شباط 1877م وأمر بنفيه من البلاد⁽⁴⁾، وكان ذلك من صلاحيات السلطان التي أعطاه إياه الدستور، حسب المادة 113 من القانون الأساسي، يقول مدحت باشا في ذلك: "ولما بلغني سعيد باشا أحد رجال المابيين (الديوان السلطاني) خبر عربي، سألته عن سبب إبعادي، فتوجه إلى مولاه وعاد فقال لي: إن المادة 113 من القانون الأساسي (الدستور) تخول السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة (دائرة المخابرات) سوء حالهم إلى خارج البلاد العثمانية، وقد قدم عمر فوزي باشا ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان جرنالين وقع عليهما بخاتمه".

أما موقف السلطان عبد الحميد وتبريره لهذه الخطوات الجريئة الحاسمة، والتي تدل على إقدام وحزم وقوة شخصية، تظهر أنه لم يتخذها إلا بعد دراسة متأنية وعميقة لمجمل الأوضاع من حوله داخلياً وخارجياً، فيحسن التعرف على هذا الموقف عن كثب منه شخصياً، ومتابعة تفاصيله لتوضيح الصورة وجلاء الحقيقة من صانعي الأحداث أنفسهم.

(5)*

يقول السلطان عبد الحميد: "ولما كانت الأمة تزعم أنها وصلت إلى رشدها، فقد عينت على الفور مدحت باشا في منصب الصدارة العظمى، لأنه كان محل ثقة العموم"⁽⁶⁾ ويؤكد عبد الحميد أن مدحت باشا والمجلس العمومي المشكل معه لمناقشة مسألة الحرب في روسيا عام 1977م هم المسؤولون عن سبب تلك الحرب وعن خسارة الدولة العثمانية لها، بقوله: "ترأس مدحت باشا المجلس العمومي (الطارئ) الذي تشكل لبحث الحرب، وكان مدحت باشا محل ثقة كبيرة وحب بالغ من الشعب، وعلى هذا أكون غير مسؤول عن حرب 1877م/1294م، فلا هي مسؤوليتي

(3) مدحت باشا، المذكرات، ص30، سرهنك، حقائق الأخبار، ج1، ص729

(4) حجاج، الأكراد والأرمن، ص16-17

(5) مدحت باشا، المذكرات، ص30، وتلن، عبد الحميد، ص84-85

- حجاج، الأكراد والأرمن، ص16، الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص24

-KARA, OSMANLI TARİHİ cilt, 8, P. 1-14

- FAZİL, ULU HAKAN II. ABDUL HAMİD HAN, P.634

(6) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص70، وانظر: حجاج، الأكراد والأرمن، ص18.

الشخصية، ولا مسؤوليتي كسلطان"⁽¹⁾ ثم يذكر فشل مدحت باشا ونجاحه ويقول: "مدحت باشا هذا كان والياً جيداً، ولكن إرادته السياسية كانت خطأ، كان كثير الاختلاط بهؤلاء الذين كان السلطان والوزراء يرتابون فيهم، وكانت الاشاعات والأراجيف التي تشكك ليس في سلطان شرقي فحسب، بل وفي أكثر حكام الشرق دستورية، ثم تخرج من صم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره"⁽²⁾ ويشير عبد الحميد الثاني إلى خلفية مدحت باشا ودوره في خلع السلطان عبد العزيز، وأثر ذلك في اتخاذ لقرار تعيينه صدرأ أعظماً عنده، فيقول: "باشتراك مدحت باشا في عملية الخلع، انتقل بذلك من مصاف رجال الحكم إلى عداد الثوار، ولا يستطيع أي حاكم أن يثق في رجل اشترك في عملية خلع حاكم، حتى ولو كان الحاكم الجديد خصم حياة للحاكم القديم، لم يكن مدحت باشا هو الصدر الأعظم وقت توليتي العرش، عينته فوراً في الصدارة العظمى، لأنه محل واحترام الرأي العام، ولأن الموقف كان يحمل في طياته حساسية وخطراً غير عادي، وإني واثق أن لو كان مدحت باشا صدرأ أعظم حكيماً ومحكماً، لكان على الأقل قد استمر في الصدارة حتى ختام الحرب الروسية العثمانية عام 1977م، وجدته ينصب من نفسه، ومنذ اليوم الأول أمراً علي ووصياً، وكان في معاملته معي بعيداً عن المشروعية، وأقرب إلى الاستبداد، والذين يعرفون مدحت باشا عن قرب لا يكتفون عظم استبداده برأيه ومواقفه"⁽³⁾ ويكشف السلطان عبد الحميد الثاني النقاب عن جوانب أخرى لشخصية مدحت باشا، فيقول: أصدرت المرسوم السلطاني الخاص بالقانون الأساسي (الدستور) أثناء صدارة مدحت باشا الثانية، ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد (جماعة تركيا الفتاة) من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة، بل في أمور السكر والعريضة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه،

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص71

- SUREYYA, BİRKAC, SAHİFE TARİH, P.9

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص75

(3) السلطان عبد الحميد الثاني، المصدر السابق، ص75-76 وانظر:

- HASLIP, JOAN, THE SULTAN, THE LIFE OF ABDUL-HAMID II HOLT RINEHART AND WINSTON, 1958. P 157

ومشهور عنه هذا، والتقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الأساسي، وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين، حتى لا يقع على الأرض، وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر): يا باشا!! مَنْ يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلتُ إليه أن يُبعدني عن منصبي؟! مَنْ؟ قل لي: كم عاماً سأظل في الصدارة العظمى؟ رد عليه طوسون باشا قائلاً: إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع! قال له طوسون باشا هذا الكلام وهو يدفعه دفعاً إلى جناح الحريم، وقد أبلغت بهذا في نفس ليلة حدوثه.

أنا لا أعض من قيمة مدحت باشا، فلقد كان والياً فعالاً، لكن بقدر ما كانت مزاياه، كانت له عيوب، لم يكن يدرك بنفس إدراك صفوت باشا وأدهم باشا فيما يوجبه الوقت من أمور سياسية⁽¹⁾ وينوه السلطان عبد الحميد إلى أنه سعى لتخفيف حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة على مدحت باشا لاشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز، وذلك بقوله: "كانت مسألة استشهاد السلطان عبد العزيز في يد القضاء خطوةً بخطوة، ولم أتدخل في شيء سوى تخفيف قرار حكم الإعدام، وإذا كان موته غير طبيعي، فليس لي دخل فيه، في الحقيقة إنني كنت دائم التخوف من مدحت باشا، ولكن وقت صدور حكم المحكمة، رأيت أن إنساناً معروفاً بهذا القدر، يستوجب ألا ينفذ فيه حكم الإعدام، ثم ما الفائدة فيما لو قتلته؟؟ بكل تأكيد إنني لن أفيد شيئاً إذا وضعت عدوي في مصاف الشهداء⁽²⁾ ... لم يكن مدحت باشا قد درس أي قانون أساسي في أي دولة من الدول عندما اقترح عليّ إعلان القانون الأساسي، ولم يكن له في هذا الموضوع فكر متأصل، ... قال لي مرة الوزير خير الدين التونسي: ينبغي التفكير كثيراً قبل تسليح الأخلاص بالقانون"⁽³⁾ ثم يضيف مبيناً سبب إعلان القانون الأساسي بالقول: **لم أستطع الوقوف أمام تيار ذلك العهد، وقلت ما دامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها، فليكن ما تريده الأمة، واخترت من بين لوائح القوانين الأساسية لائحة مدحت باشا، وصدقت عليها بعد أن أدخلت عليها تعديلات جزئية، كنت مجبراً في البداية على تفضيل لائحة مدحت باشا على لوائح الآخرين، فقد كان من الضروري أن نقدم لشعب حريص، أفصح بأن اسم مدحت يساوي بحساب الجمل (دواء الأمة) أن نقدم له الدواء الذي طلبه، ولم أكن أستطيع إسكاته بصورة أخرى ... اعتقد مدحت باشا كثيراً في أن الأمة**

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص77-78

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع نفسه، ص78-79 ، ويقول هسلب: إذا أراد عبد الحميد قتل شخص ما بيديه فهو مدحت باشا، انظر:

- HASLIP, THE SULTAN, P. 157

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص80-81

تحبه حباً جمّاً، ولم ير داعياً لكتمان قوله بأنّي لو عزلته فستقوم في البلاد ثورة ضخمة، وأنه من الممكن خلعي أو حتى إعدامي، الذي حدث أن أحداً لم يفتح فمه عندما أبعدتُ مدحت باشا إلى أوروبا، بل وصل الأمر أن هنائي كثير من الوزراء ورجال الدولة لأنّي أبعدتُ الباشا، كما نظم الشعراء قصائد في مدحي، وهجوه بالقصائد التي نشروها في الصحف وفي الكتب، ومن بين هؤلاء: الغازي أحمد مختار باشا، الذي يعترف في مذكراته التي نشرها أخيراً بمغامرة له متفرعة من هذه المسألة، وذلك بعد مرور ما يقرب من الثلاثين عاماً من هذا الحادث⁽²⁾... مدحت باشا أيضاً مثل حسين عوني، اتبع سياسة مؤيدة للانكليز، وكان دائماً يفصح عن ثقته في الانكليز، أخطتُ بجو تتعدم فيه الثقة، ليس عندي دليل على اتهام مدحت باشا، ولكن واضح للعيان أن للانكليز يداً في عزل عمي السلطان عبد العزيز، وصدر دولتي يأتي في مقدمة من قاموا بهذا العمل، ومهما كانت النية حسنة، فإنه يعتمد على عدوها، كان من الجنون تسليم الملك ومسؤولية الحكم لإنسان يستند على عدو دولتي، ولا يملك إلا الخضوع له، وبدأت أتتبع حركاتهما بدقة (مدحت باشا وحسين عوني) لم يهزني شيء في حياتي هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش، أو إلى مقام الصدارة العظمى، ويقبل نقوداً من دولة أجنبية، إذا كان مدحت باشا عابراً نفس الطريق، فإن هذا يعني أن الدولة وقعت في الشرك"⁽¹⁾.

ويكشف السلطان عبد الحميد النقاب عن وصول الأمور إلى درجة لا تحتمل، وعن تمادي مدحت بها في تجاوزاته حدود صلاحياته، مما اضطره إلى عزل الصدر الأعظم مدحت بها ونفيه خارج البلاد وللتخلص من تأثيراته، يقول: كنت أعلم أن كمال باشا وضيا بك ورشدي باشا وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يعاقرون الخمر ويتحدثون، وذات مرة قال مدحت باشا: ليس في الأسرة المالكة العثمانية خير يرعى، ولم يبق إلا الاتجاه نحو الجمهورية... علمتُ هذا من أحد الذين حضروا ذه الجلسة، وأخيراً جاءت مذكرة من نظارة الداخلية تقول: إن أحد الذين يأكلون ويشربون في قصر مدحت باشا قال: أخذ مدحت الاستقلال، وبفضل هذا نجعل المراد مراداً (إعادة مراد الخامس إلى عرش السلطنة)، وكانوا قبل هذا قد نهضوا لتحرير أخي السلطان مراد من القصر وهو بملابس النساء، وظهر أن الذين تصدوا لهذا العمل الفاشل بعض الشخصيات الماسونية مثل مدحت باشا، انجلترا كانت دائية على تسيير الفتن عن طريق الماسونية، ولم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل، فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي، ومن ناحية أخرى يريد زج البلاد في أتون الحرب، وقد حاول سن بعض الأعمال التي لا يتصورها العقل مثل تعيين ولاية من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون، وقبول طلبية من الأورام (وهم نصاري) في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش العثماني المسلم، أعمال كهذه أرسل لي خطاباً أذكر منه - وكان خطاباً بعيداً

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 82-85، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 120-121

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 102

أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص 41

عن الأدب بمعنييه:- إن مقصدنا من إعلان القانون الأساسي أن ننهي استبداد السراي، ويجب على ذاتكم الشاهانية أن تعلم واجباتكم. فهمتُ جيداً أنني لو تركتُ كل أعمال وتفرغتُ لإصلاح أخطاء مدحت باشا فإني لا أستطيع النجاح. بناءً على هذا كله كان المللُ العثماني يهتز من أساس، كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الانكليز (وهو مدحت باشا) ويتعاون معهم، سواء بدافع من ماسونيته، أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به لم أعد أحتمل، فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي (الدستور) وعزلته عن الصدارة العظمى، وأبعدته خارج الحدود، وذهب إلى برنديزي⁽¹⁾ (في إيطاليا)، وعندما خرج من السراي عبر عن أنانيته البالغة بقوله: رحم الله هذه الأمة، يعني هذا أن مدحت باشا كان يتصور أن الملك مرهون بوجوده، وأن الدولة العثمانية العظيمة ستغرق بمجرد ذهابه، فهل علم بأنه لم يحدث شيء مما تصوره، لا الشعب ثار، بل ولم يحدث عنه، ولا أحد من أقرب الأقربين إليه رفع صوتاً، لكن الدول الخارجية -بالطبع- تأثرت بهذا، وحدث فيها رد فعل، فقامت الدنيا وقعدت في انكلترا، وكتبت الصحف هناك بأنه لا يمكن توقع شيء من إصلاح الدولة العثمانية بعد ذلك على الاطلاع، كنت أعرف أن هذا سيحدث، وكنت أتوقعه فمن الطبيعي -وقد تعاون مدحت باشا مع انكلترا وأيدها- أن تعاونه وتؤيده⁽²⁾ كان الانكليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تفرق الدولة العثمانية سريعاً، تماماً مثلما أعرف أنا، فهل تُرى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة؟ ... عندما يصل الأمر إلى إبعاد مدحت باشا - الذي يعتبرونه رجلهم- فإن الإصلاحات تكتسب فجأة أهمية خاصة، وكأنهم يقولون: إن إبعاد الرجل الأوحده الذي يستطيع النجاح في هذا العمل عن موقعه، يعتبر موتاً للدولة العثمانية ... إن السلطان يعني الضعف ولا يعني توقيع الجزاء، وبهذا أيضاً أمر ديننا، الواقع أن مدحت باشا لم يكن مخطئاً من قمة رأسه حتى أخمص قدمه، وإنما يرتكب الخطأ بين حين وآخر، صدرت عنه- وهو في المراكز العالية في الدولة- بعض الأعمال المحظورة، إلا أنه أمكن الاستفادة منه ومن خبرته، ولم أكن أتصور أنه عميل للانكليز، وإلا لما كنت استدعيته وأعينه والياً على سوريا، ثم أرسله بعد ذلك إلى أزمير، ... أعفو عن مدحت باشا لاشتراكه في قتل عمي السلطان عبد العزيز، ولكني لا أستطيع العفو عن وزير وصدر أعظم عثماني يتعاون مع دولة أجنبية، لا بد أن موقفه أثناء القبض عليه، ورغبته اللجوء إلى القنصلية الانجليزية جعله يفصح بوضوح عن يثوق به وعن يخدمه، ومع ذلك فإني تذكرتُ خدماته التي قدمها للدولة أثناء ما كان والياً، وخففت حكم الإعدام الصادر ضده إلى السجن.

يريدون أن يلقوا علي تبعية مسؤولية موته، فليلقوا، فغداً عندما نمثل أمام رب العالمين سيكون وجهي أبيض، وجبهتي ناصعة، وإذا كنت سأحاسب في هذه المسألة، فإن ربي قد يحاسبني لأنني عفوت عن صدر أعظم أهان دولته، وإنني راضٍ بجزاء الله في هذا

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص106-107، وتلن، عبد الحميد، ص84-85

- SUREYYA, BİRKAC SAHİFE TARİH, P.9

(2) السلطان عبد الحميد، المرجع السابق، ص108-109، أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص41

السبيل⁽¹⁾... مدحت باشا كان يفكر في تحيين فرصة من الفرص يُنهى فيها حكم آل عثمان، ويحل هو محلها، ما أعجب هذا!! مدحت باشا يقول ذات ليلة: ماذا يحدث لو حلَّ آل مدحت محل آل عثمان؟ وفي اليوم التالي يأتي إليّ نامق كمال بك ويخبرني بذلك⁽²⁾.

هذه هي رواية السلطان عبد الحميد، وهذا موقفه من قضية من أهم القضايا التي كانت مثار جدل كبير بين المؤرخين، والتي يروي فيها بنفسه معاناته وصداماته ومواقفه مع مدحت باشا ونجد في الطرف المقابل مدحت باشا يرد على اتهامات السلطان عبد الحميد الثاني له، ويعترف بما ينسبه إليه السلطان من أقوال، ويحاول التقليل من شأنها، ويعتبرها هفوات، خاصة ما أثير حوله أنه يسعى لأن يقيم جمهورية يكون هو رئيسها⁽³⁾.

لكنه يعتبر كثيراً من القضايا المثارة ضده مجرد مفتريات، كتسببية في الحرب مع روسيا وغيرها، يقول في ذلك: قالوا: "إن مدحت باشا قد حاول تحويل الحكومة من ملكية إلى جمهورية، وأراد الفتك بأعضاء البيت المالكي ليكون رئيساً للجمهورية، وكرروا الإشاعات التي قد أشاعوا قبل إبعاده إلى أوروبا، وأوقع الدولة في كوارث لا طاقة لها باحتمالها، ولم يتركوا في دوائر الحكومة سيئة أو خطأ إلا وقد ألصقوه بمدحت باشا"⁽⁴⁾ ويرد مدحت باشا أن ما افترى به عليه لم يكن إلا عملاً بإشارة الجواسيس (مخابرات السلطان) وأن السلطان عبد الحميد عزا مصائب الدولة التي لم يقدر على تلافيها إلى غيره، فما هذه الدناءة؟!⁽⁵⁾

يظهر من بعض مواقف مدحت باشا مما نسب إليه على لسان السلطان عبد الحميد، أن لديه علم بما يقال عنه، وأنه يحاول الرد على ذلك وتقنيده، وأياً كانت المساجلات والردود فقد كانت خطوة السلطان عبد الحميد تجاه مدحت باشا مصدرها الخوف الذي استولى على نفس عبد الحميد من مدحت، وينتسب هذا الخوف إلى اتجاهين، اتجاه على نفسه وعلى عرشه من احتمال قيام مدحت باشا ومن معه من مؤيدين بانقلاب على السلطان، وتغيير نظام الحكم الاسلامي الذي يمثل آل عثمان وشخص السلطان ذاته، إلى نظام جمهوري علماني، ينحى منحىً غريباً، يحظى بتأييد بريطانيا ومساندتها، التي تدعم مدحت باشا وتتسق معه، كما أشارت إلى ذلك أقوال السلطان عبد الحميد المذكورة آنفاً⁽⁶⁾، والاتجاه الثاني، خوف السلطان عبد الحميد على

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص109-112

- HASLIP, THE SULTAN. P. 157

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص113-114، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص120-121

(3) مدحت باشا، المذكرات، ص30، أحمد، أمين، زعماء الاصلاح، ص53

(4) مدحت باشا، المذكرات، ص64-65، أحمد أمين، زعماء الاصلاح ص52-53.

(5) مدحت باشا، المذكرات، ص64-65

(1) وكان مدحت باشا وجماعته من رجال تركيا الفتاة الماسونية قد دبوا مكيده لتصفية آل عثمان جميعاً وقلب نظام الحكم إلى النظام الجمهوري العلماني على النمط الغربي، لكن السلطان عبد الحميد قد نَمى إلى علمه خبر تلك الخطة الخطيرة فلم يحظر الوليمة المدبرة لتلك الغاية ونبه أفراد أسرته إليها ففشلت، وكان ذلك إثر اغتيالهم السلطان عبد العزيز، وتوليتهم السلطة مراد الخامس، انظر: عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص27
- كرد علي، المذكرات، ج2، ص623، السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص106

الدولة من الانهيار، من خلال سعي مدحت باشا إلى زعزعة استقرارها وتقويض أركانها، بتوريطها في مشاكل وأزمات هي بغنى عنها، كما حدث في مسألة الحرب مع روسيا عام 1877، حين وجه السلطان اللوم إلى مدحت باشا وحسين عوني قائد جيشه بتلاومهما أمامه في عدم تقدير إمكانات الجيش بعد اتخاذ قرار الحرب مع روسيا، مما أدى إلى انهزام الدولة، أمام الروس وفقدان أجزاء مهمة جداً من أراضيها من جراء هذه الحرب⁽²⁾، ويرى أديب أن السلطان عبد الحميد بعزله لمدحت باشا قد تخلص من ألد أعدائه، ويعني هذا إنهاء التاريخ السياسي لمدحت باشا، لكن نفي مدحت لم يمت أفكاره وتوجهاته السياسية، فقد بقيت شائعة ومنتشرة، كما أنها قويت فيما بعد عندما حملها شبان تركيا الفتاة الذين أنشأوا جمعية الاتحاد والترقي، وأخذوا يعملون سراً لقلب نظام عبد الحميد، تحت غطاء السعي لعودة الحياة البرلمانية، وقد نجحوا في الوصول لهذا الهدف، حين أجبروا عبد الحميد على إعادة العمل بالدستور (القانون الأساسي، أو: المشروطة) عام 1908م،⁽¹⁾ كان قرار عزل مدحت باشا، وتعطيل العمل بالقانون الأساسي (الدستور) قراراً عدة السلطان عبد الحميد الثاني صائباً⁽²⁾ فيما نظر إليه مؤرخون آخرون نظرة الاستهجان، وعدوه خطأ فادحاً وجريمة كبرى، أقاموا الدنيا عليه ولم يقعدوها، وشنت على السلطان عبد الحميد حملة مكثفة من الاتهامات والشتم والألفاظ والتعابير التي يمكن اعتبارها بحق سيلاً لا نهاية له⁽³⁾، نأتي على البعض منها للتأكيد على حقيقة ينبغي إثباتها وهي أن السلطان عبد الحميد قد ينطبق عليه القول القائل وبضدها تعرف الأشياء، بحيث أنه لو سار في ركب دعاة الإصلاح كما يطلق عليهم من أمثال مدحت باشا، وركب موحبتهم واستطاع أن يحرر بالدولة في ذلك البحر المتلاطم من المشاكل بمجاديهم، حتى ولو كان في ذلك إغراق لها في لجج التبعية للغرب، وفي متاهات التيارات الفكرية التغريبية، من خلال الانسحاق وراء تلك الدعاوى المراد منها الإصلاح ليس فقط الإداري والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، بل الأهم من ذلك الإصلاح السياسي، بتحديث النظام السياسي واستبدال نظمه وتشريعاته وقوانينه الإسلامية بأن تؤخذ وتستمد من القوانين الغربية كالقانون الانكليزي والفرنسي والسويسري والبلجيكي وغير ذلك، فلو أن السلطان عبد الحميد قبل بذلك، لانقلبت الصورة وصار بمنظور التيار القومي بشقيه العربي والتركي أبو الأحرار وعظيم السلاطين وخليفة الزمان، كما هي صورة الحال مع مصطفى كمال أتاتورك، الذي تحول عن النظام الاسلامي إلى التبعية الكاملة للغرب، فعملت الماسونية العالمية، مستخدمة وسائلها الدعائية كافة، وفي مقدمتها

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص102-105، وانظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص52-53

- HASLIP, THE SULTAN, P. 157

(1) - ADIVAR, HALide Edib, Memories of MALide Edib, New yORK ARNO press 1972, P.76

(2) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص107

(3) أوزتونا، يلماز، بلادنا جسر تعبر عليه الحضارة الإسلامية للغرب، مجلة الفيصل، عدد 196، نيسان 1993، ص60-61

وانظر: سلطان، تاريخ سورية (1908-1918) ص56-57 .

الصحافة، على إضفاء هالة من القداسة والتعظيم والتفخيم عليه لا شبيه لها، في
مقدمتها ما أطلق عليه أبو الأثرak كما سيأتي بيانه في الفصل الثامن من هذه الدراسة.



إذاً كان تعليق الدستور من السلطان عبد الحميد الثاني وعزل مدحت باشا سبباً للنقمة عليه وتشويه صورته من قبل التيار الذي سعى إلى إبعاد الدولة العثمانية عن المنهج الإسلامي من خلال العمل بالاصلاحات على الطريقة الغربية، ولا بد من الإشارة إلى أن السلطان عبد الحميد سلك طوال فترة حكمه (1876-1909م) في الدولة مسلكاً يثبت ويقدم الأدلة والشواهد العملية على سعيه لتحديثها وتطويرها والنهوض بها من كبوتها، مع إصراره على الحفاظ على الثوابت في تمسكه بالمنهج الإسلامي، بعد أن صارت بحكم الواقع منتهية ومنهارة مع نهاية حكم عمه السلطان عبد العزيز، فنهض بها تدريجياً⁽¹⁾، يمكن متابعة بعض انجازاته على طريق البناء والتطوير للدولة لاحقاً في هذا الفصل.

أما عن المواقف العدائية والتشهير بالسلطان عبد الحميد فنجدها كثيرة، مع استعمال كافة الألفاظ التي تطفح بالحق وتفيض بالتحامل من ذلك قول ماري باتريك: "ولما كان خُلُق السلطان عبد الحميد لا يتغير، فقد ثابر على سياسته طوال سنين حكمه، وأخلاقه مزيج من الخداع والدسائس والشدة"⁽²⁾، ويقول لبيب عنه: تقنن في استنباط وسائل الاستبداد القاسم، وعمي عن كل شيء، إلا عن المحافظة على حياته، ولو ماتت بسبب توهم الخطر عليها الألوفا من رعاياه البقاء، فلقد بدأ سلسلة سيئاته بإلغاء الدستور الذي رتب قواعده أبو الحرية العثمانية المأسوف عليه مدحت باشا (1822-1884م)، ثم جعل مقاليد الأمور جميعها في يد جماعة من حاشية السراي، ممن أشر بواجب السياسة الرجعية ومهروا في تطبيقها على نحو يعود بالبلاد القهقري بسرعة عظيمة، ... ولقد جمع ضائعه ومن اصطفاهم للقيام بأعمال الإدارة وشؤون الحكم القناطر المقنطرة من الأموال، وغنموا المغانم العظيمة من وراء خوف السلطان وهله من القتل عذراً، وكان له من الجواسيس جيش جرار كان على ما يقال يصرف عليه ألف ألف من الجنيهاً سنوياً... فامتألت السجون بالناس من سائر الأرجاء، واتخمت بطون الأسماك في قعر البوسفور بلحوم الأبرياء ... وكان الناس متساوون كأسنان المشط أمام تعسف عبد الحميد وظلمه، فلم يرحم مسلماً، ولم يرث لحال نصراني، فكان حكم المابين من شر ما ابتلي به العثمانيون من العذاب، ومن أقطع ما ورد على البشر من صنوف التجبر والإرهاب⁽³⁾ ويقول زيادة دام حكم عبد الحميد ثلث قرن كان حكماً قاسياً ظالماً عرفت فيه الامبراطورية العثمانية التأخر والظلم⁽⁴⁾ أما القلججي فيقول في معرض حديثه عن شباب العثمانيين الجدد، وما يروى عن استبداد عبد الحميد: "كان الشبان الناهضون يتحدثون عن أوروبا وتقدمها، وعن الشكوى من ظلم الحكومة واستبداد السلطان عبد الحميد، وسرد حكايات عن إنحراف

(1) ميكوش، مصطفى كمال، ص12-14، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص، 242، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص21-22.
(2) باتريك، ماري ملز، سلاطين بني عثمان الخمسة، عربيه عن الإنجليزية: حنا غصن وكامل مسيحه، دارصادر، بيروت، 1933م، ص88.

(1) لبيب، المسألة الشرقية، ص85-86.

(2) زيادة، نقولا، أبعاد الثورة العربية الكبرى، نشر: وزارة الشباب، طبعة ثانية، عمان، 1995م، ص38-39.

الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح"⁽³⁾ ويظهر التجني على السلطان عبد الحميد والتعامل عليه بوضوح بكشف هوية كاتب المقال الذي نشر في مجلة العربي بعنوان عبد الحميد طاغية وليس خليفة، حيث يشكك في نسب عبد الحميد لوالده، ويصوره كأنه ولد لقيط، ثم يرسم صورة له كأنه نشأ في شبابه وعنده انفصام شخصية وعقده حقد يحقد بها على من حوله، ثم يبرزه كأنه عميل لبريطانيا، ولا يعرف حقيقة كيف توصل إلى هذا الاستنتاج⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من كل الافتراءات التي تصدر عن أقلام الكتاب المعاصرين، إلا أنه لم يرد عن هؤلاء ما يطعن في نسبه، ويلفق عليه كذباً بأنه عميل لبريطانيا، أو ذو عقد نفسية، انعكست على طبيعة علاقاته بالآخرين بعد تعيينه سلطاناً للدولة العثمانية يقول عنه: "ألغى السلطان عبد الحميد الدستور، وسار سيرة استبدادية، وساءت حالة الحكم بسبب ذلك، وتعرض الناس للظلم والعنت والحرمان، وساد الفساد، ولم يكن مع الدين، وإنما استغل قوماً ينتحلون لأنفسهم صفة رجال الدين لا لتقيم حكم الشريعة، وإنما ليهدم حكم الشعب، ولقد أقصى مدحت باشا بطل الدستور لا لأنه يريد أن يحكم بالشريعة، وإنما يريد أن يستبد، ولأن أخته السلطانة جميلة تلقت عشرين ألف ليرة من السفير الروسي ثمناً لرأس مدحت باشا"⁽¹⁾.

أما البستاني (كان وزيراً للزراعة في عهد السلطان عبد الحميد) فيطلق على عبد الحميد كافة الألفاظ التي يرى فيها الانتقاص منه، فيسميه جباراً الاستبداد، ويشبهه بنبيرون الذي أحرق روما⁽²⁾، وقد وصلت الاتهامات والتشنيعات على السلطان عبد الحميد الثاني أن أعداءه لقبوه بـ السلطان الأحمر، أو الحيوان الأحمر، ويشير هو بنفسه إلى هذا الاتهام بقوله: أحضر لي مرافقي أول أمس كتاباً صغيراً باللغة الفرنسية عنوانه: (إلى ذكرى بيير كيار) وهو كتيب يحتوي على هجاء ومديح، والممدوح هو بيير كيار، والمهجو هو أنا ... شيء غريب كان بيير كيار، هو الذي أطلق علي لقب: (الحيوان الأحمر)، كنت أعرف الكلمة، ولكني كنت أجهل قائلها، بقدر ما أحمل من أوسمة أجنبية، بقدر ما سميت بأسماء أطلقت علي من هذه البلاد الأجنبية، لست غير محق أن أفخر بهذا، لقد عرفت من هذا الكتاب سبب تسميتي بالحيوان الأحمر، الذي عرفني بهذا خطب حماسية لخطيبين أرمنيين اسمهما: (أهارونيان) و(جوبانيان)⁽³⁾، ثم يفند اتهامهم له بالسلطان الأحمر، ويرد على هذا الاتهام، مبيناً أنه تعامل بالشفقة

(3) القلعي، الثورة العربية، ص 84-85

(4) حسين، عبد الله أحمد، السلطان عبد الحميد طاغية وليس خليفة، مجلة العربي، العدد 178، أيلول 1973م، ص 52-58.

وانظر أيضاً: عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 240-241

سلطان، علي، تاريخ سورية (1908-1918م) نشر: دار طلاس، ط2، دمشق 1996م، ص 56-57.

- KARAL, OSMANLI TARİHİ, cİLT, 8. P. 245-268

(1) حسين، عبد الحميد طاغية، مجلة العربي، العدد 178، أيلول 1973م، ص 54-55

(2) البستاني، عبرة وذكرى، ص 120-122، ص 145

(3) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 120-121

- SUREYYA, BİRKAC SAHİFE TARİH, P. 81

والرحمة⁽⁴⁾ مع الأرمن، ولم تكن مرحمته كلها مانعاً دون التجني عليه وإطلاق تلك الألقاب تلك هي بعض المواقف والصور من الحملات التشهيرية التي تعرض لها السلطان عبد الحميد الثاني، وهي في حقيقتها ليست إلا القليل من الكثير، وهي غيض من فيض من ألفاظ التهكم والتهجم⁽⁵⁾، جعلت رامزور يقول عنها: "على أثر المذابح الأرمنية - والتي ضخمت بالدعاية اليهودية والماسونية⁽¹⁾ - سرعان ما أصبح صيت عبد الحميد في الخارج يختلف تماماً عن صيته عند بداية حكمه، فقد تكهرب الرأي العام في انكلترا وأمريكا، خاصة ضد الأتراك، واستخدمت ضد السلطان أذى ما يمكن من النوع⁽²⁾" ويرى الباحث أن السلطان عبد الحميد بكل تأكيد كان قد وقع في أخطاء في معالجته لكثير من المشاكل، وفي تصديه لخصومه ومناوئيه، استغلت تلك الأخطاء وضخمت، وكانت تربة صالحة لتثبت فيها الإتهامات والافتراءات ضده، ولعل من أهم المآخذ على شخص السلطان عبد الحميد، أنه كان شديد المتابعة لقضايا الدولة في كل صغيرة وكبيرة، بحيث أصبحت إدارته مركزية للغاية تكاد تشكل إرادة الحكومة والوزراء أحياناً، وتجعلهم يتضايقون من أسلوبه في الإدارة، والحكم، ويرجع سبب ذلك إلى زيادة حرصه على الأمة وعلى الدولة، وخشيته من التسبب واللامبالاة التي قد تقع في أجهزة الحكم، كما هو الحال في كثير من الدول، إلى هذه الجوانب تشير وتلين بقولها: "كان عبد الحميد بطبيعته، فكان يتلذذ بالعمل، وكانت ذاكرته العجيبة لا تنسى شيئاً مما يعرض عليه"⁽³⁾ وتقول: "لقد اختار عبد الحميد أن يؤدي واجبه، فلم يأنف من الجلوس مع الضباط والموظفين العظام على طاولة واحدة، الأمر الذي لم يفعله سلطان تركي قبل الآن، وكان يذهب بنفسه لزيارة دواوين الحكومة وتكنات الجنود، فقد كانت به رغبة شديدة في معرفة كل شيء عما يجري في ملكه الواسع ... كان يعير شكايات شعبه الاهتمام اللازم، ويصغي بلطف إلى زائريه وهم يتلون على مسامعه مطالبهم المختلفة، وقد يعد بإرسال لجان للتحقيق ودراسة المطالب، ولكن على مهل"⁽¹⁾ وقد أثر

(4) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 121-123

(5) عرف من هؤلاء الذين هاجروا بالعداء للسلطان عبد الحميد، واستعملوا أسوأ الألفاظ عند حديثهم عنه، ولي الدين يكن، ولد 1833م في استانبول، من أصول ألبانية، هو ابن حسن سري باشا، جده إبراهيم باشا يكن ابن أخت محمد علي باشا حاكم مصر مطلع القرن التاسع عشر، أنشأ جريدة الاستقامة في مصر، صب فيها حقده على السلطان عبد الحميد كان من أبرز رجال الحركة الماسونية في مصر، ومن أبرز رجال تركيا الفتاة، عينه السلطان عبد الحميد في إدارة = الجمارك، ثم نقد إلى نظارة المعارف، وأهم الشرط بينه في استانبول فوجدوا عنده أوراقاً خطيرة لأعضاء تركيا الفتاة، بعضها كتبه بخط يده، حبس ثم نفي إلى سويسوا سنة 1902م، توفي سنة 1921م، يقول عن السلطان عبد الحميد أنه سبب البلاء الأكبر، قرن بين الظلم والفساد والرجعية، ويقول عنه أيضاً: إنه السلطان الأحمر، ذابح الأرمن، وناحر الحرية في الأستانة، إنه الرجل المريض. انظر: يكن، ولي الدين، الصحائف السود، تحقيق: جبران مسعود، نشر: دار الحكمة، طبعة ثانية، بيروت، 1970م، ص 11-23.

وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص 217-218، طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج3، ص 42

آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص 464

(1) سرحان، النظام العثماني، ص 22-23

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص 46

(3) وتلن، عبد الحميد، ص 117

(1) وتلن، المرجع السابق، ص 74-77

شدة حرصه على الاهتمام بتفاصيل الأمور في إدارة الدولة، فجعل له هاجساً وقلقاً دائماً جعله يتوجس ويخاف على الدولة وعلى مواطنيه من أن يكون لديه تقصير في حقهم، بالإضافة إلى أن كثرة الأعداء المحيطين به في الداخل والخارج، ودأبهم المستمر على إثارة المتاعب والفتن والمشاكل في دولته، أوجد في نفسه عقدة الوهم بحيث يحسب حساباً دقيقاً لكل شاردة وواردة، ويخاف خوفاً دائماً من كل ما قد يعتقد أنه يشكل خطراً شخصياً، فكان يتخذ كثيراً من الإجراءات الوقائية والاحترازية حتى لا يتعرض للقتل والاعتقال، وإلى ذلك تشير ابنته عائشة في مذكراتها عنه، وهي تنقل رأي أحمد رشيد بك، الذي عمل أربع عشرة سنة في أمانة المايين (ديوان السلطان)، ثم وزيراً للداخلية، الذي دون شفوياً، على الرغم من علة الوهم التي سيطرت عليه، إلا أنه كان ساكناً واثقاً من نفسه، متواضعاً بفطرته، وهي خصال كانت من فضائله لا يعرفها الكثيرون، بل وأنكروها عليه⁽²⁾، ويؤكد ذلك ويؤيده الملك عبد الله بن الشريف الحسين علي مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية، وكان قد عاصر السلطان عبد الحميد، بل وعاشه عن قرب، وحظي هو ووالده وإخوانه بإكرام السلطان عبد الحميد، لهذا فهو يتكلم عن السلطان بما يعرفه عنه عن قرب من خلال الخبرة والمعرفة يقول: "ولقد زعم الناس أن عبد الحميد الثاني كان ظالماً، لقد كذب الناس!! والله لم يكن بالظالم، ولكنه الحذر والاحتياط، ولقد عرف بعد أن ذهب، إنه لم يقتل أحداً، ولم ينفذ حكم الإعدام في محكوم إلا مرة واحدة، وكان المجرمون يتركون في السجون حتى يدركهم الموت، وأما الذين ينفون من بلادهم إلى استانبول، أو من استانبول إلى الخارج فهم أولئك الذين عرضت عليهم أنهم أهل خلاف عليه، أو على سلطانه، فيخرجهم إلى مكان لا يعرفون فيه، فيقي دولته بذلك التدبير الفتن"⁽¹⁾ ويستطيع المرء إن جمع بين هذا الموقف المحايد والمنصف في الوقت ذاته، وبين مجموعة الآراء التي أبداها السلطان عبد الحميد بنفسه حول الاتهامات الموجهة له، والتي نذكرها في هذا السياق أيضاً، أن يرى بنفسه أن الاتهامات التي يقدمها خصوم عبد الحميد وأعداؤه، أنها محض افتراءات، ومجرد أقاويل وأكاذيب اختلقها هؤلاء بقصد تشويه سمعته، والوصول لأغراض معينة نذكرها بعد قليل، ويذكر السلطان عبد الحميد عن نفسه أنه مع كل خدماته لدولته وشعبه وأمتة قد وقع في التقصر، ويعترف بذلك ويقول: "سارعت لنجدة ضحايا هذه الكوارث التي جرتها تلك الحرب (الحرب الأخيرة مع روسيا عام 1977م)، لقد بذلت كل ما في وسعي لإيجاد المأوى وسبل الإعاشة ووسائل التخفيف عن هؤلاء المهاجرين إخواننا في الدين، قدمْتُ من جيبي الخاص تقرباً وزلفى إلى الله، لعباده الذين جعلهم أمانة في عنقي، لم يفارق ذهني منظر امتداد

وانظر: فمبيري، السلطان عبد الحميد الثاني، المقتطف مج 14، ج11، آب 189م، 722-724
(2) عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص39-40، وانظر:- فمبيري، السلطان عبد الحميد الثاني، المقتطف، مج14، ج11، آب 1890م، ص722-723
- كوثراني، مختارات سياسية، ص141
- الزين، الثورة العربية، ص51
(1) عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص29-30، كرد علي، المذكرات، ج2، ص623

أيدي الجائعين من أفراد الشعب إلى لقيمات تدخل معدتهم، كانت نفقات عباد الله ووقودهم وأدويتهم لا تفارق تفكيري أبداً، وأنا لا أذكر هذه الأمور في معرض الدفاع عن نفسي، لأن الذين حلوا محلي دافعوا عني كثيراً، بما فعلوه، حتى إني كنت أشكرهم كثيراً على هذا، لو لم يظهر شبح النكسة التي أنزلوها بديني وبدولتي، لا أجد من حقي أن أفخر بالخدمات المتواضعة التي عدتها، لأنها كانت واجبي، واليوم أنظر في ندم وفي أسى، وإذا عشتُ فسأعترف بقلمتي وبالتفصيل بأنه كانت لي عدة جوانب تقصير"⁽²⁾، وقد ذكر سعيد رزق حجاج أموراً رأى أنها من أسباب الحملات العنيفة في التشهير بالسلطان عبد الحميد الثاني، نوجزها بما يلي:

1- كان الغرض الأول منها: هو الدفاع عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، بعد أن نجحوا في خلع السلطان عبد الحميد عن الحكم 1909م.

2- الغرض الثاني: هو تغطية فشلهم الذريع في حكم الدولة سواء في الداخل أو الخارج لإقناع الرأي العام بأن حكمهم لم يكن أسوأ من حكم عبد الحميد، إذ من الثابت تاريخياً أن رجال الاتحاد والترقي حين استأثروا بالنفوذ وانفروا بالحكم انقلبوا حكماً طغاة مستبدين من الطراز الأول، أطلق عليهم بعض المؤرخين: رجال الطغيان العسكري.

3- الغرض الثالث: من حملات التشهير بالسلطان عبد الحميد عند البعض كان إبراز صورة وضيفة ناصعة البياض لعهد مصطفى كمال أتاتورك (والد الأتراك)، ومشايعته إذا قررن حكمه بحكم السلاطين العثمانيين بعامه والسلطان عبد الحميد بخاصة، إذ كان أقربهم إلى أذهان الجماهير التركية لقرب عهدهم به.

4- الغرض الرابع: رغبة القائمين على الحركة الصهيونية في تدمير سيرته وتشويه سمعته، انتقاماً منه، لسياسته المعادية لأهدافهم التوسعية في فلسطين⁽¹⁾.

هذا هو السلطان عبد الحميد الثاني نقدمه للتاريخ بأخطائه وحسناته، وبما وصف به من مزايا ايجابية، وكذلك من نقائص وعيوب، ومن خلال ما تم ذكره من مواقفه الكثيرة ومن أقواله، بعد حديثه عن نفسه ودفاعه عنها، وحديث أعدائه وخصومه وتشهيرهم به واقترائهم عليه، تسهم في إيضاح كثير من المسائل التي هي مثار جدل، ومحط تساؤل عن هذا الخليفة المتميز في التاريخ الاسلامي والعثماني، رجل المواقف الشجاعة في الظروف بالغة الصعوبة التي واجهها حتى النهاية بشجاعة وصلابة وحزم شهد التاريخ له فيها، تختتم بما قاله عنه المستشرق الألماني واجوبرت فون ميكوش، قال: "كان فارساً مغواراً، يتقلد سيف جده عثمان، ويلقب مصلح الامبراطورية التركية"⁽²⁾.

4- السلطان عبد الحميد الثاني والعرب في بلاد الشام.

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 72-3

(1) حجاج، الأكراد والأرمن، ص 20-22

(2) ميكوش، مصطفى كمال، ص 11

سلك السلطان عبد الحميد الثاني مسلكاً في إدارة دولة الخلافة العثمانية يدل على حصافةٍ سياسية وإدارية، تبع فيه نهج أجداده السلاطين العظام في الإحسان إلى العرب والتقرب منهم، ولم يكن ذلك سياسةً ومدارةً ظاهرية دون قناعة وعمل، وإنما كان عن التزام بالاسلام، جعلهم يحرصون كل الحرص على التودد للعرب وإكرامهم وإشراكهم في وظائف الدولة العليا والدنيا، وقد أبدى عبد الحميد عناية خاصة ببلاد الشام⁽¹⁾، وأولاهم الرعاية والاهتمام، لأنه ينظر إلى العرب بأنهم حملة رسالة الاسلام الأولى، ثم يسعى إلى أن يتشرف بحمل لقب خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين عملاً وتطبيقاً، وكانت بلاد الشام وقت اعتلائه عرش السلطنة تتألف من عدة ولايات هي ولاية حلب، وبيروت، وسورية، ومنتصرفية القدس، ومنتصرفية جبل لبنان⁽²⁾، وكانت هذه البلاد أيضاً عند بدء حكم السلطان عبد الحميد لها، تنتشر في أرجائها المدارس التبشيرية والجمعيات السياسية السرية والعلنية، التي تعمل على بذر بذور الشقاق والنزاع والفرقة بين العثمانيين والعرب، ولهذا اتبع أسلوباً متوازناً يقوم على التحبيب والترغيب للعرب من جهة، ومتابعة الجمعيات والمنظمات السرية ذات النزعة القومية، التي يلاحظ عليها سعيها لأهداف مشبوهة مرتبطة بالأعداء ومدفوعة منهم، والعمل على تحجيمها وتفكيكها والتخلص من ضررها وإيذاؤها للدولة⁽³⁾، ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، وكانت تلك الجمعيات تتخذ الصحافة وسيلة لبث الفرقة بين العرب والعثمانيين، ويقوم على تلك الجمعيات النصارى الذين يشعرون بدفع علاقة السلطان عبد الحميد ودولته بالعرب المسلمين السنة في بلاد الشام، فكانوا يعملون على تغذية روح الانفصال والاستقلال بين سكان هذه البلاد تحقيقاً واستجابةً لرغبتهم ولما في نفوسهم من مشاعر كامنة تتطلع للانفصال عن العثمانيين، والارتباط بين دينهم من الدول الأوروبية خاصة فرنسا وبريطانيا، المرتبطان بمصالح حيوية في هذه المنطقة⁽⁴⁾، لهذا نجد نصارى الشام يفرحون بإعلان الدستور عام 1876م، لأنه يمكنهم من إظهار تطلعاتهم والتعبير عن مواقفهم عن طريق الصحافة وغيرها من وسائل التعبير⁽⁵⁾ وكان هؤلاء النصارى قد اتخذوا من مصر ملجأً لهم ومركزاً لممارسة نشاطاتهم المعادية لدولة الخلافة العثمانية، وقد كانت مصر طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد تحت الانتداب الانكليزي، فجعلها الانكليز مركزاً للمعارضين للسلطان عبد الحميد من عثمانيين وعرب من رجال تركيا الفتاة، ومن أعضاء التنظيمات والجمعيات السرية العربية اللاجئين إليها من بلاد الشام، بعد تضيق السلطان عبد الحميد الخناق عليهم، بسبب إثارة النعرات القومية العصبية، وتشهيرهم به، وولائهم للحكومات الاستعمارية الانكليزية والفرنسية⁽⁶⁾، وكانت أغلبية هؤلاء الفارين إلى

(1) فيضي، المذكرات، ص85، حجاج، الأكراد والأرمن، ص23
(2) مكاريوس، جسر اللثام، ص25، عوض، بحث في تاريخ العرب، ص87
(3) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص59
(4) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص63
(5) الحكيم، بيروت ولبنان، ص35، توتل، وثائق تاريخية، ص98
(6) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص6، بيهم، الحلقة المفقودة، ص217-219

مصر من بلاد الشام من أبناء الجالية النصرانية في لبنان، "وقد شكل المسيحيون السوريون في مصر مجتمعاً قائماً بذاته، وكانوا يتعاملون مع السلطات البريطانية، وقد استفادوا مادياً، ومدحهم اللورد كرومر، وبلغت ثروتهم"⁽²⁾، حسب رواية كرد علي، في مصر قبل 1908م خمسين مليون جنيه، أي عُشر ثروة مصر⁽³⁾، وشعر المصريون بمنافسة هؤلاء السوريين، وكانت جريدة اللواء المصرية تتهمهم بالخيانة⁽⁴⁾، وكانت جريدة المقطم وجريدة المقتطف مواليتان للإنكليز، ويمتلكهما لبنانيان من أعضاء الحركة الماسونية، وتنتشران كل ما يثير العداء بين العرب والعثمانيين، وتهاجمان السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية، كما تهاجمان الخديوي عباس⁽⁵⁾ الذي كان في تلك المرحلة يحاول التعاطف مع الخلافة والسلطان، ويسعى لمجاملة السلطان عبد الحميد واسترضائه، بعدما رأى ترامي دعاة التيار القومي في أحضان الإنكليز، ورأى دعم اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر لأعضاء حزب تركيا الفتاة من الاتحاديين، وللتيار المعادي للسلطان عبد الحميد من أبناء الشام الهاربين إلى مصر⁽⁶⁾.

ونظراً لإدراك السلطان عبد الحميد أهمية بلاد الشام بالنسبة لدولته، وفهمه لحساسية الموقف مع سكان هذه البلاد، فقد اجتهد اجتهداً كاملاً لتقريبهم منه، ويقطع الطريق على الجهات التي تحرضهم وتثيرهم للخروج على الدولة العثمانية، وكان يعمل بعقل منفتح وخطة مدروسة لتقريب العرب إليه، واستنهاض حميتهم الإسلامية للتمسك بأهداب الخلافة، والحفاظ على هيبتها لمواجهة الأعداء بها، ولدى تتبع الخطوات التي اتبعها في هذا المجال، نجد ما يلي:

تقريبه العرب من أبناء بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية: حيث أدخل العرب ضمن نطاق دائرته الخاصة، وجعلهم من خواصه.

أ- من ذلك تعيينه أحمد عزت باشا العابد⁽¹⁾، الشامي الدمشقي سكرتيراً خاصاً به:

كسكرتير ثاني في المابين (ديوان السلطان)⁽²⁾، وتسمى وتلن وظيفة العمدة عزت العابد بأنه أمين

محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص108، محمود كامل، الإسلام والعروبة، ص128-137

كرد علي، المذكرات، ج1، ص251، ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص85

(2) سلطان، تاريخ سورية 1908-1918م) ص60

(3) كرد علي، المذكرات، ج1، ص47-48

(4) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص60

(5) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص109-111، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص166-68

(6) كرومر، اللوردافلين، عباس الثاني، ترجمة عن الإنكليزية: فؤاد صروف، مطبعة التوفيق، مصر، دبت، ص54، 57، 82-88.

(1) هو أحمد عزت باشا، ابن محي الدين أبي الهول، المسمى هولو باشا، ابن عمر بن عبد القادر العابد، من أهل دمشق، ينتسب إلى قبيلة الموالي العربية، وهي أسرة ذات وجهة وسابقة في خدمة الدولة العثمانية، نادر الذكاء، واسع الحيلة، أوصله إلى السلطان عبد الحميد الثاني أحد كبار مقربيه، ويعد من مشهوري الساسة في الفترة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، ولد بدمشق عام 1272هـ/1855م) وتعلم فيها وفي بيروت، وأتقن اللغتين الفرنسية والتركية، وعين مفتشاً للعدلية في سورية، وكان في بداية حياته محسوباً على التيار المناهض للدولة العثمانية، كما يسمونهم "الإصلاحيون" وأصدر جريدة أسبوعية باللغتين العربية والعثمانية، سماها: دمشق، ثم سافر إلى الأستانة، فتقرب من السلطان عبد الحميد الثاني، حتى أصبح السكرتير الثاني في المابين (ديوان السلطان) والمستشار الأقرب، وكان

خزائن ثياب السلطان⁽³⁾، وحقيقة منصبه أنه كان كاتباً ثانياً في المابين (ديوان السلطان)، وخادم السلطان الأمين حوالي ثلاث عشرة سنة، وكان يتقن الفرنسية والتركية، وقد ساهم في تجهيز الشام والحجاز بالكهرباء وخطوط الحديد والقطارات، وتحسين العلاقات العربية العثمانية⁽¹⁾، ويبدو أن وظيفة العمدة عزت العابد اكتسبت طابعاً رسمياً إدارياً بحتاً، ولم يؤثر له أدوار نشطة في حركة الجامعة الإسلامية من الناحية الفكرية والدعوية، لكن برز نشاطه في المسائل التنفيذية المشار إليها آنفاً، قال عنه كرد علي: "خدم عزت العابد مولاه أيضاً في المسائل العربية، وكان ملماً بها ... وأن حب قوميته كان ماثلاً فيه كل المثل"⁽²⁾ وكان من أهم أدواره، مشاركته الفاعلة في تنفيذ سكة حديد الحجاز، حيث أسندت إدارة هذا المشروع الحيوي إليه، وكان هذا المشروع من مقترحاته على السلطان عبد الحميد، ليكون وسيلة من وسائل الخليفة في تحبيب المسلمين بدولة الخلافة والتفافهم حول رايته⁽³⁾.

ب- تعيين أبي الهدى الصيادي مستشاراً شخصياً له:

ومن الأشخاص البارزين الذين كان لهم شهرة واسعة، وتناولتهم الأقلام المسمومة بالتجريم والتنويه، الشخصية العربية المشهورة بعلاقاتها المميزة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وذلك هو أبو الهدى الصيادي، الذي عينه السلطان عبد الحميد الثاني مستشاراً له، وقربه منه، وأنزله منزلاً حسناً، يتودد إليه ويستشيريه، ويأتي الحديث عنه وعن سيرته وأدواره في العلاقات العربية العثمانية، وعن نشاطاته في حركة الجامعة الإسلامية في سياق الاتجاهات العربية ودورها في العلاقات العربية العثمانية من خلال حركة الجامعة

بدهائه عوناً للسلطان عبد الحميد على انتهاز سياسة خاصة تجاه الدول الأوروبية، هدفها الحيلولة دون اتفاق تلك الدول ضد الدولة العثمانية، عُذ العابد من أشد أنصار الجامعة الإسلامية، ورأها من منظار السلطان عبد الحميد، ونجح في جعلها جسراً متيناً للحفاظ على العلاقات العربية العثمانية، غادر استانبول بعد انقلاب الاتحاديين على السلطان عبد الحميد عام 1909م، إلى لندن، ثم تنقل بينها وبين سويسرا وفرنسا، حتى استقر في مصر، وتوفي فيها سنة 1343هـ/1924م، ثم نقلت جثته إلى دمشق. انظر: الزركلي، الأعلام، ج1، ص169-170، كرد علي، المذكرات، ج1، ص247-250

طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص215

(2) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص179

فيضي، المذكرات، ص50-51، مجهول، ثورة العرب، ص23

المحامي، الدولة العلية، ص745، منسي، حركة البيضة، ص66

الأفغاني، سعيد، سبب خلع عبد الحميد، مجلة العربي، ع169، كانون أول 1972م، ص151.

(3) وتلن، عبد الحميد، ص178

(1) كرد علي، المذكرات، ج1، ص247-250، ص266-268

(2) كرد علي، المرجع السابق، ج1، ص248-249

(3) جريدة المؤيد المصرية، ع5359، الأحد (1) ذي الحجة 1325هـ، (5) يناير كانون ثاني، 1908م ص5، شريط ميكروفيلم رقم (1212)، قاعة الميكروفيلم، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

الإسلامية، فمن هذا الفصل بعد الحديث عن علاقات السلطان عبد الحميد بالعرب، فلينظر هناك.

كان أبو الهدى الصيادي أحد الشخصيات الكثيرة التي اصطفاها السلطان عبد الحميد الثاني ضمن علاقاته بالعرب، للتأكيد على أهمية تلك العلاقات، الرصيد الأكبر لدولة الخلافة في بقائها متماسكة قوية عصيةً على الانفراط والتشردم، وقد عرف من تلك الشخصيات العربية إضافة لأحمد عزت العابد سكرتير الخليفة، وأي الهدى متشاوره، كل من شفيق بك المؤيد المفوض في ديوان العمومية، وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة (الشرطة) وعرب حقي باشا، وسليم بك ملحمة، ونجيب بك ملحمة، وقد بلغوا كلهم رتبة الوزارة، وكلهم من بلاد الشام، إضافة إلى كثير من العرب في كافة المواقع الرفيعة في الدولة، العسكرية والمدنية، وقد اشتهر أيضاً في المجال العسكري من عرب بلاد الشام المشير شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أركان أساتذة المدارس العسكرية والحكومية وهما لبنانيان من قرية المتن، وكان شكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظراً للأعمال العسكرية⁽¹⁾ والدكتور يوسف رامي من قرية فالوفا في لبنان أمير لواء، والدكتور إلياس مصر من بيروت، أستاذاً للتشريح في الكلية الطبية في استانبول، والأستاذ سليم باز من دير القمر بلبنان أستاذاً في كلية الحقوق، وغيرهم كثير، إضافة إلى ذلك، فقد اتخذ السلطان عبد الحميد من العرب حرساً خاصاً به أنزلهم حول قصره وألبسهم عمام خضر⁽²⁾ ويذكر أوكي أدوار أحمد عزت باشا العابد الدمشقي الأصل، التي ظهرت أهميتها في دفع القضايا العربية إلى دائرة الضوء، وإلى المقدمة من حيث الاهتمام بها من قبل الخلافة العثمانية والسلطان عبد الحميد شخصياً، يقول: استخدم عبد الحميد العرب لخدمته الخاصة في القصر، ولتنظيم وتوجيه سياسة عالمية الاسلام، وأحد أولئك الأشخاص كان عزت باشا العابد، الذي وصفه هرتزل بأنه وغد شرير بسبب اتجاهاته العدائية للخطة الصهيونية، وهو

(1) المحامي، الدولة العلمية، ص745، بيهم فلسفة الدولة العثمانية، ص179 خليل، تاريخ الوطن العربي، ص367 مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص178

أوكي، السلطان عبد الحميد، ص62-63، ستودارد، حاضر العالم الاسلامي، ج4، ص85

(2) المحامي، الدولة العلمية، ص745-746، وانظر:

بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص179-180، منسي، حركة اليقظة، ص66 محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص114-115، عوض، بحوث في تاريخ العرب.

المسؤول أساساً عن بناء خط سكة حديد الحجاز الواصل بين دمشق، والمدينة المنورة⁽³⁾ ويشير مانتران إلى أن الضباط العرب في الجيش العثماني بلغ عددهم في سنة 1886م حوالي 3200 ضابطاً في قطعات الجيش المختلفة⁽⁴⁾، وكمظهر من مظاهر اهتمام السلطان عبد الحميد بالعرب وإعطائهم الأولوية في الرعاية والخطوة، أنشأ مدرسة في استانبول سنة 1892م لتعليم أبناء الزعماء العرب ووجهاء القبائل، وتربيتهم تربية إسلامية، وغرس الولاء للدولة العثمانية ولمؤسسة الخلافة في نفوسهم⁽¹⁾ كما فتح أبواب معاهد الأستانة أمام جميع الطلبة من أبناء العرب، وجعل تلك المعاهد ترسخ مفهوم "العثمانية" في عقولهم ونفوسهم، كي يذيب النزعة العرقية العصبية، ويستبدلها بالنزعة الإسلامية الخالصة⁽²⁾، ومع أن السلطان عبد الحميد قرب إليه العرب، لكنه لم يهمل أبناء القوميات الأخرى من عامة المسلمين المنضوين تحت لواء الخلافة العثمانية، فجمع حوله أبناء الأعراق المسلمة من غير العرب أيضاً للتأكيد على إسلامية الدولة أمثال الألبان والأكراد وغيرهم⁽³⁾ ومن الانجازات التي حققها السلطان عبد الحميد في عهده لخدمة المسلمين عامة، ولتوثيق العلاقات مع البلاد العربية خاصة، ولا سيما أبناء بلاد الشام، تنفيذه لمشروع خط سكة حديد الحجاز، ووصلها بسكة حديد بغداد، وقد عمل من خلال هذا المشروع على تحقيق أغراض عدة كلها تحقق النفع العام للدولة العثمانية وتعزز من سلطتها في البلاد العربية، وتعود بالخبر على أبناء هذه البلاد وعلى الدولة نفسها من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، فهذا المشروع يسهل الحج على حجاج بيت الله الحرام، من حيث تقصير مدة الرحلة، ويسير على كل مستطيع أداء فريضة الحج، مما يزيد في تقوية الروابط والعلاقات الأخوية بين أبناء العالم الإسلامي، ويعطي انطباعاً بالرضى

(3) أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 62-63

(4) مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص 178، عوض، بحوث في تاريخ العرب، ص 90، خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 367-368

(1) حسون، الدولة العثمانية، ص 205، مانتران، الدولة العثمانية، ج2، ص 17

خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 368، المحامي، الدولة العلية، ص 746

بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص 180

(2) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص 180، عوض، بحوث في تاريخ العرب، ص 75

(3) المحامي، الدولة العلية، ص 746

عن العثمانيين، فيحسن من صورتهم عند باقي المسلمين، ويقوى العلاقات بين العثمانيين المسلمين وبين سائر المسلمين من أبناء البلاد الاسلامية، ومنها البلاد العربية بما فيها بلاد الشام، كما يؤمن الخط الحديدي الحجازي سرعة نقل القوات العسكرية بين أجزاء الدولة العثمانية للدفاع عن أراضيها وحدودها، وتقع حركات التمرد التي تقع ضمن تلك الأراضي، علاوةً على تأمين هذا المشروع الحيوي الخدمات التجارية وتبادل البضائع وتنشيط الاقتصاد بجوانبه المختلفة زراعياً وصناعياً وتجارياً ضمن المنطقة الممتدة على طول خط سيره في كل من الأناضول وبلاد الشام حتى يصل إلى الحجاز، وإضافةً إلى كل ما سبق فإن الخط الحديدي الحجازي يوفر للدولة العثمانية فرصة توطيد الأمن وبسط سيادتها وسلطتها على كافة البلاد التي يمر بأراضيها الخط الحديدي خاصة بلاد الشام ومنطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، مما يتيح لها المجال لكي تستثمره استراتيجياً في القضاء على دسائس الانكليز ومؤامراتهم التي ما فتأت تحرك الفتى داخل أراضي شبه الجزيرة العربية بين الدويلات القائمة فيها، وتثير النعرات العصبية والعرقية والطائفية بين سكان بلاد الشام، وتحرضهم على دولة الخلافة⁽¹⁾.

ويشار في هذا السياق إلى أن السلطان عبد الحميد دعا المسلمين في كافة أنحاء العالم الاسلامي للتبرع الطوعي للمساهمة في بناء هذا المشروع الحيوي، إضافةً للخطة التي وضعها السلطان لاقتطاع نسبة من رواتب الموظفين العثمانيين وبعض الايرادات الاستثنائية الأخرى⁽²⁾ توظف كلها من أجل سرعة انجازه لتحقيق الأهداف التي توخاها منه الخليفة، فكان مشروع الخط الحديدي الحجازي وسيلةً لجني تلك الثمار والفوائد المهمة للغاية بالنسبة للدولة العثمانية، ووسيلة لضمان الاستمرار في علاقاتها مع بلاد الشام وسائر البلاد العربية التي يخدمها هذا الخط، بشكل متوازن وودي وطيب يحفظ لأبناء البلاد مصالحهم، ويؤمن للدولة العثمانية الأمن والاستقرار

(1) برو، العرب والترك، صص48-49، ستودارد، حاضر العالم الاسلامي، ج4، ص85
سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص62، عوض، بحوث في تاريخ العرب، ص94
بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص180، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص272-274
مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص178
(2) كوتلوف، حركة التحرر الوطني، ص46-47، وتلن، عبد الحميد، ص178

والسيادة على هذه المنطقة، ويبقى عنها خطر الأعداء ومفاسدهم. وكانت الدولة العثمانية قد شرعت في مد سكة الحديد الحجازية في سنة 1900م/1318هـ، ابتداءً من قرية المزيريب في منطقة حوران جنوبي دمشق، لأن بين دمشق والمزيريب سكة حديد للفرنسيين، أخذوا امتيازها سنة 1893م/1311هـ، وباشروا باستثمارها سنة 1894م/1312هـ، ولم يكن السلطان عبد الحميد قد فكر في هذا المشروع الحيوي بعد، وكان من شروط امتيازها أن لا ينشأ خط مواز لها إلى درعا، لذلك استقر الرأي على الاستفادة من هذه السكة لنقل الحجاج من دمشق إلى المزيريب، ومن هناك يتمون رحلتهم إلى الحجاز على الخط الجديد، لهذا حرص السلطان عبد الحميد على وصل المزيريب بدمشق، فاحتجت الشركة الفرنسية على ذلك لمخالفته شروط امتيازها، الأمر الذي جعله يعود للاتفاق مع الفرنسيين من جديد، ومنحهم امتياز إنشاء خط من دمشق إلى حلب عام 1905م/1323هـ⁽¹⁾.

وفي هذا السياق فإن السلطان عبد الحميد الثاني قد استكمل مشروعاته الإصلاحية في بلاد الشام في مجالات الطرق والمواصلات والاتصالات، وتمد ذلك وسائل مهمة لتمتين العلاقات العربية العثمانية، كي يستطيع مقاومة الغرب النصراني، أو على الأقل استطاع منع أي انشقاق يحدث بين العرب والترك، وهذا ما يفسر فعلاً تأخر قيام العرب ضد الترك حتى سقوطه عام 1909م⁽²⁾ ومن الأمثلة على إصلاحاته في ولاية سورية، أنه أنشأ طريق حمص طرابلس وطريق دمشق حوران عام 1306هـ/1888م، وطريق حماة اللاذقية عام 1309هـ/1891م، ومنح امتيازات لإنشاء خطوط سكك الحديد بين كل من يافا والقدس عام 1306هـ/1888م، بيروت دمشق عام 1309هـ/1891م، أما خطوط البرق فقد توسعت بشكل كبير في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، وبلغت مراكز البريد والهاتف في بلاد الشام عام 1318هـ/1900م، 25 مركزاً للبريد، و18 مركزاً للهاتف، وأقيمت المدارس مثل

(1) كرد علي، خطط الشام، ج5، ص189، مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص178
برو، العرب والترك، ص48-49، حسون، الدولة العثمانية، ص206، 272، لبيب، المسألة الشرقية، ص88
- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, cild. 5.P. 374-375
(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص61-62، وانظر: الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص22

مكتب الصنائع والظاهرية، وأسست دوائر العدلية⁽³⁾ وعن إنجازات عبد الحميد في عصره في الميادين المختلفة، ولا سيما الميدان العلمي والثقافي يقول المستشرق الألماني ميكوش "شجع النهضة الفكرية، وانضم العدو الكبير من صغار الضباط الأتراك للمدارس الحربية الأوروبية، وكانت البلاد تستورد العدد الكبير من خيرة الأساتذة، وكانت غلطة سراي اكسفورد تركيا مركزاً للثقافة الأوروبية الحديثة"⁽¹⁾.

ونجد السلطان عبد الحميد نفسه يتكلم عن ادخال خطوط الاتصال التلفوني في أرجاء الدولة العثمانية بما فيها بلاد الشام يقول: "بمجرد ارتقائي العرش، أدخلت التلغراف في كل أرجاء الدولة، ولم يكن التلغراف في ذلك الوقت قد دخل حتى بعض الدول الأوروبية، أقيم خط تلغراف بلغ 30 ألف كم امتد حتى القرى تحت إشرافي الدقيق"⁽²⁾ **ويعلق طلاس** على مد شبكة الاتصالات تلك التي ذكرها السلطان عبد الحميد بقوله: "ومن مظاهر سياسة عبد الحميد الداخلية ربط جميع الولايات العربية بالخطوة السلكية، ومنها بالأخص خط الأستانة - المدينة المنورة- بواسطة دمشق، وقد نفذ خط المكالمة الهاتفية بين العاصمة والحجاز منذ أوائل سنة 1901م، بينما كانت تزهي عاصمة ولاية الشام بأبنية إدارية جديدة لم تعهد مثلها في الماضي، كالمستشفى الوطني والسرايا الكبرى، وتجديد بناء الجامع الأموي، وكانت هذه المشاريع العمرانية وما رافقها من مد خطوط الكهرباء والمياه من عين الفيحة (نبع ماء بضواحي دمشق يوفر لها مياه الشرب العذبة) ومن توسيع شبكة المصارف المالية وتشجيع للتجارة، تهدف كلها إلى استمالة الرأي العام المحلي غير العائلي بالأفكار الإصلاحية، ذات الأبعاد السياسية الخفية"⁽³⁾ ويلاحظ القارئ لهذا التعليق أن تلك الإصلاحات النابعة عن نية خالصة في كسب محبة رعاياه من سكان بلاد الشام، في حين يفسرها هذا المؤلف بأنها ذات أبعاد سياسية خفية، ويحملها على محمل آخر يقصده السلطان عبد الحميد، إذ أنه أوضح حسن نيته من تلك الانجازات كما ذكرنا في الاقتباس المأخوذ من مذكراته.

ويشير أحمد قدري، وهو من مؤسسي جمعية العربية الفتاة عام 1909، ومن المعاصرين للسلطان عبد الحميد، إلى نجاح السلطان عبد الحميد في إطفاء النعرة العصبية القومية لدى الطرفين العربي والعثماني في طول فترة حكمه، فيقول: "إن العلاقات بين العرب والترك كانت تسير في جو هادئ لا تعكرها نعة جنسية، أو

(3) حسون، الدولة العثمانية، ص206، وعن إنجازات عبد الحميد الثاني وجهوده في تحديث الدولة وتطويرها وخطواته في إحداث نهضة شاملة فيها انظر: وتلن، عبد الحميد، ص115-116 فمبيري، السلطان عبد الحميد، ص726

(1) ميكوش، مصطفى كمال، ص37-38 وانظر:

- TOYNBEE, THE MODERN WORLD TURKEY, P. 292

مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ص5-6

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص165، ولانجازات السلطان عبد الحميد العلمية، وإنشائه المعاهد والجامعات والكليات، انظر: المذكرات، ص162-164

(3) طلاس، الثورة العربية، ص57

نزعة عنصرية، وتجلت هذه العلاقات واضحة، وعلى صورة أقوى وأوثق من ذي قبل، إذ حرص هذا الخليفة في سياسته على خطب ود العرب واستدنائهم منه وتعزيز صلاته بهم، فكان السيد المطاع والرئيس المرموق⁽¹⁾ أما خالد العظم، الذي كان أبوه فوزي العظم من الشخصيات الدمشقية المنتخبة في مجلس المبعوثان العثماني في فترة السلطان عبد الحميد، فيعتبر في مذكراته أن ما حدث من هزات وتحولات في المنطقة، بعد الانقلاب الطوراني الماسوني على السلطان عبد الحميد عام 1909م، إنما كان بسبب الهزة العنيفة التي قصمت ظهر الخلافة الإسلامية القائمة على متانة العلاقات العربية العثمانية، وأحدثت الشرخ الكبير في تلك العلاقات، ثم القطيعة والعداء بين إخوة العقيدة حماة الخلافة من عرب وعثمانيين، يقول خالد العظم: "وأجزم أن هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بداية الهزات التي استمرت منذ 1908م، ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الأدنى، فلا تكاد تمضي سنة دون أن يحدث في جزء من هذا الشرق ما يبعث الارتجاج في المجموع، ففي عام 1909م خلع السلطان عبد الحميد، وتولى الاتحاديون الحكم، وفي 1911م استولت إيطاليا على طرابلس الغرب، وفي 1912م نشبت حرب البلقان، وفي 1914م انفجرت الحرب العالمية الكبرى، ودامت حتى آخر عام 1918م وفي 1920م تغلب جيش الجنرال غورو الفرنسي ودخل دمشق، ولم تهدأ سورية خمسة وعشرين عاماً قضتها تحت الانتداب الفرنسي..."⁽²⁾ ويصف كرد علي متانة العلاقات العربية العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بقوله: "كان السلطان عبد الحميد يصطنع العرب وغيرهم من العناصر ليقوى بهم على الترك، وهؤلاء كانوا يبغضونه وما زالوا به حتى خلعه"⁽³⁾ ثم يتعرض كرد علي لميزات حكم عبد الحميد لبلاد الشام، وطبيعة العلاقات بين العثمانيين والشاميين في ظل حكمه، ويقول: في أيام عبد الحميد خفت وطأة الأشقياء، واستراحت الشام قليلاً، وأخذت تدخل في نظام الأمم الأوروبية، وأبطل عبد الحميد الحكم بالقتل، فكان القاتل يخلد في سجنه⁽²⁾ ويضيف كامل الغربي، وهو معاصر للسلطان عبد الحميد، إلى ما قاله كرد علي بأن العلاقات العربية العثمانية في تلك الفترة يسودها الود والتفاهم والاستقرار، وأن الطبقة الدنيا والوسطى من الرعية كانت تحب عبد الحميد وتخافه، وكان مهتماً بشؤون الدين كخدمة شعائره وإعمار المعابد، فقد عمر في أيامه ما يعسر على القلم إحصاؤه من المدارس والجوامع والمدارس الدينية والزوايا والتكايا وأضرحة الأولياء والصالحين⁽³⁾.

فهذه شهادات المعاصرين لعبد الحميد، يؤكدون على أن العلاقات العربية العثمانية أيام حكمه مرت في أفضل مراحلها من المتانة والقوة، وكان كلا الطرفين لا

(1) قدر، أحمد، المذكرات، نشر: وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1993م، ص 5.

(2) العظم، المذكرات، ج1، ص 5

(1) كرد علي، المذكرات، ج1، ص 249

(2) كرد علي، خطط الشام، ج3، ص 126

(3) الغربي، نهر الذهب، ج1، ص 490

يأبون جهداً في التمسك بها، تميزها الرابطة الاسلامية على ما سواها المراحل، وقد استمرت تلك الرابطة شعاراً يسود التعامل بين العثمانيين والعرب طوال فترة حكم عبد الحميد الثاني إلى أن جاء الاتحاديون الطورانيون، فأفسدوا تلك العلاقات، وقبلوها إلى العكس تماماً، ووضعوها في أسوأ مراحلها، وهي مرحلة العداء والانفكاك، بعد أن كانت أنقى وأمتن علاقات بين عنصرين مكونين لدولة عظمى هي دولة بني عثمان.

5- موقف السلطان عبد الحميد من فلسطين ومن مطامع اليهود فيها.

كانت فلسطين ولايةً من ولايات بلاد الشام طوال الفترة التي كانت فيها هذه البلاد تحت السيادة العثمانية، إذ كانت الشام تتألف من أربعة أقسام إدارية هي ولاية حلب وولاية دمشق وولاية صيدا أو بيروت، والرابعة ولاية القدس الشريف، وكان لكل ولاية والمستقل⁽⁴⁾.

وقد أدرك السلطان عبد الحميد الثاني منذ بداية عهده 1876م، ما تعاني منه الدولة العثمانية من أخطار داهمة نتيجة الأطماع الأوروبية في أراضيها واشتداد هجمة الأوروبيين لاقتسامها، لكونها دولة اسلامية، فإنها نقطة ينصب عليها تيار أوروبا العدواني، وتقف في وجهها ثماني عشرة دولة مسيحية إضافةً لأمريكا، وإن الدولة العثمانية لو كانت مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة، ولكن المغايرة الدينية⁽¹⁾، جعل أوروبا تسعى إلى تلاشي الدين الاسلامي، فهذا سبب التحامل وهذا السعي للقضاء على الدولة العثمانية، لأجل هذا توجه السلطان عبد الحميد بعدما ظهر له اشتداد الهجمة على دولته، إلى كسب العرب والمسلمين وضمان مناصرتهم له، وقد نجحت سياسته هذه نجاحاً كبيراً - على الرغم من أنها لم تقتل الحركة القومية العربية، لكنها قللت من حدتها، وأوصلتها إلى حد عدم الفاعلية في عهده⁽²⁾، وقد كان لقضية فلسطين حيز واضح ضمن توجهات عبد الحميد العربية والاسلامية، وكانت سياسته تقضي بالحفاظ على ما تبقى من ولايات في حوزة الامبراطورية العثمانية، خاصة بعدما شعر بكثافة الحملات الصهيونية للوصول إلى فلسطين منذ بدء النصف الثاني للقرن التاسع عشر وكان الخليفة عبد الحميد الثاني يعرف أعدائه اليهود جيداً، لأنه كان ملتزماً بالإسلام، ويعرف هؤلاء الأعداء من خلال آيات القرآن التي أسهبت في تبيان أخلاق اليهود وتباعهم، ولم يكن يخاف منهم، ويدرك أنه في وقوفه أمام مخططاتهم يعرض نفسه للخطر، لكنه لا يبالي بذلك، وقد كانوا وراء محاولة الأرمن اغتياله، عندما كان ذاهباً إلى صلاة الجمعة، وكان يشبه نفسه بجرة الفخار المليئة بالماء، فإذا كسرت هذه الجرة تبعثر الماء الذي فيها، فالدولة الماء وهو المحافظ عليها⁽³⁾، ففي عام 1853م صرح الحاكم العام السابق لجنوب

(4) مكاربوس، جسر اللثام، ص25، الننتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص166

(1) عبد الله النديم، السلافة، ج2، ص68

(2) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص63

(3) - AYVERDi, TURK, TARiHiNDE OSMANLi OSiRLARi, cild, 3. P. 71

استراليا، وهو من المتعاطفين مع اليهود، بقوله: "لا بد ليد بعد بريطانيا أن تمتد لتعيد خلق سوريا عن طريق الشعب الوحيد الجدير بهذه الهالة، ذلك الشعب الذي يمكن استغلال طاقته الدائمة والفعالة عن طريق الآباء الحقيقيين لهذه الأرض أبناء إسرائيل"⁽¹⁾ وكانت أمريكا تشارك الدول الأوروبية في التآمر على الدولة العثمانية، وهي حينذاك دولة فتية ناشئة، ومع ذلك كان النفوذ الصهيوني فيها قوياً، تأسست فيها جمعية استكشاف فلسطين الأميريكية⁽²⁾ ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة لدور كل من بريطانيا وأمريكا في إثارة الفتن الداخلية في الدولة العثمانية، وإيجاد المتاعب لها، وتحريك كل منهما الفتن الأرمنية عام 1890م حين كانت انكلترا ترسل إليها الذخائر والأسلحة وتحرضهم على التمرد والعصيان، كما يشير القس سايروس هملن في جريدة نصير الاستقلال الكنسي بتاريخ 23 كانون أول 1893م إلى أن المرسلين الأمريكيين كانوا يشاركون في إثارة الفتن الأرمنية لضعاف الدولة العثمانية، حتى يتيسر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعاقب الحكومة العثمانية عقاباً عاجلاً⁽³⁾، وهكذا سارت الدول الأوروبية في هذا الاتجاه، سعياً منها إلى اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية نظراً لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية، وكانت بلاد الشام من تلك الممتلكات، وتحقق لها ذلك بانهاء الحرب العالمية الأولى عن طريق معاهدة سايكس بيكو، وكانت فلسطين جوهره الشام ودرتها مثار النزاع والتنافس بين تلك الدول، والتي لعبت الصهيونية دوراً مهماً في تسيير سياساتها، والتأثير على مراكز الثقل فيها، باستمالة قادتها وصناع القرار للتعاطف مع الصهيونية واليهود ومنحهم فلسطين لتكون المكان الذي يطمحون لإقامة دولتهم فيها، وكان اليهود قد بدأوا باتباع كافة الأساليب والوسائل التي تساعد في تكيف الهجرة إلى فلسطين، وفي المقابل استطاع السلطان عبد الحميد الوقوف في وجه تلك الهجرة، وسارت الدول الغربية في هذه الفترة نحو تشجيع الجهود المبذولة لزيادة عدد المهاجرين، من ذلك اهتمام القنصلية البريطانية التي افتتحت في القدس عام 1838م بتقديم الحماية لليهود، وعدت ذلك عملاً رئيساً لها، ووقف السلاطين العثمانيون الذين سبقوا عبد الحميد الثاني في السلطنة موقفاً لا يختلف كثيراً عن موقفه من هذه القضية، لكن في عهده ازداد الحذر والمتابعة منه، لما لهذه القضية من الأهمية الكبيرة، نظراً لازدياد نشاط اليهود في التوجه نحو فلسطين من جهة، وازدياد واهتمام الدول الغربية بدعم ذلك من جهة ثانية، إضافةً لدعم بريطانيا وأمريكا لتحركات اليهود، عملت ألمانيا أيضاً، وبدفع من التأثير اليهودي داخل المؤسسة الحاكمة فيها على دعم هجرة اليهود إلى فلسطين بدءاً من عام 1860م، واستمر ذلك بشكل متتابع إلى ما انتهاء خلافة عبد الحميد الثاني وإسقاطه عام 1909م، وسلكت فرنسا المسلك نفسه في مساندة اليهود⁽⁴⁾، وأورد أحسان ثريا وثائق

(1) التنشئة السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص 91، 95.

(2) التنشئة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص 91

(3) التنشئة، المرجع السابق، ص 95

(4) التنشئة، المرجع نفسه، ص 96، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 221-225

من أرشيف الخارجية الفرنسية تبين دعم فرنسا لليهود، ونشرت بعض هذه الوثائق في جريدة ترجمان الحقيقة التركية بتاريخ 5/ آذار 1908م⁽²⁾.

أما دولة الخلافة العثمانية ممثلة بالخليفة عبد الحميد الثاني فقد استشعرت المسؤولية تجاه فلسطين، وتابعت عن كثب تطورات هذه القضية، وأيقن الخليفة نفسه أنه سيخسر بقعة من أغلى بقاع الدولة العثمانية إذا تساهل في التصدي لليهود، ثم يخسر بعدها ولاء العرب المسلمين وتأييدهم له إن لم يقف إلى جانبهم في وقوفهم ضد الهجمة اليهودية الشرسة لابتلاع فلسطين وإقامة كيان يهودي، وعرب بلاد الشام والعالم العربي والإسلامي من ورائهم، بحيث تأخذ هذه القضية بعدها الكامل⁽³⁾، ولهذا فقد اتخذ خطوات عدة للوقوف في وجه المشاريع الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، ففي عام 1883م أصدر السلطان عبد الحميد قراراً يمنع بموجبه الهجرة اليهودية الروسية، بعدما رأى تكثف تلك الهجرة إلى فلسطين، ومرت خمس سنوات قبل أن تتحقق الحكومة العثمانية من أن هناك خطراً ينجم عن استيطان اليهود الأجانب بأعداد كبيرة داخل إقليمها (فلسطين) وكان القرار السلطاني الصادر عام 1883م قد أبلغ إلى البعثات الدبلوماسية الغربية في استانبول بمنع الهجرة اليهودية الروسية إلى فلسطين، وسمح فقط بزيارة لمدة شهر، على أن يخرج الزائرون اليهود من فلسطين بعد ذلك، وأن يدفع كل يهودي يصل إلى فلسطين مبلغ 50 ليرة عثمانية كتعهد بأن يغادر فلسطين بعد انقضاء مدة الزيارة⁽¹⁾ ومن أجل تلك الإجراءات صعدت الدوائر الصهيونية المتنفذة في الدول الغربية حملتها على حكومات تلك الدول للتدخل، فأخذت هذه الحكومات تضغط ضغطاً شديداً من أجل زيادة لمدة، فوافقت الحكومة العثمانية على تمديد مدة الزيارات إلى ثلاثة أشهر⁽²⁾. وكخطوة أخرى من السلطان عبد الحميد لمواجهة الخطر اليهودي على فلسطين، اتخذ قراراً بتعديل وضع القدس الإداري وتحويلها من التبعية لوالي دمشق كصنّجقية، إلى متصرفية تتبع الباب العالي العثماني مباشرة، وذلك عام 1887م، وذلك لإحكام مراقبة السلطات العثمانية للهجرة اليهودية إلى فلسطين⁽³⁾، وخطوة ثالثة أصدر السلطان عبد الحميد فرماناً عام 1892م، يقضي بحرمة بيع أية أراضي من فلسطين إلى اليهود من كل الجنسيات، حتى لو كانوا رعايا

(2) - SURYYA, BIRKAG SAHiFE TARiH, P. 27-28

(3) أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 68-69

- الننتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص 102-103

(1) الننتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص 103-167

- النعيمي، أحمد نوري، اليهود والدولة العثمانية، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1997م، ص 64-65.

- SUREYYA, BIRKAC SAHiFE TARiH, p.81

(2) ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 29-30، منسي، حركة اليقظة، ص 82-83

(3) الننتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص 167، ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص 30

عثمانيين⁽⁴⁾ - وفي عام 1901م صدر قراراً آخر يمنع دخول أي يهودي إلى فلسطين إلا إذا كان سيغادرها خلال ثلاثة أشهر، ولم ينفذ هذا القرار بسبب تدخل السفير البريطاني في العاصمة العثمانية، وكان عرب فلسطين يتقدمون إلى الخليفة عبد الحميد بعرائض وشكاوي ضد الموظفين العثمانيين الذين يتواطئون أحياناً مع قناصل الدول الأجنبية بشدة، مما كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى عزلهم عن وظائفهم وإبعادهم⁽⁵⁾ ولما عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام 1897م بقيادة زعيم الحركة الصهيونية آنذاك ثيودور هرتزل، اتخذ قرارات بشأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وعمد إلى اتخاذ خطوات عملية في سبيل تنفيذ هذه القرارات للوصول إلى فلسطين، ومن تلك الخطوات محاولة مقابلة السلطان عبد الحميد الثاني لإقناعه بفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والسماح لهم بإقامة مستوطنات للإقامة فيها، وبعد جهود واتصالات كثيرة جداً استمرت حتى عام 1901م تمكن هرتزل من مقابلة السلطان عبد الحميد بواسطة رجل المال اليهودي عمانويل قراصو، وحاخام استانبول ليفي موشيه والمحامي السالونكي نيولنسكي، وكان السلطان عبد الحميد يهدف من خلال موافقته على استقبال هرتزل إلى معرفة حقيقة الخطط اليهودية، ومعرفة قوة اليهود العالمية ومدى قدرتها، وإنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود⁽¹⁾، ولذلك سمح لهرتزل بالدخول عليه ليصل إلى تلك الأمور، ومع إبدائه لهذه المرونة الشكلية تجاه اليهود، وموافقته على مقابلاته زعيمهم، لكنه كان مثال الصلابة والثبات على المبدأ ورفض الإبتزاز والترفع على المغريات ووسائل الترغيب، ولذلك لما فشل اليهود في تركيبه، ونيل ما يريدون منه، عملوا على تشويهه، وأصبح في نظرهم ونظر الغرب المؤيد لهم "ماكراً جداً خبيثاً جداً لا يثق بأحد"⁽²⁾، وتحدث هرتزل مطولاً عن الوضع الاقتصادي للسلطنة العثمانية وديونها وتدهور أحوالها العامة، وتكلم عن إمكانيات الحركة الصهيونية العالمية، وفق عرض مفصل لإعادة بناء الوضع المالي والاقتصادي للسلطنة، ومشروع خاص لتصفية الديون المترتبة على السلطنة للدول الأجنبية، المالي والاقتصادي للسلطنة، ومشروع خاص لتصفية الديون المترتبة على السلطنة للدول الأجنبية، وقال هرتزل للسلطان: إذا أعطينا جلالة السلطان فلسطين، فيمكننا أن نؤمن لك تنظيم المالية التركية تماماً، وسنشكل بالنسبة لأوروبا هناك قطعة من سور ضد آسيا، وسنكون الحارس الأمامي للحضارة من البربرية، وسنبقى كدولة محايدة على صلات مستمرة مع أوروبا كلها، وهي تلتزم بضمان كياننا⁽³⁾ وكان

(4) الننتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص175، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص80-81، 270-271

ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص30

(5) الننتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص177

(1) مجلة المجتمع الكويتية، ع 960، السنة (21)، آذار 1990م، ص46، السلطان عبد الحميد والفكر الإسلامي.

(2) المرجع السابق، ص46

(3) HASLIP, THE SULTAN, THE LIVE OF ABDUL HAMID II, P. 247

وانظر: سرحان، النظام العثماني، ص32، صايغ، أنيس، يوميات هرتزل، ترجمة: هدا شيان.

صانع، نشر: المؤسسة العربية للدراسات، طبعة ثانية، بيروت، 1973م، ص17-172 .

هرتزل قد طلب من السلطان عبد الحميد الموافقة على إنشاء جامعة عبرية في القدس تضفي عليها الدولة العثمانية صفة شرعية، تكون موطئ قدم صهيونية في فلسطين، وتكون دعاية علمية للدولة اليهودية المرتقبة في فلسطين، وقدم هرتزل مبرراته للسلطان عبد الحميد لإنشاء هذه الجامعة، وحصرها بأمرين قدمهما بصيغة الإغراء، أولهما: حتى لا يذهب الطلبة العثمانيون إلى جامعات أوروبا، فيكون ذلك سبباً لانحرافهم وابتعادهم عن التقاليد الإسلامية، واقتنائهم بالفكر الغربي، مما سيء إلى سمعة دولتهم العثمانية المسلمة، وثانيهما: أن يكون للطلبة العثمانيين جامعة في بلادهم فلسطين، حتى لا يذهبوا إلى بلاد الغرب، ويعتقدوا أفكاراً ثورية، ويتأثروا بأفكار الغرب عن أنظمة الحكم، فيعودون إلى بلادهم، ويسعون لتطبيقها في غدارة الدولة العثمانية، وهذا يجلب المتاعب لهذه الدولة، وقد أدرك السلطان عبد الحميد بما عرف عنه من ذكاء وفراصة الأهداف الحقيقية التي يرمي إليها اليهود من هذا العرض، فرفض الطلب، وفوت على هرتزل خطته الشيطانية الهادفة للسماح لليهود بالنفوذ إلى فلسطين عن طريق هذه الفكرة⁽¹⁾ وكان رد السلطان عبد الحميد على عروض هرتزل السخية وإغراءاته مفعماً بالكبرياء والعزة والثقة الإيمانية، ومتوجاً بالحمية الإسلامية فقال للوسيط، نيولنسكي: انصحوا هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملاينهم إذا مزقت امبراطوريتي، فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولاً في جثتنا، وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة⁽²⁾.

وقد جاء هذا النص في الهالة التي بعث بها السلطان عبد الحميد من منفاه في سلانيك إلى شيخه في دمشق شيخ الطريقة الشاذلية محمود أبو الشامات المدفون في زاويته في حي القنوات بدمشق، ويعتبر نص هذه الهالة الوثيقة شاهداً دامغاً يشهد به التاريخ على مدار السنين والقرون على رفض السلطان خليفة المسلمين عبد الحميد الثاني بيع فلسطين وثوراها الطهور لبني يهود، وفيها يؤكد السلطان عبد الحميد على أنه لم يترك الخلافة إلا بسبب مضايقة رؤساء جمعية الاتحاد والترقي (جون تورك) وتهديدهم له، وأن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصرروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم (150) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية

-صفوة، نجدة فتحي (مؤرخ، عضو مركز الدراسات العربية بلندن)، موقف تركيا من قضية فلسطين، مجلة المستقبل العربي، ع45، 1982م، ص87.

-حَبَّكَّة، عبد الرحمن بن حسن الميداني، مكائد يهودية عبر التاريخ، نشر: دار القلم، الطبعة الثانية، دمشق، 1978م، ص272-274.

(1) ليلي أحمد، موقف الدولة العثمانية، ص40-41

(2) عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص26-27، النشئة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص179

- AYVERDi, TURK TARİHİNDE, OSMANLI ASİRLERİ, cild, 3, P. 107

ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: "إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً -فضلاً عن (150) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً"⁽¹⁾ وفي السياق لا بد من الإشارة إلى أن أحد المدسوسين على هذه الأمة، الحاقدين على العثمانيين حتى العظم ينكر هذه الهالة، ويشكك في صحتها، ويحاول مناقشتها بطريقة تحاملية لا يقبلها المنطق، ويعتبرها موضوعاً، ويكفي للرد عليه أن يترك للقارئ المنصف قراءة ما كتبه في مناقشة تلك الهالة، ليكتشف أنه ليس لديه لا الحجة ولا الدليل في ردها، ولا يملك إلا الحقد الدفين على السلطان عبد الحميد وعلى علاقته بالعرب المخلصين لأمتهم الذين التفوا حول الخليفة عبد الحميد الثاني في رد هجمات الدول الاستعمارية عنها⁽²⁾، وجعلوا من أنفسهم جسراً يربطون به بين جناحيها العربي والعثماني لحمايتها من الغزو الثقافي والحضاري الغربي الذي تعرضت له الأمة الإسلامية عموماً، وبلاد الشام على وجه الخصوص، فكان هؤلاء العرب الملتفين حول الخلافة العثمانية نموذجاً يحتذى في التآلف والتآخي بين العرب والعثمانيين تحت راية الخلافة الإسلامية، ومن هؤلاء أبو الهدى الصيادي مستشار السلطان عبد الحميد، وأحمد عزت باشا العابد سكرتيره الثاني ومدير مكتبه، وغيرهما كثيرون، وقد كان أحمد عزت العابد على دراية واطلاع على أساليب هرتزل الخبيثة في محاولات التودد للخليفة عبد الحميد والتقرب منه، وقد عمل على كشف تلك الأساليب للخليفة، مما جعل هرتزل يحقد عليه ويصفه بأنه وغد شرير بسبب اتجاهاته العدائية نحو الخطة الصهيونية⁽³⁾ أما أبو الهدى الصيادي فقد أشار على السلطان عبد الحميد بالحد من هرتزل وبين له خطورة الحركة الصهيونية على فلسطين، وأنها تسير في اتجاه ابتلاعها، وكان هذا الموقف الحصيف من أبي الهدى مؤشراً على إدراكه أهمية هذا الموضوع في التأثير على العلاقات العربية العثمانية والإساءة لها فيما لو استجاب السلطان عبد الحميد لمطالب اليهود في فلسطين، لكن الخليفة ببعد نظره السياسي بقدر الأمور التقدير الصحيح، وينظر بعمق إلى تلك القضية مستشعراً خطورتها الإسلامية أمام أمتة وشعبه المسلم في بلاد الشام، وهذا نابع من تمسكه بالعقيدة الإسلامية والتزامه بأحكام الإسلام التي توجب عليه الحفاظ على مقدسات المسلمين وديارهم، لا كما يرميه به هسلب من اتهامات، منها أن رفضه لمطالب اليهود في فلسطين، وعدم منحهم إياها، لم

(1) الأفغاني، سبب خلع السلطان عبد الحميد، مجلة العربي، العدد 169، كانون أول 1972م، ص 152

- صفوة، موقف تركيا، مجلة المستقبل العربي، ع 85، 1982م، ص 88-89

النتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص 183-184، أوزتونا، السلطان عبد الحميد، مجلة الفصيل عدد (200) آب

1993م، ص 123، حَبَنَكَة، مكائد يهودية، ص 274-275، النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص 120-121، الداود،

محمود علي، العلاقات العربية التركية والعوامل المؤثرة فيها، مجلة المستقبل العربي، عدد 45 عام 1982م، ص 64.

(2) حسين، السلطان عبد الحميد الطاغية وليس خليفة، مجلة العربي، العدد 178، أيلول 1973م، ص 52-58

(1) أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 62، سرحان، النظام العثماني، ص 32-33

- صايغ، يوميات هرتزل، ص 179-182

يكن سوى استجابة لطلب أبي الهدى الصيادي، وأنه عمل بذلك من منطلق مصلحي بحث، لاقتناعه بما حذر منه أبو الهدى من أن العرب المسلمين سينقمون عليه ويثرون إن تنازل عن فلسطين لليهود، لا عن التزام من الخليفة عبد الحميد بأحكام الإسلام، لأنه كما يقول هسلب لم يكن متدينياً بشهادة الذين يعرفون عبد الحميد، وأنه داخل بيته لم يحافظ على الصلوات ولم يراع أحكام الشريعة في حياته الخاصة⁽²⁾، ويسعى هسلب من الطعن في عقيدة عبد الحميد وتمسكه بالإسلام، إلى التقليل من إعجاب المسلمين بهذا الخليفة المسلم، وإظهاره بأنه أقدم على طرد هرتزل وعدم الاستجابة لمطلبه في فلسطين، من منطلق مراعاة سمعته وسيرته كي لا يلحقها التشويه (خشية غضب العرب منه)، وليس من جهة التقيد بتعاليم الإسلام، ولو كان الأمر كما يقول هسلب مصلحة وسمعة، لسعى السلطان عبد الحميد إليهما مهرولاً ولركع أمام بريق الذهب، الذي ينحني أمامه القادة والزعماء من رجال الدنيا ومن عبيد المتاع، وهو ليس من هؤلاء، بل كان رجل المواقف الصعبة، والرجل الصلب للمواقف الصعبة، والرجل الصلب للمواقف التي تذلل الرجال وتخيفهم⁽¹⁾، ويشهد له بهذا المستشرقون الذين كتبوا عنه⁽²⁾، كما تدل هذه الحادثة على ذلك: نقلت مجلة قونية التركية على أرشيف وزارة الخارجية التركية فهرس 12، 61، أن رئيس الجمهورية الفرنسية في الفترة بين عامي 1888-1890م وهي تزامن جزءاً من فترة حكم الخليفة عبد الحميد الثاني (1876-1909م)، طلب من أحد أصحاب المعارض المسرحية في فرنسا، واسمه صادي كورتون، عرض المسرحية التي ألفها الكاتب الفرنسي ماركي بورنير، ويدور نص المسرحية حول التعريف بالإسلام، وبالنبي صلى الله عليه وسلم واستشهاد نبوته، ولكن بطريقة تحاملية على الإسلام، وفيها انتقاص لشخص النبي صلى الله عليه وسلم، وتشويه لجوانب الإسلام، وعرضت المسرحية لبعض الوقت في فرنسا، وعلم السلطان عبد الحميد بأن هذه المسرحية تحقر النبي صلى الله عليه وسلم وتهاجم الإسلام، وجاء الخبر للسلطان عن طريق السفير العثماني في باريس، فأرسل السلطان كتاباً رسمياً إلى رئيس فرنسا عن طريق مبعوث خاص، أننا علمنا أنكم تحقرون ديننا وعقيدتنا ونبينا، وإذا لم توقفوا عرض هذه المسرحية وتكفوا عن هذه الأعمال، سوف نجهز الجيوش لحربكم، وتعريض مصالحهم في المناطق التابعة للدولة العثمانية للخطر، فأوقفت الحكومة الفرنسية عرض المسرحية، فاجتمع صاحب المسرح على قرار الإيقاف بأنه يخسره مادياً، فلم تستجب حكومة فرنسا له، فأرسل صاحب المسرح طلباً إلى بريطانيا لعرضها هناك، واتفق الفنان والممثل الانكليزي إيرونك، لعرضها في انكلترا في دار ليصم في لندن لتعرض فيها، فأرسل السلطان عبد الحميد إلى بريطانيا موفداً يحذر بريطانيا من عرض المسرحية في لندن، فمنعت بريطانيا عرض

(2) HASLIP, THE SULTAN, THE LIVE OF ABDUL HAMID II, P.

(1) النديم، عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الأديسي (1314هـ/ 1896م)، سلافة النديم، (2ج)، جمع شقيقه: عبد الفتاح، نشر: المطبعة الهندية، مصر، 1901م، ج2، ص67-68.

(2) وتلن، عبد الحميد، ص178، ميكوش، مصطفى كمال، ص39-41

المسرحية، فعمد صاحب المسرح إلى استبدال اسم المسرحية، ووضع اسم جديد لها بعنوان: جنة محمد، وعاود الإرسال إلى باريس لعرضها هناك، فعمل السلطان عبد الحميد على منع عرضها مرة ثانية في باريس، فراجع صاحب المسرحية عن عرضها بعدما شعر بملاحقة السلطان عبد الحميد له⁽¹⁾، ويؤكد ذلك ما نقله بنفسه من خلال مذكراته حين قال: ولدت في أمريكا دولة فتية قوية، وكانت إسبانيا قد أخرجت من مستعمراتها، وانتظم يهود العالم وسعوا - عن طريق المحافل الماسونية للعمل في سبيل الحصول على "الأرض الموعودة"! وجاءوا إلي بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة، وبالطبع رفضت⁽²⁾ ثم إن موقف عبد الحميد هذا رد عملي على ستورز الذي اعتبر عدم موافقة عبد الحميد على طلب هرتزل خوفاً من غضب المسلمين ومراعاة لمصلحته في الحكم نعليه، وليس عن قناعة والتزام بالمبدأ الاسلامي الذي جعله يتصرف بهذا الشكل⁽³⁾، ويقترب من موقف ستورز أحد القوميين العرب الذي يظهر التحامل الواضح على السلطان عبد الحميد، ويقدم ادلة تفقر للصحة والموضوعية، وتعبر عن نفسها وعن موقف صاحبها، يقدمها للتدليل على أن عبد الحميد لم يقف في وجه الصهيونيين بشأن فلسطين، وأنه يتظاهر بالعداء لليهود وهو في الحقيقة صديق لهرتزل⁽⁴⁾ بهذا يسجل السلطان عبد الحميد موقفاً مبدئياً يذكره التاريخ صفحة بيضاء ل، في ظرف كان يتوقع له أن يستسلم للوهن، وأن يضعف أمام المغريات، وأن يقبل بالدون في سبيل الحفاظ على موقعه في السلطة، وهو موقع يتنازل من هم في مثل حاله عن مبادئهم وثوابتهم كي يسكت عنهم للبقاء فيه، مهما كان حجم التنازل وقيمة المتنازل عنه، ولكنها العقيدة هنا أخرجت كل الدنيا ومناصبها وكنوزها من عيث عبد الحميد ومن قلب.

فاستجاب التاريخ ليضعه في مصاف القادة أصحاب المواقف الخالدة، وقد قابل العرب المسلمون هذا الموقف بالعرفان والتقدير، ولو لم يكن موقفه منسجماً مع التزامه بالاسلام لتناولته ألسنة أدياء الوطنية المتسمين بالقومية، وجعلوا من موقفه ذاك سبباً على المسلمين، الذين ينادون بالرابطة الاسلامية عنواناً للعلاقات العربية العثمانية، ويدعمون دعواهم تلك بما نقله التاريخ يصادق من تطبيق عملي من قبل السلطان عبد الحميد الثاني على أرض الواقع لتلك الدعوة المعلنة للجامعة الاسلامية، وقد تمسك السلطان عبد الحميد بهذه الرابطة ودعا لها للحفاظ على عروبة فلسطين واسلاميتها، ولم يسلم من افتراءات المغترين وكذب الخصوم والمغرضين، فكيف به لو لم يسلك هذا المسلك، لا نفرط عقد دولة لجلافة من جراء إثارة الفتن التي يحركها خصوم وأعداء العلاقات العربية العثمانية للوصول إلى مآربهم وغاياتهم المنسجمة مع

(1) KONYA, LIL, 4, SAYI: 24, MART - NISAN, 1991, P: 20-21.

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 141. وانظر: حبكة، مكائد يهودية، ص 282-283

- AKGUN, YAHUDİNİN TAHTA KİLİCİ, P. 45, 48

(3) STORRS, SIR RONALD, THE MEMOIRS, ARNO PRESS, ANEW YORK, 1972, P. 361

(4) صالح، الطورانية التركية، ص 53-56

توجهات الدول الاستعمارية، التي تريد الانفصال لتلك العلاقات لتحقيق مراميها وأغراضها في التمكن من بلادنا واستبعادها والقضاء على آمالنا وطموحاتنا.

6- السلطان عبد الحميد الثاني والجامعة الإسلامية.

واجه الخليفة عبد الحميد الثاني ومنذ بداية توليه الخلافة المخاطر المحدقة بدولة الخلافة بانتباه وحذر شديدين ، وعمل بهمة ودأب مستمرين في تصديه لتلك المخاطر، وقد تجلت في الداخل بصراعه المرير مع الماسونيين دعاء التغريب أمثال الصدر الأعظم مدحت باشا وقائد الجيش (السر عسكر) حسين عوني، وضيا بك ورئيس مجلس النواب أحمد رضا وغيرهم ممن يشاركونهم في السيطرة على إدارات الدولة في المواقع الأولى، وفي الخارج وخول الدولة، في الحرب مع روسيا منذ بداية حكمه عام 1977م، وتربص الدول الاستعمارية الأخرى كفرنسا وبريطانيا بالدولة العثمانية، وإزاء ذلك الوضع وقف السلطان عبد الحميد في حلبة الصراع تلك وحيداً مقدراً حجم المعركة وثقلها وأعباءها، وأن لا مناص من استخدام وسائل وأساليب فاعلة لكسب الوقت لترتيب أموره، والاستفادة من الظروف المحيطة به في محاولة للتغلب على تلك التحديات، وقد كان ملتزماً بالاسلام، موقناً أن الاسلام بمنهاجه الرباني المتكامل هو المساعد له للخروج من المأزق التي تمر بها الدولة، ولمواجهة الأخطار التي تجابهها، وانطلاقاً من فهمه لخصائص الاسلام، والتي من أهمها شموليته وعالميته "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"⁽¹⁾، "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً"⁽²⁾ فقد عمل على الاستفادة من ذلك في كسب تأييد وتعاطف العالم الاسلامي معه.

ونجده يشخص أوضاع الدولة بقوله: "عندما توليت العرش لم أكن أعلم بهذه الحقائق، وإنما ابتدأت بمعرفتها واحدة واحدة بالتجربة، وأثناء الحرب الروسية العثمانية، ظهر أمر آخر هو أننا نقف بمفردنا في العالم لنا أعداء، وليس لنا صديق، يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده، كل ينتظر النفع من الدولة العثمانية ويظهر لنا الصداقة، ولكن عندما لا يوجد فيها ما يأمل، سرعان ما يعاديه، ووضعنا بالتالي سياستي على هذا الأساس، التوجه للعدو بسلاح العدو"⁽²⁾ ويقول: "رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في استانبول ما عزت عليه على

(1) سورة الأنبياء، الآية 107

(1) سورة سبأ، الآية 28

(2) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص140، وانظر: مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص174 - KARAL, OSMANLi TARiHi, cilt, 8, P. 182-189

استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية"⁽³⁾ ثم يربط السلطان عبد الحميد بين ما تمر به الدولة في أيامه وبين أوضاعها منذ أيام جده سليم الثالث، (مدة حكمه 1203-1222هـ/1789-1807م) مع التأكيد على ازدياد الخطر في عهده أكثر مما سبق، يقول: "كان جدي السلطان سليم يصيح قائلاً: إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي، وعلينا إرسال الرسل إلى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه".

كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليس فوق كبدي، وإنما في داخله، إنهم يشتركون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي، كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة، ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يدبرون ويعدون؟

نعم، أنا أسست جهاز الجونالجية (المخابرات) وأنا أدركته، متى حدث هذا؟ بعد أن رأيت صدوري العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم، والتآمر على سلطانهم، أسست هذا الجهاز، لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي، في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حلوهم ... لا يمكن للدولة أن تكون آمنة إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وكان ضرورياً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجونالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين أشخاصاً مغترين، لكنني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقيق دقيق⁽¹⁾.

يستدل مما سبق أن عبد الحميد الثاني بدأ يخطط ويدبر منذ بداية حكمه، ويستفيد من تجربة من سبقه من سلاطين العثمانيين في التعامل مع الجبهتين الداخلية والخارجية، وانسجماً مع هذا الفهم لما يجري حوله أراد استجماع كل الإمكانيات والطاقات والقدرات في الدولة والأمة وحشدتها للمواجهة، ومحاولة النهوض من جديد، ومن ذلك الاستفادة من فكرة عالمية الإسلام، فكان التوظيف العبقري من السلطان عبد الحميد لهذه الفكرة، والتي تمثل رغبته في رؤية كل البلاد الإسلامية متحررة من السيطرة الأجنبية، كمقدمة لإعادة بعث المسلمين المعنوي وتوحيدهم تحت قيادة خليفة واحد في كل أنحاء العالم مثلما حدث في العصر الذهبي للإسلام⁽²⁾ ولأجل هذا "كان يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة، فلا بد إذن من العمل بالإسلام على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة، لكي يمكن الصمود أمام الغرب، كما كان يرى أن جبهة المسلمين في

(3) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص144

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص159-160

(2) أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص62، مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص175

الدولة العثمانية فقط لا تكفي، ولا بد من امتداد تأثير الوحدة الإسلامية إلى كل مسلمي العالم في أفريقيا وآسيا وغيرها" (3) وقد عرفت هذه الفكرة بـ الجامعة الإسلامية، أراد السلطان عبد الحميد الثاني أن تكون الخلافة محوراً، يعمل بمقتضاها على توحيد المسلمين في العالم الإسلامي تحت قيادة خليفة واحد، وقد استفاد السلطان عبد الحميد من خاصية عالمية الإسلام وقدرته العظيمة على تجميع المسلمين وتوحيدهم تحت رايته كخليفة، من أجل الحفاظ على وحدة العالم الإسلامي، وإثارة عنصر الإخلاص لمقام الخلافة (4) وذلك باستنهاض همم المسلمين واستصراخ حميتهم الإسلامية وإيقاظها في نفوسهم، وتوثيق الروابط مع الولايات العربية (2)، وتعزيز ذلك بكسب ولاء الجماهير الإسلامية، والحصول على تأييد الدول الإسلامية في الصراع مع الدول الغربية (3)، فالجامعة الإسلامية إذاً تيار تجديدي في الأمة (4)، هي في حقيقة ذاتها وسيلة وأداة دينية ناجحة، اتخذها السلطان عبد الحميد لتقوية سلته السياسية في العالمين العربي والإسلامي، واستطاع بواسطتها أن يحتفظ بولاء العناصر الإسلامية غير التركية داخل الامبراطورية العثمانية، واستطاع أيضاً أن يكسب إلى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها (5)، يقول عمارة "أخذت حركة الجامعة الإسلامية هذه تجدد حياة الأمة الإسلامية وتوقظها وتسليحها عن طريق تجديد الإسلام، ليتحول من شعوزة وخرافة تميّت روح الأمة (6)، إلى طاقة ثورية تجابه بها الأمة أعداءها، وقد دعا أعلام التجديد الإسلامي الرافعين لراية الجامعة الإسلامية إلى تجميع جهود المسلمين لتأييد الدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة، ويراعي ذلك التجديد المنطلقات التالية:

- الدعوة إلى التمسك بالإسلام بالتقدم نحو نبعة الصافي ومراجعته الأصلية القرن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتخلي عن البدع والخرافات التي أثقلت العقل العربي الإسلامي بالقيود والأغلال.

- استخدام العقل وبراهينه في فهم الإسلام وفقه نصوصه ووعي مقاصده ومراميه.

- التمسك بروح التجديد التي يحث عليها الإسلام انطلاقاً من رصيد الأمة الحضاري والفكري وتراثها العلمي، لمواجهة القضايا المعاصرة ومجابهة التحديات.

(3) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص23

(1) أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص62

(2) مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص179

(3) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص115

(4) عمارة، محمد، الجامعة العربية والجامعة الإسلامية، مجلة المستقبل العربي، سنة ثالثة، العدد (24)، شباط، 1981م، ص75.

(5) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص268-269

(6) هذه إساءة إلى الإسلام ربما لم يقصدها الكاتب، لعله أراد أن يقول: إن الواقع الذي وصل إليه حال المسلمين، حين أطلق السلطان عبد الحميد دعوته إلى الجامعة الإسلامية كان متردياً، يغلب عليهم الجهل بالإسلام وتنتشر بينهم البدع والعادات التي تعتمد في فهمها للإسلام على ما يتقوله عوام الناس من شعوزات وخرافات، بينما حقيقة الإسلام فكر نقي يعتمد على عقيدة ربانية شاملة لكافة جوانب الحياة تبعث في المسلمين روح الاجتهاد والتجديد والابداع.

- النظر إلى الحضارة الغربية من موقع مستقل ومتميز لمعرفة أسرار تفوق هؤلاء الخصوم، من أجل الاستفادة من ذلك في معركة الصراع الحضاري مع الغرب⁽¹⁾.

والجامعة الإسلامية كذلك تضامن عقائدي وفكري وروحي بين المسلمين بكل ملايينهم، بما يربطهم من عقيدة مشتركة وفكر موحد لهويتهم، ومشاعر تشدهم إلى إله واحد وكتاب واحد ورسول واحد وقبله واحدة ترنو إليها أبصارهم كل يوم خمس مرات⁽²⁾. وقد ترجم السلطان عبد الحميد هذا المفهوم للجامعة الإسلامية ترجمة عملية، منطلقاً من فهمه العميق لها، ويقوم هذا الفهم على حقيقة ثابتة في تصور السلطان، وهي اعتبار الإسلام الركيزة الوحيدة التي يركز عليها في دعوته للجامعة الإسلامية، وانطلاقه في العمل بها، والسعي لنشرها وتطبيقها بين المسلمين، إذ لو قامت على غير هذا التصور لخرجت عن كونها جامعة إسلامية إلى مفهوم آخر وتصور آخر قد يختلط بها ويتداخل معها، كالجامعة الإسلامية التي نادى بها بعض رموز التيار التوفيقي بين العروبة والإسلام، الذين يقوم مفهومهم للجامعة الإسلامية على المزج بين مفهومي العروبة والإسلام، وإزالة ما بينهما مما قد يظن أنه تنافر أو تناقض فهؤلاء يدعون إلى يقظة إسلامية وتضامن إسلامي ووحدة فكرية للملة الإسلامية، يقودها العرب المتميزون قومياً في المحيط الإسلامي الكبير، ودعا هؤلاء إلى الوحدة الإسلامية، بل وإلى الجنسية الإسلامية، أي القومية الإسلامية، مع الإفصاح عن التمايز العربي القومي في المحيط الإسلامي، وعدم الفرض من شأن القومية العربية⁽³⁾ وهذا يتم توضيحه لاحقاً بعد استكمال الحديث عن الجامعة الإسلامية كما فهمها وعمل بها الخليفة عبد الحميد الثاني. لهذا نجد السلطان عبد الحميد يلجأ إلى المفهوم الإسلامي البحث للجامعة لتحجيم ذوي الاتجاهات الأخرى وفهمهم لها في داخل الدولة العثمانية من عثمانيين وعرب وغيرهم من أبناء القوميات الأخرى، ولمقاومة الدول الاستعمارية العاتية التي استغلت النزعات القومية فيفهمها للجامعة الإسلامية، وقدم نفسه للأمة الإسلامية بصفته خليفة المسلمين (كل المسلمين) ممثلاً لهم على الساحة الدولية، وناطقاً باسمهم، ومدافعاً على مصالحهم، مع احتفاظه بما يحمله لقب خليفة لنفسه من معاني التمايز والهيبة والوقار كخادم للحرمين الشريفين وإمام للمسلمين⁽⁴⁾، وهذا المفهوم للجامعة الإسلامية كان واضحاً في عقل السلطان عبد الحميد وفي نفسه، وفي الوقت نفسه تعلقته به الشعوب الإسلامية، باعتبار الدولة العثمانية رمز الإسلام وحاميته منذ نشأتها، حين شعرت هذه الشعوب ولمست على أرض الواقع تصدي العثمانيين للغزو الاستعماري الغربي للبلاد العربية والإسلامية، المدفوع بروح

(1) عمارة الجامعة العربية والجامعة الإسلامية، ص75 وانظر: عمارة، الإسلام والقومية، مجلة قضايا عربية، سنة سابعة، العدد (5)، أيار 1980م، ص84

(2) الأفغاني، جمال الدين (ت1314هـ/1897م)، الأعمال الكاملة (2 ج)، تحقيق: محمد عمارة، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة أولى، بيروت، 1981م، ج1، ص64.

(3) عمارة، الجامعة الإسلامية والجامعة العربية، ص76

(4) منسي، حركة اليقظة العربية، ص53-56

صليبية مكملة للغزوات الصليبية السابقة، وكان يندفع في غزواته على الشواطئ والسواحل الإسلامية في بلاد الشام وفي مصر، والخليج العربي وسواحل بلاد المغرب.⁽²⁾

وفي الطرف المقابل نظر الغرب الاستعماري الأوروبي إلى مفهوم الجامعة الإسلامية على أنه استثمار وتوظيف للمشاعر والعواطف الإسلامية، والاستفادة من تضامنها وتعاونها للوقوف ضد مخططاته التوسعية في السيطرة على العالم الإسلامي، على أن الدولة العثمانية هي الحاملة للواء الجامعة الإسلامية، طالما أن الشعوب الإسلامية تنضوي تحت لواءها، وعرف الغرب هذه الدعوة بـ Pan Islamism، وأن لفظة الجامعة الإسلامية لم تكن تعني بالنسبة للغرب سوى خطر العواطف الإسلامية على نفوذه ومصالحه في الأرض الإسلامية، ولم ينظر إلى تلك الجامعة على أنها نظرية أو مخطط ثابت من قبل دول أو هيئات إسلامية، وبالتالي لم تعمل الدول الأوروبية في بداية تعاملها مع هذا المفهوم على أنه رابطة منظمة تتبناها الدولة العثمانية أو غيرها، ولم يكن بمقدور الأوروبيين أن يتخذوا حيال ذلك موقفاً ثابتاً واضحاً، بل كان الموقف الأوروبي يتضح حسب ردة فعل المسلمين في المنطقة الإسلامية المطموح بها، وكان لبريطانيا من خلال هذه الظروف أن تتخذ موقفاً حذراً من الشعوب الإسلامية، خاصة أنه كان لها قصب السبق في السيطرة على كثير من الأراضي الإسلامية، وكانت سياستها العسكرية مرافقة دوماً لسياستها في امتصاص نفقة الجامعة الإسلامية عليها، وكانت هاتان السياستان تسيران في خط واحد، أملاً في تحقيق أهدافها الاستعمارية،⁽¹⁾ لذلك عملت بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية على معاكسة السلطان عبد الحميد ومناهضة سياسته الإسلامية، من خلال احتوائها ومساندتها للمعارضين له، وكذلك عبر إثارتها الأفكار المشبوهة كبدائل عن الجامعة الإسلامية التي يدعو لها السلطان عبد الحميد، تطرح من خلال ذلك البدائل التي تقوم على الأساس القومي، أخذة بعين الاعتبار المزج بين الجانب القومي والجانب الإسلامي، حتى تجد قبولاً لتلك الطروحات بين أرباب الفكر والسياسة في العالم الإسلامي، في حين نجد السلطان عبد الحميد كما تقول وتلن يطلق دعوته الإسلامية على اعتبار نفسه خليفة للمسلمين، ويثير في ربع العالم الإسلامي كراهية أوروبا وكل ما هو أوروبي، معتمداً على التزامه الإسلامي في الإصلاح، إصلاح الروح والجسد، ثم إعلان السلطان عبد الحميد أنه يستطيع إنقاذ الشرق الإسلامي عن طريق الجامعة الإسلامية، منادياً يا اسلام استيقظ، ويا مسلمي العالم اتحدوا⁽²⁾، ولكن يأخذ هذا النداء طابعاً جدياً، ويجد استجابة لدى الشعوب الإسلامية، فقد هيا له من الوسائل ما هو كفيل

(2) شعبان، عثمان شعبان عمر، موقف بريطانيا من حركة الجامعة الإسلامية (1870-1914م) رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الدراسات العليا، جامعة الإسكندرية، إشراف محمد محمود السروجي، مقدمة عام 1979م، ص5. وانظر: الغزالي، محمد، حقيقة القومية العربية، نشر: جاز نهضة مصر، ط1، القاهرة، 1998م، ص101.

- خليل، تاريخ الوطن العربي، ص252-253

(1) شعبان، موقف بريطانيا، ص5-6

(2) وتلن، عبد الحميد، ص168-175

بإنجاحه، من ذلك: أنشأ مدرسة أو كلية في استانبول لإعداد الدعاة لحركة الجامعة الإسلامية، وأرسل أعداداً كبيرة من خريجيها للدعاية له إلى الهند وتركمان وإيران والأقطار العربية.

- استخدام الصحافة كذلك في الدعاية لحركة الجامعة الإسلامية.

- طبع الآلاف من المصاحف الكريمة وتوزيعها في أرجاء العالم الإسلامي.



- العمل على تأييد الحجاج لبيت الله الحرام بفضل إنشائه سكة حديد الحجاز كما رأينا سابقاً، التي أراد لها الخليفة عبد الحميد الثاني أن تسهل اتصال المسلمين ببعضهم.⁽¹⁾

- وعلى صعيد آخر أخذ يخاطب القادة والساسة وذوي العقول النيرة، وأصحاب الرأي والكلمة المسموعة لدى جماهير الأمة المسلمة، مركزاً على النقطتين الجوهريتين اللتين تثيران الحمية الإسلامية، وتحركان كوامن النفوس ومخزونها الإيمان، وهاتان النقطتان هما:

- إشارة إلى مستوى الخطر المحيط بالأمة من قبل أعدائها، عبر تركيزهم على إسقاط الدولة العثمانية ورايتها التي ترفعها وهي راية الخلافة الإسلامية.

- لفت النظر إلى أهمية وخطورة سقوط الخلافة كرمز لوحدة المسلمين، وجامع لكلمتهم، ولهذا ينبغي الالتفاف حول رايتها وتأييدها، كي لا تسقط تلك الراجية، وهذا تتمثل في شخص الخليفة وفي مؤسسة الخلافة التي تمثلها⁽²⁾، وبالتالي فإن التخاذل في هذا تصنع لمجد الأمة وعزتها، وهذا بحد ذاته مسؤولية كبرى أما التاريخ والأجيال المقبلة يحاسب المقصرون بها أمام الله، ويذكر التاريخ تقصيرهم، وتنعكس نتائج ذلك مراراً وهزيمة حضارية وتأخراً وسيراً خلف قافلة الأمم في آخر ركب الحضارة، وهذا ما يشار إليه في خاتمة هذه الدراسة.

وفي الحقيقة فإن الخطاب الذي بعث الخليفة عبد الحميد الثاني إلى الإمام محمد المهدي السنوسي يصور كل هذه الجوانب الأنفة الذكر، ويجسد مدى استشعاره لعظم المسؤولية، وتشخيصه لطبيعة الظرف الذي تمر به مؤسسة الخلافة في ذلك الحين، ونورده هنا لما فيه من الدلالات، ولبيان مدى الحرقة والألم اللذان يشعر بهما من الواقع الذي يعاني منه، وهو يرى دولة الخلافة تضمّر أمام عينيه، ولا يملك لها ما يحول دون ذلك، يقول مخاطباً السنوسي: "ومتلكم من يعلم حق الخلافة الكبرى وشأن الإمامة العظمى، وحيث أن الخلافة المنصورة العثمانية والإمامة المقدسة الإسلامية قد أثبت الله منذ مئات السنين في البيت العالي العثماني وجودها وحقق عهودها، وقد افترض الله نصر هذه الخلافة المؤيدة العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في الباطن والظاهر، لا سيما في مثل هذه الأوقات، فإن الأغيار من الكفار، بل والملاحدة المارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومةً للسنّة السنية على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية (ويأبى الله إلا أن يتم نوره)⁽¹⁾، وحتى من المسموع أن جماعة من الإنكليز والإيطاليين وغيرهم قد تدرجوا إلى أطرافكم بطريق السياحة، وأنتم تعلمون بالفراسة ورائن الأحوال ما في أنفسهم، وما يخالج سرائرهم من المقاصد المضرة للدين والمسلمين، فأول ما يؤمل منكم، وإن كان هو المفروض كما هو

(1) خليل، تاريخ الوطن العربي، ص 368

(2) مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج 2، ص 169

(1) سورة التوبة، الآية 32

معلوم لدى حضرتكم، أن تتوروا أذهان محبيكم ومن يواليكم من الطلبة والتلامذة، قريباً وبعداً في جميع الأنحاء التي تسمع بها كلمتكم، وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الإخلاص للخلافة المقدمة العثمانية والإمامة الكبرى الإسلامية، التي لا سمح الله وقدر لو بلغ الأعداء والملاحدة فيها أربهم، لانهزم شرف الدين المبين، وتفرقت شيعاً جماعات المسلمين، ولصارت فرقاً وتمزقت إرباً إرباً، وهذا والعياذ بالله يكون ذلاً لكل موحد على وجه الأرض بالطول والعرض، بل هو مما يخرب شأن الشريعة، ويجعلها بعد العز وضيفة، وذلك مما يحزن القلب الأطهر والأقدس النبوي في الضريح الأطهر المصطفوي⁽²⁾.

لقد جمع الخليفة عبد الحميد الثاني حوله الكثير من زعماء العرب ومشايخ الطرق الصوفية من كافة الأقطار العربية، من الحجاز والشام والعراق واليمن ونجد ومصر وطرابلس وتونس والمغرب، وخصص لهم الرواتب، وأجرى عليهم الأرزاق، وطفق يصدق كثيراً من نعمه وآلائه على هؤلاء، حتى أنه اجتمع لديه أكثر من أربعين ألفاً من الدعاة، فأخذ يوفدهم إلى جميع الأقطار الإسلامية داعين إلى الالتفاف حول خليفة المسلمين عبد الحميد الثاني، للتخلص من خطر الدول الغربية،⁽¹⁾ ويؤكد السلطان عبد الحميد على أهمية هؤلاء الدعاة المتصوفة في كسب تعاطف المسلمين لتأييد الخلافة الإسلامية العثمانية، والتلويح بهم كسلاح يخيف الغرب، وخاصة بريطانيا في المناطق التابعة لها ويقول بأنه رفض اقتراح السفير الانكليزي عليه بفتح آبار مياه لري العطش في الصحراء السورية، وهي الذريعة التي استخدموها للتنقيب عن البترول في هذه المناطق، فتأثر الانكليز بأبلغ التأثير بهذا، وغضبوا ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة، متخذين من جمال الدين الأفغاني وسيلة لمأربهم، وفي مقابل هذا قمت بإرسال قافلة كبيرة نوعاً ما من الدراويش إلى مسلمي الهند، وقابل الانكليز هذا الموقف بإثارة نكبة كريت، وذهبوا أكثر من هذا، بأن حاولوا إقناع روسيا وفرنسا بإسقاطي من على العرش، ورفض الروس بلهجة حادة هذا الاقتراح الانكليزي⁽²⁾ ويقول ستودارد: نحي عبد الحميد بسياسته منذ أول المر منحى الجامعة الإسلامية، فهو الخليفة الديني للمسلمين، أخذ يستصرخ الأمم الإسلامية في كل رقة في العالم الإسلامي لتمد له يد العون وتشد أزره، قاصداً قذف الرعب في الدول الغربية، وغدت القسطنطينية مكة ثانية يلوذ بها جميع زادة الإسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود، وتنفيذ الرسل جماعات دراكاً إلى جميع الأقطار الإسلامية، حاملة رسالة الخليفة، ألا وهي رسالة الأمل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين، وظلت دعوة السلطان عبد الحميد للجامعة

(2) الدجاني، أحمد صدقي، الحركة السنوسية، نشأته ونموها في القرن التاسع عشر، نشر: دار لبنان للنشر والتوزيع ط1، بيروت، 1967م، ص212.

- محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص115-116.

(1) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص115، انطونيوس، بقطة الرعب، ص69.

- برو، العرب والترك، ص48.

(2) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص155.

الاسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة، وقد أفلح عبد الحميد حقاً في حمل آمال العالم الاسلامي، وقد سوا مقامه تقديساً، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون من كل فج من أفجاج العالم الإسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامي بيضة الإسلام، الذي مملكته حصن الإسلام والمسلمين، وفوق هذا استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى في أوسع آفاقها، ويحيي الشعور بالوحدة العامة في جميع الأمم الاسلامية إحياءً نشيطاً، ولم يكن يساعده على ذلك خليفة المسلمين وحسب، بل ما كان يبسطه ويبينه أنواع العداء الذي تظهره الدول الغربية للمسلمين والتحامل عليهم، هذا هو سبب نجاح عبد الحميد في الدعوة إلى الجامعة الاسلامية⁽¹⁾.

إذاً حقق الخليفة عبد الحميد الثاني نجاحاً في استدرار التعاطف الاسلامي معه ضد الصليبية الغربية الأوروبية المتحدة ضد الخلافة والدولة العثمانية، وقد أحدث هذا النجاح ردود أفعال لدى النصارى المقيمين في أراضي الدولة العثمانية بين ظهرائي المسلمين، خشي منه أن يكون فيه إيذاء لمشاعرهم، وتأليب عليهم، الأمر الذي جعلهم يبادرون للإفصاح عن تمسكهم بالرابطه العثمانية، وولائهم لسلطة الخليفة، حفاظاً على استمرار استقرارهم في مناطقهم في الدولة العثمانية، وتنقل جريدة فلسطين مقتضفات من مقال نشره محيي الدين الخياط في جريدة البرق البيروتية، بعنوان: الجامعة الإسلامية حقائق يعترف بها كل منصف، وتقول: إن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية يؤذي شعور المسيحيين في الدولة العثمانية، خاصة في بلاد الشام، وأن هؤلاء المسيحيين أكدوا على عثمانية صادقة وإخلاص باهر لدولتهم، بل بلغت الحماسة ببعضهم كما حصل في الأرجنتين، أنهم كادوا يؤدون الإيطاليين الموجودين فيها، حتى اضطرت صحف تلك البلاد أن تكتب الفصول الطويلة لتسكينهم، مبينة لهم عدم ذنب الإيطاليين الموجودين في تلك البلاد، بسبب هجوم إيطاليا على ليبيا، على أن إعانتهم للأسطول العثماني في تلك الأنحاء البعيدة أشهر من تذكر⁽²⁾ هذا من جهة، ومن جهة ثانية أحرزت سياسته هذه نجاحاً كبيراً في التقليل من حركة القومية العربية في عهده، على الرغم من أنها لم تقتلها، لكنها أوصلتها إلى حد عدم الفاعلية، ولم يبق سوى

(1) ستودارد، حاضر العالم الاسلامي، ج1، ص305-310، ج4، ص85، وانظر: قادة التحرر العربي، ص98-99

- SUREYYA, BİRKAC SAHİFE TARİH, P, 10, 81

(2) جريدة فلسطين، ع97، 23 كانون أول 1911م، 2 محرم 1330هـ، ص3

تحريضات النصارى الذين تحركهم الدول الأوروبية في بلاد الشام لمقاومة الدولة العثمانية وتقطيع العلاقات الحسنة بين العرب الشاميين ودولتهم العثمانية،⁽¹⁾ ولم يكن هذا النجاح لسياسة عبد الحميد في إحياء الجامعة الإسلامية، وتقوية مقام الخلافة في نفوس العرب والمسلمين، ليتم بعيداً عن رصد ومتابعة الدول الأوروبية له، خاصة بريطانيا وفرنسا العدوتان اللدودتان للسلطان عبد الحميد ولتوجهاته الإسلامية، وكانت سفاراتهما في بلاد الشام وغيرها من الولايات العثمانية تصب إليهما التقارير المشبعة بالخوف من دنو إعادة السيطرة الإسلامية بقيادة عبد الحميد، خاصة وأن العرب المسلمين وقفوا وقفةً قوية في مساندة الخلافة⁽²⁾، وكان القادة المسلمون ينبهون الناس من الهجمة على دولة الخلافة، ويشجعونهم على الاستعداد لمواجهة الغرب في المعركة التي تخوضها الدولة العثمانية ضد الأوروبيين، ويؤكدون على ضرورة مساندة هذه الدولة، وكان العرب المسلمون في بلاد الشام الأكثر وعياً يشكون بما يقد إليهم من الأفكار الغربية ومن أشكال وأنماط الحياة الأوروبية عن طريق الغزو الثقافي والفكري، وبأن تلك الأفكار سوف تؤدي في النهاية إلى أن تقوم دولة أو أكثر من الدول العظمى الغربية إلى احتلال الشرق العربي⁽³⁾، وكان رد المسلمين العرب، وخاصة في بلاد الشام على هذا هو في زيادة الوعي الإسلامي والنفوذ الإسلامي للدولة العثمانية كوسيلة للدفاع عن بلادهم ضد الغزو الثقافي الفكري، وضد الغزو الاقتصادي والعسكري فيما بعد، ولم يدر في خلد العرب المسلمين في بلاد الشام أدنى فكرة سواء عن تدمير الدولة العثمانية، كونها دولتهم تحمل راية الخلافة، أو عن السعي لقطع العلاقات العربية العثمانية والانفصال عن هذه الدولة، وكان جل ما تطلبونه في هذه المرحلة من العلاقات العربية العثمانية هو بعض الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، التي تساعد على التطور والنهوض من أجل مواكبة الغربيين في حضارتهم المادية.⁽⁴⁾

(1) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص63، وانظر: العقاد، عباس محمود، عبد الرحمن الكواكبي، (الرحالة ك)، نشر: دار نهضة مصر، القاهرة، 1986م، ص72، سيشار لهذا المرجع فيما بعد: العقاد، الكواكبي.

(2) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص65

(3) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص64-65

- الغزالي، حقيقة القومية، ص101

(4) أوكي، السلطان عبد الحميد، ص65

وهكذا فإن عبارة الصحوة العربية أو ما يمكن أن يقال عنه الوعي القومي العربي، التي كثر استخدامها في هذه المرحلة، لم تكن في الأساس سوى صحوة لتطهير وتقوية الدولة العثمانية، وتأييد العودة إلى نقاء الإسلام للدفاع عن الشعوب الإسلامية ضد الغرب، ولذلك عمل العرب المسلمون في بلاد الشام على مناصرة الخليفة عبد الحميد، وعلى تدعيم سياساته الإصلاحية عندما بدأ يدخل الإصلاحات إلى هذه البلاد لتحسين ظروف الحياة فيها، وإقامة المشاريع الاقتصادية الانمائية فيها⁽¹⁾، وتطوير شبكة الطرق والاتصالات، وإحداث نهضته في التعليم، كما مر سابقاً في هذا الفصل، وقد عد ذلك جزءاً من سياسته في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ووجدت هذه السياسة المساندة والدعم والتأييد من عرب الشام، وجد من رجالات الشام والعلماء والوجهاء مجموعة كبيرة يساندون عبد الحميد في هذه السياسة كما سيأتي بيانه بعد قليل في الحديث عن المساندين للجامعة الإسلامية من أبناء بلاد الشام.

لقد كانت الجامعة الإسلامية العامل الهام الذي استطاع الخليفة عبد الحميد الثاني أن يوظفه التوظيف الملائم في تقوية العلاقات العربية العثمانية، وأن يرغب العرب في الإذعان والانقياد لسلطة الخلافة المعنوية أولاً ثم المادية ثانياً طواعية وعن رضئ ومحبة لمقام الخليفة وموقعه في النفوس كخليفة للمسلمين وإمام لهم، وهو الرمز لقوة الإسلام وهيبته، ولقوة الشرق الإسلامي في مواجهة التحدي الغربي الأوروبي، وأصبح الخليفة عبد الحميد بهذا نجمة لامعة في سماء الخلافة، واعتبر لؤلؤة آل عثمان وسلاطينهم، وأصبح تصل إليه آلاف الخطابات والوثائق الرسمية من كل أنحاء العالم التي يعيش فيها المسلمون، يعلن فيها مئات الملايين ولاءهم للخليفة وتعلقهم بحركة الجامعة الإسلامية⁽²⁾.

تلك هي حركة الجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد، آمن بها وسعى إلى نشرها، وبذل غاية جهده في تأكيدها وتدعيمها، لتصبح تياراً يستطيع الصمود في وجه موجات الغزو الثقافي والفكري التي تهاجم الأمة، وتعمل على تغيير هويتها الحضارية، وقد استطاع هذا الخليفة بجهده وجهاده وسعيه ودأبه أن يصمد ولو إلى حين، وبفضل حنكته وتدبيره وتخطيطه، في وقت كان الصمود في وجه تلك الهجمة العاتية أشبه بالمستحيل، وكانت الجامعة الإسلامية عاملاً من عوامل التحدي للخصوم، وعنصراً من عناصر دك الخصوم، ووسيلة من وسائل تقوية العلاقات العربية العثمانية وتعزيزها، وهو بحد ذاته نجاح متميز، لأنه كان يراد لتلك العلاقات أن تنقطع، وكان يعمل بكل الوسائل والسبل على تقويتها، لأنها من أسس بقاء الدولة العثمانية، وبانتهاء تلك العلاقات يتخلص المخططون لذلك من عائق كبير يقف في وجوهم أثناء سعيهم لاسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية للوصول إلى أهدافهم.

(1) أوكي، المرجع السابق، ص 65

(2) وتلن، عبد الحميد، ص 176

ثانياً: التيار العربي في بلاد الشام الداعي إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية.

- تمهيد:

مثملاً كان هناك تيار يسعى إلى إيجاد النفور والتباعد بين العرب والعثمانيين من كلا الجانبين العربي والعثماني، وجد في الطرف الآخر اتجاه يدعو إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية من العنصرين العثماني والعربي، وقد تمثل الجانب العثماني في مؤسسة الخلافة والخليفة عبد الحميد الثاني نفسه، الذي ما انفك يدعو إلى التمسك بتلك العلاقات، ويقاوم كل محاولة للمساس بها، وفي الوقت ذاته يقويها ويمتتها من خلال سلوكه العملي وممارسته على أرض الواقع لصالحاته وسلطته، لإبقاء لحمة الترابط بين العنصرين العربي والعثماني قوية في ظل لواء الخلافة الإسلامية.

وعلى الرغم من مساندة رموز وممثلي هذا الاتجاه للعلاقات العربية العثمانية، ودعوتهم إلى استمرارها، وحرصهم على ديمومتها وتقويتها من خلال مناداتهم بالجامعة الإسلامية والتزامهم بالانضواء تحت الرابطة العثمانية، لكنهم ذهبوا في مواقفهم تلك مذاهب متعددة، يتناول كل منها هذه القضية من منظاره الخاص، وتتميز رؤيته لها عن رؤية الآخرين بشكل مستقل عنهم، ولدى تتبع تلك الآراء نجدها تتبلور في الاتجاهات التالية:

الاتجاه الذي دعا إلى الجامعة الإسلامية، والإبقاء على العلاقات العربية العثمانية قوية، ضمن إطار التوفيق بين العروبة والإسلام، مع الأخذ بعين الاعتبار تمايز العرب كعنصر من عناصر الرابطة العثمانية، وهؤلاء يمثلهم جمال الدين الأفغاني.

الاتجاه الذي دعا إلى الإبقاء على العلاقات العربية العثمانية مع إعطاء العرب الأولوية في الخلافة، وهؤلاء يمثلهم الكواكبي.

الاتجاه الذي دعا إلى أن تكون العلاقات العربية العثمانية في أعز مواقعها وفي أعلى درجاتها مع عدم الاعتراف بالعصبية القومية للعرب في التمايز عن غيرهم من عناصر الدولة العثمانية، في مسألة الخلافة، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية العرب ودورهم الأساسي المتميز في الحفاظ على دولة الخلافة العثمانية، والاعتراف بالسلطان عبد الحميد كخليفة للمسلمين، ويمثل هذا الاتجاه شخصيات عدة من بلاد الشام كأبي الهدى الصيادي وأحمد عزت العابد وآخرين يذكرون لاحقاً كأناصر لهذه الفكرة.

وقبل التطرق إلى هذه الاتجاهات واتجاهات أخرى متقاربة معها، وتفصيل كل منها، يجدر الإشارة إلى ابتداء الافتراق في النظرة إلى الدولة العثمانية والعلاقة معها

بين وجهاء العرب وأرباب الفكر المشتغلين بالسياسة في بلاد الشام، وتزامن ذلك مع إطلاق السلطان عبد الحميد ومؤيديه لفكرة الجامعة الإسلامية، فانقسم رجالات الشام والمهتمين بمستقبل العلاقات العربية العثمانية حيال ذلك إلى قسمين، بين مؤيد لفكرة الجامعة الإسلامية ومغلب لها على النزعة القومية¹، وبين معارض لها ومفضل للانتصار للفكرة القومية وللنزعة الاستقلالية عن العثمانيين على الابقاء عليها، مع تأكيد مؤيدي هذا الاتجاه على الاستفادة من طبيعة الظرف الدولي السائد آنذاك، من حيث وصول الدولة العثمانية درجة كبيرة من الضعف، وهذا يتيح فرصة للانتفاض عليها، وكذلك الاستفادة من دعم الدول الأوروبية للتوجهات القومية للعناصر العرقية المكونة للرابطة العثمانية، وتحريضها على الاستقلال والانفصال عن جسد الدولة العثمانية الأم، وقد نقل لنا أسعد داغر⁽¹⁾ - وهو معاصر للأحداث في هذه الفترة، ومن رموز التيار القومي- صورة دقيقة عن الآراء المتضاربة حول تأييد ومعارضة حركة الجامعة الإسلامية ضمن الرابطة العثمانية، يقول أسعد داغر: "ظهر بين المشتغلين في السياسة باستانبول رأيان متناقضان أحدهما: يقول بوجوب السعي إلى إنقاذ العرب بالاستناد إلى فكرة الجامعة الإسلامية، والثاني: يرى أن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة على كل شيء، وكان القائلون بالرأي الأول بضعة أشخاص يتزعمهم بعض المشايخ، وكانت حجيتهم في ذلك أن الجامعة الإسلامية قوة كبيرة إذا استند العرب إليها علا شأنهم وعظم نفوذهم، فيضطر الترك إلى مراعاة جانبهم، والنزول على إرادتهم، بدليل أن الترك أنفسهم يتخذون الفكرة الإسلامية أساساً لسياستهم، وسلاحاً لهم في وجه الغرب.

(1) هو أسعد بن مفلح داغر (1303-1378هـ/1886-1958م) كاتب صحفي، من طلائع رواد النهضة القومية العربية، من مجيدي الترجمة عن الفرنسية، نصراني، من أهل تنورين ببلن، ولد بها وتعلم ببيروت، وقصد الأستانة لدراسة الحقوق =1907م، انضم بها إلى المنتدى الأدبي، حكم عليه الاتحاديون غيابياً بالإعدام بعد هربه إلى مصر، ثم عمل في مصر محرراً في المقطم، وبعد ذلك عاد إلى سورية ثم عاد إلى مصر ثانية بعد دخول الفرنسيين سورية عام 1920م، ورأس تحرير القسم الخارجي في جريدة الأهرام أكثر من ربع قرن، ودعى إلى العمل مديراً لشؤون الصحافة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، فعمل هناك لبضع سنوات، توفي بالقاهرة، ثم نقل إلى تنورين ببلن فدفن فيها، من مؤلفاته حضارة العرب، مذكراتي على هامش القضية العربية، وينسب إليه كتاب ثورة العرب، أخفى اسمه فيه وجعله بقلم أحد أعضاء الجمعيات العربية.

انظر: الزركلي، الأعلام، ج1، ص301

أما الغالبية العظمى، وفي مقدمتها الضباط والشيوخ والنواب والمفكرون من شبان العرب فقد أجمعوا على أن لا حياة للأمم في هذا العصر، إلا على أساس القومية، وأن العمل لفكرة الجامعة الإسلامية، إنما هو هدم لفكرة الاستقلال عن تركيا الإسلامية، وهي الفكرة التي كانت قد اختمرت في عقولهم بعد أن قطعوا كل أمل في إصلاح ما فسد من أمر الترك.

وقد كنتُ أما من جملة المؤيدين للرأي الأول، القائل بالفكرة الإسلامية، لا اعتقادي بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها، وفي اجتماع من اجتماعاتنا في المنتدى الأدبي، دار حديث بيني وبين توفيق البساط وعبد الكريم الخليل وجلال البخاري حول هذا الموضوع، حملني على العدول عن رأيي، بعد أن تبينت وجوه الضعف فيه، فكان مما قاله لي توفيق البساط: إذا كنا نريد الجامعة الإسلامية، فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟ وقال عبد الكريم الخليل: إن فكرة الجامعة الإسلامية تؤدي إلى الوهن أكثر منها إلى القوة، لأنها تنفر الغرب، بينما لا تستطيع أن تمد الشرق بقوة، وقال جلال البخاري: "كيف يمكننا أن نوفق بين اعتناقنا للفكرة الإسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟ والذي أعرفه عن ثقة، ويمكنني إعلانه الآن عن رؤوس الشهداء، أنه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم، أو على جماجمهم، سواء في سورية، أو في العراق، أو فلسطين أو لبنان أو غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة، وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح، وما قلته عن الفكرة الإسلامية أقوله عن الفكرة الشرقية، فلم يكن في بلدان المشرق العربي من يراها كقيلة بإحياء مجده أو مجد العرب، فإن ما حققه الترك بعد ذلك من أن الاستقلال لا يقوم إلا على أساس القومية، وما وضعوه من الخطط بعد انتصارهم في الأناضول، كان مفكرو العرب يقولون به منذ 1913م" (1) ويقول الغزالي عن نمو الروح القومية عند العرب في الفترة التي سعى الخليفة عبد الحميد الثاني إلى محاربة النزعات الانفصالية في الدولة، القائمة على الأساس القومي، وخاصة عند العرب، لافتاً النظر إلى أهمية التحريض الاستعماري في إحياء وتقوية تلك النزعات، لتحل محل الجامعة الإسلامية، يقول: "ويبدو أن الفكرة القومية ولدت ليحسبها الغزاة الأجانب عوضاً عن الإسلام، وصارخاً عن التفكير فيه، والعرب لا يعرفون هذا، ولا يصدقون سيطرة الاستعمار، الذين بشرحون هذه القومية على أنها مقطوعة الصلات بالدين، وعلى أنها مانعة من العود إليه والاستقاء منه، وعدد كبير من المحدثين في مفهوم هذه القومية يبغضون الإسلام، ويتجهون لأمتهم الكبيرة، أي أنهم جيش للغزو الصليبي مدرب على قتال بني جنسه كما تدرب الكلاب على خدمة سادتها أحسن تدريب" (2) لهذا فإن المبتدئين بالدعوة إلى تبني الفكرة القومية في بلاد الشام، يدركون في قرارة أنفسهم أنهم يحاربون الدولة الإسلامية العثمانية، ويوقنون أن المضي في هذه الدعوة والعمل على إنجاحها لا يمكن أن

(1) داغر، أسعد، مذكراتي على هامش القضية العربية، نشر: دار القاهرة، د. ت، ص 46، سيشار لهذا المصدر فيما بعد: داغر، مذكراتي.

(2) الغزالي، حقيقة القومية، ص 102

يكون إلا بتلقي الدعم المادي والمعنوي من الدول الغربية، والمعني بذلك في هذه الفترة هما فرنسا وبريطانيا ذوات النفوذ والامتيازات الكبيرين في البلاد العربية عامة، وفي الشام خاصة، وقد أخذتا على عاتقهما القيام بهذا الدور، فبدأتا باحتضان وتحريض كل من تجد فيه توجهاً وسعياً لمناوئة دولة الخلافة العثمانية، والاتصال بهم وتنشيطهم عن طريق قناصلها في بلاد الشام، وفي الوقت نفسه فتحت أبواب مصر وباريس ولندن لإقامة واستقرار تلك العناصر الخارجة عن العثمانيين، وممارسة نشاطاتها العدائية لهم من هناك⁽¹⁾، كما أشرنا لهذا من قبل في هذا الفصل، وأيضاً ما يأتي تفصيله في الفصل الرابع من تأزم العلاقات بين العرب والاتحاديين، بعد ضبط جمال باشا والي سورية في العقد الثاني من القرن العشرين وثائق وأوراق ومنشورات، تؤكد ارتباط كبار شخصيات العرب في بلاد الشام بالقنصلية الفرنسية والقنصلية الانكليزية في كل من دمشق وبيروت، وإعدامه لعدد كبير من هؤلاء، وملاحقة من لم تنله مشانقه ممن ثبت عليهم تواطؤهم مع فرنسا وبريطانيا.⁽²⁾

وقبل ذكر اتجاهات العرب في بلاد الشام تجاه الجامعة الإسلامية، لا بد من الإشارة إلى أن جمال الدين الأفغاني كان من أبرز القائلين بها والداعين إليها، وله مذهبه الخاص تجاه هذه القضية، وهو وإن لم يكن من زعماء بلاد الشام، وكان تياره يتركز في مصر، لكنه أثر بشكل فعال على حركة الجامعة الإسلامية بشكل عام، وكان الأفغاني قد جاب الأقطار العربية والإسلامية، ونشر آراءه وتبادلها مع كثير من الشخصيات العربية والإسلامية في البلدان التي زارها وأقام فيها، وكان احتكاكه بالعرب الشاميين المقيمين في مصر، قد ساهم في نقل انطباعاته لهؤلاء في موضوع العلاقات العربية العثمانية بجوانبها المختلفة، وكان من أبرز العرب الشاميين المقيمين في مصر آنذاك عبد الحميد الزهراوي والكواكبي ورشيد رضا، وهؤلاء جميعاً لهم آراء محددة تجاه الجامعة الإسلامية وأثرها في العلاقات العربية العثمانية، لذلك يضم الأفغاني هنا إلى المفكرين المؤيدين للعلاقات العربية العثمانية ممن دعوا للجامعة الإسلامية من أبناء بلاد الشام، على الرغم من اعتباره من التيار الذي نادى بهذه الفكرة في مصر، لما لتوجهه ووجهة نظره حيال هذه القضية من انتشار في العالم الإسلامي، ولما لمذهبه في هذه الحركة من أنصار ومؤيدين من أبناء بلاد الشام، ساروا في الاتجاه نفسه وحملوا الفكرة ونادوا بها، ونذكر فيما يلي الاتجاهات المتعددة في تبنيها للجامعة الإسلامية، ورجال تلك الاتجاهات الذين حملوا لواءها واشتهروا بها، مع بيان لوجهات نظرهم نحو هذه القضية.

ثالثاً: التيار العربي الإسلامي الإصلاحي.

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص60، محمود كامل، الإسلام والعروبة، ص137-138 كرد علي، المذكرات، ج1، ص251، محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص108
(2) الشهابي، القومية العربية، ص62-63

- الاتجاهات الفكرية التي يتكون منها هذا التيار:

الاتجاه الأول: جمال الدين الأفغاني والجامعة الإسلامية.

الاتجاه المؤيد للعلاقات العربية العثمانية ضمن حركة الجامعة الإسلامية.

ويقوم هذا الاتجاه على فكرة الوحدة العثمانية ضمن حركة الجامعة الإسلامية القومية الإسلامية، مع إطلاق هذين الاصطلاحين مجازاً في هذا الموضع، أساساً له، دون التناكر لتمايز العرب القومي في المحيط الإسلامي، أو الفض من شأن القومية العربية، أو الاعتقاد بوجود أي تناقض بين العروبة والإسلام، مع اعتبار مفهوم الأمة في تراثها الحضاري كوعاء يستوعب غيرها عما سواها، ويمثل هذا الاتجاه المفكر المعروف جمال الدين الأفغاني.⁽¹⁾

وقد نظر الأفغاني إلى العرب كقومية وأمة متميزة قومياً، ورائدة وقائدة للمسلمين جميعاً، ولا ينكر رابطة الجنس القومية بالمعنى المتداول في العصر الراهن، مع الإقرار

(1) جمال الدين الأفغاني: 1254-1314هـ/1839-1897م، هو محمد بن صفدر الحسيني، ولد في أسعد آباد، وإحدى قرى كابل في أفغانستان، وبعضهم يقول هو من أسد آباد القرية القريبة من همدان بإيران، نشأ في كابل، وتلقى علومه العقلية والنقلية فيها، وكانت أفغانيته، أو أصله الإيراني مثار جدال كبير بين المؤرخين، ويرجع ذلك للتشكيك في مذهبه الإسلامي، إن كان أفغانياً فهو سني، وإن كان إيراني فهو شيعي، وهذا يؤثر على مدى قبوله كشخصية إسلامية في العالم الإسلامي السني، من حيث عقيدته الدينية، وقد اتهم بالتشيع، واتهم بالإلحاد، واستدل المؤرخون على شيعيته وعلى أصله الفارسي والإيراني اهتمامه الزائد بحركة الإصلاح في إيران، لدرجة أنه سعى لجعل طهران المركز الرئيس للجامعة الإسلامية، ويرى محمد عمارة أن الأفغاني فارسي الأصل، أفغاني النشأة، وقيل أنه كان شيعياً جعفري المذهب، متعصباً للشيعية، كثرت أسفاره بشكل مميز للغاية، بحيث بلغت رحلاته حداً ملفتاً، كان له مذهب مستقل في الدعوة للجامعة الإسلامية، ثم شرحه عند الحديث عن رأيه في الجامعة الإسلامية أعلاه، وأثر ذلك على العلاقات العربية العثمانية، سافر إلى الهند فطهران فالنجف وكربلاء في العراق، ثم حج إلى مكة المكرمة سنة 1273هـ/1856م، ثم إلى النجف وكربلاء، ثم إلى الهند، ثم إلى مصر، ثم إلى الأستانة، ثم إلى مصر، ثم إلى باريس فألمانيا فبريطانيا فروسيا فايران مرة = ثنائية، وانتهى به التجوال إلى استانبول حيث وصلها آخر مرة سنة 1310هـ/1892م وبقي فيها إلى أن توفي سنة 1314هـ/1897م، فيها بسبب مرض السرطان، ونقل جثمانه إلى أفغانستان سنة 1363هـ/1943م، من آثاره: جريدة العروة الوثقى، وكان يتكلم اللغات العربية والأفغانية والفارسية والتركية والفرنسية والروسية والانجليزية، ويطلق عليه المؤرخون فيلسوف الشرق، وفيلسوف الإسلام في عصره، انظر: الزركلي، الأعلام، ج6، ص168-196

المخزومي، محمد باشا، خاطرات جما الدين الأفغاني الحسيني (بها مجمل آرائه وأفكاره ومرتناه في أهل الشرق والغرب، أخلاقاً وسياسةً واجتماعاً)، نشر: المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1931م، ص24-39، أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص63-125، 259-261الرافعي، جمال الدين الأفغاني، ص5-138، عمارة، جمال، جمال الدين الأفغاني، ص20-85

الأفغاني، جمال الدين (1314هـ/1897م) الأعمال الكاملة (2 ج)، نشر المؤسسة العربية للدراسات، ط1، بيروت، 1981م، ج1، ص28-50، الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج2، ص28-50

ليفين، الفكر الاجتماعي، ص135-137

طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص293، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص126-127

بأن الحاكم المسلم الذي يتولى منصب الخلافة الإسلامية لا يشترط انتماءه للجنس العربي دون سواه، بل يكون الخليفة مسلماً، ولهذا لا ينكر الأفغاني أن تكون الخلافة في العثمانيين، وكان فكره يتسم بالجمع بين رفع شعار الجامعة الإسلامية ومراعاة الجانب القومي للعرب، ويحمل طابع الازدواج والتوفيق بين هذين الجانبين⁽¹⁾ داعياً إلى تعريب الدولة العثمانية، ويعتبر عمارة هذه الدعوة من الأفغاني على أنه يعي الفكر القومي العربي ويؤمن به كطريق سديد ووحيد لعزة العرب ونصرة الاسلام⁽²⁾ يقول الأفغاني حول تعريب الدولة العثمانية: " لو تعربت وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعي النفور والانقسام بالتركي والعربي، وصاروا أمةً عربية بكل ما في اللسان العربي من معنى، وفي الدين الإسلامي من عدل، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفي مكارمهم من عادات، لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً، ولو أنصف الأتراك أنفسهم وأخذوا بالحزم واستعربوا وترأسوا ذلك الملك، وعدلوا في أهله، وجروا على سنين الرشيد أو المأمون على الأقل، ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين، فما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة"⁽³⁾ ويقول: "فالأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان"⁽⁴⁾ ومع تركيز الأفغاني على دور العرب الرئيس في حمل الراية الإسلامية، لكنه يتحدث عن العصبية الجنسية "القومية"، ويدل حديثه عن ذلك على أنه داعية للقومية العربية، ومؤيد للعصبية الجنسية، وهو وإن لم يكن من أصل عربي، إلا أنه يكن للعرب والعروبة كل تقدير، وليس هذا لأن العرب اعتنقوا الإسلام واعتبروه دينهم، بل لكون تاريخهم يمتد إلى ما قبل تاريخ نشر الإسلام وفتوحاته وظهوره، وينفي الأفغاني أن تكون الفتوحات الإسلامية هي السبب الأول والأهم في نشر اللغة العربية، ويعزى ذلك إلى ما في اللسان العربي من الآداب الباهرة والحكم والأمثال، وهذا الذي أحله من الانتشار هذا المحل⁽⁵⁾ والحقيقة أن الباحث لا يوافق الأفغاني في هذه الفكرة، إذ لولا الاسلام لما انتشرت العربية في

(1) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص78-79

(2) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص94

(3) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج2، ص16

(4) الأفغاني، المرجع السابق، ج2، ص16، عمارة، الجامعة العربية والجامعة الإسلامية، ص76-77

(5) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص98-100

أرجاء المعمورة، لأن الفتوحات الإسلامية كانت السبب الرئيسي في نشر العربية، وقد كانت حركة انتشار العربية نتيجة طبيعية لانتشار الاسلام ولاحقة لها تأتي على إثرها⁽³⁾ ويدرك المتتبع لأفكار الأفغاني أن أفكاره لا تتسجم مع الفكر الإسلامي الصافي المنبع المستمد من الكتاب والسنة، بل تحمل في ثناياها جوانب غريبة تلتقي في حقيقتها ومراميها مع الآراء التي تروجها جهات تتعمد الإساءة إلى الإسلام وتشويه فكره فيما يتعلق بالكثير من المسائل والقضايا التي عالجها الإسلام معالجةً تتفق مع عقيدته وتشريعه ومنهجه الرباني المتكامل، من ذلك مثلاً مناداته بوحدة الأديان، وأن الأديان الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، ويتمنى لو اتحد أهلها مثلما اتحدت هي في جوهرها وهدفها، فيخطو البشر بهذا الاتجاه خطوةً كبرى نحو السلام⁽⁴⁾، وهذه قضية في غاية الخطورة يدعو إليها الأفغاني وترمي إلى إبطال دعوة المسلمين بأن الإسلام جاء كدين خاتم الأديان، وهو ناسخ لكل الديانات والتشريعات السماوية التي سبقته⁽⁵⁾، ولذلك تأتي آراء الأفغاني هذه متفقةً مع ما يروي المؤرخون عنه أنه ماسوني، وأنه يحقق في آرائه تلك أغراض الماسونية، وأهدافها التي تلتقي في النهاية مع مخططات اليهود في إبطال الأديان، وخاصة الإسلام، وتشويهه وإظهاره بأنه يلتقي مع اليهودية المحرفة التي حرفت بعد موسى⁽¹⁾، وقد ذكر عنه أنه عندما استدعاه السلطان عبد العزيز إلى استانبول عاصمة

(3) بوخالفه، نور الهدى، الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، د ج، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، قسم التاريخ 1986م، ص 241، 272.

(4) قلجي، قدری، ثلاثة من أعلام الحرية، نشر: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، طبعة أولى، بيروت، 1993م، ص 17، وانظر: بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 245.

(5) والنصوص الشرعية من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، وهما المصدران الرئيسان للتشريع في الاسلام، كثيرة، منها قوله تعالى: "إن الدين عند الله الاسلام، سورة آل عمران، الآية: 19 وقوله تعالى في آية أخرى: ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين" سورة آل عمران، الآية: 85 وقد جاء في الحديث الصحيح =الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن خطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذب به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعته إلا أن يتبعني). انظر: ونسبك، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، ج7، ص 101، ابن حنبل، المسند، ج3، ص 387، وهذا دليل صريح وواضح على نسخ الاسلام ما قبله من الأديان.

(1) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 343.

الخلافة العثمانية في أوائل سنة 1870م/1287هـ، التف حوله العلماء والأدباء والأعيان، وفي طليعتهم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) عالي باشا، الذي كان يلتقي معه في الرأي حول فكرة الجامعة الإسلامية، فألقى خطاباً في رمضان سنة 1287هـ/1870م، في دار الفنون في استانبول، وتفوه في هذا الخطاب بآراء أثارت علماء الشريعة المستمعين إلى ذلك الخطاب، وادعى فيه أن النبوة صنعة وليست وحياً، فاتهمه شيخ الإسلام (مفتي الدولة العثمانية الرسمي) حسن خيرى أفندي آنذاك بالزندقة ورماه بالإلحاد، وتحدثت عنه صحف استانبول وخطباء المساجد، وأمر على أثر ذلك بمغادرة عاصمة الخلافة، فغادرها إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد فيما بعد⁽²⁾، وإضافةً لهذا يؤخذ على الأفغاني أنه قد انضم للمحافل الماسونية التي هي من الحركات السرية التي تصب في خدمة اليهود وأهدافهم، كونها من جمعياتهم التي أسسوها تحت أسماء وشعارات براقة هي الحرية والعدالة والإخاء والمساواة⁽³⁾ فقد التحق الأفغاني بالمحفل الماسوني الاسكتلندي في مصر عام 1878م، وتقدم في مراتبها تقدماً سريعاً، وجعل يقفز هذه المراتب قفزاً لجودة استعداداته، حتى أصبح من الرؤساء بعد وقت قصير⁽⁴⁾، ويرجع موسى سبب انتمائه للماسونية لرغبته في إنقاذ المصريين من الذل، يقول: وكان السيد جمال الدين الأفغاني كثيراً لتطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوي الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التدخل الأجنبي في مصر، واختلت أمورها المالية، علم أنه لا بد من تغيير أحوالها، فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية، فدخل الماسونية، وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء، ثم أنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي، ودعا مريديه من العلماء والوجهاء إليه، فصار أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عدداً، وعظم إقبال الناس عليه، حتى أن توفيق باشا ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه⁽¹⁾.

ويبدو أن التوفيق بين انتسابه إلى المحفل الاسكتلندي الانكليزي، وولائه في البداية للمحفل الانكليزي، وعمله مع النكليز، ثم انتقاله بعد ذلك إلى المحفل الفرنسي،

(2) قلعي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص36-54، أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص117-118

(3) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص284-286

(4) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص338

(1) موسى، الفكر العربي، ص49

وعداؤه للانكليز، ليس بالأمر الصعب، لأنه بعدما رأى احتلال الانكليز لمصر وتنكيلهم بالمصريين، ثارت ثائرتة على الانكليز ونر منهم، فحول ولائه وتوجهاته للتعاون مع الفرنسيين، لذا يعتقد أن هذا التقلب في العلاقة بين الانكليز والفرنسيين، جاء في فترتين زمنيتين متتابعتين، لأن ذلك يتناسب مع توجهاته وأهدافه، وجاءت إشارة موسى تنسجم مع هذا التحليل حين قال: " ثم أنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي ... إلى أن قال: وكان شديد الكراهية لدولة الانكليز"⁽²⁾، كما يبرر القلجي له ذلك بقوله: " لعل أعضاءه يعملون معه لرفع الظلم عن مصر"⁽³⁾، وقد صرح الأفغاني نفسه بانتسابه إلى الماسونية بقوله: إن أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير: حرية، مساواة، إخاء!! وغرض هو منفعة الإنسان، والسعي لذلك صروح الظلم، وتشديد معالم العدل، هذا مارضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها، ولكن مع الأسف، أي جرائم الأثرة والأنانية وحب الرئاسة والعمل بمقتضى الأهواء ... الخ"⁽⁴⁾، ويشير عمارة إلى ماسونية الأفغاني مبرراً انضمامه إليها بأنه كان يهدف إلى الإصلاح، وأن أهداف هذه الحركة الهدامة لم تكن مكشوفة ومعروفة آنذاك، وإنما كانت تتمتع بسمعة حسنة، يقول عمارة " كانت حركة الماسونية في ذلك العهد ذات سمعة حسنة، فهي ترفع شعارات الثورة الفرنسية، الحرية المساواة الإخاء"⁽¹⁾.

ثم يحاول عمارة تبرئة الأفغاني بشكل يوحي بأن الأفغاني ذو أهداف نبيلة، وظن أن الماسونية هي وسيلته للوصول لتلك الأهداف، وأنه اكتشف فيما بعد الخيوط التي تربطها بالاستعمار، وأنه لاحظ أساليبها الشيطانية في التغرير بالأشخاص لاستخدامهم لتحقيق أغراضها بعد انخراطهم في صفوفها، يقول عمارة: اكتشف الأفغاني الخيوط التي تربط المحفل الماسوني بالاستعمار، فقد دعا قادة المحفل لتطبيق شعارات المحفل، فقالوا: إن الماسونية لا دخل لها في السياسية، وإنا لنخشى على محفلنا هذا من تدخل الحكومات وبطشها ... وهنا ثار على الماسونيين بقوله: ماسونيتكم اليوم لا تتجاوز كيس أعمال، وقبول أخ يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل، وهي رموز لا يفقه أكثرنا مغزاها، ولا المراد من وضعها"⁽²⁾ ويبدو أن الأفغاني بطبيعته المعروفة بحب الشهرة والرغبة في التفرد بميزات لا يحب أن يشابه غيره منها، كل هذا جعله ينشق عن المحفل الذي انتسب إليه ابتداءً، ويؤسس محفلاً جديداً، وقد يكون سبب تأسيسه المحفل الجديد، أن الماسونيين وثقوا به بعدما أثبت كفاءته ونشاطه المميزين، وعرفوا قدراته وإمكاناته في القدرة على استقطاب أعضاء ومنتسبين جدد يمكن للأفغاني جلبهم للانضواء تحت لوائه شخصياً لثقتهم به وارتياحهم

(2) موسى، المرجع السابق، ص49

(3) المخزومي، خاطرات الأفغاني، ص41-43، قلجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص54

(4) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص34-35 قلجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص54-56 وانظر: عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني (موقف الشرق وفيلسوف الإسلام) نشر: دار المستقبل العربي، ط1، القاهرة، 1984م، ص57.

(1) المخزومي، خاطرات الأفغاني، ص44-47، عمارة، جمال الدين الأفغاني، ص57

(2) عمارة، جمال الدين الأفغاني، ص58

إليه، فأذنوا له بتأسيس محفل باسمه نجد عمارة يذكر كمأثره حميدة للأفغاني، ويعتبره إنجازاً يذكر له بالفخر والعرفان، على أنه يستقطب خيرة العناصر الوطنية!! يقول عمارة: " تمرد الأفغاني على المحفل الماسوني العربي التابع للمحفل البريطاني، وأحدث انشقاقاً في الحركة الماسونية بمصر، وأسس محفلاً ماسونياً لخيرة العناصر الوطنية المصرية، علاقتهم مع المحفل الفرنسي، يضم ثلاثمائة عضو⁽³⁾ ويشير عبد الرحمن الرافعي إلى أن الأفغاني كان على علاقة وطيدة بالخدوي توفيق، بسبب انتمائهما إلى محفل ماسوني واحد، وأن التقاءهما في العضوية لهذا المحفل هو سبب العلاقة، وأن الأفغاني التقى بالخدوي توفيق في محفل مصر عند عودته إليها ثانية عام 1288هـ/1871م في عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني، وقد عاهد الخديوي توفيق الأفغاني على التعاون معه، والأخذ بتعاليمه ونصائحه لإقامة دعائم الحكم الشوري في مصر⁽¹⁾ وقد أسفر نشاط الأفغاني وتلامذته وصحبه من رجال الحركة الماسونية إلى السعي لبث أفكارهم ونشرها في ربوع بلاد الشام، وإظهار القرب والود والتعاون مع رموز المحافل الماسونية الشامية، وزيادة التنسيق والتفاهم والتشاور معهم.

يقول محمد محمد حسين "وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العربية (إشارة إلى ثورة أحمد عرابي) سنة 1882م، فإن الإخوان المصريين الذين جاءوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم، ودعاهم إلى محافلهم ومنازلهم، وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده (1849-1905م) وإبراهيم بك اللقاني، وحسن بك الشمسي، وجماعة المرحوم جمال الدين الأفغاني وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان، ويخطبون فيشغفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطليقة، ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الأمريكي الذي حضر إلى محفل لبنان"⁽²⁾.

من خلال ما سبق من مواقف الأفغاني والآراء المتعددة التي تثبت ماسونيته، ومن خلال سيرته التي دلت على تحركاته الكثيرة الواسعة في أرجاء العالم الاسلامي، وفي دول أوروبا كفرنسا وبريطانيا وروسيا، يبدو أن تلك التحركات تثير الريبة والشك في حقيقتها ومبررها وأسبابها وأهدافها، لا سيما بعد التعرف على دعوته إلى تقارب الأديان، وإلى التقريب بين السنة والشيعة في العالم الاسلامي، بعدما عرف من شيعيته وادعائه الانتساب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إطلاقه لفكرته الداعية إلى الوحدة الاسلامية تحت مظلة الجامعة الاسلامية، واعترافه بالنزعة القومية للعرب أساساً لنظريته الداعية إلى وحدة صفوف المسلمين، منطلقاً في ذلك من كتاباته في مجلته العروة الوثقى التي أسسها في باريس ودعا من خلالها إلى التضامن الاسلامي، وإنشاء تلك الجامعة التي تضم الشعوب الاسلامية وتشمل بلاد العرب،

(3) عمارة، المرجع نفسه، ص59

(1) الرافعي، عبد الرحمن، جمال الدين الأفغاني، نشر: دار الكاتب العربي، القاهرة، دت، ص13، 15، 45.

(2) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص329

وتدمجها مع سائر البلاد الاسلامية غير العربية في دولة واحدة لمواجهة خطر السيطرة الغربية على البلاد الاسلامية⁽¹⁾.

وصل جمال الدين الأفغاني إلى عاصمة الخلافة العثمانية استانبول، ويعد قدومه هذا كآخر مرة لم يخرده بعدها من هناك، وجاءت دعوة السلطان عبد الحميد للأفغاني إليه وهو في لندن عن طريق السفير العثماني في العاصمة البريطانية، وقد تعددت الآراء حول سبب دعوة الأفغاني إلى استانبول، إذ يعزّيها عمارة إلى أن السلطان عبد الحميد دعاه ليكون قريباً منه ويعاونه في العمل على نشر التضامن الاسلامي، وبناء صرح الجامعة الاسلامية، بهدف دفع الخطر الاستعماري عن الشرق، وإحداث اليقظة والترقي للشعوب الاسلامية، بسلوك طريق الإصلاح والتجديد، وكان وصوله في سنة 1310هـ/1892م⁽²⁾ بينما يرجع أحمد أمين بسبب تلك الدعوة إلى خوف الخليفة عبد الحميد من الأفغاني، وإلى ريبته وشكه فيه⁽³⁾، ذلك أن الأفغاني كان يتنقل بين البلدان الاسلامية والاوربية، وتنقل في أكثر تلك الدول، خاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا ومصر، وكان الأفغاني أثناء ذلك التجوال قد التقى برجال تركيا الفتاة، ذوي الاتجاه التغريبي، المنتمين للمحافل الماسونية، ولما كان هؤلاء يعملون ضد الخلافة وضد الخليفة عبد الحميد، ويخططون للانقلاب عليه، فقد عمد السلطان عبد الحميد تحركات الأفغاني مثيرة لمخاوفه، بما يصله من أخبار عن طريق مخابراته، وبما علمه عن الأفغاني من انضمام للمحافل الماسونية، ثم إن انتشار دعوة الأفغاني للجامعة الاسلامية، إضافة لما قيل من أن الشاه ناصر الدين شاه إيران، قد شكّا للسلطان عبد الحميد عن الأفغاني، وأن الأخير حرص الإيرانيين على الثورة ضد الشاه أثناء إقامته في طهران، كما أن السلطان عبد الحميد كان على علم بأن الأفغاني على صلات ببريطانيا، وأن تنقلاته بين الدول إنما كان بعلم ودراية من الانكليز، وقد يكون عن تنسيق معهم وتخطيط منهم وكان الأفغاني يمارس نشاطه ويدعو لأفكاره بتنسيق أيضاً مع المحافل الماسونية، ويلقي المحاضرات في تلك المحافل التي تحتضنه وترحب به، وتقيم له المنابر ليخطب ويتكلم فيها⁽⁴⁾، لذلك وجد عبد الحميد الثاني أن أفضل الحلول استدعاء الأفغاني ليقوم عنده في استانبول، كي يأمن مكره ويضعه تحت رقابته، ويتجنب ما قد يحصل منه من أضرار، خاصة أن دعوته للجامعة الاسلامية تجد لها أصداء واسعة بين جماهير المسلمين وذوي الرأي فيهم، فأراد من خلال تقريره منه أن يدفع ما قد يحصل من أضرار، وفي الوقت ذاته يجني ثمار دعوته الأفغاني للجامعة الاسلامية، ويتعرض بنفسه من الأفغاني نفسه على أفكاره وعلى إمكانية

(1) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج ١، ص 99-100، منسي، حركة اليقظة العربية، ص 57-59
عمارة، الجامعة العربية والجامعة الاسلامية، ص 76-77، ليفين، الفكر الاجتماعي، ص 135-137
عمارة، جمال الدين الأفغاني، ص 25، كامل، الإسلام والعروبة، ص 67-68
(2) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج 1، ص 305، سعيد، القومية العربية، ص 71
عمارة، جمال الدين الأفغاني، ص 79
(3) أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص 105
(4) قلججي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص 93-95

التنسيق معه، وضم جهوده إلى جهود مؤسسة الخلافة إن كان ذلك ممكناً من أجل توحيد تلك الجهود وحشدتها في مواجهة القوى الغربية الطامعة بدولة الخلافة، يقول عمارة في ذلك " تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو السيد إلى الأستانة، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم، بعد أن اجتمع ببعض رجالها في باريس، وأطلعوه على خطتهم في إصلاح الدولة العثمانية، فراقه مذهبهم، وشجعهم على عملهم، وسمى جمعيتهم بالجمعية الصالحة، وبلغ السلطان ذلك عنه، فرجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الأستانة، فأبى، ثم سلط عليه حيله ومكايده، ووعدته في تنفيذ آرائه في الإصلاح، ومثاه، حتى قيل: لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الأستانة إذا شاء، ولكن كان كل ذلك خدعة⁽²⁾."

ومع دخول الأفغاني إلى استانبول، أمر السلطان باستقباله استقبالا حسناً، وأجرى عليه راتباً 75 ليرة ذهبية شهرياً، وأنزله بيتاً ظريفاً في نيشان طاش بالقرب من يلدرز، وجعل تحت إمرته عربة وخداماً وحشماً، وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية، وعرض عليه منصب شيخ الإسلام، فأبى وكون فكرةً عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكي واسع الاطلاع على السياسة الأوروبية وألاعيها، واسع الحيلة على ضرب بعض الدول ببعض، ولكنه جبان، يفسد عليه جبنه ذكائه ومعرفته⁽¹⁾ وهكذا تم اللقاء بين داعيتي الجامعة الإسلامية، ومع اتفاقهما في الاتجاه العام لتوحيد المسلمين تحت راية الخلافة ومقاومة النفوذ الغربي والهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، إلا أنهما اختلفا حول الأساس الذي ينطلق فيه كل منهما حول الجامعة الإسلامية، فالسلطان عبد الحميد يؤمن الآنف الذكر لمفهوم الجامعة الإسلامية، مع الحفاظ على بقاء راية الخلافة في يد الخليفة العثماني، في حين يعتقد الأفغاني بأن الجامعة الإسلامية ينبغي أن تبنى على إعطاء ما تبقى من بلدان وأقاليم تحت سلطة الخلافة، استقلالاً وحكماً ذاتياً، ثم تجميع تلك الولايات تحت حكم اتحادي يجمعها، ويكون الجامع بينها سلطة الخليفة العثماني، وكان الأفغاني يلتقي الخليفة عبد الحميد ويفصح له عن آرائه بشأن الجامعة الإسلامية وغيرها من الآراء، وفي المقابل يصغي عبد الحميد إليه، ويتقبل آرائه ويتفحصها جيداً، ويبدو أن الانسجام والتوافق كان معدوماً بينهما، ولم يكن إصغاء عبد الحميد إليه إلا لقراءة أفكاره والإطلاع على تصوراته ومعتقداته، ويظهر هذا مما دونه عبد الحميد في مذكراته ونقله بعد قليل، أما الأفغاني فيذكر لنا ما جرى بينه وبين السلطان عبد الحميد، ويقول: "لقد كاشفتُ السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضع في خطوات عديدة، فكان يسمع بكل إصغاء، ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له، وفهمتُ من أوضاعه وأسارير وجهه، أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي،

(2) أحمد أمين، زعماء الإصلاح ص105، وانظر: ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص306 الرافعي، جمال الدين الأفغاني، ص137-38، عمارة، جمال الدين الأفغاني، ص80-81

قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص107

(1) أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص106-109

وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك، صواباً، وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا، وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ⁽¹⁾ وكان الأفغاني قد طرح فكرة تعريب الدولة العثمانية، لتمتين العلاقات بين العرب والعثمانيين كخطوة من خطوات الجامعة الإسلامية، وقال في ذلك: "لو أنصف الأتراك أنفسهم، وأخذوا بالحزم واستعربوا، وترأسوا ذلك لملك، وعدلوا في أهله، وجروا على سنن الرشيد أو المأمون - على الأقل- ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين"⁽²⁾ ويكمل الأفغاني عرض أفكاره على السلطان عبد الحميد ويقول: "فقلت للسلطان عبد الحميد: أتأذن لي في تقديم لائحة في تصوراتي، لتحسين حالة المملكة، والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟! قال: لا أريد أن تكتب شيئاً من ذلك، إذ لا أحب أن يطلع أحد على ما يدور بيننا، بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة، فأنا لك من السامعين، قلت: أعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها الولاة من الآستانة، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطة، أم جعلها خديوية، كما هي قبل الانكليز، خاضعة للدولة، ومن الأجزاء المتممة للسلطنة، فتفكر ملياً، وحول وجهه نحو النافذة عني، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه، وإذا هو بغتة قد التفت، وتوجه بكليته إلي، وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحاً بالقوة، وقال: لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية، ثم ماذا؟ قلت: يا مولاي إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية، ومساحة أملاكها في آسيا فقط ستمائة وواحد وستين ألف ميل مربع، ومساحة بريطانيا وإيرلندا مائة وعشرون ألف ميل، فتأمل فتبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها، مثل طرابلس الغرب، فتجعلها خديوية، ثم إلى ولايات بغداد، فالبصرة، فالموصل، فتجعلها خديوية، وإلى بيروت، وسورية، وحلب، مع القدس، فتجعلها خديوية، ثم إلى ولايات بغداد، فالبصرة، فالموصل، فتجعلها خديوية، وإلى بيروت، وسورية، وحلب، مع القدس، فتجعلها خديوية، ثم إلى الجزائر، بحر سفيدي وكريد مع أدنة وسلاطيك، فتجعلها خديوية، ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء، ثم الحجاز فتجعل خديوية الأقدس من الأشراف الهاشميين اليوم، ثم اليمن، وخديوية يكون الإمام الزيدي، أما الأناضول، فتقسم إلى ثلاث خديويات، وبلاد الألبان تجعلها خديوية ... هذه الخديويات يا مولاي، أول ما تقوضها إليهم أهل بيتك من أمراء آل عثمان، فتخلصهم من القعود مع النساء، فيحسن بالضرورة كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة، ... وقد رأيت السلطان، وهو على تمام الإصغاء لما أقول، قد تقطب وجهه، وعلته كآبة امتعاض وحزن، فقلت: يا مولاي! وعزة الحق، وبولائي لأمر المؤمنين، ونصحي للمسلمين، إن ما ساقني لما قلته إلا الإخلاص والحرص على ملكك، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية، التي ليس لجمع شمله، وتوحيد كلمتها، إلا الإعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة، ... ولما انتهيت ... هز السلطان رأسه

(1) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج2، ص16، مجلة المنار، م(2) ع(22)، آب 1899م، السنة (2)، ص337-345

(2) الأفغاني، المرجع السابق، ج2، ص16

وقال: ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان؟ وما أبقيت لتخت آل عثمان؟ قلت: يبقى جلالة مولاي السلطان، ملك أولئك الملوك، وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش غير عرش مصر، ثم متى نهضت تلك المقاطعات تسرع لمقام السلطنة للاتحاد معها، ونصون كيائها من مطامع الغرب، الموجه نحو عموم دول الشرق⁽¹⁾.

وهكذا نلاحظ عدم التوافق بين توجهات كل من الأفغاني والخليفة العثماني عبد الحميد، ويظهر من الحوار الذي دار بينهما أن الأفغاني يريد الاستقلال للبلدان التابعة للخلافة مع الإبقاء على الرابطة السياسية لها بالدولة العثمانية، لكنه يعرض ذلك بشكل غير مباشر، على شكل الاتحاد الفدرالي، كما هو شأن الكثير من الدول في العصر الراهن، وضرب الأفغاني لذلك مثلاً ما هو قائم من اتحاد بين بريطانيا وإيرلندا، وكان هذا العرض بمثابة شردمة للدولة العثمانية، وتقسيم لها، حتى وإن كان الظاهر من مشروع الأفغاني الإبقاء على تماسك دولة الخلافة الشكلي، ولا شك أن هذا فيه إضعاف لشوكتها وإسقاط لهيبتها كما فهمه السلطان عبد الحميد، بدليل أنه امتنع من هذا العرض، وأظهر البترم والاستياء، ثم صرح بقوله: ماذا تركت للسلطان، وما أبقيت لتخت آل عثمان، كما يفضي مشروع الأفغاني في محصلته إلى فصل البلاد العربية عن العثمانيين، بما فيها بلاد الشام، لكن هذا التحليل لا يوجد من أقوال الأفغاني ما يؤكد، ولا يؤدي لاجاد التنافر والصراع بين العرب والعثمانيين، كما أنه لا يحمل أي تحريض لأجد الفريقين على الآخر كالذي سعي إليه الكواكبي ونبيهه لاحقاً، ويستشف من لهجة السلطان عبد الحميد أثناء نقاشه مع الأفغاني، أنه لم يكن يطمئن له، وكان عبد الحميد مشروع الأفغاني لفكرة الجامعة الإسلامية، ومع أن الأفغاني كان مندفعاً لهذه الفكرة، لكن خطته العملية لتطبيقها على أرض الواقع لا تصب في مصلحة الأمة الإسلامية، لأنها تؤدي في النهاية إلى إحداث كيانات كانتونية على أنقاض امبراطورية عملاقة تحمل الإسلام، وتلوح بسيفه لدول أوروبا لإخافتها به، وتدرك هذه الدول معنى هذا التلويح وأبعاده.

ولذلك تعمل على إسقاط عبد الحميد، الذي أشهر هذا السيف في وجهها باسم الجامعة الإسلامية⁽¹⁾، وتعمل أيضاً على تقطيع الدولة العثمانية، لتتخلص من عدو لدود، يقف في وجه مخططاتها وأهدافها في السيطرة على أقاليم هذه الدولة، وهذا ما أكدته التطورات اللاحقة، حيث تم إسقاط عبد الحميد، ومن ثم جزئت الدولة، وسيطرت بريطانيا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا على ممتلكاتها في البلقان، إضافة لاقتسام الأوروبيين الدول العربية من خلال اتفاقية سايكس بيكو عام 1915م، وأيا كانت دوافع الأفغاني الحقيقية التي حملته على تبني فكرة الجامعة الإسلامية، فإنها تصب في النهاية في مصلحة بريطانيا، لأن الجامعة الإسلامية في ظاهرها توحيد

(1) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج2، ص16-18.
(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص147

المسلمين وإيقاظ تضامنهم وتقوية كياناتهم، لكن مضمونها الذي طرحه الأفغاني للتطبيق بالشكل الأنف الذكر، يقود عملياً في نهاية المطاف إلى استقلال تلك الخديويات التي سماها بهذا الاسم عن جسم الدولة العثمانية الأم، وأن تتجمع هذه الخديويات المستقلة في اتحاد كونفدرالي، يكون الخليفة رئيساً روحياً لهذا الاتحاد، دون أن تكون له السلطة الزمنية السياسية، أي أن يكون منصب الخليفة رمزياً، الخليفة مجرد رمز للعامل الإسلامي، وأن يصبح الاتحاد السوري بين الولايات التي ستستقل عن الدولة العثمانية شبيهاً بالاتحاد والكونفدرالي الألماني المطبق آنذاك في ألمانيا⁽¹⁾.

وهذا بدوره يقوي نزعة التجزئة لدى ذوي الأهداف المشبوهة من أبناء البلاد الإسلامية، الذين يعمل الكثيرون منهم بشكل خفي مع الدول الأوروبية الاستعمارية في هذا الاتجاه، وخاصة أبناء بلاد الشام من النصارى، كما مر معنا فيما سبق في الفصل الثاني، وكذلك تعاون الكثيرين لاحقاً مع قنصليات بريطانيا وفرنسا في بيروت ودمشق، وهو ما يتم بيانه عند مناقشة العلاقات العثمانية العربية في الفصل الرابع. ويورد بنو المرجة ما يؤيد التحليل الأنف الذكر، من أن التطبيق العملي لمفهوم الجامعة الإسلامية حسب طرح الأفغاني، يؤدي بصورة طبيعية إلى تفتيت الدولة العثمانية، ويخدم بريطانيا والدول الغربية الطامعة في أملاك الدولة العثمانية ومنها بلاد الشام، وأن هذا التوجه من الأفغاني، إنما كان بالتنسيق مع الدوائر الاستخباراتية البريطانية، عن طريق أشخاص ماسونيين انكليز يعملون في تلك الدوائر، وهم أنابلند وزوجها بلند نفسه⁽²⁾، إذ يذكر الشوابكة أن بلند وزوجته أنا كانا صلة الوصل بين الأفغاني ووزارة الخارجية البريطانية، وأنهما عملا معه كممثلين لها، وينقل الشوابكة ذلك عن وثائق إيرانية نشرها باحثان إيرانيان⁽³⁾.

أما بنو المرجة فيذكر أن مصدر معلوماته ندوة فكرية عقدت في منزل الأديب السعودي عبد العزيز الرفاعي، طرح خلالها قضية الارتباب في جمال الدين الأفغاني، أورد محمد محمد حسين خلال هذه الندوة، مصدرها وثائق نشرتها جامعة طهران، ومفادها أن الأفغاني لا ينتمي إلى بلاد الأفغان، وأنه شيعي إيراني، وليس أفغانياً سنياً، وأنه لا ينسب إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم كما يدعي لنفسه، إضافةً لكون تلك الوثائق تثبت مكانته عند الانكليز، واتصالاته الغامضة المشبوهة بهم وفرنسا وروسيا، علاوةً على تأكيد تلك الوثائق انتساب الأفغاني إلى الماسونية، وعلى ضوء ما سبق يرى محمد حسين أن الأفغاني مشكوك فيه كأمر واقع، وأنه ساعد على صبغ البلاد الإسلامية بصبغة غربية استهدفت تفتيت وحدتها عن طريق دعمه للثورات التي تسعى للإنفصال عن دولة

(1) انظر: كامل، الإسلام والعروبة، ص 68 - 70 .

(2) بنو المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 338

(3) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص 132-133

الخلافة، وإضعاف سلطتها المركزية، في الوقت الذي كانت تتعرض فيه إلى حملات استعمارية ضاربة، تسعى للقضاء عليها نهائياً، واقتسام المناطق التابعة لها⁽¹⁾.

وتدعيماً للآراء الآتية الذكر، يكشف ميرزا لطف الله خان الأسديادي (ابن أخت جمال الدين الأفغاني) حقيقة شخصية خال جمال الدين، بأنه من عائلة إيرانية كلها موجودة في إيران، ولا يوجد أية أصول لها في أفغانستان، وأنه من حي سيدان بقرية أسدياد بالقرب من حمدان⁽²⁾ وأن اسم والده اسم إيراني بحت، من الأسماء التي لا يسميها إلا الشيعة " صفدر " مركب من كلمتين هما: صف، العربية، و: در، الفارسية، التي معناها: ممزق أو مفرق، فيكون معناها: ممزق الصفوف، في الحرب، الشجاع البطل⁽³⁾ ثم يبين أن نشأة الأفغاني وأسلوب تربيته وتحصيله العلمي يثبتان أنه شيعي إيراني، وأن اشتراكه في توجيه الأحداث في إيران دليل آخر على إيرانيته⁽⁴⁾.

فيما سبق من هذا الفصل، من تعاون الكثير منهم مع قنصليات بريطانيا وفرنسا في بيروت ودمشق بعد إسقاط عبد الحميد الثاني، واشتداد حالة العداء بين العرب والاتحاديين كما سيأتي في الفصل اللاحق من هذه الدراسة، ويؤيد هذا الرأي ما أظهره الخليفة عبد الحميد الثاني تجاه الأفغاني في مذكراته، في كلمات تفيض بالشك فيه والحذر منه، والاحتياط الوقائي في إبقائه تحت رقابته إلى أن توفي الأفغاني، وما كان ذلك من عبد الحميد إلا لوجود أدلة بين يديه تدل على الأفغاني، وتدفعه ليتعامل معه بهذه الكيفية، يقول السلطان عبد الحميد: " وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني، وإنجليزي يُدعى بلينت، قالاً فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك، واقتراحاً على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين، كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب، كان في مصر، وكان رجلاً خطراً، اقترح عليّ ذات مرة -وهو يدعي المهدية- أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى، وكنتُ أعرف أنه غير قادر على هذا، وكان رجل الإنكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري، رفضت فوراً، فاتحد مع بلينت. استدعيته إلى استانبول عن طريق أبي الهدى الصيادي الحلبي، الذي كان تلقى الإحترام في كل البلاد العربية، قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا، حامي الأفغاني القديم، والأديب الشاعر عبد الحق حامد، جاء جمال الدين الأفغاني إلى استانبول، ولم أسمح له مرةً أخرى بالخروج منها"⁽¹⁾.

(1) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص342-344

كمال سعد، تحقيق صحفي بعنوان: خفقات قلب، مجلة الدوحة القطرية، ع41، مايو أيار، 1979م، ص64-65.

(2) الأسديادي، ميرزا لطف الله خان، حقيقة جمال الدين الأفغاني، ترجمة عن الفارسية عبد النعيم حسنين، نشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط1، مصر، المنصورة، 1986م، ص11.

(3) الأسديادي، حقيقة الأفغاني، ص13

(4) الأسديادي، المصدر نفسه، ص14-15

(1) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص148، 155، وانظر: موسى، الفكر العربي، ص144.

هذا رأي الخليفة عبد الحميد الثاني في جمال الدين الأفغاني وفي شخصيته وعلاقاته، جعله دائم الشك فيه، غير أنه بما يصدر عنه من مقترحات وأفكار، يعتبرها كلها مغرضة تسعى لإضاعة ملك آل عثمان، وتصغير وتحجيم دور الخلافة، أما الأفغاني نفسه فيتخذ موقفاً من السلطان عبد الحميد، يفهم أنه شك ولوم واتهام على حرص عبد الحميد على عرشه، وعدم قبوله للرأي الآخر، وإن كان الرأي الآخر كما يقول الأفغاني صواباً، وأن هذه الحالة من الجمود التي يتمسك بها أعظم خليفة للمسلمين، وإمامهم في عصره، تكاد تلقي بالأمة إلى التهلكة، بسبب حالة التقوقع والجمود والانغلاق التي يحيط بها الدولة العثمانية، وعدم استيعابه دعوات الأفغاني الإصلاحية الداعية إلى النهوض والانفتاح، يقول الأفغاني واصفاً ما آلت إليه العلاقات بينه وبين السلطان عبد الحميد، معبراً عن حالة الإحباط التي أصيب بها من جراء ما حدث بينهما، يقول: أما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن، لا يأمن أحداً، ويسيء الظن في كل أحد⁽¹⁾ ويختتم تقييمه لعبد الحميد، وللأوضاع التي تحيط بدولة الخلافة، مبدئياً أسفه وتألمه على تلك الأوضاع، وينحي باللائمة فيها على السلطان نفسه، ويقول: "كيف لا تذهب النفس حسرات، وأكبر سلطان في المسلمين، هذا موقفه من الجمود عن قبول النصيح وإصلاح الملك، والمحافظة أو المطالبة بصريح حقه في أجزاء سلطنته، بل روح الممالك الإسلامية، باب الحرمين مصر"⁽²⁾.

هذا ما كان من شأن حركة الجامعة الإسلامية، وأثرها في هذه المرحلة من العلاقات العربية العثمانية، في ظل خلافة السلطان عبد الحميد الثاني، والتي شهدت نشاطاً وجهوداً حثيثةً منه في جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم حول راية الخلافة، وكان من أبرز أعمالها بناؤه الخط الحديدي الحجازي، الذي كان له وقع طيب ومؤثر في نفوس المسلمين، ويؤكد أنطونيوس أن تنفيذ هذا الخط كان ضربة خبير في السياسة ربما أثار حماسه وتعاطف مع الخلافة في كافة ديار الإسلام، وبما كان له من الآثار في تثبيت مكانتها⁽³⁾، وهو ما شهد به السفير البريطاني في الأستانة في تقريره السنوي عام 1907م، والذي أشاد فيه بنجاح عبد الحميد من

(2) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج2، ص18-19.

(1) الأفغاني، المرجع نفسه، ج2، ص19.

(2) أنطونيوس، يقظة العرب، ص72-73.

خلال الجامعة الإسلامية في أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بأنه الخليفة والسند الروحي للمسلمين، يبرهن لهم عبر سكة حديد الحجاز على قوة شعوره وغيخته الدينية عليهم، وفي تسهيله لهم أداء فريضة الحج، وتوحيد كلمتهم تحت راية الخلافة لمواجهة أعدائها.⁽¹⁾

الاتجاه الثاني:

الاتجاه المؤيد للعلاقات العربية العثمانية، تبني موقف الخلافة ضمن إطار الجامعة الإسلامية.

- أبو الهدى الصيادي:

هو أبو الهدى الصيادي الحلبي⁽⁴⁾، وقد تميز هذا الرجل بأكثر من ميزة، جعلت

(3) انطونيوس، المرجع نفسه، ص73.

وانظر: حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص272-273

(4) هو محمد أبو الهدى أفندي بن الشيخ حسن وادي بن السيد علي بن السيد خزام الصيادي الرفاعي الحسيني (1266-1328هـ/1909م)، يرجع في نسبه إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، من نسب جعفر الصادق، إلى زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، من ولد فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد ونشأ في خان شيخون، وهي بلدة تابعة حالياً لمعرة النعمان إلى الجنوب الغربي من حلب، وهي قديماً من أعمال حلب تابعة لها، تعلم أبو الهدى في حلب، وولي نقابة الأشراف فيها، ثم تولى العديد من المراكز والمناصب فيها أيضاً، ثم سافر إلى استانبول، حيث أسندت إليه نقابة أشراف جسر الشغور عام 1870م، ثم ولي قاضياً على جسر الشغور، ولدوجوده في استانبول، علم به السلطان عبد الحميد من خلال حلقات الذكر ومجالس العلم التي كان يعقدها أبو الهدى، وينظر السلطان عبد الحميد لها نظرة الإحترام والتقدير، فأعجب به وقر به منه، وأنزله منزلة رفيعة، بعدما رأى علمه وفقه ومكانته الإسلامية والاجتماعية بين العرب، وأمر له بقصر فخم، وعين له ولمريديه لمقربين رواتب تكفيهم، وصار يستشيرهم في أمور الدولة ومسائلها، ولم يكن يرد له طلباً أو رجاء، وأصبح أبو الهدى منذ ذلك الحين من الموثوق بهم لدى السلطان، واستمر في ذلك إلى أن خلع السلطان عبد الحميد عن العرش، وقد حفظ أبو الهدى القرآن وهو ابن سبع سنين، وتعلم علم القراءات، وحفظ العديد من المتون في العربية والفقه، كالفقه ابن مالك، وتعلم التفسير والحديث والأدب والمنطق، ثم انكب على علم التصوف، فتمكن منه، وحفظ أكثر من مائة ألف بيت شعر، وله من المؤلفات الكثير، عدد صاحب مجلة الهلال بعضاً منها حوالي 74 مؤلفاً، ما بين كتاب ورسالة صغيرة، وتقول حفيده جاهدة أثناء مقابلة الباحث لها، أن مؤلفات أبي الهدى تزيد على مائتين وخمسين، بما فيها الرسائل الصغيرة، ويرى الزركلي أن أبا الهدى كان يشير بالبحث، أو يملئ جانباً منه، فيكتبه له أحد العلماء ممن كانوا لا يفارقون مجلسه، ويقول كرد علي: يقول بعضهم: إن أبا الهدى لم يكن على شيء كثير من العلم والأدب أول ظهوره، فلما عظمت شخصيته، جلب المعلمين لأولاده، فكان بحجة أن يلاحظ دروسهم، يستمع لما يلقيه الأساتذة، وبذلك تعلم ما قوي به على وضع بعض كتب في التصوف والأدب، بلغت نحو أربعين رسالة وكتاباً، وقيل إن بعض خواصه نحلة بعضها، وأنه ما كان ينظم ولا ينثر، والناظمون والناثرون بعض قاصديه وعفاته.

وقد أطلع من خلال مكتبة حفيده جاهدة بنت محمد تاج الدين بن حسن خالد الدين محمد أبي الهدى ابن حسن وادي الصيادي، في بيته في عمان، على بعض مؤلفات أبي الهدى، ومن أشهر تلك المؤلفات: كتاب ضوء الشمس في قوله صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس، مطبوع في 403 ص من القطع الوسط، وكتاب: الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الطاهرة، شرح فيه الحديث الشريف: الإيمان بضع وسبعون شعبة، وكتاب: روح الحكمة، يتحدث فيه عن علم الكلام وعلم المنطق معلم من علوم التعرف على الله عز وجل وكتاب سمير الغرباء ونديم الأدياء، وهو كتاب نظم فيه أشعاراً في التصوف وحديث عن الدنيا والآخرة ومواضيع مختلفة. وكتاب: حديقة المعاني في حقيقة الهم الإنساني في التوحيد، وكتاب: داعي الشهاد لسبيل الاتحاد والانقياد وتحدث فيه عن وجوب تأييد الخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية وقد لازم أبو الهدى السلطان عبد الحميد طوال فترة حياته، إلى حين عزل الاتحاديون السلطان عبد الحميد عام 1908م، ومنذ اليوم الأول من تعيينه مستشاراً للسلطان عبد الحميد، وداره منتدئ للوزراء والكبراء، ومحجاً لأبناء العرب الذين يقصدون استانبول للدراسة أو لقضاء الحاجات، وكان الشيخ حقاً كما يقول فيضي ذا عقل

الهجمة عليه قويةً مركزةً، إذ كان يتبوأ مكانةً مرموقةً من الناحية الاجتماعية والدينية، ولذلك تركزت الهجمة التشويهية عليه، وكان مصدر هذه الحملة التيار القومي من المتأثرين بالثقافة الغربية، والذين تبنوا الدعوة للانفصال بين العرب والعثمانيين، وجاءت عداوة بعضهم من خلال التأييد لبعد الرحمن الكواكبي، الذي كان على عدااء واضح للسلطان عبد الحميد الثاني ولمن نالوا خطوة منه وقرباً من أبناء العرب، وفي مقدمة هؤلاء أبي الهدى الصيادي، وكان الكواكبي ينسب نفسه لآل بيت النبي ع، وينادي بجعل الخلافة في العرب، كما سيأتي بيان هذا بعد الحديث عن الصيادي، فكان أبا الهدى قد كشف نسب الكواكبي لمقام الخلافة، لكون كلا الرجلين من حلب، فجاءت ردة الفعل عنيفة وقوية من الكواكبي ومؤيديه والمتأثرين به من المنتمين للاتجاه القومي، وأرادوا رد الضربة لأبي الهدى حسداً من عند أنفسهم عانا له من القرب للخليفة، وبما حظي به من العز والمكانة في مركز الخلافة، وكأنه قطع تلك الخطوة عن الكواكبي بما بينه للسلطان عنه، كل هذا جعل الكواكبي وأعوانه يصبون كل ما

ناضح ودراية ولباقة عظيمتين، دأب على مساعدة الملثجنين إليه من بين قومه، وسارت الأمور على هذا المنوال حتى حدوث الإنقلاب العثماني سنة 1908م، إذ ألقى الاتحاديون القبض عليه وسجنوه مع من سجنوا من وزراء عبد الحميد الذين لم يستطيعوا الهروب، ويقول المنتشة: إن مدة سجنه كانت لمدة شهر فقط، ويزيد كرد علي في توضيح الصورة بقوله عن أبي الهدى في أواخر حياته: تبين عزوفه عن الدنيا وعدم تعلقه بها، مع ما يتحلى به من تقوى ومهابة وحسن أخلاق وطيب معشر. وهذا بحد ذاته أفزع خصومه قادة الاتحاديين حين قبضوا عليه، يقول كرد علي أيضاً: على أن من زاروا الشيخ في أواخر أيامه كان يستهويهم بجميل حديثه وسعة محفوظته، ومكارم أخلاقه، وشدة عطفه على العرب من دون سائر العناصر العثمانية، وأهين الشيخ في = الإنقلاب العثماني عام 1908م إهانة لا يليق صدورها من أولياء الأمر يومئذ، سلطوا عليه الرعاع وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس، وهو شيخ معمر، ما كان من السلطان في مقام المتجسس، بل في مقام الناصح المرشد، دلت على ذلك تقاريره التي عثر عليها في جملة ما ظفروا به من إخبارات السلطان المخلوع، وأكد العارفون أنه ما خاطبه مدة اتصاله به، إلا بما فيه نفع للدولة، حتى لقد قال كبير حزب الاتحاد والترقي لجماعته لما عرّتهم الدهشة مما في هذه الأوراق: اكنموا الأمر ولا تنشروها، وإذا فعلتم تعلموا منزلة أبي الهدى في النفوس، وربما عاد القوم فقدموه وتبركوا به، فتريدون ولياً آخر إلى أوليائكم، عاش أبو الهدى في منفاه الذي نفاه إليه الاتحاديون في جزيرة ريكيو مقابل استانبول، إلى أن توفي هناك، وكانت وفاته 1909م، وقد مات فقيراً لم يستفد من متاع الدنيا، بل استفاد في حياته ثناء من أحسن إليهم، ثم نقلت رفاته إلى مسقط رأسه في حلب، ودفن في النكة الصيادية في مقابل قلعة حلب، وكان ذلك ...

- انظر: جاهدة الصيادي، السيرة الذاتية للجد أبي الهدى الصيادي، محفوظ (30 صفحة) محفوظ في مكتبتها الشخصية، عمان 1999/8/18م.

- الزركلي، الأعلام، ج6، ص94

- كرد علي، المذكرات، ج1، ص242-246، 250

- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين (ت 1358هـ/1940م)، منتخبات التواريخ لدمشق (3/ج1م)، قدمه كمال الدين الصليبي، نشر: دار الأفاق الجديدة، طبعة أولى، بيروت، 1979م، ج2، سيشار لهذا المصدر فيما بعد: الحصني، منتخب التواريخ لدمشق.

- فيضي، المذكرات، ص51-52

- المنتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص151

- مجهول، محمد أبو الهدى الصيادي، مجلة الهلال، السنة الأولى، المجلد الأول، ج10، ص369-373.

- الأفغاني، سبب خلع السلطان عبد الحميد، مجلة العربي، ع 169، كانون ثاني، 1972م، ص151

- جاهدة بنت محمد تاج الدين بن حسن خالد بن محمد تاج الدين بن حسن خالد بن محمد أبي الهدى الصيادي، مقابلة شخصية معها من الباحث، في منزلها في عمان بتاريخ الجمعة 1999/5/28م.

- موسى، الفكر العربي، ص139-140

لديهم من فنون الدهاء والمكر في تشويه الصيادي، كي يبعدوه عن الخليفة⁽¹⁾، وفي الوقت ذاته يظهروا الكواكبي بمقام المدافع عن العروبة والإسلام ضد "الأتراك" كما يسميهم الدعاة للقطيعة بين العرب والعثمانيين حينذاك -والذين يعتبرون هؤلاء الأتراك مغتصبين لخلافة العرب، لذا يجب العمل على استخلاصها من العثمانيين، وجعلها فيالعرب حصراً⁽²⁾ وعند طرح مشروعية الخلافة في الإصلاح السياسي الإسلامي كما يراه علماء السياسة الشرعية⁽³⁾، فإنه لن يجد أية استجابة لدى ذوي الرأي في الأمة، ولدى جمهور المسلمين، لقناعة هؤلاء وأولئك بأن الخليفة عبد الحميد الثاني يخطئ بتأييد عامة المسلمين له في العالم الإسلامي هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن التشهير بأبي الهدى الصيادي يأتي ضمن الحملة العامة الشرسة التي يتعرض لها السلطان عبد الحميد، باعتباره يحمل راية استمرار العلاقات بين العرب والعثمانيين، ويتخذ من الوسائل والأسباب ما يساعده على ذلك، ويتبنى الناحية الثانية أيضاً كتاب قوميون عرب، ينظرون للسلطان عبد الحميد وكأنه رجل انتهازي مخادع ينتهج سياسة مزيفة بتقريبه رجالات وشخصيات بارزة من العرب كأبي الهدى الصيادي، وأحمد عزت العابد، وأنه بدهائه وخبثه كما يسميه الكتاب القوميون، وجد بين العرب من يستخدمهم للوصول إلى أهدافه في الضغط على الوعي السياسي الناهض في البلاد العربية، ويحارب هذا الوعي الجديد بسياسة التظاهر بالعطف على العرب، والاعتماد على نفر منهم، ليسخرهم لتحقيق سياسته ضد مواطنيهم من أهالي البلاد العربية، فالقضية برمتها انتهازيون وأصحاب أهداف ومطامح رخيصة وساقطة من الطرفين العربي والعثماني، يتمثل ذلك في السلطان عبد الحميد من جهة العثمانيين، وأبي الهدى الصيادي وأحمد عزت العابد من أمثالهم من العرب من ضعاف النفوس والمصالح الشخصية كما يصورهم هذا الكاتب، وكل هذه اللعبة تدور على رقاب العرب ومصالحهم ومصائرهم، ومن يمثلهم كالكواكبي الذي يجاهد هذين الطرفين العربي والعثماني، ويقف في وجه مفاصلهم، كما يصوره الكاتب، فالحملة في رمتها انتصار للكواكبي ضد أشد أعدائه أبو الهدى الصيادي الذي لم يعترف الكواكبي بصحة نسبه العربي الشريف، وهكذا فإن أساس التلفيق على أبي الهدى وإنكار نسبه وانتسابه لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، إنما جاء بسبب الانتصار للكواكبي وترويج أفكاره،

(1) كان الكواكبي يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة من العثمانيين، لأنه ينسب نفسه لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه قرشي، وأن الخلافة في قریش، ويقول شعراً في هذا:

هي الخلافة أرجوها وترجوني
وقد تربع بها من هو دوني

ويقصد بالمتربع فيها السلطان عبد الحميد الثاني.

ثم يحاول الكواكبي الانتقاص من أبي الهدى الصيادي، محاولاً إبعاده عن الخليفة عبد الحميد، فيجيب السلطان على ادعاء الكواكبي وأمثاله بعبارة تحمل الدفاع عن أبي الصيادي والاعتزاز به، بقوله: هو الأمير وأنتم دون ذلك، أنتم تأتوني لدراهم، وهو يأتيني لأمر عظام.

- من مقابلة شخصية للباحث مع حفيدة أبي الهدى الصيادي، السيدة جاهدة بنت محمد تاج الدين بن حسين خالد بنأبي الهدى الصيادي، في منزلها بمدينة عمان، بتاريخ الجمعة 1999/5/28م.

وانظر: كامل، الإسلام والعروبة، ص79

(2) منسي، حركة اليقظة، ص66

(3) انظر ص157، من هذا الفصل

لدرجة القول إن الكواكبي خسر آلاف الجنيهات بسبب اختلافه مع هذا الطاغية (أبي الهدى الصيادي) وتعرض للسجن بسبب الوشائيات الذي دسها عليه عملاء السلطان (ولا شك أنه الصيادي)⁽¹⁾ ثم ترفع وتيرة الهجوم على أبي الهدى، عن طريق التعريف به بشكل يبدو فيه الحقد والافتراء والانتقاص المتعمد يقول هذا الكاتب: لقد كان أبو الهدى الصيادي فقير المال والحسب، من أهل حلب، ودفعته المقادير إلى الأستانة، غير أنه كان ماهراً ذكياً وسيم المحيا، ماضي الفريضة، قادراً على معرفة نفوس الناس، ومن أين تؤتى، فتغلب على عقل السلطان عبد الحميد، وربط نسبه بأعلى نسب عربي، وصار له أتباع يأتونه بكل الأخبار، ويستغلها أمهر استغلال، ولم يلبث أن صار بنفوذه ونشاطه "مستشار الملك"، و"حامي العثمانيين"، و"سيد العرب"، ثم اتخذ له بطانة من العلماء والأدباء، يؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم، وينظم بهم القصائد حين يريد شهرة الأدب والشعر، وصار أبو الهدى أخيراً قوة لها خطرهما، ويتدخل على السلطان عبد الحميد نفسه⁽²⁾ ثم يطلق عليه وعلى عزت العابد بأنهما قبلاً أن يكونا صنائع السلطان⁽³⁾ أما أحمد أمين فيعد أبا الهدى ألد أعداء الكواكبي، وأن أبا الهدى عاداه لأن الكواكبي رفض الاعتراف بصحة نسبه، ولاعتداء أبي الهدى على بيتهم، يأخذ نقابة الأشراف منهم لنفسه، فكان أبو الهدى أيضاً يدس له، ويغري ولاة الأمر⁽⁴⁾. ويرى الشوابكة "أن الحملة التي تعرض لها أبو الهدى، لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسرية التي تميزت بها مدينته حلب قديماً وحديثاً، حيث وقف آل الجابري والكواكبي والكتخدا موقف العداء الناشئ عن الحسد من آل القدسي والمدرسي والرفاعي، وخاصة الأخيرة التي ينتمي إليها أبو الهدى، لما نالته هذه الأسرة من مكانة وخطوة"⁽⁴⁾.

وقد يكون التنافس بين الأسر المذكورة على الجاه والمناصب والمكانة الدينية والاجتماعية والسياسية في حلب في تلك الفترة، متطافراً مع السبب الآخر، الذي تمثل في التيار القومي، وشدد الهجمة على العلاقات العربية العثمانية، في الوقت ذاته الذي سعى به الحريصون على تلك العلاقات من الجانبين العربي والعثماني إل تمثينها بينهما عن طريق المناداة بالجامعة الإسلامية، فعمل المنتمون للتيار القومي على تشويه حاملي حركة الجامعة الإسلامية كأبي الهدى الصيادي والسلطان عبد الحميد، في محاولة لإعاقة وتعطيل انتشار تلك الحركة، وقد اجتمع هذا من السببان معاً لمحاربة الاندماج العربي العثماني، وإيجاد التنافر والفرقة بين ركني الخلافة الرئيسين، من أجل الوصول بالعلاقات العربية العثمانية إلى نهايتها وقطعها.

(1) الطباخ، إعلام النبلاء، ج7، ص516

العدوي، قادة التحرير العربي، ص125 وانظر:

موسى، الفكر العربي، ص137

(1) العدوي، قادة التحرير العربي، ص124، وانظر: الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص70

(2) العدوي، المرجع نفسه، ص124

(3) أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص267

(4) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص71

ومن دواعي الحملة المكثفة على أبي الهدى الصيادي أيضاً، أنه كان علماً من أعلام التصوف، في عصره، وكانت الدولة العثمانية تستند إلى المتصوفة وأصحاب الزوايا والنكايا في أمرين اثنين، الأول: كسب التعاطف الديني الإسلامي من جماهير المسلمين في العالم الإسلامي عامة، وفي بلاد الشام على وجه الخصوص، من خلال النظر إلى المتصوفة كرهاد وعباد وأتقياء⁽¹⁾، وأن تشجيع الدولة العثمانية، لهم وإظهارهم بين الناس بهذه الصورة، يؤكد أنها دولة مسلمة تدعو إلى الإسلام، وتحافظ على قيمة وشعائره وأحكامه⁽²⁾، وحقيقةً كان هذا المعنى بارزاً جلياً لدى العثمانيين، سواء أثناء فتوحاتهم التي عملوا على نشر الإسلام من خلالها في أوروبا، أو أثناء فترة حكمهم للبلاد التي افتتحوها، واستمرت تحت سيادتهم لمدد زمنية متفاوتة من منطقة لأخرى، لهذا اشتدت الحملة على أبي الهدى الصيادي بسبب تصوفه، وكيل الإتهامات له، مشعوذ، منجم، وأنه يقدم الإسلام للسلطان عبد الحميد من خلال هذا الفهم، وكان تأثيره على السلطان عبد الحميد بما قام به أمامه من أعمال خارقة نالت إعجابه، فقربه منه، واعتقد السلطان أن هذه الأعمال من كرامات الأولياء، وأن من يقوم بها من أولياء الله الصالحين، ومما لا شك فيه أن هذه الأمور إن ثبت حدوثها، وهذا أمر مشكوك فيه، فهي ليست المدخل المناسب الذي ينفذ منه أبو الهدى ليصل إلى درجة القرب من السلطان عبد الحميد، لأنه ليس من السهولة أبداً أن تنطلي هذه الأمور على شخص كالسلطان عبد الحميد، وهو المحاط بطبقة من العلماء والفقهاء والعارفين بعلوم الشريعة الإسلامية، التي تحارب الشعوذات والتنجيم وغير ذلك، مما لا يسكت عنه من هم حول السلطان إن رأوا ذلك يخالف الشريعة، ولو كان أبو الهدى من هؤلاء لنبذه السلطان، وهو الخبير بمعادن الرجال وداهية دهاء عصره، فلا يمكن أن يقبل شخصاً مثل أبي الهدى، لو لم يجد فيه من الصفات والسجايا الخلقية، ومن العلم والفضل والنسب الرفيع والحنكة والذكاء ما يؤهله لجعله مستشاراً له، وكان أبو الهدى قد تحلى بتلك الصفات التي ينشدها السلطان، وساعدته ليتخذ منه عوناً وواسطة لتقريب

(1) وتلن، عبد الحميد، ص 92-93

(2) النديم، السلافة، ج2، ص 68

وانظر: وتلن، عبد الحميد، ص 67-68، 92-93، 176، 178

فيضي، المذكرات، ص 85

موسى، الفكر العربي، ص 141

العرب، وحفظ التوازن بين عناصر الدولة العثمانية، ويبقى للعرب مكانتهم المرموقة لدى مركز الخلافة، ويذكر فيضي أن السلطان عبد الحميد قد أنزل أبا الهدى منزلة رفيعة، وقربه منه بعدما رأى علمه وفقه ومكانته الإسلامية والإجتماعية بين العرب⁽¹⁾ وكان السلطان عبد الحميد قد وظف هذه الإمكانيات المتوفرة في شخصية أبي الهدى في خدمة الدولة العثمانية في سعيه للنهوض بها، وجعله صمام الأمام في علاقاته بالعرب، وكان السلطان يقدر هذه الشخصية ويعرف مكانتها بقوله عنه: " كان يلقي الإحترام في كل البلاد العربية"⁽²⁾ لهذا كانت بصمات أبي الهدى واضحة في تعزيز موقف السلطان عبد الحميد تجاه قضية فلسطين، وبيان أهمية القدس بالنسبة للمسلمين، وتنبيهه السلطان إلى مكائد بني يهود في مساعيهم الحثيثة والمتكررة لإيجاد موطئ قدم لهم في فلسطين في فترة خلافة عبد الحميد، كما سيأتي بيانه لاحقاً، كما برز دور أبي الهدى في التصدي لتيار الغريب في بلاد الشام، الذين عملوا على إساءة العلاقات العربية العثمانية، بتأجيج روح الثورة على العثمانيين، والتحريض ضدهم والثورة عليهم، فتصدى لهم أبو الهدى، صوناً للعلاقات العربية العثمانية من الضياع والتدهور، يقول طلس: واستعان عبد الحميد على حركته هذه (التصدي لدعاة التغريب) بنفر من الرجال، وفي طليعتهم مستشاره وفقه بلاطة، الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي، الحلبي الذكي الداهية، واستطاع أن يستولي على نفر من المثقفين ورجال الدين وأرباب الطرق الصوفية، ويتخذ منهم بطانة تقف أمام تيار الإصلاح، فأخذت هذه البطانة الحميدية تنشر آراءها في كافة أنحاء المملكة، ومن بينها البلاد العربية، مبينة للناس أن الوعي القومي الممثل في هؤلاء، أو غيرهم من الجماعات التي تدعو إلى القوميات في سائر بلاد المملكة، إنما هو وعي كاذب، وأن أوروبا إنما بعثت به لإفساد أحوال المسلمين، واستطاع عبد الحميد وبطانته أن يستمروا في الهيمنة على أجزاء المملكة فترة طويلة، كما استطاعوا أن يؤخروا الوعي القومي، وبخاصة الوعي القومي العربي فترة ما^(*).

(1) فيضي، المذكرات، ص51-52

(2) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص148

وانظر: موسى، الفكر العربي، ص141، 147

(*) طلس، تاريخ الأمة العربية، ص33

أما على المستوى الرسمي في الدولة، فقد كان الخليفة عبد الحميد الثاني ينيب مستشاره بدلاً منه ليمثله في بعض الحالات التي تتطلب وجود السلطان وحضوره في مناسبات عامة، لا سيما في الميدان الإسلامي، فينتدبه السلطان لذلك في أوقات انشغاله التي لا يستطيع الحضور فيها شخصياً، وهذا مسلك متعارف عليه لدى الأمم والدول، وعرف دارج في الأوساط الرسمية لديها، وقد ذكرت جريدة المؤيد المصرية، نقلاً عن جرائد العاصمة استانبول حدثاً له صفة رسمية يتطلب حضور السلطان، انتدب عنه المستشار أبا الهدى الصيادي ليقوم مقامه في أداء المهمة البروتوكولية، ونص الخبر هو: "تقول جرائد الأستانة أنه احتفل في بشكطاس من أحياء الأستانة، بافتتاح المسجد والزاوية والمدرسة والمكتبة التي أنشأها سماحة أبي الهدى أفندي الصيادي، ورعاها بالإسم الحميدي الكريم"⁽¹⁾.

وقد بلغت الحملة على أبي الهدى مبلغاً غير قابل للتصور، حين دخلت في حيز الاتهام الخلقي بقضايا بترفع القلم عن ذكرها، ويتهمون به علاقة مريبة؟! مع صبي يقال له شكيب، ويوردون قصيدة شعرية مدسوسة مكذوبة، مثبتة في ديوان الشاعر المصري حافظ إبراهيم، بندي جبين الإنسان لمجرد الذكر لها، وهي بعنوان: في محبوب نافر⁽²⁾، وقد ذكرها محمد حسين معلقاً بأنها قيلت في أبي الهدى الصيادي⁽³⁾ وأمثال هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مستوى السقوط الخلقي والتردي والانحدار، ومستوى الحقد والاحتقان في نفوس أعداء التلاحم العربي العثماني، ودعاة التفريق بين هذين الفريقين، لدرجة عدم التورع عن قول أبي شيء، في سبيل تشويه من يريدون، من أجل الوصول إلى أهدافهم، وللحد الذي يبتدعون فيه كل أساليب السوء للتفتيس عما في صدورهم من حقد وباطل رخيص، غير عابئين بما سيقوله التاريخ عنهم وعن تزويرهم ومفاسدهم.

أما عن دور أبي الهدى في حركة الجامعة الإسلامية، فهو دور مهم للغاية، نظراً للموقع الذي تبوأه في مركز الخلافة كمستشار للسلطان، وممثل العرب الدائم في البلاط السلطاني العثماني، ولهذا فقد كان من أنشط العاملين والدعاة للجامعة الإسلامية، ومن المؤيدين لها بصورة مطلقة، تكاد تكون انعكاساً لوجهة نظر الخليفة عبد الحميد الثاني، ومتطابقة مع تصوره لهذا الموضوع، وينظر إلى دور أبي الهدى أيضاً بأنه مفتاح العلاقات العربية العثمانية، ووسيلة العرب في تحقيق رغباتهم لدى عاصمة الخلافة، ودليل عملي

(1) جريدة المؤيد المصرية، ع5359، الأحد (1) ذي الحجة 1325هـ/5 كانون ثاني 1908، ص6 شريط ميكروفيلم رقم (1212) قاعة الميكروفيلم، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

(2) إبراهيم، حافظ، الديوان، ضبط أحمد أمين وآخرين، نشر: الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط3، 1987م، ص160-161.

(3) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص290-291.

على التلاحم والتماسك في الصف العربي العثماني أمام دعاة التغريب وأعداء الخلافة، الذين يكيدون ما وسعهم الكيد للوصول إلى تحقيق التباعد والتفريق بين العرب والعثمانيين، وعلى الصعيد الوظيفي الإداري في حركة الجامعة الإسلامية، كان أبو الهدى الصيادي بمثابة المستشار الأول للسلطان في تنظيم أمورهما، وكان يرأس ما يمكن اعتباره اللجنة المركزية المخططة لها في العاصمة، والتي تعمل تحت الإشراف المباشر للسلطان عبد الحميد⁽¹⁾.

وإلى جانب نشاطه العملي في خدمة سياسة الجامعة الإسلامية، قام أبو الهدى الصيادي بوضع رسالة بعنوان: داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد⁽²⁾، ركز فيها على دور الجامعة الإسلامية في حياة المسلمين عبر تاريخهم الطويل، مبيناً أهمية منصب الخلافة، ووجوب التفاف المسلمين حوله، لا سيما في الظروف الحرجة التي تمر بها دولة الخلافة، واشتداد التآمر الدولي عليها، يقول أبو الهدى الصيادي: "... جمعت ببيان لزوم الاتحاد والانقياد لأمر الأمير، هذه الرسالة، وسميتها: داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد"⁽¹⁾.

وقد ختم أبو الهدى هذه الرسالة بتكرار تأكيده على وحدة المسلمين وتجمعهم في بوتقة الجامعة الإسلامية تحت راية الخلافة المعظمة جماع أمر المسلمين ورمز قوتهم، وقد قال عنها: " فهي السبب الأقوى بعون الله، لإصلاح أحوالنا، وذلك إذا ربط بحبل الاتحاد والانقياد بصفاء النية، فتلك النقطة الجامعة للخيرات الدنيوية والأخروية"⁽²⁾.

- الاتجاه الثالث:

عبد الرحمن الكواكبي (1265-1320هـ/1849-1902م).

(1) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص71

(2) أبو الهدى الصيادي، محمد بن حسن وادي، داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد، نشر: المطبعة السلطانية، استانبول، دت، ص1-7، وهذا الكتاب عدصفحاته 52 صفحة من القطع الوسط، ويتألف من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، تكلم في المقدمة عن عقيدة القضاء والقدر، وتحدث في الباب الأول عن فرضية منصب الامام ووجوب وجود إمام للمسلمين، وفي الباب الثاني بيان لأهمية الوحدة والاتحاد في حياة المسلمين، وأكد أبو الهدى في الباب الثالث على ضرورة موازنة المسلمين للخليفة والتفافهم حول في سياسة الجامعة الإسلامية، ووجوب تأييد المسلمين لدولة الخلافة العثمانية ضد أعدائها المتربصين بها

وانظر: موسى، الفكر العربي، ص141

(1) أبو الهدى الصيادي، داعي الرشاد، ص7، موسى الفكر العربي، ص141-144

(2) أبو الهدى الصيادي، المصدر نفسه، ص52

خلافة عربية، وعداء للجامعة الإسلامية وللعثمانيين، ودعوة لفصل الدين عن الدولة.

ويأتي الاتجاه الثالث في الموقف من الجامعة الإسلامية، ومن التقارب العربي العثماني، متمثلاً في اتجاه عبد الرحمن الكواكبي⁽³⁾ وكانت شخصيته ومواقفه المثيرة ذات

أثر واضح في القضايا الساخنة في عصره، من أبرزها موقفه العدائي الصريح من العثمانيين، ومن الخلافة العثمانية، وبالذات من خلافة السلطان عبد الحميد، ثم موقفه من العلاقات العربية العثمانية، وقد تطرق البحث عند الحديث آنفاً عن أبي الهدى

(3) هو عبد الرحمن بن أبي السعود أحمد بن بهائي بن مسعود بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف بالكواكبي، ابن صدر الدين موسى بن صفى الدين إسحاق الأردبيلي، ومن جده صفى الدين إسحاق السابق الذكر يأتي إسماعيل الصفوي الذي جلس على عرش فارس، وأسس الأسرة الصفوية، وقد أرجع البعض الكواكبي بالإضافة إلى أصله الشيعي الفارسي الصفوي، إلى آل بيت النبي، من ولد موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وأمه عفيفة بنت مسعود آل النقيب، كان أبوها مفتي انطاكية، أحد أجدادها الشريف أبو إبراهيم، محمد إبراهيم هاجر إلى حلب من حران إلى حلب، أما جد الكواكبي الكبير فقد هاجر من فارس إلى حلب، وتزوج في حلب من أمه عفيفة بنت مسعود آل النقيب. كان مولد عبد الرحمن الكواكبي في حلب، وكان يلقب بالسيد الفراتي، تلقى تعليمه في انطاكية، ثم في حلب في المدرسة الكواكبية، أتقن اللغة العربية والتركية والفارسية، عمل موظفاً في حلب في المدرسة الكواكبية، أتقن اللغة العربية والتركية والفارسية، عمل موظفاً في حلب بين 1875-1879م، محرراً عربياً ومترجماً تركياً لجريدة الفرات الرسمية في حلب، ثم تقلب في وظائف عديدة، فكان عضواً في لجنة امتحان المحامين بحلب، ثم عضواً في لجنة المنافع العمومية (وزارة الأشغال)، ومدير إجراء حلب، وترأس في سنة 1894م كتاب المحكمة الشرعية بحلب، ثم ترأس غرفة التجارة والصناعة والزراعة في حلب، وفي مجال الصحافة بعد عزله من الوظيفة أنشأ جريدة الشهباء، فأقفلتها الحكومة العثمانية، ثم أنشأ جريدة الاعتدال، فعطلت أيضاً لتهجمه على الدولة، ثم سجن وخسر جميع ماله، ورحل إلى مصر، وساح سياحتين في البلاد العربية وشرقي أفريقيا والهند، واستقر في القاهرة إلى أن توفي، أصدر في مصر، كتابية طبائع = الاستبداد، ندد فيه بسياسة السلطان عبد الحميد التي اعتبرها استبدادية، وكتابة أم القرى، وكان في الكتابين ناقماً على الدولة العثمانية، ساخطاً عليها، يحرض عليها ويؤلب الرأي العام ضدها، مخالفاً لمنهجها، ولعل وجوده في مصر، التي كانت مركز الخارجين على الدولة العثمانية من عرب بلاد الشام، في ظل الانتداب البريطاني وبتشجيع منه، لعل ذلك جعله يتعاون مع أعداء العثمانيين، ويجاهر في آرائه ضد الجامعة الإسلامية وخلافة العثمانيين، وضد العلاقات العربية العثمانية.

الكواكبي، عبد الرحمن (ت1320هـ/1902م)، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد جمال طحان، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1995م، ص39-47.

- الزركلي، الأعلام، ج2، ص298، العقاد، عبد الرحمن الكواكبي، ص28-45.
عمارة، محمد، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار الشروق، طبعة ثانية، القاهرة، 1988م، ص13-43.
- الدهان، سامي، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار المعارف، ط5، القاهرة، 1984م، ص12-32، عبود، رواد النهضة الحديثة، ص257.

- الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص73، عمارة: فجر البقطة القومية، ص362.
- الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص65، أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص267-300.
- كامل، الإسلام والعروبة، ص75-79.
- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص142، فريجات، الثورة العربية، ص23.
- الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص46-50، موسى، الفكر العربي، ص151-153.
- انطونيوس، بقطة العرب، ص99-103، قلججي، الثورة العربية، ص50-51.
- زيدان، تاريخ آداب العربية، ج4، ص279-280.
- طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص221، سركيس، معجم المطبوعات، ج2، ص1574-1576.
- مجلة المقتطف، مجلد 27، ج7، (1) تموز، سنة 1902م، ص622-924.
- آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص11-13، الطباخ، إعلام النبلاء، ج7، ص507-524.
- المنار، م5، ج6، حزيران، 1902م ص237-240، ج7 يوليو 1902، ص276-280.
- الحصيني، منتخب التواريخ لدمشق، ج2، ص920.

الصيادي إلى التنافس والتنافر بين بعض الأسر الحلبية العريقة كآل الرفاعي، الذين ينتسب إليهم أبو الهدى، وآل الجابري والكتخدا وآل المقدسي والمدرسي، ولذلك فإن ما قيل بحق أبي الهدى قد يكون مرده كما أسلفنا إلى محاولة الرد من آل الكواكبي ومؤيدوهم وأنصارهم على ما أبداه أبو الهدى من بيان حقيقة نسب آل الكواكبي، وأصولهم الشيعية الفارسية، وتوضيح ذلك للديوان العثماني والخليفة عبد الحميد نفسه، فجاءت نقمة آل الكواكبي على السلطان عبد الحميد وعلى أبي الهدى شديدة وقوية، وقد أشار أحمد أمين إلى ذلك، متهماً أبا الهدى بالدس على الكواكبي والتحريض عليه بقوله: كان من أعداء الكواكبي أبو الهدى الصيادي، لأن الكواكبي أبى الاعتراف بصحة نسبه، ولإعتداء أبي الهدى على بيتهم، يأخذ نقابة الأشراف منهم لنفسه، فكان أبو الهدى أيضاً يدس له، ويغري ولاية الأمر به⁽¹⁾.

كان الكواكبي مقيماً في حلب يظهر في كتاباته الصحفية العداء للعثمانيين، ويندد بسياستهم في البلاد العربية، وكان يشير بشكل واضح إلى أن تأخر المسلمين في جميع الميادين ناتج عن تدهور النظام السياسي لديهم، وأن العلاج لهذا يوجب العودة إلى نظام سياسي ثوري يعتمد النهج السياسي في العصور الإسلامية الأولى، وشرط النجاح لذلك هو الابتعاد عن الاستبداد⁽²⁾ لما تشكله ظاهرة الاستبداد من خطر على جميع القيم في كافة الميادين السياسية والاجتماعية والدينية، ويعتبر أن الحرية هي روح الدين، وهي أعز شيء على الإنسان بعد حياته، وبفقدانها تفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس وتتعطّل الشرائع، وتختل القوانين، ويرى الكواكبي أن الحكومة التي يحكمها الشرع، والذي تسهر الأمة على تنفيذه، وتحاكم في ظله الحاكم والمحكوم على حد سواء، ويلتزم خلاله كل فرد بحقوق وواجبات، وبه تسعد الأمة وترقى⁽³⁾ وبعد بيان الدول المستبدة والدول العادلة، وينظر إليها نظرة العداء، وينفي عنها حقها في الخلافة⁽¹⁾، لأنه يرى الرأي القائل بأن الخلافة في قريش، وشروط الخليفة أن يكون وفقاً لذلك عربياً قرشياً، وهذا شرط لا يتوفر في العثمانيين، لذا يجب أن تكون الخلافة في غيرهم، وأنهم ليسوا الأحق بها، وأن خلافتهم باطلة

(1) أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص251 طبعة دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان .

(2) الاستبداد لغة: التفرد بالرأي، وهو أيضاً: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النصيحة، والاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة، ويراد به إطلاقه: استبداد الحكومات خاصة، والاستبداد في اصطلاح السياسيين: هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعه، ويستعمل في مقام كلمة استبداد: اعتساف، ويستعملون في مقام كلمة مستند كلمات: جبار، طاغية، حاكم بأمره، حاكم مطلق، وأشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان، هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرض، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية، انظر:

ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص81، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، ص286

أدونيس وآخرون، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1982م، ص28-29 .

- الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص49، موسى، الفكر العربي، ص154-167

- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص259-260

(3) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد، مطبعة المعارف، مصر، دت، ص17، 36، 43، 94، 119، 159-160. موسى، الفكر العربي، ص167

(1) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص73-74، كامل، الإسلام والعروبة، ص79

- الشهابي، القومية العربية، ص42

لافتقارهم إلى هذا الشرط⁽²⁾، وأن العثمانيين انتزعوا الخلافة انتزاعاً من العرب، سواء بالإغراء أو بالإكراه، بعد استيلاء السلطان سليم الثاني على مصر، لهذا وجب أن يعود الحق إلى أصحابه بإقامة خلافة عربية⁽³⁾، ويستند الكواكبي في موقفه المتحامل على العثمانيين، إلى أنهم السبب في وقوع كثير من ديار العرب والإسلام تحت سيطرة الأجانب، وأنهم إضافة لعدم تطبيقهم الإسلام وعدم المحافظة على دياره، فإنهم تركوا الأجزاء المتاخمة للدولة العثمانية للضياع، دون مد يد المساعدة لها، ويدلل على ذلك بضياع الأندلس، وعدم مد يد العون لمسلمي الهند وآسيا الوسطى، إضافة لمسلمي أفريقيا والصين، ويقول: أليس الترك قد تركوا وفود الملتجئين إليهم يعودوا خائبين، وتركوا المنتصرين بهم عرضةً للمنتقمين، وتركوا ثلثي ملكهم طعمةً للمتغلبين ... أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون بلا خليفة، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع؟ وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد؟ أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة؟ وتركوا الهند مساهلةً، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروس، وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين!! فهل والحالة هذه ما أن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية، فيتركوا الخلافة لأهلها والدين لحماته؟!⁽¹⁾ وهم يحتفظون على بقية سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين، وبذلك يتقون الله في الإسلام والمسلمين⁽²⁾. لهذا يرى الكواكبي أن المسلمين فقدوا الثقة بالعثمانيين، ويجب إعادة الخلافة إلى العرب، وأن يختار خليفة قرشي تكون سلطته على المسلمين روحية فقط، ويكلف هذا الخليفة هيئة من ذوي الاختصاص يتولون الشؤون السياسية والإدارية للأمة، ويكون مركز الخلافة في مكة، ويشرف الخليفة على الولايات الإسلامية إشرافاً اسمياً، ويترك لحكام الأقاليم الإسلامية إدارة أقاليمهم،

(2) يرى علماء السياسة الشرعية أن الخلافة في قریش، وترجع هذه الفكرة في جذورها التاريخية إلى اجتماع الصحابة بيوم السقيفة، وهو اليوم الذي بويع فيه أبو بكر الصديق بالخلافة، وكان ذلك الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، حيث اجتمعت قریش على الأنصار لما هموا ببيع سعد بن عباد، وقالوا: (منا أمير ومنكم أمير) استناداً لقوله صلى الله عليه وسلم الأمة من قریش، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم، لم تكن الوصية بكم، فحجوا الأنصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيع سعد لذلك، وثبت أيضاً في الصحيح: لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قریش، إلا أنه لما ضعف أمر قریش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم، وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض، عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلبت عليهم الأعاجم، وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين، حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية، وعولوا على ظواهر في ذلك، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زببة، ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية أبو بكر الباقلائي، لما أدرك ما عليه عصبية قریش من التلاشي والاضمحلال، واستبداد ملوك العجم على الخلفاء، فأسقط شرط القرشية، ... لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية، فقد ذهبت الكفاية.

ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص583-584

وانظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص62-64، الحصني، منتخب التواريخ الدمشقي، ج1، ص1، 239

(3) الشهابي، القومية العربية، ص42، عمارة، فجر اليقظة القومية، ص362-363

الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص97-98، خليل، تاريخ الوطن العربي، ص375-376

(1) الكواكبي، عبد الرحمن (ت 1320هـ / 1902م)، أم القرى، نشر: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1931م،

وحسب طبعة دار الرائد العربي ص239، ص210-212. الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص47

وانظر: الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة أولى،

بيروت، 1984م، ص170.

(2) ص239 الطبعة دار الرائد العربي / ط2/بيروت، 1982م.

ويتمتع كل إقليم أو ولاية إسلامية باستقلال ذاتي ضمن حدود ولايته⁽³⁾ وإكمالاً لهذه الفكرة يرى الكواكبي أن الدين يجب أن يقتصر على أمور الآخرة، وأن لا علاقة له بأمور الدنيا التي يمكن أن ينظمها الناس باجتهاداتهم وقوانينهم الدنيوية، يقول: "دعونا نتدبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط"⁽⁴⁾، وهو لا يرى أن الدين لازم كوسيلة تجمع و لقاء، ويستدل به مبدأ الوطنية أو الجنسية، حيث يقول "دعونا نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلتحيا طلقاء أعزاء"⁽¹⁾ ويحاول الكواكبي في هذا الطرح التوفيق بين ميوله القومية والوطنية، وبين الدعوة للخلافة الإسلامية التي تجمع المسلمين في دولة واحدة، ويقف بهذا في منتصف الطريق بين الدعوة للعروبة والدعوة للإسلام⁽²⁾ ويرى بني المرجة أن الكواكبي في حديثه عن الاستبداد السياسي في طبائع الاستبداد وأم القرى، كان متأثراً بالفكر الغربي في الفصل بين الدين والدولة، وأنه كان يقر انتاج القرائح الأوروبية التي كتبت عن الاستبداد، وينظر إلى الدولة العثمانية، فيطبق عليها آراءه وأحكامه ومطالعته⁽³⁾ أما محمد سعيد العريان فقد تحدث في المهرجان الذي أقيم في دمشق عن عبد الرحمن الكواكبي أن هذا الأخير تأثر بما كان يجري في بلاط القياصرة في روسيا وغيرها، ومقارنتها باستانبول فقال، "ومن تلك الصور التي كانت تتداعى للناس في مرآة الحوادث خلال ذلك النصف الثاني من القرن الماضي، وكانت تتداعى لأعين الناس صورتان متشابهتان أعظم التشابه أحدهما في بلاط السلطان عبد الحميد، والأخرى في بلاط الغير"⁽⁴⁾ وقال: "أما في بلاط السلطان عبد الحميد، فكان الخليفة الذي يزعم أنه باسم الله بحكم ويستبد ويسيطر، وباسمه يخنق ويفرق ويحرق، وباسمه يظلم ويفتك ويهتك، ومن حوله ذو لحى وعمائم، بينهم أبو الهدى الصيادي، يزعمون للخليفة ولأنفسهم وللناس أن هذا اللون الفاسد من الحكم، هو شرع الله، وهو الدين، وباسم الله وباسم الدين يجب أن يذل الناس، وأن تطأئ الرؤوس، وأن يعيش البشر كالرقيق أو كقطعان الماشية، ليس لها حرية ولا رأي ولا إرادة، لأن الحرية والرأي والإرادة هي من حق الخليفة الجالس على عرش الله وحده، وليس لها عزة ولا كرامة ولا نعمة، لأن العزة والكرامة والنعمة حق أبي الهدى الصيادي، دون سائر المحكومين من رعية الخليفة"⁽⁵⁾

(3) الكواكبي، أم القرى، ص215-216، الدوري، التكوين التاريخي، ص172-173 مانتران، تاريخ الدولة العثمانية،

ج2، ص176، الحصري، البلاد العربية، ص135، قلعجي، الثورة العربية، ص51

(4) الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص100، الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص61، 415

(1) الكواكبي، المصدر نفسه، ص101، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص76-77 ص111 حسب النسخة المصورة، نسخة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة / 1931م المطبعة الرحمانية / مصر .

(2) كامل الإسلام والعروبة، ص79

(3) بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص203-204

(4) العريان، محمد سعيد، مفهوم القومية العربية عند الكواكبي، كلمة تأبينية للكواكبي، في المهرجان الذي أقيم لتأبينه، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1960م ص 176-177 .

(5) العريان، دعوة الكواكبي، مهرجان تأبين الكواكبي، ص126

وكانت دعوة الكواكبي إلى الخلافة العربية من الناحية العملية تحمل في طياتها إيجاد بديل عن الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، فقد عمل أثناء إقامته في مصر، بعد هروبه من بلاد الشام بعد الملاحقة العثمانية، على تمتين العلاقة مع الخديوي عباس حلمي الثاني، وتحريضه على المطالبة بالخلافة، ومبايعته كخليفة للعرب في مصر بدلاً من الخليفة عبد الحميد، وكان الخديوي عباس الثاني قد قرب العرب الشاميين اللاجئين إلى مصر، وكان للكواكبي خطوة ومكانة عنده، وكان يكثر التردد إليه، وقد أثنى على عباس الثاني في كتابه أم القرى بالقول: " وأن جنابه السامي من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الأمم وأمرائها قصب السبق في الإطلاع على أحوال الدنيا، فاجتهدوا في الترقيات السياسية والعمرانية والعملية والتنظيمية والمدنية"⁽¹⁾، وكتعبير عن تحامله على العثمانيين وحقه لهم، فقد مزج في بعض مواقفه عن حدود اللياقة الأخلاقية بألفاظ نقدتها هنا للدولة على ذلك، يقول فيها " ثلاث خلقن للجور والفساد: القمل والترك والجراد"⁽²⁾ وجعلت عمارة يصنفه ضمن الكتاب القوميين العرب⁽³⁾، بينما يرى الدوري أن الكواكبي ساعد في كتاباته ذات القبول الواسع في الشارع العربي على تنمية الوعي العربي، وعلى ظهور الاتجاه القومي، وخاصة وأنه عرض آراءه في إطار إسلامي⁽⁴⁾، فموقف الكواكبي السابق من العثمانيين، ومواقفه الأخرى الكثيرة، لا تتسم بالموضوعية، وتنكر عليهم إنجازاتهم السياسية والعسكرية والحضارية في تاريخهم الطويل، ويبدو على هذه المواقف التحامل عليهم، والإنكار لفضلهم ودورهم في قيادة الأمة

(1) هاشم، أحمد نجيب، عبد الرحمن الكواكبي، مهرجان تأبين الكواكبي، ص 155-157، الكواكبي أم القرى، ص 188-189 ص 212/213

عمارة، فجر اليقظة القومية، ص 379، الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج1، ص 95-97

(2) الكواكبي، أم القرى، ص 151، عمارة، فجر اليقظة القومية، ص 362، ص 170 طبعة دار الرائد العربي . موسى، الفكر العربي، ص 174-184

- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص 258

(3) عمارة فجر اليقظة القومية، ص 362، 379

(4) الدوري، التكوين التاريخي، ص 173

الإسلامية قروناً طويلة، كانوا خلالها القائمين على أمر الجهاد ونشر الإسلام، والحافظين للمسلمين وحدتهم تحت لواء الخلافة التي تسنحوها وبعثوا فيها الروح بعد أن أصبحت أثراً بعد عين"⁽¹⁾.

أما عن موقف عبد الرحمن الكواكبي من الجامعة الإسلامية، وتحليله للعلاقات العربية العثمانية، فنجد "يحدد اختصاص كل فئة إسلامية تنتظم في سلك هذه الجامعة، فالأتراك العثمانيون للمحافظة على السياسة الخارجية، والمصريون لمراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية، والجندي مما يناسب أقوام الأفغان وتركستان والخزر والقوقاز وإمارات أفريقيا، وتدبير حفظ الحياة العلمية والإقتصادية خير من يتولاها إيران وأواسط آسيا أفريقيا، وتدبير حفظ الحياة العلمية والإقتصادية خير من يتولاها إيران وأواسط آسيا والهند"⁽²⁾ ويأتي برنامج الكواكبي للجامعة الإسلامية متأثراً بالمفهوم الكنسي لطبيعته النظام السياسي، ويخرج به عن أبسط المفاهيم الإسلامية للنظام السياسي، الذي لم يعترف بوجود سلطتين منفصلتين على رأس الدولة الإسلامية، وقد تشرب هذه الأفكار من خلال مطالعته لكتابات مفكري الثورة الفرنسية⁽³⁾، ويكون بهذا قد اقترب كثيراً من أعداء الدامعة الإسلامية المناهضين لها من معاصريه في بلاد الشام من أمثال نجيب عازوري، ويؤخذ على الكواكبي أيضاً في سياق الحديث عن الجامعة الإسلامية، ابتعاده أثناء الحديث عنها عن المفهوم الإسلامي لها إلى المفهوم القومي والوطني وكما أشرنا قبل قليل أن عمارة اعتبره من الكتاب القوميين، ويقول عنه: إن كاتباً قومياً مثل عبد الرحمن الكواكبي يهجر سورية ويهرب من الشام ويعيش في القاهرة"⁽⁴⁾ ويؤكد ذلك مارون عبود عند اعتباره موقفاً نار اليقظة القومية العربية"⁽¹⁾ ويذهب الكواكبي في نظريته إلى الجامعة الإسلامية، ودور الإسلام في الحياة، إلى أبعد من هذا، فيدعو إلى العلمانية وفصل الدين عن الدولة، مما دعا رشيد رضا، إلى إعلان الاختلاف معه في هذه القضية وعارضته له فيها وانتقاده إياه لتبنيه لها، يقول رشيد رضا: "... ورغم اتفاقنا في كثير من الأمور، إلا أننا خالفناه في مسائل عدة، على رأسها مناداته بالفصل بين السلطتين الدينية والسياسية"⁽²⁾، ثم يجافي الكواكبي الحقيقة، عندما يتناول تحليل العلاقة بين عنصري

(1) الشناوي، عبد العزيز، الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر، نشر: دار المعارف، مصر، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص75

(2) الكواكبي، أم القرى، ص192-193، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص75

(3) غالي، بطرس بطرس، الكواكبي والجامعة الإسلامية، نشر: دار القومية، القاهرة، ص39 .
- السمره، محمود، الكواكبي، مجلة العربي ع77، نيسان 1965، ص141-142 .

(4) عمارة فجر اليقظة القومية، ص379، عز الدين، العالم العربي، ص128-129
إبراهيم، حافظ، ليالي سطيف، نشر: دار الهلال، القاهرة، دت، ص47-48 .

(1) عبود، رواد النهضة الحديثة، ص263

(2) رشيد رضا، المنار، مجلد 28، ص65 .

- الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص77

الأمة العثمانية من عرب وأتراك، ويقف في صف مناهضي الجامعة الإسلامية، الذين عملوا جاهدين في سبيل التفريق بين هذين العنصرين، ويسعى لتعميق الهوة بينهما، ويؤخذ ذلك من خلال القائمة الطويلة من الأمثال التي يوردها، والتي يفهم منها تحقير الترك للعرب والعرب للترك⁽³⁾، مع أن تاريخ العلاقة بين هاتين الفئتين، وواقع الحال بينهما يدحض ما ذهب إليه الكواكبي ويفنده⁽⁴⁾، فقد عمل العثمانيون على تمجيد العرب واحترامهم طوال المدة التي استمرت فيها العلاقات العربية العثمانية منذ عام 1516م، بدء العلاقات بفتح السلطان سليم بلاد الشام، وحتى نهاية عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، وكانوا يطلقون على العرب قوم نجيب، وكانوا ينظرون إلى الولايات التي يتكلم أهلها العربية نظرة إكرام لم ينظروا بها إلى سائر ولايات الدولة العثمانية، لكون سكان البلاد العربية يتكلمون لغة القرآن وأغليبتهم مسلمون، واعتادوا على إطلاق أسماء على هذه الولايات، تدل على الاحترام والتبجيل، فبلاد الشام يسمونها: شام شريف، أما مصر فيصفونها بـ الممالك المحروسة⁽⁵⁾ تلك هي توجهات الكواكبي الرئيسية، وهي تنصب في عدائه للعثمانيين، ودعوته إلى خلافة عربية تكون في قریش، ومناداته بفصل الدين عن الدولة، واقتراحه من دعاة التغريب، الذين انطلقوا في عدائهم للعثمانيين من جراء تبني العثمانيين الإسلام وإعطائه مركز الصدارة في دولهم، ثم دعوة الكواكبي الصريحة والخطيرة في التفريق بين ركني الخلافة الرئيسيين هما العرب والعثمانيين.

- الاتجاه الرابع:

عبد الحميد الزهراوي (1272-1334هـ/1855-1916م) عداء الجامعة الإسلامية - تأييد للرابطة العثمانية.

سار الزهراوي⁽¹⁾ في خط ممثل لخط عبد الرحمن الكواكبي في العمل ضد الدولة العثمانية وتبني الأفكار المعادية لها، ونهج نهجاً فكرياً قومياً، وهاجم فكرة الجامعة

(3) الكواكبي، أم القرى، ص138-151

(4) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص76

(5) زين، نشوء القومية، ص27، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص76

(1) هو عبد الحميد بن محمود شاكر بن إبراهيم الزهراوي، مسلم من مواليد حمص في سوريا، وانضم في بواكير حياته إلى التيار المناهض لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني في بلاد الشام، أنشأ في حمص جريدة المنير، وكان يهاجم فيها العثمانيين ويوزعها سراً، سافر إلى الأستانة، ساهم هناك في إنشاء جريدة معلومات التركية، منفاه العثمانيون إلى دمشق، وبدأ يكتب من دمشق إلى صحيفة المقطم المصرية في القاهرة الموالية للانكليز والمعادية للعثمانيين، فألقي القبض عليه ثم سيق مخفوراً من دمشق إلى الأستانة وهناك شفع له أبو الهدى الصيادي فأطلق سراحه، وأعيد إلى حمص، ثم هرب إلى مصر سنة 1900م، وبدأ يكتب في الصحافة ويعمل مع السوريين اللاجئين إلى مصر ضد الخلافة العثمانية، ساهم في تحرير جريدة المؤيد، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة "الجريدة"، وعندما أعلن الدستور العثماني للمرة الثانية 1908م، عاد إلى سورية، وانتخب في مجلس المبعوثان عضواً عن حماة، وسافر إلى الأستانة، وهناك اشترك في تأسيس حزب الحرية والاعتدال، وحزب الأئتلاف، المناوئين للاتحاديين، وأصدر

الإسلامية التي كانت وسيلة قوية من وسائل التقريب بين العرب والعثمانيين خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد، ونفى الزهراوي أن يكون للجامعة الإسلامية أساس تاريخي، يقول عنها: "ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة، وهي أن القرآن كتاب الله، جاء به محمد رسول الله، جاء به محمد رسول الله، ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق، يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذي لا اتفاق معه بعد، فمنذ اختلف المسلمون سلبت جامعتهم، ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر، ولا اتفاقاً دينياً بعد عهد علي، فما هي جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافاً سياسياً واختلافاً دينياً، يقتل بعضهم بعضاً، ويستعين ببعضهم على بعض بأهل الملك المخالفة من الأساس؟ ما هي جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفته الثاني إلى يومنا هذا؟ ما هي جامعة قوم يُسر ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم؟ ... ما هي جامعة قوم حديثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً شرقياً (هولاكو) اكتسح بلادهم وهم في عزهم، فلم تنضام أيديهم على مقاتلته، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضهم بعضاً؟ وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً غريباً (الصليبيين) هاجم بلادهم، فلم يجتمعوا كلهم على طرده، حتى حركت الهمة طائفة منهم قويت وحدها على صدّه؟"⁽¹⁾، ويبري الزهراوي أن العثمانية رابطة، ولكنه يراها نوعاً من الاتحاد بين عناصر مختلفة، فهذه الرابطة هي بين ذوي اللسان الواحد

جريدة الحضارة، وترأس المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913م قبض عليه جمال باشا عام 1916م وحكم في الديوان العرفي بعاليه، وأعدم شنفاً في دمشق، له رسالة بعنوان: الفقه والتصوف، وكتاب: خديجة أم المؤمنين". انظر: الزركلي، الأعلام، ج3، ص288، المنار، م19، ع3، أب 1916م، ص169-186. موسى، الفكر العربية، ص228-229، الحضارة، سنة 2، ع 4/56/أيار، 1911م، مهرجان الفكر والعقيدة بحمص لتكريم الزهراوي، نشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، طباعة المطبعة الهاشمية، دمشق، 1963م، حياة الزهراوي، ص8.

- الزهراوي، عبد الحميد (1334هـ/1916م) الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي، جمع وتحقيق جودت الركابي وجميل سلطان، نشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، 1962م، ص: ألك، المقدمة.

- طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج3، ص28، جمال باشا، أحمد (ت 1341هـ/1922م)، إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، بيروت، نشر: مطبعة الطنين، 1915م، ص115.

- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص143، الحصني، منتخب التواريخ الدمشقي، ج2، ص269.

(1) جريدة "الجريدة" 10/سبتمبر، أيلول، سنة 1907م. وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص103-104 الدوري، التكوين التاريخي، ص174

أولاً، وثانياً رابطة بين ذوي الدين الواحد⁽²⁾، لهذا فإن المسلمين متفقون على كلمة واحدة هي أن القرآن كتاب الله، أنزله الله على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع اتحادهم حول هذا، فقد اختلفوا منذ القرن الأول للهجرة، وينتهي إلى القول بأن الدين على أهميته لا يمكن أن يكون أساساً للاتحاد السياسي، ولذلك فهو ينفي وجود الجامعة الإسلامية التي روج لها السلطان عبد الحميد الثاني، أو إمكان قيامها، إذ أن وحدة المسلمين سياسياً ودينياً لم تتم في التاريخ الإسلامي إلا لفترة قصيرة في القرن الأول، وبهذا نجد الزهراوي يقترب في آرائه من المعادين للجامعة الإسلامية، ورأيه مردود عليه، لأن الدين قابل لأن يكون على الدوام أساساً للرابطة الدينية، طالما أنه وحد الأمة في يوم من الأيام، وأنه كان قابلاً للتطبيق، فهذه القابلية خاصة أساس من أساسيات، لأنه المنهاج الرباني الذي جعل الله عز وجل فيه خاصية التوحيد، إذ أن عقيدته أساس هي عقيدة التوحيد، ولهذا فإن توحيد المسلمين وجمع كلمتهم هو نتيجة طبيعية وثمره بديهية من ثماره إن وجد الإخلاص في حامله من المسلمين والنية الصادقة والتوجه الجاد نحو الاتحاد ووحدة الكلمة، وقد تبنى السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية، وسعى لتطبيقها لإدراكه من خلال دراسته للإسلام والفكر الإسلامي، أن الإسلام بحيوته وعقيدته قابل للتطبيق في كل زمان ومكان، لأنه خاتم الأديان ارتضاه الله للبشر كمنهاج متكامل ليسعدوا بتطبيقه في حياتهم، ويأتي عداو التيار الفكري القومي والعلماني لفكرة الجامعة الإسلامية، وخاصة أولئك الذين هاجروا إلى مصر من بلاد الشام، وتعاونوا مع المناهضين للدولة العثمانية، والخليفة عبد الحميد الثاني من أعضاء تركيا الفتاة الماسونيين اللاجئين إلى مصر، ومن الماسونيين الشاميين الذين اتخذوا من مصر كذلك ملجأ لهم وملاذاً لمقاومة الخلافة، وهؤلاء وأولئك كانوا يشتركون في الالتقاء على قاسم مشترك واحد هو مهادنة بريطانيا والقبول بالعيش في ظل استعمارها لمصر، من أجل هدم الخلافة الإسلامية ومحاربة الخليفة الحامل للوائها في استانبول، يأتي عداو هؤلاء للجامعة الاسمية من أجل الوصول إلى أهدافهم في الوصول للانفصال عن العثمانيين وقطع العلاقات بين

(2) موسى، الفكر العربي، ص230-231

العرب والدولة العثمانية⁽¹⁾، لأن الجامعة الإسلامية هي وسيلة السلطان عبد الحميد ومن يؤمنون بهذه الفكرة كن من العرب، للحفاظ على تلك العلاقات قوية متينة، في حين يعمل التيار المهاجم للجامعة الإسلامية والمعادي لها على قطع تلك العلاقات، ووزع الحقد والبغضاء والتنافر بين صفوف العرب الشاميين، من أجل محاربة العثمانيين، والانفصال عنهم، ومع اعتراف الزهراوي بالرابطة الإسلامية التي تجمع بين العثمانيين والعرب، تحت اسم رابطة عثمانية، لكنه مع ذلك يرفض الجامعة الإسلامية كصيغة وحدة بين العثمانيين والعرب، يقول "نحن مسلمون ولكننا لا نريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا غير المسلمين، ونحن عثمانيون، ولكننا لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء من غير الترك ... وهو بالإضافة لرفضه الجامعة الإسلامية، يرفض الطورانية، ويقول ... إن الاتحاد الناضع هو الذي يبقى فيه العربي عربياً والرومي رومياً، ولا يسيء أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه، ويسعى في ترقية أفكار قومه"⁽¹⁾، وفي مقابل تنكره للجامعة الإسلامية وعدائه لها، نجد الزهراوي يدعو صراحة إلى الرابطة القومية للعرب، ويؤمن باللقاء القومي بينهم كوسيلة لتجمعهم ووحدتهم، يقول " فللعرب اليوم جامعة عظيمة من لغة يشرفها الدين والاجتماع، وهي لغة عريقة، فالعرب هم أهل هذه اللغة التي عرفت حياتها وعرف ارتقاؤها منذ عرف التاريخ"⁽²⁾ ويظهر الزهراوي توجهه القومي بوضوح باستعماله تعبير القومي، ويرى هذه القومية من الروابط الأولى، ويركز على العرب كافة، ويقرر أن الأمة التي يعنيها هي التي فيها روح القومية، ثم يدعو إلى هذه القومية، ويقول: " فضائنا التي ننشدها اليوم هي تلك الروح غائبة عنا فما نحن إلا أشباح"⁽³⁾ فالفكرة القومية واضحة المعالم في توجهات الزهراوي، وعندما قبل بالرابطة العثمانية، وبالاتحاد بين العرب والعثمانيين على أساها، لم يكن ذلك إلا في حدود الاحترام المتبادل بين العثمانيين وغيرهم من المسلمين الذين يشتركون معهم في الرابطة الإسلامية، ولا يمكن أن

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج1، ص105
(1) الزهراوي الإرث الفكري، ص16-17، الحضارة، سنة 2/، ع/54 نيسان 1911م
موسى، الفكر العربي، ص230-231
(2) الزهراوي، الإرث الفكري، ص16-17، 30-31
(3) جريدة المفيد، 8/ أيلول/ سبتمبر 1913م

ينتازل العربي عن عروبه لأجل الاتحاد مع العثمانيين، ولا يجوز أن يساء الظن بمن يردى خدمة لغته وترقية قومه⁽⁴⁾.

مما سبق نخلص إلى القول: إن الزهراوي لم يصل إلى اقتناع بفكرة الجامعة الإسلامية، كاتجاه فكري تبنى عليه العلاقات العربية العثمانية، مع التسليم منه بالعلاقة، التي كانت قائمة بين العرب والعثمانيين على أساس الرابطة العثمانية، والتي اشترط للقبول بها أن تكون على أساس الإتحاد بين أمتين يعترف لكل منهما بخصوصيتها مقوماتها الحضارية والتاريخية وروابطها المشتركة التي تربط بين أبنائها، وكما أن الزهراوي رفض الجامعة الإسلامية نظرياً وعملياً، فإنه رأى في الرابطة القومية العربية غناءً وبديلاً عنها، آمن بها فكراً نظرياً، ودعى إلى تطبيقها واقعاً بين أبناء الأمة العربية، ولهذا كان الزهراوي من المؤيدين لإنهاء العلاقات العربية العثمانية وانفصالها، ومن الرافضين لدمج العنصريين العربي والتركي في جامعة تجمع بينهما هي الجامعة الإسلامية، والداعين لاستقلال العرب ووحدتهم على أساس قومي.

-الاتجاه الخامس:

محمد رشيد رضا (1282-1354هـ/1865-1935م).

ويعد الشيخ محمد رشيد رضا⁽¹⁾ من أبرز علماء بلاد الشام الذين عاصروا حكم الخليفة عبد الحميد الثاني، نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وما تلا

(4) الزهراوي، الإرث الفكري، ص16-17، 30-31

- جريدة الحضارة، السنة (2)، ع 54، 13-20 نيسان، 1911م، و: 4، 11، أيار، 1911م

(1) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة البغدادي الأصل، الحسيني النسب، ولد في قرية القلمون، على بعد ثلاثة أميال من طرابلس الشام، في شمال لبنان، صاحب مجلة المنار، ومن أشهر رجال الإصلاح في بلاد الشام في عصره، كان بارعاً في علوم الحديث والتاريخ والتفسير والأدب، نظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة 1897م، فتتلمذ على يدي الشيخ محمد عبده، ثم أصدر مجلة المنار، وجاء إلى الشام عندما أعلن الدستور العثماني عام 1908م، ثم رجع إلى مصر، فأنشأ فيها مدرسة للدعوة والإرشاد، وقصد الشام ثانية فانتخب رئيساً للمؤتمر السوري في دمشق أثناء تشكيل حكومة فيصل الأولى فيها، لكنه غادرها بعد دخول القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو إليها، فعاد إلى مصر، ثم ارتحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، وعاد إلى مصر بعد تلك الجولة، وبقي فيها إلى أن توفي، ومن أشهر آثاره: مجلة المنار، صدر منها 34 مجلدًا، وتفسير القرآن الكريم، لكنه لم يكمله، صدر منه أثناء عشر مجلدًا، وتاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، 3 مجلدات، والخلافة، والوهابيون والحجاز.

انظر: الزركلي، الأعلام، ج6، ص126

رشيد رضا، المنار، م28، ج9، نوفمبر 1927م، ص650-653، م8، ج9، تموز 1905م، ص375، 456، م2،

السنة الثانية، 1899م، ع 22، 12/ أغسطس آب، ص340-341

- آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص357-360

ذلك من متغيرات في العلاقات العربية العثمانية، وأبرز ما فيها معاصرته حكم الاتحاديين لبلاد الشام، ومواقفهم العنيفة والمتطرفة تجاه العرب، مما أدى إلى حدوث ردة فعل قوية لدى العرب الشاميين، وانضمامهم إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد الاتحاديين، وانتهى بخروج العثمانيين من بلاد الشام عام 1918م، كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي.

وجاء موقف محمد رشيد رضا موقفاً يجمع بين موقفي الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وبين موقف عبد الرحمن الكواكبي، تجاه القضايا التي تخص العلاقات العربية العثمانية آنذاك، كي يبلور من تلك المواقف توجهاً جديداً ونمطاً فكرياً يمكن تسميته بتيار إصلاح عروبي، يأخذ بعين الاعتبار بالدرجة الأولى التوجه الإسلامي في علاقات العرب العثمانيين، ثم يرفقه بمراعاة دور العرب والتأكيد على عروبته ومساهمته المميزة في العلاقات مع العثمانيين، المبنية على الأساس الإسلامي⁽¹⁾ والتركيز بشكل كبير على الرابطة الدينية التي تربط العرب بالعثمانيين، لكونها أوسع الروابط وأكملها، ونادى من خلال مجلته " المنار " إلى اجتماع المسلمين على أساس تلك الرابطة⁽²⁾، ومع إعطاء الرابطة الدينية الأولوية، يقرن رشيد رضا بين الإسلام والعروبة، ويتحدث عن الأخوتين الدينية والجنسية، ويؤمن بأن الأخوة الإسلامية تجمع بين العرب وغيرهم من سائر المسلمين، وأن الأخوة العربية كعنصر بشري تجمعهم بالمسلمين وغير المسلمين، وتجد في الآيات القرآنية سنداً للأخوتين⁽³⁾، وهذا ما يمكن تسميته بالتيار العروبي.

كما دعا رشيد رضا إلى محاربة الاستبداد وندد به، ودعا الخليفة عبد الحميد إلى الأخذ بمبدأ الشورى، الذي حث الإسلام على العمل به وتطبيقه كأساس من أسس النظام السياسي في الإسلام، وطلب من الخليفة العثماني تنفيذ الإصلاح في جهاز الحكم العثماني على أساس الشورى، عبر مجلس من العلماء، وأسس لهذه الغاية جمعية الشورى العثمانية⁽⁴⁾، وهو بالرغم من التعريض بالاستبداد، مع ما تحمله هذه الكلمة من إشارة إلى حكم السلطان عبد الحميد، فإنه يرى في الخليفة عبد الحميد الشخص الأقدر على رئاسة هذه الجمعية، لأنه الرئيس الأعلى للمسلمين جميعاً، لأنه أقدر حكامهم آنذاك،

- سر كيس، معجم المطبوعات، ج1، ص934

- البيطار، محمد بهجة، المصاب العام ب وفاة الإمام محمد رشيد رضا منشئ المنار، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م15، ج9-10، ع أيلول ونشرين أول 1937م / جمادى الثاني ورجب 1356هـ، ص365-374، 474-480.

(1) الشوابكة، أحمد فهد، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية، نشر: دار عمار، ط2، عمان، 1989م الدوري، التكوين التاريخي، ص166

(2) رشيد رضا، الجنسية والدين الإسلامي، المنار، سنة (2) م2، ع21، آب 1899م، ص321-327، ص82.

(3) كوثراني، مختارات سياسية، ص193-194، رشيد رضا، المنار، م1، ص772، الدوري، التكوين التاريخي، ص167

(4) رشيد رضا، المنار، سنة 11، ع11، سنة 1908م، ص840، و: سنة 11، ع(6) تموز/ يوليو 1908م، ص417-424، سنة 11، ع10، 1908م، ص737 ومايلها، السنة 14، ع1، 1911م، ص9 ومايلها، و: السنة

12، ع8، 1909م ص606 ومايلها وص710 ومايلها. كوثراني، مختارات سياسية، ص130، 137، ومايلها الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص82، الشوابكة، رشيد رضا، ص84

ودولته أقوى دولهم، ثم يلتقي رشيد رضا مع الأفغاني من تصوره لفكرة الوحدة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية، وتحت اسم جمعية الشورى العثمانية، فيرى ضرورة الاتحاد بين الحكومة العثمانية والحكومات الإسلامية الأخرى التي تدير سائر المناطق الإسلامية، على شاكلة الاتحاد الفدرالي في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يحكم كل أمير بمعاونة مجلس شورى، ويتمتع بالاستقلال في أمور مملكته الداخلية، بينما تكون هذه الولايات جميعاً جبهة واحدة أمام عددها، هذا هو المثل الأعلى لوحدة الأمة الإسلامية كما يراها رشيد رضا⁽¹⁾ ومع أن هذه الجمعية لم تر النور، وما عاد رشيد رضا نفسه يذكرها في مجلته المنار، بدءاً من عامها الثاني، إلا أنها تلتقي في أفكارها مع ما عرضه الأفغاني على السلطان عبد الحميد من خطط لتطبيق فكرة الجامعة الإسلامية، "مما يؤكد مبلغ تأثير رشيد رضا الأفغاني"⁽²⁾.

أما بخصوص الخلافة وموقف رشيد رضا من الخلافة العثمانية، فقد اعترف بها كأمر واقع في عهد السلطان عبد الحميد، وأن الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية قائمة في عهده يلتف المسلمون من حولها، مع ضرورة أن تأخذ بالإصلاح الشامل، وأن لا يميل السلطان إلى جمع كافة السلطات إلى جمع كافة السلطات بيده، وذكر في افتتاحية العدد الأول من مجلة المنار أنها "عثمانية المشرب، حميدية اللهجة، تحامي عن الدولة العثمانية بحق، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق"⁽³⁾ وبينما هو يلتقي مع الأفغاني أيضاً في جعل الجنسية الإسلامية العثمانية جنسيةً لأمتة المختلفة اللغات، نجده يبتعد عنه ليلتقي مع الكواكبي في اشتراط النسب القرشي للخليفة⁽⁴⁾، وهي نقطة لم تتوفر في العثمانيين، وأبطل الكواكبي من خلالها خلافة العثمانيين كما مر سابقاً عند الحديث عن الكواكبي.

لقد أيد رشيد رضا الجامعة الإسلامية في عهد الخليفة عبد الحميد، ورأى تطبيقها بالشكل الذي رآه الأفغاني، لكنه أعلن فيما بعد وبشكل صريح العداء لها وللخلافة في عهد الاتحاديين بعدما رأى من تصرفاتهم التي تسيء للعرب وتحاربهم وتعادي الجامعة الإسلامية، فرفض التأييد لهم، ودعا لمجافاتهم ومناوأتهم⁽¹⁾.

وقد أنكر شكيب أرسلان على رشيد رضا - رفيق جهاده خلال رحلة العمر - ما ت حامل به على العثمانيين، مع ما اتفق عليه معه بشأن الاتحاديين وسلبياتهم، إلا أنه كان يرى أن يستمر رشيد رضا في السير معه لمناصرة الدولة العثمانية، على الرغم من ممارسات الاتحاديين، لأنه يرى أن في انكسارها انكساراً للشرق والإسلام عامةً، وأن البديل لزوالها هو وقوع العرب تحت رحمة الدول الأوروبية المتربصة بهم⁽²⁾.

(1) رشيد رضا، الجامعة الإسلامية، مجلة المنار، السنة الثانية، م2، ع22، ربيع ثاني 1317هـ، آب 1899م، ص341

(2) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص80

(3) رشيد رضا، المنار، م1، ص13، فاتحة، السنة الأولى للمنار، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص82

(4) رشيد رضا، المنار، م23، ج1، كانون ثاني 1922، ص45-51، الشوابكة، رشيد رضا، ص230

(1) رشيد رضا، المنار، م14، ج4، نيسان 1911م، ربيع الثاني، 1289هـ/ ص269-272، الشوابكة، رشيد رضا، ص231

(2) شكيب، أرسلان، السيد محمد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة، ص152

ويرى الباحث ما رآه أرسلان من أن خذلان الدولة العثمانية، يجبرها إلى السقوط، وهذا أمر ساهم العرب حينذاك في إيصالها إليه، مع ما هم عليه من العذر في عدائهم للاتحاديين والطورانيين الذين تعمدوا الإساءة للعرب وامتهانهم وإساءة معاملته، كي يوصلوا العلاقات العربية العثمانية إلى مرحلة القطيعة، وقد نجحوا في ذلك كما سيأتي بيانه في الفصل اللاحق.

لقد تميزت العلاقات العربية العثمانية طوال أربعة قرون خلت بالمتانة والأخوة والتفاهم والإنسجام لكونها بنيت على الرابطة الإسلامية، وتجاهلات للعصبية الجنسية والرابطة القومية للطرفين العربي والعثماني، على الرغم مما كان يعكرها في حالات استثنائية، لكنها سارت وبتسارع ملفت وغير طبيعي في اتجاه إنهاؤها وقطعها، خلال السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة العثمانية الطويل (1908-1918) وكان ذلك بما دبره أعداء الخلافة العثمانية وأعداء الغرب المسلمين، الذين حرصوا على ديمومة تلك العلاقات نقية بينهم وبين العثمانيين، وكان العرب المسلمين الذين حرصوا على ديمومة تلك العلاقات نقية بينهم وبين العثمانيين، وكان هذا التدبير مخططاً له بشكل دقيق ومحكم، وتم تنفيذه بشكل أكثر إحكاماً، بحيث أنه حقق من النتائج التي توخاها أعداء العرب والعثمانيين أكثر مما كان متوقفاً نظراً لدقة التنفيذ لتلك الخطط، وبطوي تلك الصفحة من العلاقات المتينة بين العرب والعثمانيين، تدخل تلك العلاقات في مرحلة الخطورة، يمكن أن نسمي هذا الدخول مجازاً دخولاً إلى غرفة الإنعاش لبلوغها الحد الأقصى من التأزم، ليتم بعد ذلك الإجهاز عليها بالضربة القاضية على ידי الاتحاديين حين حاربوا العرب ومارسوا ضدهم كل أساليب الإرهاب الفكري والنفسي في بلاد الشام آخر مرابض العلاقات العربية العثمانية، وكان ذلك خطوة تبعتها خطوات أكثر أهمية وخطورة في إزالة آثار تلك العلاقات على يدي مصطفى كمال أتاتورك ومؤيديه، وهو ما تبينه الدراسة في فصلها الأخير.

عبد القادر المغربي (1284-1375هـ/1867-1956م):

يعد عبد القادر المغربي⁽¹⁾، من الشخصيات الشامية التي عاصرت الدولة العثمانية

الشوابة، الجامعة الإسلامية، ص83

الشوابة، رشيد رضا، ص247

(1) هو عبد القادر مصطفى الطرابلسي المغربي، من مواليد اللاذقية في منطقة الساحل السوري في أقصى الشمال الغربي من بلاد الشام، ويرجع في أصوله إلى بلدة بيت درغوت من تونس، نشأ في طرابلس الشام، ثم التحق بالمدرسة السلطانية في بيروت عام 1882م، وسافر إلى دار الخلافة استانبول عام 1892م، والتقى هناك بالأفغاني، وسافر إلى مصر عام 1905م، والتقى في القاهرة بتلميذ الأفغاني محمد عبده قبل وفاته عام 1905م، واشتغل بالصحافة في القاهرة، وكان يكتب للمؤيد حتى عام 1909م حيث عاد إلى طرابلس الشام، فأنشأ فيها جريدة البرهان، دارت موضوعاتها حول سياسة الدولة العثمانية وشؤون العالم الإسلامي، وطلبت منه الحكومة العثمانية التي يسيطر عليها الاتحاديون عام 1914م، السفر إلى المدينة المنورة للاشتراك مع شكيب أرسلان وعبد العزيز الشاويش في تأسيس جامعة إسلامية باسم: جامعة الفنون، وبعد انقطاع العلاقات العربية العثمانية وسقوط الخلافة العثمانية عام 1924م، عين عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ثم نائباً لرئيسه، ثم محاضراً لأدب العربية في جامعة دمشق، وكان له عدد من المؤلفات من أشهرها: الاشتقاق والتعريب، مذكرات جمال الدين الأفغاني، تفسير جزء

في مرحلتها الأخيرة، أيام خلافة عبد الحميد الثاني (1876-1909م)، وما أعقبها من أحداث هامة، انتهت بسقوط دولة الخلافة وخلع عبد الحميد، وخضوع بلاد الشام بلاستعماريين الفرنسي والانكليزي، وقد برزت أدوار المغربي في هذه المرحلة، من خلال مواقفه من القضايا الرئيسية التي كان لها موقع الصدارة عما سواها من أحداث هذه الفترة، فقد كان المغربي من رجال الإصلاح المشهورين في بلاد الشام مع مطلع القرن العشرين، وكان يرى أن أحوال المسلمين في كافة بقاع الأرض حينذاك يعترئها العنف والجهل والفرقة والانقسام، ويرجع ذلك كله إلى بعدهم عن معرفة دينهم من مصادره الأصلية، وهي القرآن والسنة، وأخذهم بأسباب التخاذل والتواكل⁽¹⁾.

وتناول المغربي موضوع الخلافة من حيث منشأها وشروطها وتطورها منذ صدر الإسلام وخلافة الراشدين إلى فتيهاها عند العثمانيين، إلى حين تولي السلطان عبد الحميد الثاني⁽²⁾، ويبيد المغربي توجهه لتأييد فكرة جعل الخلافة وراثية، وعد ذلك ميزةً حسنةً لما للتوريث خير من انتشار الأمر، وترك المجال فيها للمنافسة القائمة على العصبية، ومن ثم يحوز عليها الأقوى عصبية، أو الأكثر هجمةً، ولذلك فإن تحويلها إلى حكم وراثي يخفف شر التنازع ويقلل عدد الأسر المالكة⁽³⁾ ويرى أنه لا بد للخلافة من قوة تستند إليها ونقطة ارتكاز ترتكز عليها، ولما كان العثمانيون في عصره هم ذو القوة والشوكة، فإنهم الأجدر بتوليها دون غيرهم من المسلمين لما امتازوا به من قديم دولة، وشديد صولة، وترتيب نظام قواد وحكام وجيش وأسطول، وهم الدولة الإسلامية الوحيدة في نظامها وحكومتها ودربة جيشها ومقدرة رجالها⁽⁴⁾ ويقف المغربي في موقف المدافع عن الخلافة العثمانية من ناحية

تبارك، عثرات اللسان، على هامش التفسير، أصيب بحادث سير في القاهرة قبل وفاته، ثم سافر إلى دمشق بعد علاج ثلاثة أشهر، فلم يعيش كثيراً وتوفي بها.

- الخطيب، عدنان، المرحوم عبد القادر المغربي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م36، ج2، (1) نيسان 1961م، ص332-350.

سامي الكيالي في مجلة الأدب، مايو 1963م، الأدب العربي المعاصر، سامي الكيالي 137. مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م31، ج3، (1) تموز، 1956م، ص499-501 وفاة عبد القادر المغربي.

=الزركلي، الإعلام، ج4، ص47، كحالة، معجم المؤلفين، ج5، ص306

- موسى، الفكر العربي، ص122-123

- طرزي، تاريخ الصحافة العربية، ج3، ص45، آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص120-121

- طلس، محمد أسعد، محاضرات عن عبد القادر المغربي، نشر: معهد الدراسات العربية- العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958م، ص12-28.

الشوابة، الجامعة الإسلامية، ص83

غني، جمعية سليمان حرب، عبد القادر المغربي (حياته وفكره) ر.ج، رسالة ماجستير، قسم التاريخ / الجامعة الأردنية، عمان، 1997م، ص30-31.

(1) المغربي، عبد القادر، الإصلاح الإسلامي "من كتاب: البيئات في الدين والإجتماع والأدب والتاريخ، ج1، ص9، نشر: المطبعة السلفية، القاهرة، 1925م، ج1، ص9.

المغربي، في الإيمان راحة بني الإنسان، جريدة المؤيد، ع5065، 5066، 14 كانون ثاني، 1907م، ص1-2

(2) المغربي، عبد القادر، الخلافة اليوم وأمس، من كتاب: البيئات، ج2، ص102-107

الشوابة، الجامعة الإسلامية، ص84-85

(3) المغربي، الخلافة اليوم وأمس، ج2، ص107

(1) المغربي، نبأ هام عن جزيرة العرب والخلافة وجامعة الإسلام، من كتاب البيئات، ج1، ص86

عدم توفر النسب القرشي منهم، ويرد على المطالبين بتوفر النسب القرشي في شروط الخليفة، مؤكداً أنه ليس هناك سوى ملوك آل عثمان ممن تتوفر لهم شروط قيادة العالم الإسلامي وزعامته الدينية والروحية، ويؤيدهم المسلمون في كل ديار الإسلام⁽²⁾ ثم يتعرض عبد القادر المغربي لسياسة الخليفة عبد الحميد الثاني بالانتقاد الشديد، ويقف منها موقفاً معادياً، ويعتبرها سياسةً تُبنى على الجواسيس والمتملقين، وتُبعد كل ذي دراية ومعرفة بالأمور عن مراكز السلطة، لهذا يجب على السلطان عبد الحميد أن يتخلى عن السلطة، ويترك منصبه، وقد تعرض المغربي بسبب موقفه هذا للاعتقال في بيروت عام 1904م لمدة شهر ثم أطلق سراحه بعد ذلك⁽³⁾.

ويدرك المغربي خطورة المعركة التي تخوضها الدولة العثمانية المسلمة ضد أعدائها من الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا من خلال تعاملها مع العثمانيين من منطلق مصالحها، حتى في الحالات التي يظهر منها أنها، تأييدها للعثمانيين واصطفافها إلى جانبهم في قضايا دولية معينة، كما هو الحال من وقوفها ضد محمد علي باشا حين احتل سوريا عام 1831م، ووقوفها في وجه روسيا عام 1877م أثناء الحرب العثمانية الروسية، فهذه الحالات وغيرها، هي في ظاهرها مناصرة وتأييد من بريطانيا للدولة العثمانية في الساحة الدولية، لكنها في حقيقة أمرها مراعاة بريطانيا لمصالحها وتحقيق لأهدافها، وشواهد ذلك سياستها تجاه المسلمين في الهند ومعاملتها لهم أسوأ معاملة، ثم دسائسها في منطقة الخليج العربي وتحويل تلك المنطقة عن الولاء للدولة العثمانية إلى محميات نفوذ لها مربوطة بها مباشرة، لذا يرى وجوب مناصرة الدولة العثمانية ضد أعدائها، مع تحفظاته تجاه السلطان عبد الحميد وأسلوبه في إدارة الدولة⁽¹⁾.

ونجد المغربي يقترب من أعداء السلطان عبد الحميد عندما يتهم عليه ويغمر منه ومن العرب المقربين منه، من خلال قصيدة تنسب إليه أنه قالها معرضاً بالسلطان، لأنه بنى فوق قبر والده أبي الهدى الصيادي في حلب ضريحاً من الذهب والفضة عام 1904م، يقول فيها:

(2) المغربي، المرجع السابق، ج-1، ص87

الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص86

(3) غنيم، عبد القادر المغربي، ص34-35

(1) المغربي، عبد القادر، مسلم يغضب لقومه، جريدة المؤيد، ع5441، (14) نيسان، 1908م، الموافق 13 ربيع الأول 1326هـ، ص1.

بلغ أمير المؤمنين نصيحةً
قبر تعمره بدرّة عسجد
تكسي الدعي الحلة البيضاء
تجبي الضرائب من فقير مملق
تقصي إلى الأطراف كل محنك
كم من بريء صادق حكمت في
بل هذه الخصيان كيف تقدمت
ضيعت ملكك وامتهنت رجاله

تبغى القبول ولا تريّد ثواباً
وتعيد عمران البلاد خراباً
إذ تكسو الشعوب من السواد ثياباً
تغني بها المتملق الخلاباً
وتبيت تدني النوك والأوشاباً
صوبائه المتجسس الكذاباً
بيض الفحول السادة الأنجاباً
فعلام تحوي التاج والألقاباً⁽²⁾

ينظر غنيم إلى هذه القصيدة على أنها جوهر الفكر السياسي والاجتماعي للمغربي في ذلك الوقت، وتمثل انتقاده لسياسة السلطان عبد الحميد، ويرى فيها تصويراً واقعياً لما كان يجري في الدولة العثمانية من مساوئ، لأنه عاش في العاصمة استانبول⁽³⁾، والمتأمل في هذه الأبيات يلاحظ أنها لم ترد في كتب ومؤلفات المعاصرين لهذه الفترة من العرب، على الرغم من محاولات التصيد لأية هفوة قد يكون السلطان عبد الحميد أو مستشاروه العرب قد وقعوا فيها، وكان يلتقطها هؤلاء ويضخموها ويبرزها في كتبهم ومؤلفاتهم، خاصة إن كانت حول أبي الهدى لما أشيع حوله من أكاذيب واقتراءات، وإنه من الطبيعي أن يكون والد أبي الهدى مدفوناً هناك، لكن إحاطة القبر بالذهب والفضة أمر غير موجود، والواقع ينفي ذلك⁽¹⁾، أما أن يهتم السلطان عبد الحميد أو أبو الهدى الصياوي الذي تروي عنه وتلن بأنه كان مثال الاقتصاد القومي تقول عنه: "وقد ضرب عبد الحميد بنفسه مثلاً للاقتصاد القومي، فكان دائماً يلبس نفس الجبة السوداء الخالية من الزخارف، ويأمر بإعداد طعام متواضع من اللبن والخضار والبيض، ... لقد أصدر أوامره المشددة بمنع الإفراط في تحضير الأطعمة وفتات الموائد يكفيان في الماضي لإطعام حي من أحياء القسطنطينية بأكمله، وقد رفض السلطان عبد الحميد بإبء أن يقدم عشرات الألوف من الجنيهاً

(2) موسى، الفكر العربي، ص123

- طلس، محاضرات، ص20

حسن، الشيخ عبد القادر المغربي، ص8

(3) غنيم، عبد القادر المغربي، ص34

(1) وقد زار الباحث النكية والزاوية الصيادية في حلب، وهي تقع إلى الجانب الشرقي من قلعة حلب، بينها وبين القلعة الشارع العام فقط، تبعد عن دار الحكومة "السراي" مسافة (500م)، ويتخذ من النكية الصياوية حالياً مركزاً وقصراً لدار الإفتاء في مدينة حلب، ويلاحظ الداخل إلى هذا الموقع بساطة البناء وبعده عن مظاهر البذخ والتفخيم، وما يزال في المكان قبر حسن وادي الصياوي، والد أنفأ محمد أبو الهدى مستشار السلطان عبد الحميد لغاية الآن ولو كان القبر بالصورة التي ذكرت في الأبيات المذكورة، وعليه ذهب وفضة، لحرصت الحكومة المحلية في حلب، وآل الصياوي على إبقائه على وضعه السابق، لكن آل الصياوي يؤكدون أن القبر لم يكن عليه أي شيء من المظاهر المشار إليها، ورأى الباحث القبر المشار إليه مغطى بالبناء العادي، ويوضع عند القبر من طرف الرأس قطعة رخام مكتوب عليها هذا قبر فلان ... الصياوي تغمده الله برحمته.

للإنفاق على حفلات ختان أولاده أو زواج بناته، بينما كانت تبتلع في الماضي مئات الألوف ... كان عبد الحميد أول شرقي فهم أهمية النقود وقوتها في العصر الحديث ... ويذكر من حوله دائماً بوجوب التوفير" (2) .

هذه صورة تشهد بها المتشركة البريطانية وتلن، تدل على ابتعاد السلطان عبد الحميد عن الإسراف والترف، وتدل على زهده وتقشفه فلا سيما في أخريات أيامه، أما أبو الهدى الصياوي مستشاره، فلم يكن أبعد عنه حالاً، بل عاش متقشفاً ومات فقيراً معوزاً، ولو كان ميالاً للترف والإنفاق دون حساب، لظهر ذلك عليه في حياته أولى من صرفه على قبور الأولياء والأموات، وقد أشار كرد علي إلى حال أبي الهدى في حياته وعند موته -مع قربه إلى السلطان عبد الحميد وتوفر الفرص له لاكتساب الغنائم وجمع الأموال - يقول كرد علي: " مات أبو الهدى فقيراً" (1) يستدل من أقوال وتلن وكرد علي، وبعد مشاهدة ضريح والد أبي الهدى الصياوي على أرض الواقع، إضافة لكون هذه المسألة لم ترد في كتابات الذين عاصروا هذه الفترة، أنها لا تعدو عن كونها أمراً عادياً، ضخمها أعداء أبي الهدى الصياوي وأعداء السلطان عبد الحميد، وأرادوا من ورائها الإساءة إليهما، وكان هذا واقع الحال بالنسبة لهما، وإذا كان عبد القادر المغربي قد عاصر هذه المرحلة، فهذا لا يعني أن ما يصدر عنه بهذا الخصوص له أساس صحيح، لأنه قد يكون من الإشاعات الكاذبة التي يروجها المغرضون من أعداء العلاقات العربية العثمانية، المبغضون للسلطان عبد الحميد ولمستشاره أبي الهدى الصياوي، وأن المغربي تأثر بما سمع من شائعات بشأن إقامة الضريح المذكور من الذهب والفضة، فعبر عنه موقفه تجاهه بتلك الأبيات، وواقع الحال المشاهد يدحض هذه القرية، ويؤكد بطلانها، ويسكت القول بها.

لقد كان المغربي إسلامياً في اتجاهه الإصلاح، وفي تمسكه بالرابطة العثمانية مؤيداً للعلاقات العربية العثمانية، اقترب في اتجاهه من الأفغاني، وكان على علاقة قوية معه، خاصة في استانبول (2)، ولعل حقه على أبي الهدى على علاقة حسنة بالأفغاني، لارتياحه من تحركات الأفغاني ومن أفكاره تجاه الجامعة الإسلامية، "وقد كتب أبو الهدى إلى رشيد رضا يقول له: إني أرى جريدتك طافحة بشقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية، التي كان يزعمها زوراً، وقد ثبت في دوائر الدولة أنه مازندراني من أجلاف الشيعة ... وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية، ومثل ما كان أبو الهدى يعادي جمال الدين، كان كذلك يقابله بالمثل" (3) تلك هي شخصية عبد القادر المغربي، التي تميزت بتأييدها للعلاقات العربية العثمانية، والإقرار بالخلافة العثمانية، واعتبار الخلفاء العثمانيين الوارثين الشرعيين لمنصب الخلافة في الأمة الإسلامية، مع إقراره بأحقية العثمانيين بالخلافة، حتى وإن

(2) وتلن، عبد الحميد، ص 111-115

(1) كرد علي، المذكرات، ج1، ص 250

(2) غنيم، عبد القادر، المغربي، ص 35-36، موسى الفكر العربي، ص 124

(3) قلنجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص 107-112

لم يتوفر فيهم شرط النسب القرشي: لكونهم أصحاب الشوكة في الأمة الإسلامية، وكان عثمانياً في توجهاته، حريصاً على وحدة الدولة العثمانية⁽¹⁾ وبقي حريصاً على العلاقات العربية العثمانية، متمسكاً بهذه العلاقات إلى حين دخول قوات الحلفاء بلاد الشام أثناء الحرب العالمية الأولى، وطرد العثمانيين منها، على الرغم من ممارسات الاتحاديين العنصرية ضد العرب في بلاد الشام، ودلل على ذلك بتوليته الإشراف على صحيفة الشرق التي أنشأها جمال باشا عام 1916م، لتكون وسيطته للإبقاء على العلاقات العربية العثمانية في حالة حسنة⁽²⁾ وهذا دليل عملي على موقفه القوي والثابت في الحفاظ على هذه العلاقات.

رفيق العظم (1284-1343هـ/1867-1925م):

عُد رفيق العظم⁽³⁾ من أشهر رجالات بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد اتخذ منذ شبابه وجهة إسلامية إصلاحية، وخاصة "الإصلاحات الخيرية"⁽¹⁾، وكان رفيق العظم يؤمن بالترابط الوثيق بين الدين والسياسة في الشريعة الإسلامية يقول: إن الشريعة الإسلامية جمعت بين السياسة والدين، إذ لم تقتصر في قسمها الدنيوي على المعاملات الشخصية فقط بل شملت الحقوق المشتركة العمومية الداخلة تحت الأحكام السياسية⁽²⁾، واعتبر العظم أن الخلافة منصب سياسي لا ديني، وأن إقامتها واجب عقلاً، والخليفة لا يملك شيئاً من صفات النبوة، وهو عندما يتولى منصبه يستمد سلطاته من الأمة وليس من الوحي، وأنه لم يرد نص شرعي حول الخلافة، وقد ترك الرصول صلى الله عليه وسلم أمر الخلافة

(1) غنيم، عبد القادر المغربي، ص42

(2) غنيم، المرجع السابق، ص43

(3) هو رفيق بن محمود بن خليل العظم، ولد في دمشق ونشأ فيها، وكان منذ مطلع شبابه مهتماً بالعلم والأدب والتاريخ، عالم بحاثة من رجال النهضة الفكرية، زار مصر في شبابه، ثم استقر فيها منذ عام 1316هـ/1898م، شارك في كثير من الأعمال والجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية، اشتهر من أعماله العلمية كتاباته وبحوثه القيمة في كبريات الصحف والمجلات في عصره، له مؤلفات عديدة منها: أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة (ع ج)، البيان في كيفية انتشار الأديان، الدروس الحكيمة للنائشة الإسلامية، البيان في أسباب التمدن والعمران، الجامعة الإسلامية وأوروبا، وجمع شقيقه عثمان العظم بعد وفاته بعض آثاره في كتاب سماه: مجموعة آثار رفيق العظم، توفي عام 1925م.

- الزركلي، الأعلام، ج3، ص30

العظم، رفيق (ت1925م/1243هـ) اشتهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، نشر: دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1973-72م، ص5-8

- رشيد رضا، مجلة المنار، م26، ج4، محرم 1344هـ/آب 1925م، ص288-300، رفيق العظم.

- سركيس، معجم المطبوعات، ج2، ص1342

- مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م5، ج12، كانون أول 1925م، ص561-564، المرحوم رفيق العظم.

- موسى، الفكر العربي، ص103-105

(1) العظم، رفيق، البيان في التمدن وأسباب العمران، تصحيح وتهذيب: عبد الهادي الأبياري، نشر المطبعة الإعلامية، مصر، 1886، ص16-17، الدوري، التكوين التاريخي، ص177

مجموعة آثاره، مقدمتها، كلام رضا رشيد.

(2) العظم، رفيق، رسالة في كيفية انتشار الأديان، نشر: مطبعة الإسلام، مصر، د. ت، ص30. وانظر: البطوش، بسام عبد السلام حميدة، رفيق العظم، (ر. ج) رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم التاريخ، عمان، 1995، ص50

لرأي الأمة، تحكم فيه ضمائرها وعقولها، دون أن ينص على شخص بعينه⁽³⁾، وينظر رفيق العظم إلى الخلافة بأنها سبب هبوط المسلمين نتيجة مزج السياسة بالدين، ولذا فالسبيل الأول لنهضة المسلمين هو إدراك طبيعة الخلافة أساساً، وفصل السياسة "الخلافة" عن الدين، لأن الإسلام كان كاملاً في النواحي الروحية⁽⁴⁾.

وفيما يتعلق بالدولة العثمانية وعلاقتها بالعرب في بلاد الشام، وبيان دورها في حمل الخلافة الإسلامية وقيادة المسلمين في العالم، خاصة في الفترة الحرجة التي ازدادت فيها جراءة الدول الأوروبية شراسةً في التآمر على دار الخلافة، ومحاولة القضاء على الدولة التي تحمل لواءها في أخريات أمها، يرى رفيق العظم أن العثمانيين أثبتوا جدارة في حمل راية الخلافة، خلال المدة التي تولوا منصبها، وأنه لا يجوز أن ينافسهم أحد حول لقب الخلافة في آخر أيامهم، بدعوى حصرها في جنس دون آخر، ويقول: "فالخلافة ليست ثوباً يباع ويشترى وينزع ويرتدي، ولا هي احتكار لقوم دون آخرين، وحسب العاقل أن يمر بنظره على تاريخ الصدر الأول من الإسلام، فيعلم ما هي الخلافة وما شروطها، ويتحقق عندها أن ليس من دولة إسلامية، أو عنصر إسلامي أحق بها من آل عثمان"⁽¹⁾، وانطلاقاً من هذا يتوجه رفيق العظم إلى اعتبار الرابطة الدينية أقوى الروابط، ويذكر أن العصبية الدينية تشد البشر إلى الاجتماع والوحدة⁽²⁾، لأن الدين هو دعامة الاجتماع، لكنه يعتقد أنه لا يوجد شيء اسمه اتحاد إسلامي أو جامعة إسلامية من الناحية الواقعية، وأن الأمر مقتصر على مجرد حديث سياسي يدور في أوساط السياسيين لا غير، ولا توجد دلالات تنم عن تعصب ديني لدى المسلمين، وأن الجامعة الإسلامية أمر سياسي نظري فقط، لا يوجد على أرض الواقع ما يسمى جامعة إسلامية، لهذا فإن خوف أوروبا من خطر مزعوم اسمه الجامعة الإسلامية، يدل على رغبتها في العدوان على العالم الإسلامي باسم دفع خطر الجامعة الإسلامية⁽³⁾، ومع ذلك تبني رفيق العظم فكرة الجامعة

(3) العظم، رفيق، أسباب سقوط الدولة الأموية، ضمن مجموعة آثار رفيق العظم، ص 13

البطوش، رفيق العظم، ص 52-53، الدوري، التكوين التاريخي، ص 177-178

(4) الدوري، التكوين التاريخي، ص 179

(1) العظم، رفيق، الجامعة الإسلامية والعصبية التركية، أو التأليف بين العرب والترك، ضمن مجموعة (آثار رفيق العظم) جمع: عثمان العظم، نشر: مطبعة المنار، القاهرة، 1925م، ص 135.

الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص 88، موسى، الفكر العربي، ص 105

(2) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص 49، 50-51، الدوري، التكوين التاريخي، ص 179

(3) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، ص 20، 27، 70، البطوش، رفيق العظم، ص 67-71

الإسلامية ودافع عنها دفاعاً قوياً، وألف كتابين بخصوصها هما: الجامعة العثمانية والعصبية التركية، أو: التأليف بين الترك والعرب، و: الجامعة الإسلامية وأوروبا، دعا خلالهما إلى الجغامعة الإسلامية، وإلى ضرورة إيجاد اتحاد بين كافة رعايا الدولة العثمانية، وأظهر حرصه على وحدة أراضي وشعوب هذه الدولة، وأكد على أحقية العثمانيين في الخلافة الإسلامية طيلة قرون متوالية⁽⁴⁾، ودعا المسلمين كافةً إلى الالتفاف حول الدولة العثمانية ومساندة سياستها في الجامعة الإسلامية، وأثنى على الدور الذي يقنم به الخليفة عبد الحميد الثاني في خدمة سياسة الجامعة الإسلامية، وما يبديه من توجهاته لجمع كلمة المسلمين وتوحيد قواهم للوقوف أمام أعدائهم⁽⁵⁾ وقد حافظ رفيق العظم على تعاطفه مع حركة الجامعة الإسلامية من الناحية السياسية، لكنه يتحول من التأييد لسياسة السلطان عبد الحميد، إلى محاربتها والتنديد بها ويرجع ذلك إلى تأثره بالعناصر المناوئة لعاصمة الخلافة من عناصر تركيا الفتاة، الهاربين إلى مصر، وتحت الإشارة في الفصل الثاني من البحث إلى توجهات هؤلاء الماسونيين، وتنسيقهم مع بريطانيا في مصر، في سبيل إضعاف سلطة الخليفة عبد الحميد، ومن ثم إسقاطه، فكان ازوراره عن السلطان عبد الحميد نابع من تأثره برجال تركيا الفتاة الماسونيين، وأدى هذا إلى هربه من الشام إلى مصر ليأمن على نفسه من ملاحقة الحكومة العثمانية، وليتسنى له متابعة نشاطه بحرية أكبر⁽¹⁾، وفي مصر ضاعف رفيق العظم من نشاطه السياسي المعارض للسلطان عبد الحميد، وزاد في توثيق صلاته بالأحرار العثمانيين المعارضين (رجال تركيا الفتاة الماسونيين)، وكان خير عون لهم، وساندتهم بشكل قوي جعله تحت مراقبة أجهزة الخفية والتجسس العثمانية⁽²⁾، وبالإضافة إلى تمسك رفيق العظم بالرابطة العثمانية والجامعة

(4) رشيد رضا، مجموعة آثار دمشق العظم، المقدمة، ص، ب ل.

الشوايكة، الجامعة الإسلامية، ص87-88، البطوش، رفيق العظم، ص84

(5) رفيق العظم، مجموعى آثار رفيق العظم، المقدمة، ص، ج، المقدمة.

البطوش، رفيق العظم، ص84

(1) جاء ذلك في نص رسالة بعث بها رفيق العظم إلى محمود حمصاني، يقول له فيها: لا أذكر أنني سامحت نفسي يوماً واحداً بالسكوت عن محاربة استبداد عبد الحميد، في نفس سورية، ثم في مصر، ومحاربة من كان مثله بعده، ولم يزغني عن مبدأي شيء من الترغيب أو التهيب، وقد أورد البطوش هذه الرسالة كملحق رقم (1) في ختام البحث عن رفيق العظم، انظر:

البطوش، رفيق العظم، ص88-189

(2) الباني، محمد سعيد، رفيق العظم، مجلة، التمدن الإسلامي، مجلد(2)، ج3-4، ص587

الإسلامية والوحدة الإسلامية ونبذه للدعوات العنصرية والقومية التي تهدد وحدة وسلامة الوطن العثماني، كان ينظر إلى هذا الموضوع نظرة لم يغفل معها توجهه القومي، فهو يقترب من موقف عبد الحميد الزهراوي تجاه الجامعة الإسلامية، وفي الوقت ذاته يكون قريباً من موقف رشيد رضا في المزج بين الموقف الإسلامي والموقف من بني قومه العرب، إذ يعتقد بوجود روابط العشرية، ثم الرابطة الوطنية الجنسية الأوسع من الرابطة الوطنية، ولا سبيل لانحلال هذه الرابطة إلا بانحلال المنتسبين إليها⁽³⁾، وهذه الرابطة موجودة بين العرب، وهم أمة عريقة حافظت على لغتها وعاداتها وقوميتها قبل الإسلام، وحملت دينها ولغتها ومديتها بعد الإسلام في البلاد المختلفة شرقاً وغرباً، ولم يبق لهم جامعة إلا اللغة العربية⁽¹⁾ ويرى رفيق العظم أن لا تعارض بين الإسلام والقومية، فهما متكاملان، بل وفي الرابطة الإسلامية دعم للقومية، ولهذا فهو يرى الجامعة الإسلامية رابطة تضم في بوتقتها المحتوى القومي، وهي تشمل بمفهومها الذي يماثل رابطة الدول المسيحية التي اجتاحت أغلب ممالك الإسلام⁽²⁾، فهذا المزج في الانتماء عند رفيق العظم بين الرابطة القومية والرابطة الإسلامية كان متوازناً بحيث جعله يخلص لبني قومه ولبلاده الشامية، ويسعى لرفعها ونهضتها دون أن يؤثر ذلك على حرصه على وحدة وسلامة الدولة العثمانية⁽³⁾، ويرى الباحث أن نظرة رفيق العظم إلى الخليفة عبد الحميد المتقلبة من المؤازرة والتأييد إلى المعارضة والتنديد، لا يخرجها عن خطة العام في التمسك بالعلاقات العربية العثمانية، وكانت استجابة رفيق العظم لتأثيرات التيار المعادي للعلاقات العربية العثمانية، المتمركز في مصر، والذي يسيطر عليه نصارى الشام ورجال تركيا الفتاة الماسونيين، ويتمتع برعاية وتأييد ومناصرة بريطانيا، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً في هذا البحث، كانت تلك الاستجابة قوية وحادة، بحيث جعلته ينخرط في صفوف هؤلاء المعارضين والمحاربين للخليفة، ويعملون ضده، تحت الشعارات التي يرفعونها أمام الملأ لكسب المؤيدين، ولتكوين رأي عام فعال ومؤثر في بلاد الشام، يساهم

(3) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص 48، 51

(1) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ضمن مجموعة آثار رفيق العظم، ص 136، 140-141

(2) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص 52

(3) البطوش، رفيق العظم، ص 84-86

معهم في إسقاط الخليفة عبد الحميد، وتحويل اتجاه الدولة العثمانية نحو العلمانية، وإبعاد الإسلام السبب والوسيلة الوحيدة الذي يجمع العرب والعثمانيين في علاقات وروابط تجعلهم يتوحدون لمواجهة الهجمة الأوروبية تحت لواء الجامعة الإسلامية، ولذلك كانت الهجمة التشويحية مركزة من الدوائر الغربية ضد السلطان عبد الحميد، وكانت قادرة على إثارة الرأي العام وتأليب عليه في جميع أرجاء الدولة العثمانية، بما فيها بلاد الشام⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من مشاركة رفيق العظم في العمل ضد سياسة السلطان عبد الحميد أثناء وجوده في مصر ضمن صفوف المعارضين، فإن له أدواراً إيجابية ومساعدة في الإبقاء على تماسك العلاقات العربية العثمانية، حتى في أسوأ الظروف التي شهدت توتراً في تلك العلاقات، خبراء سياسة التتريك الطورانية العنصرية التي انتهجها الاتحاديون ضد العرب، فنراه يشارك في الانتخابات النيابية التي جرت عام 1876م، حين أعلن السلطان عبد الحميد الدستور لأول مرة، ويفوز في تلك الانتخابات كعنصر في مجلس النواب العثماني عن دمشق، من بين الأعضاء الستة عشر (16)، فازوا فيها من بلاد الشام، من أصل مائة وخمسة عشر نائباً (115)، مجموع أعضاء ذلك المجلس، وكان من المطالبين بالإصلاحات العامة في الدولة، شأن كافة أعضاء المجلس⁽¹⁾ واستمر في المطالبة بالإصلاحات إلى حين الانقلاب الذي قام به الاتحاديون ضد الخليفة عبد الحميد عام 1909م، وخلال تلك الفترة في عام 1906م، أسس مع ابن عمه حقي العظم في دمشق جمعية التشبث الشخصي واللامركزية للعمل لتحقيق الإصلاح الإداري والسياسي في السلطة العثمانية، وأبدى رفيق العظم تأييداً وتعاطفاً مع الانقلابيين بعد تنفيذ انقلابهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، وكان آنذاك منتسباً لجمعية الاتحاد والترقي، كما هو حال الكثيرين من الشبان العرب المدنيين والعسكريين، الذين أغراهم الاتحاديون باسم الإصلاح للعمل معهم، ومن ثم لإسقاط الخلافة⁽²⁾ لكنه اكتشف فيما بعد كغيره من العرب الذين خدعهم الاتحاديون، أن جماعة الاتحاد والترقي تعمل لنسف العلاقات العربية العثمانية، فأخذ يعلن انتقاداته لهم، ويقف في وجوههم، مستنكراً ممارساتهم العنصرية للعرب، بغية إساءة العلاقات بين الطرفين، وسارت الأمور في اتجاه قطع العلاقات بين العرب والعثمانيين، بسبب السياسة الاستبدادية الطورانية التي اتبعها هؤلاء كما سيأتي في الفصول اللاحقة، وتظهر أدوار رفيق العظم فيها مع أقرانه من رجالات الشام الذين برزوا عام 1924م، ويتخلى في هذه المرحلة عن ولائه للدولة

(4) البطوش، المرجع نفسه، ص 86

(1) الدوري، التكوين التاريخي، ص 180

البطوش، رفيق العظم، ص 86

(2) الدوري، التكوين التاريخي، ص 181-182

- البطوش، رفيق العظم، ص 89-90

العثمانية بعدما شعر بغدر الإتحاديين وتكرهم للعرب⁽³⁾، وتبرز شخصيته العروبية بشكل أوضح في هذه الفترة التي وصلت فيها العلاقات العربية العثمانية حد الإنقطاع، وبلغت فيها نهايتها، وماتت فيها الرابطة العثمانية، التي تمسك العرب من خلالها بدولة خلافتهم الإسلامية حتى الشوط الأخير، الذي ختمه أعداء تلك الرابطة بالخاتمة المعروفة التي أشرنا إليها آنفاً، ويتم تفصيلها في الفصول القادمة من البحث.

- الأمير شكيب أرسلان (1286-1366هـ/1869-1946م):

عرف الأمير شكيب أرسلان⁽¹⁾ واحداً من أعلام الفكر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، واشتهر بأمير البيان، لما لشخصيته العلمية والأدبية من مكانة مرموقة في عالم الفكر والأدب، وقد اعتبر من أكثر المؤيدين للرابطة العثمانية والعلاقات العربية مع دولة الخلافة، ومن أكثر الناس حرصاً على تلك العلاقات، التي تقوم على الرابطة الإسلامية، وعبر عن ذلك في رسالة كتبها سنة 1913م⁽²⁾ ويمد تلك الرابطة أسساً تُبنى عليه الجامعة الإسلامية، وخاصة في الدولة العثمانية، التي تجمع بين العديد من القوميات المختلفة في مقوماتها الأخرى، وتجمعها الرابطة الإسلامية فقط⁽³⁾ فالعصبية عند شكيب أرسلان هي العصبية الدينية وليست العصبية الجنسية، وتمثل وجهة نظر أرسلان هذه المفهوم الإسلامي للأساس الذي يجب أن تبنى عليه العلاقات بين عناصر الأمة، دون النظر إلى نوع العرق البشري الذي يحكم الدولة، وانسجاماً مع ذلك لا

(3) الدوري، التكوين التاريخي، ص183

- موسى، الفكر العربي، ص105

(1) هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، شامي عريق النسب، يرجع نسبه إلى بني تنوخ ملوك الحيرة، ولد في الشويفات في لبنان، وتعلم في مدرسة دار الحكمة ببيروت، وعين مديراً للشويفات سنتين، ثم قائم مقام في الشوف ثلاث سنوات، وارتحل إلى مصر فأقام فيها مدةً، وانتخب بعد إعلان الدستور العثماني عام 1876م نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني، وسكن دمشق خلال الحرب العالمية الأولى، وغادرها بعد الحرب إلى برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا، فأقام فيها نحواً من خمسة وعشرين عاماً (25) ثم عاد إلى بيروت، فتوفي فيها عام 1946م، ودفن بالشويفات.

كان من أشد المتحمسين للدولة العثمانية وسياستها في الجامعة الإسلامية، ثم أظهر بعد ذلك براعة في الانتصار للقضايا العربية، قام بسياحات كثيرة في أوروبا وبلاد العرب وأمريكا والأندلس وكان خلال ذلك لا يدع فرصة إلا ويكتب فيها مقالاً أو بحثاً، من أشهر مؤلفاته: الحل السندسية في الرحلة الأنديسية، لماذا تأخر المسلمون، غزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطاليا وفي سويسرا، الارتسامات اللطاف، رحلة إلى الحجاز، صداقة أربعين سنة، و: السيد رشيد رضا، أو: إحياء أربعين سنة، حاضر العالم الإسلامي، علق عليه تعليقاً فقط، تاريخ لبنان، مذكراته.

- الزركلي، الأعلام، ج3، ص173-175

- أدهم آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص364-366

- الدهان، سامي، الأمير شكيب أرسلان (حياته وآثاره): نشر: دار المعارف، القاهرة، 1960م، ص58-101.

- سركس، معجم المطبوعات العربية، د-1، ص932

- النكدي، عارف، الأمير شكيب أرسلان، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م22، ج1-2، كانون ثاني وشباط، 1947م، ص86-95.

- عبود، رواد النهضة الحديثة، ص142-145.

(2) أرسلان، شكيب، بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية، نشر: مطبعة العدل، القاهرة، 1913م، وقد كتبه بعد عقد المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام 1913م.

(1) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص91

يجد للعرب ميزة خاصة بالإسلام، لأنه يعتبر دعوة الإسلام بعيدة عن الأثرة الجنسية⁽²⁾ وينكر على من يقدمون العصبية الجنسية على سواها من الروابط⁽³⁾، ويعد إرسال الفكرة القومية من عمل المفرقين الذين يحاولون إثارة العرب على الدولة العثمانية، وإيقاد نار الفتنة بين الشعبين المسلمين العرب والعثمانيين، اللذين يعتبران قوام الدولة الإسلامية، ويرى أن الذي منع العرب من الخروج على الدولة العثمانية ليس حبهم للترك ولا الذل لسلطانهم، خاصة وأنهم أقل الأمم سكوتاً على الضيم، واسرهم إلى السيف، وإنما منعهم من ذلك حبهم ببقاء الخلافة الإسلامية، وخوفهم من تسلط الأجانب عليهم⁽⁴⁾ لهذا يرى شكيب إرسال أن دعوة التيار القومي في بلاد الشام في النصف من القرن التاسع عشر إلى قيام خلافة عربية إنما هي دسيصة إنكليزية، عملت بريطانيا من خلالها على إضعاف موقف الخلافة العثمانية، وضرب سياستها في الجامعة الإسلامية، وذلك بإيحاءها إلى بعض العرب في الشام، أنها تؤيدهم في إقامة خلافة عربية تكون بديلاً عن خلافة بني عثمان، وتحمل راية العرب كما حملتها من قبل الدولتان الأموية والعباسية⁽⁵⁾، وتسعى إلى إعادة مجدهم الغابر، وتعمير بلادهم التي يزعم الإنكليز أنها خرجت من قبل الأتراك العثمانيين⁽⁶⁾، ويشير إلى أن مروجي هذه الأفكار المدسوسة من العرب إنما هم أدوات بريطانيا، كأجراء لا غير، ومن يؤيد هذه الأفكار المدسوسة من العرب إنما هو ناقص التجربة في الحياة، ولا يهمله الجامعة الإسلامية من قريب أو بعيد، ويؤكد أن أكثرية أبناء بلاد الشام يرفضون الانفصال عن الدولة العثمانية، ويرون الانفكاك بين جزئي الأمة العثمانية من عرب وأتراك ستكون لنتيجته وبالأعلى كل من العرب والترك معاً، وأن ذلك سيقود إلى الخضوع للنفوذ الأجنبي⁽¹⁾، وانطلاقاً من تأييده المطلق للدولة العثمانية، ومن توجهه الموالي للجامعة الإسلامية، فقد اتخذ مواقف عديدة، تجاهها ويرى فيها الأم الوحيد في جمع شتات المسلمين، والحفاظ على قوتهم ووحدتهم حينذاك، وقد أكثر من مجح خلفائها وسلطينها، وبصفة خاصة الخليفة عبد الحميد الثاني، القائم على سياسة الجامعة الإسلامية، ووقف بحزم في وجه محاولات التشكيك بأهلية العثمانيين للخلافة الإسلامية لعدم توفر النسب القرشي، الذي يدعي أعداء العثمانيين أوليتهم بالخلافة دونهم، لافتقارهم لهذا الشرط، مؤكداً أن النسب القرشي اشترط عندما كانت الخلافة في القرشيين، أما وقد تغير الحال، وآلت الأمور إلى ضعف الأمة المسلمة بكاملها، وابتعد منصب الخلافة عن قریش لافتقارها إلى الشوكة والقوة، وتوفر عنصر القوة والتمسك بالإسلام في العثمانيين، فإن ذلك دليل توفر الكفاءة في بني عثمان لقيادة المسلمين وإمامتهم، ويرى شكيب إرسال أن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك

(2) إرسال، بيان للأمة العربية، ص4-5

(3) إرسال، المصدر السابق، ص9-10

(4) إرسال، المصدر نفسه، ص12-13، الدهان، شكيب إرسال، ص280

(5) إرسال، شكيب، سيرة ذاتية، نشر دار الطليعة، بيروت، 1969م، ص69، سيشار لهذا المصدر فيما بعد، إرسال، سيرة ذاتية، وانظر: موسى، الفكر العربي، ص124

(6) إرسال، سيرة ذاتية، ص69

(1) إرسال، المصدر السابق، ص70-71، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص93

- العقاد، عبد الرحمن الكواكبي، ص73، الدهان، شكيب إرسال، ص28-29

فالخلافة لم تكن إلا ملكاً ضوضاً جبرياً، قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف شروط الخلافة، سواء كان من العرب أو من الترك، إلا خشية الفتنة في الداخل، والاعتداء على الحوزة في الخارج⁽²⁾، ويؤيد أرسلان الرواية الأخرى للحديث الشريف "الأئمة من قريش" الوارد في صحيح مسلم، والتي تقول "الأئمة من قريش ما أقاموا الدين"⁽³⁾، ويرى أن ربط الخلافة بهذا الشرط محل الإشكال، ويعطي الشرعية للخلافة العثمانية⁽⁴⁾ بقوله: ولعمري إن الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون في قريش، ويذهبون إلى أن كل خلافة ادعاها غير قرشي هي غير صحيحة مهما كان فضله وكفايته، قد يجدون في قوله عمر بن الخطاب: (لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته أو لاستخلفته)، يجدون في ذلك ما لا ينطبق على حزمهم وما جعلهم يتفكرون⁽²⁾

ونظراً لامتداد العمر بشكيب أرسلان فترة طويلة شهد معها إلغاء السلطنة العثمانية، ثم إلغاء الخلافة، فقد أخذ عليه بعد مشايعته للسلطان عبد الحميد، ودفاعه المطلق عن الخلافة، تحوله فيما بعد لتأييد الاتحاديين عندما صاروا في الدولة، بعد انقلابهم على عبد الحميد عام 1909م⁽³⁾ ويرى الباحث أن هذا الموقف يحسب لأرسلان

(2) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تعليق شكيب، أرسلان، ج1، ص240-241 عبود، رواد النهضة الحديثة، ص145

(3) انظر ص 76 من هذا الكتاب، حول آراء علماء السياسة الشرعية في مسألة أن يكون الخلفاء من قريش، أما الحديث الوارد بهذا الخصوص "الأئمة من قريش"، فقد ورد في صحيح مسلم، لكن بصيغة أخرى من طرق عدة، فقد جاء من حديث أبي هريرة برقم 1818، نصه: الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم، وجاء من طريق جابر بن عبد الله برقم 1819، ونصه: الناس تبع لقريش في الخير والشر (أي في الجاهلية والإسلام)، إضافةً لمجيئه من طرق أخرى تحمل الأرقام التالية: 1820، 1821، 1822، وألفاظها جميعها متقاربة. كما ورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل، عن=أبي برزة، عن النبي ع، قال: الأئمة من قريش، إذا استرحموا رحموا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وجاء كذلك في مسند أحمد من طريق أبي هريرة بالنص نفسه، أما النص الآخر الذي ورد فيه هذا الحديث وهو: الأئمة من قريش ما أقاموا الدين، فهو حديث صحيح أيضاً، ذكره البخاري في صحيحه تحت باب مناقب قريش، ورواه معاوية بن أبي سفيان، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين. - انظر: ونسك، أبي، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (ج7)، نشر: مكتبة بريل، ليدن، 1936م، ج1، ص92.

- ابن حنبل، المسند، ج3، ص129، 183، ج4، ص421

- مسلم، مسلم بن الحجاج (ت261هـ/874م)، الجامع الصحيح (5 ج)، تحقيق: محمد فؤاد، عبد الباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دت، ج3، ص1451-1453.

- البخاري، محمد بن اسماعيل (ت256هـ/869م)، الجامع المسند الصحيح من حديث رسول الله ع، وأخباره وأيامه، (ج4/م8) نشر: مكتبة الثقافة، بيروت، دت، ج5، ص13.

(1) أرسلان، شكيب، تعليق على تاريخ ابن خلدون (تاريخ الترك)، نشر: مصر، 1936، ج1، ص26.

(2) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص247-249

(3) آل جندي، أعلام الأدب والفن، ج2، ص364، وانظر: النكدي، شكيب أرسلان، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م22، ج1-2، كانون الثاني، شباط، 1947م، ص91

وليس عليه، إذ هو دليل ولائه الخالص لفكرة الخلافة الإسلامية، وإمان راسخ وثابت بأهمية العلاقات العربية العثمانية، وتصميم قوي على التمسك بتلك العلاقات، مع قناعة بأن الأشخاص زائلون، بينما المبادئ ثابتة باقية، لا يؤثر على ديمومتها وجود فئة متغلبة على الحكم كالاتحاديين.



الفصل الرابع
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1908-1914م
"مرحلة تأزم العلاقات -التيار الطوراني ودوره في ذلك"



-التيار الطوراني التركي ودوره في ذلك

- تمهيد:

وصلت علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام في نهاية عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، إلى مرحلة ازداد فيها النفور بين الطرفين إثر الانقلاب عليه عام 1909م، وقد نجح هذا الخليفة طوال مدة عهده في القضاء على النزعات القومية لدى الجانبين العثماني والعربي، أو على الأقل إسكات تلك النزعات، بفضل سياسته الإسلامية الحكيمة، على الرغم من الجهود المكثفة التي كان يبذلها ذوو الاتجاهات القومية من كلا الجانبين العربي والعثماني، بتأييد ومساندة من الدول الأوروبية الكبرى آنذاك كفرنسا وبريطانيا، بقصد القضاء على دولة الخلافة الإسلامية، التي تجمع العرب والعثمانيين تحت لوائها، وهو ما سبق تفصيله في الفصلين الثاني والثالث من هذا البحث.

وقد تميز الربع الأخير من القرن التاسع عشر بأنه عصر انبعاث القوميات، وكانت القومية العربية في هذه المرحلة من العلاقات العربية العثمانية تواجه مقاومةً من التيار الإسلامي العثماني والعربي، لكن ما لبثت أن وجدت فرصتها في الإطالة من جديد نظراً للمناخ الملائم الذي تهيأ لها كي تنبت بذرتها الكامنة في الفترة السابقة، وكان ذلك كردة فعل عن ممارسات التيار الطوراني التركي الذي استولى على دفة الحكم بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد، يقود هذا التيار ويتزعمه جمعية الاتحاد والترقي، وقد اشار محمد محمد حسين إلى العلة التي حركت النعرة القومية في نفوس العرب، بعد أن كانت ساكنة، وجاء تشخيصه لطبيعة ردة الفعل العربية غايةً في الدقة وجودة التصوير، يقول: "ظهرت الروح القومية في العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت ظروفها شبيهة بالظروف التي ظهرت فيها القومية الفارسية في صدر الإسلام، فكما أن الشعوبية الفارسية قد ظهرت نتيجة عنجهية العرب الجاهلية من الحكام في أواخر الدولة الأموية، فكذلك كانت الشعوبية العربية أثراً من آثار عنجهية الترك الحاكمين، كان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم، والذي تتلاشى عنده الأحساب والأنساب، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانيتهن، استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم، فبدأ العرب - وهم الأمة التي ظهرت فيها الرسالة الإسلامية، ونزل كتابها بلسانهم - يستنكفون من حكم الترك الذي بسط عليهم نفوذه منذ القرن السادس عشر الميلادي، وكانت الشام هي أسرع أجزاء الوطن العربي تأثراً بالفكرة القومية الجديدة، التي سادت التفكير الأوروبي وقتذاك، لأنها أشد أجزاء الدولة العثمانية تعرضاً لتلقي الروح الغربية، والمؤثرات الأوروبية"⁽¹⁾.

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 99-100. وانظر:

- الجندي، رواد القومية العربية، ص89، كوثراني، مختارات سياسية، ص242-243

- النمر، نظرات، ص231-233، طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص53-54

- كوتلوف، تكون حركة التحرر، ص385-386، العجلوني، ذكرياتي، ص17

تلك هي بداية التحول في العلاقات العربية العثمانية بسبب سياسة التتريك الاتحادية العنصرية، وتتم مناقشة هذا التحول وأسبابه وتفصيله وآثاره في هذا الفصل، ويسبق ذلك الحديث عن تعيين الشريف حسين بن علي أميراً على الحجاز، كجزء من سياسة الخلفاء العثمانيين في الحفاظ على العلاقات العربية العثمانية أن تكون في أعلى درجات التماسك والترابط، وبيان أثر انقلاب الطورانيين⁽²⁾ السلبي بزعماء الاتحاد والترقي على تلك السياسة، الذي انعكس على العلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، وقاد إلى القطيعة والعداء بين الطرفين، من خلال ضغوطات الاتحاديين على الشريف حسين وعلى عرب الشام وسائر العرب في المشرق العربي، الأمر الذي أثار حفيظتهم وحميتهم التي تأبى الضيم والذل، وتنادوا من أقطارهم المختلفة، للانضواء تحت راية أمير مكة الشريف حسين، وإعلان الثورة على الظلم والعسف والجور الذي يمارسه الاتحاديون ضدهم، لهذا يكون البدء بالحديث عن تعيين الشريف حسين أميراً على مكة لما لذلك من تعلق بالأحداث التي تأتي لاحقاً وتنتهي بانفكاك الارتباط التاريخي القوي والمتين بين العرب والعثمانيين والذي دام مدة أربعة قرون.

أولاً: تعيين الشريف الحسين بن علي أميراً على الحجاز ممثلاً للخلافة العثمانية.

تقع الحجاز في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، المسماة منطقة عسير، والتي تتخللها سلسلة جبال عسير المحاذية للبحر الأحمر، وتعد مكة العاصمة الدينية والسياسية عبر التاريخ لمنطقة الحجاز، وكانت زعامة مكة لقريش قبل الإسلام، وامتد ذلك في العصور الإسلامية، وكان سدنة الكعبة والقائمين على خدمتها من بطون قريش من بني عبد المطلب، وبني شيبه وغيرهم، وفي العهد الإسلامي استمر الهاشميون في إدارة مكة والولاية عليها⁽¹⁾، وقد أطلق على المنسوبين إلى آل بيت

- زين، نشوء القومية، ص87

(2) التورانية حركة يراد بها السير في جهة القومية التركية والابتعاد عن الإسلام، وهي تهدف إلى جعل القومية التركية مستقلة عن الإسلام، وترقية الروح العسكرية بين الترك، وتحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية، ولها غرض آخر لا ينشر صراحة، وهو حرمان العرب من الحقوق القومية، وكان أول ظهور هذه الحركة في الأستانة بعد الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، ويسمى الترك (بني توران) أي التوران الجديد، وقد أنشئ جيل جديد من الغلمان الكشافاة برعاية أنور باشا، يمرنون تمريناً عسكرياً يؤهلهم لدخول الجيش، ومعظم شاراتهم وجميع ألقابهم تركية صرفة سابقة لعهد الإسلام، ومن كان اسمه عربياً أبدل باسم تركي، ولهذه الحركة وجهة أدبية، حيث ترجمت كتب علمية وتاريخية كثيرة إلى اللغة التركية، ونشرت كتب كثيرة تدعو إلى التورانية مثل رواية خالدة أديب التي عنوانها (بني توران) التي تروج هذه الحركة.

انظر: مجهول (أحد أدباء الانكليز)، الحركة التورانية الجديدة في تركيا، مجلة المقتطف، م49، (1) تشرين الثاني 1916م، ج5، ص425-430.

- كامل، الإسلام والعروبة، ص18-19

(1) الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت 250هـ/814م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (2/ج1م) تحقيق: رشدي صالح ملحق/نشر: دار الأندلس، ط3، بيروت، 1983م، ص10، ص52-54 .
- وأنظر: البركاتي، شرف بن عبد المحسن، الرحلة اليمانية لصاحب الدولة - أمير مكة الشريف حسين، تعليق: حسين ناصيف د.ن، طبعة ثانية، بيروت، 1964، ص150 .

الرسول ع اسم الأشراف⁽²⁾، وخصص هذا اللقب في القرن الرابع الهجري في زمن العباسيين مع اسم نقابة الأشراف في آل أبي طالب، أي أولاد الإمام علي بن أبي طالب، وآل العباس بن عبد المطلب، وتناوب هؤلاء وأولئك على إدارة مكة، وانتقلت إمارة مكة منذ أواخر القرن السادس الهجري، أي سنة 597، أو 599هـ/1200م، من عائلة بني هاشم، المسماة بني فليطة، التي تنحدر من الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، إلى أمير ينبع أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطين بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله، وينتهي إلى الإمام الحسن بن علي أيضاً⁽¹⁾.

ولم يكن أمراء مكة من الأشراف في الفترة التي سبقت السيادة العثمانية على الحجاز مستقلين تماماً، بل كانوا يدينون بالولاء للدول التي تحكم بلاد الشام ومصر، وكانوا يذكرون أسماء حكام تلك الدول في خطبة الجمعة، وكان السلاطين الأيوبيون وكذلك السلاطين المماليك الذين توالوا على حكم بلاد الشام ومصر، قد أقرروا الأشراف على حكم بلاد الحجاز، واعترفوا بالإدارة الشريفة في مكة والمدينة المنورة.

وعندما فتح السلطان سليم الأول عام 1516م الشام، وفتح مصر عام 1517م، دخلت بلاد الحجاز تحت السيادة العثمانية، حين بعث إليه شريف مكة آنذاك بركات بن محمد بن بركات الحسني ابنه محمد أبو نمي مع رسوله عرار (Arar) إلى القاهرة عام 1517م/923هـ، يحمل إليه بيعته وولاءه ويظهر التبجيل، ويقدم له مفاتيح الكعبة المشرفة، ويعلن بدئه بالخطبة له في كل من المسجد الحرام (الكعبة) في مكة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، وفي المقابل أبلغ السلطان سليم أشراف الحجاز أمراء مكة أنه يستمر كما كان يفعل أبوه وجده من قبل في منح الصُرة العثمانية لأشراف مكة، كما سبق إيضاح ذلك في الفصل الأول من هذا البحث، وبقيت هذه السُنَّة العثمانية الحميدة في إيصال عطايا الأشراف إليهم، إضافةً إلى كسوة الكعبة،

(2) أطلق لقب الأشراف على المنسوبين إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، المنحدرين من نسل هاشم بن عبد مناف، جد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعني كلمة الشريف في اللغة العربية: العلو والرفعة، جمعها: شرفاء وأشراف، وهم ذوو المكانة الاجتماعية المرموقة ورؤساء العوائل في بلد ما، والذين يكونون ذوي النفوذ والكلمة المسموعة، ويرجع هذا اللقب في إطلاقه على أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم المنحدرين من سلالة فاطمة الزهراء، من ولديها الحسن والحسين، حيث يطلق لقب الأشراف على المنتمين إلى أولاد الحسن، أما لقب السيد فيطلق على المنتمين إلى أولاد الحسين. انظر:

ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص169-170، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، ص162 جارشلي، أمراء مكة، ص14.

(1) جارشلي، أمراء مكة، ص29ج

حتى نهاية العهد العثماني في مطلع القرن العشرين⁽²⁾، وتتابع الأشراف في حكم الحجاز تحت الولاية العثمانية، وكان يتناوب على إمارة مكة فرعان من فروع الأشراف الهاشميين هما: بنو بركات وبنو زيد، وبقي الحال كذلك حتى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث برز فرع ثالث من الأشراف تمثل في بني عون⁽³⁾، وجميع الفروع الثلاثة يجتمعون في الحسين بن أبي نمي من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما⁽¹⁾ وانتقلت الشرافة في القرن الثامن عشر من أبناء زيد إلى أبناء عون، ويمثلهم محمد ابن عون جد الشريف حسين⁽²⁾، الذي عيّن العثمانيون إلى جانبه والياً على الحجاز، وأدى ذلك إلى ازدواجية السلطة ودخولهما في حالة من التنافس والتناحر، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تبعد محمد بن عون وأبناءه إلى الأستانة عام 1298هـ/ 1851م، إضافة إلى توجس الدولة العثمانية من محمد ابن عون في رغبته توسيع نطاق سيطرته إلى خارج منطقة الحجاز، وهو ما يعني ازدياد قوته ونفوذه لدرجة يخشى منها عصيان الدولة والاستقلال عنها، أو الخروج عن سلطتها، وكل هذا مرفوض لديها⁽³⁾، وأقام محمد بن عون في الأستانة ما بين 1851-1856م/ 1267-1272هـ/ وأعيد للإمارة مرة ثانية عام 1856م/ 1272هـ، وهو جد ذوي عون من الأشراف الذين ينتسب إليهم الشريف حسين بن علي، وقد توفي عام 1858م/ 1274هـ، وله ستة من الأولاد الذكور، منهم الأمير علي

(2) جارشلي، المرجع السابق، ص 29-30، وانظر: الملك عبد الله بن الحسين، من أنا، نشر: مطبعة الاستقلال العربي، عمان، 1940 .

(3) الملك عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، نشر: الدار المتحدة، طبعة ثانية، بيروت، 1979م، ص 42 .

(1) أرسلان، شكيب (ت 1366هـ/ 1946م) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى قدس المطاف (وهي الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان) تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دن، مطبعة المنار، طبعة أولى، القاهرة، 1350هـ/ 1932م، ص 126 .

- الجاسم، نجاة عبد القادر، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر، بحث ضمن كتاب: (الذكرى والتاريخ)، إشراف شاكر مصطفى، نشر: جامعة الكويت، الكويت، 1977م، ص 451 .

(2) دحلان، أمراء البلد الحرام، ص 352، أرسلان، الارتسامات اللطاف، ص 126

- البركاتي، الرحلة اليمانية، المقدمة، ص - ه - ز، ص 4

- وهبة، حافظ (سفير سابق للسعودية في لندن)، جزيرة العرب في القرن العشرين، نشر: لجنة التأليف والترجمة، توزيع: مكتبة النهضة العربية، ط 4، القاهرة، 1961م، ص 156 .

(3) غرايبة، عبد الكريم، تاريخ العرب الحديث، نشر: الأهلية للنشر والتوزيع، طبعة ثانية، بيروت 1987م، ص 215-216 .

والد الشريف حسين، وأربعة من البنات⁽⁴⁾، وللشريف علي بن محمد بن عون ولدان هما الشريف حسين والشريف ناصر، ولهذا لا بد من إلقاء الضوء على شخصية الشريف حسين، وهو مناط الحديث هنا، لما لذلك من أهمية في البحث نظراً للأدوار المؤثرة التي برزت في توجيه الأحداث لاحقاً في مسار علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام خاصة، وسائر الأقطار العربية بشكل عام⁽⁵⁾.

فالشريف حسين هو سليل آل البيت الهاشميين، من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن ولد فاطمة الزهراء البتول عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ولد في استنبول عام 1270هـ / 1853م، والده الشريف علي المتوفى سنة 1870م / 1287هـ، ووالدته المسماة: بزمجهان⁽¹⁾، وجده الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن الشريف عبد الله بن الشريف حسن بن الشريف أبي نمي الثاني بن محمد بن بركات الثاني بن محمد ابن بركات الأول بن حسن الثاني بن علي بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي الأول بن محمد بن حسن بن علي بن الشريف قتادة (1220-1133م) أول أمراء مكة، ابن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم ابن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد الثائر الثاني بن موسى بن عبد الله بن محمد الثائر الأول بن يونس بن عبد الله بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وكان أميراً على مكة في هذه الفترة الشريف عبد المطلب بن غالب، وانتقل الشريف حسين مع والده من الأستانة إلى مكة عندما كان في السنة الثالثة من عمره، ونشأ فيها وتعلم مبادئ القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم، وتناوب على إمارة مكة عدد من الأشراف بعد وفاة الشريف محمد بن عون عام 1858م / 1274هـ⁽²⁾، وقد ظهر على الشريف الحسين

(4) جارشلي، أمراء مكة، ص 164-166، دحلان، أمراء البلد الحرام، ص 366

(5) دحلان، أمراء البلد الحرام، ص 350، 373، جارشلي، أمراء مكة، ص 182

- نصيف، حسين بن محمد، ماضي الحجاز وحاضره (ج1)، الحسين بن علي، دن، الطبعة الأولى، 1938، ج1، ص 4.

(1) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص 43

(2) جارشلي، أمراء مكة، ص 29، 180 - 184، دحلان، أمراء البلد الحرام، ص 276، 383.

- العبادي، محمد يونس، الرحلة الملوكية الهاشمية من مكة إلى عمان، نشر: وزارة الثقافة، طبعة أولى، عمّان، 1996م، ص 21-

22.

- عليّات، محمد عليان، وآخرون، مسائل في الثورة العربية الكبرى، طباعة المطابع العسكرية، عمّان، 1996، ص 35-

36.

صفات قيادية مميزة وهو في الثلاثين من عمره قالت عنها أرسكين: كان مقداماً، طموحاً، تقياً⁽³⁾، ووصفه أمين الريحاني بقوله: "وفي أيام الشريف عون الرفيق ظهرت مواهب ابن أخيه الحسين فتلاً ذكاؤه واشتد عزمه، وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً، غيوراً على قومه وبلاده لجوجاً متهوساً، ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الأعلى"⁽¹⁾، ويبدو أن الشريف حسين كان على خلاف مع عمه الشريف عون أثناء إمارته على إمارة الحجاز، بسبب ما يروى عن سوء إدارة عمه، التي يؤخذ عليه فيها أنه أساء إلى العلماء والفقهاء⁽²⁾، وبلغت البلاد في عهده غاية الضعف، وأهمل البادية، واضطرب حبل الأمن، وانتشرت الفتن وتظاهر بالجنون، "وانتفتت مصلحة الوالي مع مصلحة الشريف فتقاسما المصالح وتقارضا المنافع وأنت الناس من الجور والظلم"⁽³⁾، وكان متعسفاً مهملاً لشؤون الإمارة وأهلها⁽⁴⁾، وانتشرت الأخبار عن الفساد⁽⁵⁾، وتضاعفت الضرائب عشرين ضعفاً⁽⁶⁾، وقيل أنه عُرف بميوله الشيعية⁽⁷⁾، وقيل عكس ذلك بأنه ذو نزعة وهابية⁽⁸⁾، ورد علي الوردي على هذين القولين بأن الشريف عون لم يكن وهابياً ولا شيعياً، ولكنه كان يجاري كل طائفة حتى يستطلع أمرها⁽⁹⁾، ويرى الباحث أن هذه التقولات على الشريف عون قد تكون مبالغاً فيها، ومن الممكن أن يكون بعضها قد نسج في عهود لاحقة من خيال وتصورات أعدائه من الموالين للشريف حسين بن علي، كتبرير لخروج هذا الأخير عليه، علاوة

-
- محاسنة، صفحات من تاريخ آل البيت، ص 119-137، قلعي، الثورة العربية، ص 140-141.
- المومني، نضال داود، الشريف بن علي والخلافة، نشر: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (لجنة تاريخ الأردن)، ص 1، عمان، 1996م، ص 15-25.
- المعلوف، عيس اسكندر، شرفاء مكة العظام، جريدة العاصمة (جريدة نصف أسبوعية)، دمشق، السنة الأولى، ع2، 20 جمادى الأول 1337هـ / 20 شباط 1919م، ص 2-3.
(3) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص25
(1) الريحاني، أمين، ملوك العرب (2ج)، نشر: المطبعة العلمية، بيروت، 1925م، ج1، ص56.
- وانظر: الزركلي، خير الدين، ما رأيت وما سمعت، نشر: المطبعة العربية، مصر، 1923م، ص111-114ع.
(2) غوانمة، يوسف، الحسين بن علي الملك الثائر، نشر: دار الفكر، طبعة أولى، عَمَّان 1995م، ص18.
(3) حمزة، فؤاد، قلب الجزيرة العربية، نشر: مكتبة النصر الحديثة، طبعة ثانية، الرياض، 1968م، ص323.
(4) حمزة، قلب الجزيرة العربية، ص324، الجاسم، العثمانيون والحجاز، ص457
(5) غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص216
(6) ابن عبد الله، مصلح، ما حل بحرمكم حل بكم، جريدة الاتحاد العثماني (يومية سياسية)، السنة الأولى، 1908م، (4) تشرين ثاني، ع(35)، ص2
(7) الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ملحق الجزء السادس، الأشراف وابن سعود)، نشر: مطبعة المعارف، بغداد، 1979م، ص44
(8) حمزة، قلب الجزيرة العربية، ص326-327، الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص55.
(9) الوردي، لمحات اجتماعية، ملحق 6، ص45

على أن ذلك إظهار لمساوئه من قبيل الدعاية لمن تلاه في إدارة الإمارة والإشادة بعهده، وهو ما يحدث دائماً عند حدوث التغيير السياسي في الدول وأنظمة الحكم.

لم يستطع الشريف حسين الإغضاء عن سياسة عمه السالفة الذكر، واستنكر تلك السياسة، ففترت العلاقات بينهما واختلفا⁽¹⁾، ولم يتحمل الشريف عون تدخل ابن أخيه في شؤون الإمارة⁽²⁾، وتآليب الناس عليه، فنقم عليه وسعى إلى إبعاده عن الحجاز، والإيقاع به لدى السلطات العثمانية⁽³⁾، ووصلت تقارير الوالي العثماني على الحجاز إلى عاصمة الخلافة تصف الحسين بأنه ذو تفكير مستقل، ويخفي آراءه ولا يفصح عنها، وهذا أمر خطير⁽⁴⁾، فشكت الدولة في أمره واستدعته إلى استانبول، وقد فسّر هذا الاستدعاء تفسيرات عدة، منها كما يقول الريحاني "ليكون ضيف الباديشاه وأسيره مثل مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الأشراف"⁽⁵⁾، ومنها كما تقول أرسكين "وكان عبد الحميد في استدعائه للحسين وأولاده إليه يسير وفقاً لذهنيته وسياسته من ضرورة إبعاد الشريف عن الحجاز مخافة أن يثير فيها الفتن، ويبعث في جوها القلاقل، لاستعادة حقه المسلوب في الإمارة الحجازية"⁽⁶⁾ ويشير جارشلي إلى أن علاقة الشريف عون الرفيق مع الدولة العثمانية كانت إيجابية، وكان يقابل بالقبول والرضى من دار الخلافة، ولهذا يعد انتقاد الشريف حسين غير مقبول من السلطات العثمانية، ويعد خروجاً على الوالي وعلى أمير الحجاز اللذان يمثلانها، يقول جارشلي: "وتولى عون الرفيق إمارة مكة حتى وفاته في عام 1322هـ/1904م، وقد عمل بانسجام مع الوالي أحمد راتب، ولم يثر أي اضطراب أو عدم رضى"⁽⁷⁾، ويرد الملك عبد الله بن الشريف الحسين على سبب إبعاد والده إلى استانبول، ويقول: وكان الغرض من ذلك، إخلاء الجو من القائمين معه رحمه الله في استنكار المظالم التي كانت تفدح عواتق الناس بجشع رجال المابين، وإن هي إلا بضعة

(1) غوانمة، الحسين بن علي، ص18

(2) الزركلي، الأعلام، ج2، ص249

(3) نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ج1، ص4

(4) انطونيوس، بقطة العرب، ص140

(5) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص56

(6) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص28

(7) جارشلي، أمراء مكة المكرمة، ص180-181

أيام حتى أتبع بصحبه...، فهذه أول قافلة من الحجاز الأقدس أنكرت الظلم النازل بالعالم الإسلامي⁽⁸⁾.

وإذا كان استدعاء الشريف حسين إلى استانبول نفيًا كما يعتبره البعض⁽¹⁾، فإن الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد ينظر إليه بمنظار آخر هو الضيافة والإكرام والمشاركة في إدارة الدولة، وقد لبي الشريف حسين دعوة الخليفة له إلى استانبول، إذ أنه لم يكن حديث عهد بها، فقد ولد فيها، ودرس في بعض مدارسها، وتنقل بينها وبين مكة⁽²⁾، وكان عمره حين دُعي هذه المرة للإقامة فيها قرابة الأربعين من عمره، حيث غادر الحجاز عام 1893م/ 1311هـ، ولحقت به أسرته في العام التالي 1894/ 1312هـ⁽³⁾، وقد أحسن الخليفة وفادته وخصص له داراً بمثابة قصر يطل على القرن الذهبي، كما أنعم عليه بعدة رتب منها رتبة الوزارة، وعضوية المجلس الأعلى للدولة العثمانية، وهي رتبة كان والد الحسين ينعم بها قبله⁽⁴⁾، ويؤكد الملك عبد الله بن الشريف حسين بن علي بأن استدعاء أبيه إلى عاصمة الخلافة كان ليسد ثغرة في إدارة الدولة ومعاونة الخليفة في القيام ببعض الواجبات، ويقول "وما أن وصل المرحوم الوالد إلى الأستانة، حتى قابل السلطان عبد الحميد، الذي قال له: إنما طلبه ليكون إلى جانبه لحاجة ما، وأمر بتعيينه عضواً في (شورى الدولة)، ولقد مضى على ذلك سبعة عشر عاماً، ومنزلنا في الأستانة مأوى أحرار الناس من العثمانيين ومتظلمة العرب للمذاكرة فيما هم فيه... لقد كانت إقامتنا بإستانبول إقامة جبر وإكراه، وإقامة تعلم وعبر، هذا على الرغم من حسن معاملة السلطان للحسين، الذي أسكنه بيتاً مفروشاً على اليوسفور"⁽⁵⁾ ولربما كان في إقامة الشريف حسين هذه المدة الطويلة في استانبول فوائد جمة، يشير إلى بعضها غوانمة "وكان الشريف حسين على إطلاع وثيق بشؤون الدولة الداخلية والخارجية، بسبب قربه من السلطة المركزية، ووجوده في العاصمة، واتصاله بكبار رجال الدولة"⁽⁶⁾ ولعل السلطان عبد الحميد قد أراد من خلال استضافته للشريف حسين، استمرار التواصل والتوادة بين الأشراف آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مؤسسة الخلافة، وكأنه يريد أن يؤكد للعرب متانة العلاقة بين العثمانيين وبينهم، وأن آل البيت هم صمام الأمان لتلك العلاقة ومفتاحها، وفي هذا رد

(8) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة ص45

(1) دحلان، أمراء البيت الحرام، ص383

- أرسكين، فيصل ملك العراق، ص28، غوانمة، الحسين بن علي، ص18-19

- موسى، سليمان الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى، نشر: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، (لجنة تاريخ الأردن) ط2، عمّان، 1992م، ص24.

(2) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص32-33، 35، المومني، الشريف حسين والخلافة، ص23

(3) جارشلي، أمراء مكة المكرمة، ص181-184، غوانمة، الحسين بن علي، ص18-19، موسى، سليمان، الحركة العربية (سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924م)، نشر: دار النهار، ط2، بيروت، 1970م، ص46.

(4) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص28

(5) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص45، 52

(1) غوانمة، الحسين بن علي، ص18-19

قوي على أعداء الخلافة، الذين استبدلوا مقاصد الخليفة عبد الحميد الحسنة من تقريب الأشراف آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمقاصد وأهداف مشبوهة مفرضة هدفها الإساءة إلى العلاقة العربية العثمانية القومية والمتينة، القائمة على أسس إسلامية خالصة، جوهرها رعاية الخليفة عبد الحميد للأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، المتمثلة في مكة والمدينة، وعمادها المشاركة العربية في إدارة الدولة، وإشعار العرب أنهم في مقام الصدارة والعناية لدى الدولة العثمانية دولتهم الإسلامية، التي يشدهم إليها رباط العقيدة والتوحيد.

وكان هذا التواصل والتلاحم بين العرب والعثمانيين متبادلاً، فكما حرص الخليفة على إكرام العرب وإبقاء جسور التفاهم معهم قوية لخدمة الدولة التي ترفع راية الإسلام وتنافح عن دياره ضد الأعداء، فإن العرب قد قابلوا ذلك بالمواقف التي تثبت ولاءهم للدولة العثمانية المسلمة، فلم يكن الشريف حسين إلا رجل الدولة الخبير بشؤونها، العارف لميزاتها وإشكالياتها المختلفة⁽²⁾، وكان خلال إقامته الطويلة في الآستانة مواطناً مثالياً لم يُعرف عنه أي إساءة للعلاقات العربية العثمانية، أو أية إثارة للنعرة القومية⁽³⁾، طالما أن مؤسسة الخلافة تتعامل بالروح الإسلامية التي تترفع فوق العصبية القومية والجنسية لأي من الفريقين العربي والتركي، وكان الشريف حسين عبر تلك المدة موضع احترام الجميع من عرب وترك⁽⁴⁾.

- استمر الشريف عون الرفيق في الإمارة حوالي خمسة وعشرين سنة، يعادل ربع قرن، من سنة 1882م حتى 1905م تاريخ وفاته، وتنافس على منصب إمارة الحجاز عدد من الأشراف من بعده، كالشريف علي، والد الشريف حسين، والشريف عبد الله بن محمد، أخو الشريف عون الرفيق، والشريف علي حيدر، وهو من آل عبد المطلب، ولم يحسم السلطان عبد الحميد هذه المسألة بتعيين أحد هؤلاء أميراً على مكة، إلا في 31 كانون الأول سنة 1905م/ 1323هـ، حيث عين الأمير علي باشا بن الأمير عون، والد الشريف حسين أميراً على إمارة مكة⁽¹⁾، ولم يمكث في الإمارة أكثر من ثلاث سنوات، حيث عزل بعد إعلان الدستور (المشروطة) عام 1908م،

(2) التميمي، عبد الجليل، سياسة الاتحاديين ببلاد الشام والثورة العربية سنة 1916م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، مدير تحريرها عبد الحليل التميمي، مطبعة الاتحاد، ع 65-66، السنة 19/ 1992م، ص 73 .

وانظر: Gaury, Gerald de, Rulers of Mecca, First Published London, 1973, p

264

(3) التميمي، سياسة الاتحاديين ببلاد الشام، ص73

(4) سليمان موسى، الحسين بن علي والثورة العربية، ص25

(1) الصايغ، أنيس، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1966م، ص36 .

- الجاسم، العثمانيون والحجاز، ص457-458

1326هـ⁽²⁾، ويرجح البعض أن سبب العزل يعزى إلى إبطائه في إعلان الدستور في الحجاز باشتراك مع الوالي العثماني⁽³⁾، (مدة ولايته بين 1323-1326هـ/1905-1908م) وولى على إمارة مكة بعد عزله الأمير عبد الإله وكانت إقامته في استانبول، فعاجلته المنية قبل سفره إلى مكة، بعد تعيينه بأيام قليلة⁽⁴⁾، وهنا أصبح منصب الإمارة شاغراً، وصارت الفرصة سانحةً للشريف حسين ليطالب مؤسسة الخلافة بتعيينه فيه، ويشير أمين سعيد إلى أن الأولوية للحسين بن علي، وكان يقيم في الآستانة، عضواً في مجلس شورى الدولة⁽¹⁾ فعمل على الاستفادة من الظرف المواتي، وكان نجله الأمير عبد الله يرقب الوضع عن كثب، ويحرص على اغتنام الفرصة، وهو من الراغبين أن تؤول الشرافة إلى أبيه لتطلعه إلى أن تكون في أسرته، ويروي لنا تفاصيل هذا الموقف في مذكراته تحت عنوان: سعي لإحقاق الحق "وَسَعَيْتُ أَنَا لَدَى وَالِدِي لِلْمُطَالَبَةِ بِحَقِّهِ مِنَ الْإِمَارَةِ، مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ الْأَحَقُّ الْأَكْبَرُ، فَأَقْنَعْتُهُ بَعْدَ جَهْدٍ وَقَلِيلٍ تَسْطِيرَ مَذْكُرَةٍ بِهَذَا الطَّلَبِ إِلَى جَلَالَةِ السُّلْطَانِ، بِوَاسِطَةِ الصَّدْرِ الْأَعْظَمِ كَامِلِ بَاشَا، وَكَانَتْ الْمَذْكُورَةُ كَمَا يَلِي: بِنَاءً عَلَى وَفَاةِ عَمِّي الشَّرِيفِ عَبْدِ الْإِلَهِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَمِيرِ مَكَّةَ، بَعْدَ عَزْلِ ابْنِ عَمِّي الشَّرِيفِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُحَمَّدٍ، وَخَلُوِّ مَقَامِ الْإِمَارَةِ، وَلَكُونِيءَ أَسْنُ الْعَائِلَةِ الْهَاشِمِيَّةِ وَأَحَقُّهَا بِمَقَامِ الْأَبَاءِ، أَسْتَرْحِمُ جَلَالََةَ السُّلْطَانِ أَنْ يَتَكْرَمَ بِإِيصَالِي إِلَى حَقِّي الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى جَلَالَتِهِ، مَعَ صِدَاقَتِي وَإِخْلَاصِي. وَأَخَذْتُ الْمَذْكُورَةَ بِنَفْسِي وَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى الصَّدْرِ الْأَعْظَمِ كَامِلِ بَاشَا وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَرَأَهَا... قَالَ: أَقْبَلْ أَنَا مَلِكُ الدَّكِّ وَأَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَهُ بِأَنْ حَقَّهُ لَا يَضَعُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَخَرَجْتُ شَاكِراً وَأَنَا فِي شَكِّ مِمَّا قَالَ، وَكَتَبْتُ بِرَقِيَّةٍ إِلَى مَقَامِ السُّلْطَانَةِ قُلْتُ فِيهَا: نَظَرْتُ لَشُغُورِ مَقَامِ الْإِمَارَةِ الْجَلِيلَةِ بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ، وَلَكُونِي صَاحِبِ الْحَقِّ، فَإِنِّي أَنْتَظِرُ مِنَ الْأَعْطَافِ السُّنِّيَةِ السُّلْطَانِيَّةِ عَدَمَ جُرْمَانِي حَقِّي، وَتَعْيِينِي فِي مَقَامِ آبَائِي.

(2) الملك عبد الله بن الحسين، الملك حسين والنهضة العربية، ضمن: الآثار الكاملة للملك عبد الله، نشر: الدار المتحدة، ط2، بيروت، 1979م، ص9.

- نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ص5

- حمزة، قلب جزيرة العرب، ص315، غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص216

(3) السباعي، أحمد، تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران) (1ج)، طبع على نفقة نادي مكة الثقافي، ط6، مكة، 1984م، ص560.

- غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص516، المومني، الشريف حسين بن علي والخلافة، ص27

(4) رفيع، محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، نشر: نادي مكة الثقافي، إشراف: دار مكة، ط1، مكة، 1981م، ص248.

- سعيد، أمين، أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف حسين بن علي، نشر: دار الكاتب العربي، بيروت، دت، ص44-45، حمزة، قلب جزيرة العرب، ص315-316، نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ص5.

- جريدة المؤيد، 5 كانون أول 1908م ع 5611، ص4

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص45

وانظر: حفندوقة، محمد خير، وثائق ميرزا باشا وصفي (مرحلة من تاريخ بلاد الشام من خلال وثائق ميرزا باشا)، طبع مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن، دت، ص106.

- عسيران، فؤاد منيف، كيف تنازل السلطان حسين عن عرش الحجاز، مجلة العرفان، مجلد 11، ج8، نيسان 1926م، ص812-813

وعُوثُثُها بثلاثة عناوين للعرض على السلطان...وفي تلك الليلة، وبعد أن أُرْقُثُتْ
البرقية، وردتْ برقية من رئيس كتاب القصر السلطاني، يقول فيها: إن حضور والذي
يوم غدٍ في الساعة الثالثة عربيةً صباحاً مرغوب فيه لدى جلالة السلطان. ولقد توجه
والذي المرحوم إلى القصر السلطاني حسب الوقت، فُعَيِّنَ أميراً على مكة، وعاد بعد
الظهر وهو صاحب مقام آبائه، وكان هذا التعيينُ أن أَعْضَبَ حِزْبَ الاتحاد والترقي على
والذي، فكان مبدأ الخلاف بينه وبين كل حكومة اتحادية، حتى وصلت الحالةُ من ذلك
الاختلاف إلى حين ترؤسه رحمه الله حركة النهضة العربية في الحرب العامة على ما
يجيء⁽¹⁾.

ويجدر أن يشار في هذا السياق إلى تضارب الآراء حول تعيين الشريف حسين
بن علي أميراً على مكة.

برز منها أن اختيار الحسين على إمارة مكة كان نتيجة التنافس بينه وبين
الشريف علي حيدر، بعد أن بذل كل منهما جهده للحصول على الإمارة⁽²⁾، وكان
الاتحاديون يميلون في البداية لتعيين علي حيدر، لكنهم رغبوا في تقديم الشريف
حسين عليه، على الرغم من صداقته مع السلطان عبد الحميد الثاني، لترجيحهم أنه
يعمل لإسكات المعارضين للدولة العثمانية في الجزيرة العربية، وتنفيذ خططهم
في إدارة الدولة فيما يتعلق بمنطقة الحجاز⁽³⁾.

ومنها أن تعيين الشريف حسين كان توجهاً خالصاً مقصوداً من الاتحاديين⁽⁴⁾،
ويورد ستودارد أن الاتحاديين أرغموا الخليفة عبد الحميد على تعيين الشريف حسين
على الرغم من توجسه من تحركات هذا الأخير وإظهاره لهذه التوجس بقوله: إنني
أبرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لأنني أعرف حقيقته⁽⁵⁾.

(1) عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص25-26، وانظر: غوانمة، الحسين بن علي، ص20

(2) الصايغ، الهاشميون والثورة العربية، ص37

(3) الصايغ، المرجع السابق، ص37. وانظر:

حَرَاز، رجب، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (1840-1909م)، نشر: معهد البحوث والدراسات العربية،

القاهرة، 1970م، ص125.

(4) السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص561

(5) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص391

وهناك من يرى أن الاتحاديين أرادوا تعيين الشريف علي حيدر، ولكنهم فشلوا، بسبب اتصال الشريف حسين بالخليفة مباشرة، وتقديمه طلباً إليه، وقبول الخليفة لطلبه والموافقة على تعيينه⁽⁶⁾.

وأشار البعض إلى أن تعيين الشريف حسين لإمارة مكة خطي بدعم وتأيد الصدر الأعظم كامل باشا⁽¹⁾، الذي عدّه هوجارت من مؤيدي السياسة البريطانية التي يتماشى معها تعيين الشريف حسين أميراً على الحجاز⁽²⁾.

ويذهب آخرون مذاهب أخرى يرى الباحث ابتعادها عن الواقع، بعضها يتداخل مع ما سبق من آراء، كالذي ذهب إليه العمري بأن الاتحاديين عينوا الشريف حسين على إمارة مكة بعد خلع الخليفة عبد الحميد الثاني عام 1909م، وأن السلطان أبدى تخوفه من هذه الخطوة حين سمع بهذا التعيين لاحقاً، وقال: "...يا ليتني يكتفي بإمارة مكة وباستقلال العرب فقط، ولكنه سوف يعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة العظمى بنفسه"⁽³⁾، وفسر إبراهيم عبده قول السلطان عبد الحميد الآنف بأنه يدل على أن الشريف حسين يسعى للحصول على الخلافة بسلطانها الروحي والسياسي منذ تعيينه على إمارة مكة⁽⁴⁾ مما يؤكد مجافاة الآراء السابقة للواقع ولحقيقة الأمر في العلاقة بين ما جرى بين الشريف حسين والخليفة عبد الحميد الثاني، ما جاء في مراسيم وداع الخليفة لأمير مكة، من أن الخليفة شكاً للأمير ما يشعر به تجاه جماعة الاتحاد والترقي وقال له: إني لست بالأمين على الدولة والمُلك من هذه الفئة المتغلبة. فأجابه الحسين: إن لذاتكم الملوكية في البلاد العربية الفئة التي إذا تحيزتم لها كان لكم

(6) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص46-47، موسى، الحركة العربية، ص47
Saleh, Muhammad Al-Amr, The Hijaz Under Ottoman Rule (1869-1914), Riyadh University Publications- 1974. P.135

(1) وهبة، جزيرة العرب، ص152، بيّهم، الحلقة المفقودة، ص79
Saleh Al-Amr, P. 134 Hogarth, Hejaz Before World War1, Bidwill, Cambridge 1978, P. 50

(2) Hogarth, Arabia, P. 118
(3) الموصلي، محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، نشر: المكتبة العصرية، بغداد، 1925م، ج1، ص177.

(4) عبده، إبراهيم، سيرة من الحرمين، نشر: مؤسسة سجل العرب، 1961م، ص22.
وانظر: قلعي، الثورة العربية، ص141-142.

ما تريدون من حفظ الدولة والملك، ومتى شعرتم جلالتم بذلك فأول بلد من بلاد العرب تقوم بالواجب المفروض هو الحجاز، ولو فعلتم جلالتم ذلك وجلبتم آل بيتكم معكم لجبيت لكم الأموال، ولأخضعت لكم رقاب العصاة. وعندما حضر الشريف حسين إلى الباخرة متوجهاً إلى الحجاز، قابله الصدر الأعظم كامل باشا مودعاً، وقدم إليه مذكرةً جاء فيها: "إن الخطة المباركة الحجازية مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى، وأنه لا يسري عليها بمناسبة الدستور الجديد ما يخالف الحقوق المقدسة القائمة بين الإمارة الشريفة والسدة السنية السلطانية، وأن اعتماد الحضرة الملوكية والباب العالي على ذاتكم الهاشمية مما لا يحتاج إلى تأكيد، فقوموا بواجباتكم على أساس التعامل القديم، وفقكم الله للخير"⁽¹⁾. ويرى غرايبة أن في هذا تكليف للحسين بمقاومة الاتحاديين⁽²⁾، لما يتضمنه من إشارة صريحة بعدم الاعتراف بما جاء في الدستور الجديد المعلن عام 1908م من مواد تخالف النهج القديم الذي سار عليه العثمانيون خلال أربعة قرون في معاملة الحجاز ومكة والمدينة المنورة معاملة خاصة، ورعايتهم لهذه المنطقة من الناحية الإسلامية، نظراً لمكانتها العظيمة في نفوس المسلمين من عرب وعثمانيين، وفي نفوس خلفائهم العثمانيين⁽³⁾، ولهذا فإن ما ورد في وصية الصدر الأعظم للشريف حسين يدل دلالة واضحة على تركيزه على المعاملة السابقة من عاصمة الخلافة لإمارة مكة وللأشراف، والتأكيد على استمرار تلك المعاملة، دون النظر لما طرأ من قوانين جديدة في الدستور المعلن عام 1908م، والذي وضع مواده دعاة التغريب بزعامة مدحت باشا ومؤيديه من جماعة الاتحاد والترقي، ولم يكن للخليفة عبد الحميد بُدٌّ من القبول به والإعلان عن تطبيقه مرة ثانية عام 1908م قبيل الانقلاب عليه، وأن الخطوات تلك كانت تتم رغماً عنه،

(1) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص54-55، الزين، الثورة العربية، ص55

- سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص63

(2) غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص324

(3) انظر: جريدة القبلة، 15 شوال 1334هـ/1915م، ع (1)، ص1، الافتتاحية.

نظراً لموقفه الحرج في المواجهة الحاصلة بينه وبين الاتحاديين كما سيأتي في الفقرة التالية من هذا الفصل.



ثانياً: خلع الخليفة عبد الحميد، وأثر ذلك على العلاقات بالعرب في بلاد الشام.

1- أسباب إسقاط عبد الحميد والاستعداد له.

لم يكن انقلاب عام 1909م على آخر سلاطين العثمانيين العظام الخليفة عبد الحميد الثاني حدثاً عادياً كغيره من الأحداث، بل كان معلماً بارزاً وحدثاً جليلاً سبقه مقدمات وأمور مهدت له، ونتج عنه نتائج ما زالت الأمة الإسلامية تجني ثمارها المرة إلى أيامنا هذه، ذلك أنه كان بداية الانهيار والسقوط لدولة الخلافة الإسلامية، التي عمل أعداؤها الكثير والكثير من أجل إسقاطها والتخلص منها، وبفقد دقة ومستوى الإعداد والتخطيط والعمل الجاد المنظم تظهر النتائج والثمار، ولهذا فإن خلع الخليفة عبد الحميد هو ثمرة أكثر من نصف قرن من العمل من أعداء الخلافة العثمانية، ولم يكن الجهد الضخم غير العادي الذي قام به هذا الخليفة طوال فترة خلافته، والتي دامت مدة ثلث قرن من الزمن، سوى كسب للوقت في إطالة عمر الخلافة التي أريد الإجهاز عليها في العام الذي وقف فيه الخليفة عبد الحميد الثاني في وجه المخطط المعد لذلك بصلابة وعناد وإرادة أدهشت كل المتابعين والمطلعين على أسلوبه في الحكم والإدارة، فكيف تم الانقلاب عليه ولماذا؟! وما هي الأيدي التي قامت بالانقلاب؟ وما هي آثار هذا الانقلاب على العلاقات العثمانية بالعرب في بلاد الشام.

إن ما يهم البحث من خلال مناقشة الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، ليس سرد أحداث الانقلاب، على الرغم من أهميتها، لما فيها من نقاط مثيرة للغاية، إنما هو التحليل التاريخي للحدث، واستخلاص النتائج واستجلاء صورة الموقف العربي في بلاد الشام منه، وبيان عواقب ذلك على الدولة العثمانية وعلى بلاد الشام ذات الارتباط الوثيق بها حينذاك من النواحي الإدارية والسياسية والحضارية.

يلاحظ المتتبع لأحداث انقلاب 1909م/ 1327هـ أنه سبق باستعدادات كبيرة وعظيمة وجهود منظمة قادها التيار المعادي للخلافة الإسلامية بشقيه العثماني والعربي، وكان الهدف المعلن هو إسقاط "الحكم الدكتاتوري الاستبدادي" المتمثل بنظام حكم الخليفة عبد الحميد وبشخصه تحديداً⁽¹⁾، في حين يسعى هذا التيار والأيدي الخفية التي تحركه، وهي الماسونية العالمية في حقيقة الأمر إلى إسقاط راية الخلافة الإسلامية التي هي مستعصم المسلمين في أقطارهم المختلفة من أجل الوصول إلى تحقيق الأهداف اليهودية في فلسطين ومنحها لهم كي يقيموا دولتهم التلمودية التوراتية فيها، بعد أن حاولوا مع السلطان عبد الحميد الثاني محاولات عدة للوصول إلى ذلك، واستعملوا معه كل أساليب الترغيب والترهيب فلم يفلحوا، وطرد هرتزل والوفد المرافق له وقال: بلغوا

(1) انظر: أنطونيوس، يقظة العرب، ص107

- HiYanat-i Vataniye" Paranoyasi, Sistem, NEDEN "WATAN HAINI" URETİR, Umran
AYLIK SiYASİ DUSUNCE Ve KULTUR Dergisi, SAYİ: 52, ARALIK 1998, p. 14-15

هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (أمر دخول فلسطين والتوطن فيها) فإني لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكي، بل هي ملك لشعبي، روى ترابها بدمائه، فلتحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب⁽²⁾.

فالفكرة في أساسها تقوم على إسقاط عبد الحميد بسبب وقوفه في وجه المخططات اليهودية الساعية لامتلاك فلسطين وإقامة وطن قومي لليهود فيها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الدولة العثمانية في صراعها مع الدولة الأوروبية وصلت إلى مرحلة كبيرة من الضعف، وباتت على شفير الهاوية، وقد عملت أوروبا خلال العقود الطويلة من الصراع معها على إيصالها لهذه المرحلة، وخطت على أن يتم تنفيذ المرحلة الأخيرة من هذا الصراع بأيدي العثمانيين الجدد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد قام هؤلاء بقتل السلطان عبد العزيز، ظناً منهم أن الفرصة مواتية لإنهاء الخلافة وإقامة نظام علماني لا ديني على أساس جمهوري⁽¹⁾، وعملوا لتحقيق ذلك على تسليم السلطان مراد الخامس (الأخ الأكبر للسلطان عبد الحميد الثاني)⁽²⁾ مقاليد السلطة في الدولة العثمانية، وكانوا متفاهمين معه على تحويل الدولة إلى النظام العلماني، وإتاحة المجال لرجال تركيا الفتاة الماسونيين ليأخذوا دورهم في إدارة الدولة، لأن مراد الخامس ماسوني مثلهم⁽³⁾، وإلغاء النظام الإسلامي القائم فيها، لكن القدر الرباني أفضل خططهم بجنون مراد الخامس⁽⁴⁾، فحولوا جهودهم لإقناع الأمير عبد الحميد آنذاك

(2) انظر: الفصل الثالث، موقف السلطان عبد الحميد من فلسطين، وانظر:

السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص141، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص275

- داود، العلاقات العربية العثمانية، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص64

- صفوة، نجدة فتحي، موقف تركيا من قضية فلسطين، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص87 .

حسون، الدولة العثمانية، ص189-190، النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص112-148

- طوران، مصطفى، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة عن التركية: كمال خوجة، نشر: دار السلام، طبعة رابعة،

حلب، 1985م، ص16-17.

(1) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص88، 100، 102، 106، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص63

وانظر: الفصل الثالث، ص93

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص283. وانظر:

Haslip, The Sultan, The Life of Abdul Hamid II, P. 256

(3) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص19، ص115، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص77

(4) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص19، 90

ليولوه السلطنة على شرط أن ينفذ برنامجهم الذي وضعه مدحت باشا، وعرف بالمشروعية أو الدستور (القانون الأساسي)⁽⁵⁾ فكان أن أظهر لهم الخليفة عبد الحميد موافقته على ما يريدون، مقابل إقرارهم بتسليمه مقاليد الخلافة، وكانت خطة ذكية منه، غاية في الأحكام، أفلت فيها من سيطرتهم، ونفذ ما يراه في مصلحة الخلافة والأمة والدولة⁽⁶⁾، وعمل بهمة عالية وجهد متواصل شهد له فيه حتى أعداؤه قبل مؤيديه، وأسفر ذلك أن أمدَّ في عمر الدولة طوال مدة حكمه من عام 1876م حتى عام 1909م⁽⁷⁾، وقد بيّن السلطان عبد الحميد أن الدول الأوروبية، خاصة فرنسا وبريطانيا وروسيا تعمل على إسقاط دولة الخلافة⁽⁸⁾، وروى ما قاله قيصر ألمانيا في استانبول أثناء زيارته لعاصمة الخلافة عن حالة الدولة العثمانية " إن الدولة العثمانية ليست على وشك الموت، وإنما هي دولة تمتلئ حيوية "⁽⁹⁾.

وعندما أحكم الخليفة عبد الحميد سيطرته على أجهزة الدولة، عمل على ملاحقة رجال تركيا الفتاة الماسونيين الذين تكشفت نواياهم له في القضاء على الخلافة، ومقتل عمه عبد العزيز، في محاولة للتخلص من خطرهم، من أجل تثبيت دعائم الدولة، لكنه في الحقيقة لم يستطع أن يحقق هذا الهدف الصعب، على الرغم من يقظته ومتابعته، واستطاع القبض على البعض منهم، وهرب آخرون خارج البلاد، واستمروا في العمل من هناك بشكل منظم ودقيق لبناء خلاياهم التنظيمية، والتغلغل في مرافق الدولة المختلفة، خاصة في الجيش، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً تاماً، واستطاعت خلايا جمعية الاتحاد والترقي في الداخل أن تستفيق بعد الضربة التي وجهها لها السلطان عبد الحميد، وأفادهم في ذلك ظنه أنه تمكن من استيعاب قسم منهم وإعادتهم إلى البلاد، لكن عودتهم تلك هيأت لهم المناخ المناسب لإعادة هيكلة تنظيمهم بشكل دقيق وعلى أسس جديدة، ويكسبوا أنصاراً جديداً يقوي صفهم ويكثر عددهم⁽¹⁾، ولم تتمكن الأجهزة الأمنية في عهد خلافة عبد الحميد الثاني من القضاء على تنظيم تركيا الفتاة، واقتصر

(5) ميكوش، مصطفى كمال، ص 11-12

(6) المحامي، الدولة العلية، ص 703

(7) ميكوش، مصطفى كمال، ص 11-12

(8) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص 144

(9) السلطان عبد الحميد، المصدر السابق، ص 156

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص 73-79

دورها على منع النشاطات العلنية لحركة تركيا الفتاة، يقول زين في ذلك "....بعد أن شتت عبد الحميد في العقد السابع من القرن التاسع عشر شمل الحركات التحررية، وأرغم أعضائها على الهرب والاختباء، عادت إلى نشاطها في السنوات الأخيرة من القرن إلى الظهور بين جماعة الأتراك المنفيين في أوروبا، وفي عام 1902م عقدت تركيا الفتاة أول مؤتمر لها في باريس، حيث أكد المؤتمر الأتراك الذين أصبحوا يعرفون الآن بجمعية الاتحاد والترقي مرة ثانية عزمهم الوطيد على متابعة الكفاح في سبيل أهدافهم الأساسية، ... وما أن أطل عام 1907م حتى كانت الجمعية قد أعادت تنظيم صفوفها لتشمل جميع الطبقات التي كانت تنتمي إلى تركيا الفتاة، وهيأتها للنضال، ثم تتالت الأحداث الخطيرة التي وقعت بين 1905م-1908م، فكانت حافزاً قوياً لنشاط هذه الحركة الثورية، وأهم تلك الأحداث الحرب الصليبية المستمرة ضد مقدونيا، والأساطيل الروسية التي تبدي نشاطاً ملموساً في الشرق الأدنى، هذا إلى جانب التقارب البريطاني الروسي، وتواتر الإشاعات عن تجزئة الإمبراطورية العثمانية (2) الوقوع".

تعد جمعية الاتحاد والترقي امتداداً طبيعياً لجماعة العثمانيين الجدد، أو ما يسمى جماعة تركيا الفتاة، وقد تأسست هذه الجمعية عام 1889م⁽¹⁾، واندماج معها بعد عام 1905م بعض الجمعيات والأحزاب العثمانية التي تعمل ضد السلطان عبد الحميد، وتعلن سعيها لإعادة العمل بدستور عام 1876م، لكون تلك الجمعيات والأحزاب على ارتباط وثيق بالمحافل الماسونية المنتشرة في أنحاء الدولة العثمانية، فكان تجمّعها وأنصارها في بوتقة جمعية الاتحاد والترقي بتنسيق مع الماسونية من أجل صب الجهود كلها لإسقاط السلطان عبد الحميد، وكان من المندمجين مع جمعية الاتحاد والترقي جمعية وطن السرية التي كونها مصطفى كمال أتاتورك عام 1906م، وجمعية حريت التي أسسها أتاتورك أيضاً⁽²⁾، ومع اندماج جماعة مصطفى كمال في الاتحاد والترقي زال اسم جمعية وطن وجمعية حريت، وصار لجمعية الاتحاد

(2) زين، نشوء القومية، ص 75-76

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص 49-50، مجهول، تلخيص التاريخ العثماني، ص 148

- BUYUK KULTUR ANSiKLOPEDiSi, cilt. 6, P. 2376

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص 118-123، - أرمسترونج، هـ. س (ملحق حربي لبريطانية في استانبول أثناء الحرب العالمية الأولى)، مصطفى كمال أتاتورك، ترجمة: حلمي مراد، نشر: دار المعارف، مصر، 1976م، ص 32-37، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 262-266

- برو، العرب والترك، ص 66-67، منسي، حركة البقطة العربية، ص 93-94، أوركخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 61

والتراقي قَسَمٌ سري لا يدخل أحد الجمعية إلا به⁽³⁾، وهذا يدعو لبيان حقيقة صلتها بالماسونية.

2- الاتحاد والتراقي والماسونية.

ارتبط اسم جمعية الاتحاد والتراقي (تركيا الفتاة أو العثمانيون الجدد سابقاً) منذ بداياتها باسم الماسونية⁽⁴⁾، فقد نبعت في الأصل من المحافل الماسونية في سالونيك، بإدارة (الشرق الأعظم) الإيطالي الذي أسهم فيما بعد بنجاح مصطفى كمال، وقد تأثر إبراهيم تيمو الذي أسس الاتحاد والتراقي في أيار 1889م بما رآه في نابولي بإيطاليا من المحفل الماسوني، ثم انتشرت هذه الحركة في المدرسة الطبية الحربية وسائر المدارس الحكومية العالية في الأستانة كالكلية الحربية ومدرسة البيطرة والكلية الملكية وكلية البحرية ومدرسة المدفعية والهندسة، وفي سنة 1892م وصل خبر الجمعية إلى الخليفة عبد الحميد الثاني، فاتخذ تدابير حازمة ضدها، وعزل أمر المدرسة الحربية علي صائب باشا، وعين بدلاً منه زكي باشا وأمره أن يقضي على المؤامرة، وفي سنة 1897م انتقل المركز الرئيسي لقيادة جمعية تركيا الفتاة من الأستانة إلى جنيف⁽¹⁾، وقد انقسمت هذه الحركة على نفسها، وأسفر هذا الانقسام عن تيارين، الأول التيار الذي يدعو إلى سياسة لا مركزية إدارية في الدولة، والاعتراف بالعناصر العرقية المكونة

(3) رامزور، تركيا الفتاة، ص 123، أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 32-33.
(4) الماسونية (البناء الحر) هي من أعظم وأقدم الجمعيات السرية ذات المنشأ الغامض، وهي حركة تنظيمية خفية قام بها حاخامات اليهود، وخاصة في مرحلة الضياع السياسي الذي تعرض له يهود التوراة، فأخذ الحاخامات على عاتقهم إقامة تنظيم يهودي يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية، فهي حركة ذات هدف يهودي بحث وذات طابع عالمي، وكانت نشأة المحفل الأكبر عام 1129هـ/1716م، وفي إنكلترا أسس القديس أليان المحفل الماسوني في بريطانيا عام 926م، وأخذ الماسون في بريطانيا براءة من الملك تسوغ لهم أعمالهم واجتماعاتهم السرية في مدينة يورك، حيث أنشئ المحفل الأعظم لإنكلترا، أما لفظ الماسون فإنه اشتق من لفظة فرماسون المركبة من لفظتين فرنسيتين، من فرانك التي تعني في اللغة الفرنسية: الصادق، و: ماسون، التي تعني الباني، وتصبح الدلالة للفظ الماسون: الباني الصادق، أو الجماعة = الماسونية، أي البناء الصادق، أو البناءون الأحرار، يقول لويس شيوخو: ومن غريب الأمور أن الفرماسون مع رضاهم بهذا الاسم الكاذب لا يحبون أن يجاهروا به، وجاء في بروتوكولات حكماء صهيون: ... إلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم ... وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة موحدة معروفة لنا، وستتألف هذه القيادة من علمائنا ... وكل من في الشرطة السرية الدولية تقريباً سيكونون أعضاء في خلايانا، إن الماسونية هي الاسم الجديد للشرعية اليهود المقتنعة. انظر: طعيمة، صابر، الماسونية ذلك العالم المجهول، نشر: دار الجيل، بيروت، دت، ص 15-21.

- مكاربوس، شاهين، تاريخ الماسونية العملية، دن، 1897م، ص 14-21.
- شيوخو، لويس، السر المصون في شعبة الفرماسون، نشر: دار المشرق، الطبعة الأولى، بيروت، 1999م، الكراس الأول، ص 14.

- نويهض، عجاج، بروتوكولات حكماء صهيون (4 ج في 2 مج)، دن، د. ت، ج2، ص 248، البروتوكول الخامس عشر.
- أتلخان، جواد رفعت (ضابط سابق في الجيش التركي) أسرار الماسونية، ترجمه عن التركية وعلق عليه نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، دن، كركوك، العراق، 1956م، ص 63.
وانظر: حسون، الدولة العثمانية، ص 190-191، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 285، النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص 172-188.

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص 49-68، رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 531، السنة 11/ 3 يونيو، حزيران، 1981م، ج2، ص 39، أوركخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 270-290
- DANiSMEND, OSMANLi TARIHi KRONOLOJiSi, cilt 4, p. 357

- حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 288، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 394

للدولة العثمانية، واستعمال لفاتها المحلية في بلادها، ويمثل هؤلاء الأمير صباح الدين، والثاني: التيار القومي التركي الذي نادى بالمركزية الإدارية، واتجه بعد نجاح الانقلاب على الخليفة عبد الحميد إلى سياسة تتركز الشعوب الأخرى، وخاصة العرب، وأدى إلى إيجاد التنافر والتباعد بين العرب في بلاد الشام والعثمانيين كما سيأتي لاحقاً، وقاد هذا التيار أحمد رضا⁽¹⁾، وقد تمكن هذا التيار بفكره العلماني وبسيطرة الحركة الماسونية عليه من التغلب على التيار الآخر المعتدل، والجنوح بجمعية الاتحاد والترقي بقيادة مراد بك نحو التشدد والتطرف، وأدى هذا إلى ابتعاد أحمد رضا عن قيادة هذا التيار⁽²⁾ ويشير رامزور إلى أن محفل الشرق الأعظم الفرنسي الماسوني قرر عام 1900م إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ لهذا الغرض يجتذب حركة الاتحاد والترقي⁽³⁾، ويشير أوزتونه بأن شخصية أمريكية في قنصلية أمريكا في استانبول هو المتسبب في حادثة 31/مارت/ آذار/ 1909م لإسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني، وهذه الشخصية هو القنصل لوثر (LOWTHER)⁽⁴⁾ وأنه منذ ذلك الحين بدأت الحركة الصهيونية واليهودية العالمية تكتف جهودها من أجل الإسراع في الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، وأن انقلاب 1909م من عمل مؤامرة يهودية ماسونية⁽⁵⁾ اشترك فيها يهود الدونمة⁽⁶⁾، الذين يرجعون في أصولهم إلى اليهود

(1) الدوري، التكوين التاريخي، ص 189-190

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص 67-68

(3) رامزور، المرجع السابق، ص 126، النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص 188

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 394-395.

كوثراني، مختارات سياسية، ص 228-233

(4) - OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARİHİ, cild. S. P. 367

(5) رامزور، تركيا الفتاة، ص 126، شقيرات، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، ص 57

(6) الدونمة كلمة تركية تعني العودة أو الرجوع، وقد أطلقت هذه الكلمة على فئة من الناس سكنوا في المناطق القريبة من عاصمة الدولة العثمانية، ولعبوا دوراً هاماً ورئيساً في القضاء على هذه الدولة، وزاد نشاطهم بعد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني عام 1909م، واشتركوا في تأسيس الدولة العثمانية التركية الحديثة، وبرعوا في المجال الاقتصادي والثقافي والصحفي، ولا يزالون يتحكمون في صحافة تركيا حتى الآن، وللدونمة اسمان آخران هما: الرجوعيون أو السباتانيون، نسبة إلى سباتاي سيفي الذي أنشأ هذا المذهب، والذي ولد في أزمير عام 1626م، ويرجع في أصله إلى اليهود الإسبان، وقد ادعى النبوة عام 1648م، وأبلغ أصحابه المقربين بنبوته فصدقوه، ولما علم حاخامات اليهود في أزمير أنادوا ضجة عظيمة حوله، وقام رئيس الحاخامين جوزيف ايسكابا وحاخامات اليهود ضده وحكموا بإعدامه، لكن سباتاي كان مطمئناً لعدم قدرة هؤلاء على تطبيق هذا الحكم في ظل الدولة العثمانية، ولم تتدخل السلطات الإدارية العثمانية في كل ما جرى مع سباتاي الذي ادعى أنه المسيح، وهذا يدل على استقلالية اليهود، وعلى التسامح الديني في الدولة العثمانية وعلى حرية الاعتقاد، وقد انقسم الدونمة إلى فرق بعد موت المسيح المزيف سباتاي= سيفي، أو المسلم المزيف محمد أفندي في 3 أيلول عام 1675م، وبذلك أصبح للسباتانية ثلاث طوائف مختلفة هم: 1- اليعقوبيون، نسبة إلى يعقوب جلبي أو حزب حمدي بك، أخو زوجة سباتاي. 2- القره قاشيون، نسبة إلى مصطفى جلبي، المعروف ب: قره قاش، وسميت جماعته بـ المؤمنين أو حزب عثمان بابا. 3- حزب إبراهيم آغا، ويسمى أنصار هذا الحزب بأصحاب المصيدة، أو البابو، وهذه الفئات الثلاث لا تتناكح أتباع الأديان الأخرى، وشعائهم خليط من الشعائر والعادات اليهودية والإسلامية، ويعتقد هؤلاء أن سباتاي سيفي ويعقوب سيعودان في يوم من الأيام ويخلصانهم، والدونمة آخذون في الانقراض تدريجياً، بسبب تزواجهم فيما بينهم، وسوف يندمجون في المجتمع التركي مع مرور الأجيال.

انظر: طوران، مصطفى، الدونمة، ترجمه عن التركية: كمال خوجة، نشر: دار السلام، طبعة أولى، بيروت، 1977م، ص 39-7

- فنسنك وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية (15 ج) ترجمة وتحرير إبراهيم خورشيد وآخرون، نشر: دار الفكر، القاهرة، 1987م، ج9، ص 330-331.

الوافدين إلى أراضي الدولة العثمانية من الأندلس بعد سقوطها بيد الإسبان عام 1492م/898هـ، بعد أن طردتهم ملكة إسبانيا إيزابيل الكاثوليكية، بسبب موافقهم الخبيثة المعادية لها، وقد فتح لهم العثمانيون الباب على مصراعيه، وسمحوا لهم بالاستقرار في كنف الدولة العثمانية الإسلامية تنفيذاً للشرعية الإسلامية التي تأمر بالإحسان إلى أهل الذمة، يقول بروكلمان "أصبحت الدولة العثمانية ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلى اليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال عند مطلع القرن السادس عشر، فما وافت سنة 1590م على وجه التقريب حتى بلغ عدد سكان الحي اليهودي في استانبول نحواً من عشرين ألفاً، واتخذ اليهود سبيلهم إلى قصر السلطان بادیء الأمر، وفرضوا أنفسهم على البلاط بوصفهم أطباء"⁽¹⁾، وكانت دول أوروبية كثيرة قد رفضت استقبالهم لمعرفتها بدورهم وأساليبهم وآلا عيبتهم لصنع الفتن، واختلاق الأكاذيب وتعاملهم بالخداع والمكر، وهذا ما انعكس على الدولة العثمانية وعاد عليها بالخطر والخسران، فما أن وطئت أقدام المجموعات اليهودية بلاد الباب العالي، حتى بدأت تتأمر على الخلفاء العثمانيين، وتثير الفتن وتخطط للاستيلاء على المراكز الاقتصادية الحساسة في الدولة العثمانية، وركز يهود الدونمة جهودهم المادية والمعنوية للسيطرة على الوضع المالي والاقتصادي، علاوةً على السماح لهم بممارسة نشاطاتهم في استثمار أموالهم من خلال فتح مراكز اقتصادية خاصة بهم، والتركيز على التحكم بأسواق المال والبورصة، وامتلاك رؤوس الأموال الكبيرة، وإحكام القبضة على تجارة الذهب والفضة وسائر المعادن الثمينة، وكان هدف اليهودية العالمية من سعيها لتوطين يهود الدونمة في عاصمة الخلافة وسائر المدن التركية وتمكنها من مراكز المال الرئيسية، يتمحور حول قرب هذه البلاد من فلسطين، لكونها محط أنظارهم، والهدف الذي تتجه خططهم ونشاطاتهم للوصول إليها والسيطرة عليها، ولذلك وبوصولهم إلى استانبول استطاعوا وضع أول مستوطنة يهودية في تركيا عام 1492م، ومع حلول مطلع القرن العشرين صار لهم أكثر من ثلاثة عشر كنيساً يهودياً في المدن الكبرى، وكفي للدلالة على قوة نفوذهم وحضورهم المميز في المجتمع العثماني، أن لهم في سالونيك وحدها ستة وثلاثين كنيساً⁽³⁶⁾، وعدداً كبيراً من المدارس الخاصة في البلاد التركية⁽¹⁾.

وعملت الماسونية والصهيونية العالمية على توظيف جهود وإمكانات يهود الدونمة، وضم هذه الإمكانيات وحشدها في العمل ضد الخلافة العثمانية من أجل خلع السلطان عبد الحميد، وخاصة يهود الدونمة في سالونيك ومناستير، بالرغم مما كان يصدر من السلطان عبد الحميد نحوهم من عطف وتسامح، ويقول حبيب فارس صاحب صحيفة المحروسة مخاطباً اليهود: هل راق لكم الكأس زمناً كما راق في حكم السلاطين آل عثمان، وهل حرية

- الدجاني، الثورة العربية الكبرى، ص 16-17، صفوة، موقف تركيا من قضية فلسطين، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص88

(1) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج3، ص 114-115

وانظر: الغزي نهر الذهب، ج3، ص518

(1) سرحان، النظام العثماني، ص9-13، حسون، الدولة العثمانية، ص191

في الأديان أعظم من الحرية الممنوحة لجميع المذاهب من قبل مولانا وسلطاننا عبد الحميد خان ... وأنتم مع عدم ذكركم لإسم هذا السلطان العظيم، وعدم الدعاء بحفظ وجوده، فإنكم كغيركم من الأمم تتمتعون بضياء شمس عدالته...⁽²⁾ وقد طلب السلطان عبد الحميد عند إعلان القانون الأساسي (الدستور) من حكومته احترام الطوائف المسيحية واليهودية، والمحافظة على العلماء وبطارقة النصارى وكواهن اليهود ... ألا يعزلوا أبداً"⁽³⁾.

3- دور اليهود والماسونية في الانقلاب على عبد الحميد الثاني.

ونظراً للصلة القوية بين يهود الدونمة وبين المحافل الماسونية، فقد كان لهم دور مؤثر في الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي، لانتظام هؤلاء في المحافل الماسونية⁽¹⁾، وقد نجح أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بالاشتراك مع يهود الدونمة وبتخطيط من الحركة الماسونية، وتنسيق مع بريطانيا وفرنسا في بث الدعايات والإشاعات الكاذبة المغرضة حول السلطان عبد الحميد، وحول أسلوبه في إدارة مؤسسة الخلافة وفي حكم الدولة، واصفين إياه بالمستبد والطاغية، مقدمين كل ما من شأنه أن يعطي إنطباعاً عنه لدى الناس بفساد نظام حكمه، وأنه يفتك بالعناصر المثقفة والواعية ويرميها من نوافذ القصر في البحر، وغير ذلك من الأقاويل التي نسجتها الماسونية حوله⁽²⁾، من أجل تهيئة الرأي العام في عاصمة الخلافة وفي أرجاء البلاد الإسلامية التابعة له لتقبل الانقلاب عليه، وكخطوة تصعيدية للاقتراب من ساعة الصفر، كُثِفَ الاتحاديون من نشاطاتهم إعلامياً وعسكرياً، فقد نقلوا في عام 1906م مقرهم الرئيس إلى سالونيك، وشرعوا في إعداد شبكة واسعة من الخلايا التنظيمية الثورية، وتم اختيار مقدونيا لينطلق منها جيشهم للانقضاض على عاصمة الخلافة استانبول، وإسقاط الخليفة عبد الحميد، وعزمت جمعية الاتحاد والترقي في الوقت ذاته على توحيد جميع الفصائل الثورية، وإعطائها التعليمات النهائية لتكون جاهزة للتحرك في الوقت المناسب، ولأجل ذلك عقدت مؤتمراً في باريس في نهاية عام 1907م يضم كافة الأحزاب والكتل المعارضة في الدولة العثمانية، ضمت المنظمة المكدونية الثورية، وحزب طاشناق الأرمني والقوميين العرب الذين يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي، ويشتركون معها في العمل لإسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني⁽³⁾، "وعلى أساس وحدة الأهداف المقبلة، تكونت في مؤتمر باريس جبهة موحدة من القوى الثورية، وقامت جمعية تركيا الفتاة (الاتحاد والترقي) وممثلو الأقليات القومية بتنازلات متبادلة، فوافق أعضاء جمعية تركيا الفتاة على مبدأ تقرير المصير السياسي والثقافي بالذات، وأعلن ممثلو الأقليات القومية أنهم يكتفون بالحصول على الاستقلال

- النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص 185-202

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 282

(3) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 282

(1) حلاق، المرجع السابق، ص 283

(2) حسون، الدولة العثمانية، ص 191-192. وانظر:

صفوة، موقف تركيا من قضية فلسطين، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص 88-89

(3) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 396، زين، نشوء القومية، ص 77

الذاتي في نطاق الإمبراطورية العثمانية، وأعدَّ المؤتمرون أشكال وأساليب الكفاح، ومنها الامتناع عن أداء اليمين في الجيش، والعمل على إشاعة القلاقل بين المدنيين، وإثارة الإضرابات بين الموظفين والشرطة لإحداث البلبلة في جهاز الدولة، والامتناع عن دفع الضرائب والمقاومة المسلحة ضد السلطات، وأخيراً الثورة المسلحة، وأكدت قرارات المؤتمر على أن قوات الجيش هي التي ينبغي أن تفجر الثورة من حيث الأساس، وعُيِّن شهر تشرين الأول، أكتوبر عام 1908م كموعِد لانطلاقها⁽¹⁾.

ويبدو أن مقررات هذا المؤتمر قد عممت على جميع المنتمين للمحافل الماسونية في أنحاء الدولة العثمانية، بما فيها البلاد العربية وبلاد الشام خاصة، وأن القوميين العرب الذين كانوا على صلة بالاتحاديين ويعملون معهم لإحداث الانقلاب على عبد الحميد الثاني، كانوا على علم أيضاً بمقررات المؤتمر المذكور، وبالمخطط الذي ينوي الاتحاديون والماسونيون تنفيذه ضد الخلافة، بدليل نشر نجيب عازوري - وهو من المطلعين، ومن المنتمين للماسونية - بيان شديد اللهجة، وأذاعته "اللجنة الوطنية العربية" يكشف فيه عن توجهات الحركة الماسونية والاتحاديين، ويلمح إلى اقتراب الانقلاب على عبد الحميد، وهذا يدل على علمه بموعد الانقلاب، يقول البيان: "إن تركيا على عتبة عهد جديد يتميز بالتغيير الجذري السلمي"⁽²⁾ ويؤكد هذا البيان ما أورده لوتسكي قبل قليل عن التفاهم الذي تم بين ممثلي القوميات الأخرى وبين الاتحاديين، والذي يقر باستقلال العرب في بلادهم، وهو هدف تشجعه الحركة الماسونية، وأوحت للمنتمين إليها من أعضاء الاتحاد والترقي المشاركين في المؤتمر المنعقد في باريس عام 1907م بالاعتراف للعرب من أبناء بلاد الشام المشاركين فيه، ومنهم نجيب عازوري، بحقهم في الانفصال عن دولة الخلافة العثمانية، وهو مطلب يساهم في تفتيت هذه الدولة، ويحقق الغاية التي من أجلها عمل الماسونيون الأتراك والعرب، وهي فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية، ليسهلوا على اليهود الوصول إلى فلسطين، وإقامة كيان لهم فيها، وليقسموا الإمبراطورية العثمانية بين الدول الكبرى، وتكون البلاد العربية من تلك الأملاك المقسمة وهو ما يأتي بيانه لاحقاً، يقول بيان عازوري "إن العرب الذين استطاع الأتراك أن يخضعوهم لحكمهم الجائر بواسطة تفرقتهم إلى شيع تتناحر وتتناذب على أمور دينية ليست بذات أهمية، والذين أصبحوا الآن يعون أنهم أمة واحدة، يوحد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق، يرغبون في الانفصال عن الأتراك الذين أخذ السوس ينخر في دولتهم، وتأسيس دولة عربية مستقلة، وستمند هذه الإمبراطورية العربية الجديدة إلى حدودها الطبيعية، من وادي دجلة الفرات إلى السويس، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان، وستكون ملكية دستورية حرة، على رأسها سلطان عربي، أما ولاية الحجاز الحالية، ومعها مقاطعة المدينة، فإنها ستكون إمبراطورية مستقلة على رأسها حاكم يكون في

(1) لوتسكي، المرجع السابق، ص 396

وانظر: زين، نشوء القومية، ص 76

(2) زين، نشوء القومية، ص 74

الوقت ذاته خليفة المسلمين، وبهذا التدبير تكون قد حلت المعضلة الكبرى، أعني فصل الدين الإسلامي عن الدولة المدنية، ويكون في هذا الحل خير لجميع الفرقاء"⁽¹⁾.

فالنزعة الانفصالية وروح العداء للعثمانيين واضحة جداً في لهجة العازوري، وهو يستخدم الألفاظ والعبارات الداعية إلى التباعد بين أبناء الرابطة العثمانية من عرب وعثمانيين، في فترة لم تكن هذه الدعوات مقبولة لدى عامة الناس في الشام، خاصة بين المسلمين، ويحاول عازوري إيهام أبناء الشام بأن العلاقات بين العرب الشاميين والعثمانيين بلغت مرحلة متقدمة من العداء، ولم يبق سوى الثورة المسلحة للقضاء على ما تبقى من علاقات بين العثمانيين والعرب، ومما لا شك فيه أن بيان عازوري يعبر عن موقف نصارى الشام العدائي للخلافة، وتصريحهم بفكرة فصل الإسلام عن الدولة، وتقديم العصبية القومية على الرابطة الدينية التي تربط العثمانيين المسلمين بالعرب المسلمين من أبناء بلاد الشام، وهذه الأفكار بمجملها هي نقاط الالتقاء مع الاتحاديين في سعيهم المشترك لإسقاط راية الخلافة وخلع السلطان عبد الحميد، وتحركهم العملي نحو ذلك فيما بعد.

واستعداداً للانقلاب اتخذت جمعية الاتحاد والترقي فروع لها في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، أما المركز الرئيس في سالونيك فكان أهم المراكز لانضمام أعداد كبيرة من أفراد الجيش العثماني إليه، وتحركهم قبل غيرهم في استعجال الانقلاب على الخليفة عبد الحميد⁽¹⁾، وكانت الخلية الأولى التي شكلتها جماعة الاتحاد والترقي في سالونيك تتألف من سبعة أفراد، بالإضافة إلى رئيس هذه المجموعة طلعت باشا⁽²⁾، الذي كان موظفاً عادياً في مصلحة البريد، فأوقعته الماسونية في شباكها كما أوقعت

(1) عازوري، يقظة الأمة العربية، ص 37، وانظر:

زين، نشوء القومية، ص 74-75، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 134

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 706، الغزي، نهر الذهب، ج 3، ص 473

- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARİHİ, cild. 6.P. 396

(2) طلعت باشا: هو محمد طلعت باشا، ولد عام 1874م في أدرنة بتركيا، وهو من أصل بلغاري من غجر بلغاريا وهو من زعماء تركيا الفتاة، وكانت درجته في الماسونية رقم 33، أحد الثلاثة قادة جمعية الاتحاد والترقي بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد، تولى الصدارة العظمى في الفترة 1917-1918م، وهو ابن موظف عثماني صغير، انضم إلى شركة الهاتف بعد أن درس القانون في سالونيك، اعتقل مع قراصو اليهودي لنشاطهما السياسي التخريبي، ثم أطلق سراحه بعد سنتين، وعين رئيساً لأمناء البريد في سالونيك، فكان لسان حال تركيا الفتاة هناك، ثم أصبح نائباً عن أدرنة بعد عام 1908م، وعين في الحكومة الانقلابية للاتحاد والترقي بعد عام 1909م وزيراً للداخلية، ثم وزيراً للبريد، ثم عين أميناً عاماً لجمعية الاتحاد والترقي عام 1911م، وكان من المؤيدين للألمان في الحرب العالمية الأولى متأثراً بأنور باشا شريكه في الحكم ورفيقه، استقال قبل توقيع معاهدة الصلح عام 1917م، وهرب إلى أوروبا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، اغتاله الألمان في برلين في 16 مارس آذار 1921م. انظر:

- السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص 276 ملحق التراجم، حسون، الدولة العثمانية، ص 192

- مورغنتو، السير هنري (سفير أمريكا في الأستانة بين 1913-1916) المذكرات، تعريب فؤاد صروف، نشر: يوسف البستاني، طبع مطبعة المقطم، مصر، 1923م، ص 9-11.

- زين، نشوء القومية، ص 86، رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 533، السنة 11/ 16 يونيو حزيران، 1981م، ج 4، ص 37

- AKGUN YAHUDI NİN TAHTA KİLİCİ, P. 50

الغالبية من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي⁽³⁾، واستغل الماسونيون طيب سريرته واندفاعه فعينوه رئيساً لمحفل الشرق الأعظم الماسوني العثماني، ثم رقي في السجل الماسوني إلى رتبة كاتب أول في البريد، ورعاه المحفل الماسوني الذي أحس بأنه سيكون له مستقبل كبير⁽¹⁾، وعرف بالإضافة إلى طلعت باشا عدد من الشخصيات البارزة التي دخلت في التنظيم الماسوني، ومعظمهم من ضباط الجيش ومن قادة جمعية الاتحاد والترقي⁽²⁾، واشتهر منهم المقدم جمال باشا، المعروف بـ جمال باشا السفاح، وقائد الجناح مصطفى كمال، الذي عرف فيما بعد بـ أتاتورك (أبو الأتراك) والرائد فتحي بك⁽³⁾، وقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته ما يؤيد ماسونيتهم بقوله "لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبة إسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرة أخرى؟! هل لأن أخي مراد كان مثلهم ماسونياً؟!... لا بد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سَمَوْا أنفسهم "الأتراك الشبان"، أو تركيا الفتاة، وعن ماسونيتهم، استطعتُ أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي⁽⁴⁾، وإضافة إلى هؤلاء اشتهر اثنان كانا من أبرز قادة الاتحاد والترقي هما: أنور بك⁽¹⁾، وجمال بك⁽²⁾، وشكلاً مع طلعت الثالث

(3) حسون، الدولة العثمانية، ص192-193، رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 533، السنة 16/11/1981م، ح4، ص37

(1) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص49-50، النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص161 - السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص276، ملحق التراجم، وانظر: حسون، الدولة العثمانية، ص195

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص123-124

(3) الغزي، نهر الذهب، ج3، ص473، برو، العرب والترك، ص67

(4) ذكر محمد حرب في تعليقه على مذكرات السلطان عبد الحميد أثناء التحقيق لها أن كل أعضاء فروع جمعية الاتحاد والترقي في كل من القاهرة وجنيف وباريس من الماسونيين، لكن الاهتمام الرئيس العالمي الذي أولته الماسونية الدولية انصب على كادر الماسونيين في مقدونيا، ذلك لأن حركة الاتحاد والترقي في سلانيك، وهي مركزها كانت الحركة العسكرية لهذه الجمعية، وكان كل ضباط الجيش هناك باستثناء اثنين فقط، ماسوناً، والأربعة الكبار في الاتحاد والترقي في منطقة مقدونيا ماسون، وهم: محمد طلعت بك (باشا)، وماناسي زاده رفيق بك، ومدحت شكري بلدا، وإسماعيل جانبولا. وكان الجميع في أول مركز عمومي للاتحاد والترقي - باستثناء واحد فقط - من الماسونيين، وفي المؤتمر الأول لحزب الاتحاد والترقي (156 عضواً) كانت أهم شخصياته من الماسونيين وهم (73 عضواً)، وفي اجتماع مجلس الشورى الأعلى للماسونيين في الدولة العثمانية، والذي عُقد في 3 يونيو 1909م في فندق طوقاطليان في حي بك أوغلو في إستانبول، حضر أعضاؤه وهم 12 ماسونياً، كل منهم يحمل الدرجة (33) في الماسونية، وهم: محمد طلعت ساعي، مدحت شكري بلدا، محمد جاويد، الدكتور رضا توفيق، محمد عارف، نسيم مازلياح، محمد غالب، ميشيل دوقجيان، دافيد دافي كوهين، عثمان عادل، فؤاد خلوصي، عاصم كيار، أما الآتية أسماؤهم فقد كانوا يحملون درجة أستاذ أعظم في الماسونية في عهد الاتحاد والترقي، وهم: طلعت باشا، الأميرالاي محمد علي باشا، فائق سليمان باشا، جاويد بك وزير المالية. انظر:

- السلطان عبد الحميد، المذكرات، هامش ص116-117، نقلاً عن تعليق جمال قوطاي على مذكرات طلعت باشا، ج3، ص1424-1425.

وانظر: برو، العرب والترك، ص67

(1) أنور باشا: ولد عام 1877م/ 1299هـ في إستانبول، أبوه رجل بولندي الأصل، وهو قائد ركن وأحد الثلاثة الذين قادوا تركيا بعد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد، إضافة إلى طلعت وجمال باشا لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وأدى ذلك إلى خسارتها في هذه الحرب، وهو ابن أحمد بك أحد رجال حاشية السلطان عبد الحميد، ومتزوج من ابنة أخيه، عين رئيساً في الجيش الثالث بسلانيك بعد تخرجه من المدرسة الحربية، ثم عين عام 1905 في أركان الجيش الثالث في مناستير، وانضم هناك إلى جمعية الاتحاد والترقي، وأقنع الفريق محمود شوكت للاشتراك في جمعية الاتحاد والترقي وقيادة جيش الاتحاديين في الهجوم على

الذي قاد جمعية الاتحاد والترقي وحكم الدولة العثمانية معهم، مع إبقاء سلطة الخليفة السورية، في الفترة بين 1909-1918م، ثم انسحبوا من الحياة السياسية جميعهم بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا عام 1918م⁽³⁾. وضع رجال الاتحاد والترقي خطة لإعلان الثورة على السلطان عبد الحميد في ربيع عام 1909م، كما جاء في مقررات مؤتمرهم الأخير الذي عقدوه في عام 1907م⁽¹⁾، ويذكر لوتسكي أن قرارات المؤتمر عيّنت شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1908م كموعداً لانطلاقها⁽²⁾، ويرجع لوتسكي تعجيل الانقلاب إلى الأحداث العالمية الطارئة التي جعلت جمعية الاتحاد والترقي يقدمونه عن الموعد المقرر له، ويبدو أن استعجالهم كان خشية أن يبادر السلطان عبد الحميد لاتخاذ أية تدابير تفشل مخططهم من جهة وتمكنه من القضاء عليهم، وبذلك يفوت الفرصة المتاحة زمنياً لهم للقيام بالانقلاب حسب خطتهم، ولذلك بدأوا تنفيذ تلك الخطة⁽³⁾.

4- إعادة العمل بدستور مدحت باشا (المشروطة الثانية) 1908م.

استانبول واقتحامها وخلع السلطان عبد الحميد، وعين في سنة 1909م ملحقاً عسكرياً في برلين، ثم التحق عام 1911م بقيادة الجيش العثماني المرابط في ليبيا لمواجهة الغزو الإيطالي لها، وعاد بعد ذلك إلى استانبول، وشارك مع قادة الاتحاد والترقي في قيادة البلاد حتى عام 1918م، وبعد ذلك انسحب من الحياة السياسية وهرب إلى موسكو عام 1920م، وتعامل مع الروس، ولما أحس بغدرهم به انضم إلى الثورة المضادة لهم في بخارى وطلب إخلاءها من الروس، فقتل في الحرب وهو يقاتل الروس مع مسلمي بخارى في عام 1922م. انظر: المحامي، الدولة العلية، ص 723-725، حسون، الدولة العثمانية، ص 203 - مورغنتو، المذكرات، ص 11-12، 42، زين، نشوء القومية، ص 86

- AKGUN, YAHUDiNiN TAHTA KiLiCi, P. 50
(2) جمال باشا: واسمه أحمد جمال، واشتهر بجمال باشا، ولد سنة 1872م في ميثيلينا باليونان في فترة حكم السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني، شارك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، وكان عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي وانضم إلى الماسونية بعد طلعت باشا شريكه مع أنور باشا في الاستيلاء على إدارة الدولة العثمانية في الفترة بين 1908-1918م وهو الذيفاوض رجال عبد الحميد أثناء الانقلاب عليه، تقلد مناصب هامة كمنصب وزير البحرية، ثم قائداً عاماً للفلق الرابع المرابط في بلاد الشام، ثم حاكماً عسكرياً على استانبول بعد انقلاب 1909م على عبد الحميد الثاني، توفي عام 1922م اغتيالاً في تقليد عاصمة أرمينيا على يدي شابين أرمينيين هما بدروس بوغوصيان واستيبان زاغيبكيان، له "المذكرات" مطبوعة، وكذلك كتاب إيضاحات عن المسائل السياسية.

- اليافي، نعيم، جمال باشا السفاح (دراسة في الشخصية والتاريخ)، نشر: دار الحوار، طبعة أولى، اللاذقية - سوريا، 1993م، ص 23.

- سلام، سليم علي (ت 1357هـ/ 1938م) المذكرات، تحقيق: حسّان خلّاق، نشر: الدار الجامعية، طبعة أولى، بيروت، 1981م، ص 20.

- مورغنتو، المذكرات، ص 47، 65، حسون، الدولة العثمانية، ص 193

- AKGUN, YAHUDiNiN TAHTA KiLiCi, P. 50
(3) AYVERDi, TURK TARiHiNDE OSMANLi ASiRLARi, cild, 3. P. 143

(1) زين، نشوء القومية، ص 76-77، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 396

- أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 42

(2) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 396

(3) لوتسكي، المرجع السابق، ص 396-397

وانظر: ليبب، المسألة الشرقية، ص 95

Toynbee, The Modern World Turkey, P. 185

تمكن أفراد الاستخبارات العثمانية الموالين للسلطان عبد الحميد من الإطلاع على حقيقة ما يجري في سلانيك ومناستير في أوساط الجيش الثالث العثماني، وأن جماعة الاتحاد والترقي على وشك القيام بنشاط عسكري ضد عاصمة الخلافة، وقوى هذا الاتجاه اعتقال طلعت وقراصو اليهودي عندما جاء من سلانيك إلى استانبول لتنسيق خطوات العمل المقبلة مع خلاياهم السرية فيها، ثم الإفراج عنهم بعد الاستجواب أمام لجنة خاصة، وإطلاق سراحهما دون إدانتهم، بفضل دهاء قراصو حين أجاب لجنة التحقيق: نحن ماسونيون لا ننكر ذلك، لكننا لسنا أعضاء في جمعية سرية، فاقتنعت اللجنة بكلامهما.

وأفرجت عنهما⁽⁴⁾ وكان ذلك بمثابة الإنذار الخطير الذي نبّه كلا الفريقين، فريق عاصمة الخلافة بقيادة السلطان عبد الحميد الثاني، وفريق الانقلابيين الذي خافوا تحرك عبد الحميد ضدهم قبل تنفيذ الانقلاب، وفي هذه الفترة، في 10 حزيران (يونيو) 1908م اجتمع قيصر روسيا وملك إنكلترا في "ريفال" واتفقوا على التدخل في شؤون الدولة العثمانية، خاصة في الولايات الثلاث مناستير، قوصوه، سلانيك، وهي تابعة لمقاطعة مقدونيا⁽¹⁾، وأشار الحصري إلى سبب لقاء ريفال بأنه جاء لوضع الخطط الجديدة من أجل تصفية المسألة الشرقية⁽²⁾، فكان هذا السبب المباشر الذي اتخذته الضباط المتمردون في الجيش الثالث في سلانيك ذريعة لبداية التحرك ضد الدولة وإعلان التمرد قبل الموعد المقرر من قبل جماعة الاتحاد والترقي للانقلاب، وكان في مقدمة هؤلاء الضباط القول آغاسي (الرئيس أول، أو الرائد) أحمد نيازي قائد حصن رسة، المعروف بـ نيازي الرسة لي⁽³⁾، والضابط الرئيس (النقيب) أنور بك، وتحرك هؤلاء إلى الجبال مع وحداتهم العسكرية إذ كان نيازي نواة التمرد ومعه مائتا عسكري، وأعلنوا اعتصامهم بالجبال في سالونيك، بمقاطعة مقدونيا، وانضم إليه أنور ومصطفى كمال وجمال باشا وآخرون مع وحداتهم، واحتلوا بعد ذلك مدينة مناستير (بيتولج) وفيها مقر قيادة الجيش الأول، وهددوا بالهجوم على القسطنطينية (استانبول) من هناك، وأرسلوا برقيات إلى السلطان عبد الحميد مطالبين بإعادة الدستور وانتخاب المجلس النيابي، وتوالت برقيات العسكريين من كافة القطاعات العسكرية التي يرأسها قادة منضمين لجماعة الاتحاد والترقي، إلى السلطان عبد

(4) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص 50-51

- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, cild. 5. P. 377

(1) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 38

مجهول، تلخيص التاريخ العثماني، ص 148-149، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 296

- برو، العرب والترك، ص 68، زين، نشوء القومية، ص 77

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، وتلن، عبد الحميد، ص 186

منسي، حركة البقطة العربية، ص 94، لبيب، المسألة الشرقية، ص 95

(2) الحصري، البلاد العربية، ص 113، مجهول، تلخيص التاريخ العثماني، ص 148

(3) نيازي، أحمد نيازي الرسة لي، خواطر نيازي (المذكرات) عربي عن التركية: ولي الدين يكن، نشر: مطبعة علي سكر أحمد، مصر، 1909م، ص 4-7 .

- وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 277

الحميد تؤيد حركة التمرد، وتطالب بإعادة العمل بالدستور الذي وضعه مدحت باشا وتركيا الفتاة عام 1876م،

وكان ذلك في 10 تموز 1908م⁽¹⁾، وكانت إحدى البرقيات المطالبة بإعادة الدستور والمؤيدة لحركة الاتحاديين مرسلّة من حسين حلمي باشا مفتش الولايات الثلاث التي كانت فيها حركة التمرد⁽²⁾، وكانت ردة فعل الخليفة عبد الحميد عملاً بسياسته القاضية باستيعاب الموقف، ثم التحرك الذي يراه مناسباً حسب المعطيات المتوفرة بين يديه، فوافق على ما طلبه الاتحاديون، وأعلن البدء بالعمل بالدستور الموقف من عام 1877م، وحدد موعداً لإجراء انتخابات للبرلمان⁽³⁾ ويرى أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية التي تشكلت زمن الاتحاديين، أن جماعة الاتحاد والترقي دبّروا مكيّدة لإرهاب عبد الحميد، وحمله على إعادة القانون الأساسي، وتلك المكيّدة هي تخويفه من خلافة عربية، وتصوير تلك الخلافة له في صورة الحقيقة⁽⁴⁾، ويرى لوتسكي أن السلطان عبد الحميد قرر تقديم تنازلات عندما تأكد أن القوات العسكرية في العاصمة وفي آسيا الصغرى موالية لجمعية الاتحاد والترقي، وكانت إعادة العمل بالدستور في 24 تموز (يوليو) 1908م، ومن ثم صدرت مراسيم عن حرية الكلام والمطبوعات والاجتماعات وألغيت الرقابة، وأعلن العفو العام عن السجناء السياسيين⁽⁵⁾، وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد نجحت في تجميع أعداد هائلة من الموالين الذين تجمعوا يوم 23 تموز 1908م في ميدان أوليمبوس في سلانك وهتفوا: إما الموت وإما الحرية، ويؤكد الحلاق أن الخطباء الذين خطبوا في ذلك التجمع الحاشد، وأثاروا في الناس روح العداء للخلافة، كلهم من الاتحاديين واليهود، وأن الدول الأوروبية لها التخطيط المباشر لهذا التمرد، إذ أن أول من خطب في الجماهير من شرفة فندق أوليمبوس بلاس هو غالب أفندي باللغة التركية، وتلاه مانويل قراصوه خطب باللغة اليهودية الإسبانية، ثم روصو أفندي بالفرنسية، وسليمان أفندي بالتركية

(1) الغزي، نهر الذهب، ص 473

زين، نشوء القومية، ص 77، برو، العرب والترك، ص 68-69
مورغنتو، المذكرات، ص 6، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 296-297
الحصري، البلاد العربية، ص 108، المحامي، الدولة العلية، ص 707
لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 396، اليافي، جمال باشا، ص 33

YiLDiZ, BUYUK iSLAM TARiHJi, cild, 12. 70
P.

(2) - DANIsmEND, OSMANLi TARiHi, KRONOLOJiSi, cilT, 4. p. 356-365

برو، العرب والترك، ص 69

(3) الغزي، نهر الذهب، ج 3، ص 472-473

- الحصري، البلاد العربية، ص 108، فيضي، المذكرات، ص 33-34
- طلس، تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث)، ص 34، بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص 187

(4) مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص 24.

(5) الغزي، نهر الذهب، ج 3، ص 470-472، أنطونيوس، بقطة العرب، ص 107

عائشة أوغلي، والذي السلطان عبد الحميد، ص 217

أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص 19، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 397.

- YiLDiZ, BUYUK iSLAM TARiHi, cild, 12, P. 75

وفضلي نجيب بالتركية، وفيلوطاش بابا جورج، خطب باللغة الرومية والتركية، وترجمان المحكمة المخصصة باللغة البلغارية، وفي ختامهم عادل بك رئيس بلدية مناستير باللغة التركية، ثم هتف الجميع: فليحيا الوطن، فلتحيا الأمة، فلتحيا الجمعية، فليحيا الجيش، الحرية أو الموت⁽¹⁾ ويعترف المؤرخ الصهيوني (Kallen) كالين بأن أكثر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا من الدونمة، وممن عاشوا في المنفى الذين كانوا تلاميذ السياسة الأوروبية⁽²⁾ ويعتقد حلاق أن الخليفة عبد الحميد الثاني كان بإمكانه مهاجمة جيش التمرد عن طريق جيشه في ألبانيا⁽³⁾، لكن إمكانية تدخل الدول الأجنبية لم تكن بعيدة عن مخيلته، فاستبعد الفكرة لأنه كان يعلم بأن هذه الدول هي التي ساعدت الثوار الاتحاديين الذين كانوا كما قالت صحيفة المباحث يعرفون كيف يستميلون الكثيرين من الأجانب الذين ازدحموا على العاصمة يريدون أن ينالوا شيئاً من الامتياز لاستثمار منافعها، فكانوا يمنونهم بالوعود أنه إذا انتهت السلطة إليهم أنالوهم ما يرغبون فيه⁽⁴⁾ ونظراً لذلك رضخ السلطان لمطالب الاتحاديين، والظاهر أنه تأثر تأثراً عميقاً من أحداث 1908م بعد أن رأى الملابس المحيطة بها، واشترك اليهود، ويهود الدونمة تحديداً في التخطيط لها⁽²⁾.

بعد إعادة العمل بالدستور أعلنت جمعية الاتحاد والترقي برنامجها السياسي، القائم على مبادئ الماسونية وشعاراتها الثلاثة (العدالة، الحرية، المساواة)⁽³⁾ وأعلنت مساواة جميع المواطنين أمام القانون في الحقوق والواجبات، دون النظر إلى جنس أو دين، كما أنها طرحت شعار حرية التعليم وتأليف الجمعيات،

(1) الخالدي، محمد روجي، الانقلاب العثماني، مجلة الهلال، م 17، ج3، السنة 17، ع ديسمبر/ كانون الأول، 1908م، ص 168-169

- الخالدي، محمد روجي، الانقلاب العثماني، مجلة المنار، م 11، ج11، 24 كانون الأول/ ديسمبر، 1908م، ص 856-857 عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص 217

أوغلو، السلاطين العثمانيون، ص 19، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 397.

- الخالدي، محمد روجي، الانقلاب العثماني، مجلة المنار، م 11، ج11، 24 كانون الأول/ ديسمبر، 1908م، ص 856-857 وانظر: حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 296-297

وانظر: حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 296-297

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 297

وانظر: زلوم، عبد القديم، كيف هدمت الخلافة، نشر: دار الأمة، طبعة ثالثة، بيروت، 1990م، ص 26.

(3) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 297

(1) حلاق، المرجع السابق، ص 297

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 298، طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص 53

- رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 533، السنة 11/ 16 يونيو حزيران، 1981م، ح 4، ص 37-38

(3) الغزي، نهر الذهب، ج3، ص 472، سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص 66

زين، نشوء القومية، ص 77، حسون، الدولة العثمانية، ص 196

- الدوري، التكوين التاريخي، ص 190، مجهول، ثورة العرب، ص 25

- AYVERDi, TURK TARİHİNDE OSMANLI ASİTLARİ, cild, 3, P. 98

- نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، ج2، ص 187، 216

وأجريت أول انتخابات عامة على أساس دستوري في الفترة نوفمبر/ تشرين الثاني، وديسمبر كانون أول 1908م، وتدخل الاتحاديون بشكل سافر ليحصلوا على عدد من النواب الفائزين في الانتخابات من أنصارهم في مجلس النواب القادم، ولولا تدخلهم المباشر في سير الانتخابات لكان من الصعب حصولهم على مقعد واحد دون إسناد منهم، واختير مرشحهم من الفئات المهنية في المدن ومن ملاكي الأرض⁽⁴⁾، ومن الجدير بالذكر هنا أن تنظيم (العثمانيون الجدد) قبل تحوله إلى جمعية الاتحاد والترقي عام 1889، كان من طبقة اجتماعية، في حين كانت تركيا الفتاة لاحقاً (الاتحاد والترقي) من خلفية اجتماعية أكثر تواضعاً نتيجة لتوسع قاعدة الحركة الإصلاحية⁽⁵⁾ وترجع تركيا الفتاة إلى الفئات المهنية التي برزت حديثاً من ضباط وصحفيين ومحامين وموظفين صغار، وهم نتاج المدارس الحكومية، ولعلمهم كانوا أساساً من الطبقة الوسطى، وولدت حركة تركيا الفتاة من بينهم، وكان لهذا أثره في سياسة الاتحاد والترقي في البلاد العربية وفي تعاملهم معها⁽¹⁾، وقد انعكس هذا الموضوع على عدد المرشحين الذين فازوا في انتخابات مجلس النواب الجديد بعد انقلاب الاتحاد والترقي عام 1908م إذ كان توزيع المقاعد كما يلي: ستون مقعداً (60) للعرب، مائة وسبعة وأربعون مقعداً (147) للأتراك، سبعة وعشرون مقعداً (27) للألبان، ستة وعشرون مقعداً (26) لليونان، أربعة عشر مقعداً (14) للأرمن⁽²⁾، فهذه انتخابات حصل فيها كل

(4) الدوري، التكوين التاريخي، ص 191

(5) Lewis, BERNARD, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London, 1965. P. 174-190

(1) Feroz Ahmad, The young Turks, The Committee of Union and Progress in Turkish, Politics, 1908-1914, Oxford, Clarendon Press, 1969. P: 16-18

(2) الدوري، التكوين التاريخي، ص 191، وقال الحصري إن العدد كان (275) عضواً، توزعوا كما يلي: (142) للأتراك، (60) للعرب، (25) للألبان، (24) للأروام، (12) للأرمن، (5) لليهود، (4) للبلاغار، (3) للصرب، (1) للفلاح. انظر:

الحصري، البلاد العربية، ص 110.

وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 298-300، الذي أورد تركيبة أخرى لمجلس المبعوثين تختلف عما أوردناه هنا، وعدد أسماء هؤلاء المبعوثين جميعهم من كافة الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية آنذاك منهم 25 نائباً عن بلاد الشام بمناطقها المختلفة.

العناصر العرقية المكونة لسكان الدولة العثمانية على مقاعد في برلمانها⁽³⁾، وحصل الاتحاديون ومؤيدوهم على العدد الأكبر، بينما كان عدد العرب الفائزين قليلاً مقارنةً بنسبتهم بين سكان الدولة العثمانية وأهميتهم في تركيبة الدولة والمجتمع العثماني، وهو ما يتم بيانه في نهاية هذه الفقرة.

كان انتصار جمعية الاتحاد والترقي انتصاراً جزئياً⁽¹⁾، على الرغم من استجابة الخليفة عبد الحميد الأولية لمطالبها، فقد خشي الاتحاديون ردة فعل الشعب المسلم في مختلف أقاليم الدولة ضدهم، وتحسباً لذلك سعوا ابتداءً للاتفاق مع السلطان عبد الحميد على صيغة يظهر منها السكوت عنه والحرص على التعاون معه، لكنها في الحقيقة ليست إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة، سعى كل من السلطان عبد الحميد والانقلابيين الاتحاديين على اغتنامه لصالحه، فالاتحاديون أشعروا الخليفة بأنهم لن يسعوا لعزله، مع تحركهم الخفي نحو ذلك وتحضيرهم له كخطوة لاحقة قريبة، والخليفة عبد الحميد يدرك في قرارة نفسه أنهم لن يكتفوا بما قدمه إليهم من تنازل في إعادة العمل بدستور مدحت باشا وتشكيل مجلس نيابي جديد يرأسه أحمد رضا الذي كان زعيم جمعية الاتحاد والترقي في باريس⁽²⁾، كما أنه على يقين بأنهم باتوا على درجة من القوة والتمكن جعلتهم يهددونه بالزحف على استانبول إن لم ينفذ ما يريدون، فجاء تنفيذهم لمطالبهم الأولى بمثابة دق إسفين يستطيع بعده التقدم بخطوات أخرى نحو استيعابهم، في سبيل التخلص منهم كما فعل عند إعلان الدستور عام 1876م⁽³⁾، والحقيقة أن الظرف قد تغير، ودهاؤه الذي يعترف له به الصديق والعدو لن يخدمه هذه المرة، لأن مدحت باشا وأعوانه الماسونيون في المرة الأولى عام 1876م لم يبنوا خلايا تنظيمية سرية مسلحة للسيطرة على الحكم عند الحاجة لذلك، بل اكتفوا بالسيطرة على الجيش والحكومة، إضافة لعدم اتخاذ الماسونية قراراً حين ذلك بالتخلص منه، لاقتناعهم بأنه من الممكن مفاوضته والحصول منه على ما يريدون، خاصة فيما يتعلق بمسألة إقامة وطن لليهود في فلسطين، وسكوته عن ذلك مقابل إغراءاتهم له بالمال كما رأينا ذلك في الفصل الثالث من هذا البحث⁽⁴⁾.

(3) ذكر زين تركيبة أخرى لمجلس النواب العثماني الذي انعقد في جلسته الأولى في 17 كانون أول 1908م بعد إعادة العمل بالدستور في 23 تموز 1908م، وهذه التشكيلة هي كما يلي: أعضاء المجلس (260) عضواً، منهم (119) نائباً تركيا، (72) نائباً عربياً، أما بالنسبة إلى الدين، فقد كان عدد المسلمين (214) عضواً، والمسيحيين (42) عضواً، واليهود (4) أعضاء، وكان لحزب اللامركزية (35) عضواً معظمهم من الأتراك. انظر: زين، نشوء القومية، ص 79.

- سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص 69، وانظر:

- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARiHi, cild, 5. P. 396-397

(1) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 297

(2) زين، نشوء القومية، ص 79، زلّوم، كيف هدمت الخلافة، ص 26

(3) زين، المرجع السابق، ص 79

(4) انظر: انظر أيضاً عن هذا الموضوع: ص 335 فما بعد من هذا الكتاب.

وهذه المرة اتخذوا القرار القاطع بتنحيته عن الحكم عن طريق القوة العسكرية، لوصولهم إلى قناعة باستحالة الاطمئنان إليه نتيجة التجربة الأولى معه بعد إعلان الدستور المرة الأولى عام 1876م، ووجدت الحركة الصهيونية في الاتحاديين الفئة التي تحقق لها مطلبها بالتخلص من عبد الحميد الذي منعها وبحزم من تنفيذ مخططاتها في بلوغ مشروعاتها الاستراتيجية، وهو إقامة وطن قومي لها في فلسطين، لذلك كانت الماسونية التي تعد ذراع الصهيونية ووسيلتها للوصول إلى أهدافها هي الواقفة وراء الانقلاب على الخليفة عبد الحميد⁽¹⁾، بل هي المدبرة له بسبب موقفه السابق الأنف الذكر من قضية فلسطين، وهو ما فاخرت الحركة الماسونية والصهيونية به⁽²⁾، وكتب الشيخ رضا في مجلة المنار أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي طلعت وروحي بك وجاويد بك وخليل بك وجاهد بك وإسماعيل حقي كلهم من شيعة الماسون، وهم مجتهدون في نشر الماسونية بين رجال الحكومة وضباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيداً لفصل الدولة عن السياسة، وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية، وقوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة، وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية باستعمار فلسطين التي يراد بها إعادة مُلك إسرائيل ... وإضعاف اللغة العربية في الدولة وإماتها⁽³⁾، ونقل حسون ما قاله الفيلسوف الماسوني شاربيا في حفل أقيم للماسون: انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر السلطان عبد الحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة، أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية ويعظم من شأن وسائلها السلمية السليمة⁽⁴⁾، وكان من وراء الجميع وكالة المخابرات المركزية البريطانية التي كانت تمسك الخيوط جميعها⁽¹⁾ ويؤكد دور المخابرات والحكومة البريطانية في دعم الانقلاب على الخليفة عبد الحميد، ما قاله أحد الخطباء في حفل افتتاح المحفل الماسوني في القاهرة الذي سمي باسم نيازي أحد قادة جيش الاتحاد والترقي في سلانيك الذي نفذ الانقلاب عام 1909م، وهذا الخطيب هو برتوبك أحد قادة الاتحاد والترقي الماسونيين، ألقى خطابه باللغة التركية، "وأثنى الثناء العاطر على الحكومة الإنكليزية والأمة الإنكليزية لأنهما ساعدتا العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك، الذي قوض أساس الاستبداد، ووطد أركان الحرية في الممالك العثمانية"⁽²⁾ أما رامزور فيؤكد أن حركة تركيا الفتاة نبعت

وانظر: حرب، محمد، (مؤيذكوهين يهودي عثماني من قادة الطورانية)، مجلة العربي، الكويت، ع282، مايو أيار 1982م، ص87.

(1) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص285

(2) شيخو، السر المصون، الكراس الأول، ص32-34

- سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص66-67

(3) رشيد رضا، مجلة المنار، م14، ج4، 29 نيسان 1911م، 30 ربيع الآخر 1329هـ/ ص269-270

وانظر: شقير، نعيم (رئيس محفل نيازي الماسوني في القاهرة عام 1910م)، الماسونية في البلاد العثمانية، مجلة المقتطف، م36، ج2، شباط 1910م، محرم 1328هـ/ ص159.

(4) حسون، الدولة العثمانية، ص197

(1) حسون، الدولة العثمانية، ص197، 198

(2) شقير، الماسونية في البلاد العثمانية، مجلة المقتطف، م36، ج2، سنة 1910، ص159

في الأصل في المحافل الماسونية في سلانيك⁽³⁾، ومع ذلك يحاول أن ينفي أي دور للحركة الماسونية في الانقلاب الذي حدث عام 1908م، ويقرن ذلك بالتأكيد على ارتباط عدد من قادة الاتحاد والترقي بالمحافل الماسونية، وينقل عن أحد هؤلاء القادة، وهو رفيق بك، قوله رداً على سؤال مراسل صحيفة باريسية له: حقاً إننا وجدنا سنداً معنوياً من الماسونية، وخاصةً الماسونية الإيطالية، فالمحفلات الإيطالية "Macedonia Risorta" و "Labar et Lux" قدما لنا خدمة حقيقية، ووفرا لنا الملاحة، فكنا نجتمع فيهما كماسونيين، لأن كثيراً منا كانوا ماسونيين غير أننا في الحقيقة كنا نجتمع لننظم أنفسنا، كما أننا اخترنا رفقاءنا من هذين المحفلين، اللذين ساعدا لجنتنا كغريبال، نظراً لما كانا يدياناه من دقة في الاستفسار عن الأفراد، فكان العمل السري الذي يجري في سلانيك قلما يثير الشكوك في القسطنطينية... إلى أن يقول: أما نسبة دور أكبر من هذا للماسونية في إعداد ثورة 1908م فلا يتفق مع الحقائق، لأن ضباط الجيش الثالث الذين قاموا فعلاً بالثورة لم يكونوا كلهم ماسونيون، كما أنه من المشكوك فيه أن جميع أعضاء تركيا الفتاة في سلانيك نفسها كانوا مرتبطين بالمنظمة، فضلاً عن أن قسماً كبيراً من قوة جمعية الاتحاد والترقي في 1908م كان في المناطق الإقليمية خارج سلانيك، حيث لم تكن الماسونية قوية قط"⁽¹⁾ ويأتي الرد على هذا اعتراف أحد الماسونيين، وهو نعوم شقير، رئيس محفل نيازي الماسوني، ونيازي هو أحد الماسونيين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وهو أول من أعلن العصيان العسكري في وحدات الجيش العثماني في سلانيك عام 1908م، وسمي هذا المحفل باسمه تكريماً له من الماسونية، ومكافأة له على أدائه لدوره في الانقلاب على السلطان عبد الحميد، يقول نعوم شقير: "إن الماسونية كانت المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقي ويقول في السياق نفسه: "نحن العثمانيون مدينون للماسونية أكبر دين، لأنها هي التي بثت في نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقي روح الحرية، وبها اقتدوا في إنشاء جمعيتهم التي فكت قيود الاستبداد (بقصد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد عام 1909م) وقد اهتم جماعة من الماسون المصريين بإنشاء تذكارات لذلك، فأنشأوا محفلاً جديداً في القاهرة سموه محفل نيازي باسم بطل الحرية العثماني"⁽²⁾

5- أحداث انقلاب عام 1909م وخلع الخليفة عبد الحميد.

لم يكد يمض على إعلان الدستور في 23 تموز عام 1908م بضعة أشهر، حتى أخذت الأوضاع في عاصمة الخلافة مساراً جديداً، وكان الفريقان في معركة المصير

(3) رامزور، تركيا الفتاة، ص126

(1) رامزور، تركيا الفتاة، ص126-127. وانظر:

- مرغنتو، المذكرات، ص8، السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص115-116

- زلوم، كيف هدمت الخلافة، ص25-26، طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص49-55

- حسون، الدولة العثمانية، ص198

(2) شقير، الماسونية في البلاد العربية، مجلة المقطف، م36، ج2، سنة 1910م، ص159

هذه - والتي تبدو في مظاهرها ذات طابع سلمي، وأن الانقلاب كان أيضاً⁽³⁾ - يتحفظان للخطوة اللاحقة، وفعلاً حدث تطور هام غيّر مجرى الأحداث، وكان سبباً لكثير من التداعيات اللاحقة، وهذا التطور هو حادثة 31 مارس آذار 1909م، وقد اتجه المؤرخون اتجاهان في تحليلها ومناقشة حقيقتها، فالبعض يعتبر هذه الحادثة من تدبير السلطان عبد الحميد الثاني، وأنه بذل محاولة أخيرة لاحتواء الموقف والالتفاف على جماعة الاتحاد والترقي، والإمساك بزمام الأمور مرة ثانية بعد أن أجبر على إعادة الدستور بالقوة العسكرية، يقول زين: " أما عبد الحميد فقد شرع منذ اليوم الأول بعد إعلان إعادة الدستور يرسم الخطط للتخلص من جمعية تركيا الفتاة، وللتخلص من الدستور ومن مجلس النواب، وفي الثالث عشر من نيسان 1909م جرت محاولة في الاستانة للقيام بثورة مضادة"⁽¹⁾ والاتجاه الآخر يقول: إن حادثة 31 (مارس) آذار هي مسرحية مدبرة من قبل جمعية الاتحاد والترقي، ليتخذوا منها ذريعة - وهم على أهبة الاستعداد - ليُنْقَضُوا على العاصمة استانبول ويعزلوا السلطان عبد الحميد، ويتولوا مقاليد السلطة فيها، ليحققوا أهدافهم الحقيقية، يقول طوران - وقد شاهد تلك الأحداث بنفسه في ثكنة طاش قشلة في استانبول⁽²⁾ -: بعد اجتماعات عدة ومداولات بين رؤساء الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) اتخذ القرار التالي: العمل على إحداث عصيان مسلح واغتنام الفرصة للاستيلاء على ثروة قصر يلدز... ثم خلع السلطان عبد الحميد وتنصيب ولي العهد محمد رشاد، وهو الرجل المطاوع"⁽³⁾، ويؤكد هذا رواية رضا نور، وهو ممن شهدوا الأحداث بأنفسهم أيضاً، يقول: "ادعى الاتحاديون بعد ذلك أن عبد الحميد هو الذي دبر هذه الحادثة، وهذا كذب، مسكين عبد الحميد!! فلم يكن له أي دخل في هذه الحادثة، حتى أنني أعلم يقيناً أن عبد الحميد رفض مقابلة الجاويش حمدي...، ويشير رضا نور إلى الجاويش حمدي أنه حاول إثارة العامة على الانقلابيين، وأنه ذهب لمقابلة السلطان عبد الحميد، فرفض السلطان ذلك، فقرر حمدي تنفيذ الأمر بنفسه، وحرص عساكره على الثورة، كانت العساكر تريد قتل الصحفي حسين جاهد محرر صحيفة طنين، وكان هذا صحفياً ماسونياً اشتراكياً ملحداً، ظن الجنود أن أمين ارسلان، عضو مجلس المبعوثان هو حسين جاهد، فقتلوه، وكان ذلك

(3) زين، نشوء القومية، ص78

-OZTUNA, BUYUK, OSMANLi TARiHi, cild, 5. P. 397-401

(1) المحامي، الدولة العلية، ص707، الدوري، التكوين التاريخي، ص191

- زين، نشوء القومية، ص79، حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص316

- رامزور، تركيا الفتاة، ص16، مجهول، تلخيص التاريخ العثماني، ص148-149

- مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص272، ميكوش، مصطفى كمال، ص81

- YiLDiZ, BUYUK iSLAM TARiHi, cild, 12, P.0-71

DANiSMEND, OSMANLi TARiHi, KRONOLOJiSi, ciLT, 4. p. 375

(2) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص9

(3) طوران، المصدر السابق، ص72-73. وانظر:

- الغزي، نهر الذهب، ج3، ص488، حسون، الدولة العثمانية، ص198-199

- خانجي، عزيز، ترك وأتاتورك، نشر: المطبعة العصرية، القاهرة، دبت، ص7 .

حين تجمعوا أمام مجلس المبعوثان، يطالبون: نريد الشريعة، وهذه هي حادثة /31/ مارت المشهورة⁽¹⁾.

ويرجح الباحث بالإستناد إلى رواية طوران ورضا نور المتعاضدتين، وهما روايتان لشهود للأحداث، أن هذا الحادث مدبر من قبل جماعة الاتحاد والترقي، ليتخذه ذريعة من أجل تنفيذ الانقلاب، للوصول إلى أهدافهم، بعد أن أبطل السلطان عبد الحميد حججهم السابقة، بإعادته العمل بالمشروطية (الدستور)، فقاموا بهذا العمل ليكون مبرراً جديداً يستندون إليه لتنفيذ الانقلاب، ولو أراد السلطان عبد الحميد مقاومتهم وسحقهم لاستطاع ذلك، لوجود أربعين ألف جندي في استانبول، متأهبون على أعلى درجات الجاهزية للقيام بهذا الواجب المقدس في الدفاع عن الخلافة والخليفة، وهم على ولاء تام للخليفة، وهو ما أشار إليه رضا نور، في مذكراته⁽²⁾، ثم إنه لا يستبعد عن السلطان عبد الحميد أن يقوم بمثل هذه المحاولة لسحق التمرد لو أراد ذلك، لما عرف عنه من الدهاء، وله تجربة سابقة مع هؤلاء، "وقد اشتهر بذكاء الفؤاد والدهاء النادر"⁽³⁾ وقد يعاونه هذا الذكاء والدهاء على الاستفادة من الظروف المحيطة به في سبيل إيجاد مخرج من الأزمة الراهنة، ويذكر أن الخليفة أخذ يعمل سراً في تدمير الجمعية حسب رواية الذين قالوا أن الحادث من تدبير الخليفة عبد الحميد، وأنه حَرَضَ العساكر على العصيان، فثاروا مطالبين بتنفيذ أحكام الشريعة، وقتلوا بعض منتسبي الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) وأصبحت الأستانة في حالة هرج ومرج، فلما وصل خبر الثورة إلى جيش الروملي، (الجيش الثالث المرابط في ولاية سالونيك) ويسيطر عليه المتمردون (الاتحاديون) زحف على الأستانة بقيادة الفريق محمود شوكت باشا قائد الفيلق الثالث، ودخلها في (11) نيسان 1909م، ودمر العصاة، وأعلن الإدارة العرفية، وشنق كثيراً من مثيري الفتنة، وخلع السلطان عبد الحميد بفتوى من شيخ الإسلام، وتصديق مجلس المبعوثين، وأجلس مكانه السلطان محمد رشاد، أخو السلطان عبد الحميد، (محمد الخامس)، وأرسل السلطان عبد الحميد إلى سلاتيك، وحجر عليه في قصر الجيش⁽⁴⁾ هذه رواية ذوي الاتجاه الأول القائل بأن الانقلاب جاء رداً على خطوات عبد الحميد، التي حاول فيها إجهاض حركة التمرد، فثاروا عليه وخلعوه، أما الرواية الأخرى فتذهب إلى أن الانقلاب كان بعد التمثيلية التي أعدها الماسونيون رجال الاتحاد والترقي ليتخذوها ذريعة لإسقاط عبد الحميد والاستيلاء على السلطة في استانبول، وتحقيق أغراضهم وأغراض الماسونية بعد ذلك⁽²⁾، ومفاد هذه الرواية أن الصهيونية ومنظمتها السرية هيأت لتلك الحوادث، كما كان للصليبية اليد الطولى في إذكاء نارها، فانكلترا كانت العقل المخطط للأحداث، وتضمن إلغاء الخلافة الإسلامية، كما لا يخفى أن

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع533، السنة 16/11/ يونيو حزيران، 1981م، ج4، ص 38

(2) رضا نور، المصدر السابق، ص 38، وكذا: ع 534، السنة 30/11/ يونيو حزيران، 1981م، ج5، ص 38

(3) مسعد، الدولة العثمانية في سورية ولبنان، ص72

(1) مجهول، تلخيص التاريخ العثماني، ص148-149، الغزي، نهر الذهب، ج3، ص488

- OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARİHİ, cild, 5. P. 400-405

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص315-317، حسون، الدولة العثمانية، ص198

- زلوم، كيف هدمت الخلافة، ص27

اليهود وضعوا نصب أعينهم استيطان فلسطين، أما رجال الاتحاد والترقي الذين شَنَّفوا آذان الناس بالشعارات البراقة، فكان هدفهم قصر يلدز وخزინته بالذات⁽³⁾، وتغلغل أعداء الأمة في صفوف جمعية الاتحاد والترقي، وبدأت الفتنة في ثكنة طاش قشلة⁽⁴⁾، واستعين ببعض المشايخ ليكونوا وسيلة لإذكاء الحمية الإسلامية في نفوس الجنود، (وهم مسلمون متمسكون بدينهم) ليكون لديهم رد فعل تجاه تصرف المخالفين للإسلام⁽⁴⁾، ومن جهة أخرى استصدرت جمعية الاتحاد والترقي قانوناً يقضي بتطبيق التجنيد الإجباري لطلبة الطرق الصوفية الدارسين في المدارس الشرعية، بعد أن كانوا معفيين منه، فحقد هؤلاء على الاتحاديين⁽⁵⁾، وجاءت الخطوات اللاحقة بأن الذين انتحلوا صفة علماء في الشريعة الإسلامية، ألقوا دروساً دينية في ثكنة طاش قشلة وبيك أوغلي، ثم جيء بشخص ينتحل صفة جنرال (عقيد) في الجيش العثماني، فتلا إرادة سلطانية مقترنة بفتوى من شيخ الإسلام، يطلب فيها من الجنود لبس القبعة، ثم نزع طربوشه عن رأسه ولبس قبعته، وعزفت الموسيقى، ثم جرى استعراض للكتائب وغادر المكان بعد ذلك، ولم يدر في خلد أحد أن ذلك الباشا كان مزيفاً ومن معه، وكان من مرافقيه مدحت شكري وبهاء الدين شاكر من قادة الاتحاديين، ولا يخفى ماذا كان يعني لبس القبعة بالنسبة لشخص مسلم في ذلك الزمن!! ثم قامت تلك الهيئة المزيفة إلى ثكنة المدفعية في بيك أوغلي، وقامت هناك بفعلتها ذاتها، وقامت بالفعل ذاته في باقي الثكنات العسكرية في استانبول⁽¹⁾، ثم قام المتآمرون كما يسميهم طوران الذي يروي تفاصيل الانقلاب كما شهد أحداثه بنفسه، قاموا باعتقال قائد البارجة إصصار توفيق البكباشي علي قيولي واتهموه بأنه حاول أن يقصف قصر السلطان عبد الحميد (قصر يلدز) وجاءوا به مكبلاً إلى بوابة القصر، وهتفوا بحياة السلطان، وأجابوا السلطان حين سألهم طلبهم: بأننا نطالب بالشرعية، إن الرجل الذي أراد تدمير قصركم بمدافع بارجته، وكذلك إحراق استانبول أتينا به، قبضنا عليه، ثم ذهبوا بعلي قيولي قائد البارجة وقتلوه طعناً بالحرايب وهم يهتفون إنه خائن الشريعة، خائن الدين، خائن الوطن، ثم تكلم السلطان عبد الحميد في جنود ثكنة طاش قشلة⁽²⁾، وكان مما قاله: "بلغوا سلامي إلى أبنائي الجنود الموجودين هنا والباقيين في الثكنات، وقولوا لهم في يوم الجمعة 10 نيسان 1909م: إن عساكر من الجيش الثالث، التي تسمى جيش الحركة قد وصلت إلى الستيفانوس (ضاحية من ضواحي استانبول فيها حالياً المطار المدني على ضفاف بحر مرمرية) إنهم مثلكم أتراك مسلمون، إن ما قرىء في ثكنة طاش قشلة لم يصدر عني مطلقاً، لقد دبره بعض الأعداء، وتبين من التحقيق أنه تدبير سياسي مقصود، لم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أمتي أبداً، لقد حرص الأعداء بهذه الأعمال من تحقيق أهدافهم الخبيثة، فأطلب

(3) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص70-72 وانظر: حسون، الدولة العثمانية، ص198

(4) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص73

(5) مسعد، الدولة العثمانية في سورية ولبنان، ص72

(1) طوران، المصدر نفسه، ص74-82

(2) طوران، المصدر نفسه، ص82-87

منهم ألا يصدقوا مثل هذا التحريض وليبقوا في ثكناتهم، ولا يلجأوا إلى السلاح كما لجأوا إليه في 31 من آذار، وقد أمرت القادة بإجراء ما يلزم"⁽³⁾.

لو أمر السلطان عبد الحميد القوات الخاصة المعسكرة في استانبول بمهاجمة جيش الحركة والدفاع عن المدينة، لكانت فاجعة (31) من آذار 1909م ضربة قاضية على الجيش العثماني بأكمله، لكن عبد الحميد لم يفعل شيئاً من هذا القبيل واستسلم للقدَر⁽¹⁾، أبلغنا جنودنا أمر السلطان، مرت أزمة (31) من آذار، ومضى أسبوع واحد لم يسجل خلاله أي حادث جدير بالذكر، الأمر اللافت للنظر هو غياب كل ضباط كتائب الرماة عن الثكنة، كان المتآمرون قد أبعدوهم جميعاً، وهذا من الأدلة الدافعة على أن الحوادث من صنع المتآمرين بدقة وإحكام،...وفي يوم السبت (11) نيسان 1909م أغار جيش الحركة على ثكنة طاش قشلة ودمروا المهاجع على رؤوس الجنود، واستمر إطلاق النار إلى عصر اليوم التاسع فاستسلمت الثكنة وظهر أنور باشا ومعه عشرة من رفاقه وراءهم جنود بلباس غريب من عصابات البلغار، ومعه ساندانيسكي قائد العصابات المكدونية وقتلوا قائد الثكنة إسماعيل حقي وجردوا من تبقى من السلاح ثم قتلوهم، ثم أمروا بعض الجنود بدفن أكوام الجثث⁽²⁾، وشارك طوران وهو جندي في هذه الثكنة بدفن زملائه تحت تهديد السلاح وهو يقول: هذه المقبرة الجماعية هي الوثيقة الأصلية التي تثبت بشاعة وفضاعة جريمة (31) آذار 1909م⁽³⁾.

ثم أغار ساندانيسكي رئيس عصابات البلغار ورجاله برفقة أنور بك بالإغارة على قصر يلدر، لقد كان تخطيطهم يقضي بإحداث فتنة 31 آذار وإسقاط عبد الحميد، والحصول على الخزينة، وقد قتلوا مرافق عبد الحميد الأول ولم يدلهم عليها، ودلهم المرافق الثاني واسمه نادر آغا بعد أن عذبوه وهددوه بإعدامه كزميله إن لم يدلهم، فدلهم على مكان الخزينة وأنقذ روحه، لقد جاورته فيما بعد، فأفشى إليّ بهذا السر في معرض حديثه عن الأحداث"⁽⁴⁾...أعلنت الأحكام العرفية في استانبول ... وفي يوم 27 نيسان 1909م اجتمع (240) عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة، وقرر الاتحاديون خلع السلطان عبد الحميد، كتب مسودة الفتوى النائب حمدي أفندي المالي، لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعي للاجتماع رفض هذه الفتوى وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديل عليها، وأيده في التعديل عدد من أنصاره من النواب، فعدل القسم الأخير، على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلع⁽¹⁾.

(3) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص 87

(1) ويذكر فيضي أن السلطان عبد الحميد لم يقاوم حقناً للدماء. فيضي، المذكرات، ص 70

(2) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص 87-92

(3) طوران، المصدر السابق، ص 93

(4) طوران، المصدر نفسه، ص 93-94، رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 533، السنة 11/ 16

يونيو حزيران، 1981م، ح 4، ص 38

(1) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص 97

لقطة تاريخية نادرة للسلطان عبد الحميد لحظة مواجهته للماسونيين الظاهرين في هذه الصورة والذين
خلعوه عن الخلافة ، وبينهم اليهودي قره صوه ، والأرمني آرام ، والأرناؤوطي طوبطائي والكرجي
حكمت .



وبعد أن أزيح السلطان عبد الحميد عن سدة الحكم والخلافة، أرسل في 28 نيسان 1909م مع زوجته وأولاده وبعض الخدم والمرافقين إلى سلانيك، ووضع في قصر ألاتيني تحت حراسة مشددة جداً من عناصر جمعية الاتحاد والترقي، ولما اندلعت حرب البلقاء عام 1912م، وصارت سلانيك عرضةً لاحتلال اليونان، نقل الخليفة عبد الحميد إلى قصر بكلر بك في استانبول، وتوفي في هذا القصر في يوم 10 شباط 1918م عن ست وسبعين عاماً، ودفن في مقبرة السلطان محمود باستانبول، واشترك في جنازته كل شعب استانبول تقريباً⁽¹⁾.

كان لعزل الخليفة عبد الحميد الثاني أصداء واسعة في أنحاء الإمبراطورية العثمانية وعلى المستوى العالمي آنذاك، وعُدَّ هذا الحدث من أبرز الأحداث في مطلع القرن العشرين بعد أن حكم الدولة العثمانية مدة ثلاثة وثلاثين عاماً، وترك هذا الحدث بصمات سلبية على الأمة الإسلامية في أقطارها جميعاً، وفي الجانب الآخر نظر أعداء الإسلام إلى عزل عبد الحميد على أنه انتصار هام، ظاهره أنه انتصار على الاستبداد وعلى جاسوسية رجال عبد الحميد، وعلى الظلم كما يصوره أعداء الخلافة من اليهود والماسونيين والقوميين، وهي اتهامات ثبت بطلانها بالأدلة التي تم إيرادها في معرض الرد عليها ممن عاصروا الخليفة عبد الحميد، من ذوي البصيرة والإنصاف من المطلعين على حقائق الأمور، أما الفريق الآخر ممن روى عنه ما أسموه المظالم والمجازر والاستبداد، فلم يكن ذلك إلا تشويهاً لسمعته وتحاملاً عليه، قصد منه ترويح تلك الأكاذيب التي اختلقها أعداؤه من الماسونيين العرب والعثمانيين

(1) طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ص101

- السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، مقدمة المحقق، ص58، أوركخان، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 330-334
- ISLAM ANSiKOLOPEDiSi (iSLAM ALEMiTARiH, COGRAFA, ETNOGRAFYA, VE BiYOGRAFYA LUGATı, (14 cilt), MiLLi EGİTiM BASİMEVi, iSTANBUL, 1993, cilt 1.P. 79
- OZTUNA, OSMANLi TARiHi, cild, 5. P. 407, 502
- AYVERDi, TURK TARiHiNDE OSMANLi ASİRLARı, cild, 3. P. 103-107
- DANIŞMEND, OSMANLi TARiHi KRONOLOJİSi, cilt. 4.P. 376-379

على حد سواء خدمةً لأهداف الصهيونية العالمية، التي سعت لعزله والتخلص منه، لأنه وقف وقفة رجولة وشمم في وجه مخططاتها الرامية السيطرة على فلسطين واقتطاع ثراها الطهور من جسد الدولة الإسلامية العثمانية، وإقامة وطن قومي لليهود عليه، واستعانوا بذلك بكل الوسائل الممكنة، وخاصة الدول الكبرى كروسيا وبريطانيا وفرنسا، علاوةً على الاستعانة بذوي النزعات التغريبية من العرب في بلاد الشام، وتعاونوا معهم في سبيل التخلص من عبد الحميد الثاني ومن حكمه، وكان لذلك الدور الأكبر في تحقيق غرض الصهيونية، للوصول إلى فلسطين واحتلالها، يقول رشيد رضا في خطبة له بمنى في موسم الحج بعدما علم بانقلاب الاتحاديين على الخليفة عبد الحميد الثاني "وقد خلعتة جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده، إن زعماء هذه الجمعية هم أوشاب من الملاحدة المارقين، وقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك وشركائهم في النمسا وألمانيا"⁽¹⁾.

لقد جاهر الماسونيون واليهود والاتحاديون بفرحهم الغامر بما حققوه من نجاح كبير في عزل الخليفة المؤمن المخلص للأمة الإسلامية عبد الحميد الثاني، وجاهر العرب الماسونيون من دعاة التغريب أيضاً بهذا الفرح وهذا المكسب الكبير، الذي رجع بالوبال على بلادهم وعلى أوطانهم، لأنهم اشتركوا في إسقاط الخليفة عبد الحميد أولاً، من حيث العمل مع الاتحاديين في جمعية الاتحاد والترقي⁽²⁾، ثم نشر الأكاذيب والدعايات المغرضة ضد هذا الخليفة، من أجل تشويه صورته في أعين رعاياه من العرب ومن العثمانيين، وثانياً تعبيرهم عن التشفي والارتياح بخلعه من منصبه، وثالثاً لكون هذا الخليفة كان السد المنيع الذي يقف في وجه مخططات اليهود والأوربيين في تقسيم بلاد الشام، واقتطاع فلسطين منها، لتكون فريسة سائفة للصهيونية، ثم ابتلاعها بسهولة فيما بعد بتأمر مكشوف وسافر من الاتحاديين، وبتعاون الاستعمار البريطاني الذي كان مطية الصهيونية في تحقيق ذلك⁽³⁾، وهم بذلك يخدمون أعداءهم الذين خططوا ونفذوا واستخدموهم وسائل استعانوا بهم لهدم صرح العلاقات العربية

(1) كوثراني، مختارات سياسية، ص228-233

(2) جريدة فلسطين (جريدة نصف أسبوعية تصدر في يافا) ع 53، 22 تموز، 1911، ص3-4، ع 113-114، 24 شباط، 1912م، ص1، منسي، حركة البقطة العربية، ص96

- محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص136، أنطونيوس، بقطة العرب، ص108

(1) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص253-254

العثمانية المتين، الذي ساهم السلطان عبد الحميد في بنائه إكمالاً لأدوار آبائه وأجداده، وحافظ عليه متيناً متماسكاً خلال فترة حكمه⁽²⁾.

كما عبر الأعداء عما في نفوسهم ضد الإسلام وضد دولة الخلافة العثمانية، التي كان إسقاط الخليفة عبد الحميد بداية انهيارها، تمهيداً لإلغاء الخلافة فيما بعد كآخر حلقات المخطط المرسوم في القضاء عليها على يدي مصطفى كمال أتاتورك⁽³⁾، وهو ما يتم بيانه في الفصل الأخير من هذه الدراسة. فهذا نيازي أحد قادة جيش الاتحاديين في معرض رده على من أرسلوا له برقيات التهاني لاستبساله كأحد فدائيي الاتحاد والترقي، وأول المتمردين ضد الخلافة، وابتدائه الخروج على الخليفة، يقول: "أنا لا أدري ما فعلت، إن هو إلا أمر أُمرْتُ به من الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) ... يعدون عملي السبب الوحيد لهذا الانقلاب العثماني العظيم، لهذا الانقلاب السلمي الكبير ... الشرف لشخص الجمعية المعنوي، إن الأمة التي أوثقت في أغلال الاستبداد إثنتي وثلاثين سنة لم تغفل ولا دقيقة واحدة، فَجَدَّتْ وَكَدَّتْ بدائها ونَجَدَّتْها، حتى أَعَدَّتْ تلك القوة المدهشة غير المرئية، التي هي جمعية الاتحاد والترقي، فكسرت حلقات السلاسل الاستبدادية، ... ولا مجال لإطرائي وإطراء أمثالي ممن لم يزيدوا على القيام بما عهد إليهم"⁽⁴⁾.

أما في الجانب العربي فتظهر الشماتة واضحة من التيار القومي في بلاد الشام بالذي جرى في عاصمة الخلافة من إسقاط السلطان عبد الحميد، والشعور بالفرح لتولي الماسونيين رجال الاتحاد والترقي السلطة بعد الانقلاب عليه، يقول زين: " وهكذا دخل آخر سلطان طاغية من سلاطين آل عثمان في ذمة التاريخ، وزال (ظل) الله) الذي خَيَّم على الشرق الأسطوري، وبزوال عبد الحميد كان الأتراك قد وصلوا إلى نهاية المطاف من تاريخهم، ذلك التاريخ الذي كان يربطهم بآسيا وبالشعوب الإسلامية قرابة ستمائة سنة"⁽¹⁾، ويقول زيادة: "ليس غريباً أن يُسرَّ العرب والأتراك بعودة الدستور 1908م، إذ أحسوا أن الظلم انتهى أمره"⁽²⁾.

ثالثاً: موقف العرب في بلاد الشام من الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام 1909م.

يعد عزل الخليفة عبد الحميد الثاني عن عرش الخلافة نقطة تحول فاصلة في العلاقات بين العثمانيين والعرب عامة وفي بلاد الشام على وجه الخصوص، فقد كان الخليفة عبد الحميد صمام الأمان لتلك العلاقات، وبعزله بدأ العد التنازلي في سلم العلاقات العثمانية العربية يتسارع في اتجاه القطيعة والتنافر والتباعد، وما يهم في هذا السياق هو تفحص العلاقات العثمانية مع بلاد الشام في هذه الفترة منذ عام 1908م إلى

(2) قدرتي، مذكراتي، ص5-6، عوض، بحث في تاريخ العرب، ص94

(3) رشيد رضا، صادق بك وجمعية الاتحاد والترقي، مجلة المنار، م14، ج4، نيسان 1911م، ص269

(4) نيازي، خواطر نيازي، ص8-9

(1) زين، نشوء القومية، ص79-80. وانظر:

زين، أسباب الثورة العربية الكبرى، ص44-45، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية الكبرى.

(2) زيادة، أبعاد الثورة العربية الكبرى، ص41ج

عام 1916م حيث بلغت الحد الذي أعلن فيه عن التحرك العربي العسكري ضد العثمانيين، ومن ثم إخراجهم من بلاد الشام بصورة كاملة مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918م. وكان لإعادة العمل بالدستور عام 1908م، وهو الدستور الذي وضعه مدحت باشا، وما ارتبط به من تطورات في عام 1909م انتهت بإسقاط عبد الحميد، صدياً واسعاً في بلاد الشام، حيث نقل المؤرخون أخبار الاستبشار والفرح الذي عم مدنها وقراها ومناطقها كافة⁽³⁾، والحقيقة أن هذا الفرح والسرور لم يكن إلا لدى فئة معينة من الناس هم فئة المتعلمين والمتقنين ثقافة غربية، أو من هم متأثرون ومتعاطفون مع ذوي التأثيرات الفكرية التغريبية، وهؤلاء ليسوا إلا طبقة رقيقة من المجتمع الشامي، وما ينقل من أدبيات تلك المرحلة من شعر ونثر وأقوال ومواقف تشيد بحركة الاتحاد والترقي الماسونية ضد السلطان عبد الحميد، وتعلن الابتهاج والسرور بإعادة دستور مدحت باشا إلى حيز التطبيق والعمل به⁽⁴⁾، إنما يعبر عن مواقف هؤلاء المثقفين المتأثرين بحركة الاتحاد والترقي والمتعاطفين معها، وبشكل هؤلاء تياراً قومياً عربياً ظهرت سماته مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستمر في التوسع والازدياد حتى أصبح مع حركة إعلان الدستور عام 1908م ذا حضور واضح على الساحة السياسية في بلاد الشام، لكنه مع ذلك لم يدع إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وكل ما يطالب به حتى نهاية عبد الحميد الثاني عام 1909م هو المناداة بالإصلاح مع الحفاظ على الرابطة العثمانية، وأن ينال العرب حقوقهم في إطار الدولة العثمانية، وإعطائهم حقاً أكبر في إدارة الدولة، والمشاركة في رسم سياستها، وكانت غالبية السكان في بلاد الشام تساند السلطان عبد الحميد وتعتبره الخليفة الذي يظل هذه البلاد براية الخلافة، ويرعى مصالح الأمة الإسلامية ويصون مقدساتها، ويحافظ على حدودها واستقلالها، ولذلك كانت تلك الأغلبية ضد الاتحاديين في عزلهم للخليفة، وعبرت هذه الأغلبية المتعاطفة مع عبد الحميد عن مواقفها في أكثر من مناسبة، ويمكن التعرف على مواقف العرب في بلاد الشام من خلال متابعة التطورات التي رافقت إعادة العمل بالدستور، وما تبع ذلك من أحداث، لا سيما إسقاط السلطان عبد الحميد، وتولي جماعة الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، ومما يجدر الإشارة إليه أن الناشطين في هذه الفترة ممن أعربوا عن تأييدهم لجماعة الاتحاد والترقي، وسرورهم بعزل السلطان عبد الحميد، كانوا في معظمهم من نصارى بلاد الشام، ومن المثقفين ثقافة غربية من ذوي النزعات القومية الذين تعلموا في المدارس الحديثة التي تبنتها المدارس التبشيرية في بلاد الشام، فكان هؤلاء روادها وطلابها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفيما بعد كانوا أساتذة للأجيال التي تربت على أيديهم في مستهل القرن العشرين، وكانوا دعاة للفكر الغربي وناشرين للثقافة الغربية في بلاد الشام كما مر في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(3) الشهابي، القومية العربية، ص 61

(4) انظر: الأسد، ناصر الدين، الثورة العربية والأدب، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية، ص 165 فما بعد.

استقبل العرب في بلاد الشام أحداث عام 1908م من إعلان الدستور، ثم انتخاب مجلس نيابي بالترحاب والمشاركة، وكان وقع إعادة العمل بالدستور إيجابياً في كافة مدنها، وينقل زين تقريراً عن شاهد عيان يصف ردة الفعل التي حصلت عند السوريين لمناسبة هذا الحدث الخطير، يقول صاحب التقرير: "عصر نهار الأحد 26 تموز 1908م، ونحن خارجون من الصلاة في الكنيسة الإنجيلية الصغيرة في عالية (في لبنان)، والتي كانت تقام باللغة الإنكليزية، فاجأنا السيد رافندال (Ravendal) القنصل العام بالأخبار البرقية الواردة، والتي تقول: إن دستور مدحت باشا الذي علقه عبد الحميد قرابة اثنتي وثلاثين سنة قد أعيد في 23 تموز بعد ثورة بيضاء قامت بها جمعية تركيا الفتاة"⁽¹⁾.

ويضيف التقرير: "ولقد ابتهج السكان في طول الإمبراطورية وعرضها، وأكثر الصحف من التكلم عن هذا الحدث، وأقيمت الحفلات العامة، وأقيمت الزينات في المدن والقرى، وكنت ترى المسلمين يعانقون المسيحيين واليهود، ويدعون بعضهم بعضاً إلى الحفلات والمآدب ... وكان المسلمون يصرحون قائلين: نحن الآن إخوة، ونستطيع العيش معاً بسلام، نحن الآن جميعاً مواطنون عثمانيون، فلتحيا الحرية، وليحيا الجيش، وليحيا السلطان، لقد تفجرت عواطف الناس المكبوتة، وراحوا يعبرون عن فرحهم بهتافات في الشوارع والأماكن العامة، إن سوريا لم تشهد فرحاً وابتهاجاً كالفرح والابتهاج اللذين يشعر بهما الأهلون، هل إن هذا صحيح؟! هل هو أمر يدوم؟ مثل هذه الأسئلة كانت تدور على ألسنة الناس، إنها كانت مفاجأة كبرى لأولئك الذين تركوا سوريا في أوائل شهر تموز، وعهدهم بها أنها تزرح تحت نير الحكم الحميدي، وما أن وصلوا إلى ميناء نيويورك حتى سمعوا بالأخبار السارة، من أن تركيا تنعم الآن بحكم دستوري يضمن الحريات، وكاد الناس ألا يصدقوا ما سمعوه، ونحن الأجانب مع الأهلين نشعر كأننا نعيش في حلم، يبدو أن فجر الحلم الذهبي وشيك الانبلاج"⁽²⁾.

ولدى تفحص هذا التقرير نجد أنه صادر عن شاهد عيان لم يفصح عن شخصيته، فلربما رأى أمام عينيه حالةً محدودةً نقلها وكأنها رأي عام يعبر عن شعور كافة فئات المجتمع الشامي، وهذا خلاف الحقيقة الواقعة في المجتمع آنذاك، كما أن هذا التقرير صادر عن أحد نصارى الشام حينذاك، وهو ما يصف حقيقة موقف نصارى الشام من الانقلاب على عبد الحميد وإعلان الدستور، إذ أنهم كانوا فعلاً في حالة اغتباط وسرور، لأنهم ينظرون إلى الدولة العثمانية نظرة العدا، ولا يعتبرونها دولتهم ولا يوالونها، فمن غير المستبعد أن يكون هذا موقفهم منها، لأنهم دأبوا على العمل ضدها

(1) زين، نشوء القومية، ص78

(2) زين، نشوء القومية، ص78. وانظر:

- لبيب، المسألة الشرقية، ص96-97

- أنطونيوس، بقطة العرب، ص108

- مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص25

وسياتي لاحقاً في هذا الفصل بيان نزعاتهم الانفصالية عنها، وسعيهم الارتباط بالدول الأجنبية كفرنسا وبريطانيا، وطلبهم من هذه الدول التدخل العسكري في بلاد الشام لحمايتهم. كما يشير هذا التقرير إلى الاحتفالات في طول البلاد وعرضها، وهو أمر واقع فعلاً، لكن قام به أنصار الاتحاد والترقي من العرب المنخرطين في صفوف هذه الجمعية، ومن الأتراك الأعضاء فيها، تولوا مهمة القيام بالاحتفالات والزينات، ليعبروا عن فرحهم باستجابة السلطان لإعادة العمل بالدستور، ويمكن توضيح الصورة الحقيقية لموقف العرب في بلاد الشام من إعادة إعلان الدستور، ومن الانقلاب الاتحادي على الخليفة عبد الحميد الثاني، وبيان مستوى وحجم التأييد من الشاميين للانقلاب، من خلال ما أشارت إليه المصادر التاريخية التي تحدثت عن ردة الفعل لدى العرب في بلاد الشام تجاه هذا الحدث الهام، فما كان من أفراح ومظاهرات واحتفالات بسبب عودة العمل بالدستور، إنما كان تعبيراً عن التمسك بالرابطة العثمانية من أبناء بلاد الشام، حتى ذوي الاتجاه القومي لم يعربوا عن رغبتهم بالانفصال عن العثمانيين في هذه الفترة، وكان التمسك بالنزعة العثمانية مقترناً بالولاء للسلطان عبد الحميد والتأييد له، وقد أشار التقرير السابق الذكر إلى هذا التوجه "وكان المسلمون يصرحون قائلين: نحن الآن إخوة، ونستطيع العيش بسلام، نحن الآن جميعاً مواطنون عثمانيون، فلتحيا الحرية، وليحيا الجيش، وليحيا السلطان"⁽¹⁾، ويطلعنا رشيد رضا على اجتماع لفيف كبير من أرباب الفكر والثقافة من المهتمين بالأوضاع السياسية في بلاد الشام من عرب وعثمانيين، وكان ذلك الاجتماع في دار رفيق العظم إثر الإعلان عن إعادة العمل بالدستور، فاقترح عليهم إرسال برقية خاصة إلى السلطان عبد الحميد يقول فيها: إن ضباطنا وأحرارنا طلبوا والسلطان أعطى، فنشكر له أنه قدّر الحال حق قدرها وبادر إلى الإجابة، ولم يضطر الجند إلى سفك الدماء، فوافقتني من حضر من السوريين، بينما عارضه الترك الحاضرون، لاعتقادهم أن السلطان لم يوافق على إعادة الدستور إلا بالقوة⁽²⁾، ويعضد هذا الاتجاه ما أورده سلطان عن تطوع المثقفين والعاملين في القضية الوطنية كرجال حلقة الشيخ طاهر الجزائري وجمعية النهضة العربية، وهؤلاء جميعهم من الموالين للاتحاديين المعادين للسلطان عبد الحميد، بالانتقال بين الأحياء الشعبية في مدن الشام، يخطبون الناس ويشرحون لهم أهداف الدستور والانقلاب، وتبنى الجيش الاحتفالات التي تجري بهذه المناسبة.

فكانت المدفعية تطلق من الثكنات وكان رجال الحكومة يحضون الناس على التظاهر فرحاً بالدستور، وأنشدت القصائد، حتى أصبح ذلك اليوم تاريخاً في تلك المناطق⁽²⁾، وفي الاتجاه الآخر فإن عامة المسلمين في بلاد الشام لم يظهروا تأييدهم للانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، على الرغم من حملة التهليل والتصفيق

(1) زين، نشوء القومية، ص78، وانظر:

- كوثراني، مختارات سياسية، ص131، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص397

(1) كوثراني، مختارات سياسية، ص131-132

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص68

المكثفة التي تبناها التيار القومي في بلاد الشام كما ذكرنا آنفاً، ومحاولة هذا التيار إعطاء هذا الحدث بريقاً خاصاً، وتقديمه للناس كإنجاز كبير لصالح البلاد، فكانت النظرة إليه عكس ذلك من قطاعات كبيرة من الأهالي المسلمين في بلاد الشام، ويؤكد قناصل الدول الأجنبية المقيمون في مدن الشام في تقاريرهم إلى دولهم عدم رضا مجموعات كبيرة من المسلمين عن هذا الانقلاب، إذ لم يكد يعض على الحركة الدستورية عام 1908م مدة شهر، حتى أرسل قنصل فرنسا في طرابلس الشام تقريراً يتحدث فيه عن عدم رضا علماء الشريعة المسلمين بزعامة رشيد بك عن الانقلاب الدستوري⁽³⁾ وأرسل قنصل فرنسا في اللاذقية في الثاني عشر من آب عام 1908م تقريراً عن اعتقال الناس بانقلاب 1908م، إذ قام ضباط الجيش على المتصرف وأجبروه على حضور الاحتفالات، وطردها كبار الموظفين وحلوا هم محلهم⁽¹⁾، ومن بيروت وجه قنصل فرنسا هناك تقريراً إلى حكومته في الثاني من آب عام 1908م، يذكر فيه أن أغلبية المسلمين ساخطين على الانقلاب الاتحادي ضد الخليفة عبد الحميد الثاني، ويركز تقرير قنصل فرنسا في يافا على الفكرة ذاتها ويؤكد رفض القائماق للانقلاب، مما حدا برجال الاتحاد والترقي للتدخل وإجبار الضباط الراضين للانقلاب على الاستقالة، وإلا سيتم توقيف هؤلاء الضباط واعتقالهم وسوقهم إلى سلاطيك⁽²⁾.

ويعزز صحة ما ورد في التقارير الأنفة الذكر، ما جاء في مذكرات بعض أبناء الشام عن نقمة الأهالي على الاتحاديين وعدم تأييدهم للانقلاب، فقد ذكر يوسف الحكيم (سوري من اللاذقية)، أن الضباط في اللاذقية انتقدوا أهلها لجمودهم وعدم احتفالهم بإعلان الدستور⁽³⁾، وهذه حلب تشارك سائر المدن الشامية الأخرى في التصريح بقناعاتها تجاه إعلان الدستور 1908م ثم الانقلاب على الخليفة، جاء ذلك على لسان الأب فرديناند توتل اليسوعي حسين ذكر أن حلب اضطربت في (1) آب عام 1908م لأخبار الدستور، وتهلل "فتيان الترك"، وانتشر الخوف بين السكان نتيجة الفوضى والشغب اللذان حصلوا في المدينة، لأن الاتحاديين غيَّروا حكومة حلب كما فعلوا في استانبول، وأن الحلبيين طردوا رئيس الجندرية (الشرطة أو الذرك) إلى ضيَّعته⁽⁴⁾، أما في دمشق، فقد وصلها خبر الانقلاب على عبد الحميد ليلاً، ونادى المنادون به في صباح اليوم التالي في الأسواق دون أن يفهم أكثر الناس معناه ومرماه، ووقف رجال الحكومة المحلية في حيرة من أمرهم، وأسقط في أيديهم، وأصبحوا لا يستطيعون تحديد موقفهم تجاه رجال المعارضة السابقين، وهم اليوم الحكام الجدد يمسون بزمام الأمور⁽⁵⁾.

(3) سلطان، المرجع السابق، ص 68

(1) سلطان، المرجع نفسه، ص 68-69

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 69

(3) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص 160

(4) توتل، وثائق تاريخية، ص 96، وانظر: الغزي، نهر الذهب، ج3، ص474

(5) البارودي، فخري، المذكرات، ستون سنة تتكلم، (ج2)، ج1، نشر: دار الحياة، دمشق 1951م، ج2، نشر: مطبعة عجمي واتحاد، دمشق، 1952م، ج1، ص62 .

ويجدر بالذكر هنا الإشارة إلى أن الغالبية العظمى من السكان في بلاد الشام، هم من المسلمين، وعلى الرغم من عدم رضاهم عن الانقلاب على الخليفة عبد الحميد، إلا أن هؤلاء لم يكونوا سوى صفر لا قيمة له في المعادلة السياسية التي تم الإعداد لها جيداً، ثم نفذت بدقة من قبل الاتحاديين، وكان أبناء الشام بعديين عن المشاركة في أي قرار يتخذ تجاه الخلافة في استانبول، وكان ذوو الرأي من المسلمين كعلماء الشريعة والمفكرين والنواب، وإن كانوا في دواخلهم متضامين مع الخليفة، لكنهم دون تأثير في مسرح صنع الأحداث، وكان يفترض أن يكون موقفهم خلاف ذلك، يتمثل في مؤازرة الخليفة والانتباه لما يجري، ومتابعة ذلك في وقت مبكر قبل وقوع الانقلاب، وتذكر عائشة بنت السلطان عبد الحميد في مذكراتها أنه لدى اجتماع مجلس النواب الذي انعقد على إثر الانتخابات التي جرت بعد إعادة العمل بالدستور، وكان انعقاده في 5 آب 1908م بدعوة من الخليفة عبد الحميد الثاني، وقد دعا الخليفة بعد انتهاء الجلسة الأولى للمجلس، دعا النواب إلى حفلة غداء، وأن أعضاء مجلس النواب العثماني قاموا بتظاهرة رائعة، والتفوا حول الخليفة، بينما تقدم النواب العرب منه معبرين عن ولائهم له، وتأييدهم للخلافة⁽¹⁾، في خطوة ذات دلالة واضحة على متانة العلاقات بين العرب المسلمين في بلاد الشام، وعلى تأييد أبناء بلاد الشام للخليفة عبد الحميد، لكن ذلك لم يؤثر على مجريات الأحداث في عاصمة الخلافة استانبول، حيث تم الانقلاب العسكري على الخلافة بعد إعادة العمل بالدستور ببضعة أشهر، وفي الجانب الآخر كان ذوو الاتجاه القومي الذين كانوا ينظمون أنفسهم ويخططون ليأخذوا دورهم في الحياة العملية عند حدوث تغيير في نظام الحكم في عاصمة الخلافة، لما لذلك من تأثير بالغ وكبير على حاضر بلاد الشام ومستقبلها، وكانوا على صلات وثيقة مع الاتحاديين الماسونيين، ينسقون معهم في مراحل العمل المنظم كافة، أثناء الاستعداد للانقلاب على الخليفة عبد الحميد وعند تنفيذه، ويلحظ المرء وجود ردود فعل متباينة ومتفاوتة تفاوتاً كبيراً تجاه الانقلاب والانقلابيين، لدرجة اعتبارها مفارقة عجيبة، الانقلابيون الاتحاديون وأنصارهم ومؤيدوهم من العرب، من المنتمين للاتحاد والترقي والعاملين معها يقطفون ثمار عملهم، ويتولون مقاليد الأمور في البلاد، ويوجهون السفينة بما يخدم مصالحهم وينسجم مع برنامجهم السياسي والفكري⁽²⁾.

في حين الاتجاه الآخر ممن يحسبون على تيار الخليفة، من الحاملين لرؤية الشريعة والحماة لها، لم يكن رد فعلهم تجاه الانقلاب سوى التذمر والإحباط، وكانوا أعجز من أن يفعلوا أي شيء غير الشجب والاستنكار، وفي أحسن الحالات، يلقون الخطب الاعتراضية التي لا تزيدهم إلا صغاراً وضعفاً، ولا يأبه الطرف الآخر لها، وهو ماضٍ في تنفيذ ما خطط له ويأتي في مقدمة ذلك، موقفه من قضية فلسطين، ومن اليهود والماسونيين والصهاينة فيها، وجاء هذا الموقف مؤيداً ومقوماً كل التسهيلات لليهود وإعطائهم ما يريدون في فلسطين، يقول حلاق: وبعد ثورة الاتحاديين عام

(1) عائشة أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، ص 227، 229

(2) رافق، المشرق العربي، ص 379-380، ميكوش، مصطفى كمال، ص 83

1908م ازدادت ردود الفعل العربية، بعد أن شعر العرب بتأييد اليهود المثير لهذه الثورة، تحت ستار الولاء للعثمانية والعمل لمنفعة الدولة ... وكانت معظم الزعامات الإسلامية المنتمية للعائلات العريقة في البلاد وبعض المسيحيين قد عبروا بطرق مختلفة وبمناسبات عديدة عن شكرهم لهذه الثورة، وكان أملهم ألا تنحرف إلى النقطة التي كانوا يشكون منها، ولكن التأييد الصهيوني للثورة كان على شكل يثير القلق والشكوك العربية، ورفع الصهيوونيون في يافا وحيفا علماً أزرقاً وأبيضاً هو علم الصهيونية، ورفعوا إلى جانبه علم الاتحاديين الأحمر والأبيض⁽²⁾.

وتابع الاتحاديون السير نحو تنفيذ أهدافهم الأخرى بعد الانقلاب على عبد الحميد الثاني، وفيما يخص علاقتهم كحكام جدد لبلاد الشام، كونها ما زالت تحت الإدارة العثمانية، بدأوا في تشكيل لجان من أفرادهم في مناطقها كافة، وخاصة في المدن الكبرى، وأخذت لجان الاتحاد والترقي تستولي على المناصب الإدارية والوظائف الحكومية، التي كان يشغلها موظفون موالون لسلطة الخلافة قبل الانقلاب، سواء كان هؤلاء الموظفون عرباً أو أتراكاً، وفي الوقت نفسه تطرد وتسرح كل من تشعر أن له ولاءً للسلطان عبد الحميد وتعاطفاً مع السلطة السابقة، أو تتخوف منه أنه لا يؤديها ولا يخلص لها، ولا يستثنى من ذلك العرب عامة وأبناء بلاد الشام بشكل خاص، أنهم يطبقون شعاراتهم التي رفعوها أثناء الانقلاب، يطبقونها على أرض الواقع انسجاماً معها وتعبيراً عن نراهم، وهذه الشعارات هي شعارات الماسونية المعروفة (حرية، عدالة، مساواة)⁽¹⁾.

لكن سرعان ما أسفروا عن حقيقتهم العنصرية بعد ذلك كما سيأتي بيانه، فعلى صعيد المجلس النيابي الذي تشكل إثر الانتخابات التي جرت بعد الانقلاب، كان أحد نواب رئيس المجلس عربياً من بلاد الشام، من فلسطين من مدينة نابلس هو رحي عبد الهادي، وكان توزيع سائر نواب الشام في هذا المجلس على الشكل التالي: ولاية بيروت عنها فؤاد خلوصي من المنتمين لجمعية الاتحاد والترقي، الشيخ أحمد الخماش عن لواء نابلس، أسعد شقير عن عكا، محمد أرسلان عن اللاذقية، سليمان البستاني ورضا الصلح عن بيروت وأقضيتها، وكان سليمان البستاني المسيحي الوحيد من نواب الشام، أما ولاية سورية: فعن دمشق عبد الرحمن اليوسف، ثم عن باقي مناطقها كل من شفيق المؤيد العظم، ورشدي الشمعة، ومحمد العجلاني، وشكري العسلي. وعن القدس: رحي الخالدي المقدسي، سعيد الحسيني، حافظ السعيد. وعن حماة: خالد البرازي، والشيخ عبد الحميد الزهراوي. وعن حلب: مسعود بك زاده الكواكبي، نافع باشا الجابري، مصطفى عيئابلي، مرعي زاده ملاح⁽²⁾.

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص253-254

- حرب، مؤيذ كوهين، مجلة العربي، ع282، أيار 1982م، ص87

(1) الغزي، نهر الذهب، ج3، ص472.

(2) الخالدي، الانقلاب العثماني، مجلة الهلال، القاهرة، م17، ج5 (1908-1909م)، ص312، زين، نشوء القومية، ص79

- رافق، المشرق العربي، ص380

وفي مجال إحلال موظفين موالين لجمعية الاتحاد والترقي ومنتمين لها محل الموظفين السابقين، نشط الاتحاديون في تنفيذ ذلك، فقد ترأس حسين عوني الذي يشغل مدير المعارف في دمشق جمعية الاتحاد والترقي فيها، وانتسب لهذه الجمعية أناس من شتى فئات المجتمع من مدنيين وعسكريين، وضمت الوجهاء ومعارضى السلطان عبد الحميد، إضافة للمتقنين الذين ساروا في ركب الاتحاديين، وتحمسوا للدعوة لجمعيتهم، وأخذوا ينادون بشعاراتهم ويعلمونها للناس⁽¹⁾. وفي اللاذقية أعلنت جمعية الاتحاد والترقي عن فتح فروع لها، وطردت متصرفها عبد اللطيف باشا، لأنه من مؤيدي السلطان عبد الحميد، ولعلة انتسابه بصلة الصداقة والقرابة إلى الشيخ أبي الهدى الصيادي، "وكان نزيهاً عالي الأخلاق" وكانت حجتهم أن سمعته الحسنة أخطر عليهم إذا بقي، كما طردوا كثيراً من الموظفين ورؤساء الدوائر، وطُرد أيضاً كبير قادة الجيش، والميرالي (الجنرال) شريف بك نُحِّي من قبل مرؤوسيه⁽²⁾.

وفي مناطق لبنان هيمن الاتحاديون على الأمور أيضاً، فهاهم في بيروت يؤسسون نادياً لهم باسم جمعية الاتحاد والترقي، وأخذ الناس يرتادونه بكثرة، ويتردد عليها أناس لا دخل لهم بالعمل السياسي ولا يعرفون شيئاً عن أفكار الجمعية وتوجهاتها، إنما تجذبهم إليها المصلحة وحسب، وسرت العدوى إلى متصرفية جبل لبنان، وصار الضباط الاتحاديون يترددون على أعضاء مجلس إدارة لبنان، وتحول الناس في مواقفهم تجاه جمعية الاتحاد والترقي إلى مؤيد ومعارض كتقدميين ورجعيين، واستغل ذوو الأغراض والغايات الشخصية حالة عدم الاستقرار التي أعقبت الانقلاب لتصفية حساباتهم مع خصومهم لأسباب سياسية أو غير ذلك.

وأدى ذلك إلى عزل البعض من وظائفهم وإحلال خصومهم فيها، مما أوجد حالة من القلق والفوضى⁽³⁾ ونظراً لسيطرة حزب الاتحاد والترقي على الساحة السياسية في البلاد العثمانية، بما فيها بلاد الشام، فقد أصبح السياسيون فريقين إما أعضاء في الاتحاد والترقي أو مستقلين لعدم وجود أحزاب أخرى ينتمون إليها، واندرج هذا على طرابلس الشام، التي دخل أعداد كبيرة من أبنائها في حزب الاتحاد والترقي⁽⁴⁾، وذكر البارودي أن الاتحاديين تناولوا واستعلوا في البلاد العثمانية، وانتشرت فروع حزبهم في جميع الولايات العثمانية، وعينوا لإدارة تلك الولايات شباباً حديثي الأعمار من الأغرار الذين يعجزون حتى عن إدارة أنفسهم، وبلغ الأمر من تماديهم في التحكم بمصائر الناس، أن يقف أصغر موظف من شبان الاتحاد والترقي من الوالي أو الموظف القديم موقف المتعالي عليه، ويعامله معاملة الأمر للمأمور الصغير، ونظر الناس من جراء ذلك إلى الانتساب لحزب الاتحاد والترقي نظرة الطمع والمغرم،

(1) البارودي، المذكرات، ج1، ص63، وانظر: فيضي، المذكرات، ص67.

(2) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص160-161.

(3) الخوري، بشارة خليل (ت 1383هـ/ 1964م)، حقائق لبنانية (3ج)، منشورات: أوراق لبنانية، بيروت، ج1، حريصاً، 1960م. ص55.

(1) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص231.

فازداد بسبب هذا المنتمون إليه زيادةً كبيرةً، وصار الاتحاديون لا يقبلون من طالبي الانتساب إليهم إلا من يتوخون منه نفعاً مادياً أو معنوياً، خاصة الذين يتوقعون أن لهم رصيماً شعبياً يجلب لهم التأييد والمؤازرة الانتخابية، ولذلك التفت حولهم النفعيون والمرترقة من الوجهاء والزعماء المحليين في المدن والقرى، وأصبح ذوو المكانة والوجهاء الحقيقيون في بلاد الشام يدارون الاتحاديين تجنباً لضررهم وخوفاً على مصالحهم، حتى صارت مراكز جمعية الاتحاد والترقي ومكاتبها المنتشرة في العاصمة العثمانية وسائر الولايات بما فيها بلاد الشام، تمارس أدوار الدوائر الحكومية، يراجعها الناس لمتابعة مصالحهم بدلاً من الدوائر المختصة، ونتج عن ذلك تحجيم سلطة الحكومة، والتزم كثير من موظفي الحكومة القدماء الجلوس في بيوتهم حفاظاً على كرامتهم، بسبب ما يرونه من ممارسات شباب الاتحاد والترقي، وكان ذلك مؤشراً على بدايات التناظر بين العرب والاتحاديين، وصارت النقاشات السياسية بين الطلبة العرب والاتحاديين تؤدي إلى التشاجر والتصادم جراء ممارسات الاتحاديين⁽²⁾، لأن الاتحاديين بدأوا يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب بإعلان الدستور⁽³⁾.

وعلى الصعيد الأخلاقي والديني، فقد كانت سمة البلاد العثمانية سمةً إسلاميةً، وكانت ذات طابع يغلب على المجتمع فيه المحافظة على الأخلاق العامة النابعة من الشريعة الإسلامية، والتي كان الخليفة عبد الحميد الثاني يرباها ويحرسها، ويعمل على ترسيخها في المجتمع العثماني، وكانت السلطة التنفيذية في الدولة (الحكومة) تتابع من خلال أجهزتها الأمنية الأمن الاجتماعي والتزام مواطني الدولة ورعاياها بالآداب، واحترام دين الأمة وعقيدتها الإسلامية، وأشار الغزي إلى حرص السلطان عبد الحميد على ذلك بقوله: "عبد الحميد كان لا يتوانى عن الإتيان بكل ما ينطبق مع رغائب رعيته، خاصة فيما له علاقة بالدين الإسلامي وخدمة شعائره"⁽¹⁾.

أما بعد انقلاب الاتحاديين عليه، فقد سعى هؤلاء الاتحاديون إلى نشر الرذيلة والتفكك من الأخلاق والآداب العامة، تحت غطاء الحرية التي صوروها للناس بأن يفعل الإنسان ما يشاء ما لم يتعرض لحكمهم بالتهديد والمعارضة، وعلق الغزي على ذلك بقوله: بدأ الناس ينقمون على الجمعية بعض أعمالهم (جمعية الاتحاد والترقي) وينددون بانحرافها عن جادة العدل، ... فأصبحت البلاد شبيهة بالفوضى، وكثر التجاهر بالمعاصي والفجور ونهض أهل الدعارة واللصوص في المدن والقرى يتصدون لقطع الطريق وسلب أموال الناس، وأصبح الناس في أمر مريع"⁽²⁾. وقال حلاق: "قام أنصار جمعية الاتحاد والترقي بأعمال تبرر مخاوف حماة الشريعة، فقد

(2) البارودي، المذكرات، ج1، ص63 وانظر:

- الغزي، نهر الذهب، ج3، ص474 تبينهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص188

- منسي، حركة البقطة العربية، ص96، فيضي، المذكرات، ص68

- لبيب، المسألة الشرقية، ص99

(3) قدرتي، مذكراتي، ص6

(1) الغزي، نهر الذهب، ج3، ص491

(2) الغزي، المصدر السابق، ج3، ص474

ارتكبت المخالفات الدينية بصورة علنية، بدت وكأنها هي تحدٍ للدين، وظهرت منشورات ومجلات وجرائد تدعو إلى آراء متباينة، كما انتشرت المراقص والملاهي والحانات، وسهل على الأفراد تحقيق شهواتهم، ولما كانت روح العصر لا تستسيغ مثل هذه الأمور ولا تتقبلها، فكان من الطبيعي أن يحدث ردود فعل ضدها، لا سيما بعد انتشار الأخبار الواردة إلى كافة المناطق من أن اليهود كانوا من مخططي ثورة الاتحاد والترقي⁽³⁾.

ومرة أخرى تبرز إلى الواجهة الصلات الوثيقة بين الاتحاديين والماسونيين، وكان الخليفة عبد الحميد يدرك خطر الماسونيين على البلاد والعباد، ولم يسمح لمحافلهم بالظهور طوال فترة حكمه، ولذلك ما إن سيطر الاتحاديون على مقاليد الأمور في دولة الخلافة، حتى أطل الماسونيون من جديد معلنين شماتتهم بالخليفة ونظام حكمه وتجلي بشكل واضح تعاون الاتحاديين معهم وانفتاحهم عليهم، وظهرت في بلاد الشام محافلهم بصورة علنية مرة أخرى، وافتتحت تلك المحافل إلى جانب فروع مكاتب جماعة الاتحاد والترقي، وعادت تزاوّل نشاطاتها المشبوهة في بلاد الشام، مبدية التأييد للسافر للاتحاديين، ففي مدينة دمشق عاد المحفل الماسوني إلى العمل بعد الإغلاق الدستور عام 1908م، بعد طول الإعلان في عهد الخليفة عبد الحميد⁽⁴⁾، وكان هذا المحفل على ارتباط بالمحفل الإيطالي، وأطلق عليه تسمية جديدة هي نور دمشق، وربط بالمحفل الاسكتلندي، وتعاقب على رئاسته رجال بارزون منهم فارس الخوري، مصطفى السباعي، عبد القادر الجزائري، وغالب شاؤول مدير البنك العثماني⁽²⁾.

ويشير الحكيم إلى أن محفل طرابلس لبنان الماسوني المسمى بمحفل العشيرة كان ذو نشاط واسع يهدف تحقيق الإخاء الوطني الإنساني، وضم عدداً من الوجهاء والعلماء بين أعضائه⁽³⁾ وكانت هذه المحافل الماسونية المنتشرة في ربوع لبنان تتعاطف مع جماعة الاتحاد والترقي ومع الضباط الاتحاديين، ومن أشهر تلك المحافل محفل السلام المتعلق ببريطانيا، ومحفل صنيّ في ضهور الشوير، ومحفل لبنان في بيروت، وكانا تابعين لفرنسا وإيطاليا، ويعملان بشكل صريح ضد الدين، وليس لهما ارتباط بالمحفل التابع لإنكلترا⁽⁴⁾، وأشار صادق بك أحد جنرالات الاتحاديين إلى صلات زعماء الاتحاد والترقي بالمحافل الماسونية، وأنهم احتكروا حماية الدستور، وجعلوا الجمعية عصبية لبعض الأمة على سائرها ومزجوها بالماسونية⁽⁵⁾.

ولما كانت المبادئ التي أعلنها الاتحاديون تقوم على العدالة والحرية والمساواة، أراد الناس تطبيق ذلك عملياً في حياتهم، لا سيما وأن حزب الاتحاد والترقي بات ينشر

(3) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص254

(1) لويس شيخو، السر المصون (الماسونية التركية) مجلة المشرق، السنة (14)، ع آب 1911م، ص607

(2) البارودي، المذكرات، ج1، ص63-64.

(3) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص230

(4) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص72

(5) رشيد رضا، صادق بك وجمعية الاتحاد والترقي، مجلة المنار، م14، ج4، نيسان 1911م، ص268

هذه الأفكار ويدعو إليها ليعممها على سكان البلاد العثمانية، من أجل تحقيق هدفين في وقت واحد، أحدهما كسب التعاطف الشعبي والتأييد الجماهيري لبرنامجها السياسي والتنظيمي، في هذا الوقت بالذات، الذي يعتبر فترة انتقالية لم يثبت فيها قدماء في السلطة، ولم يطمئن الناس إلى أفراد كحكام جدد، وثانيهما: الترويج لأفكار الماسونية وشعاراتها لتعريف الناس بها، لأن الحركة الماسونية خدمت الاتحاديين وقدمت لهم كل الدعم والمساندة المادية والمعنوية⁽¹⁾، وهذا يتطلب تهيئة الظروف المساعدة على تقبل عامة أفراد الأمة فيها أفكار الماسونية، التي تبدو في ظاهرها ذات ملمس ناعم، وتسعى لإسعاد الإنسان وإسبال الحرية والعدالة على حياته وإشعاره بالمساواة مع الآخرين، ولهذا أتاح الاتحاديون لرعايا الدولة العثمانية أتراكاً وغير أتراك، وهذا يشمل العرب المنضوين تحت الراية العثمانية، وعرب الشام من بينهم، أتاحوا لهؤلاء حرية التعبير والمشاركة السياسية، وإن كانت الفترة قصيرة، مما هباً لأبناء الشام المناخ المناسب لإظهار سخطهم واستيائهم من بعض المسائل والقضايا التي شعروا بالغبن وعدم نيلهم بشكل عادل فيها، وخير مثال على ذلك إضراب عمال السكك الحديدية في بلاد الشام الذي حدث في (30) سبتمبر/ أيلول عام 1908م، بعيد إعادة العمل بالدستور.

ويرجع سبب الإضراب إلى تأخير شركة السكك الحديدية رواتب العمال وعدم دفعها لهم، ونجح الإضراب في تحقيق أهدافه، لكونه جاء في ظرف يسعى فيه الاتحاديون لتعزيز موقفهم أمام مواطني الشام ضد الخليفة عبد الحميد بعد إجبارهم إياه على إعادة العمل بالدستور، فاعتبروا إنصاف عمال السكك الحديدية وسيلة مناسبة لإفهام عامة الناس أن عهد عبد الحميد يسوده الظلم والتقصير، وأنهم جاءوا لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، ورفع الجور والاستبداد عنهم، فجاء هذا الإضراب ورقة رابحة لصالحهم، حيث ألزموا شركة سكك الحديد بدفع (170) ألف فرنك كرواتب للعمال، إضافةً لتقديم زيادة للعمال بنسبة تتراوح بين 40-50%⁽²⁾، ولكن الاتحاديين سرعان ما قضوا على مناخ الحرية الذي أتاحه إعادة العمل بالدستور، حين اتخذوا قراراً بعد تنفيذهم الانقلاب على الخليفة عبد الحميد عام 1909م، يقضي بمنع الإضرابات⁽³⁾، وهذا يؤكد أنهم أصبحوا دكتاتوريين بعد إسقاطهم الخليفة عبد الحميد الثاني، واستمروا في دكتاتوريتهم وأسلوبهم المستبد في الحكم حتى انتهاء عهدهم عام 1918،⁽³⁾ واعتبر تنفيذ مطالب عمال السكك الحديدية في ظل عهد الحرية الممنوحة لفترة قصيرة، وكأنه مُعدُّ بشكل مقصود ليستغل لغرض النيل من عهد عبد الحميد، والاستفادة منه في نشر الدعاية ضد شخصه والإساءة إليه، وفي الوقت نفسه ليقدم الاتحاديون أنفسهم للناس بأنهم دعاة إصلاح ضد عهد فاسد، وليبرروا أمام الأمة

(1) لويس شيخو، السر المصون، مجلة المشرق، السنة (14)، ع آب 1911م، ص 607

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 75

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 75-76

- BUYUK KULTUR ANSiKLOPEDiSi cilt. 6. p. 2376

(3)

عملهم في الانقلاب على الخليفة، وهذه أمور تنطلي على العامة من رعايا الدولة العثمانية، ولا يدركها إلا المطلعون على مجريات الحياة السياسية والمتابعين لها، وهذا حسب رأي الباحث من دهاء وتخطيط ومكر أعداء الأمة، فهم يتقنون فن إحداث الثورات والانقلابات، يُسَوِّدُون صحائف من يريدون إبعاده عن السلطة، ويزينون من يرونه يخدم أهدافهم ويحقق مطالبهم، وينبغي القول بإنصاف هنا بأن عهد السلطان عبد الحميد لم يخل من السلبيات والأخطاء، التي قد لا تكون من تخطيط الخليفة وسوء إدارته، بل ربما من تراكمات الأوضاع وتدهورها، ومن العجز والتراجع الذي انتاب الدولة في عهد مَنْ سبقه طوال فترة القرن التاسع عشر، ولم تصل الخلافة إليه إلا والدولة في حالة احتضار، وعلى وشك الانهيار الكامل، ولذلك استغل الماسونيون والاتحاديون والمتعاونون معهم من ذوي النزعات القومية في بلاد الشام من دعاة التغريب أعداء الخلافة، استغلوا هذا التراجع وأبرزوه وقدموه للناس على أنه عهد عبد الحميد، عهد الاستبداد والتخلف والظلم والجور، في حين يشهد المعاصرون لهذا العهد من أعداء الإسلام ومن أعداء الخلافة الإسلامية ومن أعداء عبد الحميد بالذات، بأن هذا الخليفة أحدث نهضة شاملة في كل أمور الدولة في عهده، وليتعرّف القارئ المنصف على ما يقوله المستشرق الألماني ميكوش عن عبد الحميد بخصوص هذا الموضوع، يقول ذلك عن رجل لا يهمله أمره، ولا يعمل لصالحه ولا ينشر الدعاية له، يقول: "أما السلطان عبد الحميد فلم يكن يومئذ قد تجاوز الرابعة والثلاثين - حين تسلمه الخلافة - وكان فارساً مغواراً وسيافاً بارعاً ... يتقلد سيف جده عثمان، ويلقب بحق مصلح الإمبراطورية التركية ... وكان في الواقع رجلاً ذا شأن ونفوذ، فقد اعتقد أنه يعرف ما تحتاج إليه بلاده، فجمع كلها في يده، ولكن حظه المنكود دفعه لأن يفكر تفكيراً حائداً عن الحقيقة، فغلبته الظروف على أمره، ومع ذلك استطاع أن يحفظ - وإن كان قد لاقى في سبيل ذلك ما لاقى - للإمبراطورية كيانه 32 سنة أخرى" ويقول⁽¹⁾ "كان السلطان عبد الحميد يرغب في الإصلاح كرجبة السلاطين الذين سبقوه، وكان يسلم بأن قانون تنازع البقاء يقضي بضرورة التطور وفقاً للظروف المتغيرة، ولكنه كان يرى أن يتم التطور بطريقة أقرب إلى العقل وأبعد عن التطرف، خلافاً للطرق التي لجأ إليها أسلافه من السلاطين المبتدعين"⁽²⁾ ويقول: "...شجع النهضة الفكرية ... وكانت البلاد تستورد العدد الكبير من خبرة الأساتذة، وكانت (غلطة سراي اكسفورد تركيا) مركزاً للثقافة الأوروبية الحديثة ... وكان يريد أن يسد كل فجوة سداً محكماً لتخوفه من تسرب الأفكار الغربية إلى بلاده"⁽³⁾.

تلك هي الأحداث التي مهدت للانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، وما تبعها من تطورات جلبت للدولة العثمانية الضعف والتفكك والانحلال، كان لأبناء بلاد الشام أثر فعّال فيها، ومواقف مهمة تجاهها، وكانت علاقتهم بالسلطان عبد الحميد غاية في

(1) ميكوش، مصطفى كمال، ص 11-12

(2) ميكوش، المرجع نفسه، ص 12-14

(3) ميكوش، المرجع السابق، ص 37-41

الإيجابية والتعاون والتفاهم، سادها الترابط والتواصل عبر سنين خلافته الطويلة، وحرصوا بشكل عام على التمسك بالرابطة العثمانية في عهده، حفاظاً على دولة الخلافة من التمزق والتفكك، وعملوا بعد الانقلاب عليه عام 1909م مع العهد الجديد بالروح الإيجابية ذاتها، ولم يفكر المسلمون الشاميون بالانفكاك عنها، أو بالسعي للتخلي عن عثمانيتهم، على الرغم من القناعات التي توصل إليها الكثيرون منهم بأن البلاد العثمانية بأسرها، وبلاد الشام التي ينتمون إليها تعاني من التخلف والتأخر والتردي الاقتصادي والاجتماعي في أواخر عهد الدولة العثمانية، ومع كل ذلك كانوا متوجهين نحو الإصلاح، وما تعاونهم مع الاتحاديين إلا لبلوغ هذا الهدف، لكن سرعان ما أصيبوا بالصدمة والإحباط من سلوك الاتحاديين وسياستهم نحوهم، وكان عليهم أن يدركوا من البداية سوء نوايا الاتحاديين وما يضمرونه تجاه الخلافة وتجاه بلاد الشام من مكر وخبث وعنصرية بغیضة، كانت الجرثومة الفتاكة التي نخرت جسم العلاقات العربية العثمانية، وجاهد السلطان عبد الحميد ليحافظ على تماسكه، على الرغم من كل الثغرات التي حاول الأعداء فتحها فيه، ولهذا فإن المرحلة المقبلة بعد نجاح الانقلاب ضده، وبعد أن وصل الاتحاديون إلى أهدافهم في استغلال الموقف العربي الشامي لصالحهم ضد الخلافة، لم يتمكنوا من الاستمرار في التظاهر للعرب عامة ولأبناء الشام خاصة بالوئام والتوافق والتعاون، وتذكروا لكافة المواثيق والعهود التي قطعوها لهم بإعطائهم حقوقهم وإشراكهم في إدارة الدولة⁽¹⁾، مما جعلهم يتمسكون بعثمانيتهم، ويتابعون معهم مسيرة التعاون لبناء دولة جديدة على أسس متينة⁽²⁾، تلك العهود التي قطعوها على أنفسهم في مؤتمر باريس الذي عقدته جمعية الاتحاد والترقي، وأشركت فيه كافة العناصر العثمانية المنضوية تحت راية الدولة العثمانية⁽³⁾، وهو ما تم ذكره في سياق الحديث عن الإعداد للانقلاب على السلطان عبد الحميد.

لقد قلب الاتحاديون ظهر المجن للعرب، وبدأوا التنكر لهم، وهذا ليس بغريب عنهم، لأنهم جاءوا إلى السلطة بتنسيق وتعاون مع أعداء العرب والمسلمين الماسونيين واليهود والصهيونية⁽⁴⁾، ولا يستطيعون في سبيل الاحتفاظ بتلك السلطة إلا أن يبروا بعودهم لليهود والصهيونية، وأن ينسجموا مع عقيدتهم الطورانية التي يؤمنون بها⁽¹⁾، وهذا كله يقتضي منهم إبعاد العرب عن الدولة العثمانية، والقضاء على العلاقات العربية العثمانية، لأن الجمع بين النقيضين غاية في الاستحالة، ولا يمكن التوفيق بين علاقتهم بالماسونية والصهيونية وعلاقتهم بالعرب، ويستحيل إمساك العصا من الوسط، للجمع بين النقيضين، لأن للعلاقة مع كل من الماسونيين واليهود مستلزمات وثمرات، والشئ ذاته مطلوب لعلاقتهم مع العرب، وكان الخيار الذي ينسجم فيه

(1) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص396، زين، نشوء القومية، ص77

(2) مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص25

(3) زين، نشوء القومية، ص76

(4) الداود، العلاقات العربية التركية، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص69

(1) مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص25

الاتحاديون الماسونيون مع أنفسهم فيه ومع مبادئهم وقناعاتهم ومصالحهم، الاستمرار في التقارب مع اليهودية العالمية والصهيونية، التي حرصت وبدعم من الدول الاستعمارية لإبعاد الأتراك عن العرب⁽²⁾.

وإزاء ذلك سيجد العرب أنفسهم متحدين ومجتمعين لمواجهة الهجمة التتريكية التي تستهدف كياناتهم وحضارتهم ومستقبلهم وبلادهم، وبات والحالة هذه على العرب أن يتعاونوا مسلمهم ونصرانيهم، حتى الذين كانوا يُرَوِّجون أفكار الاتحاديين التضييلية، التي استخدمت في الأوساط العربية أثناء الإعداد للانقلاب على السلطان عبد الحميد، من محاربة الاستبداد والقضاء على الظلم وإصلاح الدولة، وغير ذلك مما كان ينشره الاتحاديون بين صفوف العرب، وأيدهم فيه العرب القوميون من دعاة التعريب المتأثرين بالثقافة والفكر الغربيين، وساروا مع الاتحاديين في هذا الاتجاه عملاً بأفكارهم وقناعاتهم القومية⁽³⁾، وجدوا أنفسهم الآن في مفترق الطريق مع الاتحاديين، ويقتضي إيمانهم بقوميتهم وإخلاصهم لها، أن يعترفوا بالحقيقة بأنهم كانوا واهمين في عملهم ضد الخلافة مع الاتحاديين لتحقيق مصالح الأمة العربية وتحصيل حقوقها، والعمل على إدخال الإصلاح في إدارة الدولة لنفع بلادهم وفائدتها⁽⁴⁾، فقد وصلت الأمور إلى بداية النهاية، إنها بداية سياسة التتريك ضد العرب في كافة البلاد العربية التي ما زالت تحت مظلة الدولة العثمانية، ومنها بلاد الشام، وبداية السير وبشكل متسارع نحو القطيعة والعداء بين العثمانيين والعرب بتخطيط الاتحاديين المقصود، وعملهم المنظم للوصول إلى القطيعة النهائية بين الطرفين العربي والعثماني، ومن ثم بلوغ الغاية الأساس وهي القضاء على الخلافة العثمانية وإلغائها وتمزيق أوصالها، وإقامة الدولة العلمانية التركية على أنقاضها، وهو ما يتم بيانه في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

رابعاً: سياسة الاتحاديين التتريكية وأثر ذلك على العرب في بلاد الشام.

دخلت العلاقات العربية العثمانية عقب إعادة العمل بالدستور (القانون الأساسي) عام 1908م، وما تلاها من الانقلاب على الخلافة الإسلامية بقيادة جماعة الاتحاد والترقي كغطاء وواجهة، والحركة الماسونية واليهود كحقيقة وفعل عام 1909م، مرحلة جديدة، نظر المنتمون للتيار القومي من العرب الشاميين إلى حلفائهم الاتحاديين نظرة الإعجاب والتقدير، لإنجازهم الانقلاب على السلطان عبد الحميد، وعدّوا الانقلاب إنهاءً لعهد الاستبداد والظلم، على الرغم من إقرارهم بخلو هذا العهد من أية مظاهر للتمييز ضد العرب أو الإساءة إليهم، بل على العكس من ذلك كان عبد الحميد "ينظر إلى العرب نظرته إلى إخوان في العقيدة الإسلامية"⁽¹⁾ وتجد هذه النظرة صداها

(2) الداود، العلاقات العربية التركية، مجلة المستقبل العربي، ع45، سنة 1982م، ص69

(3) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص396

- زين، نشوء القومية، ص77، مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص24

(4) مجهول، ثورة العرب الكبرى، ص25

(1) قدرى، مذكراتي، ص6

الطيب في نفوسهم، "وكان ذلك من دواعي سياسته كخليفة للمسلمين، فيذر الرماد على الروح الوطنية الجياشة في صدور مثقفي العرب"⁽²⁾ إلا أنه ومع تمسك الخليفة العثماني بالعلاقات العربية الطيبة وحرصه عليها، كان سريان روح الانحلال في الإمبراطورية العثمانية قد بدأ، وتواطأت الدول الغربية على التهامها، لشعورهم بأنها آيلة للسقوط كرجل مريض أن الألوان للقضاء عليه، وكان العرب من عناصر تماسكها وقوتها، واتفقت كلمة غلاة الطورانيين رجال الاتحاد والترقي مع رجال الدونمة اليهود والماسونيين، على تغليب لعنصر التركي على العرب لإبعادهم عن الدولة كي لا يمدوها بالقوة والفاعلية⁽¹⁾، فكانت هذه بداية التوجه نحو تتريك العرب في بلاد الشام الذي قضى بسرعة على التفاؤل وعلى الرضى عن الاتحاديين وقد أخلف رجال الاتحاد والترقي وعودهم التي قطعوها للعرب، في إعطائهم الاستقلال الذاتي، والمساواة بين العنصر التركي وكافة العناصر الأخرى المشاركة في الرابطة العثمانية بما فيهم العنصر العربي، وأخذت روح الحماس والتعاطف مع العهد الجديد تنقص، وينتابها الفتور والتراجع، بعد أن مرت الشهور الثلاثة الأولى على الحكم الاتحادي، وسادت في أوساط المجتمع العربي في بلاد الشام روح التشاؤم والانكماش، حتى صار الناس ينسحبون من جمعية الاتحاد والترقي بأعداد كبيرة لإصابتهم بالصدمة من ممارسات الاتحاديين، بعد ما دخلوا في هذه الجمعية بكثرة أيضاً⁽²⁾ ويصف دروزة، وهو من المعاصرين لهذه الأحداث ومن الذين انتسبوا لجمعية الاتحاد والترقي،⁽³⁾ يصف الحالة العامة في بلاد الشام بعد نجاح الانقلاب عام 1909م، وسيطرة الاتحاديين على مقاليد الحكم، بأن جمعية الاتحاد والترقي "صار لها فروع في جميع مدن البلاد العثمانية الكبيرة والمتوسطة، بل والصغيرة، وأخذ القائلون على أمرها يضمون إلى جماعتهم كل من توسموا فيه النشاط والطاعة والإخلاص لهم من ترك وعرب وشركس وأرناؤوط وأكراد، ومن موظفين وغير موظفين وعسكريين ومدنيين، ويحلفونهم يمين الإخلاص لها، وإطاعة أوامرها"⁽⁴⁾ ويذكر دروزة العديد من الشخصيات المعروفة آنذاك والتي كان على صلات بها، ممن انتسبوا إلى الاتحاد والترقي من أنباء بلاد الشام وغيرهم، اشتهر من الشاميين منهم: رفيق العظم، حقي العظم، سليمان البستاني، رشيد رضا، سليم الجزائري، شكيب أرسلان، أسعد شقير، عبد الرحمن شهنذر، عبد الرحمن العابد، محمد فوزي العظم وغيرهم وغيرهم⁽⁵⁾.

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد رفعت شعار الحرية والعدالة والمساواة، وهو نفسه شعار الماسونية، وقامت الثورة الفرنسية كذلك بتوجيه وتخطيط من الماسونية

(2) قدرى، المصدر نفسه، ص6

(1) العجلوني، ذكرياتي، ص17

(2) جريدة فلسطين، ع53، 22 تموز، السنة (1)، 1911م، ص4-3، ع113-114، 24 شباط، السنة (2)، 1912م، ص1

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص297

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص296

(5) دروزة، المصدر السابق، ص297

العالمية، تحمل الشعار نفسه⁽¹⁾، وكانت تعلن أن هذه المبادئ ستطبق فيصبح جميع سكان الدولة العثمانية، على اختلاف دينهم وعرقهم مواطنين أحراراً في الأمة العثمانية، وولأولهم للدولة العثمانية، وبهذا تحل مشكلة القومية من تلقاء ذاتها، وأدرك زعماء التيار القومي في بلاد الشام أن الانفصال عن الدولة العثمانية يستحيل تحقيقه، فراحوا يعملون على اتخاذ الإجراءات الممكنة من خلالها الحفاظ على هويتهم الحضارية، وعلى قوميتهم وشخصية أمتهم، لكن ضمن البقاء في إطار الدولة العثمانية، وشكل العرب في مجلس النواب العثماني قوة المعارضة الرئيسية⁽²⁾.

ويجد الإشارة هنا إلى أن جمعية الاتحاد والترقي التي تأسست تحت زعامة أحمد رضا، كانت تضم تيار الأمير صباح الدين ابن الداماد محمود باشا⁽³⁾، (الداماد هو صهر السلطان عبد الحميد الثاني)، وقد أفصح هذا التيار عن رغبته في تطبيق مبدأ اللامركزية بعد استلام السلطة عام 1909م، واشتهرت دعوته هذه بين أوساط الشبان الأتراك بـ عدم مركزيت، بالصيغة التركية، واللامركزية بالصيغة العربية، وعارض أحمد رضا والمتشددون من جماعة الاتحاد والترقي دعوة الأمير صباح الدين إلى اللامركزية⁽⁴⁾، لأنها تفضي لإعطاء العرب استقلالهم الذاتي في بلاد، وتعطي الحق نفسه لسائر القوميات في البلاد العثمانية، الأمر الذي يخالف قناعات الاتحاديين القاضية "بأن أفضل ضمان لحماية الإمبراطورية العثمانية هو قوتها الداخلية ومنعتها، وأفضل وسيلة لتوافر القوة والمنعة في الداخل هي إطلاق الحريات السياسية العامة"⁽⁵⁾ ومع ذلك لم يطبق الاتحاديون هذا المبدأ، وبرز الخلاف بين تياريين الاتحاديين، تيار صباح الدين، وتيار أحمد رضا، ووجد تيار صباح الدين نفسه خارج السلطة، لأن التيار المتشدد الذي يقوده أحمد رضا أفقد التيار الأول رصيده الشعبي حين أشاع عنه تأييده لمطالب الأرمن في الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال، فاتهم هذا التيار بمشايعة الأرمن، وبذلك سقط من أعين المواطنين⁽¹⁾، وسار التيار الآخر نحو تطبيق برنامجه في الابتعاد عن المبادئ التي أعلنها إثر الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني من حرية وعدالة ومساواة، ووجدت جمعية الاتحاد والترقي أن الأتراك وحدهم من بين العناصر العثمانية يسعون لمركزية السلطة، "ولذلك عادوا إلى قوميتهم التركية، وأصبحوا يعتبرون سياسة التتريك الوسيلة الطبيعية الناجمة لبلوغ غاياتهم"⁽²⁾، واستطاع الاتحاديون أن يؤثروا على مجريات الأحداث في الدولة العثمانية بطريقة أخرت نقمة العناصر العرقية المنضوية تحت الراية العثمانية، حين تركوا الفرصة لحزب الحرية والائتلاف الذي اعتبر حزب المعارضة، أن

(1) زين، نشوء القومية، ص82

(2) الحصري، البلاد العربية، ص120، زين، نشوء القومية، ص83

(3) الحصري، البلاد العربية، ص119

(4) الحصري، البلاد العربية، ص120، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص40

(5) زين، نشوء القومية، ص82

(1) الحصري، البلاد العربية، ص120

(2) زين، نشوء القومية، ص83

يتشكل، وذلك في تشرين الثاني 1911م، كي يشارك في الحكم، وقد استطاع هذا الحزب أن يستقطب عدداً من النواب في البرلمان، ل طرحه فكرة اللامركزية الإدارية أساساً لبرنامج السياسي، وقد انسحب العديد من نواب الأقاليم من حزب الاتحاد والترقي وانضموا إليه⁽³⁾، واستطاع هذا الحزب بعد بدء الحرب البلقانية عام 1912م أن ودعت مجالس حكومة جديدة، وضعت نصب عينيها تطبيق مبدأ اللامركزية في الحكم، يشكل حكام الولايات إلى الاجتماع لإقرار منهج العمل القاضي بتطبيق المبدأ المذكور، لكن الاتحاديين لم يمكنوا الائتلافيين من كسب الجولة في تنفيذ ما يريدون، ويذكر الحصري الخطوة التي أقدموا عليها وعدّها ضربةً حكومية ناجحة أعادت إليهم زمام الحكم مرة أخرى، إنهم باغتوا الوزارة خلال اجتماعها في الباب العالي، وقتلوا وزير الحربية مع مرافقه⁽⁴⁾، فاضطروا رئيس الوزارة إلى الاستقالة، وشكلوا وزارةً بعد ذلك من أفرادهم، أصدرت بدورها أمراً إلى الولايات العثمانية بإبطال الخطوات التي كانت خطتها الوزارة السابقة التي شكلت من حزب الحرية والائتلاف، وبهذا أعادوا الكرة ثانية في العمل على تطبيق مبدأ المركزية في إدارة الدولة⁽¹⁾، وهو ما سيقود إلى حدوث ردة الفعل العربية على سياسة التتريك التي انتهجها الاتحاديون ومارسوها تجاه العرب بشكل سافر وشديد، بحيث أثار حفيظتهم ونقموا على الطورانيين، وثاروا ضد تلك السياسة الجائرة، وقد نقل زين خطاب طلعت باشا وزير الداخلية في الحكومة الاتحادية، الذي ألقاه في سالونيك على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في أحد اجتماعاتهم السرية، وقال فيه: "لا يمكن أن تكون هناك مساواة بين المواطنين ما لم نفلح أولاً في تتريك الإمبراطورية، وهو عمل شاق طويل المدى، وإني لأجرو على التنبؤ بأننا سننجح في نهاية الأمر، وذلك بعد القضاء قضاءً مبرماً على كل حركة ثورية، وكل دعاية سياسية ضدنا في الولايات البلقانية"⁽²⁾ وبعد هذا الخطاب بتسعة أيام، في 6/ أيلول، كتب السير ج. لودز Sir.G.Lowther السفير البريطاني في استانبول إلى إدوارد غراي SirEdward Grey، يقول: لقد بدا منذ زمن بعيد أن جمعية الاتحاد والترقي قد عدلت نهائياً عن فكرة تتريك جميع الشعوب غير التركية بالطرق الدستورية، وعدلت كذلك عن الأساليب المتبعة لاستمالتها وكسب

(3) الحصري، البلاد العربية، ص120، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص366

(4) ويروي دروزة ما يعرفه عن تلك الحادثة من خلال ذاكرته، فقد عاصرها بنفسه، يقول: قام الاتحاديون بحركة جريئة ومباغة على ما وعته ذاكرتنا، وكنا نتابع الأحداث، فقد هاجمت عصبة منهم على رأسها بعض أركانهم وزارتي الحربية والباب العالي، وقتل أحدهم وزير الحربية ناظم باشا، واعتقلوا عدداً من الوزراء، واستلموا مراكزهم عنوة، وأجبروا =السلطان على تعيين محمود شوكت باشا، الذي زحف على الأستانة عام 1909م، وأدى زحفه إلى خلع السلطان عبد الحميد، ودخل الوزارة عدد من أركانهم، ثم نفوا كامل باشا إلى خارج البلاد، وفرضوا الإقامة الجبرية على باقي الوزراء، ولم تسكت المعارضة بزعم حزب الحرية والائتلاف، حيث نشطت في الدعاية ضد الاتحاديين، غير أن الاتحاديين استطاعوا أن يحتفظوا بسيطرتهم وحكمهم، وضربوا معارضيتهم ضربة قاضية.

– دروزة، نشأة الحركة العربية، ص369، وانظر: رامزور، تركيا الفتاة، ص23-24

– محاكمة الحركة العربية، ص148.

(1) الحصري، البلاد العربية، ص120-121

– دروزة، نشأة الحركة العربية، ص369، بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص188-190

(2) زين، نشوء القومية، ص83-84

عطفها وولائها، ويبدو كذلك أن العثمانية في نظرها تعني التركية، أي جعلهم أتراكاً، وأن سياستها في عثمنة الإمبراطورية، تعني سحق العناصر غير التركية بمطريقة تركية، وكان الأمل معقوداً على أنه عندما يتم لأعضائها الاستيلاء التام على مقاليد الحكم، وعندما تتلاشى المعارضة من جراء الضغط الذي تمارسه الدولة، تتمكن الجمعية من توسيع نطاق سياستها، لا من التضييق عليها، لا سيما فيما يتعلق بالإدارة الداخلية، غير أن ما قاله طلعت بك يدل على أن تحقيق هذه الآمال بعيد المنال⁽¹⁾.

وسعى الاتحاديون بُعيد الانقلاب على السلطان عبد الحميد في السنوات 1909-1912م إلى تهدئة خواطر العرب والمسلمين، خوفاً من تحركهم ضدهم في وقت لم يصلوا إلى درجة من تثبيت أركان حكمهم، مما يعرضهم للخطر ويعرض مستقبل الدولة العثمانية للضياع بسببهم، ولأجل إسكات العرب في بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية التابعة لهم، عملوا على تأسيس جمعيات إسلامية بهدف إقناع العالم الإسلامي بأنهم حريصون على الإسلام وعلى دولة الخلافة العثمانية، وأن انقلابهم لا يستهدف محاربة الإسلام، إنما كان ضد نظام السلطان عبد الحميد الثاني الاستبدادي، وتنفيذاً لهذا التوجه أسست جمعية الاتحاد والترقي رابطة للاتحاد الإسلامي، كي يستفيدوا من دورها في تعضيد وتعزيز مواقفها وأعمالها، وعرفت تلك الرابطة باسم: جمعية خيرية محمدية، حضر اجتماعاتها وفود من العالم الإسلامي، من بينهم وفد من مسلمي الهند يضم خمسة أعضاء⁽²⁾.

وأسس الاتحاديون أيضاً في جنيف جمعية اسمها التقدم الإسلامي (انجمن ترقی اسلام) أصدرت أول نشرة لها باللغة الفرنسية في سنة 1913م، هدف الاتحاديون من خلال تقوية الروابط بين مختلف الشعوب الإسلامية، وأنها تعمل في سبيل رفع شأن الإسلام، وتدعو المسلمين للدفاع عن الإسلام ودولة الخلافة (تركيا) التي يعتبرونها آخر حامي الإسلام⁽³⁾، والحقيقة أن مسلك قادة الاتحاد والترقي لم يغير من نظرة العالم الإسلامي عامة، والعرب في بلاد الشام وسائر البلاد العربية إليهم، تلك النظرة التي تتسم بالشك بهؤلاء القادة، لأن ما يعلنه الاتحاديون يتعارض مع طبيعة تصرفاتهم العملية تجاه العالم الإسلامي والبلاد العربية، إضافة لموقف هؤلاء تجاه الإسلام كمنهاج حياة وكدين للدولة العثمانية، وذلك أن قادة جمعية الاتحاد والترقي جميعهم كانوا من المنتمين للماسونية، المعروفة بـ البنائين الأحرار (FREE MASONS)، علاوة على أن يهود الدونمة⁽⁴⁾ في سالونيك وغيرها من المدن العثمانية كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي، ومن المؤسسين لها ومن أبرز قادتها، ويورد زين تقريراً كتبه ستون وتسون (Seton Watson) يقول فيه: إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها

(1) زين، المرجع نفسه، ص 84

(2) زين، نشوء القومية، ص 85-86

(3) زين، نشوء القومية، ص 86

(4) انظر عن علاقة جماعة الاتحاد والترقي بيهود الدونمة وبالحركة الصهيونية، ودور هؤلاء الفعال في انقلاب عام 1909م ص 21 من هذا الفصل، الاتحاد والترقي والماسونية، وانظر: حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص 282-314

وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف، فأثور هو ابن رجل بولندي مرتد، وجاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بـ دونمة، (Dunmeh)، وكراسو (Carasso) من اليهود الإسبان الوافدين منها إلى سالونيك بعد سقوط الأندلس عام 1492م، وطلعت باشا من أصل غجري بلغاري اعتنق الإسلام ديناً، وأحمد رضا نصفه شركسي والنصف الآخر مجري⁽²⁾، كما أن اليهوديين نسيم روسو، ونسيم مازلياح كانا فعّالين في حركة الاتحاد والترقي⁽³⁾، ومن المهم الإشارة هنا إلى دور فئة لعبت دوراً في الأحداث التي وقعت في هذه الفترة، وكان لها مساهمة مؤثرة لمساعدة الاتحاديين في الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، وهذه الفئة هي فرقة البكتاشية⁽¹⁾، لا سيما وأن بعض

(2) حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص305

(3) البكتاشية: يرى المؤرخون أن البكتاشية هي امتداد للحركة القرمطية، التي كانت في بلاد الشام والعراق وشرق الجزيرة العربية في القرون الهجرية الثاني والثالث والرابع، وتنسب البكتاشية إلى رجل يدعى علي الأعلى، نزل تكية الحاج بكتاش أحد رجال الطرق الصوفية المنتشرة في الأناضول في عهد الدولة العثمانية، وقد انتقلت هذه الحركة إلى البلقان بعد دخول الإسلام واستقراره في هذه المنطقة من العالم في القرن السابع عشر الميلادي على أيدي المسلمين، وكانت ألبانيا المكان الذي انتشرت فيه بشكل كبير من بين دول البلقان، وكان انتشارها على أيدي شخصية غريبة هي (سرسم علي ديديا) الألباني الذي عاش في الفترة (1520-1566م) وكان وزيراً للسلطان سليمان القانوني، فانسحب من بلاط السلطان واعتنق البكتاشية وعاش في تكية الحاج بكتاش، وترجع البكتاشية في جذورها القصادنية الدينية إلى أنها خليط بين عقيدة الشيعة والوثنية والمسيحية، وحاولت أن تظهر بمظهر إسلامي عند دخول الإسلام إلى تلك المناطق، وهي تسعى لأخذ الثأر لعلي بن أبي طالب وذريته بثوبها الشيعي، وقد حاولت البكتاشية تفسير العبادات والتكاليف الشرعية على طريقتها الخاصة، فقد أعفت المنتسبين إليها من أداء التكاليف الشرعية من صلاة وصوم وغيرها، كما حلت شرب الخمر وغيره من المحرمات، وتخلو التكية التي يجتمعون فيها للعبادة والذكر من وجود محراب موجه نحو القبلة للصلاة، وتنبو اجتماعات الذكر للمراتب المختلفة بدل الصلاة، وإضافة لذلك يؤمن البكتاشيون بوحدة الوجود، وفي هذا يجمعون بين مسيحيتهم السابقة وإسلامهم المعلن، وفي ألبانيا برز علي باشا تيلانا (A.P.Tepelana) وقاوم الدولة العثمانية بعد أن كثرت انتشار أنصاره من البكتاشيين في كل أنحاء البلاد، لكن الجيوش العثمانية هزمتهم عام 1822م وعملت على تصفية البكتاشية، لكنها لم تفلح، وعمل البكتاشيون بعد ذلك في السر، وانتقلوا إلى المعارضة للسلطات العثمانية بشكل سياسي، واستطاعوا أن يوسعوا ميدان نشاطهم وعلاقاتهم السياسية، حيث اكتسبوا أنصاراً = كثيرين، وانضم إلى هذه الحركة ما يعادل عشر سكان المواطنين العثمانيين من الأتراك، وأن ثلث سكان الأناضول كانوا تحت تأثير الطريقة البكتاشية بعدما ليست عبادة التصوف كغطاء تخفي حقيقتها، وكانت نسبة كبيرة من أعضائها تتكون من الأميين والفلاحين والشيوخ، ومع هذا فقد جذبت عدداً من الأحرار (الماسونيين) والقوميين الأتراك، نظراً لأن البكتاشيين تمسكوا باللغة التركية والآداب التركية، فالأدب البكتاشي من خاصية قومية تركية لها مكانة مميزة في الأدب التركي في التاريخ الحديث، وصار بعد تحرره من القيود الفارسية يعمل على محاكاة الأدب الأوروبي، متأثراً بالأسلوب الفرنسي، وقد سبق الأدب البكتاشي النهضة الفكرية الثقافية القومية التي بدأت عند ضياكوك الب (Ziya Cokalp)، يقول رامزور: ارتأى بعض الكتاب وجود علاقة بين الماسونية الأوروبية والطريقة البكتاشية، فقد روى ريتشارد ديفي في سنة 1897م أنه سمع بأن هذه الطريقة مرتبطة ببعض المحافل الماسونية الفرنسية، وقبل هذا كان براون قد ذكر في سنة 1867م أن بعض ما قاله أصدقائه المسلمين قد انضموا إلى الماسونية في أوروبا، أما عن الماسونية فقال ما يأتي: ولعل من الغريب أن يعتبر دراويش الطريقة البكتاشية أنفسهم كالماسونيين تماماً، وأنهم مستعدون للتأخي معهم، ويطلق على الماسوني باللغة التركية فرماسون، وهي كلمة تثير النفور، فهي تدل على الإلحاد في العن صفاته، ويقول ريتشارد ديفي عن فاضل بك أنه تأثر بفولتير، ... ولعل من أسباب تأييد البكتاشيين لتركيا الفتاة، أنهم كانوا يميلون في أمر الخلافة إلى العقيدة الشيعية في الإمامة، ويرى بيرج أن البكتاشيين أعاقوا السلطان سليم الأول في حملته ضد الشاه إسماعيل الصفوي في إيران عام 1514م، وأنهم عند تأييدهم الانقلاب 1909م على السلطان عبد الحميد كانوا ياملون تأسيس دولة بكتاشية في ألبانيا، وقد قال هوسلوك أنه يوجد نوع من الرابطة بين البكتاشيين وتركيا الفتاة، والبكتاشية شأنها شأن الماسونية جذبت أناس كان يجذبهم في الوقت نفسه برنامج تركيا الفتاة، الذي يهدف إلى خلع السلطان عبد الحميد، وتأسيس نظام علماني في الدولة العثمانية

(1) انظر: مفاكو، محمد (أستاذ في فرع الاستشراف، جامعة برشتينا، يوغسلافيا)، البكتاشية، مجلة العربي، ع (220)، آذار 1977م، ص64-68. رامزور، تركيا الفتاة، ص127-131

زعماء تركيا الفتاة (جماعة الاتحاد والترقي) كانوا ممن ينتمون إلى هذه الفئة، ولما تحركت النعرة الطورانية في الاتحاديين، ظهر من بينهم من كان منتزحاً إلى البكتاشية، وروى رامزور أن هناك علاقة بين البكتاشية والماسونية، وكان عدد من أعضاء تركيا الفتاة أعضاء في الطريقة البكتاشية، وبعضهم كان بكتاشياً وماسونياً، يقول رامزور: "من المؤكد أن عدداً من أعضاء تركيا الفتاة كانوا أعضاء في الطريقة البكتاشية، وأن بعضهم كانوا ماسونيين وبكتاشيين في الوقت نفسه، ومن هذا الصنف طلعت باشا ورضا توفيق وشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي"⁽²⁾ وضياء بك كوك ألب من أشهر غلاة الطورانيين كان بكتاشياً أيضاً، وكتب سلسلة من المقالات عن هذه الطريقة⁽¹⁾، ويعده الكثيرون الأب الروحي للقومية التركية⁽²⁾.

فكان هذان العاملان مثيران لمخاوف العرب في بلاد الشام من جمعية الاتحاد والترقي، من أن هذه الحركة في الأصل جاءت لتعمل على تقطيع أواصرهم وعلاقاتهم المتينة بدولتهم العثمانية، دولة خلافتهم ومستعصم أمتهم، وهذا ما أصبح أمراً واقعاً بعد عام 1909م، بعد أن ظهرت القومية التركية المتعصبة على حقيقتها، وباتت تجرح كرامة العرب وتتحداهم وتتعرض لأعلى وأعز قيمتين عندهم هما الدين واللغة، وكان هذا التحدي التربة الصالحة التي نبتت فيها بذور الحركة العربية الانفصالية⁽³⁾، التي يمكن القول أنها ستبدأ بعد الآن فصلاً جديداً من فصول علاقاتها بالعثمانيين. وقبل الحديث عن ممارسات الاتحاديين العنصرية ضد العرب في بلاد الشام، يحسن التنويه إلى أن تلك الممارسات صدرت عنهم بعد فترة إعداد أشرب الاتحاديون فيها الفكر الطوراني، وأسفر عن تكوين تيار سياسي يتبنى الطورانية، وأن ذلك التيار رَوَّج لأفكاره وسأهم في بلورته وظهوره كتاب ومفكرون طورانيون وأتراك، عملوا من خلال نشاطهم السياسي ونتائجهم الفكري على إيجاد المناخ المناسب لنشر أفكارهم، وإبرازها إلى واجهة التطبيق والممارسة على أرض الواقع ضد العرب في بلاد الشام والبلاد العربية الأخرى، وكان المتضرر من تلك السياسة العرب لوحدهم⁽⁴⁾، لأن أبناء القوميات الأخرى كالأرمن والبلغار والأروام كانوا ينالون حقوقهم في بلدانهم، ويطبق عليهم القوانين الخاصة بهم، عملاً بنظام الامتيازات الطائفية لأبناء الطوائف الأخرى، في حين كان المسلمون في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية محرومين من تلك الامتيازات، وبالتالي تطبق عليهم في بلادهم القوانين والأنظمة التركية في مجالات الإدارة والتعليم والصحة وغير ذلك، وكان ذلك سبباً من أسباب ممارسة التمييز ضدهم من جماعة الاتحاد

- حلاق، موقف الدولة العثمانية، ص305-306، سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص90-91

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص131، وانظر عن البكتاشية ص128-131

(1) رامزور، المرجع السابق، ص130، زين، نشوء القومية، ص87

(2) زين، نشوء القومية، ص92

(3) زين، المرجع السابق، ص86-87

(4) صالح، الطورانية التركية، ص35

والترقي⁽¹⁾، مما يولد في نفوسهم النعمة والغضب، ويشعرهم بالإحجاف والظلم الواقع عليهم.

1- مواقف الطورانيين تجاه مستقبل العلاقات العربية العثمانية.

ترجع الدعوة إلى التمسك بالقومية التركية (الطورانية) في بداياتها إلى عدد من الكتاب الذين دعوا إلى الاتحاد الطوراني (Pan, Turanianism)، وهو تجمع الغرض منه توثيق الروابط بين جميع الشعوب التي تتكلم اللغة التركية، وقد اشتهر من هؤلاء تكين ألب TekinAlp، ونشر كتابه الداعي إلى الطورانية تحت عنوان:

التركية والنزعة إلى الاتحاد التركي (Turkismus and Pan-Turkismus)

وذلك في مدينة فيمار (Weimar) سنة 1915م، وكذلك ضياء بك كوك ألب، في مؤلفاته يدعو إلى الطورانية، ويثير النزعة العنصرية في الأتراك، ويمكن اعتبار هؤلاء الاتجاه الأول من دعاة الطورانية، الذين دعوا إلى القومية التركية والسياسة الطورانية، دون أن يعترفوا بحقوق القوميات الأخرى، ويرون ضرورة إزابتها في البوتقة التركية، ويستنكرون سعي العرب إلى نيل حقوقهم في بلادهم، وعملهم القومي للوصول إلى ذلك⁽²⁾، وكان جمال باشا أحد قادة الاتحاد والترقي الثلاثة يحمي ويشجع الدعوة الطورانية⁽³⁾.

أما الاتجاه الثاني فيمثله يوسف بك أکجورا أوغلو⁽⁴⁾، ويرى هؤلاء "أن السياسة الطورانية السلمية تستلزم التخلي عن البلاد غير التركية، ولا سيما عن البلاد العربية"⁽⁵⁾، كان أکجورا يقول: "إن الدولة العثمانية لا يمكن أن تعيش، لأنها مؤلفة من عناصر وقوميات مختلفة، إنها ستموت وستنقرض حتماً، ولكن بعد موتها سنقوم دولة تركية لا تضم غير الأتراك"⁽¹⁾ وكان يتمنى أن تنفصل البلاد العربية بسرعة، لكي لا يتأخر تحول الدولة العثمانية إلى دولة تركية قومية بكل معنى الكلمة⁽²⁾.

ويرى أصحاب الاتجاه الثالث أن الدولة العثمانية يجب أن تتحول إلى دولة ثنائية (تركية - عربية) مثل الدولة (النمساوية - الهنغارية)، ويعد ضياء كوك ألب (Ziya Cok Alp) من الحاملين لهذه الفكرة، ويطلق عليه الأب الروحي للقومية التركية، ويرى وجوب إعطاء الشعوب المشاركة في الدولة العثمانية استقلالها، على أن تجمع بينهم وبين الأتراك الإلفة والتعاون، وقد اقترح قبل اندلاع الحرب العالمية

(1) الحصري، البلاد العربية، ص128-129

(2) زين، نشوء القومية، ص87

(3) الحصري، المصدر السابق، ص123

(4) يوسف أکجورا تركي روسي من نواحي قازان على نهر الفولغا، درس أولاً في جامعة أورنبورغ في روسيا، ثم درس في مدرسة العلوم السياسية في باريس، وتبنى الفكرة القومية الطورانية انطلاقاً من اقتناعه بأهمية مبدأ القوميات في توجيه السياسة، وجمعت مقالاته التي كتبها في هذا الاتجاه تحت عنوان: أوج طرز سياست، بمعنى أساليب سياسية. انظر الحصري، البلاد العربية، ص121-123

(5) الحصري، البلاد العربية، ص123

(1) الحصري، المصدر نفسه، ص123

(2) الحصري، المصدر نفسه، ص123

الأولى 1914م إقامة دولة مزدوجة تسمى الدولة التركية العربية، يرأسها خليفة تركي، وفي 1918م اقترح أيضاً إقامة وحدة أو اتحاد يضم دولتين مستقلتين هما الأناضول التركي وعربستان، وهذا الاتحاد هو اتحاد طبيعي بفضل العوامل الجغرافية والروابط الدينية، ويفيد هذا الاتحاد في حماية العنصرين التركي والعربي المشتركين في هذا الاتحاد⁽³⁾، وكذلك فإن أنور باشا أحد القادة الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية كزعماء لجماعة الاتحاد والترقي، من أكثر هؤلاء الزعماء تأييداً لفكرة الرابطة الإسلامية، التي تحافظ على العلاقة القائمة بين العرب والعثمانيين في ظل دولة الخلافة⁽⁴⁾.

لم يكتف دعاة الطورانية من زعماء الاتحاد والترقي بالوقوف عند حد الإعلان عن مبادئهم الدعوة لها وترويجها بين أفراد الجنس التركي، على اعتبارها دعوة لهم ليلتفوا حولها ويحملوها للمحافظة على الدولة العثمانية، بل تعدوا ذلك إلى حيز التطبيق والعمل، مشهرين هذا السلاح الفتاك في وجه العرب في كافة الميادين والمواقع، وفي المجالات المدنية والعسكرية، وإذا كان مجرد الإفصاح عن الرأي من جانب الطورانيين بتعصبهم لقوميتهم كافياً لإثارة الحمية والغضب في نفوس العرب، ويدفعهم للتغني بقوميتهم كرد فعل عن ذلك، فكيف يكون الحال حين يجاهر الطورانيون الاتحاديون بعدائهم للعرب؟ ويمارسون ذلك سلوكاً يومياً على أرض الواقع ضدهم؟! بل ويتعدى فعلهم ذلك الحد إلى درجة حمل العرب على التخلي عن عروبتهم، لا سيما إن كان ذلك صادراً عن الذين عُذُّوا بالأمس القريب دعاة الحرية والعدالة والمساواة⁽¹⁾، ونالوا ثقة أبناء العروبة في بلاد الشام من مسلمين ونصارى، وبلغت تلك الثقة الحد الذي حمل بعضهم من شدة إخلاصهم للاتحاديين وللعهد الجديد بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، على التسامح حتى في أمر اللغة العربية، التي تمثل بالنسبة للعرب عنوان حضارتهم والشاهد على وجودهم كأمة بين الأمم، ومع ذلك تساهلوا مع الاتحاديين في جعل اللغة التركية اللغة المشتركة بين جميع العناصر العثمانية، بمن فيهم العرب، وأن تفرض اللغة التركية في البلاد العربية، وتكون إجبارية كلغة التخاطب والإدارة والتعليم والحياة اليومية، "على الرغم من أن اللغة العربية أغنى ماضياً وأوسع أدباً من ماضي اللغة التركية وأدبها، باعتبار أن اللغة التركية تستمد آدابها من جميع اللغات، فتتقبل بسهولة كل ما تجده صالحاً وتتمثله بسرعة"⁽²⁾. وقد أيد سليمان البستاني هذا الاتجاه حين قال "إن أعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين، وأعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية، وجعل تعليم اللغة التركية إجبارياً،

(3) زين، نشوء القومية، ص 92

(4) الحصري، البلاد العربية، ص 123

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918) ص 88

(2) برو، العرب والترك، ص 82-83

فإن هاتين الوسيلتين، مع تعميم أسباب العلم والتهذيب يضمنان توثيق عرى التواد والإخاء⁽³⁾.

لذلك فإن الاتحاديين عندما شرعوا في سلوك السياسة التتريكية ضد العرب في بلاد الشام، وجدوا ردة الفعل عنيفة وقوية وسريعة من الجانب العربي، ويمكن بسط تلك الممارسات الاتحادية التتريكية، وما أحدثته في نفوس العرب في بلاد الشام من شروخ وجروح دفعتهم لرفض تلك الممارسات، بل والرد عليها بالعمل الجاد والتحريك السريع لتكوين الجمعيات والأحزاب السرية والعلنية، لتكون الوسائل الفعالة لحفظ الذات والصمود في وجه الهجمة العنصرية الشرسة، التي تستهدف الهوية الحضارية للأمة العربية، وإذابة شخصيتها، ويكون الحفاظ على تلك الهوية من خلال التمسك بعناصرها وهما الإسلام واللغة العربية، وقد أخذت السياسة الطورانية الجديدة طابعاً أيقظ في العرب نخوتهم وحميتهم، تلك السياسة التي نفتتها التيارات الطورانية في نفوس الأتراك، والتي أشير إليها قبل قليل، والمثير في تلك السياسة الطورانية التي تدعو إليها جمعية الاتحاد والترقي أنها تبنى على دعوة الشعب التركي بالرجوع إلى مؤسساته الاجتماعية قبل دخوله الإسلام (الجاهلية التركية)، مما يؤدي إلى إحياء الروح الوطنية التركية بعيداً عن رابطة "العثمانية" التي بنيت على العقيدة الإسلامية، وربطتهم بالعرب كإخوة في تلك العقيدة، ويقوي إحياء النزعة الوطنية العودة بالعنصر التركي إلى أصوله التاريخية، ويقود إلى إحداث التقارب والتعاون بين الأتراك العثمانيين وبين الشعوب التركية الأخرى خارج الحدود العثمانية⁽¹⁾، ولذلك نجد الدعوة الطورانية قد اتخذت لها رموزاً وشعارات ومنطلقات تتسم بالتمسك بالجذور التاريخية للعنصر التركي، وصارت ممارساتهم بادية للعيان بعيدة كل البعد عما أعلنوه من البداية بعد الانقلاب عام 1909م من الحفاظ على الروابط الإسلامية، وصار واضحاً أن الهدف الأساس في قرارة نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هو الانتصار للفكرة الطورانية⁽²⁾، ويمكن بيان السياسة التتريكية التي مارسها حزب الاتحاد والترقي ضد العرب في بلاد الشام على المستويات الدينية والتعليمية والإدارية وفي الوظائف وغيرها.

2- سياسة التتريك في المجلس النيابي.

ففي مجال التمثيل السياسي للعرب من أبناء الشام في مجلس النواب العثماني، الذي انتخب بعد إعادة العمل بالدستور عام 1909م، يشير دروزة إلى أن تلك الانتخابات أراد لها الاتحاديون أن تنظم بطريقة تضمن الأغلبية للعنصر التركي من المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقي، من حيث تقسيم الدوائر الانتخابية وتخصيص عدد المقاعد حسب النسبة العددية لكل عنصر بشري من العناصر المكونة للدولة العثمانية، فقد كان عدد السكان الأتراك والعرب متساوياً، يشكل كل من هذين العنصرين ثلث

(3) البستاني، عبرة وذكرى، ص56

(1) زين، نشوء القومية، ص87، ص89

(2) زين، نشوء القومية، ص88، صالح، الطورانية التركية، ص47، ص49، ص51-52

سكان الدولة، ويفترض أن يكون عدد النواب العرب والترك قياساً على عدد السكان متساوياً أيضاً، لكن نتائج الانتخابات أسفرت عن حصول الجانب التركي على مائة وسبعة وثلاثين مقعداً (137)، وحصول العرب على خمسة وستين مقعداً (65)، وقد ورد ذكر عدد نواب الشام وأسماءهم عند الحديث عن إعادة إعلان الدستور في هذا الفصل، ويجدر الإشارة في هذا السياق إلى حرص الاتحاديين على أن يكون من نواب البلاد العربية أناس من العنصر التركي أيضاً⁽¹⁾، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، حيث فاز في تلك الانتخابات خمسة عشر نائباً من الأتراك في المقاعد المخصصة للعرب، منهم بعض النواب عن مقاعد نيابية لمناطق في بلاد الشام، مثل فؤاد خلوصي عن طرابلس الشام، ووضع الاتحاديون ثقلهم وحرصوا كل الحرص على تضيق الخناق على رموز التيار القومي العربي ممن اشتهر عنهم العمل السياسي والنشاط التنظيمي القومي، والعمل في مواجهة الحركة الاتحادية الطورانية، واستطاعوا من خلال متابعتهم المركزة لهذا الموضوع أن يقللوا فرص النجاح أمام رجال الحركة القومية العربية، إذ كان عدد الفائزين من هؤلاء الرجال عشرة نواب فقط، فاز من أبناء الشام من بينهم شفيق المؤيد ورشدي الشمعة عن دمشق، وروحي الخالدي عن القدس، وحافظ السعيد عن يافا، ومحمد أرسلان عن اللاذقية، وعبد الحميد الزهراوي عن حماة، وقد نجح هؤلاء رغماً عما بذلته جمعية الاتحاد والترقي ومؤيدوها وحكومتها من جهد وعرقلة⁽²⁾.

وفي مجلس الأعيان العثماني البالغ عدد أعضائه سبعة وخمسون عضواً (57)، كان عدد العرب قليلاً، أربعة أعضاء فقط، ثلاثة منهم من الأسرة الهاشمية في الحجاز، هم علي حيدر وناصر وجعفر، وواحد من أمراء الأسرة المالكة العلوية في مصر، التركية الأصل، وهو سعيد حليم، وعين فيما بعد إضافةً لهم نائب خامس عن بلاد الشام هو سليمان البستاني⁽¹⁾. وعلى مستوى الوظائف الحكومية والمناصب الإدارية في الدولة العثمانية، أنشأت الحكومة الاتحادية، وبايعاز من جمعية الاتحاد والترقي، وهما وجهان لعملة واحدة، لجاناً لتنسيق الموظفين في العاصمة العثمانية وفي الولايات، وكان العرب مستهدفين بالدرجة الأولى، ولحقهم من جراء ذلك حيف وغبن كبيران، حيث أخرج بحجة التنسيق ثلاثة عشر متصرفاً عربياً، وعين بدلاً منهم الأتراك⁽²⁾.

3- التتريك في الوظائف الحكومية.

ويلفت دروزة النظر إلى التحول الذي طرأ على الأوضاع الإدارية بعد استلام الاتحاديين السلطة مشيراً إلى تأثير ذلك على العلاقات العربية العثمانية، ومؤكداً على

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 297-298

- سليمان موسى، من تاريخنا الحديث، ص 12-13

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 299

(1) دروزة، المصدر السابق، ص 300

(2) دروزة، المصدر نفسه، ص 301

طبيب المعاملة من مؤسسة الخلافة للعرب، في بلاد الشام، دون ظهور أية إشارات أو تصرفات فيها تمييزاً للأتراك على العرب، وحدث عكس ذلك تماماً بعد تولي الاتحاديين السلطة، جاعلاً من مدينته نابلس مثلاً لبروز الفارق في المعاملة قبل الانقلاب الطوراني وبعده، يقول: "وأنا أعرف أن متصرفيه نابلس كان تعاقب عليها قبل الدستور متصرفون من العرب، فلم يعد يأتيها إلا متصرفون أتراك"⁽³⁾.

وفي الوزارات العثمانية بدا الشيء ذاته من حيث التمييز في الوظائف للأتراك على العرب بعد الانقلاب عام 1909م، يقول دروزة: "كان في وزارة الخارجية (12) موظفاً عربياً من أصل (600)، فأخرجوا جميعاً بحجة التنسيق، ولم يعين إلا عربي واحد، ولقد أصبح موظفو وزارة المالية بعد التنسيق (111) تركياً، و (13) يهودياً، و (10) من الأرمن، و (4) من الروم، و (1) من العرب، ومثل هذه التصفية جرت بدون ريب عن قصد وتصميم في الوزارات الأخرى، وفي المراكز المهمة في الولايات والألوية العربية، وظلت الأكثرية الكبرى من وظائف الدوائر الحكومية والألوية والأقضية على اختلاف أنواعها بما في ذلك الجيش والشرطة والدرك، باستثناء أنفار الشرطة والدرك - تُشغل من الأتراك، ونحن نعرف ذلك في نابلس، إذا ذهب واحد جاء بدلاً منه تركي، ولقد أرسل سنة 1909م إلى أوروبا بعثات لإتمام الدراسات العليا بلغ عددها (400)، لم يكن بينهم إلا عربيان"⁽⁴⁾.

4- تنريك التعليم واللغة.

نظر السلاطين العثمانيون منذ بدء العلاقات العربية العثمانية عام 1516م وحتى عام 1908م إلى العرب نظرة الاحترام والتقدير، وكانوا يسمون العرب "قوم نجيب"⁽²⁾ وكان العرب كمسلمين يعتبرون شركاء للعثمانيين في الحقوق والواجبات، وكانت الوظائف العليا في الدولة، سواء العسكرية أو المدنية مفتوحة للعرب، وقد سبقت الإشارة في هذا الفصل إلى موقع العرب في مجلس المبعوثان العثماني، وكان منهم رؤساء وزارات، ومنهم من وصل لمرتبة شيخ الإسلام أعلى منصب في الدولة العثمانية من الناحية الدينية، ومنهم من وصل إلى الرتب الأولى في الجيش العثماني كالفریق محمود شوكت الذي استجره الاتحاديون فانضم إلى جمعيتهم، ومن ثم حركوه كقائد للجيش العثماني في مقدونيا، ليقوم بالانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني،

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص301، الدجاني، الثورة العربية الكبرى، ص17-18

(1) دروزة، المصدر السابق، ص301

انظر: أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص28. وانظر: سعدون، الحركة الإصلاحية، ص22-23

(2) زين، نشوء القومية، ص27، فيضي، المذكرات، ص85

والفريق عزيز علي المصري، الذي قاد معركة برقة ضد الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911م، وكان تحت إمرته آنذاك عدد من أشهر قادة الاتحاديين، مثل مصطفى كمال وأنور باشا وجمال باشا⁽³⁾، وكان العثمانيون حتى الانقلاب الاتحادي ينظرون إلى الولايات التي يتكلم أهلها اللغة العربية نظرة إكرام لم ينظروا بها إلى سائر الولايات التي دخلت تحت السيادة العثمانية، والسبب في ذلك واضح، هو أن سكان الولايات العربية يتكلمون اللغة العربية، لغة القرآن الكريم وأكثرهم من المسلمين⁽⁴⁾.

5- التتريك الديني (محاربة الاتحاديين لإسلامية الدولة العثمانية).

وتساعد الصورة السابقة من معاملة السلاطين العثمانيين الحسنة والمنصفة للعرب في بيان سوء النهج والسياسة الاتحادية التي انتهجها التيار الطوراني، الذي تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلاب عام 1909م، إذ تبدو السياسة مغايرة تماماً لما كان عليه الحال قبل ذلك، وسرعان ما تبدل الحال تبديلاً جذرياً في نظرة الاتحاديين للعرب، وفي تصرفاتهم العنصرية معهم، والأمثلة والشواهد الواقعية كثيرة جداً، يشار إلى بعضها لتكون براهين عملية وأدلة دافعة تكشف نهج جماعة الاتحاد والترقي العنصري التتريكي الذي كان مغايراً تماماً لسياسة التآلف التي اتبعها الخلفاء العثمانيين خلال فترة حكمهم الطويلة للبلاد العربية مع هذه البلاد، وكان هذا التغيير المتعمد والمقصود فاتحة شؤم على العلاقات العربية العثمانية، أدخل الاتحاديون تلك العلاقات في مرحلة التأزم والصراع، فالاحترام والتقدير والرعاية العظيمة التي كانت ديدن العثمانيين، تحولت إلى الإساءة والغظة والإجحاف والظلم من قبل الاتحاديين، وأصبح العرب الذين كانوا في نظر العثمانيين قوم نُجُب، أصبحوا القوم العتيق في نظر الاتحاد والترقي، وسبب ذلك كما تقول جريدة القبلة تحت عنوان: القوم العتيق: (1) "إن الاتحاديين يسموننا نحن المسلمين الذين لم نوافقهم على زيفهم وإلحادهم باسم (القوم العتيق) ويسمون الذين وافقوهم على الإنسلاخ من هذا الدين كما تسلم الشعرة من العجين باسم (القوم الجديد) وترجع تسمية قوم جديد إلى كتاب طبعه الاتحاديون ووزعوا منه آلاف النسخ في بلاد الأناضول، ومحتواه عبارة عن مجموعة خطب كلفت جمعية الاتحاد والترقي أحد عملائها (وهو رجل أفغاني يدعى عبيد الله) بإلقاء مجموعة من الدروس في جامع أيا صوفيا في استانبول، يطعن فيها بالإسلام والمسلمين والعرب حملة رسالة الإسلام، ويؤول نصوص القرآن والأحاديث النبوية الشريفة تأويلات بعيدة كل البعد

(3) عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص15-17، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص307. داغر، مذكراتي، ص49.

(4) زين، نشوء القومية، ص26

(1) جريدة القبلة (سياسية تصدر مرتين أسبوعياً، مكة، لسان حال الشريف حسين بن علي) ع (1)، السنة الأولى، 15 شوال 1334هـ/1916م، ص3، ع8، السنة الأولى 10 ذي القعدة 1334هـ/1916م. ص1-2، شريط ميكروفيلم في قاعة الميكروفيلم، رقم (68)، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن. وانظر: زين، نشوء القومية، ص87، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص302

عن معناها الشرعي المقصود منها، وأوردت جريدة القبلة نصوصاً كثيرة منه مليئة بالتحريفات والإساءات للتدليل على حقيقته المنحرفة عن الإسلام والمسيئة له⁽¹⁾، وعلاوة على خطر هذا الكتاب على الإسلام والمسلمين، لكثرة التحريف فيه والتزوير وتشويه الحقائق، فإنه يحمل الدعوات الصريحة لأبناء الأتراك ولأجيالهم المقبلة للتعلق بتاريخهم وتقاليدهم القومية، وتبجيل رجالاتهم القدماء وتعظيم قادتهم الذين ثاروا على الخلافة وقاموا بالانقلاب على السلطان عبد الحميد، أمثال أنور وجمال وطلعت ومن معهم من المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي، وتعليق أسمائهم في المساجد بدلاً من أسماء الصحابة الكرام أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة عامر بن الجراح وطلحة وخالد بن الوليد وغيرهم من مشاهير الصحابة الذين حملوا الإسلام وفتحوا به البلاد الواسعة في الشام والعراق والمغرب وأفريقيا وغيرها من البلاد، وأوصل هؤلاء العظماء الإسلام إليها، كما أمر الاتحاديون أنصارهم كتابة أسماء ملوك الترك والتتار ورجالاتهم القدماء والمحدثين على جدران المساجد بدل أسماء الصحابة، وأن تقرن أسماء رجالات الترك بعبارات: صلى الله عليه وسلم، أو: رضي الله عنه، أو: عليه السلام، وينعتونهم بأنهم: أولياء الله، وكانوا يهدفون من تفسير القرآن وشرح الأحاديث النبوية تفسيراً وشرحاً بعيدين عن المعاني المقصودة منهما، تهوين شأن النصوص الإسلامية⁽²⁾، والاستخفاف بأداء الفرائض والعبادات من صيام وصلاة وحج وغير ذلك من أحكام الإسلام وأركانها، وتوجيه أبناء التورانيين الأتراك إلى تعظيم أمجاد أجدادهم، كبديل عن الإسلام وتاريخه وحضارته⁽³⁾.

ولما كانت اللغة هي الوعاء الذي يحفظ حضارة الأمة، سعى الاتحاديون ومنذ بدايات تسلمهم السلطة عام 1909م إلى محاربة اللغة العربية على المستويات كافة، وفي مجالات الحياة المختلفة، ففي مجال التشريعات والقوانين أصدرت الحكومة الاتحادية قانوناً حظرت فيه تسمية المنظمات الاجتماعية والأندية بأسماء قومية، وأخذت تتشدد في هذا الحظر في البلاد العربية، بينما غضت الطرف عن المنظمات القومية التركية، وزيادة على ذلك أخذت تشجع الجمعيات والمنظمات والتكتلات ذات الطابع العنصري التركي، مثل جمعية (ترك يوردي) أي البلاد التركية، وجمعية (ترك أوجاغي)، أي الكيان التركي، وجمعية (ترك درنكي) أي الثبات التركي، وكان تركيز هذه الجمعية بالدرجة الأولى بث الفكرة القومية التركية، والتخلي عن عثمانية الدولة، وجمعية (ترك بيلكيشي) أي العلم التركي، وقد اضطلعت هذه الجمعية بمهمة

(1) انظر: جريدة القبلة، ع (1) 5 شوال، السنة الأولى 1334هـ/1916م، ص3، ع (8)، (10) ذي القعدة، السنة الأولى، 1334هـ/1916م، ص1-2. الأسد، ناصر الدين، الثورة العربية الكبرى والأدب، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية ص168

- زين، نشوء القومية، ص87، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص302

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص302

- فيضي، المذكرات، ص87

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص302

- جريدة القبلة، ع (8)، 10 ذي القعدة، السنة الأولى 1334هـ/1916م، ص1-2 و: ع (3)، 22 شوال، السنة الأولى، 1334هـ/1916م، ص2

نشر الثقافة التركية، وجمعية (ترك كوجي) أي القوة التركية، وهذه جمعية رياضية تُعنى بتقوية البنية الجسدية للشباب التركي، وتتنحصر العضوية فيها على أبناء الأتراك فقط، ويشترط في طالبي الانتساب إليها من الأتراك أن يستبدلوا أسماءهم العربية بأسماء تركية محضة، سواء كان هؤلاء ذكوراً أو إناثاً، مثل أوغوز عوضاً عن محمد، كذلك تأسست جمعيات كشفية، كان الأولاد فيها يتسمون بأسماء طورانية، وكانوا في هتافاتهم يستعملون هتافاً طورانياً، ليعش خاقان الأتراك عوضاً عن لفظة باديشاه، وكانوا يحملون أعلاماً عليها صورة الذئب التركي، وكان أنور باشا يرعى هذه الجمعيات، وقد وصلت صورة بعض الأوامر الصادرة إلى الجنود الأتراك، وصلت إلى وزارة الحرب البريطانية، وتحمل هذه الأوامر تعليمات للجنود أن يذكروا (الذئب الرمادي) في صلواتهم، ويبدو أن الطورانية المتطرفة كان لها مكانة في نفوس قادة الطورانيين والمتأثرين بالثقافة الغربية من المثقفين الأتراك، ويؤكد هذا أيضاً ما تضمنه أحد المناشير الطورانية التي وجدت في صورة جندي تركي لدى مقتله في معركة المدينة المنورة بين جيش الثورة العربية وحامية المدينة، ويتضمن هذا المنشور: إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها (الأمة الإسلامية) التي ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص، هي في طريقها الآن إلى التفكك والزوال⁽¹⁾.

وقد لاقت هذه الجمعيات رواجاً وإقبالاً في المدن والقرى في أرجاء تركيا، وصار لها أندية انضم إليها الكثير من أبناء الأتراك، وتقتصر عليهم فقط دون غيرهم، وسرت في المجتمع التركي روح جديدة تتغنى بأمجاد الأتراك وقوميتهم، وتدعو للعودة إلى تاريخهم وتقاليدهم وتراثهم القديم، وإلى غرس روح الاستعلاء في شبيبة الترك، وانتشرت بينهم أناشيد قومية متطرفة تمجد أمجاد الترك القدماء، أمثال جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك، (مع أن هؤلاء من المغول وليسوا من الأتراك) ووصل الأمر إلى اعتبار جنكيزخان في منزلة ومكانة النبي صلى الله عليه وسلم⁽²⁾، وأنشدوا في ذلك:

جدمز جنكيزخان عقل ريزم جدمز جد الحسين معادل دربزم

وتعني ترجمة هذا البيت: جدنا جنكيزخان عاقل معادل لجد الحسين⁽³⁾ (يُقصد النبي صلى الله عليه وسلم). وسعى الاتحاديون، إضافة لإعادة الأتراك إلى قوميتهم، لتتريك العناصر البشرية التي تضمها الدولة العثمانية، وخاصة العرب، وتحويل هذه الدولة إلى دولة تركية بحتة، لا مكان فيها لعناصر عرقية أخرى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد

(1) زين، نشوء القومية، ص 89-90، القاسمي، آثاره، ص د، المقدمة، وانظر: سعدون، الحركة الإصلاحية، ص 23

- سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 90، فيضي، المذكرات، ص 86

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 303، بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص 191

- الشهابي، القومية العربية، ص 63

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 303، الشهابي، القومية العربية، ص 64

أصدر أحد قادتهم (جلال نوري) كتاباً عنوانه (تاريخ المستقبل) دعا فيه إلى تهجير أبناء بلاد الشام عن أوطانهم، ومعاملة بلاد اليمن والحجاز والعراق كمستعمرات تركية⁽⁴⁾.

كما هدفت الجمعيات التي أسسها التورانيون إلى تطهير اللغة التركية والآداب التركية من الكلمات والمصطلحات العربية، لأن اللغة العثمانية تكتب بحروف عربية، وتحتوي أكثر من نصف ألفاظها ومفرداتها كلماتٍ عربية، لا سيما وأن استعمال الأتراك اللغة العربية ضروري لهم ومهم في الحياة اليومية، لكونها لغة القرآن الكريم، ويتم أداء الفرائض والعبادات وتلاوة القرآن بها، كما يتخاطب الأتراك بها كمسلمين، ويستخدمونها في الدعاء والتسبيح وقراءة الأوراد، وعلاوةً عما سبق عمل الاتحاديون على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، من أجل إبعاد اللغة العربية عن ميادين الحياة اليومية للشعب التركي المسلم، ولا يتم لهم ذلك إلا بإقصائها عن ممارسة الشعائر الإسلامية، لإحكام تطويقها وإحلال اللغة التركية محلها، كما نقلوا معركة محاربة العربية إلى ميادين نشر الكتب وتأليف أناشيد، وأن تستبدل اللغة العربية في المجالات المذكورة باللغة التركية القومية المنقاة من المفردات العربية بشكل مقصود ومخطط له. وصار كُتَّابُهُمْ يُسْقِطُونَ أحياناً اسم الدولة العثمانية، الذي يرمز إلى دولة تضم عناصر عرقية عديدة مُكوِّنة لها، وستبدلونها بعبارة: الدولة التركية، ويُسمُّون العلم العثماني بالعلم التركي⁽¹⁾.

كل ذلك يجري بشكل مخطط له ومدير ضمن عملية التتريك التي يسير في تنفيذها الاتحاديون لإبعاد العرب عن الدولة العثمانية، وتجريد هذه الدولة من عثمانياتها وخلع ثوبها الإسلامي عنها، للانتقال بها بعد استكمال خطوات تتريكها إلى دولة تركية خالصة، كما أشير آنفاً بدلاً من دولة عثمانية كانت تضم مجموعة عناصر عرقية من بينهم العرب ومن ثم يتم سلخها من ماضيها التاريخي الحضاري الذي اشترك العرب مع العثمانيين تحت راية دولة الخلافة الإسلامية في تشييد صرحه، وفي الجانب الآخر كان الإكثار من إنشاء الجمعيات التركية يرمي إلى تكثيف عملية التتريك بين الأتراك للوصول بهم إلى قنوات جديدة تحقق هدفين في آن معاً، الأول: إيجاد حالة من النفور لدى العنصر التركي من العرب كأحد العناصر المكونة للدولة العثمانية، لإبعادهم عن بعض والانتقال بهذه الدولة إلى دولة تركية يحكمها ويديرها العنصر التركي لوحده، وتتريك كافة العناصر المشاركة في الدولة العثمانية بمن فيهم العرب، وإخضاعهم للقوانين التركية الجديدة التي تبرز الأتراك دون العناصر الأخرى في الدولة كساسة وقادة يحكمون سيطرتهم عليها، والثاني: إيجاد فجوة ثقافية وحضارية بين الأجيال التركية الجديدة وبين ماضيهم المرتبط بالحضارة والتاريخ المُشترَكَيْن مع العرب المسلمين، عن طريق إعادة تاريخ قدماء الترك وأجدادهم وعظمائهم إلى الواجهة وإبرازه وتمجيده كبديل عن التاريخ العثماني الإسلامي الذي ارتبط به العثمانيون في قرونهم الستة السابقة للانقلاب الاتحادي عام 1909م، ومن ثم إقناع الأجيال التركية

(4) دروزه، المصدر السابق، ص302، زين نشوء القومية، ص87

(1) دروزه، المصدر نفسه، ص304، فيضي، المذكرات، ص86

- وانظر: الزَّيْن، الثورة العربية الكبرى، ص18، طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص53-54

اللاحقة بأن حضارتهم وتاريخهم هي التاريخ التركي القديم غير المرتبط بالإسلام والحضارة الإسلامية، وبالتالي يبني هذا التاريخ مستقبلاً على أسس غير دينية، وهو ما يتلاءم مع الاتحاديين ويحقق أهدافهم العلمانية في سعيهم ومنذ أيام خلافة السلطان محمود الثاني جد السلطان عبد الحميد الثاني 1839م، إلى تكوين دولة حديثة على أسس علمانية، تحكمها القوانين المستمدة من الأنظمة الغربية، وتؤسس على النظام الجمهوري بدل النظام العثماني الإسلامي⁽¹⁾. وقد عمل الماسونيون العثمانيون الذين أطلق عليهم في البداية العثمانيون العثمانيون الجدد، ومن ثم عرفوا بعد ذلك برجال تركيا الفتاة في نهاية القرن التاسع عشر⁽²⁾، وخلفهم في تطبيق منهجهم ما عرف في مطلع القرن العشرين جمعية الاتحاد والترقي⁽³⁾، وهم جميعاً يسعون للإطاحة بالخلافة العثمانية منذ البداية، إلى أن وصلوا إلى تحقيق هذا الهدف في تنفيذ انقلابهم على الخليفة عبد الحميد الثاني عام 1909م، فبدأ جماعة الاتحاد والترقي بعد نجاحهم في استلام السلطة، القيام بتلك الحملة النشطة ولمدة استمرت حتى عام 1918م، في نزع الثوب الإسلامي المرتبط بالعرب عن الدولة العثمانية، وكأن هذه الإجراءات خلال العقد الثاني من القرن العشرين، فترة حكمهم للدولة العثمانية، في مجال تتريك الدولة وتحويلها إلى العلمانية⁽⁴⁾ تحقيق للحلم القديم الذي راود هذه الفئة منذ بدايات سعيها لتنفيذه، وهي في الوقت ذاته بمثابة الأساس والأرضية التي أكمل مصطفى كمال أتاتورك البناء عليها، وقام بالتغيير الجذري في قلب الدولة العثمانية وتحويلها إلى دولة علمانية، والقيام بمجموعة إجراءات في سبيل الوصول إلى ذلك، يتم الحديث عنها في الفصل الأخير.

وإلى جانب الإجراءات التتريكية التي قام بها الاتحاديون لإساءة العلاقات العربية العثمانية في سبيل قطعها، وتنفير الفريقتين بعضهم من بعض، أظهر هؤلاء الطورانيون الاتحاديون حقدهم على العرب والمسلمين وبغضهم لهم على شكل ممارسات يومية ومواقف حياتية، عايشها العرب وشعروا بمرارتها من خلال المعاملة السيئة التي يُعامل بها العرب عامة وأبناء بلاد الشام بشكل خاص⁽¹⁾، لكون التيار العربي القومي في بلاد الشام في موقع المواجهة المباشرة مع الاتحاديين، ولأن بلاد الشام تمارس فيها السياسة التتريكية بشكل واضح، لخضوع هذه البلاد لسلطة الاتحاديين أكثر من غيرها من البلاد العربية التي ما زالت تحت السيادة العثمانية حتى نهاية فترة حكمهم عام 1918م، ولذلك عانى أبناء بلاد الشام من ممارسات الاتحاديين وسوء معاملتهم إياهم، ويشير أحمد قدرى إلى بدايات نشوء النعرة الطورانية، وإلى

(1) انظر: السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص106، عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص27 - طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص54-55، سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص89 - كرد علي، المذكرات، ج2، ص623، جها، التنظيمات، ص125، 129

(2) جها، التنظيمات، ص116-118

(3) رامزور، تركيا الفتاة، ص39-43

(4) انظر: زين، نشوء القومية، ص88

(1) الحصري، البلاد، ص128-129

حقّد الاتحاديين على العرب، وإساءة معاملتهم لهم، يقول قدري: "حتى سيطرت النعرة الطورانية على الشبيبة التركية الاتحادية، لم يعودوا ينظرون إلى العرب كإخوان في الدين، بل كمُسْتَعْبِدِينَ مُسْتَعْمَرِينَ، وكان لا بد لهذه الروح العنصرية العنيفة من أثر تتجلى فيه، ... ثم شرع الاتحاديون يناهضون العرب، وإن أنس لا أنس حادثاً مَرَّ بي في الأستانة، وهو من أوثق الأدلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب، فبينما كنتُ أسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب إعلان الدستور، شاهدتُ جمهوراً غفيراً من الأهلين أمام ضابط يدعى سري بك، وقد قام يخطب فوق عجلة متغنياً بحسنات الدستور وأمجاده، ثم ما لبث أن انتقل إلى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين، كان يقول: " الخائن عرب عزة، والخائن عرب أبو الهدى⁽²⁾ ... الخ، وقد عجبْتُ أيما عجب لهذا التحامل المغرض، أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الأتراك؟! فَلِمَ لم يُنَدِّد الخطيب، بواحد منهم بمثل ما ندد بالشخصيتين العربيتين؟، وإذا كان يندد بهما لشخصهما، فَلِمَ يعمد إلى ذكر قوميتهما؟! حقاً لقد هزني شعوري القومي، وتعاطمتني العزة العربية، فانطلقت إليه وصديقي عوني عبد الهادي، ندفع صفوف الجماهير المزدحمة، حتى إذا ما وصلنا إليه، جابهناه باستنكار مزاعمه، وفي ملامحنا الغضب الشديد، وفي صوتنا نبرات مثل النار"⁽¹⁾ ويسرد دروزة مجموعة من الألفاظ والعبارات كان ذوو النعرة التورانية يرددونها ضد العرب، ويصفونهم بها تحقيراً لهم وامتهاناً لكراماتهم، يقول دروزة: "ولقد ظل العنصريون المتعصبون من الترك يصفون العرب بنعوت مهينة، مثل: (بيس عرب) أي العربي النجس، و: (سياه عرب) أي العربي الأسود، و: (جنكنه عرب) أي العربي الغجري، و(عقلز عرب) أي العربي السخيف"⁽²⁾، ويروي جمال باشا في مذكراته ما دار بينه وبين عزيز المصري في إحدى المساجلات الكلامية، وأن عزيزاً يذكره بسوء معاملة الاتحاديين للعرب في الأستانة، وبالألفاظ التي يستخدمها الاتحاديون في احتقار العرب، يقول له عزيز المصري: "إن العرب لعلّى حق فليت شعري ماذا صنعتُم أيها الأتراك لنا سوى سعيكم في إفنائنا وإهانتنا واحتقارنا، حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبنا؟! هل نسيتم أنكم في الأستانة إذا ناديتُم كلباً ناديتُموه بلفظة (عربي! عربي!!) وإن أردتم أن تصفوا شيئاً عويصاً غامضاً، قلتم إنه (يشبه شعر العربي؟) وكأنكم لم يكفكم كل هذا، فتعمدتم في اليوم التالي لإعلان الدستور إثارة خواطر العرب، أفلم تعينوا في الجيش السوري مشيراً من سلالة هولوكو، ورجلاً يحتقر بغداد والعراق، تترياً لآخلاق له ورسول الجحيم؟ إنكم تعلمون جيد العلم كيف يسخط العرب على التتّر؟ فليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا لقيادة الجيش الخامس إلا لإذلال العرب!!"⁽³⁾.

(2) يقصد أبا الهدى الصيادي مستشار السلطان عبد الحميد الثاني، وأحمد عزت العابد السكرتير الثاني للسلطان عبد الحميد.

(1) قدري، مذكراتي، ص 6-7

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 295-296

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 96-97

وفي الجانب الإعلامي أخذ رجال الاتحاد والترقي يشنون حملةً مركزةً ضد العرب تنضح بالحقد عليهم وتفيض بالتمييز ضدهم، وصدرت عن كُتَّابهم وصحفيهم تصريحات وأقوال غايةً في الإساءة، وإظهار العنصر التركي واستعلائه على العرب، من ذلك ما كتبه حسين جاهد في جريدة طنين الناطقة بلسان الاتحاديين، بعد شهور من إعلان الدستور، ومفاد ذلك: "أن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة، وأن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات أكسبها إياها حق الفتح، وأن ليس من إمكان ولا محل للاعتراف بحقوق مساوية في الدولة للعناصر الأخرى"⁽¹⁾.

ونشرت جريدة إقدام الاتحادية مقالةً بامضاء خليل حامد، طعن فيها بالعرب، وجاء فيها: "إن العرب بمقتضى طبيعتهم يبيعون بالمال كل شيء حتى أعراضهم"⁽²⁾ وقد ضرب هذا الاتهام على الوتر الحساس في نفسية العربي المسلم الذي تربي وجبلت نفسه على حماية العرض وفدائه بالمال والنفس عملاً بمقاصد الشريعة الإسلامية، متمثلاً بقول الشاعر:

أصون عرضي بمالي لا أدنُّسُهُ لا بارك الله بعد العِرض بالمال

فثارت ثائرة الشبان العرب في الأستانة، ودفعتهم ثورتهم على ما ذكرته الجريدة إلى مهاجمة مقرها، فرموها بالحجارة، وكسروا زجاج الشبابيك، ثم انبرت الصحف العربية في سورية والعراق وغيرهما إلى الرد على هذه المقالة، وأخذ الشعراء يهجون الاتحاديين وينددون -بأعمالهم ويفندون مزاعمهم، ويفخرون بفضل العرب على الترك، وبفضل اللغة العربية على اللغة التركية⁽³⁾، ومما قيل في الرد على مقالة جريدة إقدام قول يوسف حيدر البعلبكي:

(1) دروزه، نشأة الحركة العربية، ص300
(2) الأعظمي، أحمد عزت، القضية العربية (ج6)، نشر: مطبعة الشعب، بغداد، 1932م، ج1، ص102 .
- فيضي، المذكرات، ص86
(3) ناصر الدين الأسد، الثورة العربية والأدب، ص168، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية.

بها غُرَّة الأعراب قد أصبحت غرّاً
ولم يَدْرِ أن الويل من جهلهم طرا
عليهم وكل الأرض من فعلهم غُبرا
وفي الأتراك لم تنزل الذكرى
ونلتهم هدى الإيمان في فضلهم طرا⁽¹⁾

منازل كانت مهبط العلم والجَبَى
فقل لجهول راح يثلّم عِرْضَهم
فهل أمة التّرك أضحت غيورة
ولم يبعث الرحمن فيكم محمداً
خلافتكم كانت بقايا فخارهم

ونظم أمين ناصر الدين سنة 1910م قصيدة يرد فيها على جريدة إقدام،
يقول فيها:

ولهم على هام النجوم مقام
فلطالما ذم الكرام لئلام
لكن أعيد إليك وهو سهام⁽²⁾

أَنسَيْتَ قَدْرَ الْعُرْبِ يَا إِقْدَامُ
إِنْ أُسْرِفَ الْحُسَادُ تَنْدِيداً بِنَا
أَرْسَلْتَ يَا إِقْدَامُ سَهْمَ وَقِيعَةٍ

ويقول الشيخ فؤاد الخطيب في الرد على جريدة إقدام، مخاطباً القارئ عليها:

لكن فتحت جراحاً إذ فتحت فما
طعناً دراكاً أعاد الضَّغْنَ مضطرباً
تركيبية محضّة إلا إذا شَتَمَا
لا تحسبوا العُربَ في أوطانهم رَمَماً
هو الزمان الذي نرجو به نِعْماً
إن الهموم ستحيي بيننا الهمّما⁽³⁾

يَا رَبِّ (إِقْدَامُ) كَانَ الدَّاءُ مَنْحَسِماً
مَاذَا جَنَى الْعُرْبُ حَتَّى بَتَّ ثَوْبُ سِعْهُمُ
أَلَا تَرَى فِي الْفَتَى التُّرْكِي مَنْ شِيمِ
يَا عُصْبَةً فِي بِلَادِ (التُّرْكِ) طَاغِيَةً
إِنْ الزَّمَانُ الَّذِي أَوْلَاكُمْ نِعْماً
وَلَا تَظُنُّوا هُمُومَ الدَّهْرِ تُقْعِدُنَا

ومن القصائد التي تكشف عن مدى التحول في نفوس العرب من الموالات
والتعاطف مع الاتحاديين إلى الميل عنهم والتخلي عن تأييدهم قصيدة عبد الحميد
الرافعي، والتي ذكر فيها سبب مناصرة العرب في السابق قبل الانقلاب، يعود إلى
ولائهم لدولة الخلافة العثمانية وبطاعة الخليفة، يقول فيها:

مَا لَمْ يَلِ الْأَقْوَامُ أَجْناسُهَا
كَانَتْ تَلِي الْأَحْكَامَ أَقْداسُهَا
وَهُمْ مَدَى الْأَيَّامِ حُرَّاسُهَا
لِسَانُهُ حَتَّى التَّوَى فَاسُهَا⁽¹⁾

مَا تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَلَا نَاسُهَا
كُنَّا نَرَى طَاعَتَهَا عَصْرَ مَا
تَحْسِبُ أَنَّ الْعُرْبَ أَعْدَاؤُهَا
لَوْ تَأَلَّفَ الْقُرْآنُ مَا حَارَبَتْ

وتدفقت القصائد والمقالات والخطب كالسيل ترد على الاتحاديين ذوي النعرة
التورانية، وتبين فضل العرب ودورهم الفعال والجوهري في بناء الدولة العثمانية
وخدمة مؤسساتها وأهمية ذلك الدور في استمرار المحافظة عليها، واشتهرت في ذلك

(1) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص169

(2) ناصر الدين الأسد، المرجع نفسه، ص169-170

(3) الخطيب، فؤاد (ت1376هـ/1957م)، الديوان (ج2) نشر: دار المعارف، طبعة أولى، مصر، 1959، ج1، ص36-39.

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص319-321

الشهابي، القومية العربية، ص103

قصائد الزهاوي والرصافي والشبيبي ونجيب حدّاد ويوسف النبهاني وأمين ناصر الدين وفؤاد الخطيب، وغيرهم كثير من مفكري العرب وأدبائهم ممن حملوا راية الدفاع عن العروبة ضد التيار الطوراني القومي المتطرف⁽²⁾.

ومما ساعد على تأجيج الحمية الإسلامية في نفوس المسلمين العرب من أبناء بلاد الشام ما ورد في كتاب "قوم جديد" الذي سبقت الإشارة إليه آنفاً، حيث كان هذا الكتاب "أفصح معبر عن رأي الغلاة من الاتحاديين"⁽³⁾ وأثار حفيظة العرب المسلمين وأحدث ردة فعل عنيفة في نفوسهم، كما جاء في الأشعار المنقولة آنفاً، وبلغت الجراءة فيه لدرجة التهجم على صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، والتهكم بالعرب والمسلمين والاستخفاف بهم، والإنكار عليهم كيف يضعون أسماء الخلفاء الراشدين وأحفاد النبي صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين في لوحات فنية مزخرفة بصور جمالية أبدعها فن العمارة الإسلامية على جدران وقياب المساجد التركية، لأن هؤلاء من عظماء العرب المسلمين، يقول: "أليس عندكم من الخلفاء والرجال العظام من الترك مَنْ هم خير من أولئك العرب؟ انزعوا هذه الأسماء وضعوا مكانها أسماء عظام الترك ... ما هذا الجهل؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم أيها الناس؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم، وتتركون أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية"⁽⁴⁾.

وتنقل جريدة القبلة من كتاب القوم الجديد مقاطع تدل دلالة واضحة على أن الاتحاديين يتعمدون الإساءة للمسلمين العرب واستفزازهم من خلال نشرهم الأكاذيب والضلالات، وتحريفهم وبشكل مقصود نصوصاً من القرآن، من أجل إيجاد الفرقة والعداوة بين العثمانيين وبين المسلمين العرب، لأن المسلمين سوف يغضبون لحرمان الإسلام التي ينتهكها الاتحاديون، ولن يسكتوا عن الاعتداء على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية من خلال تعمد تأويلها تأويلاً بعيداً عن روحها ومقاصدها، وتورد القبلة مقاطع من هذا الكتاب، من ص 13، 14 منه، وتدل ترجمة تلك المقاطع أنها تثير مسألة بناء المساجد، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمنع بناء مساجد مقاربة وفي كل حي من الأحياء، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يرى أن المسجد الواحد يكفي لبضعة قرى وبذلك يقصد المحافظة على الاتحاد في الملة الإسلامية، ولذلك يرى الاتحاديون أنهم حسب هذا الفهم المنحرف لإعمار المساجد، عليهم أن يزيلوا ويهدموا كل الجوامع التي ليست من بناء السلاطين، وأن يحولوا أموال هذه الجوامع إلى النفقات واللوازم الحربية والعسكرية، وانتقل الاتحاديون من القول بهذا الفهم المنحرف إلى تطبيقه على أرض الواقع، فبدأوا بهدم التكية التي باعجة (منطقة داخل استانبول) فهدموها، وأنشأوا في مكانها خاناً للسكنى، واسم هذا الخان (برنو مرولو أوقاف

(2) انظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 308-334

- ناصر الدين الأسد، الثورة العربية والأدب، ص 162-171

(3) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص 168، وانظر: أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى (1 مج/3ق)، نشر: المكتب التجاري، بيروت، د.ت، ق 3، ص 31 .

(1) ناصر الدين الأسد، الثورة العربية والأدب، ص 168

خانجي)، وصارت وزارة الأوقاف تنفق ربيع هذا الخان على (دار البدائع) التي أنشئت في شهزاده باشي (مكان في استانبول) لتعليم فن الرقص وآلات الطرب وغيرها، وعلى (توران بسير خانه مي) أي: خمارة توران، وينقل فيضي مقطعاً آخر من كتاب "قوم جديد" للمدعو عبيد الله، للدلالة على ما فيه من التعمد المقيت في الإساءة إلى المسلمين والعرب، وطعنهم في عقيدتهم ودينهم وتاريخهم، يقول عبيد الله: "أيها الأتراك المسلمون كفاكم وهناً ومسامحةً، انفضوا عنكم هذا الغبار، وامسحوا من مساجدكم أسماء الخلفاء الراشدين وآل الرسول ممن لا يعنيكم أمرهم، واكتبوا بدلها أسماء الأبطال الفاتحين أمثال طلعت وجمال وأنور وجاويد، الذين هم أولياء الله الصالحين قَدَسَ الله سِرَّهُم ... أيها الأتراك إذا علمتم أن أحداً لم يجاهد في صفوف الاتحاديين بماله ونفسه فاقتلوه، أيها الأتراك علام هذه التكايا والمساجد الكثيرة في عاصمتكم، هلا بعتموها واقتصرتم على بعض المساجد الكبيرة، وقدمتم أثمانها لجيشكم العتيد ..."⁽¹⁾ ويؤكد فيفي أن كتاب عبيد الله، والكلام الأنف الذكر الوارد فيه كان سبباً في تأزم العلاقات بين العرب والاتحاديين "ومنذ ذلك الحين حمي الوطيس بين العرب والترك، وأصبح الشبان الأتراك المتحمسون ينظرون إلى الأقوام الخاضعة لهم نظرة ازدراء واحتقار، فأجابهم العرب بالتكتل والانتظام في جمعيات علنية أو سرية"⁽²⁾. وإزاء تلك الممارسات التوارنية والاعتداءات على عقيدة الأمة وإسلامها من قبل الاتحاديين وأعاونهم من غلاة الترك، حاول قادة الفكر وممثلو العرب وزعمائهم رَأب الصدع، والتقدم من الاتحاديين بروح التفاهم والتناصح، يحذرونهم من عواقب ممارساتهم العنصرية والنتريكية، وأن ذلك سيقود إلى الاقتتال والنزاع، ومن ثم إلى التباعد والقطيعة، وسعى النواب العرب أن ينبهوا على ذلك في مجلس النواب العثماني، وطالبوا بإيقاف أية ممارسات ضد العرب، وكانت الحكومة الاتحادية تأبى الرضوخ لمطالب العرب، وتزيد من مواقفها المتشددة ضدهم، وكانت أحياناً تعد وعوداً معسولة فيها تهذئة وحسن رغبة في الاستجابة حين تضطرها الظروف الداخلية والخارجية لذلك⁽³⁾، ثم لا تلبث أن تتراجع وتعود إلى أسلوب التجهم والتنكر للوعود، وإلى ممارسة سياسة التنريك، وتتهم النواب العرب في البرلمان العثماني بإثارة التفرقة والفساد والفتنة، وكانت النقاشات بين النواب والاتحاديين تحتدم لتصل إلى درجة الاشتباك والصفع، كما فعل مرة شفيق المؤيد بطلعت أحد أقطابهم في موقف من المواقف، حيث اتهم طلعت شفيقاً بالعمالة فصفعه المؤيد وألقاه أرضاً⁽⁴⁾ كما أثار شكري العسلي في سنة 1911م في مجلس النواب مسألة غمط العرب في الوظائف، وطالب بلسان الأمة العربية برفع هذا الغبن، فقوبل كلامه بالضجيج والصخب، ووصف بأنه مثير للنعرة العنصرية، وقد أيده بعض النواب وأثنوا عليه، فبادرت

(1) فيضي، المذكرات، ص87

(2) فيضي، المصدر السابق، ص87

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص305-306

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص306

جمعية الاتحاد والترقي للوقوف في موقف مضاد، وألّبوا ضده النواب العرب الموالين لهم، واعتبروا موقفه نابع من البحث عن مآرب شخصية، وأنهم يتصلون من ذلك⁽²⁾. وتأيداً لمواقف النواب العرب في مجلس النواب العثماني المستنكرة لسياسة الاتحاديين العنصرية، اجتمع الفريق عزيز علي المصري ومعه بعض الضباط والمدنيين من العرب، وكان عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، اجتمعوا بفريق من أعضاء هذه الجمعية من قادة الطورانيين، وتحدثوا معهم في خطورة الموقف بين العرب والاتحاديين، وأكدوا لهم حسن نيات العرب وإخلاصهم للدولة، وذكرهم بعدد العرب وتاريخهم وسعة بلادهم وقيمتها المادية والمعنوية بالنسبة للدولة، فسمعوا من أحمد أغايف ومن يوسف أكجورا كلاماً غاية في العنجهية والاستعلاء والغطرسة، يحمل كل الازدراء للعرب وانتقاصاً لمكانتهم ولموقعهم في الدولة العثمانية، كما لاقوا التجهم والتهجم من سائرهم، وتكررت مثل هذه المراجعات والتنبيهات من رجال آخرين في جلسات خاصة ورسمية، فكانت تقابل من غلاة الاتحاديين بالرد القبيح أو بالوعود التي لا تلبث أن تنقض⁽³⁾.

(2) دروزه، المصدر السابق، ص306-307

(3) دروزه، المصدر السابق، ص307

الفصل الخامس
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1908-1914م
"مرحلة تأزم العلاقات"



- التيار القومي العربي ودوره في ذلك.
أولاً: موقف العرب في بلاد الشام من سياسة التتريك الاتحادية.
- مدخل:

بلغت مماريات الاتحاديين وبرنامجهم التتريكي ضد العرب عامة وأبناء بلاد الشام بشكل خاص، حداً لم يعد أبناء هذه البلاد يحتملون تلك السياسة العنصرية التي بدأت تنتهجها جمعية الاتحاد والترقي بعد تسلمها السلطة عام 1909م، وكان العرب قد سلكوا المسالك السلمية وسبل التفاهم العقلانية والأخوية لإيقاف الاتحاديين عن تلك الأعمال التي يركبونها بحقهم ظناً منهم أن الحفاظ على العلاقات بين الطرفين واجب تقتضيه الأخوة بينهما، إن استجاب الاتحاديون لنداء العقل، وحفظوا للعرب مكانتهم في الدولة العثمانية، وأدركوا أهمية تلك المكانة، وقد مر في الصفحات السابقة بشاعة الممارسات التتريكية، وسوء المعاملة التي عامل الاتحاديون أبناء الشام بها، وفي المقابل أراد العرب في بلاد الشام حرصاً منهم على الدولة العثمانية التي يدينون بالولاء لها، نصيحة الاتحاديون في البداية ومحاورتهم، مبينين لهم تجاوزاتهم، تارةً بالنقاش معهم في مجلس النواب، وتارة من خلال الاجتماعات واللقاءات الجماعية والفردية، وأخرى عبر البيانات والصحف والمقالات، ولكن دون جدوى، وشعروا في النهاية أن لا فائدة من المكاشفة مع الاتحاديين بعد إصرارهم على تلك السياسة الحمقاء⁽¹⁾، ويمكن القول "إن فترة التعاون والتفاهم لم تدم طويلاً بين العرب والاتحاديين، برغم ما بذله العرب من جهود لإظهار إخلاصهم للعهد الجديد"⁽²⁾ لذلك كانت السياسة التتريكية ضد العرب في بلاد الشام حافزاً ومنتشطاً للشعور القومي في نفوس أبناء الشام، وتحركت فيهم وبقوة روح الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، ومن الجدير بالذكر هنا القول بأن الشعور القومي في فترة خلافة السلطان عبد الحميد كان بارزاً لدى فئة محدودة ومعينة من أبناء الشام، هم المفكرون والمتفقون ثقافة غربية⁽³⁾ ومع ذلك لم تطالب هذه الفئة بالاستقلال عن الدولة العثمانية، وإنما طالبت بإشراك العرب في إدارة الدولة، وأن تدار

(1) أنطونيوس، بقظة العرب، ص 113
(2) قاسمية، خيرية، الحكومة العربية في دمشق (بين 1918-1920)، نشر: دار المعارف، مصر، 1971م ص 18 .
(3) نجار، إبراهيم سليم (مؤرخ الثورة العربية)، الملك فيصل الأول، مطبعة الديور، بيروت، دبت، ص 3 .

بلادهم إدارةً لا مركزية، وسعوا إلى إصلاح الأوضاع العامة، مع تصريحهم بالولاء لدولتهم العثمانية، بينما في فترة حكم الاتحاديين بعد عام 1909م، ونتيجة للسياسة التتريكية، لم تعد مطالب العرب تقتصر على إصلاح شؤون الدولة، بل تحولت إلى المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية، وتوسعت دائرة المطالبين لتشمل الدعوة إلى الانفصال عن العثمانيين، لأن أبناء الشام بدأوا يدركون أن الدولة لم يبق لهم مكان فيها، لأنها لا تراعي مصالح بلادهم، ولا يهتم القائمين على الحكم فيها من الاتحاديين سوى مصلحة أبناء العنصر التركي فقط، وزيادةً على ذلك لم تجد نداءاتهم المخلصة للتمسك بالعلاقة بين العنصرين العربي والتركي آذاناً صاغيةً من جماعة الاتحاد والترقي، وأصمُّ الاتحاديون آذانهم وقلوبهم عن سماع صوت العقل في تجنب الدولة العثمانية الانقسام والتشرذم، وتعريض العلاقات العربية العثمانية للانهيار والانقطاع، وبات والحالة هذه أن لا سبيل أمام العرب الشاميين إلا التفكير بأساليب ووسائل جديدة يتم العمل وفقها لمواجهة سياسة التتريك التي دخلت مرحلة تغيير الهوية الحضارية للأمة العربية، خاصة في مجال اللغة، التي هي الصورة الحقيقية لشخصية الأمة، ولذلك توجهوا للعمل السياسي والعسكري المبني على أسس تنظيمية، وأخذ رجال الفكر والسياسة يؤسسون الجمعيات والأحزاب السياسية لتوحيد جهود الناقمين على سياسة التتريك واستنهاض إمكاناتهم لمجابهة جماعة الاتحاد والترقي بالسلاح نفسه⁽¹⁾، سلاح الوعي القومي وتعبئة الناس وإيقاظ الروح القومية فيهم وتهيئتهم لتقبل العمل الجماعي في كافة أنحاء البلاد، للرد على خطوات الاتحاديين التتريكية⁽²⁾، وتشير المصادر إلى أن الدول الأوروبية، خاصة بريطانيا، سعت في هذه المرحلة الحرجة من العلاقات العربية العثمانية، مستفيدة من جموح الاتحاديين نحو سياسة التتريك العنصرية ضد أبناء بلاد الشام، سعت إلى تأليب العرب الشاميين ضد الدولة العثمانية، من أجل زيادة النفور العربي منها، وتوسيع شقة الخلاف بين العرب والاتحاديين، وقد استخدمت بريطانيا في سبيل ذلك بعض النصارى من أبناء الشام لتوزيع المنشورات في مناطق الشام ومدنها،

(1) أنطونيوس، بقظة العرب، ص 115-116

(2) زين، نشوء القومية، ص 90، ستورادر، حاضر العالم الإسلامي، ج 4، ص 87-89

- طربين، التجزئة العربية، ص 139-140

تعرض الأهلين على الثورة ضد العثمانيين، والعمل لإخراجهم من بلادهم، ويذكر عودة القسوس، (من نصارى مدينة الكرك)⁽¹⁾ أن القنصل البريطاني في مدينة القدس استدعاه في عمان 1910م، وبدأ يحرضه على العثمانيين، ثم حَدَّثَ القنصل عودة بشأن عمه أفرام يوس، ووجه لعودة التهم واللوم على تسهيل عمه أفرام يوس مهمة الحملة العثمانية على الكرك، وأخذ ينصحه للعمل ضد الأتراك، وحث الناس في الكرك على الثورة ضدهم وطردهم منها"⁽²⁾.

ويتابع القسوس رواية ما حدث بعد لقائه القنصل البريطاني في القدس، يقول: ثم ودعته وذهبتُ إلى عمي أفرام يوس وأخبرته بما دار من حديث بيني وبين القنصل البريطاني، فأخذني عمي إلى البطريرك، وجعلني أروي إليه ما قاله القنصل، فطلب إليَّ غِبطته أن أعتبر الأمر سراً، وألا أبوح به لأحد مدة حكم الأتراك في الكرك"⁽³⁾.

ويكشف القسوس النقاب عن دور الاستخبارات البريطانية في التجسس على القوات العثمانية المرابطة في مناطق الشام، والتحريض ضد العثمانيين، والعثور على منشورات وزعتها الاستخبارات المذكورة في المنطقة الممتدة بين القدس وحتى المناطق الواصلة إلى الكرك، على طريق غور الصافي الكرك، كما عثر على رسائل مرسلة من عملاء في هذه المنطقة إلى القنصلية البريطانية في القدس، تتضمن أخباراً عن تركيبة حكومة ولاية الكرك، وعدد الجنود العثمانيين وأماكن وجودهم ومقدار الأسلحة التي يحملونها، وخلاف ذلك من الأخبار التي تتعلق بالحكومة"⁽⁴⁾.

(1) الكرك مدينة تقع جنوب بلاد الشام، وهي إحدى المحافظات الأردنية حالياً، تبعد عن مدينة عمّان جنوباً حوالي 140 كم، وفيها قلعة مشهورة كانت معقلاً للصليبيين عندما حرر صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس منهم، وفي الكرك أيضاً موقع معركة مؤتة المشهورة بين المسلمين والروم عام 9هـ، وفي الموقع نفسه أنشئت جامعة مؤتة حالياً. انظر:

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص453، البغدادي، مرصد الاطلاع، ج3، 1159
(2) القسوس، عودة، المذكرات، مخطوط (مضروب على الآلة الكاتبة) رقم (54)، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، دبت، ص47.
(3) القسوس، المذكرات، ص47
(4) القسوس، المصدر السابق، ص47

1- ثورة الكرك عام 1910م.

لا يمكن إطلاق وصف الثورة على الأحداث التي حدثت في مدينة الكرك عام (1910م)، لأن ما وقع في الكرك لم يكن سوى أحداث بسيطة وقعت بسبب علاقة الوالي العثماني بالأهالي وسوء تصرفه في قضية معينة، ولم تنجم هذه الأحداث عن نقمة على الدولة وسياساتها العامة، بل انحصرت هذه الواقعة في محيطها المحلي فقط، ولهذا عرفت في الوثائق العثمانية بالفتنة، وعَرَفَهَا أهل الكرك بـ **الهِبَّة**⁽¹⁾، وأراد الذين كتبوا عن تاريخ هذه الفترة من أبناء هذه المنطقة الشامية المعاصرين لهذا الحدث إعطاءه بُعداً قومياً ليظهره كثورة في وجه الدولة العثمانية، والواقع أن التوقيت الذي حدث فيه كان مشحوناً بالتوتر بين أبناء بلاد الشام وبين الاتحاديين الذين مارسوا في هذه البلاد كافة أساليب الاستعلاء والصلف والإذلال والاستعباد في فترة زمنية محدودة لا تتجاوز التسع سنوات، ولعل هذا كان مقصوداً من الاتحاديين وهو ما تم تفصيله فيما يلي من هذا الفصل.

وذلك لإعطاء صورة قائمة عن الدولة العثمانية، والإساءة المتعمدة إلى العلاقات الحميمة والوطيدة، التي حافظ على قوتها ومتانتها كل من السلاطين العثمانيين المسلمين وأبناء بلاد الشام، الذين قَدَّرُوا رعاية الدولة العثمانية لهم وحرصها على حسن العلاقة بهم طوال المدة الطويلة من حكم هذه الدولة لبلاد الشام، وقد لاقت السياسة التنريكية التي بنى الاتحاديون حكمهم عليها بعد الانقلاب على الخليفة عبد الحميد عام 1909م، من أبناء الشام معارضةً واستنكاراً ومقاومةً وصلت في بعض الحالات إلى الرد بالقوة على تلك الإجراءات الاتحادية، وما أحداث الكرك إلا شاهد عملي على هذا الرأي، إذ يروي القُسُوس - وهو من أقرب الرواة لهذا الحدث - أن أسباب هذه الواقعة ترجع إلى توتر العلاقة بين الوالي العثماني المعين من قبل الاتحاديين واسمه سامي باشا الفاروقي، وبين سكان منطقة حوران المسلمين وسكان جبل الدروز (المناطق الواقعة جنوب وغرب دمشق) بعد الصدمات التي وقعت بين أهالي حوران والدروز عام 1910م لأسباب عشائرية، ومقاومة الدروز للحملة التي جردتها الدولة لتهدة الأوضاع، ووقوع قتلى وجرحى، وما أعقب ذلك من تنفيذ أحكام إعدام وسجن لبعض المتسببين لتلك الأحداث⁽²⁾، فكان ذلك فرصةً كما تقول رواية القسوس: "اغتنمها الوالي سامي الفاروقي لتعداد النفوس وتطبيق قانون التجنيد الإجباري في المنطقة، وألقي القبض على كل من بلغ العشرين من العمر، (سن الجندية)، وأرسلوا إلى بلاد الروملي ليؤدوا خدمتهم هناك، فأحدثت هذه الإجراءات ضجةً واستنكاراً كبيرين في البلاد العربية المجاورة، ولما كان الحكم في لواء الكرك حديث عهد، ولم تطبق بحق الأهالي القوانين، لأن الدولة كانت تسير ظروفهم،

(1) أبو دَيَّة، سعد، في العلاقات العربية، العثمانية (ثورة الكرك 1910م)، نشر: مؤسسة رم للنشر والتوزيع، ط1، عمَّان، 1992، ص9-10.

(1) القسوس، المذكرات، ص56، وانظر: مجهول، ثورة العرب، ص27 - أرسلان، سيرة ذاتية، ص42، سلطان، تاريخ سورية (1918-1908م) ص111-113

وتراعي ما هم عليه من عادات وتقاليده، فخاف الناس على أبنائهم من الجندية، وخافوا من مسح الأراضي لما يجلبه من زيادة الضرائب عليهم، إضافة إلى رفض قَدْر المجالي شيخ مشايخ الكرك لعضوية مجلس إدارتها، كل هذه كانت أسباب ثورة الكرك⁽²⁾ وكانت هذه الحادثة مؤشراً على مستوى الغضب الشعبي في بلاد الشام على تصرفات الاتحاديين الهوجائية، التي خرجت عن المألوف من معاملة الدولة العثمانية لأبناء بلاد الشام قبل حكم الاتحاديين عام 1909م، تلك المعاملة التي اتسمت بالمسايرة والمرونة ومراعاة الظروف حسب ما جاء في رواية القسوس.

ويذكر أن الاضطرابات التي حدثت في الكرك قد امتدت إلى مدينة الطفيلة المجاورة لها، "فثار الأهليون على الموظفين الاتحاديين وعلى الجنود، غير أن شيخ مشايخ الطفيلة وقف في وجه الثوار وحافظ على حياة الموظفين والجنود"⁽³⁾.

إن الأزمة التي أوجدتها معاملة الاتحاديين لأبناء الكرك، ليست سوى واحدة من أزمت كثيرة بين العرب من أبناء الشام وبين الإدارات الاتحادية في بلاد الشام، خلال فترة حكمهم لهذه المنطقة كحكام للدولة العثمانية بكاملها والشام جزء منها، ومن المؤكد أن تكون هناك ثورات ضد الحكم الاتحادي في مناطق الشام، بسبب النقمة العامة التي ولدتها معاملة الاتحاديين وأنصارهم لأبناء هذه البلاد، لكن أقلام الرواة لم تأت على ذكرها، ولم تنتقلها إلينا.

2- اعتقال عزيز علي المصري⁽¹⁾ ومحاكمته.

ولدى الانتقال إلى الأستانة (استانبول) عاصمة الدولة العثمانية، نجد أزمة أخرى افتعلها رجال الاتحاد والترقي، وبالتحديد أنور باشا، تلك هي اعتقال عزيز علي المصري، ويرجع داغر سبب ذلك إلى "أن. الاتحاديين لما شعروا بقوة الفكرة العربية بين ضباط العرب، وانتشارها على أيديهم وأيدي شباب المنتدى الأدبي، عمدوا إلى

(2) القسوس، المذكرات، ص56-57، وعن تفاصيل تلك الأحداث، ص57-74

وانظر: كرد علي، المذكرات، ج1، ص 81-82

- وانظر: الرئيس، منير، (المذكرات)، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، نشر: دار الطليعة، بيروت، 1969م، ص26-30.

(3) القسوس، المذكرات، ص74

(1) عزيز علي المصري، أحد الضباط العرب في الجيش العثماني، وهو مصري الأصل، ولد في القاهرة عام 1880م، وحصل على البكالوريا (الثانوية العامة) ثم التحق بالكلية الحربية في فرنسا، ولم يكمل فيها فالتحق بالكلية الحربية في استانبول وتخرج منها، ثم التحق بكلية أركان الحرب عام 1905م، وانضم بعد ذلك إلى جمعية الاتحاد والترقي، شأن الكثيرين من رجال العرب وضباطهم الذين فتنوا بها لمطالبتها بالحرية الدستورية، وشارك عزيز المصري في الجمعيات العربية التي نشأت لمقاومة الاتحاديين بعد انكشاف عدائهم للعرب والمسلمين، مثل جمعية المنتدى الأدبي والقحطانية والعربية الفتاة وأخيراً جمعية العهد التي أنشأها بنفسه، كما شارك في عدد من الحروب منها الحرب العثمانية ضد إيطاليا عام 1911 لدى احتلال إيطاليا لليبييا، ومشاركته في الحملة التي قادها الاتحاديون ضد الحكم الزيدي في اليمن عام 1909م، وتوفي بالقاهرة عام 1965م.

- انظر: محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص10-27، داغر، مذكراتي، ص49-55

- الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص53-65، الزركلي، الأعلام، ج4، ص231

- مجهول، ثورة العرب، ص27، قدر، مذكراتي، ص14

- جمال باشا، المذكرات ص94-103، أنطونيوس، بقطة العرب، ص129

اتخاذ التدابير اللازمة لقتلها، ورأوا أن ذلك لا يتم إلا بالقضاء على عزيز المصري، لأنه رأس الحركة المفكرة وقلبها وساعدها، وكان عزيز قد قدم استقالته من الجيش بكتاب مؤرخ في 20 يناير/كانون الثاني سنة 1914م، أي عقب تولي أنور وزارة الحربية⁽²⁾ فسبب اعتقال عزيز عند داغر هو خوف الاتحاديين من تعاضم الشعور القومي لدى الشبان العرب وسعي هؤلاء الشبان للمطالبة باستقلال البلاد العربية، فأراد الاتحاديون محاربة نزعة الانفصال عند العرب والقضاء عليها مبكراً من خلال اعتقال الرؤوس المدبرة لذلك وتصفيتهم، وعزيز المصري من هؤلاء، ويمكن استناداً إلى رأي ذوي الاتجاه القومي كداغر ومن روى معه هذه الرواية منهم، اعتبار سبب الأزمة هو الصراع بين الفكر القومي العربي بنزعته الاستقلالية والانفصالية عن الدولة العثمانية، ويمثله الشبان العرب المستائين من رجال الاتحاد والترقي، وبين الفكر الطوراني ذي النزعة التتريكية العنصرية، ويمثله رجال الاتحاد والترقي الثلاثة المسيطرين على الدولة في هذه المرحلة، وهم أنور وطلعت وجمال، ومن يقف وراءهم من ذوي الفكرة الطورانية المتعصبة من رجال الاتحاد والترقي ممن يشاركون الثلاثة المذكورين في قيادة الدولة وفي جمعية الاتحاد والترقي. ونجد الاتجاه الآخر في النظرة إلى اعتقال عزيز المصري، والذي يروي رواية مغايرة للرواية الأولى، ويمثله جمال باشا أحد الزعماء الثلاثة في الاتحاد والترقي، يعزو جمال باشا اعتقال عزيز المصري إلى غيَرته من أنور باشا حين تولى هذا الأخير وزارة الحربية سنة 1914م وحسده له على ذلك، يقول جمال باشا: "ولما عين أنور في النهاية لوزارة الحربية أظلمت الدنيا في عيني عزيز بك، فإنه لم يستطع صبراً على أن يبقى وهو الذي كان زميلاً لأنور في المدرسة الحربية، وقام بأعمال نافعة، وأظهر قسطاً عظيماً من الوطنية، بكباشياً بسيطاً في هيئة أركان الحرب، بينما منافسه صار وزيراً للحربية، فأدى به الحسد إلى استنتاج هذه النتيجة السيئة، وهي أن اشتراكه في العمل مع الأتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجداً، إذاً فلتحيا الثورة العربية"⁽¹⁾ وبعد توضيح سبب اعتقال عزيز المصري، يكشف جمال باشا عن خطوة أنور باشا التي ألهمت الشعور العربي في الأستانة وفي البلدان العربية تجاه سياسة الطورانيين العنصرية، محاولاً تبرير هذه الخطوة، وإلقاء اللائمة على عزيز بك، يقول جمال باشا "وقد بلغت دسائس عزيز بك مبلغاً خطيراً حتى نفذ صبر أنور باشا، فأصدر أمره بالقبض عليه وأرسله للمحكمة العسكرية بتهمة اختلاس (30) ألف جنيه، سلمها له أنور قبل مغادرته طرابلس (طرابلس الغرب عاصمة ليبيا) بصفتها من أموال الحكومة"⁽¹⁾ وذكر أنطونيوس تهماً أخرى وُجِّهت لعزيز المصري وهي: "... وتهمة

(2) داغر، مذكراتي، ص49، الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص58-59

- مجهول، ثورة العرب، ص27

(1) جمال باشا، المذكرات، ص99-100 وانظر:

- جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص22

(1) جمال باشا، المذكرات، ص100، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص59-60

- برو، العرب والترك، ص461

تسليم بُرقة (في ليبيا) إلى الإيطاليين لقاء رشوة تناولها، وتهمة محاولة تأسيس دولة عربية في شمال أفريقية، وكلها تُهم بعيدة عن التصديق بعداً تاماً⁽²⁾ والواقع أن انتشار خبر اعتقال عزيز المصري مؤشر يقيس وتيرة العلاقة بين العرب والاتحاديين في هذه الفترة، ويدل هذا المؤشر في قياسه لمستوى العلاقات بين الطرفين أنها بلغت حد الانفجار، ولم تعد تحتل مزيداً من المؤثرات عليها، لأنها ذلك يدخلها نفق الصدّام والعداوة والقطيعة، فهي تكاد تدخل في هذا النفق، وهنا تتفق الروايات العربية مع رواية جمال باشا في تقدير دقة الموقف وخطورته بالنسبة للطرفين، فجمال باشا يؤكد أنه "ما كاد يذيع نبأ القبض على عزيز بك حتى علت الضجة بين الشبان العرب في الآستانة، وكنت يومئذ وزير العمل"⁽³⁾ وكان الاعتقال لعزيز بتاريخ الاثنين 9 شباط 1914م⁽⁴⁾، ويشير داغر إلى سبب الاعتقال وحيثياته فيقول: "وقبل أن يتلقى (عزيز) جواباً على استقالته بالرفض أو القبول، بعث إليه أنور طالباً مقابله في وزارة الحربية في اليوم التالي، ولما علم الضباط العرب بهذه الدعوة، ظنوا أنها مؤامرة ضد عزيز، فأشاروا عليه بعدم الذهاب، أما هو فأبى مطاوعتهم، وقال: إني لا أزال ضابطاً ما دام أن استقالتني لم تقبل، وذهب عزيز إلى وزارة الحربية ... وكانت مقابلة أنور له ودية، أتى فيها كل منهما على ذكر صداقته الماضية للآخر، وعرض ما يؤاخذه عليه، وقد حاول أنور أن يقنع عزيزاً باسترداد الاستقالة، ولكنه ظل مُصِرّاً عليها، كما أن أنور ظل مُصِرّاً على رفض قبولها، وتوجه (300) ضابط من الضباط العرب إلى وزارة الحربية ورابطوا في مختلف أنحاء، وقصدهم الدفاع عن عزيز إذا اقتضت الحالة، واتصل خبر اجتماعهم إلى وزارة الحربية أثناء وجود عزيز فيها، وأشاع إبراهيم ثابت (وكان يحب عزيزاً كثيراً) أن بإمكان عزيز أن يقلب الحكومة العثمانية حينما يشاء، لأن الجيش كله معه، وسمع بذلك طلعت وجمال وأنور فازدادوا شعوراً بخطر عزيز عليهم، وقرروا التخلص منه والقضاء على الفكرة العربية بالقضاء عليه، وأول ما بدأ به الاتحاديون لتحقيق هذه الغاية، إبعاد الضباط العرب من استانبول، فأرسلوا أكثر من (300) ضابط منهم إلى الأناضول وتراقية، ومثل هذا العدد إلى سوريا والعراق بعدما رفعوا رتبهم العسكرية إرضاءً لهم، بقي أمامهم عزيز، ففي يوم الاثنين (9) شباط فبراير 1914م، بينما كان خارجاً من فندق توكتليان دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي، وطلبوا إليه أن يصحبهم إلى مركز البوليس باستانبول"⁽¹⁾.

وهنا تتفق الرواية العربية مع رواية جمال باشا، يقول داغر: "وما كاد هذا الخبر ينتشر في العاصمة حتى قام له العرب وقعدوا، وذهبت وفود كثيرة منهم إلى مركز البوليس مستعلمين، فقابلهم المدير بكل اهتمام، وأفهمهم أن عزيز غير معتقل، وإنما

(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص131

(3) جمال باشا، المذكرات، ص100

(4) داغر، مذكراتي، ص50، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص60-61

- مجهول، ثورة العرب، ص48

(1) داغر، مذكراتي، ص50، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص60

- مجهول، ثورة العرب، ص48-49، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص19

هم يبحثون معه في الشؤون العسكرية التي قد يستغرق بحثها النهار بطوله⁽²⁾ ويتحرك قادة العرب وذوو الشأن منهم المقيمون في استانبول من كافة الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية آنذاك من العراق وبلاد الشام والحجاز، إضافة لمصر، على كافة الأصعدة لما تأكدوا من ثبوت اعتقال عزيز المصري وذهبوا إلى طلعت وجمال باشا وأرسلوا البرقيات الاحتجاجية إلى مكتب السلطان محمد الخامس يطالبون بالعفو عن عزيز المصري، وتتفق مرة أخرى الروايات العربية مع رواية جمال باشا في سرد ما حدث،⁽³⁾ إلى أن جاء موعد مأدبة في دار السفارة الفرنسية في العاصمة العثمانية استانبول، دعي إليها الوزراء وبعض السفراء الأجانب، وأثناء هذه الأمسية، كما يقول جمال باشا "خاض بعض الحاضرين همساً في مسألة الحكم على عزيز بك"⁽⁴⁾ وتدخل السفير الفرنسي قضية عزيز، كما تحدث حول الموضوع نفسه المسيو جورج ريموند المراسل الحربي لجريدة الستراسيون مع جمال باشا وقال له: "إني واثق من أنك تستطيع إنقاذ عزيز بك من العقاب الذي لا يستحقه"⁽¹⁾ وبعد ريموند تكلم مع جمال باشا "عدد من الفرنسيين والأتراك من عسكريين وملكيين يسألونه التدخل لمصلحة عزيز بك، ولم يكن من الصعب معرفة ما جال بخاطرهم من نظراتهم إلى أنور باشا (الذي كان موجوداً) فكانها تقول: ها هو الرجل الذي لا يتردد مطلقاً في إشباع سؤره الانتقام بالفتك بضابط جليل قاتل معه في طرابلس جنباً إلى جنب"⁽²⁾ وينقل جمال باشا في كتابه إيضاحات سياسية بلاغاً صادراً عن جمعية العهد أن بعض رجال بلاد الشام المقيمين في مصر من المنتمين للجمعيات العربية السرية في هذه الفترة توسلوا لدى كيتشنر القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة، "وأنه لولا الإنكليز لم يخرج عزيز المصري من القفص ... إنه نجا لا لأجل خاطر المسلمين، ولا إكراماً لعواطف العرب الذين لا تساوي خواطرهم وعواطفهم قرشاً واحداً في نظر هذه الدولة المنحوسة، بل لأجل خاطر رجل آخر لا يلبس طربوشاً ولا عمامة"⁽³⁾ ويسجل جمال باشا لنفسه موقفاً يعتبر نفسه فيه صاحب اليد الطولى في إطلاق سراح عزيز المصري، حين يقول: فأدركت في الحال أن الرأي العام كان أشد سخطاً على أنور باشا منه على عزيز بك فأصبح من الواجب عليّ أن أساجله البحث، وفوق ذلك رأيته أن عزيز بك من أشجع الثوار العرب وأكثرهم أمانة، فلهذا السبب اهتمت حقيقةً بإنقاذه، فلما عُذت إلى الدار كتبت خطابي لأنور باشا ... أرجو أن تبذل جهدك في الحصول على العفو الشاهاني عنه، وأنا أبعده عن الأستانة على ألا يعود إليها"⁽⁴⁾ ويزيد على ذلك داغر ببيان أن العرب بذلوا جهوداً مكثفة في سبيل الحصول على العفو عن عزيز المصري

(2) داغر، المصدر نفسه، ص50، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص62

(3) جمال باشا، المذكرات، ص100-101، داغر، مذكراتي، ص50-25

(4) جمال باشا، المذكرات، ص101، وانظر: مجهول، ثورة العرب، ص49

(1) جمال باشا، المصدر نفسه، ص101، الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص63، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص19

(2) جمال باشا، المذكرات، ص102، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص63-64

(3) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص23، أنطونيوس، بقظة العرب، ص132.

(4) جمال باشا، المذكرات، ص102-103، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص64

من السلطان العثماني محمد رشاد، وسجلت قصائد مشهورة أرسلت إلى السلطان تستعطفه للعفو عن عزيز من أشهرها قصيدة شوقي (أستاذ عزيز المصري) والتي يقول فيها:⁽¹⁾

ما انفك في جنب الهلال يسيل	بالله بالإسلام بالجرح الذي
إن الوثاق على الأسود ثقیل	هلا خللت عن السجين وثاقه
صنديد بُرقة مُوثَّق مَكْبُولُ	أيقول واش أو يُرَدَّد شاميت
ما كاد يُغمد سيفك المَسْلُولُ	هو من سيوفك أغموده لريبة
واستبقه إن السيوف قليل	فاذكر أمير المؤمنين بلاءه

يقول داغر: "وقد ترجم قصيدة شوقي إلى اللغة التركية الأستاذ فهمي المدرس، ورفعها إلى السلطان محمد رشاد السيد إحسان الجابري (شامي من حلب) الذي كان الأمين الثالث في البلاط السلطاني، فلما قرأها السلطان اغرورقت عيناه بالدموع، وقال بصوت متهدج: "واي أو غلم واي" أي: ما أشد ألمي يا بني"⁽²⁾ وعفا الاتحاديون بعد اشتداد الضغط عليهم وإدراكهم أن قضية عزيز المصري ستحدث شرخاً كبيراً في العلاقات العربية العثمانية، وألبسوا موقفهم هذا لباس عفو سلطاني من السلطان محمد رشاد، ليظهر الاتحاديون أن السلطان له سلطة يستطيع ممارستها، ويتخذ القرارات بناءً عليها، والواقع أنهم أصحاب السلطة الفعلية في الدولة العثمانية في هذه المرحلة حسبما رآها مورغنوتو حين عُيِّنَ سفيراً لبلده أمريكا في الدولة العثمانية، وعبر عن ذلك: "رأيت رجال الاتحاد والترقي جمال وأنور وطلعت في كرسي الحكم، وقد وضعوا أتباعهم في كل المناصب المهمة، فتمكنوا بذلك من أن يديروا الملك حسبما يشاءون تنفيذاً لمصالحهم الذاتية، وهكذا كانت حالة تركيا يوم وصلت إليها"⁽³⁾ ويصف جمال باشا حالة العفو عن عزيز المصري "وفي اليوم التالي أخبرني أنور باشا تليفونياً أن جلالتة أصدر عفوه عن عزيز بك، ثم حضر إلى أخوه وقد وصله الخبر ومعه جورج ريموند يشكراني، فأخبرته بوجوب سفر أخيه إلى مصر في الحال، وعدم التدخل مطلقاً في السياسة التركية"⁽⁴⁾. وغادر عزيز المصري استانبول إلى الإسكندرية في شهر إبريل عام 1913م، وركب القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، فاستقبل استقبالاً حافلاً بمظاهرة ضخمة من كافة الأعمار، وكان يوماً لا ينسى⁽²⁾.

(1) داغر، مذكراتي، ص55، وانظر تمام القصيدة: محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص18

(2) داغر، مذكراتي، ص55.

(3) مورغنوتو، المذكرات، ص8

(1) جمال باشا، المذكرات، ص103، وانظر:

- قُدري، مذكراتي، ص30

- الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص63

(2) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص19

ويؤكد داغر بعد الإفراج عن عزيز المصري أن النفوس العربية هدأت، لكن النية اتجهت إلى الشروع في عمل جدي في البلاد العربية ... ومضاعفة الجهود لاستعجال ساعة العمل الجدي وتهيئة الجو لها⁽³⁾.

ثانياً: اتجاهات الأحزاب العربية في بلاد الشام حيال السياسة الاتحادية.

أدرك رجال الحركة العربية في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية التي ما زالت تحت السيادة العثمانية بعد مرور فترة من الزمن على تولي الاتحاديين مقاليد الحكم في الدولة العثمانية، أن الاتحاديين ماضون في سياستهم التتريكية التي يمارسونها ضد البلاد العربية، وأنهم من أجل الإبقاء على تلك السياسة والاستمرار في تنفيذها، لا يتورعون عن عمل أي شيء تجاه التيار العربي المطالب بإصلاحات في مجال الإدارة في الولايات العربية، ويعبر الغُصَّين⁽⁴⁾ عن قناعات العرب في هذه المرحلة بقوله: "... لأنني كنت تحققت بنفسني أن الحكومة التركية وطدت العزم على البطش بشبان العرب وتشتيتهم وإبعادهم إلى المنافي، وحذرتني صديقي خالد بك الحكيم بأن أحد ضباط الأركان حرب في الجيش أسرَّ له عن برقية وردت من الأستانة لقيادة الجيش في دمشق، تقضي باتخاذ جميع الوسائل والطرق لتشتيت شبان العرب المؤمنين بقوميتهم، وتمزيق شملهم حتى والقضاء عليهم"⁽¹⁾.

والواقع أن المنتمين للحركة العربية في هذه الفترة لم يصدروا عن تصور مشترك في نظرتهم للاتحاديين، وفي تقييم العلاقة بهم، ولم يوحدوا مواقفهم فيما ينبغي عمله تجاههم وفي التعامل معهم مستقبلاً، يقول دروزة: "إن مواقف الواعين المنفعلين بالتيار السياسي والعربي من شباب العرب ورجالاتهم في هذه المرحلة إزاء ما بدر من الاتحاديين والعنصريين الترك وغير الرسميين من بوادر كانت متنوعة"⁽²⁾ لهذا يمكن تصنيفهم في فئات ثلاث رئيسية هي:

- الفئة الأولى: كانت متوجهة نحو الثورة دون تريث طويل، ودون النظر إلى ما بدر عن الاتحاديين من بوادر، لما رأوا من امتحان للعرب من قبل الاتحاديين، وغض لمكانتهم وحقوقهم في الدولة العثمانية عن قصد وتصميم، ويغلب على هذه الفئة قطاع

(3) داغر، مذكراتي، ص 54

(4) فائز بن زعل الغُصَّين ولد في اللجاة من أعمال حوران سنة 1883م، وحوران منطقة سهلية من أخصب سهول بلاد الشام، تقع في المنطقة جنوب وغرب دمشق حتى مدينة إربد في شمال الأردن حالياً، كان الغصين من أعضاء جمعية العربية الفتاة، وهو من وجهاء وقادة الدروز، تعلم بدمشق، وأدخل مدرسة العشائر في استانبول، وعاد فعين قائم مقام، وأقيل، واعتقل سنة 1915م بوشاية من أحد شيوخ عشيرة العنزة المجاورة لعشيرته في حوران، وسبق إلى ديوان الحرب العرفي في عالية بلبنان التي شكلها جمال باشا لمحكمة العرب الثوار هناك، ثم أطلق سراحه لبراءته، وهو شاهد عيان على الأحداث التي حدثت في هذه الفترة وله "مذكراتي عن الثورة العربية" دُون فيها الأحداث التي عايشها، لحق بفيصل بن الحسين وعمل معه، ثم عمل محامياً في العهد الفرنسي وبقي في المحاماة إلى أن توفي بدمشق عام 1968م. انظر: الزركلي، الأعلام، ج5، ص 125

=موسى، سليمان، وجوه وملامح (صور شخصية لبعض رجال السياسة والقلم)، نشر: وزارة الثقافة، طبعة أولى، عمان، 1980م، ص 87-96.

(1) الغُصَّين، فائز، مذكراتي عن الثورة العربية، نشر: مطبعة الترقى، دمشق، 1960م، ص 5.

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 335

الشباب أمثال عمر حمد ومحمد علي الأرمنازي والشيخ فؤاد الخطيب، ويشاركهم بعض متوسطي السن أمثال رشدي الشمعة وشفيق المؤيد وشكري العسلي وغيرهم.

- الفئة الثانية: تريتت لبعض الوقت، ظناً منها أن رغبتها في التريت قد تساهم في تحسين فرص التعاون والانسجام بين العرب والتبار الاتحادى، وتزىل ما علق في نفوس الطرفىن من تأثر ونفور، وتقوى أواصر الأخوة وشائج التقارب بينهم، لكن هذه الفئة ما لبثت أن شعرت بالصدمة من إصرار الاتحادىىن على تصرفاتهم ومعاملتهم السيئة للعرب فى بلاد الشام وفى غيرها، مما دفعهم للتخلي عن هذا التريت والانضمام للفئة الأولى، ومن أهم الشخصىيات التى مَثَلَت هذه الفئة الشيخ رشىد رضا وعزىز المصرى وعبد الكرىم الخلىل وعبد الحمىد الزهراوى وغيرهم⁽¹⁾.

- الفئة الثالثة: استمرت هذه الفئة فى التريت إلى نهاية فترة الاتحادىىن، على الرغم من كل ما بدر منهم من مظاهر السىاسة التبرىكية ضد بلاد الشام، بل وزىادة على السىاسة التبرىكية، ما قام به الاتحادىون تجاه عرب الشام من إجرأات قمعية وملاحقات ومطاردات واعتقالات وإعدامات، ووصل الأمر ببعض شخصىيات هذه الفئة إلى درجة الشماتة بمن أعدمهم جمال باشا بسبب نشاطهم ونزعتهم الاستقلالية والانفصالية، والتصرىح بتأىىد جمال باشا فى خطواته تلك، واعتبار عمله صواباً ومشروعاً ومبرراً⁽²⁾، وذهاب وفد منهم إلى الأستانة بعد إعدامه الدفعة الأولى من نشىطى القومىىن العرب فى بلاد الشام من أجل تأىىد جمال باشا فى إجرأاته، وتحمىل المندفعىن فى العمل القومى مسؤولىة ما حدث من إعدامات، باعتبار الأشخاص الذىن أعدموا فى دمشق وبرىوت كانوا يبحثن عن منافع شخصىة، وعن مناصب ومطامع قادتهم للتعامل مع أعداء الدولة العثمانىة، والارتماء فى أحضان فرنسا وبرىطانيا ضد بلادهم ودولتهم، واتهامهم بالعمالة لهذه الدول، ومن أبرز شخصىيات هذه الفئة الشيخ أسعد الشقىرى الذى كان من المقربىن من جمال باشا، وعبد الرحمن البرىسفى والأمىر شكىب أرسلان والشىخ عبد العزىز الشاوىش وغيرهم، وكان رجال هذه الفئة يستندون فى موقفهم إلى اعتبار أن الاتحادىىن لم يكونوا جمىيعهم معادىىن للعرب، بل يوجد بىنهم من كان من أنصار استمرار العلاقات العربىة العثمانىة، والاحتفاظ بالإخاء العربى العثمانى، مع إمكانية استمرار التعاون والتعاىش بىن العنصرىن العربى والتركى فى إطار الدولة العثمانىة التى تجمعهم، والعمل على إعطاء العرب حقوقهم، ومساواتهم بالأتراك فى مرافق الدولة جمىيعها، فكان رجال الفئة الثالثة يتعللون بهذا الرأى، إضافة إلى تبرىر موقفهم بأن الانفصال عن الدولة العثمانىة والابتعاد عنها، يعرض البلاد العربىة للهمىنة الاستعمارىة الأوربىة، خاصة فرنسا وبرىطانيا، وأن على العرب فى بلاد الشام وغيرها من البلاد العربىة التى تظللها الدولة العثمانىة فى هذه المرحلة، أن يعززوا مواقف المعتدلىن من رجال الاتحاد والترقى، الراغبىن فى المحافظة على العلاقات العربىة العثمانىة، ضمن إطار الرابطة التى تجمع هذىن العنصرىن، مع

(1) دروزة، المصدر السابق، ص336

(2) دروزة، المصدر نفسه، ص336

حض الجانب العربي على قبول عروض الاتحاديين المستجيبة للمطالب العربية، حتى وإن كانت هذه العروض دون طموح التيار القومي العربي، ولم تستجب لجميع مطالبه، على اعتبار أن ما يحقق من المطالب العربية يعد خطوات جيدة قابلة للتطوير والتحسين لاحقاً⁽¹⁾.

لقد ابتداء التيار القومي العربي بفئاته الثلاث السابقة ينظر للاتحاديين نظرة جديدة، عقب الممارسات التعسفية الكثيرة، والتي شملت جوانب الحياة المختلفة، حيث تمادى الاتحاديون في تطبيقها على بلاد الشام، وهذه الفئات، وإن تتابعت في سلوك طريق الخروج عليهم، لكنها ومنذ الفترة الأولى للعمل بالسياسة التتريكية، عقب بدء العمل بالدستور ثمانية عام 1908م، تأكدت أن لا مناص من الوقوف في وجه الاتحاديين، وأيقنت أنهم يعملون بشكل عدائي متعمد ضد العرب وبلادهم للوصول لأهداف سبقته الإشارة إليها في سياق الحديث عن سياسة التتريك، ولذلك صمموا على اختلاف فئاتهم على رفض السياسة التتريكية والوقوف في وجهها، لكن اختلفوا في الأسلوب وفي تحديد بدء تحركهم ضد تلك السياسة، فالفريق النافر من الاتحاديين والمتحمس للعمل ضدهم من البداية، سارع إلى تشكيل الجمعيات والأحزاب السرية والعلمية، لتحويل موقفه إلى عمل يكرسه لصالح بلاده وبني قومه، يدفع عنهم عوادي الاتحاديين، ويبرز ما بات يعرف في هذه المرحلة بـ القضية العربية⁽²⁾ وأما الفريق الآخر من المترشحين، فآثروا العمل على إصلاح ذات البين بين العرب والاتحاديين، ظناً منهم أن التنسيق مع المعتدلين من جماعة الاتحاد والترقي من أجل تنبيه الغلاة منهم على خطئهم للرجوع عن عدائهم للعرب، كي يتم تجنب الدولة العثمانية ويلات التمزق، ويرد عنها كيد الدول الاستعمارية، إضافة للحفاظ على هوية البلاد العربية واستقلالها، خوفاً من وقوعها فريسة الأطماع البريطانية والفرنسية، وقد تمسك هذا الفريق بموقفه إلى حين إلغاء الخلافة على يدي أتاتورك، وفيما يلي يتم التطرق إلى أهم الأحزاب والجمعيات العربية التي أسسها أبناء بلاد الشام، سواء في بلادهم أو في العاصمة العثمانية، في هذه المرحلة من العلاقات بينهم وبين الاتحاديين قادة الدولة العثمانية، في الفترة بين عامي 1908-1916م لخدمة ما بات يعرف في هذه المرحلة بالقضية العربية، وللدفاع عن بلادهم وحفظ هويتها العربية الإسلامية ضد الهجمة التتريكية التي استهدفت الوجه الحضاري العربي الإسلامي لها، ولا بد من الإشارة إلى أن المنذفين في العمل القومي العربي في إطار التنظيمات والجمعيات العربية لمقاومة سياسة التتريك، كانوا قسمين متباينين تبايناً واضحاً في المواقف والتصورات والآراء، قسم من العرب المسلمين الذين دفعهم حرصهم على بلادهم وعلى قومهم وإخلاصهم لهم، إلى تعريض أنفسهم لمخاطر العداء للاتحاديين والوقوف في وجوهم، وبالتالي وقوعهم في مصيدة محاكمهم العسكرية واعتقالهم والتتكيل بهم، وقسم ممن سار معهم نحو الهدف نفسه من نصارى بلاد الشام، ممن دفعهم عداؤهم

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص336-337

(2) داغر، مذكراتي، ص18، قنري، مذكراتي، ص7

للدولة العثمانية حاملة لواء الإسلام، وانغماسهم في بؤرة الولاء لروحهم الصليبية، إلى الارتقاء في أحضان الأم الرؤم، الدولتان الحاملتان للصليب في وجه العالم الإسلامي فرنسا وبريطانيا⁽¹⁾، والتواطؤ معهما ضد الدولة العثمانية، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن جمعية بيروت الإصلاحية، ومع تباين موقفي القسمين السابقين، وجد بينهما قاسم مشترك للعمل معاً ضد السياسة الاتحادية والوقوف في وجهها، وكانت نقاط الالتقاء والاختلاف بينهم بادية للعيان، بحيث اختلفوا عن بعض عندما وصل الأمر إلى نقطة تقرير مصير البلاد الشامية قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى عام 1918م، وخروج العثمانيين من بلاد الشام، وهو ما يأتي بيانه في الفصل السادس، وكان تشكيل الجمعيات والأحزاب العربية في بلاد الشام وفي غيرها تعبيراً صريحاً عن بدء تكتل العرب العلني ضد الاتحاديين كما يقول دروزة⁽²⁾، ولكن هذه الجمعيات منها ما هو مع استمرار العلاقات العربية العثمانية، من أجل تحقيق الوفاق والوئام بين العرب والتيار الاتحادي المتحكم بالدولة العثمانية في هذه المرحلة، وإزالة ما علق في النفوس العربية جراء الممارسات الاتحادية، ومنها ما يدعو إلى قطع تلك العلاقات، وإلى الانفصال بين العرب والعثمانيين، وأنها تأسست لتجميع العرب في إطار عمل منظم لمقاومة الهجمة التتريكية المكثفة على بلاد الشام، ويمكن القول إن هذه الجمعيات نظراً لمشربها الفكري واتجاهها السياسي ومطلبها الذي ترمي بلوغه يأتي تصنيفها كتيار مؤيد أو معارض لاستمرار العلاقات العربية العثمانية في اتجاهات ثلاثة يأتي الحديث عنها بالتفصيل.

1- الاتجاه التوفيقى المؤيد لاستمرار العلاقات العربية العثمانية.

ويضم هذا التيار العديد من الجمعيات والتكتلات العربية التي تشكلت في فترة الحكم الاتحادي، وأرادت التوفيق بين الحركة العربية الساعية للانفصال عن الدولة العثمانية وبين جماعة الاتحاديين، ويرى هذا التيار أن الأواصر العديدة والمتينة التي تربط الجانبين العربي والعثماني كقيلة بجمعتهما والحفاظ على ما بينهما من علاقات قوية دامت قرابة أربعة قرون، وأنه يجب العمل على معالجة مشاكل الدولة، ولا سيما اللامركزية الإدارية في الولايات العربية من خلال التفاهم والتعاون بين العرب والعثمانيين، والعمل على إذابة النزعة القومية التي تتهدد كيان الدولة العثمانية بالتفكك والانحلال، ومن أهم الجمعيات التي مثلت هذا التيار:

أ- جمعية الإخاء العربي العثماني.

جاء تشكيل هذه الجمعية بعيد إعلان العودة إلى العمل بالدستور الذي وضعه مدحت باشا، وبدء بتطبيقه عام 1876م في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ثم عُطِّل في العام الذي تلاه 1877م، ولهذا فرح العثمانيون عرباً وأتراكاً بإعلان العمل بهذا الدستور عام 1908م بضغط من جماعة الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد

(1) سَلَام، المذكرات، ص 22-23
(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 350

كمخرج من المأزق في العلاقات بينه وبينهم⁽¹⁾، وكان الارتياح العربي لإعلان الدستور مؤقتاً، حيث سار العرب مع الاتحاديين وأيدوهم في إسقاط السلطان عبد الحميد، ظناً منهم أن الأزمة التي تعاني منها البلاد العربية من النواحي السياسية والاقتصادية وغير ذلك تنتهي بتغيير وجه النظام وخلع عبد الحميد، وتشكيل حكومة دستورية تتمتع بالتعددية السياسية، ويشارك فيها العرب الاتحاديين كعناصر بشرية ذات فعالية في إدارة البلاد، إلا أن إسفار الاتحاديين عن حقيقتهم العنصرية ضد البلاد العربية، جعل قادة الفكر والمهتمين بالشؤون السياسية من العرب وطلعتهم العرب الشاميين من مسلمين ونصارى يتوجهون توجهاً جديداً، وانقسموا في توجههم ذلك ما بين مؤيد ومعارض لاستمرار العلاقات بين العرب والعثمانيين، وتعد جمعية الإخاء العربي العثماني أولى الجمعيات التي عبرت عن ردة الفعل العربية ضد الاتحاديين، من حيث تركيزها على تماسك اللحمة العثمانية تحت راية الخلافة، دون التأثير بمواقف الاتحاديين العنصرية التتريكية المعادية للعرب، وهذه الجمعية يظهر من اسمها أنها متمسكة بالعلاقات العربية العثمانية، وقد تأسست في الأستانة في 6/ شعبان 1326 هـ/ الموافق 2/ أيلول 1908 م على أيدي نخبة من رجالات العرب كانت أغليبيتهم من بلاد الشام، وفيهم بعض العرب من غيرها، واشتهر من أسماء المؤسسين لها من غير بلاد الشام كل من أحمد ظافر وعبد الله الحيدري وعمر أشرف ومحمد عبود ويوسف شتوان، والشريف جعفر ومنشي أفندي، وعرف من العرب الشاميين كل من زكي مَعَاظ وشاكر الأتاسي وشبيب الأسعد وشفيق المؤيد العظيم وشكري الأيوبي وشكري الحسيني وصادق المؤيد العظم وعارف المارديني، وندره المطران وعبد الكريم الخليل ومحمد المخزومي، وغيرهم⁽²⁾.

ويشير قدرى إلى أن بدايات التفكير بهذه الجمعية كان للرد على الاتحاديين الذين امتنهنوا العرب والعروبة "ونحن العرب لم نكن نتوقع في حال أن يستغل الدستور للتحامل على وطنيتنا وقوميتنا، لذلك اندفع المثقفون الواعون يفكرون في الطريقة التي تساعدنا على الاحتفاظ بكرامتنا، ولما أن رأوا أن العنصر الأرمني يشرع بتأسيس النوادي والجمعيات الخاصة به، ويجاريه في ذلك الأروام والأرناؤوط وغيرهم، شعروا بالتبعة التي تحفزهم إلى التطرّيز على منوال غيرهم وترسم آثارهم، حفاظاً على عروبتهم من جهة، ثم برهنةً على أنهم ليسوا دون غيرهم استعداداً وطموحاً، وقد لاقى هذا الشعور صده القوي في الأوساط العربية، فاغتنتمه فريق من ذوى المقامات

(1) قدرى، مذكراتي، ص7، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص350

- أنطونيوس يقظة العرب، ص116، الشهابي، القومية العربية، ص68، قلججي، الثورة العربية، ص88

- زين، نشوء القومية ص90، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص3، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص135-136

- عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص243

- الجميل، تكوين العرب الحديث، ص516

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص352-353، جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص8-9

= أنطونيوس، يقظة العرب، ص109، ص116-117

- قلججي، الثورة العربية، ص88، الجميل، تكوين العرب الحديث، ص517 ج

الرفيعة وأهل الرأي من رجالات العرب في عهد عبد الحميد، وأسسوا جمعية أطلقوا عليها الإخاء العربي، على أن تكون غايتها عون جمعية الاتحاد والترقي في الحفاظ على أحكام الدستور، وجمع كلمة جميع الملك التي تظللها الراية العثمانية، دونما نظر إلى الفروق الدينية والجنسية، والسعي إلى تأييد العدل والحرية والمساواة بين جميع هذه العناصر، وإزالة الحقائد والضغائن بينها⁽¹⁾، فكانت هذه الجمعية أول عمل سياسي علني منظم بعد إعلان دستور 1908م⁽²⁾، وقد تزامن تأسيس هذه الجمعية مع افتتاح سكة حديد الحجاز رسمياً في شهر سبتمبر أيلول 1908م، واحتفل ببلوغ هذا الخط المدينة المنورة، كما تزامن مع تعيين الشريف حسين بن علي أميراً على مكة المكرمة⁽³⁾.

ويضيف قدري إلى أن هذه الجمعية حرصت في سعيها نحو أهدافها "ألا تظهر بالمظهر الذي يشتم منه أي عداء للحكم القائم، وألا تغفل من برنامجها العمل لإعلاء شأن الأمة العربية في كافة مرافقها الحيوية، فمن الناحية الفكرية تهتم بنشر العلوم والمعارف بين أبنائها، وتأسيس المدارس وإصدار الجرائد، ومن الناحية الاقتصادية ستعتمد إلى رفع المستوى الاقتصادي بين السكان، وذلك بالقيام بالمشاريع الاقتصادية وتنمية الثروة القومية"⁽¹⁾ ويقدم محافظة أهدافها على شكل نقاط محددة بالشكل الآتي:

- 1- المحافظة على القانون الأساسي، ووقيته من كل خلل.
- 2- تفهيم أبناء العرب وسائر العثمانيين أن الوطن العثماني لا يقبل التجزئة ومقاومة التفرقة.
- 3- تمتين الروابط بين العرب وسائر الأقوام العثمانية.
- 4- التمسك بالعرش العثماني والإخلاص لمقام الخلافة الإسلامية.
- 5- السعي لإعلاء شأن العرب والعربية ضمن الجامعة العثمانية، وإعطاء أبناء العرب حقهم بالوظائف والمناصب وغير ذلك من الحقوق المشروعة التي منحهم إياها الدستور.
- 6- السعي لنشر المعرفة بين أبناء العرب، وذلك بتأسيس المدارس وطبع الكتب والرسائل والصحف.
- 7- حث أبناء العرب على التعاون مع سائر العثمانيين لتأسيس الشركات التجارية والصناعية والزراعية⁽²⁾.

وقد نالت هذه الجمعية تأييد الطلاب العرب الدارسين في استانبول في هذه المرحلة، لرفعها شعار رفعة العرب، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة استكناه حقيقة الشخصيات المنتسبة إليها، والبحث فيما إذا كانوا جديرين حقاً بالاضطلاع بمهمة خدمة العرب⁽³⁾.

(1) قدري، مذكراتي، ص 7-8، سعيد، أمين (ت 1387هـ / 1967م)، الثورة العربية الكبرى (2ج)، نشر: مطبعة عيسى الحلبي، مصر، د. ت، ج1، ص 7.

(2) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 136.

(3) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 109.

(1) قدري، مذكراتي، ص 8.

(2) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 136، قلجي، الثورة العربية، ص 88-89.

وقد لاقت هذه الجمعية إقبالاً كبيراً عليها في بلاد الشام، ويذكر دروزة أنها حين عقدت اجتماعها الأول العام في مسرح بك أوغلي في استانبول، وحضره النواب والأعيان العرب المشاركون في مجلس المبعوثان العثماني، ألقى بعضهم الخطب المشيدة بها، ودعوا إلى إنهاء العرب، ثم افتتحوا نادياً يحمل اسمها، وجريدة تنطق بلسانها، وأنها أسست لها فروعاً في بلاد الشام وفي العراق، وجمعت لها التبرعات، وعاضدتها الصحف الشامية والمصرية والعربية في أمريكا⁽¹⁾ وكانت المقالات التي تنشر في جريدتها تنحو نحو ترسيخ فكرة الاستقلال العربي، وأنها أعطت عبد الغني العريسي بعض المال لينشئ به جريدة المفيد في بيروت⁽²⁾.

وانسجاماً من جمعية الإخاء العربي العثماني مع الهدف الذي أنشئت من أجله وهو تمتين العلاقات العربية العثمانية، فقد كان لها تأييد واضح للتيار المتمسك بهذه العلاقات من أنصار الخلافة العثمانية ومن المؤيدين للخليفة عبد الحميد الثاني، لأن جميع أعضاء هذه الجمعية من المؤمنين بالرابطة العثمانية، وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون لهؤلاء الأعضاء موقف من أحداث خلع السلطان عبد الحميد، حيث أطلق القوميون العرب على أحداث 31/ مارس آذار 1909م، التي يرجح أنها من تدبير الاتحاديين وافتعالهم من أجل اتخاذها ذريعة ليطبقوا على العاصمة العثمانية بقواتهم المتمردة ذات الجاهزية العالية لتنفيذ الانقلاب وإسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني، أطلقوا عليها اسم الحركة الارتجاعية⁽³⁾، وقصدوا بها ما نسب إلى أنصار الخلافة من تحرك عسكري من أجل القضاء على التمرد الذي يقوده الاتحاديون، وكان المأخذ على هذه الجمعية من رجال الاتحاد والترقي أنها أيدت الحركة الارتجاعية، ولما كانت سياستهم تقوم على التكرار لصلات القربى بين أبناء الرابطة العثمانية من عرب وعثمانيين، وتسعى لقطع العلاقات بين هؤلاء الإخوة، لأنها تعتبر أن العرب هم سند الخليفة عبد الحميد.

كما تعتبرهم العمق الاستراتيجي للخلافة العثمانية، لأنه لولا الخلافة لما تمسك العرب بالرابطة العثمانية، فهي الرباط الوحيد الذي يربط العرب بالعثمانيين، لذلك قامت استراتيجية الاتحاديين على محاربة العرب، كي يستطيعوا قطع خطوط الإمداد المادية والمعنوية عن مؤسسة الخلافة، ولذلك عدّ الاتحاديون جمعية الإخاء العربي العثماني إحدى مراكز الثقل التي تدعم الخلافة، والتي تشكل خطراً في المستقبل على بقاء جمعية الاتحاد والترقي في الحكم، لأنها اتهمت بمؤازرة الثورة المضادة التي قام بها أنصار الخليفة عبد الثاني، فعمد الاتحاديون إلى تنفيذ انقلابهم على أثر ما أشيع بالتحرك المضاد لهم في 31 مارس 1909م، واجتاحوا العاصمة العثمانية، وأنهوا حكم السلطان عبد الحميد، وألحقوا ذلك بالخطوة التالية وهي إغلاق مركز جمعية

(3) قدرتي، مذكراتي، ص 8

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 353

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 353

(3) قدرتي، مذكراتي، ص 9، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 111

الإخاء العربي العثماني في العاصمة استانبول، وإغلاق جميع فروعها في البلاد العربية⁽¹⁾، يقول أنطونيوس عن حكم جمعية الاتحاد والترقي للدولة العثمانية بعد الانقلاب على عبد الحميد الثاني وتعسفها ضد العرب وجمعياتهم: "استطاعت خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب العالمية الأولى أن تقيم حكمها على أساس من الاستبداد، أما في نظر العرب فكان حكمها بغيضاً، ... كان من أول أعمال الاتحاديين بعد أن قضوا على فتنة إبريل إلغاء الجمعيات التي أسستها العناصر غير التركية، ومن بينها جمعية الإخاء العربي، وذلك قبل أن تنقضي ثمانية أشهر على افتتاحها"⁽²⁾.

ب- المنتدى الأدبي.

المنتدى الأدبي ثاني تنظيم عربي علني يتم تأسيسه في الآستانة بعد فترة قصيرة من إلغاء جمعية الإخاء العربي العثماني، وقال أمين سعيد إنه حل محل جمعية الإخاء العربي العثماني التي ولدت ضعيفة ولم يكن التجانس موجوداً بين أفرادها⁽³⁾، وكان تأسيسه في صيف عام 1909م/ 1327هـ⁽⁴⁾ وكان جمعية علمية بحثية في بادئ الأمر⁽⁵⁾، الغرض منه إيجاد رابطة ثقافية بين الطلبة العرب⁽¹⁾، لكنه بدأ يتحول إلى مركز سياسي منذ تبذلت سياسة جمعية الاتحاد والترقي مع العرب، وتوافقت رؤية جمال باشا للتحويل الذي طرأ على توجهات هذا الحزب، فيما رواه ناقلاً عن أحد أعضائه، وهو سيف الدين الخطيب بقوله: "إن المؤسسين حقيقة هم رفيق العظم وحقي العظم والشيخ رشيد رضا، فإنهم قد أسسوه بواسطة عبد الحميد الزهراوي، وأثناء ذلك اتخذ عبد الحميد الزهراوي عبد الكريم معاوناً له، والمقصود من التأسيس هو لأجل اجتماع الشبان في مكان واحد وتدريب أفكارهم على أساسات العنصرية والاستقلال، وإيجاد مأمورين ومشوقين مشبوعين بفكر الاستقلال، لأجل نشر هذا الفكر وتعميمه، وتسهيل تطبيق الترتيبات التي يسعى ورائها من قاموا بتشكيل اللامركزية لقصد استقلال البلاد العربية وافتراقها عن حوزة الدولة العلية"⁽²⁾ ويتضح من هذا الاقتباس أن جمال باشا يريد التدليل على النزعة الاستقلالية والانفصالية لدى المؤسسين لهذا الحزب حين يعلق على قول سيف الدين الخطيب، ويقول: "ولا بد أن يكون له إطلاع على البروغرام الخفي"⁽³⁾ ليصل إلى ما يدعم وجهة نظره من أن

(1) قدرتي، مذكراتي، ص 9-10، قلعجي، الثورة العربية، ص 88، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 137، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 3

(2) أنطونيوس، يقظة العرب، ص 112، وانظر: الشهابي، القومية العربية، ص 69

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج 1، ص 8

(4) قدرتي، مذكراتي، ص 11، داغر، مذكراتي، ص 35

- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 353، مجهول، ثورة العرب، ص 33

- الشهابي، القومية العربية، ص 70، كامل، الإسلام والعروبة، ص 152

- قلعجي، الثورة العربية، ص 89، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 139

(5) مجهول، ثورة العرب، ص 33، الشهابي، القومية العربية، ص 70، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 40

(1) داغر، مذكراتي، ص 35، وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 13

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 13

(3) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 13

أهداف هذا الحزب سياسية انفصالية، ليبرر توجهه بمحاربته ومحاربة غيره من الأحزاب العربية الأخرى الناشئة في هذه الفترة، استناداً إلى نزعتها في الاستقلال والخروج عن سلطة الحكومة الاتحادية. وقد قام بتأسيسه نخبة من الموظفين والمبعوثين والكتاب والطلاب ليكون مركزاً يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة العثمانية، ويرى قدري الذي كان له دور بارز في تأسيسه أنه قام بجهود الطلبة العرب الدارسين في استانبول، يقول في ذلك: "ولكن الأحداث كانت تعلمنا وتثقفنا، فأدركنا أن العمل غير المنظم لن يعود بفائدة ملموسة، خاصة بعد أن طالعنا نظم الاتحاديين وتشكيلاتهم، فأسسنا المنتدى الأدبي عام 1909م"⁽⁴⁾ وكان أبرز أعضائه من بلاد الشام، إضافة لوجود بعض الشباب العرب المنتسبين إليه من غير الشاميين، واشتهر من أعضائه كما يقول داغر: "عرفت في هذا المنتدى معظم الرجال الذين قامت النهضة العربية على جماجم بعضهم وأكتاف البعض الآخر، عرفْتُ منهم سليم الجزائري وتوفيق البساط وجلال البخاري وعبد الكريم الخليل ورفيق رزق سلوم وعارف الشهابي وسيف الدين الخطيب ورشدي الشمعة وشكري العسلي وعبد الوهاب الإنجليزي، كما عرفت عزيز علي المصري وشكري القوتلي والأمير عادل أرسلان وجعفر العسكري وسعيد حيدر ونجيب شقير وثابت عبد النور وعبد الله الدموجي وكثير من آل الشهابي والصلح والعظم ومردم"⁽¹⁾ وكان يرأسه عبد الكريم خليل" فأهداف المنتدى سياسية لخدمة قضية العرب في وجه الاتحاديين، وثقافية لتثقيف أبنائهم المقيمين في استانبول وتوعيتهم، واجتماعية لخدمة الجالية العربية المقيمة في استانبول واستقبال من يفد من أبناء البلاد العربية إليها، وتأمين المسكن والراحة والرعاية الكافية له، يقول قدري: "وطفقتنا لا يتناهى إلى مسامعنا نبأ وصول نائب عربي إلى الأستانة إلا ازدلفنا إلى المرفأ نستقبله استقبالاً حاراً رائعاً"⁽²⁾ ويقول أنطونيوس: "يكون مركزاً يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها، وقد استقر المنتدى في منزل يحوي مكتبة وداراً للضيافة، وحقق الغاية التي أنشئ من أجلها، فأصبح مركزاً فعالاً ونافعاً"⁽³⁾ وعلاوة على ما سبق كان المنتدى الأدبي مركزاً للتآلف بين العرب والاتحاديين، ووسيلة للإبقاء على قنوات الحوار والنقاش مفتوحة بين العرب والاتحاديين، وحل الخلافات بينهم، وجعله ملتقى للمؤمنين بالرابطة العثمانية، يقول صاحب كتاب ثورة العرب: "وقد كان الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقي يُظهرون لهذا النادي صداقة عظيمة، فزاره مراراً طلعت بك وأنور باشا وجمال باشا وفتحي بك ومدحت شكري بك وغيرهم، وألقوا فيه الخطب، أولموا لأعضائه الولاثم، وحضروا معظم احتفالاته الدينية والأدبية إلى غير ذلك، مما يدل على أن هذا النادي كان نادياً عثمانياً بحتاً، وأن الاتحاديين أنفسهم اعترفوا بذلك

(4) قدري، مذكراتي، ص11

(1) داغر، مذكراتي، ص35، وانظر: قدري، مذكراتي، ص11

- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص354، جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص10-11

(2) قدري، مذكراتي، ص10

(3) أنطونيوس، بقطة العرب، ص117

بأقوالهم وأفعالهم الماضية، ولا يستطيعوا اليوم أن يثبتوا عليه أو على أحد أعضائه عملاً واحداً كانت تشتم منه رائحة كره الترك، والرغبة في الانفصال عنهم"⁽¹⁾.

ويقول داغر: "ولم يكن شبان المنتدى الأدبي في أول الأمر يفكرون في الانسلاخ عن السلطنة العثمانية، بل كان غرضهم تقويتها بتقوية العرب الذين يؤلفون أكثرية سكانها، والقيام بالإصلاحات اللازمة لرفع شأنها ودرء الأخطار المحدقة بها، والتعاون التام بين العنصر التركي الحاكم والعناصر العثمانية الأخرى، ولا سيما العرب"⁽²⁾ أما دروزة فيؤكد على صبغة المنتدى الأدبي الائتلافية الساعية للتوفيق بين العرب والاتحاديين في إطار الرابطة العثمانية حين يقول: "ولقد كان أركانه يحرسون في الوقت نفسه على جعل العثمانية صبغة بارزة له، أي على إبراز ولائهم وولاء مؤسستهم وولاء العروبة وحركتها عامة للدولة العثمانية، والرغبة في توثيق الرابطة بين العرب والترك بنوع خاص"⁽³⁾.

ويشير دروزة إلى إقبال العرب على الانضمام إلى المنتدى الأدبي، "وأن عدد منتسبيه بلغ (800) من نواب العرب ورجالاتهم، وأن بعض المدن العربية في بلاد الشام والعراق أنشأت أندية على غرارها، انتمى إليها مئات الشباب العرب، ... وكان طابع العروبة هو الطابع المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيوعي والدرزي والمسيحي، على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها"⁽⁴⁾.

ويرى داغر أن اندفاع الاتحاديين للتظاهر بتأييد المنتدى الأدبي ليس خالصاً من أجل التمسك بالرابطة العثمانية، وإنما لمآرب خاصة بهم، يقول "... ولم يخف ذلك على الترك، فلجأوا إلى سياسة المجاملة، خصوصاً بعد أن أصبح عبد الكريم الخليل معتمداً، للشبيبة العربية، فقد ظنوا أنه أصبح في إمكانهم السيطرة عليها بالتردد على نواديها، وإبداء العطف على معتمدها والقائمين بأمرها"⁽¹⁾.

وتأكيداً على إخلاص العرب للرابطة العثمانية وتمسكهم بالعلاقات مع العثمانيين، عملوا من خلال المنتدى الأدبي على تلك الروابط، وإشاعة روح الأخوة والاندماج مع الاتحاديين ضمن إطار الدولة، "وبسبيل ذلك كانت تقام حفلات يدعى إليها رجال مشهورون من الترك رسميون وغير رسميين، ويخطب فيها بصدد ذلك، بل كان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها من الترك مع شباب، فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأمجاد القومية التركية والعربية، وينبه فيها إلى عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية تحت لواء (العثمانية) الجامعة إذا ما احترم

(1) مجهول، ثورة العرب، ص33، وانظر: داغر، مذكراتي، ص35

(2) داغر، مذكراتي، ص 70-71

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 355

(4) دروزة، المصدر السابق، ص 355 وانظر:

أنطونيوس، بقعة العرب، ص 117، قلعجي، الثورة العربية، ص 89، كامل، الإسلام والعروبة، ص 152

(1) داغر، مذكراتي، ص 35

كل فريق حق الفريق الآخر في ذلك، ولعل هذا من جهة، وعدم ظهور تحزب وانقسام بين أركان المنتدى من جهة أخرى من أسباب استمرار المنتدى حياً طيلة السنوات الست⁽²⁾ ويبدو أن الاتحاديين على الرغم من الموقف المعتدل للجانب العربي، وعدم إظهار هذا الجانب أية نزعات انفصالية عن الدولة العثمانية، لم يتحملوا رؤية العرب معهم إلى نهاية الشوط الذي قطعوه في الحكم حتى عام 1918م، في نهاية الحرب العالمية الأولى، فشدوا من قبضتهم في الإدارة المركزية للدولة، ومارسوا دكتاتورية عنيفة وحادة جعلت أغلبية رجالات العرب، بمن فيهم المعتدلين، ينفرون من تلك السياسة الاتحادية، كما أن الاتحاديين وبضغط من نزعتهم الطورانية عليهم لم يتمكنوا من الاستمرار في إعطاء العرب مساواة حقيقية لهم في إدارة الدولة، وضاقوا ذرعاً بنشاطات العرب السياسية في إطار الرابطة العثمانية⁽³⁾، فأسفروا عن وجوههم، وحاربوا العرب في كل شيء، وقرروا إغلاق المنتدى الأدبي في أوائل عام 1915م، ومنعوا نشاطه السياسي، بعد أن "غدا بيتاً عربياً في عاصمة الدولة العثمانية، يلتقي فيه أبناء العرب على اختلاف طوائفهم وميولهم السياسية"⁽⁴⁾ وبذلك طويت صفحاته كغيره من الأحزاب والجمعيات العربية السياسية التي حاربها الاتحاديون وأغلقوا مكاتبها ومنعوها من العمل، لأنه "تدرج في خطته إزاء الترك (الاتحاديين) وفقاً للتبديل الذي كان يطرأ على سياستهم، فبعد أن كان رائده بث الدعوة للوحدة العثمانية على أساس اللامركزية، رأى من مبالغة الاتحاديين في التعصب العنصري أن يندفع في بث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي"⁽⁵⁾.

جـ- حزب اللامركزية الإدارية العثماني.

ويعد حزب اللامركزية ثاني الأحزاب العربية العلنية التي أسست في العهد الاتحادي بعد عام 1909، وكان مركز هذا الحزب القاهرة، وتأسس في أواخر عام 1912⁽⁶⁾، أسسه مجموعة من أبناء بلاد الشام المقيمين في القاهرة، ويظهر من اسم هذا الحزب أنه متمسك بالعلاقات العربية العثمانية، ومن أشهر الشخصيات التي تألفت على تأسيسه رفيق العظم ورشيد رضا وحقي العظم ومحب الدين الخطيب وشبلي شميل واسكندر عمون وداود بركات وسامي الجريدي وعزت الجندي ونعمان أبو شعر، وتكوّن من هؤلاء هيئة إدارة حزب اللامركزية الأولى، وترأس هذه الهيئة رفيق العظم، واسكندر عمون نائباً للرئيس وحقي العظم سكرتير الحزب العام، ومحب الدين الخطيب مساعداً للسكرتير العام⁽⁷⁾، وكان سبب مجيء هؤلاء الشاميين إلى القاهرة،

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 355

(3) أنطونيوس يقظة العرب، ص 112

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 355، وانظر: قدري، مذكراتي، ص 11

(2) داغر، مذكراتي، ص 36، كامل، الإسلام والعروبة، ص 155

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 360، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 6

داغر، مذكراتي، ص 36، مجهول، ثورة العرب، ص 28

KARAL, OSMANLI TARİHİ, cilt. 8. p. 519

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 360، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 118

الشهابي، القومية العربية، ص 81، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج 1، ص 14

هروبهم من ملاحقة السلطات العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لمعارضتهم للسياسة التي كان ينتهجها خلال فترة حكمه⁽⁵⁾، على الرغم من قيام تلك السياسة على تقريب العرب ورعايتهم، وقد حظي أبناء بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد بالمكانة الرفيعة بالقرب من السلطان مع غيرهم من العرب، لكن رجال التيار القومي من البلاد العربية، كانوا يشكون من أسلوب عبد الحميد في إدارة الدولة، ومن قبضته الشديدة في إدارة الدولة، وكانت بريطانيا قد جعلت من مصر مركزاً وملجأً للخارجين على سلطة الخلافة العثمانية، وكانت قد احتلت مصر عام 1882م⁽¹⁾، ولذلك هرب كثير من أبناء بلاد الشام إلى مصر، وأقاموا في القاهرة منذ عهد السلطان عبد الحميد، ومارسوا نشاطاتهم السياسية من هناك، متحالفين مع حزب الاتحاد والترقي، وقد أيدوا الاتحاديين في انقلابهم على السلطان عبد الحميد من منطلق عثمانيتهم، ساعين لإحلال نظام اللامركزية في إدارة البلاد العثمانية بما فيها بلاد الشام، وترجموا سعيهم نحو هذا الهدف في عام 1912م بتأسيس حزب اللامركزية الإدارية، "وكانت أهدافه ذات شقين: إقناع حكام تركية بضرورة إدارة المملكة على أساس لا مركزي من جهة، ومن جهة ثانية توجيه الرأي العام العربي نحو المطالبة باللامركزية"⁽²⁾ وقد وضعت الهيئة التأسيسية لهذا الحزب قانوناً خاصاً به يتضمن القواعد التي قام عليها، وهي بمثابة النظام الداخلي له، ويتألف هذا النظام من ثلاث وثلاثين مادة⁽³⁾ وأكدت المادة الثانية منه على الرابطة العثمانية وعلى أهميتها بالنسبة للعناصر البشرية التي تتكون منها الدولة العثمانية، تقول المادة الثانية: "القصود من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وعادات وأديان مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في ولايات الدولة العثمانية"⁽⁴⁾. أما مادته الرابعة فتتضمن على "أن الدخول في الحزب مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر، على أن يكون متمتعاً بجميع الحقوق المدنية، وغير محكوم بحكم محل للشرف، وغير مشتهر بسوء السمعة"⁽¹⁾ وقد وزع الحزب بياناً أصدره عند افتتاحه، أفصح فيه عن توجهاته المستقبلية، وهي العمل على تقوية العلاقات العربية، وترميم ما أصابها من تهتكات جراء السياسة الاتحادية العنصرية تجاه أبناء بلاد الشام وسائر العرب، يقول البيان الأول لحزب اللامركزية: "إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري، وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي،

(5) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 143

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 366

- محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 143،

(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 117

(3) وقد أورد صاحب كتاب ثورة العرب مواد هذا النظام، شرحت الأساس الذي قام عليه هذا الحزب وقواعد عمله وشروط الانتساب إليه. انظر: مجهول، ثورة العرب، ص 28-30

وانظر دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 361-360

(4) مجهول، ثورة العرب، ص 28، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 361-360

(1) مجهول، ثورة العرب، ص 28-29، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 361

خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق ... إن اللامركزية أفضل قُرباً لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتي⁽²⁾ كما تضمن هذا البيان نصوصاً تؤكد على أن الدولة العثمانية هي دولة دستورية تطبق أسلوب اللامركزية في الحكم، ومن تلك النصوص:

1- إن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية، وكل ولاية من ولاياتها جزء من السلطنة لا ينفك عنها.

2- تبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الإدارية.

3- السلطان هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة، وهذان يقومان كل منهما في حدود دائرته بتعيين موظفي الدولة، بعد أخذ رأي مجلس الإدارة.

4- يكون في كل ولاية لغتان رسميتان، اللغة التركية واللغة المحلية.

5- يجب تعميم التعليم في كل ولاية بلغة أهلها.

من النصوص السابقة ومن اسم الحزب وخطته يتبين أنه لم يكن حزباً عربياً قومياً، وإنما كان حزباً عثمانياً على نطاق الدولة، لكنه من الناحية العملية تشكل في البلاد العربية⁽³⁾، وكان يركز على بلاد الشام كونها موطن القائمين على الحزب والمنتسبين إليه، ولم يظهر أية نزعة انفصالية لفصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية الأم، على الرغم من أن تشكيله كان في عام 1912م في أدق ظروف الدولة العثمانية صعوبة، بعد ابتداء الحرب البلقانية وانفصال أجزاء مهمة في أوربا الشرقية عن جسد الدولة، ووصولها إلى حافة الانهيار والتقسيم، ومع كل ذلك بقي العرب المسلمون في بلاد الشام متمسكين بعلاقات الأخوة العثمانية، من منطلق الحرص على دولة الخلافة الإسلامية، والخوف عليها من التمزق، دون الالتفات إلى الأصوات النشاز التي بدأت تظهر في هذه المرحلة من نصارى الشام للانفصال والاستقلال والتبعية للدولة الغربية الاستعمارية فرنسا وبريطانيا كما سيأتي بيانه فيما بعد في هذا الفصل، وقد استمر حزب اللامركزية في العمل إلى ما بعد دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى في تشرين ثاني عام 1914م إلى جانب ألمانيا ضد فرنسا وبريطانيا، كما لعب دوراً بارزاً في المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس عام 1913م⁽¹⁾، وبعد دخول الدولة الحرب العالمية بلغ توجه الاتحاديين لهذا الحزب ذروته، ثم انقلب إلى مطاردة وأحكام قاسية، لأنه في الأصل ليس حزباً مخصصاً، فكان عمله علنياً في مصر، سرياً في بلاد الشام لخضوعها لسلطة الاتحاديين ورقابتهم الشديد⁽²⁾.

د- حزب الحرية والائتلاف.

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 362-363

(3) دروزة، المصدر السابق، ص 363-365

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 370-371، وانظر: عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 248

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 372-373

وقد تشكل هذا الحزب في تشرين الثاني سنة 1911م، وهو حزب ائتلافي مزيج من العرب والأتراك في العاصمة العثمانية، وكان منادياً بأسلوب اللامركزية الإدارية في الحكم⁽³⁾، وقد سبقت الإشارة إليه في سياق الحديث عن السياسة التتريكية وأثرها على بلاد الشام⁽⁴⁾، واستطاع هذا الحزب تشكيل حكومة برئاسة كامل باشا قلصت من نفوذ الاتحاديين وهيمنتهم على الدولة، في وقت وجدوا أنفسهم فيه في موقف ضعيف، بعد أن اتهمهم خصومهم السياسيين بالتقصير ومسايرة الإيطاليين لاحتلال ليبيا عام 1911م، وقامت حكومة كامل باشا التي خلفت حكومتهم بخطوات عملية ملموسة لتعزيز التعايش العربي العثماني، من خلال المشروع الذي وضعه رشيد بك وزير الداخلية في حكومة كامل باشا، والذي ينص على توسيع نطاق اللامركزية الإدارية، وإشراك العرب في كافة إدارات الدولة، ومنح الولايات العربية قدراً أوسع من الإدارة المحلية في الزراعة والصناعة والمشاريع الاقتصادية والتعليم، وأن يكون لها ميزانية خاصة بها⁽¹⁾، لكن تلك الخطة لم تستمر بسبب لجوء الاتحاديين إلى العنف ضد حكومة كامل باشا وإسقاطها وتشكيلهم وزارة جديدة⁽²⁾، ويشير دروزة إلى أنه تبودلت رسائل بين حزب الحرية والائتلاف وحزب اللامركزية، على أن يشكل فرع لحزب الائتلاف في مصر، ويرعى ذلك رئيس حزب اللامركزية رفيق العظم لإقامته هناك وترأسه حزب اللامركزية، وليشكل فرع آخر في دمشق يشرف عليه ابن عمه شفيق بك العظم، وفي الوقت ذاته تشكل فروع لحزب اللامركزية في كل من دمشق وطرابلس الشام وبعليبك وفي المدن الشامية الأخرى⁽³⁾، ويذكر دروزة أنه اتفق مع لفيف من أصدقائه لتأسيس فرع للحرية والائتلاف في مدينتهم نابلس⁽⁴⁾، وهكذا نجد أن الأحزاب الأنفة الذكر التي تشكلت في السنوات الأولى لحكم الاتحاديين بعد 1909م، ذات منحى عثماني، وتصب جميعها في التيار التوفيقي بين العرب وجماعة الاتحاد والترقي، وأنها أثرت بشكل فعال في بلورة موقف ضاغط على الاتحاديين، جعلهم يحسبون حساباً للعرب ولدورهم في الدولة العثمانية⁽⁵⁾، لا سيما بعد تطور الموقف العربي وتحوله لعقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913م، والذي عزز دور التيار العربي المتمسك بالعلاقات العربية العثمانية، وأدى إلى الانتقال من حيز التنظير والتنظيم إلى مجال التطبيق وجني النتائج العملية للجهد السابق، وهذا يقود للحديث عن

(3) دروزة، المصدر السابق، ص 366، الجميل، تكوين العرب الحديث، ص 518

(4) - YiLDiZ, BUYUK iSLAM TARiHi, ciLD, 12, P.77

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 366-367

(2) محاكمة الحركة العربية في لبنان، ص 148، دروزة نشأة الحركة العربية، ص 421

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 372-373، وانظر: - محاكمة الحركة العربية في لبنان، (من خلال كتاب: إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي لمؤلفه جمال باشا)، نشر: دار الرائد العربي، طبعة ثانية، بيروت، 1982م، ص 146 .

(4) دروزة نشأة الحركة العربية، ص 373

(5) الجميل، تكوين العرب الحديث، ص 518

المؤتمر العربي في باريس كحلقة من حلقات هذه السلسلة المترابطة من الأعمال التي قام بها أبناء بلاد الشام في اتجاه التمسك بالرابطة العثمانية.

هـ- المؤتمر العربي في باريس.

وصلت العلاقات بين العرب في بلاد الشام وبين جماعة الاتحاد والترقي مرحلة متدهورة، جعلت التيار العربي في هذه البلاد والولايات العربية الأخرى يفكرون بشكل جدي لإيجاد مخرج من الأزمة التي وصلت إليها العلاقات بين الطرفين، وفكر هذا التيار بوسيلة يترجم فيها الأفكار التي تجول بخواطر رجالاته إلى عمل ما يطرح على بساط البحث بين الجانبين العربي والاتحادي، بحيث يدرك الاتحاديون أن العرب بلغوا حد الانفجار بعد طول معاناة واضطهاد وممارسات عنصرية ضدهم من رجال الحكم الاتحادي، وهم على قدم المساواة معهم في الدولة، وشركاءهم في الانصياع لقوانينها وإرادتها، ويفترض أن يتمتعوا بنفس الحقوق التي يُقرُّها لهم مواطنتهم العثمانية، طالما أنهم يؤدون الواجبات التي تتطلبها منهم هذه المواطنة، من هنا جاءت فكرة عقد مؤتمر يجمع قادة الفكر والرأي من عرب بلاد الشام، وتلتقي فيه الأحزاب والتنظيمات والجمعيات العربية التي أسسها هؤلاء في بلاد الشام وفي العاصمة العثمانية وفي مصر، ويحضره معهم ممثلو العرب ومفكروهم من الولايات العربية الأخرى، واختيرت باريس لعقد أول مؤتمر عربي عام 1913م، بدعوة من بعض الشخصيات العربية المقيمة في باريس سمّاهم صاحب كتاب ثورة العرب بـ أدباء العرب المقيمين في باريس⁽¹⁾، بينما أشار إليهم داغر بـ الشبان العرب في باريس⁽²⁾، وذكر قدري أنهم أعضاء جمعية العربية الفتاة، وأن المؤتمر "جاء كأحسن وأفضل فرصة للدعاية إلى الأهداف التي تستشرفها جمعية الفتاة"⁽³⁾، واعتبر دروزة أن المؤتمر المنعقد في باريس مظهر غير دائم من مظاهر التكتل العربي أو رديفًا له أو نتيجة له، أو ممثلاً له من جهة أخرى⁽¹⁾، أما فكرة المؤتمر فيجمع المؤرخون المعاصرون لهذا الحدث ممن نقلوا أحداثه، أنها صدرت عن رجال الجمعية العربية الفتاة المقيمين في باريس، حيث "اجتمع فريق من الشباب العرب في باريس، وبعضهم ممن تخرجوا في مدارس استانبول، وذهبوا لإتمام دروسهم في عاصمة الفرنسيين"⁽²⁾ ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أسماء الرجال الذين كلفتهم جمعية العربية الفتاة بالإعداد لهذا المؤتمر⁽³⁾، والذين يعتبرهم كتاب اللجنة العليا لحزب اللامركزية

(1) مجهول، ثورة العرب، ص 33، الشهابي، القومية العربية، ص 85

(2) داغر، مذكراتي، ص 58، ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص 89

- سلاّم، المذكرات ص 29-30

(3) قدري، مذكراتي، ص 14

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 421

(2) داغر، مذكراتي، ص 58، وانظر: قدري، مذكراتي، ص 14

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 321، مجهول، ثورة العرب، ص 33

الشهابي، القومية العربية، ص 85

(3) قدري، مذكراتي، ص 14، وانظر: داغر، مذكراتي، ص 58

مجهول، ثورة العرب، ص 33، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 421

الصادر عن مؤتمر باريس، أنهم صدرت عنهم فكرة المؤتمر ويعدد أسماءهم، " فكرة المؤتمر صدرت عن عبد الغني العريسي في بيروت، عوني عبد الهادي في نابلس، محمد أفندي المحمصاني في بيروت، جميل بك مردم دمشقي، توفيق أفندي فائد من بيروت"⁽⁴⁾ ويضيف قدرى أنه انضم إلى الأسماء الأنفة الذكر بعض النصارى من أبناء بلاد الشام وهم "ندرة المطران، شكري غانم، شارل دباس، جميل معلوف، حتى يشمل المؤتمر المسلمين والمسيحيين معاً، وكلف دباس والعريسي ومردم بأمانة سر المؤتمر، وبذلك تأسست لجنة مؤتمر باريس"⁽⁵⁾ وكان ذلك في 4/ نيسان سنة 1332هـ/ 913م، وتولى عبد الغني العريسي سكرتير لجنة المؤتمر⁽¹⁾ وذكر أنطونيوس أن مركز الحركة العربية انتقل إلى باريس، من منطلق عرض القضية العربية في جو حيادي وحر بغية الإسراع بإيجاد حل لها، واختيرت باريس كمكان لعقد المؤتمر بعد أخذ ورد حول مكان انعقاد المؤتمر، لكون الجمعية العربية الفتاة هي الداعية إلى المؤتمر، ويوجد مقرها في العاصمة الفرنسية، وكان البديل عنها أن يعقد المؤتمر في سويسرا⁽²⁾، ونظر الناقدون لفكرة انعقاد المؤتمر في باريس بأنه "تلقى الدعم والرعاية الفرنسيين"⁽³⁾ وأنه أحدث ضجةً ودويًا أكبر بكثير من جسمه⁽⁴⁾، فالذين شهدوه فعلاً كانوا (24) شخصاً فقط⁽⁵⁾، على الرغم من نشاط الجالية العربية المقيمة في باريس للإعداد له ومتابعته وتقديم كل الخدمات والوسائل لإنجاحه، ويبلغ عدد أفراد هذه الجالية ما يزيد على ثلاثمائة شخص، (300)⁽⁶⁾ وقد تلافت البرقيات والرسائل الكثيرة المنهمرة عليه - تأييداً وتشجيعاً له - ضالة عدد المشتركين فيه⁽⁷⁾ ويبرر المنتقدون لانعقاده في باريس بأنه تم توظيفه من قبل الدول الغربية، ولا سيما فرنسا الدولة المضيفة، صاحبة المطامع لأغراضها السياسية الخاصة، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الأمير شكيب أرسلان يسجل اعتراضه عليه، لانعقاد جلساته في باريس، لما لفرنسا من مطامع تسعى لتحقيقها في بلاد الشام⁽⁸⁾. وقد استغل الاتحاديون

(4) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، المؤتمر العربي الأول، نشرة محب الدين الخطيب، طبع بمطبعة اليوسفور، طبعة أولى، القاهرة، 1913م/ 1331هـ/ ص 3، وورد في هذا الكتاب توقيع محب الدين الخطيب في نهاية البيان الموجه لأبناء الأمة العربية بعنوان: دعوة إلى أبناء الأمة العربية، أن محب الدين هو جامع كتاب المؤتمر، بصفته السكرتير الثاني في اللجنة العليا لحزب اللامركزية. انظر: اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 9، 13 وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 421

(5) قدرى، مذكراتي، ص 14، جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 59

- فيضي، المذكرات، ص 128

(6) مجهول، ثورة العرب، ص 33

(1) داغر، مذكرات، ص 58

- الجميل، تكوين العرب الحديث، ص 520

(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 124

(3) محاكمة، محاكمة الحركة العربية في لبنان، ص 7

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 428

(5) محاكمة الحركة العربية في لبنان، ص 8، وانظر: أنطونيوس، بقطة العرب، ص 125

(6) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 6

(7) محاكمة الحركة العربية في لبنان، ص 8

(8) أرسلان، سيرة ذاتية، ص 108 وانظر:

محاكمة الحركة العربية في لبنان، ص 8 وانظر:

هذه الناحية ليتخذوا منها مبرراً للطعن بالقائمين على المؤتمر، وللتشكيك في سلامة نواياهم ومدى جدّيتهم وإخلاصهم للقضية العربية، يقول جمال باشا " ... ثم أرادوا عقد مؤتمر عام من العرب بالرغم من رفض الحكومة، ولكن لما توقعوا أن تحول الحكومة هذه المرة بينهم وبين رغبتهم، وتتخذ الإجراءات القانونية ضد زعمائهم، قرروا بعد موافقة - أو بالأحرى بعد إغراء الحكومة الفرنسية - أن يجتمع المؤتمر في باريس ... وبهذه الطريقة وتحت الرعاية الفرنسية غيّر المؤتمر شكله ودستوره، واستقر في الأذهان وقتئذ أن تداخل فرنسا في سوريا أصبح قريباً ⁽¹⁾ وعلى الرغم من اعتراض قادة الاتحاديين على المؤتمر كما مر آنفاً، فقد وجهت رقاع الدعوة من قبل اللجنة المنظمة له إلى حزب اللامركزية بمصر، وإلى الأحزاب العربية الأخرى، وجاء في كتاب الدعوة: لقد جمعتم في برنامجكم الألماني التي ينشدها أبناء العرب لسعادتهم، لذلك وقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدراً لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار، بإزاء مناظرات ومغامز الخطباء في الأندية السياسية بشأن البلاد العربية، وذلك ما حمل الجالية العربية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب، وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية، وبعد مناقشات كثيرة رأينا أن نعقد مؤتمراً للعرب، نظهر به للأجانب أن العرب يدرون بكل قواهم عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بكيانهم القومي، ونصارع الدولة العثمانية بوجوب تنفيذ الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب، أما مطالب المؤتمر فهي:

أولاً: الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

ثانياً: حقوق العرب في السلطنة العثمانية.

ثالثاً: ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

رابعاً: المهجرة من سورية وإليها.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا إلى ما فيه خير الأمة⁽²⁾.

ويؤكد دروزة على شمولية الحركة العربية لكافة الولايات المنضوية تحت السيادة العثمانية، وأن الدعوة وجهت لممثلي وفعاليات تلك الحركة في أرجاء البلاد العربية جميعها، مع التركيز على أن بلاد الشام الطبيعية بأقاليمها الأربعة سوريا ولبنان وفلسطين والأردن هي رائدة الحركة العربية العاملة على إعطاء البلاد العربية جميعها قدراً أكبر من الحقوق واللامركزية في ظل الدولة العثمانية، مع الاحتفاظ بالرابطة العثمانية تظل العلاقات بين العنصر العربي والعنصر التركي، في إطار

قنري، مذكراتي، ص 19

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 90-91

(2) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 6. وانظر:

داغر، مذكراتي، ص 58: مجهول، ثورة العرب، ص 33

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 423، الشهابي، القومية العربية، ص 86

- جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 59

أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 10

التمسك بوحدة الدولة العثمانية وترابط أقاليمها وولاياتها جميعها بما فيها الولايات العربية، وبلاد الشام جزء منها، في إطار الرابطة العثمانية، يقول دروزة: "والشباب الذين انبعثت فيهم الفكرة (فكرة المؤتمر) سوريون، واللجنة التحضيرية سورية، وقد جاء في كتابها إلى حزب اللامركزية: إن المؤتمر يقوم به سوريون، وهذا الحزب كان بدوره سورياً، ونعني بسورية سورية الطبيعية التي كانت تشتمل على الأقاليم الأربعة المعروفة اليوم، وهي لبنان وسورية والأردن وفلسطين، وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل من دون ريب، من حيث أنها تدل على ما كان لرجال سورية من بروز ونشاط وانفعال في مجال السياسة العربية"⁽¹⁾.

ومع ما جاء في النص الأنف الذكر من إشارة إلى المؤتمر وأسباب عقده، فإن الكتاب التي صدر عن اللجنة العليا للمؤتمر يوضح من خلال بيانه ومباحثه أسباب انعقاده، وما ورد أيضاً على لسان عبد الحميد الزهراوي في حديثه لجريدة السلطان الفرنسية⁽²⁾، الذي ركز فيه بصورة لا لبس فيها ولا غموض على أن المؤتمر بكلية يصب في اتجاه تدعيم العلاقات العربية العثمانية، وترميم ما أصابها من خدوش وإصابات من جراء السياسة الاتحادية، وتجسير الفجوة التي حدثت بين العنصرين التركي والعربي في إطار الرابطة العثمانية المتأصلة في نفوس أبناء العنصرين المذكورين، ويبدو ذلك أيضاً في خطبته التي ألقاها لافتتاح المؤتمر بعنوان تربيتنا السياسية، قال فيها: "إن العرب كانوا قد ألفوا الترك، وهؤلاء قد ألقوا العرب، وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً، مضى عليه أكثر من عشرة قرون، ولكن كما مزجت بينهم السياسة، فإنها فرقهم أيضاً، ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك، وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معاً، ولكنها مع عزتها في نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل..."⁽³⁾.

انعقد المؤتمر بعد فترة إعداد وتحضير استمرت من الرابع من نيسان 1913م حتى الثامن عشر من يونيه حزيران عام 1913م، واستمرت أعماله حتى 23 من الشهر نفسه عام 1913م، لمدة ستة أيام متوالية⁽⁴⁾، ولما كان هذا المؤتمر يتخذ من التوفيق بين العرب والاتحاديين أساساً لفكرة انعقاده، ويهدف إلى إيجاد آلية للحوار بين الفريقين لتدعيم البناء العثماني القائم على الترابط بينهما، فقد كان خبر انعقاده حافزاً للاتحاديين لكي يتدبروا ما الواجب عمله تجاه الوضع الناشئ بعد الضجة الكبيرة التي أحدثتها الدعاية للمؤتمر، وكانت فكرة المؤتمر وخروجها إلى حيز التنفيذ قد أحدثت رد الفعل الذي قصد القائمون على المؤتمر الوصول إليه، لذلك استنفر رجال الاتحاد

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 423، وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 59
(2) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 17-21، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص 11
(3) اللجنة العليا، المصدر السابق، ص 36، والنص الكامل لهذه الخطبة في الصفحات 28-39
مجهول، ثورة العرب، ص 34
(4) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 22-24

والترقي وقادتهم وأبدوا انزعاجهم الشديد حين سمعوا بالدعوة إلى المؤتمر⁽³⁾، وعبر جمال باشا عن هذا الانزعاج بعبارات مليئة بالغضب والصلف ونبرة الاستعلاء والمنهجية، وَحَمَلَ التيار القومي مسؤولية ما اعتري العلاقات بين العرب والاتحاديين من توتر وتشنج، وصَعَّدَ من وتيرة هجومه على التيار المذكور، موجهاً إليه أشد عبارات النقد والالتهام، يقول: "ثم اشتدت الدعوة للاستقلال في سوريا وبيروت، وتطورت تطوراً أخذت معه سطوة الحكومة تتدهور، حتى أن بعض الأشخاص بلغت بهم الجراءة إلى حَدِّ كتابة اسم الحاكم العام (أبو بكر حازم) في بطاقة ووضعها في رقاب كلابهم، وفي دمشق ذهب شكري العسلي ومحمد كرد علي إلى الوالي مارديني من رجال العرب ذوي الحيشات الكبيرة ممن نعتمد على وطنيتهم وحماسهم الديني، لينبئونا عن المطالب العربية التي يمكننا أن نقبلها من دون أن نعرض المصالح المشتركة ووحدة العالم الإسلامي للخطر، ثم نتخذ بعد ذلك الإجراءات اللازمة لتنفيذ تلك الإصلاحات، ولحسن الحظ كان هذا رأي الحكومة أيضاً"⁽¹⁾. فالملاحظ من خلال نبرة الرد التي يتكلم بها جمال باشا، ويرد على موقف التيار القومي العربي، أنه والحكومة الاتحادية مهتمين للغاية بالمؤتمر بعد سماعهم خبر انعقاده، وإبداء الرغبة أن يحاور وحكومته التيار القومي العربي حول مطالب المؤتمر، مع إظهاره التحفظ الواضح على ما سي طرح من مطالب يقدمها العرب القوميون في مؤتمرهم، علاوة على تركيزه على الرابطة الإسلامية التي تجمع بين العرب والأتراك في إطار الدولة العثمانية، لذلك لم يتباطأ هو وحكومته في متابعة تطورات مجريات الأحداث، بل سارعوا إلى انتداب وفد منهم إلى باريس لحضور المؤتمر العربي، وسماع المطالب والرغبات العربية المطروحة فيه، ويبدو من حديث جمال باشا أنه مفوض من الحكومة الاتحادية بمتابعة المسألة العربية حين يقول: "فأرسلتُ إلى باريس مدحت شكري بك وآخرين لمفاوضة الزعماء العرب الذين عقدوا المؤتمر، على أمل إيجاد قاعدة للتفاهم، وقد التأم بالفعل، ولكن نظراً لأن اجتماع مدحت شكري بك وزملائه بالزعماء العرب أكسب المسألة صبغةً أخرى، انحل المؤتمر بعد أن بسط لشكري بك بعض أمانيه الغالية"⁽²⁾.

افتتح المؤتمر في مكان انعقاده في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن رقم 184 في باريس في منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأربعاء 13 رجب سنة 1331 هـ الموافق 18 حزيران سنة 1913م، بعد أن اجتمعت فيها وفود المؤتمر وكثير من أفراد الجالية العربية في مدينة باريس، وغير هؤلاء وأولئك من الصحفيين، أو من القادمين إلى هذه المدينة لحضور جلسات المؤتمر⁽³⁾، وتليت في الجلسة الافتتاحية الرسائل والبرقيات المرسلة إلى المؤتمر من البلاد العربية التي

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 422

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 90-91

(2) جمال باشا، المصدر السابق، ص 91-92

وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 59-60

(3) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 25

تؤيد المؤتمر وتؤازره⁽¹⁾، وألقى عبد الحميد الزهراوي خطبته كرئيس للمؤتمر بعنوان: تربيئنا السياسية⁽²⁾، وفي الجلسة الثانية التي انعقدت بعد ظهر الجمعة 15 رجب 1331هـ/ 20 حزيران 1913م، أعلن رئيس المؤتمر ورود رسائل برقية وبريدية من داخل البلاد العربية وخارجها في تعضيد المؤتمر وترديد صوته وتأييد مطالبه⁽³⁾، ثم ألقى عبد الغني العريسي أحد خطباء هذه الجلسة خطبة بعنوان حقوق العرب في المملكة العثمانية، عدّد خلالها ما ينبغي إعطاؤه للعرب من حقوق في المشاركة بإدارة الدولة في ظل الرابطة العثمانية⁽⁴⁾، وعقّب مختار بيهم - أحد أعيان بيروت المسلمين - على كلمة العريسي بالموافقة على ما فيها، مع التأكيد بعدم قبول توظيف أحد من رجال العرب في الدولة لإسكات المطالبين بالإصلاحات العامة، قبل الوفاء بالمطالب التي يطلبها المؤتمر⁽⁵⁾، كما ألقى ندرة المطران كلمة بعنوان: حفظ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية⁽⁶⁾، ووضح من هذا العنوان ومن مضمونه أنها تركز على العلاقات العربية العثمانية، وألقيت كلمات أخرى في الجلسة الثانية، منها كلمة نجيب أفندي دياب بعنوان أمانى السوريين المهاجرين⁽⁷⁾، وكلمة توفيق السويدي من العراق، وهي بعنوان: تحية العراق للمؤتمر⁽⁸⁾ أما الجلسة الثالثة فافتتحت بعد ظهر السبت 16 رجب 1331هـ/ 21 حزيران 1913م تليت في بدايتها الرسائل التأييدية الواردة للمؤتمر، ثم أقيمت الخطب والكلمات المدرجة في جدول أعمال الجلسة، وهي مقدمة من أحمد حسن طيّارة، و خليل صليبة واسكندر عمون، ونعوم مكرزل وعباس بجاني⁽⁹⁾ وفي نهاية هذه الجلسة تدخل يوسف أفندي، وهو من المهاجرين الشاميين المقيمين في فرنسا، وألقى كلمة باللغة الفرنسية، فاحتج عليه رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي بقوله: نحن أعرف بأحوال مملكتنا، والكلام في هذا الموضوع إنما يكون بيننا وبين رجال دولتنا لامع الفضوليين⁽¹⁰⁾، وقد تليت قرارات المؤتمر عقب هذه الجلسة، أما الجلسة الختامية والأخيرة للمؤتمر فقد انعقدت مساء الاثنين 18 رجب 1331هـ/ 23 حزيران 1913م، وكالعادة قرأ رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي الرسائل التضامنية الواردة للمؤتمر من أنحاء بلاد الشام والبلاد العربية الأخرى⁽²⁾، وأقيمت خطب كل من أحمد مختار بيهم⁽³⁾ وشارل أفندي الدباس⁽⁴⁾

(1) اللجنة العليا، المصدر السابق، ص 26، وانظر: الشهابي، القومية العربية، ص 86

(2) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 28-39

(3) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 40-41

(4) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 42-50

(5) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 50

(6) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 54-64

(7) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 66-74

(8) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 75-76

(9) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 81-110

(1) اللجنة العليا، المصدر السابق، ص 112

(2) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 122-123

(3) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 124-134

(4) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 135-139

وشكري غانم باللغة الفرنسية⁽⁵⁾.

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر في ظهيرة يوم 30/ حزيران 1913م ذهب وفد مؤلف من عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وشكري غانم واسكندر عمون وسليم علي سلام وأحمد طيارة وأحمد مختار بيهم وخيل زينية، وقابلوا المسيو بيشون وزير خارجية فرنسا، شكروه على ما لقيه المؤتمر العربي من ترحيب الأمة الفرنسية⁽⁶⁾ ثم زار أعضاء الوفد السفارة العثمانية في باريس، وقابلوا السفير رفعت باشا وزير الخارجية العثمانية سابقاً، ودار الحديث بين الطرفين حول ضرورة الإصلاح في الدولة العثمانية بأسلوب اللين والتفاهم، وأعطى السفير نسخة من قرارات المؤتمر⁽⁷⁾.

- قرارات المؤتمر العربي الأول:

توصل المؤتمر في جلسته الثالثة يوم 21 حزيران سنة 1913م إلى القرارات التالية:

- 1- إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية، فيجب أن تُنفَّذ بوجه السرعة.
- 2- من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً.
- 3- يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.
- 4- كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها في 31 كانون الثاني سنة 1913م بإجماع الآراء، وهي قائمة على مبدئين أساسيين هما:
- توسيع سلطة المجالس العمومية.
- وتعيين مستشارين أجانب، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين.
- 5- اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.
- 6- تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية، إلا في الظروف والأحيان التي تدعو للاستثناء الأقصى.
- 7- يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين مالياتها.
- 8- يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اللامركزية.

(5) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 140-146

(6) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 147-148

(7) اللجنة العليا، المصدر نفسه، ص 149

- 9- سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنوية (تقرر أن تقدم المواد العامة من قرارات المؤتمر إلى السفير العثماني في مدينة باريس).
- 10- وتبلغ أيضاً هذه القرارات للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية.
- 11- يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها بضيوفها.
- فَصُوِّقَ عَلَى ذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ⁽¹⁾



(1) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 113-119، داغر، مذكراتي، ص 59-60
قُدْرِي، مذكراتي، ص 16-17، مجهول، ثورة العرب، ص 35، الشهابي، القومية العربية، ص 87-88 أبو النصر،
موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 11

- ملحق بقرارات المؤتمر:

1- إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر، فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين إليها.

- فصول على هذه المادة، وكانت قد سبقت المناقشة فيها وحصلت الموافقة عليها.

2- ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه (فصول عليها).

3- المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم⁽¹⁾.

إن المتفحص لأهداف هذا المؤتمر ومخاض جلساته والكلمات والخطب الملقاة فيه، ثم مقرراته وتوصياته، يلاحظ أنه أعلن صراحةً وبوضوح عن هويته العثمانية البحتة، من خلال إصرار رئيس المؤتمر والحضور على التلازم الوثيق بين كلمتي عرب وعثمانيين حسب ما جاء على لسان رئيس المؤتمر⁽²⁾ كما أنه يمكن اعتبار هذا المؤتمر فرصة ذهبية لو اغتنمها الاتحاديون لإصلاح الخلل الذي انتاب جسد العلاقات العربية العثمانية، والواقع أن التيار الاتحادي المسيطر على الدولة العثمانية في هذه الفترة، لن يستطيع الخروج من جلده والتخلي عن أيديولوجيته القاضية بتحطيم الرابطة العثمانية والقضاء عليها، من أجل تلبية طموحه بإقامة دولة طورانية الفكر والسياسة والإدارة، ولهذا يقف الاتحاديون في وجه التيار التوفيق، ويجهضون مسعاه لتحقيق إصلاحات حقيقية فعالة تعيد العلاقات العربية العثمانية إلى مسارها الطبيعي السابق كما كانت عليه في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في أعلى درجات القوة والتماسك.

- ويستخلص من هذا المؤتمر أنه يركز على تحقيق إصلاحات لا مركزية في الإدارة في بلاد الشام، لأن القائمين عليه ومنظموه من أبناء بلاد الشام، ولم يقبل رئيس المؤتمر وأعضاء هيئته التأسيسية أن يشترك بعض الحضور من المصريين في مناقشات المؤتمر، وكان رد رئيس المؤتمر بعدم الموافقة، وبَرَّر موقفه بقوله: "نعرف أن مصر عربية عثمانية، لكن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين، لذا يكون هذا عذراً لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لأرائهم حق التأثير في أحوالهم"⁽³⁾. يقصد أبناء بلاد الشام. ويستدل من أسماء الأشخاص القائمين على

(1) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 119-121، قُدري، مذكراتي، ص 17-18 مجهول، ثورة العرب، ص 35-36، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص12

(2) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول، ص 115

(3) اللجنة العليا، المؤتمر العربي الأول ص 115

المؤتمر أنهم من المسلمين والنصارى من بلاد الشام⁽²⁾، من المقيمين فيها والمهاجرين عنها، ومن الذين ما زالوا على علاقات بالاتحاديين ويشاركون في الحكم من خلال مواقع معينة، ومن المعارضين والمنفيين خارج بلاد الشام، لا سيما في مصر وفي بلاد المهجر كأمريكا وفرنسا، وعلى الرغم من مشاركة النصارى من أبناء الشام في المؤتمر بفعالية، وعلى قدم المساواة مع المسلمين، ومع ذلك ظلوا يوجهون المؤتمر ومنهجه واستراتيجيته نحو التمسك بالرابطة العثمانية، ولا أدل على هذا من مقررات المؤتمر وتوصياته التي قابلتها الاتحاديون بالصف والاعتلاء والاستخفاف، ويسترون طورانيتهم بقشرة إسلامية رقيقة، يظهرون فيها التمسح بالرابطة الإسلامية حسب ما قاله جمال باشا، وتم إيراد في الصفحات السابقة، منوهاً إلى أنه أراد من طرحه للمسألة العربية " أن يعرف الملاء أن الدسائس الأجنبية تبذر بذور الشقاق بين عنصرين إسلاميين كبيرين، وهما العنصر التركي والعنصر العربي"⁽³⁾ وهذا يكشف المفارقة الكبيرة بين هذه اللهجة التي يغزل فيها جمال باشا غزلاً ناعماً على الوتر الإسلامي، وبين لهجته حينما جلس إليه ممثلو المؤتمر المنتدبين فيه لينقلوا مطالب بلاد الشام لزعماء الاتحاديين، وكان جمال باشا واحداً منهم، يعترف في مذكراته بما بدر منه ويبيدي امتعاضه من رجال العرب وتعجرفه عليهم، واستخفافه بهم لدرجة الازدراء كما سيأتي عند مقابلته للوفد العربي من أبناء بلاد الشام، حين جاء هذا الوفد لعرض مقررات مؤتمر باريس على ممثلي حكومة الاتحاد والترقي. ويعلق صاحب ثورة العرب على إخلاص القائمين على المؤتمر للرابطة العثمانية وتمسكهم بها بقوله: "هذه هي قرارات المؤتمر العربي، وكلها تدل على وطنية وإخلاص عظيم للوطن العثماني، الذي كانت غاية المؤتمر تأييده وإعلاء شأنه والدفاع عنه من طوارئ الحدثان"⁽⁴⁾.

ومع كل تأكيدات القائمين على المؤتمر العربي على الرابطة العثمانية فقد أبدى الاتحاديون قلقاً وانزعاجاً من نتائجه، وحاولوا الالتفاف على تلك النتائج باستيعاب بعض العناصر الإسلامية ومحاولة استخدامها كطعم يحاولون من خلاله تفرغ مؤتمر باريس من محتواه والمراوغة لإيهام عامة الناس في بلاد الشام وفي غيرها من البلاد العربية وفي العاصمة العثمانية أن ما حدث في مؤتمر باريس كما جاء في جريدة طنين الاتحادية في 6 مايو عام 1913م بعنوان مؤتمر غريب: "إن الموقعين على بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسية، ولم يبق لهم صلة بالعربية والإسلامية"⁽²⁾

(2) الشهابي، القومية العربية، ص 89

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 91

(1) مجهول، ثورة العرب، ص 35-36

(2) مجهول، المصدر السابق، ص 37

وأوعز الاتحاديون لبعض الموالين لهم بإرسال تلغرافات إلى الأستانة من بلاد الشام تستنكر المؤتمر ومقرراته، ومما جاء في تلك التلغرافات: "إن القائمين بفكرة الإصلاح في سورية فئة من المتشردين الفارين من وجه الحكومة السنية، فجميع أهل سورية مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراءاتهم، ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طرز الإدارة الحاضرة التي أعلنت شأن الدولة ورفعت منار الدين" ولما شعر الاتحاديون أن هذه الحملة الدعائية المكثفة التي عبئوها ضد المؤتمر والقائمين عليه لم تؤثر على انعقاده وسير أعماله، لجأوا إلى أسلوب التظاهر بقبول ما صدر عنه، وأظهروا الميل لتلبية رغائب الإصلاحيين من بلاد الشام، واستعدادهم لقبول مبدأ الحوار مع التيار التوفيقي⁽³⁾، ويذكر دروزة أن جمعية الاتحاد والترقي اتصلت في أول الأمر بالشبيبة العربية في الأستانة، وتفاهمت معهم على تنفيذ مطالبهم، وحمل مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي صيغة التفاهم تلك إلى مؤتمر باريس، فوافق عليها القائمون على المؤتمر، مع أنها دون المنهج المقرر لإظهار حسن نياتهم، وللبرهنة للحكومة الاتحادية وللعالم على أنهم يريدون الإصلاح، ولو أتى تدريجياً⁽¹⁾ ولعل ما جاء في مذكرات جمال باشا يتفق مع هذه الرواية مع اختلاف في التفاعل واقتضاب أو توسع في ذكر عدد المطالب، فالمطالب التي ذكرها دروزة هي اثنا عشر مطلباً⁽²⁾، بينما يشير جمال باشا إلى الاتفاق حول ستة مطالب⁽³⁾ يقول جمال باشا حول ذلك: "جاءني طلعت بك ذات يوم في دار الحاكم العسكري، فأخبرني أننا مدعوان لزيارة الشيخ عبد العزيز جاويز على أصل إيجاد قاعدة للتفاهم مع العرب، وسنرى رئيس الجمعية السرية السياسية العربية، وبما أنني كنت من أكبر المتشيعين لإيجاد مثل هذا التفاهم، ونظراً لخبرتي العظيمة بالشؤون العربية قررت الحكومة أن أشارك في ذلك الاجتماع وفي اليوم المحدد ذهبنا للاجتماع فبرز لنا شخص، ... عبد الكريم

(3) مجهول، المصدر نفسه، ص 37، ص 38

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 442-443، وانظر: قدرى، مذكراتي، ص 19

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 443-444، وانظر: الشهابي، القومية العربية، ص 99

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 92-93

الخليل مندوب جمعية العرب السرية السياسية، ثم بدأت المفاوضات بعد الغداء"⁽⁴⁾ ويظهر جمال باشا غروره وصلفه كما أُشير قبل قليل في طريقة تناوله للمسألة العربية بقوله: "فقلت له: يخيّل إليّ أن جُلَّ مرادك أن يُقلّد بعض أفراد العرب عدة وظائف رئيسية في الآستانة، ثم قلت لنفسني مكتئباً إن الإصلاحات العربية إذا حكمنا عليها بآراء أولئك الزعماء لا يكون لها معنى البتة سوى قضاء لبانة أشخاص معينين علقت نفوسهم بالمناصب والأبهة، ومع ذلك شرعنا في وضع اتفاق يتضمن القواعد الآتية: أولاً: تسليم الأعمال الإدارية إلى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بإدارة الولايات. ثانياً: يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية. ثالثاً: تستعمل اللغة العربية في بعض إجراءات قانونية معينة. رابعاً: أن تضاف الصيغة العربية لإعلانات الحضور للمحاكم، كما تضاف إلى الأحكام المدنية والجنائية. خامساً: تكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية. سادساً: يعين بعض العرب في مجلس الأعيان ومجلس الدولة ومحكمة الاستئناف ومشيخة شيخ الإسلام ودار الإفتاء"⁽¹⁾.

ويؤكد دروزة أن ما تم الاتفاق عليه بين ممثلي العرب في باريس وفي الآستانة وبين الاتحاديين، اتفقوا على أن يبقى سراً إلى أن تصدر المراسيم (القرارات) اللازمة للتنفيذ، غير أن وكالة أنباء روتر أذاعت نبأ الاتفاق وبدء تنفيذه، ونشرت نصوصاً فيها بعض المبانيّة، فسارع حزب اللامركزية في مصر إلى نشر النصوص، ظناً منه أنه لم يبق ما يمنع نشرها، ثم أرسل برقية شكر إلى الصدر الأعظم، أعرب فيها عن أمله بأن تكون الاتفاقية بداية عصر جديد من عصور الإصلاح الحقيقي، واستاءت الحكومة الاتحادية من نشر النصوص، وأصدروا تكذيباً لها، ثم سارعت الحكومة إلى استصدار إرادة سلطانية بتاريخ 1913/8/5م جاء فيها دون ما تم الاتفاق عليه في نقاط كثيرة مدوّ ونصاً وروحاً كما يتضح من المقارنة"⁽²⁾ ثم وزعت وزارة الداخلية بياناً حول الإصلاحات التي تقرر إجراؤها في بلاد الشام، ... ومع أن البيان تلافى بعض أمور من المنهج المتفق عليه بين زعماء المؤتمر وم وفد الجمعية والحكومة الاتحادية، فإن الثغرات ظلت واسعة بين ما

(4) جمال باشا، المذكرات، ص 92، وانظر: قدري، مذكراتي، ص 19-20

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 443-444

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 91-93، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 445-446

داغر، مذكراتي، ص 61

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 445، داغر، مذكراتي، ص 61

- مجهول، ثورة العرب، ص 38

أعلنته الحكومة وبين هذا المنهج كما يتضح من المقارنة أيضاً⁽³⁾. ويظهر أن رجال الاتحاد والترقي شعروا أن العرب استاءوا من التطبيق الجزئي المحدود للمقررات المتفق عليها، وأن العرب شعروا بالثغرات الواسعة بين ما أُعلن وبين ما تم الاتفاق عليه، فأخذوا يصرحون بأن ما أُعلن ليس كل ما يراد تقديمه للعرب، وإنما كان الإعلان خطة لمنع العناصر الأخرى من التحرك والطمع، ويطلبون من العرب الصبر والأناة وحسن التقبل⁽¹⁾.

أما الإصلاحات الجزئية ذات الثغرات الواسعة والكثيرة حسبما رآها التيار التوفيقى، والتي عدّها مؤتمر باريس واعتبرت غير كافية ولا تحقق الرغبات العربية فهي:

1- أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي بحسب شروط الواقف إلى مجالس الجماعات في الولايات، وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريباً.

2- أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش، إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود من جهة أخرى، وترسل العساكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز ونجد وعسير.

3- أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، وذلك لتوفير أسباب المدنية التي تحتاج إليها في الحال وفي المستقبل.

4- أن يعين الموظفون من الواقفين على اللغة العربية، علاوة على اللغة الرسمية، وأن ينظر حين تعيينهم إلى هذا الشرط⁽²⁾.

وبالنسبة لموقف الجمعية العربية الفتاة التي كانت صاحبة الفكرة الأساس لمؤتمر باريس، فقد جاء واضحاً على لسان أحمد قدرى أحد أعضائها المؤسسين حين قال: "وقد أعلنت الحكومة العثمانية عزمها على تحقيق تلك الإصلاحات، إلا أنها لم تحقق ما تم الاتفاق عليه، بل رأت أن تنفذ خطة التقارب التركي العربي بالاكتفاء بتعيين كل من السادة عبد الحميد الزهراوي ومحمد بيهم ويوسف سرسق وعبد الرحمن اليوسف (ومحي الدين النقيب - من العراق -) وأحمد كيخيا في مجلس الأعيان، وعينت شكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي (وناجي السويدي - من العراق) وأمين التميمي في مناصب رفيعة، ثم أسست مدرستين ثانويتين عربيتين، الأولى في دمشق، والثانية في بيروت، وعهدت إلى كل من رفيق التميمي ورستم حيدر بأن يدير كل منهما مدرسة، وصار في مقدور المحاكم في البلاد العربية سماع المرافعات باللغة العربية"⁽¹⁾. وبعد عَرْضِه الإصلاحات التي تم تطبيقها، يلفت الانتباه إلى موقف التيار المطالب

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 446، داغر، مذكراتي، ص 61-62

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 446-447

(2) داغر، مذكراتي، ص 60-61، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 445-446

مجهول، ثورة العرب، ص 38-39

(1) قدرى، مذكراتي، ص 20، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 127

بالإصلاح منها، ويخصص موقف جمعياته العربية الفتاة، ويقول: "وقد خُيِّل للحكومة التركية أنها تُرضي أبناء البلاد العربية بهذه الحلول المحدودة، ولكن جمعيتنا رأت في هذه الحلول مسائل ثانوية بالنظر لمطالبنا الأولية، إذ أن تعيين بعض أرباب النفوذ من العرب في مجلس الأعيان، وتعيين بعض الموظفين في وظائف مرموقة، ليس هو ما ينشده العرب، وإنما ينشدون حياة حرة تكفل لبلادهم تقدمها وازدهارها، ولذلك اتخذت جمعيتنا قراراً: بأن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية يجب ألا تشغلنا عن مطالبنا الرئيسية، وعلى العرب إظهار شعورهم الحقيقي بعدم قبولهم لكل حل لا يتفق مع مقررات مؤتمر باريس، فالزهرراوي لم يكن على علم بوجود جمعية الفتاة وخططها، فلم يُدخلها في حسابه، وأن خطته المعتدلة هذه واتجاهه لماماشاة سياسة الحكومة الاتحادية، لم تنج من أن يحكم عليه بالإعدام في المجلس العرفي في عالية، وعلى الأثر أبلغت الجمعية القرار الأنف الذكر لعضويتها في الأستانة سيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلّوم، وهما قوام المنتدى الأدبي في الأستانة، ليعملا على تحقيق ما قرره المؤتمر"⁽²⁾.

وعلاوة على موقف أعضاء الجمعية العربية في استانبول من مقدار وحجم الإصلاحات التي تحققت بعد الاتفاق بين الاتحاديين وممثلي العرب في العاصمة العثمانية وممثليهم المقترحين بعد مؤتمر باريس، يبرز موقف عبد الحميد الزهرراوي الذي كان رئيساً لهذا المؤتمر، والذي اعتبر زعيم تيار التوفيق بين العرب والاتحاديين، وقد بسط الأعظمي التطورات التي حدثت بعيد مؤتمر باريس حيال المطالب العربية والسير في تنفيذ الوعود الاتحادية بخصوص تلك المطالب، ودور الزهرراوي في متابعة المطالب المذكورة، إضافة لقبوله المشاركة في مجلس الأعيان العثماني ليؤدي دوراً مؤثراً في التوفيق بين العرب والاتحاديين في هذه المرحلة، وأسباب ذلك القبول، يقول الأعظمي: "مكث عبد الحميد أفندي الزهرراوي في باريس مدة خمسة أشهر بعد أن غادرها رفاقه، ثم أرسل إليه عبد الكريم قاسم الخليل كتاباً يعلمه بأن مجيئه إلى الأستانة أفيد من بقائه في باريس، فقدم الزهرراوي ومعه رجل من أهل العراق كان قد عينته الحكومة الاتحادية جاسوساً على المومي إليه يَعُدُّ عليه أنفاسه، فحشر ذلك الجاسوس نفسه في زمرة المجندين لأعمال رجال الإصلاح بدون أن يحضر جلسات المؤتمر بصفة تخوله حق الحضور، وقد توصل بدهائه إلى أن ينفذ إلى قلب الزهرراوي، فيسرق منه جميع أسرارهِ دون أن يكون للزهرراوي علم بذلك، حتى أنه قدم معه سوية إلى الأستانة، ونزل معه في حي واحد، بل وفي شارع واحد، ثم أحاطت بالزهرراوي الجواسيس إحاطة الماء الأسن بالحديقة الغناء"⁽¹⁾ ويكمل الأعظمي حديثه عن دور الزهرراوي في الحرص على إبقاء الصلة بقيادة الاتحاد والترقي لمتابعة تنفيذ بنود الإصلاح بعد مؤتمر باريس، يقول: "بقي الزهرراوي في الأستانة زمناً ليس بالقليل، ينتظر بفارغ الصبر تنفيذ الإصلاح الذي وعدت به الحكومة، وصدر بموجبه المرسوم

(2) قدر، المصدر السابق، ص 20-21، وانظر:

الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص8

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص3

(2) الأعظمي، المصدر السابق، ج4، ص 7-8

السلطاني، ولكن انتظاره كان على غير جدوى، لأن الحكومة لم يظهر منها غير المطل والتسويق، ولم ير من الحزم أن يترك الأستانة ويذهب مغاضباً، لأن هذا لا يهم الحكومة، بل رأى من الحكمة أن يبقى يطالبها ليلاً ونهاراً، ويذكرها بوعودها التي قطعتها للعرب على نفسها، ولما كثر إلحاح الزهراوي ومطالبته في أمر تنفيذ الإصلاح الموعود به، أجابته الحكومة قائلة: "إننا على عهدنا"⁽²⁾ ومما ذكره ساب في هذا السياق أن الزهراوي وعزيز المصري كانا على خلاف في الرأي بشأن العلاقات العربية مع الاتحاديين، إذ يمثل الزهراوي وجهة النظر التي تتبنى إبقاء التعاون مع الاتحاديين ضمن إطار اللامركزية، وهو ما تم بيانه عند الحديث عن دور الزهراوي في حزب اللامركزية، في حين أن عزيز المصري كان ضد العمل مع الاتحاديين لكونه قد خبر الاتحاديين عن قرب من خلال العمل معهم في الجيش العثماني، وهذا هو جوهر الخلاف بين العسكريين والسياسيين العرب الذين يعملون مع العثمانيين في هذه المرحلة⁽³⁾.

ثم عرض الاتحاديون على الزهراوي عدداً من المطالب التي نفذوها⁽¹⁾ وأشير إليها قبل قليل، أرادوا تعيينه في عضوية مجلس الأعيان، وابلغوه بهذا التعيين، فقبل ذلك لعلهم أن عضوية الأعيان لا تعد وظيفة أو منصباً في الحكومة، لأن عمل الأعيان كعمل النواب: وضع القوانين ومراقبة الحكومة في تنفيذها، فهي سيطرة على الحكومة لا خدمة لها، ومن جهة أخرى قد يتمكن من أن يكون واسطة لدوام التفاهم بين الجمعيات الإصلاحية والحكومة، لا سيما بعد أن علم أن الاتحاديين كانوا قد أقنعوا بعض رجال جمعية بيروت الإصلاحية بالعود الجميلة فسكنت حركتها بالتدريج، أضف إلى ذلك أن القوة العربية التي يجب أن يستند عليها الزهراوي هي الموظفون والنواب أما الموظفون فهم أعوان الغاصب في كل دور وزمان، إلا ما قلّ وندر، وأما النواب فقد كانوا يومئذٍ أشبه بنواب مصر الذين سَمَّاهم زعيمها سعد زغلول (براذع الغاصب) وقد كان قليل منهم من يعرف كرامته، بل كان معظمهم تنحصر وظيفته في التصفيق والتهافت لساداته وكبريائه، فهذا الضعف الذي كان مخيماً على صفوف الأمة، هو الذي حدا بالزهراوي إلى أن يقنع مؤقتاً بالطيف من الإصلاح ويقبل العضوية في مجلس الأعيان، لعله يتمكن من إقناع الاتحاديين - الذين نكثوا العهد - فيما فيه الخير للطرفين، ولعله يستطيع وهو في عضوية الأعيان أن يعمل أضعاف ما يعمله دونها⁽²⁾. ويعلق أنطونيوس على قبول الزهراوي لمنصب عضو في مجلس الأعيان، وعلى اجتهداه بقبول هذا المنصب، بأن موافقة الزهراوي ما كانت إلا مناورة سياسية، قد يتيح له منصبه الجديد بذل جهده والاستفادة من نفوذ لتحسين العلاقات العربية العثمانية، ويضيف أنطونيوس القول: "يخيل لنا من قراءة بعض رسائله (الزهراوي) التي نشرت بعد وفاته أنه كان صادقاً في هذا الزعيم، وأيده بعض زملائه المقربين في هذه الخطة، وإن شددت عنه أكثريتهم، على أن جمهرة المشتغلين بالحركة القومية عدّوا قبوله المنصب بمثابة الخيانة"⁽³⁾.

ويذكر الأعظمي أن الزهراوي بعد قبوله أن يكون في مجلس الأعيان استشار حزب اللامركزية لأنه منتسب إلى هذا الحزب وعضو فيه⁽¹⁾، والشيخ رشيد رضا فوافقا على بقائه في موقعه خدمة للأمة، يقول في ذلك: "لقد تغلغل في قلب الزهراوي الاعتقاد التام على أن الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب، وأنه يجب مسايرة العقلاء من العرب لهم على ذلك، لأنهم ينالون بهذه المسايرة من الحقوق ما لا يرجى أن ينالوه بالسعي مع مجافاتهم، وبناءً على هذه النظرية قبل عضوية الأعيان، لكنه بعد قَبُوله لها رأى نفسه أنه أصبح مضغّةً تلوّكها الأفواه، حيث مهد لخصومه سبيل الطعن فيه، فأخذوا يتقولون عليه وينعتونه بأقبح النعوت، فكتب لصديقه محمد رشيد رضا

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 8

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 8-10 وانظر: أنطونيوس، بقطة العرب، ص 128 - جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 60-61، كرد علي، المذكرات، ج1، ص 115

(3) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 128

(1) قدرتي، مذكراتي، ص 21

كتاباً وصف فيه الحال السياسية وصفاً دقيقاً، وطلب رأيه في قبول العضوية أو الاستقالة منها، فجاء الجواب من رشيد رضا وحزب اللامركزية أن يبقى في العضوية ويثابر على جهاده الكبير⁽²⁾.

- تحسن العلاقات المؤقت إثر الإعلان عن تنفيذ الإصلاحات:

وتلى تعيين عبد الحميد الزهراوي في مجلس الأعيان وتنفيذ بعض الإصلاحات المحدودة في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية العثمانية، أن أبدى قادة الحركة العربية ارتياحاً واضحاً لتطبيق تلك الإصلاحات، على الرغم من قناعتهم بقلتها، لكنها اعتبرت خطوة نحو الاتجاه الصحيح، وينبغي أن تُتبع بإجراءات أخرى تعززها وتؤكدّها وتكملها، وأعرب هؤلاء القادة عن سرورهم بما تم تحقيقه، وزار وفد من أبناء العرب الباب العالي ليشكروا الحكومة على إنجازاتها، وذلك يوم 5/ آب 1913م⁽³⁾، وهو التاريخ الذي استصدر الاتحاديون فيه الإرادة السلطانية بالمصادقة على الإصلاحات المقترحة⁽⁴⁾، ونشرت هذه الإرادة في (18) آب ليعطى اتفاق باريس الشكل القانوني⁽⁵⁾ وفي مساء اليوم نفسه أعد رجال الحركة العربية في العاصمة العثمانية مأدبة شائقة في فندق توكتليان في استانبول لخمس وأربعين شخصية من الطرفين العربي والتركي، حضرها أبرز وجوه الاتحاد والترقي، منهم طلعت وأنور جمال و خليل بك وفتحي بك سكرتير الاتحاد والترقي، ومن وجهاء العرب عبد الكريم خليل وسليمان البستاني وبعض أفراد أشرف الحجاز كالشريف حيدر وجعفر ومحي الدين، وألقى طلعت باشا كلمة شكر فيها دعوة الطرف العربي لرجال الاتحاد والترقي لهذه الوليمة، وقال: إنه وجمعيته وزملاؤه الوزراء يخدمون العرب بإخلاص من زمن بعيد، وأنكر وجود سوء تفاهم، ونسب كل المساعي الإصلاحية إلى جمعيته⁽¹⁾.

ثم طلب طلعت بك من فتحي بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي أن يتكلم، فوقف فتحي وشكر للشبيبة العربية بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الاتحاديين تكرمها بدعوتهم إلى العشاء، وأعرب عن رغبة الجمعية في الإصلاح، وعن عزمها على إنجاز ما وعدت به، وتلاه بابان زاده إسماعيل حقي وزير المعارف حينئذٍ، فحث على الائتلاف والاتحاد. وتكلم سليمان البستاني وزير الزراعة في ذلك الحين، وافتتح كلمته ببيت الشعر الآتي:

وإذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 18 وانظر تفاصيل المراسلة بين الزهراوي ورشيد رضا، المصدر نفسه، ج 4، ص 30-19 وانظر: قدرى، مذكراتي، ص 22

(3) داغر، مذكراتي، ص 61-62، وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 448 - مجهول، ثورة العرب، ص 39

(4) مجهول، ثورة العرب، ص 38، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 445 (5) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 127

(1) داغر، مذكراتي، ص 62-63، وانظر: مجهول، ثورة العرب، ص 39 - جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 60

وتحدث بالنيابة عن الحكومة، كونه من أعضائها، وصرح أنها عازمت إجراء الإصلاح الحقيقي عزمًا أكيداً، وأنها ستنبئ العرب أموراً لا يفكرون بها الآن، وتعرف ما هو الواجب وتريد إصلاح الحال⁽²⁾.

وفي هذه الأجواء المفعمّة بالتفاؤل والإيجابية، تشجع ممثلو الحركة العربية في استانبول ومعهم أعضاء الوفد الذي جاء من باريس بعد المؤتمر الذي عقد فيها وهم الشيخ أحمد حسن طيّارة ومختار بيهم وسليم علي سلام، وفاوضوا رجال الحكومة، ثم قابلوا السلطان محمد رشاد (محمد الخامس) في (23) أغسطس/ آب 1913م، ورجوه التدخل لدى الحكومة لتنفيذ الإصلاحات على وجه السرعة، وزار الوفد في 27 أغسطس آب ولي العهد، وأكد أمامه سليم سلام تعلق العرب بالعرش العثماني، وتكلم أمامه أيضاً الشيخ أحمد طيّارة وعبد الكريم الخليل وصوّر الاتحاديون للعرب في استانبول أنهم ماضون في طريق الإصلاح عقب الإجراءات المحدودة في هذه الاتجاه التي ذكرت قبل قليل، ودعوا الشبيبة العربية وأعضاء الوفد القادم من باريس يوم الأربعاء (27) أغسطس/ آب 1913م، وجميع الوزراء العثمانيين، وبعض كبار الشخصيات من الطرفين العربي والتركي، إلى وليمة، واغتنمت هذه الدعوة للحديث عن العلاقات العربية العثمانية، فقام فتحي بك وتكلم قائلاً: "في اجتماع مضى كهذا الاجتماع تبودلت عواطف السرور بالاتفاق الذي تم بين العرب والترك، فأعيد الآن ما أبديته من السرور في ذلك الاجتماع أمام أعضاء وفد المؤتمر العربي المؤلف من سليم سلام والشيخ أحمد طيّارة ومختار بيهم، وأشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة، وأرجو أن يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للأمة والدولة"⁽¹⁾ ورد عليه عبد الكريم خليل بكلمة طيبة، ثم تحدث الشيخ أحمد طيّارة، ركز في حديثه على أهمية استمرار العلاقات العربية العثمانية، وأشار أنه يتحدث باسم المؤتمر، ومما قاله: "لقد صرخنا بمك أفواهنا ونصرخ الآن وفي كل زمان أننا نشأنا تحت ظل الهلال العثماني، ونريد أن نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله، وأعني (بنحن) العرب، وأعني بالعرب كل ناطق بالضاد، لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم، لا نرضى عن دولتنا العلية بديلاً، وأنا نفديها بأرواحنا وأموالنا، ونطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الرضية لنعيش وإياها في سعادة وهناء ورخاء على قاعدة الاشتراك في الحكم وتبادل الحقوق"⁽²⁾. وبانتهاء أعمال المؤتمر العربي في باريس وبمتابعته لتطوير العلاقات العربية مع حكومة الاتحاديين يكون التيار التوفيقي قد استنفذ فرصه في سعيه للحفاظ على تلك العلاقات، ويبدو أن جهوده في قد وصلت لطريق مسدود بعدما تنكر الاتحاديون لوعودهم للعرب بتحقيق الإصلاحات في بلاد الشام، وأخذت العلاقات تسير في اتجاه التآزم والقطيعة نتيجة جرائم الاتحاديين واتباعهم منهجاً جديداً في تعاملهم مع العرب، وإعدامهم لمجموعة كبيرة من رجالاتهم، وكانت سياسة الاتحاديين

(2) داغر، المصدر السابق، ص 63

(1) داغر، المصدر نفسه، ص 64

(2) داغر، المصدر نفسه، ص 64

هذه دافعاً دفع التيار العربي الآخر الذي عمل باتجاه مقاومة الاتحاديين ومحاربتهم لأن ينشط ضدهم ويسارع في قطع العلاقات معهم.

و- جُمعية بيروت الإصلاحية:

هي جمعية عربية أسسها عدد من وجهاء لبنان المسلمين سنة 1910م الموافق 1328هـ، ومن الوجوه البارزة سليم علي سلاّم، وأحمد مختار بيّه، وأحمد حسن طَبّارة وأيوب ثابت، وتسمى أيضاً: الجمعية العمومية الإصلاحية⁽¹⁾ وقال قدري أنها تأسست في خريف 1912م⁽²⁾، وبلغ عدد أعضائها الذين وافقوا على برنامجها بعد جلسات عدة في دار البلدية ببيروت (86) عضواً منتخبين من جميع الطوائف، وقد ضمت الجمعية بعد تأسيسها أعضاء من النصارى أمثال خليل زينية وألبير سرق وغيرهم، لقبولهم العمل على تحقيق أهداف الجمعية التي تنحصر في الإصلاحات الإدارية في بلاد الشام على أساس اللامركزية، دون الخروج عن إطار الرابطة العثمانية، والعمل على توطيد هذه الرابطة⁽³⁾، وقد حاول الأعضاء النصارى في هذه الجمعية الاتصال بفرنسا فيما بعد يطالبونها بالسيطرة على بلاد الشام لحمايتهم، أمثال خليل زينية، وتقدموا بطلب إلى قنصل فرنسا في بيروت، ونشرته الخارجية الفرنسية بعد ذلك على شكل وثيقة، يقولون فيه: "إن نصارى سوريا مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً ولا يمكنهم أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها، ومن اعتراف بالشكر لها لعطفها عليهم أيام الشدائد، إن الأمانة الكبرى لمسيحيي سورية هي بسط حماية فرنسا على سورية"⁽⁴⁾ وقد أذاعت جمعية بيروت الإصلاحية برنامجها في منتصف شباط عام 1913م، ولاقى برنامجها هذا تأييداً شعبياً واسعاً في بلاد الشام والعراق، وهو ما دعى حكومة الاتحاديين إلى الإسراع لحلها وإغلاق مكاتبها متذرعاً بأن المطالبة بمستشارين أجانب في لائحتها لا يجوز البحث فيه، ويعرض الدولة

(1) سلاّم، المذكرات، ص 20-22، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 399، مجهول، ثورة العرب، ص 30، الشهابي، القومية العربية، ص 82-83

- الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 76، قدري، مذكراتي، ص 15

(2) قدري، مذكراتي، ص 15، وانظر: السعدون، الحركة الإصلاحية، ص 30

(3) مجهول، ثورة العرب، ص 30-33، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ص 47 دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 400-406، الشهابي، القومية العربية، ص 83-84، زين، نشوء القومية، ص 98، كامل، الإسلام والعروبة، ص 156

(4) سلاّم، المذكرات، ص 22-23، وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 37-41 - الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 77-79، 81-83، السعدون، الحركة الإصلاحية، ص 24-26

العثمانية للخطر، وكان حلها في 8 نيسان 1913م، ثم أغلق الاتحاديون ناديها في منطقة باب إدريس في بيروت، واعتقلوا بعض قادتها، وعلى أثر ذلك أضربت بيروت احتجاجاً على عمل الاتحاديين، ثم ما لبثت أن أضربت مختلف الولايات العربية، وكان هذا أول إضراب في الولايات العربية ضد عمل الاتحاديين⁽¹⁾، ولم يتوقف نضال رجال الإصلاح إلا بعد اتفاق الاتحاديين مع المؤتمرين في باريس⁽²⁾.

2- الاتجاه المناهض للعرب عن العثمانيين وقطع العلاقات معهم.

أدت السياسة التي اتبعتها جماعة الاتحاد والترقي في قيادة وإدارة الدولة العثمانية إلى انقسام العرب في بلاد الشام وفي سائر الولايات العربية المرتبطة بهذه الدولة إلى تيارات تمت الإشارة إليها قبل الحديث عن التيار الأول، وهو التيار الذي تبنى منهجية الحفاظ على العلاقات العربية العثمانية، والمطالبة بإصلاحات في البلاد العربية تقوم بها الحكومة الاتحادية، ولا بد هنا من إعادة التأكيد على أن الحديث عن بلاد الشام في هذه الفترة يقتضي بالضرورة ربط الأحداث التي تقع فيها بغيرها من البلاد العربية الأخرى التي بقيت تحت السيادة العثمانية إلى نهاية الحرب العالمية الأولى 1918م، كالعراق والحجاز واليمن، مع الإشارة إلى خروج بلدان عربية أخرى من السيادة العثمانية في أوقات مختلفة قبل التاريخ المذكور، لذلك فإن العاملين للقضية العربية يعملون ضمن الإطار القومي العام للبلاد العربية، مع التركيز على الشأن المحلي لكل إقليم أو منطقة عربية على حدة، فأبناء بلاد الشام ينشغلون بالقضية العربية بشكل عام في هذه المرحلة قبل أن تقسم الدول الاستعمارية البلاد العربية إلى مناطق نفوذ لكل منها، وقبل أن تصطنع من أبناء هذه البلاد رجالاً جعلتهم قادة فيها، ونفثت في نفوسهم بذور سياستها الخبيثة القائمة على الإقليمية البغيضة، التي حولت أبناء الأمة في فترات لاحقة إلى شيع وأحزاباً كل إقليم وكل قطر بما لديهم فرحون⁽³⁾، فالحال في مطلع القرن

(1) سلام، المذكرات، ص 25، فيضي، المذكرات، ص 128 قدرتي، مذكراتي، ص 16، أنطونيوس، بقطة العرب، ص 123-124

(2) قدرتي، مذكراتي، ص 16، أنطونيوس، بقطة العرب، ص 124

(3) ويشير الأعظمي إلى بدء التفكير بالشأن الإقليمي لكل قطر عربي منذ أن انقسمت جمعية العهد التي أسسها بعض العرب من جميع أقاليمهم، وكان ذلك بعد ما أرادت الدول الاستعمارية فرنسا وبريطانيا اقتسام البلاد العربية الآسيوية بعد الحرب العالمية الأولى، ويتم إيراد نص تعليقه على هذه الفكرة لجودة تعبيره المصحوب ببلاغ تأثره وألمه من ذلك الواقع الذي كرسه دعاة الإقليمية وصناع الاستعمار من أبناء البلاد العربية. يقول الأعظمي تحت عنوان انقسام جمعية العهد: "استعر وطيس الحرب (العالمية الأولى 1914م) وخمدت ثائرة الجمعية وقتاً ليس بالقليل، إذ قد تفرق رجالها في ميادين القتال ... وعندما ابتسمت لهم الأيام، ودخلوا بجيشهم الظافر ربوع دمشق (جيش الثورة العربية) وسوس في صدورهم شيطان الزهو والغرور، فحصل لهم من الطموح إلى اقتسام الغنيمة ما أدى إلى العراك كما يحصل ذلك عند معظم القواد الفاتحين، فانشقت الجمعية على نفسها، وانقسمت إلى عهد سوري وعهد عراقي، وكانت حجتهم في هذا الانقسام تدل على مبلغ طفولتهم السياسية، حيث أنهم قالوا في بيانهم الذي نشره: إن دول التحالف (بريطانيا وفرنسا) لا توافق على تأليف دولة عربية مستقلة، فلذلك رأى رجال جمعية العهد أن ينقسموا إلى شطرين، كل منهم يبذل جهده في سبيل تحرير القطر الذي ينتمي إليه ... ومن هنا نشأت الأغلط الفادحة، وارتكبت الأخطاء التي تحملت الأمة العربية أعبائها، إذ أضحت المواقع الإقليمية تذكر عوض الوطن

العشرين وقبل إسقاط راية الخلافة، التي كانت لها هيبة اسمية في نفوس أبناء الأمة، تؤكد على الروح الجماعية التي تشد أبناء الأمة لبعضهم برباط العروبة الصادق، ثم بالرابطة الإسلامية الأوسع التي جعلتهم يدينون بالولاء للدولة الإسلامية العثمانية مدة أربعة قرون خلت، ولما تغير الظرف حين أخذ الاتحاديون الطورانيون ينقادون لنزعهم الطورانية المفرقة بينهم وبين العرب، وقد كانوا قبل ذلك ينضون جميعاً عرباً وأتراكاً تحت الرابطة العثمانية الإسلامية، انقسم العرب لأكثر من اتجاه، ووجد فيهم من البداية كردة فعل ضد التيار الطوراني تيار عربي ينادي بانفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، طالما أنها لم تعد تساويهم بإخوانهم الأتراك في ظل رابطة الإسلام الجامعة بينهما، وقد أعلن هذا التيار عن نفسه، وأخذ يتكلم ويجمع الأنصار والمؤيدين للوصول إلى أهدافه باستقلال البلاد العربية وانفصالها عن هذه الدولة التي أخذ قادتها الاتحاديون يمارسون تفرقة واضحة بين العنصرين العربي والتركي المشاركين فيها، وقد ظهرت التكتلات والجمعيات السياسية العربية منذ أن بدأ التيار الطوراني الذي تقوده جماعة الاتحاد والترقي يمارس السياسة التتريكية ضد البلاد العربية بعد عام 1909م، والتي برزت على أشدها في بلاد الشام، وكان من أهم الجمعيات والأحزاب التي عرفت في هذه الفترة ما يلي:

أ- الجمعية العربية الفتاة.

تأسست الجمعية العربية الفتاة في الفترة الأولى التي تلت إعادة العمل بالدستور عام 1909م، وهي من أهم وأعظم التنظيمات العربية السرية التي نشأت في هذه المرحلة⁽¹⁾، وكان برنامج هذه الجمعية عند تأسيسها كما يقول قدرى - وهو أحد أعضائها المؤسسين: "غايتها النهضة بالعرب وإيصالهم إلى مصاف الأمم الحية"⁽²⁾ ووصف دروزة جمعية العربية الفتاة بأنها أهم تنظيم عربي قومي وأوسع وأشمل وأنشطه⁽³⁾ في تلك المرحلة الهامة من العلاقات العربية العثمانية، في وقت "انتبه فيه الفكر العربي الحديث ووثبت الدعوة إلى النهوض بالقوميات العثمانية والشرقية"⁽⁴⁾، وأشار أنطونيوس إلى أهمية هذه الجمعية الفتاة للتكتل العربي المقاوم للسياسة الاتحادية العنصرية ضد العرب بأنها تبوأَت بالنسبة للمدنيين نفس المكانة التي تبوأَتها جمعية العهد بالنسبة للعسكريين من العرب في الجيش العثماني⁽⁵⁾. وقد اختلفت الروايات حول تاريخ تأسيسها، فهناك رواية تنقلها الريمائي عن عوني عبد الهادي - وهو من نابلس من المؤسسين للعربية الفتاة - يقول: كنت وزملائي محمد رستم حيدر والدكتور أحمد قدرى نتلقى العلم في الأستانة عند إعلان

العربي، وأمسّت الشعوب تنتسب إلى أقطارها، بدل من تفنخر بالنسبة إلى قوميتها، وهذا ما يتطلبه الاستعمار الغاشم". انظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 65-67

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 9

(2) قدرى، مذكراتي، ص 11، الغصين، مذكراتي، ص 38

كامل، الإسلام والعروبة، ص 153

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 480. وانظر: الجميل، تكوين العرب الحديث، ص 520

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 97

(5) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 131. وانظر: أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص 4

الدستور سنة 1908م، وقد هالنا تعصب أعضاء تركيا الفتاة - الذين ظهرُوا باسم سياسي هو حزب الاتحاد والترقي - إلى عضويتهم التركية، وأخذ مؤيدوهم من الترك يوجهون السباب والشتائم والصفات النابية لعزت العابد وأبو الهدى الصيادي ... وعلى هذا الأساس تداولنا حول مشروع تشكيل جمعية سرية عربية قومية في مواجهة تركيا الفتاة - الاتحاد والترقي - تهدف إلى استقلال أمتنا العربية عن هذه الأمة التي ذقنا منها الويلات طيلة هذه المدة، وكنا في مرحلة المداولات الأولى حينما رخصت جمعية الإخاء العربي العثماني العلنية في شهر أغسطس/ آب سنة 1908م، فصممنا نحن أن تكون السرية طريقنا إلى تأسيس الجمعية ⁽¹⁾ وتنقل الريماوي أيضاً عن محب الدين الخطيب - وهو من الأعضاء المؤسسين للعربية الفتاة - أنه لم يكن للجمعية قانون ولا رئيس في الأستانة، بل كانت مجرد فكرة - يتداولها هؤلاء الثلاثة محمد رستم حيدر والدكتور أحمد قدري عوني عبد الهادي، في الأستانة عام 1908م، وعندما تواجهوا إلى أوروبا في العام التالي، تعاقدوا في باريس على تحقيق فكرتهم هذه التي نشأت في الأستانة ⁽²⁾، وتضيف الريماوي أنها وجدت ضمن الوثائق التي قلبتها في مكتبة محب الدين الخطيب تاريخاً ثالثاً لتأسيس الجمعية وهو سنة 1909م من خلال المنشورات الثلاثة الصادرة عن العربية الفتاة، والتي عرفت باسم الصرخات الثلاث، كل منها مذيّل بختم الجمعية، وفيهم تاريخ نشوء الجمعية، وتحدده بالربع من تشرين الثاني نوفمبر عام 1909م ⁽³⁾.

وقد روى قدري ما يمكن الاستناد إليه في الترجيح بشأن تاريخ إنشاء هذه الجمعية، يقول قدري: "وقد سافر عوني عبد الهادي ومحمد رستم لباريس لإكمال دراستهما، فخابراني بخصوص مواصلة السير بجمعيتنا العربية التي كنا شرعنا بتأسيسها في الأستانة، فأجبتهما بضرورة ذلك، وبأنني على وشك اللحاق بهما، وهكذا تشكلت أول هيئة إدارية للفتاة سنة 1911م" ⁽⁴⁾ فالاختلاف في الروايات حول تحديد تاريخ تأسيس جمعية العربية الفتاة إنما هو اختلاف شكلي أكثر منه موضوعي، ينبع من الاختلاف حول معنى تاريخ التأسيس، فالروايات تشير إلى المراحل الطبيعية التي مر بها الإعداد لتأسيس الجمعية، فالذين قالوا إن تاريخ التأسيس كان عام 1908م كما في رواية أحمد قدري وعوني عبد الهادي ومحب الخطيب ⁽¹⁾، إنما كان المقصود بذلك أن تكوين الجمعية كان حينذاك فكرةً يتداول المؤسسون فيما بينهم إمكانية تكوينها، ثم

(1) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 65-66، من أوراق سهيلة الريماوي، مقابلة شخصية مع عوني عبد الهادي أحد الأعضاء المؤسسين للعربية الفتاة، في القاهرة سنة 1966م. ونقل هذا الرأي أيضاً دروزة وأخذ به. انظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481

(2) محب الدين الخطيب، سيرة جبل (مخطوط) غير مرقم، ضمن وثائق ومخطوطات الريماوي في مكتبته الخاصة في منزلها في عمان، وقد أشارت إليه في كتابها جمعية العربية الفتاة، انظر هناك، ص 67

(3) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 67-68، وانظر:

- الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 41

- الشهابي، القومية العربية، ص 72

- عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 249

(4) قدري، مذكراتي، ص 11

(1) قدري، مذكراتي، ص 11، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 68

تحولت الفكرة والمداولات بين الأشخاص المذكورين إلى صيغة تنظيمية لها برنامج مكتوب اتفقوا فيه على آلية عملها وأهدافها ووسائلها ونظامها الداخلي، ويبدو أن هذا تم في عام 1909م، حسب رأي القائلين برواية التأسيس بهذا التاريخ، حيث وضع دستور الجمعية، كما تشير الوثائق التي اعتبرت السنة المشار إليها تاريخاً لنشئها وفق رواية أصحاب هذا الرأي كالأعظمي وتابعه فيه بعض المحدثين⁽²⁾، أما الرواية الثالثة التي تشير إلى العام 1911م تاريخاً لتكوين الجمعية العربية الفتاة، فهي تعني تاريخ تشكيل أول هيئة إدارية للعربية الفتاة، بعد أن تبلورت بشكلها النهائي الذي تدرجت للوصول إليه، وهذا ما قصده أحد أعضائها المؤسسين قُدري ووافقه آخرون من الذين قالوا بأن هذا التاريخ هو تاريخ تأسيسها أمثال مصطفى الشهابي ودروزة⁽³⁾، ورآه آخرون من المؤرخين المعاصرين⁽⁴⁾، ويشير الشهابي إلى ظروف نشوء العربية الفتاة في عام 1911م، بقوله: "كنت أطلق لفظ قنصلية العرب على غرفة الدكتور أحمد قُدري في شارع إستراباد (في باريس)، لأن الدكتور كان دائماً يتلقى الطلاب ببشر وينظر في حاجاتهم ... وفي هذه البيئة الباريسية المملوءة بالنشاط والوطنية تحققت فكرة تأليف أعظم جمعية وطنية سرية، وهي جمعية (العربية الفتاة) أو قل: جمعية الأمة العربية الفتاة"⁽⁵⁾، ولهذه التسمية حيثية قصدها الأعضاء المؤسسون وبينها قُدري حين قال: "وكنا نهدف من إطلاق اسم الفتاة على جمعيتنا، اسم الجمعية العربية الفتاة، ولكننا خشينا أن يلفت هذا الاسم أنظار الاتحاديين، فنقع تحت طائلة طغيانهم فيما إذا عثروا على شيء من مراسلاتنا أو أخبارنا، لذلك أثرنا اللباز بالتستر الشديد"⁽¹⁾.

- مؤسسة الجمعية:

يذكر قُدري أسماء الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية بقوله: "أما مركز الجمعية فقد كان في باريس بسبب وجودنا طلاباً فيها، وقد ضمت كلاً من السادة: عوني عبد الهادي، رفيق التميمي، محمد رستم حيدر، محمد المحمصاني، عبد الغني العريسي، صيري الخوجة، توفيق الناطور، وكاتب هذه السطور، وكنا أول هيئة إدارية للفتاة، ثم انضم إليها: جميل مردم بك، صبحي الحسيني، الأمير مصطفى الشهابي، توفيق فايد، إبراهيم حيدر"⁽²⁾ والملاحظ من الأسماء السابقة أنهم جميعاً من أبناء بلاد الشام، ما عدا توفيق الفايد السويدي فهو من بغداد⁽³⁾، وهو ما يدل على أن هؤلاء المؤسسين كانوا من أوائل دعاة

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 97، زين، نشوء القومية، ص 91

عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 249

(3) قُدري، مذكراتي، ص 11، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 41-42

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481، 484

(4) الريمائوي، جمعية العربية الفتاة، ص 68-69، قلنجي، الثورة العربية، ص 90-91

محافظ، الاتجاهات الفكرية، ص 142

(5) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 42

(1) قُدري، مذكراتي، ص 12

(2) قُدري، المصدر السابق، ص 12، وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481 الشهابي، محاضرات في

الاستعمار، ج2، ص 42، الغصين، مذكراتي، ص 38، كامل، الإسلام والعروبة، ص 153

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481

الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية⁽⁴⁾، ويبين الشهابي أن الجمعية وفقاً للمعايير والشروط المتشددة التي وضعتها لقبول طالبي الانتساب إليها، فقد "نشطت نشاطاً عظيماً قبيل الحرب الكبرى الأولى، فأدخلت في جملة أعضائها عدداً من رجالات العرب الذين توسمت فيهم سعة المدارك وصادق الوطنية، ومن هؤلاء الأعضاء: فيصل بن الحسين، وزيد بن الحسين، وياسين الهاشمي، وشكري القوتلي، وجميل المدفعي، ومولود مخلص، وعلي جودة الأيوبي، ورضا ركابي، وعزة دروزة، ورفيق رزق سلوم، وعمر حمد، وتوفيق البساط، وصالح حيدر، وسيف الدين الخطيب، ونسيب البكري، وفخري البارودي، وإسماعيل وفائز وبهجة من الأمراء الشهابيين وغيرهم ... أما بعد انتهاء الحرب الكبرى الأولى، أي في أيام حكومة الملك فيصل في سورية، فقد انتسب إلى الجمعية كثير من الرجال الوطنيين، حتى إن معظم أركان الحكومة وعدداً لا يستهان به من كبار موظفيها وأصحاب الرأي في البلاد العربية كانوا من أعضاء الفتاة"⁽¹⁾ فالجمعية العربية الفتاة ابتدأت بمجموعة من المؤسسين من أبناء بلاد الشام، ثم توسعت دائرة المنتمين إليها لتضم أفراداً كثيرين من الحجاز والعراق وغيرهما، وهذا يدل على تبنيها لقضية العرب عامة، وسعيها نحو انفصال البلاد عن الدولة العثمانية، ويدل أيضاً على أن الروح القومية كشفت عن نفسها في هذه المرحلة، وصارت تياراً يقف في وجه التيار التوراني الاتحادي، ولها ما يبرر تكتلها لدى عامة الناس في بلاد الشام وسائر البلاد العربية، وذلك بما قدمه الاتحاديون من ممارسات وأفعال أحدثت ردة الفعل القومية لدى الجانب العربي، مما زاد من التأييد لرموز التيار القومي العربي الذين كانوا يثيرون الشعور القومي قبل العهد الاتحادي، ولم يكن التعاطف والاندفاع الشعبي كبيراً حينذاك، كما جاء في الفصل الثاني، لأن التيار الإسلامي والروح الإسلامية هما السائدان في العلاقات بين العثمانيين والعرب عامة في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني قبل الانقلاب الاتحادي ضده عام 1909م.

- غاية الجمعية العربية الفتاة وشروط الانتساب إليها:

أورد دروزة وقدري الغاية التي قامت من أجلها العربية الفتاة، والتي تشير صراحة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية يقول دروزة: "غاية الجمعية استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية، وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية"⁽²⁾.

- أما شروط الانتساب إليها فقد حددت بما يلي:

- أن يكون طالب الانتساب عربياً مخلصاً لأمته، معروفماً بالأخلاق الفاضلة والثبات والجرأة الأدبية والكتمان، وتحصيل المقصود بعلم أو دراسة، أو اختبار يؤهله للقيام بما تتطلبه غاية الجمعية.

(4) الجميل، تكوين العرب الحديث، ص 520

(1) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 42-43، وانظر: قدري، مذكراتي، ص 12

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 489. وانظر: قدري، مذكراتي، ص 12

الشهابي، القومية العربية، ص 73، 75، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 9

وانظر: كامل، الإسلام والعروبة، ص 154، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 71

2- أن يكون متميزاً بالأدب والوجاهة.

3- أن يكون سنُّه في الخامسة والعشرين كحد أدنى.

4- أن يُقسَّم يمين الإخلاص⁽¹⁾.

ويعني الإخلاص في يمين قسم الانتماء لهذه الجمعية أن يطيع المنتسب لها قراراتها، ويحرص على الكتمان الشديد، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء شأن الأمة العربية⁽²⁾ وكانت طريقة تنظيم الأعضاء الجدد في الجمعية بسبب التكتّم الشديد صعبةً وحذرةً للغاية، خاصة قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها، وتقتضي تلك الطريقة ألا يعرف المنتسب من رفاقه الأعضاء الآخرين إلا العضوين اللذين استحلّاه يمين الإخلاص للوطن العربي، ولا يتصل العضو الجديد ببعض الأعضاء إلا بعد مرور مدة من الزمن تختبر الجمعية خلالها مبلّغه من الكتمان ومن العقيدة الوطنية، وكان فرط الاحتياط هذا سبباً لبقاء الجمعية في مأمن من شر الأتراك في الحرب الكبرى، لأن هؤلاء لم يكشفوا الستار عنها، ولم يعرفوا عنها شيئاً⁽³⁾.

- النظام الداخلي للجمعية:

يتكون النظام الداخلي للجمعية العربية الفتاة من مبدأين هما:

أولاً: مبدأ القيادة:

تدار هذه الجمعية بأسلوب الإدارة الجماعية من قيادة مركزية مطلقة، تتمثل باللجنة المركزية العليا، وجاء في المادة الثالثة من نظامها الأساس: "إن على كل عضو أن ياتمر بقرارات اللجنة العليا، ولو كانت عليه وخلافاً لإرادته"⁽⁴⁾ وتذكر المادة السابعة أن اللجنة العليا تتألف من سبعة أعضاء هم مصدر أعمال الجمعية وإليهم يرجع القول الفصل، وينتخبون في آخر كل سنة أعضاء اللجنة العليا الجديدة من أعضائها وأعضاء مجلس الشورى⁽¹⁾. ويضفي هذا النص على اللجنة العليا سلطات المؤتمر أو الهيئة العامة، وسلطة اللجنة التنفيذية⁽²⁾.

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، 489، قدرتي، مذكراتي، ص 12-13

(2) قدرتي، مذكراتي، ص 13

(3) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 43

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 486، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 73

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 486

(2) الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 73

وتوضح المادة السابع عشرة طريقة قبول الأعضاء حين تنص: إذا رشح الأعضاء شخصاً ليكون عضواً، تقرر اللجنة العليا قبوله بثلاثي آراء أعضائها⁽³⁾. وتنص المادة الحادية عشرة على إيجاد لجنة عليا بديلة: تعين اللجنة العليا لجنة احتياطية بحيث إذا تفرقت قامت محلها⁽⁴⁾. أما بخصوص نظامها المالي فتشير المادتان الحادية والعشرين والثامنة والعشرين إلى:

- 21- تتألف المالية من الرسوم السنوية وقدرها عشرون فرنكاً على كل عضو، ومن الضرائب التي تضعها اللجنة العليا على الداخلين.
- 22- تفرض اللجنة العليا على كل عضو اكتتاباً سنوياً تقدر قيمته حسب استطاعته المالية بعد التدقيق، وذلك عقب تأليف اللجنة العليا الجديدة⁽⁵⁾.
- ثانياً: مبدأ الشورى:

وتقوم الجمعية العربية الفتاة على قاعدة الشورى في أسلوب إدارة شؤونها واختيار كوادرها وهيئاتها العامة، وتكون الشورى غير ملزمة للقيادة فيها، ويعد مجلس الشورى السلطة الفعلية التي توجه الجمعية، وقد نص نظام الجمعية وقانونها الداخلي على مواد عديدة متعلقة بطبيعة مبدأ الشورى وعمل مجلس الشورى وطريقة عمله، وهذه المواد هي:

- المادة الرابعة: نصت على وجود مجلس شورى كهيئة إدارية للجمعية، تقول: أعضاء الجمعية على ثلاث درجات، السواد الأعظم، مجلس الشورى، اللجنة العليا.

- المادة الخامسة: دلت على طريقة انتخاب مجلس الشورى: السواد الأعظم يتألف من مجموع أعضاء الجمعية بلا استثناء، ومنه ينتخب مجلس الشورى.

- المادة السادسة: تنص على أن مجلس الشورى تنتخبه اللجنة العليا، وتعيين أعضاده راجع إليها.

- المادة الثامنة: تبين عدم حضور مجلس الشورى جلسات اللجنة العليا تقول هذه المادة: لا يحضر السواد الأعظم، ولا أعضاء مجلس الشورى جلسات اللجنة العليا إلا بطلب منها في المركز.

- المادة الخامسة عشرة: توضح عدم إلزام مجلس الشورى اللجنة العليا استشارتها: اللجنة العليا لها الخيار في استشارة مجلس الشورى ببعض الأمور الخطيرة⁽¹⁾.

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 487

(4) دروزة، المصدر السابق، ص 487

(5) دروزة، المصدر نفسه، ص 487-488

(1) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 486-487، الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 75-76 وقد أورد دروزة معلومات مستفيضة عن الجمعية العربية، تتعلق بتأسيسها وتطورها وأهدافها وأدوارها ونظامها الداخلي ووظائفها

كانت بداية العربية الفتاة في باريس كجمعية صغيرة تعمل بشكل سري، وقامت بأيدي ثلة من الشبان الدارسين هناك والناقمين على العصبة الاتحادية لغمطها العرب في العيش كمواطنين في الدولة العثمانية على قدم المساواة مع العنصر التركي في الحقوق والواجبات⁽²⁾، وقد لاقت هذه الجمعية قبولاً في البلاد العربية، وخاصة في بلاد الشام، لكون الحركة السياسية العربية فيها أكثر نشاطاً مما هي في البلدان العربية الأخرى، وكانت هذه الحركة طليعة العمل السياسي العربي في مطلع القرن العشرين، ومما أذكى روح العروبة فيها احتكاكها المباشر بالأتحاديين، واكتواء أبناء بلاد الشام بنار السياسة التتريكية، وجو الإرهاب الذي مارسه الاتحاديون ضد العرب في هذه البلاد، مما حدا بأبناء هذه البلاد بعد أن تمادى الاتحاديون في سلوكهم العنصري⁽¹⁾، أن يؤسسوا التنظيمات السرية للخروج ببلادهم من نير الظلم الاتحادي، وكان المتنفس باريس كموطأ قدم لهذه الجمعية، وقد مارست نشاطها في خدمة القضية العربية في بلاد الشام وسائر البلدان العربية، ونجحت في تحقيق إنجازات مهمة كعقد مؤتمر باريس عام 1913م، ثم كان نجاحها الثاني بضم أعداد كبيرة جداً من أبناء بلاد الشام، من خلال برنامجها الواضح وسياستها الدقيقة في العمل، وقد أضفى عليها ذلك صفة الشرعية التنظيمية في الشارع العربي ببلاد الشام، واستطاعت الاعتماد على نفسها في تمويل نشاطاتها من خلال مواردها المالية الذاتية⁽²⁾ وهذا أحد العناصر الرئيسة الذي أكسبها ثقة الناس، وتوسيع دائرة الأنصار والمنتسبين لها، انخرط شخصيات بارزة من أبناء البلاد العربية وخاصة أبناء بلاد الشام انخرطوا في صفوفها، أمثال شكري القوتلي وفيصل بن الحسين بن علي⁽³⁾، ومما يدل على دقة بنيانها التنظيمي، عدم اختراقها من قبل الاتحاديين ومحافظة على هيكلها حتى الشوط الأخير، أنه لم يخبر أفرادها بأية معلومات عن بعضهم في المحاكم العرفية التي نصبها جمال باشا لمحاكمة أفرادها وغيرهم من الرجالات السياسية العربية⁽⁴⁾، وكان انتقال مركزها إلى بيروت بؤرة النشاط السياسي العربي السري في بلاد الشام في أواخر عام 1913⁽⁵⁾، دليل سعيها لتحقيق أهدافها في العمل لاستقلال البلاد الشامية عن الدولة العثمانية، كي يكون تأثيرها أكبر ونشاطها أوسع من خلال تواجدها عملياً في قلب الأحداث وفي مركز الأحداث، ليؤتي عملها الميداني ثماره، ويدل إقامتها لكثير من الفروع لها في المدن

وتشكيلاتها وأعمال هيئتها المركزية العامة ومركزها وفروعها وطريقة عملها وانتخاباتها ولجانها وغير ذلك مما يتعلق بها، وكان ذلك التوسع عند دروزة لكونه كان من المنتسبين إليها المطلعين على حقيقتها، وكان قد شغل منصب سكرتيرية هيئتها الإدارية في دمشق مرتين في سنتي 1919، 1920م. انظر دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 485. وانظر تفصيلات عن الجمعية، ص 480-507

(2) قدرتي، مذكراتي، ص 13

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 101، زين، نشوء القومية، ص 90

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 497

(3) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 42-43 الغصين، مذكراتي، ص 38-39، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص 5

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 99، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 43 - دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 504-505

(5) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 503، قدرتي، مذكراتي، ص 29

الشامية كبيروت ودمشق ونابلس وبعلبك والقدس وصيدا والمدن الشامية الأخرى⁽¹⁾، على اتساع نطاق عملها والإقبال الكبير على الانتساب لها في البلاد الشامية، في المرحلة الحاسمة من العلاقات بين أبناء بلاد الشام وبين الاتحاديين بعد توجه جمعية الاتحاد والترقي للمطالب المطروحة في الإدارة المركزية في بلاد الشام، وإسفار التيار الاتحادي عن وجهه وتنكيله بزعماء العرب بحق وبغير حق⁽²⁾، وصم الاتحاديين آذانهم كي لا يسمعون التوسلات الصادقة من أبناء بلاد الشام بأن لا يهدموا صرح البناء الأخوي بين العنصرين العربي والتركي، كإخوة في الرابطة العثمانية التي جمعت هذين العنصرين لقرون عدة خلت، ومع كل ذلك ثابر المخلصون من أبناء العرب في التمسك بعثمانيتهم، ولم يأبهوا بكل ما تعرضت له بلادهم في ظل الاتحاديين⁽³⁾، وهامهم يعبرون عن موقفهم صراحة عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى عام 1914م، من خلال جمعية العربية الفتاة، التي أعلنت عدم موافقة العرب على دخول الدولة العثمانية في الحرب، "احتفاظاً بقوى العنصرين التركي والعربي، لأن برنامجها كان قائماً على إعداد الأمة إلى النهوض القومي الصحيح، حتى إذا زج الاتحاديون الدولة في أتون الحرب العامة، وأصبح العرب أمام الأمر الواقع، واتخذت دمشق قاعدةً للحملة العسكرية التي يقودها جمال باشا، انتقل المركز العام لجمعية العربية الفتاة إلى دمشق، وسعى إلى تنظيم فروعه في كافة البلدان السورية"⁽⁴⁾.

وتتابع اضطلاع جمعية العربية الفتاة بمسؤولياتها والتزامها ببرنامجهما للقيام بواجبها تجاه القضية العربية التي كان العمل لها المبرر الوحيد لقيامها، إذ أنها سعت لتنسيق جهودها مع رجال الحركة العربية في الحجاز بعدما طُفح الكيل وزج الاتحاديون الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى⁽⁵⁾، ونكل جمال باشا بزعماء التيار القومي في بلاد الشام، وكان موقف الشريف حسين بن علي - كما سيأتي في الفصل اللاحق - أن وقف مع دول الحلفاء ضد دول المحور ومعها الدولة العثمانية يقودها الاتحاديون "وأرسلت الجمعية في تلك الأثناء مندوباً خاصاً إلى الحجاز، فاستدعت الأمير فيصل بن الحسين إلى سورية، وبينما كان الأمير عبد الله بن الحسين يفاوض بريطانيا العظمى في مصر، والأحزاب العربية الأخرى، كان الأمير فيصل يفاوض الوطنيين في سورية، وقد عقد اجتماع خاص في دمشق أقسم فيه الأمير فيصل يمين الإخلاص لجمعية العربية الفتاة، وتلا بحضوره بعد ذلك أحد الأعضاء خطاباً قومياً وقصيدة حماسية، حضه فيهما على المناداة بحقوق الأمة العربية بعد اتفاق أمرائها"⁽¹⁾.

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 100، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 482، 501

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 43

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 481

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 99-100، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 503

- الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 44

(5) داغر، مذكراتي، ص 74

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 100-101

ونظراً للفتاهم بين أعضاء الجمعية العربية الفتاة والأمير فيصل بن الحسين، وبعد القرار الذي أيد فيه الشريف حسين وأنجاله بمن فيهم فيصل دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا في الحرب، فقد التحق أعضاء المركز العام للجمعية العربية الفتاة بالثورة العربية التي انطلقت في الحجاز عام 1916م، عملاً بالاتفاق بينهم وبين الأمير فيصل القاضي بالتنسيق بين الطرفين، وأرادوا بذلك العمل لمصلحة القضية العربية، وساروا مع الثورة العربية إلى أن انتصرت في الحرب مع الحلفاء ودخل فيصل وجيشه دمشق وأعلن الاستقلال الوطني في بلاد الشام⁽²⁾، "وقد تأسست في المنطقة الشرقية من سورية حكومة عربية فنية تديرها (العربية الفتاة) برئاسة رضا الركابي"⁽³⁾. وانضم إلى الجمعية الكثير من رجالات العرب وشبانهم، فسمي الأعضاء قبل الحرب: بالمؤسسين، والآخرين الذين دخلوا بعد الحرب كانوا السواد الأعظم، وصار مظهر الجمعية الخارجي حزب الاستقلال العربي، وقد سعت الجمعية في هذه الفترة لتسيير النوادي العربية طبق برنامجها⁽⁴⁾.

تلك هي الجمعية العربية الفتاة التي كانت فاتحة التكتل المدني السري للعرب، والتي كانت أيضاً أكبر وأبرز الجمعيات العربية في هذه الفترة، ورائدة العمل القومي العربي، حيث قادت التيار القومي نحو الاستقلال عن الدولة العثمانية، ووجهت جهوده نحو الانفصال وتكوين كيان جديد للعرب، وتميزت عن غيرها أيضاً بتصدرها النشاط القومي وقيادته إلى نهاية هذه المرحلة، إلى حين خروج العثمانيين من بلاد الشام، ووقوع هذه البلاد إثر ذلك في مخالب الاستعمار الفرنسي والبريطاني، نتيجة الغدر الاستعماري وانخداع العرب بوعود الفرنسيين والإنكليز، كما سيأتي بيان ذلك في الفصل التالي.

وقد شهدت بلاد الشام في الفترة الآتية الذكر وجود أحزاب وجمعيات سياسية أخرى توزعت اهتماماتها وتوجهاتها السياسية بين التيارات التي ظهرت في الحقبة المذكورة من حيث طبيعة علاقتها بالعثمانيين ونظرتها إليهم، وهذه الجمعيات والأحزاب على الرغم من وجودها وسعيها للاضطلاع بأدوارها في سياق الحركة العربية السياسية العاملة لإحداث تغييرات على العلاقات بين بلاد الشام والدولة العثمانية، سواء كانت هذه التغييرات جذرية بالانفصال عن العثمانيين والاستقلال عنهم، أو تغييرات جزئية، لا تتعدى طلب الإصلاحات الإدارية والدعوة إلى اللامركزية في إطار العلاقات القوية والارتباط الوثيق بالدولة العثمانية الأم، فإنها لم تكن من الشهرة والانتشار بين العرب من أبناء بلاد الشام، بحيث يتم تناولها والحديث عنها بشكل منفصل ومستقل، ولهذا يمكن التعرض لها بشكل مقتضب للتعريف بها، ومن أشهر تلك الجمعيات:

ب- الجمعية الثورية العربية:

وانظر: الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 44-45

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 101-102

(3) الأعظمي، المصدر السابق، ج4، ص 102-103

(4) الأعظمي، المصدر نفسه، ج4، ص 104-105

نسبت هذه الجمعية إلى عزيز المصري بأنه المؤسس لها بعد إخراجها من المعتقل في الأستانة وإجباره على الخروج منها إلى بلاده مصر، وأنه ما أن حُلَّ بمصر حتى اتصل بحقي العظم في القاهرة، وقرر الاثنان إذاعة منشورات شديدة ضد الحكومة العثمانية، ودعوة العرب للاستقلال، وكانا يوزعان هذه المنشورات في جميع البلاد العربية في الدولة العثمانية⁽¹⁾، وذكر جمال باشا أن عزيز المصري وضع اسم الجمعية الثورية العربية لجمعية العهد ومعه في هذا حقي العظم وفؤاد الخطيب والضباط الآخرون الفارون إلى مصر⁽²⁾، ويرى الأعظمي أن ليس لعزيز أدنى علاقة بهذه الجمعية، لأن مبدأ عزيز هو نهوض العرب وإشراكهم في شؤون المملكة العثمانية مع إخوانهم العثمانيين الأتراك مشاركة فعلية، وأن مبادئ الجمعية الثورية مخالفة لعقيدته ومذهبه السياسي⁽³⁾، وأن مؤسسها هو حقي العظم مع فؤاد الخطيب، وينتقدهم الأعظمي مبيناً أنهم ضد الرابطة العثمانية من خلال المنشورات التي كانوا يوزعونها خلال الحرب العالمية الأولى في بلاد الشام، وهم في مصر يتمتعون أنظارهم بالغيد الحسان ويتربعون على كراسي المقاهي يشاهدون الناس ذهاباً وإياباً، غير مدركين عواقب ما تأتي به تلك المناشير إذا وقعت بيد الحكومة الاتحادية، وما تجلبه من الخطوب والرزايا على رؤوس الشبان العرب، وفعلاً قد جلبوا المحن والويلات على هؤلاء الشبان حين علقت لهم مشانق جمال باشا في بيروت ودمشق⁽⁴⁾، إذ أن هذا الأخير لم يقم بأية أعمال ولم يتخذ أية إجراءات ضد هؤلاء إلا من خلال الاعترافات والوثائق التي حصل عليها منهم وعنهم، وهو ينقل صوراً للوثائق التي عثر عليها وتحمل في طياتها الإدانة للقائمين على تلك الجمعيات⁽⁵⁾، ثم ينقل جمال باشا بلاغات صادرة عن الجمعية الثورية إلى العرب بني قحطان⁽⁶⁾، وأن أحد تلك البلاغات مبدوء ببيت الشعر الآتي:

فاشهدوا يوم التنادي أننا نملاً الكون لهيباً وضراماً⁽⁷⁾

(1) قدرتي، مذكراتي، ص 30، الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 105

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 20-21

(3) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 106

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 106-107، قدرتي، مذكراتي، ص 30-31

(5) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 21-22

(6) جمال باشا، المصدر السابق، ص 25-30

(7) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 25، وانظر دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 464

ويظهر مما تحمله هذه البلاغات من صور التهكم بالترك، أنها تعمل على زرع
الفرقة والشقاق بين العنصرين العربي والتركي، والحث على الثورة ضد الأتراك
الاتحاديين، مستشهدين بالأبيات الشعرية التالية:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد⁽⁶⁾

وتشير هذه البلاغات صراحة، بعيداً عن أي غموض أو لبس إلى طلب الانفصال
عن الدولة العثمانية وعدم إبداء أية مرونة في التفاهم مع الاتحاديين " أيها العرب
عموماً!! اعلموا أنه تأسست جمعية فدائية تقتل كل من يقاتل العرب، ويقاوم الإصلاح
العربي، وما هو الإصلاح على مبدأ اللامركزية الذي يطلبه البعض مع التبعية لغللمان
الاستانة، بل على مبدأ الاستقلال التام، وتألّف دولة عربية لا مركزية " (1).

جـ- جمعية النهضة اللبنانية.

وهي من الجمعيات التي تأسست في لبنان بصورة خفية، وتستفيد من الامتيازات
التي تمنح للقناصل الأجنبية في بلاد الشام، وبالذات في بيروت، حيث جعلت هذه
الامتيازات من جبل لبنان ملجأً لأعضاء جمعية النهضة، ومؤسسو هذه الجمعية هم
رجال من آل الخازن، وكان لها شعبة في بيروت⁽²⁾، وكان تأسيسها في سنة 1909م،
ومن أشهر أعضاء شعبتها في بيروت خليل زينية، رزق الله أرقش، عيسى المر،
يوسف الغليون، سعيد عقل، وكان لهذه الجمعية شعبٌ في الخارج في مصر وباريس
وفي أمريكا الشمالية والجنوبية والبرازيل والأرجنتين، وتسعى هذه الجمعية لفصل
لبنان عن الدولة العثمانية متخذةً من الحماية الفرنسية سنداً لها، حيث جعل اللبنانيون
النصارى من مساندة فرنسا لهم في الفتنة الأهلية التي حدثت في لبنان عام 1860م
وسيلةً يتذرعون بها لدى فرنسا للإبقاء على ولائهم لها وطلب نصرتها وحمايتها⁽³⁾،
لهم، وقام الكتاب اللبنانيون النصارى يطالبون باستقلال لبنان السياسي على صفحات
جرائدهم، وانفصاله عن الدولة العثمانية، وأن يجعل إدارياً تحت حماية الدولة
الفرنسية، وقد طالبت بذلك شعب هذه الجمعية الموجودة داخل لبنان وخارجه، وكتب
شكري غانم وشارل الدباس وخير الله خير الله في جريدة الطان الفرنسية، مقالات
تدعو لحماية فرنسا لنصارى لبنان، ومن أعضاء شعبة باريس أيضاً الكونت

(6) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 26

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 465، الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 110

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 29، الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 117، دروزة، نشأة
الحركة العربية، ص 469-470

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 30

دروزة، نشأة الحركة القومية، ص 508، القاسمي، آثاره، ص 3

(3) أندريا (جنرال فرنسي شارك في الحرب العالمية الأولى، وشهد اجتياح جيوش فرنسا بقيادة غورو لبلاد الشام 1920م)،
تاريخ الدروز وتمرد دمشق، ترجمه عن الفرنسية: حافظ أبو مصلح، نشر: المكتبة الحديثة، ط1، بيروت، 1971م، ص
14 .

جريساني وزويني الخوري، وعمل هؤلاء أيضاً على إظهار الولاء الكامل لفرنسا، وإبداء نزعته الفرنسية الكاملة، وعلى العموم فإن نصارى لبنان في جميع الشعب المذكورة المعتقدين لمبادئ هذه الجمعية يسعون لتحقيق غايتها وهي تمهيد الطريق لاستيلاء فرنسا على بلاد الشام، ووضعها تحت حمايتها⁽¹⁾، ويعلق الأعظمي على العلاقة الحميمة بين رجال النهضة اللبنانية وفرنسة بقوله: "فمن هذا التقرير يفهم ما كانت تنطوي عليه جوانح أبناء النهضة من الحب العميق للدولة الفرنسية، وما كنا نريد أن نتعرض لذكر هذه الجمعية التي لا تتفق مبادئها مع مبادئ الجمعيات التي خدمت القضية العربية، لو لم يكن أعضاؤها، - حسب التعاليم التي يتلقونها من رؤسائهم - يدخلون في كل جمعية، ويبدلون الجهد ليجعلوا خطتها مؤتلفة مع مصالح فرنسا"⁽²⁾.

فالملاحظ من هذه الجمعيات أن ما كان منها ذا منبت نصراني في لبنان كالجمعية الثورية وجمعية النهضة أنها كانت انفصالية النزعة تعمل على قطع العلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، على الرغم مما قام به الاتحاديون من أعمال تنفر العرب وتضعهم في موقف عدائي للعنصر التركي، وبالتالي توقف الطرفين على حافة الهاوية أو في حالة الصدام والقطيعة، كما سيأتي بيانه في الفصل التالي، بحيث تهيأت الأسباب والمبررات التي جعلت العرب في بلاد الشام يتهيئون للانتفاض على الدولة العثمانية، والاشتراك في الثورة العربية التي انطلقت شرارتها في الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي، بعد استكمال الاستعداد لها، والتنسيق فيما بين العرب في الحجاز والعرب في بلاد الشام، وتوحيد جهود الطرفين للعمل المشترك ضد الدولة العثمانية ضمن القوى المتحالفة في الحرب العالمية الأولى، تحت مظلة فرنسا وبريطانيا، مع العلم أن فئات أخرى من أبناء بلاد الشام، ما زالت حتى أثناء الحرب العالمية الأولى ولغاية انتهائها، تحافظ على ولائها للدولة العثمانية التي صدر عن قادتها الاتحاديين في هذه المرحلة من العلاقات العربية العثمانية ما يدفع العرب المسلمين للخروج عليها، منطلقين من منطلقات تختلف عن دوافع نصارى بلاد الشام في الثورة على العثمانيين، وتتمثل تلك المنطلقات في الحفاظ على الهوية الحضارية للأمة من لغة وعقيدة وتراث، وهذه قضايا تجعل المرء يناقشها ويتأملها بدقة وعمق إذا ما أراد معرفة حقيقتها، لذلك فإن جهود الجمعيات والأحزاب العربية في هذه الفترة ستتحول إلى عمل ومواقف وأدوار حاسمة من حيث اشتراكها في العمل ضد العثمانيين، وبالتالي ستؤثر أثراً بالغاً في قطع العلاقات بينهم وبين العرب عامة، وعرب بلاد الشام خاصة، وهو ما يتم التعرف عليه وتفصيله في الفصل اللاحق.

3- الاتجاه الداعي إلى استقلال بلاد الشام ثم اتحادها مع الدولة العثمانية.

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 31

الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 71-73

- دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 508-509

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 75

يتميز هذا التيار عن التيارين اللذين سبقاه بالجمع بين مطلبيهما بأسلوب جديد، فهو يدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعطاء بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية التي ما زالت على ارتباط بهذه الدولة في العهد الاتحادي بعد عام 1909م استقلالاً تاماً عنها، ومن ثم معاودة الارتباط بالدولة العثمانية ليس وفق العلاقة القديمة وهي الرابطة العثمانية، التي كانت البلاد العربية بمقتضاها ولايات عثمانية تسري عليها الأنظمة والقوانين التي تسري على سائر الولايات العثمانية كالولايات التركية في الأناضول وغيرها من الولايات الأخرى، وكان المواطنون العرب عملاً بالرابطة العثمانية مواطنين ورعايا عثمانيين بكل ما تحمله المواطنة من معنى، وما لها من الحقوق والواجبات، وإنما وفق ارتباط جديد لبلاد الشام والولايات العربية الأخرى التي تسعى للاستقلال عن الدولة العثمانية تحقيقاً لمطالب الجمعيات والأحزاب العربية المكونة لهذا التيار، ويتطلب هذا الارتباط أن تكون العلاقة علاقة طرف عربي بطرف تركي يضم عنصرين عرقيين منفصلين انفصالاً تاماً عن بعضهما، ويعدان كيانين مستقلين عن بعض من الجوانب السياسية والإدارية، في إطار اتحاد يجمع هذين الكيانين في بوتقة اتحادية فدرالية توضح معالمه فيما يلي ضمن الحديث عن الجمعيات والأحزاب العربية التي تبنت هذه الفكرة، واتجهت هذا التوجه في سعيها للانفصال عن الدولة العثمانية، وأهم تلك الجمعيات:

أ- الجمعية القحطانية.

تعد الجمعية القحطانية أولى الجمعيات العربية السرية التي ألفها عسكريون عرب في الجيش العثماني بعد إعلان الدستور العثماني للمرة الثانية عام 1908م، وكان إنشاؤها في أواخر عام 1909م⁽¹⁾، قبل تأسيس المنتدى الأدبي⁽²⁾، وأشار دروزة أنها أنشئت من قبل عسكريين ومدنيين عرب في الأستانة⁽³⁾، ويرى برو أن مداولات تمت بين شبان قوميين عرباً من المدنيين المقيمين بالأستانة مع بعض الضباط في الجيش العثماني انتهت إلى تأسيس الجمعية القحطانية⁽⁴⁾ وتباينت الروايات حول مؤسسها فالبعض يرى أن صاحب الفكرة البكباشي عزيز علي المصري (مقدم في الجيش العثماني) هو الذي قام بتأسيسها، وكان تشبثه واندفاعه القوي في وطنيته

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 16، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 460

- الشهابي، القومية العربية، ص 69، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 5

- أنطونيوس، بقطة العرب، ص 130، قلججي، الثورة العربية، ص 90

(2) برو، العرب والترك، ص 268، كامل، الإسلام والعروبة، ص 152، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 40-41

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 460

(4) برو، العرب والترك، ص 269

يحملان من هم أكبر منه في السن على القبول بزعامته⁽⁵⁾ في حين يرى آخرون أن سليم الجزائري⁽⁶⁾ أكبر الضباط العرب في الجيش العثماني هو صاحب فكرة تأسيسها، وهو الذي كان له هوس في تشكيل الجمعيات السرية وتكثيرها لنشر الفكرة العربية، وكان يجيب على تنبيه عزيز علي المصري عليه في وجوب الاكتفاء بجمعية واحدة يُحصر السعي في تنميتها وتقويتها، بقوله: بما أن الغاية واحدة فلا لزوم لأن يبقى السعي محصوراً ضمن نطاق جمعية واحدة، وأنه يريد أن يقابل الترك بأعمالهم في تكثير الجمعيات⁽¹⁾ بينما ينسب جمال باشا فكرة إنشاء هذه الجمعية إلى خليل حمادة كأول ساعٍ لذلك مع آخرين منهم عزيز المصري وسليم الجزائري، يقول جمال شادر ومؤسسوها: خليل حمادة، وكان يتوغل كثيراً قبل وفاته في المسائل العربية، واعترف لي بذلك عبد الحميد الزهراوي، عزيز علي القاهري، وسليم بك الجزائري، هم الذين ألفوا المركز، ثم انضم إليهم حقي العظم وحسن حمادة وعزت الجندي⁽²⁾، ويزيد دروزة على الأسماء السابقة كلاً من الأمير أمين أرسلان، والأمير عادل أرسلان⁽³⁾، وذكر الشهابي أسماء مؤسسين آخرين مثل أمين لطفي الحافظ وعبد الكريم خليل وعارف الشهابي⁽⁴⁾، أورد المؤرخون الأهداف التي نشأت لأجلها الجمعية القحطانية، ويستشف من اسمها سعيها لإنهاض العرب، واختيارها للاسم التراثي قحطان أحد أجداد العرب من أجل إحياء تراثهم وإيقاظ الروح القومية فيهم في مواجهة الحملة التتريكية العاتية التي بدأها الاتحاديون ضد العرب وتاريخهم عقب استيلائهم على السلطة في الدولة العثمانية، يقول دروزة: "وغايتها بث المبادئ الصحيحة بين أبناء

(5) أنطونيوس، بقظة العرب، ص 130.

(6) هو سليم بن محمد بن سعيد الحسني الجزائري، (ت1334هـ/1916م) عمه الشيخ طاهر الجزائري، صاحب حلقة دمشق الكبرى التي كانت نواة للعمل السياسي القومي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وآل الجزائري من عرب المغرب هاجروا إلى دمشق من الجزائر عندما أتاه الأمير عبد القادر الجزائري، دخل سليم الجزائري المدرسة الحربية في الأستانة، وتخرج منها ضابطاً، ودخل في جمعية الاتحاد والترقي مع من دخلها من العرب، لكن سرعان ما خرج منها، وبدأ يعمل مع التيار القومي العربي ضد الاتحاد والترقي. انظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 16 برو، العرب والترك، ص 269، الزركلي، الأعلام، ج3، ص 119

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج3، ص35، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص10، برو، العرب والترك، ص269

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص16، وانظر: الشهابي، القومية العربية، ص 69

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 460

(4) الشهابي، القومية العربية، ص 69-70

الأمة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف"⁽⁵⁾ ويقول جمال باشا: "وغايتها نشر الفكرة بتزقي العرب وإصلاح حالهم ونهضتهم بأية واسطة كانت"⁽⁶⁾ ويضيف: وقد ثبت أن الكثير من أعضاء الجمعية يسعون وراء مقاصد تقرر حدودها بصورة عمومية، وكانت قطيعة عقب تشكل الجمعيات الآخر مثل الاستقلال للبلاد العربية وتأسيس الخلافة العربية"⁽¹⁾ ومع تبلور الغاية التي قصدها القحطانية في عزة العرب واستقلالهم، لكن برنامجها ضم في ثناياه علاوة على الهدف الأنف الذكر الإبقاء على علاقة بالدولة العثمانية، اختلفت روايات المؤرخين في تحديد كنه هذه العلاقة مستقبلاً، إذ يشير البعض إلى أن مؤسسي القحطانية أرادوا استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، وإقامة ملك يحقق للعرب أمانهم مع الاحتفاظ بالولاء للمملكة العثمانية⁽²⁾ وهذا يتفق مع رواية برو التي أكد فيها أن بعض من كتبوا عن تاريخ العرب في هذه الفترة، وقعوا في الخطأ والوهم حين اتجهوا في رأيهم نحو القول بأن برنامج الجمعية القحطانية وكذلك جمعية العهد كان يرتكز على تأسيس دولة ذات تاج مزدوج على غرار دولة (النمسا - المجر)، أي أن يكون لكل من الدولة التركية والبلاد العربية بأجمعها تاجان يجتمعان على رأس سلطان العثمانيين⁽³⁾، ويدعم برو رأيه وهو يدحض الرأي السابق بالاستناد إلى معلومات موثقة استقاها من الفريق المتقاعد عزيز علي المصري أحد مؤسسي جمعيتي القحطانية والعهد، من خلال حديث معه حول الجمعيتين المذكورتين في مقابلة شخصية، يقول برو: " ذلك الذي نفاه عزيز علي المصري نفيًا باتاً، قائلاً: إن كان كل ما رمى إليه هو العمل لجامعة عثمانية مشتركة بين العناصر، لا تتعدى حدود الولايات المستقلة ذاتياً على الأساس اللامركزي في الحكم"⁽⁴⁾.

وذكر بعض المؤرخين أن برنامجها يهدف إلى أن تتألف الدولة العثمانية من جزئين مستقلين استقلالاً تاماً في الأمور الداخلية، الواحد عربي والآخر تركي، وتكون

(5) دروزه، نشأة الحركة العربية، ص 461

(6) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 16

(1) جمال باشا، المصدر السابق، ص 17. وانظر: قلعي، الثورة العربية، ص 90، محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص 139، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 248

(2) أنطونيوس، بقظة العرب، ص 130

(3) برو، العرب والترك، ص 268، كامل، الإسلام والعروبة، ص 152

(4) برو، العرب والترك، ص 269

الدولة عربية تركية في إطار عثماني على غرار امبراطورية النمسة والمجر، فيحمل السلطان الخليفة حينئذ تاجين: تاجاً عربياً، وآخر تركياً⁽⁵⁾، وتأتي رواية جمال باشا مؤيدة للرأي العربي السابق الذكر، وقد ذكر القحطانية بقوله: "وكان عزيز علي بك المصري بكباشي في هيئة أركان الحرب، وهو من أشد الناس طمعاً وأكثرهم غروراً، فلم يستطع أن يرى نفوذ عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي يفوق نفوذه، عندما كانت المسألة العربية معروضة على بساط البحث، فوصلت به الجرأة إلى أن أعلن أن العرب لا يقنعون بالاتفاق السابق، وإنما يطلبون الاستقلال الداخلي، وأن يكون لهم جيش خاص، وأن تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الأتراك على أنموذج الملوكية الثنائية النمسا والمجر، ولو أن العرب في الواقع ذهبوا إلى أبعد من المجريين في طلبهم، أن تكون لغة جيشهم الرسمية هي اللغة العربية"⁽¹⁾ ويبدو من خلال المقارنة بين الروايات العربية ورواية الاتحاديين على لسان جمال باشا أن فكرة دولة تتألف من صيغة اتحاد بين العرب والعثمانيين كانت واردة في بيان القحطانية السياسية بالشكل الذي تحدثت عنه الروايات السابقة على نمط الاتحاد النمساوي المجري، وأنه يمكن التوفيق بين ما نسب إلى عزيز المصري من آراء متضاربة ومتباينة وردت في رواية جمال باشا والرواية التي نقلها برو عنه، حيث أن ما نقله عن عزيز كان في أواخر حياته وكان قد تقاعد، وهو حينذاك قد تراجع عن كثير من الآراء التي تبناها أثناء عمله في الجمعيات العربية السرية سعياً لاستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية⁽²⁾، بينما ما جاء في رواية جمال باشا عن عزيز المصري، كان يعبر عن آرائه وتوجهاته السياسية في سني حياته أثناء وجوده في الجيش العثماني حتى عام 1913، حيث اعتقله الاتحاديون، ثم رُجل إلى مصر قسراً، وكان حينذاك نشطاً في العمل السياسي السري ضد الاتحاديين، وحمل الأفكار القومية العربية التي تدعو إلى استقلال البلاد العربية وانفصالها عن الدولة العثمانية، لما رأى من الاتحاديين من تصرفات وممارسات تقوض دعائم العلاقات بينهم وبين العرب⁽³⁾.

- شعار القحطانية:

بدأت الجمعية القحطانية بمجموعة من المؤسسين ثم توسعت نتيجة للقسم الذي يقسم عليه المنتسبون إليها حيث "كان من بروغرامها (برنامجها) أن كل عضو يدخل عضواً غيره دون استئذان من المركز، وهكذا انتشرت انتشاراً غريباً في زمن قريب، وعلامة التعارف بين أعضائها بضغط أحد الأصابع على يد المُسلم عليه وبوضع الإصبعين إصبع الشهادة والوسطى في المجالس على الذراع الأيسر، وإخفاء بقية الأصابع، وبتهجئة كلمة (هلال) عند المحادثة، وإذا قال الأول: هاء، قال الثاني: لام، ثم قال الأول: ألفاً، فألقه الثاني بحرف: لام، وهذه هي الدرجة الأولى، وأما الدرجة

(5) قلعي، الثورة العربية، ص 90

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 94-95

(2) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 19

(3) محمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص 12

الثانية فكانت كلمة (أبو بكر) فإذا قال الأول: ألفاً، أجاب الثاني إذا كان من درجته: باءً، وهكذا حتى تنتهي تهجية كلمة أبي بكر. والأعضاء الذين يتعارفون بهذا الشعار كانوا يتداولون آراءهم ضمن دائرة بروغرامهم الخفي، ولهذا لم تكتب الجمعيات القحطانية تشبثاتها على الورق، بل كانت تنتشر مقاصدها شفاهاً⁽¹⁾. ولما كان تنظيم الجمعية القحطانية يبنى على الدقة والسرية العاليتين، فإنها لم تكشف من قبل الاتحاديين، ولم تتعرض للملاحقة والاضطهاد منهم، ويشير كل من الشهابي ودروزة إلى أنها انتشرت كثيراً بين صفوف العرب في بلاد الشام، وكثر عدد المنتسبين إليها بين الشباب وضباط العرب في الجيش العثماني، وأنها استمرت في العمل حتى بداية الحرب العالمية الأولى 1914م⁽²⁾، ويذكر أنطونيوس أن سبب اضمحلالها ومن ثم تلاشيتها يرجع إلى مؤسسها عزيز المصري الذي اكتشف وجود خائن مندرس بين صفوفها على الرغم من الشروط الدقيقة والإجراءات الشديدة لقبول الانتساب إليها، ولذلك قرر عدم الاهتمام بها، وحول اهتمامه إلى تكوين جمعية العهد لتكون بديلاً عنها⁽³⁾ تحل محلها وتحمل الشعار والمبدأ والهدف الذي كانت تحمله القحطانية، ونتيجة لهذا فإن "معظم أعضائها حتى أركانها دخلوا قبل تلك الحرب إما في جمعية العهد، وإما في جمعية العربية الفتاة، وإما في كليهما، فانصرف معظم نشاطهم إلى تينك الجمعيتين، وظلت الجمعية القحطانية مسدولاً عليها الستار من غير أن يهتدي الترك إليها، ثم طواها الزمن في طياته باستشهاد أركانها وتحول نشاط أعضائها إلى الجمعيتين المملح إليهما".⁽⁴⁾

لقد انتهت الجمعية القحطانية إلى الحل والتفكك، ولعل تجربة إنشائها أفادت في إغناء الشخصيات القومية العربية العاملة في المضمار السياسي بخبرة وحكمة، وإعطائهم ذخيرة في السعي نحو المستقبل، يستفاد منها لدفع الجهود نحو إحراز مكاسب جديدة للتيار العربي المتقدم إلى الأمام لإعزاز أمتهم وبلورة توجهاته والإفصاح عن نفسه بصورة أوضح، لخوض غمار المعترك السياسي أثناء الحرب العالمية الأولى، في السعي نحو حرية البلاد العربية وتخليصها من السياسة التتريكية ومن الاضطهاد الاتحادي الذي مارسه الاتحاديون الحاكمون للدولة العثمانية في هذه الفترة، والذي سيقود للانفصال عن الدولة العثمانية فيما بعد الحرب العالمية الأولى كما سيأتي في الفصل التالي.

ب- جمعية العهد.

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 17 وانظر: دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 461، برو، العرب والترك، ص 269

(2) الشهابي، القومية العربية، ص 69

دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 461

(3) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 130-131

(1) الشهابي، القومية العربية، ص 69-70 وانظر:

جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 18

كان تأسيس جمعية العهد في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام 1913م⁽²⁾، إثر عودة عزيز علي المصري إلى استانبول بعد انتهاء حرب طرابلس الغرب⁽³⁾، حيث أنشأ هذه الجمعية بسبب ما تناهى إليه أن عملاء للاتحاديين قد انتسبوا إلى الجمعية القحطانية لاختراقها والتجسس عليها وإيصال أسرارها إلى السلطة الاتحادية، لذلك سعى إلى حل القحطانية وصرف النظر عنها، وأقام جمعية العهد بديلاً لها، فانتقل معظم المنتسبين للجمعية القديمة إلى الجمعية الجديدة، العهد⁽⁴⁾، فأصبحت هذه الجمعية تضم العسكريين العرب المنتسبين إلى الجيش العثماني، يقول عنها الشهابي: "هي جمعية عسكرية قومية عربية سرية ألفها في فروق (استانبول) لفيف من الضباط العرب المنتسبين إلى الجيش العثماني ... وكان عزيز المصري أول داعية إلى تأسيسها، وكان من أعضائها ضباط عرب من الأركان ومن غير الأركان معظمهم شاميون وعراقيون، فممن عرفت منهم سليم الجزائري (من دمشق)، وجميل المدفعي (من فلسطين) ونوري السعيد وياسين الهاشمي وجعفر العسكري (من العراق) وعارف التوام وخالد الحكيم ومصطفى وصفي وأمين لطفي الحافظ (شاميون)، ومولود مخلص وطه الهاشمي (عراقيان) وعلي جودة الركابي ومحي الدين الجبّان (دمشقيان)، ويحيى كاظم وعبد الله الدليمي (عراقيان)، وغيرهم"⁽¹⁾، ويعلل قدري سبب انتساب العسكريين العرب في الجيش العثماني إلى هذه الجمعية بقوله: "لم يكن وضع البلدان العربية خافياً على مثقفي الضباط العرب أيضاً، فأخذوا بدورهم يفكرون بواجبهم نحو وطنهم، وانتهوا إلى تأليف جمعية العهد"⁽²⁾ ويؤكد جمال باشا أن هذه الجمعية صورة أخرى للجمعية القحطانية، حيث أن القحطانية للمدنيين والعهد للعسكريين، ويقول: "فجمعية العهد هي القسم الذي تأسس لتسعى وراء المقاصد بين أفراد الجيش، وهذه الجمعية مشتركة تمام الاشتراك مع القحطانية في شعارها وعلامتها الفارقة وسائر الخصوصات"⁽³⁾. وينقل اعترافات بعض السياسيين العرب الذين حاكمهم بالمحاكم العرفية بعالية، فيذكر اعتراف سيف الدين الخطيب الذي يقول فيه "حضر سليم الجزائري وعزيز علي إلى المنتدى وقالوا علناً: يقولون إنني قد أسست هنا جمعية خاصة بضباط العرب ... وقال عبد الغني: "اختلفت عنها بأن كانت عسكرية بحتة لا يدخلها إلا ضباط العرب"⁽⁴⁾، يذكر عزيز المصري الهدف الذي أنشأ

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 53، كامل، الإسلام والعروبة، ص 156-158

- أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق 3، ص 17

(3) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 473، جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 18

- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج 1، ص 46

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 55، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 130-131

- الشهابي، القومية العربية، ص 78

(1) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج 2، ص 45، وانظر: قدري، مذكراتي، ص 14، الأعظمي، القضية العربية،

ج 4، ص 55، فيضي، المذكرات، ص 136

(2) قدري، مذكراتي، ص 14 وانظر الشهابي، القومية العربية، ص 78-79

(3) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 18. وانظر:

- قدري، مذكراتي، ص 14

(4) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 18-19

من أجله جمعية العهد، فيقول: "عندما أنشأت جمعية العهد السرية بين الضباط العرب في الجيش العثماني، كان القَسَم أن نضحي بحياتنا من أجل تحقيق أهداف هذه الجمعية، وتتلخص في السعي بكافة الطرق والوسائل في الحصول على الإستقلال الداخلي للبلاد العربية، على أن تظل متحدة مع الأستانة وحكومتها، اتحاداً يشبه اتحاد النمسا مع المجر، بمعنى أن يكون للعرب كيان سياسي بمعنى الاستقلال الداخلي للبلاد العربية، ولكن في شكل اتحاد مع حكومة الأستانة⁽¹⁾.

ويشير الأعظمي إلى تطابق منهاج جمعية العهد مع منهاج القحطانية "وقد جاء في منهاجها السياسي ما يأتي:

1- وإن جمعية العهد جمعية سياسية سرية أنشئت في الأستانة، وغايتها السعي وراء الاستقلال الداخلي للبلاد العربية، على أن تكون متحدة مع حكومة الأستانة اتحاد المجر مع النمسا.

2- ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان.

3- تهتم هذه الجمعية بأمر سلامة الأستانة من مطامع الدول الأجنبية اهتماماً خاصاً، لا اعتقادها أن الأستانة رأس الشرق، فلا يمكن أن يعيش إذا اقتطعت إحدى الدول الغربية الاستعمارية منه.

4- الأتراك منذ (600) سنة وهم يشغلون المخافر الشرقية أمام الغرب، فيجب أن تجهد الأمة العربية نفسها للحصول على ما يؤهلها لأن تكون القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر.

5- على رجال العهد أن يفرغوا قصارى جهدهم في إنماء المزايا المحمود، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، لأن الأمة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مجهزة بالأخلاق المهذبة الصالحة⁽²⁾.

وبتأسيس هذه الجمعية أخذ أعضاؤها المؤسسون يدعون أبناء العرب في بلاد الشام والعراق والبلدان الأخرى للانتساب إليها، ويعرفونهم على مبادئها وأهدافها، خدمة لمصلحة الأمة وتكثيفاً لجهود أبنائها في مواجهة الهجمة الاتحادية لمحو تراث العرب ومحاربة لغتهم وتثريتهم، والواقع أن العزف على الوتر العنصري يبين أبناء العرب وفي بلادهم، وتوضيح أخطاء الهجمة التنتركية على بلادهم في العهد الاتحادي، يثير كوامن نفوسهم، ويحفزهم على الانخراط في التنظيمات العربية التي تنشد حق العرب في وجه النعرة القومية الطورانية، في إطار الرابطة العثمانية، ولذلك حتى الجمعيات التي دعت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، واستقلال البلاد العربية عنها كالقحطانية والعهد، فقد حرصت على عدم الإعلان أمام الشعوب العربية، على اعتبار أن معظم هذه الشعوب تدين بالإسلام، وترتبط بالدولة العثمانية بالرابطة الإسلامية، وتعطي ولاءها

(1) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 48

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 53-54. وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 18 أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 46، برو، العرب والترك، ص 453

وطاعتها للخليفة العثماني كخليفة للمسلمين كافة، يجمع كلمتهم ويوحدتهم في إطار عام كأمة إسلامية على المستويين المحلي العربي، والعالمي كمسلمين، لهذا تأتي الدعوة إلى الجمعيات العربية السرية والعلنية المدنية والعسكرية في البلاد العربية في هذه المرحلة بالذات قبيل بدء الحرب العالمية الأولى، وبعد تبلور التيار القومي وبروزة بشكل واضح في البلاد العربية، ووجود طليعة هذا التيار في بلاد الشام، تأتي بوقتها المناسب في كسب تأييد فئات شعبية كثيرة لأهداف ومطالب هذه الجمعيات، إذ تقدم المطالب المذكورة لأبناء العرب على أنها دفاع عن النفس ودفع للظلم والاعتداء الواقع على الأمة من قبل الاتحاديين، وهي في الحقيقة كذلك، لأن الاتحاد والترقي بتوجهها الطوراني العنصري تهدم صرح العلاقات بين العنصرين الأخوين العربي والتركي، وهي في الوقت ذاته هضم للحق العربي من طرف الجانب التركي⁽¹⁾، وبذلك تجد الاستجابة القوية والحماس لحملها والدفاع عنها⁽²⁾، ويعبر الأعظمي عن هذا المعنى، ويشير إلى الإقبال على جمعية العهد، بقوله: "... وقد أملى المومى إليه (عزيز المصري) بنود المنهاج على السيد طه الهاشمي ليلة تأسيسه الجمعية، ثم توظف الهاشمي في الجيش المرابط في اليمن، فغادر الأستانة عن طريق سورية فالعراق، وأسس للجمعية فروعاً في البلاد التي مر عليها في طريقه إلى اليمن، وكان معظم الذين اعتنقوا مبادئ الجمعية، وانضموا تحت رايته، هم من الضباط الذين أنجبتهم الأمة العربية، فعلقت عليهم آمالها، وأحسنّت بهم ظنّها"⁽³⁾ ويؤكد الشهابي ما ذكر آنفاً بقوله: "وسرعان ما انضم إلى العهد لفيف من الضباط العرب من الأركان ومن غير الأركان، معظمهم عراقيون وشاميون، وتأسس له فروع في المدن الكبرى من الشام والعراق، ولم ينضم إليه (إلى العهد) إلا قليل من المدنيين، أكثرهم انتسبوا إلى فرع دمشق"⁽²⁾ ويحدد أنطونيوس نسبة المدنيين الذين انتموا إلى جمعية العهد، بأنه اقتصر على اثنين فقط، "فتح لهما الباب بسبب الثقة التامة بوطنيتهما، وكان أحدهما وهو الأمير أمين أرسلان من المؤسسين الأول للجمعية الأولى (القحطانية)"⁽³⁾.

- أسباب تأسيس جمعية العهد:

ولدى إمعان النظر في الظروف التي دعت إلى إنشاء جمعية العهد، وأسهمت في تأسيسها، نجد لها الظروف والأسباب والمبررات ذاتها التي ألجأت وجوه التيار القومي العربي في بلاد الشام إلى إنشاء الجمعيات والأحزاب السرية والعلنية الأخرى، ويعلّل الأعظمي اللجوء إلى تشكيل هذه الجمعية بأنه نتيجة ما آلت إليه العلاقات العربية العثمانية في هذه الفترة، بعد عام 1913م من التردّي والتوتر، ويقول: "بعد أن حبطت لسوء حظ البلاد أعمال المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس، وقلبت

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 55، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 69

(2) الشهابي، القومية العربية، ص 79 .

(1) الأعظمي، القومية العربية، ج 4، ص 54-55.

(2) الشهابي، القومية العربية، ص 79.

(3) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 131

الحكومة الاتحادية لرجال الإصلاح ظهر المجن، استاءت الشبيبة العربية التي في الأستانة أشد الاستياء، فهاج هائجها، وطفقت تبحث عن الوسائل التي تأخذ بيدها، فتوصلها إلى الطريق السوي، خوفاً من أن تقضي الحكومة الاتحادية القضاء المبرم على هذه الفكرة، بعد أن رأت أن القضية العربية قد وضعت على بساط البحث، وفتحت أبوابها من كل صوب وجانب ... وقد رشح للشبيبة العربية نبأ عظيم من مصادر لها الثقة فيها، بأن الوزارة (الاتحادية) طفقت تعقد الاجتماعات المتوالية للمذاكرة في التدابير الواجب اتخاذها تجاه الحركة العربية⁽¹⁾. ثم يوجز أهم القرارات السرية التي اتفق على تنفيذها الاتحاديون بعد سلسلة تلك الاجتماعات الكثيرة، لينفذوها ضد العرب والبلاد العربية⁽²⁾:

- 1- إبعاد الضباط العرب الموجودين في الأستانة إلى مختلف الجهات التركية، بحيث لا يعود في إمكان هؤلاء القيام بأي عمل يساعد على زيادة العداء بين العرب والترك.
 - 2- تولية القيادات العليا إلى الضباط الأتراك في البلاد العربية، والاستغناء بقدر الإمكان عن الضباط العرب في المناطق العربية.
 - 3- وجوب الإسراع في تنفيذ سياسة تنريك العناصر بأية صورة كانت.
 - 4- مقاومة الحركة الإصلاحية التي بدأت في مؤتمر بيروت وفي مؤتمر باريس.
 - 5- إلغاء سائر الأحزاب العربية، وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تتولى الإشراف على الشؤون العربية، وتدير الخطة اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال من العرب، وتتبع حركاتهم بدقة زائدة.
 - 6- إبعاد العرب الموجودين في الأستانة الذين يعملون ضد الحكومة التركية، واستمالة القسم الآخر في شتى الوسائل.
 - 7- تقوية نفوذ جمعية الاتحاد في البلاد العربية، وتزويد عدد أعضائها من العرب أنفسهم⁽³⁾.
- علاقة العهد بحزب اللامركزية:

ويروي جمال باشا بعد إطلاعه على أسرار الأحزاب والجمعيات العربية، من خلال المحاكمات التي أجراها لأفراد كثيرين من المنتسبين لهذه الجمعيات، أن

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 55
(2) وما يشار إليه هنا لا يخرج عن دائرة الإجراءات التتريكية التي تم تفصيلها ومناقشتها في ص 63 فما بعد من الفصل الرابع، لكن توضح هذه الإجراءات هنا في سياق الأسباب التي أدت إلى تشكيل جمعية العهد وغيرها من الجمعيات العربية المقاومة لسياسة الاتحاديين ضد العرب.
(3) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 56-57

"جمعية العهد بأول أمرها لا تريد أن تخاطر حزب اللامركزية بوجه من الوجوه، لأنها تعتبر نفسها أنها أقوى من الحزب في البلاد العربية بدرجات، لأن القوة الإجرائية (السلطة التنفيذية) بيدها، وحزب اللامركزية يسعى أن يضم الجمعية إليه، ثم جاء زمن نظر فيه الفريقان إلى بعضهما، فوجدا أنفسهما أقوىاء، فكان يريد حزب اللامركزية أن تذوب فيه جمعية العهد، وجمعية العهد تريد أن يضمحل فيها حزب اللامركزية، واشتد الخلاف بينهما زمناً، حتى اتفق الفريقان كما أخبرني داود بركات يوم جاء إلى بيروت قبل دخول الدولة الحرب، ومنذ ذلك نستطيع أن نقول باتفاق القوة الأهلية مع القوة العسكرية، وفي هذه المناسبة صرح لي داود بركات بأن الحزب وجمعية العهد كلاهما واحد"⁽¹⁾.

ويبدو من خلال المعلومات الاستخباراتية التي جمعها جمال باشا عن نشاط حزب اللامركزية وجمعية العهد أنهما سعيا ومنذ البداية إلى توحيد جهودهما والاندماج مع بعض ليصدرا عن رأي واحد وموقف واحد، وليشكل قوة يعتد بها في مواجهة التيار الاتحادي الطوراني في معركة المصير، التي شعر فيها التيار القومي العربي بأن جمعية الاتحاد والترقي مستندة إلى التيار الطوراني التركي، وهي تضع نصب عينها إذابة الهوية العربية، وممارسة السياسة العنصرية ضد العرب، لذلك ومن منطلق الإحساس بالمسؤولية التاريخية تجاه الأمة العربية بتراتها الحضاري الإسلامي العريق، أرادت الجمعيات العربية كاللامركزية والعهد وغيرهما تنسيق جهودها والاندماج مع بعض، والإعداد لرد التحدي الحضاري الذي تواجهه الأمة من قبل العنصر التوراني⁽²⁾، ويرجح الباحث أن القوميين العرب في هذه الفترة لهم ما يبرر موقفهم في تكتلهم وتحزبهم وتنظيم أنفسهم للحفاظ على كيان الأمة وهويتها في وجه الاعتداء الطوراني على لغتها وعقيدتها، وهو ما يستشف من بيانات ومنشورات الأحزاب العربية التي بنتها في بلادها في هذه المرحلة، ويلاحظ أن التيار العربي أراد بمنشوراته هذه إثارة الحمية العربية في نفوس أبناء العرب للدفاع عن كيانهم وعن هويتهم في مجابهة السياسة الطورانية⁽³⁾، في حين ينظر جمال باشا إلى هذه البيانات، ونظراته تعكس سياسة وموقف الحكومة الاتحادية، إلى أنها - ولا سيما بيانات جمعية العهد - تقصد "إيجاد اختلال في الجيش، وفصل قطعة من البلاد عن أم الوطن"⁽⁴⁾ وتدل مقاطع من البلاغات التي وزعتها جمعية العهد وحزب اللامركزية أنها تركز على الحفاظ على هوية الأمة وشخصيتها الحضارية لإكسابها مناعة حتى لا ينال من كيانها الميكروب العنصري الطوراني ويحقق اختراقه التتريكي فيها، وكان حزب اللامركزية قد أصدر ثلاثة بيانات تحت عنوان الصرخات الثلاث يقول في البيان الثالث (الصرخة الثالثة): " إلى أبناء الأمة، ... وبعد فإننا قد صدقنا الترك حتى اليوم

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 20

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 57-58

(3) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 19-20، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 411

(4) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 22-23

بما نطلبه من إصلاح، أما وقد ظهرت بوادر المخاتلة والمخادعة فليعلم العرب أن حركتهم لن توقف دورتها السادسة⁽²⁾ وفي الصرخة الثانية يقول البيان: "ألا أيها النيام ويحكم هُبُوا من نومكم ... انظروا في طرق المكائد التي تكاد لكم، قد أسكت أعداؤكم المفسدون جمعياتكم وأحزابكم حتى لا يشوشوا عليهم بيع البلاد العربية لأوروبا"⁽³⁾.

وفي الصرخة الأولى (البيان الأول): "... إلى أولياء الأمور في العاصمة، إنا عصابة العرب نمد أيدينا إليكم، نصافحكم مصافحة الكريم للكريم، ونغضي عما أصاب الملك في أيديكم، إنا بما جبلنا عليه من العزة والإباء نفخر بما قد جددنا من شرف الآباء، فقد أثبتنا وجودها في هذه الجامعة العثمانية، فحق لنا أن نطالبكم بما هو لازم لحقنا، ونشاطركم سياسة الملك فيما هو خاص بشأننا، فالعرب قاعدة جامعكم من قبل ومن بعد..."⁽⁴⁾. لذلك فإن منهج جمعية العهد يقوم على تجميع أبناء الأمة ممن انتسبوا إلى الجمعيات والأحزاب السرية والعلنية، في سبيل تركيز جهودهم لصد عوادي الاتحاديين عنها، وهذا أيضاً ضمن توجهات وبرنامج الأحزاب العربية الأخرى كالعربية الفتاة واللامركزية، وهناك من الإشارات ما يعضد هذا الاعتقاد، فالجمعية العربية الفتاة حرصت على توحيد جهودها مع حزب اللامركزية في مطلع عام 1914، قبيل بدء الحرب العالمية الأولى، من أجل اتخاذ موقف واحد أمام التحديات والأحداث الجسام التي تحملها الأيام المقبلة، ودور العرب في تلك الأحداث، وأثرهم في مسارها، وهذا ما أشار إليه قذافي حين قال: "وهكذا أصبحت بيروت مركز العمل، وكان على السيد محمد المحمصاني وأخيه محمود أن يتصلا بالجمعية المركزية في مصر توثيقاً للصلة بيننا وبينها، وبذلك أصبحت قضيتنا تسير سيراً منظماً منسقاً"⁽¹⁾.

ولكون جمعية العهد تعنى بشؤون العسكريين العرب في الجيش العثماني، وتعمل بينهم وتجندهم لخدمة بلادهم لمقاومة السياسة الاتحادية في هذه البلاد، شأنها في ذلك شأن جمعية العربية الفتاة بالنسبة لنشاطها بين المدنيين من أبناء بلاد الشام، فإنها تحفزهم وتنظم جهودهم في سبيل الهدف ذاته التي تعمل لأجله جمعية العهد، بما يلبي الطموحات العربية في الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، وهو ما عبر عنه أنطونيوس بالقول: "وبالرغم من أن كل واحدة منهما (العهد والعربية الفتاة) كانت تجهل وجود الأخرى في بداية الأمر، إلا أن نشاطهما - كل واحدة في حقلها الخاص - أصبح بعضه متمماً للبعض الآخر، وفي عام 1915م اتصلت الجمعيتان في دمشق، ووجدتا مواردهما للإعداد للثورة العربية"⁽²⁾.

(2) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 383-384، الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 30-38

(3) دروزة، المصدر السابق، ص 385، 394-397، 467-469

(4) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص 392، وانظر: جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 25 الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 111-117

(1) قذافي، مذكراتي، ص 30

(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 131، ويذكر الشهابي أنه كان مع سعد الله الجابري صلة الوصل بين الفتاة والعهد في دمشق، انظر: الشهابي، القومية العربية، ص 79.

- نهاية جمعية العهد:

بلغت جمعية العهد أوج نشاطها في تجميع أبناء العرب العسكريين في الجيش العثماني من بلاد الشام والعراق، وذلك قبيل بدء الحرب العالمية الأولى بخمسة أشهر، ولما كان عزيز علي المصري هو المؤسس لهذه الجمعية، فإنها عقب اعتقاله ثم الإفراج عنه وسفره إلى مصر، أصبحت هذه الجمعية بحاجة إلى رجل قوي كعزيز يحل محله في رعايتها وإدارة شؤونها، وبينما كانت تتحين الفرص التي تتيح لها التقدم، حصل إذ ذاك ما يُقْتُ في عضدها، ألا وهو اضطرام نار الحرب العالمية، وحينذاك خمدت ثائرة الجمعية وقتاً ليس بالقليل، إذ قد تفرق رجالها في ميادين القتال⁽¹⁾، وقد انضم رجال من قادة هذه الجمعية ومن أعضائها إلى الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين في الحجاز ضد الدولة العثمانية، ويشير الأعظمي إلى أن أعضاء الجمعية المنضمين إلى ثورة الحجاز، قد ابلوا بلاءً حسناً، وعملوا على إحياء جمعية العهد من جديد، فأحيوها وأدخلوا فيها معظم الذين مكنتهم الظروف من الاشتراك في الثورة⁽²⁾. وبانتصار جيش الثورة العربية على القوات العثمانية وطردها من بلاد الشام، دخلت قوات هذه الثورة دمشق، وكان رجال جمعية العهد الملتقين حول الأمير فيصل بن الحسين هم نواة الحكومة العربية في دمشق التي شكلها الأمير فيصل، ولما كانت دول الحلفاء الموقعة على اتفاقية سايكس بيكو، وهي فرنسا وبريطانيا تضع ضمن مخططاتها اقتسام بلاد الشام والعراق فيما بينها، فإنها لم توافق على تأليف دولة عربية مستقلة في هذه المناطق، فلذلك رأى رجال جمعية العهد أن ينقسموا إلى شطرين عهد سوري وعهد عراقي، كل منهم يبذل جهده في سبيل تحرير القطر الذي ينتمي إليه ... وهم لو فكروا فيما تنطوي عليه حجتهم التي تذرعوها بها لأربأوا بسمعته وسمعة الجمعية عن ذكرها، لأن الجمعيات السياسية إنما تنشأ للدفاع عن حياض الوطن ... وكان الواجب الوطني يقضي على رجال الجمعية أن يبقوا متحدين مع بعضهم كالبنيان المرصوص أمام رغبات المستعمرين، لا أن يعبدوا لهم الطريق بهذا الانقسام المزري⁽³⁾، ويعلق الشهابي على دور جمعية العهد، وأثر ذلك في الحركة القومية العربية بقوله: "أنه كان لضباط العهد دور في الحركات القومية الأولى لا يفوقه إلا تأثير رجال العربية الفتاة فيها، ولئن انحلت عرى العهد كعرى الفتاة بعد زوال الحكومة العربية الفيصلية من الشام، فقد لبث كثير من ضباطه يعملون فرادى في الحركات القومية"⁽⁴⁾.

تلك هي أهم الجمعيات ذات الثقل والحضور السياسي، والدور الأبرز في توجيه وتسيير الحركة السياسية العربية في بلاد الشام، في الفترة التي تلت الانقلاب على

(1) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 65.

(2) الأعظمي، المصدر السابق، ج4، ص 66.

(3) الأعظمي، المصدر نفسه، ج4، ص 66 - 67 وللمزيد من التفاصيل عن مصير جمعية العهد عقب اقتسام فرنسا وبريطانيا للشام والعراق بعد عام 1920. انظر المصدر نفسه، ص 68-70

(4) الشهابي، القومية العربية، ص 80

السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، والتي كونت الاتجاهات السياسية الثلاثة، في العلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام، في الفترة بين سنة 1909م، التي بدأ فيها حكم الاتحاديين، وحتى 1916م، حيث انطلقت الثورة العربية في الحجاز ضدهم، بالتنسيق مع العرب الشاميين، ومن ثم امتدت هذه الثورة لتشمل بلاد الشام، وانتهت بخروج العثمانيين منها، وهو ما يأتي تفصيله في الفصل اللاحق.



الفصل السادس
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1914-1916م
"الاتجاه نحو قطع العلاقات"

أولاً: سياسة جمال باشا في بلاد الشام دفعت العرب للثورة.

بلغت ردة الفعل لدى العرب في بلاد الشام تجاه السياسة التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي ومارستها في هذه البلاد ضد سكانها، خلال الفترة التي امتدت بين 1909 ولغاية نهاية عام 1915م، بلغ حدها الأقصى، ودفعت بهم كما فر في الفصل السابق إلى التكتل السري والعلني، وشكلوا الجمعيات التي تعبر عن موقفهم حيال تلك السياسة، وقد تعددت تلك المواقف وتراوحت بين السعي لتحقيق الإصلاحات الإدارية والتركيز على اللامركزية في الحكم وإشراك العرب في إدارة بلادهم، وبين العمل في سبيل استقلال البلاد العربية وانفصالها عن الدولة العثمانية،⁽¹⁾ وكان نشاط الجمعيات والأحزاب العربية العاملة في هذه الفترة خاضعاً للمراقبة الاتحادية، وموضوعاً تحت المجهر والمتابعة، وانتقل الاتحاديون بعد ذلك إلى مرحلة التنكيل برجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام، ولم ينبج من حملة البطش والإرهاب التي شنّها الاتحاديون على أبناء الشام أحد قط من المنتمين لتلك الأحزاب، وشملت الاعتقالات والإعدامات ذوي الاتجاهات السياسية المختلفة من المطالبين بالانفصال ومن الذين ما برحوا متمسكين بالرابطة العثمانية، وبإعلان الحرب العالمية الأولى في أول آب عام

(1) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص 87

سليمان موسى، من تاريخنا الحديث، ص14-17

(2) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص 88-89

فريجات، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية، ص64

1914م، دخلت الحركة العربية في دور جديد، هو الدور الذي انتهى فيه الأمر بإعلان الثورة في الحجاز في العاشر من حزيران عام 1916م.⁽²⁾

والحقيقة أن الدور الجديد يبدأ بتفجر الصراع العلني بين الاتحاديين والقوى السياسية العربية العاملة على الساحة في بلاد الشام وفي الأستانة، وكان الاتحاديون قد عينوا أحمد جمال باشا قائداً عاماً للجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، وذلك بتاريخ 5 ديسمبر كانون الأول 1914م، وكان يشغل قبل ذلك منصب حاكم الأستانة العسكري في الفترة بين الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام 1909م، وحتى تاريخ تعيينه قائداً عسكرياً عاماً للجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، وقد حوّل هذا التعيين سلطات واسعة من خلال الأحكام العرفية الاستثنائية التي أعطت الاتحاديين مطلق الصلاحية في تطبيق قوانين وأحكام عسكرية في البلاد العثمانية، ومنها بلاد الشام.

بدأ جمال باشا عمله في دمشق كقائد للجيش الرابع المرابط في بلاد الشام، بعد أن وصلها في 5 ديسمبر (كانون أول) عام 1914م⁽¹⁾، وكانت مطالب العرب الشاميين التي قدمها وفد الإصلاح المنبثق عن مؤتمر باريس عام 1913م⁽²⁾، قد ضرب بها الاتحاديون عرض الحائط، وزيادة على هذا كانوا يكتفون مراقبة النشاطات السياسية لأبناء الشام، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى الصدام واستحكام العداء بين الطرفين، وإلى انضمام قادة التيار القومي في بلاد الشام إلى الثورة العربية التي اندلعت في الحجاز في شهر حزيران عام 1916م، وتعد الحملة الشرسة التي شنّها جمال باشا، أكثر الاتحاديين غلواً في نزعتهم الطورانية، وأكثرهم عنفاً ضد قادة الحركة القومية العربية⁽³⁾، من الأسباب الرئيسة للثورة العربية، ويحسن قبل الخوض في الحديث عن هذه الثورة وعن أسبابها ودوافع قيامها التعرض لحالة الحركة القومية العربية في بلاد الشام عشية انطلاق تلك الثورة، والتعرف على حقيقة الموقف الذي حدا بجمال باشا لملاحقة زعماء التيار القومي الشامي، ودور ذلك في تأزم العلاقات بين العرب والاتحاديين قبل انطلاق الثورة العربية في الحجاز.

كان المسلمون من رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام مجمعين على ضرورة إجراء إصلاحات إدارية في بلادهم، تطال جوانب الحياة المختلفة، متفقين على المطالب التي تقدموا بها إلى الحكومة الاتحادية، مع الحفاظ على ولائهم للدولة العثمانية، وعدم الخروج عليها، وقد ضمت بعض جمعياتهم كالجمعية الإصلاحية في بيروت في مراحل لاحقة بعد تأسيسها بعض النصاري الذين لم يفصحوا عن آرائهم وتوجهاتهم السياسية تجاه الدولة العثمانية والعلاقة معها، ووافقوا المسلمين في البداية

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 58، العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص 19 مجهول، ثورة العرب، ص 76، سلام، المذكرات، ص 203

- OZTUNA BUYUK OSMANLI TARIHI, CILD, 5. P. 466

(2) سلام، المذكرات، ص 25، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج 1، ص 58

(3) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص101، فريحات، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية، ص 647

على حصر مطالبهم بالإصلاحات الإدارية اللامركزية والمطالبة بإعطاء العرب حقوقهم في بلادهم حسب ما تم المطالبة به بعد مؤتمر باريس⁽¹⁾، ثم تأسست جمعيات أخرى في هذه الفترة كما أشير في الفصل السابق كالجمعية الثورية⁽²⁾.

وجمعية النهضة اللبنانية⁽³⁾، وجمعية الاتحاد اللبناني في القاهرة⁽⁴⁾، وكان القائمون على هذه الجمعيات نصارى شاميون أغلبيهم من لبنان، ولم يفصح هؤلاء في السنوات الأولى من حكم الاتحاديين لبلاد الشام عن توجهاتهم في ربطها بالدول الغربية الطامعة في هذه البلاد كفرنسا وبريطانيا، وعن نزعاتهم الانفصالية وولائهم للدول الأنفة الذكر، وظهرت بوادر ذلك أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913م، وظهر الافتراق جلياً وواضحاً بين المسلمين والنصارى من أبناء بلاد الشام المشتركين في هذا المؤتمر، حين أبدى النصارى ميلهم وولاءهم للفرنسيين من خلال كلماتهم التي ألقوها في جلسات المؤتمر وبعده⁽⁵⁾، ويرجع الأعظمي جذور تلك العلاقات الحميمة بين نصارى لبنان وفرنسا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين حدثت الفتنة الطائفية في لبنان عام 1860م بين النصارى والمسلمين، واستنجد نصارى لبنان حينذاك بمن يسمونها حاميتهم (فرنسا)، يقول في ذلك: "وعندما حدثت حادثة 1860م في سورية التي جرت في المذابح، انتصرت فرنسا للبنان، ودعت الدول العظمى إلى عقد مؤتمر للبحث في المسألة اللبنانية الداخلية، فعقد المؤتمر الدولي في بيروت، ووضع للبنان نظام يمنحه الاستقلال الإداري، وقد أقر السلطان عبد المجيد هذا النظام، ووافقت عليه الدول العظمى، فحفظ اللبنانيون هذه المأثرة لفرنسا، ودعوا حامية الجبل (جبل لبنان) ونصيرة اللبنانيين، وطفقوا يمجدون ذكرها في كل بادرة تدير وحادثة تحدث، أما فرنسا فأخذت تحذب على الجبل وتعطف عليه، ومدت شباك دعايتها على قممه وكهوفه وسهوله وأوديته⁽⁶⁾" فعندما عقدت جلسات مؤتمر باريس مثل لبنان فيه عدد من الأعضاء مسلمين ومسيحيين، منهم عن المسلمين سليم علي سلاّم، وأحمد مختار بيّه، وكان سليم سلاّم يسعى مع زملائه المسلمين إلى عدم الوقوع في شرك السياسة الفرنسية التي تتطلع إلى البلاد السورية، وكان سليم سلاّم وأحمد مختار بيّه لا يهدفان إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، ويسعون فقط للحصول على ما يسمى بالنظام اللامركزي في الإدارة، على الرغم من أن سليم سلاّم كان عثماني السياسة؟⁽⁷⁾، ولم يستغل سليم سلاّم والأعضاء المسلمون من لبنان المشتركين في مؤتمر باريس وجودهم في باريس لإجراء اتصالات مع الفرنسيين كما فعل سواه من أعضاء الوفد اللبناني النصارى، والذين طالب بعضهم

(1) سلام المذكرات، ص 26 - 30 .

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 105.

(3) الأعظمي، المصدر السابق، ج 4، ص 70، جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 30.

(4) الأعظمي، المصدر نفسه، ج 4، ص 72 .

(5) سلام، المذكرات، ص 34.

(6) الأعظمي، القضية العربية، ج 4، ص 71 .

(7) سلام، المذكرات، ص 29-32.

فرنسا بأن تحتل سوريا ولبنان، وقد خاطب أحمد مختار بيهم ناظر الخارجية الفرنسية بقوله: نطالب الاستقلال ونرفض وصاية أية دولة علينا بما فيها فرنسا⁽¹⁾ فاعترض الأعضاء النصارى المشتركون في المؤتمر على تصريحات بيهم، أمثال خليل زينييه وأيوب ثابت، والتي قال فيها: " بأن فرنسا ليس لها مطمع في لبنان، وأننا نطمح أن يعيش فيها لبنان بسلام مع الدولة العثمانية ".⁽²⁾ ويكشف سلام حقيقة ما كان يجري في بيروت من الاتصالات بين دعاة الانفصال من نصارى لبنان وبين فرنسا، بعدما انضم هؤلاء إلى جمعية بيروت الإصلاحية، يقول: "ولم ندر أنهم يوم كنا في بيروت وإياهم نشغل سوية بالجمعية الإصلاحية، أنهم مقدمين مذكرةً لقنصل فرنسا في بيروت ليقدّمها لحكومته يطالبون بها عكس ما صرح به مختار (أحمد مختار بيهم)، وهذه الوثيقة لم ندر بها إلا بزمن الحرب، عندما فتحت الحكومة العثمانية القنصلية الفرنسية، ووجدت هذه الوثيقة من جملة الوثائق التي وجدتتها"⁽³⁾.

وإضافةً لهذه الإشارات عن نزوع نصارى لبنان إلى الانفصال والابتعاد عن الدولة العثمانية، عمد هؤلاء النصارى من زعماء التيار القومي، ككتاب ومفكرين إلى المطالبة باستقلال لبنان عبر أعمدة الصحف والمجلات، وذلك بكتابة المقالات وافتتاحيات الصحف، ثم بإنشاء الجمعيات، كل ذلك للوصول إلى الغاية التي وضعوها نصب أعينهم، وهي فصل لبنان عن البلد الأم سورية الطبيعية التي تعادل من الناحية الجغرافية بلاد الشام، وبالتالي فصله عن الدولة العثمانية، بإعطائه استقلالاً سياسياً وإدارياً تحت حماية فرنسا⁽⁴⁾ وجاء في تقرير رفعه قنصل فرنسا في بلاد الشام إلى السفارة الفرنسية في الأستانة عن جمعية النهضة اللبنانية، أن لها مقاصد وأغراضاً يخفيها القائمون عليها من النصارى اللبنانيون عن أبناء العرب الذين كانوا يشتغلون في ذلك الوقت لإحياء المجد العربي⁽⁵⁾، وقد أُرّخ هذا التقرير بـ 15 كانون الأول 1913م، وورد في نصه: "جناب المسيو بومبار، أتشرف بأن أخبر سعادتك بأن نخلة باشا المطران من ذوي النفوذ في بعلبك قد زار هذه القنصلية مرتين في خلال الأسابيع الأخيرة، وقد كان ذلك السيد منذ عامين سكرتير السفارة التركية في باريس، وله معرفة بمعظم رجالنا السياسيين، وهو عضو في الكنسية الكاثوليكية وفي الجمعية

(1) سلام، المذكرات، ص33، وانظر: الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص84-85.

(2) سلام، المصدر السابق، ص34.

(3) سلام، المصدر نفسه، ص34.

(4) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص71-73.

(5) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص73.

الاتحادية، ولو أنه كذَّب ذلك في أحاديثه معي عندما أشار إلى إخفاق سياسية اللجنة ووقاحة الاتحاديين، فقد انتهز نخلة مطران فرصة السفر إلى دمشق، وحضر لزيارتي للمناقشة في مسألة تهم الدولة (فرنسا) التي اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسوريا، إن الحالة الحاضرة أصبحت لا تطاق، وأنا عزمنا على إدماج بعلبك وسهل البقاع في لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافياً، بيد أننا نفتقر لتحقيق هذه الغاية إلى مساعدة وحماية الحكومة الفرنسية ... ونظراً لأن بعلبك هي في دائرة قنصليتك، رأيت من الواجب عليّ أن أطلعك على هذه الأمور .. وإني أتقبل تأكيدات نخلة المطران كلها بكل احتياط، وقد زارني مرة أخرى، وأكد لي من جديد إخلاصه لفرنسا⁽¹⁾ وينشر جمال باشا الوثائق والأوراق التي تم ضبطها في مقر القنصلية الفرنسية في كل من دمشق وبيروت، ويكشف ما تحمله هذه الوثائق من إدانات صريحة ودامغة لأعضاء الأحزاب اللبنانية من النصاري، وحتى بعض المسلمين من المتورطين في الاتصالات بالقنصليات الفرنسية في بلاد الشام، ومن المتواطئين مع تلك القنصليات، الذين كانوا يتلقون مبالغ مالية منها، مقابل إثارة الحقد لدى الأهالي في بلاد الشام على الدولة العثمانية، وتحبيب فرنسا لهم، وتزيين انتدابها على هذه البلاد، وجمال باشا وإن كان لا يضع تلك الوثائق والأوراق بين يدي القارئ، ولا ينشرها إلا ليبرر مواقفه في إعدام من أعدم من السياسيين الشاميين، وليظهر للملأ أنه يعدم خونةً لبلادهم ولدولتهم العثمانية، يتآمرون مع الأجنبي ضد مصالح بلادهم، لكنه مع كل ذلك يبين لكل ذي بصر وبصيرة، أن لأعماله تلك مستنداً يستند إليه، ويأتي لاحقاً مناقشة ذلك وتقييم مواقفه من القوميين العرب في بلاد الشام، وحركة الإعدامات التي نفذها ضدهم، يقول جمال باشا: "إن جمعية النهضة اللبنانية هي أول ما تأسس من الجمعيات، وقد تأسست في لبنان، وكان قنصل فرنسا في بيروت يمد يد المعونة بالنقود الوافية الوافرة لشُعبَةِ بيروت وجمعيات لبنان، ... ثم إن هذه الجمعيات كانت تسعى وراء إلحاق بيروت بلبنان، وتوسيع حدود الجبل إلى البقاع وقد قال عبد الغني العريسي كما في الوثيقة السادسة: وغاية هذا الحزب جريمة، وهي تمهيد السبيل لفرنسة سورية، وهو الذي

(1) جمال باشا، ايضاحات عن المسائل السياسية، ص33-34.
الأعظمي، القضية العربية، ج4، 73-75.

ينشر نفوذها، ويسعى بتحبيب الناس للفرنسيين، حتى أن الحكومة الفرنسية قد عينت أخيراً خير الله خير الله من الكتاب في إدارة جريدة (الطان) ليكتب لها الفصول الطوال عن أحوال سورية ولبنان، وقد أرسلته مرتين أو ثلاثاً في السنين الأخيرة لبيت الدعوة في الجبل للفرنسيين⁽¹⁾ ويبين جمال باشا كذلك من خلال الوثائق التي حصل عليها أن معظم الصحف والجرائد التي تصدر في لبنان وقتذاك، أو تصدر في فرنسا، وهي لبنانية، يديرها نصارى لبنانيون، "كانت تعيش من مال فرنسة، ومقالاتها معلومة لدى الحكومة، ويذكر أسماء بعض تلك الصحف، مثل جريدة الأحوال، وجريدة النصير، وجريدة زحلة الفتاة، وجريدة الثبات، وجريدة لسان الحال ... وباختصار فإن الجرائد المسيحية في بيروت كانت لسان حال الجمعية اللبنانية، والداعية لبث الفكرة الأجنبية، فمنها لإنكلترا ومنها لفرنسا"⁽²⁾. ويؤتي جمال باشا بعد بيان انتماء الصحف الأنفة الذكر، ببيان حال القائمين عليها وبالمنتسبين للجمعيات والأحزاب اللبنانية الداعية للانفصال بقوله: "ونحن ننظر إلى منسوبي النهضة بنظر جواسيس لفرنسة، يدخلون بكل جمعية ومحفل، ويسعون مع كل جريان، ويخبرونها عن جميع التبدلات، ولا ريب أن هؤلاء حسبما تلقوا من التعليمات يتقيدون بكل جمعية، ويسعون بأن يجعلوا خطتها مؤتلفة مع منافع فرنسة"⁽³⁾، وجاء ضمن مطالب تقدم بها بعض النصارى المنتسبين إلى لائحة الإصلاح لولاية بيروت⁽⁴⁾، تقدموا بها إلى قنصل فرنسا في بيروت، مذلين إمضاءاتهم بها، كما نشرها جمال باشا بين الأوراق والوثائق المنشورة، تحت بند: موقف النصارى العثمانيين "آمال نصارى سورية أنهم مرتبطون مع فرنسة بصورة لا تقبل الإنفكاك، ولا ينسون في وقت ما أنهم بإعجاب تام من مدينة فرنسة ودهائها، فأكبر آمال نصارى سورية أن تستولي فرنسة على البلاد الشامية، ولكي تكون الكيفية

(1) جمال باشا إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 30-31.

(2) جمال باشا، المصدر السابق، ص 31-32.

(3) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 34.

(4) جمعية الإصلاح البيروتية أسسها مسلمون على أساس غير طائفي، وسمحوا للنصارى الانضمام إليها كما مرّ في الفصل السابق أثناء الحديث عنها، واعتبر سلام ذلك نقطة ضعفها لأنه اندس فيها فريق من العملاء الفرنسيين وصنائعهم، فتمكنوا من إفساد غايتها وتشويه سمعة بعض رجالها في نظر شعبيهم وفي نظر الترك أيضاً، وأن أعضاءها المسلمين شديداً الإخلاص لعثمانياتهم بدليل ما قاله عضو مؤتمر باريس أحمد مختار بيهم لوزير الخارجية الفرنسي أثناء مقابلة الوفد المنبثق عن المؤتمر له، قال له: يهنا يا صاحب السعادة أن تعرفوا حقيقة شعورنا ورأينا في مصير بلادنا، فنحن إذا طالبنا باللامركزية، فإننا شديداً الإخلاص لسلطنة جلالة أمير المؤمنين الخليفة الأعظم، ولا يمكن أن ننسلخ عن السلطنة". انظر: سلام، المذكرات، ص 34-35.

على هذا الوجه، فإن الأعضاء الواضعين الامضاء بذيله يقولون باسم نصارى بيروت، أن المرجح في حل المسألة هو أن يكون على الوجه الآتي:

1- استيلاء فرنسا على سورية.

2- إعطاء مختارية كاملة لولاية بيروت تحت مراقبة فرنسا وحمايتها بالفعل.

3- إلحاق بيروت بلبنان، على أن يكون كلاهما تحت مراقبة فرنسا وحمايتها بالفعل. التوقيع: ميشيل تويني، يوسف الهاني، بئرو طراد، الدكتور أيوب ثابت، رزق الله أرقش، خليل زينية⁽¹⁾ وينقل الأعظمي عن أحد نصارى بلاد الشام المقيمين في باريس، وهو شكري غانم رئيس شعبة جمعية النهضة اللبنانية في باريس، أنه كان يظهر نفسه من أكبر دعاة الوحدة العربية، وأنه أصدر في أوائل آذار 1915م جريدة المستقبل دفاعاً عن العروبة، وأعلن عن هذه الجريدة أنها عربية تعمل على تنبيه العنصر العربي من غفلته، غايتها أنها تعنى بمستقبل العرب، وأنه أعلن عن جريدته بهذه العبارة، غير أنه كان جل قصده هو أن يسعى بكل قوته في اتساع مسافة الخلف بين الترك والعرب، ليتوصل بذلك إلى أمنيته العظمى وهي استقلال لبنان تحت الحماية الفرنسية⁽²⁾، ودليل ذلك ما كتبه في جريدة الماتان الفرنسية في 12/كانون الأول سنة 1915م بعد مقال طويل: إذا كان الحلفاء يريدون أن يحتفظوا بمصالحهم بالشرق، ويحرروا العنصر العربي الكريم من الرق الذي يتهدهده، فليس لهم إلا هذه الطريقة وهي: أن يُحرّشوا بين العرب والترك، وينصروا أولئك على هؤلاء، وعندما عمل الحلفاء بنظرية شكري غانم، وحرشوا بين العرب والترك، وكانت النتيجة أن دخل الجيش العربي إلى سورية، خلع شكري غانم عنه ثوب الرياء، وظهر بمظهره الحقيقي فقال: إن السوريين ليسوا عرباً!! وإنهم فينقيون قبل كل شيء، وأنهم لا يرضخون لحكم البدو رعاة الإبل والشاة⁽³⁾ ولم يكن هذا الموقف عن نصارى لبنان متقولاً عليهم، بل هو حقيقة ما تنتطوي عليه نفوسهم، وكان نشر جمال باشا له بمثابة إشهار أمام مواطني الدولة العثمانية من العرب المسلمين ليعرفوا النصارى على حقيقتهم، ولتظهر توجهاتهم ونزعاتهم وولاؤهم للدول الاستعمارية في وقت عصيب كانت تمر به الدولة العثمانية، خاصة بعد تورطها في الحرب العالمية الأولى عام 1914م، وبات من المعروف لدى رعايا الدولة العثمانية المسلمين في بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية ما يكنه النصارى من الحقد على الدولة العثمانية، وما يحلمون به من الارتباط بفرنسا، وها هو رشيد رضا يشير في مقالة نشرها في مجلته المنار، يبين فيها إفراط نصارى بلاد الشام في التهويل والمبالغة بتصريحهم الارتباط بالغرب وفرنسا ويقول: "نعم إن بعض الجرائد والجمعيات اللبنانية قد غلت في الدعوة

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص39-41 وانظر:

الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص76-83.

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص85-87.

(3) الأعظمي، المصدر السابق، ج4، ص87.

إلى الانسلاخ من كل صفة عثمانية، والاستقلال بجنسية لبنانية لا عربية، وكثير من اللبنانيين ملأ صراخ شكواهم فضاء أمريكا الشمالية والجنوبية ومصر، ونقلت الجرائد صدها إلى كل قطر يوجد فيه سوريون أو لبنانيون، فمنهم من يدعوا إلى الاستقلال التام، ومنهم من يدعو إلى احتلال فرنسا للبلاد، ولهم عدة جمعيات سياسية يشترك فيها ألوف منهم في الوطن، وفي ديار الهجرة من مصر إلى أوروبا وأمريكا وغيرها من الممالك⁽¹⁾، ولذلك استند جمال باشا إلى مواقفهم المعلنة تلك في حملة اعتقاله وإعداماته لزعماء التيار القومي العربي في بلاد الشام، وإذا كان هذا هو موقف نصارى هذه البلاد، فمن غير المستبعد أن يظهر من المسلمين من أبنائها ما يشير إلى صلات بعض زعمائهم ووجهائهم بالفرنسيين، والسعي لدى فرنسا بأن تعمل على احتلال بلاد الشام وإخراج العثمانيين منها، وهذا في الواقع قد حدث من بعض زعماء العاملين في الحقل القومي في هذه الفترة، وما أورده جمال باشا في إيضاحات يؤكد ذلك، ويدين هؤلاء إدانة لا مناص منها، ولا يمكن تبرير ما فعله أصحابها من العاملين في الحركة القومية العربية آنذاك، ولا يمكن اعتباره إلا التواطؤ مع الأعداء المستعمرين ضد دولة الخلافة العثمانية، على الرغم من فطائع الاتحاديين الحاكمين لها ضد العرب في البلاد الشامية، ومما تعانيه هذه البلاد من ويلات عرضها لها الاتحاديون من خلال سياستهم العنصرية التتريكية ضدها، ومما أدخلوها فيه من مصائب من خلال الاشتراك في الحرب العالمية الأولى، أما الأدلة التي قدمها جمال باشا فتثبت بشكل جلي تورطهم مع الفرنسيين، ففي رسالة من قبل سفير فرنسا في الأستانة إلى وزارة الخارجية الفرنسية في 15/كانون أول 1913م، يؤكد فيها أن شفيق بك مؤيد العظم مبعوث دمشق في مجلس المبعوثان العثماني لفترة سابقة قد زاره وطلب منه المؤازرة للمسلمين كما هي للنصارى في بلاد الشام، في سبيل تحقيق الإصلاحات الواجب تحقيقها في ولاية سورية، وضرورة قلب ولايات سورية الثلاث إلى إمارة بمساعدة فرنسا⁽²⁾، وينقل جمال باشا أيضاً وثيقتين من الوثائق المقبوض عليها في السفارة الفرنسية في بيروت تحملان الرقم (5) والرقم (10)، وهما بتاريخ 25 مارس/ آذار 1913م، وتشيران إلى برقية من وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصل فرنسا في دمشق المسيو أوقناوي، وذكر فيها إلى أن مأمور فرنسا في القاهرة المدعو دوفرانس أبرق إليه عن اجتماع عقد في القاهرة من قبل إدارة حزب اللامركزية، مؤلف من مسلمين ومسيحيين، واتفق المجتمعون على صيغة حل تتمثل في قلب سورية إلى إمارة ممتازة تحت حماية فرنسا، تدار من قبل أمير مسلم ينتخبه

(1) رشيد رضا، الجنسية اللبنانية وغلو طلابها، مجلة المنار، م 17، 1914م، ج8، ص 617 - 627.

وانظر: كوثراني، مختارات سياسية، ص 274 - 276 وانظر:

رشيد رضا، لبنان الكبير وطن مسيحي (هكذا يقول بطريك الموارنة)، مجلة المنار، م 23/2 نيسان 1933م، ج2، ص 153 - 155، وكذا: كوثراني، مختارات سياسية، ص 285 - 288.

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 52-53.

الأهلون، وأن المأمور الفرنسي في القاهرة مكلف من قبل الحاضرين في الاجتماع السابق بإبلاغ نتائجهم إلى الخارجية الفرنسية⁽¹⁾.

وذكر جمال باشا عن شكري العسلي أيضاً أنه لم يتوقف عن مراجعة قنصل فرنسا في الشام⁽²⁾، كما ذكر في وثائق أخرى، أثبت صورها في إيضاحات، ما يدل على سعيهم لانفصال بلاد الشام عن الدولة العثمانية، وطلب العون من فرنسا وبريطانيا للوصول إلى هذه الغاية، ويتم إيراد مقاطع من تلك الوثائق تزيد الأمور وضوحاً، وتؤكد أن ما فعله جمال باشا يستند فيه إلى أدلة ووثائق يبرر لنفسه من خلالها تنفيذ ما أراد، معتبراً ذلك جزءاً يستحقه من وضعوا أنفسهم في تلك المواقف، وأوقع عليهم الأحكام والعقوبات التي نُفِذَتْ بحقهم، وهذه المقاطع تثبت هنا كما هي في إيضاحات، ومن ثم تناقش في سياقها لاحقاً مع الآراء الأخرى، يقول جال بشا بعد إيراد رسائل ونصوصاً عن حزب اللامركزية، تحتوي على اتصالات بخصوص نشاطاته لبلوغ استقلال بلاد الشام وتحقيق اللامركزية فيها: "أما في السطور المندرجة في الصورة التاسعة والعشرين التي ندرجها فيما يأتي، فيفهم منها بصورة جلية أفكارهم بخصوص التشبث بشق عصا الطاعة والاختلال"⁽³⁾.

ويقول تحت عنوان التشبث بالاختلال ما يبين تنكر رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام لانتمائهم للدولة العثمانية وفضلها عليهم، وانسلاخهم عنها، ومن ثم يبرر عقوباته لهم بأنهم غير جديرين بالعفو: "إن الأشخاص الذين اجتمعوا حول دائرة تاريخ اللامركزية، ليسوا جديرين بالعفو عنهم، فإن المملكة التي أسعدتهم وغدثهم بألبانها وجعلت لهم ذِكْراً وموقِعاً واعتباراً اجتماعياً بين الناس، قد قابلوها زمان الضَّعْف والإدبار بكل احتراص واحتقار، وكان مَأْتَمها سروراً وحبوراً، فلما كان حرب الطليان، وكان الآلاف المؤلفة من الترك والعرب يبذلون أرواحهم كتنفأ لكتف في سبيل الاستقلال والشرف والدين، كان أولئك الأشخاص يفكرون بالصورة التي يمكن أن ينالوها بهذه الفرصة ضد المملكة، ولما كانت حرب البلقان تزهق نفوس الآلاف الذين هم آخر استمداد المسلمين، كان أولئك الأشخاص يسعون لأن تكون آسيا العثمانية في حوز دولة أخرى، على أن فشلهم وعدم توفيقهم في تلك المساعي، لم

(1) جمال باشا، المصدر السابق، ص 54-55، ص 57.

(2) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 57.

(3) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 86.

يمنعهم من الإقدام للسعي وراء تلك الغاية، لدرجة أنهم احتاجوا النصيحة دول الأعداء، بأن يكونوا على بصيرة واحتياط .. ونحن نشرح هذه المسألة هنا، شاكرًا الله تعالى على عدم وقوع هذه المآثم، بالنهاية جاء يوم انتقمت فيه هذه المملكة من أولادها السفهاء"⁽¹⁾.

ثم يورد اعترافات عبد الغني العريسي (أحد الذين أعدموا)، وفيها ما يدل على التوجه نحو العمل العسكري ضد الدولة العثمانية بمعاونة فرنسا، يقول: " قال عبد الغني العريسي: أما علاقة الجمعية اللبنانية في مصر بحزب اللامركزية فقوية أيضاً، لأن رئيسها اسكندر عمون من أعضاء الحزب، وكانت الجمعيتان قد اتفقتا قبل إعلان الحرب العمومية أن يعمل الفريقان سوياً فيما إذا دخلت الدولة العلية الحرب، وقد راجع الفريقان معتمد فرنسة بمصر، فوعدهم بأن يمدّهم بعشرين ألف بندقية من السلاح، وثلاثة دوارع تقف على الشواطئ تدافع عن الثائرين عند القيام، ووعد أيضاً بأن يقدم كل المال الذي تحتاجه الجمعيتان .. وقد وعدهم معتمد فرنسا بأن يمدّهم بالضباط الفرنسيين ليتولوا هم إدارة القيام العام في سورية"⁽²⁾.

ويضيف جمال باشا من خلال الوثائق المقبوضة في قنصليات فرنسة في كل من دمشق وبيروت ما يجعله ينزل أشد العقوبات بأعضاء حزب اللامركزية وغيرهم من السياسيين الشاميين الذين يعتبرهم متورطين في العمل ضد الدولة العثمانية مع أعدائها، يقول: "وينبغي إمعان النظر في تاريخ نشر هذه التحريرات العمومية، ولا يمكن أن تكون هناك وثيقة أمتن ولا أقوى من هذه الوثيقة التي تقضي بتجريم أعضاء اللامركزية وعقابهم بأشد العقاب تجاه المحكمة والتاريخ، والحق يقال إن هؤلاء الأشخاص الذين علمت ماهيتهم حق العلم من الوثائق التي نشرناها حتى الآن، قد كشفوا الغطاء مؤخراً عما أرادوه، ورفعوا الحجاب عما كانوا أبهموه واجتنبوه، وتهبوا لإيقاع الضرر بهذه المملكة التي اضطرت أن تجرب طالعها أمام هذه الوقائع العظيمة، وقصدوها بالسوء شنيعة لا يمكن صدورها من الأجانب"⁽³⁾... وقال عبد الغني العريسي: وقد كانت تتوالى المنشورات الثورية من الحزب (حزب اللامركزية) في هذا الشأن بواسطة الطيارات الأجنبية، والذي تولى إقناع حزب اللامركزية بهذا الشأن

(1) جمال باشا، المصدر السابق، ص 91-92.

(2) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 92.

(3) جمال باشا، المصدر السابق، ص 94.

وإقراره عليه هو داود بركات، لأن الحكومة الفرنسية كانت مخصصة لجريدة الأهرام الذي هو رئيس تحريرها مقدار خمسة آلاف ليرة، وهذا ثابت في سجلات القنصليات، واسكندر عمون رئيس الجمعية اللبنانية التي لا تعمل إلا لمصلحة فرنسة، هنالك شعرت انكلترا بما تنويه فرنسة من العمل في سورية، فاستدعت المسلمين من حزب اللامركزية وهم رشيد رضا ورفيق العظم، ودفعت للحزب مقدار ألف ليرة، لتكن الدعوة لانكلترا لا لفرنسة، وقد عمل المسلمون خفية عن المسيحيين على بث هذه الدعوة .. وقد أرسل حزب اللامركزية وفوداً إلى مدن الشام جميعها، وإلى كل البلاد العربية، حتى إلى ابن سعود، وهو بث الدعوة للقيام مع مساعدة الإنجليز دون الفرنسيين، ولا أدري فيما انتهى تزامم الفرنسيين والإنكليز على هذا الأمر بعد ذلك اليوم، وما دفعت إنكلترا من المال بعد الألف ليرة الأولى، وقد كان لأصحاب المقطم يد طولى في إقناع المسلمين من حزب اللامركزية بممالة إنكلترا ومساعدتها، لأن لهم مبالغ طائلة وعظيمة جداً من هذه الدولة في كل سنة تفوق تخصيصات الأهرام بأضعاف مضاعفة⁽¹⁾. ويأتي كذلك باعترافات لشقيق بك مؤيد العظم: "وكان شقيق بك المؤيد يقول مراراً في ديوان الحرب العرفي: إنني صرفت في عمري ما ينوف عن مائة ألف ليرة. وقد كانت كل من سفارة فرنسة والإنجليز مصرفاً مالياً لشقيق بك المؤيد، فإنه طرق أبواب هاتين السفارتين أملاً بعودة أيام ذاك الإسراف القديم وتلك السفاهة، فجميع مساعي اللامركزية عبارة عن مقدمة لاستيلاء فرنسة والإنجليز.

على أن تلك الخطب العالية والشَّعْرُ البليغ والمناقب التاريخية، وجميع الأقوال التي تعود للاستقلال، لم تكن سوى أكف فتحت أمام دنانير فرنسة والإنجليز، وكانوا يفيضون بالحسيات الوطنية والالهامات التاريخية بصورة مضحكة تجاه موقع معين في الإدارة المستقلة أو سند مالي يُمضى لهم"⁽²⁾.

ويمضي جمال باشا في سرد اعترافات السياسيين الشاميين، يقول: "وأما رفيق رزق سلوم فلما شرح المسألة، كان كلامه موافقاً لما مر، فإنه ذكر عين هذا الكلام تقريباً"⁽³⁾. ويكشف أيضاً خطة الفرنسيين في تحريضهم لأبناء بلاد الشام للخروج على الدولة العثمانية والعمل معهم ضدها، يقول في ذلك: "فإن فرنسا بمكاتبها وكنائسها وجماعة الرهبان حتى في البلاد الصغيرة في سورية لا يسوغ أن يقال: إنها إنما صنعت ذلك لمحض الإنسانية، وكان اللازم أن يقال ذلك بحسب الظاهر، ونحن إلى أن اطلعنا على الوثائق التي أخذناها من الفرنسيين ما كان يمكننا أن ندعي فرنسة مشغولة بأمور سورية وفلسطين الداخلية بصورة رسمية، ولكن هذه الوثائق اليوم تثبت من غير زيادة كلمة واحدة، كيف أن فرنسة تعد أن عموم المسائل لداخلية وكل جريان، وجميع الأحزاب والأشخاص وغيرهم من متعلقاتها"⁽⁴⁾.

(1) جمال باشا، ايضاحات عن المسائل السياسية، ص 94 - 95.

(2) جمال باشا، المصدر السابق، ص 95.

(3) جمال باشا، المصدر السابق، ص 97.

(4) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 103.

ويقدم جمال باشا من خلال الوثائق المضبوطة بيانات ذات دلالة واضحة على اصطناع فرنسا لآل الجزائري في دمشق ليؤدوا دورهم في الحركة القومية العربية ضد الدولة العثمانية، ويقول: "ومن دسائس فرنسا في سورية أنها خصصت لابن الأمير عبد القادر الجزائري مبلغاً سنوياً، ولغيرهم من آل الجزائري، وأعرف أن الأمير عمر الجزائري والأمير طاهر الجزائري كانا يقبضان مشاهرة من قنصل فرنسا في دمشق، إنني كنت أقرأه في جريدة الطان، أن المبلغ الذي خصص لآل الجزائري في سورية حقير جداً لا يفي بالمقصود من تعزيز نفوذ فرنسا في سورية، فكانت الجريدة تطلب من الوزارة بإلحاح زيادة المبلغ ليتمكن هؤلاء من نشر النفوذ"⁽¹⁾.

ويكشف جمال باشا بعض تفصيل محاكمة المجموعة الأولى الذين أعدمهم في 21/آب 1915م، من أجل تهينة الجو العام لتقبل إعدامهم، ويقول: "أما محاكمة عبد الكريم خليل وعصابته، فقد استمر طوال شهري يونيه ويوليه (حزيران وتموز)، وكلما أوغلنا في المحاكمة تبينت تدريجياً أغراض الثوار الجنائية، وتكشفت للملأ سوءاتها، ولقد دهشت كل الدهش لعظم شبكة الدسائس التي نسجوها ونصبوها، ولم يكن في سورية إذ ذاك من الجنود سوى الكتائب العربية، فلو خطرت لها فكرة التمرد، لما كان لدي ثمة وسيلة لكبح جماح الثورة"⁽²⁾.

ثم يبين أهمية أحكام الإعدام التي صادق عليها في تأديب رجال الحركة القومية في بلاد الشام وردعهم عن القيام بأي عمل، ويقول: "ولقد أطلعنا على محاضر المحكمة العسكرية، وبعد الفراغ منها واستشارة قاضي القضاة أيدت حكم الإعدام الذي نفذ في بيروت في نهاية أغسطس آب 1915م، وقد أحدثت هذه الأحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصاة، وأدخلت الفرع في قلوبهم"⁽³⁾ ويضيف: "وكذلك كشفت محاكمة عبد الغني العريسي الستار عن عدة حقائق خطيرة الشأن، فلاح لي أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق المهمة التي ضببطت في القنصلية الفرنسية في دمشق في أوائل الحرب، وطلبت فعلاً إلى وزير الداخلي طلعت باشا والحربية أنور باشا تخويلي السلطة اللازمة، فحولانيها بعد تبادل الرسائل المطولة، ولقد عزوتُ ترددهما ذلك إلى كون الأشخاص الذين تدينهم الوثائق المضبوطة من ذوي المناصب العالية، أما أنا فكنتُ أرى عقاب الخائن لوطنه ولدينه ينبغي أن يكون مناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله، لأنه لا يتأتى أن تعزى أعمال مثل ذلك من رجل لجهله أو حمقه⁽⁴⁾ وعلاوة على ما سبق من دفاع جمال باشا عن مجلسه العرفي الذي حاكم فيه القوميين العرب وأعدمهم، تحرك على صعيد آخر وهو الإعلام، عن طريق نشر البيانات في الصحف، فقد نشر بياناً بإمضائه في صحف سورية، في (5) رجب 1334 هـ/ الموافق (7) أيار

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 105.

(2) جمال باشا، المذكرات، ص 367-368.

(3) جمال باشا، المصدر السابق، ص 369.

(4) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 370-371، وانظر: الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 202-206.

عام 1916م، حاول من خلاله تبرير إعدام الدفعتين الأولى والثانية من المقدمين، واعتبره قصاصاً عادلاً لهم⁽¹⁾، كما أصدر جمال باشا كتاباً، نشر في الأستانة سمّاه: الكتاب الأحمر، وذلك سنة 1916م، نشر فيه صور فوتوغرافية لرسائل ومستندات تبودلت بين المُقَدِّمين العرب والحكومة الفرنسية⁽²⁾. أراد من ذلك بيان تورط السياسيين الشاميين مع فرنسا مدعماً رأيه بالوثائق والصور، وقد عدَّتْ جريدة القِبْلة ما قدَّمه جمال باشا من وثائق لا يدين المحكوم عليهم بالإعدام في محاكمه العرفية، وردت على أدلته تحت عنوان وثائق جمال باشا قائلة: "أما الذين حكم عليهم بالإعدام، فلم يرد لهم ذكر في الوثائق التي اتخذها جمال باشا حجةً على الناس في سوريا، ثم إن مساعي حزب اللامركزية قد وافقت عليها حكومة الأستانة، وعرضت عليهم شروطاً معينة، وقلدتهم مناصب رفيعة، فلا وجه لاتهامهم بالخيانة بعد ذلك بثلاث سنوات، لأن ما فعلوه لم يكن سراً مكتوماً عنها، فليحكم القراء بين جمال باشا وفرائسه من الذين ورد ذكرهم في هذه الوثائق، والذين لم يذكروا فيها"⁽³⁾.

ويورد كرد علي مسألة غاية في الأهمية، وكان لها دور رئيس في الإيقاع بمن أعدموا في بيروت ودمشق، وتنحصر باعترافات المتهمين بعضهم على بعض، وأن البعض أخذ بما جمع عنه من وشايات، ويتفق هذا مع ما أشارت إليه جريدة القِبْلة، يقول كرد علي: "وقد أيقنْتُ بعد الاستقصاء أن بعض ما اتهم به المتهمون في عالية كان قائماً على الظن، ولم يرجع في الأكثر إلى وثائق قانونية، وقد سألتُ الوالي خلوصي بك (والي دمشق) وكان ذهب إلى بيروت واجتمع إلى أعضاء الديوان العرفي، عما كانوا يتهمون به، فقال: إنهم اتهموا بضروب من التلفيقات، ومن الحق أن نقول: إن من اتهموا ما خلوا من شهادة بعضهم على بعض، ومن أصحابهم مَنْ تبرعوا بالشهادة عليهم، ... ولولا أن القائمين بالأمر كانوا يرجعون إلى المنطق وإلى القانون في معظم الحالات، لامتألت بيوت عالية وبيوت القرى المجاورة لها من المجرمين السياسيين، لكثرة ما وشى الناس بعضهم ببعض، وقد قال أحد ضباط الديوان العرفي: إن حال أهل هذا القطر عجيب، كنت في الروم أيلي عضواً في أحد الدواوين العرفية، وكنا نأتي بالبلغاري لتقريره، فلا يبوح بشيء، ونعذبه أنواع العذاب فلا نسمع من فمه اسم أحد، ولا إشارة إلى سر، والأهالي هنا يتبرعون محتسبين بالوشايات حتى أضجرتنا كثرتها وبلبلتنا أنواعها، ولو عملت الحكومة بما ورد مع البريد فقط من الكتب الصادرة عن أمريكا بأسماء السوريين، وفيها أشياء كتبت عمداً لتضر بالمكتوب إليهم، لبلغ

(1) مجهول، ثورة العرب، ص 77-79.

(2) زين، نشوء القومية، ص 120-121.

(3) جريدة القِبْلة، ع (3)، السنة الأولى، 22 شوال، 1334هـ، 1916، ص 2.

المتهمون بالخيانة أوفاً، فنحن نشفق عليهم وهم لا يشفقون على أنفسهم وعلى أبناء وطنهم وجنسهم"⁽¹⁾.

من خلال الوثائق السابقة التي قدمها جمال باشا عن رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام، ونظراً لقرار الاتحاديين خوض غمار الحرب العالمية الأولى، واشتراكهم فيها كدولة عثمانية إلى جانب ألمانيا، وذلك في 28 تشرين الأول 1914م⁽²⁾، إذ يعني هذا القرار أن تعيش ولايات الدولة العثمانية جميعها، بما فيها الولايات العربية، بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، حالة طوارئ تفرض فيها قوانين استثنائية أثناء الحرب، وبالتالي فإن الأحزاب والجمعيات السياسية العربية في بلاد الشام، بعد أن أبدت معارضتها - من خلال ممثليها وقادتها - اشتراك الدولة العثمانية في هذه الحرب الأوروبية البحتة، التي ليس للعالم الإسلامي مصلحة للاشتراك فيها وجدت الفرصة مواتية " لها للخروج من قبضة الاتحاديين، كونهم يحكمون البلاد العربية وبلاد الشام من بينها، بسياسة جديدة تعاكس تماماً وتختلف جذرياً عن السياسة السابقة التي درج عليها الخلفاء العثمانيون منذ بدء العلاقات العربية العثمانية عام 1516، وحتى الانقلاب على آخر خلفائهم الخليفة عبد الحميد الثاني عام 1909م، والتي كانت سياسة رحيمة بالعرب، تتحجب إليهم وتكرمهم، وتكسب ودهم وتقربهم، وترفق ببلادهم، بحيث اعتبر المسلمون العرب في هذه البلاد أن الخلفاء العثمانيين يمثلونهم ويحكمونهم بالإسلام، وبالتالي تجب طاعتهم والولاء لهم⁽³⁾، بينما نهج الاتحاديون نهجاً مخالفاً لذلك عدائياً للعرب، تمثل في ممارسة سياسة التتريك ضدّهم ومعاملتهم بالحديد والنار⁽⁴⁾، وكان هذا بمثابة إعلان حرب وقطع لأواصر القربى والإخاء بين العنصرين العربي والتركي، وبالتالي ارتأى المنتسبون للتيار القومي في بلاد الشام أن مسلك الاتحاديين هذا يدفعهم للرد عليه، ويبرر لهم الخروج على الفئة الاتحادية الحاكمة للدولة العثمانية، والتي أبقت على وجود الخليفة الاسمي، وتحكم البلاد فعلياً باسمه، معطلةً أصلاحياته، وهو ما أساء للعرب المسلمين - وهم الأغلبية الساحقة في بلاد الشام - وأوصلهم إلى قناعات جديدة مفادها أن الدولة لا يحكمها الخليفة، وإنما يتحكم بها الاتحاديون، أصبح من الواجب عليهم والحالة هذه،

(1) كرد علي، المذكرات، ج1، ص119، وانظر: سلام، المذكرات، ص44-47.

(2) لبيب، المسألة الشرقية، ص116، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص45.

قذري، مذكراتي، ص34، مورغنتو، المذكرات، ص6-7.

أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق1، ج5، ص2، ج6، ص202.

(3) انظر: الفصل الثالث موقف السلطان عبد الحميد من العرب.

(4) وكان الغلاة الاتحاديون والطورانيون ينادون بأخذ العرب بالشدة والتتكيل بهم، ومن أشهر هؤلاء جمال باشا وحسين جاهد صاحب جريدة طنين وناظم بك وأحمد رضا رئيس مجلس النواب. انظر: أبو النصر، موسوعة الحرب

العالمية الأولى، ق3، ص29.

- الشُرَيْقي، إبراهيم، الثورة العربية الكبرى، دوافعها ومنهجها، نشر: مؤسسة العرب، طبعة أولى، لندن، 1984م، ص17.

- فاسيلييف، اليكسي، تاريخ العربية السعودية (ج2) ج1: ترجمه عن الروسية: خيرى الضامن، نشر: دار التقدم موسكو، 1986م، ج1، ص286.

مقاومة مخططات الاتحاديين الهادفة إلى إذابة هوية الأمة العربية الإسلامية، لا سيما وأن الاتحاديين أعلنوا وبشكل صريح لا لبس فيه، من خلال كتاب قوم جديد الذي نشره⁽¹⁾، ومن خلال ممارساتهم ضد البلاد العربية، وضد السمّت والطابع الإسلامي الذي تنطبع به الدولة العثمانية، بأنهم يسعون متعمدين لقطع العلاقات مع العرب، فصار لزاماً على ذوي الشأن والكلمة من العرب في بلاد الشام أن يردوا على تصرفات الاتحاديين بالتكتل والتجمع وتوعية الأمة بما يدبر ضدها من سياسة الاتحاديين، فكانت الخطوات التي قام بها زعماء التيار القومي العربي في بلاد الشام من إنشاء الجمعيات والأحزاب التي توحد طاقاتهم وتجمعهم، بمثابة رد عملي على النهج الاتحادي الطوراني في بلادهم ومحاولة تتركبها كما مر تفصيل ذلك في الفصل الرابع، ويرى الباحث أن خطوات الزعماء السياسيين العرب في سبيل الرد على الإجراءات الاتحادية التتريكية ضد بلادهم مبررة، لكن وضع أيديهم بأيدي الدول الاستعمارية فرنسة وبريطانيا للوصول إلى تلك الأهداف أمر في غاية الخطورة، يجعل منهم أعبوة في أيدي تلك الدول، ويجعل منهم وسيلة لتحقيق أغراضها ومراميها الخبيثة وأطماعها المستقبلية في هذه البلاد، لا سيما وأن زعماء التيار القومي العربي في بلاد الشام يدركون ويعلمون علم اليقين دقة الظرف الذي تمر به الدولة العثمانية بعد أن تكتشفت لهم أغراض الاتحاديين الرامية إلى إبعادها عن العرب⁽²⁾، ومدى تغلغل الماسونية بين صفوف التيار الاتحادي، وتحالف هذا التيار مع الحركة الصهيونية، لتصل هذه الحركة إلى تحقيق أهدافها بالوصول إلى فلسطين وإقامة الحلم اليهودي فيها بدولة يهودية صهيونية⁽³⁾، وكان إبعاد العرب عن إدارة الدولة العثمانية وعن مركز القرار فيها، يصب في هذا الاتجاه، ويخدم الغرض اليهودي والاتحادي معاً للوصول إلى تلك الغاية، لذا فإن استنجد زعماء التيار القومي العربي في بلاد الشام بفرنسا وبريطانيا، وصنعهم في موطن الريبة والاثهام، وصاروا في هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وأعطوا جمال باشا الذريعة والتبرير الكافيين كي يتخذ بحقهم ما اتخذه من إجراءات وعقوبات شديدة وصارمة، وكذلك لم يتركوا للتاريخ فرصة يعذرهم فيها على ما قاموا به من أعمال تترك بصماتها في صفحاته، بأنهم تواطؤوا مع الدول الأجنبية ضد دولتهم العثمانية، على الرغم من أن السلطة الفعلية الحاكمة لهذه الدولة بيد أعدائهم الاتحاديين، لا يشفع لهم في كل ما صنعوه، وكان الأحرى بهم أن يكملوا ما بدأوه في المؤتمر الذي عقده في باريس، حين أعلنوا في هذا المؤتمر وبعده وبشكل صريح، لا سيما ما قاله أحمد مختار بيهم لوزير خارجية فرنسا⁽⁴⁾ برفض الانفصال عن الدولة العثمانية، والسعي فقط لتحقيق إدارة لا مركزية في بلادهم مع

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص21، مجهول، ثورة العرب، ص68 - 74.

(2) العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص20.

(3) عجاج نويهض، بوتوكولات حكماء صهيون، ص92- 98، العجلوني: ذكرياتي عن الثورة العربية، ص17 مورغنتو، المذكرات، ص8 وانظر الفصل الثالث عن موقف السلطان عبد الحميد من فلسطين.

(4) سلام، المذكرات، ص34.

- الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص71.

بقائهم مع دولتهم الدولة العثمانية، وأن يحافظ هؤلاء الزعماء القوميون الشاميون على استقلالية مواقفهم كمسلمين عن مواقف نصارى بلاد الشام، حيث رفضوها ونأوا بأنفسهم عنها، وتمثلت في الولاء لفرنسا، والطلب منها رعايتهم واحتلال بلادهم لتخليصهم من الدولة العثمانية⁽¹⁾، علماً أنهم كانوا متمتعين بحقوقهم كافة في ظلها، لأنها تعاملهم كما اقتضت الشريعة الإسلامية في إكرام أهل الذمة من النصارى الذين يقطنون في الدولة الإسلامية وتطبق عليهم قوانينها الإسلامية.

هذا فيما يتعلق بزعماء الحركة السياسية العربية في بلاد الشام، وما آلت إليه علاقتهم بجمال باشا، ومجموعة الإعدامات التي قام بها ضدهم، إضافة للإجراءات الأخرى من سجن وتشريد وتنكيل، أما جمال باشا ومن ورائه جماعة الاتحاد والترقي والحكومة الاتحادية، وما قام به من أعمال في بلاد الشام وبحق أنبائها العرب مسلمين ونصارى، عقب ضبطه الوثائق والأوراق الرسمية في قنصليتي فرنسا في دمشق وبيروت، والتي تم إيراد نصوص ومقاطع منها، وكلها تنطق بالإدانة لهؤلاء، فإن موقفه متوازن من حيث أن الدولة في حالة حرب، ولا تحتل الأحوال فيها استعمال اللين والتساهل مع مَنْ أسماهم الداعين للاختلال من المتوطنين مع فرنسا وإنجلترا ضد الدولة العثمانية، ويبدو أن أخذه بالحزم والشدة كان توجهه المنسجم مع شخصيته المعروفة بالعنف والبطش ضد من وجدهم متورطين في أعمال ترقى إلى درجة تهديد سيادة الدولة وأمنها واستقرارها⁽²⁾، ويلجأون للعمل لإضعافها وانحلالها مستعنيين بأعدائها وبالوسائل التي تخدم أغراضهم لتحقيق الانفصال عنها، بما في ذلك اللجوء لاستخدام القوة والعمل العسكري، والاستعانة بوسائل يقدمها العدو لهم توصيلهم لغايتهم⁽³⁾، ويرى أوزتونة أن إعدام جمال باشا لرجال الحركة السياسية العربية في بلاد الشام لم يكن بدافع الانتقام القومي منهم وليس الباعث على ذلك لأنهم عرب وأنه تركي، بل لأنه جبار ظالم يظلم العرب وغيرهم، وانتشرت مظالمه في كل مكان، ويتصرف بهذا الشكل لتمييز شخصيته بهذه الميزة، وليس عن عداوة للعرب بشكل خاص، ويدعم وجهة نظره هذه بما فعله جمال باشا حين كان حاكماً لولاية أضنة قبل (7) سنوات من إعدامه للقوميين العرب، وأقام في أضنة ديواناً عريضاً أعدم فيه الكثيرين من أشرف أضنة بحجة أنهم قتلوا الأرمن⁽⁴⁾.

لكن في الوقت ذاته يجب مراعاة دقة الظرف الذي نفذ فيه جمال باشا إعداماته وأحكامه العسكرية بقيادة العرب وسياسيهم، إذ كان عليه إزاء ذلك أن يعمل على كسب ودهم وتأبيدهم وولائهم للدولة العثمانية، لا سيما وأنهم شركاء رئيسيين للعنصر التركي، وقوة بشرية واقتصادية مهمة لخوض الحرب العالمية معاً، والسعي لكسب

(1) سلام، المذكرات، ص 34.

(1) الحكيم، بيروت ولبنان، ص 159.

سليمان موسى، وجوه وملامح، ص 72.

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 92.

OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, CILD.5.P. 491 -

(3)

الانتصار فيها⁽¹⁾، وكان العرب أثناء حملة الإعدامات في عامي 1915، 1916م يخوضون غمار هذه الحرب جنباً إلى جنب مع الأتراك على أكثر من جبهة، فكانت الإعدامات بمثابة طعنة في الصدر للعرب المسلمين في بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية، ثم إنها أوجدت حالة من الغضب الشعبي في كافة أنحاء الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، وأحدثت ردة فعل عنيفة جداً ضد العنصر التركي بشكل عام، وضد الجيش العثماني التركي المرابط في البلاد العربية بشكل خاص⁽²⁾، وأوجدت تعاطفاً شعبياً كبيراً مع زعماء الحركة القومية العربية الذين وقعت عليهم العقوبات المختلفة من إعدام وغيره، ووسعت من دائرة التأييد لهؤلاء الزعماء، جعلت عامة الناس في بلاد الشام يؤازرون هؤلاء الزعماء، ويبررون لهم ما أقترفوه من أعمال ومواقف⁽³⁾، وكان يمكن لجمال باشا أن يكشفها للعرب في البلاد العربية ويعري أصحابها دون إعدامهم، وأن يكسب الشارع العربي، ويظهر هؤلاء بمظهر الخونة فعلاً فيما لو ثبت بحقهم ما يعتبرهم خونة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان إعدام هؤلاء الزعماء وسيلة اتخذها العرب في الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي والعرب في بلاد الشام، لتبرير ثورتهم على الأتراك الاتحاديين، وكان بإمكان جمال باشا أن يستجيب لتدخل الشريف حسين وتوسطه لهم، بأن يخفف عنهم الإعدامات إلى عقوبات أقل شدة وأخف أثراً، بحيث يُسقط السبب المباشر من أيدي زعماء العرب في الحجاز والشام، الذي دفعهم لإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، بعد أن أخبر مندوب الشريف حسين جمال باشا أن التوقف عن إعدام السياسيين العرب المحكوم عليهم، يجعل الشريف يعيد النظر في المواقف المتخذة تجاه الأتراك⁽⁴⁾، وذكر طه الهاشمي (أحد رجال الحركة القومية في العراق معاصر للأحداث) أنه ذهب إلى الأستانة بعد أن وقّع جمال باشا على الأحكام والعقوبات الصادرة بحق السياسيين العرب في بلاد الشام، ونفذت تلك الأحكام، وذكر أحد المرافقين لجمال باشا في قيادة الجيش الرابع المرابط في بلاد الشام، وهو الأمير آلاي علي فؤاد بك، بأن السبب الذي دفع جمال باشا لرفض الوساطات التي بذلت لتخفيف العقوبات عن الأشخاص الذين وقعت عليهم، وكان هذا القائد من المقربين من جمال باشا، وشهد بنفسه الفظائع التي حدثت، والوقائع التي وقعت، وينقل طه الهاشمي عنه قوله عن سبب الرفض "... إن جمال باشا لم يقبل رجاء رئيس ديوان الحرب شكري بك، ولا رجاء رؤوف بك رئيس أركان البحرية، ولا رجاء الآخرين، فكان مُصِراً على الإعدام، والداعي لذلك أنه يريد أن يشغل أفكار تركيا وجرائد العالم بأخبار سورية، لأنه لم يتحمل شيوع الوقائع الأخيرة التي وقعت في الدردنيل وشهرة المدافعين عنها، فكان يريد الشهرة حسداً ولهذا لم يلب

(4) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق1، ج6، ص217، مورغنتو، المذكرات، ص59.

(1) الغصين، مذكراتي، ص5، بيهم، سوريا ولبنان، ص33-34.

- OZTUNA, BUYUK ISMANLI TARIHI, CILD.5.P. 489-491

(2) الغصين، مذكراتي، ص17، ص176-177.

(3) ستوردارد، حاضر العالم الإسلامي، ج4، ص89، العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص18-19.

أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص66-67.

الرجاء" (1) ويبدو أن إعدام هؤلاء، وعدم الاستجابة لوساطة الشريف حسين بن علي في تخفيف الأحكام عنهم، كان السبب المباشر الذي فجّر الثورة في الحجاز ضد السلطات الاتحادية (2)، بعد أن بلغت العلاقات العربية العثمانية حافة القطيعة بفضل عوامل عدة يأتي ذكرها بعد قليل، تضافرت مجتمعة لتكون الباعث على إعلان تلك الثورة، وجاء إعدام السياسيين العرب بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر العنصرين المتأخيين لقرون طويلة سالفة، هما العنصر العصري والعنصر التركي، والتي قادت إلى إطلاق رصاصه الثورة العربية، وانتهت بالصدام العسكري بين الطرفين وانقطاع العلاقات بينهما، وخروج العثمانيين من بلاد الشام بانهمزمهم العسكري في أواخر عام 1918.

نفذ جمال باشا إجراءاته وعقوباته بحق مجموعة كبيرة من السياسيين العرب في وجبتي إعدام، طالت فئة من الذين حوكموا في المحاكم العرفية العسكرية في عالية لبنان، وكانت الدفعة الأولى من المنفذ فيهم حكم الإعدام عددها 11/ شخص وذلك بتاريخ 20/ آب عام 1915م، أما الدفعة الثانية فبلغ عددها 7/ أشخاص وكانت بتاريخ (6) أيار عام 1916م (3)، كما نفذت عقوبات أخرى بحق مجموعة من رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام تم إبعادهم إلى الأناضول (4)، وذكر جمال باشا أنه تم إبعادهم مع أسرهم حتى لا يشردوا وتشرّد أسرهم، مع حفظ حقوقهم القانونية وممتلكاتهم، وتأمين الحياة وسبل العيش لهم هناك، ولم يكن إبعادهم إلى الأناضول سوى إجراءات وقائية واحتياطية، وتخفيفاً للعقوبات عنهم لعدم ثبوت تورطهم بتهم تستوجب عقوبات أشد بحقهم، يقول جمال باشا في إيضاحات: "ذكر في البلاغ أن جميع من كان ذا دخل بهذه التشكيلات الخفية (المدانين بالاتصالات مع فرنسا حسب الوثائق المضبوطة)، وبعض العائلات التي لها علاقة قريبة كانت أو بعيدة، ينقلون إلى بلاد الأناضول، وفي الحقيقة قد نقل إلى الأناضول عائلات الأشخاص الذين عوقبوا، وبعض العائلات التي بينها وبين أولئك الأشخاص قرابة صهرية" (5)، ويعلل جمال باشا سبب إبعاد الأطفال والنساء مع الرجال المبعدين من المُعاقبين، فيقول: "ويرد

(1) الهاشمي، طه (ت 1381هـ / 1961م)، المذكرات (عن الفترة 1916-1943م)، تحقيق: خلدون ساطع الحصري، نشر: دار الطليعة، طبعة أولى، بيروت، 1967م، ص 53.

(2) بيهم، سوريا ولبنان، ص 19-20.
(3) جمال باشا، المذكرات، ص 369، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 60-62 دراغر، مذكراتي، ص 86-87 أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص 35، 52
- سليمان موسى، وجوه وملامح، ص 90

(4) كان الأجدى والأقرب لتعميم الفائدة ذكر أسماء من شملتهم أحكام الإعدام، مع ذكر النقاط التي اعتبرت اتهامات ضدهم كما وردت في إيضاحات بخط جمال باشا، وتم إيراد أسماء هؤلاء في ملحق رقم (2) في آخر هذه الدراسة، ينظر إليهم هناك.

(5) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 113، العظم، المذكرات، ج1، ص 69.
- سلام، المذكرات، ص 226، الموصل، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 189-193
- الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 51، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 60-62
قري، مذكراتي، ص 43، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 47-48
- حفندوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 108، فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ج1، ص 287-288
- زيادة، أبعاد الثورة العربية، ص 52، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 71

علينا سؤال وهو ما ذنب النساء والأطفال ومن لم يحاكم في ديوان العرف الحرب من الرجال، وجواب هذا السؤال بسيط جداً، فإن بعض الرجال لم يعاقبوا، وقد كان من الملاحظ أن لهم تأثيراً في الإجراءات، ولئن لم يعاقبوا لعدم وجود الوثائق القطعية المثبتة، فإن بقاءهم في سورية وفلسطين مما لا يجوز، وهؤلاء هم القسم الأول من المنقولين، والقسم الثاني هم أرباب التحكم الذين هم بنفوذهم وتأثيرهم وسياستهم حتى الآن يريدون أن ينالوا قوة حكومة ثانية تجاه الحكومة، وبهذه الصورة يتضرر منهم الأهلون⁽¹⁾، ويعدّد جمال باشا أسباب العمل الاحتياطي بنقل بعض الأسر العربية من بلاد الشام إلى الأناضول، وأهمها:

- 1- أن الحكومة لم تبعد هذه العائلات بل نقلتهم نقلاً، فإن التباعد جزاء والنقل احتياط.
 - 2- إنما أرسل النساء والأطفال مع الرجال لكي يعيشوا بشكل عائلة ولا يكونوا بحالة سيئة.
 - 3- لم يتعرض لأمالك وأراضي أحد من تلك العائلات، فإن الحكومة شكلت مجالس مخصوصة ونصبت لكل منهم وكيلاً، وهي الرقابة على هؤلاء الوكلاء، ولم يحرم أحد من حق من حقوقه بمناسبة النقل، وفي كل شهر يأخذون وإرداتهم من يد الحكومة بصورة منتظمة، وبالطبع لم يتعرض لبيت أحد ولا لأملكه وأراضيه بوجه ما لم يعط لهم أملك وأراضي في البلاد التي ذهبوا إليها بمقابلة أملكهم وأراضيمهم هنا بقيمة واحدة ذات وارادات مثلها.
 - 4- إن الحكومة أعطت كل إنسان ما يحتاجه من مصاريف السفر بدون استثناء.
 - 5- منحوا المساعدة على نقل جميع الأموال المنقولة وأجرة نقلها من كيس الحكومة.
 - 6- من كان مأموراً من أفراد تلك العائلات، جرى تعيينه حالاً في البلدة التي سار إليها بمأمورية تعادل مأموريته.
 - 7- إن قائد الجيش قد أبلغ الولايات أن هؤلاء الناس يعد كل منهم وطنياً، ولم يحرم من حق ما.
- إن هذا ليس بتعبيد بل نقل وليس جزاء بل من قبيل الاحتياط، .. وليعلم أن من ليس له ذنب من النساء والأطفال والشبان، أنهم أصبحوا أضحية لخيانة بعض الأشخاص المنتسبين إليهم⁽²⁾.

ولزيادة الصورة وضوحاً، وتحريماً للموضوعية وبيان الحقيقة بحسن عرض وجه النظر الأخرى بشأن الأحكام الموقعة على رجال الحركة السياسية في بلاد الشام

(1) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 113

(2) جمال باشا، المصدر السابق، ص 113-115. وانظر:

الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 51-52

سلام، المذكرات، ص 229

من قبل المحكمة العرفية العاملة بإشراف جمال باشا وأوامره، يرويها فايز النصين، وهو من أعضاء جمعية العربية الفتاة⁽¹⁾ الذين اعتقلوا وعذبوا وأبعدوا مع المبعدين إلى الأناضول⁽²⁾، يقول: "وقد نفت الحكومة كثيراً من العائلات السورية المشهورة مثل عائلة المؤيد والعظم والأمير عبد القادر الجزائري والكيلاني والشمعة وعبد الهادي والحسيني والمطران وحيدر والعابد وعائلات كثيرة أخرى، وغدرت بأهل اللّجاة⁽³⁾، وأرسلتهم نساءً ورجالاً وأطفالاً لأقاصي الأناضول، وشتتت شمل عائلة الشّماط، وأبعدتهم لدير بكر، والخلصة فقد أتت حكومة جمال باشا في سوريا من أنواع الظلم والجور والعسف ما لا يخطر على بال"⁽⁴⁾ ويورد ما شهده بنفسه في ديوان الحرب العرفي من تعذيب واضطهاد للسياسيين المعتقلين من أبناء بلاد الشام، فيقول: "كان الديوان العرفي يتقنن في التعذيب والضرب كان أخف شيء عندهم، فكانوا يَخْزُون الشباب بالإبر ولا يدعونهم ينامون ثلاث ليال متتابعات ليضطروهم إلى الاعتراف والإفادة بما يوافق رجال الديوان العرفي وآراءهم والتهم المعزوة إلى المعتقلين، كانوا يضعون آلة ضاغطة على صدغي المعتقل يضغطون بها على رأسه، فيشعر أن دماغه برز من عينيه ... ومن جملة إهانتهم أنهم كانوا يحلقون لحى مشايخ القرى، ويسجنون الشبان بمحلات مظلمة، أما وضع الحديد والقيود بأرجل المساجين، فهذا عندهم من الأمور اللازمة تحقيراً لكل زعيم أو شريف أو عالم أو مفكر يدخل سجنهم"⁽⁵⁾.

يستخلص مما سبق أن العقوبات التي أوقعها جمال باشا برجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام كانت سبباً رئيساً في توتر العلاقات العربية مع العثمانيين، زاد من حالة التآزم في تلك العلاقات، واعتبر السبب الأول من أسباب الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين في الحجاز، وقاد إلى التنسيق بينه وبين السياسيين الشاميين من رجال جمعيتي العهد والعربية الفتاة للعمل مع الحلفاء فرنسا وبريطانيا، والاشتراك في الحرب العالمية الأولى إلى جانبها ضد الدولة العثمانية المتحالفة مع ألمانيا، والتي انتهت بهزيمة العثمانيين وإخراجهم من بلاد الشام إيداناً بسير العلاقات إلى نهايتها، وإذا كان إعدام جمال باشا للقوميين العرب السبب الأول من أسباب الثورة العربية التي قادها الشريف الحجاز، فما هي الأسباب الأخرى التي أسهمت في إشعال نار هذه الثورة؟ وما هو حجم الدور الذي لعبته الثورة العربية من بين العوامل المتعددة التي أسهمت في قطع العلاقات العربية العثمانية؟

(1) الغصين، مذكراتي، ص 38.

(2) الغصين المصدر السابق، ص 51-64.

(3) اللّجان: اسم للحرّة السوداء التي بأرض صلخدا من نواحي الشام، إلى الجنوب الغربي من دمشق، يقطنها الدروز، وهي جزء من جبل الدروز. انظر:

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 13

البغداد، مرصد الاطلاع، ج3، ص 1199، الغصين، مذكراتي، ص 76

(4) الغصين، مذكراتي، ص 50. وانظر: الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 51 - سلام، المذكرات، ص 229

(5) الغصين، مذكراتي، ص 49، وانظر: الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 264.

ثانياً: الثورة العربية الكبرى وأثرها على علاقة العثمانيين بالعرب في بلاد الشام.

ما يهم من الحديث عن الثورة العربية هو معرفة دورها في العلاقات بين العرب في بلاد الشام والعثمانيين، حيث أعلنت هذه الثورة في وقت أصبح فيه قطع العلاقات بين الطرفين المذكورين قاب قوسين أو أدنى، وكان انطلاق رصاصتها الأولى بمثابة رصاصة الرحمة التي أجهزت على آخر نبض للحياة في جسد تلك العلاقات، ولذلك فإن التركيز يتجه نحو دراسة أسباب الثورة، وكذلك تحليل الدوافع والمؤثرات التي أسهمت في نجاحها، إضافةً لمناقشة ثمارها ونتائجها، وانعكاس تلك النتائج على بلاد الشام، وما آلت إليه الأمور فيها بعد وصول قوات الثورة العربية إلى دمشق، وإخراج القوات العثمانية من آخر المواقع في بلاد الشام شمالي حلب.

وقبل البحث في أسباب الثورة العربية الحجازية، يجدر الإشارة إلى قضية تتعلق بالجمعيات والأحزاب العربية التي تأسست في الفترة التي حكم فيها الاتحاديون بعلا انقلابهم على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909، ذلك أن تلك الجمعيات كان لها اتجاهات عدة في تحديد موقفها من العلاقات العربية العثمانية، وتم تناول اتجاهاتها بالتفصيل في الفصل الخامس، ولا بد من التنويه بأنها كانت في أغلبها لا تروم الانفصال عن الدولة العثمانية في البداية، وكان سمتها العام الحرص على إبقاء العلاقات العربية العثمانية ضمن إطار الرابطة العثمانية، وخاصة المسلمون، كانوا شديدي الحرص على استمرارية تلك العلاقات، على الرغم من السياسة العنصرية التتريكية التي درج عليها الاتحاديون ضد البلاد العربية التي ما زالت تحت السيادة العثمانية إلى حين انطلاق الثورة العربية، وهي الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، ومع ذلك لم تطلب هذه البلاد قبل هذه الفترة الانفصال عن الدولة العثمانية، وقبل الحديث عن التقاء الشريف حسين بن علي وعرب بلاد الشام، واتفاقهم على تنسيق جهودهم وتوحيد خططهم من أجل العمل مستقبلاً لمواجهة الاتحاديين وسياستهم العدائية للعرب، يجدر الالتفات إلى طبيعة الموقف في الجزيرة العربية، والتعرف على رأي أمراء العرب الذين يحكمون مناطق الجزيرة، للإطلاع على أهمية دور الشريف حسين في الثورة على العثمانيين من بين أمراء الجزيرة العربية وكذلك بيان فعالية

موقفه تجاه العثمانيين، وتأثير ذلك الموقف على خروج الجزيرة من سلطة الدولة العثمانية، وجعلها منطقة نفوذ كامل لبريطانيا تُحْكَم هيمنتها عليها وتنفرد بذلك، فهذا هو عبد العزيز آل سعود، يرد على والي البصرة عضو حزب الاتحاد والترقي شفيق كمال باشا في سنة 1330هـ/1912م، حين سأله عن رأي أمراء العرب في الدولة العثمانية وخروجهم عليها، ويبين له في رده آثار سياسة الاتحاديين السيئة على العرب، وما أحدثته فيهم من نفور، جعلتهم يفكرون في الثورة على الدولة العثمانية والخروج عليها، ويقول: "إنكم لم تحسنوا إلى العرب، ولا عاملتموهم في الأقل بالعدل، وأنا أعلم أن استشارتكم إياي إنما هي وسيلة استطلاع، لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي، وهاكم رأيي، ولكم أن تؤولو كما تشاؤون: "إنكم المسؤولون عما في العرب من شقاق، فقد اكتفيتم بأن تحكموا، وما تمكنتم حتى من ذلك، وقد فاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والإحسان، وفاتكم أن العرب لا ينامون على الضيم، ولا يبالون إذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم"⁽¹⁾.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، وأخذت الدولة العثمانية موقفاً بشأنها إلى جانب ألمانيا ضد دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا، كان لحكام العرب في الجزيرة رأياً في ذلك، وحاول الحلفاء إثارة العرب ضد الدولة العثمانية بعدما اشتد عليهم الضغط في السنة الثانية من الحرب، وأرسلت بريطانيا إلى مندوبيها كي يتصلوا بزعماء العرب في هذه المناطق، فكان موقف محمد بن علي الأدريسي في عسير أن وقع مع الإنجليز معاهدة سنة 1333هـ/1915م، عمل بمقتضاها على محاربة الدولة العثمانية، وطرد العثمانيين من منطقته⁽²⁾.

وتحرك الإنجليز باتجاه عبد العزيز بن سعود، وجاءه مندوبهم في الرياض الكابتن شكسبير، وعرض هذا الأخير على ابن سعود وعوداً من حكومة بريطانيا، "فاستمهله عبد العزيز لاستشارة والده وزعماء العرب، وكتب إلى ابن الرشيد (وكان على عدائه المعروف منه)، وإلى مبارك الصباح حاكم إمارة الكويت، وإلى الشريف حسين أمير مكة، يقول لهم: إن الإنجليز يتعهدون لنا إن نحن قاتلنا الترك وأجليناهم عن بلاد العرب، أن يتركوها لنا، .. وجاء جواب ابن رشيد، يقول له: إن أنور باشا قد أرسل إليّ عشرة آلاف بندقية، وبعد أن أكسرها عليك وعلى رجالك، أفكر في الصلح

(1) الزركلي، خير الدين (ت 1396هـ/1976م)، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، (4ج)، نشر: دار القلم، طبعة أولى، بيروت، 1970م، ج1، ص 197 .

(1) الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 219

معك والقيام على الترك، وأجابه ابن الصباح: إن في ميناء الكويت باخرة بريطانية فاحضر وقابل ربانها، وأنا معك على ما تتفقان عليه.

وأجابه الشريف حسين: سأرتقب الفرصة لعمل ما أراه، فلما أطلع على أجوبتهم، دعا إليه شكسبير، وقال له: أنت تعلم أنكم بعيدون عنا، وقيامي معكم، وجعل رايتي المنقوش عليها (لا إله إلا الله) إلى جانب رايتكم أمر غير نافع لي ولا لكم، والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشريف حسين، فإن اتفق معكم، فأنا أعدكم بأنني لا أعرقل له سعيًا مادام في حرب مع الترك، وحاول شكسبير أن يقنعه بالقيام، فذهب سعيه سدىً، فكتب إلى حكومته فكانت الثورة على يد الشريف⁽²⁾.

وبعد قيام الشريف حسين بثورته على الترك، متفقاً مع البريطانيين كان السير برسي كوكس، المندوب البريطاني في الخليج، يتحدث يوماً مع عبد العزيز، فذكر الخلافة وانتقالها إلى العرب، وسأل عبد العزيز عن رأيه في أن تكون له، فأجاب: الشريف حسين أجدر بها⁽¹⁾.

وعلى أثر قيام الشريف حسين بالثورة العربية بوقت قصير، أرسل الشريف حسين إلى ابن سعود مبالغ من المال تربو قيمتها على خمسة وعشرين ألف ليرة ذهبية، ولما سأل عن سبب إرسال هذه الأموال؟ أكد له أنها هدايا، فأرسل إليه ابن سعود وفداً وكتب له كتاباً قال فيه: إنهم سوية في هذه الحرب، ونتيجتها مشتركة، وأكد استعدادهم لمزيد من المساهمة في الحرب، وحاولت الدولة العثمانية استمالة عبد العزيز بن سعود إلى جانبها، وطالبته عن طريق واليها على الحجاز غالب باشا أن يأتي إلى الحجاز كي تسلمه منصب الإمامة وإدارة الأماكن المقدسة، فرفض ذلك وخشي أن يؤدي القبول به إلى عداوة مع الإنجليز في وقت كان يسعى إلى مصادقتهم .. وكان ابن سعود منذ البداية لا يثق بالشريف حسين، لكن إدراكه أن بريطانيا هي الأقوى في الجزيرة العربية جعله يتجه نحوها ويحسن علاقاته مؤقتاً مع الحسين بسبب الضغط البريطاني⁽²⁾.

ذاك هو ما حرصت بريطانيا على تحقيقه في علاقاتها مع عرب الجزيرة العربية لكسبهم إلى جانبها أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد وضعت ثقلها لاستمالة الشريف حسين بعد ما تبين لها رفض ابن سعود إعلان ثورة على العثمانيين، وقد قبل الشريف حسين فكرة الثورة، وبدأ يدرس الوضع في بلاد الشام، وتوجه نحو التنسيق مع رجال الحركة القومية فيها، وكانوا في وضع جعلهم يبادرون للإسراع بالقيام بالثورة والخروج على الدولة العثمانية، بسبب الحملة الشرسة التي شنّها جمال باشا ضد بلاد الشام تنكيلاً وتعذيباً واضطهاداً واعتقالاً وتشريداً، ثم توج ذلك بالإعدامات

(2) الزركلي، شبه الجزيرة العربية، ج1، ص 219-220، فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ج1، ص 291

(1) الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 217، ويرى داغر أن ابن سعود أتاح المجال للحسين للاتفاق مع الإنكليز.

انظر: داغر، مذكراتي، ص 97-98

(2) أبو جبل، كاميليا، موقف انكلترا من قيام دولة عبد العزيز بن عبد العزيز بن سعود، (ر.ج) رسالة ماجستير، إشراف: خيرية قاسمية، قسم التاريخ، جامعة دمشق 1989م، ص 89-90، أبو جبل، موقف انكلترا.

التي نفذها بحق أعضاء الجمعيات والأحزاب العربية الشامية من المنتمين لأحزاب اللامركزية والقحطانية والعربية الفتاة والعهد والمنتدى الأدبي، وتشريد مجموعة كبيرة من أبناء أشهر الأسر والعائلات في بلاد الشام⁽¹⁾، وكانت هذه الأعمال التي يمكن وصفها بأنها الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وأخرجت أبناء الشام عن صمتهم، وحولته إلى توجه عام ساد جميع أنحاء البلاد الشامية بضرورة العمل ضد الاتحاديين بعد أن طُفح الكيل، ولذلك بدأت الاتصالات السرية والتنسيق بين رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام وبين الشريف حسين في مكة عن طريق نجله الأمير فيصل، الذي كان على إطلاع تام بما يجري من إعداد للثورة والخروج على الاتحاديين في بلاد الشام، لارتباطه مع السياسيين أعضاء الجمعيات فيها، وإنخراطه بين المنتمين لجمعية العربية الفتاة⁽²⁾، وقد ساد بلاد الشام حالة من السخط الشعبي والهياج إثر إعدام المجموعتين اللتين أعدمهما جمال باشا في كل من دمشق وبيروت، جعلت عامة الناس يتقبلون فكرة الانضمام إلى الثورة العربية والعمل في صفوفها، وأشار الغصين في مذكراته إلى موافقة عشائر بارزة في بلاد الشام على الانضمام إلى الثورة والاستعداد لتلبية النداء والتحرك الميداني عندما يطلب منها ذلك عند بدء التحرك الميداني والعسكري ضد القوات التركية المرابطة في بلاد الشام، ومن تلك العشائر عشائر الشعلان عن طريق زعيمهم نوري الشعلان، وعشائر الجسنة (بني حسن) عن طريق محمد ملحم، وعشائر بني صخر عن طريق زعيمهم فواز الفايز⁽³⁾، إضافة لأعداد كبيرة من أسماء الأفراد الذين انخرطوا في جمعية الفتاة للعمل في الوقت الذي تحدده الجمعية لهم للاشتراك في الثورة عند بدء انطلاقها⁽⁴⁾.

فالعلاقات مع مطلع عام 1916م بلغت حافة الهاوية بين العرب والاتحاديين، لكن ومع وصولها حد القطيعة، حاول جمال باشا ومعه أنور باشا أن يجسوا نبض البلاد العربية ويستنهضوا همم أبناءها لحشد المزيد من التأييد لهم، ولمحاولة تخفيف النقمة ضدهم، وتجميع أعداد جديدة لزوجها في أتون الحرب العالمية التي تشارك بها الدولة العثمانية، فقد وصل في هذه الفترة في شباط عام 1916م أنور باشا إلى دمشق، وكان حينذاك وزيراً للحربية في الدولة العثمانية⁽¹⁾، ونزل فيها في مقر قيادة الجيش الرابع الذي يقوده جمال باشا⁽²⁾، ثم تحركا إلى بيروت، وكان استقبال أنور باشا في حلب ودمشق ثم في بيروت يفوق حد المعقول، حيث وجد من المصفقين والمرحبين والمحترفين به برفقة جمال باشا أعداداً غفيرة، يجعل المرء يندهش من هول المفارقة بين ما هي عليه البلاد الشامية من الولايات والأوضاع التعيسة التي تعيشها اقتصادياً

(1) الغصين، مذكراتي، ص 50

(2) الغصين، المصدر السابق، ص 38-39، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 53

(3) الغصين، مذكراتي، ص 38-39، قدر، مذكراتي، ص 40-41

(4) الغصين، مذكراتي، ص 38-39، 41، وانظر: الشهابي، محاضرات عن الاستعمار، ج2، ص 53

(1) كرد علي، محمد (ت 1273 هـ/ 1953م)، الرحلة الأنثورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية) نشر: المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1916م، ص 10، كرد علي، الرحلة الأنثورية، وانظر: أبو النصر، موسوعة الحرب

العالمية الأولى، ق3، ص 66

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 58

واجتماعياً وسياسياً في ظل حالة الطوارئ والأحكام العرفية والمجاعات والفقر بسبب الحرب والظروف غير الطبيعية التي تمر بها، وبين ما استقبلت به أنور باشا وجمال باشا بالاحتفالات وأقواس الزينة، وبما تحفه به من الترحاب والحفاوة، وهي تحية بـ بطل الأمة العثمانية، محيي الدستور، فاتح أدرنة، قائد الجيش العثماني⁽³⁾، وألقيت بين يديه الخطب والقصائد الترحابية، وارتجل الشاعر أمين ناصر الدين في بيروت قصيدة طويلة من ثلاثة وثلاثين بيتاً، قال فيها:

يا ناشر الدستور بعد أن انطوى إن العظام بالأعظم تجدُرُ
جددت للإسلام عهداً ماضياً وأعدت مجد الجيش فهو مظفر
رضي الخليفة عن صنيعك مثلما رضي المهيمن والنبي الأظهر⁽⁴⁾

ولا شك أن جمال باشا وأنور باشا يجدان من يتزلف لهما، ويجدان أيضاً من يبغضهما⁽⁵⁾، وهذا الترحاب والاستقبال الحافل والاحتفاء المنقطع النظير ليس المقياس الصحيح الذي يعرف المتأمل من خلاله أهمية هذا الحاكم أو ذاك، أو يعرف رصيد الزعيم السياسي والقائد العسكري من المؤيدين والاتباع، لأن الرعاع والدهماء يصفقون لكل حاكم، يقول خالد العظم في مذكراته: "كان جمال باشا يستقبل استقبال الملوك الفاتحين، ويكيل له الشعراء والأدباء المديح شعراً ونثراً، حتى أن خير الدين الزركلي ألقى أمام جمال باشا في حفل افتتاح جريدة الشرق قصيدة مطلعها:

أحنوا الرؤوس ورددوا النظرات هذا مثال مفرج الكربات

فشبهه بالباري عز وجل، وكانت أكف الجميع تَدْمى من كثرة التصفيق، وقد يرد للخطر سؤال: كيف يستطيع المرء التوفيق بين تنكيل جمال باشا بالعرب وبين احتفاء وجهائهم به في الاحتفالات؟ هل اقتصر الترحيب على طبقة معينة من أهل البلاد؟ أم تناولت طبقات الشعب على اختلافها؟ ويمكن الرد بأن كل فئات المجتمع في بلاد الشام كانت تشترك باستقبال جمال باشا ووداعه، وكان الناس - ولا يزالون - لا يعتبرون الاشتراك بمثل هذا تأييداً منهم أو دعماً لسياسة ما، كانوا يحضرون لمجرد الفرجة، وإلا فكيف نستطيع تفسير الاستقبال الرائع الذي استقبل له الجنرال الفرنسي غورو عند قدومه إلى دمشق إثر ظفر جنوده في معركة ميسلون، وكيف لا نغطي وجوهنا خجلاً مما بدا من بعض المستقبليين، حين فكوا رباط خيل عربية الجنرال المشار إليه، ووضعوا أنفسهم بدلاً عنها، وجروها في الطريق بين ذوي المصنفين وهتافاتهم .. وأهل دمشق استقبلوا جمال باشا بالحماسة نفسها التي استقبلوا بها فيما بعد الأمير فيصل بن الحسين عندما انسحب الترك ودخل الإنجليز إلى سورية، ثم كان استقبال الجنرال كاترو بما لا يقل مهابةً عن الاستقبالات الشعبية التي كان يقابل بها شكري القوتلي بغدواته المتكررة، أو غيره من كبار رجالات العرب .. ولهذا يحسن

(3) كرد علي، الرحلة الأنورية، ص 12-21

(4) كرد علي، المصدر السابق، ص 22-33

(5) كرد علي، الرحلة الأنورية، ص 37-49، 5-61، 69، 218، 229، 239-250، 257، 276، 289، 296

بالذين تستقبلهم هذه المدينة بحفاوة وروعة، أن لا تأخذهم عاطفة الغرور، فيظنون أنهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين"⁽¹⁾، وحين تابع جمال وأنور رحلتهم إلى الحجاز، بعد زيارة دمشق وبيروت، ووصلا المدينة المنورة أوائل آذار عام 1916، قبيل إعلان الثورة العربية، وعلم الشريف حسين بن علي أمير مكة هو وأولاده بقدمهم، وكان حينذاك قد قطع مرحلة متقدمة في التفاوض سراً مع الإنجليز للتحالف معهم من أجل إعلان الثورة، فأبى أن يحضر إلى المدينة ليسلم على أنور وجمال⁽²⁾، وهذا دليل على أن العلاقات لم تعد ودية كما كانت، وأن الأمور وصلت إلى مرحلة القطيعة بين الطرفين.

وكان جمال باشا أثناء توليه قيادة الجيش الرابع في بلاد الشام⁽³⁾ يتقن سياسة تقريب العرب والتحبب إليهم، ولكن سرعان ما يغدر بهم ويتنكر لهم، فکرد على حين كتب كتابه الرحلة الأنورية إلى الأصفاح الحجازية والشامية، كان قبل ذلك مقرباً من جمال باشا، الأمر الذي جعله يمتدحه، يقول جمال باشا: أعطيت عبد الكريم خليل ومحمد كرد علي وعبد الغني العريسي أموالاً طائلة بناءً على طلبهم، وما أظهره من الاحتياج، فأصبحوا بعد ذلك مطيعين لأوامري"⁽⁴⁾ وكذلك يورد الغصين أن جمال باشا عندما جاء إلى بلاد الشام قائداً للجيش الرابع حاول التودد إلى السكان المحليين، وأنه طلب من الغصين أن يذهب إلى قبائل اللجاة ويقنعهم بإرسال وفد منهم إليه ليسلموا عليه، وأنه " لا يريد أن يوصم أهل اللجاة بما يمس بدينهم ووطنهم، حيث أن جميع أهل سورية مدنها وقراها وعشائرها جاءوا للسلام عليّ، ولعرض الطاعة للحكومة العثمانية"⁽⁵⁾. ولأجل كسب تأييد العرب عيّن الدكتور عبد الرحمن شهبندر (من أهالي دمشق) طبيباً خاصاً به، وقرب إليه عبد الكريم خليل وأسعد الشقيري، وصادق كرد علي وعبد الغني العريسي⁽⁶⁾ وأشار جمال باشا إلى هذا المعنى وهو يشير إلى تلبية المطالب العربية، مفنداً الرأي القائل بأن الاتحاديين يمارسون سياسة التتريك ضد العرب في بلاد الشام، يقول جمال باشا: " كنت موافقاً في المبدأ على استعمال اللغة العربية، ومنح العرب بعض امتيازات في الشؤون الإدارية، أرسلت في طلب عبد الكريم خليل، زعيم الحركة الثورة العربية، فغمرته بالبشاشة والإحسان، واجتمعت بواسطته ببعض زعماء الثورة، وأخص بالذكر منهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر وأكثرهم تحمساً وصاحب جريدة المفيد، وعبد الغني العريسي أحد كبار مؤسسي المؤتمر العربي في باريس، ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس الشهيرة، وبسطت لهم خطة الحكومة ... وآمنوا بأقوالي، وأقسموا بالله جهد أيمانهم وبشرفهم

(1) العظم، المذكرات، ج1، ص70-71

(1) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص59

(2) العظم، المذكرات، ج1، ص66، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص58

(3) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص47، وانظر: العظم، المذكرات ج1، ص64

(4) الغصين، مذكراتي، ص26، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص70 أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص31

(5) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص32، وانظر: العظم، المذكرات، ج1، ص64

کرد علي، المذكرات ج1، ص112-113

على أن يظل عرب سورية وفلسطين موالين للحكومة ... وفي الوقت نفسه شرع أولئك الذين يدعون بالثوريين، وفي مقدمتهم عبد الكريم خليل يُقَصُّون قصص حزنهم، أنهم في حاجة قصوى للمال، فغمرت عبد الكريم المذكور ومحمد كرد علي وعبد الغني العريسي بالأموال الطائلة، فأصبحوا من ذلك الحين فصاعداً خدماً لأوامري، وأكدوا لي أنهم لا يدخرون وسعاً لمساعدتي⁽¹⁾ ثم يركز جمال باشا على الوحدة الإسلامية التي تربط العرب والأتراك بالرابطة الوثقى وهي العقيدة الإسلامية، محاولاً حشد التأييد لسياسة الاتحاديين في هذه المرحلة مثل إرضاء العرب واستعطافهم ليضمنوا اشتراكهم معهم في الحرب، وتجنيب المقاتلين منهم مع جمال باشا للاشتراك في حملتي القناة الأولى والثانية، ويقول: " بعد وصولي إلى دمشق مباشرة، شرعت في إعداد معدات الحملة على القناة، وحولت جهدي لإيجاد جو مملوء بالحماس الديني والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية، فأقيمت حفلة أدبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبد الكريم خليل والدكتور عبد الرحمن شهنيدر وغيرهما ممن كانوا يسمون بالمصلحين، وفي خلال الحفلة ألقى الخطباء عدة خطب وأشادوا بمآثر العرب .. وكانت الأنشودة الوطنية العربية: نحن جند الله شباب البلاد، تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان، وبعد أن تبين لهم من سلوكي أنني أعطف جد العطف على كل ما قالوه، صعدت المنبر وأقيمت خطبة "مطولة" أبنث فيها أننا على بكرة أبينا أننا مخلصون للغة العربية لغة ديننا الحنيف، وأننا نحب الشعب العربي ونجله، كيف لا؟ وهو الذي تجمعنا وإياه الوحدة الدينية والعقيدة المشتركة ..."⁽²⁾ أما عن سرعة غدر جمال باشا وتكرهه لحسن العلاقة، فيروي الغصين أنه لما أعتقل جمال باشا علي الأمانزي (أديب وصحفي من بلدة أرمناز غربي حلب) سأله عن رأيه بعبد الكريم خليل قائلاً: " ماذا تقول بالديوث عبد الكريم خليل؟ فأجابه: أنا لا أعرف أن عبد الكريم خليل كان ديوثاً، والذي أعرفه أنه كان من أعز أصدقائك، ومن ذوي الكلمة النافذة عندك، فاحتدم جمال باشا غيظاً من جوابه، وصفعه على وجهه، وأخرجه من عنده، وأرسله للديوان العُرفي، وأمر أن يضرب، ثم حكم عليه بالإعدام، فأعدم مع أول قافلة"⁽³⁾.

مما تقدم يمكن القول أن جمال باشا زاد بتصرفاته ضد أبناء بلاد الشام نار العداوة اشتعالاً بين العرب والاتحاديين، وأعطى مبرراً قوياً لهؤلاء لكي يتأهبوا لإعلان الثورة العربية في بلاد الشام وفي الحجاز، وكان جمال باشا يتوجس من تحركات السياسيين العرب، وأنهم ينوون القيام بعمل ما، ولذلك بدأ يعمل لإغراء عشائر الشام للوقوف معه، حتى لا يخرجوا مع الخارجين عن الدولة في الحجاز⁽²⁾، ولما سعى الشريف حسين بن علي لدى جمال باشا بواسطة ابنه فيصل للإفراج عن المنوي إعدامهم في القافلة الثانية عام 1916م، ولم يستجب جمال باشا لمسعاه، بذل

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 337-338، وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 58-59

كرد علي، المذكرات، ج1، ص 113-114، ص 137

(2) جمال باشا، المذكرات، ص 338-340، ص 351-352

(1) الغصين، مذكراتي، ص 50

(2) الغصين، المصدر السابق، ص 26-30

جهده ثانيةً بإرسال ابنه فيصل إلى استانبول للتوسط هناك لدى الصدر الأعظم ولدى كبار الاتحاديين من رجال الحكم المتنفيين كأَنور وزير الحربية، وطلعت وزير الداخلية، فأبرق كل من أَنور وطلعت إلى جمال باشا ليستقبل فيصل ويكرمه، وأخبراه بشكوى الأمير فيصل عليه وشجبه لسياسته، فاستجاب جمال لرغبات أَنور وطلعت واستقبل فيصل في محطة القطار لدى وصوله دمشق قادماً من استانبول استقبلاً حافلاً، لكنه تنكر لمطالبه في العفو على المنوي إعدامهم في الدفعة الثانية، وكانت رسالة الشريف حسين إلى أَنور باشا تنص على مطالب محددة، من ضمنها طلب العفو عن السياسيين العرن وكانت بتاريخ شهر آذار عام 1916م، وتنص على ما يلي: "إن خروج الدولة العلية منتصرة من الحرب الحاضرة، يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب، والجانب الأهم في ميادين القتال في بلادهم، وعلى تأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها، ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهمة سياسية مختلفة .. والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية، وسبيله الدواء التالي:

1- إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين.

2- إعطاء سورية ما تطلبه من نظام لا مركزي.

3- جعل إمارة مكة وراثية في أولادي، وإبقاؤها على حالتها الحاضرة⁽¹⁾.

ويشير جمال باشا إلى أن الشريف حسين حاول الاستفادة من الظرف الذي شعر فيه أن الاتحاديين بحاجة إلى مؤازرة العرب وقوتهم البشرية، فعمل على ابتهاج هذه الفرصة للضغط عليهم من أجل تخفيف الضغط عن الحركة السياسية القومية في بلاد الشام، وفي الوقت نفسه المطالبة بمجموعة مطالب اعتبرها ضرورية له ولأسرته، وهي النقاط الثلاث الأنفة الذكر، إضافة لمطالب أخرى تذكر فيما يأتي، وأن مجموعة مراسلات تمت بين الشريف حسين والاتحاديين في الفترة بين بدء الحرب العالمية الأولى عام 1914م، وحتى إعلان الثورة العربية في حزيران 1916م⁽²⁾، يقول جمال باشا: "وبينما محاكمة تلك العصاة العربية الثانية المتهممة بتهمة الخيانة العظمى كانت جارية، واصلت سلسلة الرسائل الودية بيني وبين الشريف حسين، وفي يناير وصل الأمير فيصل، واتخذ من داري مقاماً له"⁽³⁾ ثم أشار إلى المطالب أنفة الذكر التي طالب بها الشريف حسين في مراسلاته معه⁽⁴⁾، وقال: "وفيما كنا نتبادل تلك الرسائل، كانت المحكمة العسكرية في عالية أصدرت حكمها، فجاهد فيصل أشد جهاد للحصول على العفو عن المجرمين، وصار يحضر إلي كل يوم وقد حول الدفة

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 373 قلججي، الثورة العربية، ص 178-179، أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص 66

(2) انظر تفاصيل هذه المراسلات: الفوز، كليب سعود، المراسلات المتبادلة بين الشريف الحسين بن علي والعثمانيين بين 1908-1918م، د.ن، 1997م، ص 95 وما تلاها .

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 371-373

(4) جمال باشا، المصدر السابق، ص 377-378

في المناقشة إلى العفو، وكنت أسمع بين أن وآخر أنه عَنَّفَ الأعيان الذين ذهبوا لزيارته ووبخهم على عدم قيامهم بشيء ما لإنقاذ مواطنيهم⁽¹⁾. وأوضح جمال باشا أن الأمير فيصل بن الشريف حسين أدخل الشيخ بدر الدين الحسني مفتي دمشق آنذاك في وساطة ليشفع للمتهمين عنده، مستفيداً من إجلال جمال باشا لسماحة المفتي الإجلال التام، وأن المفتي استحسن حكم المحكمة القاضي بإعدام الخونة بعدما سمع من جمال باشا الأدلة والبيانات التي تدينهم⁽²⁾، فكان جمال باشا يحاول من خلال هذه الحادثة أن يبرر موقفه أمام الرأي العام في بلاد الشام وفي البلاد العربية، بأن ما قام به من أعمال ضد رجال الحركة القومية العربية يقره الإسلام ويجيزه، على أن المتهمين مرتكبون لجرائم يدينها الشرع الإسلامي، ويفتي بها علماء الشرع، وما ذكره وساطة الشيخ بدر الدين إلا لتكون شاهداً في هذا الاتجاه، كما أورد ما قاله الأمير فيصل بشأن من أوقعت بحقهم عقوبات الإعدام، للتأكيد على أن ما قام به من أعمال ضدهم كان جزاءً وفاقاً يستحقونه، نظراً لما أبداه الأمير من تأييد لإجراءاته، يقول: "وبعد تنفيذ الحكم بساعتين أو ثلاث، جاءني الأمير فيصل، فقال: قَسَمًا بحرمة الأجداد!! لو علمتُ أن جريمة الجناة كانت بهذه الشناعة لما أجمعتُ فقط عن طلب الشفاعة لهم، بل لطلبتُ أن تمزق أوصالهم ليطول عذابهم، ألا لعنة الله عليهم أجمعين"⁽³⁾ ويأتي جمال باشا برأي أحد وجهاء آل العظم، معززاً موقفه، علاوةً على ما أورده من رأي مفتي دمشق بدر الدين الحسني ورأي الأمير فيصل بن الحسين، ويقول: وفي اليوم نفسه حضر إليَّ العظم السيد محمد باشا ميعوث دمشقي، وقال: إني ليدركني العار الشديد كلما تذكرت أن أولئك الأشخاص هم من أعضاء أسرتي، إنك قد أحققت الحق، فليكلأك الله ورسوله بعين الرعاية⁽⁴⁾.

يستنتج مما سبق أن أزمة العلاقات بين العرب في بلاد الشام والاتحاديين في هذه المرحلة، كانت سبباً استدعى تدخل الشريف حسين لحلها، وأن عدم نجاحه في الحل كان السبيل لتصعيد التوتر والخلاف بين الجانبين العربي والتركي، جعل الخلاف الكامن بين الشريف حسين بن علي منذ سنوات يطفو على السطح ويبرز للواجهة ليشكل عاملاً جديداً من العوامل التي تجمعت لتكون أسباب الثورة العربية الكبرى، وليعد دافعاً جوهرياً لتوحيد جهود العرب في الحجاز وفي بلاد الشام لإعلان الثورة العربية، ويمكن إجمال العوامل التي عَجَلَتْ بقدر شرارتها الأولى بما يلي:

(1) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 378، وانظر: أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 48

(2) جمال باشا، المذكرات، ص 379-381

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 382، النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 24
النجار، حسين فوزي، الشرق العربي بين حربين، نشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دبت، ص 24،
النجار، الشرق العربي بين حربين.

(4) جمال باشا، المصدر نفسه، ص 383

ثالثاً: أسباب الثورة العربية الكبرى.

يرجع قيام الثورة العربية التي قادها الشريف الحسين بن علي، وانطلقت شرارتها من مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز، ثم ما لبثت أن امتدت إلى بلاد الشام، إلى عوامل عدة تضافرت وانصهرت مع بعضها لتشكل معلماً من المعالم الرئيسية التي تصدرت الأحداث في المنطقة العربية مطلع القرن العشرين، وكانت الفصيل الحاسم في العلاقات العربية العثمانية بشكل عام، وعلاقات العرب في بلاد الشام بالدولة العثمانية على وجه الخصوص، إضافة لما تركته تلك الثورة من آثار في المنطقة المذكورة فيما بعد، وما تبعها من أحداث ذات أثر كبير على العلاقات العربية العثمانية على المدى البعيد، ويمكن تقسيم العوامل التي تسببت في هذه الثورة إلى عوامل أربعة رئيسية هي:

1- عامل الشرعية التاريخية والدينية:

سادت حالة من التوتر في العلاقات بين الشريف الحسين بن علي والاتحاديين حكام الدولة العثمانية الجدد، بعد سيطرتهم على شؤون الحكم في الدولة العثمانية بانقلابهم المعروف عام 1909م، ولم يمض بعد على ولاية الشريف حسين على إمارة الحجاز سوى فترة قصيرة حين عينه الخليفة عبد الحميد الثاني ممثلاً لدار الخلافة في الحجاز ومشرفاً على رعاية الحرمين الشريفين، شاغلاً منصب الشرافة الذي توارثته أسرته منذ كان المماليك ولاية مصر المشرفون على شؤون الحجاز⁽¹⁾ وبتولي الاتحاديين مقاليد السلطة، تخوف الشريف حسين من سياستهم الجديدة تجاه العرب عامة، وبلاد الحجاز خاصة، "واعتقد أنهم نزعوا ثقتهم منه ومن أولاده، وأنهم يتحينون الفرص للقبض عليه والإيقاع به وإقصائه⁽²⁾، وأشارت المصادر إلى أن الحكومة

(1) انظر: الفصل الرابع، عن تعيين الشريف حسين بن علي أميراً على الحجاز. وانظر:

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 43-46، غوانمة، الحسين بن علي، ص 20-22

(1) العمري، محمد صبحي (دمشقي، أحد ضباط الثورة العربية الكبرى)، أوراق الثورة العربية (3ج)، الجزء الأول: المعارك الأولى، الطريق إلى دمشق، نشر: مكتب رياض الريس، طبعة أولى، لندن وقبرص، 1991، ج1، ص 51،

وانظر: الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 177

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 51، بينهم، سوريا ولبنان، ص 186

- الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 22

الاتحادية أرسلت وهيب باشا والياً على الحجاز، وأن هناك خطة أعدتها هذه الحكومة تهدف إلى إلغاء الامتيازات التي منحها الخلفاء العثمانيون للأسرة الهاشمية، ومن بينها اعترافهم بهم كأمرأء للحجاز، وصار هذا تقليداً تاريخياً درج عليه الهاشميون، وحقاً مكتسباً لهم بمرور الزمن وتقادم السنين، فعمد الاتحاديون إلى نزع هذا الحق من الأسرة الهاشمية، وسحب صفة الشرافة عنهم، وأعدوا العدة لتنفيذ هذا الهدف، وكان إرسال وهيب باشا إلى الحجاز تطبيقاً لذلك، مع تزويده بفرقتين عسكريتين وإعطائه صلاحيات واسعة لخضد شوكة الشريف الحسين بن علي، والقضاء على نفوذه وصلاحياته⁽²⁾، وقد تطابقت الروايات العربية والتركية في إثبات هذه الحادثة، يقول قدري: "... ولقد انتهت تفاصيل هذه الفجائع (إعدامات القوميين الشاميين) إلى مسامع شريف مكة الحسين بن علي، ف وقعت من نفسه موقعاً أليماً، وحزن حزناً عظيماً، وكان ابنه علي قد عثر على وثائق كان يحملها وهيب باشا قائد الجيش العثماني في الحجاز، وهو يرافقه مع متطوعة الحجاز، فوقف الأمير من محتوياتها على ما ينبئ بالقضاء على امتيازات والده تدريجياً، ثم إلغاء الإمارة، فاعتذر إذ ذاك عن مرافقة وهيب باشا في الحملة قبل إعداد عدته، عائداً أدراجه إلى مكة، حيث أطلع والده على كنه الأمور، فأيقن شريف مكة أن الخطر محقق بإمارته وبالعرب جميعاً"⁽³⁾، وفي ذلك يقول جمال باشا: "وجاءني رد الشريف حسين على البرقية التي أرسلتها إليه، فاستنتجت من جوابه أن كلماتي كان لها أثر شيء في نفسه، فقد أشار بإصدار العفو العام لمصلحة الحكومة، ثم شكاً مرَّ الشكوى من حاكم المدينة قائلاً إنه يأبى أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها إياه الخليفة العثماني ... ولقد كان خطاب الشريف حسين الأخير إليّ ينطق بأنه كان يلتمس ذريعة ما للقيام بالثورة، وهذا هو الذي حدا بي أن استعمل في خطابي للشريف فيصل تلك اللهجة الصريحة الحاسمة"⁽⁴⁾. ويتضح من سياق هذه الرواية الترابط والتلازم في هذه المرحلة من العمل القومي العربي ضد الاتحاديين بين الوضع في الحجاز وعلاقته المتردية مع الاتحاديين وبين الوضع السياسي المأزم

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 120

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 51

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 49-50

(3) قدري، مذكراتي، ص 44-45، وانظر: بيهم، سوريا ولبنان، ص 35

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 383-386، بيهم، سوريا ولبنان، ص 186

في بلاد الشام، وأن الأمور بين عرب الشام وعرب الحجاز وبين الاتحاديين وصلت لدرجة الانفجار والتأهب للثورة.

2- العامل الاقتصادي:

ويرجع هذا العامل إلى أن الحجاز كانت تعتمد في معاشها على طريق البحر الأحمر وطريق الخط الحجازي، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى في شهر آب 1914م، وافق هذا التاريخ شهر رمضان 1332 هـ، أي قبيل موسم الحج بثلاثة أشهر، وأدركت دول الحلفاء إنجلترا وفرنسا ومن معهما من الدول أن الدولة العثمانية تقترب من ألمانيا، وقد تخوض الحرب إلى جانبها، فعملوا على حصار سواحل الحجاز، باعتبارها من البلدان العربية التابعة للسيادة العثمانية آنذاك، كجزء من حصارهم لسواحل الدولة العثمانية، فكان هذا الحصار بمثابة تعطيل لموسم الحج الذي يعد مورداً حيوياً ورئيساً لإمارة مكة وما يتبعها من مناطق الحجاز، ولم يرد من الحجاج سوى عدد قليل، مما قلل من الدخل الذي يرد على إمارة مكة من الحجاج⁽²⁾، " من أجل هذا كله أصبحت حالة الحجاز مهددة بخطر المجاعة، فراح شريف مكة يجهد الفكر في استنباط مخرج من هذا المأزق الحرج⁽³⁾ ويبدو أن الشريف حسين وجد في هذا مبرراً لقبول عرض الإنجليز عليه للاتفاق معهم من أجل إخراج إمارته من الضائقة التي حلت بها جراء الحصار الإنجليزي لسواحلها، ولعل الحصار جاء كذلك من أجل إرغامه على القبول بالدخول في تحالف معهم، لكسب العرب والبلاد العربية، لما لمشاركتهم من دور كبير في الضغط على الدولة العثمانية، ولبلادهم موقع حيوي في إدارة العمليات الحربية تؤثر استراتيجياً في الحرب، وقد يكون هذا هو الأقرب إلى ما قد حدث عملياً، وأشار قدري إلى ما ينسجم مع هذا الاتجاه بقوله: "وقد وجد في مراجعة الإنجليز إياه بدعوته للانضمام إلى صفوف الحلفاء منفذاً لمجانبة الخطر الداهم، ثم الوسيلة الوحيدة للخروج ببلاده من الموقف الدقيق الذي آلت إليه، فرضي على كرهه بمفاوضة الإنجليز"⁽¹⁾. ورأى العمري أنه "لم يبق أمام الحسين إلا الاتفاق مع الإنجليز، ليفتحوا البحر أمام القطر الحجازي تأميناً لوصول الحجاج والهيئات، أو أن يموت أهل هذا القطر جوعاً، أو أن يهاجروا إلى باقي البلاد كما حصل مع أهل المدينة"⁽²⁾. وكان الاتفاق مع الإنجليز سبباً لإلغاء الحصار البحري، وعودة السفن والبواخر إلى زيارة الحجاز حاملة الميرة والزوار⁽³⁾.

3- العامل القومي:

-
- (2) قدري، مذكراتي، ص 45، بينهم سوريا ولبنان، ص 186
- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 121، كوتلوف، حركة التحرر الوطني، ص 181
(3) قدري، مذكراتي، ص 45، قلعي، الثورة العربية الكبرى، ص 190
(1) قدري، مذكراتي، ص 45، وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 121
- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 52، النجار، الشرق العربي بين حربيين، ص 24
(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 52
(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 122

ولعل ما حدث في بلاد الشام من إعدام للقوميين العرب، ممن نسب إليهم التخطيط لأجل فصل هذه البلاد عن الدولة العثمانية، وإعطائها استقلالاً برعاية ووصاية أجنبية، وخاصة فرنسا التي تتطلع لئلا تحقق رغباتها ومطامعها، وتكون الحامية لنصارى الشام، بعد أن أبدى هؤلاء النصارى توجهاً نحوها، لعل ذلك على الرغم من أن هؤلاء القوميين الشاميين لم يكونوا جميعاً مرتبطين بفرنسا، ولم يكونوا كلهم عملاء لها، وليس من الإنصاف إجمال المسلمين مع النصارى في زمرة الخونة كما أجملهم جمال باشا، وأوقع على الكثيرين منهم أحكام إعدام جائرة، بل كان فريق من هؤلاء مازالوا على ولائهم للدولة العثمانية متمسكين بالرابطة القوية التي تربط العرب والأتراك، وهي الإسلام والأخوة في العقيدة، وخير شاهد على ذلك إعدام الزهراوي، الذي كان من أكثر أبناء بلاد الشام حرصاً على الرابطة العثمانية، لدرجة أنه قبل عضوية مجلس الأعيان للتأكيد على تمسكه بالرابطة العثمانية، ولمحاولة رأب الصدع الذي حدث بين العرب والاتحاديين، وإصلاح الخلل الذي أحدثته السياسة الاتحادية في جسم العلاقات العربية العثمانية، فكان إعدام السياسيين العرب من أبناء بلاد الشام صدمة للشريف حسين، لا سيما بعد أن وضع ثقله كاملاً في سبيل التوسط لهم وإخراجهم من تحت مشانق جمال باشا بالاعتراف هذا الأخير⁽¹⁾، دون أن يفلح في مسعاه، وكانت الصدمة للشريف أكبر، لأن العرب في بلاد الشام وجدوا فيه أملهم "وكانوا ينظرون إليه كزعيم عربي، بل أكبر زعيم قومي وديني في ذلك الوقت، وقد آلمه أن يعدم شباب العرب ظلماً وعدواناً، وأن تبعد العائلات شيوخاً وأطفالاً ونساءً إلى الأناضول مشنتين بجميع أطرافها، وأن تساق الحرائر من أبناء أمته كالسبايا تحت ستار هذا النفي الظالم، كل ذلك يجري لا لذنب ارتكب أو إثم اقترف، بل للتكيد والتهميش والتثريب" (2)، ويجدر الإشارة إلى أن هذا العامل قد سبق تفصيله، ومناقشة مواقف رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام، وإجراءات جمال باشا التي اتخذت بحق هؤلاء، وكان ذلك قبل بدء الحديث عن الثورة العربية في بداية هذا

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 383-386 وانظر: بيهم، سوريا ولبنان، ص 186 حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 108-109، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 189 زيادة، أبعاد الثورة العربية الكبرى، ص 52. قلعي، الثورة العربية الكبرى، ص 189

(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 52. وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 122

الفصل، وعد ذلك السبب الرئيس للثورة التي انطلقت في الحجاز ضد الاتحاديين، وانتهت بخروج العثمانيين من بلاد الشام، يقول مؤلف كتاب ثورة العرب: " أما الأسباب القومية فأهمها تصميم الاتحاديين على استئصال الأمة العربية، باضطهادهم العرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ونفيهم لهم وتجويعهم وشنق زعمائهم وأدبائهم وأصحاب الرأي فيهم ظلماً وعدواناً" (3).

4- العامل الإسلامي:

يُعدُّ العامل الإسلامي من أهم العوامل التي ساهمت في تحريك الشريف حسين بن علي للرد على ممارسات الاتحاديين ضد إسلامية الدولة العثمانية، وضد العرب والمسلمين في البلاد العربية، حتى وصل بهم الأمر إلى التهجيم على الإسلام وعقيدة الأمة الإسلامية، من خلال كتاب عبيد الله الذي أصدره تحت عنوان: قوم جديد (1)، وتم تقديم شواهد منه عند الحديث عن السياسة التتريكية في بلاد الشام في الفصل الرابع.

وكان الشريف حسين على المستوى الشخصي بشهادة معاصريه وعارفيه ملتزماً بالإسلام، شديد المحافظة على التقاليد الإسلامية، يقول صبحي العمري: " لقد كان الحسين صلباً في دينه، متمسكاً بأحكامه كل التمسك، شديد المحافظة على التقاليد الدينية، يعتقد بكفر الاتحاديين وإحادهم مما قرأه فيما نشره من كتب ومقالات عن وجوب الابتعاد عن الدين، الذي يعتبرونه عربياً يسيء إلى عنصريتهم" (2)، ولما كانت هذه طبيعته وغيروته على الإسلام، فقد هاله ما يعمله الاتحاديون تجاه المسلمين في البلاد العربية، وخاصة بلاد الشام، هذا عدا المقالات والكتب التي ينشرونها وتسيء إساءة صريحة إلى الإسلام، ولذلك كان فهم الشريف حسين للمسألة العربية فهماً إسلامياً (3)، ولم يعلن الثورة باسم القومية وحدها، ولكن ثورته كانت من أجل الإسلام أولاً، فهو يعلن عن ثورته أنها جاعلة مبدأها وغايتها نصرته الإسلام والسعي لإعلان شأن المسلمين، وأنها قائمة في كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف، مع استعدادها لقبول ما ينطبق

(3) مجهول، ثورة العرب، ص 89، وانظر: الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 51
(1) أورد صاحب ثورة العرب مقاطع كبيرة منه باللغة التركية وترجماتها باللغة العربية، انظر: مجهول، ثورة العرب، ص 68-74. وانظر: قلعجي، الثورة العربية الكبرى، ص 190، الريمائي، سهيلة، الاتجاهات الفكرية للثورة العربية الكبرى من خلال جريدة القبلة، نشر: لجنة تاريخ الأردن في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، طبعة أولى، عمان، 1992م، ص 26-27.
(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 52. وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 123
(3) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 104

على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة⁽⁴⁾، "وكان الشريف حسين يعرب في مختلف المناسبات عن وجهة نظره الإسلامية بصراحة ووضوح، ويدعو باسم الثورة إلى التمسك بأهداب الدين، وتطبيق أحكام الشريعة الغراء"⁽⁵⁾، ومواجهة الاتحاديين بما يمثلونه من أفكار تحاول النيل من الإسلام بحجة ما يسمونه المدنية والتقدم، ولذلك كان لابد للثورة العربية أن تعري هؤلاء القوم، لأنهم يدعون الإسلام وهم يسعون للقضاء عليه، "وأن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هم أولئك المغرورون الطائشون الذين يظهرون أن الترقى والحضارة لا يكونان إلا بإضعاف الدين وترك شعائره"⁽¹⁾، وقد ذكر الملك عبد الله في مذكراته أن الثورة التي قام بها والده الشريف حسين كانت لمجد العرب وللدفاع عن الإسلام، وقال في ذلك: "وما العرب إلا بالإسلام، وكان من الحق عليهم أن يسعوا إلى استعادة مجدهم وحقهم وخلافتهم، والثورة العربية الأخيرة التي قام بها والدي ومن معه من عظماء الحجاز بإقتاء علمائهم، وانضمام عظماء الشام والعراق إليهم، كانت ثورة حق للدفاع عن الإسلام، ثم لتبوء العرب المقام الذي خصهم الله به، حيث قال في كتابه العزيز: كنتم خير أمة أخرجت للناس"⁽²⁾. وذكرت جريدة القبلة في افتتاحيتها حول الثورة العربية الكبرى، والتي أطلقت عليها خاتمة النهضة، أن الشريف الحسين بن علي اضطر غير باغ ولا عاد إلى مقاومة من بلغت أخبار تلاعبهم بالإسلام والمسلمين والعربية والعرب كل مبلغ، ونادى باستقلال العرب لإعادة مجد الإسلام"⁽³⁾ كما أشارت القبلة إلى دور الشريف حسين في ترأس الحركة السياسية العربية وقيادتها لمقاومة الاتحاديين، وأنه غضب لدينه الذي عبث به الاتحاديون، وتقول: "وسنشرح للعالم أجمع الحركة العربية وحقائق الجمعية

(4) ناصر الدين الأسد، الثورة العربية الكبرى والأدب، ص 182-183، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية الكبرى.

(5) شهاب، أسامة يوسف، الاتجاه الإسلامي في نهضة الشريف الهاشمي، نشر: مركز اللغات/ الجامعة الأردنية، عمان، 1995م، ص 18-19، 230-236.

(1) جريدة القبلة، ع (1)، 15 شوال 1334هـ/ 1916م، ص 1، الافتتاحية. وانظر: الريماوي، الاتجاهات الفكرية، ص 29.

- عطار، أحمد عبد الغفور، صقر الجزيرة (3ج)، نشر: مطابع المؤسسة العربية، الطبعة الثانية، جدة، 1964م، ج2، ص 280، عطار، صقر الجزيرة.

(2) الملك عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص 27-28.

(3) جريدة القبلة، ع (1) الافتتاحية، 15 شوال 1334هـ/ 1916م، ص 1.

الاتحادية حتى يعلم القريب والبعيد أن الشريف الحسين بن علي قد غضب لدينه الذي عبث به الاتحاديون، ولقومه الذين أهانهم الظالمون، ولتطهير الإسلام من رجس أولئك الزنادقة⁽⁴⁾ ولما كانت الصبغة الإسلامية هي السَّمْتُ العام للثورة العربية الكبرى، فقد أثار توجه الشريف حسين الإسلامي حفيظة المتعاطفين معه من القوميين العرب من نصارى الشام، وعدوا ثورته ضد الاتحاديين المنتهكين لحرمان الإسلام ثورةً لا تعنيهم، وعدوا سفاهات الاتحاديين وتناولهم على شعائر الإسلام وأركانه عملاً يسحقون عليه احترام الأمم المتمدنة، ولعل هذا في رأي نصارى بلاد الشام هو التمدن بعينه، ودافعاً قوياً لهم دفعهم لانتقاد الشريف حسين بن علي انتقاداً صريحاً ملؤه المرارة من الثورة العربية التي رفعت راية الإسلام وجعلته أحد أبرز أسباب قيامها، جاء ذلك على لسان أمين الريحاني في سياق حديثه عن الشريف حسين وهو يقول: "... وإن ما يستغرب من أمره في مدة إمارته، هو أن الحجاز كان نهباً للناهبين ومحط رحال السفهاء من الاتحاديين، فغدا العدل شريداً والأمن طريداً، فكان الحجاج يُسلبون في ظل بيت الله الحرام في رابعة النهار، ومع ذلك فلم يُغضب الشريف حسين إثم من مآثم الترك يومئذ أكبر من خروجهم، وهو في نظره الأكبر، على التقاليد الإسلامية البالية، وهذه لعمري فضيلة فيهم يسحقون من أجلها احترام الأمم المتمدنة، أما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاصد والآثام، وقد ذكر من الذنوب الأخيرة: مخالفة نصوص الشرائع الإسلامية، وإهانة النبي، والتبديل في شريعة الوراثة الشريفة، والمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، وإعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من الصوم، وإصدار الأحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة، وبعد ذلك احتج على إعدام الأحرار في سورية... أفما حان لنا!! أو لا يحق لنا أن نتساءل نحن العرب غير المسلمين: ماذا يهمننا من نهضة أساسها سورة البقرة!!؟ وأي دخل لنا في ثورة أعلنت في ذاك السبيل ولتيك الأسباب الدينية!!!"⁽¹⁾.

(4) جريدة القبلة، ع (1) الافتتاحية، 15 شوال 1334هـ/ 1916م، ص 1
(1) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص56-57

رابعاً: موقف العرب من اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

1- موقف الشريف الحسين بن علي من الاشتراك في الحرب.

انطلقت شرارة الحرب العالمية الأولى في بداية شهر آب 1914م، ويصعب تحديد تاريخ دقيق لبدء الحرب، ففي 28 حزيران 1914م، اغتيل ولي عهد النمسا والمجر الأرشيدوق فرانز فرديناند أثناء زيارته لسراييفو على يد طالب صربي يدعى جافريلو برنسيب⁽²⁾، وفي (2) آب هاجمت الجيوش الألمانية دوقية لوكسمبورغ واخترقت الحدود الفرنسية، وفي اليوم نفسه غزا الجيش الألماني بلجيكا، وأعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا ووقفت إيطاليا على الحياد⁽¹⁾، وبحلول يوم 5/ آب 1914م اشتركت سبع دول في الحرب هي ألمانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وإنجلترا وبلجيكا وصربيا⁽²⁾.

وفي (28) تشرين الأول 1914م اشتركت الدولة العثمانية في الحرب إلى جانب ألمانيا، وكان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا لا يريد اشتراك الدولة في الحرب، ويرغب في تجنبها حرباً لا علاقة لها فيها، ولكن حزب الاتحاد والترقي بقيادة الثلاثي طلعت وأنور وجمال باشا أرغموه على السير في ركابهم، بعد أن وعدوه بخديوية مصر، وهو المنصب الذي كان يحلم به⁽³⁾، وكان أنور باشا ميالاً للألمان، وكان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ميالاً للإنجليز، بينما كان جمال باشا ميالاً للفرنسيين⁽⁴⁾، واستطاع أنور أن يقنع طلعت وجمال بدخول الحرب إلى جانب الألمان، الذين أصبحوا أثناء الحرب أصحاب السلطة الفعلية في الأستانة⁽⁵⁾، ويبين طلعت باشا وجهة نظره المعبرة عن قناعته في إشراك الدولة العثمانية في الحرب، وذلك أثناء اللقاء سفير أمريكا به حين كان وزيراً للداخلية، بقوله: " إن روسيا عدونا اللدود، وإذا دخلنا الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا، وكسرتها ألمانيا، نكون قد تخلصنا من خطر عظيم هدد كياننا قروناً طويلة " ... أما جمال فقد وافق على الدخول في الحرب بالاتفاق مع ألمانيا، على الرغم من توقيع الدولة على الاتفاق دون علمه⁽⁶⁾.

(2) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق1، ج1، ص4، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج1، ص63

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص48، مجهول، ثورة العرب، ص75

- الفوز المراسلات المتبادلة، ص108، حغدوق، وثائق ميرزا باشا، ص108

(1) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق1، ج1، ص28

- عطار، صقر الجزيرة، ج2، ص190

(2) أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى نفسه، ق1، ج2، ص56، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص63

(3) الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص65-74، مورغنتو، المذكرات، ص12، 47

أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية، ق1، ج5، ص180

- YILDIZ, BUYUK ISLAM TARIHI, CILD,12, P.75

(4) مورغنتو، المذكرات، ص12

(5) مورغنتو، المصدر السابق، ص38، 47، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص286-288

(6) الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص74-87.

- وانظر: النجار، الشرق العربي بين حربين، ص21

وأما السلطان محمد رشاد خليفة المسلمين وولي عهده الأمير يوسف عز الدين، فلم يكن لهما أية سلطة فعلية في إدارة الدولة، وكان الاتحاديون يتحكمون بالدولة ويجردون الخليفة من صلاحياته، وجاء في المنشور الذي أذاعه الشريف حسين بعد إعلان الثورة العربية، وأذيع بتاريخ (25) شعبان 1334 هـ/ 26 حزيران 1916م⁽¹⁾، ونشرته جريدة القبلة في أعدادها⁽²⁾، أن الاتحاديين سلبوا الخليفة محمد رشاد حق اتخاذ أي قرار، يقول المنشور: "بعد أن ضربت على أيدي شوكة السلطان المعظم وسلبته حتى حق الاقتدار على انتخاب رئيس كُتاب ما بين (الديوان) سلطنته الشريفة، أو رئيس خاصته المجلدة، فضلاً عن النظر في أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد، وما في هذا من إسقاطهم لشروط الخلافة التي يطالب بها المسلمون كافة، إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم إمام (خليفة) شرعي مستقل، قادر على التصرف في إقامة الشرع ورفع لواء العدل"⁽³⁾ وأشارت جريدة القبلة في عددها الأول إلى اضطهاد الاتحاديين للخليفة وتصرفهم بالمُلْك دونه قائلة: "خرجت الخلافة من يد سلطانها الشرعي، الذي سجنه الاتحاديون في قصره، وتصرفوا دونه بأمر الملك وأحوال السلطنة، وتعدوا حدود الله، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون"⁽⁴⁾ وعلى خلفية الخلاف بين الاتحاديين والشريف حسين بن علي، إثر توليهم الحكم عام 1909م، نتيجة الخطاب الذي ألقاه الشريف حسين لدى وصوله الحجاز لتقلد منصب الشرافة على مكة المكرمة وما حولها، والذي قال فيه: لقد حظيتُ بمقام أسلافي وآبائي على الشريطة التي بايع عليها الشريف أبو نمي السلطان سليم الأول، وإن هذه البلاد لا تقوم فيها سوى شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي حريصة على الاحتفاظ، بحقها⁽⁵⁾. تحسس الاتحاديون من هذا الخطاب، وأرسل إليهم على الحجاز إلى العاصمة استانبول يقول للحكام الجدد من رجال الاتحاد والترقي: إن عهد السلطان عبد الحميد تجدد في الحجاز بوصول الشريف حسين، فهو لا يعبأ بأحد،

(1) مورغنتو، المذكرات، ص 47، 59، 65، 74

(2) جريدة القبلة، ع (2)، السنة الأولى، (18) شوال 1334 هـ/ 1916م، ص 1، المومني، الشريف حسين بن علي والخلافة، ص 107

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 151، المومني، الشريف حسين بن علي والخلافة، ص 107-108

(4) جريدة القبلة، ع (1)، (15) شوال 1334 هـ/ 1916م، ص 1

(5) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 45-46، وانظر: الملك عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص 25

ولا يعترف بالدستور، ولا يؤمن بالتجديد⁽¹⁾، وتطور الخلاف بعد ذلك واتسع نطاقه تدريجياً، وكان من أسبابه الجوهرية محاولة الاتحاديين التضييق على الشريف حسين ومحاولة تطبيق قانون الولايات الجديد على الحجاز، حيث قاومه الشريف حسين، ثم الرسالة التي ضبطت في محفظة والي الحجاز الجديد وهيب باشا، والتي وجد فيها محاولة عزل الشريف حسين، فكان هذا التضييق الشخصي على الشريف حسين عاملاً مهماً من عوامل ثورته على الاتحاديين، وذكر بين أسباب الثورة العربية، وانضاف إلى هذا اندلاع الحرب العالمية، وقرار الاتحاديين الاشتراك فيها كما أشير آنفاً، لكن الذي وسع هوة الخلاف استدعاء الصدر الأعظم سعيد حليم باشا للأمير عبد الله بن الشريف حسين بعد وصوله للأستانة في أواسط حزيران 1914م، وترتيب لقاء له مع وزير الداخلية طلعت باشا، ثم مع أنور باشا، بشأن التباحث حول توجه الحكومة الاتحادية للاشتراك في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، فما كان من الأمير عبد الله إلا أن طرح بعد عودته إلى مكة ما سمع من طلعت وأنور والصدر الأعظم على والده الشريف حسين حول النية الاشتراك في الحرب، فاستغرب تفكيرهم في دخول الحرب⁽²⁾، وأرسل الحسين خطاباً إلى الصدر الأعظم قال فيه: "إنني لا أعرف أي الرجلين يصدق، أهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة، ولطالما أظهر الود والمجاملة، أم ذاك الذي استعمل معه ألفاظاً جارحةً مهينةً، فهو يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات حتى تجاب المطالب التي طلبها من أنور باشا منذ شهرين"⁽³⁾. وترجم موقفه المندesh هذا برسالة أرسلها إلى الخليفة محمد الخامس (محمد رشاد)، وهو يعلم أنه لا حول له ولا طول فيما يتعلق بقرار الاشتراك في الحرب العالمية، لكنه أرسلها إليه لتيقنه أن الاتحاديين المتحكمين بقرار الخليفة سيأتيهم كتابه المرسل إلى الخليفة ويقرأونه، ويعرفوا موقفه بما يمثل من ثقل سياسي وديني وشعبي في الجزيرة العربية وسائر البلاد العربية، خاصة بلاد الشام، باعتباره ينسق معهم في هذه

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 46

(2) أمين سعيد، المصدر نفسه، ص 47-49

الفواز، المراسلات المتبادلة، ص 102-103

سالم، الحاج فتحة علي (مصري من طنطا عاصر الشريف حسين، وكان على صلة به)، في سبيل الدفاع عن الإسلام، نشر: المطبعة التجارية، طنطا، مصر، د. ت، ص 19-24، سالم، في سبيل الدفاع عن الإسلام.

(3) الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 211

المرحلة، كي يبني مواقفه اللاحقة عليها، فيما يتعلق بالعلاقات بين العرب في الحجاز وبلاد الشام وبين الاتحاديين، ويدرك الاتحاديون أن اعتراض العرب على اشتراك الدولة العثمانية في الحرب، وعدم موافقتهم على الدخول فيها، كان من أسباب وقوفهم ضدهم في هذه الحرب الأوربية البحتة، يقول الشريف حسين في رسالته المطولة إلى الخليفة محمد رشاد، فيما يخص الاشتراك في الحرب: "تعلمون جلالتكم أن الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه، وإن الدولة الآن في حاجة إلى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم حتى الآن، وأنه في الدخول إلى جانب ألمانيا الخطر العظيم، حيث أسلحة الدولة كلها من ألمانيا، وكذلك عتاد هذه الأسلحة، وأن المعامل العثمانية لا تكفي لإمداد الجيوش بالعتاد اللازم، ولا تستطيع إمداده بما يمكن أن تخسره من مدافع وأنواع الأسلحة الأخرى، ثم إن الأقطار المترامية إلى الجنوب من جسم الدولة كالبحر واليمن والحجاز، محوطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول المعادية البحرية، وستصبح في أخرج المواقف، وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حماية أهلها، وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة.

وعليه فإنني استحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب، وأن تعلموا بأنني اعتقد في كل من يرى الحرب إلى جانب الألمان عدم التمييز أو الخيانة الكبرى"⁽¹⁾.

لم يكثرث الاتحاديون بوصول هذه الرسالة الناصحة والمحفزة في آن معاً إليهم، بل اتخذوا قرارهم بالاشتراك في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان، وقبل ذلك زار والي الحجاز وهيب باشا الشريف حسين، وطلب رأييه في الاشتراك في الحرب، ولما شرح له الشريف حسين محذورات الدخول في الحرب، أجاب وهيب باشا وهو يمس لحيته: إنها ورقة نريد أن نقذف بها على مائدة الميسر، فقال له: إن هذا لعجيب أوتقامرون بالأمة كلها؟!!!"⁽²⁾ وهكذا أدخل الاتحاديون العالم الإسلامي في متاهة

(1) الملك عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص 109. وانظر:

الشريفي: الثورة العربية الكبرى، ص 18، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 150

(2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية العربية، ص 49. وانظر:

=موسى، سليمان، الثورة العربية الكبرى (العوامل التي أدت إليها وتفاعلاتها)، المجلة الثقافية، فصلية تصدر كل

(3) أشهر عن الجامعة الأردنية، عمان، ع 38، أيار - تموز، 1996م، ص 258، سليمان موسى، الثورة العربية

الكبرى، المجلة الثقافية.

- KANDEMIR, FERIDUN, PEYGAMBERIMIZIN, GOLGESINDE, SON TURKLEB, MEDINE MUDAFASI, YAYINEVI YAGMUR, ISTANBUL, 1974, P.417

الحرب المجنونة، وزجوا بمقدرات الأمة المسلمة كاملة في حرب صليبية الرابع والخاسر فيها خاسر، وفي مقدمة الخاسرين الدولة العثمانية بولاياتها جميعها، بما فيها الولايات العربية في بلاد الشام والحجاز والعراق واليمن، وكانت ردة الفعل العربية قوية تجلت بالمنشور الذي أصدره الشريف حسين بعد أن انحاز في الحرب إلى جانب بريطانيا لأسباب يتم بسطها لاحقاً، وبَيَّنَّ في هذا المنشور مضار هذه الحرب، وإضافةً للمقطع الذي ذكر قبل قليل من هذا المنشور، يشار هنا إلى مقطع آخر منه، لفت فيه الشريف حسين النظر إلى أخطار الاشتراك فيها في سياق بسطه لمبررات الخروج على الاتحاديين وتعداد موبقاتهم التي ارتكبوها، يقول: "... ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوربية الساحقة الماحقة، فوقفوا بالدولة موقف الهلكة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واستنزفوا باسمها ثروة الأمة، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة، ثم اتخذوها ذريعةً للفتك بجميع المخالفين لرأيهم في سياستهم الخرقاء وإدارتهم الظالمة، وللتكيل بالعرب خاصة، حتى أن حرم الله سبحانه وتعالى وحرّم رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم لم يسلموا من شرهم، فإنه عَرَّضُوهُمَا للخوف والجوع والخراب"⁽¹⁾.

- الخليفة عبد الحميد الثاني ضد اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى:

وفي سياق الحدث عن مضار اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وما جلبته سياسة الاتحاديين الخرقاء من ويلات على هذه الدولة جراء جرّها إلى أتون الحرب، يجدر لفت الأنظار إلى أن الخليفة عبد الحميد الثاني كان ابتداءً من معارضي تدخل دولة الخلافة العثمانية والعالم الإسلامي في حرب كهذه، والتي كان يرى أنها حرب أوروبية داخلية، وأنه كان ينتظر وقوعها منذ أربعين سنة ليغتتم فرصة اشتباك الأوروبيين فيما بينهم من أجل تقوية الدولة العثمانية، وإعادة سالف مجدها إليها، يقول في مذكراته تحت عنوان: عزلوني قبل تحقيق هدي الكبير: "منذ أربعين عاماً وأنا انتظر أن تشتبك الدول الكبرى مع بعضها البعض، كان هذا كل أمني، كنت أرى أن سعادة الدولة العثمانية مرتبطة بهذا، وجاء ذلك اليوم الذي كنت أنتظره، ولكن .. هيهات!! فقد أبعدوني عن العرش، وابتعد الذين حكموا البلاد بعدي عن العقل والتبصر، الفرصة العظيمة التي ظللْتُ أربعين عاماً في انتظارها ولتْ وأفلنت من يد الدولة العثمانية إلى الأبد، جاهدتُ لكي لا يعزلوني عن العرش طوال ثلاثين عاماً، وجهادي هذا كان من أجل هذه الفرصة، حبستُ الأسطول في الخليج، ولم أخرجهُ ولو للتدريب، وحبسي له كان من أجل هذه الفرصة، تجاهلتُ الحرب اليونانية لكي لا أدع للإنجليز منفذاً للاستيلاء على كريت، وتجاهلي هذا كان من أجل هذه الفرصة، بمعنى آخر: "إن كل مجهودي قرابة ثلاثين عاماً بصوابه وبخطئه، إنما كان من أجل هذه الفرصة، وحفظتُ هذا السرّ في نفسي أربعين عاماً، وسأوضحه لأحفادي لكي يعرفوني، لم افاتح فيه أحداً حتى مع أكثر صدور العظام ثقةً، لأنني

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 150

تعلمت بالتجارب أن شيئاً يعرفه أثنان يخرج عن كونه سراً، ولذلك كان من ألزم الأمور ألا يعرف قصدي هذا أحد، وألا تحس به الدول الأجنبية، كان تقديري أن استخدام العثمانيين لفرصة كهذه في وقتها وبتبصر، كيل بأن ينقذهم، فيعيدون لدولتهم مكانتها في مصاف الدول العظمى .. لم تكن لدينا قوة تساعدنا على أن نعيش ونقاوم بأنفسها قط، إذن فلو حدث تصدع في صفوف أعدائنا المتوحدين من أجل تمزيقنا إلى أجزاء، ولو أمكننا أن نصبح قوة لا تتراجع عن جزء من أجزاء البلاد، لأصبح من الممكن أن نكون مرة أخرى أصحاب كلمة مسموعة في العالم، .. كان الواضح أن التنافس بين الدول الكبرى سيجريها أخيراً إلى التصارع والتصادم فيما بينها، وعلى هذا فإن الدولة العثمانية أمام تصارع وتصادم كهذا تصبح بعيدة عن أخطار التمزق والتقسيم، ويوم التصادم الدولي سيوضح قيمتها بين الدول، هذا هو سر سياستي التي استمرت 33 عاماً⁽¹⁾.

يستنتج مما سبق أن العلاقات بين الشريف حسين والاتحاديين قد وصلت إلى طريق مسدود، وليس من مخرج للأزمة الناشبة بين الطرفين، وبذلك يصبح العرب في كل من الشام والحجاز على علاقات سيئة ومتوترة مع التيار الاتحادي الذي يتولى السلطة في الدولة العثمانية، وصار التنسيق بين الطرفين هو الخطوة اللاحقة التي سيقومان بها في تحركهم المستقبلي وهو إعلان الثورة ضد الاتحاديين، وباتوا مقتنعين بأن ثورتهم ليست ضد خليفة المسلمين الذي أضحى حبيس قصره لا يملك من أمر نفسه شيئاً⁽²⁾، وهذا ما دفع بعض المؤرخين المعاصرين للرد على التساؤل المطروح: هل كانت الثورة العربية ثورة ضد الخلافة؟ وهل فكر العرب الانفصال؟ بالقول: "لقد كان من التهم الرئيسية التي شوهدت وجه الثورة، أنها كانت ثورة ضد الخلافة، شقت صفوف المسلمين، والمتتبع لتطورات حركة اليقظة العربية وأحداث الثورة، يخرج بنتيجة معاكسة لذلك كله، فالعرب أصلاً لم يفكروا بالخروج على الدولة العثمانية، بل لقد عملوا على عكس ذلك تماماً، فقد حاولوا إصلاح أوضاع الدولة وتقويتها والحفاظ على وحدتها حتى اللحظة الأخيرة، حيث وجدوا أنفسهم ممثلين بالشريف حسين بن علي أمام الفناء المؤكد للعنصر العربي وللخلافة الإسلامية، فثاروا، لا على الخلافة، بل على أعدائها، وحافظوا حتى أثناء العمليات العسكرية للثورة على ولائهم للخليفة، وأعلنوا أن ثورتهم عملية تصحيح لمسار الخلافة، وحفاظاً على هبة الإسلام، كل هذا يظهر واضحاً من خلال تتبع مسار اليقظة العربية"⁽³⁾. واستمراراً في التنسيق بين الشريف حسين بن علي أمير مكة وبين العرب في بلاد الشام، بعد الاتصالات التي حدثت بينه وبين السياسيين العرب الذين أعدمهم جمال باشا عامي 1915م، 1916م، وبين من بقي حياً منهم من سائر المشتغلين بالقضية العربية مثل آل البكري وشهبندر

(1) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص 136-137

(1) شهاب، الاتجاه الإسلامي، ص 249

(2) التل، بلال حسن، الأردن محاولة للفهم، نشر: دار اللواء للنشر والتوزيع، طبعة أولى، عمان، 1978م، ص 49 .

وشكري القوتلي وغيرهم⁽³⁾، يأتي موقف النواب العرب في مجلس النواب العثماني المساند للشريف حسين والاعتراف به أميراً على مكة⁽¹⁾، وزعيماً بارزاً بين العرب في التحرك المنوي القيام به ضد الاتحاديين، وذلك من خلال الكتاب الذي وجهه هؤلاء النواب للشريف حسين، والذي يقولون فيه: "نحن النواب العرب في مجلس المبعوثان نُقرُّك على إمارة مكة، ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربية، لأنك الآن خلاصة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وإجماعنا هذا هو بالنيابة عن أهل بلادنا نجهر به عند الحاجة، والله يحفظك لأمتك ويساعدك لدفع الشر عن أمتك"⁽²⁾.

2- موقف العرب في بلاد الشام من الاشتراك في الحرب.

أدرك زعماء الحركة القومية في بلاد الشام خطورة الوضع الذي تمر به بلادهم والدولة العثمانية بعد إعلان هذه الدولة اشتراكها في الحرب، على الرغم من وصول العلاقة بينهم بين الاتحاديين مرحلة من التوتر والإنشداد، تكاد معها تصل لدرجة الانقطاع، ومع ذلك حاولوا الوقوف موقفاً طيباً مع الدولة العثمانية، ونسوا أو أخلوا خلافاتهم معها، ولم يستغلوا موقفها الحرج، ولزموا الوقوف إلى جانبها في بداية الحرب، وكانوا يتمنون ألا تدخل فيها لكنهم كانوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً، بعد أن كان الاتحاديون الأكثرية في مجلس المبعوثين⁽³⁾.

ولما كانت جمعية العربية الفتاة هي المتصدرة للعمل السياسي المنظم في بلاد الشام، وكانت بارزة وذات حضور واضح على الساحة السياسية، لا سيما فيما يخص العلاقات بين العرب والعثمانيين، فقد كان لها موقف صريح وواضح من اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وأول الخطوات التي قامت بها هذه الجمعية، أن أصدرت قراراً واضحاً على إثر إعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب إلى جانب الألمان يتضمن ما يلي: إن غاية العرب هي الاستقلال حفاظاً على كيان الدولة العربية لا عداً للأتراك، أما إذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الأوروبي، فإن الجمعية تعمل مع أمراء العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنباً إلى جنب مع الأتراك⁽¹⁾. وتدل الأمثلة التالية على تأييد زعماء التيار القومي في بلاد الشام للدولة العثمانية، وتناسيهم الجفوة التي زرعتها الاتحاديون بسياستهم الطورانية بين الطرفين، وخاصة أن بعض هؤلاء الزعماء وقعوا فريسةً لمشانق جمال باشا، ولم يقدر موقفهم مع الدولة أيام الشدة أثناء الحرب العالمية، ومن تلك الأمثلة:

(3) العظم، المذكرات، ص 89

(1) المومني، الشريف الحسين بن علي والخلافة، ص 446

(2) مجهول، ثورة العرب، ص 37، فيضي، المذكرات، ص 91

(3) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 271-272

(1) محب الدين الخطيب، سيرة جبل (مخطوط)، في مكتبة د. سهيلة الريماوي الشخصية في منزلها في عمان، وانظر: جمعية العربية الفتاة، ص 250-251، وتقول الريماوي أن أوراق هذا المخطوط غير مرقمة، وهو متوفر عندها ضمن أوراقها الخاصة، مقابلة مع الريماوي في منزلها في عمان بتاريخ 2000/3/27م.

- جاء في رسالة أرسلها عبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبي في استانبول إلى صديق له في مصر في 6/آب 1914م، بعد أيام من اندلاع الحرب العالمية، يقول له فيها: " أنا على وشك السفر إلى سورية، لأن التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمتة أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام، وستكون مهمتي في سورية جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة، والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية .. فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية، وإظهار الوحدة العثمانية باتم مظاهرها، لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا، والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنًا وأعلى مقاماً "(2).

- ورد في رسالة وجهها رشيد رضا، عضو حزب اللامركزية في مصر إلى المسلمين في بلاد الشام يطلب منهم وجوب الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية: " أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة والإخلاص والطاعة للدولة، وبذل الأنفس والأموال والثمرات لها، والكف عن طلب الإصلاح منها، وتقديركم الحال الحاضرة قدرها، حتى إنكم سبقتم في هذا أرقى أمم الأرض التي سكنت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية "(3).

- أوصت جمعية العربية الفتاة بوجوب الوقوف إلى جانب الدولة، يقول قدري في مذكراته: " أما إذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الأوروبي، فالجمعية تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنباً إلى جنب مع الأتراك "(1).

- كما كتب عزيز المصري مؤسس جمعية العهد إلى رجال وزملاء العهد في دمشق بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في بداية الحرب، لكن إعدام جمال باشا لزعماء التيار العربي في بلاد الشام جعل عزيز المصري يفقد ثقته بالأتراك فيما بعد "(2).

- أما محمد المحمصاني (وهو ممن أعدمهم جمال باشا) فقد رفض البقاء في مصر بعد إعلان التعبئة العامة في أنحاء البلاد العثمانية استعداداً للدخول في الحرب "لأنه خيانة" ألا يقوم الإنسان بواجبه في الموقف العصيب "(3).

- وأما أسعد داغر فيؤكد على موقف العرب في بلاد الشام وجميعياتهم وأحزابهم التي لا تتوي الانفصال عن الدولة العثمانية، وأنهم متمسكون بعثمانيتهم، وأنهم كانوا مجتمعين على عدم موافقتهم على دخول الدولة العثمانية في هذه الحرب، يقول داغر: "وأستطيع أن أجزم بأنه لم يكن بين العرب يوم إعلان تلك الحرب من فكر في

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 272

(3) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص 272

سليمان موسى، الحركة العربية، ص 98-99

(1) قدري، مذكراتي، ص 38

(2) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 49

(3) سلطان، تاريخ سورية، (1908-1918م)، ص 273

الانتفاض على الترك أو الإساءة إليهم، بل كان تفكيرهم كله منصّباً على محاولة منعهم من الاشتراك فيها، والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها .. وكان العرب موقنين بانتصار الحلفاء، وقد ساء لهم جداً ما فعله أنور وجمال وأصدقاهما لزج الدولة العثمانية في الحرب، خلافاً لرأي المفكرين من الترك ولآراء جميع العناصر العثمانية وخصوصاً العرب⁽⁴⁾.

لم يكن موقف العرب الشاميين المخلص للدولة العثمانية يعني أن هؤلاء لم يفكروا فيما بعد باستقلال بلادهم، لا سيما بعد أن طرأت بعض المستجدات جعلتهم يغيرون من مواقفهم، ويأتي في مقدمة ذلك أسلوب القسوة وسفك الدماء الذي اتبعه جمال باشا في التعامل معهم، وعدم قادتهم ومفكريهم، ويسجن أبناءهم ويضطهدهم، وينفي ويبعد الكثير من أسرهم إلى الناضول⁽¹⁾، والأمر الآخر الذي أسهم في عدم اندفاع العرب الشاميين وراء الاتحاديين بعد اتخاذهم قرار الاشتراك في الحرب العالمية الأولى، هو تنسيق أبناء الشام مع الشريف الحسين بن علي، واتفاقهم معه لخوض الحرب إلى جانب دول الحلفاء، وخاصة بريطانيا، بعد تقديمها المغريات الكبيرة للشريف ولهم، من أجل إقناعهم بالاشتراك معها في الحرب، لهذا لم يتجاوب أبناء بلاد الشام والبلاد العربية الأخرى مع المنشور الذي أعلنه الاتحاديون باسم الخليفة العثماني إلى المسلمين عامة والعرب بشكل خاص، ووزعوه في كافة البلاد العربية، وذلك في الثالث عشر من تشرين الثاني/13/1914م بصفته خليفة للمسلمين، والذي يدعو إلى الجهاد والنفير العام، خاصاً العالم الإسلامي على النهوض ومحاربة أعداء الإسلام من الإنكليز الذين ظلموا المسلمين قروناً عديدة متوالية، وقد وزع هذا المنشور في جميع المساجد في العالم الإسلامي، وفي الصحف والمجلات، ولما رأى الألمان المشتركون مع الدولة العثمانية في الحرب ضد الإنكليز وحلفائهم أن المنشور يحث على قتال الكفار أعداء الإسلام، يُضِرُّ بهم باعتبارهم مثل الإنكليز أعداء للمسلمين وكفاراً، عمدوا إلى إضافة عبارة: باستثناء حلفائنا إلى المنشور، كي يستثني الألمان حلفاء الدولة العثمانية من الكفار الذين يجب على المسلمين قتالهم⁽²⁾، ويظهر فشل الدعوة إلى الجهاد التي أطلقها الاتحاديون لقتال الإنكليز، من انضمام العرب في بلاد الشام إلى جيش الثورة العربية، وبهذا الانضمام تدخل البلاد العربية والشام من بينها في الحرب إلى جانب الإنكليز، وتنتهي بإخراج العثمانيين من هذه البلاد، ويبدو أن المسلمين في جميع بلدانهم لم يقتنعوا بإعلان الجهاد الذي دعا إليه الاتحاديون، ووجدوا أنفسهم مع الطرف الآخر المشترك في الحرب، وهي بريطانيا التي أظهرت لهم معاملة أفضل بكثير مما يعاملهم غيرها من الدول الأوروبية، ولم ير المسلمون في أنحاء العالم مبرراً يقتنعهم بأن دينهم يوجب عليهم محاربة بعض الكفار

(4) داغر، مذكراتي، ص 71

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 280-282

معلوف، شرفاء مكة العظام، جريدة العاصمة، ع (2) السنة/1 20 جمادى الأول 1337هـ، 20 شباط 1919م، ص 2-3

(2) مورغنتو، المذكرات، ص 62-63

والإبقاء على البعض الآخر، كما جاء في المنشور الذي يحمل الدعوة إلى الجهاد التي أطلقها الاتحاديون باسم الخليفة، ولم يفلح الاتحاديون والألمان في كسب الحرب وحسم نتائجها لصالحهم وإحراز نصر عسكري⁽¹⁾ وتثبت أحداث الثورة العربية أن تحالف العرب في الحجاز والشام مع دول الحلفاء انتهى إلى خسارة الدولة العثمانية لبلاد الشام وخروجها منها، وهو ما يتم بيانه فيما يأتي.

خامساً: مقدمات الثورة العربية الكبرى.

وجدت بريطانيا الفرصة مناسبة للتدخل بعدما أيقنت أن العرب في كل من الشام والحجاز باتوا في حالة نفور شديد من الاتحاديين، ويتطلعون لجهة ما تقدم لهم عوناً للخروج من مأزق العلاقات بينهم وبين أعدائهم من رجال الاتحاد والترقي وكان النصارى في بلاد الشام قد سعوا لدى دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا، ليصلوا إلى مآربهم في استقلال لبنان تحت الحماية الفرنسية، وجاءت النصيحة من أبرز زعمائهم شكري غانم لدول الحلفاء بريطانيا وفرنسا، ينصحهم بالتحريض بين العرب والأتراك، لاجاد العداوة بينهما، وهو ما كتبه في مقالة نشرها في جريدة الماتان الفرنسية بتاريخ 12/ كانون أول 1915م وقال فيها: "إذا كان الحلفاء يريدون أن يحتفظوا بمصالحهم في الشرق، ويحرروا العنصر العربي الكريم من الرق الذي يتهدهده، فليس لهم إلا هذه الطريقة وهي: أن يحرثوا بين العرب والترك، وينصروا أولئك على هؤلاء"⁽²⁾ وبهذا التحريض وصلت بريطانيا وفرنسا إلى أهدافهما في نيل تأييد العرب، والاستفادة من ثقلهم العسكري والبشري، وكذا الاستفادة من موقع بلادهم الاستراتيجي للتأثير على مجريات الحرب، والإسهام في ترجيح كفتها إلى جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية والمانيا، وبدأت بريطانيا ومنذ الأيام الأولى للحرب تمهد الطريق لنفسها من أجل ضمان وقوف العرب في الحجاز والشام إلى جانبها⁽³⁾ ولذلك عملت في اتجاهين اثنين في آن معاً:

1- بريطانيا تفاوض العرب في بلاد الشام.

بدأت بريطانيا تخطب ودَّ العرب قبل أن تعلن الدولة العثمانية موقفها من الحرب العالمية الأولى، ولما كانت مصر قاعدة اتخذها السياسيون الشاميون مقراً لهم، خاصة

(1) مورغنتو، المصدر السابق، ص 64. وانظر: العظم، المذكرات، ج1، ص 65. منسي، حركة البقطة العربية، ص 200.

209

(2) الأعظمي، القضية العربية، ج4، ص 87، وانظر: النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 20

(3) منسي، حركة البقطة العربية، ص 234

أولئك الذين أسسوا حزب اللامركزية فيها، كرفيق العظم ورشيد رضا واسكندر عمون وآخرون⁽¹⁾، فقد أخذت القيادة الانكليزية تتصل بهم منذ الأيام الأولى لانطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى، مخولةً بذلك السكرتير الشرقي في دار الحماية البريطانية في مصر المستر ستورس، الاتصال بأقطاب حزب اللامركزية في القاهرة ويتباحث معهم، فعمل ستورس على دعوتهم إلى مقر القيادة في قصر دوبارة، وسألهم عن رأيهم وموقفهم من دول الحلفاء بريطانيا وفرنسا ومن معهما في حال اشتراك الدولة العثمانية في الحرب، علماً أن الحلفاء يعدون العرب باستقلال البلاد العربية، ويسألهم إن كان العرب يستطيعون النهوض بأعباء الاستقلال، فأجابوه: إن العرب يتمنون أن يتمتعوا باستقلالهم وإعادة غابر مجدهم، إذا كان لا بد من انهيار الدولة العثمانية، وهم على استعداد لتأييد كل حركة ترمي إلى استقلال العرب مهما كان شأنها.

وعبر جولات عدة من المحادثات بين القوميين العرب الشاميين أعضاء حزب اللامركزية وبين الممثل الانكليزي في القاهرة، توصل الطرفان إلى صيغة تقضي بأن يحدد هؤلاء العرب مطالبهم ويكتبوا شروطهم الخاصة باستقلال بلادهم، على أن يعرض اللورد كتشنر هذه المطالب على حكومته عن طريق وزارة الخارجية البريطانية، وفي حال الموافقة على هذه المطالب تعلن رسمياً بواسطة شركة رويتر كي يعرفها العالم، وتتعهد بريطانيا بالعمل على أخذ موافقة حلفائها باحترام ما تم الاتفاق عليه بينها وبين الزعماء القوميين الشاميين من حقوق والتزامات للأمة العربية، بحيث لا يطمع حلفاء بريطانيا في الأقطار العربية التي تتعهد بريطانيا بإنالتها استقلالها بعد انتهاء الحرب.

وفي المقابل تتعهد الهيئات والأحزاب السياسية التي تمثل العرب في بلاد الشام بالسعي لايقاد الثورات في البلاد العربية لشل حركة الجيش العثماني، وقد كتب هذا البيان وأرسل إلى لندن لمناقشته من قبل المسؤولين البريطانيين هناك⁽²⁾.

وتدل صيغة هذا الاتفاق بشكل واضح وجلي على أن بريطانيا ترمي إلى إثارة الفتنة، وتحرض العرب الشاميين على الثورة ضد الدولة العثمانية، وتدعوهم للثورة والخروج عليها، على أن يكون زعماءهم الوسيلة لذلك، وتكون أحزابهم وهيئاتهم السياسية هي المنظمة للتحرك المدعو إليه ضد الدولة العثمانية، ويبدو أن البريطانيين تجاوبوا مع ما أشار به عليهم شكري غانم كما ذكر قبل قليل، فاشتروا على القوميين من رجال حزب اللامركزية أن يثيروا بني وطنهم على دولتهم العثمانية كي يكون ذلك مدخلاً لانفصالهم عنها، وبمسلكهم هذا ترضى عنهم بريطانيا ويحظون بدعما ومساندتها للوصول للاستقلال المنشود.

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص54

-أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص128، سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص375

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص128-129، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص54

- أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى، ق3، ص79

كانت نتيجة إرسال البيان الذي اتفق عليه اللامركزيون مع ممثل بريطانية إلى حكومته في لندن، أن رَدَّت هذه الحكومة رداً " مشوهاً ومبتوراً، فلم يرض ذلك اللامركزيون، ففقطعوا المفاوضات وأمسكوا عن العمل"⁽²⁾، وتحوَّل القوميون الشاميون بعد ذلك نحو الشريف حسين، حيث وجدوا فيه الجهة المؤهلة للقيام بتحريك سياسي وعسكري، له اعتباره وثقله السياسي في المنطقة العربية، يجعله يحظى بالدعم البريطاني من جهة، ومن جهة ثانية يتمتع الشريف بمكانة رفيعة لدى عرب الشام، تجعلهم يضعون ثقتهم به ويدعمونه شعبياً بما يجعله يقود الحركة السياسية والعسكرية القادمة للعمل مع الحلفاء ضد الأتراك العثمانيين، وهذا ما حدث على أرض الواقع كما سيأتي بيانه بعد قليل عند الحديث عن إعلان الثورة.

وفي المقابل أدركت بريطانيا أن رجال الحركة العربية في بلاد الشام ليس بوسعهم إدارة التحرك المقبل ضد العثمانيين منفردين، الأمر الذي حداها للتركيز على الشريف الحسين بن علي، وإجراء المفاوضات معه للقيام بهذه المهمة، لا سيما وأنها تعلم تلبد العلاقات بينه وبين قادة الاتحاديين ووصولها لدرجة القطيعة، فكان تأزم الموقف بين الشريف والاتحاديين، هو الفرصة الذهبية التي أراد الانكليز اقتناصها قبل فواتها⁽¹⁾، ولهذا فتحوا باب المفاوضات معه للوصول إلى تفاهم، يقود التحرك ضد العثمانيين من خلاله، وقد تمت هذه المفاوضات بسرية تامة وعرفت فيما بعد: بمفاوضات حسين مكماهون⁽²⁾.

2- مفاوضات بريطانيا مع الشريف حسين. (مراسلات حسين مكماهون)

اتجهت السياسة البريطانية نحو الشريف حسين، لأن ذلك مكنها من كسب الزعامات العربية⁽³⁾، وحتى زعامات الحركة القومية، ويرى أمين سعيد أنهم كوا يعملون ضمن مخطط مدروس أعدوه ووضعوه يقوم على أسس مهمة هي:

1. استمالة العرب عن طريق البيت الهاشمي، وجرهم إلى الحرب بجانبهم.

2. عدم الاندفاع في بذل وعود محددة لهم.

3. عدم الدخول في أية مفاوضات مع هيئات عربية أخرى.

4. بذل المساعدات المادية للحسين لجعله قادراً على العمل، مما يمكن أن يسمى بالمخطط الانكليزي للعمل في الميدان العربي الذي أخذوا يهيئون أسباب افتتاحه⁽⁴⁾.

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 129. وانظر: صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 54 سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 377

(1) الملك فيصل، فيصل بن الحسين بن علي (ت1352هـ/ 1933م) المذكرات عن القضية السورية، تعريب: سامي الشمعة، نشر: مطبعة دار البقعة العربية، دمشق، دت، ص 14 .

(2) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 119

(3) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 381، منسي، حركة البقعة العربية، ص 245

(4) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ص 39-40

وقد عزا سلطان تركيز الانكليز على الشريف حسين إلى أسباب عدة، وأن العرب بقيادة الشريف قبلوا هذه السياسة البريطانية على الرغم من إساءاتها الكبيرة لهم فيما بعد، لا سيما فيما يتعلق بانتداباتها على فلسطين وشرق الأردن ومصر والعراق، وإعطائها وعوداً للصهيونية تتعلق بمنحها فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود فيها (وعد بلفور)⁽¹⁾، وأهم تلك الأسباب:

- 1- لم تفاوض بريطانيا قادة إقليميين، أو قطريين، أو طائفيين، أو أقليات، لأنها كانت تعلم أن حركة القومية العربية كانت - في سرها وعلنها - في ذروتها، وتبني آمالها على قيام دولة عربية واحدة مستقلة، وإن معاداة هذه الحركة ليس من الحكمة.
- 2- تعاملت بشخص الحسين مع الأكثرية العربية المسلمة السنية، ولهذا وضعت جانباً الاعتماد على الشيعة أو النصاري أو الطوائف الأخرى.
- 1- كانت تعلم أن الحركة القومية العربية كانت على صلة بالشريف حسين، وتعلم أن هذه الحركة تقبل بزعامة الحسين، ولذا فإن الاتصال بالحسين يرضى الحركة القومية، لأنه بدوره يعتبر اتصالاً معها.
- 1- يحقق الحسين والعرب لدى تحالفهم مع بريطانيا دعماً كبيراً لها في حربها ضد ألمانيا وتركيا التي يقودها الاتحاديون عدوة العرب، وهذا الدعم استراتيجي ومادي ومعنوي، فالحسين ذو سلطة ويتكلم باسم العرب.
- 2- يفشل دعوة الجهاد الديني من قبل الأتراك، وما مثل الشريف حسين سليل بيت النبوة يحقق ذلك، فلا الشيعة ولا النصاري.
- 2- إرضاء العرب المسلمين بإعادة الخلافة الإسلامية لهم، وهذا لا يكون بإعادة الخلافة إلا لمسلم سني.

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 381، وانظر: النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 26-27

- 3- قد يهدىء من ثائرة المسلمين الهنود والمصريين المتعاطفين مع الدولة العثمانية، خاصة وأن عدداً كبيراً من هؤلاء المسلمين كانوا يخدمون في جيشها.
- 4- لم تعتمد بريطانيا في سياستها النظرية أو الكلامية على ما يغضب العرب، فلم تكن تتكر على السوريين عربيتهم أو قوميتهم العربية، ولم تكن تعتبر سورية خارجة عن المنطقة العربية.
- 5- لم تدع أن لها حقوقاً خاصة مفضلة لدى بعض الأقليات، أو أنها تحمي فئة على حساب أكثرية الشعب، ولم تدع أيضاً حقوقاً تاريخية في سورية منذ الحروب الصليبية، مع أنها اشتركت في هذه الحروب، مثلما اشتركت فرنسا، مع العلم أنها كانت تستطيع الادعاء، فلها فئات مسيحية تتعاطف معها، ولها طوائف دينية مسلمة أيضاً تتعاطف معها، وكان اليهود متعاطفين معها بشكل أخص.
- 6- ادعت أنها تريد مساعدة العرب لتحريرهم من الأتراك، وتأسيس دولة مستقلة عربية واحدة، ولم تظهر نواياها في استعمار البلاد العربية.
- 7- كانت تعلن احترامها للأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، وتعلن أنها لن تتدخل مطلقاً في هذه المنطقة، ويهمها أن تبقى هذه البلاد قادرة على استقبال رعاياها من المسلمين في الهند وغيرها لمواسم الحج⁽¹⁾.
- كل هذه الأسباب التي ارتأت بريطانيا أهميتها كي تقنع العرب بيسيرهم معها في تنفيذ مخططاتها⁽²⁾، وقد تطلبت سياستها دهاءً كبيراً وتلوناً وتفسيراتٍ وتبريراتٍ ونقضاً للعهود وتناقضاً مع الذات، حتى تصل إلى هدفها الحقيقي في الاستيلاء على البلاد العربية أو بعضها، ونيل حصتها من بقايا الدولة العثمانية التي حان عقابها لدخول الحرب إلى جانب المانيا، وسيكون القضاء التام عليها كدولة، وهو ما قاله رئيس الوزراء البريطاني آنذاك لويد جورج عام 1914م⁽³⁾. وكانت بريطانيا في بدايات اتصالاتها بالشريف حسين قد مهدت لذلك بإجراء اتصالات استطلاعية عن طريق

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 381-382

(2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 40

(3) زين، زين نور الدين، الصراع الدولي في الشوق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، نشر: دار النهار طبعة ثانية، بيروت، 1977م، ص 59.

علي الميرغني (من قادة الحركة السياسية في السودان)، الذي كان يميل بعواطفه كل الميل تجاه بريطانيا، وفي الوقت ذاته كان الميرغني يؤيد الشريف حسين، ويدعوا الحكومة البريطانية إلى معونته، فكتب الميرغني إلى الشريف حسين يشجعه على إعلان انحيازه إلى جانب بريطانيا، ويطمئنه بأنه يمكن استخدام نفوذه لدى رجينالد (Reginald Wingate) ونجت المفوض الانكليزي كحاكم عام للسودان، حيث تربطه به علاقات وثيقة جداً يمكن أن يستثمرها من أجل مساعدة الشريف⁽¹⁾. فكانت هذه المقدمة التمهيدية للمراسلات التي اعتبرت بمثابة اتصالات استطلاعية سبقت الاتصالات الرسمية بين الحكومة البريطانية والشريف حسين بن علي⁽²⁾.

3- المراسلات وأهميتها.

يقصد بالمراسلات ما تم تبادله من رسائل سياسية بين كل من ممثل بريطانيا في القاهرة السير هنري مكماهون (Mac Mahon) وبين الشريف الحسين بن علي أمير الحجاز ومكة المكرمة، وما يهم من موضوع المراسلات هو معرفة جوانب رئيسة فيها يتم التطرق إليها ودراستها، دون التركيز على إيراد النصوص التي وردت في تلك المراسلات، على الرغم من أهميتها، ومع أن الاتصالات التي مهدت للثورة العربية في الحجاز قد بدأت قبيل إعلان الثورة بعام تقريباً، لكن هناك اتصالات بين الشريف والانكليز قبل ذلك العهد بفترة طويلة، فقد ربطت الحسين علاقات وطيدة مع القنصلية البريطانية، وكانت ميوله متجهة صوب بريطانيا، إلا أنه حاول إخفاء هذه الاتصالات والميول خوفاً من السلطان العثماني، وكان يرى أن بريطانيا هي الدولة الرحيمة والعادلة في حكم الهند، ثم تعهد الشريف لبريطانيا بأن يبذل كل ما في وسعه لتحقيق أهدافها، كما أنه تعهد بأنه لا يتحالف مع غيرها، والجدير بالذكر أنه بالرغم من ميوله إلى البريطانيين، فإن الشريف حسين لم يكن في نفس الوقت يطمئن إلى النوايا البريطانية، بدليل أنه حينما جاءت إحدى السفن الحربية البريطانية لزيارة ميناء جدة، أثارت قلقه وأرسل إلى القنصلية يستفسر عن أسباب هذه الزيارة⁽³⁾.

وإذا كانت هذه هي بداية العلاقات بين الشريف حسين والانكليز، فإن بريطانيا مع مطلع الحرب العالمية الأولى وجدت في الشريف حسين للأسباب التي ذكرت في الصفحتين السابقتين الشخص المناسب كي يكون في الواجهة يقود العرب ضد العثمانيين لثقة العرب به من ناحية، ولمكانته الدينية والسياسية التي من خلالها يستطيع مواجهة الاتحاديين، ويكون البديل المناسب عن العثمانيين في -البلاد العربية من ناحية

(1) منسي، حركة اليقظة العربية، ص 243، وانظر: زين، الصراع الدولي، ص 65

(2) منسي، المرجع السابق، ص 234

(3) الجاسم، العثمانيون والحجاز، ص 454-455

ثانية⁽¹⁾، ولم يكن اختيار الانكليز له ليقود العرب نحو الثورة ضد العثمانيين إلا بعد دراسة عميقة لشخصيته عن طريق الاستخبارات البريطانية بحيث يكون قائد الثورة ورمزها، ثم تدار عملياتها من قبل تلك الاستخبارات ورجالها الحذقين، كي يتمكنوا من التحكم بمسير الثورة وتوجيه أحداثها الوجهة التي خططوا ابتداءً لتسير وفقها⁽²⁾، للوصول إلى أهدافها في احتوائها وإفراغها عن مضمونها وغايتها التي قام العرب من أجلها، وقد كان لهم ذلك، إذ أن الثورة العربية لم تخرج في مسارها من البداية حتى النهاية عن الطريق التي أجهد الانكليز أنفسهم في سبيل وضعها فيه، على الرغم من المحاولات الجادة للشريف حسين والقوميين العرب الشاميين التي بذلوا في سبيل تحقيق الأهداف الوطنية والقومية التي رسموها لثورتهم، لكن دون جدوى كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً، وقد كان الشريف حسين على قدر كبير من الذكاء والدهاء، " لكنه كان مسلماً قبل كل شيء، والانكليز لا يريدون هذه الوطنية الإسلامية، ولكنهم ينشدون وطنية قومية"⁽³⁾ لذلك حرصت بريطانيا على أن يدير الاتصالات بينها وبين الشريف ابنه الأمير عبد الله، وكان الشريف يعتمد في الشؤون الخارجية والعلاقات مع الدول على هذا الأمير⁽²⁾ في حين كان الاعتماد في إدارة عمليات الثورة العربية والاتصال مع رجال الحركة العربية على نجله الثاني الأمير فيصل⁽³⁾، وهكذا ابتدأت الاتصالات بين السير هنري مكماهون والشريف حسين، والتوجهات لدى الطرفين المتفاوضين تظهر كلاً منهما يسعى لتحقيق الأهداف التي أراد الوصول إليها، وقد سبقت هذه المراسلات بمرحلة مهدت لها، كان أولها لقاء المستر ستورس السكرتير الشرقي لدار المندوب السامي الثاني في القاهرة مع الأمير عبد الله بن الحسين في طريق سفره من استانبول باتجاه مكة، وذلك في أول شهر آب 1914م في قصر عابدين حين نزل ضيفاً

(1) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص53

(2) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 106

ويجدر بالذكر في سياق الحديث عن بدء المراسلات بين الحسين بن علي وبريطانيا، أن الشريف تعرض لحملة من قبل بعض الكتاب والمؤرخين المعاصرين في إطار تقييمهم لإجتهاده فيما رأى فيه مصلحة لأمة العرب في عقد اتفاق مع بريطانيا لتحقيق الأهداف العربية، ومقاومة حزب الاتحاد والترقي المعادي للعرب، والمسيطر على الدولة العثمانية في هذه المرحلة حيث وصل الأمر إلى درجة اتهام الشريف في وطنيته وصدق مسعاه لخدمة أمته، ويعبر عن هذا الموقف أحد الكتاب القوميين حين قال: " وقد انتهز الشريف حسين والي الحجاز حاجة الحلفاء إلى أعوان يخدمون مصالحهم ويخدعون العرب ويسخرونهم في الحرب تحت الراية البريطانية، فعرض نفسه وأولاده على الوكلاء الاستعماريين، فاعتمدته بريطانيا عميلاً لها وخداماً لمصالحها، ثم قدمته إلى العرب على أنه من سلالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، واستغلت رغبة الجماهير العربية الملحة في التحرر من ربة الاستعمار التركي، ووحدت أمة العرب، في فرض الشريف حسين قائداً للعرب، وزعيماً سياسياً وحرياً لهم، وأحاطته وابنه فيصل بالأساطير، وظهرت بريطانيا على حقيقتها الخادعة التي ظهرت بها من قبل في مصر ... واحتلت بريطانيا فلسطين والأردن والعراق، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان". والحقيقة أن هذه نظرة للأمر من زاوية واحدة، دون النظر إلى القضية من خلال ظروفها المحيطة بها بصورة متكاملة، ولو كان الأمر كذلك، لتغيرت دراسته لها وأخذت شكلاً أكثر توازناً وموضوعية، لا سيما إذا علم هذا الكاتب وأمثاله النهاية التي انتهى إليها الشريف حسين، حين قدم نفسه فداءً للعرب وضحي بعرضه وب نفسه وبملكه في سبيل قضية أمته وعزها، ولم يقبل أن يكون وسيلة لتنفيذ النخطط المرسوم لاحقاً، فكانت نهايته النهاية المعروفة. انظر: سعيد، القومية العربية، ص 81

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 107

(2) الشرقي، الثورة العربية الكبرى، ص 19

(3) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 107

على الخديوي عباس حلمي باشا، وسلمة عند ذاك رسالة شكر من الحكومة البريطانية لوالده على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة⁽⁴⁾، وتناقلت الاتصالات بعد ذلك، وكان ثاني اتصال عن طريق تاجر مصري يسمى علي أفندي، في أواخر شهر سبتمبر أيلول 1914م، حين حمل رسالة من المستر ستورس إلى الشريف حسين في مكة يبلغه فيها أن بريطانيا جاهزة للدفاع عن حقوق العرب، ولمساعدتهم للوصول إلى استقلالهم، وقد قوبلت هذه الرسالة بالامبالاة من قبل الشريف حسين ونجليه فيصل وعبد الله، وتدل هذه اللامبالاة على "قلة النضج السياسي"⁽⁵⁾ ومع ذلك لم يياس الانكليز من الاستمرار في الاتصالات مع الشريف بالرغم من اللامبالاة وعدم الاهتمام، فأرسل ستورس رسالة في 25/ نوفمبر تشرين الثاني 1914م رسالة إلى الشريف حسين، وذلك بعد دخول الدولة العثمانية في الحرب بعشرين يوماً، تضمنت عرضاً صريحاً أكثر وضوحاً من ذي قبل من أجل الاتفاق معه، ونصت على: "حيث أن تركيا دخلت الحرب بجانب الأعداء، فنحن على أتم الاستعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته، وتقديم كل ما يريده من مساعدة"⁽¹⁾ وهنا أخذ الشريف حسين يفكر جدياً في هذا العرض، فما كان منه إلا أن أجاب ابنه الأمير عبد الله رداً على ما قرأ عليه من كتاب ستورس: ليس في استطاعتي أن أعمل شيئاً قبل أن استشير العرب وأسألهم رأيهم" ويعلق أمين سعيد على هذا الجواب بقوله: وإذا دل هذا التردد، وهذا الإبطاء في اتخاذ موقف صريح معين على شيء، فإنه يدل على عدم وجود مخطط لدى الحسين وأبنائه حتى ذلك الوقت، أي حتى دخول الحرب سنتها الثانية⁽²⁾.

عمل الحسين على استشارة القوميين العرب من أبناء بلاد الشام، فأرسل ابنه فيصلاً إلى دمشق، الذي نزل في قصر آل البكري في القابون إحدى ضواحي دمشق من جهة الشمال، واتصل برجال الجمعيات العربية كالفتاة والعهد، وكان يزوره معظمهم إلى مقر إقامته في الهزيع الأخير من الليل، وكانت جمعية العربية الفتاة هي المنظمة لهذه اللقاءات، باعتبارها أكبر الأحزاب العربية التي تضم السياسيين العرب الذين يقودون العمل السياسي السري ضد الاتحاديين، وقد حظي في تلك اللقاءات بتأييد كبار الشخصيات السياسية والعشائرية في الشام، أمثال رضا علي الركابي والشيخ نواف الشعلان ونسيب الأطرش وشخصيات كثيرة غير هؤلاء من وجهاء الشام وسياسيها، وغادر الشام عائداً إلى مكة بعد نيل موافقتهم وتأييدهم على العمل للمستقبل ضد الاتحاديين الذين زجوا الدولة العثمانية في الحرب العالمية، دون الالتفات لرأي العرب ومعارضتهم لذلك، ويرجح أمين سعيد أن مغادرة فيصل لدمشق عائداً إلى مكة كانت في أواخر شهر ديسمبر/ كانون الأول/ 1915م، أي بعد إعدام القافلة الأولى من

(4) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 35-36، داغر، مذكراتي، ص 81

(5) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 41

(1) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 41

- الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 56-58

(2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 42

السياسيين العرب من أبناء بلاد الشام⁽¹⁾، وبوصول فيصل إلى مكة توجه بعدها إلى الطائف فاجتمع فيها إلى والده وأخوته، وعقدوا مؤتمرهم الذي عرف تاريخياً بمؤتمر الطائف، وأدلى فيصل إليهم بما حمله معه من دمشق، واتخذوا سلسلة قرارات من أهمها:

- 1- إعلان الثورة على الترك بالاتفاق مع الانكليز على شروط يتفق عليها.
- 2- يعود فيصل إلى دمشق لإكمال مباحثاته مع الزعماء، وللاتفاق على التفاصيل.
- 3- يتولى عبد الله تنظيم القبائل في منطقة مكة والطائف.
- 4- يتولى علي تنظيم القبائل حول المدينة.
- 5- يبدأ الحسين مباحثاته مع الانكليز في مصر، تمهيداً للوصول إلى الاتفاق النهائي⁽²⁾.

- وتنفيذاً لما اتفق عليه الشريف الحسين مع أولاده، تسارعت خطوات إعلان الثورة، وقد بدء بأكثر تلك الخطوات حساسيةً وأهمية، وهي إنجاز اتفاق مع الانكليز، يضمن من خلاله التأييد والدعم البريطاني للقيام بالثورة على الاتحاديين، ومن أجل ذلك تحرك الحسين بإرسال أول رسالة ضمن سلسلة المراسلات بتاريخ الثامن والعشرين من رمضان/ 28/ 1333 هـ/ الموافق الرابع عشر من يونيو/ 14 حزيران/ 1915م، وهذه الرسالة كانت بمثابة افتتاح للمراسلات مع السير مكماهون، وكان تعداد الرسائل المتبادلة بين هنري مكماهون ممثل حكومة بريطانيا وبين الشريف حسين بن علي عشر رسائل، (10) تبادلها الطرفان بالتناوب، واستمرت حتى العاشر من مارس آذار/ 10/ آذار سنة 1916م، أي مدة/ 10/ شهور إلا أربعة أيام، وتمخضت هذه المراسلات عن اتفاق الطرفين على إعلان الثورة ضد الاتحاديين الأتراك على أن تبدأ بالحجاز ثم تمتد لتشمل بلاد الشام⁽³⁾.

أ- مذكرة الاتفاق بين الحسين ومكماهون.

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 56-57

(2) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 57، داغر، مذكراتي، ص 86

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 59

(3) انظر تفاصيل المراسلات بين الشريف حسين وبريطانيا: الحصري، ساطع، يوم ميسلون (صفحة من تاريخ العرب الحديث)، نشر: دار الاتحاد، بيروت، 1964م، ص 52-75، وكذا: الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص

كانت المذكرة التي قدمها الشريف حسين مع رسالته الأولى إلى مكماهون، هي الأساس الذي اشترط أن تكون الموافقة عليها السبيل الوحيد لانجاز اتفائه مع بريطانيا، لتتم موافقته بعد ذلك على إعلان الثورة العربية ضد الاتحاديين، وتنص هذه المذكرة على المطالب العربية، التي يرى فيها الحسين أنها مطالب العرب في المنطقة المشار إليها لتشملها الدولة العربية التي يطالب بالمصادقة من قبل بريطانيا على حدودها، وتحتوي هذه المذكرة على ما يلي:

لما كان العرب بأجمعهم - دون استثناء - قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم، ولما كان هؤلاء قد شعروا وأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعد وتعاونهم للوصول إلى أمانهم المشروعة، وهي الأمان المؤسسة على بقاء شرفهم وكرمهم وحياتهم، لما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا، وأنه بالنظر إلى هذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسال الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

1- أن تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - أدنة (أضنه)، حتى الخليج الفارسي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً، يستثنى من ذلك عدن تبقى كما هي - ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً.

- على أن توافق بريطانيا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

2- تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط المشاريع متساوية.

3- تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين، وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية، وتأميناً لأفضلية انكلترا الاقتصادية فيها، على أن يكون هذا التعاون في كل شيء، في القوة العسكرية والبحرية والجوية.

4- إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد، على أن هذا الفريق المتعدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه، ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معاً، وأن يتفقا على شروط.

5- مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابع من هذه المعاهدة خمسة عشر سنة، وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها، عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام⁽¹⁾. وقد ختمت هذه المذكرة من قبل الشريف حسين بالنص الآتي: "هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق (والحمد لله) على بلوغ الغاية، وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح، وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً، فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء، وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا - إذا لم يصل الجواب - أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قد مناها بواسطة علي افندي"⁽²⁾.

ومع تجنب السرد الكلي للمراسلات بأكملها، لكن يحسن إيراد أول رد من مكماهون على الشريف حسين للتعرف من خلال ذلك على الأرضية التي هيأتها بريطانيا للالتفاف من خلالها على مطالب الشريف حسين، والتتصل من الوعود التي قدمتها له، ولما كانت هذه المطالب والردود عليها تمس مساساً مباشراً ببلاد الشام، وتعني سكان هذه البلاد بالدرجة الأولى، فمن الجدير بالاهتمام تحليلها، والكشف عن الثغرات التي فيها، ونقاط الخلل التي تعترئها، ومن ثم المقاتل التي وقعت فيها الأمة من خلال هذه الاتفاقية دون قصد الإساءة من الشريف، بل يمكن القول إن الشمولية والصراحة والجرأة والتمسك بهذه المطالب قد أخاف بريطانيا، وجعلها تلتف عليها وتراوغ للحيلة دون تنفيذها، لما لهذا التنفيذ من خطر على مطامحها وسياستها وأهدافها، وتجنبت بخبث ودهاء الوقوع فيها.

ب- رد مكماهون على المذكرة.

يسرد مكماهون ديباجةً ومقدمة غايةً في النفاق والكذب والخداع لما تتطوي عليه من عظيم الألقاب والصفات والمديح للشريف حسين، بحيث يمكن القول أنها

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 131

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 61-62

- الحكيم، حسن (رئيس وزراء سوريا بعد الاستقلال) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتداب الفرنسي 1915-1946، نشر: دار صادر، بيروت، 1974م، ص 7-23.

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 132

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 62

تؤدي إلى أن يتأثر الشخص الذي يخاطب بهذه الألقاب وبهذه الثناء والمدح، ويكاد يصدق الطرف الآخر بأنه جاد في خطابه وتوجهه، ويعيش في هالة الفخامة وتعظيم الذات لما يجده في هذه الألقاب، التي يدرك المرء وهو يقرأها أنها فقط للخداع ولا تعبر عن صدق وإخلاص، وهاهو نص رده، وما يتضمن من دهاء ومدح للشریف يشعره ببالغ الحفاوة والتودد: " إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية والدوحة النبوية القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشریف ابن الشریف، السيد الجليل المبجل دولة الشریف حسين باشا سيد الجميع، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائفين، عمت بركته الناس أجمعين، بعد وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترا، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة، وهي أن مصالح العرب مصالح انكليزا، ومصالح انكلترا هي مصالح العرب، وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتنشر في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي أفندي، وهي الرسالة التي أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عندما تعلن الخلافة، ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة. أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل - والوقت قصير والحرب قائمة - سابقاً لأوانه وخصوصاً أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك أنني علمتُ بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك، وأعني الهدامين الجدد والظالمين القدماء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالماً كيف وأين ترغبون تسلمها، ونحن نهى الأسباب اللازمة ليمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان والسلام⁽¹⁾. يدرك المتمعن في هذه المراسلات أنها ناقشت قضايا جوهرية وحاسمة بالنسبة للبلاد العربية التي ورد ذكرها فيها، وأراد الشریف الحسين بن علي الحصول على استقلالها وبناء دولة عربية فيها، علاوة على ما لمواقف الشریف حسين في هذه المفاوضات وهذه المطالب من دلالات، ويمكن من تحليل تلك المراسلات بين الحسين ومكماهون، ومن دراسة مواقف الطرفين الوصول إلى الاستنتاجات الآتية:

ج- استنتاجات من المراسلات.

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 132-133
 صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 62-63
 - عسيران، كيف تنازل الحسين، مجلة عرفان، م11، ج8، شوال 1344هـ/ نيسان 1926م، ص 815-816

1- أن الشريف الحسين لم تكن تنقصه القوة ولا الإرادة في سعيه للوصول إلى المطالب التي طلبها من بريطانيا، لأن لديه الخبرة والتجربة السياسية والحصافة من خلال إقامته أكثر من خمس عشرة سنة في العاصمة استانبول، وكان عضواً في مجلس شورى الدولة العثمانية، ثم تحمله لمسؤولية قيادة الحجاز ورعاية الحرمين الشريفين، كل ذلك يجعله من القادة الحذقين، إضافة لصلابته في الحق وتمسكه بالاسلام وبالإخلاق العربية الأصلية التي جبل عليها في بيئته الحجازية، ويجعله يثق بالانكليز، ويظن أن لديهم عهداً ومواثيق قطعوها له وتعهدوا بها من خلال المفاوضات التي تضمنتها المراسلات بينه وبين مكماهون، ولم يتوقع من خلال طبيعته التي ما عرفت إلا الوفاء، أن تغدر به دولة هي في مقدمة دول العالم في عصره مدنية وحضارة وقوة، فكان ما كان من وقوعه في شرك الغدر الاستعماري، وكان ضحية بريطانيا، التي تأمرت عليه مع حليفاتها فرنسا، واقتسمتا البلاد العربية في اتفاقية سايكس بيكو في الوقت الذي يتفق معه فيه مكماهون على إعطاء هذه البلاد استقلالها⁽¹⁾.

2- تكشف المراسلات أن بريطانيا على لسان ممثلها السير مكماهون كانت تكثر من المديح والإطراء والألقاب للشريف، كما أنها تغريه وتشعره بالاستجابة لمطالبه في القضايا المادية والامدادات التموينية والعسكرية والمالية، وهو ما بدا واضحاً في مقدمة جواب مكماهون على مذكرة الشريف حسين، حين أكثر من استعمال ألفاظ التخييم والإشادة بنسب الشريف ومكانته الدينية والاجتماعية بشكل كبير وملفت للأنظار⁽²⁾!! وختم جوابه بالتأكيد على استعداد بريطانيا للوفاء للشريف بالمنح المطلوبة للأراضي المقدسة وسرعة تسليمها، وهم يركزون على هذه المنح كونهم يعرفون أهميتها الكبيرة وضرورتها القصوى للشريف، نظراً لاحتياج الحجاز آنذاك للمؤن والمعونات.

بعد أن انقطعت من طرف العثمانيين جراء الجفوة بين الطرفين، وبسبب ظروف الحرب العالمية، وحصار بريطانيا لموانئ الحجاز وطرق إمداده، كي يتركوا الشريف في حالة احتياج لهم، ويسرع في الاستجابة للتحالف معهم وطلب المعونة منهم. ومع تركيز الانكليز على الجوانب المادية والمعونات، وسرعة استجاباتهم لها وصراحتهم ووضوحهم في مناقشتها مع الشريف، تجددهم على العكس من ذلك تماماً، يتركون الجوانب الجوهرية والرئيسية، والتي لها مقام الأولوية عند الشريف وعند العرب من ورائه، يتركون ذلك غامضاً، ويلتفون عليه ويحاولون تأجيله، خاصة

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 89

(2) انظر: فريحات، الثورة العربية الكبرى، ص 155

القضية الأساس التي وردت في مذكرة الشريف إلى مكماهون حول حدود الدولة العربية المطالب بها، حيث جاء جواب مكماهون: أوضح لكم بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية، أما ما يتعلق بالحدود، فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل – والوقت قصير والحرب قائمة – سابقاً لأوانه⁽³⁾، فهنا يتهرب مكماهون من إعطاء أي تعهد حول الاعتراف بحدود الدولة العربية المقترحة، في حين يصرح للشريف ويجيبه حول موضوع الخلافة، بموافقة بريطانيا على خليفة عربي عندما تعلن الخلافة، وأن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة، وهو يقصد بهذا تحريك نزعة الرئاسة وحب المنصب عند الشريف، بعد أن اتهمه الانكليز بأنه مهووس بحب الرئاسة، كما جاء على لسان جاسوسهم لورنس بعد مخالطته للشريف حسين وأبنائه أثناء الثورة، حين قال متهمكاً بالشريف: "وحب الحُكم مُسلَّط على عواطف الشيخ"⁽¹⁾، والشريف كان على عكس ذلك تماماً، لأنه لو كان كذلك لما ضحى بعرشه وقبل أن يعيش منفياً شريداً طريداً أواخر حياته في قبرص، من أجل ألا يفرط بحق العرب في بلادهم، وألا يخونهم ويبيع أوطانهم، كما أن بريطانيا لم توافق على هذه النقطة بإعطاء الخلافة للشريف إلا لزرع الشقاق والخلاف بينه وبين العثمانيين، لكي تشجعه على الخروج عليهم وإعلان نفسه خليفة على العرب، وكأنها تقول له: أنت أحق بالخلافة من الخليفة العثماني، على الرغم من أن الخليفة العثماني آنذاك قد فقد كل مقومات منصبه، وصار هذا المنصب اسمياً، نظراً لسيطرة الاتحاديين على مقاليد الخلافة وتحكمهم بالدولة العثمانية، ثم إن تصريح مكماهون يحمل في ثناياه الغموض والتعمية، حين أقر بفكرة الخلافة العربية في جوابه على مذكرة الحسين، لكنه ربطها بعامل الزمن حين قال: موافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً، عندما تعلن الخلافة، وكأن عبارته: عندما تعلن الخلافة، توحى بأن بريطانيا تخطط للمستقبل بأن لا تترك فرصة للشريف حسين كي

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 132-133
(1) لورنس، توماس أدوارد (ت1354هـ/ 1935م)، الثورة في الصحراء، ترجمة: رشيد كرم، نشر: شركة فن الطباعة، مصر، 1949م، ص 387.

يعلن الخلافة، كما حصل فعلاً وأخرجته من مكة أولاً إلى العقبة ثم نفته إلى قبرص⁽²⁾، فأحست بخطرته ونفته كي لا يلتف الناس حوله كخليفة⁽³⁾.

3- دلت مذكرة الشريف حسين إلى مكماهون أنه ينظر إلى بريطانيا ويخاطبها من موقع الطرف الذي يسعى أن يكون بنفس المكانة التي يتمتع بها الطرف الآخر، ويظهر ذلك جلياً من عبارات الشريف التي وردت في المذكرة، والأهم من هذا أنه في هذه المذكرة يخاطب مكماهون ويتكلم باسم العرب وهذا أخطر ما في المراسلات إذ أن بريطانيا لا تقبل ولا بأي شكل من الأشكال، وبعد أن عملت ولفترة طويلة حتى وصلت للمرحلة التي تضرب ضربتها الأخيرة في الإجهاز على الدولة العثمانية عدوها الأول كقوة كبيرة عملاقة صارعتها قروناً باسم الإسلام، وجمعت وراءها العالم الإسلامي بما فيه البلاد العربية، لا تقبل لرجل تعتقد جازمةً صدقه وإخلاصه فيما يحمله في جوانحه من صدق المشاعر والإخلاص للعرب والإسلام، أن يقيم دولةً عربيةً، يجد المتأمل لها لأول وهلة أنها تضم بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، بمعنى أنها تتحكم في طرق التجارة العالمية، عن طريق الخليج العربي والبحر الأحمر والبحر المتوسط، وتضم نخبة بني العرب ممن لديهم القوة والشكينة والوطنية الصادقة والتمسك الملتزم بالإسلام، من أبناء هذه البلاد، كما أنها تشكل قوةً بشريةً هائلةً جداً، حيث تضم هذه البلاد آنذاك أكثر من عشرة ملايين عربي غالبتهم مسلمون، هذا عدا كون هذه المنطقة التي ينوي الشريف حسين إقامة دولةٍ عربيةٍ فيها تشكل مساحةً جغرافية واسعةً أكثر من ثلاثة ملايين كيلومتر مربع / 3 كم، ثم إنها كيف تقبل بإقامة دولة عربية تمتد أطرافها إلى حدود إيران وتركيا وإلى ساحل المحيط الهندي، وتستطيع في المستقبل أن تنال عطف وتأييد ومساندة كل مسلمي العالم، وبعبارة

(2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 385

(3) يعلق فريجات على الأسلوب الذي تعاملت به بريطانيا مع الشريف حسين بأنها "منذ البداية استعملت معه أسلوب ميكافيلي، والذي عبر عنه رئيس الوزراء البريطاني وقال: ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون وليس لها أعداء دائمون ولكن لها مصالح دائمة، وقد لجأت إلى أسلوب المراوغة والمماطلة والغموض وتقديم الوعود الفضفاضة. انظر: فريجات، الثورة العربية الكبرى، ص 147

أخرى: كأنها توافق أن تقوم دولة الخلافة من جديد، ولكن بخليفة عربي ومركزه الحجاز في مكة قبلة المسلمين في أنحاء الأرض، فكأنها تحفر قبرها بيدها، وتقول لنفسها نقيم للمسلمين دولة خلافة جديدة تحل محل الدولة العثمانية التي حاربناها وسعينا لتقسيم ممتلكاتها، وستعمل هذه الدولة الجديدة للتحكم في هذه المنطقة وتصبح الدولة العربية العظمى بدل بريطانيا العظمى، وهو ما لا يمكن لبريطانيا وسياساتها الاستعمارية المعروفة أن تقبل بوجوده حتى ولو على الورق، ولذلك لم تعط أية عهود مكتوبة للشريف حسين، واكتفت بإطلاق وعود براقة جذابة له، جعلته بما طبع عليه من صدق العربي البدوي، أن يصدقها، ويقول إبراهيم نجار الذي خبر الشريف حسين عن قرب، وعرف عنه أنه أحد المقربين من الشريف حسين، يقول عن طباع الشريف: "كان الشريف حسين في تشكيلاته، أعماله أقرب إلى روح البداوة منه إلى الروح الحضرية، وكان مع تشبعه بالروح الأولى صلب الرأي إلى أقصى درجة، فإذا أبدى رأياً أو قال كلمة – ولو في غير موضعها – تمسك بها مهما كانت نتائجها، وقد تعب معه حتى أبناؤه بسبب هذا العناد وهذه الصلابة في الرأي⁽¹⁾، وقد أشار الملك عبد الله بن الشريف الحسين بن علي إلى صلابة والده الشريف وتشدده في مواقفه، وهو ما ورد في رسالة إلى أخيه الأمير زيد بن الحسين، حين قال: كان الحسين شديد التصلب في آرائه، ولم يكن إنساناً هيناً أو ليناً، ولكنه كان دون شك صاحب مبدأ أو عقيدة، وغير صحيح أنني كنت أحتج الحسين على القبول بالمعاهدة التي عرضتها لبريطانيا على يد لورنس، لأن الحسين كان لا يصغي لأحد، ولا يسمع من أحد، ولم يكن يؤثر أحد عليه⁽²⁾، وما ورد آنفاً يتواءم مع ما أشار إليه إبراهيم نجار، حين يرجع الغبن الذي لحق بالعرب وبقضيتهم إلى قلة خبرة الشريف حسين بالسياسة ومداخلها، وذلك حين يتحدث عن ابتعاد الضباط العرب عن الحسين بسبب تفرد بقراراته السياسية، وعدم استشارة القادة والضباط العرب المحيطين به، يقول نجار: " ... فلم يبق أحد بجواره،

(1) نجار، فيصل الأول، ص 31

(2) ابن الحسين، الأمير زيد، المذكرات، تحقيق: سليمان موسى، نشر: مركز الكتب الأردني، طبعة ثانية، 1990م، ص 242.

فقد كان ينظر ويقضي بجميع القضايا والمسائل العسكرية والسياسية والإدارية المعروضة عليه باستقلال غريب عجيب، دون أن يستشير أحداً، وربما كان هذا الاستقلال بالرأي سبباً كبيراً في ضعف الضمانات التي أخذها من الحلفاء في زمن الحرب، وفيما آلت إليه القضية العربية بعد انتهائها⁽³⁾.

ويبدو للباحث أن ما قيل في شخص الشريف حسين آنفاً، فهو مما عرف عنه حقاً، وقد كان من أهم ميزات شخصيته ومن صفاته الحميدة التي تحسب له لا عليه، لأن هذا كان صلابته في الحق وثباتاً وتمسكاً به، وهو ما جعله لا يقبل التفريط بحقوق الأمة، لذلك عملت بريطانيا على رسم خارطة جديدة لهذه المنطقة، التي يطمح الشريف تحقيق حلم العرب الذين وضعوا ثقتهم به، وفوضوه للتحدث باسمهم، وهؤلاء هم أبناء بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وعرفت هذه الخارطة بأسم معاهدة سايكس بيكو، كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً في هذا الفصل.

ويشار هنا في سياق تحليل المراسلات إلى ما ذكره صبحي العمري، ويأتي رأيه متفقاً مع ما سبق من تحليلات، يقول: "كثيرون هم الذين انتقدوا المفاوضات التي أجراها الحسين مع الانكليز، باعتبارها غير قوية، ويتخللها الضعف والتساهل، وأغلب هؤلاء لم يقرأوا نصوص هذه المكاتبات، فبنوا انتقادهم على السمع وعلى النتائج التي وصلت إليها تلك الاتفاقية، دون أن يعطوا كبير أهمية لسلوك الانكليز وخيانتهم للعهد.

عندما بدأ الانكليز بمفاوضة الحسين كانوا وحلفاءهم في موقف ضعيف وخطر، فكان الألمان ينتقلون من ظفر لظفر، وكانت جيوشهم تدق أبواب باريس، ومع ذلك لقد كانوا مع حلفائهم يتفاوضون على تقسيم ممتلكات تركيا، ولكن عندما انتهت الحرب وجاء دور تطبيق ما اتفقوا عليه مع الحسين كانوا قد كسبوا الحرب وخرجوا منها وهم أعظم وأقوى دول العالم، أما العالم العربي الذي وعدوه بإيصاله لحقه في الاستقلال، فقد كان ضعيفاً فقيراً متفرقاً، والسياسة ليس لها شرف كما كان يتوهم الحسين وغير الحسين، إنها مصلحة قبل كل شيء، واحترام المعاهدات تابع لما يتمتع به المتعاهدون من قوة، وما يتعلق بها من مصالح، ولا يضمن تطبيق المعاهدات سوى القوة أو المصلحة، وعدا ذلك هراء.. فالحسين كان رجلاً شريفاً، ويعرف معنى الشرف، ويظن بالانكليز الشرف الدولي، الحسين ليس رجلاً دبلوماسياً، وليس له علم وإمام بطبائع المستعمرين وأساليبهم، والانكليز أبرع أمم العالم بأساليبهم الاستعمارية، ومع ذلك فإن الحسين عمل ما في وسعه من الحيلة والصراحة وعدم التساهل⁽¹⁾، ويبدو من سير المراسلات أن بريطانيا كانت تخشى معارضة فرنسا لمثل هذه المفاوضات، وعدم رغبتها في التخلي أو التنازل عن شيء من مصالحها في سوريا،

(3) نجار، فيصل الأول، ص 31

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص75-76 وانظر:

-منسي، حركة اليقظة العربية، ص 274-275

فكان مكماهون لا يستطيع أن يقطع وعوداً أكيدة، بل كان يلجأ إلى الغموض في كتاباته، لكي يجعل المجال واسعاً أمام الادعاءات الفرنسية في المنطقة⁽²⁾.

سادساً: بلاد الشام بين اتفاق حسين مكماهون واتفاقية سايكس بيكو.

تعتبر المراسلات التي تمت بين الشريف حسين بن علي ومكماهون من الناحية العملية بمثابة معاهدة دولية مكتوبة بين بريطانيا والعرب، ذلك أن المراسلات التي تمت بين الشريف حسين ومكماهون حفظت نصوصها مكتوبة لدى الطرفين اللذين تبادلها⁽³⁾، وبالتالي عدت وثائق ملزمة لهما لتطبيق محتواها فيما بعد⁽⁴⁾، وبناءً على هذا الفهم قبل الشريف إعلان الثورة العربية في الحجاز ومن ثم يدخل العرب في الشام والعراق في الثورة ضد العثمانيين لإخراجهم من هذه البلاد، "وكان على بريطانيا أن توفق بين أماني العرب ومنافعها هي، وبين مطامع الفرنسيين"⁽⁵⁾ وبالنظر إلى ما تعهد به مكماهون للشريف حسين من خلال المراسلات التي تمت بينهما، يلاحظ المرء أن مكماهون أقرّ للشريف من الناحية الفعلية باستقلال الحجاز فقط، ويرى سلطان أن ذلك "لم يكن من أجل الحسين أو لإرضائه، بل لأن انكلترا وحتى فرنسا لا تتويان أن تحتل الحجاز، بسبب الحساسية الخاصة التي يثيرها استعمار الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة من قبل قوات مسيحية، لقد حمت هذه الأماكن نفسها من حكم الانكليز بفعل قوتها التاريخية الدينية، وهي الجزء الوحيد من المنطقة العربية قاطبة، التي سلمت من الاستعمار الأوروبي، أو من الاتفاقات مع الأوروبيين التي تحمل معنى الحماية والمساعدة والصداقة"⁽¹⁾. ولهذا فإن مراسلات الحسين مع مكماهون قد أسفرت عن إخراج بلاد الشام والعراق والمنطقة الممتدة على سواحل الخليج العربي (الطرف الشرقي من الجزيرة العربية)، وكذلك المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية وهي بلاد اليمن وخليج عدن، إضافة إلى قلب الجزيرة العربية نجد وما حولها، كل هذه المنطقة أخرجت من الدولة العربية الموعودة للشريف حسين من قبل بريطانيا⁽²⁾، على الرغم من أنها معظمها قد طالب بها الحسين في مذكراته إلى مكماهون، لكن خطط بريطانيا ومنذ بداية المراسلات توحى بأن لها أهدافها استعمارية في البلاد العربية وبالتعاون والتنسيق مع حليفاتها الأولى فرنسا، بدليل أن مكماهون حاول منذ أول رسالة له في رده على مذكرة الشريف حسين له، أن يتملص من قضية الحدود التي اقترحها الشريف حدوداً للدولة العربية المنوي تأسيسها.

(2) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 121

(3) أورد أمين سعيد أن الأمير فيصل بن الحسين قدم صورة من معاهدة والده مع بريطانيا إلى مجلس الوزراء البريطاني حين كان في لندن عام 1920م، فأثارت بريطانيا هذه النصوص كل الإنكار، وأن تلك المعاهدة مكتوب بأعلاها بخط الشريف حسين: صورة ما تقرر مع بريطانيا بشأن النهضة. انظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 193

(4) انظر: أمين سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 178

(5) الملك فيصل بن الحسين، المذكرات، ص 6-7، وانظر: فريجات، السياسة الفرنسية، ص 119

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 387

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 387

أما الموقف الفرنسي فقد كان منذ البداية يُشكّ فيه ويخشى منه، وبالرجوع قليلاً إلى الوراء يلاحظ أن فرنسا فتحت صدرها لأبناء بلاد الشام، وأفسحت لهم المجال لعقد المؤتمر العربي الأول عام 1913م في باريس، ولم يكن ذلك عن رغبة في إعطاء العرب حريتهم، وفي تمكينهم من حكم بلادهم بأنفسهم، بل كان إشباعاً لهنهما الاستعماري في إيجاد موطئ قدم لها في سواحل الشام في بيروت وجبل لبنان لحماية نصارى الشام وتأسيس كيان لهم في هذه المنطقة، ثم لتمهد لانتدابها الذي سيأتي فيما بعد حين تتيح لها الظروف السياسية والتحالفات الدولية تنفيذ سياستها باحتلال هذه البلاد والانتداب عليها، وقد عبر وزير خارجية فرنسا المسيو بيشون بعدما استقبل الوفد المنبثق عن المؤتمر العربي في باريس وتأكّد أن أبناء بلاد الشام المسلمين لا يرغبون بالانفصال عن الدولة العثمانية ولا يقبلون تدخلاً فرنسياً في بلادهم من خلال تصريحات رجال ذلك الوفد ومقابلتهم معه⁽¹⁾، عبر عن موقف فرنسا المعادي لأبناء بلاد الشام المسلمين وغير المؤيد لمطالبهم الإصلاحية مع الاحتفاظ بعلاقتهم بالدولة العثمانية وكتب إلى كل قناصل فرنسا في البلاد العثمانية يأمرهم بمحاربة استقلال البلاد الشامية عملياً، وإظهار مساعدتها لكسب تأييد الأهالي، وقال: "تحقق لدينا أن الحركة الإصلاحية قد انقلبت علينا من تصريح الوفد ولذلك أظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب قلوب الأهالي وفي الخفاء اسعوا لقتلها"⁽²⁾. وبينما تنكرت فرنسا لمطالب بلاد الشام المسلمين في إدارة بلادهم لإدارة لامركزية مع الولاء للدولة العثمانية والاحتفاظ بالرابطة معها، حرصت أن تضلل نصارى الشام بعطفها، وتظهر رغبتها في احتلال هذه البلاد لحماية النصارى فيها، ولهذا لم يرق لها أن ترى العرب يتفقون مع بريطانيا تمهيداً لإعلان الثورة على العثمانيين فعملت على حماية مصالحها، والإفصاح عن تطلعاتها في تحقيق رغباتها لاحتلال بلاد الشام⁽³⁾ إذا خرجت منتصرة من الحرب العالمية، لا سيما وأنها مهدت لذلك في خطب ود العرب النصارى في ربوع الشام، وفي جبل لبنان خاصة، كما أنها وبالتنسيق مع حليفاتها بريطانيا عملت على استثناء هذه المناطق من أية وعود تقطعها بريطانيا للعرب لكي يعملوا معها بناءً على هذه الوعود، ولذلك أبدى مكماهون في مراسلاته مع الشريف حسين غموضاً وعدم وضوح وتهرب من الالتزام في جُلّ كتاباته إلى الشريف "حسين لكي يجعل المجال واسعاً أمام الادعاءات الفرنسية في المنطقة"⁽⁴⁾. وقال مكماهون:

(1) انظر: ص 2-4 من هذا الفصل. وانظر: سلام، المذكرات، ص 34-35

- سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص 392

(2) جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية، ص 60

(3) وقد ذكر فريجات رؤية الاستراتيجية الفرنسية في المنطقة العربية، خاصة تجاه بلاد الشام، وأنها تخدم في ذلك مصالحها، وعندما ترى أن الحركة العربية أصبحت وطنية تعمل على محاربتها والتنكر لها. انظر: فريجات، الثورة

العربية الكبرى، ص 156-158

(4) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 121

كنت واضحاً في أن بريطانيا العظمى ستعترف بمبدأ استقلال العرب في الأراضي العربية الخالصة، وهذه النقطة الرئيسة التي تتركز عليها الاتفاقية، وكنت واضحاً بالمثل في إقصاء مرسين والاسكندون وتلك المراكز في الساحل الشمالي لسوريا، والتي لا يمكن أن يقال إنها عربية والتي علمت أن لفرنسا مصالح معترف بها فيها⁽¹⁾.

ومع مراعاة بريطانيا لمصلحتها مع فرنسا في ضرورة ضمان وقوف العرب إلى جانبهما لكسب الحرب ضد ألمانيا والدولة العثمانية، ومع إقرارها للشريف حسين بتأسيس دولة عربية في مناطق الشام الداخلية، واستثناء لبنان والساحل من هذه الدولة، أدركت ضرورة مراعاة حليفتها فرنسا في الاقرار لها بمصالحها أيضاً واتخذت فرنسا في الوقت نفسه موقفاً صلباً ضد إقامة دولة عربية في بلاد الشام تحت رعاية بريطانيا، إلى درجة أن الحكومة البريطانية لم تستطع أن تأخذ من الحكومة الفرنسية تعهدات و ضمانات تقدمها للعرب، ويرجع هذا التصلب في الموقف الفرنسي حسبما جاء في مذكرات الرئيس الفرنسي ريمون بوانكاريه (poicare) إلى أن الفرنسيين كانوا يدركون أن الحركة العربية ستؤثر تأثيراً ضاراً بهم ليس في البلاد العربية التي يطمعون بها للمستقبل فحسب، بل في البلاد العربية التي يسيطرون عليها منذ عقود من الزمن أيضاً⁽²⁾. كما عبر عن تخوفه من الدولة العربية التي تتفاوض بريطانيا مع الشريف حسين لتثبيتها في الحجاز والشام والعراق، وقال: إن الإمبراطورية العربية ليست بالنسبة لي شيئاً كبيراً، لكنني أخشى تأثيرها على مستعمراتنا الأفريقية، وإنني أود أن لا أراها تولد⁽³⁾ من أجل ذلك سعت كل من فرنسا وبريطانيا، ومراعاة لمصالحهما المستقبلية في البلاد العربية، وفي الوقت نفسه حرصهما على عدم استثارة العرب في هذه المرحلة الحرجة من الحرب العالمية الأولى، وهما محتاجتان للدور العربي في إضعاف العثمانيين وإشغالهم وشل حركتهم في البلاد العربية، عملتا على توقيع الاتفاق

(1) شببكة، العرب والسياسة البريطانية، ص 186، نقلاً عن فريجات، السياسة الفرنسية، ص 121

(2) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 122

(3) - Poincare, Raymond (President): Auservice de La France. Les Petits Fils de Plont et Nourit, Paris, 1945. Tome. 7. P.

التاريخي المشهور الذي عرف فيما بعد باتفاق سايكس بيكو، لتقاسم المصالح ولتوزيع الأدوار فيما بينهما، "ورأت بريطانيا أن مصالحها تدفعها لمجاراة المطالب الفرنسية وإظهار التنازلات لصالح الفرنسيين على حساب العرب، ووافقت على الاعتراف لفرنسا ببسط نفوذها في الاسكندرونة وكيليكية والبلاد الكائنة وراءها حتى الموصل".⁽¹⁾ وهو ما تم الاتفاق عليه ضمن بنود اتفاقية سايكس بيكو بين هاتين الدولتين التي يأتي الحديث عنها هنا.

1- اتفاق سايكس بيكو (sykes-picot ageameut).

في الوقت الذي كانت بريطانيا بواسطة ممثلها في القاهرة هنري مكماهون تفاوض الشريف الحسين بن علي بشأن اتفاق تحقق خلاله كسب العرب إلى جانبها في الحرب العالمية ضد ألمانيا والدولة العثمانية كانت هنالك مفاوضات تدور في القاهرة نفسها بين السير مارك سايكس (sykes sir marc) المندوب السامي البريطاني لشؤون الشرق الأدنى والمسيو جورج بيكو (george picot) المندوب السامي الفرنسي لشؤون الشرق الأدنى، للاتفاق على تقرير مصير البلاد العربية واقتسامها، وقد ابتدأت في 9/تشرين الثاني عام 1915م، ويشرف عليها سazanوف معتمد روسيا العام في القاهرة يومئذ⁽²⁾، وكانت فرنسا قد علمت بعد وقت قصير باتصالات بريطانيا بالشريف حسين حتى أن دو فرانس أرسل كتابا في (25) أكتوبر/تشرين أول 1915م يخبر حكومته بهذا الاتصال⁽³⁾، كما أن مكماهون نفسه أخبر دو فرانس بالمفاوضات مع الحسين في نوفمبر/تشرين الثاني 1915م، وأبلغه أن القضية وصلت إلى نقطة حساسة من استقلال العرب وانفصالهم عن الأتراك.

(1) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 124

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، 179، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج1، ص 60-61

- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 89، 94-95، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 237-241

- انطونيوس، يقظة العرب، ص 271

- مجلة المنار، م21، ج4، ع30/ رمضان 1337هـ/ 28 يونيو 1919م، ص 197-201

- كوثراني، مختارات سياسية، ص 240-241

- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص460، النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 25

- فريجات، السياسة الفرنسية، ص 126-127

(3) D.F. AFF. ETR, GUERRE. VOL, IV, (870) 25, OCT. 1915. P. 198

نقلاً عن سلطان، تاريخ سورية (1918-1908)، ص 403 وانظر: منسي، حركة اليقظة العربية، 327

وقد أوضح ادوارد غراي (edward grey) بدوره القضية التي يهتم بها مكماهون بما يخص سوريا، وأجاب عن تساؤلات فرنسا حول ذلك، ويبدو أن فرنسا لم تكن تعلم عن طريق وزارة الخارجية البريطانية بالمفاوضات، بل عن طريق مكماهون⁽¹⁾ ويرى سلطان أن مراسلات حسين مكماهون كانت من العوامل المهمة التي ساعدت على الإسراع في التوصل إلى اتفاق سايكس-بيكو، إضافة لوجود عوامل أخرى منها أن الوقت قد حان لاقتسام أملاك الدولة العثمانية، ومنها مطامع روسيا في مضائق البوسفور والدردنيل⁽²⁾.

من هنا تأتي أهمية اتفاقية سايكس بيكو لكونها تحدد مصير بلاد الشام مستقبلاً، وأن هذه البلاد ستخرج من مرحلة ارتباطها بالدولة العثمانية إدارياً وسياسياً وايدولوجياً، من حيث كونها تدين بالولاء لهذه الدولة من خلال الرابطة الإسلامية، وتدخل بعد ذلك في مرحلة استعمار حددتها مصالح الدول العظمى، التي تخرج من الحرب العالمية الأولى عام 1918م منتصرة، وتستطيع بحكم قوتها وانتصارها أن تملي إرادتها وشروطها على الدول المنهزمة في هذه الحرب، وعلى الشعوب المشتركة فيها بحكم الواقع كالبلاد العربية، لهذا فإن مصالح بريطانيا وفرنسا وروسيا جاءت منسجمة فيما بينها باقتسام أملاك الدولة العثمانية، وذكر الحصري أن الاتحاديين قد هياؤا المناخ الذي يتيح للدول الأوروبية تحقيق أحلامها وتطلعاتها الاستعمارية من خلال ما أعطوهم من امتيازات، وما قدموا لهم من تسهيلات اقتصادية من خلال اتفاقيات عقدها معهم كانت مدخلاً لتحقيق الأهداف السياسية، يقول في ذلك: " لا شك أن الامتيازات التي نالها والمنافع التي حققها الأوروبيون من خلال الاتفاقيات التي عقدت خلال النصف الأخير من سنة 1913م، والنصف الأول من سنة 1914م مع الدولة العثمانية وفيما بينهم كانت كثيرة ومتنوعة، وكان لها طابع اقتصادي بحت، أو طابع اقتصادي المظهر وسياسي الأهداف، وقد اتفقت الدول الأوروبية الكبرى فيما بينها على تعيين وتحديد مناطق نفوذ كل منها في مختلف أقسام الدولة العثمانية من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، إنها قسمت الولايات والمتصرفيات العربية التي تمتد بين سواحل بلاد الشام وحدود إيران إلى أربع مناطق نفوذ، وحقت ثلاثاً منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، وإن أحداث الحرب العالمية الأولى واتفاقياتها أقرت بطبيعة الحال ما كان مقرراً لكل من فرنسا وبريطانيا، غير أنها أبطلت ما كان مقرراً لألمانيا، وقسمتها بين فرنسا وبريطانيا، لذلك يمكن القول إن أسس اقتسام البلاد العربية كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الأولى، وبعلم من الحكومة العثمانية نفسها⁽³⁾.

ج- معاهدة بطرسبورغ:

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 403، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 273

(2) سلطان، تاريخ سوريا (1908-1918م)، ص 403 - 404

(3) الحصري، البلاد العربية، 224-227

كانت مصالح روسيا كما جاء في المذكرة التي قدمها سazanوف وزير الخارجية الروسي إلى سفير بريطانيا وفرنسا في بطرسبورغ، تقضي بحصولها على المناطق التالية حسب نص المذكرة، ترغب الحكومة الروسية عند ختام الحرب العظمى في ضم الأراضي الآتية إلى ممالكها وهي مدينة الآستانة مع ضفاف البسفور الغربية وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وتراقية الجنوبية وسواحل آسيا الصغرى الواقعة بين البسفور حتى نهر سقاريا مع بعض المراكز على خليج ازमित ومناطق أخرى بجوار هذه المناطق، على أن لا يخل ذلك بما لفرنسا وانكلترا من حقوق على تلك الأراضي⁽²⁾، والملاحظ أن كل المطالب الروسية تنحصر في مناطق تركية في المضائق الحساسة جداً لمصالح روسيا، مما يتيح لها الاقتراب من المياه الدافئة في البحر المتوسط، وبعد ذلك سافر المندوبان الفرنسي والبريطاني جورج بيكو ومارك سايكس في أواسط آذار 1916م إلى بطرسبورغ في دولة روسيا القيصرية للاتفاق مع الحكومة الروسية حول مشروع مذكرات المناطق الثلاث التي ستتقاسمها الدول الثلاث من أملاك الدولة العثمانية⁽¹⁾، ويعلق أنطونيوس على فكرة التقاسم هذه فيقول: "أما من جهة تخصيص المناطق، فكانت الدول سخية بما قررت ابتلاعه من الأراضي الخاضعة لحكم السلطان العثماني، فقد حددت روسيا حصتها بالقسطنطينية مع عدد من الأميال إلى الداخل على ضفتي البوسفور وبقطعة كبيرة من شرق الأناضول تضم تقريباً كامل الولايات الأربع المجاورة للحدود الروسية التركية"⁽²⁾.

وتأتي مطالب روسيا بالحصول على المناطق العثمانية المجاورة لحدودها متناسبة مع ما تنوي فرنسا وبريطانيا تقاسمه فيما بينهما حسب اتفاقهما مع بعض

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 181-182، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 62 - الحصري، يوم ميلون، من 52-55، زين، الصراع الدولي، ص 70 - عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 274

(1) انظر عن تفاصيل الاتفاقية الثلاثية الروسية البريطانية الفرنسية في بطرسبورغ:

- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 185-187، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 83-87.

(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 272. وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 182-183

ورغبتهما في إبعادها عن البلاد العربية، وجعل هذه البلاد مناطق نفوذ لكل منهما⁽³⁾ وقد نصت اتفاقية سايكس بيكو على التقسيمات التالية لبلاد الشام والعراق للانتداب عليها.

2- بنود اتفاقية سايكس بيكو وآثارها.

انتهت المفاوضات بين الممثلين الفرنسي جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس مع بداية شهر مايو/ أيار 1916م، أي قبل إعلان الثورة العربية الكبرى بشهر واحد⁽⁴⁾، واتفقا على تحديد المناطق التي يجب أن تتبع دولتيهما، واعتبر يوم السادس عشر/16/أيار 1916م تاريخاً رسمياً لاتفاق سايكس بيكو⁽⁵⁾، وفي يوم 9/أيار 1916م كان السفير الفرنسي في لندن قد أرسل الكتاب التالي إلى السير إدوار غراي وزير الخارجية البريطانية: أُمِرَت أن أبلغكم أن الحكومة الفرنسية قبلت الحدود التي رسمت على الخرائط الموقعة من جانب السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو، ورضيت بالمبادئ التي دارت عليها المفاوضات بينهما وهي تنتظر التوقيع على نصوص الاتفاقية المرسلة طيه.

- المادة الأولى: إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية، تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) داخلية سوريا و(ب) داخلية العراق المبيتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

(3) فريجات، السياسة الفرنسية، ص 128

(4) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 147

(5) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 409

- المادة الثانية: يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس)، إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو بالمراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

- المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة الحمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

- المادة الرابعة: تنال انكلترا ما يأتي: 1- ميناء حيفا وعكا 2- يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها أن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً⁽¹⁾.

- المادة الخامسة: تكون اسكندرونة ميناءً حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء ولا يرفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية، وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء، سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و (ب)، أو صادرة منهما، ولا تنشأ معاملات مختلفة، وبالذات أو بالتبع (مباشرة أو غير مباشرة)⁽¹⁾ على أية سكة من سكك الحديد، أو في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع أو البواخر البريطانية، وتكون حيفا ميناءً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف في المعاملات، ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية، ويكون نقل البضائع الفرنسية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الانكليزية في المنطقة الحمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ)

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص188-189، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص89-90
أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص147-148، انطونيوس، يقظة العرب، ص272-273
- اندريا، تاريخ الدروز، ص13-14
(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص410

أو المنطقة (ب)، أو واردة إليها ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بالذات أو بالتبع
يمس البضائع أو البواخر الفرنسية في أي سكة من سكك الحديد، ولا في ميناء من
الموانئ في المناطق المذكورة.

- المادة السادسة: لا تمتد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل
جنوباً، ولا في المنطقة (ب) إلى مابعد سامراء شمالاً، إلى أن يتم إنشاء خط حديدي
يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

- المادة السابعة: يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير، وتكون المالكة الوحيدة
لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ماعدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في
أي وقت كان على طول هذا الخط، ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين أن هذا
الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال في
المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذراً، فالحكومة
الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره في طريق بربوره - أم قيس - ملقى - ايدار -
غسطا - مغاير، قبل أن تصل إلى المنطقة (ب).

- المادة الثامنة: تبقى تعريف الجمارك التركية نافذةً عشرين سنة في جميع جهات
المنطقتين الزرقاء والحمراء، والمنطقتين (أ) و (ب)، فلا تضاف أية علاوة على
الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين، إلا أن يكون باتفاق بين
الحكومتين، ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة
أعلاه، وما يفرض من رسوم الجمر ك على البضائع المرسلّة إلى الداخل يدفع في
الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلّة إليها البضائع⁽¹⁾.

- المادة التاسعة: من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضات في أي
وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي مالها من حقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 189-190
- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 90-91
- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 148-149
- أندريا، تاريخ الدروز، ص 15

سوى للدولة أو حلف الدول العربية، دون أن توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

- المادة العاشرة: تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسية بصفتها حاميتين للدولة العربية، على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية في الجزر على ساحل البحر الأبيض الشرقي، على أن هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

- المادة الحادية عشرة: تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

- المادة الثانية عشرة: من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان في الوسائل لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية⁽²⁾.

- بعد عرض نصوص هذه الاتفاقية التي تفرض استعماراً واضحاً وصريحاً على المنطقة العربية الآسيوية، وتقتطعها من الدولة العثمانية ذات السيادة الكاملة عليها، بعد أن عاشت في ظلها قرناً لا تشعر بتبعية لأجنبي ولا بعبودية استعمارية، لتدخل هذه البلاد في عبودية واستعمار لفرنسا وبريطانيا⁽¹⁾، ويتضح من هذه الاتفاقية أنها لا تكاد تخلو مادة من موادها الاثنتي عشرة، وخاصة السياسية والاقتصادية من أمر يتعلق بمصير بلاد الشام، إذ مزقتها هذه الاتفاقية إلى أربعة أجزاء مازالت قائمة حتى الآن⁽²⁾، مع إخراج جزء منها وتحويله إلى وطن لليهود وهو فلسطين⁽³⁾ كما سيأتي لاحقاً، ومما يستوقف النظر أن الاتفاق النهائي مع الشريف (الحسين بن علي) على خوض الحرب لم يتم إلا بعد اتفاق الحلفاء فيما بينهم على القسمة أي أنه جاء بعده، على الرغم من أن جميع هذه الاتفاقات تمت في سنة واحدة سنة 1916م... وأن الانكليز لم يروا بعد انتهاء الحرب، وبعد أن وضعوا يدهم على العراق وفلسطين وسيلة للخروج من الموقف الذي صاروا إليه مع العرب سوى إنكار هذه العهود وتجاهلها، أو الادعاء بأنهم لم يقطعوها، أو لم يتعهدوا بها، أو أنها مبهمة، يؤيد ذلك الحديث الذي فاه به الأمير فيصل نفسه يوم 15/فبراير شباط سنة 1920م مع جريدة المفيد الدمشقية، فقد

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص190-191، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص64-65

صباحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص91-92، حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص24-29

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص149-150، فيضي، المذكرات، ص221-222

(1) وهو ما أشار إليه جمال باشا في رسالته إلى الشريف حسين، وهو يعرض عليه العودة إلى التقاهم، ويحذره من الأخطار التي تتهدد البلاد العربية مستقبلاً، وأنها ستقع تحت عبودية الاستعمار الغربي. انظر: انطونيوس، بقطة العرب، ص281

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص412

(3) الحصري، يوم ميسلون، ص79

- صباحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص95

قال: لما كنتُ في لندن قدمتُ صورة من المعاهدة التي تقررَت مع الانكليز إلى رئاسة مجلس الوزراء، فأُنكرتُ وجودها كل الإنكار، وقالت: إنه لا يوجد عهد ولا كتاب ينطق بهذا التصريح، ثم أورد الأمير نص المعاهدة وقد كتب على رأسها بخط الحسين ما نصه: صورة ما تقرر مع بريطانيا بشأن النهضة⁽⁴⁾.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذه النصوص الأولية التي تم إيرادها في مذكرة التفاهم بين بريطانيا وفرنسا بشأن تقاسم بلاد الشام والعراق بينهما فيما عرف باتفاق سايكس بيكو، قد جرى عليها تعديلات كثيرة فيما بعد عبر المفاوضات والرسائل المتبادلة تبادلاً للمصالح، فقد كانت الموصل من المناطق التي ستلحق بفرنسا، لكنها فيما بعد ألحقت بالأراضي العراقية وأصبحت منطقة نفوذ لبريطانيا لما لها من أهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة لغنى أراضيها وخصوبتها الزراعية، ثم لجثومها على بحر من البترول، إضافة لكونها تقترب من حدود بلاد الشام الشرقية ومن حدود تركيا الجنوبية الشرقية، كل هذا جعل بريطانيا تتمسك بها وتقدم تنازلات لفرنسا مقابل الحصول عليها، ويتمثل هذا التنازل في إعطاء فرنسا منطقة اسكندرون وكيليكيا ومرسين، ومن ثم تنازل فرنسا عن هذه الأجزاء الشمالية المهمة من بلاد الشام إلى تركيا فيما بعد في مؤتمر لوزان من أجل إيجاد منفذ لتركيا على البحر المتوسط مقابل قضايا مهمة قدمها لهم مصطفى كمال أتاتورك⁽¹⁾.

ججوكتعليق على اتفاق سايكس بيكو وما تضمنه من غدر واضح بالعرب وتآمر مكشوف عليهم من الدولتين الموقعتين على هذا الاتفاق، لم يتمكن أنطونيوس من إخفاء ما يكنه لهما من مودة، وهو في حالة اندهاش مما صدر عن مارك سايكس، إذ يعده أنطونيوس من الرجال النبلاء الصادقين، وهو أبعد ما يكون عن الحماسة والاحتيا⁽²⁾، وأبرز صفاته تفانيه المتناهي في سبيل المبادئ التي يعتنقها، وإذا كان للمتأمل من قول يمكن أن يقوله فهو التساؤل أي صدق وأي تقان في سبيل المبادئ من رجل السياسة الذي يتفانى في خدمة المبادئ الاستعمارية التي تجيز له أن يتاجر بمصائر الشعوب والأمم الأخرى؟! ويذهب أنطونيوس للتفكير بطريقة مبهممة وغير مفهومة، يضيع المتابع لها في دهاليز الميثافيزيقا، في محاولة متعمدة ومقصودة لتفسير ما حدث من سايكس

(4) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 192-193
- ظبيان، تيسير (مدير معهد العلوم الإسلامية في عمان)، صفحات مشرقة من العهد الفيصلي، مجلة رسالة المعلم، تصدرها وزارة التربية/الأردن، سنة (10)، ع (2) تشرين ثاني/ كانون أول / 1966م، ص 77 .

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 94، الحصري، يوم ميلون، ص 84-85
- العظم، المذكرات، ج1، ص 96
- رافق، عبد الكريم، من تاريخ سورية الحديث (العلاقات السورية التركية 1918-1926م)، مجلة دراسات تاريخية، ع (19-20)، نيسان، تموز، 1985م، ص 94-95 .
(2) أنطونيوس، بقطة العرب، ص 277

الانكليزي وهو يوقع على اتفاقه مع بيكو الفرنسي لاقتسام البلاد العربية واستعبادها، بأن هذا الاتفاق " لغز من الألغاز"⁽¹⁾، لم يستطع أنطونيوس فهمه أو فك رموزه، لكن الناظر للأمور بمنظورها التاريخي يدرك أن ما دبره سايكس ليس لغزاً يصعب تحليل معانيه، ولا يخرج عن العقلية الاستعمارية التي تنفذ مايدبره دهاقنة السياسة الانكليزية لخدمة مصالح بريطانيا العظمى، وهذا هو ما عبر عنه انطونيوس وقصده حين قال وهو يصف سايكس: "... تفانيه المتناهي في سبيل المبادئ التي يعتقها"⁽²⁾ فقد أراد تبرير المراوغة والمواقف المتقلبة التي كانت السمة البارزة لسياسة بريطانيا في تعاملها مع العرب لكسب تأييدهم لها في حربها ضد دولتهم العثمانية، حين تمكنت من استعطافهم لجانبها تحت مظلة طلب الاستقلال، والرغبة في حكمهم لبلادهم، بعدمهم رجال الاتحاد والترقي صنوف التنكيل والاضطهاد، وهو ما وُلد فيهم الاندفاع للثورة للخلاص من حكم الاتحاديين، ولكن هيهات!! لم يجنوا إلا المرارة حين دخلت بلاد الشام في عهد التجزئة والتقسيم الجديدين تحت انتداب فرنسا وبريطانيا⁽³⁾.

(1) انطونيوس، المرجع السابق، ص 277

(2) انطونيوس، المرجع نفسه، ص 277

(3) الهاشمي، المذكرات، ص 47، الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 29
طربين، التجزئة العربية، ص 138، 149-150، سعيد، القومية العربية، ص 38، 80-81

الفصل السابع
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1916-1918م
" قطع العلاقات "

أولاً: إعلان الثورة العربية وسير أحداثها.

1- الثورة كانت ستعلن من دمشق.

بعد سلسلة المراسلات التي تمت بين الشريف الحسين بن علي وبريطانيا، بواسطة ممثلها في مصر السير مكماهون، توصل الطرفان إلى أن يعلن الشريف الثورة على العثمانيين، على أن تطلق بريطانيا يدها في إرسال الإمدادات التي تلزم الشريف للقيام بالثورة من أموال وعتاد وسلاح ومواد تموينية، بحيث يستطيع تمويل الجيش الذي أعدّه للمعركة القادمة، وكذلك إغراء القبائل العربية في الحجاز والشام للسير وراء الشريف حسين في الثورة ضد العثمانيين، والحقيقة أن الأمراء عبد الله وعلي وفيصل أنجال الحسين تمكنوا من كسب ولاء وتأيد معظم القبائل العربية في بلاد الشام والحجاز للانخراط في صفوف الثورة لقتال العثمانيين⁽¹⁾، ففي الشام استطاع فيصل أثناء وجوده هناك قبيل إعلان الثورة من نيل تأييد معظم عشائر الشام كما مر سابقاً⁽²⁾، وفي الجزيرة العربية لقيت الثورة العربية تأييداً، وتحت علمها انضوت

(1) الريحاني، أمين (ت 1359 هـ / 1940م) فيصل الأول، نشر: دار صادر بيروت، 1934م، ص 26.

- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص97، العظم، المذكرات، ص90

- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 198-199

- طلس، تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث)، ص 62

(2) انظر:

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 98، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص60

- القسوس، المذكرات، ص 83-84، العظم، المذكرات، ص 90

الكتائب من قبائل حرب والعتيبة وجهينة وعشائر النمر والوفدان وثمالة والرقعة والحرّة وسبيع والبقوم بن الحارث والجوازي والتربة ... الخ"⁽³⁾.

وبدأ الشريف يستعد لإعلان الثورة بعد أن استطاع الالتفاف على جمال باشا هو وابنه فيصل في حيلة الهدف منها تمكين فيصل من الخروج من دمشق، حيث يستطيع جمال باشا القبض عليه في حال اشتعال نار الثورة وهو كوجود فيها، فكانت الخطة إيهام جمال باشا بضرورة ذهاب فيصل إلى مكة ليعود مع المتطوعين الذين جمعهم أخوه الأمير علي للالتحاق بالحملة العسكرية التي يعد لها جمال باشا من أجل مهاجمة القوات الإنكليزية في مصر، وهي ما عرفت بحملة القناة، وبوصول فيصل إلى الحجاز وإفلاته من قبضة جمال باشا⁽¹⁾، توقف في طريق عودته من المدينة إلى مكة هو وأخوه عليّ، فوجه هذا الأمير إنذاراً خطياً إلى جمال باشا بتاريخ 8/شعبان 1334هـ الموافق 9/حزيران 1916م، أي قبل إعلان الثورة بيوم واحد، خلاصته: "المطالب العربية رفضتها الدولة العثمانية، والجنود العرب الذين أعدوا للجهاد، فجهادهم يكون في سبيل قضية العرب والإسلام، وإذا لم تنفذ الشروط التي عرضها الشريف مكة حالاً، فلا لزوم لبيان قطع العلاقة بين الأمة العربية والأمة التركية، وإنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب بين أمة العرب والدولة العثمانية"⁽²⁾.

وكان لوجود فيصل بن الحسين في دمشق غاية مفادها أن تنطلق شرارة الثورة العربية من بلاد الشام، ثم تتبعها الحجاز والبلاد العربية الأخرى، حيث التقى حينذاك بقيادة الحركة القومية، وأفهموه أنهم مستعدون للعمل ولإضرام ثورة عربية في بلادهم، لأنهم أصبحوا واثقين أن البلاد أصبحت معرضة لاحتلال أجنبي، وأكد له، ياسين الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر في الجيش العثماني المرابط في بلاد الشام، أن العرب قادرون على قيادة الثورة وإنجاحها دون أية معونة من الإنكليز، فلدّيههم كل شيء، ولا يريدون سوى أن يكون فيصل على رأس الثورة، فاقتنع فيصل أن في الشام إمكاناتٍ ورجالاً وحياءً، ووثق من ولاء سياسيي الشام وقادة البلاد ووجهائها وعشائرها، وذوي النفوذ والمكانة على اختلاف طبقات المجتمع⁽³⁾، وعلى ضوء ذلك أرسل فيصل إلى والده تقريراً، يبين له فيه إمكانات أبناء الشام التي

(3) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 23

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 105-106

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 388، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 22

- العظم، المذكرات، ج1، ص 89

(2) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 22

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 98، جمال باشا، المذكرات، ص 368

تساعدهم على الثورة واستعدادهم لذلك، وكان في دمشق ثلاث فِرَق مستعدة لإعلان الثورة، وفي حلب فرقتان، فيهم الكثير من الوطنيين المستعدين للانضمام للثورة متى بدأت، ولم يكن في تلك الآونة للأتراك سوى فرقة واحدة، أكثر أفرادها ترك، ولذلك كان من المؤكد أن يستولي الثوار على سورية بسهولة، لكن الرأي العام كان أقل استعداداً لقبول الثورة على الدولة العثمانية⁽¹⁾، وهذا دليل على تمسك العرب المسلمين في بلاد الشام - وهم الأغلبية الساحقة فيها - بالولاء للدولة العثمانية والعلاقة الأخوية مع العثمانيين، حتى هذه المرحلة، كون هذه العلاقة نابعة من الرابطة الإسلامية التي تجمع العنصرين العربي والتركي مع بعض في إطار الرابطة العثمانية، هذا على الرغم من إساءات الاتحاديين للعرب وممارساتهم ضدهم، حيث تم بيانها في الفصل الرابع وفي بداية هذا الفصل، والتي بلغت حداً لم يعد يحتمل، فقبل زعماءهم التنسيق مع الشريف حسين في الحجاز للتحرك ضد الاتحاديين، وكانت الخطة لانطلاق الثورة من بلاد الشام أنه مع تقدم القوات البريطانية لاحتلال منطقة الدردنيل في تركيا، ينكسر الجيش التركي، وتكون الفرصة مناسبة للبدء بالثورة عسكرياً في الشام.

لكن إخفاق القوات البريطانية في ذلك، وتبدل الأوضاع في بلاد الشام، بسبب تشتيت جمال باشا شمل رجال الحركة القومية، من خلال حملة الاعتقالات والتشريد والإعدام⁽²⁾، وهو ما اعتبر ضربة قاصمة للحركة القومية التي تستعد للثورة، وكذلك لإبعاد الفِرَق العسكرية العثمانية المربطة في بلاد الشام والتي يتألف أفرادها من أغلبية عربية، إلى مناطق بعيدة، ومما لا شك فيه أن هذه الاجراءات ضد الحركة القومية في بلاد الشام كانت مقصودة من جمال باشا، لأنه كان يتحسس من تحركات رجالات هذه الحركة ويرتاب في أمرهم، وهو ما عبر عنه بقوله: "أيدتُ حكم الإعدام الذي نفذ في بيروت في نهاية أغسطس/ آب عام 1915م، وقد أحدثتُ هذه الأحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصاة، وأدخَلْتُ الفرع في قلوبهم"⁽³⁾ ويرى الحصري أن انكلترة مع اقتناعها بأن بلاد الشام أصبحت البؤرة الأساس للفكرة العربية، لكنها كانت تعرف في الوقت نفسه أن الثورة العربية لا يمكن أن تبدأ بنجاح من سورية أو العراق، بل لا بد لها أن تبدأ من الحجاز، لأن الولايات السورية والعراقية كانت من مراكز احتشاد الجيوش العثمانية، كما أنه كان من السهل على الدولة العثمانية أن تزيد من

(1) صبحي العمري، المصدر السابق، ج1، ص 98

(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 98-99، فيصل بن الحسين، المذكرات، ص 6-7، حفنوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 108

(3) جمال باشا، المذكرات، ص 369، وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 324 - الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص 254

عدد الجيوش المحتشدة فيها، فكان لا بد من إعلانها في الحجاز⁽¹⁾، وهذا سبب وجيه يؤخذ بعين الاعتبار إضافة للعوامل السابقة التي جعلت إعلان الثورة العربية من بلاد الشام أمراً غير قابل للعمل به، كل ذلك جعل إمكانية إعلان الثورة في بلاد الشام أمراً غير ممكن التحقيق، فعاد فيصل إلى مكة كما تم بيان ذلك سابقاً، وتدارس الوضع مع أبيه وإخوته، وكان اتفق مع الضباط العرب في الجيش العثماني ومع السياسيين والقادة الذين التقاهم في دمشق، أن يلحقوا به إلى مكة، وبعد إنهاء التفاوض مع الإنكليز لدعم الثورة ومساندتها تقرر إعلانها من مكة، وقبل الإعلان بيومين أرسل فيصل برقية إلى جمعية العربية الفتاة طالباً تنفيذ ما اتفقوا عليه معه حول صيغة الشيفرة بشأن موعد انطلاق الثورة، وهي عبارة: أطلقوا الفرس الشقراء، ووصل الفرسان القادمون من الشام إلى المدينة المنورة للالتحاق بالثورة ليلة انطلاقها من مكة⁽²⁾.

2- بدء الثورة من مكة المكرمة.

انطلقت شرارة الثورة من مكة صبيحة يوم 9/ شعبان 1334هـ/ الموافق 10/ حزيران/ يونيو 1916م، وأعلن الشريف الحسين بن علي شريف مكة وأميرها خروجها على الدولة العثمانية والثورة ضدها، وهو الخروج الذي عده خروجاً ضد قادة الاتحاد والترقي الحاكمين لهذه الدولة منذ انقلابهم على خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، وأطل الشريف حسين من شرفة قصره في مكة - وهو ما رواه صبحي العمري بعدما سمعه شخصياً من الشريف حسين نفسه⁽³⁾ - وأطلق رصاصة الثورة الأولى من بندقيته، إيداناً ببدء الثورة على العثمانيين، وبدأت القوات العربية تصطدم بالقوات العثمانية في كل موقع من أراضي الحجاز مع الفارق الكبير بين قوات الطرفين، ويرى أمين سعيد أن ثورة الحجاز بدأت دون استعدادات كافية، وأنها تقابل قوات عثمانية مدربة تدريباً عالياً ومتحصنة في مواقعها ومسلحة تسليحاً جيداً⁽⁴⁾. ويبدو أن القوات العثمانية أخذت على حين غرة، وفوجئت بالهجوم عليها من قبل القوات العربية، ولذلك تمكنت قوات الثورة العربية خلال ثلاثة أشهر من السيطرة على كافة المواقع العثمانية في الحجاز إلا المدينة المنورة التي كانت حاميتها العسكرية متحصنة تحصيناً منيعاً، ففي 16/6/1916م استسلمت الحامية العثمانية في جدة، وفي 27/6/1916م استولت قوات الشريف حسين على رابغ وينبع، وفي 9/7/1916م استسلمت قوات العثمانيين في مكة المكرمة، وتولى الشريف حسين بنفسه إدارة التحركات العسكرية فيها، وفي 27/9/1916م استسلم العثمانيون في الطائف، وتولى الأمير عبد الله قيادة القوات العربية بمساعدة الشريف شاعر بن زيد. وبقيت حامية المدينة صامدة، ووصلتها تعزيزات قوية من دمشق بواسطة

(1) الحصري، يوم ميسلون، ص 57

(2) حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 109، داغر، مذكراتي، ص 87

وكذا: الزركلي، خير الدين، ما رأيته وما سمعته، ص 118-119

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 107، أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 65

- الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 62، عليجات، مسائل في الثورة العربية، ص 67

- KANDEMİR PEYGAMBERİMİZİN GOLGESİNDE SON TURKLEL, P.441

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 198

القطار⁽²⁾، واستمرت في صمودها حتى نهاية الحرب عام 1918م⁽³⁾، حيث استسلمت بعد توقيع هدنة مودرس بين الحلفاء والدولة العثمانية في / 30 تشرين الأول/ أكتوبر/ عام 1918م، وكان استسلام حامية المدينة بقيادة فخري باشا يوم/ 10 يناير 1919م⁽⁴⁾ أي بعد توقيع الهدنة بثلاثة شهور.

3- موقف حكومة الاتحاديين من إعلان الثورة العربية.

كان رد الحكومة الاتحادية على بدء أحداث الثورة العربية سريعاً، حيث أصدر جمال باشا في دمشق بعد خمسة أيام على انطلاقها بلاغاً رسمياً، في/ 15 يونيو 1916م، يحمل اعترافاً ضمنياً بالثورة، من خلال الإشارة إلى اعتداء عصابات مؤلفة من ذوي الطمع والفساد، ومن بعض جماعة العربان على بعض المخافر المجاورة للمدينة المنورة بالسلاح وتخريب التلغرافات وسكة الحديد، وأن القوات العسكرية المتمركزة في المدينة زحفت على العصاة وطردهم وبددت شملهم⁽¹⁾.

ثم اتخذت حكومة الاتحاد والترقي سلسلة تدابير سريعة ضد الثورة العربية من أهمها:

1- ألف جمال باشا فور إعلان الثورة وفداً من وجهاء سورية وعلمائها، وأوفده إلى المدينة للاتصال بشيوخ القبائل والرؤساء، وإقناعهم بالانضمام إلى الدولة في مقاومة الثورة وقمعها، ويتألف الوفد من محمد فوزي العظم، وعبد الرحمن اليوسف، وهما نائبان في مجلس النواب العثماني من أبناء دمشق) وأسعد الشقيري، (مفتي الجيش الرابع المرابط في بلاد الشام وهو من عكا)، وسافر الوفد وأمضى أياماً في المدينة وعاد مخففاً⁽²⁾.

2- استصدرت الحكومة الاتحادية مرسوماً من السلطات بتتخية الشريف حسين بن علي من الشرافة، وعينت الشريف علي حيدر مكانه.

3- إعداد طائفة من الفتاوى الدينية بتكفير الشريف حسين وأبنائه، واعتبارهم مارقين من الإسلام، ويجب على كل مسلم أن ينهض لقتالهم، بحجة أنهم خرجوا على الخليفة، وتعاونوا مع أعداء الإسلام، وأرسلوها مع بعض أنصارهم إلى جميع المدن الشامية فعممت على الأهالي في كل نواحي بلاد الشام.

(2) حغندوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 109، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 200-201
(3) عن سير العمليات في الحجاز، وطرده القوات العثمانية من مدنها انظر: صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 122-131

- نجار، فيصل الأول، ص 32-42

- KANDEMIR, PEYGAMBERIMIZIN GOLGESINDE, SON TURKLER, P.134

(4) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 260-261، العظم، المذكرات، ج1، ص 91
باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151، زيادة، أبعاد الثورة العربية، ص 70

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 154

(2) أمين سعيد، المصدر نفسه، ص 155

- العظم، المذكرات، ج1، ص 90-91

4- شنوا في الصحف اليومية التي كانت تصدر في دمشق وبيروت وهي الشرق والمقتبس والبلاغ وأببيل والرأي العام، حملة دعائية ضد الثورة استمرت أشهراً، لكن بدون فائدة.

5- أمدوا حامية المدنية المنورة بخيرة قواتهم لمنازلة الثورة، ومنحوا فخري باشا قائد هذه الحامية صلاحيات واسعة للعمل على إفشالها⁽³⁾.

كانت تلك الاجراءات السريعة التي اتخذتها حكومة الاتحاديين فور سماعها نبأ إعلان الثورة العربية في الحجاز، واتخذت إضافة لما سبق مجموعة تدابير وقرارات أخرى تمثلت فيما يلي:

أ- استدعت حكومة الآستانة جمال باشا من سورية نهائياً في أوائل سنة 1917م، فغادرها سراً، دون أن يطلع أحداً على سفره، ومن دون أن يودع أحداً، وذهب إلى الآستانة فأقام منبواً في وزارة البحرية حتى انهارت الدولة العثمانية عام 1918م، فلباً إلى أوروبا ثم قتله الأرمن في تفليس عاصمة أرمينيا عام 1922م.

ب- جردت الحكومة جمال باشا الذي كان قائداً للجيش الرابع في بلاد الشام من جميع السلطات المدنية والاستثنائية العسكرية، التي كان يمارسها في ظل الأحكام العرفية في بلاد الشام، وأبقته قائداً عادياً كالآخرين.

ج- جردت حكومة الاتحاديين القادة الذين كانوا في بلاد الشام مع جمال باشا من مناصبهم في المواقع التي يشغلونها في الجيش العثماني المقيم في الشام، وعينت قائداً ألمانياً هو الجنرال فون فالكنهاين القائد العام للجيش العثماني في أوائل الحرب العالمية الأولى، وبعد فشله في إدارة العمليات الحربية في فلسطين أقيـل وأنيب بدلاً عنه المارشال ليمان فون ساندرس، فهزم أيضاً عام 1918م من قبل الجيش الانكليزي المرابط في فلسطين.

د- ألغت الحكومة العثمانية المحاكم العسكرية، وأوقفت إحالة القضايا المدنية إليها.

هـ- كَفَّتْ حكومة الاتحاديين عن النفي والاعتقال للعرب في محاولة لاسترضائهم وتهدة نفوسهم النافرة من العلاقة مع جماعة الاتحاد والترقي، وشرعوا منذ أوائل عام

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 156-157

1917م بإعادة العائلات والأسر التي نفوها للأناضول إلى مدنها التي أخرجوا منها في بلاد الشام.

و- أرسلوا ولاية وموظفين وقادة عسكريين إلى دمشق وحلب وبيروت يحملون أغصان زيتون، ويدعون إلى التقارب والتفاهم، ولكن بعد فوات الأوان، فقد دخلت العلاقات بين الطرفين العربي والعثماني مرحلة القطيعة⁽¹⁾، وبلغ النفور بين الفريقين ذروته، وصارا ينظران إلى بعضهما كأعداء يحاول كل منهما سحق الآخر وتدميره، لذلك استمرت الثورة العربية في تقدمها، وخرجت خارج إطار الجزيرة العربية متجهةً شمالاً لإخراج العثمانيين من بلاد الشام، بعد أن أكملت قواتها إخراج العثمانيين من المواقع التي كانوا يتمركزون فيها ضمن الأراضي الحجازية، ما عدا موقعها الحصين في المدينة المنورة، وقد بلغت العلاقات العربية العثمانية حد القطيعة، أو ما يمكن أن يسمى بداية النهاية، وقبل الحديث عن تقدم جيش الثورة العربية في الأراضي الشامية، يجدر الوقوف عند قضيتين اثنتين هما: لورنس وأدواره في الثورة العربية، ومبايعة الشريف حسين ملكاً على العرب.

ثانياً: لورنس وأدواره في الثورة العربية الكبرى:

كانت شخصية لورنس⁽¹⁾ موضوعاً خصباً للنقاش من قبل المؤرخين الذين عاصروا الثورة العربية وأرخوا أحداثها، وقد برزت في علاقته بالعرب قضايا رئيسة

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 157-158، العظيم، المذكرات، ج1، ص94، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص30، سلام، المذكرات، ص227، 230

(1) هو توماس إدوارد لويل (Thomas Edward Lawrence)، أو ما يعرف بلورنس العرب، الابن غير الشرعي للسير توماس روبرت تشابمان من السيدة سارة مادن، ثاني خمسة أولاد له منها، أولهم بون ثم ويل وفرانك وأرنولد، وصفه شبنندر بأنه قصير القامة أشقر اللون ذو رأس كبير ووجه مستطيل وعينين زرقاوين وفكر ثاقب، من مواليد تريمادوك في مقاطعة ويلز في بريطانيا، ولد يوم 16/ آب 1888م، قضت أسرته وهو طفل فترة تنقل بين اسكوتلاندة وفرنسا وجيرسي وجزيرة ويتا قبل أن تستقر في اكسفورد عام 1896م، كان مميّزاً ذا أطوار غريبة في طفولته، وكان يهوى علم الآثار، اشتهر بحب المطالعة وكثرة القراءة، تخرج من جامعة اكسفورد من قسم الآثار، وسافر في سنة 1909م إلى بلاد الشام لينقب عن الآثار في فلسطين وسورية ولبنان، ثم أرسلته بعد ذلك حكومته إلى صحراء سيناء لإجراء تنقيب عن آثارها، وفي مصر نقل إلى مكتب المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة، وحين أعلنت الثورة العربية في الحجاز عين ضابط اتصال بين القوات البريطانية والقوات العربية ووصل إلى جدة في تشرين الأول 1916م، وحدد له أحد رجال الشريف حسين ويدعى حسين روجي ليرافقه، وصدرت له تعليمات بأن يعنى بلورنس، ثم رافق فيصل بن الحسين مدة سنتين ونصف أثناء الثورة العربية، وكان يتهم باحتواء هذه الثورة وخداع العرب أثناء ذلك، وكان متقناً اللغة العربية من خلال قضاائه فترة طويلة في البلاد العربية في الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام، وبانتهاء الحرب ودخول بلاد الشام والعراق تحت الانتداب الفرنسي والانكليزي، عاد لورنس إلى بلاده واعتزل السياسة، ثم أرسل إلى الهند كجندي عادي باسم الجندي الطيار ت. أ. شو، وترك الخدمة عام 1935م، وتوفي وهو يقود دراجته النارية بعد أيام من تركه الخدمة في السنة نفسها 1935م، له مؤلفات منها: أعمدة الحكمة السبعة، ثورة في الصحراء. انظر: الزركلي، الأعلام، ج2، ص 94

تتعلق بمواقفة من الثورة ومسيرتها، منذ بداية التخطيط لها وحتى وصولها في النهاية إلى دمشق، وأهم تلك القضايا ما يلي:

1- لورنس يحث العرب على الثورة ضد العثمانيين.

كان لورنس منذ مجيئه إلى البلاد العربية في رحلته الأولى عام 1909م، وخاصة إلى بلاد الشام، يجوب مدنها وقراها، ويتعرف على أثارها، ويتجول في صحرائها، يعايش الناس ويدرس طبائعهم وسجاياهم، يعمل لأجل الاستخبارات

- نانتغ، أنتوني، لورنس لغز الجزيرة العربية، نشر: مؤسسة المعارف، بيروت، 1969م، ص5، ص 35، 50-60 .
- مصطفى، عبد المنعم، لورنس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية، نشر: دار الحرية للطباعة، بغداد، 1990م، ص 50-16، 281-273 .

= - شهبندر، عبد الرحمن بن صالح (ت 1359هـ/ 1940م)، الكولونيل لورنس، مقالة نشرت بالتوالي على مدار (4) حلقات/ مجلة المقتطف، ح 1/ م 78، ج3/ ع مارس/ آذار 1931م/ شوال 1349هـ، ص 269-276، ح 2/ م 78، ج4/ أبريل / نيسان 1931م/ ذي القعدة 1349هـ، ص 426-434، ح 3/ م 78، ج6، يونيو حزيران/ 1931م/ محرم 1350هـ، ص 655-663، ح 4/ م 79، ج1، يوليو/ تموز، 1931م/ صفر 1350هـ/ ص 37-44، شهبندر، الكولونيل لورنس.

- رُوحي، حسين (ت 1380هـ/ 1960م)، من وثائق الثورة العربية الكبرى (الرحلة الرابعة)، تحقيق: صلاح جَزَار، نشر: المطابع العسكرية، طبعة أولى، عمان، 1997م، ص 11-12، رُوحي، من وثائق الثورة العربية.

- أندرياء، تاريخ الدروز، ص 18-21

- فيضي، المذكرات، ص 201-213، نجار، فيصل الأول، ص 44

- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 157-162، ج2 (لورنس كما عرفته)، نشر: دار النهار، بيروت، 1969م، ص 1-59، 118-127، 171-227

- محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 37، العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص 45
- نايتلي، فيليب، و: كولن سميثسون، المخفي من حياة لورانس، ترجمه عن الانجليزية: إيلي لاوند وإبراهيم العابد، نشر: الدار العربية للدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م، ص 11، 15-36، 48-49، 216، نايتلي، المخفي من حياة لورنس.

- عويدات، جميل، توماس لورنس، ودوره في الثورة العربية الكبرى، وآراء المستشرقين الغربيين في شخصيته وادواره (ر.ج)، ماجستير، جامعة القديس يوسف، معهد الآداب الشرقية، قسم التاريخ، بيروت، 1999، ص 14-16، عويدات، لورنس، دوره في الثورة العربية.

- موسى، سليمان، لورنس والعرب (وجهة نظر عربية)، نشر: وزارة الثقافة، طبعة ثانية، عمّان، 1992، ص 337-341، سليمان موسى، لورنس والعرب.

- أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية، ق1، ص 118، 122، 126، 132، 152، 177، 190، زين، الصراع الدولي، ص 71

- السمرة، محمود، لورنس اللغز المحير، مجلة العربي، ع43، يونيو حزيران 1962م، ص 141-146
- PEYGAMBERIMIZIN GOLGESINDE SON TURKLER, P. 9-11, 45

البريطانية تحت غطاء الآثار⁽¹⁾، ويؤيد هذا أنه نقل إلى العمل في مكتب الاستخبارات البريطاني في مصر، مع بدء الحرب العالمية الأولى، من أجل القيام بمهمته اللاحقة وهي الالتقاء بزعماء العرب في بلاد الشام والعراق والحجاز لحثهم على الثورة ضد الدولة العثمانية، بعد تزايد حاجة بريطانيا لمساندة العرب لها في الحرب العالمية ضد أعدائهم العثمانيين والألمان، وكان لورنس الأجدد على القيام بهذا الدور، بعد أن استكمل الاستعداد لتأديته، وذلك من خلال عمله في مجال الآثار في الفترة السابقة، ويشير نانتغ إلى توجيه المخابرات البريطانية له في فترة الاستعداد المذكورة، من أجل اكتساب الخبرة الواسعة في رسم الخرائط العسكرية وتفسير رموزها، والتعرف على أوضاع الجيش التركي، ومعرفة قدر الولاء الذي يملكه أبناء بلاد الشام للدولة العثمانية، إضافةً إلى تكليفه في هذه الفترة من قبل مدير مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة لوضع خطة لاحتلال بلاد الشام من قبل الحلفاء، بالتنسيق مع الشريف حسين أمير الحجاز⁽²⁾، وهنا تكون نقطة البداية الفعلية لتكليفه بتحريك العرب على الثورة ضد العثمانيين، حيث كُتِفَ بعد بدء الحرب العالمية في النصف الثاني من عام 1914م من حركته، وتوجه إلى البصرة في مهمة للالتقاء بأحد أبرز زعماء الحركة السياسية في العراق، وعضو مجلس المبعوثين العثماني المحامي سليمان فيضي سنة 1914م⁽³⁾، وقد التقاه في 7 نيسان 1916م قبل إعلان الثورة العربية بحوالي شهرين، وبعد حوار طويل اكتشف فيضي من فحوى الحوار سرّ قدوم لورنس إليه تحديداً، وتلفه لمقابلته بواسطة دائرة الاستخبارات العسكرية في مدينة البصرة، وهو يلبس الزي العربي البدوي ويتكلم بلهجة مصرية متقنة، تكاد لا تُدْرِكُ اللفظة الأجنبية فيها إلا بعد لأيٍ، واكتشف فيضي أن لورنس يعرف عنه كل شيء تقريباً، ويعرف أدواره المهمة في

(1) شهبندر، الكولونيل لورنس، مجلة المقتطف، ح1، 78، ج3، ع آذار 1931م، ص 271-274

(2) نانتغ، لورنس لغز الجزيرة العربية، ص 35، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 31

- نايتلي، المخفي من حياة لورنس، ص11، عويدات، لورنس، دوره في الثورة العربية، ص20-22

(3) فيضي، المذكرات، ص 151-154، عبد المنعم مصطفى، لورنس قصة حياته، ص 34-36

الحركة القومية العربية وانتسابه لجمعية العهد وحزب اللامركزية

وتزعمه للتيار القومي العربي في الموصل والبصرة ولإقناعه وتطمينه أخبره بأنه مرسل إليه من أصدقائه في مصر أمثال رشيد رضا ورفيق العظم وحسن خالد الصيادي وعزيز المصري، ثم حاول لورنس التعرف على أدواره في تلك الجمعيات في الحقبة الماضية، والتعرف على قدرة تلك الجمعيات والأحزاب على قيادة العرب للثورة ضد الأتراك، وقد أظهر لورنس لسليمان فيضي حرص بريطانيا على سعادة العرب واستقلالهم في مختلف أقطارهم، وهي عازمة على إفساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال، وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه، وهناك وسيلة واحدة لتحقيق ذلك، ألا وهي الثورة، فإذا أعلن العرب الثورة على الأتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية ... فلا بد من الثورة لتناول البلاد العربية استقلالها، وقال له: بأن الحكومة البريطانية فوضتني لإشعال تلك الثورة، وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك، كما خولتني حق اتخاذ جميع الوسائل والطرق التي تكفل نجاحها، وإنني قد اخترتك لتقوم بمهمة إذكاء نار الثورة، بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر، فإن أقدمت فإنك واجد كل ما تحتاج إليه من وسائل هذه الثورة، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح، فهيا إلى العمل في سبيل القضية العربية، وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك⁽¹⁾ لكن فيضي قطع عليه الطريق متعللاً بأعذار قابلة للتصديق، مبدياً له رفض الفكرة، بعد أن اكتشف دهاءه وأساليبه في التودد والتقرب إلى الأشخاص، في سبيل اقتناصهم لخدمة الأهداف التي يسعى إليها⁽²⁾.

(1) فيضي، المذكرات، ص 201-208، وانظر:

عبد المنعم مصطفى، لورنس قصة حياته، ص 37-39، سعيد، القومية العربية، ص 39

(2) فيضي، المذكرات، ص 211-213

عبد المنعم مصطفى، لورنس قصة حياته، ص 39-41

والموقف الثاني الذي يسجل ضمن لورنس لإثارة العرب ضد العثمانيين، هو توجه لورنس نحو عزيز علي المصري في محاولة جادة لاستمالته إلى جانب الانكليز، في إطار سعيهم احتواء زعماء التيار القومي العربي للعمل معهم ضد الدولة العثمانية، وينقل عزيز ما جرى بينه وبين ستورز المفوض البريطاني في مصر برفقة لورنس أثناء رحلته من مصر إلى جدة في الباخرة، بعد أن علمت الاستخبارات البريطانية في القاهرة بتعيين عزيز المصري من قبل الأمير فيصل بن الحسين مستشاراً له وقائداً عسكرياً مرشحاً لقيادة الجيش العربي الحجازي الذي سيفجر الثورة العربية في الحجاز ضد العثمانيين⁽¹⁾، ويكشف عزيز المصري النقاب عن خطط لورنس ودوره الخطير الذي قام به في الالتفاف على أماني وتطلعات العرب في الحرية والخلص من الظلم، من خلال تركيزه على إقناع الشريف حسين وابنه فيصل بإخلاصه لهم وكفاءته في معاونتهم للوصول للأهداف التي يسعون لها، يقول عزيز: "إن الدور الرئيس للورنس في ثورة العرب لم يكن دور القائد العسكري بقدر ما كان في الأصل دور العميل السياسي الذي ألحق بالعمل مع الأمير فيصل للتأثير عليه، وضمان نجاح الخطة الانكليزية، إن لورنس لم يكن يهمله ابداً أمر العرب في شيء، والمودة التي قيل إنه كان يكنها للعرب غير صحيحة، لأنه كان يؤمن تماماً أن مصلحة بريطانيا تقتضي بإبقاء الشرق الأوسط منقسماً على ذاته، وهو لم يكن يخدم مصلحة تحرير العرب وحصولهم على الاستقلال، إنما كان يهدف إلى ضم البلاد العربية إلى بلده ... إن لورنس لم يعط العرب أي شيء، ولكنه عمل على تفكيك الرابطة الإسلامية، وهو الذي قال: إن ثورة العرب كانت أدواتنا الرئيسة للانتصار على الشرق"⁽²⁾. ويضيف عزيز المصري إيضاحات جديدة عن لورنس ودوره، من خلال شكواه إلى الأمير فيصل بن الحسين عن قلة الأسلحة التي سيسلح بها جيش الثورة العربية، وما أجابه به فيصل بأن لورنس وعده بمزيد من المدافع والبنادق وهي في طريقها إلى جدة، ويبين أن جواب الأمير فيصل له جعله يشعر بالإحباط⁽³⁾. ثم يقول عزيز: "بقي في جانب من تفكيري لغة الحديث من الأمير فيصل حول لورنس التي كانت الشواهد تشير إلى أنه أكثر من ساعده الأيمن، وأكثر من مستشار خاص له ... وطرحت ذلك جانباً"⁽⁴⁾ ويعيد عزيز إلى الأذهان دور لورنس في الالتفاف على الثورة العربية ومراوغته ووعوده الكاذبة للشريف حسين والأمير فيصل من خلال إلحاحهما على لورنس بالإسراع في تقديم الأسلحة، وقد استشف عزيز ذلك من حديثه مع الشريف حسين: "تركز حديث الشريف حسين على أن الانكليز وعدوه بكميات كبيرة من كافة أنواع السلاح ... وقلت له: لقد تحدثت مع الأمير فيصل بخصوص السلاح منذ أكثر من شهر، وكان رده أن لورنس وعده بالسلاح في مدى عشرة أيام، وقد مرت

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 219، لورنس، الثورة في الصحراء، ص 42

(2) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 39

(3) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 44-45، وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1،

ص 219

(1) محمد عبد الحميد، المصدر السابق، ص 45

هذه الأيام، وها نحن الآن قد مضى علينا أكثر من شهر دون أن تصلنا بندقية واحدة، وقال الشريف حسين في تبرم شديد: حتى الآن لا نملك سوى أن نصدق وعود الانكليز، لأنه ليس أماننا سواهم في الحصول على السلاح، بل هم المصدر الوحيد الذي لا نعرف سواه" (2) ثم يشير عزيز المصري صراحةً إلى هدف الانكليز من الثورة العربية من أجل مقاتلة الأتراك، دون السماح لها بالوصول إلى استقلال العرب، ويقول: " كان حلمي إنشاء جيش عربي قوي عن طريقه يمكن مفاوضة الانكليز لتحقيق الأماني العربية ... لقد فاتحتُ الأمير فيصل بصراحة تامة، وأكدتُ له أن الثقة التامة في الانكليز وفي لورنس بالذات في غير محلها، وقلت له: إنني أشعر حتى في خيمتي أنني لستُ وحدي أحس بعيون الانكليز داخلها، بل في كل مكان ...، بشكل عام كان إحساسي منذ البداية عدم الثقة بالانكليز ...، لقد نجح الانكليز أثناء الحرب العالمية الأولى جعلوا العرب يقاتلون الأتراك وفتحت لهم أبواب سوريا على مصراعها، وكذلك أبواب فلسطين" (3).

ذاك هو موقف لورنس مع عزيز المصري حين حاول أن يستقطبه ليكون أحد الأدوات التي يحركها ضد الدولة العثمانية، ولما عجز لورنس والانكليز معه عن شراء عزيز المصري، عملوا على إبعاده عن الشريف حسين حتى لا يكشف خداعهم للشريف، وضغطوا واستعملوا نفوذهم لدى الشريف حتى استغنى عن خدماته، بعد أن عينه قائداً للجيش العربي/ الذي سيقود الثورة العربية فيما بعد⁽¹⁾، وفي ذلك يقول أمين سعيد: " والذي عليه الأكثرون أن السبب الحقيقي لانسحابه، هو خلاف سري نشب بينه وبين الانكليز، فقد ألح على الحسين في أن يطلب من هؤلاء إرسال المدافع التي غنموها من الترك في ميدان فلسطين، ولما طال المطال ولم يرسلوا شيئاً، قال: يلوح لي أن الانكليز يريدون القضاء على العرب والترك في وقت واحد، وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنوا بعضهم بعضاً، والظاهر أن هذه الأقوال نقلت إلى الحسين والانكليز، فألح هؤلاء على الحسين في طلب إقصائه، منتحلين لذلك بعض الأعذار، فأرسل تعليمات سرية إلى الأمير عليّ في رابغ، بأن يوعز إليه بأن يطلب إجازة، فأدرك هذا ما يجري في الخفاء، فتقدم بنفسه لطلبها وعاد إلى مصر" (2).

2- لورنس مع الأمير فيصل بن الحسين في توجيه الثورة العربية.

منذ الوهلة الأولى للالتقاء بلورنس لم يبد الشريف الحسين بن علي ارتياحاً له، ولم يكن بادئ ذي بدء شديد الحماس للأفكار التي يطرحها لورنس عليه، ويذكر نانتيغ " أن ستورز استنفذ كل ما في جعبته من مخزونات الكياسة واللباقة الدبلوماسية حتى

(2) محمد عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 46، وانظر: أمين، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 219

(3) محمد عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 47

(1) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 47، وانظر: داغر، مذكراتي، ص 89-90

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 219، وانظر:

نجار، فيصل الأول، ص 31، داغر، مذكراتي، ص 90-91

تمكن من إقناع الشريف حسين بحسن نيات لورنس نحو العرب، واندفاعه لتكريس نفسه لخدمة الثورة العربية، وإزاء تلك التطمينات شعر الشريف حسين ببعض الارتياح، وأمر ابنه الأمير عبد الله بوضع الترتيبات اللازمة لنقل لورنس إلى معسكر فيصل في التلال القريبة من المدينة المنورة ... ووصل لورنس على رابع وأعجب بالأمير علي، لكنه لاحظ أن ملامحه كملامح أخيه عبد الله، وأنه طيب القلب صريحاً واسع الثقافة ... وشريفاً إلى درجة يأبى على نفسه تصديق أن للخيانة مكاناً في نفوس الآخرين، وذلك ما كان يميزه عن شقيقه الأمير عبد الله الذي كان يلجأ دائماً إلى تدبير المؤامرات وحبك الدسائس للإيقاع بأعدائه ... ووصل لورنس بعد مسير يومين إلى خيمة الأمير فيصل، وما أن لمح حتى وجد فيه صورة ذلك الحواري الجديد والقائد الملهم الذي طالما تصوره في أحلامه يسير في مقدمة الجيوش العربية ليقود نضالها في سبيل الحرية والاستقلال، وفي هذه اللحظة تصور لورنس أن حلمه قد تحقق، وأنه قد عثر على ضالته المنشودة في شخص فيصل باعث النهضة العربية كما كان يصفه⁽¹⁾ وتقول أرسكين : " لورنس كان كثير الرغبة في زيارة فيصل في مقره في الصحراء"⁽²⁾ لقد كان فيصل بن الحسين ضالة لورنس المنشودة، وهو الزعيم الذي وصفه لورنس بـ باعث النهضة العربية، أو ما أطلق عليه: نبي الوطنية⁽³⁾، لذلك ارتاب الوطنيون العرب من لهفة لورنس حين عثر على الأمير فيصل، مما دفع مولود مخلص⁽⁴⁾ أحد الضباط المقربين من الأمير فيصل إلى التصريح للأمير بشيخه في

(1) ناتنغ، لورنس لغز الجزيرة العربية، ص 54-58

(2) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 67

(3) لورنس، الثورة في الصحراء، ص 33، 41. وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 107،

شهيندر، الكولونيل لورنس، مجلة المقتطف، ح2، م 78، ج4، ع نيسان 1931م، ص 431

- أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 68-69، عبد المنعم مصطفى، لورنس قصه حياته، ص 44-49

(4) هو مولود باشا بن الحاج شعبان التكريتي، من الضباط العراقيين السنة في الجيش العثماني، من منطقة تكريت التابعة لمحافظة صلاح الدين في شمال العراق قرب مدينة الموصل، ولد 1303هـ/ 1886م، درس في المدارس العسكرية في بغداد واستانبول، قال عنه لورنس: إنه أنزلت مرتبته مرتين في الجيش العثماني بسبب ميوله القومية، وقد برزت شجاعته في جيش الثورة العربية بعدما التحق به عام 1916م، خاض معارك كثيرة وجرح مرات، وعين بعد ذلك حاكماً عسكرياً لمنطقة دير الزور في شرق سورية، ثم عاد إلى العراق فعين متصرفاً في كربلاء، ثم نائباً

لورنس، وقوله له: " سيدي الأمير يجدر بنا أن نبعد من هنا قبل أن يطلع على كافة أمورنا، ثم التفت إلى لورنس وقال له: ما جئتُ إلى هنا إلا للتجسس علينا" (5).



لرئيس مجلس الأعيان العراقي، كان من أبرز مواقفه أثناء الثورة العربية تصديه لورنس وشكه فيه ووقوفه له بالمرصاد، وتحذير الأمير فيصل منه، توفي سنة 1370هـ / 1951م في بيروت ونقل إلى بغداد، فدفن هناك. انظر: الزركلي، الأعلام، ج7، ص 333، لورنس، الثورة في الصحراء، ص 35، لورنس، توماس إدوارد (ت 1354هـ / 1935م)، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة: محمد نجار، نشر: الأهلية للنشر والتوزيع، طبعة أولى، بيروت، 1998م، ص 101-107 .

- نجار، فيصل الأول، ص 46

(5) ناتنغ، لورنس لغز الجزيرة العربية، ص 60-61، وفي معناه انظر: لورنس، الثورة في الصحراء، ص 107

- السمرة، لورنس اللغز المحير، مجلة العربي، ع43، حزيران، 1962م، ص 145

3- دور لورنس في معارك الثورة العربية.

سعى لورنس بذكاء ودهاء إلى مرافقة الأمير فيصل بن الحسين خلال إدارته لعمليات الثورة العربية، من أجل أدائه الدور المرسوم له من قبل إدارة الاستخبارات العسكرية البريطانية، في الإشراف على سير العمليات في الميدان، والتأثير على توجيهها وفق المصلحة البريطانية، ولذلك حرص على التخلص من الفريق عزيز المصري وإبعاده عن قيادة الثورة العربية عسكرياً، لأن في بقائه سيكون الاصطدام المباشر بينهما⁽¹⁾، وهو أمر لا تريده الاستخبارات البريطانية، لأن فيه فضح لمخططاتهم وكشف لحقيقة لورنس، الذي يتظاهر طوال الفترة التي عمل فيها مع الثورة بحب العرب والإخلاص لهم والحرص على حرية بلادهم واستقلالها، وصرح بهذا في مؤلفاته⁽²⁾ ولعزيز المصري ولسليمان فيضي حينما أراد اقناعهما بإشعال الثورة ضد العثمانيين⁽³⁾ كما صرح بهذا الشهبندر حينما التقاه في مصر⁽⁴⁾، واستمر يكرره في جميع لقاءاته بالعرب قادةً وأفراداً في ميادين القتال أثناء سير عمليات الثورة العربية، كي يحافظ على موقعه الذي يشغله بالقرب من الأمير فيصل في إدارة الثورة، وما أشار إليه مولود مخلص حين قال له: ما جئت إلى هنا إلا للتجسس علينا، ونصح الأمير فيصل بضرورة إبعاده عن موقع قرار الثورة⁽⁵⁾، لكنه كان في غاية التمكن من نفسية الأمير فيصل والإقناع له بأهمية بقائه قريباً منه، للحفاظ على زخم تصاعد الثورة ونجاحها، لهذا وقف لورنس بعد انتهاء عمليات الثورة وانكشاف لعبة بريطانيا في احتواء الثورة وخداع الشريف حسين وأولاده ومعهم أمة العرب جمعاء، يقول: بأنه المحرك للثورة العربية، ورجل المواقف البطولية في عملياتها، وأنه قام بنفسه بالعمليات الفدائية والقتالية البارعة التي لولاها لما انتصرت الثورة!! الأمر الذي أثار

(1) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 47

(2) لورنس، الثورة في الصحراء، ص 35-36

لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 113، 119

(3) فيضي، المذكرات، ص 201-208، محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 39، 41-42، عبد المنعم مصطفى، لورنس قصة حياته، ص 38-39

(4) شهبندر، الكولونيل لورنس، مجلة المقتطف، ح 1، م 78، ج 3، ع آذار / 1931م، ص 369

(5) ناتنغ، لورنس لغز الجزيرة العربية، ص 60-61. وانظر:

الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 31

- YILDIZ,BUYUK ISLAM TARIHI, CILD, 12,P. 190-192

حفيظة الضباط العرب الذين اشتركوا في الثورة، وأثار معهم كل القادة والسياسيين العرب الذين عاصروا تلك الأحداث وأسهموا في صنعها، وتصدى بعد ذلك المؤرخون الذين كتبوا عن الثورة العربية لتقولات لورنس وادعاءاته المزعومة أثناء مسيرة الثورة في عملياتها من البداية حتى النهاية⁽¹⁾، ويأتي في مقدمة هؤلاء إبراهيم نجار المعروف بأنه شهد الأحداث بنفسه وتابعها أولاً بأول، فهو يذكر دور لورنس وأهمية دوره، وقلة من معه من الضباط الانكليز، ويقول: "لقد كانت سياسة العشائر والبدو بيد الكولونيل لورنس، وكان الضباط الانكليز الذين معه، ولا يزيد عددهم عن العشرين، لا يشتغلون إلا النفايات"⁽²⁾، وتعترف أرسكين حيث تحدثت عن لورنس بأنه "لم يكن قائداً عسكرياً، وإنما كان رجل علم ينصرف إلى الحفريات وغيرها"⁽³⁾ ويذكر صبحي العمري، وهو أيضاً من ضباط الثورة العربية ومن الذين شهدوا الأحداث بأنفسهم، أن لورنس عندما لبس اللباس البدوي خلال فترة الثورة كان يقصد خداع العرب، ويحاول أن يربهم نفسه كأنه أحدهم يشاركونهم الحرب والمتاعب، وأنه يعرف حق المعرفة أن العرب أذكى من أن تخدعهم المظاهر الكاذبة،⁽⁴⁾ "ولكنه يقصد قبل ذلك أن يخدع قومه الانكليز، فيظهر أمامهم بمظهر البطل المغامر الأسطوري الذي عرف العرب حتى صار واحداً منهم، وفهمهم حتى قادهم وسيرهم في مصلحة بريطانيا، ومع الأسف قبل العرب هذه الخدعة بسكوتهم وعدم مبالاهم، وقبلها الانكليز كحقيقة بالنسبة للنتائج التي وصلوا إليها عن هذا الطريق"⁽⁵⁾، ويقول في موطن آخر: "... وقع في يدي كتاب وضعه لورنس، اسمه: ثورة في الصحراء، فأدهشني ما جاء فيه من أمور مغايرة للواقع، ولم يكن ضباط الثورة الآخرين على كثرتهم في الجيش العراقي أقل دهشاً واستغراباً مني حين قرأوا هذا الكتاب، ووقفوا على ما فيه من تشويه للحقائق ... وهذه الموجة الجديدة التي تطلع علينا بها الدعاية الصهيونية من أن إلى

(1) وفي هذا رد على عويدات فيما قدمه من أدلة وأسباب يبين فيها أن الظروف التي دفعت لورنس للعمل مع العرب في ثورتهم، هي الانتماء لعائلة نبيلة (ينسب إلى ريتشارد قلب الأسد)، جعلته يتحفز لقراءة تاريخ أجداده، والعمل والبحث بآثار المنطقة العربية التي حارب فيها هؤلاء الأجداد، وكذا تعاطفه مع العرب نتيجة الاستبداد التركي بهم، وشعوره معهم لكونهم حلفاء لبلاده في الحرب ومناصرين لها. انظر: عويدات، لورنس، دوره في الثورة العربية، ص 24-25

(2) نجار، فيصل الأول، ص 54

(3) أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 68

(4) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 157-158

(5) صبحي العمري، المصدر السابق، ج1، ص 158

آخر، تبين لي أن لورنس لم يكن سوى إحدى آلاتها المسخرة، ... واليهود هم أصحاب المصلحة الأولى في تشويه الثورة العربية، ويأتي بعدهم الدولتان المستعمرتان الكبيرتان فرنسا وبريطانيا ... فأطفالنا الذين أصبحوا شباباً، وشبابنا الذين أصبحوا كهولاً، يعتقدون أن لورنس هو الذي قاد الثورة، مصدقين أكاذيب لورنس ومن هم وراءه من يهود ومستعمرين ... إنني لا أكتب تاريخ الثورة العربية، ولكني أحد شهودها العيان ... إن غايتنا هي الدفاع عن ثورتنا إزاء ما ألصقه بها لورنس من تشويهات أظهرتها أمام العالم كأنها آلة مسخرة في يده يوجهها نحو الوجه الذي يخدم مصالح قومه الانكليز، وكأن الرجال الذين انخرطوا في الثورة قطيع يسوقهم لورنس⁽¹⁾، وأخيراً يكشف صبحي العمري ما فعله لورنس في محاولة مقصودة لتضليل الرأي العام البريطاني، وإعطائه انطباعاً عن بطولاته، وأنه قائد الثورة العربية، والبطل الأوحده الذي يحقق كل انجازاتها وانتصاراتها، فقد روى أن لورنس أرسل إلى مجلة بريطانية صورته مع بعض رجال الجيش بعد معركة الطفيلة، يظهر فيها لورنس واقفاً بين الجنود مع قائد المعركة صبحي العمري أحد ضباط الجيش العربي الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل، وقد فضح صبحي العمري لورنس وكشف أكاذيبه بعد رأي الصورة في المجلة وتحتها عبارة لورنس ورجاله في استراحة بعد إحدى المعارك، ولما تقابل صبحي العمري مع لورنس بعد ذلك حاول لورنس الاعتذار بطريقة خبيثة، حَمَلَ فيها ما حصل لالتباس من المجلة وأنه لم يكن يقصد التسلق والظهور على حساب العمري⁽²⁾.

ويشير نويهض إلى موقف لورنس وستورز من الثورة العربية، مؤكداً على ما ذكره آنفاً صبحي العمري من أن اليهود والصهيونية لعبوا دوراً فيما بعد في تلاعب لورنس وستورز فيما كتبوه عن الثورة العربية الكبرى، فيقول نويهض: " كان لورنس معروفاً بغرائب في ثورة الحسين بن علي، أما كتاب ستورز: مشرقيات، ففيه خزعبلات كثيرة، وهو أكبر متلاعب في كتابه هذا بين العرب واليهود ومصالحته الشخصية، ولما كان اليهود يهتمهم أمر الكتب الانكليزية التي تتناولهم، فقد دخل معهم

(1) صبحي العمري، المصدر نفسه، ج2، ص 11-15، 100-101
- PEYGAMBERIMIZIN GOLGESINDE, SON TURLEL, P. 51, 379
(2) صبحي العمري، المصدر نفسه، ج2، ص 175، وانظر: سلطان، تاريخ سورية (1908-1918)، ص 466

ستورز في مساومات مادية لإفراغ المسائل المتعلقة بهم على هواهم، وطبع الكتاب أكثر من مرة، وفي الطبعة الثانية التلاعب والتأخير والتقديم والخوف والإضافة⁽¹⁾.

ويتحدث العجلوني، وهو أيضاً من ضباط الثورة العربية، عن حقيقة دور لورنس في هذه الثورة، ويقول: "وقصة لورنس قصة نسج حولها خيال واسع، فقد استغرب الذين زاملوه أو عرفوه عن قرب، استغربوا منه تلك الدعوى الجزئية المبنية على الباطل، بأنه صنع وطنية العرب، هكذا يقول في كتابه ثورة في الصحراء، ومتى كانت القضية العربية في القرن العشرين مقصورة على الصحراء؟ وصحراء العرب مترامية الأطراف، فهي مجال واسع لظهور نبوغه في حبك الروايات والأساطير، مما يغرم به الانكليز والأمريكان"⁽²⁾ ويحاول سليمان موسى أن يضع دور لورنس في الثورة العربية الموضع الذي يتناسب مع حقيقته، ويقول: " فإذا أراد أحد أن يقدر تقديراً عادلاً قيمة الدور الذي لعبه في ميدان الثورة، الذي امتد من مكة جنوباً حتى حلب شمالاً، فإنه لا يستطيع أن يعطيه سوى نصيب متواضع، وأية غارات كان يمكن أن يقوم بها لورنس وغير لورنس لولا وجود القاعدة الثابتة في العقبة والقويرة ووادي موسى، وهي قاعدة الارتكاز التي كان العرب يوطدون دعائمها بدمائهم وجهودهم وتضحياتهم... لكن لورنس استخدم قلمه للتوسع في وصف حركاته، وإضفاء هالة البطولة الخارقة عليها، بينما لم يتح للعرب مثل تلك الموهبة البيانية، ومن هنا طغى لورنس على جهود غيره، وبرز على حساب سواه"⁽³⁾. وإضافة إلى ما سبق بيانه أنفاً بالنسبة لحقيقة مشاركات لورنس في معارك الثورة العربية، يمكن الاستشهاد فيما كتبه بقلمه عن الدور الذي أخذه في مسيرتها، وأن أعماله ضخمت، فيما كتبه عنه الغربيون، وما كتبه عن نفسه، وأنه حاول أن يحيط نفسه بهذه الهالة من الأمجاد، حتى أصبح في كل ما يصدر عنه كأنه يقدم عظام الأعمال وفرائدها جراء طريقته في الحديث عن نفسه وعن أعماله، ويؤكد هذا ما حدث بعد معركة الطفيلة⁽⁴⁾، حيث وقعت هذه المعركة بين القوات العربية والتركية، دون أية مشاركة من لورنس، وكان التخطيط للمعركة والإشراف عليها، والعناصر التي قاتلت فيها، كل ذلك بأيدي عرب، وأشرف الضباط العرب وأداورها ميدانياً، ويعترف لورنس بذلك بنفسه، وعندما قدم

(1) نويهض، عجاج (ت 1403هـ / 1982م) المذكرات، (ستون عاماً مع القافلة العربية)، نشر: دار الاستقلال، طبعة أولى، بيروت، 1993م، ص 100.

(2) العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص 45، وانظر: الريحاني، فيصل الأول، ص 25-26.

(3) موسى، سليمان، لورنس والعرب، نشر: وزارة الثقافة، طبعة ثانية، عمان، 1992م، ص 340-341. وانظر: سالم، في سبيل الدفاع عن الإسلام، ص 8-9.

(4) الطفيلة: مدينة أردنية تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة عمان، تبعد عنها مسافة 200 كم، وهي ثالث محافظة من محافظات متجاورة في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية هي الطفيلة ومعان والكرك، وتقع في وادٍ تحيط به جبال وهضاب عالية من الشمال والشرق والجنوب بينما تحدها الأعراس من الغرب.

انظر: صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 155.

- القوابعة، سليمان، الطفيلة منذ العصر الحجري حتى 1930م (ج2). د. ن، الطفيلة، الأردن، 1985م.

ج1 (موجز في الجغرافية التاريخية)، ص 23-27، ص 145-171.

ج2 (تاريخها جغرافيتها)، ص 12-15، 30-39.

- النوايسة، طلعت، الطفيلة، دن، الأردن، 1982م، ص 1-12.

تقريراً عنها إلى هيئة الأركان البريطانية في فلسطين، أوصت بمنحه وسام الخدمة المتميزة، ويقول في ذلك " عندما وصل التقرير إلى القيادة العامة، والذي لم أقصد منه سوى تسجيل المعركة في السجلات الرسمية، ظنوا أنني متواضع لدرجة إغفال ذكر دوري في المعركة، وهكذا منحوني وسام الخدمة الخاصة "(2).

4- لورنس يسرق من دمشق إكليل صلاح الدين الأيوبي.

وإذا كان لورنس قد أسهم بشكل فعال في أن يكون وسيلة بريطانيا لخداع العرب وسرقة استقلالهم، بعد ما أدى دوره في حثهم على الثورة ضد العثمانيين، وهو يمنيهم بالأمال والطموحات، ويعدّهم بالاستقلال وتكوين دولة ممتدة الأطراف تشمل بلاد الشام والعراق والحجاز⁽¹⁾، وهي المناطق التي ظللتها راية الخلافة العثمانية إلى حين وقوع هذه البلاد فور خروج القوات العثمانية منها تحت الاحتلال الفرنسي والبريطاني بعد عام 1918م، فإنه ذهب إلى أداء دور آخر إثر دخول القوات البريطانية إلى دمشق ظافرة منتصرة في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهذا الدور مكمل لدوره الأول من حيث خضوعه لإرادة الحكومة البريطانية واستخباراتها، لكن هذه المرة سرق سرقة حضارية، مارس فيها لورنس هوايته في علم الآثار، وأظهر براعته في خداع العرب والمسلمين⁽²⁾، وإثبات ما تكنه صدور الحلفاء الفرنسيين والانكليز وجواسيسهم أمثال لورنس من حقد وضغينة على العرب والمسلمين، ولا أدل على ذلك من تصريح غورو قائد الجيش الفرنسي عندما دخل دمشق يوم 25 تموز عام 1920م⁽³⁾، ووقف عند ضريح صلاح الدين الأيوبي محرر القدس من الصليبيين عام 583هـ/ 1187م⁽⁴⁾، وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين⁽⁵⁾!! وقول الجنرال اللنبي حليف الثورة العربية حين دخل القدس: الآن انتهت الحروب الصليبية⁽⁶⁾. لقد أدى لورنس خدمة أخرى لبريطانيا حين قيل أن يسلب السلطان صلاح الدين الأيوبي الهدية الوحيدة التي تذكرته بها أوروبا، وقد أورد شهبندر هذه الحادثة ضمن ذكرياته عن مواقفه مع لورنس، وسجلها مع الألم والحسرة وهو يتحدث عنها، ويحسن ذكرها بالنص كما رواها، لما لذلك من أثر بليغ في طريقة الرواية، يقول شهبندر: " إذا كانت الذنوب تزداد على قدر

(2) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 565

وانظر: العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية، ص 54

- صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص156، 163-181

- الروسان، ممدوح عارف، مسيرة الثورة العربية على الساحة الأردنية (تموز 1917-أيلول 1918م)، نشر: لجنة تاريخ الأردن/ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، غمّان، 1994، ص20-21.

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 197

(2) المحامي، الدولة العلية، ص 726

(3) الحصري، يوم ميسلون، ص 161-162

- الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص 3-4

(4) ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم (ت 630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ (12ج)، نشر: دار صادر، بيروت، 1979م، ج11، ص546-553.

- ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 323-327

(5) المحامي، الدولة العلية، ص 726

(6) المحامي، المرجع السابق، ص 726، وكذا: سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 496

مرتكبها، فهناك ذنب للكلونيل لورنس لا أغفره أبداً، ولا يزال في نفسي منه ألم يتجدد مع الذكريات، وهو قبوله أن ينزل على إرادة الحكومة البريطانية، فيسلب السلطان صلاح الدين الأيوبي الهدية الوحيدة التي تذكرته بها أوروبا لأعماله الخالدة من بعدما نسيته ثمانية قرون كاملة، و(هذه الهدية) هي إكليل من الذهب قدمه له الإمبراطور غليوم يوم زيارته دمشق من نحو جيل، وقد حفر عليه بخط عربي مبين (إن الله يحب المحسنين)، وفي سرقة الأموات عار ليس في سرقة الأحياء، ذلك لأن الحي يستطيع الدفاع عن نفسه، وأما الميت فسلحه الحرمه الرهيبة الساكنة التي يتكفن بها، ويزيد في قبج هذا العمل أن الكلونيل لورنس من المولعين بالقرون الوسطى وفروسية أبطالها، فهل أنجبت تلك القرون يا ترى من يتقدم على السلطان صلاح الدين بالشجاعة والفروسية والكرم، هو خصم ريكاردس قلب الأسد، وبطل تلك المعارك الخالدة؟ وقد فاتحت العلامة هوجارت في أمر هذه السرقة المعيبة لما زرت لندن أخيراً، وقلت له: لا بد من المطالبة بإعادة الإكليل للرأس الذي يستحقه، وقد استعاد المارشال النبي القدس من الشرق بالأبهة اللاتقة في القرن العشرين، فمن المروءة أن يُبقي على إكليل من الذهب بسيط يعلق على تابوت من استعادها من الغرب في القرن الثاني عشر، وأظهر من النبل في معاملة الخصوم ما يسجل له بمداد الفخر!! وعلينا معاشر الأحياء وقد ورتنا مجد الموتى واقفينا فخارهم، أن نرعى ذمتهم على أقل تقدير ونحفظ كرامتهم، وما على رجل حر مثل لورنس، مستقل في أحكامه أن يطيع مخلوقاً في معصية وجدانه⁽¹⁾.

ولربط هذه الحادثة في سياقها التاريخي، ينبغي الإشارة إلى أن الخليفة عبد الحميد الثاني الذي رعى استقلال بلاد الشام تحت راية الخلافة الإسلامية طوال فترة خلافته، قد استطاع بحنكته ودهائه أن يوجه السياسة الخارجية العثمانية بما يرجع بالفائدة على بلاد الشام وعلى العرب والمسلمين، حين جعل ملك ألمانيا عام 1898م، الملك غليوم الثاني أثناء زيارته لعاصمة الخلافة العثمانية استانبول يعرب عن قناعاته، ويعلن تأييده للخلافة العثمانية، مراعاة لمصالح دولته مع دولة الخلافة العثمانية، ويهدد الدول الحليفة الثلاث روسيا وبريطانيا وفرنسا، ويصرح بأن الدولة العثمانية آنذاك ليست كما يطلقون عليها رجالاً مريضاً، بل هي قوية تمتلئ حبوية وقوة، وأنه لا يقبل بتهديدها من قبل الدول المذكورة أنفاً، وأن ألمانيا هي صديقة للدولة العثمانية ولثلاثمائة مليون مسلم أتباع الخليفة العثماني كما لم يتحرج القيصر الألماني أيضاً من تهديد قيصر روسيا بقوله: ابتعد عن مسّ شرف المسلمين وخليفتهم، ثم أتى به السلطان عبد الحميد لزيارة ضريح القائد صلاح الدين⁽²⁾، وقد خلّد أحمد شوقي هذه الزيارة حين قال فيها قصيدة جميلة آية في البلاغة والبيان، أشاد فيها بغليوم الثاني، وقال تحت عنوان تحية غليوم:

عظيمُ الناس من يبكي العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما

(1) شهيندر، الكلونيل لورنس، مجلة المقتطف، ج4، م79، ج1، ع يوليو تموز / 1931م/ ص 37
(2) السلطان عبد الحميد، المذكرات، ص 155-156

أتدري أي سلطان تُحيي
دعوت أجّل أهل الأرض حرباً
وقفت به تُذَكِّرُهُ ملوكاً
فلو كان الدوام نصيب ملكٍ

وأي ممّلك تهدي السلام
وأشرفهم إذا سكنوا سلاماً
تعوّد أن يلاقوه قياماً
أنال بحدّ صارمه الدوام⁽²⁾

فكانت هدية غليوم الثاني الإكليل المذهب إلى صلاح الدين احتراماً منه للعالم الإسلامي ولدار الخلافة وللبلط صلاح الدين الذي رد الحملات الصليبية عن بلاده دفاعاً عنها، في حين قابلت بريطانيا إخلاص العرب لها وخدماتهم لمصالحها بتقسيم بلادهم واحتلالها، وإعادتها الحملات الصليبية إلى ذاكرة العرب والمسلمين، وبث روح العداء لها في نفوسهم من جديد.

ثالثاً: مبايعة الشريف حسين ملكاً على العرب.

- أراد الشريف حسين أن يقوم بخطوة عملية يضع الحكومة البريطانية ومعها حليفها فرنسا أمام الأمر الواقع، ويعلن بعد أن أخرج العثمانيين من الحجاز، وهو ما زال مستمراً في عمليات الثورة العربية لإكمال ما بدأه حتى يخرجهم من بلاد الشام، أنه سيأخذ البيعة من العرب الذين ساروا معه كملك تمهيداً لإقامة الدولة الموحدة لبلادهم، خاصة وأنه بدأ يشعر ببؤس الغدر والتراجع عن العهود والمواثيق التي وعدوه بها، إذ أنهم وعدوه بدولة عربية تضم المناطق الثلاث الشام والعراق والحجاز، ثم عملوا بعد ذلك وفي أثناء مفاوضاتهم معه على إخراج بعض الأجزاء من حدود الدولة العربية الموعودة، لا سيما في بلاد الشام، فأراد أن يثبت التلازم والترابط بين استقلال الحجاز واستقلال الشام والعراق، لأن العرب في هذه البلاد يشاركونه الثورة ضد العثمانيين، ويشتركون في جيشه المتقدم نحوها، كما أراد أن يؤكد للعرب في هذه البلاد التزامه بما أبداه من دعم وتأيد لهم، بالعمل على تحقيق استقلال بلادهم وحرّيتها، بعد الانتهاء من إخراج العثمانيين منها، وأن ثورته ليست لمصلحة في الحجاز وحده، وإنما لمصلحة العرب واستقلالهم في سائر بلادهم.

1- مراسم بيعة الحسين بن علي.

بعد مضي خمسة أشهر على بدء الثورة العربية في بلاد الحجاز، تم استخلاص كافة المواقع التي كانت القوات العثمانية ترابط فيها، وأخرج العثمانيون منها، ما عدا المدينة المنورة التي بقي للعثمانيين قوة كبيرة مرابطة فيها، ومحاصرة من قبل قوات الثورة العربية⁽¹⁾، بدأت الوفود تصل إلى مكة المكرمة من كافة نواحي بلاد الشام، من

(2) شوقي، أحمد شوقي بن علي (ت 1351هـ/ 1932م)، الديوان (الشوقيات)، (2مج/ ج4)، نشر: دار العودة، بيروت، 1988م، ج4، ص56.

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص121، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص293.

فلسطين ولبنان وشمال بلاد الشام، وتضم هذه الوفود الشخصيات السياسية ووجهاء هذه البلاد، جاءت داعمةً للشريف، مؤكدةً على السير معه فيما بدأه من عمل ضد الاتحاديين، مباركةً له بما تحقق من الانتصار على القوات العثمانية في الحجاز، وفي الوقت ذاته جاءت لتبحث معه مصير الوضع العام في بلاد الشام، والسير قدماً إلى الأمام لإنجاز إخراج العثمانيين من هذه البلاد، وقد عقدت الندوات واللقاءات بين شخصيات الوفود القادمة إلى الحجاز وبين أشرف مكة ووجهاء الحجاز، واستقر الرأي على إعلان استقلال الحجاز ومبايعة الشريف حسين ملكاً على العرب⁽¹⁾، وهنا تختلف الروايات حول موعد عقد هذا الاجتماع لمبايعة الحسين بن علي، فالبعض يروي أن المبايعة كانت في 6 محرم 1335 هـ / الموافق 3 / كانون أول سنة 1916 م⁽²⁾، بينما يحددها آخرون بأنها في أول محرم 1335 هـ / 29 تشرين أول 1916 م⁽³⁾، ويذكر الريحاني أنها كانت في 2 / محرم 1335 هـ، 16 / تشرين الثاني 1916 م⁽⁴⁾، ويلاحظ هنا أن الاختلاف شكلي لا أهمية له في سير الأحداث وتتابعها، إذ أن هذه التواريخ متقاربة، وتقع في الفترة المشار إليها آنفاً، وهي خمسة شهور بعد انطلاق الرصاصة الأولى للثورة العربية، ويبدو أن تاريخ 2 / محرم سنة 1335 هـ، الموافق 16 / تشرين الثاني 1916 م هو أقرب التواريخ ليكون موعد بيعته الشريف الحسين بن علي ملكاً على العرب، لأن الزركلي عدّه موعد البيعة⁽⁵⁾، ومعروف عن الزركلي دقته العلمية وتحريه الأقرب إلى الصواب، لا سيما وأنه من معاصري الأحداث ومتابعيها عن قرب.

وقد نشرت جريدة القبلة⁽⁶⁾ مراسم تتويج الشريف الحسين بن علي، حيث أقيم حفل مهيب حضره عدد كبير من الشخصيات السياسية التي وفدت على مكة لهذه الغاية من أرجاء الشام، ومن أشهر الحاضرين الشيخ رشيد رضا الذي ألقى خطاباً باسم العرب المشتغلين بالقضية العربية، وكذلك الشيخ كامل القصاب والشيخ فؤاد الخطيب والزعيم الوطني من وجهاء دمشق نسيب البكري وإخوانه وعمر الداعوق وإخوانه ورفيق العظم ومختار الصلح ومحب الدين الخطيب، وعدد كبير من الضباط الشاميين والعراقيين الذين التحقوا بالثورة⁽⁷⁾، وكانت الاستعدادات قد استكملت قبل يوم بيعة الملك الحسين وامتلات قاعات ديوان القصر الهاشمي بجماهير الأشراف والعلماء والأعيان، بحيث لم يبق في بلد الله الأمين ذو حثيثة ومكانة عالية إلا حضر هذا الاجتماع لإعطاء البيعة للشريف الحسين، ثم حضر الشيخ العلامة عبد الله سراج

- الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 26، الريحاني، ملوك العرب، ج 1، ص 63

(1) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 26، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج 1، ص 316

(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج 1، ص 121

أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج 1، ص 293، الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج 1، ص 317

(3) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 26

(4) الريحاني، ملوك العرب، ج 1، ص 63، عليما، مسائل في الثورة العربية، ص 228

(5) الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص 121

(6) جريدة القبلة، ع 22، الاثنين / 3، محرم / السنة الأولى، 1335 هـ / 30 أكتوبر 1916 م، ص 1-2

(7) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 26

رئيس علماء بيت الله الحرام وقاضي القضاة، وأخبر الحسين باحتشاد الناس وانتظارهم له لتقديم بعض الكلمات والخطب بين يديه، ولما حضر الشريف ألقى قاضي القضاة كلمة نيابةً عن وجوه الأمة بيّن فيها الغرض من حضور زعماء وممثلي الأمة هذا اللقاء، وأنهم كتبوا عريضة يرغبون تلاوتها على مسامعه، فرد الشريف حسين على خطاب قاضي القضاة بكلمة أكد فيها إخلاصه لقضية العرب ولبلاده، وركز على ارتباط الحجاز الوثيق بالشام والعراق، وأهمية الدور الذي يقوم به عرب الشام والعراق في الثورة العربية، وأنه لا يريد هذا الأمر الذي توافد إليه العرب من أجله حين قام بثورته (النهضة السعيدة)، لكن رؤية الخطر العظيم الذي ربما يقضي على الأمة جميعها هو الذي دفعه للقيام والعمل لإزالته.

وأكد الشريف حسين أنه واحد من أفراد الأمة يبرم ما يبرمون من حق، ويرفض ما يرفضون من باطل، وأنه يمد يده لكل من يتفقون على إسناد أمرهم إليه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان لا مناص مما أرادوه، فهو يشترط عليهم أن يعينوه بأرائهم وأعمالهم لتحقيق الآمال وخدمة العرب والمسلمين.

ثم تليت العريضة التي وقع عليها أعيان العرب وزعماءهم أمام الملك، تلاها الشيخ عبد الملك مرداد، وفيها تأكيد على فضائل آل البيت النبوي، وأن القيادة للأمة يجب أن تبقى في قریش، وأن الشريف حسين أولى العرب والمسلمين بالولاية عليهم قياماً بالواجب الديني والتاريخي تجاههم⁽¹⁾.

ولما انتهت تلاوة العريضة أقبلت جماهير أهل الحل والعقد من الأشراف والعلماء والأعيان والزعماء السياسيين وسائر ذوي الحثيات، فبايعوا الشريف الحسين بن علي ملكاً على العرب، ثم تقدم الشيخ فؤاد الخطيب وبسط أمام الملك آمال أبناء بلاد الشام، وذكر الذين أعدمهم جمال باشا في عامي 1915م، 1916م، وأنهم ماتوا دفاعاً عن عروبته، وأن سكان بلاد الشام جديرون بأن ينالوا الاهتمام المطلوب من الثورة العربية لتخليص بلادهم من ظلم جماعة الاتحاد والترقي، وأن يخطوا برعاية سيد العرب وملكهم الشريف بن علي، ثم أعطى الشريف بيعته نيابةً عن أبناء بلاد الشام وأسوةً بسائر العرب المبايعين للملك⁽²⁾.

وكان الحسين بن علي حتى هذا اليوم 26 محرم 1335هـ/ 3 كانون أول 1916م يلقب: شريف مكة وأميرها، فصار يحمل بعد هذا التاريخ ملك العرب، وأعلن في الوقت ذاته استقلال الحجاز، وصار في هذه الحالة محط أنظار العرب ومركز ثقلهم السياسي إضافة لموقعه الديني في قلوب العرب والمسلمين، وعلى ضوء ذلك شكل

(1) جريدة القبلة، ع22، الاثنين 3 محرم، السنة الأولى 1335هـ/ 30 أكتوبر، 1916م، ص 1-2

- وكذا: الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص 121-122

- الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 318

(1) جريدة القبلة، ع 22، 3 محرم 1335هـ/ 30 أكتوبر/ تشرين الأول 1916م، ص2. وانظر: الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص122

- الفوز، المراسلات المتبادلة، علمات، مسائل في الثورة العربية، ص 231

ال الشريف الحسين أول حكومة عربية في الحجاز سميت مجلس الوكلاء، واختير الشيخ عبد الله سراج مفتي الأصناف في مكة وكيلاً عن رئيس الوكلاء⁽²⁾، وعين لبقية الوكالات (الوزارات) وكلاء خمسة شغلها الوكلاء التالية أسماؤهم: عبد العزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيل رئيس الجند، الشيخ علي المالكي وكيلاً للمعارف، الشيخ يوسف بن سالم وكيلاً للمنافع العمومية، الشيخ محمد أمين وكيلاً للأوقاف، الشيخ أحمد باناجه وكيلاً للمالية، وعين الأمير علي بن الشريف حسين رئيساً للوكلاء، والأمير فيصل بن الحسين وكيلاً للداخلية، والأمير عبد الله ابن الحسين وكيلاً للخارجية⁽³⁾.

2- موقف الدول الكبرى من تتويج الحسين ملكاً على العرب.

بعد تعيين الأمير عبد الله بن الحسين وزيراً للخارجية في الحكومة العربية التي شكلها والده، أبرق الأمير إلى وزراء خارجية فرنسا وبريطانيا وروسيا، وإلى الدول المحايدة، وجاء اعتراف روسيا على لسان خارجيتها ستورمر كأول اعتراف بالحسين بن علي ملكاً على الحجاز فقط، واعتراف بحكومة الحجاز أيضاً⁽¹⁾، وتبعه في ذلك كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا⁽²⁾، ويلاحظ هنا أن اعتراف دول الحلفاء جاء متأخراً وفيه بعض التردد " وهنا يتضح القصد البريطاني والفرنسي لتحجيم دور الحسين بن علي، وجعله ينحصر في الحجاز، وقد أصرت فرنسا وبريطانيا على موقفيهما بعد الاعتراف به ملكاً على العرب، واستمر ذلك إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى"⁽³⁾، وأشار عزيز المصري أن الشريف الحسين ابن علي انشغل بعد تعيينه ملكاً على الحجاز بمفاوضات مباشرة مع الانكليز أحياناً، وأحياناً أخرى في مفاوضات غير مباشرة، وكان مضمونها أن الانكليز يرفضون الاعتراف به ملكاً على العرب، وقد انضم الفرنسيون إلى جانب الانكليز حول هذا الموضوع، بل إن الاثنين أقاما سداً منيعاً أمامه حتى لا يحقق هذا الأمل، وكان الصد الانكليزي الفرنسي المشترك سبباً في تبرمه وضيقة، وعرفت فيما بعد أن الضابط الفاروقي بذل الكثير من الجهد في سبيل إقناع الانكليز بالاعتراف به ملكاً على العرب، ولكن للأسف باءت جميع المحاولات بالفشل، وأخيراً كان الاعتراف به ملكاً على الحجاز فقط⁽⁴⁾، ورد نص الرد البريطاني الفرنسي للشريف حسين في 10 / كانون الأول 1916م، وسلمت رسالة الاعتراف بالحسين ملكاً إلى وزير خارجيته ابنه الأمير عبد الله، سلمها إليه الكولونيل ولسن المعتمد البريطاني في جدة والكولونيل بريمون معتمد فرنسا هناك، وتضمنت هذه الرسالة

(2) منحهم الملك الحسين بن علي لقب وكلاء عنه في إدارة مصالحهم. انظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 293، روجي، من وثائق الثورة العربية، ص 12

(3) أمين سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 293، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 122 - الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، ج1، ص 318-319

(1) الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 26، الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 63
(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 121، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 294
- محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 46، عليما، مسائل في الثورة العربية، ص 231
(3) عليما، مسائل في الثورة العربية، ص 231
(4) محمد عبد الحميد، أبو الثائرين عزيز المصري، ص 46-47

نقاطاً ثلاث رئيسية، الأولى الاعتراف بشرعية الحكومة التي قامت برئاسة الحسين، والثانية تعتبر الدول الثلاث الكبرى الشريف الهاشمي القائد الأعلى للشعوب العربية في ثورتها ضد الحكم التركي العثماني، والثالثة: التسوية النهائية تتم بعد أن تنتهي الحرب بانتصار الحلفاء، وهذه النقطة الثالثة تشمل وحدة البلاد العربية وملكها ومنصب الخلافة الإسلامية⁽¹⁾، ويعلق الريحاني على الطريقة التي عبر فيها الحلفاء عن اعترافهم بالشريف حسين ملكاً على العرب، كما يورد وثيقة أبرزها له الحسين تثبت اعترافهم به وادعائهم الوفاء بالعهود واحترام المعاهدات، بقوله: " وجاء الاسطولان الانكليزي والفرنسي إلى جدة، يحملان إلى جلالة الملك تهاني تلك الدول، أحلافه، وقد خطب في حضرته أميرال الأسطول الفرنسي ودعاه بأعظم أمراء العرب، أما جلالة الملك حسين، فقد نسي تلك الخطبة وذلك الإطراء من الأميرال الفرنسي، ولكنه لا ينسى ما خط على ورق، وما لديه من رسائل كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارة في دار الضيافة، هو ذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر، المندوب السامي السر رددجندل ونجت، مؤرخ في 19 نيسان سنة 1917م، و 27 جمادى الثانية 1335هـ، وفيه ما يلي: فأؤمل أن لا يبرح من بال جلالكم أن الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات، وهي حامية دمار الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود"⁽²⁾.

بهذا انتهت العلاقات العربية العثمانية في الحجاز، بنجاح الثورة العربية القومية المضمون الإسلامية الملامح وإخراج العثمانيين من هناك، ووقوف قواتها مستعدة لدخول بلاد الشام، وكان للانكليز الدور الرئيس الأهم في انطلاق الثورة وتقدمها نحو بلاد الشام، وأدار الكابتن لورنس اللعبة بذكاء ودهاء، ونجح في وضع الثورة في المدار والمسار اللذين خططت بريطانيا لها السير والتحرك فيه، على ألا تخرج عنه، حتى لا ينفذ الشريف حسين ومن سار معه من القوميين العرب في بلاد الشام والعراق أهدافهم في تكوين دولة عربية تحقق استقلال العرب وحريتهم وبناء وحدتهم، وهذا ما تكشف من أهدافها، وما قررت الاستمرار فيه استكمال إخراج العثمانيين من بلاد الشام كما سيأتي في الفصل القادم.

رابعاً: مشاركة عشائر الشام في جيش الثورة العربية.

عمل الشريف حسين وأنجاله مع انطلاق عمليات الثورة العربية في الحجاز ضد العثمانيين، على كسب تأييد ومساندة القبائل العربية ذات الثقل البشري في الحجاز وبلاد الشام، وكانت هذه القبائل أيضاً محط أنظار القوات العثمانية، حيث سعى الوالي العثماني على الحجاز إلى ضمان وقوف هذه القبائل إلى جانبه في القضاء على ما اعتبره تمرد أمير الحجاز وخروجه على سلطة الدولة، وقد أشار صبحي العمري إلى أن الشريف حسين ضمن مساندة جميع العشائر الحجازية باستثناء حسين بيرك حاكم

(1) الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 27، أمين سعيد، الثورة العربية، ج1، ص 299

(2) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 63

منطقة رابع وقبيلته، ولم يكن حين قيام الثورة لدى الشريف حسين من المقاتلين سوى هذا العنصر البدوي، أما الحَضَر من أهالي الحجاز منهم حسب نشأتهم وطبيعتهم غير قابلين للقتال، وفعلاً لم يشترك منهم في أعمال الثورة سوى عدد ضئيل بخدمات خارج خط القتال⁽¹⁾، وذكر العظم أنه بعد قيام الثورة العربية، راح الشريف فيصل وأخوه عبد الله يجتمعان مع العشائر البدو ويعملان على استدراجهم للالتحاق بالثورة، باذلين لهم الأعطيات والأموال بسخاء، وشعر جمال باشا بخطورة تدخل أولاد الشريف حسين لدى العشائر، فاستدعى والدي وعبد الرحمن اليوسف والشيخ أسعد الشقيري (مفتي الجيش الرابع المرابط في بلاد الشام)، وأبلغهم أنه انتدبهم للسفر إلى المدينة المنورة للاجتماع إلى رؤساء العشائر، وإسداء النصائح لهم بعدم الالتفات لإغراءات أمير مكة العاصي، والسعي إلى تأليب من كان منهم قد انضم للثورة وإعادته إلى جادة الصواب⁽²⁾.

وبتوجه قوات الثورة العربية شمالاً للخروج من الحجاز، وزحفها نحو بلاد الشام انضم إلى قوات الأمير فيصل عشيرة بلي، حيث استدعى فيصل زعماءهم، وكان يعسكر في منطقة الوجه على ساحل البحر الأحمر في طريقه نحو العقبة، واتفق معهم على الانخراط بالثورة، وكانت مضاربهم تعد 600/ خيمة فالتحقوا بجيش الأمير فيصل⁽¹⁾.

- تعد العقبة منطقة الحدود الجنوبية لبلاد الشام، وهي التي تربط بلاد الشام بالحجاز، وبعد أن استولى جيش الأمير فيصل على موقعي ضبا والمويلح على ساحل البحر الأحمر، عقب استيلائه على الوجه في منتصف عام 1917م، صار قريباً من العقبة ومن بادية بلاد الشام الجنوبية⁽²⁾، حيث يقطن في هذه البادية العديد من عشائر الشام الكبيرة والمهمة، ومن أشهرها عشائر الحويطات القوية، التي كانت تنزل في منطقة العقبة ومعان، وتتألف عشائر الحويطات من خمسة بطون أو أفخاذ، يُعَدُّ كل منها في فترة انطلاق الثورة العربية حوالي 200 خيمة، وهؤلاء البطون هم: بنو جازي وعرب أبو تايه وزعيمهم عودة أبو تايه، وبنو جاد وبنو تجيج وفخذ خامس يقيم في صحراء سيناء بمصر⁽³⁾ وكان عودة أبو تايه يكتسب مكانة خاصة في قومه أهلته ليكون المتحدث باسمهم أثناء وفوده إلى الأمير فيصل والتفاوض معه للانضمام إلى جيش الثورة العربية، وذلك في 9 نيسان 1917م، وقد استقبله الأمير فيصل في الوجه ورحب به ترحيباً كبيراً، جعله يُقْبَل بسرعة وانفتاح على الأمير، ويعرض خدماته عليه، ويضع خبرته ونفوذه تحت تصرفه، مع تقديم معلومات تفصيلية عن وضع

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 113

(2) العظم، المذكرات، ج1، ص90، وكذا: أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 155

(1) نجار، فيصل الأول، ص 40

(2) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 131

أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص215-216

- PEYGAMBERIMIZIN GOLGESINDE SON TURKLER. P. 111

(3) نجار، فيصل الأول، ص 41، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 30

القوات العثمانية في المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، وبالتفاهم مع عشائر الحويطات وانضمامهم إلى جيش الثورة العربية صار الطريق ممهداً لتقدم هذا الجيش شمالاً نحو العقبة من أجل الاستيلاء عليها، لما لذلك من أهمية استراتيجية كبيرة جداً، نظراً لأهمية موقعها على البحر الأحمر كمدخل لبلاد الشام⁽⁴⁾ وإضافة لهذا فإن تحالف عشائر الحويطات مع الأمير فيصل وتأييدهم له فتح الباب أمام القبائل العربية الأخرى في المنطقة الجنوبية من بلاد الشام (الأردن حالياً) حيث انضم إلى فيصل بعد دخول قوات الثورة العربية إلى الأراضي الشامية، في كل من معان والكرك والطفيلة قبائل عديدة أمثال آل المجالي في الكرك، والعوران في الطفيلة، وعشائر بني صخر في منطقة القسطل جنوب عمان⁽¹⁾، ثم عشائر وسط بلاد الشام والبادية الشمالية والشرقية فيها، كعشائر الدروز في حوران، وعشائر الشعلان الذين يرأسهم نوري الشعلان في بادية وسط الشام، وقد وفد إليه عودة أبو تايه، مرسلأ إليه من قبل الأمير فيصل، وحمل إليه ستة آلاف ليرة ذهبية، فانضم إلى تحالف العشائر المؤيدة للثورة العربية⁽²⁾، كما ضمن فيصل بن الحسين ولاء وتأييد العشائر التي تستوطن جبل العرب والسويداء وفيها عرب اللجاة وآل الأطرش بقيادة حسين الأطرش وكلهم من الدروز⁽³⁾، حيث حمل نسيب البكري معه إلى حسين الأطرش مبلغ 7/ ألف ليرة ذهبية وزعها على زعماء الدروز في منطقة حوران وجبل العرب⁽⁴⁾، وبهذا تمكن الأمير فيصل من ضمان تأييد وولاء عشائر جنوب ووسط بلاد الشام لخطوات والده الشريف الحسين في تقدم الثورة نحو بلادهم، وتثبيتاً لهذا الولاء أشارت جريدة القبلة إلى أن الشريف حسين أغدق الأموال بسخاء على تلك القبائل، وخاصة على عودة أبو تايه وعلى عشائر الحويطات أتباعه، وأنعم عليهم بالأوسمة والرتب، "ولقد كرم الملك حسين كلاً من الشريف ناصر بن علي وعودة أبو تايه بإهداء كل منهما سيفاً، كما قرر زيادة مرتبات قبائل الشيخ عودة لما ظهر من بسالتهم وخدمتهم في فتح العقبة⁽⁵⁾" وسيراً على هذا النهج أرسل الأمير فيصل نسيب البكري والشريف ناصر بن علي إلى الجوف عاصمة نوري الشعلان، يحملون معهم عشرين ألف ليرة إنكليزية لإغراء قبيلته وما حولها من القبائل البدوية لحملهم على القبول بالثورة على العثمانيين، لكن ابن الشعلان

(4) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 132-133، وانظر:

- النجادات، نايف محمد، الحويطات ودورهم في الثورة العربية، د.ن، 1989م، ص 47، 60.

(1) القسوس، المذكرات، ص 85-110

(2) ذكر سلطان أن نوري الشعلان كان عميلاً للانكليز والفرنسيين وكان على اتصال بفيصل بن الحسين ومع الأتراك أيضاً، يقدم خدماته لهؤلاء جميعاً ويقبض منهم قيمة تلك الخدمات، انظر: سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 489

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 133، نجار، فيصل الأول، ص 54، النجادات، الحويطات وطورهم، ص 82

(4) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 133

(5) جريدة القبلة، ع 104، السنة الثانية، الخميس 28 شوال 1335هـ/ 1916م، ص 2، ع 130، السنة الثانية، الاثنين 4 صفر 1336هـ، 1917م، ص 2

وينظر: رستم حيدر، المذكرات، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، نشر: الدار العربية للموسوعات، طبعة أولى، بيروت، 1988م، ص 158، الروسان، مسيرة الثورة العربية، ص 10-11

اعتذر عن الانضمام إلى الثورة في هذا الوقت، ووعدهم بذلك في خريف السنة نفسها وهي 1917م، تهرباً منهم وانتظاراً لمعرفة نتيجة الحرب⁽¹⁾.

وبالنسبة لعدد الجنود العرب الشاميين النظاميين في جيش الأمير فيصل، فقد عمل الانكليز على تحويل أعداد كبيرة من الجنود العرب الذين يأسرونهم وهم يقاتلون مع الجيش العثماني في جبهات القتال في الهند وغيرها، إلى الانضمام لقوات الثورة العربية، ونقل نجار عن الكولونيل كوس قوله: إن قوة فيصل حين هاجم العقبة ثم معان كانت تتألف من ثلاثة آلاف جندي نظامي كلهم ممن خدموا في الجيش التركي، وأن معظمهم من مناطق شمال بلاد الشام، وكان كل الضباط العاملين في جيش الثورة العربية من العراقيين والشاميين الذين خدموا في الجيش التركي⁽²⁾، وكان لهؤلاء الضباط والجنود السوريين والعراقيين دور مهم للغاية في الثورة العربية، فهؤلاء هم الذين مكنوا أساسات الثورة وقوا دعائمها، وأضافوا عليها شكلها العسكري النظامي، وجعلوها تقف أمام الجيش التركي موقف الند المتفوق بمعنوياته وإمكاناته، وهم الذين أعطوا الثورة قابلية النشاط والحركة الأدبية والمادية للسير خارج الجزيرة والصحراء وأرض الحجاز، وبالتالي هم الذين أخرجوها من الإقليم الذي ظهرت فيه إلى شكلها القومي العربي الذي وصلت إليه⁽³⁾.

ومع ما أبداه الانكليز والشريف حسين والأمير فيصل من حرص كبير على استقطاب عرب بلاد الشام للالتحاق بالثورة العربية ضد العثمانيين، فإن قادة الاتحاديين، وخاصة العسكريين منهم الذين يقودون القوات العثمانية المرابطة في بلاد الشام، بذلوا كل ما بوسعهم من إمكانيات في سبيل إبقاء أهالي هذه البلاد مواليين للدولة العثمانية، وإقناعهم بأن الشريف حسين بن علي وأولاده متمردون خارجون على دولة الخلافة، وأن ثورتهم تضر بالاسلام وتمزق الأمة المسلمة، وتعرض البلاد الإسلامية لخطر السيطرة الأجنبية والاحتلال العسكري من قبل دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا، وأن الواجب الإسلامي يقتضي أن يقف المسلمون والعرب في بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية صفاً واحداً متماسكاً يشد عضد دولة الخلافة في محاربة الأعداء والمتعاونين معهم ضدها⁽¹⁾، ولا شك أن استعمال الورقة الإسلامية هنا ليس سوى وسيلة لضمان استمرار ولاء أبناء بلاد الشام للاتحاديين بعدما مزق جمال باشا

(1) نجار، فيصل الأول، ص 43، وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 125

(2) نجار، المصدر السابق، ص 53

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 114

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 340-341، 354، 361، 367-368

وأعوانه من الاتحاديين كل أوامر القربى وروابط الأخوة التي تربط العرب بالعثمانيين، وبالتالي لم تلق دعواته هذه أية استجابةً من عرب بلاد الشام، خاصة بعد أن قطعت الثورة العربية أشواطاً في تقدمها نحو بلاد الشام، ولم يعد بالإمكان الاستماع لأرائه أو قبول دعواته، فقد أصبح الجو العام في هذه البلاد مشحوناً بالعداء له ولجماعة الاتحاد والترقي، ومهيئاً للسير في ركاب الثورة العربية والعمل معها ضد الجيش العثماني⁽²⁾، ويؤيد هذا الاعتقاد ما صدر عن العرب من ردود سلبية على دعوات جمال باشا للقبائل العربية في بلاد الشام بالإبقاء على ولائها للجيش العثماني، والمحافظة على الهدوء وعدم الانضمام إلى جيش الثورة العربية، فقد ذكر أن جمال باشا بعث برسالة إلى عودة أبو تايه شيخ عشائر الحويطات في معان والعقبة، قبل هجوم قوات الشريف فيصل على تلك المنطقة، يدعو فيه إلى التخلي عن الثورة، والعودة إلى مركز قيادته، واعداء إياه بالعفو والمكافأة، لكن عودة أبو تايه رفض عفوهِ ووعد قائلًا: إن قتال الأتراك أصبح واجباً على كل عربي، بل على كل مسلم، بسبب أعمال الاتحاديين بحق العرب، وأن العرب مستعدون لحقن الدماء بشرط جلاء الترك عن بلاد الشام،... فنحن أولى بالدفاع عنها، وابن النبي أحق منكم ومن صديقكم أنور وطلعت⁽³⁾، ويشير القسوس إلى التجاذب والإغراء للقبائل العربية في بلاد الشام من قبل الشريف حسين وابنه فيصل والانكليز من جهة، ومن العثمانيين من جهة ثانية، ويقول: أرسل الشريف حسين الأمير فيصل ابنه إلى الشام لمحاربة العثمانيين، ولإلحاق العربان بجيشه، وزودهم بالسلاح، وعلمت الحكومة أن الانكليز يغذون هذه الثورة بالمال والذخيرة والسلاح، وعلمت الحكومة العثمانية بانضمام جميع العربان الحجازية إلى الأمير فيصل بسبب الأموال الطائلة التي وزعها عليهم، فاضطرت الحكومة عندها إلى معاملة العربان هنا بالحسنى واللين، وأخذ جمال باشا والوالي تحسين بك يستدعيان المشايخ ويغدقان عليهم الأموال والأوسمة والألقاب والملابس بلا حساب، ويمنحونهم السفر مجاناً بالقطار، وينصحون إليهم بعدم الانضمام إلى

(2) العظم، المذكرات، ج1، ص 91، 93

(3) جريدة القبلة، عدد 130، السنة الثانية، الاثنين 4 صفر 1336هـ/ 1917م، ص2

الروسان، مسيرة الثورة العربية، ص 10

فيصل الذي يمهّد لدخول الأجانب أعداء الإسلام إلى بلادهم، وأخذت الحكومة (العثمانية) حذرهما من المسيحيين⁽¹⁾، كما حذّرت الأهالي في بلاد الشام من الشريف حسين ومن أولاده، ونصحتهم بعدم الاستجابة للمنشورات التي كان يوزعها الشريف عليهم، وهي موقعة باسمه كما يلي: شريف مكة وأميرها وملك بلاد العرب الحسين بن علي، في 20 ربيع الأول 1335هـ⁽²⁾. لكن تسهيلات الاتحاديين لعرب بلاد الشام وإغراءاتهم لهم، وتحذيرهم لهم في المقابل من السير مع الشريف حسين، كل ذلك لم يلق الاستجابة من أهالي الشام، سواء أبناء العشائر في البادية والقرى والأرياف، أو أبناء المدن الرئيسية في جنوب بلاد الشام كمدن العقبة ومعان والكرك والطفيلة، أو في وسطها كمدن عمّان ودمشق والقدس ونابلس، أو شمالها كمدن حمص وحماة وحلب، ويؤكد ذلك اندفاع أبناء هذه المناطق جميعها للسير مع الثورة العربية كما سيأتي بيانه أثناء تقدم قوات هذه الثورة في طريقها لإخراج العثمانيين منها بالتتالي.

خامساً: الكشف عن اتفاق سايكس بيكو وموقف العرب من ذلك.

حاولت الدولتان فرنسا وبريطانيا استثمار فرصة الحرب العالمية الأولى لتحقيق أهدافهما وأطماعهما في اقتسام البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية في الشام والعراق، وكانت روسيا تشاطرهما تبادل المصالح باعتبارها متحالفة معهما، وشريكتهما في اقتسام أملاك الرجل المريض كما كانوا يطلقون على الدولة العثمانية⁽¹⁾.

وبينما كانت بريطانيا تتفاوض مع الشريف الحسين بن علي أمير الحجاز لإقناعه بالاشتراك معها في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، فقد كانت في الوقت نفسه تتفاوض مع فرنسا على اقتسام البلاد العربية معها، ثم وقعت الدولتان فيما بينهما على ما عرف باتفاق سايكس بيكو، نسبة لمعتمديهما المتفاوضين اللذين وقعا على هذا الاتفاق، ووقعتا مع مندوب روسيا على معاهدة بطرس بورغ، وافقتا بموجب ذلك على

(1) القسوس، المذكرات، ص 83. وانظر:

أرسكين، فيصل ملك العراق، ص 66-67

(2) القسوس، المذكرات، ص 84

(1) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 354

منح الأراضي التي قررت روسيا إقتطاعها من الدولة العثمانية⁽²⁾، وهو ما تم بيانه في الفصل السابق، وقد وقعت هذه الاتفاقات في السر، بحيث يمكن التعمية على الشريف حسين وعلى العرب، حتى يستمروا في السير مع الحلفاء في الحرب ضد الدولة العثمانية، إلى أن جاء الوقت الذي كشف فيه هذا الاتفاق للعرب على أيدي الروس.

1- البلاشفة الروس يكشفون اتفاق سايكس بيكو.

قام البلاشفة الشيوعيون بالانقلاب على قيصر روسيا نيقولا الثاني في ربيع سنة 1917م⁽³⁾، وقيل في أكتوبر من السنة نفسها وهو الأرجح⁽⁴⁾، بعد ذلك نشر زعماء روسيا الجدد النصوص الكاملة للمعاهدات القيصرية السرية، ومن ضمن ما نشر معاهدة سايكس بيكو بشأن تقسيم الأقطار العربية، نشرت ذلك جريدتا أرفستيا وبرافدا السوفياتيان بتاريخ / 23 نوفمبر تشرين الثاني سنة 1917م، عقب العثور على نصوص تلك الاتفاقيات في سجلات وزارة الخارجية الروسية⁽⁵⁾، ويروي أمين سعيد رواية أخرى تقول أن حكومة الشيوعيين البلاشفة نشرت النصوص في / 22 فبراير شباط سنة 1918م، وأن الرد الذي ورد على الشريف حسين من نائب ملك بريطانيا في مصر جواباً على استفساره جاء في / 8 يونيو 1918م⁽¹⁾ ثم وزعت هذه الاتفاقات بتاريخ / 26 نوفمبر / تشرين الثاني 1917م في كافة الأقطار الحساسة ذات التأثير المباشر على المصالح الانكليزية، خاصة في البلدان التابعة للدولة العثمانية⁽²⁾، وقد قرأ جمال باشا البنود السرية لهذه الاتفاقات في حفل عام دعا إليه في بيروت، وهو بهذا يخلق متاعب جديدة في وجه الانكليز والفرنسيين ولو إلى حين، لأنه فتح عليهما باباً حرساً على إغلاقه ريثما تتمكنان من إنهاء الحرب دون أن يخرج العرب عليهما، بسبب النوايا الحقيقية لهما تجاه البلاد العربية⁽³⁾.

(2) مجلة المنار، م 21، ج4، ع 30 رمضان 1337هـ / 28 يونيو، حزيران 1919م/ ص 197-201

- كوثراني، مختارات سياسية، ص 240-241، لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 461

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 196

(4) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 463

(5) فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ج1، ص 290، لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 354

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 233

- أنطونيوس، بقطعة العرب، ص 280

- عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 275، منسي، حركة البقطة العربية، ص 338

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 233، زين، الصراع الدولي، ص 74

(2) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 196، منسي، حركة البقطة العربية، ص 338

(3) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 354، زين، الصراع الدولي، ص 74

وينسب لورنس لنفسه عملاً يحاول تقديمه للقارىء على أنه فضل على العرب وإخلاص لهم، من خلال تنبيهه لفصيل بن الحسين عن وجود مثل هذه الاتفاقات، في موقف مكشوف الهدف منه تبرئة النفس حتى لا يتهم بضلوعه في التآمر على العرب في حال درايتهم باتفاق سايكس بيكو فيما بعد، يقول لورنس: " لحسن حظي أنني كنت قد كشفت لفصيل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية، وأقنعت به بأن أفضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هي تقديم عون فعال للانكليز، عندئذ سيكون من الصعب عليهم بعد النصر التضحية بحليف السلاح من أجل اتفاق ورقي، ولكن بما أنني لم أكن واثقاً من حسن تصرف الانكليز، فقد رجوت فيصلاً أن لا يعتمد كوالده على وعودنا، بل على قوته من دون غيره⁽⁴⁾.

2- جمال باشا يخبر العرب باتفاق سايكس بيكو:

تعهد الروس فضح الانكليز والفرنسيين أمام حلفائهم العرب ربما لغايات في نفوسهم لم يكشفوا عنها، لكن قد يعلل ذلك بأن البلاشفة الشيوعيين قد أرادوا أن يكسبوا تعاطف العرب معهم كثوار جدد في بلادهم ضد القياصرة، وأن يعطوا انطباعاً عن أنفسهم بأنهم مع الشعوب الناهضة في سعيها لنيل استقلالها، ثم لمحاولة إحراج الانكليز من أجل تحصيل تنازلات جديدة منهم في الموقف الدولي بعد انتهاء الحرب العالمية أثناء الجلوس للمفاوضات حول اقتسام تركيا الدولة العثمانية المنهارة، وأياً كان الدافع للشيوعيين في نشرهم لأسرار الانكليز والفرنسيين حول اتفاق سايكس بيكو، فقد كان هذا الخبر بمثابة نقطة ثمينة اقتنصها جمال باشا وحاول الاستفادة منها قدر الإمكان في توعية العرب، لا لشيء سوى إرادة الصلح معهم من أجل تحقيق النصر في الحرب، للتخذيذ عن الانكليز، لما للعرب من أهمية في هذه الحرب على الجبهات الواقعة في بلاد الشام، ثم قد يكون كلامه لقطع الطريق على الدولتين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا، حتى لا تصلان لأهدافهما في استعمار البلاد العربية، فقد ثقل عليه أن تقتطع هذه البلاد من أيدي المسلمين وتصبح ضحية اللعبة الدولية والمؤامرات الاستعمارية لابتلاعها والسيطرة عليها، وعلاوة على ما سبق يرى سلطان أن الحكومة العثمانية بتقديمها هذا الخبر للعرب، أرادت أن تستفيد من هذه الوثيقة الخطيرة كي تعيد العرب إلى صفها⁽¹⁾، لأجل هذا تلقف جمال باشا خبر اتفاق سايكس بيكو ووجده غنيمة قد تحقق ما يصبو إليه من إعادة التقارب مع العرب بعد الجفوة التي حدثت معهم، فأرسل برسائل ثلاث من مقر قيادته في دمشق إلى أنجال الشريف حسين فيصل وعبد الله وإلى جعفر العسكري رئيس أركان جيش الأمير فيصل المتجه نحو بلاد الشام، الرسالة الأولى للأمير عبد الله بن الحسين مؤرخة

(4) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 354-355
(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 463

في 5/ ديسمبر/ كانون الأول 1917م، والثانية لفیصل بن الحسين والثالثة لجعفر العسكري والثانية والثالثة مؤرختان في 26 نوفمبر/ تشرين الثاني 1917م⁽²⁾، ويذكر عبد الرحيم ومنسي أن الرسالتين لجعفر العسكري وفيصل كانتا بتاريخ 12/ ديسمبر/ كانون الأول 1917م⁽³⁾، وغاية جمال من إرسال رسالة إلى جعفر العسكري إثارة الضباط العرب الشاميين والعراقيين المشاركين في جيش الثورة العربية، في حال صمت فیصل وعبد الله عن موضوع الرسالتين، وتحدث جمال باشا في رسائله عن العلاقات الإسلامية بين العرب والعثمانيين، وأن الحلفاء يخدعون العرب فيما يخططون له حول مستقبل بلاد الشام والعراق، لأنهم ينوون وضع فلسطين تحت انتداب انكليزي ثم تحت مظلة دولية تتيح لليهود الوصول لأهدافهم في الهجرة إليها وإقامة دولة يهودية فيها، ووضع باقي بلاد الشام تحت الانتداب الفرنسي، وإعطاء العراق لبريطانيا أيضاً، فهل كانت هذه غاية الثورة العربية؟! وقال: بأن الوقت ما زال مُتسبعا لإصلاح الخطأ، وإزالة سوء التفاهم بين العرب والعثمانيين⁽⁴⁾، وجاء حديث جمال باشا عن الوضع العام بين العرب والعثمانيين في بيروت، ونشرت جريدة القبلة التي يصدرها الشريف حسين في مكة⁽⁵⁾، وفي رسالة جمال إلى فيصل اقترح عليه أن يقابل الشيخ بدر الدين الحسني، كي يشرح له رأي الحكومة العثمانية، العثمانية، بينما ذكر جعفر العسكري ببطولاته القديمة في الجيش العثماني في حربهم ضد الانكليز في مصر، وأسف عليه أنه يحارب مع الثورة العربية التي سهلت للانكليز احتلال فلسطين التي دافع عنها صلاح الدين الأيوبي، وأنقذها من براثن الصليبية، ثم أثنى على جعفر معتقداً أنه ما زال مخلصاً للعرب ولعلاقتهم بالدولة العثمانية، كما دعاه لمقابلته شخصياً، وأقسم له بالله أن يعيده معزراً مكرماً إلى المكان الذي جاء منه⁽⁶⁾.

3- رد الفعل العربي تجاه انكشاف اتفاق سايكس بيكو.

برز رد الفعل العربي من افتضاح سايكس بيكو بشأن اقتسام بلاد الشام والعراق من خلال موقفين منفصلين عن بعضهما هما: موقف الشريف حسين وأولاده، وموقف الضباط العرب في جيش الثورة العربية.

أ- موقف الشريف الحسين وأولاده من اتفاق سايكس بيكو.

(2) سلطان، المرجع السابق، ص 463
(3) أنطونيوس، يقظ
=

= منسي، حركة اليقظة العربية، ص 338، عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 276

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 463، أنطونيوس، يقظة العرب، ص 280

(2) جريدة القبلة، ع 188، السنة الثانية، الاثنين 2/ رمضان 1336هـ/ 11 حزيران 1918م، ص 2

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 312-313

سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 464

نجح جمال باشا في إيصال صوته إلى العرب الثائرين على الدولة العثمانية، في محاولة أقل ما يقال فيها، أنها تحذير وتنبيه لهم على ما يكنه لهم الحلفاء من غدر وتآمر، وإذا أحسن المرء الظن في توجه جمال، فيمكن اعتبار عمله إخلاصاً للعرب وغيره عليهم وندماً على ما ارتكبه الاتحاديون بحقهم من أعمال وممارسات عنصرية استهدفت هويتهم وحضارتهم، وجعلتهم يجنحون إلى أقصى درجات العداء، جراء ردة الفعل وقوة الصدمة التي أحدثتها سياسة الاتحاديين نحوهم، الأمر الذي تركهم يقابلون تحذير جمال باشا لهم بالبرود وعدم التفاعل والتصديق، ولربما كانت شدة الصدمة في نفس الشريف حسين وأبنائه من تصرفات الاتحاديين، السبب الرئيس الذي حدا بهم لعدم التجاوب مع النداء الذي وجهه لهم جمال باشا بالتيقظ ومراجعة الذات، وهذا ما حدث بالفعل، فما أن وصلت البرقية الموجهة لفیصل من جمال حتى أرسلها بدوره إلى والده لدراستها واتخاذ ما يراه مناسباً تجاهها، وبوصولها إلى الشريف الحسين بدأ يتحرك ويجري اتصالاته بالانكليز للتأكد مما وصله، فأرسل الرسالة إلى ريجنالد ونجت (WINGATE) المعتمد البريطاني في مصر والسودان، ومقره في القاهرة، وأرفقها برسالة يستفهم فيها عن صحة ما أورده جمال باشا في رسالته⁽¹⁾، فطلب ونجت الاستمهال ليسأل حكومته، وقد تملكه ارتباك شديد⁽²⁾، أما السير مارك سايكس الطرف الموقع على الاتفاقية من طريق حكومته مع فرنسا، فيصفه أمين سعيد بقوله: "ورأينا في القاهرة في تلك الأيام السير مارك سايكس يعود من لندن ليخفف من سوء وقعها في الأوساط العربية، وما قد تحدثه من رد فعل"⁽³⁾ ثم جاء الرد الانكليزي من وزير الخارجية البريطاني آنذاك بلفور (BALFOUR) إلى المكتب البريطاني في القاهرة في 8 شباط 1918م، وفيه ينكر اتفاقية سايكس بيكو، ويعتبرها من تركيبات جمال باشا للايقاع بين العرب والحلفاء⁽⁴⁾، وأرسل القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة هذا الرد إلى الشريف حسين، ويصف منسي الرد القادم إلى الحسين بأنه برقية غامضة مضللة، مطالبة الشريف بأن يعتبر رواية جمال باشا مثلاً آخر من مكائد الترك، كما قَدَّمَ باسست (BASSETT) القائم بالأعمال البريطاني في جدة إلى ملك الحجاز في (8) شباط 1918م أيضاً مذكرةً رسميةً مفعمةً بالثناء على الشريف حسين، ومعبرة عن رضا بريطانيا على إخلاصه بإحالة خطاب جمال باشا إلى الحكومة البريطانية.

واتهمت المذكرة الترك بأنهم يحاولون بذور الشقاق بين الحلفاء والعرب، وأكدت المذكرة أن بريطانيا وحلفاءها مصممون على الوقوف إلى جانب الشعبو العربية في جهادها من أجل إقامة عالم عربي يحل فيه القانون محل الظلم العثماني، وها هو نص بيان المعتمد البريطاني في جدة إلى الشريف الحسين بن علي، موقعاً من

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، 196، 314، فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، ج1، ص 290

صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج2، ص85، انطونيوس، بقطة العرب، ص 278-279

زين، الصراع الدولي، ص 74-75

(2) منسي، حركة البقطة العربية، ص 338

(3) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 196

(4) جريدة القبلة، ع 696، 18 يونيو حزيران، 1923م، 3 ذو القعدة، 1341هـ، ص 2

الكولونيل باست كرد للشريف على ما ساور نفسه من الارتياح إثر إذاعة معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور: "إن الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتم في إرسال التحريرات التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل وسمو الأمير عبدالله، إلى جناب نائب جلالة الملك، كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى، وأن الاجراءات التي اتخذتموها جلالتم في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومات الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى، ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التي تنسج عليها تركيا هي إيجاد الارتياح والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتم، قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية. إن السياسة التركية لا تقتأ تغرس ذلك الارتياح، بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية، وتلقي بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن قصدهم، ولكن أقوال الداسيين لن تقوى على إيجاد اتفاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد.

إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة، وهي مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها لأن تبني عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني، ويتحد التنافس الصناعي الذي أحدثته الصناعات الرسمية التركية.

إن حكومة ملك بريطانيا العظمى تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك التحرير، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم، بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط من وهذه الدمار، وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم، وفي الختام التمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحترامات والتمنيات⁽¹⁾. ومرة جديدة تضاف إلى ما سبق من مسلسل تصديقات الشريف الحسين للانكليز، يقف مصدقاً لهم، وجازت هذه التبريرات المضللة عليه، واستمر مستسلماً للسياسة البريطانية ونفاقها⁽²⁾ ورد الحسين على ابنه الأمير فيصل يطلب منه أن يرد على جمال باشا بأنه ليس بين العرب والترك إلا السيف حتى تضع الحرب أوزارها ويخرجون

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 314-315، حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 31-32 - الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 43

أمين سعيد، ص 43. أسرار الثورة العربية، ص 231-232، منسي، حركة اليقظة العربية، ص 338-341 (2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 231

من بلاد العرب⁽³⁾، وكان ممثلوا بريطانيا يغذون هذه الروح العدائية في نفس الشريف وأبنائه، وخاصة لورنس، ويؤكد هذا ما قاله بلسانه حين وصف ما حدث بقوله: " وفي الوقت المناسب عرفت الحكومة البريطانية كيف تستر وجهها، وتلعب على عدة حبال لتقلل من وقع معاهدة سايكس بيكو على العرب... وفي أحد اجتماعاتنا استدار نوري الشعلان نحوي، وفي يده مجموعة من المستندات المتناقضة، الصادرة عن الحكومة البريطانية، وسألني: أياً من هذه المستندات يجب أن نصدق؟! ولكي أتخلص بلباقة كما فعلت في الماضي أجبت: آخرها من حيث التاريخ "⁽⁴⁾، فاللعبة الجديدة قد مرت بسلام لدى الشريف الحسين وابنه الأمير فيصل، وبذلك أضاعا فرصة ثمينة، إذ لو طلبا تعهداً جديداً صريحاً من بريطانيا بحق العرب، أو سلاحاً للجيش لكان من الجائز أن يحصلوا عليه، نظراً لحاجة بريطانيا الماسة لمساعدة العرب في الحرب⁽¹⁾ ويعلق فاسيلييف على تصديق الحسين للحلفاء بأنه يرجع لأسباب ربما تكون عذراً له في ذلك، فيقول: " اتصل الحسين بالانكليز طالباً رأيهم في صحة هذه المعاهدة، فاستلم منهم (تأكيدات صادقة) بأن هذه المعاهدة مزورة، وصدق الشريف حسين الانكليز، أو تظاهر بأنه يصدقهم، وواصل العمليات الحربية ضد الأتراك، وكان ذلك يعني أن الدماء العربية تراق في الواقع لأغراض ضد العرب، إلا أن حكومة الحجاز كانت معتمدة كلياً على المساعدات العسكرية والمالية والغذائية من الانكليز، وكانت لا تتمتع بحرية العمل"⁽²⁾، أما جمال باشا فيُدَوِّن في مذكراته موقفه من اتفاق سايكس بيكو، وتأمّر الحلفاء على العرب، ويؤكد تحذيره للشريف الحسين بن علي مما يتوقعه، وأنه كان يتوقع من فرنسا وبريطانيا ما سيحصل حول اقتسام البلاد العربية في الشام والعراق بينهما، وقد يكون جمال باشا قد أراد بتسجيله هذا الموقف في مذكراته أن يظهر للعرب والمسلمين على حد سواء حرصه وغيرته على البلاد العربية، ويثبت

(3) انطونيوس، بقطة العرب، ص 280، سلطان تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 465

(4) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 355

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 464

(2) فاسيلييف، شبه الجزيرة العربية، ج1، ص 290-291

موقفاً إسلامياً لا تُعلم حقيقة صدقه فيه! ليظهر الشريف حسين بموقف الخائن للأمة المفرط بحقوقها.

حين أقدم على الانقياد لمصالحة الشخصية بالتحالف مع بريطانيا، التي دأبت طوال مدة صراعها السابقة مع الدولة العثمانية، وخاصة أثناء خلافة الخليفة عبد الحميد الثاني، على التآمر على هذه الدولة، وتنفيذ مخططاتها في اقتسام البلاد العربية مع حليفتها فرنسا، لذلك لا يُحْمَل موقف جمال باشا على الاخلاص للعرب والمسلمين، ولو كان كذلك لما أعطى للشريف حسين المبرر الكافي ليضع يده بيد بريطانيا للتخلص من بطشه وسياسته العنصرية ضد العرب في بلاد الشام، حين فتك بالعلاقات العربية العثمانية وسفحها على مذبح السياسة التتريكية الطورانية، ولعمل على الانصياع والاستجابة للنداءات المخلصة التي وجهها إليه الشريف حسين وابنه فيصل والمخلصون من العرب من أبناء بلاد الشام والعراق والحجاز قبل فوات الأوان، وقبل أن يُعْذِمَ مَنْ أعدمهم من رجال الحركة السياسية العربية في بلاد الشام، ولما أفضّل متعمداً فرص الوساطة التي بذلها أبناء بلاد الشام في وقت مبكر قبل تفكير الشريف حسين بالتفاهم مع الانكليز ليقوم بثورته، تلك الوساطة التي بذلها بلهفة وإلحاح رجال الشام الذين يتبنون الرابطة العثمانية، ويؤمنون بالجامعة الإسلامية التي تربط العنصرين العربي والتركي، لكن ذلك كله ذهب من خلال سلوك جمال باشا الطوراني، لذا فإن حديث جمال باشا عن اتفاق سايكس بيكو بالرغم من أنه منطقي ومعقول، ويتمنى المرء لو وجد استجابة من العرب في الوقت المناسب، لكنه يفتقر للإخلاص، وجاء بعد فوات الأوان وقد خدش زجاج العلاقات العربية العثمانية الشفاف وينطبق عليه قول الشاعر:

إن القلوب وإن تنافر وُدّها مثل الزجاج كسره لا يجبر

يقول جمال باشا في مذكراته: "فمن تمحيص الوثائق يدرك الإنسان بسهولة في أن الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب، فهل يوجد مَنْ يشك في نيات انكلترا نحو العراق وفلسطين، لعمرى إن الذين يدعون أنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك المناورات، إما أن يكونوا قِصار نظر، وإما أن يكونوا باعوا شرفهم وضميرهم، فلنفرض جدلاً أن الشريف حسين كان يجهل أثناء مفاوضاته مع الأنكليز إلى يولييه/ تموز/ 1915م نيات فرنسا، وأنه كان يعتقد أن ساعة زوال الدولة العثمانية حانت! وأنه إنما ثار ليؤدي للعالم الإسلامي أجلاً خدمة، بأن يبعث الدول العربية من رقدتها، وأنه كان يسعى في أن يؤسس في شبه الجزيرة العربية على أنقاض تركيا البالية مملكة عربية تضم حسب الوعود التي منته بها انكلترا كل الأراضي الممتدة من مرسين إلى أضنه إلى الموصل، فما باله لم تنبهه الحوادث؟! ألم يكن رد مكماهون المؤرخ في 1916/10/24م كافياً في إثارة شكوكه؟! ألم تفتح عينيه كل الوثائق التي قدمتها؟ وكلها شاهد على مناورات فرنسا، ألم تكن كلها حججاً قاطعة وانذارات كافية لأن تريه عظم

الجنابة التي يوشك أن يرتكبها؟!!!⁽¹⁾. المهم أن الانكليز استطاعوا بأسلوبهم المراوغ الذي اتبعوه مع الشريف الحسين بن علي، أن يفتعوه بكذب الأخبار المنقولة إليه، وربما كانت الحالة كما وصفها فاسيلييف بأن الشريف حسين صدقهم أو تظاهر بأنه يصدقهم، وواصل العلميات الحربية ضد الأتراك، لأنه كان في وضع حرج لم يعد بعده قادراً على الانسحاب من النفق الذي دخله وراءهم للسير فيه، ولم يتوقع أنه مظلم لا نهاية له، نظراً لاحتياجه إلى معاونتهم الحربية والاقتصادية، وللحالة العدائية الشديدة الممزوجة بالشك وعدم الثقة التي وصلت إليها علاقاته مع الاتحاديين، ويرى منسي أن الانكليز استعملوا معه أسلوب الترغيب والترهيب لإسكاته وقبولة بالأمر الواقع، مع ما كان يقنع نفسه به من ثقة تامة بما تشير عليه به العظمة البريطانية!⁽²⁾

ب- موقف العرب في بلاد الشام من اتفاق سايكس بيكو:

كانت مصر منذ خلافة السلطان عبد الحميد الثاني مركزاً للخارجين على الخلافة العثمانية، بتدبير وتخطيط من بريطانية التي احتلتها عام 1882م، وقد تجمع الكثيرون من أبناء بلاد الشام في القاهرة منذ خلافة عبد الحميد، ثم صارت هذه المدينة مركزاً لحزب اللامركزية الذي أسسه رفيق العظم وآخرون من أبناء الشام⁽³⁾، وعندما تولى السلطة الاتحاديون بعد عام 1909م، ازداد نشاط الشاميين في مصر، وصارت مركزاً للتخطيط والعمل السياسي المناوئ للاتحاديين، والذي هباً وأسهم في اندلاع الثورة العربية فيما بعد⁽⁴⁾ وكان الشيخ كامل القصاب أحد رجال حركة العربية الفتاة من أبناء دمشق، يؤدي الدور التنسيقي بين السياسيين في بلاد الشام وإخوانهم المقيمين في مصر، وفي الوقت نفسه ينسق فيما بين الطرفين وبين الشريف الحسين بن علي في مكة، وقد لعب القصاب دوراً مؤثراً في التهيئة للثورة العربية، وخاصة بين من عرفوا في القاهرة آنذاك بالسوريين السبعة والشريف حسين، وهؤلاء هم: الشيخ كامل القصاب صلة الوصل بينهم وبين الشريف، وحسن حمادة، وخالد الحكيم، ورفيق العظم، وفوزي البكري، ومختار الصلح، وعبد الرحمن الشهبندر، وقد عملوا بنشاط ودأب على تأييد الثورة العربية، والإعداد لإنشاء الجيش العربي الذي أنشأه الشريف حسين، وعملوا على شد أزره وموافاته بالضباط والمجاهدين الذين كانوا يلتحقون بهذا الجيش ويتوافدون من كل حذب وصوب لتشكيل الكتائب العربية المكونة له⁽⁵⁾.

ومع انكشاف أمر اتفاق سايكس بيكو وشيوع خبره، إضافة لوعده بلفور - الذي سيتم الحديث عنه لاحقاً - تملك هؤلاء العرب الشك من الانكليز، والخوف على مستقبل بلادهم، وترعزت ثقتهم بصدق الحلفاء، فآلفوا في ربيع 1918م من أنفسهم هيئة للقيام

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 414-416

(1) منسي، حركة البقطة العربية، ص 351، وانظر: سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 464

(2) داغر، مذكراتي، ص 93-94

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 235-236

(1) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 33، ويضيف أمين سعيد إلى هؤلاء السبعة السيد رشيد رضا صاحب مجلة

المنار. أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 237

بعمل مشترك، وكتبوا تصريحاً في شكل مذكرة موجهة للحكومة البريطانية، شرحوا فيها الموقف كما تراءى لهم من ناحيتيه الداخلية والخارجية، وطلبوا منها توضيح سياستها المتعلقة بمستقبل البلاد العربية بمجموعها في بيان واضح شامل⁽²⁾ وروي أن كامل القصاب غادر القاهرة بعد تأليف هيئة الشاميين السبعة، في أوائل عام 1918م، قاصداً العقبة مقر قيادة الأمير فيصل، فزاره ودعاه إلى التعاون مع هذه الهيئة، وأظهر له التفويض الذي منحه إياه أعضاء الهيئة ليتحدث باسمهم والعمل فيما يفيد القضية الوطنية، ويعزز العلاقة بينها وبين الثورة العربية⁽³⁾.

كان وقع مذكرة الشاميين السبعة على الحكومة البريطانية كبيراً، ووجدت نفسها في موقف الحرج، فسعت إلى تدارك الأمور بطريقة يعبر عنها لورنس أشبه ما تكون بالرقص على الحبال، يقول لورنس: " وفي الوقت المناسب عرفت الحكومة البريطانية كيف تستر وجهها، وتلعب على عدة حبال لتقلل من وقع معاهدة سايكس بيكو على العرب، فوعدت لجنة من الزعماء العرب في القاهرة بمنحهم الأراضي التي يستطيعون أن ينتزعوها من الأتراك خلال الحرب، وسرعان ما سرى هذا الخبر في كل أنحاء سورية⁽⁴⁾، ويبين حسن الحكيم رد بريطانيا على لجنة السبعة فيقول: وفي 22 حزيران 1918م، دعا الكوموندان هوغارث (Hogarth) عميد جامعة أكسفورد، الذي كان منتدباً للعمل في مكتب الاستخبارات البريطاني في مصر، ودعا الدكتور عبد الرحمن شهنذر وأحد إخوانه إلى منزل المستر والرند، كاتم أسرار اللورد ملنر، وأبلغهما جواب الحكومة البريطانية الرسمي للسوريين السبعة، الصادر في 16/حزيران 1918م، فكان على جانب كبير من الأهمية في مضمونه وفي الأثر الذي تركه، وأخطر بيان أصدرته الحكومة البريطانية لتوضيح سياستها نحو الثورة العربية، وهو يؤكد تعهدات بريطانيا القديمة للعرب بصراحة، فاقت كل ما أذيع على الناس في السابق، ويعطي إيضاحاً رسمياً للمبادئ التي ارتكزت عليها تلك التعهدات، وها هو نص العهد البريطاني:

- 1- إن حكومة جلالة الملك ترغب في أن يكون عامة الشعب الذي يتكلم اللغة العربية منقاداً من السلطة التركية، وأن يعين فيما بعد عليه الحكومة التي يرغب فيها.
- 2- إن بعض البلاد العربية لما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة، أو حصلت عليه الآن، وهو استقلال اعترفت به انكلترا اعترافاً تاماً، وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب.
- 3- إن سائر البلاد العربية هي الآن إما خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء، فحكومة جلالة الملك تأمل، ولها الثقة لشعوب هذه البلاد أن تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها، وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغائبها.

(2) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 33

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 237

(4) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 355

4- إن حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل إحياء هذه الشعوب، سيتغلب عليها تغلباً ناجحاً، وهي تعد بكل مساعدة لمن يسعى في إلزاتها، ومستعدة لأن تنتظر في أي خطة لعمل مشترك يلتزم مع الحركات العسكرية الحاضرة، ويتفق مع المبادئ السياسية لبريطانيا وحلفائها⁽¹⁾.

ومع ما يحمله هذا العهد من إشارة إلى الاستقلال للبلاد العربية ومنها بلاد الشام، فإنه واضح التحريض على العمل العسكري لانتهاء العلاقات مع العثمانيين وإخراجهم من بلاد الشام، وكان أول بند ورد فيه ليكون شرطاً وأساساً وحافزاً للعمل، وليفهم منه أن ما يأتي بعده يكون مبنياً عليه، وأن لا استقلال للعرب بدون الاستمرار في الثورة على العثمانيين، ثم ترك هذا العهد أمر مستقبل البلاد العربية غامضاً يقرره الحلفاء بعد انتهاء الحرب، هذا عدا عن كونه يشعر العرب بأنهم إن لم يكملوا المشوار في الحرب مع الانكليز، لإزالة العوائق التي تعترض طريق الحلفاء في هزيمة الأتراك، فلا سبيل لبحث مستقبل بلادهم واستقلالها، ويبدو أن الزعماء السياسيين في بلاد الشام انساقوا مع الوعود البريطانية كما حصل مع الشريف حسين، وأخذوا بتلك الوعود، وتعلقت آمالهم بأن تقام لهم دولة بالتعاون مع أمير الحجاز الشريف الحسين بن علي⁽¹⁾.
ج- موقف الضباط العرب في جيش الأمير فيصل من سايكس بيكو.

كانت رسائل جمال باشا إلى الشريف الحسين والأمير فيصل وجعفر العسكري متباينة من حيث الرد عليها والتأثر بها، فبينما لم يرد الشريف وابنه فيصل على جمال رداً إيجابياً، واكتفيا بالاستفهام من البريطانيين عن حقيقة معاهدة سايكس بيكو، وبالتطمينات الغامضة التي أطلقتها لهما القيادة البريطانية كما جاء على لسان لورنس حين قال: "عرفت الحكومة البريطانية كيف تستر وجهها وتلعب على عدة حبال لتقلل من وقع معاهدة سايكس بيكو على العرب... وتبرهن لنا على أنها قادرة على نشر الوعود في كل الاتجاهات، وإلى كل الفرقاء، بعد وعدها رقم (أ) للشريف حسين، ووعداها (ب) للحلفاء، ووعداها (ج) للجنة العربية"⁽²⁾، فقد كان الرد حاداً وعنيفاً وكاد يقلب اللعبة على اللاعبين في حال نجاحه، وكان هذا رد الضباط العرب المشاركين في جيش الأمير فيصل من سوريين وعراقيين، فنوري السعيد الذي كانت موافقة واضحة إلى جانب الانكليز يمشي في ركابهم وينفذ مآربهم، يقف هنا مندهشاً من هول الخبر الذي سمعه، يقول أمين سعيد: ولما اطلع عليها نوري السعيد (معاهدة سايكس بيكو)، دخل على لورنس، فسأله أي العهدين سترتبط به انكلترا؟ فأجابه بعد تردد نفساني عميق: إنها ستحافظ على كلمتها لفظاً ومعنى، وأن العهد المتأخر ينسخ العهد المتقدم⁽¹⁾، أما جعفر العسكري (ضابط عراقي رئيس أركان جيش فيصل) فقد فعلت رسالة جمال باشا فيه فعلها، وحرك الضباط العرب لاتخاذ موقف رافض الاستمرار

(1) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 33-34، انطونيوس، بقطة العرب، ص 298-299

(1) كوثراني، مختارات سياسية، ص 243

(2) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 355

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 196

في الحرب إلى جانب الانكليز، لأنهم لم يحاربوا حتى يستبدلوا الأتراك بالانكليز والفرنسيين لاقتسام بلادهم، وخرجوا على أوامر فيصل عندما اصطدم بهم وحاول أن يثنيهم عن قرارهم، كما حاول أن يثنيهم بتكذيب بريطانيا لمزاعم جمال باشا، كما أن فيصلاً أخبرهم بأن الضباط الانكليز الموجودين في جيشه ليسوا سوى ضباط ارتباط فقط⁽²⁾، في حين كان هؤلاء الضباط يقومون بتوجيه التعليمات والأوامر العسكرية للجيش بما ينسجم وخطط القيادة الانكليزية في إدارتها للحرب برمتها.

وفي موقف آخر رفض الضابط مولود مخلص (ضابط عراقي يرأس فرقة عربية في جيش فيصل) مهاجمة موقع تركي في أوائل نيسان 1918م، ويقع هذا الموقع جنوب معان، وقال: إن الواجب على الجيش العربي هو الاتجاه شمالاً نحو بلاد الشام لخدمة القضية العربية، والعمل على تحرير العرب، لا الاتجاه جنوباً لخدمة أغراض الانكليز التكتيكية في الحرب، وقد أراد مولود مخلص بذلك تحدي الضباطين الانكليزيين لورنس وجويس، اللذين كانا يعملان لتأخير تقدم الجيش العربي نحو الشمال ريثما تحتل القوات الانكليزية أرضاً جديدة في بلاد الشام، ورفع مولود مخلص والضباط الذين معه عريضةً إلى الأمير فيصل، طالبين فيها أن يتوجه الجيش الشمالي المتواجدين فيه نحو الشمال، تاركاً قوةً كافيةً لحصار معان ريثما تسقط، مثلما حدث بالنسبة للمدينة المنورة، واتخذ فيصل والقيادة معه أمراً بتنحية مولود مخلص عند موقعه كقائد فرقة، لأنه عصى الأوامر العسكرية، وبعد أيام سوي الأمر وأعيد مولود لفرقة بعد صدور تطمينات من الأمير فيصل حول الإخلاص للقضية⁽³⁾.

وحادثة أخرى يستدل منها على تملل الضباط العرب من شاميين وعراقيين من السياسة الانكليزية وتؤكد تخوفهم من الغدر البريطاني ببلادهم والتآمر عليها، والذي بدأت علاماته تترى بالظهور، وهذه الحادثة تتمثل بسماح الضباط العرب من الميجر يونغ " أحد ضباط الانكليز مع فيصل⁽⁴⁾، عبارة لم يرضوا عنها، ودعتهم للهيّاج والمناذرة بقولهم: نقاتل الانكليز قبل الترك، وجأهروا بالعصيان ووضعوها مذكرة عسكرية من إحدى عشرة مادة، منها:

- المادة الأولى: نحن عرب قبل كل شيء، ثرنا على الأتراك لنيل استقلال العرب، فإذا أراد الانكليز اعتبار هذه الثورة خدمة لهم، ومعية معاونه لجيشهم في فلسطين، فإننا نقاتل بريطانيا قبل تركيا.

- المادة الثانية: بما أن رئيس الحملة العسكرية نوري السعيد يساير السياسة البريطانية، ويماشي الأهواء العسكرية الانكليزية، فإننا نرفض إطاعته ونطلب إقالته، ومنذ هذه الساعة لا نأتمر بأمره.

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 465

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 219-220، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 229

سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 466، لونسكي، تاريخ القطر العربية، ص 460

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج2، ص 85

أما المواد الأخرى فكانت تدور حول رفض العسكريين العرب في جيش فيصل للإكرامية المالية البريطانية (الرواتب)، وعدم قبول الأوسمة الانكليزية للضباط... إلخ، وشكلت هذه المذكرة مشكلة حقيقية، ويمكن اعتبار ما حدث نواة انقلاب على تحكم الضباط الانكليز بقيادة الجيش العربي الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل، والمتسبب بهذا هو الميجر يونغ الذي طلب أسماء الجنود والضباط العرب الذين اشتركوا في إحدى العمليات العسكرية ضد القوات التركية قبل أيام سابقة من أجل مكافأتهم وإعطائهم الأوسمة، ثم تلى ذلك أن طلب هذا القائد الانكليزي من عساكر الجيش العربي تجهيز قطعة أرض لتكون مهبطاً للطائرات، فلم يستجب الضباط العرب لهذا الطلب بسبب نقيمتهم على الانكليز وتذمرهم من ممارسة ضباطهم معه، الأمر الذي جعل الضابط الانكليزي يونغ يسخر من موقف الضباط العرب ويتهمهم بهم بقوله: عند الإكرامية (700)، وعند الشغل (20)، فكان هذا القول هو المحرك لمشاعر الضباط العرب، والمؤدي لعصيانهم الأوامر الانكليزية، ولم يتمكنوا من تهدئة الضباط العرب إلا باعتذار الميجر يونغ بنفسه منهم، راجياً مسامحتهم واحداً واحداً، وذلك بتدخل ضابطين عربيين لهما نفوذ واحترام لدى اخوانهم الضباط الآخرين، وهذان الضابطان هما علي جودة الأيوبي وجميل المدفعي⁽¹⁾، (عراقيان)، وانتهت هذه الحادثة بسلام عند هذا الحد⁽²⁾.

سادساً: موقف العرب في بلاد الشام من وعد بلفور.

1- تصريح بلفور - BAL FOUR DECLARATION.

كان اليهود يركزون جهودهم خلال قرون خلت حكم فيها العثمانيون بلاد الشام، وفلسطين جزء منها، على أن يسمح لهم بالاستيطان في فلسطين والهجرة إليها بأعداد كبيرة، وكان خلفاء آل عثمان لهم بالمرصاد، يسنون القوانين والتشريعات التي تمنع وجودهم في فلسطين، إلا للزيارات المحدودة الأجل، وتمنع شراءهم الأراضي وتقرض عليهم الغرامات على مخالفة الإقامة، كما تشدد الرقابة على الولاة الذين تعينهم على أراضي فلسطين حتى لا يتساهلوا مع اليهود لسبب أو لآخر لزيادة حركتهم تجاه فلسطين، وقد تم تفصيل موقف الخلفاء العثمانيين من اليهود في فلسطين في الفصل الثالث من هذه الدراسة، وما يهم هنا أنه مع عجز اليهود عن بلوغ أهدافهم عن طريق العثمانيين، وخاصة في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، بعد طرده لهرتزل لأكثر من مرة، ركز اليهود جهودهم في تحقيق مبتغاهم باللجوء إلى بريطانيا، وكانت هذه الأخيرة مع بدء الحرب العالمية الأولى بحاجة إلى الاستكثار من الأنصار والمؤيدين، ولم تدخر وسعاً في حشد كافة القوى الممكنة لمساعدتها، ومن جملتها القوة الصهيونية العالمية⁽³⁾.

(1) البديوي، صبري، صفحات خفية من تاريخ الأمة العربية خلال عشر سنوات، مخطوط، ج1، ص 9-11، نقلاً عن سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م) ص 467، لعدم توفر هذا المخطوط.

(2) سلطان، تاريخ سوريا (1908-1918م)، ص 467، من خلال مقابلة شخصية من سلطان مع البديوي بتاريخ 1978/4/12م.

(3) انظر: الفصل الثالث، موقف الخليفة عبد الحميد الثاني من فلسطين.

وبالمقابل كان لجوء اليهود ورأس حربتهم الحركة الصهيونية إلى بريطانيا، بعد أن أدركوا تراخي فرنسا في تأييد حركتهم، في محاولة لكسب تأييد الحكومة البريطانية للمخططات الصهيونية في فلسطين، على أن تقدم الحركة الصهيونية دعمها للطرف الذي يستحيب لها في تنفيذ خططها للوصول إلى أرض الميعاد⁽¹⁾، وكان من أثر السعي الصهيوني في الولايات المتحدة تمكّن الصهيونية من جر الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب لجانب بريطانيا في 12/نيسان 1917م، ولذلك أقدمت بريطانيا بعد حصولها على تأييد الحركة الصهيونية ونجاح هذه الأخيرة في سحب أمريكا إلى جانب الانكليز لمشاركتهم في الحرب، على مكافأة الحركة الصهيونية بإعلانها المشهور بتصريح بلفور⁽²⁾، وذلك في الثاني من تشرين الثاني/11/2/نوفمبر عام 1917م⁽³⁾، أما نص هذا التصريح فقد جاء على شكل رسالة بعث بها وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور إلى البارون اليهودي أحد أثرياء بريطانيا روتشيلد (Rochelled)، وفيها تعد الحكومة البريطانية اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، ونشرت جريدة المقطم المصرية هذه الرسالة في 9/نوفمبر تشرين الثاني 1917م، أي بعد صدورها بأسبوع واحد⁽⁴⁾، وكان ذلك قبل دخول الجيش البريطاني القدس بقيادة النبي بأسبوع واحد⁽⁵⁾، وها هو نص الرسالة: "عزيزي! يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى المشروع يراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود، وتفرغ خير مساعيها لإدراك هذا الغرض، وليكون معلوماً أنه لا يسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى وبمركزهم السياسي"⁽⁶⁾، ولما كان لورنس مشتركاً في لعبة التآمر البريطاني على العرب، فإنه يرى أن إطلاق وعد بلفور نجاح جديد للسياسة البريطانية ويثنى عليها بقوله: "إنها قادرة على نثر الوعود في كل الاتجاهات وإلى كل الفرقاء، بعد وعدها (أ) للشريف حسين، ووعداها رقم (ب) للحلفاء، ووعداها رقم (ج) للجنة العربية، طلعت الحكومة البريطانية بوعد جديد رقم (د) أطلقته للورد روتشيلد القوة الجديدة التي دغدغت أحلامها بمكاسب ممكنة في فلسطين"⁽¹⁾ أما فاسيلييف فيعتبر وعد بلفور

(1) عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 277

(2) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 30

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 95، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 311. حغدوق، وثائق ميرزا باشا، ص 114

- النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 26-27، الأعرج، سياسة بريطانيا في فلسطين، ص 8

(4) حسين الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 30، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 311

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 204، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 95

(5) STORRS, The MEMOIRS. P. 362

(6) حسين الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 30، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 311

- داغر، مذكراتي، ص 92

- أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 204، الأعرج، سياسة بريطانيا في فلسطين، ص 7

= - طربين، فلسطين في مخطط الصهيونية، ص 12، العدوي، قادة التحرير العربي، ص 181-182

(1) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص 355

للسهوية بمثابة تعميق للمشكلة بين بريطانيا والعرب، وتقسيم سافر للبلاد العربية، يقول: "وفي المرحلة الختامية من الحرب وبعدها، غدا واضحاً أن الانكليز لا ينوون تنفيذ الوعود المائعة التي قدموها للحسين والقوميين العرب، بل راجوا يعمقون المشكلة بالتقسيم السافر للأراضي العربية، وبوعد بلفور تأزمت العلاقات بين الحسين والانكليز⁽²⁾.

2- موقف أبناء بلاد الشام من وعد بلفور.

وقد أحدث إطلاق هذا الوعد لليهود ردة فعل قوية وعنيفة في نفوس أبناء بلاد الشام ولدى الشريف حسين أيضاً، فقد " أثار هذا الوعد المشؤوم ضجة في دوائر القاهرة العربية، فاستكرته فور صدوره وتطيرت منه، وأدركت ما ينطوي عليه من مرامي خطيرة"⁽³⁾ وارسل الزعماء الشاميون في القاهرة برقية احتجاج إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد بلفور على إصدار وعده لليهود بمنحهم فلسطين وطنياً قومياً لهم، وأنهم يلتفون نظره إلى أن فلسطين جزء حيوي هام من الشام، وهي بمثابة القلب من الجسم، ولا يقبلون فصلها سياسياً واجتماعياً، ورد مارك سايكس باسم حكومة بريطانيا على العرب المقيمين في القاهرة برسالة أرسلتها الخارجية البريطانية لهم بتاريخ / 17 / نوفمبر / تشرين الثاني 1917م، أي بعد حوالي أسبوعين من صدور وعد بلفور، وتشير هذه الرسالة إلى أن الهدف الذي ترمي إليه الحكومة البريطانية ليس فقط الإبقاء على القضية العربية، بل وضع الحركة العربية في مكانها الملائم بالنسبة للسياسة العالمية وحركات العصر، وإن عدم التوفيق بين الحركة العربية وبين وجهات النظر في مختلف الحكومات والعناصر، يجعلها تحرم من العون السياسي الضروري لبقائها بعد الحرب، وإن تكاتف الصهيونية والقومية العربية سيجعل تحرير العرب أمراً مؤكداً، كما أن الصهيونيين مستعدون للتعاون مع العرب في تحرير الشام والأجزاء الباقية تحت الحكم التركي، وقد نصح كلايتون Clayton رئيس المخابرات البريطانية الزعماء السوريين من خلال كتابه إلى مارك سايكس الذي أبلغهم إياه بدوره، بأن من مصلحتهم العمل بتفاهم مع اليهود والأرمن، وحاول أن يبين للعرب الشاميين مدى نفوذ الصهيونيين في كل أنحاء العالم، وأنهم سوف يحققون هدفهم في فلسطين لا محالة، رضي العرب أو كرهوا، وحذر العرب من أن اليهود إن لم يحصلوا على بغيتهم من الحلفاء فسيحصلون عليها من الحكومة العثمانية⁽⁴⁾.

يتضح من هذا الرد الغريب المدهش مدى الهزيمة الحضارية التي منيت بها الأمة العربية ومن ورائها العالم الإسلامي، من خلال سكوتهم أو بالأحرى عبر استسلامهم لمخططات أعدائهم ووضع مقدراتهم بيد بريطانيا، وهي تدبر لعبة التآمر

(2) فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، ج1، ص 291، طربين، النجزة العربية، ص 149

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 205، انطونيوس، يقظة العرب، ص 298

(1) منسي، حركة اليقظة القومية، ص 351-352، انطونيوس العرب، ص 299

- عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، ص 282 - 360 STORRS, THE MEMOIRS, P.

عليهم، وتفهمهم بشكل مباشر لا يقبل المواربة، وصريح لا لبس فيه، بأنهم يجب عليهم السكوت والاستسلام للأمر الواقع، لأنهم صاروا منهزمين حين ساروا معها وسكتوا، بل كانوا في سبات حضاري عميق وهي تهدم بناء الخلافة الإسلامية، وتسقط خليفة المسلمين بمشاركة العرب أنفسهم تحت غطاء إسقاط الإستبداد الحميدي، ودعوى إنهاض العرب وتحريرهم من النير التركي البغيض، وغير ذلك من المسميات التي صنعتها دوائر الاستخبارات البريطانية، ومن ثم أشركت العرب في سبيل حريتهم واستقلالهم وإنهاض بلادهم في أداء الأدوار والحلقات اللاحقة من مسلسل التآمر عليهم، بعود خلافة جذابة تزدهر ببريق الحرية والخلاص من عبودية الأتراك، وفي الوقت ذاته تفرض عليهم إرادتها في تقسيم بلادهم بينها وبين فرنسا، وتعطي فلسطين لليهود وتقطعها من بلاد الشام، وفي النهاية تطلب منهم السكوت عن كل هذا، لأن في التكاتف مع الصهيونية خلاصهم من الأتراك، وأنهم إن لم يوافقوا فسيكون الأمر خارج إرادتهم، وتحصل الصهيونية على ما تريد من الترك أنفسهم، وفي هذا إثارة كبيرة لمشاعرهم نحو الترك، وإيحاء لهم بأن الترك مسلمون لليهود في إعطائهم فلسطين، ويأتي التركيز في رد بريطانيا على أبناء بلاد الشام على استعمال لفظ الأتراك والترك بشكل مقصود، للتأكيد على البعد القومي في المسألة، بأن العرب غير الترك، وهم يعادونهم ويثيرون عليهم، من أجل تثبيت النعرة القومية العدائية بين العنصرين الأخوين اللذين ظللتها الرابطة العثمانية الإسلامية في وحدة وتآلف منقطع طوال قرون أربعة خلت، وقفا خلالها في خندق واحد لمقاومة بل لإذابة وتجاهل النزعة العرقية القومية تجاهلاً تاماً، وبرز هذا بشكل أكثر فاعلية في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني الذي استخدم سلاح الجامعة الإسلامية لقتل النزعة العرقية القومية وإزالتها من نفوس الفريقين العرب والأتراك على حد سواء، ولهذا اشتدت الهجمة عليه وحاربوه تحت الشعارات التي أشير إليها آنفاً، للقضاء على السلاح المخيف لهم وهو الخلافة الإسلامية، ووصلوا إلى ذلك بتخطيط ودهاء وعمل استمر عقوداً من الزمن

حتى وصلوا إليه⁽¹⁾، ومن ثم أوصلوا الأمة العربية والعالم الإسلامي إلى هذه الحالة من العجز الحضاري والانهازم النفسي، بحيث تقسم بلادها وتباع للأعداء على مرأى ومسمع منها، وهي تنظر كالمغشي عليه لا تستطيع الإفلات مما يدبر لها، وهي تواجه مصيرها دون أن تفعل أي شيء سوى الاحتجاج والاعتراض.

أما عرب جنوب بلاد الشام (فلسطين) فقد ثاروا وأبدوا معارضةً شديدة للإعلان البريطاني باعطاء اليهود وطناً في بلادهم، وسارع كلايتون إلى لفت نظر حكومته في لندن إلى العواقب والآثار التي ستركها تصريح بلفور على مستقبل الأراضي الفلسطينية، والذي سينعكس سلباً على العلاقات العربية الانكليزية في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، وتتالت بعد ذلك التقارير البريطانية الصادرة من القدس إلى الحكومة البريطانية تفيض بشرح قلق الفلسطينيين من النشاط الصهيوني وفقدان ثقمتهم بالسياسة الانكليزية، وكتب كلايتون في 25 شباط 1918م إلى حكومته يقول: إن المتفقين من المسلمين لا يزالون قلقين مما يرون فيه الأفضلية في معاملة اليهود، ومن احتمال السيطرة اليهودية⁽¹⁾، وأما السياسيون الشاميون المقيمون في القاهرة، وهم المعول عليهم بفعل أي شيء واتخاذ مواقف مؤثرة وفعالة تجاه بريطانيا، لأنهم الممثلون لعرب بلاد الشام في وجه السياسة البريطانية، فقد انخدعوا بأسلوب بريطانيا المراوغ في ردها على مذكراتهم شديدة اللهجة في احتجاجها على وعد بلفور، ولم يفتنوا إلى خطورة الصهيونية، وإنما اعتقدوا أن الأغلبية العربية في فلسطين سوف يكون لها الصوت الأقوى، وأن هذه الأغلبية العددية ستمكن العرب من سن القوانين التي تحمي بلادهم من الابتلاع الصهيوني لها، ونتيجة لهذا الفهم السطحي والساذج للمشكلة ولخطورة تصريح بلفور، وللوقوع بسهولة في حبال السياسة البريطانية، قام

(1) انظر: الفصل الثالث من هذه الدراسة: السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية. وانظر:

ISLAM ANSIKLOPEDISI, TURKIYS DIYANET VAKFI, C. 1, p. 220

(1) عبد الرحيم، تاريخ العرب الحدي، ص 282-283

هؤلاء الزعماء بتشكيل لجنة منهم سافرت إلى فلسطين لإقناع أهلها بعدم معارضة الصهيونية⁽²⁾.

3- موقف الشريف حسين من وعد بلفور.

كان وصول خبر وعد بلفور متزامناً مع وصول خبر اتفاق سايكس بيكو إلى الشريف الحسين بن علي، حيث كان الوعد المذكور في 2 تشرين الثاني نوفمبر 1917م، ووصل الخبر إلى الحسين عن اتفاق سايكس بيكو وعن وعد بلفور في وقت واحد، وكان وقع الخبرين كبيراً عليه، وأصيب بالصدمة من سماعهما، واستنكر الموقف البريطاني ونظر إليه بعين الريبة والشك، وخاطب السلطات البريطانية بشأن ذلك مستوضحاً⁽³⁾، فانتدبت السلطات البريطانية الكومندان هوغارت (Hogarth) أحد رؤساء المكتب البريطاني في القاهرة إلى الشريف لمقابلة الحسين وليرى ما في نفسه من مخاوف بشأن سايكس بيكو ووعد بلفور، وكان ذلك في شهر كانون الثاني 1918م⁽¹⁾، وقيل إن الرد البريطاني على الشريف كان في 8 شباط 1918م⁽²⁾، وقد مرّ بيان رد الانكليز على الشريف بشأن سايكس بيكو قبل قليل، وأما بخصوص وعد بلفور، فقد حمل هوغارت إلى الحسين باسم الحكومة البريطانية بياناً يتضمن ما يلي: بالنسبة لفلسطين نحن مصممون على ألا يخضع شعب لشعب آخر، ويراعى في ذلك:

أ- أنه توجد في فلسطين مقامات وأوقاف وأضرحة وأماكن مقدسة للمسلمين وحدهم، أو لليهود وحدهم، أو للمسيحيين وحدهم، وبالنظر لاهتمام جماهير عديدة خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الأماكن، فيجب أن يقام نظام خاص يقره العالم بخصوص هذه الأماكن.

ب- إنه بالنسبة للمسجد الأقصى يعتبر أمره من شأن المسلمين وحدهم، ولن يوضع مباشرة أو غير مباشرة في أيدي غير مسلمة، كما أنه بالنظر لأن الرأي اليهودي في العالم، يحبذ عودة اليهود إلى فلسطين، وبالنظر لأن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف نحو تحقيق هذا المطمح، فإن الحكومة مصممة على أنه في حدود عدم

(2) عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 285-286

(3) أبو داهود، يوسف جميل، الثورة والنفي، نشر: وزارة الثقافة، طبعة أولى، عمان 1992م، ص 212-213 أبو داهود، الثورة العربية والنفي.

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 205

(2) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 31

تعارض هذا مع حرية السكان الموجودين فعلاً من الناحيتين الاقتصادية والسياسية لن يقوم عائق في طريق تحقيق هذا الهدف الأسمى.

وأجاب الحسين على مسودة هذا البيان الذي كتبته هو غارت بقلم الرصاص: إنه إذا كانت الغاية من وعد بلفور هي إيجاد ملجأ يلجأ إليه اليهود يقيهم الاضطهاد، فإنه مستعد أن يبذل جهوداً في سبيل تحقيقه، كما أنه يوافق على كل تدبير ملائم يطمئن الطوائف الأخرى التي لها أماكن مقدسة في فلسطين على حقوقها، وأوضح الشريف لهو غارت أنه لا يقبل أن يتنازل عن حق العرب في السيادة على فلسطين، وإن كان يقبل عن رضا بالتفكير في الوقت المناسب بتزويد الحكومة العربية المقبلة في بلاد الشام ومنها فلسطين بالخبراء الإداريين والفنيين⁽¹⁾.

4- موقف العرب المشاركين في جيش الثورة العربية من وعد بلفور.

لم يكن موقف الضباط والجنود العرب من أبناء الشام والعراق، المشاركين في جيش فيصل الشمالي يقل عنفاً أو تحدياً للسياسة البريطانية واعتراضاً عليها من موقف الشريف حسين، بل ذهب إلى حد اتخاذ قرار بالعدول عن مواصلة الحرب، بعد أن اقترب الجيش الشمالي المتوجه إلى بلاد الشام من منطقة العقبة، وأعلن ضباط هذا الجيش عدولهم عن مواصلة الحرب، وعقدوا لقاءات مكثفة فيما بينهم للتشاور بخصوص وعد بلفور، وأنهم متوقفون عن التحرك حتى ترد تأكيدات بأن تعهدات مكماهون للعرب وللشريف حسن ستنفذ، ثم توافدت على الجيش الشمالي أعداد من الشباب العرب المتطوعين من كافة ربوع بلاد الشام، وخاصة من فلسطين للتطوع في صفوفه، يربو عددهم على 1200 شاب، وتبع ذلك أعداد أخرى أخذت تزداد باستمرار، وأثار الشباب الفلسطينيون في الجيش حديث وعد بلفور، وقالوا: كيف ننضم إلى الانكليز ونقاتل معهم، وقد وعدوا اليهود ببلادنا؟! فأثارت أقوالهم كل أفراد هذا الجيش وهاج وماج، وتآلف منه وفد قابل الأمير فيصل، واحتج لديه على زيارة اللجنة اليهودية للقدس، فوعدهم بأن يهتم بالأمر ويعالجه على أرفع مستوى.

وهنا تدخل لورنس كعادته حين تحدث أزمة يخاف منها الانقلاب وردة الفعل ضد الانكليز، فحاول إرجاع غضب أبناء الشام ضد سياسة بريطانيا وضد وعد بلفور إلى الدسائس الخارجية التي يبيتها الأتراك لإثارة الشك في نفوس العرب من الانكليز، وأن الشباب الغاضبين الثائرين على التآمر الانكليزي على بلادهم إنما هم مندسون أرسلهم جمال باشا ليوقف الاندفاع العسكري لهذا الجيش نحو بلاد الشام، فأدرك فيصل مقصد

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص 205
- النجار، الشرق العربي بين حربين، ص 28

لورنس المغرض لتحويل الأمور عن أهدافها الحقيقية، ورد عليه بأنه يثق بإخلاص هؤلاء الضباط والجنود، ويعرف اندفاعهم من أجل حرية بلادهم وكرامتها، وأسكته وفوت عليه تدخله، وسكنت الضجة بعدما نال الأمير وعداً من لورنس كالعادة!! يقضي بأن تعيد بريطانيا النظر في سياستها إزاء العرب، وتنفذ وعودها وتنصفهم، وقال إنه سيبدل جهده في هذا السبيل!!⁽¹⁾.

والملاحظ بعد عرض موقف الانكليز من اعتراض الشريف حسين واعتراض جيش الأمير فيصل على وعد بلفور، أن بريطانيا تتابع تقديم الوعود اللفظية للعرب، ولم تستطع التقلب من الرد على احتجاج الشريف حسين على ذلك الوعد الغادر، لكنها استطاعت أن تمرره عليه كما مرّرت من قبل غدرها بالعرب باتفاق سايكس بيكو، ولم يغتنم الحسين الفرصة لأخذ تعهدات مكتوبة من بريطانيا⁽²⁾ ولو فعل ذلك لاستجابت بريطانيا نظراً لحاجتها الملحة إلى استمرار وقوف العرب معها في الحرب، وبذلك أضاع الحسين وفيصل فرصة ثمينة يضمنان من خلالها تعهداً صريحاً مكتوباً من بريطانيا باستقلال العرب وحرية بلادهم وفق الأهداف المعلنة للثورة العربية⁽³⁾، بعدما تعهدا لها بالاستمرار في خوض الحرب حتى بلوغها منتهاها وإخراج العثمانيين من بلاد الشام، وهو ما سبق الإشارة إليه عند الحديث عن موقف الشريف حسين من اتفاق سايكس بيكو في هذا الفصل.

5- موقف الاتحاديين من وعد بلفور.

كانت العلاقات بين العرب والعثمانيين عند صدور وعد بلفور في 2/ تشرين الثاني 1917م قد تسارعت باتجاه القطيعة، بعد أن وصل جيش الثورة العربية على مشارف بلاد الشام عند حدودها الجنوبية، وهي في طريقها إليها للإخراج القوات العثمانية منها، وفي هذه الأثناء ثارت ثائرة العرب جميعاً بسماع خبر هذا الوعد العدائي لهم من الحليفة بريطانيا، ولما كان العرب والعثمانيين خلال ذلك في مرحلة حرب، فإنه لم ترشح معلومات للعرب عن موقف القيادة العثمانية - والتي يتولاها الاتحاديون آنذاك - من وعد بلفور، سوى إichاءات غير كافية للدلالة على حقيقة انطباعاتهم عن تصريح بلفور وعن الغدر الانكليزي والهجمة الصهيونية على فلسطين، لكن موقف الاتحاديين في السنوات الخمس الأولى من فترة حكمهم التي سبقت الحرب العالمية الأولى بين 1909-1914م، وخاصة أثناء قيامهم بالانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، وإسقاط راية الخلافة الإسلامية، وخلع هذا الخليفة، كان واضح المعالم من أن الحركة الماسونية العالمية، التي هي الذراع السرية القوية والفعالة للحركة الصهيونية، والتي أنشأتها اليهودية العالمية لتنفيذ مخططاتها، كانت المحرك الرئيس للاتحاديين، وكان عدد كبير من قادة جمعية الاتحاد والترقي من المنتسبين للحركة الماسونية العالمية، وأن هذه الحركة دفعت الاتحاديين بعد أن أدخلت

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 206-207، انطونيوس، بقطة العرب، ص 300-301

(2) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 464

(3) سلطان، المرجع السابق، ص 464

قادتهم في تنظيمها، إلى عمل الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، بعد أن عجزت عن تحقيق أهدافها في إقناع هذه الخليفة بمنح اليهود تسهيلات للهجرة إلى فلسطين، وبيعهم أراضيها لإقامة دولة بني يهود وإقامة هيكل سليمان المزعوم في القدس فوق ثراها الطهور، لذلك كان البديل هو التخلص من عبد الحميد الثاني وتسليم الاتحاديين الحكم في الدولة العثمانية، من أجل الوصول إلى هذه الغاية، وهي أن يسمح الاتحاديون لليهود في التدفق إلى فلسطين وتحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه عن طريق عبد الحميد، لإصراره على التمسك بعروبة فلسطين وإسلاميتها⁽¹⁾، وهكذا كان الهدف الرئيس من الانقلاب على الخلافة الإسلامية وخليفاتها المسلم الملتزم بقضايا الأمة الإسلامية وبالحفاظ على الأرض الإسلامية في بلاد الشام وغيرها، من أجل تمكين اليهود من تحقيق غرضهم في فلسطين لإقامة دولتهم عليها، وبعد الانقلاب على عبد الحميد، جاءت اتفاقية سايكس بيكو لتضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني من الناحية العملية، وتحت إدارة دولية صورية كما هو مثبت في بنود اتفاق سايكس بيكو⁽²⁾، حيث لجأت الصهيونية واليهودية إلى الاتفاق مع بريطانيا، فوعدها يهود العالم بتأييدهم لها، والضغط على أمريكا لتدخل الحرب إلى جانبها، وفعلاً أقنع اليهود أمريكا فاشتركت في الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا، وكان لها دور فعال في ترجيح كفه الحلفاء للكسب الحرب، وبالمقابل اشترط اليهود على بريطانيا إقامة وطن قومي لهم في فلسطين لقاء تأييدهم لها في الحرب⁽²⁾.

من هنا يمكن اعتبار دور الدولة العثمانية مغيباً عن حماية بلاد الشام وفلسطين، وقد يكون إصرار الاتحاديين على الاشتراك في الحرب العالمية الأولى، على الرغم من أن الدولة العثمانية والعالم الإسلامي ليس لهم أية مصلحة في هذه الحرب كما أشير إلى ذلك في الفصل السادس، قد يكون ذلك من أجل أن يكون الاتحاديون والدولة العثمانية في الطرف المعادي لبريطانيا كي تتمكن من إطلاق يدها وتنفيذ مخططاتها المستقبلية ومن بينها إعطاء اليهود وطناً في فلسطين، وهذا الرأي وإن كان من حيث المبدأ لا يوجد ما يؤيده من الوثائق والمعلومات في حدود ما تم الإطلاع عليه، لكن وقد تكشف وثائق في المستقبل عن تلك الحقبة مما يؤيد هذا الاعتقاد.

ويستدل من جواب الانكليز للسوريين السبعة حين اعترضوا رسمياً على اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور، أن الانكليز كانوا يضمرون شيئاً يدل على موافقة الاتحاديين على منح فلسطين لليهود، بشكل يوحي بوجود وتفاهم مسبق أو تنسيق معين بين دول الحلفاء والاتحاديين واليهود، بحيث يصل اليهود إلى مبتغاهم من هذا المدخل،

(1) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة عن موقف عبد الحميد من فلسطين، والفصل الرابع عن ماسونية الاتحاديين، ودور اليهود والحركة الماسونية في الانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني.

وانظر: انطونيوس، يقظة العرب، ص 294-295

(1) انظر: الفصل السادس عن بنود اتفاقية سايكس بيكو المتعلقة بفلسطين.

وانظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 187-191

(2) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 30، انطونيوس، يقظة العرب، ص 285، 287-295

- الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 42-43

ولعل انضمام الدولة العثمانية إلى جانب الألمان في الحرب له دور في هذا، إذ تعمل ألمانيا على تمكين اليهود من فلسطين فيما لو انتصرت في الحرب، وأن الألمان يضغطون على الاتحاديين حلفائهم في الحرب لأخذ مثل هذا السماح لليهود، بطريقة تشابه ما حصلوا به عليه من خلال وعد بلغور ولعل هذا التحليل له ما يؤيده فيما يذكر انطونيوس بأن رجال تركيا الفتاة عندما أتوا إلى الحكم بعد انقلابهم على عبد الحميد، كانوا ميالين في أول الأمر إلى الإصغاء لمطالب الصهيونية، بفضل نفوذ اليهود القومي في داخل جمعية الاتحاد والترقي، لكنهم ما لبثوا أن وجدوا بأن الحكمة تقضي ببرد تلك المطالب، ولا سيما بعد المشادة العنيفة التي جرت في البرلمان العثماني في ربيع سنة 1912م، حين احتج المبعوثين العرب على تملك اليهود لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية الواقعة في مرج ابن عامر، مما يؤدي إلى نزوح الفلاحين العرب، وفي بدء الحرب كانت برلين مركزاً للنشاط الصهيوني، فلما دخلت تركيا الحرب إلى جانب الدول الوسطى (ألمانيا ومن معها)، رأى الزعماء الصهيوونيون في تنمية الصلة بالحلفاء مصلحة لهم، حتى إذا أدت الحرب إلى انهيار المملكة العثمانية، وجدت القضية أذاناً صاغية⁽¹⁾ وترى سميحة أيوردي أن أفعال رجال جمعية الاتحاد والترقي منذ بدء حكم السلطان عبد الحميد، وسعيهم لإعلان المشروطية الأولى والثانية، بل وقبل ذلك منذ عهد السلطان محمود الثاني جد عبد الحميد، وأيام عمه عبد العزيز، كل ذلك يؤشر أن الاتحاديين متواطئين مع اليهود، وكانوا يتلقون وعدهم وتأييدهم لقلب العثمانية دعمهم الدولة في سبيل أن يتيحوا لليهود الاستيلاء على فلسطين⁽²⁾. أما جواب الانكليز لهؤلاء السبعة فقد جاء عن طريق كلايتون رئيس المخابرات البريطانية، وأبلغه لهم مارك سايكس، ثم حثهم على ضرورة تساهل العرب في بلاد الشام مع اليهود، لأن اليهود سيحققوا هدفهم في فلسطين لا محالة، رضي العرب أم كرهوا، ثم حذر العرب من معارضة ذلك، فإن لم يحصل اليهود على بغيتهم من الحلفاء، فسيحصلون عليها من الحكومة العثمانية⁽³⁾، لكن ما يصدر عن جمال باشا يخالف هذا التوجه، إذ يفهم من سياق حديث جمال باشا عن الثورة العربية وعن خطط الانكليز والفرنسيين لاقتسام بلاد الشام، أنه ضد السياسة البريطانية، وأنه مع السياسة العثمانية التي درج عليها خلفاء بني عثمان في الحفاظ على عروبة فلسطين وعلى إسلاميتها، يقول جمال باشا: "وأفهمته (يقصد الأمير فيصل) أن العرب سيقعون في اليوم الذي يقطعون فيه صلتهم بالأتراك غنيمةً باردةً في أيدي انكلترا وفرنسا، وبذلك يُحرّمون بتاتاً من حماية خليفة المسلمين، والآن وقد وضعت الحرب أوزارها، وتمكن الانكليز بفضل ثورة الشريف حسين من هزيمة الجيش التركي في فلسطين والقدس - تلك المنحة الثمينة - التي أهداها الخليفة عمر إلى العالم الإسلامي، في قبضة الانكليز،

(1) انطونيوس، بقطة العرب، ص 285-286

(2) AYVERDI, TURK TARİHİNDE OSMANLI ASİRLERİ, CİLD, 3, P. 7

(3) منسي، حركة البقطة العربية، ص 351-352

الذين يبغون إنشاء دولة يهودية فيها، وقد تنازلوا لفرنسا عن لبنان، وأصبح العراق بأسره تحت الحماية الانكليزية⁽¹⁾.

فجمال باشا ينحي باللائمة على الشريف حسين، الذي قام بالثورة العربية ضد دولة الخلافة، وهو يعتقد أن هذه الثورة هي سبب ضياع بلاد الشام وتقسيمها بين الانكليز والفرنسيين في سايكس بيكو، والحقيقة أن عوامل عديدة ليس المقام هنا هو موضع بحثها، كانت متسببة فيما وصلت إليه حالة بلاد الشام من وقوعها تحت السيطرة الأجنبية، لكن ما قاله جمال باشا لا يؤخذ على إطلاقه مع ما يحمله من معاني لا يمكن إغفالها وتجاهلها، وقد غاب عن باله وهو يسجل شهادته للتاريخ أنه يبرأ ذمته مما أغرق الدولة العثمانية ومعها البلاد العربية والشام من جملتها، فيه من متهاتات الخسارة والتقسيم والخضوع لمصالح الدول الكبرى، وإغرق العلاقات العربية العثمانية في لجة سياسته العمياء التي هدمت كل ما بناه أسلافه من بني عثمان بدماء المسلمين العثمانيين عرباً وأتراكاً بتضامنهم وتأخيرهم وتوحدهم.

سابعاً: محاولة إعادة العلاقات بين العثمانيين والعرب إلى وضعها الطبيعي

أوجدت السياسة التي اتبعتها أحمد جمال باشا ضد العرب في بلاد الشام حالة من الاستياء العام بين رجال الحكومة الاتحادية في استانبول، لأنهم أدركوا أن معاملته السيئة للعرب في بلاد الشام قد أوصلت العلاقات العربية العثمانية إلى غاية التأزم وإلى حد القطيعة، فقررت استدعائه من الشام في أواسط ديسمبر / كانون أول / سنة 1917م، وغادرها سراً، ثم عين وزيراً للحربية حتى انهزام الدولة العثمانية في الحرب عام 1918م، وحكم أحمد جمال باشا بلاد الشام مدة ثلاث سنين، من 5 / ديسمبر / كانون أول 1914م، حتى أواسط ديسمبر / كانون أول 1917م، وعينت بدلاً منه محمد جمال باشا، الذي عرف فيما بعد بجمال باشا الصغير (كوجوك)، قائداً للجيش الرابع في بلاد الشام، فانتقل إلى هناك⁽¹⁾، وجعل مقر قيادته في مدينة السلط⁽²⁾، ويبدو أنه أعطى تعليمات من حكومة الاتحاديين بأن يحاول فتح صفحة جديدة في العلاقات العربية العثمانية، لتدارك ما يمكن تداركه، وإيقاف حالة التردّي السريعة في سلم هذه العلاقات قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى، وقد يكون سبب هذه المحاولة إقتناع الاتحاديين أنهم السبب في انهيار الدولة العثمانية الذي بات وشيكاً، لأنهم اقترحوا من خسارة الحرب وقد أشرفت على الانتهاء، لهذا سعوا إلى تقديم مبادرة للمصالحة مع الشريف حسين باعتباره ملك العرب وقائد الثورة العربية والمتحدث باسم عرب الشام والحجاز والعراق، بحيث يكون الصلح مع العرب سبيلاً لإيقاف معונاتهم للحلفاء

(1) جمال باشا، المذكرات، ص 416-417

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 157

سلام، المذكرات، ص 227، سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 523

(2) السلط مدينة أردنية، هي مركز محافظة البلقاء حالياً، تقع إلى الغرب من مدينة عمّان بحوالي 15 كم عن طرف عمّان الغربي، تبعد عن دمشق حوالي 240 كم باتجاه الجنوب، وعن القدس 50 كم من جهة الشمال الشرقي، انظر: طريف، جورج فريد، السلط وجوارها بين 1864-1921م نشر: بنك الأعمال، الطبعة الأولى، عمّان، 1994م، ص 25-32، طريف، السلط وجوارها.

ضد العثمانيين، وفي الوقت نفسه تجنب انهيار الدولة العثمانية وتفتيتها كغنائم للحلفاء، والإبقاء على علاقة مع العرب إدارياً وسياسياً، مع الحفاظ على البلاد العربية بألا تقع تحت الاستعمار الأجنبي الفرنسي والانكليزي.

بدأت هذه المبادرة في شهر يوليو / تموز عام 1918م، أي قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بحوالي خمسة أشهر، وكلف جمال باشا الصغير⁽³⁾، القائد الجديد للجيش الرابع المرابط في بلاد الشام، الأمير سعيد الجزائري (أحد أفراد آل الجزائري أقرباء الأمير عبد القادر المقيمين في دمشق)⁽⁴⁾ بأن يكون الرسول الذي يقوم بدور الوساطة لدى قادة العرب، لأنه من وجهاء دمشق ومن الوجوه السياسية المعروفة في بلاد الشام، ولدوره السابق في الحركة القومية في بلاد الشام، ثم للعلاقة الحميمة التي تربطه بالأمير فيصل بن الشريف الحسين، لهذا كله وقع الاختيار عليه في أن يبذل مسعاه في الصلح بين العرب والاتحاديين، ويذكر أمين سعيد، أن فكرة الصلح انبثقت من الأمير سعيد، "فأخذ على عاتقه مهمة السعي لعقد صلح بين العرب والترك، يزيل الخلاف من بين الأمتين، ويعيد السلام إلى قراره في بلاد الشام والحجاز، فقصد السلط في شهر يوليو 1918م، وقابل جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع، وكان مقره هنالك، فعرض عليه فكرته، فلقبت منه استحساناً وتأبيداً"⁽¹⁾، وهذه الرواية تظهر أن ليس لقيادة الاتحاديين ولا لجمال باشا توجه في انطلاق فكرة الوساطة، أو الإحياء بها لسعيد الجزائري، فإذا كانت المبادرة لم تبدأ من الاتحاديين، فمن المسلم به أن قبولهم بها واستحسانها من جمال باشا الصغير كافٍ لإثبات حسن النية وإبداء الرغبة في تحسين العلاقات العربية العثمانية لما لذلك من مصلحة قوية للطرفين العربي والعثماني كعنصرين شقيقين الوحدة والتآخي هما سر قوتهما، وفي الوقت نفسه نقطة ضعفهما ومقتل لهما لو تخليا عن ذلك.

ويبدو أن محالة الإصلاح هذه تزامنت مع اشتهاار خبر اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور⁽²⁾، وجاءت بعد ذبوع خبرهما بمدة ليست طويلة، فإن كانت فكرة المصالحة صادرة عن الاتحاديين، وعن قائد جيشهم جمال باشا الصغير، فهي تفهم بشكل جلي لا يقبل التأويل بأنها استثمار لهذين الحدثين، وخطوة موفقة في اختيار التوقيت المناسب لغرس بذرة الصلح في مناخ وترربة صالحة ومهيأة لترى الحياة وتنجح، لأن في ذلك إثبات الحرص على البلاد العربية من الضياع بيد الفرنسيين والانكليز، وإشعار للعرب بأن العثمانيين ينطلقون في هذا التوجه من الرغبة في أداء الواجب الاسلامي الذي تفرضه الأخوة الاسلامية أن يحافظ العثمانيون على البلاد العربية ويخافون عليها من الأطماع الأجنبية، هذا إن كان

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 228

أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 312

(4) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 311-312، أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 229

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 312، أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 229

(2) انطونيوس، بقطة العرب، ص 280

الدافع لتحرك قيادة الاتحاديين إسلامياً، وقد يكون كذلك، لأنه لا يستبعد أن يوجد بين أصحاب القرار فيهم من يفكر بهذا التفكير، خاصة في الظرف الحرج الذي أدركوا خطره مع اقتراب الحرب من نهايتها، وبدء رجحان كفتها لصالح أعدائهم، المهم أن الاتحاديين تحركوا نحو الصلح مع العرب، مستفيدين من الظرف المتاح لذلك. وكانت أولى خطوات هذا التحرك، أن سَطَّرَ قائد الجيش الرابع جمال باشا الصغير كتاباً مفعماً بمشاعر التودد والتلطف وَحَمَّلَهُ إلى الأمير سعيد الجزائري، ونص هذا الكتاب ما يلي:

- قيادة الجيش الرابع، في 5/ أغسطس/ آب/ 1918م.

المعروض: إطفاء نار الفتنة المشتعلة بين المسلمين، أبعث إلى حضرتكم بالنجيب الأمير سعيد، الذي يقوم من جانبنا بمهمة مقدسة، وإنني لعلّي اعتقاد بأن حفيد النبي الكريم غير مرتاح إلى هذا الفتور بين المسلمين، وأعتقد أن روح النبي (صلى الله عليه وسلم) الطاهرة ستكون راضيةً عن عملي هذا.

وأرجو الله أن يصون دينه المحمدي كما وعدنا في كتابه الكريم، وأن يوفق العاملين للصلح فيما يسعون إليه.

وفي يوم 6/ أغسطس/ آب/ سنة 1918م غادر الأمير سعيد السُّلْطَ قاصداً معان، فركب قطاراً خاصاً أعدّه له الجيش العثماني، فاستقبله في معان قائد الحامية العثمانية فيها علي وهبي بك، عملاً بالتعليمات التي تلقاها من القائد جمال باشا الصغير، وجاء للأمير سعيد برسول سلمه الكتاب الذي يحمله من جمال باشا إلى الأمير فيصل.

وأرفق الأمير سعيد الكتاب الذي أرسله معه قائد الجيش الرابع جمال بكتاب منه شخصياً، ونصه: معان في 17/ أغسطس/ آب/ سنة 1918م.

كلفني قائد الجيش الرابع جمال باشا أن أوافيكم إلى مقركم العالي للبحث في قضية الصلح، وأجد نفسي سعيداً بلقائكم، كما أرجو الله أن يوفقني لخدمة البلاد، فإذا كنتم على استعداد للدخول في المفاوضات، فأجو من سموكم تحديد الزمان والمكان، فأوافيكم متخذاً هذه الفرصة وسيلةً لتأييد الأخوة، واقبلوا فائق احترامي⁽¹⁾.

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص312

وفي اليوم التالي/18/أغسطس عاد الرسول إلى المعسكر العثماني في معان، يحمل الرد الآتي من الأمير فيصل: عين وحيدة في/18/أغسطس سنة 1918م، عزيزي الأمير سعيد المحترم: تلقيتُ رسالتك وسررتُ لدوام صحتك، عسى الباري أن يحفظك، ولولا علمي بصفاء قلبك، وخلوص نيتك، ما كنتُ أرى لزوماً للرد على كتابك، ولكن بالنظر لما بيننا من الأخوة والمحبة، أرى إن كانوا (أي الترك) قد زودوك بما تثق به ويطمئن إليه قلبك، فاحضر إلى وادي (عقبة) هذه الليلة تجد عشرة رجال يحملون فانوساً أحمر، فاعتمد عليهم وهم يقودونك إلينا، وإن كنت لا تحمل ما يطمئن إليه القلب فلا تتعب نفسك، فأنت في مكانك، والعرب وشأنهم، والسلام.

وقصد الأمير سعيد الوادي في الوقت المضروب مع دليل، فلم يعثر على الرجال العشرة، لأنه أضاع نقطة الاجتماع فعاد إلى معان بعدما لقي مصاعب، وفي الغد أرسل كتاباً إلى الأمير فيصل يخبره بما وقع، ويطلب إليه أن يرسل مندوباً يعتمد عليه وينتظر قدومه على أكمة تشرف على السهل، فيقصد المعسكر العربي متستراً تحت جناح الظلام، ووصل المندوب فصحب الأمير سعيد الجزائري إلى المعسكر العربي، فكان في استقباله نوري السعيد وفائز الغصين، ففضى ليلته هناك، وفي الغد اجتمع بالأمير فيصل، وسلمه كتاب جمال باشا، قتلاه بإمعان، وخلا بعد ذلك بنوري وفائز، فكتب رده، ونصه:

عين وحيدة/في/21/أغسطس/آب/سنة 1918م.

إلى حضرة قائد الجيش الرابع: تلقيت كتابكم الذي تفضلتم بإرساله مع الأمير سعيد، وبما أن ما تضرره ذاتكم العالية قديماً من العواطف السامية نحو المسلمين معلوم لدى الجميع، فليس عندي ما أقوله سوى تبجيل شخصكم الكريم - وبما أن الرسائل التي نتداولها منذ تسعة أشهر بقيت عرضةً للتسوية، فلم يبق أمل بالوفاء والاتفاق، غير أن مساعي الأمير سعيد في هذه المرة أحييت بعض أمل في نفسي، مع أن الحال والوقت هما في أقصى درجة من الخطورة، كما أن وضعك العسكري مهلك، ولا أورد هذا على سبيل التهديد، بل إن وجداني يسوقني إلى إسدائكم النصيحة، إن العرب لا يطلبون شيئاً زائداً من الترك، بل غاية ما يتمنون أن يعيشوا أحراراً، وأن يضعوا أيديهم بأيدي الترك، ويكون حالهم من حكومتهم كحال بافاريا من روسيا⁽¹⁾، فإذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط، فنحن على أتم الاستعداد للدخول في

أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 229-230

(1) يرى سلطان أن طرح الأمير فيصل هذا الموضوع في مفاوضاته مع جمال الصغير بهذه الصيغة، كأنه يفوض عن سورية ومستقبل علاقتها مع الدولة العثمانية، لا عن الحجاز والعراق وبلاد الشام، وأن هذا بداية لفصل سورية عن الحجاز، ليكون فيصل حاكماً عليها، وأنه صار يوقع فيما بعد باسم أمير سورية وقائد جيوش الشمال، أي أنه انساق مع الرغبة البريطانية في أن يكون ملكاً على سورية من أجل تجزئته القضية العربية وتمزيق وحدة الدولة العربية التي أرادها والده الشريف الحسين في مفاوضاته مع الإنكليز، والتي أراد لها أن تشمل الحجاز وبلاد الشام والعراق مجتمعة في حدود دولة واحدة، أما أبوه فكان له موقف مختلف، إذ أنه ظل يعمل للقضية العربية ككل، ولم يقبل بفصل سوريا عنها، ولهذا عندما علم أن فيصل يسعى إلى فصل سورية عن البلاد العربية أرسل إلى فيصل في/8/آب 1918م يقول له: إلى هذا تصل بك القحة يا فيصل: انظر: داغر، مذكراتي، ص 91 سلطان، تاريخ سورية (1918-1908م)، ص 477

مفاوضات الصلح، وإلا سنرجع إلى إصدار الفتاوى المزيفة⁽²⁾ ونصب المشانق، واقتلوا يا حضرة الباشا احتراماً⁽³⁾. وعاد الأمير سعيد الجزائري إلى معان فعَمَّان فالسلط، وأطلع جمال باشا على ما وقع، وسلّمه الكتاب، فجمع هذا هيئة أركان حربه، فقررت إرسال برقية إلى الأستانة بوجوب الاعتراف باستقلال العرب، وقد وضعت حكومة الاتحاديين مشروعاً بذلك رفعته إلى السلطان (وكان يومذاك محمد رشاد) فأقره، ولكنه لم يُبلَّغ إلا متأخراً، أي بعد الهزيمة الكبرى في فلسطين⁽⁴⁾.

لقد انتهت هذه المحاولة الجادة لإصلاح ذات البين بين العرب والعثمانيين نهايةً محزنة، ووصلت إلى طريق مسدود نتيجة لعوامل عدة اشتركت في إفشالها، من أهمها الدور التخريبي الذي لعبه نوري السعيد عميل الانكليز المباشر في جيش الأمير فيصل لإفشال محاولة الصلح المعروضة، ويظهر أن بريطانيا أنزلته هذا الموقع المؤثر بالقرب من الأمير فيصل، ليؤدي هذا الدور المهم جداً إلى جانب دور لورنس في التجسس لبريطانيا، ونقل كل شاردة وواردة إلى رجال استخباراتها، وكان نوري السعيد يشغل رئيس أركان جيش الأمير فيصل، وهو في الوقت ذاته إضافة لتجسسه على فيصل لبريطانيا، يتجسس أيضاً لجمال باشا على فيصل، يقول بينهم وهو ينقل مساعي الأمير سعيد الجزائري في الوساطة الأنفة الذكر: "لما انتدبني جمال باشا إلى الشريف فيصل بشأن الصلح بين العرب والترك، وذهبت لإتمام هذه المهمة، وقابلت الشريف فيصل، خفّ نوري السعيد إلى الوشاية بي إلى جمال باشا بكتاب قال فيه: إنني اتفقت مع الشريف فيصل ضد الأتراك، وأراد نوري السعيد بهذه الوشاية خدمة دولة الانكليز التي لم تكن عالمةً بهذه المقابلة، لأنه كان جاسوساً لهم"⁽¹⁾.

- ومنها: عدم اطمئنان الشريف حسين وأولاده إلى عرض جمال باشا للتصالح، وظهر هذا الموقف من الرسالة التي بعث بها الأمير عبدالله إلى أخيه الأمير زيد في الجيش الشمالي المتجه نحو الشام، وهي بتاريخ 1/ربيع الأول 1336هـ/الموافق 15/كانون أول 1917م، يقول عبدالله بن الحسين مبيناً رأيه في عرض العثمانيين على العرب إعادة العلاقات، ثم ينظر إلى واقع هذه العلاقات المتردي بسبب سياسة الاتحاديين وبغضهم للعرب، ويرد على تصرفاتهم رداً يتميز بالروح القومية العدائية: "لا يهمني شيء سوى اضطراب الأتراك إلى مخابراتكم في إرجاع المناسبات الودية بيننا وبينهم... الترك ما أحبو العرب قبل اليوم حتي يحبوهم بعده، الترك محوا دولتنا وامتلكونا وأهانونا، وفي بالهم أن يميلوا إلينا اليوم، إنهم لا تؤمن غائلتهم، ولا تقبل أيمانهم وعهودهم، فإنهم إلى البوق (كلمة بدوية معنا الخيانة)

(2) إشارة إلى الفتاوى التي استصدرها أحمد جمال باشا سنة 1916م من بعض علماء سورية بتكفير الشريف حسين لخروجه على الخلافة. أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 313-314

(3) أمين سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 314، أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 230

(4) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 314، أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 231

(1) بينهم، سوريا ولبنان، ص 49

وانظر عن خيانات نوري السعيد وعمالته للانكليز وتآمره معهم ضد العرب والبلاد العربية: داغر، مذكراتي،

ص 112-113، 204-231

وقلة الوفاء أقرب، وإنني والله أراهم طرّقوا أولاً أبواب القهر والشدة والسحق أمامنا، فلما علموا أنها لا تجديهم نفعاً، أخذوا يبدون لنا مظاهر التودد، وما ذلك إلا لتفريقنا عن بعضنا، وإدخال الشقاق في وحدتنا النظامية، وإضعاف الثقة بالحلفاء، وتهديد مَنْ معنا من أهل الشام والعراق، من أن حلفاءنا سيغتصبون بلادهم ولا يعيدونها إلينا، ولم يكن لنا من حلفائنا ما يدل على عدم الوفاء بأقوالهم وعهودهم لنا، وأما عن سورية فلا خطر عليها من فرنسا الآن ما دام الجيش الألماني إلى الآن يحتل ربع فرنسا، فلا تغتروا بأقوال جمال، فليس مراده إلا قُكُّ ارتباط العرب بالحلفاء وبنا حتى ينالوا مقاصدهم ويعودوا علينا بوجههم الأول، ومع ذلك فليعلم أهل الشام أن عليهم واجب القيام الفعلي بالانضمام إلى العرب من الآن، وإعلانهم بأنهم منا حتى يقف كل عند صوابه⁽¹⁾.

إن الموقف الذي يتبناه الأمير عبدالله هو نفسه موقف أبيه الشريف حسين، وهو يعبر عن ثقة غير طبيعية، بل ثقة في غير محلها وزائدة بالانكليز، ولعل ذلك سببه الكلام الدبلوماسي الكثير الذي يقوله على مسامعهما ممثلو بريطانيا لهما، إضافة للوعود البراقة المغرية التي يتلقاها من المسؤولين البريطانيين، وإذا أضيف إلى ما سبق عامل الثقة الذي انعدم بين الشريف وأبنائه وبين الاتحاديين، ولم يعد الشريف يثق بهم وبسياساتهم العدائية له وللعرب عامة، كل ذلك جعله وأبنائه يجنحون بشكل كبير نحو السياسة الانكليزية ويتقنون بها أكثر مما يجب، ولم تنبهه كل حالات الخُلف من الانكليز لما تتطوي عليه نواياهم تجاهه وتجاه العرب⁽²⁾، واستمر في تحالفه معهم إلى نهاية الطريق الذي انتهى إليه حال العرب مع حلفائهم⁽³⁾.

وإلى جانب سعي جماعة الاتحاد والترقي الحاكمة في الدولة العثمانية لإصلاح العلاقات المتصدعة مع العرب حين اتجهت نحو الشريف حسين وابنه فيصل، فقد اتجه الاتحاديون أيضاً نحو العرب أبناء بلاد الشام، لمصالحتهم وربط خيوط معهم في داخل بلاد الشام وخارجها، تمهيداً لمصالحتهم وإعادة العلاقات الحسنة معهم إلى سابق عهدها، ولأجل ذلك حاول الاتحاديون الاتصال بالوطنيين الشاميين في داخل الشام وخارجها، لإجراء المصالحة معهم، ومنحهم حقوقهم ومنح بلاد الشام استقلالها، مع المحافظة على العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية، فأرسلوا وفداً في صيف عام 1918م يمثل دمشق وبيروت، ويضم رضا الصلح ورضا باشا الركابي وسليم سلام وفارس الخوري، إلى سويسرا للاتصال بالعرب المطالبين بالاستقلال، وكان العرب أبناء بلاد الشام آنذاك يتجاذبهم الفرنسيون والانكليز والأتراك، وكان النفور بينهم وبين الاتحاديين قد بلغ ذروته، فرفضت هذه المحاولة لإعادة العلاقات بين العرب والأتراك، لاعتراض عدد كبير من الشاميين المتزعمين للحركة السياسية على عرض الاتحاديين، لعدم

(1) الأمير زيد، المذكرات، ص 68

(2) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص 31-32، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 315-316

(3) انطونيوس، بقطة العرب، ص 280

سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 465

اطمئنناهم إليهم ولانعدام الثقة بهم بعدما أعدم جمال باشا زعماء الحركة القومية في بلاد الشام، ونكل وبطش وشرد، كل ذلك جعل الكثيرين من السياسيين الشاميين يقفون في وجه محاولة المصالحة هذه ويعترضون عليها، وكان البعض من هؤلاء على صلة بالاستخبارات البريطانية في مصر، وواقعين تحت تأثيرها، ولم تدع لهم مجالاً للتفكير في المصالحة مع العثمانيين، خشية خروج العرب من نطاق سيطرتها، ويؤثروا على مجريات الحرب الدائرة ضد العثمانيين فيما لو تصالحوا، لذلك أرسل أحمد مختار الصلح من القاهرة في 29/آب/ عام 1918م إلى أعضاء الوفد الذين سافروا إلى سويسرا لإقناعهم وإقناع العرب الموجودين هناك بعدم الاستمرار في مساعي الصلح مع العثمانيين، ويذكرهم بدعم بريطانيا للعرب ووقوفها معهم⁽¹⁾!! ولذلك فشلت جهود هؤلاء وتوقفت، وسارت الحرب إلى نهايتها، وأخرج العثمانيون من بلاد الشام كما سيأتي فيما يلي من هذا الفصل.

ثامناً: جيش الثورة العربية في بلاد الشام من العقبة حتى مرج دابق شمال حلب

وقف الجيش الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل بن الحسين عند الحدود الجنوبية لبلاد الشام، محدداً وجهته التالية العقبة، ومن ثم الدخول إلى المدن الشامية واحدة تلو الأخرى حتى الوصول إلى دمشق، ومن ثم المتابعة لإخراج القوات العثمانية من باقي المناطق الشمالية للشام، ويلاحظ المتتبع لخط سير قوات الثورة العربية في معاركها ضد القوات العثمانية المنسحبة، أنها سلكت طريقاً شبه مستقيم أثناء ملاحقتها للقوات العثمانية من أقصى الجنوب في العقبة، ولغاية نقطة الحدود الفاصلة بين الأراضي الشامية والأراضي التركية شمالي مدينة حلب⁽²⁾، بينما كان الجيش الانكليزي الذي يقوده الجنرال اللنبي يركز حملته على مناطق بلاد الشام الجنوبية في فلسطين ليدخل القدس إيداناً بدحر القوات العثمانية المدافعة عن هذه المنطقة، لما لهذا الدخول من دلالة على سير الحرب، وتتمثل هذه الدلالة في أمرين، الأول: إن انهزام القوات العثمانية المرابطة في فلسطين وعاصمتها ومركزها الرئيسي القدس، هو مؤشر على كسر الجيش العثماني وإجباره على إخلاء أهم مناطق بلاد الشام عسكرياً، وهذا يشير لقرب كسب الحلفاء للحرب وإخراج العثمانيين من الشام نهائياً. والثاني: الدلالة الدينية والسياسية لدخول الجيش الانكليزي القدس، ويعني أن القوات الصليبية الانكليزية التي

(1) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز/1985م، ص57

(2) داغر، مذكراتي، ص 95

يقودها النبي قد حققت انتصاراً للنصارى الصليبيين الانكليز على المسلمين العثمانيين، وقصد هذا المعنى الجنرال النبي، وأراد أن يزهو به على العرب والمسلمين ويسخر من مشاعرهم ومن سذاجتهم في السير مع الانكليز ضد العثمانيين، على الرغم من أن الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية آنذاك هي من الاتحاديين الخارجين عن الاسلام والمحاربين له، لكن تبقى الدولة بسمتها العام هي دولة الخلافة الاسلامية، واندحارها من قبل الصليبية العالمية إهانة للعالم الاسلامي وللمسلمين عامة، وهو ما يسجله التاريخ وتذكره الأجيال على مدار العصور، ولذلك حاولت الأوساط الفرنسية والانكليزية التخفيف من وقع هذا الحدث في نفوس المسلمين وتآلمهم منه، وقد نقلت مجلة الهلال نقلاً عن جريدة (TEMPS) في عددها الصادر في 1/ديسمبر/كانون أول عام 1917م أي قبل احتلال النبي للقدس بثمانية أيام: بأن المدفع الذي يدوي في أرجاء فلسطين يعلن نهاية الحروب الصليبية، وأن النبي صرح بدخوله القدس: الآن انتهت الحروب الصليبية⁽²⁾، وأراد الانكليز عند دخولهم القدس في 9/ديسمبر/كانون أول 1917م، إشراك الشريف الحسين بن علي أو على الأقل ابنه فيصلاً، عبر رسالة بعث بها مارك سايكس إلى كلايتون، في حفل دخول القدس، وأن يدعى الأمير فيصل لوالده ملك الحجاز لاعتبارات عسكرية، كما قصدوا تسجيل موقف على العرب والمسلمين واعتبار هذا فضيحة للحسين ومذلة له ولابنه الأمير فيصل، لأنهم ارادوا أن يسجل عليهما أنهما شاركا الأوربيين الصليبيين باحتلال القدس وإخراجها من أيدي العثمانيين المسلمين⁽¹⁾، وكان احتلال النبي للقدس بمثابة فرحة كبرى لكافة الدوائر الرسمية والشعبية في دول أوروبا كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وحتى روسيا، وولد دخول النبي للقدس شعوراً بالغبطة والفرح لدى النصارى عامة في أوروبا، وعدو ذلك إعادة للقدس للأيدي وللسيطرة النصرانية بعد أن بقيت زمناً طويلاً في أيدي المسلمين، وأن السلطة البريطانية ستحافظ على مصالح النصارى على أرض ميلاد المسيح، واستقبل البابا خبر احتلال القدس بارتياح كبير، وقال إن

(2) سلطان، تاريخ سوريا (1908-1918م)، ص 496، ولدى متابعة مجلة الهلال لم يعثر على العدد الذي ذكر هذا الحدث، وتم الاعتماد على سلطان في هذه المعلومة، وانظر:

PEYGAMBERIMIZIN GOL GESİNDE SON TURKLER.P.68

(1) سلطان، تاريخ سورية (1908-1918م)، ص 494

الانكليز أخذوها ويحتفظون بها وستكون الأماكن المقدسة محفوظة تحت إدارتهم⁽²⁾، ولا شك أن دخول القوات الانكليزية إلى فلسطين واحتلالها القدس، يعد من الناحية العملية إيذاناً ببدء تطبيق المشروع الصهيوني في فلسطين، وتنفيذ الوعد الذي قطعه وزير الخارجية البريطانية اللورد بلفور لليهود في العالم ليقوموا بكل الخطوات العملية بعد ذلك تمهيداً لإقامة وطنهم القومي على أرض الميعاد فلسطين كما يسمونها⁽³⁾، وهو في الوقت ذاته تفجير للصراع المستقبلي طويل الأمد، الذي سيمتد لأجيال قادمة غير معلومة الوقت بين المسلمين من جهة واليهود من جهة ثانية، وبذلك تكون بريطانيا قد هيأت عن قصد لدولة يهودية قادمة في أقدس مقدسات المسلمين وهي فلسطين، وتكون قد أوجدت حالة من العداء لها من العرب والمسلمين لا ينتهي أمدّها، وهذا هو الوفاء بعهودها للعرب عامة وللشريف الحسين بن علي، والجزاء المناسب على الثقة التامة التي وضعوها في بريطانيا العظمى، وتحالفوا معها حتى وصلوا إلى هذه النتيجة.

تحرك الجيش الشمالي نحو العقبة، وأرسل قائد هذا الجيش الأمير فيصل بن الحسين سرية بقيادة الشريف ناصر بن علي إلى العقبة، اشترك فيها عشيرة الحويطات بقيادة عودة أبو تايه وبعض متطوعي العرب، وتم طرد القوات العثمانية منها بعد معارك ضارية والاستيلاء عليها في 19 رمضان 1336هـ، 6/ تموز 1917م⁽¹⁾، ثم تابع جيش الأمير فيصل سيره شمالاً لطرد الجيش العثماني من سائر مدن ومناطق بلاد الشام⁽²⁾، ويمكن هنا ذكر خط سيره وإثبات الأحداث البارزة التي مر بها جيش فيصل، وهي دخوله المدن الرئيسية أثناء تقدمه من العقبة نحو دمشق، دون التطرق للتفاصيل والأحداث الصغيرة التي لا تغني البحث في شيء.

أحدث وصول جيش الثورة العربية إلى العقبة هزة قوية في نفوس القيادة العسكرية الالمانية التي تقود الحرب إلى جانب الدولة العثمانية، فأرسلت الجنرال فولكنهاين إلى

(2) سلطان، المرجع السابق، ص 495

(3) حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 114

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 250، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 160

الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 30، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 226

حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 110، القسوس، المذكرات، ص 85

رستم حيدر، المذكرات، ص 168

- YILDIZ, BUYUK ISLAM TARIHI, CILD, 12, P. 190

(2) الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 72-73

استانبول ليتولى قيادة العمليات العسكرية في بلاد الشام، وتم إرجاع أحمد جمال باشا (جمال باشا الكبير) إلى استانبول، وكان هذا القائد الألماني قد خدم في البلاد العربية قبل ذلك، لكن معرفته ببلاد الشام لم توقف تقدم الجيش العربي، فتقدم هذا الجيش نحوها، وفي هذه الأثناء كانت الدعاية التي يبثها الحلفاء ضد الجيش العثماني والالمان تفعل فعلها في تسهيل تقدم الجيش الانكليزي بقيادة النبي باتجاه فلسطين في الجبهة الجنوبية للوصول إلى القدس، وتسهيل تقدم الجيش الشمالي بقيادة الشريف فيصل بن الحسين للوصول إلى دمشق، وقد أقت الطائرات الانكليزية المنشورات التي تحفز الأهالي في بلاد الشام على التعاون مع الانكليز ومع جيش الثورة العربية، وتحثهم على مهاجمة الجيش العثماني المنسحب وعدم التعاون معه، وعدم تقديم أية خدمات وتسهيلات له، ففي أحد المناشير الذي ألقته الطائرات البريطانية إلى العرب، يكتب النص الآتي: " إلى جميع العرب وغيرهم من الضباط والرجال في الجيش العثماني، لقد سمعنا بكل أسف أنكم تحاربوننا، نحن الذين نعمل من أجل صيانة الشريعة الاسلامية المقدسة من أن تبدل!! ومن أجل تحرير جميع العرب من الحكم التركي، إننا نعتقد أنه لم تصلكم الحقائق الصادقة، ولذلك فإننا نرسل لكم هذا النداء والتصريح لنؤكد لكم بأننا نحارب في سبيل غايتين نبيلتين هما: صيانة الدين، وحرية العرب عامة، لقد كانت المملكة العربية خلال وقت طويل مستعبدة من الأتراك الذين قتلوا إخوانكم وشنقوا رجالكم ونفوا نساءكم وعائلاتكم، وبدلوا دينكم، فكيف تحتملون ذلك منهم؟! وتتحملون مرارة الاستمرار بالتعاون معهم، وتقبلون بأن تساعدوهم؟! تعالوا انضموا إلينا نحن الذين نعمل من أجل دينكم، ومن أجل حرية العرب، حتى تعود المملكة العربية كما كانت أيام آبائكم". الجيش البريطاني⁽¹⁾. إذاً حرب نفسية ودعاية براقعة تثير فيها بريطانيا عواطف العرب وتدغدغ مشاعرهم، وتركز فيها على أهمية تعاونهم معها من أجل أن تحمي لهم دينهم وتحفظه من أن يبدله العثمانيون، ومن أجل إقامة كيان قومي للعرب واستعادة أمجادهم، ومن أجل حريتهم وتخليصهم من العبودية، ثم تذكرهم بمظالم جمال باشا لهم ومشائقه وتعذيبه وإعداماته، وأي نبل أعظم من نبل بريطانيا في سعيها لهذه المبادئ السامية!!! إنها السياسة الانكليزية الماكرة التي تثير كوامن نفوس العرب في سبيل تحقيق مصالحها تحت ستار حماية الشريعة الاسلامية المقدسة من أن تبدل!!

(1) أمين سعيد، اسرار الثورة العربية، ص 252-253

والتباكي على مجد العرب الغابر الضائع لتعيده لهم، وتحقيق لهم استقلالهم وتوصلهم إلى حريتهم بعد أن صادرها جمال باشا كما تذكر في المنشور المذكور، وشأنها في ذلك شأن الذي وصفه شوقي في أبيات شعر غاية في روعة البلاغة ودقة التصوير وجمال التمثيل حين قال:

بَرَزَ الثعلب يوماً	في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي	ويسب الماكرينا
يا عباد الله توبوا	فهو كهدف التائبينا
بأفغ الثعلب عنني	عن جدودي الصالحينا
أنهم قالوا وخير	القول قول العارفينا
مخطئ من ظن يوماً	أن للثعلب ديناً ⁽²⁾

بعد العقبة تقدم جيش الثورة العربية، فوصل القُويرة قرب معان في شوال 1335هـ/آب 1917م ثم تابع تقدمه فدخل مدينة معان في 13 نيسان/1918م، وكان دخل مدينة الطفيلة في 1/20 كانون الثاني 1918م⁽¹⁾، وفي نهاية أيلول 1918م انسحبت القوات العثمانية من الكرك ودخلها جيش الأمير فيصل، ورحب بهم أهالي الكرك ترحيباً عظيماً، وأرسل الأمير فيصل إليهم برقية شكرهم فيها على تعاونهم مع جيش الثورة العربية، وورد فيها: سررنا بما أبديتموه من الغيرة القومية والحمية العربية التي فطرتم عليها وأظهرتموها إلى حيز الفعل، فنشكر همتمكم وصدق غيرتكم، قائد الجيوش الشمالية: فيصل بن الحسين في 27/1/1337هـ/ الموافق: 1918/11/1م⁽²⁾. ووصلت القوات العربية الأزرق في 31/آب سنة 1918م، ثم اتجهت نحو الشمال للوصول إلى درعا فوصلت في 27/أيلول 1918م موقع شيخ سعد شمال غرب درعا، وفي 28/أيلول 1918م دخلت قوات الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل درعا⁽³⁾، وبوصول هذا الجيش إلى الأزرق انضمت إليه عشائر الدروز وأعلنت تأييدها لثورة الشريف الحسين⁽⁴⁾، لكن الدروز أعلنوا بانسحاب القوات العثمانية من مناطقهم استقلالهم، وهذه المناطق تضم حوران ومنطقة الجولان والتي تضم المناطق

(2) شوقي، الديوان، ج4، ص 150

(1) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 163، 217، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 73 أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 228-234

(2) القسوس، المذكرات، ص 108-110

(3) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 277-288، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 239 - أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 261، الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 32

حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 112

(4) رستم حيدر، المذكرات، ص 172

الجبلية الواقعة غرب دمشق وسهول حوران جنوبها، وتشمل مناطق غرب درعا والسويداء وتشمل جبل الدروز المسمى بجبل العرب، وكان الدروز قد وقعوا مع ممثل الأمير فيصل المدعو نسيب البكري (من وجهاء دمشق) اتفاقاً، ويمثلهم أحد مشايخ جبل الدروز وهو حسين الأطرش، وينص هذا الاتفاق على:

1- استقلال جبل الدروز سياسياً وإدارياً مع حفظ جميع التقاليد المرعية بين العشائر.

2- إيجاد العلاقات الودية والمحالفة الثلاثية بين الحجاز وسورية وجبل الدروز على ثلاث نقاط:

أ- العرب تساعد الدروز، والدروز تساعد العرب.

ب- لا سلطة فعلية أو عسكرية لحكومة من الحكومتين السورية والحجازية على جبل الدروز.

ج- إن جبل الدروز يعتبر الأمير فيصلاً أميراً على سورية، ولكنه لا يعتبره أميراً على الجبل، إلا من الوجهة الأدبية والعلاقات الأدبية والتشريعية.

وقد أقر الأمير فيصل بن الحسين هذا الاتفاق حين عرض عليه، فأرسل يوم 21/ذي الحجة 1336هـ/ أوائل أكتوبر/تشرين الأول 1918م، كتاباً إلى نسيب البكري وحسين الأطرش يؤيد الاتفاق المبرم بينهما⁽¹⁾، ويعني هذا الاتفاق اقتطاع مناطق هامة جداً وحيوية في أواسط بلاد الشام في المناطق المعروفة حالياً بـ الجولان، والتي تربط مناطق فلسطين بوسط بلاد الشام وهي منطقة دمشق، وإقامة كيان مستقل للدروز في هذه المناطق، وإذا كانت الثورة العربية الكبرى قد طالبت على لسان الشريف حسين في مراسلاته مع السير هنري مكماهون بإقامة دولة عربية تضم بلاد الشام بمناطقها كلها إضافة للعراق والحجاز، ورفضت أية مساومات على الدولة العربية المقترحة، ولم تقبل بأي اقتطاع من المملكة العربية المقترحة، لتضمن استقلال العرب ووحدتهم، فإذا كان الشريف حسين قد أصر على ذلك حتى آخر رفق في حياته، فإن موافقة الأمير فيصل ومعه وجهاء الشام على أن يكون للدروز كيان منفصل عن هذه المملكة، والإقرار للدروز بأنه لا سلطة عسكرية أو فعلية لأي من حكومتي الحجاز وسوريا على الدروز، يعني ذلك خروجاً عن مبادئ الثورة العربية التي سار الأمير فيصل كقائد من قادتها مع رجالات الشام وقادتها القوميين، ناشدين الوحدة السياسية والقومية للعرب، وخروجاً عن إرادة الشريف حسين بل عقوقاً له وعصياناً وبداية لاستبدال الفكرية القطرية بالفكرة العربية الشاملة التي تمسك بها الشريف حسين خلال مسيرة الثورة وحتى نهايتها⁽²⁾، والأخطر من هذا إن عرف المتأمل في هذا المشروع أنه سيكون في المستقبل تكريساً لكيان درزي يجاور حدود

(1) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 237-238

(2) داغر، مذكراتي، ص 91، وانظر: الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 52-53

فلسطين من جهة الشمال وبالتالي يكون فاصلاً جغرافياً يفصل حدود فلسطين عن الدولة العربية المقبلة في بلاد الشام بعد الانسحاب العثماني، في حين حافظ العثمانيون على وحدة هذه البلاد طوال الفترة التي كانت فيها بلاد الشام الطبيعية بكاملها ولاية من ولايات الدولة العثمانية، وبالموافقة على أن يكون للدروز كيان مستقل منفصل عن بلاد الشام، يكون الأمير فيصل والزعماء السياسيون أبناء بلاد الشام المرافقون له في جيشه نحو دمشق قد فتحوا الباب على مصراعيه لتجزئة القضية العربية فيما تطرحه بريطانيا وفرنسا من طروحات لاحتلال هذه البلاد فيما بعد، وترى الريموي أن موافقة الأمير فيصل بن الحسين على الاتفاق الموقع بين ممثله نسيب البكري وبين حسين الأطرش ممثل جبل الدروز، فيما يخص إعطاء جبل الدروز استقلالاً وانفصالاً عن باقي أجزاء سورية الطبيعية، تعد تكتيكاً مؤقتاً يستفيد منه جيش الثورة العربية والعرب في بلاد الشام، ويستطيعون من خلاله كسب تأييد الدروز للثورة العربية ومعاونتهم لها، وإمدادها من خلال الانضمام لها ومؤازرتها، بالرجال والتسهيلات اللازمة لها، خاصة وأن هذه الثورة بعد وصولها لمنطقة الأزرق (إلى الشرق من عمّان حوالي 60 كم) ستسلك الطريق الذي يمر في منطقة الدروز، وهي حوران، في توجهها نحو دمشق، وبالتالي بات من الضروري التفاهم مع الدروز للوقوف مع الثورة العربية ومع جيشها لتأمين دعمهم ومساندتهم، واقتضى الحصول على هذا الدعم، الاستماع لمطالبهم والإيحاء إليهم بالموافقة عليها، وإعطائهم الاطمئنان بذلك من خلال الاتفاق الذي وقع معهم، وهذا يدل على بعد نظر وحكمة سياسية وسعة أفق ودهاء سياسي من الأمير فيصل، من أجل ضمان اندفاع وتقديم قوات الثورة العربية إلى دمشق، وإقامة الحكومة العربية فيها.

ومن ثم اتخاذ الموقف الوطني الذي تتطلبه وحدة بلاد الشام بعد التمكن وتثبيت دعائم الدولة العربية في دمشق، من أجل تنفيذ أهداف الثورة العربية بالمحافظة على وحدة بلاد الشام الطبيعية، وضمان انضمامها إلى الدولة العربية التي نادى بها والده الشريف حسين ابن علي، وتفاوض مع الانكليز لإقامتها، كشرط رئيس للقيام بالثورة العربية الكبرى، والتي تشمل المناطق الثلاث الحجاز والعراق والشام، ويؤكد هذا التوجه ما حدث بعد وصول جيش الثورة العربية إلى دمشق وإقامة الحكومة العربية، أن فيصلاً والحكومة العربية التي شكلها لم ينفذوا ما تم الاتفاق عليه مع الدروز، وحافظوا على الوحدة السياسية والإقليمية لبلاد الشام، وهو ما ينسجم مع هذا الرأي ويثبت واقعيته⁽¹⁾. بعد درعا تقدم جيش الثورة العربية باتجاه دمشق، وفي هذه الفترة انكسر الجيش العثماني المربط في فلسطين أمام جيش الانكليز بقيادة اللنبي في 18 سبتمبر/أيلول 1918، وتراجع من الأراضي الفلسطينية من العفولة حتى طبرية إلى جسر بنات يعقوب فالقنيطرة غرب دمشق، ثم وصل إلى دمشق في 23/أيلول 1918م، وفي 26/سبتمبر أيلول 1918م غادرت القوات العثمانية المنسحبة من فلسطين ودمشق متجهة شمالاً إلى حلب، وغادر ضباط الجيش العثماني الكبار دمشق

(1) الريموي، في مقابلة شخصية معها في منزلها في عمان بتاريخ الاثنين 2000/3/27م

بالقطار في/26/أيلول 1918م، ومنهم جواد باشا ومحمد جمال باشا الصغير وعصمت بك ورأفت بك ومصطفى كمال (أتاتورك) وغيرهم من كبار قادة الجيش العثماني المرابط في بلاد الشام، واستقال القائد الألماني من قيادة هذا الجيش وتولاها مصطفى كمال⁽²⁾، وتقدمت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل نحو دمشق، وقد بدا عليها في هذه الأثناء مظاهر الاستعداد لاستقبال جيش الثورة العربية، وبوادر الخروج على سلطة الإدارة العثمانية فقد "كثرت تردد رجال القبائل المسلحين إليها، وكانوا يتجولون في أسواقها ويطلقون الرصاص ابتهاجاً، وكثرت عيون الأمير فيصل الذين كانوا يدعون العرب إلى الثورة، وقد هيا الكثيرون من أهالي دمشق العلم العربي ذا الألوان الأربعة المعروفة، علم الثورة العربية في بيوتهم استعداداً لرفعه"⁽¹⁾. ووصلت قوات الثورة إلى دمشق ودخلتها في/1/تشرين الأول أكتوبر عام 1918م، وفي/3/تشرين الأول دخلها الأمير فيصل، وغادر آخر جندي عثماني محطة القدم في دمشق مساء/3/سبتمبر/أيلول/1918م، ودخل الأمير فيصل دمشق في/3/10/1918م في استقبال واحتفال شعبي كبير، لأنه أصبح في نظر العرب رمز الحرية التي ينشدون⁽²⁾. اجتمع الأمير فيصل في دمشق بالجنرال اللنبي الذي وصلها ليعلن فيها انتصار الحلفاء على الدولة العثمانية، ورسم الخطة المشتركة لملاحقة القوات العثمانية فيما تبقى من أراضي بلاد الشام من دمشق حتى شمال حلب⁽³⁾، وانطلقت القوات العربية شمالاً ومعها فرقة من الجيش البريطاني، ودخلت مدينة حمص في/14/تشرين أول/10/1918م، ثم دخلت مدينة حماة/23/تشرين أول/10/1918م، وتابعت سيرها شمالاً فدخلت مدينة حلب في: /25/تشرين الأول/10/1918م⁽⁴⁾، ويصف أمين سعيد ما شاهده بنفسه من جلاء القوات العثمانية عن مدينة حلب بأن آخر قواتهم المنسحبة منها، كانت حالتها منهارة وجلا بعضها محملاً أمتعته على عربات البقر⁽⁵⁾، ويجدر هنا أن يشار إلى أن القوات البريطانية دخلت حلب أيضاً لاثبات وجودها ولتعمل على تنفيذ الاتفاق المبرم بينها وبين فرنسا بشأن اقتسام بلاد الشام⁽⁶⁾، ولم تكف القوات العربية والانكليز بدخول حلب، بل تابعت ملاحقة القوات العثمانية المنسحبة إلى موقع ذي دلالة تاريخية كبيرة يسمى حالياً منطقة المِسلِميّة، شمالي حلب بحوالي/15/كم، وتكمن دلالاته التاريخية من حيث اعتباره الموقع الذي بدء به العثمانيون فتح بلاد الشام أيام

- (2) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 263-264، رستم حيدر، المذكرات، ص 184-186 - رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 541، السنة / 1/11 سبتمبر أيلول 1981م، ح 11، ص 38 - لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 83-84
- (1) حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 112، اندريا، تاريخ الدروز، ص 17 - لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 85
- (2) حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 112، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 32 صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 289، 295-296، نجار، فيصل الأول، ص 35
- (3) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 32، الملك فيصل بن الحسين، المذكرات، ص 15
- (4) صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 308-312، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 33 حغدوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 112-113، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 86
- (5) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 265-266
- (6) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 33

السلطان سليم الأول عام 1516م، وهو موقع مَرْج دابق، وحرص الجيش الفيصلي العربي أن يلاحق العثمانيين إلى هذه النقطة المهمة، يرافقه وحدات من الجيش البريطاني، لأن المسلمية كانت المركز الرئيس لسكة الحديد (محطة ملتقى الخطوط الحديدية التي تربط سوريا بالعراق وتركيا)، والاستلاء عليها ينهي عملياً وجود القوات العثمانية في بلاد الشام، إذ تبعد هذه المحطة عن الحدود الدولية التي تفصل بلاد الشام عن الأناضول التركية حوالي 45 كم، واستولت عليها القوات العربية والانكليزية في 28/تشرين الأول/1918م، وبذلك انتهت المعارك الحربية نهائياً بين الجيش العربي والجيش الانكليزي من جهة وبين الجيش العثماني⁽¹⁾، وأشار أحد المؤرخين القوميين المعاصرين إلى هذا الحدث، وعَدَّ انسحاب الجيش العثماني من الموقع الذي دخل فيه بلاد الشام لأول مرة من غرائب القَدَر، يقول: "ومن غرائب القَدَر أن الجيش التركي استسلم للحلفاء في سهل مرج دابق شمالي حلب، حيث أحرزت جيوش السلطان سليم الأول انتصاراً حاسماً على جيش المماليك سنة 1516م، جعل الأتراك العثمانيين أسياداً على سورية التي جرى تسليمها للحلفاء في سنة 1918م، وتم انهيار الامبراطورية العثمانية واحتلت جيوش الحلفاء هذه البلاد، فانقطعت بذلك الصّلات بين الأتراك والعرب، هذه الصّلات التي ظلت قائمةً بينهم مدة أربعمئة سنة"⁽²⁾.

انسحب الجيش العثماني من بلاد الشام بعد أن وصلت العلاقات العربية العثمانية أدنى مستوى لها في السلم البياني نتيجة التحريض الذي بثته جيوش الحلفاء ضد العثمانيين في بلاد الشام أثناء الحرب العالمية الأولى، وينضاف هذا إلى سوء الإدارة والمعاملة التي مارسها جمال باشا الكبير أثناء ثلاث سنوات من حكمه لبلاد الشام تراكمت سوءاً على الاساءات الكثيرة جداً التي أحدثتها سياسة الاتحاديين في هذه البلاد وبعد انقلابهم على الخلافة الاسلامية عام 1909م، حتى وصلت العلاقات إلى الهاوية التي وصلت إليها قبيل انسحاب الجيش العثماني من بلاد الشام، وقد وصف محمد جمال باشا (الصغير) الذي عين قائداً للجيش الرابع العثماني المرابط في بلاد الشام، بعد إقالة أحمد جمال باشا من قيادة هذا الجيش وإعادته إلى استانبول، وصف حالة النفور التي وصل إليها عامة الناس في بلاد الشام من قادة الاتحاديين، ووصف حالة البلاد عامة في تلك الفترة الحرجة، وكان مصطفى كمال قد أرسل عدة تقارير للقيادة العثمانية في استانبول أثناء توليه قيادة القوات العثمانية في أواخر أيامها في الشام، يقول: إن البلاد السورية سائرة إلى الانفصال عن جسم السلطنة العثمانية، وسيتم ذلك قريباً... إن السوريين أبناء البلاد أخذوا يشعرون بمقت شديد للحكومة ورجالها الحاليين، وهم على حق في هذا المقت، لأن المعاملة السيئة التي يرونها من الحكومة تجعلهم شديدي النعمة، ومن الضروري كما اعتقد إصلاح الإدارة في جهات سوريا من

(1) الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 33، الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، ص 77

- أمين سعيد، اسرار الثورة العربية، ص 270

(2) زين، نشوء القومية، ص 128

كل وجوهها... لكن القيادة العامة بدلاً من أن تهتم بتقرير الغازي هذا المنطوي على حقائق صادرة عن قلب متقد بالإخلاص على وطنه، عمدت إلى إهماله اعتقاداً منها أن الغازي طامع في القيادة العامة، ... لقد عمد العدو إلى تدبير خطة جديدة ترمي إلى التحريض السياسي، وقد بث دعاته ورسله في قلب البلاد السورية لتدعو للانقضاض علينا ومساعدته، واتبع خطةً جهنمية وهي نشر المناشير باسم الملك، بدعوة الجنود العرب لإلقاء سلاحهم والانضمام إلى الجيش العربي، الذي يقاتل في سبيل العرب واستقلالهم وتحريرهم، ... وقد تطور هذا الموقف على إثر هذه الدعايات حتى أصبحت قواتنا المدافعة عن البلاد كأنها بلاد معادية لها تحاربها قصد طردها، وكل هذه الأمور ترجع إلى السياسة السيئة التي اتبعها القواد العسكريون من أتراك وألمان والحكام لداريون معاً، وقد كانت مهمتي استمالة العشائر العربية صعبة شاقة جداً، لأن المال الذي كان مرصوداً لهذه الغاية، ظل بيد الألمان يصرفونه بصورة جنونية وبدون ترو، وقد أوجدوا به عداءً عظيماً بين العشائر وبيننا، فضلاً عن أن العدو كان يبذل المال الوفير لاستمالة هذه العشائر، وبات في مقدوري القول : إنه ليس بين العشائر السورية من يريد خدمتنا بصدق، وأنه كان هناك من يسايرنا للخوف من قواتنا ليس إلا" (1).

ويلحق رضا نور على انسحاب مصطفى كمال أتاتورك من سوريا، بأنه هزيمة كبيرة، أشبه ما تكون بالخذلان لجيشه وتركه فريسة للقوات الانكليزية الزاحفة، يقول رضا نور: " ثم عين مصطفى كمال بعد ذلك في سوريا، فانهزم أمام الانكليز هزيمة نكراء، ويجئ مصطفى كمال بعد هذه الهزيمة استانبول، لا يأتي هكذا فقط، وإنما أتى تاركاً - بدون إذن - انقاذ جيش مضطرب مهزوم، قدم هذا الجيش للانكليز خمسة وستين ألف أسير" (2).

ويشير في موطن آخر إلى تعمد مصطفى كمال الهرب أمام الانكليز، ويقول: " أما مصطفى كمال قائد جيشنا في سوريا، فقد ترك كل أسلحة الجيش وذخيرته، فأسر الانكليز خمسة وستين ألف جندي عثماني، ونقل الانكليز هؤلاء الأسرى إلى القاهرة" (3) وفي موطن آخر يرد رضا نور على ما كان يعتبره مصطفى كمال خطاً في الصدر الأعظم رئيس الوزراء في استانبول حين كان مصطفى كمال يرأس الحكومة الانفصالية التي شكلها في أنقرة كبديل لحكومة استانبول الشرعية، بعد أن ركب مصطفى كمال موجه الحركة الوطنية واعتبر نفسه زعيماً لها في مقاومة الجيوش الأوربية المحتلة لأنحاء الدولة العثمانية، ويبيدي رضا نور دهشته من تصرفات مصطفى كمال مستغرباً أن هذا الأخير يعيب على الصدر الأعظم علي رضا باشا، يقول عنه: إنه ترك مقدونيا، ولكن يا مصطفى كمال أنت أيضاً كنت في الحرب!! ثم إنك سلّمت سوريا - وهي منطقة هائلة - للأعداء، فإذا كانت الأولى عيب؟ فالثانية عيب!!، سيما وأنك عندما كنت في اسكيشهر، وكان معك عصمت اينونو، قد تسبب

(1) جمال باشا (الصغير)، كيف جلت القوات العثمانية، ص 137-148

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 541، السنة / 11 / 1 سبتمبر أيلول 1981م، ح 11، ص 38

(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 535، السنة / 11 / 7 يوليو تموز 1981م، ح 6، ص 38

في هزيمة الجيش، ثم إنك هممت بالهرب من أنقرة وقت اقترب الخطر منها، وقمتُ أنا بالسيطرة على مجلس الأمة، ومنعتُك من الهرب"⁽⁴⁾.

تاسعاً: علاقة العثمانيين مع بلاد الشام بين أهداف الثورة العربية ونتائجها

فاوض الشريف الحسين بن علي الانكليز على أساس أن يعلن الثورة ضد الاتحاديين من أجل حرية البلاد العربية واستقلالها وتخليصها من ظلم الاتحاديين، وكانت لبلاد الشام حصة الأسد من اهتمام الشريف الحسين بالبلاد العربية، وبما تعانية وبمستقبلها، حتى أنه خاطب أمين الريحاني بعد أن صار حبيس الحسرة والألم جراء غدر بريطانيا به وتكررها لو عودها له، يقول له: " لا تظنني أشكو أيها العزيز، إنما ثابتون في خدمة البلاد، مهما تعددت لصعوبات، ولا نبغي غير عزّ العرب، والسوريون من صميم العرب، والحجاز يتبع سورية، وأنا أتبع يا حضرة الفاضل ما تختارون، أقول: أتبع ما تختارون!!"⁽¹⁾ ومع ما تحمله الشريف الحسين بن علي من أجل البلاد العربية من انتقادات وأقوال وصل بعضها أحياناً إلى درجة التجريح والتشهير به⁽²⁾، فإن عزمه لم يهين وإصراره لم يضعف عن المثابرة فيما وقف نفسه له من المطالبة بدولة عربية مستقلة تشمل الشام والعراق والحجاز، وإن كانت الأعياب السياسة الاستعمارية التي درجت عليها بريطانيا ومعها خليفاتها فرنسا، أكبر من أن يستطيع بما جبل عليه من خلق العربي ونقاء وإحسان ظن بالآخرين، أن يكتشفها ويتابع تعرجاتها، ومن ثم ينحو من خطتها وأحاييلها، الأمر الذي أوصل البلاد العربية في الشام والعراق إلى اقتسامها ووقوعها تحت الاحتلال الفرنسي والانكليزي، ونظر آخرون إلى ثورته على الدولة العثمانية من زوايا أخرى، وكان تقييمهم لها من خلال ما أحدثته من آثار وما جلبته على الأمة الإسلامية وعلى البلاد العربية من نتائج، يمكن تأمل أهم تلك الآراء، وما تحمله من وجهات نظر تجاه هذه الثورة:

- يرى البعض أن الحسين بن علي قد تسرع في اتخاذ قرار إعلان الثورة بناء على تقدير غير دقيق للموقف، يقول سليمان موسى: "عندما أعلن الحسين الثورة كان يعتقد أن الروح القومية عند العرب أقوى بكثير مما تبين له فيما بعد، وشعر الحسين أنه قام بخطوة تنطوي على مغامرة عظيمة، ولو كان يحسب النتائج ستكون كما وقعت فعلاً، فقد كان من المرجح أن لا يقدم على تلك المغامرة، بل يقف موقف إمام اليمن محافظاً على نفسه وبلاده، دون أن يتحمل تلك المسؤولية الخطيرة، ويبدو لي أن الحسين أخطأ في القيام بالثورة دون أن يستعد لها الاستعداد الكافي، ودون أن يأخذ من الانكليز عهداً أكثر وضوحاً"⁽³⁾، وينظر آخرون إلى هذه الثورة نظرة قومية صرفاً،

(4) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 544، السنة / 11 / 22 / سبتمبر أيلول 1981، ح 14، ص 39

وكذا: ع 566، السنة / 13 / 13 نيسان إبريل 1982م، ح 36، ص 37

(1) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 51

(2) سعيد، القومية العربية، ص 80-83، كوثراني، مختارات سياسية، ص 291. وانظر: فارس، نبيه أمين، الثورة العربية في الميزان، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية، ص 218

(1) الأمير زيد، المذكرات، ص 242، وانظر: داغر، مذكراتي، ص 88-89

ويرى في الاحتلال الفرنسي والبريطاني للبلاد العربية في الشام والحجاز والعراق شراً أهون على هذه البلاد من الذي كانت عليه في ظل الدولة العثمانية، لأن فرنسا وبريطانيا أفقدتا العرب سيادتهم!! بينما كان العرب تحت الحكم العثماني مساقين إلى التترك، ويفقدون بذلك لغتهم وقوميتهم، وكان الحسين يقوم بواجب قومي، وأمن هو ومن معه من رجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام بضرورة الثورة ضد العثمانيين، حيث لو لم تكن الضمانات التي أخذها الحسين من الحلفاء ضمانات قاطعة تعترف بالاستقلال العربي التام في دنيا العروبة كلها!!⁽²⁾.

- وفي تأمل آخر للثورة العربية يسلط البعض الأضواء على إنجازاتها ويقدم أهم تلك الانجازات، والتي تتمثل في إبراز القضية العربية القومية إلى حيز الوجود على ميدان السياسة العالمي، وانتزاع اعتراف الدول الكبرى بها، ثم جاءت الثورة العربية أيضاً لتكرس شرعية المطالب العربية وتوقظ الفكرة القومية العربية وتبلورها وتبرزها إلى واقع معترف به، ويرى صاحب هذا الرأي أن من أعظم إنجازاتها ترجمتها العملية على يدي أمير عربي، أراد أن يستعيد للعرب مجداً اغتصبه العثمانيون باطلاقهم لقب خليفة على سلاطينهم، وأن ثورته أول ثورة ضد الخلافة العثمانية، وأن شريف مكة أشهر سيفاً عربياً في وجه الخليفة في سبيل الفكرة القومية⁽¹⁾، وإذا كان هذا هو هدف الثورة العربية كما يراها صاحب هذا الرأي، فإن ذلك يعني أن الشريف حسين استبدل الفكرة القومية العربية التي لم تجن على العرب إلا التجزئة، ولم تجلب لبلادهم إلا التقسيم والاستعمار الغربي، استبدلها بدل الفكرة الإسلامية وأحلها محلها، وهذا هو الفشل بعينه، ودليل قاطع على قصر النظر عند ذوي الاتجاه القومي، لأن فيه سوء تقدير لمصلحة الأمة والبلاد العربية، في حين أن الشريف حسين لم يقصد الإطاحة بالخلافة الإسلامية، ولم يعتبر حركته سوى محاولة للدفاع عن الإسلام، وإنزال العرب المنزلة التي أنزلهم الله عز وجل إياها في حمل الإسلام كرسالة ومنهاج حياة، وهو ما صرح به الملك عبد الله بن الحسين في مذكراته وهو يبين أهداف الثورة العربية التي قام بها والده، ويرد على الذين أرادوها قومية ضيقة النظرة والأهداف، يقول الملك عبد الله: "وما العرب إلا بالإسلام وكان من الحق عليهم أن يسعوا إلى استعادة مجدهم وحقهم، والثورة العربية الأخيرة التي قام بها والدي، ومن معه من عظماء الحجاز بإفتاء علمائهم، وانضمام عظماء الشام والعراق إليهم، كانت ثورة حق للدفاع عن الإسلام، ثم لتبوء العرب المقام الذي خصهم الله به حيث قال في كتابه العزيز: كنتم خير أمة أخرجت للناس"⁽²⁾.

(2) طُلُس، تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث)، ص 70-71، ويقف الشهابي موقفاً قريباً من هذا في تقييمه للثورة العربية، ويبررها تبريراً كاملاً، وينظر إليها أيضاً من زاوية قومية بحتة. انظر: الشهابي، محاضرات في الاستمرار، ج2، ص 77-84، وهو ما تحدث عنه أيضاً الأمير فيصل بن الحسين في مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية، انظر: الملك فيصل بن الحسين، المذكرات، ص 12-13.

(1) فارس، الثورة العربية في الميزان، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية، ص 221-222.

(2) الملك عبد الله بن الحسين، المذكرات، ص 27-28.

ورأي آخر يبين أصحابه أن أكبر ضربة وجهت لدعوة الجامعة الإسلامية خلال الحرب العالمية الأولى هي نشوب الثورة العربية بقيادة الشريف حسين عام 1916م⁽³⁾، وذلك من خلال إبطالها لتأثير النداء الذي وجهه الاتحاديون للعالم الإسلامي لتأييدهم في الحرب ضد الانكليز والفرنسيين، عبر إعلان الجهاد والدعوة لمقاومة الدول الحليفة التي تشن حملة صليبية جديدة ضد العالم الاسلامي، وتحارب دولة الخلافة الاسلامية، وتعتدي على البلاد العربية والاسلامية، فكانت الثورة العربية رداً عملياً على هذه الدعوة وإبطال لتأثيرها في إثارة العرب والمسلمين للتعاطف معها.

ويرى مانتران أن الثورة العربية كانت في نظر الاتحاديين طعنة حقيقية في الظهر⁽¹⁾، ويشير الصويركي إلى الثورة العربية، وأنها قصدت تحقيق هدفين، حققت الأول منهما ولم تحقق الآخر، ويقول: "حققت الثورة العربية هدفها المباشر بطرد الأتراك من البلاد العربية، أما هدفها الثاني بإقامة دولة عربية مستقلة، فلم يتحقق، وأخفق الشريف حسين في ذلك، وذلك لسببين: الأول: ذاتي، ويخص العرب أنفسهم، لأن زعماء القبائل العربية الكبيرة في ذلك الوقت لم تعاضد الشريف حسين، كابن رشيد في حائل وابن سعود في نجد، والامام يحيى في اليمن، والادريسي في عسير، ولو تركوه يفاوض الدول العظمى ويتصدى للدولة العثمانية باسمهم جميعاً، لكان موقف الأمة العربية غير الصورة التي نراها اليوم، والثاني: خارجي، ويخص بريطانيا وفرنسا والدول الأخرى، فإن بريطانيا كانت مصممة على الغدر بالثورة وقائدها منذ المباحثات الأولية بين الطرفين"⁽²⁾، وينوه المحامي إلى انخداع العرب وفي مقدمتهم الشريف الحسين بوعود الانكليز فيما جنوه من الثورة على الخلافة ويقول: "العرب خدعوا بأقوال الغربيين ووعودهم، وظنوه سيحققون لهم امبراطورية عربية مستقلة عاصمتها مكة وملكها الشريف حسين بن علي، وإذا بهم قد أصبحوا مستعمرين لهؤلاء الذين ظنوه أصدقاء"⁽³⁾.

ويذهب الزركلي في تصوير نتائج الثورة العربية وما جناها قائدها ومفجرها الشريف الحسين، وما جلبته من نتائج، ويقول: "هناك على شاطئ البحر الأحمر، في تلك البادية، وبين هاتيك الروابي والتلاع، حكومة كانت وليدة الحرب العامة، نشأت تحتاطها المخاوف، يرأسها ملك تاجه عمامته، وعرشه مهابته، ليس له ما لسواه من ذوي العروش والتيجان، ذلك هو الملك حسين بن علي، مَنْ وقف إلى جانب الحلفاء ثلاث سنين، يحارب مَنْ حاربوا ويوالي مَنْ والوا، ينظر إليهم مِنْ وراء حجاب فإذا هم عنه معرضون، عاهدوه على سورية واستعمروها، وعلى العراق واحتلوها، وعلى فلسطين وهودوها، وعلى الجزيرة وقسموها، وعلى الحجاز وحاولوها، فاعجب إن

(3) مصطفى، اصول التاريخ العثماني، ص 289

(1) ما نتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص 314

(2) الصويركي، شرقي الأردن والعهد الفيصلي، ص 22-23

(3) المحامي، الدولة العلية، ص 726

كنت تعجب لموقفه الأخير أمام حلفائه في الماضي، وأعداء الشعوب الناهضة في الحاضر" (1).

ثم يعلق الزركلي على رد الأمير عبدالله بن الحسين على المعارضين على تحالف الشريف حسين وأولاده مع بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، ذلك الرد الذي بعث به الأمير عبدالله من وادي الليمون إلى جريدة القبلة ونشرته تحت عنوان: توديع وإيضاح، وقال فيه: "وما مثل الذين يعترضون عليكم في موالة حلفائكم إلا كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التي يبدىها ولا يبتديها" (2) يعلق الزركلي على هذا بقوله: "ولعله بعد أن رأى بعينه ما صار حال العالم إليه، يتراجع قليلاً، بل يتفهم طويلاً عن مفاجأة الأسماع بمثل تلك الجرأة على الحق والخلق، لم يقف الملك حسين مكتوف اليدين أمام عبث الغرب بهذه البقعة الصغيرة من الشرق، بل احتج وحاول إسماع الصم صوته، فأنكروا العهود وجددوا المواثيق... وهم سيعملون على إرضائه أو إسكاته، ويتقدمون إليه يحملون تيجاناً خيالية وإماراتٍ وهميةً لبعض بنييه، كأن مصلحة العرب هي أن ينصب بنوه ملوكاً وأمراء، وكأن العرب وفي جملتهم الملك حسين وأبنائه ما ثاروا ولا قاتلوا إلا لتتحول ألقاب أفراد فيهم من شريف إلى أمير، أو من فلان إلى جلالة فلان، بهذا الزخرف البالي، وبهذه الزيوف المموهة يعمل الحلفاء على إقناع أليفهم في الموطن الخشن الملك الحسين بن علي وإيهامه بأنهم ما برحوا له ذاكرين ولعهودهم حافظين، وما هم بالذاكرين الواعين، ولا الحافظين المراعين" (3).

أما الشاعر المصري أحمد مُحَرَّم فقد رثى الشريف الحسين بن علي على ما آل إليه حاله بعد أن غدر الانكليز به ونكثوا عهودهم معه، ومزقوا الخلافة الإسلامية وقسموا البلاد العربية غنيمةً بين دول الحلفاء في اتفاقية سايكس بيكو، وقال في أبيات من قصائد في هذا المجال:

أرادوا بالخلافة ما أرادوا	ورَدُّوا المُسلمينَ مُزَقِّينَا
يُقيمون الممالكَ واهياتٍ	يَمَلِّنَ مع الرِّياح وينثنيَا
بنوها أربعاً ولو استطاعوا	لشَقَّوها ممالكَ أربعينَا
إذا دأب القضاء يُريدُ أمراً	تقاصرَ عنه سَعْيُ الدَّائنينَا
بكم تحمي الخلافة جانبيها	وتدفع غارة المتحفزينَا (1)

ويقول:

(1) الزركلي، ما رأيته وما سمعته، ص 122-123
(2) جريدة القبلة، ع 28، السنة الأولى، الاثنين 24 محرم 1335هـ/ 1917م، ص 1
(3) الزركلي، ما رأيته وما سمعته، ص 123-124
(1) محرم، أحمد محرم بن حسن عبد الله (ت 1364هـ/ 1945م)، ديوان محرم (السياسات)، (1 ج/ 2 ق)، جمع وتقديم: محمود أحمد محرم، نشر: مكتبة الفلاح، طبعة أولى، الكويت، 1984م، 2 ق، ص 594 ، 598.

(سَلِيلَ النَّاجِ) والدُّنْيَا جِزَاءً وَغُفْبَى الْأَمْرِ لِلْمُتَدَبِّرِينَ
وَتَقْضَى الْأَمْرَ مَفْسُودَةً وَشَرًّا وَمِثْلُكَ لَا يُطِيعُ الْأَمْرِينَ
(وَمِيرَاثِ النَّبِيِّ) لَكُمْ، وَأَنْتُمْ (وُلَاةُ الْبَيْتِ) غَيْرَ مُكَذِّبِينَ⁽²⁾

ومع دخول الأمير فيصل بن الحسين دمشق، تكونت حكومة عربية فيها، شكلها الأمير فيصل، وجعل رئيسها رضا باشا الركابي، وذلك في/5/ تشرين الأول 1918م/ الموافق/27/ ذي الحجة 1366هـ، وأذاع بلاغاً إلى أهالي بلاد الشام، بيّن فيه أن الحكومة الدستورية التي تشكلت لتقود البلاد التي استقلت استقلالاً تاماً باسم الملك الحسين بن علي أمير المؤمنين، وحث أهالي البلاد على التزام الهدوء وطاعة الحكومة الجديدة التي تأسست على قاعدة العدالة والمساواة⁽³⁾، ولما كانت بلاد الشام ضحية التقسيم بين فرنسا وبريطانيا حسب اتفاقية سايكس بيكو، فقد عملت هاتان الدولتان على تنفيذ بنود هذا الاتفاق بتقاسم بلاد الشام بينهما، ولم يمض على عمر الحكومة الفيصلية سوى سنة وثمانية أشهر حتى وجه الجنرال غورو إنذاره المشهور إلى الحكومة الفيصلية بضرورة حل نفسها ومغادرة فيصل الشام، وتسريح الجيش العربي الذي كان يوسف العظمة وزير الحربية في الحكومة العربية قائداً له، وكان ذلك في 25 تموز سنة 1920، وبالرغم من موافقة هذه الحكومة على الشروط المذلة للأمة وللبلاد ولحكومتها الفتية بعد تردد، فقد زحف غورو المراتب في بيروت بقواته نحو دمشق، مقررّاً إنهاء تجربة الاستقلال لأولى، ومصادرة حرية هذه البلاد وإخضاعها للانتداب الفرنسي⁽¹⁾، وقد سجل الزركلي الساعات الأخيرة الفاصلة بين استقلال البلاد الشامية وبين استعمارها بحروف سطرت الغضب والانفعال وحرارة الدم في أجساد أحرار الشام وهم يتصدون للهجوم الفرنسي على بلادهم، وقال في ذلك شعراً تحت عنوان: ليلة ميسلون:

أنا لا أشكو ونى في أمّتي وبقومي كان إدلال الفُخُور
إنما تُوشِكُ أن تُبْكِينِي غفلة القادة فينا والصدور⁽²⁾

ثم قال: "... قضى الأمر، وأراد التردد والضعف وعمى البصيرة أن تتفق وزارة الشام مع ملكها فيصل بن الحسين على تسريح الجيش، إجابةً لرغبة القائد الفرنسي غورو الزاحف على ميسلون، ونزولاً عند حكمه، واستشعر أهل دمشق في حكومتهم إذعائاً للطارق الداهم، فأنفوا الاستسلام، وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدم في صحيفة

(2) مُحَرَّم، الديوان، ق2، ص 598

(3) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، ص35-36، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص34
حغندوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 116، نجار، فيصل الأول، ص 59-60

قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 46

(1) الحصري، يوم ميسلون، ص 161-162، الشريفي، الثورة العربية الكبرى، ص 51
حغندوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 117، الملك فيصل بن الحسين، المذكرات، ص 6-8

- رستم حيدر، المذكرات، ص 680

(2) الزركلي، ما رأيته وما سمعته، ص 3

ذلك اليوم، فشاروا!! وساد الظلام ليلة/21/20/يوليو/تموز/ 1920م وأقبل الجند المُسَرَّحون منتشرين في أحياء دمشق يهتفون للاستقلال والدفاع تحت رصاص الرشاشات⁽³⁾، واستطاع وزير الحربية أن يجمع أشتاتاً من الجيش العربي المسرح إضافةً لأعداد من المتطوعين، ويقابل بهم عند منطقة ميسلون (في سهل الكسوة جنوب دمشق بحوالي 15 كم) جيش غورو المدجج بالأسلحة المتطورة ووقعت معركة ميسلون غير المتكافئة، وقضى يوسف العظمة قائد الجيش ومن معه نحبه دفاعاً عن بلادهم وكرامة أمتهم في وجه الاستعمار الفرنسي الجديد، ودخل على إثر ذلك غورو دمشق في/25/تموز 1920م منهياً بذلك فترة الاستقلال القصيرة⁽⁴⁾، وبادئاً عهد الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان الذي دام أكثر من ربع قرن من الزمن، وتحول العمل الذي ابتدأ لطرد العثمانيين من بلاد الشام وتحصيل الاستقلال، إلى مجال جديد ينحصر في مقاومة الانتداب الفرنسي والبريطاني، وطرد المحتلين من هذه البلاد⁽⁵⁾.

أما الشريف الحسين بن علي فلم تلب له قناة، وبقي صلباً متمسكاً بالأهداف التي أعلنها واتفق مع الإنكليز لتحقيقها، لكن بريطانيا اتفقت مع ابن سعود حاكم نجد على أن يكتسح الحجاز ويطرد الحسين منه بعد أن اعترفت به ملكاً على الحجاز⁽³⁾، ثم نودي به خليفة للمسلمين بعد فصل الخلافة الإسلامية في استانبول عن السلطنة في 16 نوفمبر/تشرين الثاني عام 1922⁽⁴⁾، وأشار الشريف الحسين أنه لم يكن يرغب بمنصب الخلافة ولا يطمح فيه ولا يسعى إليه، قال ذلك لمندوبه في القاهرة عبدالله الخطيب حينما زاره أثناء توقف البارجة البريطانية التي تقله من العقبة إلى قبرص، وكان توقفها في بورسعيد على السويس، قال الحسين: "إني معترف بأنني كنتُ مخطئاً أجهل حقيقة الأوربيين، وأشهد الله أنني لم أفعل ما فعلتُ إلا عن حسن نية، وإنني لم أطلب الخلافة، بل إن أناساً خدعوني وحملوني على قبُولها"⁽⁵⁾.

بعد ذلك هاجم آل سعود الحجاز وطردوا الحسين منه فلجأ إلى العقبة، حيث ابنه الأمير عبدالله أميراً على شرق الأردن، وكان ذلك في أول أكتوبر/تشرين الأول سنة 1924م⁽¹⁾، وقبل أن يخرج الحسين من الحجاز تنازل لابنه علي عن العرش، فنقل

(3) الزركلي، ما رأيْتُ وما سمعتُ، ص 3-4

(1) الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 51، العظم، المذكرات، ج1، ص 116-117
حغندوقة، وثائق ميرزا باشا، ص 117

- أندرياء، تاريخ الدروز، ص 31

(2) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 267

(3) الريحاني، ملوك العرب، ج1، ص 63، صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، ج1، ص 21

أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج1، ص 294، الشريقي، الثورة العربية الكبرى، ص 26

- YILDIZ, BUYUK ISLAM TARIHI, CILD, 12, P. 192

(4) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 357-360، سالم، في سبيل الدفاع عن الإسلام، ص 29-31

- كوثراتي، مختارات سياسية، ص 302

(5) غطار، صقر الجزيرة، ج2، ص 392

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، 376

مقره إلى جدة إثر سيطرة آل سعود على مكة، لكن آل سعود هاجموا جدة أيضاً وطرّدوا علي بن الحسين منها فلحق بأخيه فيصلاً في العراق سنة 1925م⁽²⁾، ولم تسكت بريطانيا عن الحسين فأذرتّه بوجوب مغادرة العقبة، بحجة أن وجوده في العقبة يثير النزاع في المنطقة! ووسطوا ابنه عبدالله لإقناعه بالمغادرة إلى أي مكان يختاره ما عدا الحجاز وشرق الأردن، لكن عناد الحسين وتمسكه بمواقفه دفع الإنكليز إلى اعتقاله، ولم يمهله في اختيار أي مكان لمنفاه، بل أرسلوا بارجتهم فون فلاور إلى العقبة في 28/أيار سنة 1925م، وقابل قائدها الحسين وسلمه كتاباً من الحكومة البريطانية تطلب فيه منه مغادرة العقبة خلال ثلاثة أسابيع، موقع من وكيل وزارة الخارجية البريطانية، لكن الحسين عاد إلى روحه القديمة في العنف والرد الشديد على الانذار، فأرسل خطاباً شديداً وقاسياً إلى رئيس الوزارة البريطانية، شرح فيه بإسهاب مواقفه من بريطانيا ومن آل سعود وحربه معهم، ومن ثم نقض بريطانيا لعهودها معه⁽³⁾.

ولكن بريطانيا ردت عليه بحسم الموقف فأرسلت بارجة أخرى اسمها نيودلهي وأرسلت ابنه عبدالله ليقنعه بالسفر، وتم الاتفاق على أن تبحر به هذه البارجة إلى البصرة، ومن ثم إلى بغداد فيكون في كنف ابنه فيصل، ونزل إلى البارجة نيودلهي يوم الخميس/27/يونيو حزيران سنة 1925م/15/ذي الحجة 1343هـ/ فأبحرت به إلى السويس، وبدلاً من أن تتجه به إلى البصرة اتجهت به إلى ميناء ليماسول في قبرص فأنزلته هناك⁽⁴⁾، وهكذا نفت بريطانيا الحسين إلى قبرص ليعيش هناك بقية حياته أسيراً منفياً حبس العزلة والوحدة، يعاني العوز والجُزْمان من كل شيء، حتى من الحياة الكريمة، تأكل قلبه الحسرة والألم، ويكابد الفرقة لوطنه والبُعاد عنه، وهو يلوم نفسه ويقول: هذا جزاء من يصدق الإنكليز ويتحالف معهم، إلى أن اقترب أجله في أواخر

(2) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 366-375، كوثراني، مختارات سياسيه، ص 290-299

عطار، صقر الجزيرة، ج2، ص 398، 402-404

(3) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 379-384، عطار، صقر الجزيرة، ج2، ص 388-389

(4) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 384-385

شهر مايو/أيار/1931م، فسمح الانكليز بإخراجه بعدما اشتدت عليه العلة واستعصى الداء، فنقل إلى عَمَّان فاقد الوعي والشعور، وفيها لقي وجه ربه يوم/4/يونيو حزيران سنة 1931م، أي بعد أيام قليلة من وصوله، فذهبت روحه إلى بارئها تشكو جور الانكليز وظلمهم وخيانتهم، ودفن تحت قبة الصخرة بالقدس⁽¹⁾.



(1) أمين سعيد، المصدر نفسه، ص 392

الفصل الثامن
العثمانيون والعرب في بلاد الشام
بين 1918-1924
" دخول العلاقات مرحلة القطيعة "



أولاً: أوضاع الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام 1918م.

1- انهيار الدولة العثمانية واحتلال الحلفاء لأراضيها.

مع انسحاب القوات العثمانية من آخر مواقعها في محطة المسلمية شمالي حلب في الخامس والعشرين من تشرين الأول 1918/10/25م في أعقاب الهزيمة العسكرية التي منيت بها هذه القوات على الجبهتين الجنوبية في فلسطين والشمالية القادمة من الحجاز نحو العقبة فدمشق فحلب، تأكدت جماعة الاتحاد والترقي الحاكمة في استانبول أنها لا تستطيع مواصلة الحرب، لا سيما وأن إحدى حليفاتها المشتركة معها إلى جانب ألمانيا والنمسا وهي بلغاريا قد وقعت فجأة في شهر أيلول 1918م اتفاقية منفردة للسلام مع الحلفاء، وبات موقف الدولة العثمانية صعباً لأنها انعزلت جغرافياً عن النمسا وألمانيا في أوروبا، وخسرت مواقعها في بلاد الشام، وصارت قوات الحلفاء تطرق أبواب استانبول من كافة النواحي وتشدّد الضغط على القوات العثمانية المرابطة في الأناضول، فأدركت أنها صارت في حالة عجز تام عن المتابعة ولم تر بداً من أن تحذو حذو بلغاريا، وتوقع هدنةً مع الحلفاء وتتسحب من الحرب⁽¹⁾، وإزاء هذا أدركت وزارة الاتحاديين التي يرأسها طلعت باشا أن لا سبيل أمامها سوى إخلاء مواقعها وترك السلطة اعترافاً بفشلها وخسارتها الحرب، وأنها قادت الدولة العثمانية نحو الهاوية والانهيار والسقوط، فاستقالت هذه الوزارة، وتألّفت وزارة جديدة برئاسة أحمد عزت باشا الأرنؤوط⁽²⁾، وتظهر ماري ملز باتريك تحاملها عليه بقولها: "وهو شخص خامل الذكر لم يرفع لذلك الموقع إلا ليضع توقيعَه فقط!"⁽³⁾ وقررت هذه الوزارة إعلان خسارتها للحرب، فأرسلت وفداً لذلك ولتوقيع الهدنة مع الحلفاء إلى مدينة مودروس (Moudros) في جزيرة ليمنوس (Limnos) الكائنة في بحر إيجه بين البرين التركي واليوناني، وأدركت الحكومة الاتحادية أن وفدها لم يذهب للمفاوضة بل

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 721، باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151
- KURDAKUL, OSMANLI, IMPARATORLUGUNDAN, ORTA DOGU'YA, P,123 ,176
(2) المحامي، الدولة العلية، ص 721-722، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 8
(3) باتريك سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151

للاستسلام وقبول شروط الحلفاء، وسافر الوفد العثماني برئاسة وزير البحرية رؤوف باشا، ووقع معاهدة مودروس مع الحلفاء في 30 تشرين الأول/10/30 عام 1918م، خرجت بموجبها الدولة العثمانية من الحرب العالمية الأولى منهزمة منكسرة، وأملى الحلفاء شروطهم عليها⁽¹⁾، من خلال إجبارها على توقيع معاهدة سيفر معهم في 10/آب 1920م، حيث ذهب الصدر الأعظم توفيق باشا رئيس الوفد العثماني إلى باريس لتوقيعها في مؤتمر الصلح، ممثلاً للدولة العثمانية، فعاد ولم يوقع على هذه المعاهدة لأنها لم تنبئ للدولة العثمانية مفهوم دولة، بشروطها المذلة المجحفة وبنودها الشديدة الجائرة على الدولة العثمانية التي بلغت/19/بنداً، حيث أظهرت سوء نوايا الحلفاء تجاه الدولة العثمانية في تقسيم أراضيها فيما بينهم وإنزالها إلى درجة مستعمرة، ثم وقعت الحكومة العثمانية على هذه المعاهدة بعد ذلك⁽²⁾.

وكان السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) قد استلم الخلافة قبيل انتهاء الحرب في شهر 10/1918م، فكانت نهاية الحرب وتوقيع الهدنة في بداية عهده، ووجد زعماء الاتحاد والترقي البارزون أنهم خسروا المعركة نهائياً، وأن لا سبيل للمكابرة، بل لا بد لهم من أن ينهجوا نهجاً جديداً، وبداية هذا النهج أن يتواروا عن الأنظار، فعقدوا اجتماعاً قرر فيه ثمانية منهم مغادرة البلاد، لأنهم هم المسؤولون عن انهيار الدولة العثمانية وأنهم إن سلموا من أعدائهم فلن يسلموا من أيدي أبناء البلاد أنفسهم، لأن عامة الشعب يحكم على الأمور بعاطفته ويعتبرهم سبب البلاء، وهؤلاء الثمانية هم: طلعت باشا رئيس الوزارة (الصدر الأعظم)، وأنور باشا وزير الحربية، وأحمد جمال باشا (الكبير) وزير البحرية بعد إقالته من قيادة الجيش الرابع المرابط في بلاد الشام، وعزمي بك والي بيروت، وبدوي بك مدير شرطة استانبول، والدكتور ناظم بك، والدكتور بهاء الدين بك من كبار رجالات حزب الاتحاد والترقي، ومدحت باشا أمين سر حزب الاتحاد والترقي، وغادر من هؤلاء سبعة، وتراجع مدحت باشا عن السفر فيما بعد، أما الفارون السبعة فركبوا في أوائل نوفمبر تشرين الثاني 1918،

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 722، باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151
رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 57
- LEWIS, The EMERGENCE OF MODERN TURKEY, P.234
- رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 535، السنة 7/11 يوليو تموز 1981م، ج 6، ص 38
- İLDİZ, BUYUK ISLAM TARKHI, CILD, 12, P. 195
- غفور، عبد الجبار قادر، تاريخ تركيا المعاصر 1918-1980م، بحث ضمن كتاب: تركيا المعاصرة لمجموعة مؤلفين، نشر: جامعة الموصل، طبعة أولى، 1987، ص 25.
(2) دُرُوزَه، محمد عزة، تركيا الحديثة، نشر: مطبعة الكشاف، بيروت، 1946م، ص 37-40، دروزة، تركيا الحديثة. وانظر:

- لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 141

سفينة حربية ألمانية حملتهم إلى جزيرة القرم، وهناك استقبلتهم السلطات الألمانية ووضعت تحت تصرفهم قطاراً أقلمهم إلى برلين التي اختاروها داراً لهجرتهم⁽¹⁾، وما يهم من هؤلاء السبعة أمر الثلاثي طلعت وأنور وجمال الذين ترأسوا الدولة في عهد حكم الاتحاد والترقي بين 1909 و1918م، والذين كانوا سبب اشتراكها في الحرب العالمية الأولى، لأنهم كانوا المعاول التي هدمت كيان هذه الأمة، والأداة التي قطعت أوصالها، ورأس الحرب في القطيعة التي ستكون بعد الحرب بين العرب والأتراك لما زرعه في نفوس الطرفين من العداوة والنفور تجاه بعضهما البعض بما نهجوه من نهج تتركي وعدائي للعرب تسبب في ذلك، ويرى رضا نور أن الاتحاديين جنوا على الأمة الإسلامية وعلى دولة الخلافة جناية عظيمة حين أدخلوها في الحرب العالمية، ثم "يحملون حقائبهم ويهربون، طلعت وأنور وجمال وغيرهم، تسببوا في هذه المصائب، وتركوا الوطن في هذه الحالة، وارتكبوا خيانة أكبر، بأن هربوا بأنفسهم التي اعتبروها أعلى من الوطن ومن الأمة"⁽²⁾. أما أنور فقد فر من القطار الذاهب إلى برلين ليذهب إلى القفقاس لينفذ ما توصل إليه من قناعة بأنه يجب أن يستثمر حالة العداء بين روسيا والدول الغربية ليحقق للدولة العثمانية أية مكاسب ممكن تحقيقها، ويحاول الاحتفاظ بأكبر جزء يستطيع الاحتفاظ به من البلاد العثمانية، ويعقد صلحاً مشرفاً مع الأعداء، فذهب إلى موسكو واستقبله الروس وأنزلوه منزلاً حسناً، واتفق معهم على مقاتلة الإنكليز وحلفائهم، وبعد ذلك زار برلين مرتين لاقتناع جمال باشا ورفاقه الآخرين بالاشتراك معه فيما ينوي عمله، لكنهما حذراه من غدر الشيوعيين وخداعهم، ولم يسمع هذه النصيحة، وأدرك بعد اختلاطه بالروس صحة ما قيل له عن الروس، لأنه شعر ببداية غدرهم به، لكنه لم يكن يرى غير هذا الطريق يسلكه، وشعر أن الروس باستضافتهم له أرادوا حجزه عندهم كي لا يعرقل خطط مصطفى كمال التي سيأتي الحديث عنها بعد قليل، إذ كان مصطفى كمال ينسق معهم فيما يسعى له من خطوات سياسية داخل تركيا، لذا اشترط على الروس ألا يمدوا أنور بالسلاح، خاصة وأنهم يعلمون ما بين مصطفى كمال وأنور من خصومات وتنافس سابق، وأن مصلحتهم في المستقبل مع مصطفى كمال وليست مع أنور⁽¹⁾ لهذا أراد أنور التخلص من تحكم الروس به بعد أن وقع في شركهم، فدخل بخاري للقتال مع المسلمين ضد الشيوعيين الروس، ومساندة الحركة الثورية الإسلامية هناك، ويطش بدعاة الشيوعية وأعوانها، وحارب الروس وانتصر عليهم في معارك عديدة، فلجأوا إلى القضاء عليه، حيث رصدوه في قرية بالجوالم شرقي بخاري في عطلة عيد الأضحى المبارك وقد تفرق عنه أصحابه، فهاجمته فرقة روسية كبيرة، وخرج إليهم بنفسه وقاتلهم حتى قتل⁽²⁾.

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 323

- LEWIS, The EMERGENCE OF MODERN TURKEY, P. 234

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 535، السنة 7/11/ يوليو تموز/1981م، ج6، ص38

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 724

(2) المحامي، الدولة العلية، ص 724-725

وأما أحمد جمال باشا فقد لبى دعوة ملك الأفغان وذهب إلى هناك لينظم له جيشه، وجاء إلى موسكو مروراً بها في طريقه إلى كابول، فاحتجزه الروس بطريقة غير مباشرة، استطاع أن يفلت منها بطريقة ذكية، فأبدى للروس استعداداً للذهاب إلى تركيا لاستمالة الناس إلى جانبهم، فسمحوا له بالذهاب عن طريق القفقاس، لكن يبدو أن ذلك للايقاع به، وأنهم لم تنطلي عليهم حيلته تلك، إذ هاجمه أعضاء في منظمة سرية أرمنية وهو في تفليس عاصمة أرمينية، وأردوه قتيلاً مع مرافقه، ويقال إن الروس هم الذين دبروا اغتياله لكي يتخلصوا منه لعدم اقتناعهم بوعده لهم⁽³⁾، ويذكر رضا نور بالاستناد إلى معلومات خاصة بحكم قربه من مصطفى كمال أتاتورك ومعاصرته له لفترة طويلة ومعرفة له عن كثب، أن مصطفى كمال كان ينسق مع الروس، وأنه بينه وبين الروس جنائيات مشتركة، وأن مصطفى كمال كان يخاف من جمال باشا، ويحرص أن لا يعود جمال إلى تركيا ولذلك عندما كان في روسيا أراد جمال العودة، فعلم مصطفى كمال بذلك فطلب من الروس القضاء عليه، واضطرب عندما علم برغبة جمال بالعودة لتركيا، وينقل رضا نور حوادث أخرى تؤيد هذا الرأي منها، أن رُوسياً اغتيل في تركيا وظل القاتل مجهولاً، كما قام الروس بتسليم رحمي والي أزمير السابق إلى مصطفى كمال، وهو مطلوب عنده⁽⁴⁾.

وحدث الشيء ذاته مع طلعت باشا، حيث سعت المنظمة الأرمنية السرية إلى قتله كأحد وجوه الاتحاد والترقي الذين يحقد الأرمن عليهم جراء ما نسب إليهم من مذابح بحق الأرمن أيام حرب البلقان عام 1912م، ولاحقته إلى برلين حيث قتلوه هناك⁽²⁾.

وكنتيجة طبيعية لخسارة الدولة العثمانية الحرب، فقد سيطر الحلفاء على العاصمة العثمانية استانبول، ودخلتها/60 سفينة حربية من قواتهم في/13 تشرين الثاني/1918م، وتوزعت القوات الفرنسية والانكليزية والايطالية فيها، وحالوا تحويلها إلى قاعدة لنشاطاتهم في مناطق الدولة العثمانية، كما أحكموا السيطرة على ميناء استانبول وخطوط المواصلات الداخلية والشرطة⁽³⁾، وفي/8/2/1919م دخل قائد القوات الفرنسية استانبول متحدياً مشاعراً المسلمين في العالم الإسلامي، في خطوة اعتبرها رداً على الفتح الإسلامي لها، ورداً على فتح الخليفة محمد الفاتح للقسطنطينية، والذي كان إنهاء للحكم البيزنطي لهذه المدينة، وتسميتها بـ إسلام بول (استانبول) أي عاصمة الإسلام، وكان هذا القائد الفرنسي قد ركب الحصان الأبيض الذي أهده إياه اليونانيون وتجول عليه في شوارع استانبول وهو يرد الضربة

- رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 569، السنة/4/13/1982، ح 39، ص 37

(3) المحامي، الدولة العلية، ص 725، باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 152

LEWIS, THE EMERGENCE OF MODERN TURKEY, P,234

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 569، السنة/4/13/1982، ح 39، ص 37

و: ع 570، السنة/13/11 مايو أيار 1982م، ح/40، ص 36

(2) المحامي، الدولة العلية، ص 725

(3) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 59، غفور،

تاريخ تركيا المعاصر، ص 25، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 10-9

للمسلمين ويتحدى مشاعرهم، وكأنه يقول لهم: إن استانبول عادت إلى الحلفاء حماة الصليب وهو يتقاسمون مناطقها فيما بينهم⁽¹⁾، وهذه صيغة للمسلمين على مدار التاريخ ينبغي أن يستخلصوا منها الدروس والعبر، وصار مصير البلاد العربية في الشام والعراق من الناحية العملية خاضعاً للحلفاء تنفيذاً لاتفاقات سايكس بيكو في اقتسام أملاك الدولة العثمانية، فاحتل البريطانيون المناطق الجنوبية من الأراضي التركية المجاورة لبلاد الشام في كيليكيا، كما احتلوا أجزاء من شمال الشام، وتوغل الفرنسيون فاحتلوا سواحل بلاد الشام الشمالية إضافة لمناطق لبنان، واحتلت إيطاليا أجزاء أخرى من تركيا، واحتلت بريطانيا أيضاً الدردنيل وسامسون وعينتاب وفي 15/أذار 1919م احتلت القوات اليونانية أزمير، وبلغ عدد قوات الحلفاء المعسكرة في أراضي الدولة العثمانية ما عدا القوات اليونانية في بداية عام 1919م حوالي 107/آلاف جندي، وهكذا صارت أراضي الدولة العثمانية تحت سيطرة الحلفاء⁽²⁾.

2- محاولة إيجاد علاقات جديدة بين العرب في بلاد الشام وتيار مصطفى كمال أتاتورك.

ومع ما آلت إليه أحوال الدولة العثمانية بعد الهزيمة في الحرب عام 1918م، لم يعد هناك علاقات سياسية وإدارية تربط البلاد العربية وخاصة بلاد الشام بالدولة العثمانية، بعد آخر انسحاب للقوات العثمانية من آخر المواقع في 12/تشرين الثاني/1918م في منطقة دير الزور في المثلث الحدودي الذي يربط بلاد الشام في شمالها الشرقي بالأناضول التركية والأراضي العراقية، إضافة لموقع المسلمية الذي خرجت منه القوات العثمانية شمالي حلب قبل ذلك بتاريخ 25/10/1918م⁽³⁾.

إن ما أورده البعض عن علاقات بين العرب في بلاد الشام والكماليين (نسبة إلى كمال أتاتورك) فإن صح وثبت وجوده، فإنما هو بقية باقية محدودة الأثر والفاعلية، لأن الدولة العثمانية من الناحية العملية قد انهارت بتوقيع قيادة الاتحاديين على هدنة مودرس، وانسحابهم من الحرب واعترافهم بفشلهم وهزيمة الدولة العثمانية من قبل جيوش الحلفاء، على الرغم من أن الدولة العثمانية لم تعلن عن إلغاء خلافتها التي ارتبط العرب بها بهذه الخلافة إلا في سنة 1924م، لكن الرابطة العثمانية التي ظللت العنصرين العربي والتركي بظلالها، وأخت بينهما بالأخوة الإسلامية، التي هي روح الخلافة الحية، قد ضمرت كثيراً لدرجة الاقتراب من التلاشي، حيث أوصلها الاتحاديون في فترة حكمهم بين عامي 1909م و1918م إلى هذا المستوى من الاضمحلال، وهياؤوا المناخ المناسب لأتاتورك الذي كان واحداً منهم وامتداداً لحكمهم، لمحاربة الإسلام، وهو صلة الوصل بين العرب والأتراك، كي يضرب ضربته النهائية

(1) -LWEIS, THE EMERGENCE OF ,MODERN TURKEY, P. 235

(2) رافق، من تاريخ سورية الحديث مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 59 غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 25-26، قاسمية، الحكومة العربية، ص 186

رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة 18/11/1981م، ح 10، ص 39

(3) رافق، من تاريخ سوريا الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985/، ص 57

لهذه الرابطة بعد إعلان الحرب عليها بكل صراحة ووضوح في عام 1924م بإلغاء الخلافة بشكل رسمي وفعلي، وهو ما يأتي بيانه فيما بعد. ويستدل من بعض الإشارات في سنة 1918م، إلى أنه حتى توقيع هدنة مودرس في السنة المذكورة، بقي النواب العرب المشاركون في مجلس المبعوثين العثماني إلى هذا التاريخ يؤدون دورهم ويحضرون جلسات المجلس، إذ يذكر نويهض أن الأمير شكيب أرسلان، وهو من المبعوثين العرب المنتخبين عن لبنان، بقي حتى نهاية الحرب نائباً في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان)⁽¹⁾ وتروي باتريك، وهي شاهد على أحداث هذه الفترة، أنه بعد توقيع هدنة مودرس، كانت الخطوة الثانية أن يوافق البرلمان (مجلس المبعوثين) على تلك الاتفاقية، وأنها دعيت لحضور جلسة الموافقة هذه، التي كانت آخر جلسات مجلس المبعوثين العثماني في عهد الخلافة، الذي انتخب على أساس دستور مدحت باشا، وكان أعضاء هذا المجلس حينذاك سبعمائة شخص بينهم كثير من النواب الذين صارت بلادهم في حوزة الحلفاء كنواب سوريا والعراق وكرديستان، وقد دخل هؤلاء على المجلس بوجوه تعلوها إمارات الابتسامة والسرور والثقة بالنفس، وقد صوّت المجلس على المعاهدة، وأعلن موافقته عليها بأكثرية 126 صوتاً، وتلقى السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) اقتراحات عديدة بشأن حل المجلس، لأنه كان يمثل الدولة العثمانية وقد انحلت الآن، واقتطعت منها الولايات العربية وغيرها، ولم يعد يمثل البلاد التركية البحتة، فوافق السلطان على حله وحلّ"⁽¹⁾.

وإذا كان البرلمان العثماني (مجلس المبعوثين) قد حل بعيد انتهاء الحرب العالمية، عقب توقيع هدنة مودروس، فإن ذلك يعني عودة النواب العرب إلى بلادهم، وانقطاع العلاقات العربية مع الدولة العثمانية، لأن البلاد العربية وبلاد الأناضول التركية قد خضعتا للاحتلال الأجنبي من قبل جيوش الحلفاء، واتجه الأتراك فيما بعد الحرب لتنظيم صفوفهم وإعادة بناء أنفسهم للمقاومة لإخراج الجيوش المحتلة من بلادهم، أما البلاد العربية خاصة العراق وبلاد الشام فقد خضعتا للاستعمارين الفرنسي والبريطاني، ففي دمشق لم يدم عمر الحكومة العربية التي شكلها الأمير فيصل سوى أقل من عامين، حين دخلتها جيوش فرنسا بقيادة غورو في تموز 1920م، وفرضت انتداباً فرنسياً على سوريا ولبنان وفق سايكس بيكو، بينما أعطيت فلسطين والعراق وشرقي الأردن لبريطانيا، لكن هناك دلائل تذكر أن الأمير فيصل في الفترة التي عين فيها ملكاً على سورية، وأقام الحكومة العربية فيها قبل دخول غورو إليها، قد أجرى اتصالات مع الزعامة الجديدة في تركيا، التي أخذت تقاوم جيوش الحلفاء، وتعمل على تحرير الأراضي التركية منها وتحصيل استقلالها، وتصدر مصطفى كمال (أتاتورك) تلك المقاومة، وعلى الرغم من عدم ثبوت هذه المعلومات، وعدم التطرق إليها من المصادر التاريخية العربية التي كتبت عن هذه الفترة، فإنه يمكن إيرادها بالاستناد إلى من تطرقوا إليها، ويبدو أنها كانت من باب الترويج لمصطفى كمال وإبرازاً لشخصه،

(1) نويهض، المذكرات، ص 45

(1) باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151-152

وهو ما يتناسب مع ما نسب إليه من بطولات ومواقف في الفترة المذكورة بين 1918-1923م، لإظهاره بطلاً قومياً في أعين الأتراك لتهيئتهم لتقبل خطواته الخطيرة اللاحقة التي ثبت من خلالها وبشكل قطعي وبما لا يدع مجالاً للشك أنه قام بها عن تخطيط مسبق مدروس، من أجل قطع العلاقات العربية العثمانية بصورة نهائية، وإبعاد العنصرين العربي والعثماني عن بعضهما عملياً من خلال القضاء على جميع الروابط التي تربطهما ببعضهما البعض، وهي العقيدة الإسلامية واللغة العربية وغيرهما من العناصر التي قامت عليها الرابطة العثمانية، خاصة وأن مصطفى كمال كان على تنسيق وتواصل مع أعداء الدولة العثمانية، بما تمثله هذه الدولة من علاقات سابقة قوية وراسخة مع العرب، وخاصة تنسيقه مع الروس والانكليز⁽¹⁾، من أجل تحقيق أهدافه في القضاء على العلاقات العربية العثمانية، ونسف ما يتعلق بتلك العلاقات، ولهذا فإن العلاقات بين الأتراك والعرب في بلاد الشام في الفترة التي أعقبت انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى إلغاء الخلافة عام 1924م على يد مصطفى كمال، أمر مشكوك فيه، وإن ما يذكر في هذه الفترة من علاقات يصب في الاتجاه الذي يراد منه إظهار مصطفى كمال للغايات والأغراض التي أرادوا إبرازها من أجلها. بعد خروج القوات العثمانية من بلاد الشام ذهب الأمير فيصل بن الحسين بعد تشكيله للحكومة العربية في دمشق، لزيارة حلب في 11/تشرين الثاني عام 1918م، وألقى خطاباً هناك هاجم فيه حكم الاتحاديين، وذكر فيه جهوده وجهود والده من أجل إنقاذ العرب من ذلك الحكم الجائر الفاسد، ولم يتطرق الأمير فيصل لمثل هذا أثناء خطابه في دمشق، وتعمده في حلب رداً على ما كان يأمله الأتراك من مناصرة أهالي حلب لهم لدى انسحابهم منها، لقرب هذه المدينة من تركيا وللصلات القوية معها من حيث علاقات القرابة والمصاهرة بين الأسر الحلبية والتركية، إضافة للعلاقات التجارية القوية بين حلب والبلاد التركية بحكم التجاور بينهما، ولوجود أسر تركية كثيرة تقيم في حلب بسبب العلاقات التجارية والاجتماعية⁽²⁾، لهذا كله فإن ما أشير إليه من تقارب بين زعماء تركيا الجدد بقيادة مصطفى كمال وبين القيادات الوطنية في بلاد الشام في عهد الحكومة العربية في دمشق وبعده بقليل، على الرغم من إيراد البعض له، لكنه إن صح وجوده فهو محدود يمكن إيراده والتعرف عليه قبل التطرق إلى الإجراءات الخطيرة للغاية التي قام بها أتاتورك من أجل استكمال قطع العلاقات بين العرب والأتراك، وإيجاد فجوة حضارية بين الطرفين تحتاج لفترة طويلة حتى يتم تجسيرها وإعادة لحمتها.

ففي عهد الحكومة العربية التي قامت في دمشق بعد دخول جيش الأمير فيصل إليها، ورد ذكر لبداية تعاطف من الحكومة العربية مع مصطفى كمال الذي يقود

(1) المحامي، الدولة العلية، ص724

غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص34

رافق، من تاريخ سوريا الحديث، مجلة دراسات تاريخية ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 65-66

(2) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد الفيصل، نشر: دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت، 1980م، ص 24.

رافق، من تاريخ سوريا الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص58

التحرك الجديد لإخراج تركيا من نتائج هزيمتها وطرد جيوش الحلفاء من أراضيها، وبدا واضحاً أن هذا التحرك ينال مساندة ودعم العرب في بلاد الشام، لا سيما وأن جيوش الحلفاء تحتل هذه البلاد، فالفرنسيون يحتلون سوريا الشمالية ولبنان ومنطقة كيليكية الحدودية بين الشام وتركيا، وتحتاج فرنسا في هذه الحالة إلى استخدام أراضي بلاد الشام وخط الحديد الواصل بين حلب وتركيا لنقل الامدادات والمؤن والأسلحة لجيشها، وهذا مجهد للقوات الفرنسية إن لم يجد تسهيلات في البلاد الشامية، وحاول الترك بقيادة مصطفى كمال الاستفادة من نقمة أبناء بلاد الشام ضد فرنسا للضغط عليها لإخراج قواتها من الأراضي التركية، وإيجاد بعض التعاون مع الحكومة العربية الناشئة في دمشق، على الرغم من أن العرب والترك قد خرجا من حالة عدا و حرب لم تبرد جراحاتها، ونقل عن الأمير فيصل بن الحسين أنه نفى وجود أي تعاون بين عرب بلاد الشام والكماليين، وأن العطف من أبناء هذه البلاد تجاه الزعامة التركية الجديدة إنما يرجع إلى ما كان يتمتع به العرب في ظل الحكم العثماني السابق من مساواة، لكن تشرشل أكد وجود الميل من عرب الشام تجاه قيادة الحركة المضادة للحلفاء في تركيا، وأثار هذه القضية أمام مجلس العموم البريطاني، قائلاً إن العرب الذين أثارهم احتلال سوريا، يحاولون الآن ولأول مرة وبعده طرق إيجاد قضية مشتركة مع القوميين الترك، وبذلك يوحدون قوميتين كانت سياستنا قد نجحت إلى الآن في التفريق بينهما⁽¹⁾، ويورد رستم حيدر في مذكراته ما يتفق مع هذا القول، إذ يذكر أن الأمير فيصل حاول عقد مقابلة (اتفاقية) مع مصطفى كمال، وينقل برقية من الأمير زيد بن الحسين تقول إن الحكومة الفرنسية منزعة من سياسة فيصل في دمشق، إذ حاولت الحكومة العربية في دمشق الاتفاق مع مصطفى كمال، ومنع هذه الحكومة فرنسا من استعمال خط النقل رفاق حلب، من أجل تزويد جيشها المرابط في شمال بلاد الشام في منطقة كيليكية التركية، وأن فرنسا متضايقة من تعاطف حكومة فيصل العربية مع المقاومة التركية ضد القوات الفرنسية، ولما سئل فيصل عن هذا المنع وعن التعاطف مع الكماليين أنكر هذا الاتفاق مع الكماليين، ويعلق رستم حيدر على إنكار فيصل التعاون مع الكماليين بقوله: نحن أحق بالشكوى من اتفاقها (فرنسا) مع كمال⁽²⁾ وهذا يعزز الرأي القائل بعدم وجود أي تعاون بين الحكومة العربية وبين الكماليين، وأن مثل هذا التعاون تقوى إمكانية وجوده بين مصطفى كمال وبين دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا وروسيا.

ولدى تتبع ما ورد عن تعاون أو تقارب أو اتفاق وتنسيق بين العرب في بلاد الشام وبين مصطفى كمال ومؤيديه، يذكر البعض أن الطرفين سعيا إلى إيجاد نوع من التقارب فيما بينهما بعدما أعلنت كل من فرنسا وبريطانيا عن عزمهما تنفيذ اتفاق سايكس بيكو بكامله، وقامت كل واحدة منهما بالانسحاب من المنطقة التي تفاهمت مع

(1) الحصري، يوم ميلون، ص 178-179
- قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 186
(1) رستم حيدر، المذكرات، ص 663

الأخرى حولها فيما تعتبرانه مناطق نفوذ لهما، وبموجب ذلك تكون الأجزاء الشمالية من بلاد الشام (سوريا حالياً) حتى حدود الأناضول، إضافةً إلى لبنان بوضعه الجغرافي الحالي، من نصيب فرنسا وتخضعان للاحتلال الفرنسي، وتكون العراق من الموصل شمالاً وحتى البصرة جنوباً من نصيب بريطانيا، إضافةً إلى منطقة شرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب والاحتلال البريطاني، وبعد هذا التفاهم النهائي بين الإنكليز والفرنسيين، سعت بعض الشخصيات العربية من أبناء بلاد الشام إلى الاستفهام عن وعود انكلترا لأبناء بلاد الشام وللشريف حسين بشأن استقلال بلادهم وتأييد بريطانيا لهذا الاستقلال، وهؤلاء الزعماء الشاميون هم: نجيب ملحمة من بيروت، ورشدي الصفدي وعبد الرحمن العابد من دمشق، وإحسان الجابري من حلب، وروحي عبد الهادي من نابلس، وفي هذا دلالة على أن الوفد متمسك بوحدة بلاد الشام الطبيعية ويوحد موقفه تجاه قضية هذه البلاد بكاملها في وجه المطامع الفرنسية والبريطانية فيها، فما كان جواب المفوض السامي البريطاني في استانبول إلا الاستغراب والارتباك تجاه موقف أبناء بلاد الشام، وتجاهل أي علم له بوعود بريطانيا للمحافظة على استقلال هذه البلاد، وواجههم بإنكاره لأي قرار لبريطانيا تجاه هذا الموضوع^(١)، وفي السياق ذاته فيما يخص التقارب بين حكومة فيصل العربية في دمشق ومصطفى كمال، أشير إلى عقد اتفاقية سرية بين الأمير فيصل ومصطفى كمال في حلب بتاريخ 16/ يونيو حزيران عام 1919م، بواسطة أسعد بيك الذي كان متصرفاً للكرك قبل انسحاب الجيش العثماني من بلاد الشام وكان أسعد المذكور عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، ونقلت هذه الاتفاقية بالفرنسية، دون الإشارة إلى اللغة التي كتبت بها في الأصل، وتتألف الاتفاقية من بنود تسعة تنص على ما يلي:

- البند الأول: إن الطرفين المتعاقدين هما الأمة التركية والأمة العربية، يشهدان بكل أسف انقسام العالم الإسلامي، وأن واجبهما رأب الصدع وتأكيد التعاون بين الأمتين اللتين تربطهما المصالح المادية والروحية والدينية، وأن على الأمتين التعاضد والدفاع بقواتهما الموحدة عن الدين والوطن.

- البند الثاني: في اللحظة التي يتهدد فيها استقلال العرب ووحدة وحرية الأتراك بسبب رغبة الدول الأجنبية أن تقتسم فيما بينها العراق وفلسطين وسورية وما جاورها، بالإضافة إلى جزء كبير من آسيا الصغرى، فقد عزمنا عادة انعقاد مؤتمر الصلح في باريس، وإصداره قراراً بشأننا، على إعلان الجهاد المقدس للدفاع عن الدين والوطن، ولبلوغ هذا الهدف فإن الطرفين المتعاقدين يتفقان على البنود التالية:

- البند الثالث: لا يمكن للطرفين المتعاقدين قبول تقسيم الامبراطورية التركية والبلاد العربية، (Arabie) أو احتلالها من قبل القوى الأجنبية.

- البند الرابع: تعترف الحكومة العثمانية رسمياً بتشكيل حكومة عربية تضم إليها الحجاز و (Medome)^(*) والعراق وفلسطين ودمشق وبيروت وحلب، شريطة أن

(1) رافق، من تاريخ سوريا الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 60

ترتبط البلاد العربية بالامبراطورية العثمانية، وأن تبقى مخصصة للخلافة، وتقبل الحكومة العثمانية وتصادق على سلطة الشريف حسين على هذه البلاد، باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل حول شكل الحكومة والقضايا الأخرى التي ستناقش فيما بعد، وتقررها اتفاقية أخرى.

- البند الخامس: في المناطق التي يحتلها جيش الشريف سيذكر اسم السلطان من منابر الجوامع، وسيُعترف بخلافة السلطان من جديد ويعلن ذلك⁽¹⁾.

- البند السادس: لكي يبدأ الجهاد المقدس وتتأكد وحدة الأتراك، فإن صاحب السمو الشريف يوجه بياناً بلغة تتناسب والأوضاع في كل البلاد العربية، شارحاً لها الموقف العدواني للقوى الأجنبية تجاه الدين الإسلامي، وللبداء بالجهاد المقدس يجمع الشريف حسين شيوخ وزعماء القبائل العربية، ويعقد معها اتفاقيات ومعاهدات، وينظم الشريف جيوشاً وطنية مماثلة للتنظيمات الوطنية في الأناضول بشكل تكون فيه هذه القوى عند إعطاء الإشارة جاهزة تماماً للمساهمة مباشرة في الجهاد المقدس.

- البند السابع: يتعهد الشريف بمساعدة القوى الوطنية في الأناضول، بجمع قواته المتوافرة وغير المشتغلة بمهام أخرى، ويتعهد الطرفان المتعاقدان بالتعاون المتبادل مادياً ومعنوياً في الهجوم كما في الدفاع حتى تحقيق هدفهما.

- البند الثامن: يعلم الشريف بمضمون هذه الاتفاقية ليس فقط عرب الحجاز وزعماء القبائل، ولكن أيضاً الإمام يحيى والسيد إدريس (السنوسي) والمسلمين في بنغازي ومراكش وتونس والجزائر والهند، ويبذل جهوده لجعل هؤلاء يساهمون في الانتفاضة العامة، ويتعهد الشريف أن يتخذ في الحال جميع الاجراءات التي لا بد منها لتحقيق هذا الهدف.

- البند التاسع: كتبت هذه الاتفاقية على نسختين وقعتا وتبودلتا في حلب في 16/حزيران 1919م، بواسطة أسعد بك متصرف الكرك، يلي ذلك اسم مصطفى كمال من اليسار ثم اسم الشريف فيصل⁽²⁾.

وينقل رافق تقريراً أرسلته المخابرات البريطانية في استانبول إلى هيئة الأركان البريطانية بتاريخ 3/أب 1919م، يحمل الرقم/537، يصف التقرير هذه الاتفاقية بأنها مزعومة، وأن النص الفرنسي مترجم، لكن لا يذكر بأية لغة كتب النص الأصلي، ويقول التقرير أنه لم يمكن الحصول على معلومات أخرى للتأكد من صحة نسخة الاتفاقية المكتوبة بالفرنسية⁽²⁾، ولتأكيد وجود مثل هذه الاتصالات بين الحكومة العربية في دمشق وبين مصطفى كمال ورجاله، أشير إلى هذه الحكومة وبموافقة الأمير فيصل أرسلت سعيد

(*) لا يعرف معناها بدقة، وإذا كانت Medone فهي مديان، وتعني باللغة السامية شرقي الأردن.

(1) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 60-61

(1) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 61-62

(2) ZEINE, NOUR ZEINE, THE STRUGGLE FOR ARAB INDEPENDENCE, BEIRUTE (2) KHAYATS, 1960, P. 147-148

حيدر⁽³⁾ إلى استانبول سنة 1920م، وقابل ممثلي مصطفى كمال، ووضع اتفاقاً ودياً من أربع نقاط بين الطرفين ثم عاد إلى دمشق وعرض الاتفاق على الحكومة العربية في دمشق، ويتضمن الاتفاق: تعديل الحدود وخاصة في منطقة الموصل، وتشكيل جبهة موحدة تضم العرب والأتراك تشمل بلاد الشام والأناضول لمقاومة الأعداء، وتوحيد الجيوش العربية والتركية تحت قيادة واحدة، وفي حال النجاح في مقاومة القوى الأجنبية، يعمل الطرفان على تكوين دولتين مستقلتين عربية وتركية، تتوحدان على غرار الوحدة النمساوية الهنغارية قبل الحرب، ويذكر سعيد حيدر أنه عندما عاد إلى دمشق كان الوضع قد تغير، إذ عُيّن الأمر فيصل ملكاً على سورية، فرفض المشروع ولم يقبل هذه الاتفاقية، لكنه عاد إلى قبولها بعد تدخل الفرنسيين في تموز عام 1920م واحتلالهم لسورية وطردهم له، فكان قبوله لتدارك الموقف لكن بعد فوات الأوان، حيث أخرجه الفرنسيون من سورية⁽¹⁾.

وهذه الاتصالات بين الحكومة العربية في دمشق بقيادة الأمير فيصل، وبين مصطفى كمال ومن معه، لا يمكن التسليم بها واعتبارها حقيقة واقعة، بل يشك في حدوثها وفي صحتها، نظراً للظروف والفترة التي حدثت فيها، وبالتالي لا يمكن تصديقها والتسليم بها، وقد تكون مختلفة من أصلها، وعلى الرغم من المبررات التي أوردها رافق، والتي تجعل هذه الاتفاقية ممكنة الحدوث والتصديق، لكنها في المقابل يوجد ما ينقضها ويدحضها ويستبعد تقبلها، إذ يرى رافق ما يوجب قبولها، مع إشارته إلى أن أياً من الكتابات العربية المعاصرة لتلك الأحداث، أو مذكرات السياسيين المعاصرين لها لم تذكرها، ويعزو ذلك لاحتمال كونها سرية، ثم يقدم الدوافع التي تدعو إلى تقبلها، ومن ذلك أن الدعوات إلى الجهاد ضد الفرنسيين والانكليز الذين احتلوا بلاد الشام والعراق وأجزاء من تركيا، قد نشطت كثيراً في المدن الشامية والتركية، ومنها أن الأمير فيصل أثناء وجوده في حلب عندما زارها في 9/حزيران 1919م، دعا إلى التقارب مع الأتراك وطلب دعمهم، وأن توقيع الاتفاقية المذكورة تم بعد ذلك بـ 7/أيام خلال زيارته لحلب، هذا عدا الدعم الذي تلقاه الثوار السوريون في جهادهم اللاحق ضد فرنسا، والذي مصدره تركيا، الأمر الذي يؤكد

وانظر: قاسمية، الحكومة العربية، ص 154

(3) هو سعيد بن حيدر بن إبراهيم حيدر، من مواليد بعلبك سنة 1890م ومن أعضاء جمعية العربية الفتاة المقربين من الأمير فيصل بن الحسين، شارك في الحكم الفيصلي في دمشق، ثم انتسب إلى حزب الاستقلال الذي تأسس ممن رجال العربية الفتاة، وله مشاركات سياسية لاحقاً، كان من أعضاء مجلس الشورى ونائباً عن دمشق وترأس هذا المجلس إلى أن توفي سنة 1957م. الزركلي، الأعلام، ج3، ص 94
- الريماوي، سهيلة، الحكم الحزبي في سورية (فترة الانتداب الفرنسي 1920-1945)، (2ج)، ج1 من 1920-1936، نشر: المطابع العسكرية، طبعة أولى، عمان، 1998م، ج1 ص 40-41، الريماوي، الحكم الحزبي في سورية.

(1) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 62-63

- وانظر: قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 153-154

وانظر: ZEINE, NOUR ZEINE. ARAB - TURKISH RELATIONS AND THE EMERGENCE OF ARAB NATIONALISM, BEIRUT, 1958, P.147-148

تطبيق ما نصت عليه هذه الاتفاقية في بندها السادس، إضافةً إلى ما ظهر من بوادر لتطبيق البود الأخرى الواردة في الاتفاقية المذكورة⁽²⁾.

وأياً كانت الآراء التي أوردها رافق لتأييد ما يعتقد في صحة اتفاق فيصل وحكومته مع مصطفى كمال والتيار القومي التركي المؤيد له، فإن هناك من المبررات ما يجعل الاتفاقية المذكورة غير واقعية، وبالتالي ترجيح استبعادها وعدم الأخذ بها، من تلك المبررات:

- أن بعض النقاط التي وردت في بنود هذه الاتفاقية تلتقي في مضمونها ونصوصها مع ما ورد في البنود التي عرضها جمال باشا الصغير على الشريف حسين وابنه الأمير فيصل في سنة 1917م في محاولة الصلح التي سبق الحديث عنها في الفصل السابع وكانت بواسطة الأمير سعيد الجزائري، وكان جمال باشا وقتذاك قد أرسل مع سعيد الجزائري دليلاً ليدله على الطريق إلى معسكر الأمير فيصل بالقرب من العقبة بعد معان، وهو ما يتقاطع مع دور أسعد بك متصرف الكرك، إذ قد يكون الدليل لسعيد الجزائري والتسهيلات مقدمان من متصرف الكرك آنذاك، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن محاولة التصالح هذه بين جمال باشا الصغير (كوجك) وبين الأمير فيصل عام 1917م، هي نفسها التي يوردها رافق على أنها في عهد الحكومة الفيصلية وبقيادة الأمير فيصل، وبين مصطفى كمال في سنة 1920م ولا سيما إذا تبين أن مصطفى كمال كان في قيادة الجيش التركي في أخريات أيام هذا الجيش في بلاد الشام، قبل انسحابه النهائي وخروجه من هذه البلاد، ويعزز هذا أن جمال باشا الصغير (كوجك) من رموز هذا التقارب بين مصطفى كمال والحكومة العربية، وأنه في حديثه عن انسحابه والجيش التركي من بلاد الشام، يشيد بمصطفى كمال وينسب إليه استنكار الإساءات التي خلفتها القيادة السابقة للجيش الرابع في نفوس العرب في بلاد الشام، وأنه (مصطفى كمال) كان له فضائل عندما تولى أمر سحب الجيش الرابع العثماني من الشام بعد النكسات العسكرية المتتالية التي تعرض لها أثناء تراجعها في وجه جيش الأمير فيصل، وهذه الإشادة من جمال باشا الصغير بمصطفى كمال تغطي دوره في تراجع الجيش الرابع وانسحابه من بلاد الشام، وتبرز مصطفى كمال على العكس من ذلك كقائد ناجح وتصفه بـ الغازي، وتعزي إليه الإخلاص والغيرة على العرب وعلى البلاد الشامية⁽¹⁾.

- تشير التصريحات التي تصدر عن الجانبين العربي والتركي، أن كلا منهما بات يكرس القومية التي ينتمي إليها، وهو ما يتعارض مع الروح التصالحية الواردة في نص الاتفاق المذكور وبالتالي ينفي وجود مثل هذا الاتفاق.

- حرص الكثيرون ممن عاصروا أحداث الأزمة بين العرب في بلاد الشام وبين الدولة العثمانية في الفترة الممتدة من انقلاب الاتحاديين على الخليفة عبد الحميد الثاني

(2) رافق، من تاريخ سورية الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز 1985م، ص 63

(1) جمال باشا (الصغير)، كيف جلت القوات العثمانية، ص 147-148

إلى ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية على يدي مصطفى كمال أتاتورك، على أن يدونوا تلك الأحداث، ويسجلوا ما شهدوه بأنفسهم وينقلوها للأجيال اللاحقة، ولا سيما كتب المذكرات، وكان ذلك من الأتراك والعرب على حد سواء، فلو كانت اتفاقية التفاهم بين الكيان العربي الناشئ حديثاً في دمشق وبإشراف وقيادة الشريف حسين وابنه الأمير فيصل، وبين جماعة مصطفى كمال، قد وجدت فعلاً وصحيحة، لأسهب المتحدثون في الحديث عنها في مذكراتهم ومؤلفاتهم التي دُونوا فيها تفاصيل ووقائع تلك الفترة، وما ورد من إشارة إلى ذلك في مؤلفات من أرخوا لهذه الفترة من المعاصرين لها، لا يدل على حدوث شيء من هذا، فهذا ساطع الحصري الوزير في الحكومة العربية في دمشق، يؤكد أنه أثناء مرافقته للأمير فيصل في رحلته إلى إيطاليا وفرنسا لبحث القضية العربية، أوفده الأمير فيصل إلى استانبول ليلتقي بممثلي مصطفى كمال أتاتورك من أجل التعاون والتنسيق في مجال محاربة القوات الفرنسية والانكليز التي احتلت بلاد الشام واحتلت الأراضي التركية بعد هزيمة الدولة العثمانية، ولم يتطرق الحصري البتة لموضوع التصالح وإعادة العلاقات بين الطرفين⁽¹⁾، وهذا يؤكد أن ما أشيع من تقارب بينهما كان من أجل طرد المحتلين مع تكريس انفصال العرب عن العثمانيين، وسعي كل منهما لتحصيل استقلاله القطري القومي بعيداً عن الآخر. ولذلك فإن عدم وجودها في أدبيات هذه المرحلة ترجح عدم وجودها بالأصل، وأن ما أورده رافق لا يقوي اعتماد صحتها واعتبارها قد حدثت فعلاً.

- عرف عن شخصية مصطفى كمال منذ بداية حياته وحتى نهايتها، وخاصة في المرحلة التي شارك فيها كضابط مسؤول عن الجيش العثماني المرابط في بلاد الشام قبل انسحابه من هذه البلاد، أنه كان شديد العداء للعرب، ويجنح بشدة إلى استثمار النزعة القومية الطورانية في نفوس الأتراك من أجل إيجاد القطيعة بينهم وبين العرب، وهذا يساهم في استبعاد تفاهمه معهم، لا سيما وأن الفترة التي أشيع فيها حدوث تفاهم واتفاق بينه وبين أبناء بلاد الشام، هي الفترة ذاتها التي كان يعمل فيها لإيجاد كيان تركي على أساس قومي متشنج تجاه العرب، ويسعى بكل ثقله ليثبت للانكليز والروس عداءه للعرب ولكل ما يمت بصلة إليهم، ولذلك جاءت خطواته السريعة والمتلاحقة والجذرية في التغيير نحو التغريب والابتعاد عن العرب، لتؤكد عدم وجود أي توجه منه للتفاهم والمصالحة معهم، لأنه يطبق كل الإجراءات التي اتخذها في الاتجاه المعاكس لذلك، وهو ما يأتي بيانه بعد قليل عند الحديث عن خطواته لترسيخ القطيعة بين العرب والترك.

- كان مصطفى كمال والعرب في بلاد الشام والحجاز على حد سواء، في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، وانسحاب الجيش العثماني من بلاد الشام عام 1918، ينسقون ويتعاونون مع بريطانيا، وكل منهم يسعى لتحقيق الأهداف الخاصة به، خاصة التحرر والكيان المستقل⁽²⁾، وكانت بريطانيا قد بذلت الجهود المكثفة ولفترة طويلة من أجل التفريق

(1) الحصري، يوم ميسلون، ص 182
(2) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 155

بين العنصرين العربي والتركي، كما أنها أحبطت محاولات الصلح السابقة لهذه الفترة، التي حاول الطرفان العربي والتركي القيام بها، وكان هدف بريطانيا القضاء على الخلافة العثمانية، ثم إقامة الكيانات القومية للعرب والترك على أنقاضها، ليسهل عليها تطويع وتطبيع تلك الكيانات، وإذا كانت سياستها هذه قد نجحت في التفريق بين العرب والعثمانيين كما صرح تشرشل، فهو يكشف عن استمرار هذه السياسة البريطانية في استمرار سعيها ألا تسمح بعودة العرب والأتراك إلى التقارب والتعاون⁽²⁾، خاصة في هذه المرحلة التي لم تحقق فيها هدفها الأكبر بعد، وهو إسقاط الخلافة وإلغائها، وبالتالي وافقت بريطانيا أن تقدم تنازلات كثيرة لمصطفى كمال (أتاتورك) في سبيل تنفيذ هذه الخطوة كما سيأتي بيانه عند الحديث بعد قليل عن التنازلات المتبادلة بين مصطفى كمال وبريطانيا في مؤتمر لوزان عام 1923م، في سبيل أن تحقق إلغاء الخلافة على يديه، وتعترف له بكيان تركي مستقل في حدود جغرافية جديدة، وإقامة دولة يكون رئيساً لها، وهو ما أشير إليه بأن مصطفى كمال يتعاون مع الانكليز والروس في سبيل تحقيق أهدافه⁽¹⁾.

تلك هي أهم العوامل التي تجعل فكرة الاتفاق المذكور بين مصطفى كمال وبين الحكومة العربية في دمشق قابلة لاعتبارها حقيقة، وأن ما ورد من آراء تؤيد أنها حدثت فعلاً، ولا ترقى إلى إثبات صحتها والأخذ بها والتسليم بوقوعها.

ثانياً: بروز مصطفى كمال أتاتورك وانقلابه الجذري ضد الخلافة العثمانية.

1- التعريف بمصطفى كمال.

خرجت الدولة العثمانية من الحرب العالمية الأولى منهزمةً ووقعت هدنة مودروس في 30/تشرين أول/10/1918م، ومنطقي جداً أن الدول المنتصرة في الحرب تفرض إرادتها وتملي شروطها على الدول المنهزمة، فكانت نتيجة ذلك أن دخلت قوات الحلفاء الأراضي العثمانية وقسمتها فيما بينها، واحتلت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والروسية، كل حسب مصلحته المناطق الاستراتيجية والعسكرية والاقتصادية في البلاد العثمانية، واحتلت استانبول مدينة الإسلام وعاصمته، كما احتلت المدن الرئيسية ومضائق الدردنيل والبوسفور⁽²⁾، وكان وقع هذه الحملة الاستعمارية المركزة على الشعب المسلم في عاصمة الخلافة وسائر البلاد التركية أشبه ما يكون بالصاعقة العنيفة التي هزت كيانه وحركت كواامن الأنفة والعزة ورفض الضيم في أعماق نفوس المسلمين الأتراك، وكيف لا؟! وهم يتطللون بظلال

(2) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص 186

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 724

- غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 40، 24

- رافق، من تاريخ سوريا الحديث، مجلة دراسات تاريخية، ع 19-20، نيسان - تموز/1920م، ص 65-66

رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 570، السنة، 13/11 مايو أيار 1982م، ح/40، ص 36

(2) المحامي، الدولة العلية، ص 722، غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 25

باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 151، لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 87

رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة/11/25/أغسطس آب 1981م، ح/11، ص 47

وكذا: ع 541/السنة/11/سبتمبر أيلول 1981م، ح/11، ص 39

دولة الخلافة الإسلامية عنوان عزتهم وكرامتهم وسيادتهم قروناً طويلة، فكان وقع الكارثة وهولها عظيماً عليهم، مما أحدث فيهم يقظة وشعوراً وطنياً وروحاً جديدة كانت بمثابة ردة فعل قومية عنيفة، خاصة بعد أن احتلت اليونان في 15/مايس/آذار/1919م مدينة أزمير، وكانت ردة الفعل تلك بسبب النهج الذي نهجته قوات الحلفاء، ويدل على التعمد في كسر كرامة الشعب المسلم في دولة الخلافة وإظهار الفرح ونشوة الانتصار أمام المسلمين، معتبرين ما حدث انتصاراً للصليب على أمة الإسلام، وجرى هذا على ألسنة القادة العسكريين والسياسيين لكل من فرنسا وبريطانيا⁽¹⁾، وقامت جيوش الحلفاء المحتلة لأراضي الدولة العثمانية بمجموعة إجراءات تعبر عن النهج السالف الذكر، من ذلك أنهم عينوا مندوبين ساميين في استانبول، وحلوا البرلمان العثماني، وفرضوا الرقابة على الصحافة، ومنعوا التجمعات، وأجروا حملات اعتقال للعناصر المناوئة للاحتلال الأجنبي، وأعادوا نظام الامتيازات للفنائل الأجنبية الذي ألغته حكومة الاتحاديين عام 1914م مع بداية الحرب العالمية الأولى، كما فرضوا سيطرتهم على البنوك وسكك الحديد ومؤسسات الدولة المختلفة، وفرضت جيوش الحلفاء رقابة على قيادة الجيش ووزارة الحربية العثمانية⁽²⁾، فكانت هذه الخطوات بمثابة الإذلال المتعمد للشعب المسلم في دولة الخلافة العثمانية، الأمر الذي حرك روح المقاومة في نفوس أبنائه، لا سيما في صفوف الجيش العثماني، وضباطه، وكانت جمعية الاتحاد والترقي التي قامت بالانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني متخذة من العمل السري أسلوباً لها في الاستعداد لذلك الانقلاب، قد فقدت شعبيتها بعدما أدرك سكان الدولة العثمانية أنها سبب الهزيمة، وكان كثير من أعضاء الاتحاد والترقي من المنتمين للمحافل الماسونية⁽³⁾، وقد تحدث عنهم أرمسترونج بقوله: " دأب أعضاء الاتحاد والترقي على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر!، وكان بعضهم قد انضموا إلى جماعة الماسون - البنائين الأحرار - واستعانوا على تنظيم جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية"⁽⁴⁾، هذا عدا عن سيطرة اليهود الواضح على جمعية الاتحاد والترقي كما يقول رضا نور: " كنت خائفاً على الاتحاديين لسرقاتهم واغتصاباتهم من ناحية، ولإفساحهم المجال لليهود من ناحية أخرى، وكان وضع المجلس على هذا الشكل: ليس لأي نائب برلماني رأي ولا قوة، الأمر الناهي في المجلس البرلماني ثلاثة أو أربعة أشخاص، جاويد (من يهود الدونمة) وطلعت (ماسوني) وقراصو (يهودي دونمة أيضاً)⁽⁵⁾، فلما انهزمت الدولة العثمانية، تيقن الشعب التركي أن قادة الاتحاد والترقي، هم المسؤولون عن هزيمتها، فنقموا على هؤلاء القادة، وأحس المعنيون بالأمر بنقمة الشعب عليهم، فهربوا من البلاد كما أشير

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 726

(2) غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 26

(3) انظر: الاتحاد والترقي والماسونية في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(1) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 33

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 533، السنة 11/ 16 يونيو حزيران 1981م، ج 4، ص 37

إلى ذلك في بداية المبحث السادس من هذا الفصل، واستطاع أحد ضباط الجيش التركي، وهو مصطفى كمال، أن يستفيد من هذا الظرف المشحون بالنقمة على قيادة الاتحاديين ليبدأ في بلورة تكتل سياسي عسكري جديد، ويعيد تنظيم صفوف المقاومة للحلفاء، وهو ما يأتي بيانه بعد قليل، وكان بدوره قد انخرط في صفوف جمعية الاتحاد والترقي إذ نبعت هذه الجمعية في الأصل من المحافل الماسونية في سالونيك، بإدارة الشرق الأعظم الإيطالي، الذي أسهم فيما بعد بنجاح مصطفى كمال⁽³⁾، كما انتسب إلى المحافل الماسونية، شأنه في ذلك شأن معظم قادة الاتحاد والترقي آنذاك، للعمل لإسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني⁽⁴⁾، للأسباب التي تم ذكرها في سياق الحديث عن الانقلاب على هذا الخليفة في الفصل الرابع، وبعد أن انتظم مصطفى كمال في صفوف جمعية الاتحاد والترقي، حرص على حضور اجتماعات الجمعية السرية، لكنه ما لبث أن أسس جمعية الوطن وجمعية حرية عندما كان يخدم في الجيش العثماني المرابط في بلاد الشام، وانبث رجال هذه الجمعية في كل فرقة في الجيش العثماني وفي وزارة الحربية وكل إدارتها، وكان تأسيس هذه الجمعية عام 1906م، وبعد ذلك عاد للاندماج مع الجمعية الأم، جمعية الاتحاد والترقي عام 1907م⁽¹⁾، إذ تلتقي معها في الهدف، وتتفق معها في أسلوب العمل السري التنظيمي للوصول إلى تلك الأهداف في إسقاط الخلافة وخلع عبد الحميد الثاني⁽²⁾، وكانت الفترة التي حكمت فيها جمعية الاتحاد والترقي، وهي ما يعادل 10/ سنوات، كان فيها مصطفى كمال⁽³⁾ يرتقي في السلك

(3) رامزور، تركيا الفتاة، ص 49-68

(4) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 33-34، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 101-302 وانظر: درويش، هدى، الإسلاميون وتركيا العلمانية، نموذج الإمام سليمان حلمي، نشر: دار الأفاق العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998م، ص 79-91.

(1) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 396، زين، نشوء القومية، ص 77

(2) رامزور، تركيا الفتاة، ص 123، نامي، عهد الفتح (الملحق عن مصطفى كمال)، ص 26-30

(3) هو مصطفى بن السيدة زبيدة، وينسب إلى رضا كآب له، لكن مؤلف كتاب الرجل الصنم ورضا نور، وهما من أعراف الناس به، يشكان في نسبته إليه، ويقدم مؤلف كتاب الرجل الصنم أدلة أنثروبولوجية وتاريخية وسلوكية لمصطفى كمال، تدل أنه من حيث شكله، ذو الشعر الأصفر والعينين الزرقاوتين، وصفات وجهه الناتئ والجبهة الواسعة والذقن المربع والرأس الأسطواني، يميل في هذه الصفات إلى النوع المسمى: سفال الذي لا يشبه جنساً من الأجناس التركية، وتؤكد هذه الأدلة أن انتسابه لعللي رضا مشكوك فيه إلى درجة الاستحالة، إضافة للأدلة الأخرى التاريخية والمسلكية والتي تشير إلى والدته بالشك والريبة؛! ويزيد هذا تأكيداً تقوه مصطفى كمال مرة أمام فالح رحمي أحد مرافقيه، وسجله هذا المرافق في كتابه جانقايا، وينقله مؤلف الرجل الصنم، يقول أنه سمع مصطفى كمال يتقوه مرة بأن علي رضا ليس والده، ويذكر رضا نور رفيق مصطفى كمال وأحد المقربين منه لفترة طويلة، أن محاضراً فرنسياً وهو الوزير الفرنسي هيديو ألقى محاضرتين عن تركيا في باريس ونشرهما في مجلة كونغرسيو، يقول فيهما: إن والد مصطفى كمال مجهول، ثم يقول رضا نور: إن موظف الجمرع علي رضا جاء إلى المدرسة الحربية ليزور ابن زوجته وابنه بالتبني مصطفى كمال، وأن هناك روايات كثيرة عن والد مصطفى كمال بعضهم يقول إنه بلغاري، وبعضهم يقول إنه صربي، وأن أمه زبيدة كانت عشيقة لكليهما، ويضيف رضا نور أن موسوعة لاروس القرن العشرين الحديثة تقول إنه بومافي من شعب البوماق، وأن كبار السن (العواجز) من أهل تساليا في اليونان يقولون: إن أم مصطفى كانت بغياً تعمل في بيت دعارة في سالنيك ويذهب مصطفى كمال إلى طرنوفا ويطلب الميراث، فيقولون له: إنه ابن حرام ويرجعونه من حيث أتى، ولد بسلانيك عام 1881م، ودخل المدرسة الحربية الإعدادية في سالنيك عام 1893م، وتوفي علي رضا في هذه الفترة، ويرى رضا نور ومؤلف كتاب الرجل الصنم أن تعدد الروايات سواء في العلم أو التاريخ حول مسألة واحدة يعني أنها غير صحيحة، ومعنى هذا أن مصطفى كمال حتى ولو لم يكن ابن زنا فلا أقل من أن يكون والده مجهولاً، أنهى مصطفى كمال في سنة 1895م دراسته الحربية الإعدادية، والتحق بالمدرسة الحربية العليا، وتخرج منها عام 1899م، ثم التحق بكلية

العسكري، ومهدت الطريق أمامه ليقوم بما قام به من خطوات لاحقة، كان فيها القضاء المبرم على عوامل الالتقاء بين العنصرين العربي والتركي في إطار الرابطة العثمانية القائمة على الجامعة الإسلامية، والتي رسخ قواعدها الخليفة عبد الحميد الثاني، وتمثلت تلك العوامل في الخلافة الإسلامية بالدرجة الأولى، ويأتي تبعاً لها بالدرجة الثانية مجموعة من العوامل الأخرى، وهي التشريعات والنظم الإسلامية التي كانت طوال عمر الدولة العثمانية، لا سيما في المدة التي ارتبطت فيها البلاد العربية بالدولة العثمانية بعلاقات إدارية وسياسية واجتماعية وثقافية وحضارية في ظل الشريعة الإسلامية، كانت منهاج حياة طبقها العثمانيون في جوانب الحياة كافة، وانطبعت بها الدولة العثمانية انطباعاً تاماً، وصارت السمّت العام الذي لازمها إلى أن قامت جماعة الاتحاد والترقي بالانقلاب على الخليفة عبد الحميد الثاني، فقضت على معالم هذه

استانبول الحربية وتخرج منها سنة 1902م، وتخرج من كلية أركان الحرب سنة 1905م ضابطاً، وخلال ذلك كانت السياسة والعمل السياسي يسريان في دمه، فألف في سنة 1906م جمعية الوطن وجمعية حريت التي دمجها بجمعية الاتحاد والترقي التي انتسب إليها قبل ذلك، وفي سنة 1907م رقي إلى رتبة رائد ونقل إلى الجيش الثالث، وشارك في حرب الجيش العثماني في سنة 1912م ضد الإيطاليين ثم انسحب هذا الجيش منهزماً من ليبيا، وفي سنة 1916م قاد الفيلق السادس عشر في أدرنة وركي إلى رتبة عميد، وفي سنة 1919م عين مفتشاً للجيش التاسع في أرضروم بسلطات واسعة، ثم انسحب واستقال من الجيش العثماني، وأعلن عصيانه لهذا الجيش، والتحق بما سمي حينذاك الحركة الوطنية التي عمت أنحاء البلاد التركية، ثم انتخب نائباً عن أرضروم فنائباً عن أنقرة في الجمعية الوطنية التابعة للسلطات الجديدة في أنقرة، وفي له عام 1920م انتخبه المجلس الوطني التأسيسي رئيساً له، ثم حكم عليه من قبل الحكومة العثمانية في استانبول في 11/ مايو أيار 1920م بالإعدام مع من حكم عليهم لخروجهم عن سلطة الدولة المركزية في استانبول، وفي سنة= 1921م أطلق عليه لقب غازي بعد معركة سقاريا التي انتصر فيها الجيش الذي ينتمي إلى الحركة الوطنية على اليونانيين لما نسب إليه أنه صاحب النصر الذي تحقق في هذه المعركة، وفي أول تشرين الثاني نوفمبر سنة 1922م قدم مشروعه لإلغاء السلطة العثمانية إلى الجمعية الوطنية ونال الموافقة عليه، وتوفيت والدته زبيدة خانم في إزمير في 14/ يناير كانون الثاني سنة 1923م، وتزوج من لطيفة خانم في 29 يناير كانون الثاني سنة 1923م، لكنها طلبت الطلاق منه وطلقها في 5/ أغسطس آب سنة 1925م جراء اتهامها له بالشذوذ الجنسي ورويتها له بذلك حسب رواية رضا نور، وفي 29/ أكتوبر تشرين الأول انتخب كأول رئيس للجمهورية التركية العلمانية، وفي 3 نيسان 1924م ألغى الخلافة الإسلامية، وقام بتحويل الدولة العثمانية الإسلامية إلى جمهورية علمانية، وأجرى تغييرات جذرية في كافة جوانب الحياة من النظم الإسلامية إلى الاتجاه الغربي، وفي سنة 1934م أطلقت عليه الجمعية الوطنية لقب أتاتورك (أبو الأتراك)، وثبتت هذا بتشريع دستوري، وتوفي في 10/ نوفمبر تشرين الثاني سنة 1938م بعد مرض عضال في الكبد، ونقل جثمانه في سنة 1953م إلى ضريح جديد شيد من أجله. انظر: أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك ص 246-250

- رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة/11/25/ أغسطس 1981م، ح 10، ص 47
- TOREL, SEDAT. ATATURK THE GREAT, THE CUMHURIYET SIVAS TURKEY, THE FIRST EDITION, 1981,P.11-12, 16-20
- قدرى، محمد علي، مصطفى كمال أتاتورك (محرر تركيا ومؤسس دولتها الحديثة)، دن، طبعة أولى، 1983، ص 7-11.

- الزين، مصطفى (سفير لبنان في تركيا بين 1982-1987م)، ذنب الأناضول، نشر: مكتب رياض الرّيس للنشر، طبعة أولى، قبرص، 1991م، ص 17-40.
- صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص 11-14، 48-56، 94، 116، 218، 233
- سومرسيت فراي، بلانتاجيت، 1000 شخصية عظيمة، ترجمة: مازن طليمات، نشر: دار طلاس، طبعة ثانية، دمشق، 1992، ص 352-353.
- خانجي، ترك وأتاتورك، ص 10-12

الدولة وغيرت وجهها الحضاري وحولتها إلى دولة إلحادية علمانية تحارب القيم الإسلامية، وتنشر الكفر والإلحاد، وتعمل بشكل مكثف على تقطيع أواصر الأخوة بين العرب والعثمانيين، وتتهج نهجاً عدائياً صريحاً ومقصوداً لمحاربة العرب في الدولة العثمانية، ولممارسة سياسة التتريك العدائية لكل شيء يتعلق بهم في الدولة ومؤسساتها، في مناهج التعليم والوزارات والمؤسسات ومرافق الدولة المختلفة، وقد أوعزوا إلى أحد أدعيائهم المسمى عبيد الله، فألف كتاباً سماه: قوم جديد، يقصد فيه: الاتحاديين، ويسمي المسلمين: القوم العتيق⁽¹⁾ ومن الشواهد على ما قاموا به ضد العلاقات العربية العثمانية، وضد كل ما هو عربي وإسلامي، يتحدث الزركلي عن إساءتهم لعلماء الشريعة واضطهادهم لهم خلال فترة حكمهم، واتباعهم خطة تغيير المناهج الدراسية المرتبطة بالحضارة والتراث الإسلامي العثماني، إلى العلوم الغربية القائمة على أسس لا دينية، وأن مصطفى كمال أتاتورك والموالين له اتبعوا المنهج السابق الذي بدأته جمعية الاتحاد والترقي قبله، في المجاهرة بالإلحاد ومحاربة القيم الإسلامية⁽²⁾، ويتحدث رضا نور أيضاً في مذكراته بفيض من الشواهد عن سياسة الاتحاديين هذه ضد كل ما هو إسلامي ويمت للعرب والإسلام بصلة، وهو العارف بهم، إذ كان يعمل معهم منتسباً إليهم، ثم عمل مع مصطفى كمال أتاتورك لفترة طويلة منذ بداية انشقاق مصطفى كمال وخروجه على سلطة الخلافة عام 1919م وحتى وفاته، ولهذا فهو يتحدث عن خبرة وتجربة، لكنه ومع انتقاداته الكثيرة لسياسة ونهج الاتحاديين في ممارسة السلطة، وتقطيعهم للعلاقات مع العرب، ثم إكمال أتاتورك ما بدأه في هذا السبيل، فإن رضا نور ينظر للعرب نظرة عدائية، مبنية على النعرة القومية الطورانية الضيقة، التي لا تقل عنصرية وعداءاً للعرب وتشنجاً منهم، عن عداء سائر زعماء الاتحاديين الطورانيين ومن جاء بعدهم ممن سُموا فيما بعد بالكماليين (تيار مصطفى كمال أتاتورك)، وهم في الحقيقة من الاتحاديين وامتداداً لهم، بل نخبة جديدة من غلاتهم ومتطرفيهم في العداء للعرب والإسلام، وفي التعصب للقومية الطورانية والعمل على أساسها⁽³⁾، وفي سياق الاستشهاد بما كتبه رضا نور يجدر الإشارة إلى تبدل موافقه بين الفترة التي عاد فيها إلى تركيا بعد سماح الاتحاديين له بالعودة، وبعد ذلك مشاركته في السلطة مع مصطفى كمال أتاتورك في حكومته كوزير لأكثر من مرة، وبين الفترة التي سبقت ذلك، وكان فيها منفياً من الاتحاديين يعيش في مصر، ويذكر داغر أثناء مقابلته لرضا نور في القاهرة هذا التحول في المواقف، فيقول: "وصل إلى القاهرة ذات يوم الدكتور رضا نور أحد زعماء المعارضة في مجلس المبعوثان العثماني قادماً من سويسرا... كانت علاقتي بالدكتور

(1) تمت مناقشة سياسة الاتحاديين التتريكية ضد العرب في بلاد الشام بشكل مفصل في الفصل الرابع من هذه الكتاب، فلترجع هناك.

(2) ذكر ذلك في معرض ترجمته للعلامة محمد زاهد الكوثري أحد علماء استانبول وإمام المذهب الحنفي في عصره، حيث اضطهده الاتحاديون ولاحقوه فهرب خوفاً أن يعدموه، وتقل بين مصر والشام وتوفي بالقاهرة سنة 1952

انظر: الزركلي، الأعلام، ج6، ص 129

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة 11/25/ أغسطس آب 1981م، ح 11، ص 47

رضا نور تزداد متانةً من يوم إلى يوم، وكنا نتبادل الأفكار بصراحة، وكان يشاركني في انتقاد الاتحاديين لسوء معاملتهم العرب ودخولهم الحرب.

ويؤكد لي أن السلطنة العثمانية إذا خرجت من الحرب سليمة، فلا بد لها من أن تتخذ النظام الفدرالي أساساً للعلاقات بين العرب والترك، كما هي الحالة بين النمسا والمجر، فقلت له: إن الاتحاديين قد لا يخرجون من هذه الحرب إلا بعد قطع كل علاقة لهم بالعرب، والقضاء على حياة كل عربي مفكر⁽²⁾ ويتابع داغر لينقل لنا اندهاشه من تغير رضا نور بعد عودته إلى تركيا وتغيير مواقفه حين صار في موقع السلطة عند أتاتورك فيقول: "ثم انتقلنا إلى الحديث عن خير أساس يمكن أن تقوم عليه العلاقات المقبلة بين العرب والترك إذا خرجت السلطنة العثمانية سالمة من الحرب، فقلت: إن خير أساس أراه لهذه العلاقات هو أن يكون لنا نظام كنظام النمسا والمجر، وأن تظل السلطنة مع الترك وتنتقل الخلافة إلى العرب، فما سمع الدكتور رضا مني هذا الكلام حتى صاح قائلاً بحدّة: هذا غير ممكن، هذا مستحيل، إن السلطنة بدون خلافة لا يمكنها أن تعيش، ونحن أحوج إلى الخلافة منا إلى السلطنة، وقد يستغرب القارئ إذا عرف أن الدكتور رضا نور هذا الذي نقلت حديثه هذا أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة وزيراً في الحكومة الكمالية، وكان هو صاحب الاقتراح القاضي بفصل الخلافة عن السلطنة، ثم بإلغاء الخلافة⁽¹⁾ ويحاول داغر أن يبرر لرضا نور ولجماعة مصطفى كمال أتاتورك جنوحهم الشديد في معاداة العرب الذي برز فيما بعد في عهد أتاتورك، وغلوهم في حمل القومية التركية وبناء الدولة التركية الجديدة على أساس علماني قومي طوراني شديد العداء للعرب والمسلمين، وهذا الموقف غير مستبعد من داغر، نظراً لأنه نصراني أولاً، ولكونه يحمل الفكر القومي العربي العلماني ثانياً، ولذلك فهو يؤيدهم في إلغاء الخلافة واستبدالها بالفكر القومي التركي المناقض لها، ويقول: "والترك الذين لم يستطيعوا أن يجنوا أقل فائدة من قوة الخلافة الأدبية، ولا من الرأي الإسلامي العام في أثناء الحرب العظمى، أدركوا بالتجربة أن القوة الوحيدة التي يمكن أن تستند إليها الدولة هي الوطنية الصادقة القائمة على أساس القومية"⁽²⁾ وما ذكره داغر عن رضا نور أنفاً يؤكد رضا نور بنفسه في كرهه للعرب وتأيبده لخطوات أتاتورك التي طرحها ونفذها ضد الخلافة، ولا أدل على ذلك من الاستشهاد بأقواله هو، يقول في مذكراته عن أعماله أثناء توليه وزارة الصحة تحت عنوان: أول ما فعلته في وزارة الصحة هو طرد غير الأتراك منها: "وبدأت بالعمل، وكان أول ما فعلته هو تطهير الوزارة من غير الأتراك، فقد أصدرت الأمر بعزل كل الأطباء التابعين للوزارة من الألبانيين والعرب واليهود... إلخ، كما فعلت تماماً وأنا وزيراً للمعارف"⁽³⁾

- درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص 79

(2) داغر، مذكراتي، ص 78-80

(1) داغر، مذكراتي، ص 81، وانظر: رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 570، السنة/11/13/ مايو.

أيار 1982م ح 40، ص 37

(2) داغر، مذكراتي ص 81

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 568، السنة: 27/13 نيسان إبريل 1982م، ح 38، ص 42

ويقول تحت عنوان واضح الدلالة على عدائه للعرب وتعصبه لطورانيته: خبز تركيا للأتراك وعلى العرب أكل خبزهم من بلادهم "وأنا وزير للصحة أتى من سورية طبيب فخرج من مدرستي الطبية، وكان ذهب إلى سورية ليعمل بها، ثم عاد إلى وطنه (بجنوب تركيا)، ربما كان في سورية منذ حركة استقلال العرب عنا، وربما اشترك في التمرد والذي قام به العرب ضدنا في الحرب العالمية الأولى، وعلى الفور أصدرتُ أمري بطرده خارج الحدود، إنه يخدم في سوريا ثم يأتيها يريد وظيفة؟! وجاء طبيب آخر من الشام ليعمل عندنا، في أضنة أيضاً، فأصدرتُ أمري إلى والي أضنة، قلت له: إن خبز تركيا خاص للأتراك.

وعلى العرب أن يأكلوا خبز بلادهم في بلادهم، وليس في بلادنا لقمة لمن هم على شاكلة الطبيب حلمي الدمشقي، هيا أسرع وخذ حلمي من يديه وألق به خارج الحدود، وقد فعل الوالي ما أمرته به ⁽¹⁾ ويروي رضا نور حادثة أخرى تدل على تعصبه الشديد وكرهه للعرب والعربية، وأنه كان يقف وراء كل ما شأنه الإساءة إلى العلاقات العربية العثمانية، ومحاربة كل الروابط التي تربط العرب بالأتراك، وذلك يوم كان وزيراً للمعارف في عهد مصطفى كمال أتاتورك، قبل أن يقوم مصطفى كمال بإحرااته التغييرية الجذرية في حملة المحاربة الشرسة لكل ما يمت إلى العروبة والإسلام بعد إلغاء الخلافة، يقول رضا نور: "وسريعاً أصدرتُ أمري بأن تكون المراسلات بلغة تركية صرفة، الشيء العجيب المثير للدهشة في هذا الأمر أن الجميع لم ينفذوا هذا الأمر، لا بد وأن يكتبوا بلغة تركية معقدة، أي يكتبون اللغة التركية التي تحوي في غالبيتها كلمات عربية، وكثير منها فارسية ⁽²⁾."

ارتكب الاتحاديون خلال فترة حكمهم كل الموبقات السياسية والأخلاقية، يقول رضا نور: "بمجرد إعلان المشروطية (1908م) أخذ رحمي وطلعت بك يفتتحان المحافل الماسونية، وسجلوا الكثيرين من الأتراك في هذه المحافل، وكان جزءاً هاماً من هؤلاء من الدونمة، وأصبح معنى الاتحاد والترقي يساوي معنى المحفل الماسوني ⁽³⁾ ثم يبين رضا نور أسباب سقوط الاتحاديين، بقوله: "لماذا سقط الاتحاديون؟ لماذا تشبثوا وانتهوا؟ لأن رجالهم حمقاء، حمقى وجهلة، كما أنهم كانوا لعبة في يد الدونمة واليهود، فمثلاً طلعت: أن رئيس مستشاري طلعت وأمين سره كان مستر سالم اليهودي، وأعز أصدقاء طلعت كان قراصو اليهودي، كان يستشيرهما في كل ما يفعل، وهذان اليهوديان كانا يتعاملان مع الفرنسيين والإيطاليين، واغتنى كلاهما غناءً فاحشاً ⁽⁴⁾ ويؤكد رضا نور أن الاتحاديين على سوءهم كانوا أرحم من مصطفى كمال أتاتورك وأعوانهم، يقول: "ومع كل ما فعله الاتحاديون من مساوئ إلا أنهم بالنسبة لمصطفى كمال (أتاتورك) رجال ممتازون جداً، ثرنا ضد السلاطين، لكن الحكم المشروطي (الدستوري) الذي جاء

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 568، السنة/13/27 نيسان، 1982، ح38، ص 42

(2) رضا نور، المذكرات مجلة المجتمع الكويتية، ع 549، السنة/11/3 نوفمبر تشرين الثاني، 1981م، ح19، ص 40

(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 532، السنة/11/9 يونيو حزيران، 1981م، ح3، ص 3

(1) رضا نور، المصدر السابق، ع 569، السنة/13/4 مايو أيار، 1982م، ح39، ص 37

به الاتحاديون جعلنا نفتقد عبد الحميد ونترحم على أيامه، وقاسينا منهم كثيراً، وإذا بمصطفى كمال يتخذ مكانه فوق رقابنا سيفاً مُسلطاً، عند ذلك قلنا: أه!! كم كان الاتحاديون وكم كانوا!!! كم هي مسكينة هذه الأمة؟! هذا قَدَرُنا فلنر ماذا سيكون من مصطفى كمال بعد ذلك!!!⁽²⁾.

وهكذا انتهى عهد الاتحاديين وجاء عهد مصطفى كمال أتاتورك الذي استكمل تقطيع كل الروابط التي كانت أسس وركائز العلاقات العربية الثقافية، فما هي شخصيته؟ وما أسباب تقطيعه للعلاقات العربية العثمانية؟ وما هي دوافعه للقيام بهذا الانقلاب الجذري؟ وما هي العوامل المؤثرة في ذلك؟! وكيف وصل إلى موقع القرار في الدولة العثمانية؟! ليتمكن من تنفيذ ما نفذ من إجراءات تركت آثارها الهامة والخطيرة على الأمة الإسلامية بأكملها عامة، وعلى العرب والأتراك وعلاقتهم ببعض بشكل خاص.

ابتدأ مصطفى كمال نشاطه السياسي وهو طالب في المدرسة العسكرية الابتدائية، وكان يعرف حينذاك مصطفى، لكن أستاذه الذي يحمل الاسم نفسه، أضاف إلى اسم طالبه مصطفى كلمة أخرى "كمال" كي لا يلتبس الاسم على السامع، من المراد به؟ فالحق باسمه كلمة كمال لتكون الفارق بين الاسمين، ومنذ ذلك الحين صار يعرف بمصطفى كمال، وظهرت عليه بوادر الاشتغال بالسياسة وهو طالب في المدرسة الحربية، وتدرج مصطفى كمال في الرتب العسكرية حتى تخرج عام 1905م من كلية أركان الحرب برتبة يوزباشي⁽¹⁾، وشارك في الحرب العالمية الأولى على أكثر من جبهة وإلى حين خسارة الدولة العثمانية وهزيمتها، فانسحب الاتحاديون من الحكم بعد أن بلغ كره الشعب لهم في أنحاء الأناضول التي معظم سكانها من العنصر التركي حداً كبيراً جداً لما عرف عنهم من إلحاد وكفر وتقتيل للناس وتسلبهم على رقابهم⁽²⁾، ووصلت حالة البلاد إلى حافة الهاوية بعد أن احتلت القوات الفرنسية والانكليزية وغيرهما من قوات الحلفاء استانبول وأجزاء البلاد الأخرى ومواقعها الاستراتيجية، وصارت الحكومة في استانبول تحت احتلال الانكليز، وجمع السلاح من الأهالي ومن الجيش العثماني⁽³⁾، الأمر الذي فجّر روح الغضب وأثار كوامن نفوس الشعب التركي المسلم، حين أحس بانتهاك حرمانته وتدنيس كرامته، وشعر بالإذلال المتعمد له من جيوش الحلفاء، وفي هذا يقول رضا نور: وعندما احتلت القوات اليونانية إزمير، شكل بعض الوطنيين في مناطق إزمير الجمعيات واستعدوا للمقاومة، لم يحتمل ديميرجي أفه (أحد الوطنيين) اعتداء اليونانيين على أعراض النساء التركيات، فصعدو إلى الجبل ليقوم بحركة المقاومة، انتقاماً من اليونانيين، كان يقتل في اليونانيين ويذبح فيها ذباً كلما سنحت له الفرصة... بدأ الشعب في عملية تلاحم ذاتي بدافع الخطر... كَوَّن الأهالي جمعيات عديدة منها جمعية للدفاع عن حقوق الولايات الشرقية، وأخذوا

(2) رضا نور، المصدر نفسه، ع534، السنة/30/11 يونيو حزيران، 1981، ح5، ص39

(1) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 18-22، نامي، عهد الفتاح، الملحق، ص 26-30

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 532، السنة/9/11 يونيو حزيران 1981، ح3، ص38

(3) وكذا: ع 533/ السنة/16/11 يونيو حزيران 1981، م ح4، ص 38

يعدون لمؤتمر سياسي في أروم، كما أن أهالي طرابزون قاموا بدورهم بتشكيل جمعيتين باسم جمعية الحفاظ على الحقوق، وجمعية تركيا باشا إيلي للدفاع عن قضيتهم، وأخذوا يفكرون في إنقاذ البلاد⁽⁴⁾، وحتى هذه المرحلة لم يفكر مصطفى كمال أن يخرج على سلطة الخلافة، على الرغم من وقوع السلطان وحكومته تحت تأثير الإنكليز الذين يسيطرون على كل شيء في استانبول، وكانت الحركة الوطنية قد أخذت تتبلور في الأناضول كردة فعل من الشعب التركي المسلم ضد الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين واليونان الذين يحتلون البلاد، ومصطفى كمال يفكر في البقاء في العاصمة استانبول للوصول إلى طموحه، كي يصبح قائداً عسكرياً لمنطقة استانبول، لينتقم من الخليفة محمد وحيد الدين (محمد الخامس) بعد أن غضب منه لعدم تلبية بعض مطالبه، ومنها أراد الزواج من ابنته فرفض الخليفة⁽¹⁾، يقول رضا نور في هذا: "ضاق السلطان وحيد الدين بمصطفى كمال، فقرر أن يطرده، لم يعد يحتمله، قال وحيد الدين: ليخرج من استانبول وليذهب أينما يريد الذهاب، صدر قرار تعيينه مفتشاً للجيش في منطقة أماسيا، ولأن الضباط يعرفون طبيعته تمام المعرفة فإن وزارة الحربية رفضت هذا التعيين، أما السلطان وحيد الدين أصر، فتم تعيين مصطفى كمال لمنصبه الجديد، وبهذه الصورة من الطرد والإبعاد يخرج مصطفى كمال من استانبول، معنى هذا أنه لم يأت برغبته للاشتراك في الحركة الوطنية في الأناضول ضد المستعمر، لقد مضى زمن طويل من الهدنة (هدنة مودرس) وحتى تاريخ نقله إلى سمسون، كانت الحركة الوطنية قد قامت في كل مكان معنى هذا أنه لم يكن عاملاً في الحركة الوطنية، والآن لا أدري كيف ينسب هذا الرجل كل هذا الشرف لنفسه؟ في الوقت الذي ما زال فيه على قيد الحياة الآلاف من شهود هذه الحركة الوطنية والمؤثرون فيها، إن مصطفى كمال قد شق كل الناس وذبحهم وكم كل الأفواه وأخذ يمدح نفسه ويكذب كيفما أراد، وبالطبع لن يعترض عليه أحد، هناك رجال عملوا في سبيل الحركة الوطنية وتحرير الأمة بعد أن ضحوا بأرواحهم، ثم يأتي فرد لا يذكرهم لا بخير ولا بشر، ثم ينسب لنفسه هو فقط كل الشرف الذي حققه هؤلاء الرجال بدمائهم وأرواحهم، نسب الشرف إلى نفسه في حين أنه لم يبذل فيها قطرة دم واحدة"⁽²⁾.

إذاً هذه هي نقطة البداية التي بدأ فيها مصطفى كمال يستجمع الخيوط ويعد العدة للانقضاض على السلطة، وركب موجة الحركة الوطنية التي عمت كافة أنحاء البلاد لإخراج الأعداء المحتلين، وتمتد هذه الفترة المضطربة التي يعمل فيها الوطنيون الأتراك لتخليص بلادهم منذ عام 1919م وحتى نهاية عام 1923م، حيث استطاع الشعب التركي المسلم بتضحياته وبذله لخيرة أبنائه من الجنود والضباط والمتطوعين

(4) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة/11/25/ أغسطس آب 1981م، ج 10، ص 46
(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 557، السنة/11/19 يناير كانون ثاني 1982م، ح 19، ص 38-39 - غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 26
(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 541، السنة/11/11/سبتمبر أيلول 1981م، ح 11، ص 38-39

الغيارى من طرد القوات اليونانية من إزمير وغيرها من المناطق التي احتلتها في 10 سبتمبر/ أيلول 1922م، وطرد الانكليز والفرنسيين من استانبول والمناطق الأخرى التي سيطرت عليها، وتعد هذه الفترة مجاًلاً خصباً ليشيد مصطفى كمال لنفسه الأمجاد ولينسب إليها الشرف العظيم والأعمال البطولية التي برز من خلالها⁽¹⁾، وكتب عنه الكثيرون الكتب والمؤلفات الكثيرة، وأطلق عليه الألقاب كالغازي (المجاهد)، وأتاتورك (أبو الأتراك) وغيرها من الصفات التي حظي بها من خلال الأعمال الجليلة التي نسبها لنفسه وحصل عليها بالأساليب والوسائل المختلفة، والتي نسبت إليه في مجملها من غير استحقاق لها لعدم قيامه بها، ولا يمكن قبول ما يقال عنه في هذا الصدد أو التسليم به لو لم يكن صادراً عن شهود عيان، عاصروه في تلك المرحلة عن قرب وشهدوا بما علموا وما رأوا بأنفسهم⁽²⁾، وما يرويه عنه كتاب أو مؤلفون آخرون من أعمال عظيمة، وما يصفونه به من ألقاب⁽³⁾، إنما استمدوه من الكتابات التي نشرها صنائع مصطفى كمال⁽⁴⁾، وبعضها يعتمد على مذكراته الشخصية التي كتبها بنفسه، وعلى خطابه التي يروي فيها الأحداث من وجهة نظره الشخصية، وهي بالتأكيد رواية متحيزة، يعزو فيها لنفسه ما يرى فيه البطولة والمجد والشرف، وهو ما أكده رضا نور في أكثر من موطن من مذكراته⁽¹⁾ ورضا نور كان من المؤيدين لمصطفى كمال أتاتورك، وروايته للأحداث تتسم بالواقعية والموضوعية، وهي رواية يغلب عليها التجرد والحيادية، لأنه من صانعي الأحداث وكان ملحداً يشارك أتاتورك فجوره وشربه للخمر باعتزافه⁽²⁾، لذا فإن معرفة شخصية مصطفى كمال تحل كثيراً من الإشكالات التي تعترض المتابع للأحداث، وتجيب على التساؤلات التي تطرأ من

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع566، السنة/13/13/ إبريل نيسان 1982م، ح36، ص37، و: ع542، السنة/11/8 سبتمبر أيلول 1981م، ح12، ص39

وانظر: آر مسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص164-175، ضابط سابق، الرجل الصنم، ص212-219، 225، 246-250

(2) كالذي يرويه رضا نور أقرب المقربين من مصطفى كمال وأكثر الموالين له خلال فترة الكفاح الوطني حتى إعلان الجمهورية، ثم بعد ذلك إلى أن توفي مصطفى كمال، والذي يرويه أيضاً الضابط السابق في الجيش التركي خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، والذي شهد الأحداث التي مرت في هذه الفترة بنفسه، ورواها كما وقعت، ونشرها بعد انقضاء عهد أتاتورك، وسمي كتابه الرجل الصنم رداً على الكتاب الذي كتبه أحد الموالين لأتاتورك هو شوكت ثريا، الذي كتب كتابه عن أتاتورك بعنوان: الرجل الأوحـد.

انظر: ضابط سابق، الرجل الصنم، ص38، 15

(3) انظر: قدرى، مصطفى كمال، ص7-12، 23، 18، صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص94-121، 229 فما بعد، الزين ذنب الأناضول، ص41-43، 89-171، مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص301-304

(4) يورد مؤلف كتاب الرجل الصنم أسماء اثنين من أعوان مصطفى كمال الموالين له، اللذين كتباً عنه كتابين، يبرزان فيهما كل ما يرزى أتاتورك ويمجده ويدافع عنه، وخاصة دوره في معارك طرد المحتلين من تركيا، وهذان المؤلفان هما: شوكت ثريا أيديمير، وعنوان كتابه: الرجل الأوحـد، وفالح رحمي، وعنوان كتابه: جانقايا، الذي لازم مصطفى كمال ولم يفارقه، ودون فيه مذكرات مصطفى كمال، أملاها عليه بنفسه.

انظر: ضابط سابق، الرجل الصنم، ص34، 37

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع536، السنة/11/14 يوليو تموز، 1981م ح7، ص48، ع542، السنة/11/8 سبتمبر أيلول، 1981م، ح12، ص39، ع566، السنة/13/13 إبريل نيسان، 1982م، ح36، ص37

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع560، السنة/11/9 فبراير شباط 1982م، ح30، ص35

وكذا: ع530، السنة/11/26 مايو أيار، 1981م، ح1، ص38-39

خلال سرد ما جرى في الفترة التي لمع فيها نجم مصطفى كمال منذ عام 1919م، وحتى عام 1924م حيث ألغى الخلافة، وأعلن الجمهورية التركية الحديثة على أنقاضها، وهي الفترة التي تهم البحث من حياة أتاتورك، لما لها من تأثير على العلاقات العربية العثمانية، ذلك أن مصطفى كمال اتصف بصفات يمكن من خلال التعرف عليها تفسير عدائه للعرب والمسلمين، واكتشاف سبب إخراج تركيا من جلدتها، وهو تاريخها المرتبط بالإسلام، والذي كان في جزء مهم منه مرتبط بالعرب عند نقطة الالتقاء الجوهرية وهي الخلافة الإسلامية وما ينبثق عنها فيما عرف بالرابطة العثمانية.

2- جوانب شخصية مصطفى كمال أتاتورك.

إن شخصية مصطفى كمال أتاتورك متعددة الجوانب، وهذه الجوانب بمجموعها هي صفات غير عادية، جعلت منه شخصاً يختلف عن أقرانه من حيث الذكاء والسلوك والتصرفات، ولا يعد ذكاؤه من الذكاء غير العادي، لكنه من الناس الذين يطلق عليهم أنهم أذكاء، وهو خبير وذو دراية واسعة بتدبير المؤامرات، وأحياناً يثير الإعجاب في مدى إتقانه للمؤامرات وفي سرعة حركته⁽³⁾، لهذا فإن الكشف عن أبرز جوانب شخصيته يعين على معرفة دوافعه لإلغاء السلطنة ثم الخلافة، وحربه الشرسة ضد كل ما يتعلق بالروابط التي تربط الأتراك في الفترة التي عاش فيها وما تلاها، بحضارتهم وتاريخهم ومجدهم العثماني المشترك مع العرب والإسلام، إذ لم يقدّر بعمله ذاك لولا قابليته وتربيته ونشأته، واستعداده النفسي والخُلقي والاجتماعي لأداء هذا الدور، انسجاماً مع شخصيته ذات الجوانب المتعددة، والتي تركت بصماتها وآثارها ونتائجها الهامة والخطيرة على تركيا في المستقبل، وعلى الأمة الإسلامية بشكل عام، وأهم تلك الجوانب:

أ- أن مصطفى كمال يحمل عقدة النقص والرغبة في الانتقام جراء حياة اليتيم والتشرد التي عاشها في طفولته، والتي لم يكن يعرف فيها أباه، مما ولّد فيه الكراهية والحقد، وهما صفتان تشكّلان خللاً في الشخصية يلزمها طوال الحياة، وهذه الصفة تحدث عنها رضا نور في مذكراته، وكذلك مؤلف كتاب الرجل الصنم، يقول رضا نور: "بناءً على دراستي شخصياً أنه لا شك أن المدعو علي رضا موظف الجمر ك هو زوج أم مصطفى كمال وليس والده، فكما أن مصطفى كمال لم يتحدث عن أبيه، فإنه كان يتحول إلى عدو إذا سمع أحداً يتناول بالحديث والده والاستفسار عنه"⁽¹⁾.

ب- إن مصطفى كمال أتاتورك شخص مغرور يحب أن يمدح في كل شيء، وأن تنسب إليه كل المفاخر والانتصارات والأعمال البارعة، وللتدليل على هذا يورد رضا نور سילاً من الشواهد في مذكراته تؤيد هذا، وتؤكد على انتهازية مصطفى كمال

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 529، السنة/19/11/1981م، ح أ قبل (1)، ص 40

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة/25/11/1981م، ح 10، ص 47

وانظر: ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 48، 50-52

وغروره وحبه لذاته، ورغبته أن يمدح بأعظم الصفات وأن تنسب إليه كل الأمجاد والانتصارات والمزايا التي لا يشاركه فيها سواه، وما يورده رضا نور إنما هو نتاج تجربة طويلة مع مصطفى كمال وأحداث عديدة في مواقف ومناسبات كثيرة، يقول رضا نور: "حدثت انتخابات مجلس المبعوثان في استانبول، وبذلك ينتقل مركز الثقل في الحركة إلى استانبول، مصطفى كمال لا يستطيع الصبر، لا يمكنه أن يصبر في سيسواس، يذهب إلى أنقرة، ويلفه الهوس في أن يصبح رئيساً للمجلس النيابي الذي في استانبول، لكنه يخاف أن يُقبَضَ عليه في استانبول، فيحصل على وعد من علي فؤاد أن يقوم بحمايته، يتجه مصطفى كمال بعد ذلك إلى أنقرة، أول ما عمله كان دعوته للنواب للحضور إلى أنقرة للتباحث أنه يقول: ألا يجب على النواب أن يلتقوا بزعيمهم؟! كم نائب يثق بك يا رجل؟!!!" (1) ويقول: "أخذ مصطفى كمال في التوقيع على الرسائل والتخاير الخاص بالحركة الوطنية وكأنه كل شيء، تسبب هذه المسألة الكثير من النزاعات والاعتراضات الطويلة، الاعتراضات تصل من كل مكان، لكن كل هذه الاعتراضات عنده تساوي صفراً، كل ما تطلبه حكومة استانبول (الشرعية) أن يكون مصطفى كمال عوناً لها، وألا يتدخل في كل شؤونها كبيرة كانت أم صغيرة وكأنه السلطان!! وألا يأتي بأعمال غير مشروعة، أما مصطفى كمال فيريد أن يكون المرجع العام والخاص في كل الأمور، وأن يتلقى وزراء استانبول الأمر منه" (2) ويقول رضا نور: "وفي المجلس وبين ما يقرب عشرين وثلاثين نائباً، قال لي مصطفى كمال: حسناً وأنت أيضاً لا بد أن تأخذ موقفاً في الوزارة، وكان يظن أنني قد قلت ما قلته في خطابي بهدف انتزاع منصب، لأنه يفعل كل ما يفعله في سبيل تمكنه من المناصب، ضحكْتُ وقلت له: ليس لي هوس بالمناصب" (3) ويقول: "لقد انتهى كل شيء بالفعل، وليس معنا شيء اسمه الجيش، ومصطفى كمال فعلاً لا يريد أن يكون القائد العام، لأنه يعلم أن الهزيمة محققة، ولو أصبح القائد العام فهزيمته مؤكدة، وهو تعود أن يكون وراء الستار ويلعب بدميته فوزي وعصمت، إذا كان أمامه عمل ذو مسؤولية فإنه يحيله إليهما، فإذا كان الشرف فإنه يخصص به نفسه، ومن على منصة رئاسة مجلس النواب أخذ يشتمني ويهددني ويكيل لي السباب، وغضب وهاج وماج وقال: إن الهزيمة مؤكدة، وأنت تريدني أن أصبح القائد العام لكي تنزل من قدرتي ويذهب شرفي، وقع هذا الكلام عليّ وقع الصاعقة، كدت أن أجنّ، شرف!! هل نسي هذا الرجل أنه هزم في سوريا، نظرت إليه وإذا بي أجده قد تحول إلى كلب مسعور، أمر عثمان طوبال بأن يأتي بحرسه إلى المجلس، فقد كان يثق فيهم، وأخذ يهدد بهم المجلس بشكل إيمائي، وكثير من هؤلاء يوجد في ممر المجلس، ... نحاول معه ثلاثة أيام ليوافق على منصب القائد العام وهو يرفض، ثم وجد نفسه أنه لا مفر، وجد أن المجلس مُصرٌّ، وإذا واصل الرفض فإن شخصيته ستنتهار، وأخذ الأعضاء يقفون

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 545، السنة/29/11/1981م، ح 15، ص 39

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 544، السنة/22/11/1981م، ح 14، ص 39

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 566، السنة/13/13/1982م، ح 36، ص 37

موقفاً واضحاً، تقدم رسمياً بالاقتراح الآتي للمجلس: إذا أعطاني المجلس كل الصلاحيات التشريعية والتنفيذية فأني أقبل أن أكون قائداً عاماً... أهذه أشياء تطلب؟ إن هذا شيء فظيع، وظيفة القائد العام للجبهة لا تحتاج لكل هذه المطالب!! لكن معنى طلبه هذا أن في ضميره شيء!! لا أحد يدري فيما يفكر، أريد أن يصبح مستبداً فظيعاً ويذيق الأمة من ويلات استبداده، سيشرع قوانين خاصة له وسيشنق هنا ويقتل هناك؟؟! أو هناك احتمال آخر، هو أنه يعلم أن المجلس حسّاس وغيور على صلاحياته ولن يفرط فيها، وبالتالي فسيتخلص من مهمة القائد العام الموكلة إليه، أو في حالة موافقة المجلس على إعطائه هذه الصلاحيات سيقضي علينا بعد ذلك، وسيفني كل المعارضين له، وسيحاكم بها من يريد أن يحاكمه، لا يوجد في التاريخ إلا مثال واحد لهذا، وهو: يوليوس قيصر، أخذ من مجلس الشيوخ في روما جزءاً من صلاحياته، وجعلهم يعترفون به بأنه نصف إله، وهذا يشبه ذلك!! ما يطلبه عمل وخيم العقبة، لكن لا بد أن نعطي هذا الرجل ما يريد، ويكفي أنه سيبعد اليونانيين عنا، وأعطاه المجلس الصلاحيات التي أرادها " (1) ويقول تحت عنوان مصطفى كمال يكذب في الميثاق: " في العام الماضي ألقى مصطفى كمال خطبة استمرت ستة أيام في البرلمان، وأجبر صنائعه هؤلاء الذين عملهم نواباً يستمعون إليه طيلة هذه الأيام الستة، وأمر بطبع خمسين ألف نسخة من هذا الخطاب على حساب الدولة، معي منها نسخة، كثيراً من المسائل كتبها خطأ، وكثيراً من الوقائع تغافل عنها، وفي كل سطر يظهر نفسه بأنه هو فقط الذي صنع كل شيء، وطبع في هذا الكتاب الوثائق التي تكون في مصلحته فقط، ولم يضع فيه ما لا يتفق مع مصالحه من وثائق، ويتضح من قراءة هذا الكتاب أن هذا الرجل يغالط الأحداث ويبدلها بحيث تكون في صالحه، إن له جرأة في تزييف التاريخ، وبناءً على هذا فأني وأنا أكتب هذه المذكرات أضع أمامي نسخة من هذا الخطاب لكي أصح ما جاء مزيفاً فيه " (2).

ويقول تحت عنوان: مصطفى كمال يركب الحركة الشعبية: " قبل فترة من انتقال مصطفى كمال من استانبول إلى الأناضول، لحق بأخر جلسة لمؤتمر أرضروم (الذي كونه الشعب لمحاربة جيوش الاحتلال الأوروبية للدولة العثمانية) بذل كل ما في وسعه، رغم معارضة أعضاء المؤتمر، لأن يصبح رئيساً للمؤتمر، وعاد إلى سيواس، وهناك بذل كل مساعيه لكي يسيطر على الولاية ويضعهم إلى صفه، وأن تجري الانتخابات حسب رغبته الشخصية " (3)، ويقول تحت عنوان: حملة من جبرت الطاغية: " انسحب اليونانيون من تركيا الشرقية، وأرسلنا نحن قوة جاندرما (شرطة) مكونة من ثمانية آلاف شخص، أعقب ذلك حملة من تجبر وتسلط وتحكم مصطفى كمال، فهو في إزمير يقوم بالأعمال الدبلوماسية ويتخذ القرارات ويأمر بتنفيذها، ما هذا الاستبداد؟! "

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 566، السنة/13/13/ إبريل نيسان، 1982م، ح 36، ص 37
(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 538، السنة/11/11/ أغسطس اب، 1981م، ح 9، ص 38-39
(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 535، السنة/7/11/ يوليو تموز، 1981م، ح 6، ص 39
ولمزيد من الأمثلة: انظر: ع 536، السنة: 14/11/ تموز يوليو، 1981، ح 7، ص 48، ع 546، السنة/6/11/ أكتوبر تشرين أول 1981م، ح 16، ص 38-39

وكان لا وجود لمجلس الأمة، وكان لا بد أن يغضب مجلس الوزراء، قام مجلس الوزراء بإبلاغ مصطفى كمال بأن مهمته العسكرية قد انتهت، وأن وظيفته السياسية قد آلت إلى الحكومة، وأنه يجب حضوره إلى أنقرة، لكنه يدير تركيا كأنها مزرعته الخاصة، خاصة بعد معاهدة لوزان، فقد تمادى في هذا، ووضع الوزراء ونواب الأمة والموظفين والشعب أيضاً، وضعهم في مقام الحيوانات المستأنسة⁽³⁾.

ج- علاقة مصطفى كمال بالانكليز والروس، وتأثير ذلك على انقلابه الجذري ضد الخلافة العثمانية: يؤكد رضا نور في مذكراته من خلال أمثلة يقدمها أن علاقة مصطفى كمال بالروس والانكليز تذهب إلى أكثر من الصداقة والعلاقة العادية، ويؤيد هذا ما ذهب إليه مؤلف كتاب الرجل الصنم أيضاً، على الرغم من أن شخصاً ذا ملكات وإمكانات مميزة لمصطفى كمال استطاع أن يبرز فيها على الساحة السياسية والعسكرية في ظروف استثنائية، قد تكون علاقات تلك طبيعية لا تتعدى الاستفادة منها وتوظيفها في خدمة قضيتيه الوطنية التي كانت الهاجس الأول والشاغل الأوحد لقادة الحركة الوطنية الذين قادوا الشعب التركي المسلم في جهاده للتخلص من نتائج الحرب العالمية الأولى، التي خسرت فيها الدولة العثمانية وقسمت أراضيها، واحتل الحلفاء عاصمتها استانبول وكافة مدنها وقراها ومواقعها الاستراتيجية، والحق يقال إنه لولا اليقظة والصحة التي هب فيها الشعب المسلم في تركيا لطرد المحتلين، لأصبحت الأراضي التركية من بين الأجزاء الأخرى التي احتلها الحلفاء واستعمروها، وقسمها الانكليز والفرنسيون والإيطاليون واليونان، لكن معارك التحرير التي خاضها الجيش الذي تكون في أنقرة من فلول الجيش العثماني، وكان مصطفى كمال من قادته، حيث استطاع الانسحاب من استانبول التي تخضع فيها حكومة الخليفة حينذاك لإرادة الانكليز المحتلين، والتحول إلى أنقرة وإدارة الحركة الوطنية بطريقة وصفها رضا نور في الصفحات السابقة بأنها ركوب موجة الحركة الوطنية، وتدل تصرفات مصطفى كمال وأخلاقه وسلوكياته على أن سيره في ركاب تلك الحركة، وفي خضم التعقيدات والتدخلات في العلاقات السياسية والعسكرية المتشابكة على أرض الواقع، أن علاقاته مع الروس والانكليز لم تكن مجرد علاقات سياسية وعسكرية بحتة، تم توظيفها للوصول إلى الاستقلال وتكوين الدولة الجديدة، بل يذهب رضا نور وهو المشارك لمصطفى كمال ولثلاثة القليلة الذين معه من قادة الحركة الوطنية في صنع الأحداث وفي قيادة هذه الحركة، أن مصطفى كمال له مداخلات مع الروس والانكليز تذهب إلى أبعد من علاقات سياسية عادية، خاصة وأن هاتين الدولتين عملتا مع فرنسا ودول الحلفاء الأخرى على تقسيم الدولة العثمانية وتقسيم أوصالها فيما بينهم، ويدعم ما ذهب إليه رضا نور كذلك مؤلف كتاب الرجل الصنم الذي كان ضابطاً كبيراً في الجيش العثماني حينذاك، وشهد تلك الأحداث بنفسه، لهذا فإن ما يتم إيراده هنا إنما يعتمد على هذين المصدرين، وبذكران فيه ما يشير بأصبع الاتهام إلى مصطفى كمال أتاتورك في قيامه بأخطر عمل في التاريخ الحديث، وهو إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة العثماني إلى خارج الحدود، والقيام بسلسلة من الإجراءات

(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 570، السنة 13/11/1982، أيار، 1982م، ح 40، ص 36

غيرت وجه تركيا الحضاري كما سيأتي بعد قليل، ولم يكن ذلك عفويًا، بل كان عن تخطيط دقيق، وعمل محكم قام به مصطفى كمال أتاتورك بالتفاهم مع بريطانيا وروسيا كما يقول رضا نور مؤلف الرجل الصنم، مستندين إلى جملة من الوقائع والأحداث تأتي كشواهد تثبت ما ذهبوا إليه من ذلك.

- علاقة مصطفى كمال بالروس: ينظر رضا نور إلى الانكليز نظرة إعجاب وانبهار شديدين، ولعل مصطفى كمال قد لاحظ عليه هذا فجعله من أركان الوفد المفاوض للانكليز في لوزان، ويعرب رضا نور عن هذا الإعجاب الذي يذكره في سياق حديثه عن مقارنة صداقته وحبه للانكليز بصداقة مصطفى كمال لهم وعلاقته الحميمة معهم ومع الروس، يقول رضا نور في معرض حديثه عن مباحثاته مع الانكليز في لوزان: استدعاني كيرزون (رئيس وفد بريطانيا في لوزان) ذات يوم، كل مشكلتي تتحصر في اكتساب صداقة الانكليز، وإني مقتنع جداً بأن حياة تركيا وسعادتها لن تكون إلا بهذا، صداقتنا مع الروس شيء مؤقت، وجدت عند الروس أن فكرة الاستيلاء على تركيا ما زالت تراودهم، إن سياستهم هي التوافق مع الانكليز، وبغير الصداقة الروسية الانكليزية لم يستطع الروس العيش في سلام، إلا أن مصطفى كمال له ارتباطات خاصة بالروس، وهذه مشكلة⁽¹⁾.

ويقول: "في أنقرة موظفون روس يعيشون فيها منذ فترة طويلة، لماذا يقيم معهم علاقات وطيدة ويلتقي بهم كثيراً؟! ولماذا يوجد معهم دائماً نساء روسيات، يقال إنه يشرب معهم الخمر في منزلهم حتى الصباح، في هذه الأثناء يأخذ هؤلاء الروس في تلقين مصطفى كمال ما يريدون، ويعملون على كسبه لمقاصدهم، يقدمون إليه هؤلاء النساء، يشربون معه ويسرقون الوثائق من جيبه"⁽²⁾.

ويشير رضا نور أن الروس استغلوا انسياق مصطفى كمال وراءهم، فأوهموه بأنهم شكلوا جيشاً سموه الجيش الأخضر من الأتراك والتتار الموجودين في نطاق روسيا، ليرسلوه إلى تركيا ليساعد الأتراك في طرد جيوش الحلفاء من بلادهم، لكن الروس لعبوا على مصطفى كمال بذلك، حيث قصدوا أن تسهل لهم هذه الأكذوبة احتلالهم لأذربيجان المسلمة بمعاونة مصطفى كمال الذي توسط لدى أهالي أذربيجان لتسهيل مرور جيش روسيا المسمى الجيش الأخضر في أراضيهم ليصل إلى تركيا، وهي أكذوبة ساعدهم على تحقيقها مصطفى كمال⁽³⁾.

ويوضح رضا نور هذه المسألة في مكان آخر من مذكراته قائلاً: إن مصطفى كمال هو السبب في احتلال روسيا لأذربيجان المسلمة "الأذريون يشكون مُرَّ الشكوى من شيء عندما يتحدثون عنه بيكونا!! قائلين: أنتم أوجدتمونا ثم قتلتمونا!! يوضحون هذا قائلين: جاءنا الجيش التركي فيما مضى وأعطانا استقلالنا، ثم قال لنا

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 572، السنة/13/25 مايو/أيار، 1982، ح 42، ص 36

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 522، السنة/11/15 ديسمبر كانون أول 1981م، ح 22، ص 37

(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 544، السنة/11/22 سبتمبر، أيلول، 1981م، ح 14، ص 38

خليل باشا (عم أنور باشا): إن روسيا تريد أن تعبر من بلادنا لتساعد تركيا في محنتها، وتركيا ترجونا في هذا، خدعنا وأدخل الروس إلى بلادنا دون دفاع منا، وكان لدينا جيش، كنا سندافع عن بلادنا، لم يجعلنا نفعل هذا، وهكذا دخلنا تحت نير الروس مرة أخرى، إن هذا شيئاً مفاجئاً، إنها خيانة وطنية كبرى... وصل الروس إلى دميرخان شوري (مدينة أذربيجانية) أرسلوا خليل باشا إلى باكو (عاصمة أذربيجان)، كان لدى الأذريين جيشهم وجنراليتهم، اتخذوا وسائل الدفاع، اجتمع مجلس نوابهم في جلسة غير عادية، وصل خليل باشا إلى مجلس نواب أذربيجان وهو منعقد، قال لهم: لا تدافعوا، لم يأت الروس هنا ليقبوا، إنهم يرسلون جيشاً لمساعدة إخوانكم في تركيا، هذا الجيش سيعبر من هنا، كتب لي مصطفى كمال باشا بهذا، قال لي مصطفى كمال: عليكم ألا تدافعوا، حدثت مناقشات حادة طويلة وبعدها اتخذوا هذا القرار: ما دام هذا الجيش الروسي لإخواننا في الأناضول بتركيا، فليعبر من أراضيها، ولنرض بالقضاء والقدر... جاءني خليل باشا طلب مني مكاناً في جناح النواب في القطار... قلت له: إن الأذريين يلعنونك قال لي: أووه... أنا لم أفعل هذا من تلقاء نفسي، إن مصطفى كمال أمرني بهذا وأنا نفذت. قلت له: لم يكن هذا صحيحاً!!، قال بل صحيح!! قلت له: إذا بأي شيء تثبت هذا!!؟ قال: إنني احتفظ ببرقياته في هذا الصدد... كانت رغبة مصطفى كمال إعلان تركيا دولةً شيوعية... يعني هذا أن مصطفى كمال هو الذي دفع الروس لاحتلال باكو، ... يعني هذا إن الفاعل الأصلي في الخيانة التي حلت بأذربيجان هو مصطفى كمال، وكاد يقتل تركيا لو لم أقف مانعاً إعلان البلشفية في تركيا... إن الذي عجز عنه قياصرة روسيا وهو الاستيلاء على الأناضول بقوة المدافع والبنادق، كان سيحدث عن طريق مصطفى كمال وسفالتة، كانت روسيا ستستولي على الأناضول بسهولة، الأمر هنا وخيم لأنه يقوم بدور عميل هام، هكذا دون إخبار الحكومة والمجلس به⁽¹⁾.

- علاقة مصطفى كمال بالانكليز: يورد كل من رضا نور ومؤلف كتاب الرجل الصنم ما يعتبرونه أدلةً على وجود علاقات غير عادية بين مصطفى كمال والانكليز، ويرجعون هذه العلاقة إلى أنها من العوامل المهمة التي كانت وراء إلغاء مصطفى كمال الخلافة، واتخاذ سلسلة الإجراءات العدائية ضد كل ما يتعلق بها، وأن هذه العلاقات مبنية على الشك والريبة، حقق خلالها مصطفى كمال للانكليز ما يصبون إليه من إلغاء الخلافة الإسلامية، وتقطيع كل أسباب الالتقاء بين العرب والأتراك، يقول رضا نور: "بدأت في المجلس (مجلس النواب) في الأشهر الأولى حركة ضد مصطفى كمال، لكنها قويت في هذه الأثناء، تم تعيين النائب البرلماني ناظم وزيراً للداخلية، وبعد أن عينوا ناظماً في هذا المنصب، أوجدوا أكثرية معارضة لمصطفى

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 559، السنة/2/11 فبراير شباط، 1982م، ح 29، ص 34-35 وانظر: المصدر السابق، ع 570، السنة/11/13 مايو، 1982م، ح 40، ص 36

كمال في المجلس، قال لي: إن مصطفى كمال جاسوس، إن تصديقي لهذا الأمر صعب⁽²⁾.

ويقول عن قبض مصطفى كمال مبالغ مالية جاءت على شكل مساعدات من الانكليز: "قال لي عدنان أن شخصاً هندياً يدعى مصطفى صغير جاءنا يسألنا عن احتياجنا وأحضر معه مقداراً من النقود، وعلى ما أذكر أن هذا المبلغ كان ثلاثون ألف جنيه انكليزي، استولى مصطفى كمال على هذا المبلغ، وقبل ذلك وصلتنا مساعدات مالية من مسلمي الهند وبلغها مصطفى كمال، وقال لنا مصطفى صغير: إن هذا المبلغ قليل، هذا الرجل ذكي يبدو منتفعاً، سألته بعض الأسئلة، إجاباته مضادة لبعضها البعض، شككت فيه، وقلت لمن حولي: إنني أشك فيه، ظهر بعد ذلك أنه جاسوس، أرسله الانكليز والنقود التي أحضرها، أعطاهم له الانكليز، استطاعوا في أنقرة أن يكتشفوا أنه جاسوس، وسرعان ما نصبوا له محكمة الاستقلال وتم إعدامه شنقاً، حاول الانكليز إنقاذه، لجأوا إلى التهديد وإلى كل شيء! ولم يُجد مع ذلك شيء⁽¹⁾."

أما مؤلف كتاب الرجل الصنم فيذكر قصة خروج مصطفى كمال من استانبول إلى سامسون لمقاومة المحتلين هناك، وأن رواية مصطفى كمال للحادث تشير إلى مطاردة انكليزية له، ويرد هذا المؤلف على رواية مصطفى كمال بأن هذه الرواية مختلقة، وأن السبب الذي دعا مصطفى كمال وأعوانه لاختلاق هذه القصة، من أجل نفي علم الانكليز بسفره هذا، ووجود حماية انكليزية له على ظهر السفينة التي سافر بها مصطفى كمال من استانبول نحو سامسون، ثم يبين مؤلف كتاب الرجل الصنم رداً آخر يثبت فيه صلة مصطفى كمال القديمة بالانكليز، وأنه كان منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، حين تولى قيادة الجيش الرابع في سورية في حالة اتفاق معهم⁽²⁾، وهذا يلتقي مع رواية رضا نور التي أشارت إلى ذلك في أكثر من مرة⁽³⁾ ويقدم مؤلف كتاب الرجل الصنم وثائق تحمل الأرقام 6،7،8 من بين مجموعة وثائق أودعها لديه ضابط متقاعد رافق مصطفى كمال في حرب جنائق قلعة، ثم في حرب فلسطين، وفي حرب الاستقلال في الأناضول، وقال له: إنني على حافة القبر... لذلك فإنني أرى نفسي مكلفاً قبل أن أسلم روحي، أن أؤدي أمانة في عنقي إلى أيدي أمينة... إنني أعطي ملاحظاتي هذه لتستعملها، لكن أريد شيئاً واحداً فقط، هو أن تحافظ على سلامتي ما دمت على قيد الحياة، وبالمحافظة على أمن وسلامة أبنائي... أعني ألا تعلن اسمي، ولهذا اخترنا (33) قطعة تستحق الوقوف عندها، ونحن ننشرها كما هي على شكل أخذ صور فوتوكوبي بخط يد الضابط، ونحن مضطرون لكي نجنب هذا الضابط أي تضيق أو تعقيب تخفي اسمه وعنوانه⁽¹⁾ وتشير الوثائق المذكورة أنفاً إلى اتفاق مصطفى كمال

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 555، السنة/11/ 5 يناير كانون ثاني، 1982م، ح 25، ص 35

(1) رضا نور، المصدر السابق، ع 556، السنة/11/ 12 يناير كانون ثاني، 1982م، ح 26، ص 35

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 30-32

(3) انظر هذا الفصل، وفيه إشارات رضا نور إلى اتفاق مصطفى كمال مع الانكليز وانسحابه أمامهم من سورية.

(1) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 468-469

مع الانكليز، فالوثيقة رقم (7) تثبت أنه متفق مع الانكليز في انسحابه من بلاد الشام، وأنه انهزم وترك الانكليز يأسرون أعداداً كبيرة من أفراد الجيش العثماني،⁽²⁾ أما الوثيقة رقم (8) فتشير إلى جو العلاقة الموجودة بينه وبين الانكليز عند انتقاله إلى الأناضول، حيث يورد تصريحاً لرفعت باشا إلى جريدة الجمهورية قبل وفاته يقول فيه: إن مصطفى كمال باشا ذهب إلى الأناضول بإذن من الانكليز، بينما ذهب أنا إليه بركوبي الباخرة مع (18) فارساً، حيث قمْتُ بإدارة فرقة الجيش في سمسون، وقد قام وفد انكليزي مؤلف من ثلاثة أشخاص بتنشيع مصطفى كمال باشا عند مغادرته استانبول، وأن هارنجنون القائد العام لجيش الاحتلال الانكليزي في استانبول هو الذي أرسل مصطفى كمال إلى سمسون⁽³⁾، ويورد مؤلف كتاب الرجل الصنم في الوثائق رقم (9)، (10)، (11)، (13)، (14)، (15)، (16)، (17)، (18)، (19)، (20)⁽⁴⁾ ما يتطابق مع ما أورده رضا نور في مذكراته حول بعض الأحداث⁽⁵⁾، وهذا الاتفاق في الروايتين إنما هو تأكيد لصحة ما يرويانه حول تلك الأحداث، وبالتالي فإن ما يذكران عن شخصية مصطفى كمال وعلاقاته المريبة مع الانكليز، فهي وإن لم ترد عند غيرهما، فإنها ذات إشارة صريحة إلى وجود علاقات مخفية لم يكشف النقاب عنها بين مصطفى كمال والانكليز، لا سيما فيما يخص موضوع إلغاء الخلافة الإسلامية، ويؤيد هذا ما رواه رضا نور في معرض حديثه عن مؤتمر لوزان الذي عقد عام 1923م لتوقيع معاهدة السلام بين تركيا والحلفاء، حيث كان رضا نور مع عصمت إينونو وحسن باشا للمالية ممثلين لحكومة أنقرة البديلة عن حكومة استانبول التي لم تدع إلى المؤتمر بعد إلغاء مصطفى كمال للسلطنة في عام 1922م، مما أفسح المجال أمام ممثلي مصطفى كمال أن يفاوضوا بالصيغة التي أملاها عليهم مصطفى كمال، وخاصة عصمت إينونو ذراع مصطفى وأدائه الرئيسية في هذه المفاوضات⁽¹⁾، يقول رضا نور: " انتحى مصطفى كمال بي وبِعصمت جانباً وقال: أساسكم هو: المهم الصلح، لورجعوا في كلامهم (الانكليز)، ولو رفضوا إعطاءنا إقليم تراقيا فلا تتعبوا أنفسكم، دعوكما من هذا واعقدوا الصلح، وحتى لو استدعى الموقف أن تترك استانبول اتركوها، وهذه هي أوامر مصطفى كمال الشفاهية، دهشت!! كيف يفكر هذا الرجل في ترك استانبول، غالباً إنه يريد الصلح بأي ثمن، وفي لوزان كان عصمت يقول لي: هيا نعظم الموصل حتى لا تضيع الفرصة، ماذا يعمل عصمت فأوامر سيده تقضي بهذا، ومن المحتمل أن الانكليز لو كانوا عملوا بالنسبة لاستانبول وتراقيا مثلما عملوا في الموصل لكان تنازل عصمت عنها"⁽²⁾، ويجدر بالذكر هنا إلى أن مصطفى كمال كان قد حَوَّل عصمت إينونو صلاحيات عقد الصلح، ولهذا فإن عصمت كان

(2) ضابط سابق، المصدر السابق، ص 475

(3) ضابط سابق، المصدر نفسه، ص 475

(4) ضابط سابق، المصدر نفسه، ص 476-485

(5) وهو يتعلق بالنصوص التي تم الاستدلال بها على شخصية مصطفى كمال في الصفحات السابقة.

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 570، السنة/11/13 مايو أيار، 1982م، ح 40، ص 37

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 571، السنة/19/13 مايو أيار، 1982م، ح 41، ص 37

يريد تنفيذ ما قاله له وللوفد المرافق الذاهبين إلى لوزان عند توجيههم إلى هناك، وانسجماً مع رغبات مصطفى كمال وتحقيقاً لتوجهاته، كان عصمت سريع التجاوب مع مطالب الانكليز، بشأن التنازل لهم عن الموصل، وكان يصرح بأن الصلح بيده قائلاً: الصلح في يدي ولدي الصلاحية الكاملة، وكان الحلفاء يشيعون أمام الوفد التركي المفاوضات أن هذا الوفد إن لم يوقع على الصلح في لوزان فإن الحرب ستقوم مرة ثانية، لإرغام الوفد التركي على النزول عند طلبات الحلفاء والإسراع بالتوقيع، ويقول رضا نور بأن هذه الإشاعات كانت تخيف عصمت وتدفعه لتوقيع المعاهدة بأي شكل من الأشكال، كم هو جبان، وإنني لأعجب كيف يكون عسكرياً؟! ثم يشير رضا نور إلى الأصابع اليهودية الخبيثة التي عملت في الخفاء من أجل تطويع الوفد التركي المشارك في مؤتمر لوزان عام 1923م من أجل الموافقة على التوقيع على هذه المعاهدة، ويذكر أنه برز على مسرح الأحداث أثناء انعقاد المؤتمر حاخام يهودي يدعى نعم، ويوضح رضا نور أنه كان يشارك في مباحثات لوزان، وأنه كان صديقاً لعصمت اينونو، وقد شعر رضا نور بهذا وقال: الغريب أن هذا اليهودي كان في لوزان فطرده، وقال: رأينا تصريحاً له في إحدى صحف باريس يقول ما خلاصته: لا داعي للقلق فعصمت صديقي!! ولا يخالف لي كلمة سأذهب وأعالج الأمر، وبينما الأمر على ذلك وصلت برقية من الحاخام من باريس يقول فيها: أنا قادم إليكم بأسوي الأمر، لدي خبر هام لك (لعصمت) حاذر!! لا تقطع المباحثات إلى أن أحضر... لا يستحي فيكتب برقية بهذا الشكل، وهذا طبيعي إنه يهودي لا حياء فيه!! ضحك!! يلعب على الحبلين، بالنسبة لكلامه في الجريدة الباريسية نفهم أنه يعمل لمصلحة الأفرنج، ونفهم من برقيته أنه يعمل لصالحنا، مثال واضح لليهود!!!... اليهود هكذا مثل البلاستيك يتمددون على أي جانب، ينحنون حسب الرياح مثل عود القصب، لكن عدم الحياء أكبر فن عند الخبث اليهودي ومزيتة وسلاحه... قلت له: حسناً لقد كتبت في برقيتك أنك تحمل خبراً هاماً؟! لم يجد لهذا إجابة، تلعثم، معنى هذا أنه ليس يهودياً تماماً، لو كان يهودياً تماماً لما تلعثم، كان يجد لهذا إجابة فوراً، لو قام هذا التافه بعمليات نفاق لجزرته زجراً عنيفاً، ولما لم يفعل ذلك خفت حدتي تجاهه، أعطيته الجريدة التي بها تصريحه ظل ناعماً فعاملته معاملة باردة وأزحته عنا بسرعة فذهب" (1) لكن يبدو من خلال صداقته الحميمة مع عصمت، ولما كان عصمت هو المخول من مصطفى كمال بالتوقيع على معاهدة الصلح في لوزان، فإن هذا الحاخام اليهودي قد أدى دوره في خدمة الطرفين عصمت ومصطفى كمال من جهة والانكليز والفرنسيين من جهة ثانية ولذلك نجح المؤتمر، واستطاع الانكليز أن يتوصلوا إلى هدفهم في كسب مصطفى كمال وعصمت إلى جانبهم من خلال تقديمهم لهم تنازلات هامة في اتجاه الجلاء عن الأراضي التركية ووحدة هذه الأراضي، ويبدو أن رضا نور الذي يتحدث عن تفاصيل هذه المعاهدة ودوره ودور عصمت فيها، لم يكن

(3) رضا نور، المصدر نفسه ع 574، السنة/8/13 يونيو حزيران، 1982م، ح 44، ص 36
(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 574، السنة/8/13 يونيو حزيران 1982م، ح 44، ص 37

الانكليز مرتاحون له، لما يبديه من معارضة لهم في المباحثات، وفي الوقت نفسه كانوا مطمئنين بأن العلاقة في المؤتمر مع عصمت وأن معارضة رضا نور لأي أمر من الأمور لا تسفر عن شيء، لأنه ليس مخولاً بالتوقيع على المعاهدة، وهو ما أشار إليه بقوله: "وعندما وصل كيرزون إلى لندن (رئيس وفد بريطانيا إلى مؤتمر لوزان)، قدم للحكومة الانكليزية تقريراً رسمياً عن الوضع في لوزان، لم أر هذا التقرير، ولكن قيل لي: إنه كتب: كان هذا يعني الصلح، لقد وعدني عصمت وعداً قاطعاً بأنه سيوقع على مشروع السلام، ولم تستطع روح خبيثة التدخل في هذا الأمر حتى الدقائق الأخيرة، وهذه الروح الخبيثة بالطبع أنا"⁽¹⁾.

د- أخلاق مصطفى كمال وسلوكه: كانت علاقة رضا نور مع مصطفى كمال قوية للغاية، ومن خلال هذه العلاقة عرف رضا نور صديقه وزميله في الحركة الوطنية معرفة دقيقة، لا سيما وأنهما كانا يؤمنان بالفكر المشترك الذي عرف بتيار العلمانية، وكان كلاهما من ذوي المجون وشرب الخمر والعريضة والزنى وغير ذلك من الأخلاق البعيدة عن الدين، ويعترف رضا نور بذلك عن نفسه في أكثر من مكان من مذكراته، وما يقوله عن نفسه يقوله عن مصطفى كمال لأنه صحبه لفترة طويلة واطلع على خصوصيات حياته الشخصية، وعرف أخلاقه وسلوكه وتصرفاته حتى في دقائق الأمور، وشخص يكتب عن نفسه نقائصها وعيوبها، ويتحدث عن ارتكابه الموبقات، كرضا نور، لا يتورع أن يتحدث عن صديق عمره وشريكه في مرحلة العمل السياسي التي تلازما فيها لمدة طويلة، خاصة الفترة الحرجة التي فصلت بين سقوط الاتحاديين بانتهاء الحرب العالمية الأولى، نهاية عام 1918م وبين تولي مصطفى كمال رئاسة الجمهورية مع مطلع عام 1924م بعد إلغاء الخلافة، ولذلك فإن شهادته على نفسه وعلى مصطفى كمال تعد وثائق دامغة لهما، تشهد على سلوكهما وأخلاقهما، وتعطي انطباعات لمن يطلع على ذلك، بحيث يعرف مستواهما الخلفين ومن ثم يُقيّم ما صدر عنهما فيما بعد تجاه الخلافة الإسلامية والغائها، يقول رضا نور عن نفسه: "كان الصيام يرهقني، غذاؤنا في الطبيعة العسكرية شيء جداً، وفترة الإجازة هذه كانت فرصة للتغذية، فمت فاشترت زجاجة خمر، ودخلت المطبخ، أكلت مما هو موجود وأخذت أشرب الخمر، أحسست المرأة التركية بهذا (والدته)، فدخلت المطبخ، وقال: يا أسفا أتفطر في رمضان؟ هل كفرت؟ يا مصيبتاه!! وإذا بها فجأة ترى الخمر، فقالت: آووه!! خمر، وكادت أن تسقط مغشياً عليها... بعد ذلك حاول إقناعها إلى أن قال: وتغلب حنان الأم على التعصب الديني... قالت الأم: إن الشراب لم يدخل بيتنا قط حتى هذه اللحظة، قلت: الخمر يعطي قوة وأنا أشربه كعلاج يا أمي، وبذلك تسامحت في شرب الخمر"⁽²⁾، ويتحدث عن سلوكه المنحرف أثناء زيارته لموسكو ليفاوض الروس باسم تركيا بعد إعلان الجمهورية التركية، ويقول: جاء توفيق رشدي (سفير تركيا في موسكو) شكونا له عدم وجود النساء، فقال: ليس هنا في روسيا أسهل من

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 574، السنة/13/8 يونيو حزيران، 1982م، ح44، ص36

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 530، السنة/11/26 مايو آيار، 1981م، ح1، ص38

هذا، وفي المساء جاء بامرأتين، فشربنا وأكلنا ونمنا، وتحولت السفارة إلى بيت للدعارة، اهتف لتوفيق رشدي (السفير) إنه أرضانا، وبيته في أنقره بيت بغاء خاص به، إنه وزير خارجية يعرف إدارة أموره جيداً، إنه بهذه الطريقة يرضي مصطفى كمال⁽²⁾، وبعد أن عرّف رضا نور بأخلاقه وبنفسه تَحَوَّل للحديث بفيض من الشواهد عن مصطفى كمال من مشاهداته ومتابعاته، يقول: " في منزله يقول علي سلطانوف: يا له من ديوث يحضر زوجته يأخذها ويسلمها إلى جانقايا (حيث يقيم مصطفى كمال) زوجته تقضي هناك ثلاثة أيام وثلاثة ليال، وخليل نفسه يقيم عندي أثناء ذلك ضعيفاً في بيتي"⁽³⁾، ويقول عن شرب مصطفى كمال للخمر: "الذي حدث أن صادرت الحكومة بالفعل الخمر، إلا أن أصحاب النفوذ من كبار رجال الدولة استولوا لأنفسهم على جزء من هذه المقطرات رغم أنها مصادرة وفي ذمة الدولة... مصطفى كمال لم يمر عليه يوم بلا خمر"⁽⁴⁾، ويقول: " تمر الأيام ويصبح مصطفى كمال أركان حرب، وكان عريداً سكيراً لا خلق له وغير محتمل، ويأتي عهد المشروطية فيذهب إلى سيلانيك، وفي سلانيك يعيش حياة كلها سكر وفحش"⁽⁵⁾، ويقول: " انتشر بين الناس فحش مصطفى كمال وشربه الخمر دائماً، ولم يكن الشعب يحترمه، فكرنا في أن نأتي بشخص من عائلة الخليفة ونجعله رئيساً لنا، من شأنه إحداث تأثير هام للغاية، وسيؤثر هذا في نجاح حركتنا"⁽⁶⁾ ثم يقول إن مصطفى كمال يشرب الخمر في السفارة الروسية: " في أنقرة موظفون روس يعيشون فيها منذ فترة طويلة، لماذا يقيم معهم علاقات وطيدة ويلتقي بهم كثيراً؟ ولماذا يوجد معهم نساء روسيات إنه يشرب الخمر معهم في منزلهم حتى الصباح"⁽⁷⁾ ويقول عن استمرار مصطفى كمال في مسلكه ذلك حتى بعد رئاسته الجمهورية، وهذه المرة يكون وزير خارجيته مديراً لدار بغاء يرتادها هو: " استأجر صالح ورجب زهدي منزلاً في استانبول، وحول المنزل إلى دار بغاء خاصة، يقضيان فيها سهرات حمراء، ويختاران من النساء البغايا أجملهن ليرسلوا بهن إلى مصطفى كمال، هذا العمل تأسس قبل قليل من طلاق لطيفة من الغازي، في ذلك الوقت كانت النسوة البغايا يذهبن إلى دار توفيق رشدي في أنقرة، وكان الغازي (مصطفى كمال) يأتي إلى هناك ليقضي سهراته حتى الصباح، وقد أصبح وزير الخارجية مديراً لدار البغاء هذه، وبفضل هذا أصبح وزيراً للخارجية، وقد تبدل الحال الآن، فالنساء من هذا النوع يذهبن مباشرة إلى دار الرئاسة، سافر مصطفى كمال إلى قونية وزار مدرستها، أعجب بإحدى المعلمات فأخذها، وبعد أن تسلى بها مدة أرسلها في بعثة دراسية إلى أوروبا، يعني: عطاء للبغايا من مال الأمة، سافر الغازي إلى إزمير فأعجب بفتاة تسمى آنث، وهي طالبة، والبنيت الصغرى لموظف الغابة هناك،

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 560، السنة/9/11 فبراير شباط، 1982م، ح 30، ص 35

(3) رضا نور، المصدر نفسه، العدد نفسه، ح 30، ص 34

(4) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 551، السنة/17/11 نوفمبر تشرين ثاني، 1981م، ح 21، ص 36

(5) رضا نور، المصدر نفسه، ع 539، السنة/25/11 أغسطس آب، 1981م، ح 11، ص 47

(1) رضا نور، المصدر نفسه، ع 553، السنة/22/11 ديسمبر، كانون أول 1981م، ح 23، ص 34

(2) رضا نور، المصدر نفسه، ع 552، السنة/15/11 ديسمبر، كانون أول 1981م، ح 22، ص 37

فأخذها وذهب وقضى منها ما قضى من فواحيش، ثم أرسلها في بعثة دراسية أيضاً إلى أوروبا، ومن قبل هاتين أرسلت عشيقته فكرية إلى الخارج أيضاً، وهذه هي طريقته، عادت أنت وأصبحت عشيقته ومعلمة ومشتغلة بالتاريخ، لم تكن المسألة مقتصرة على ذلك، فقد كان هناك من كل مكان من يقدم إلى الغازي (مصطفى كمال) النساء، كان هناك محام اسمه لطفي، زوجته بلغارية، جميلة جداً، ونال زوجها بسببها الكثير من الامتيازات، وأخذت النساء تنهال على الغازي كالمطر، تنهال على قصر الرئاسة في جانقيا (3). وفي عهد الجمهورية، وحين طلق مصطفى كمال زوجته لطيفة أشاع أنه طلقها ليتفرغ لخدمة الأمة ولعزوفه عن النساء، لأنه منشغل فيما هو أكبر من ذلك، وهو الاهتمام بمصالح الوطن والسياسة على قضاياها وتطويره وإزدهاره (1)، بينما الحقيقة خلاف ذلك تماماً كما يرويها رضا نور في مذكراته، يقول رضا نور: "لطيفة امرأة ذكية مثقفة، تشكو لنا من مصطفى كمال فيما يتعلق بالنساء والخمر، ولأن لطيفة صديقة زوجتي، فقد شكت إليها أن مصطفى كمال لا يستطيع أن يؤدي حقوق الزوجية، نفس الشكوى سمعتها من فتحي بعد أن باحت لطيفة لزوجته بها، شيء غريب! مرضت لطيفة، أصابها الزهري، ولطيفة امرأة شريفة، معنى هذا أن المرض انتقل إليها عن طريق زوجها، جاء الدكتور كنعان توفيق وداواهما معاً، والواقع أن علي فؤاد قد حدثني في موسكو عن انعدام رجولة مصطفى كمال، إنه يعرفه منذ عهد الدراسة في المدرسة الحربية، وهو كذلك منذ تلك الفترة، كنا في جانقيا (قصر مصطفى كمال) ذات ليلة على المائدة نشرب الخمر، ثم نهضنا، عصمت وفتحي يتشاجران قمنا لطيفة وأنا بفض الاشتباك بينهما... في هذا الشجار لا يكلف مصطفى كمال نفسه بالنهوض ليفرق بينهما (2).

هـ- أموال مصطفى كمال وألقابه والتمائيل التي أقيمت له: يفتح رضا نور صفحة أخرى من حياة مصطفى كمال، يقدم من خلالها صورة واضحة عن طريقة مصطفى كمال في اكتساب أمواله، تضيف ملمماً آخراً من ملامح شخصيته، وتساعد في استجماع جوانب هذه الشخصية التي أقدمت بعد التمكن على اتخاذ الخطوات اللاحقة المصيرية بحق الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية، يقول رضا نور في معرض حديثه عن معركة صقاريا التي هزم فيها الجيش التركي اليونانيين، ولم تكن الهزيمة لليونانيين بفضل كفاءة مصطفى كمال العسكرية، بل على العكس من ذلك كان قد أمر الجيش التركي بالانسحاب، لكن اليونانيين تراجعوا بفضل صمود الجيش التركي وحلول الأوبئة بالجنود اليونانيين، ومع ذلك دخل مصطفى كمال أنقرة واستقبل استقبالاً عظيماً، وضعوا له أقواس النصر ومَرَّ منها، وها هو يكسب شرفاً وشأناً، بعد أن مات آلاف البشر، وبعد أن رفض أن يكون قائداً عاماً، وبعد أن أصدر أمر الانسحاب، وبعد أن استعد للهرب فعلاً، وهذه هي الدنيا!!؟ وبعد عودة مصطفى كمال

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 582، السنة 13/16/أغسطس أب، 1982م، ح 52، ص 36

(1) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 211-212

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 578، السنة 13/6 يوليو تموز، 1982م، ح 48، ص 36

طلب من مجلس الأمة ان يوجه إليه لقب غازي، كما طلب مكافأة قدرها أربعة ملايين ليرة، أزيد النواب وأرغوا، وأخيراً حصل من المجلس على لقب: غازي، لكنهم لم يعطوه النقود، بأي وجه يطلب لنفسه مالا؟ ثم إن أربعة ملايين ليرة مبلغ مهول!!⁽¹⁾. ويقول عن قصر جانقايا الذي يقيم فيه مصطفى كمال: "...وقد دفع الأهالي دفعاً لكي يهدونه هذا القصر، لقد كان يدفع الأهالي كثيراً إلى أن يهدونه أشياء كثيرة من بضائع ومزرعة ودار، وفي كل مكان من أنقرة، وفي إزمير وفي بورصة وفي أطنه وفي استانبول إنه يريد هذا، ويظهر الأمر وكأن الأهالي قد فكروا فيه وأهدوه، إنه يصور الأمر على هذا الشكل، وانتشرت أخبار هذه الهدايا الجبرية في كل مكان"⁽²⁾.

ويتحدث رضا نور عن علاقة مصطفى كمال بالشعب بعد أن تربع على رأس الحركة الوطنية وانتهى إلى تولي السلطة في أنقرة، بأنه ظهرت حالات من التملق والنفاق له، يقول عنها: "ظهرت عادة من العادات، البلديات والدوائر الخاصة في كل مكان تهب لمصطفى كمال البيوت والمباني والمزارع، بالطبع يقوم بهذا الأمر الولاة المنافقون من رجاله، أما الشعب فهو في واد آخر، وبهذه الصورة أصبح مصطفى كمال يملك ثروة هامة، انتهت هذه العادة فظهرت أخرى، إقامة تماثيل لمصطفى كمال في كل مكان، تقوم البلديات كل منها على حدة بإقامة نصب وتمثال له، في سبيل هذا العمل تم جمع إعانات ضخمة، وذهبت إلى أوروبا الملايين، ذلك أن التماثيل تصنع في أوروبا"⁽³⁾.

إن ما تم ذكره آنفاً من جوانب شخصية مصطفى كمال مهم جداً لفهم طبيعة هذه الشخصية وأثر نشأتها وتكوينها وصفاتها على ما أقدم عليه مصطفى كمال من خطوات لاحقة، بعد تمكنه من استجماع خيوط السلطة والقرار في أنقرة، ومن ثم فرض هيمنته وإرادته على الدولة الجديدة البديلة لدولة الخلافة العثمانية، ومن خلال ما سبق بيانه يمكن استخلاص أبرز ملامح شخصية مصطفى كمال النارية، حيث جعلت باتريك هذه الميزة سبباً لاجتذاب وتجمع القوى السياسية والحربية في البلاد حولها⁽⁴⁾، وهي شخصية مميزة فعلاً، استطاع مصطفى كمال بقدراته ومهاراته وذكائه غير الطبيعي أن يصل إلى ما وصل إليه في فترة قياسية، وقد خدمته الظروف المحيطة به للوصول إلى ذلك، فهو يجمع بين الجرأة والإقدام من جهة وبين حب المغامرة واستغلال الفرص وتقدير الموقف من جهة ثانية، كما يجمع بين استخدام أسلوب الترغيب وبين استعمال الشدة والحزم من جهة ثالثة، إضافة لاستفادته من طبيعة الظرف الذي تحرك فيه، حيث كانت الأمة تخرج من حالة حرب، وصلت الدولة فيها إلى درجة الانهيار، ووضع الانكليز والدول المنتصرة معهم في الحرب

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 567، السنة/20/13، إبريل نيسان، 1982م، ح 37، ص 52-53.

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 552، السنة/15/11، ديسمبر، كانون أول، 1981، ح 22، ص 37.

(3) رضا نور، المصدر نفسه، ع 581، السنة/3/13، أغسطس آب، 1982م، ح 51، ص 42-43.

وانظر: خانجي، ترك وأتاتورك، ص 21.

(1) باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 154.

أيديهم على مقدرات هذه الدولة، وفرضوا عليها إرادتهم السياسية والعسكرية، فأصبحت الأمة والحالة هذه أشبه بالأيتم على موائد اللئام، وأخذت تتلمس طريق الخلاص وتبحث عن منقذ، وكانت صدمتها كبيرة، لذلك كما وصف حالتها رضا نور⁽²⁾، بدأت تتشكل وحدات متتالية في أنحاء تركيا من بقايا الجيش المنهزم ومن قطاعات الشعب للدفاع عن البلاد وتخليصها من المحتلين، وأدرك مصطفى كمال بحكم موقعه في الجيش العثماني، أن الأمة تتمسك بأي مبادر يتلمس لها طريق الخلاص من احتلال الحلفاء، ويقودها للعودة إلى الاستقلال والنهوض من جديد، وتمكن من البدء في سلوك هذا الطريق بذكائه واعتماده على العديد من القادة المتمرسين في الجيش من ذوي الكفاءة والخبرة، المتطلعين لتخليص بلادهم، ممن لا يشك في إخلاصهم لها، وهم في الوقت ذاته، وإن كانوا على معرفة بمصطفى كمال وأخلاقه وصفاته التي لا يثقون به من خلالها، كما وصفه أحدهم وهو الضابط الملتزم بالإسلام علي شكري بأنه الديوث السافل اللص عديم الشرف، وتعهد بأن يقتله وينقذ الأمة منه، ولأجل ذلك لما علم مصطفى كمال بموقف علي شكري منه، رتب اغتياله وتخلص منه⁽¹⁾، لكنهم مع ذلك كانوا لسان حال الأمة في التطلع إلى مقاومة المحتلين، فقاموا بالثورة في كل أنحاء البلاد، وقادوها ضد المحتلين، ووجد مصطفى كمال الفرصة مواتية له، وهي فرصة كان يتحينها منذ وقت طويل، ووصل إلى الأناضول مبعوثاً من حكومة استانبول ليصل إلى هدفه ويتسلق على سلم الحركة الوطنية ويصبح رئيساً لها ويسعى للاستحواذ على الحركة الجديدة، سبيله للوصول إلى أهدافه، وهو ما أشار إليه رضا نور بقوله: "إن الضربة التي أحدثها الانكليز بإعلان احتلالهم لاستانبول، تأتي موافقة لآماله، لأن الوطنيين في استانبول يرون أنهم بهذا الاحتلال مضطرين لأن يتكبدوا في الأناضول، وبالتالي يقبلون رئاسة مصطفى كمال"⁽²⁾، وكان رضا نور وغيره من رجالات الحركة الوطنية التركية يعرفون مهارة مصطفى كمال في ركوب موجة هذه الحركة، إذ سرعان ما أعلن هذه الأخير أنه وضع ميثاقها، وأخذ ينشر البيانات في كل الأنحاء حتى في أوروبا وأمريكا بأنه قائد هذه الحركة، وقطعت كل الصلات بين أنقرة واستانبول وشكل مصطفى كمال مجلساً تأسيسياً جمع أعضاء من كافة أنحاء البلاد، وفي المقابل عطل رضا نور مجلس المبعوثان الشرعي في استانبول لكونها أصبحت تحت سيطرة الانكليز، لتفويت الفرصة على الانكليز حتى لا يسيطروا على هذا المجلس ويستصدروا قرارات منه بقوة حراهم تجيز احتلالهم وتبرره، ورأى رضا نور وسائر أعضاء مجلس المبعوثان حينذاك أنه لا بد لهم من الارتقاء بين مخالاب مصطفى كمال، ولا حيلة أخرى⁽³⁾، وهكذا تمكن مصطفى

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 539، السنة/11/25/أغسطس آب 1981م، ح 10، ص 46-47

(1) رضا نور، المصدر السابق، ع 576، السنة/13/22/يونيو حزيران، 1982م، ح 46، ص 38-39

وكذا، ع 574، السنة/13/8/يونيو حزيران، 1982م، ح 44، ص 37

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 546، السنة/11/6/أكتوبر تشرين الأول، 1981م، ح 16، ص 38-39

(3) رضا نور المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 536، السنة/11/14/يوليو تموز، 1981م، ح 7، ص 48. وكذا ع 546،

السنة/11/16/أكتوبر، تشرين الأول، 1981م، ح 16، ص 39، و: ع 535، السنة/11/7/يوليو تموز، 1981م، ح 6، ص 39

كمال من الوصول إلى هدفه في التربع على رأس السلطة الجديدة في أنقرة، وكان لعلاقاته مع الإنكليز والروس دور رئيس في الاعتراف له بهذا الموقع، كما مر قبل قليل من مهادنته لهم وسعيه لتحقيق مصالحهم في الدولة العثمانية، مقابل تثبيت أركانه في السلطة الجديدة.

ثالثاً: إلغاء السلطنة.

سارت الحركة الوطنية نحو تحقيق جلاء قوات الحلفاء عن الأراضي التركية بفضل الاستبسال والجهاد الذي جاهدوا به الجيوش المحتلة، ولما كانت هناك حكومتان، الأولى في استانبول، وهي الحكومة العثمانية، حكومة الخليفة، والثانية حكومة أنقرة التي يقود زمامها مصطفى كمال، وكان لا بد من تمثيل الطرفين في مؤتمر لوزان الذي سيعقد في 1923م، بعد أن وجه الأوربيون الدعوة لهاتين الحكومتين لحضور المؤتمر المذكور، وطلب الأوربيون من حكومة أنقرة عقد اتفاق مع اليونانيين بعد أن هُزم اليونانيون وخرجوا من المناطق التركية التي احتلوها كأزمير وتراقيا الشرقية، وحقق الأتراك هذا المطلب واتفقوا مع اليونانيين وعقدوا معهم هدنة مودانيا في 12/ أكتوبر تشرين الأول 1921م، ووجد مصطفى كمال الفرصة سانحة له ليبزر نفسه قائداً لحكومة أنقرة والمتحدث باسمها، فبدأ حملة من التسلط والتجبر والتحكم، وبدأ يدير الأمور من موقعه الجديد في إزمير بعد تطهيرها من القوات اليونانية، ويقوم بالأعمال الدبلوماسية وإصدار القرارات ويأمر بتنفيذها، وكأنه لا وجود لمجلس الوزراء ولا لمجلس الأمة، ويدير تركيا كأنها مزرعته الخاصة، خاصة بعد مؤتمر لوزان، فقد تمادى في هذا ووضع الوزراء ونواب الأمة والموظفين والشعب أيضاً في مقام الحيوانات المستأنسة كما يقول رضا نور⁽¹⁾، ولئن جاء هذا الكلام بعد مؤتمر لوزان، فإن مصطفى كمال ولأجل قطع الطريق على حكومة استانبول بالأتمثل في مؤتمر لوزان، بعد توجيه الدعوة من الحلفاء لها بحضور المؤتمر، بدأ يفكر في طريقة يمنع فيها حكومة استانبول من حضور المؤتمر، كي ينفرد، ويرسل وفداً يمثلها باسم حكومة أنقرة، كخطوة تخدم خطته وسياسته التي يرتب فيها الوضع الداخلي بما ينسجم وأهدافه وطموحاته لتولي السلطة

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 570، السنة/11/13/ مايو أيار، 1982م، ح 40، ص 36 وانظر: مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 310، درويش، الإسلاميون، وتركيا العثمانية، ص 92-93

بشكل رسمي بعد إلغاء السلطنة والخلافة، وقد وجد مصطفى كمال بغيته في العقل المفكر المدبر للحلول التي نشدها لمشاكل عديدة قبل توليه رئاسة الجمهورية بعد مؤتمر لوزان، إنه رضا نور الذي اعتبر الحل الذي قدمه لمصطفى كمال مفخرة من مفاخره، ونجاحاً باهراً حقق فيه حلمًا كان يطمح بتحقيقه قبل ذلك، ويطبق من خلاله ما يحمله من فكر علماني قومي تركي، كنظرية سياسية وايدولوجية، وينعكس ذلك على الأمة الإسلامية لأجيال وأعوام مديدة قادمة بصورة سلبية وسيئة، وتتواءم مع ما خطط له أعداء هذه الأمة، وقد حاول تبرير عمله مبدياً التأثير والألم فيما بعد، لما جلبه عمله بإلغاء السلطنة من نتائج خطيرة على المسلمين أتراكاً وعرباً وغير ذلك، تركتهم بلا مرجعية سياسية إلى يومنا هذا، وهو صرح به بعد ذلك، يقول رضا نور عن خطته التي قدمها لمصطفى كمال من أجل إلغاء السلطنة، بأنها كانت انتقاماً قومياً منها: "أخطرتنا دول الحلفاء بأن المؤتمر سيعقد في لوزان في 28/تشرين الأول عام 1922م،... دعا الأوروبيون أيضاً حكومة استانبول إلى المؤتمر، ومعنى ذلك وجود تركيتين لا تركيا واحدة، الأوروبيون يعملون هذا خصيصة حتى يوقعوا بيننا، احتار مصطفى كمال، واحتار الجميع، المسألة جادة، وجود حكومة استانبول وحكومة أنقرة معاً سيجعلنا نترك الأوروبيين وننشغل بصراعاتنا، فكرت لهذا لا بد من حل المسألة حلاً جذرياً، ووجدت لها حلاً، أليس مجلس الأمة في أنقرة؟! نلغي السلطنة!! وبهذه الصورة ينتهي السلطان وتنتهي حكومة استانبول، حل مختصر وسهل منذ سنوات كثيرة خلت ويراودني أمل مقدس هو: فصل الدين عن الدولة، وفي رأيي أن من أهم أسباب نكبة تركيا إنها ليست علمانية، إن الطريق الذي سلكته كل دولة في أوروبا سعياً إلى الرقي والتقدم هو فصل الدين عن الدولة، وهذا الطريق ضروري لنا، ليكن الدين مقدساً ولكن لا يتدخل في عمل الحكومة، ومع تفكيري في إلغاء السلطنة، لم يخطر لي على بال مسألة إلغاء الخلافة، بالعكس لست أرى أن إلغاء الخلافة مضر!! إلا أنني مقتنع بأن نجعل الخلافة قوةً مستقلة عن الحكومة، حتى لا بد من تقوية الخلافة، وبهذا السبب فكرت في إلغاء الخلافة بشكل ديني ومستقل، وبذلك نضرب عصافيرين بحجر واحد، والآن إنني أزيل السلطنة والأسرة العثمانية وبذلك أقوم بعملية انتقام قومي منها، أجعل الدولة علمانية، بدأت أحمل بذور الحقد في نفسي تجاه العثمانيين حتى أصبح

شعوراً عدائياً فظيعاً لهذه العائلة العثمانية منذ دعونا عبد المجيد ولي العهد إلى الأناضول ولم يحضر، وها أنذا أعاتبه، كما أني أمتع بذلك حكومة استانبول من تمثيلها في المؤتمر، وجمعتُ توقيعات من مجلس الأمة بذلك، حوالي ثمانين توقيعاً، ثم قابلتُ مصطفى كمال صدفةً في ممرات المجلس وأريته ما نريد عمله والتوقيعات، فكر طويلاً ثم قال: وأنا أيضاً أوقع معكم، وفي المجلس قرأتُ تقريري هذا الذي جمعتُ عليه توقيعات الأعضاء بإلغاء السلطنة، قبل المجلس هذا التقرير باتفاق الأصوات وبالتصفيق الحاد وكان هذا انقلاباً مدهشاً⁽¹⁾. ويرد رضا نور في مكان آخر من مذكراته على ادعاء مصطفى كمال أنه هو الذي ألغى السلطنة ويؤكد أن ذلك كان من أفكاره هو، ويقول: "أقول إن السبب في إلغاء السلطنة هو أنا، وبتقرير مني أنا تم إلغاء السلطنة العثمانية، بل إن مصطفى كمال لم يكن له علم حتى بأني كتبتُ التقرير، إنه وقع بإمضائه مثل كل نواب مجلس المبعوثان على تقرير الخايف بإلغاء السلطنة، مصطفى كمال يكذب ويقول: إنه فكر في أن القرار الوحيد هو قيام دولة جديدة تستند إلى الحاكمية القومية، مع أن قرار دولة تركية جديدة تستند إلى الحاكمية القومية كان قراراً مني أنا، لماذا دولة جديدة؟! قالوا: إن آل عثمان الذين حَلَّوا محل السلاجقة كانوا في ذلك الوقت دولة جديدة، إن الحاكمية القومية بدأت بالفعل مع المشروطية وليست بنت الجمهورية التي رأسها مصطفى كمال"⁽²⁾ ويلقي رضا نور أضواء جديدة على عملية إلغاء السلطنة، ويبدو أن دافعه في تقديم المزيد من التفصيلات عن هذا هو منافسته لمصطفى كمال، لأن هذا الأخير استفزه حين نسب إلغاء السلطنة إلى نفسه، ولم يذكره في إرجاع هذا الفضل إليه وفي نسبة ما يراه أنها مكرمة ممن مكارمه ومآثره من مآثره التي ينبغي أن تنسب إليه كرضا نور، من باب أن ينسب الفضل لأهله، يقول رضا نور في ذلك، مشيراً إلى درجة اغتباط الأوربيين بهذا الحدث على لسان أحد الجنرالات الفرنسيين الذين حضروا جلسة إلغاء السلطنة،

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 570، السنة/11/13/ مايو أيار، 1982، م ح 40، ص 37 وانظر: غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 38-39، باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 156 خانجي، ترك وأتاتورك، ص 15

TOYNBEE, THE MODERN WORLD TURKEY, P. 196
OZTUNA. BUYUK OSMANLI RIHI, CILD.5.P. 504,509,511

(2) رضا نور، المذكرات مجلة المجتمع الكويتية، ع 542، السنة/8/11/ سبتمبر أيلول، 1981، ح 12، ص 38-39

وفي هذا دلالة على أهمية هذه الخطوة لدى أعداء الأمة الإسلامية، وكذلك تقدير هؤلاء الأعداء لرجال العلمانية التركية الحديثة أمثال رضا نور ومصطفى كمال، على خدماتهم العظيمة للدول الأوروبية في هدم أركان دولة الخلافة الإسلامية وتقويض بنائها وأسسها ودعائمها المتمثلة بالسلطنة حاملة لواء الإسلام، والخلافة رمز قوته وعزته، وهما الركيزتان اللتان بنى عليهما العثمانيون دولتهم التي دوخت أوروبا وأخافتها قروناً عديدة، واللذان نجح العثمانيون أيضاً في جمع كلمة المسلمين تحت ظلالهما، وربطوا العرب بهما مع الأتراك تحت راية الجامعة الإسلامية التي تلازمت مع مفهوم الرابطة العثمانية وظلت لقرون طويلة سلفت عروة وثقى آخت بين العرب والأتراك في علاقات متميزة قوية تعضد مؤسسة الخلافة وتساندها في حمل راية الإسلام لمقاومة الأعداء الأوربيين، وللتصدي لدعاة التغريب من المعجبين بالغرب والموالين لهم من أبناء الأمة الإسلامية، ولأجل هذا كانت الدهشة كبيرة والفرحة غامرة لم يستطع الجنرال الفرنسي الذي حضر جلسة إلغاء السلطنة العثمانية إخفاءهما، وهنا رضا نور على جراته في هدم أسس الدولة العثمانية، وهو ما رواه رضا نور بقوله: " بذلك انتهت مشكلة وجود وفد استانبول في مؤتمر لوزان، وكان الأمير آلي الفرنسي (ما يعادل رتبة فريق حالياً) موجين حاضراً في القسم الخاص بالمستمعين في المجلس، وهو ممثل الفرنسيين في أنقرة منذ فترة طويلة، وبعد انتهاء هذه الجلسة قام وجاء إليّ قائلاً ما مضمونه: كان المجلس بصورته اليوم مدهشاً، كان الجو مكهرباً أكثر من المعتاد، كنتُ أترقب باهتمام كيف ستحل هذه المشكلة؟! إن هذه الجلسة أهم جلسة في تاريخ تركيا، لكّ تهنّتي، مصطفى كمال دخل إزمير وحقق انتصاراً عظيماً، لكنك بما فعلته هذا حققت انتصاراً عظيماً وأعظم بكثير مما حققه مصطفى كمال، إن هذه الأمة تستطيع نسيان مصطفى كمال، لكنها لا تستطيع نسيانك، ثم يتابع رضا نور بعد إيراد كلام الضابط الفرنسي: إن هذا الحماس الذي قوبل به تقريرتي بتوقيع ثمانين عضواً، وهذا يقارب الأغلبية، جعل المجموعة البرلمانية الثانية (مؤيدو السلطنة والخلافة)، تقوم بعمل دعاية مضادة لتقريرتي، فقام مصطفى كمال وهدد أعضاء هذه المجموعة بالموت فسكتوا عن الاعتراض.

تم إبلاغ استانبول بهذا القرار، فانتهت حكومة استانبول بهذا القرار، بعد ذلك قام المجلس بانتخاب عبد المجيد أفندي خليفة (عبد المجيد الثاني بن السلطان عبد العزيز، فهو ابن عم عبد الحميد الثاني)، وفي رأبي إن الخليفة يجب أن يكون أكثر أهل البلاد علماً وشرفاً⁽¹⁾.

كان إلغاء السلطنة في أول نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1922م، ولما رأى الخليفة محمد وحيد الدين (محمد السادس) أن مصطفى كمال وجماعته قد ألغوا السلطنة، وهم في طريقهم نحو إلغاء الخلافة، وبات هو ومن معه من أفراد أسرته في موقف حرج، حيث أصدر مصطفى كمال بلاغاً بمحاكمة الخليفة ووزرائه بتهمة الخيانة العظمى، فهرب من استانبول على ظهر سفينة حربية إنكليزية إلى مالطة في 17/ تشرين الثاني عام 1922م، وحتى لا يثير مصطفى كمال وأعوانه الرأي العام الشعبي الداخلي، ولا البلدان الإسلامية التي تدين بالولاء للخليفة قبل تثبيت أركان حكمهم وإعلان دولتهم التركية العلمانية الجديدة، عمل هؤلاء على الإتيان بعبد المجيد ولي العهد (عبد المجيد الثاني) ونصبوه خليفة اسماً بشكل مؤقت، مجرداً من كل صلاحيات، بل كواجهة فقط جرياً على مناج من سبقهم من حكام الاتحاديين في الفترة الماضية التي حكم الاتحاديون فيها الدولة العثمانية بين انقلابهم على عبد الحميد الثاني عام 1909م، وهربهم من البلاد إثر هزيمة الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الثانية في نهاية تشرين الثاني عام 1918م، وبهذا تبدأ فترة خلافة عبد المجيد الثاني التي استغرقت حوالي سنة ونصف وانتهت في مطلع آذار 1924م، حين ألغى مصطفى كمال الخلافة بشكل رسمي⁽¹⁾.

رابعاً: توقيع معاهدة لوزان وخروج البلاد العربية من حوزة الدولة العثمانية.

حدث انقطاع في مؤتمر لوزان بين جولات مباحثاته الأولى والثانية، عادت الوفود إلى بلادها للتشاور ثم عاود الانعقاد، حيث تم التوصل إلى معاهدة السلام في لوزان، ووقعت الوفود المشاركة هذه المعاهدة بما فيها وفد حكومة أنقرة برئاسة عصمت اينونو وعضوية رضا نور، وكان التوقيع في جامعة لوزان وذلك بتاريخ 24/ يوليو تموز عام 1923م، ونصت هذه المعاهدة على عودة السيادة التركية على الأراضي التي تشمل تركيا حالياً، وألغيت الامتيازات الأجنبية، وخرج لواء الموصل، وعادت تراقيا الشرقية وإزمير إلى السيادة التركية بعد أن احتلها اليونانيون بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، وأقرت المعاهدة لليونانيين بعودة سالونيك إليهم فثبتت لهم، إضافة إلى حصول اليونان على جزر بحر إيجه التي كانت

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 571، السنة 19/13 مايو أيار، 1982، ح 41، ص 36

= وانظر: أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 192-195، الزين، ذنب الأناضول، ص 197

(1) غفور، تاريخ تركيا المعاصر ص 38-39 مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 310

باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 156، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 15

OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, CILD, 5. P.511

أغلبية سكانها من اليونانيين، وجلت القوات الأجنبية الفرنسية والانكليزية والإيطالية عن جميع الأراضي التركية⁽¹⁾، وحسب رأي رضا نور كانت أهمية معاهدة لوزان في كونها قامت بتصفية السلطنة في تركيا، وإقامة دولة مستقلة تماماً على أنها دولة أوروبية حديثة⁽²⁾ ونظر آخرون إلى هذه المعاهدة على أنها نصر سياسي لسياسة ومبادئ مصطفى كمال أتاتورك في إقامة دولة حديثة على أساس قومي تركي علماني بعيد عن الإسلام الذي كان دين الدولة العثمانية ومنهاج حياتها المطبق في ميادين الحياة المختلفة، ولأجل الاعتراف لمصطفى كمال بهذه الدولة التركية المستقلة، وضعت الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة لوزان كفرنسا وبريطانيا وغيرهما بنداً يشترط على الأتراك التوقيع عليه وتنفيذه لإتمام توقيع المعاهدة وتطبيق نصوصها، وهذا البند يقضي بأن يتنازل الأتراك عن حقوقهم في ممتلكات الدولة العثمانية المنحلة بموجب معاهدة سيفر، وهذا يعني أن تتخلى الدولة العثمانية عن جزيرة قبرص وعن الأجزاء التابعة لها في البلقان (أوروبا الشرقية) كالבوسنة والهرسك وأذربيجان وأرمينيا وألبانيا، وأيضاً تنازلت الحكومة الكمالية عن الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية في العراق وبلاد الشام بأجزائها التي تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وكذا مصر وشبه الجزيرة العربية وليبيا⁽³⁾، وعدّ البعض هذه الخطوة من طرف مصطفى كمال وحكومته فيما يخص تخليهم عن البلاد العربية من أجل تحصيلها استقلالها، فهو ينظر إلى مستقبل العلاقة العربية الثقافية من ناحية إقليمية قومية بحتة، بعيداً عن الرابطة العثمانية التي ربطت العنصرين العربي والتركي مع بعض لمدة أربعة قرون سالفة، وهذا يعني أنه يرجع تخليه عنها إلى اعتبارين، أولهما: حق الشعوب في أن تكون سيدها نفسها ومتحررة من أي نوع من أنواع السيطرة الأجنبية، وأن هذا مبدأ من مبادئ مصطفى كمال التي كافح إيماناً بها من أجل طرد قوات الاحتلال الأجنبي من بلاده.

ثانيهما: كان مصطفى كمال أتاتورك يرى في وجود الجيوش الأجنبية، خصوصاً الجيوش البريطانية والفرنسية في الدول العربية، وفي العراق وسوريا خاصة، خطراً مباشراً على تركيا نفسها، لذلك أصر على جلاء هذه الجيوش عن جميع البلاد العربية، وأن تتمتع هذه الدول بالاستقلال والسيادة التامين على أراضيها⁽⁴⁾.

والحقيقة أن أتاتورك ووفده المفاوض في لوزان اتبعوا سياسة المهادنة والمطواعة للحلفاء من أجل الوصول إلى ما يريدون، وهو تحصيل استقلال الأناضول

(1) دُرُوزَة، تركيا الحديثة، ص 55-57، غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 39

- أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 198-200

- مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 310-311، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 16

TOYNBEE, THE MODERN WORLD TURKEY, P. 196

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 577، السنة 29/13 يونيو حزيران، 1982م، ح 47، ص 37

(3) غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 40

داود، العلاقات العربية التركية والعوامل المؤثرة فيها، مجلة المستقبل العربي، ع 45، سنة 1982م، ص 64

(1) مقال: تركيا والعرب مدّ وجُزُر، مجلة النهار العربي والدولي (أسبوعية سياسية)، الناشر: شركة النهار للمنشورات الدولية، بيروت، ع 257، السنة 5/ الاثنين 5-11 نيسان إبريل، 1982م، ص 45 .

وإيجاد دولة قومية جديدة عاصمتها أنقرة، وكان مصطفى كمال متهافناً ومستعداً لتقديم أي تنازل لتحقيق هذا الهدف، حتى أنه جعل عصمت اينونو رئيساً لوفده المفاوض في لوزان، لاطمئنانه إليه بأنه ينفذ أوامره بحذافيرها دون تردد، وكذلك مستعد لتقديم التنازلات المطلوبة خشية تراجع الانكليز والفرنسيين عن مواقفهما وبالتالي لا يصل مصطفى كمال واينونو إلى أهدافهما، وقد أوصى مصطفى كمال عصمت بأن التوقيع على معاهدة لوزان لو تطلب التخلي عن استانبول فليفعل ذلك، فمن باب أولى أن يتنازل عصمت عن الموصل حين طلب منه الانكليز ذلك، وحاول رضا نور التمسك بالموصل لكن إلحاح عصمت على التنازل عنها جعله يوافق، بعد أن لاحظ سرعة انقياد عصمت ونزوله عند مطالب الانكليز تنفيذاً لتعليمات مصطفى كمال له، حتى أن رضا نور كان في أكثر من موقف أثناء المفاوضات يضغط على عصمت من أجل الصمود أمام ضغوط الحلفاء في المفاوضات لتقديم التنازلات، ويحثه على الصبر لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الدبلوماسية⁽¹⁾، ولهذا فإن ما تم في لوزان يدحض الرأي السابق ويثبت بطلانه، وأن مصطفى كمال لم يطلب استقلال البلاد العربية للاعتباريين السالفين بل على العكس من ذلك كان مصطفى كمال أوصى وفده المفاوض تقديم كل التنازلات المطلوبة، حتى أنه أبدى استعداداً للتنازل عن استانبول، والذي يتنازل عن عاصمة الحضارة العثمانية، التي جبل العثمانيون تربتها بدمائهم لجعلها مدينة الاسلام (إسلام بول)، ولا يهमे الحفاظ على عاصمة أمته عبر قرون طويلة؟! هل يهमे الارتباط بالبلاد العربية التي تركها فريسة للانكليز وانسحب طوعاً منها تاركاً جيشه غنيمةً للأعداء؟⁽²⁾!! لذلك فإن مصطفى كمال الذي يبدي استعداداً لتقديم تنازلات عن أجزاء من بلاده، وعن عاصمة أمجادها ورمز استقلالها، لا يمكن أن يطلب استقلالاً لبلاد أخرى أثبت عداؤه لها وكرهه لأهلها، وهي البلاد العربية، بل سيعمل في الخطوة اللاحقة على فك أي ارتباط بها من خلال الإجراءات التي طبقها ضد الخلافة، العثمانية وما يتعلق بها من نظم إسلامية، كانت عناصر الالتقاء بين العرب والعثمانيين، لأجل هذا فإن مصطفى كمال وأعوانه قد تحلوا من الارتباط بالبلاد العربية في مؤتمر لوزان، ليس من منطلق حبه لهذه البلاد وحرصه عليها، وإنما من قبيل التنازل الإجمالي عنها لفرنسا وبريطانيا، ليتمكنهما من تنفيذ ما اتفقتا عليه سابقاً من خلال اتفاق سايكس بيكو، الذي سبقت مناقشته في الفصل السادس، وهو ما بُدئ بتنفيذه عملياً في سنة 1920م، حيث احتلت فرنسا سوريا ولبنان، واحتلت بريطانيا العراق وفلسطين والأردن، وكان مصطفى كمال ومن معه متابعين لمجريات الأحداث، وكانوا مطلعين على ما تم تنفيذه من قبل الفرنسيين والبريطانيين بحق بلاد الشام والعراق، وعندما ذهبوا إلى لوزان كان مطلوباً منهم أن يتنازلوا عن البلاد العربية قانونياً، لكونها في عرف القانون الدولي ما زالت تحت التبعية العثمانية، وإخراج البلاد العربية من هذه التبعية كان من الأهداف التي يرمي مؤتمر لوزان إلى

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 568، السنة/13/27/ إبريل نيسان، 1982م، ح38، ص 42

(2) انظر تفاصيل ذلك الفصل السابع.

تحقيقها، ليتم استكمال خضوعها للانتدابين الفرنسي والبريطاني وإزالة الموانع القانونية التي كانت عائقاً شكلياً في وجه هذا الانتداب، ولذلك كان تنازل مصطفى كمال وحكومته عن البلاد العربية خدمةً للبريطانيين والفرنسيين، ليوقعوا هذه البلاد تحت الاستعمارين الفرنسي والبريطاني بعد أن كانت جزءاً من دولة الخلافة العثمانية الإسلامية تشعر بالولاء والانسجام الحضاري مع هذه الدولة، فتنازل مصطفى كمال عنها، وتخلّى عن ارتباطها التاريخي الوثيق بالعثمانيين، ليقر للفرنسيين والانكليز باستعمارها، ولم يبد أي معارضة لذلك، بل كان جل اهتمامه منصباً على استقلال الأناضول، وإقامة دولة مستقلة يتولى قيادتها ليحقق طموحاته، على حساب الدولة العثمانية التي انتهت إلى التفتت والانحلال، ليقوم بالخطوة الهامة والخطيرة في إلغاء الخلافة، وهو ما يتم مناقشته فيما يلي.

خامساً: إعلان الجمهورية.

منذ أن التحق مصطفى كمال بركاب الحركة الوطنية، بدأ يعمل على تبوأ مركز القيادة في هذه الحركة، ووصل إلى ما يريد حيث تسلق إلى قمة الهرم، وصار الأمر النهائي فيها بفضل مجموعة من العوامل التي أحسن الاستفادة منها في الوصول إلى هدفه، وهو ما سبق بيانه في الصفحات القليلة، وكانت الفترة الزمنية التي استغرقها مصطفى كمال حتى حقق طموحه هذا تقارب أربع سنوات تمتد منذ عام 1919م، وحتى عام 1923م، وفي بداية هذه الفترة في 10/أب عام 1920م، وقعت حكومة الخليفة في الأستانة على معاهدة سيفر ببندوها التسعة عشر المجحفة جداً بحق الدولة العثمانية، وكانت هذه المعاهدة سلاحاً قوياً وورقة رابحة بيد مصطفى كمال للحملة على الأستانة وحكومتها، وعلى شخص الخليفة، حيث سكت خلال الفترة التي أعقبت توقيع معاهدة سيفر على الخليفة وحكومته، وتركهما يخضعان لسلطة الانكليز بعد احتلالهم لاستانبول من أجل إسقاط هيئته من أعين الناس، فاستغل أتاتورك هذا الوضع ليتمكن لنفسه ويفرض شخصيته وينفذ مخططه في الإجهاز على الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة وإلغائها⁽¹⁾. وسعى مصطفى كمال خلال الفترة المشار إليها إلى إيهام الناس بأنه يستنهض الأمة بإعلان الجهاد ضد الانكليز، حتى أنه أرسل رسالة إلى الصدر الأعظم في استانبول يقول فيها إنه ينبغي إعلان الجهاد في سبيل استقلال الأمة⁽²⁾، لكن الشعب التركي بفطرته الإسلامية وحبه العفوي للإسلام بدأ يدرك مع مرور الأيام أن مصطفى كمال إنما يستغل الشعور الإسلامي لدى الأمة من أجل الوصول لأهدافه، ومع ذلك بدأ الشعب يدرك حقيقة شخصية مصطفى كمال، وأنه يكره الإسلام ويحارب عقيدته ويسعي للإطاحة بالخلافة، يقول رضا نور: "عندما قام مصطفى كمال في رماسيا قام أهالي سيواس وعلى رأسهم الشيخ رجب بثورة ضد مصطفى كمال، إنهم يكرهونه ولا يريدونه، أما هو فقد وصف هذه الثورة بأنها

(1) دروزة، تركيا الحديثة، ص 40، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 19، درويش، الإسلاميون وتركيب العلمانية، ص 91، 93

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 545، السنة 29/11 سبتمبر أيلول، 1981م، ح 15، ص 39

عصيان ضد الحركة الوطنية، مع أن هذه الثورة لم تكن إلا ضده هو شخصياً، إن جانباً من الثورات التي قام بها الشعب ضد الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كمال لم تكن إلا نتيجة لما يقوم به هذا الرجل من اختلاسات ومجون وارتكاب الفواحش وإشاعتها⁽²⁾. ويقول: " كان الشعب والجنود يهتفون دائماً: السلطان الخليفة والدنا، وهذه مسألة هامة، فقد انتشر بين الناس فحش مصطفى كمال وشربه الخمر دائماً، ولم يعد الشعب يحترمه، فكرنا في أن نأتي بشخص من عائلة الخليفة ونجعله رئيساً لنا، ومن شأن هذا إحداث تأثير هام للغاية، وسيؤثر هذا في نجاح حركتنا بنسبة ثمانين في المائة، إن ولي العهد مجيد أفندي (عبد المجيد الثاني) لو كان حضر إلى أنقرة كنا فوراً نقول: إن السلطان الخليفة أسير في استانبول، لذلك فقد أرسل ولي العهد إلينا، هربه، ليصل إلينا وهو وكيل عن الخليفة، وهذا من شأنه أعظم الفائدة، لن يثور أحد ضدنا، قررنا إحضار عبد المجيد أفندي، فاقترح جلال عارف في مجلس الوزراء باستحضر ولي عهد الخليفة، فإذا بمصطفى كمال يجن جنونه، أرغى وأزبد ورفض بشدة، دهشنا لتصرفه هذا!! يا أيها الرجل إن البلاد تنتهي وأنت لا تفكر إلا في نفسك؟! فالواقع إن الذي كان يملكه وقت ثورته وغضبه هو طمعه في المستقبل، إن حضور عبد المجيد سيمنع مصطفى كمال من أن يصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد⁽¹⁾.
 إذاً بدأ مصطفى كمال يخشى ضياع ما يسعى إليه، وأن يأتي ولي العهد بدعوة من مجلس الوزراء في أنقرة الذي صار بديلاً عن حكومة استانبول، والذي بات يدرك سعي مصطفى كمال الحثيث ليصبح رئيساً للجمهورية، ولذلك حاول هؤلاء الوزراء قطع الطريق عليه والإتيان بولي العهد عبد المجيد لتكون هذه الخطوة مبرراً لهم ليتخلصوا من تحكم مصطفى كمال بالوزارة، إلا أنه كان منتبهاً لما يجري حوله، فحزّك عصمت إينونو، وكان ذراعه اليمين لكل ما يريد، من أجل القيام بتدبير ما يكسب الجولة من خلاله، إنه يفكر في إعلان الجمهورية وتثبيت أنقرة كعاصمة جديدة للدولة بدلاً من استانبول، حتى لا يكون هناك أدنى تفكير ببقاء استانبول عاصمة، ولا يفكر أحد في استقدام عبد المجيد الثاني ولي العهد ليرأس الحركة الوطنية، ثم يتحول لرئاسة الدولة وبذلك ينتهي مصطفى كمال، ولإبطال هذا التحرك كانت الحركة المضادة منه عن طريق عصمت، يقول رضا نور: " في هذه الأثناء يكتب حسين جاهد مقالات عن استانبول كعاصمة، ويشعل هذه المسألة، في رأيي إن بقاء استانبول عاصمة لتركيا أمسى فيه خطر، عصمت ومصطفى كمال يريدان أنقرة، سألني عصمت اليوم قائلاً: كيف نحل المسألة؟! أوصيته بإصدار مادة قانونية تقول بأن أنقرة مقر الحكومة، وإدخال هذه المادة في الدستور، فنفذوا هذا فوراً، وقلت لهم: إن السلطنة قد ألغيت وظل مكان هذا شاغراً، وهذا خطر، لا بد من سد هذا المكان الشاغر، فأُسرعوا بإعلان الجمهورية، فنفذوا هذا أيضاً سريعاً⁽²⁾، ويقول: " كنت مرة عند

(2) رضا نور، المصدر السابق، العدد نفسه، ح15، ص38 وانظر:

OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARICHI, CILD.5.P.512

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع553، السنة/11/22 ديسمبر كانون أول، 1981م، ح23، ص34

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع578، السنة/13/6 يوليو تموز، 1982م، ح48، ص36

مصطفى كمال: قال لي: هل قرأت طنين؟! (جريدة حسين جاهد) قلت: لا، خيراً! هل فيها شيء؟! قال: جاهد مرة أخرى، يستأسد، ثم توقف قليلاً وقال: إنني أفهم الآن كيف يكون الإنسان مستبدًا؟! هذا الكلام فظيع أقشعر منه بدني، معنى هذا أن الرجل يريد أن يكون مستبدًا، ولا يتصور أن استبداده قبل هذا يعتبر استبداداً، معنى هذا أنه يريد أن يكون أكثر استبداداً وشدة... في هذه الأثناء كان حوالي 15-20 نائب برلماني يشربون الخمر مع مصطفى كمال في منزل توفيق رشدي، وتحدث الجميع عن مسألة رئاسة الجمهورية، وبالطبع قالوا جميعاً لمصطفى كمال: يجب أن تكون رئيساً للجمهورية!! فأقسم مصطفى كمال بقوله: لا أريد، لو وافقت على هذا سأكون أسفل إنسان في هذا العالم، عندما سمعت هذا منه عجبته منه ومن كلام عصمت، لا أدري ماذا يحدث بينهما، ولكن بعد مضي خمسة أو عشرة أيام أصبح مصطفى كمال رئيساً للجمهورية، وبالطبع أصبح سافلاً، وهو كذلك من قبل ولم يخسر شيئاً⁽¹⁾. ثم يسجل رضا نور براءته من الفظائع التي ارتكبت في عهد الجمهورية، يقول: "ليس لي دخل على الإطلاق بما حدث للأمة من حسنات ومن مساوئ في عهد الجمهورية، إنني في هذا العهد مجرد نائب في مجلس الأمة وحتى هذا فلم استمر فيه طويلاً، وكل ما حصلت عليه وسجلته عن هذا العهد من أخبار هو بفضل عضوين في المجلس، في الأيام الأولى كنت أسمع أحياناً من عصمت وأحياناً من مصطفى كمال وبعد سنتين كنت بعيداً تماماً"⁽²⁾.

نصت معاهدة لوزان على أن تنسحب جيوش الانكليز والحلفاء من استانبول ومن الأراضي التركية، وتقرر ذلك أن انسحبت بالفعل في نهاية أيلول عام 1923م، ودخلت قوات الجيش التركي الجديد التابع لحكومة أنقرة استانبول في 6/ أكتوبر عام 1923م، وكان القانون الذي أصدره المجلس الوطني في أنقرة باعتمادها العاصمة الرسمية للدولة التركية بدلاً من استانبول في 15/ أكتوبر عام 1923م، وفي 29/ أكتوبر عام 1923م أقر المجلس الوطني الدستور الجديد، ثم صوت على إعلان الدولة التركية جمهورية تستمد سيادتها من الشعب، وانتخب هذا المجلس مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية الجديدة، وعصمت إينونو أول رئيس لوزرائها، وبذلك ثبت مصطفى كمال نفسه رئيساً للجمهورية الجديدة، ولم يبق أمامه سوى الخطوة اللاحقة وهي إلغاء الخلافة العاتق الوحيد أمامه الذي قد يهدده في منصبه كرئيس، لا سيما وأنه ما زال هناك خليفة هو عبد الحميد الثاني، وإن كان مجرداً من كل صلاحيات، إلا أنه يبقى مصدر خطر حقيقي على مصطفى كمال ما دام منصبه موجوداً ولو اسمياً⁽³⁾، وقد استعمل مصطفى كمال المجلس الوطني للوصول إلى هدفه في إعلان الجمهورية، وذلك بضمان ولاء أغلبية أعضاء هذا المجلس له، ولذلك صوتوا على انتخابه

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 578، السنة / 13 / 6 يوليو تموز، 1982م، ح 48، ح 37

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 578، السنة / 13 / 6 يوليو تموز، 1982م، العدد نفسه ح 48، ص 37

(3) أمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 201-205، ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 294-295، ميكوش، مصطفى كمال، ص 353-360، غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 41

TOYNBEE, THE MODERN WORLD TURKEY, P.19 TOREL, ATATURK THE GREAT, P. 12

رئيساً للجمهورية، كما وافقوا على الاقتراح الذي قدمه مصطفى كمال عن طريق عصمت إينونو القاضي بأن تكون رئاسة الجمهورية لمدة أربع سنوات، وأن يعاد انتخاب رئيس الجمهورية إذا ظل يحتفظ بثقة الأمة به، وأن يكون رئيس الجمهورية هو الذي يعين مجلس الوزراء ويختار رئيس الوزراء أعضاء وزارته، وبعد مناقشة صورية نال مصطفى كمال موافقة المجلس الوطني أيضاً على الحكم الجمهوري حسب النص المذكور آنفاً، ويكون دين الدولة الإسلام، ويكون مصطفى كمال رئيساً للجمهورية، وبذلك يكون مصطفى كمال قال أرمسترونج والزين قد فرض رأيه على الشعب التركي بقوة المسدسات وبوجهه الأغبر الصارم وشخصيته الطاغية، وبدا النواب أمامه أشبه بالفيران الضئيلة، وهم يتطلعون إليه صامتين ملهوفين⁽²⁾، وبعد إعلان الجمهورية عهد مصطفى كمال إلى عصمت إينونو بتشكيل الوزارة الجديدة وصار مصطفى كمال رئيساً للوزراء التنفيذيين لكي يمسك بيده مجلس الأمة (المجلس الوطني) وباليد الأخرى الحكومة، وأطلق على هذه الوزارة اسم هيئة الوزراء التنفيذيين، وأسند للمجلس صلاحية تشريعية وكذلك صلاحية تنفيذية بناء على اقتراح مصطفى كمال، وكان هذا أمراً غير مستساغ، لكنه كان يفكر بأن تكون كل الأمور بيده، وأطلق على هذا وحدة القوى، وكان هذا علامة الاستبداد والتحكم، مع أن علماء الدساتير قسموا السلطات إلى قسمين لإيجاد التوازن، وليس من الممكن فهم ما يقصده مصطفى كمال، إلا أن غايته الاستبداد والتحكم⁽³⁾.

سادساً: إلغاء الخلافة.

تظاهر مصطفى كمال عند افتتاح المجلس النيابي في أنقرة أو ما أطلق عليه المجلس الوطني، أنه يعمل لحماية الإسلام، وكتب هذا وأصدر فيه تعميماً ورفض أن يستغل الدين آلة في السياسة، ثم انقلب بعد تمكنه من السلطنة وإعلان الجمهورية وانتخابه رئيساً لهذه الجمهورية، فبدأ يتنكر للإسلام ويحاربه في كل شيء، حتى أنه افتتح ذلك بشنق رجال كثيرين بحجة أنهم استخدموا الدين في السياسة، ومع أن هؤلاء الذين شنقهم لم يفعلوا أكثر مما نادى به هو⁽¹⁾، ويسأل رضا نور مستغرباً مندهشاً: ما معنى هذا؟ ومع أن رضا نور ليس ملتزماً بالإسلام ولا يحملته إلا بالاسم والانتماء الوراثي، ويعترف على نفسه بأنه ملحد⁽²⁾، لكنه مع هذا يقر بأن الإسلام (الدين) هو المستنهد لهم هذه الأمة في الحرب، ثم يجيب على السؤال الذي طرحه آنفاً عن حمل الشعب التركي للإسلام بقوله: معناه: أن الأمة التركية متدينة، ولأن ما زالت

(2) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 204-205 نامي كمال بك، عهد الفتح، الملحق عن مصطفى كمال، ص 44، ميكوش، مصطفى كمال، ص 353-360، دروزه، تركيا الحديثة، ص 65-66، الزين، ذنب الأناضول، ص 197-227

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 548، السنة/27/11/ أكتوبر تشرين الأول، 1981م، ح 18، ص 38

وانظر: TOYNBEE, THE MODERN WORLD TURKEY, P.196

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 548، السنة/27/11/ أكتوبر/ تشرين الأول، 1981م، ح 18، ص 38

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 574، السنة/8/13/ يونيو حزيران، 1982م، ح 44، ص 37

الأمة بكاملها هكذا، لا يمكن لأمة أن تبدل دينها فجأة... إن مصطفى كمال يقول: إن الدين والاعتقاد مسألتان لأي أمة، معنى ذلك أنه يذكر الدين في أزمة مثل الأزمة التي تعيشها الأمة، إنه يعترف بأن الدين قوة عظيمة، وأي قوة! ومع هذا الاعتراف فإن يقوم خلال ثلاث سنوات أو خمس بالإطاحة بهذا الدين... إن الدين هو المستنهد لهم هذه الأمة في الحرب، إن أعمال مصطفى كمال تدفع الإنسان إلى الظن بأن هذا الرجل عدو الأمة التركية، إنه تسلط في أول حملة من حملاته على دين الأمة، الدين من التراث، والحجر الأساسي في أي أمة من الأمم هو تراثها، إن هذا الرجل وأمثاله مشغولون بهدم تراث الأمة التركية، إنه خائن في هذه الحال⁽³⁾!! وإذا كان مصطفى كمال يهدم دين الأمة بإلغاء خلافتها ومحاربة إسلامها، فما هي الدوافع والأسباب التي دفعته إلى هذا؟! يذهب المؤرخون الذين تحدثوا عن إقدام مصطفى كمال أتاتورك على إلغاء الخلافة مذاهب عدة تلتقي في نهايتها عند مصب واحد هو محاربته للإسلام وللخلافة وعداؤه الواضح والصريح لهما، لكن المؤرخين يختلفون حول دوافعه التي دفعته للقيام بذلك، فما هي هذه الدوافع:

1- دوافع مصطفى كمال في إلغاء الخلافة:

أ- دافع الشهرة وحب الذات ليقال إنه عبقرى قادر على القيام بعظم الأمور: ويقف وراء هذا الرأي رضا نور حيث يقول: " لكن الأمر عندي أنه يقوم بعمل كل هذا بدافع من الحرص على الشهرة، حتى يقال: إنه داهية عبقرى ويقوم بانقلابات عظيمة، لكنه ينتزع أحجار الأساس من مبنى الأمة، فإذا وجد الأمة تغرق، فإنه سيقول: لقد صنعت - وبشكل عبقرى - من هذه الأمة ومن هذه الدولة أمة أوروبية متكاملة ولم تتواءم الأمة مع هذا، فما معنى هذا؟! معناه: أن الأمة تنعدم فيها القابلية للتأورب"⁽¹⁾.

ويقول مؤلف الرجل الصنم في هذا: "لقد استطاع مصطفى كمال جمع شؤون الحرب والسياسة تحت قبضته، لمهارته ومعرفته الاستفادة من كل الأوضاع والفرص والشروط"⁽²⁾.

ب- الحفاظ على منصبه وموقعه في السلطة: وفي هذا يقول ميكوش: " بعد أن تحولت الدولة إلى الجمهورية، كان من الضروري أن يبيت في قضية الخلافة، ووجد الخصوم الذين لم يرتاحوا لإعلان الجمهورية، ولم يطمئنون لازدياد قوة مصطفى كمال أن الأمل الوحيد في التخلص من هذه الحالة إنما يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال من ناحية الخلافة، وأسرع كبار القادة العسكريين والسياسيين مثل رؤوف بك وعدنان بك ورفعت باشا وكاظم قره بكير وعلى فؤاد باشا، الذين أصبحوا خصوم

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 548، السنة/27/11/ أكتوبر/ تشرين الأول، 1981م، ح 18، ص 39

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 548، السنة/27/11/ أكتوبر/ تشرين الأول، 1981م، ح 18، ص 39

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 216

مصطفى كمال علناً، لزيارة مولا هم الخليفة ليعلموا العالم أنهم ما زالوا على ولائهم له، وأخذت الصحف التي تصدر في استانبول تقاوم الحكم الجمهوري علناً، ووجد مصطفى كمال أنه من الضروري أن يعمل على إلغاء الخلافة قبل أن يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفاً يكتسح السد المحكم الذي بناه، وعلى الأخص لأن الخليفة كان موضع احترام/350 مليون من المسلمين، وهو لا يعتمد إلا على الأتراك الذين كانوا لا يزيدون على أربعة عشر مليوناً⁽¹⁾. ويتابع ميكوش توضيح المبرر الذي اتخذته مصطفى كمال ذريعة ومبرراً يبرر موقفه العدائي للخلافة وسبباً مباشراً للقيام بخطوته القاتلة لها، بقوله: أرسل السلطان عبد المجيد خطاباً باسم سكرتيره الخاص للوزارة طالباً منحةً إضافية تضاف لراتبه ليستطيع القيام بواجباته، واشتكى من إهمال الحكومة شأنه وعدم عنايتها به، فأجاب مصطفى كمال بشدة حاسمة، بل يعد في منتهى الشدة، قال فيه: إن الخليفة يريد أن تكون هناك مداخلات خاصة بينه وبين الحكومة، وأن يكون على وفاق خاص معها، وفي هذا ما فيه من الاعتداء على النظام الجمهوري الذي عانينا كثيراً حتى توصلنا إليه، هذا فضلاً عن أن وظيفة الخلافة ليست لها قيمة مادية أو سياسية ولا مبرر لوجودها إلا كأثر من آثار الماضي المظلم، وعلى كل فإن المبلغ الذي عُيِّن للخليفة كان أقل من المبلغ الذي عُيِّن لرئيس الجمهورية، إلا أنه ينبغي أن يقع به، فهو غير مضطر لإقامة الولائم، ولا يحتاج لمظاهر الأبهة التي تتطلب نفقات باهظة، بل من وظيفته أن يعيش معيشة بسيطة، وإن احتفاظه بجيش من السكترارية والموظفين إنما يجعله يتصور أنه لا يزال يحتفظ بقوته التي كان يتمتع بها في عصور الجهل⁽²⁾ إن هذا النص لا يحتاج لأي جهد ليكتشف ما فيه من الدلالات الواضحة على نوايا مصطفى كمال إلغاء الخلافة، ويكفي أنه يجعل العصور الإسلامية المشرقة التي فاضت حضارة ونوراً وعلماً على البشرية، يجعل منها عصور الجهل، ويصفها أنها أثر من آثار الماضي المظلم، وأنه سيحجم مقام الخلافة ليكون أثراً بعد عين.

ويبدو أن آخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد الثاني أراد الاستفادة من الظرف المواتي بعد أن عايش بنفسه معاناة سلفه الخليفة محمد وحيد الدين من مصطفى كمال، حيث أراد مصطفى كمال الانتقام من وحيد الدين لرفض هذا الأخير الانصياع لرغبات مصطفى كمال في الوصول إلى قمة الهرم في الدولة العثمانية، بأن يتنازل له عن الحكم كخليفة ويتخلى عن صلاحياته، ويكتفي بالخلافة المجردة من السلطة، على أن يظل مقيماً في استانبول وتنتقل السلطة إلى أنقرة، ولما رفض الخليفة وحيد الدين ذلك، أعلن مصطفى كمال الانشقاق والعصيان وتوجه إلى الأناضول والانضمام إلى الحركة الوطنية⁽³⁾. ثم أعلن محاكمة الخليفة وحكومته بتهمة الخيانة والخضوع للانكليز كما مر

(1) ميكوش، مصطفى كمال، ص 361، وانظر: دروزة، تركيا الحديثة، 67

(2) ميكوش، المرجع السابق، ص 361-362

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 542، السنة / 11 / 8 سبتمبر/ أيلول، 1981، ح 12، ص 38

- المحامي، الدولة العلية، ص 750

قبل قليل في هذا الفصل، فابتهل عبد المجيد الثاني فرصة تعيينه من قبل مصطفى كمال وحكومة أنقرة، والمجلس الوطني الكبير التابع لها (مجلس النواب)، خليفة، وسعى لإرجاع الهيبة والاحترام لمنصب الخليفة، بعد أن أهدر الاتحاديون وبعدهم مصطفى كمال هذه الهيبة وجعلوا من الخليفة أداة لتنفيذ إرادتهم، ولم يتردد في تحدي مصطفى كمال، ووقع بياناً إلى العالم الإسلامي أبدى فيه سروره لاختياره خليفة، كما قام بأداء مراسم تعيينه خليفة، وأقام حفل السلامك (حفل الاستقبال الذي يقام عند تعيينه خليفة)، وتجاهل حجر مصطفى كمال على صلاحياته، ظناً منه أن مساندته للحركة الوطنية أثناء حرب الاستقلال، تجعل مصطفى كمال يغض الطرف عنه، ويعطيه الفرصة لإجراء مراسم استلام الخلافة، باعتباره خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذهب ويصلي الجمعة كخليفة للمسلمين مرتدياً ملابس الخليفة التي كان كل خلفاء بني عثمان يلبسونها، مقتفياً أثر جده محمد الفاتح في ركوب الحصان الأبيض والسير بموكب الخلافة المهيبة في ذهابه لأداء صلاة الجمعة وعودته منها⁽²⁾، وكان يتصرف بمنتهى الكياسة والذكاء متجنباً الاصطدام بمصطفى كمال ورجاله، مدركاً خوفهم منه وحساسيتهم المفرطة من منصبه المنافس لرئيس الجمهورية الجديد، وقد أشارت باتريك إلى ذكائه ولباقته، كانت تعيش في عاصمة الخلافة أثناء تعيينه، قالت باتريك: "ولما فر محمد السادس من الأستانة، فصلت الجمهورية الدين عن السياسة، وعينت عبد المجيد خليفة للمسلمين، وهو ابن السلطان عبد العزيز، وكان ولي العهد للسلطان السابق، وقد تشرفت بمعرفة السلطان الجديد شخصياً، وبعد تسنمه الخلافة بقليل أرسل إليّ دعوة لمقابلته، فوجدته رجلاً ذكياً ديمقراطي النزعه"⁽¹⁾ لكن عبد المجيد الثاني مع كل ذكائه وحرصه وحذره لم يترك في موقعه يمارس صلاحياته المحدودة بسلام واطمئنان، ومع أن مصطفى كمال وضع يده على كل شيء في البلاد، وتحققت له السلطة المطلقة التي طمع فيها، وصار حزبه الذي أسسه (حزب الشعب) سلاحه السياسي ذراعه الممتدة إلى كل مدينة وقرية هو القوة المسيطرة على الأمور، وصار الجيش خاضعاً لإشرافه المباشر، وقبضته تهيمن على الدولة بأكملها، بالرغم من كل ذلك فقد أراد أن يوجه الضربة القوية للإسلام بعد أن انتشرت الشائعات في كل مكان في الدولة تحذر من مصطفى كمال، وتبين للأمة أنه يعتزم القضاء على الإسلام وإلغاء منصب الخلافة وطرد الخليفة⁽²⁾، وعمت البلاد بأسرها موجة من السخط على مصطفى كمال بسبب سلوكه الذي بات معروفاً لكل أفراد الشعب، بأنه يمارس الفحش والرذيلة ويحارب دين الأمة، وبدأت الثورات في كل مكان تقوم ضده، وتكونت جيوش الخليفة للدفاع عن حرمة الإسلام وعقيدة الأمة⁽³⁾ لهذا بات الموقف بين

(2) مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ص 312-313

(1) باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 156. وانظر:

OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, CILD. 5. P. 511

(2) آرسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 205-206، خانجي، ترك وأتاتورك، ص 19-20

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 549، السنة / 3/11 نوفمبر/ تشرين الثاني، 1981م، ح 19، ص

مصطفى كمال والخليفة متأزماً كل منهما يتوجس من الآخر، وأصبح الخليفة يتوقع الخطوة اللاحقة بانقضاء مصطفى كمال على منصب الخلافة وإلغائه.

ج- دعم بريطانيا لمصطفى كمال في إلغاء الخلافة: يشير البعض إلى مصطفى كمال بأصابع الاتهام، وبالشك والريبة حيال هدمه الخلافة الإسلامية وإلغائه منصب الخليفة، بأنه فعل ذلك بالتواطء مع الانكليز، ويحاولون إثبات ذلك من خلال مجموعة من المواقف يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- يروي شيخ الإسلام مصطفى صبري عندما خرج من استانبول إلى مصر بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة، ويقول عن السلطان محمد وحيد الدين أنه حُذِر من مصطفى كمال حين ترك العاصمة استانبول والتحق بالحركة الوطنية، وقيل له مرة: إنه لا يستبعد أن يغتصب هذا الرجل (مصطفى كمال) عرشك!! فقال: ليخدم الوطن وليغتصب عرشي، ثم يضيف مفتي الدولة العثمانية شيخ الإسلام مصطفى صبري قائلاً: شاعت كلمة سمعتها وأنا في بلادي (تركيا) تنسب إلى أحد الانكليز وهي: إن السلطان وحيد الدين أراد أن يكيد للانكليز بمصطفى كمال، فكاد الانكليز به السلطان⁽¹⁾.

- إن من ينعم النظر في الثورة الكمالية، يجد أن الانكليز قد لعبوا فيها أدواراً رئيسة مع ثلاثة أطراف، الطرف الأول هو مصطفى كمال الذي تبناه وساعده للوصول إلى ما وصل إليه، شريطة أن يلغي الخلافة ويفعل في تركيا ما فعل، والطرف الثاني هم اليونان الذين كانوا حلفاءهم في الحرب، وخرجوا منها بلا غنيمة، فأغروهم بالاستيلاء على إزمير، وهم لا يريدون أن يمكنوهم من شيء، لأنهم يعلمون أن استيلاء اليونان على أرض تركيا يعني استيلاء روسيا عليه، لأنهما حلفاء، على اعتبار أن القوميين يدينون بالأرثوذكسية... ثم إنهم (الانكليز) يخلقون من مصطفى كمال بطلاً محرراً لبلاده، والطرف الثالث هي الحكومة التركية نفسها التي استعملوها أداة للتفريق بين السلطان وبين مصطفى كمال، وقد نجحوا في تمثيل هذه الأدوار الثلاثة نجاحاً تاماً.

أما مصطفى كمال فهو وحده من بين الأطراف الثلاثة الذي كان يعلم ما يراد منه، كما أنه كان يعلم النتائج، لأنه كان على صلة بالانكليز منذ عام 1917م، يوم كان قائداً عثمانياً في جبهة فلسطين، فقد أخبرني إبراهيم بك صبري بن الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام بما يلي: اتصل الانكليز بمصطفى كمال يوم كان قائداً في فلسطين، وطلبوا إليه أن يقوم بثورة على السلطنة، ووعدوه أن يساعده على ذلك، فاتصل مصطفى كمال بقائدين عثمانيين من زملائه كانا يتوليان قيادة جيشين قريبين منه وفاتحتهما بالأمر، وقد ذكر لي إبراهيم بك اسمي القائدين المذكورين، ولكنني أنسيتهما لأنني لم أسجلهما عندي، إذ أنني لم أكن أتوقع أن أحتاج إلى ذكرهما، فلما

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 750

محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص33-37

سمعا الخبر استعظماه واستنكراه، وقالوا له: بما أنك لم تحاول العصيان الذي يوجب الإعدام، فإننا سنكتم الأمر وننصحك أن تعتبره منسياً، وأنت لم تقاتلنا به ولا سمعناه منك، وانتهى الأمر بالنسبة إلى هذين القائدين عند هذا الحد، وأما بالنسبة إلى مصطفى كمال الذي وهو القائد العثماني - أن يتآمر مع الانكليز لارتكاب مثل هذه الخيانة فإنه لم ينته قَبْلَ - ، ولا شك، بدليل ما وصل إليه، ولا يستبعد أن يكون الانكليز هم الذين دعموه لدى السلطان بطريقة غير مباشرة لكي يعينه مفتشاً عاماً لجيوش شرق الأناضول ليسهلوا مهمته⁽¹⁾. قد يتساءل المرء: كيف يساعد الانكليز مصطفى كمال على الثورة ببلادٍ هُمْ يسيطرون عليها؟! والجواب: هو أن أمم الغرب كانت منذ زمن بعيد تريد تحطيم الدولة العثمانية وتريد اقتسام تركية الرجل المريض، وقد عقدت هذه الدول مائة معاهدة لتقسيم هذه التركة، ولكنها لم تكن تتفق على ما يصيب كلاً منها، كما أنها لم تكن قد افترستها، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى وانهارت الدولة العثمانية رأت هذه الدول، وعلى رأسها انكلترا وفرنسا، أن بقاء تركية دولة صغيرة غير إسلامية يضمن لها مصالحها أكثر مما لو استولت عليها واستعمرتها، كما لو فعلت بالبلاد العربية، لأنها ستبقى حاجزاً بين العالم الحر وبين روسيا، لذا فإن هذه الدول الغالبة رأت أن من الأصلح وجوده دولة صغيرة ضعيفة وغير مسلمة صديقة للغرب، كالدولة التركية الحالية التي صنعتها على يدي مصطفى كمال من أن تكون هي المسيطرة، وهكذا فقد نال الغرب بغيته، وأصبحت تركيا دولةً صغيرةً علمانيةً، وتكررت حتى لواقعها، فهي قد أعلنت أنها دولة غير إسلامية، مع أن 95% من سكانها مسلمون، وتكررت لأسبوبيتها مع أن مالها في أوروبا من مناطق لا يتجاوز عشر مساحتها⁽²⁾.

ويقف مؤلف كتاب الرجل الصنم موقفاً مطابقاً للموقف المذكور آنفاً من مصطفى كمال، مستنداً إلى مجموعة من الأدلة والبراهين التي يرى فيها ما يؤيد رأيه فيما ذهب إليه من أن مصطفى كمال أتاتورك لم يبلغ الخلافة ويحاربها بشراسة وشدة من تلقاء نفسه، لمجرد النزوة الشخصية، على الرغم من الدور البارز لمثل هذه النزوة والنزعة الفردية في تصرفاته وممارساته تجاه أهم مسألة في حياة الأمة الإسلامية عامة، والشعب التركي المسلم خاصة، لكن ذلك ليس هو السبب الجوهرى المحرك لمصطفى كمال فيما أقدم عليه من عمل، بل إن الدافع الأهم والأكثر ترجيحاً حسب رأي مؤلف الرجل الصنم هو اتفاق مصطفى كمال مع بريطانيا ليحقق لها ما لم تستطع تحقيقه عبر قرون بالقوة العسكرية والمؤامرات والدسائس والفتن الداخلية التي دبرتها لإلغاء الخلافة وإسقاط الخليفة، ويورد مؤلف الرجل الصنم أدلته على تواطئ مصطفى كمال مع البريطانيين، وتتمثل هذه الأدلة في الآتي:

- ينقل نصاً من مذكرات مصطفى كمال يتحدث فيه هذا الأخير عن نفسه وعن رحلته من استانبول إلى سامسون، حيث أرسله الخليفة محمد وحيد الدين (محمد

(1) المحامي، الدولة العلية، ص 750-751. وانظر:

ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 30-34

(2) المحامي، الدولة العلية، ص 751-752

السادس) إلى الأناضول، ليقود الجيش العثماني هناك من أجل طرد المحتلين الانكليز والفرنسيين وغيرهم من قوات الحلفاء التي احتلت تركيا بعد انهزامها في الحرب العالمية الأولى، وتدل رواية مصطفى كمال لهذه الرحلة أن الانكليز غاضبون عليه، وأن ذهابه إلى سامسون يغضبهم، في حين يرى مؤلف الرجل الصنم أن مصطفى كمال ألبس هذه الرواية ثوب الأسطورة، وأن الحادثة جرت تحت حماية الانكليز وليس تحت تهديدهم، لأن تفتيش السفينة التي تقل مصطفى كمال والسماح لها بالسفر كان بعلم ضباط الانكليز، فهم يعرفون أن مصطفى كمال الذي يشغل حينئذ منصب مفتش الجيش العثماني فوق ظهرها، وهذا يدل على سكوت الانكليز عنه⁽¹⁾، ثم يقول مؤلف الرجل الصنم: " كان من الأنسب لهم أن يذكروا هذه الحادثة ولا يقفوا عندها، وأن يدعوها تفسر بعدم اهتمام أصحاب السلطة بالأمر، ولكن السبب الذي دعاهم إلى اختراع وجود تهديد ومطاردة انجليزية لمصطفى كمال، هو لنفي وجود حماية سرية من قبل الانكليز له، وهذه مناورة لإظهار القضية بأنها أثارت العداوة الانكليزية من بداية الأمر... إن التفسير الوحيد الذي يستطيع حل هذا السر هو أن مصطفى كمال كان في نهاية الحرب العالمية الأولى، ومنذ توليه قيادة الجيش الرابع في سورية، في حالة اتفاق مع الانكليز"⁽²⁾.

- إن مصطفى كمال منذ أن انسحب من فلسطين وترك الجنرال اللنبي يضرب الجيوش العثمانية هناك⁽¹⁾، أصبح في نظر الانكليز عنصراً يمكن كسبه إلى جانبهم وتوجيهه إلى الهدف المراد في كل وقت، ثم إن بعده عن الدين وعدم كونه تركيا، وكونه من أسبق الناس إلى التقليد الأعمى للغرب، كل هذه الصفات تعد نقاطاً ممتازة في صالح مصطفى كمال لدى المراقبين السياسيين الانكليز، وكان هؤلاء يرغبون بتصفية مسألتين هامتين مع الأتراك هما:

أ- إلغاء الخلافة وذلك لإنهاء سلطة الخليفة التي تعتبر سندا قوياً للمسلمين في العالم، ومصدراً لقوتهم ووحدتهم ووقوفهم في وجه مصالح بريطانيا.

ب- أن يوافق الأتراك على اقتطاع البلاد العربية من جسم الدولة العثمانية، والموافقة على هاتين النقطتين ضرورية للأتراك حتى يحصلوا على استقلالهم، من خلال موافقة بريطانيا على ذلك في مؤتمر لوزان، حيث عقد هذا المؤتمر بعد 20/ يوماً من إلغاء السلطنة⁽²⁾، وتنعقد الجلسة الأولى للمؤتمر وتنفض دون التوصل إلى اتفاق بين وفد تركيا والحلفاء، وتعود الوفود إلى بلادها، ويبرز هنا دور حاييم ناعوم، الشخصية اليهودية المعروفة كبير حاخامي اليهود في استانبول، حيث يلعب دوراً رئيساً في مؤتمر لوزان، ويظهر فجأة على مسرح الأحداث، كما أشير إليه أثناء

(1) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 25-31

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 32

(1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص 263-264

رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 541، السنة 1/11/ سبتمبر أيلول، 1981م، ح 11، ص 38

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 263-267

الحديث عن مؤتمر لوزان على لسان رضا نور، ثم يعود للظهور ثانية في أنقرة بعد انقطاع المؤتمر وعودة وفد تركيا إليها، ويجري اتصالاً مع مصطفى كمال، ويقدم له الخطة التالية: إلغاء الخلافة وترك الموصل للانكليز شرطان ضروريان للاعتراف باستقلال تركيا وحققها في الحياة⁽³⁾، وفجأة يعود المؤتمر للانعقاد، ويبدأ سيل إعطاء التسهيلات والمغريات إلى انكلترا، ويظهر على لسان رضا نور العضو المشارك في الوفد التركي إلى المؤتمر: إن تركيا أصبحت علمانية، وقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا ما تم الصلح، فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية، ثم يوقع الوفد التركي على معاهدة لوزان، بعد أن تمت صفقة بيع الخلافة وإلغائها وكذلك التنازل عن الموصل بين أنقرة ولندن⁽⁴⁾ كما يقف رضا نور في مذكراته موقفاً يعضد هذه الرواية، لكن حديثه يأتي بصيغة التنديد بمنافسه مصطفى كمال أتاتورك، لأنه ينسب لنفسه كل هذه الأعمال الجليلة!! في حين يرى رضا نور أنه من صانعي هذه الأحداث، وأن على مصطفى كمال أن يذكر فضله ودوره البارز فيها، ومع ما يفيض به موقف رضا نور من مشاعر العداء لمصطفى كمال ولأعماله في هذه المرحلة، فإنه يحاول تبرئه نفسه وإفهام القارئ أنه لم يكن مع إلغاء الخلافة، وأنها يجب أن تبقى لها حرمتها الشكلية فقط، مع إفراغها من محتواها، بحيث تصبح كالبابوية طقوساً ومراسم وشكليات، وبذلك يدخلها في غرفة التحنيط لتبقى عروساً من الشمع تتباهى بها الأمة دون أن يكون لها أي دور في الحياة العامة للأمة والدولة، وبذلك يلحقها رضا نور بسالفتها السلطنة التي ألغاه، وطبق عليها فصل الدين عن الدولة، حيث تصبح الخلافة حسب رأي رضا نور - مع دعوته إلى المحافظة عليها - جسداً بلا روح، وهي من الناحية العملية تطبيق فعلي لقاعدة فصل الدين عن الدولة، وتجسيد عملي لمبدأ علمانية الدولة الذي آمن به ودعا إليه متوافقاً مع مصطفى كمال أتاتورك ورجاله الآخرين الذين عملوا معه لترسيخ هذا المفهوم في الدولة الجديدة التي أعلنوها جمهورية، وصارت من الناحية العملية علمانية، قبل الإعلان رسمياً عن تطبيق مبدأ العلمانية بصورته النهائية بإلغاء الخلافة، وها هو رضا نور يروي ما حدث مؤكداً على هذا الكلام بقوله: "في خطابه الرسمي يحاول مصطفى كمال نسب هذا الشرف لنفسه (إلغاء السلطنة)، ولم يذكرني فيه بحرف واحد، وفي مسألة الخلافة يقول مصطفى كمال: أنا الذي أقممت الحكومة العلمانية وفصلت الدين عن الدولة، مع أنني أنا الذي عملت على هذا، فقد كتبتُ أنا التقرير الذي ينص على هذا، لم يكن يعرف حتى معنى كلمة علمانية، لم يكن حتى يعلم ما معناها، يقول أيضاً: لقد تركتُ الخلافة لمدة أخرى (بعد إلغاء السلطنة) دون احتوائها على حقوق صريحة. أما أنا فأبقيتُ عليها بحقوق صريحة، ولو كنتُ أريد إلغائها لألغيتهُا وسط الحماس الذي صاحب تقريرتي، وأنا من أعضاء الخلافة جداً. وما زلتُ هكذا الآن، إن إلغاء الخلافة جناية، إن إلغاء الخلافة عمل من أعمال مصطفى كمال، فليُنظر إلى موسوليني الذي أعطى للفاتيكان في روما القوة والدعم،

(3) ضابط سابق، المصدر السابق، ص 276-287

(1) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 289-293

فليعتبر مصطفى كمال بهذا!! لماذا تلغى الخلافة!!؟ فليكن للمسيحيين بابويتهم ولل مسلمين خلافتهم، إلغاء الخلافة جنون، بإلغائها أصبح المسلمون بلا قوة ولا مركز ولا أمل، أصبحوا غرباء، من كان يقطع الغصن الذي يقف عليه؟! لا يستطيع هذا إلا مجنون، لأنه أطاح بما في يده من قوة مادية ومعنوية، يدعي مصطفى كمال أن الخلافة لم تعد قوة، لكن هذا الادعاء خطأ، بفضل الخلافة قدم لنا الهنود الدعم المادي والمعنوي الكثير، كيف ينكر مصطفى كمال هذا؟ ليست الخلافة مؤسسة دينية فقط، إنها قوة مادية ومعنوية للدولة والوطن، عرب فلسطين يستفيدون من الخلافة، ويجمعون من الهند نفوداً هامة⁽¹⁾.

- بالاضافة إلى ما سبق من أدلة على أن مصطفى كمال ألغى الخلافة بشكل مخطط له ومدروس وبتفاهم مع بريطانيا، فإن رضا نور يشير إلى دور الذهب الانكليزي وقوة لمعانه وبريقه في إثارة تهافت النفوس إليه، وأن هذا الذهب ورد ذكره كوسيلة إغراء للتجرو على إلغاء الخلافة، ولقبض ثمن هذه الصفقة من بريطانيا، يقول رضا نور: "عبد المجيد (الثاني) الآن في نيس (في فرنسا)، جاءني من عنده رشيد باشا، قال لي: إن عبد المجيد يقول: إن عصمت (اينونو) وأنت (رضا نور) قد أخذنا من الانكليز مليوني ليرة نظير إلغاء الخلافة، والذي قال لي هذا دبلوماسي روسي"⁽²⁾، ويقول: "وصل رشيد بيك إلى باريس، وكان يعمل رئيساً للبلاط في عهد السلطان رشاد (محمد رشاد)، وهو الآن يقيم في نيس، كان على اتصال وثيق فترة من الوقت بعبد المجيد (آخر خليفة) في نيس، ذات يوم قال الخليفة السابق لرشيد: لقد علمت من مصدر موثوق أن الانكليز دفعوا مليوني جنيه أنكليزياً ذهباً في لوزان لكل من عصمت ورضا نور لكي يعملوا على إلغاء الخلافة، فسأله عن هذا المصدر؟ فقال له: دبلوماسي روسي،... هذا خيال لا يحدث!! فلم أكن موجوداً في أنقرة عند إلغاء الخلافة، ولفظوني من الحكومة، إن هذا الرجل مخبول، واضح أن الدبلوماسي الروسي أراد أن يدفعه إلى موقف ضد الانكليز فاخترع هذه المسألة، فليأت ويراني كيف أعيش في باريس منذ ثلاث سنوات، كم من ضيق أعانيه؟! أما هو (عبد المجيد الثاني) منذ خصص له هندي خمسمائة ليرة انكليزية في الشهر مرتباً له، ولو كان الانكليز ضده فهل يمكن للمهراجا الهندي أن يعطي الخليفة مرتباً شهرياً؟!!"⁽³⁾.

وإذا كان هذا رد رضا نور على تهمة قبضه وعصمت اينونو ثمناً مقابل إقدامهم على إلغاء الخلافة، فهذا لا يعني صدقه في تبرئة نفسه، لكن يبدو من خلال سيرته ورده أن رده وروايته في توضيح هذه المسألة قابلان للتصديق والقبول، لكن ذلك يترك الشك قائماً في موقعي عصمت ومصطفى كمال بشأن قبض مبالغ من بريطانيا حسب رواية

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 571، السنة/13/19 مايو أيار، 1982م، ح41، ص36
(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 553، السنة/11/22 ديسمبر كانون الأول 1981م، ح23/ص35
(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 579، السنة/13/13 يوليو تموز، 1982م، ح49، ص 43

رضا نور، لا سيما وأن عصمت كان متفاهم سراً مع مصطفى كمال أتاتورك على تنفيذ ما أراده مصطفى كمال بمعزل عن رضا نور، وقد صرح بهذا رضا نور أكثر من مرة، يقول عن خطاب بومبار في مؤتمر لوزان وعن حديثه عن عصمت ومصطفى كمال: "قلت لي: إن لك الصلاحية الكاملة إن الصلح مسألة في يدك، فاعقد الصلح ثم رشا (مدح) مصطفى كمال بالكلام،"⁽²⁾ ثم ينقل رضا نور قول عصمت الذي يؤكد على ما سبق بقوله: "علمت الآن شيئاً من بومبار، وهو أن عصمت قال: الصلح في يدي ولدي الصلاحية الكاملة... ويعلق رضا نور على إدعاء عصمت، مفسراً إياه بأنه نوع من الدبلوماسية، ويوبخه عليه دون أن يدور في خلد ما لكلام عصمت من ظلال ومعاني تقرأ بين السطور، وتوحي بأنه من الممكن أن يكون عصمت ومصطفى كمال متفقان على هذا فعلاً بمعزل عنه، لأنهما لا يأمناه ويخفيان عنه ما يخططان لتنفيذه، وما يتفقان عليه في الخفاء مع البريطانيين من مصالح وتنازلات متبادلة، ولذلك يأتي لومه لعصمت على عبارته السابقة لبومبار بقوله: كم كان هذا غفلة؟! أأكون الدبلوماسية بهذا الشكل؟!!"⁽³⁾.

تلك هي أهم الآراء التي أشير فيها إلى مصطفى كمال بأنها ومن خلال التنسيق مع بريطانيا كانت دوافع له لإلغاء الخلافة الإسلامية، والحقيقة أن قراراً كهذا لم يكن شيئاً عادياً، لأن الخلافة هي راية الأمة الإسلامية، وهي للأمة بمثابة الرأس من الجسد، والأمة كالجسد تموت بلا رأس، ولذلك لا يتصور أن يكون إلغاء الخلافة مجرد نزوة زعيم أو شأناً داخلياً تركيا إنما هو قرار مصيري يتعلق بمصير ومستقبل العالم الإسلامي والأمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها، ومن خلال القرائن والأدلة التي وردت آنفاً على وجود علاقة مربية تربط مصطفى كمال ببريطانيا، وهذه الأدلة وإن كانت غير كافية لتثبت وقوف هذه الدولة وراء قرار مصطفى كمال إلغاء الخلافة، لكنها تحمل في ثناياها ما يجعل قبولها أمراً ممكناً، لا سيما إذا أضيف إليها جوانب شخصية مصطفى كمال التي ذكر عنها رضا نور الشيء الكثير، وأن أبرزها: أنه يقوم بعمل كل هذا بدافع من الحرص على الشهرة حتى يقال إنه داهية عبقرية ويقوم بانقلابات عظيمة، لكنه ينتزع أحجار الأساس من مبني الأمة"⁽⁴⁾، وذكر أن هذه الشخصية ازدادت بعد إعلان الجمهورية غطرسةً وتكبراً واستبداداً وتفرداً بالسلطة ودكتاتوريةً، وهذا يقوي الاتجاه السابق الذي يشير إلى مصطفى كمال بأصبع الاتهام، يقول رضا نور عن مصطفى كمال

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 574، السنة/8/13 يونيو حزيران، 1982م ح 44، ص 36

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 574، السنة/8/13 يونيو حزيران، 1982م، ح 44، ص 36

(1) رضا نور، المصدر السابق، ع 548، السنة/27/11 أكتوبر/ تشرين الأول، 1981م، ح 18، ص 39

في بداية عهد الجمهورية حين ألغى الخلافة: " كثر الأعياد في تركيا في عهد الجمهورية، وكل يوم عيد جديد، إن مصطفى كمال يصور نفسه تصويراً دقيقاً وجيداً، فقد وصف نفسه لمراسل صحفي فرنسي قائلاً: أنا لا أعرف المزاح، فقد أرسل أصدق أصدقائي وهو يأكل معي من المائدة إلى المشنقة، ونشر الفرنسي هذا الكلام، وهو كلام صحيح ومصطفى كمال لا يتورع عن هذا"⁽²⁾. ويقول: تحول مجلس الأمة إلى لعبة من لعب الأطفال، لم يعد له أي قوة، وهذه أول ضربة كبيرة للحرية في حكومة الأناضول، لهذا السبب تعد حادثة تحويل المجلس إلى إدارة ولعبة هامة جداً في الحياة التشريعية والجمهورية في هذه الدولة، إنها نقطة تحول، لقد أصبحت الحاكمة للأمة والجمهورية دخاناً وناراً"⁽³⁾. ويقول: "قال أحد الصحفيين في مقال له وجهه إلى مصطفى كمال: أنت نبي، لا... أنت أعظم من نبي، وكل الصحفيين تقريباً كانوا يخاطبونه بلغة: إنك أنت الخالق الأعظم!! معنى هذا أن أولئك الصحفيين جعلوا منه إلهاً، لم يرفض مصطفى كمال كل هذا ولم يؤدبهم، وجرت هذه الألقاب مجرى العادة، ومن هذه التعبيرات: الغازي الأعظم، صاحب القُدرة"⁽⁴⁾!! ويقول: " لم يعد ضمن رجال مصطفى كمال الجدد أحد من الذين خدموا البلاد أثناء الحركة الوطنية، وجمع حوله المنافق والديوث والجاسوس والقاتل والجاهل... وأخذ يعد هؤلاء من جديد ويريبهم، مثال على هذا أنه ألبس أحد الحماليين الزي الرسمي لرتبة المشير وأعطاه الرتبة، مثال آخر: أصبح رجب وزيراً للداخلية، وكان هذا يوزباشياً، كان هذا الرجل فيما قبل يدخل علينا وهو يُحيي بطريقة عسكرية وينتظر بطريقة عسكرية، وكان يخرج أيضاً بعد أن يؤدي التحية العسكرية، لم يكن حتى يجلس، وعلى هذا تكون درايته"⁽²⁾.

بعد معرفة كل هذا عن مصطفى كمال أتاتورك لا يستبعد المرء عنه أي شيء، إذ كل ما يصدر عنه يمكن اعتباره ممكناً، لما تفرد به من أطوار ومواقف تصل الجراءة فيها إلى تجاوز حد التوقع والقبول، وما خطوة هدم الخلافة إلا من هذا القبيل، وتبقى القرائن التي توحى بوجود علاقات مريبة تربطه ببريطانية، وتحمل على الاعتقاد بأن تلك العلاقة كانت وراء إلغاء الخلافة، تبقى أدلة تسجل ضده، لا يمكن أن تكون قطعية وكافية حتى يكشف عن وثائق وأدلة جديدة تؤيد أو تنفي ذلك.

2- مستند مصطفى كمال أتاتورك في إلغاء الخلافة.

اتخذ مصطفى كمال قراره الخطير بإلغاء الخلافة الإسلامية بعد خمسة شهور من اعتلائه سدة رئاسة الجمهورية التركية الجديدة التي اعتمدت دستوراً جديداً قائماً على العلمانية ويستبعد الإسلام عن حاكمية الدولة وتشريعاتها وأنظمتها، وكان قرار إلغاء الخلافة في 3/ آذار عام 1924م، بعد مرحلة تحضير واستعداد لهذه الخطوة بالغة التأثير والنتائج الخطيرة والهامة على الشعب التركي المسلم والأمة الإسلامية من

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 583، السنة/17/13/ أغسطس آب، 1982، ح 53، ص 38

(3) رضا نور، المصدر السابق، ع 580، السنة/27/13/ يوليو تموز، 1982م، ح 50، ص 36

(1) رضا نور، المصدر نفسه، ع 581، السنة/3/13/ أغسطس آب، 1982م، ح 51، ص 43

(2) رضا نور، المصدر نفسه، ع 580، السنة/27/13/ يوليو تموز، 1982م، ح 50، ص 36

بعده، وكان مصطفى كمال أثناء فترة الاستعداد تلك يمهد لهذا القرار الخطير من خلال خطبه ولقاءاته ومواقفه، وقد ألقى عدة خطب في أنحاء البلاد وهاجم فيها الخلافة⁽¹⁾ وأنها باتت منحلة عديمة الأهمية والتأثير⁽²⁾، ويرى أنها لا فائدة منها ودليله الذي ساقه في خطابه الرسمي هو أن مسلمي الهند حاربوا ضدنا في الحرب العالمية الأولى، إن دليله هذا عبارة عن سفسطة، فهؤلاء الهنود أسرى، وماذا بيدهم أن يفعلوا، كما أنهم مخدوعون، ومع ذلك قدموا لنا مساعدات كما يقول رضا نور⁽³⁾.

استخدم مصطفى كمال بعض المعممين من يلبسون الألبسة الشرعية الإسلامية وينتسبون إلى الأئمة، وهو ما يطلق عليه علماء الشريعة " المشايخ " وكان أداته في هذا شخص يدعى سيد بك لم يذكر عنه رضا نور سوى هذا الاسم، وأن سيد بك كان من خدام الاتحاديين، ومن ثم وسيلة مصطفى كمال في فتوى السوء لإلغاء الخلافة، يقول رضا نور: " كان أكثر من استخدمهم مصطفى كمال في عملية إلغاء الخلافة هو: سيد بك، ثم غيّر مصطفى كمال الوزارة، ولم يجد سيد بك نفسه فيها، ذلك لأنه كان يشك فيه، بدعوى أن سيد بك من خادمي الاتحاديين، مع أن سيد بك شيخ تقليدي، بالإضافة إلى أنه منافق للسلطة حائز على سجايا كل المشايخ التقليديين، لا يهمه يخدم مَنْ؟ قلتُ لسيد عندما جاء إلى أنقرة: يا مسكين!! لقد بذلت كل هذا الجهد، واستخدمك كل هذا القدر، ثم يكافئك بلفظك من الوزارة، فكر سيد بك ثم قال: إنك لعلى حق، كانت هذه الضربة قاسية على هذا المسكين، لكنه جزاؤه، فرغم أنه ينتمي إلى طائفة المشايخ، فقد كان ضد الخلافة وقال بعدم ضرورتها، وتحذلق حتى يثبت عدم ضرورة الخلافة شرعاً، ها هو رجل الاتحاديين الكبير، كان منافقاً تافهاً "⁽⁴⁾. واستخدم مصطفى كمال أيضاً أحد المنتسبين للإسلام اسماً من الأتراك ليضع له كتاباً حول الخلافة، ويؤيد توجهه في إلغاء الخلافة، مستنداً إلى النصوص الشرعية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية يطوعها ويلوي أعناقها ليحاول تأييد ما ذهب إليه في محاربة الخلافة، إضافة

(1) OICAY. NUR, NUTUK I, II, BASKIYA HAZIRLAYDNLAR, BIROL MIL ATATURK SERISI 1,2, ISTANBUL, 1980,P.1

(2) غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 41 ، درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص 102

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 579، السنة 13/13 يوليو تموز، 1982م، ح 49، ص 42-43
OZTUNA, BUYUK OSMANLI TARIHI, CILD,5.P.512

(4) رضا نور، المصدر السابق، العدد نفسه، ح 49، ص 42. وانظر: صبري، مصطفى (ت 1373هـ/ 1954م)، النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، صححه وعلق عليه: حسن السماحي سويدان، نشر: دار القادري ودار البيارق، الطبعة الأولى، بيروت، 1998م، ص 48.

لإيراد النصوص والاجتهادات الفقهية للإفتاء بجواز التفريق بين السلطنة والخلافة أولاً ثم إلغاء الخلافة ثانياً، وعنوان هذا الكتاب: الخلافة وسلطة الأمة ومؤلفه مجهول⁽¹⁾، أُلِف باللغة التركية، وكلف مصطفى كمال لجنة من الترك بالإشراف على تأليفه وتسهيل نشره وهو بمجمله يدور حول موضوع الخلافة ويهدف إلى تبرير ما أقدم عليه مصطفى كمال من خطوات تحارب الإسلام وخلافته العثمانية في تركيا، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية عن التركية: عبد الغني سني بك الذي عرف نفسه بأنه: نزيل القاهرة والسكرتير العام لولاية بيروت، ومتصرف اللاذقية سابقاً، وعلى الرغم من اعتراض بعض أعضاء المجلس الوطني الكبير الذي استند إليه مصطفى كمال في اتخاذ قراراته ضد السلطنة والخلافة، وتصريحهم بهذه المعارضة لمصطفى كمال ووقوفهم في وجهه، معتبرين خطواته حرباً على الإسلام، وأن عزل الخلافة عن السلطنة، ثم الغائهما مخالف لأحكام الشريعة، وأن قرارات المجلس الوطني بذلك كانت باطلة⁽²⁾، فإن مصطفى كمال مضى في هذا الاتجاه ونفذ كل ما خطط له وقد أقر مؤلف هذا الكتاب لمصطفى كمال بكل الخطوات التي قام بها في إلغاء السلطنة والخلافة، معتبراً أن إعلان الجمهورية التركية بهذا الشكل الذي اتخذ مطابق لأول دولة إسلامية تأسست بعد ارتحال النبي صلى الله عليه وسلم، دولة الخلفاء الراشدين⁽³⁾!!، وحاول مؤلف هذا الكتاب في المقدمة تعريف الخلافة والتدليل على أنها مسألة دنيوية سياسية لا تكاد تتصل بالدين، متطرقاً إلى المذاهب الإسلامية في تناولها لمسألة الخلافة، لأن الخلافة لو كانت من المسائل الرئيسية في الدين لبيان

(1) مجهول، الخلافة وسلطة الأمة، ترجمه عن التركية: عبد الغني سني بك، نشر: مطبعة الهلال، مصر، 1924م، مقدمة المترجم.

ويرى محمد محمد حسين أن مؤلف كتاب الخلافة وسلطة الأمة هو محمد سعيد أفندي، وهو من تلامذة جمال الدين الأفغاني، وهو ما يراه أيضاً محمد حرب عبد الحميد في تعليقه على مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني أثناء تحقيقه لها. انظر:

- مصطفى صبري، النكير على منكري النعمة، الملحق رقم (2)، ص 148، وهذا الملحق بقلم محمد محمد حسين، وهو عن كتاب: الخلافة وسلطة الأمة.

وانظر: السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص 180، الملحق، وفيها تعليق محمد حرب عبد الحميد، وانظر: كوثراني، وجيه، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1996م، ص 209-248، عن كتاب: الخلافة وسلطة الأمة، ترجمة عبد الغني سني.

(2) مجهول، المرجع السابق، ص 1، التمهيد.

(3) مجهول، المرجع نفسه، ص 3، التمهيد.

الرسول صلى الله عليه وسلم أهميتها⁽¹⁾ وفي القسم الأول من الكتاب ناقش مفهوم الخلافة وفصل تعريفاتها وتقسيماتها إلى خلافة حقيقية وصورية ثم شروطها وكيفية اكتسابها، والغاية منها ووظيفتها وتبعاتها، وكذلك مسؤولية الخليفة وولايته العامة وسلطته على الأمة⁽²⁾، أما في القسم الثاني فتحدث عن تفريق السلطنة عن الخلافة، وحاول الإتيان بالنصوص الشرعية والاجتهادات التي يبرر من خلالها ما أقدم عليه مصطفى كمال أتاتورك من فصل بين هذين المفهومين الإسلاميين اللذين استندت إليهما الدولة العثمانية الإسلامية، ويحاول أن يسفه نظام الخلافة ويبرز نقاط ضعف الخلافة العثمانية⁽³⁾، ويختم كتابه بالوصول إلى النتيجة التي قررها ابتداءً وهي أنه يجوز فصل السلطنة عن الخلافة شرعاً، محاولاً التأكيد أن النصوص الشرعية أيدت ذلك، ويفتي للمسلمين في ذلك أنه لا يسألون ديناً عما سكت عنه الشرع صراحة، ويعفون منه وتكون لهم الحرية التامة فيه، مستشهداً بشواهد تاريخية، منها أن الخليفة العباسي بمصر المستنصر بالله، فوّض الظاهر بيبرس بحقوق الخلافة، وأن آخر الخلفاء العباسيين تنازل للسلطان سليم الأول عن الخلافة، وهذا يبرر أن يستولي مصطفى كمال أتاتورك على الحكم في استانبول ويلغي الخلافة والسلطنة كما يرى مؤلف هذا الكتاب، وقيم حكماً جمهورياً علمانياً يستبدله بنظام الخلافة الإسلامية، ويكون هو الرئيس لهذه الجمهورية بدلاً من السلطان الذي يتولى شؤون السلطنة العثمانية الإسلامية، بالاستناد إلى الخلافة والإمامة العظمى كخليفة للمسلمين⁽⁴⁾.

(1) مجهول، الخلافة وسلطة الأمة، ص 4-7

(2) مجهول، المصدر نفسه، ص 8-37

(3) مجهول، الخلافة وسلطة الأمة، ص 38-62

(4) مجهول، المصدر السابق، ص 63-71، وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 68-73

- وكان من أكثر مؤيدي اتجاه فصل الدين عن الدولة، ومباركة خطوات مصطفى كمال أتاتورك في إلغاء السلطنة والخلافة، ما كتبه علي عبد الرازق عن الخلافة في كتابه: الإسلام وأصول الحكم، ويعد هذا الكتاب من أخطر الكتب التي صدرت في هذا الموضوع، فمؤلفه أزهرى، لكنه من أكثر المروجين للفكر الغربي في البلاد الإسلامية ويرى علي عبد الرازق أن الخلافة نظام دنيوي وليس في أصول الشريعة ما يلزم به، فترجع خطورته إلى جرأته وعنفه في تحدي =مشاعر المسلمين، والتشكيك الساخر في معتقداتهم، وترويجه للفكر الغربي، وأن الحكومة في الإسلام فكرة خارجة عن شريعته، ويبين أن رئاسة النبي صلى الله عليه وسلم للدولة الإسلامية كانت رئاسة دينية، جاءت عن طريق الرسالة، فلما توقف نزول الوحي بموته صلى الله عليه وسلم انتهت الرئاسة، وتعد آراء علي عبد الرازق هذه مخالفة للنصوص الشرعية وتتناقض معها، إضافة لكونها خارجة عن إجماع الأمة في تاريخها منذ عصر الصحابة وحتى العصر الراهن حول صلاحية مفهوم الخلافة إلى بعد حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ومخالفة أيضاً للواقع التاريخي في الأمة الإسلامية عبر عصورها المختلفة، ولذلك تصدى الكثيرون من أكابر علماء الشريعة الإسلامية ومفكريها للرد على مغالطات علي عبد الرازق، وفندوا دعاويه الباطلة، وقال

- وبمجرد إعلان الجمهورية التركية وإلغاء السلطنة، قام بعض علماء المسلمين بالرد على مصطفى كمال فيما ادعاه من جواز إبطال الخلافة والسلطنة من خلال كتاب الخلافة وسلطة الأمة، فأصدر رشيد رضا صاحب مجلة المنار كتاباً بعنوان: الخلافة أو الإمامة العظمى، وذلك في شهر أيار عام 1923م⁽¹⁾، يرد على كتاب الخلافة وسلطة الأمة المليء بالتقولات الباطلة على الخلافة الإسلامية وعلى السلطنة العثمانية، ويؤكد بطلان إجراءات مصطفى كمال ضد السلطنة والخلافة، ثم يدعو العرب والترك على إعادة التعاون فيما بينهم من أجل إقامة الخلافة على الشكل الشرعي الإسلامي الذي سار عليه الخلفاء العثمانيون، فالعرب هم مهبط الوحي، والترك أقوى وأقدر على حماية الدعوة الإسلامية إن امتلكوا القوة والسلطة⁽²⁾.

- ومن الذين انبروا للرد على كتاب الخلافة وسلطة الأمة، شيخ الإسلام ومفتي السلطنة العثمانية في فترة خلافة محمد وحيد الدين (محمد السادس) وما تلاها حتى بداية عهد الجمهورية، حيث هرب إلى مصر وألف كتابه: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة⁽³⁾ بعد ثلاثة شهور من ظهور كتاب الخلافة وسلطة الأمة، وهذا الكتاب لا يتناول الخلافة من الناحية الفقهية فقط، بل يبحثها من الناحية السياسية أيضاً، فهو يبين للعالم الإسلامي خطورة الخطوات التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك وحكومته، ثم يحذر من تلك الخطوات وانعكاساتها على مستقبل الأمة⁽⁴⁾، وهو بهذا يرد ما ورد في كتاب الخلافة وسلطة الأمة، الذي يزين أعمال مصطفى كمال

عنه الزركلي: غضب منه ملك مصر عندما ألف كتابه الإسلام وأصول الحكم فسحب منه شهادته الشرعية الأزهرية، فعمل في المحاماة، ثم انتخب عضواً في مجلس النواب. انظر:

- عبدالرازق، علي بن حسن بن، أحمد (ت 1386هـ/1966م)، الإسلام وأصول الحكم، مطبعة مصر، الطبعة الأولى القاهرة، 1925م، ص 1-1، 24، 33-38، 48-58، 62، 64-72، 81-89، 90-103 الزركلي، الأعلام، ج4، ص 276، محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 85-99 ولمتابعة الردود على علي عبدالرازق انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر، مفتي المالكة بالديار التونسية (ت 1393هـ/1973م)، نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، نشر: المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1925م، ص 4-8، 13-17، 23-26، 28، 35-36.

- الدجوي، يوسف بن أحمد، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر، ورئيس جمعية النهضة الإسلامية بمصر (ت 1365هـ/1946م) رد على كتاب الشيخ علي عبد الرزاق: الإسلام وأصول الحكم، مطبعة السماح، القاهرة، 1925، ص 11-32، 41، 42-54، 55، 68-77، 71-112، 107، 86-143، 121-151.

- محمد الخضر حسين، محمد الخضر بن الحسين بن علي، أحد مدرسي جامع الزيتونة وقاضي المحاكم الشرعية بتونس (ت 1377هـ/1958م)، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1925م، ص 4، ص 23، 82-90، 91-131، 163-222، 209، 186، 185-245.

- عمارة، محمد، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1972م، ص 113-126، 120-139، 138-154، 143-174، 167-178.

- كوثراني، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية، ص 152-185، عن كتاب علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم.

(1) رضا، محمد رشيد، (ت 1354هـ/1935م) الخلافة (الإمامة العظمى)، نشر: الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988م، ص 14، 38، 42، 65-66، 73-76.

(1) رشيد رضا، المصدر السابق، ص، وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج 2، ص 55-67. كوثراني، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية، ص 47-149.

(2) مصطفى صبري، النكير على منكري النعمة، ص 3-9.

(3) مصطفى صبري، النكير علناً منكري النعمة، ص 10-26.

وحكومته ويبررها ويحاول إيجاد التأييد الشرعي لها⁽⁴⁾، وتأتي ردود شيخ الإسلام مصطفى صبري شاملة الجوانب الفقهية والسياسية يفند فيها ما ورد في كتاب الخلافة وسلطة الأمة نقطة نقطة، مسنداً أقواله بالأدلة الشرعية من كتاب وسنة، والأدلة التاريخية من أحداث التاريخ الإسلامي، والأدلة العلمية التي يدحض فيها أقوال مؤلف كتاب الخلافة وسلطة الأمة بأسلوب علمي ومنهجية تاريخية مسندة بالوقائع والشواهد والأمثلة من واقع الدولة العثمانية في عهودها السالفة وواقعها الذي عاصره بنفسه⁽⁵⁾، ثم يورد ما أقدم عليه بعض المسلمين من بلدان العالم الإسلامي من تأييد لمصطفى كمال دون معرفة الحقيقة، وخاصة مسلمي مصر ومنهم شعر شوقي في مديح مصطفى كمال، وأن ذلك المديح كان دون اطلاع على حقائق الأمور⁽¹⁾ ويختم بذكر قرارات مصطفى كمال القاضية بإلغاء الخلافة والوزارة والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية والأوقاف، وطرد آل عثمان جميعاً إلى خارج بلادهم تركيا⁽²⁾.

كان إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية الحدث الأبرز والأهم والأخطر في مطلع القرن العشرين، بل هو من أهم الأحداث الرئيسة بالنسبة للمسلمين على المستوى العالمي عبر تاريخهم الطويل، ولا يبالغ المرء إن قرنه بأكثر معالم التاريخ بروزاً وشهرة، إذ يعد ضربة قاصمة للظهر للنظام السياسي في الإسلام، لأنه ترك الأمة الإسلامية بلا قيادة سياسية، لأن منصب الخلافة في الإسلام يمثل التطبيق العملي للنظام السياسي الإسلامي، والذي بقراراته وسلطته التنفيذية تتحول النظم الإسلامية المختلفة من مواد وتشريعات ونظريات مجردة إلى تطبيقات وممارسات في أجهزة الدولة ومؤسساتها ودوائرها، ومن ثم تنتقل إلى حياة الناس اليومية لتصبح واقعاً يطبق في كل جزئية من جزئيات الحياة، وبذلك يلمس المجتمع والأمة بأنفسهم مدى صلاحية النظم الإسلامية وقابليتها للتطبيق في الحياة من خلال التجربة والممارسة، وهو ما طبقه المسلمون في واقع حياتهم في صدر الإسلام كمنهاج حيات متكامل غير قابل للاجتزاء والتبويض، واستمر تطبيقه عبر أجيال الأمة منذ ذلك التاريخ وحتى عام 1924م، حين ألغى مصطفى كمال أتاتورك منصب الخلافة، وإن كان هذا التطبيق يضيق أو يتسع في حياة الأمة الإسلامية على اختلاف دولها وبلدانها ومن عصر إلى آخر، المهم أن الإسلام كنظام حياة رباني كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبعده في عصر الراشدين مطبقاً في الأمة، وبدأ التطبيق يضعف بالتدريج ويقل من عصر إلى آخر، إلى أن وصل إلى العهد العثماني، الذي شهد هذا التطبيق أيضاً، لكنه لا يخلو من الضعف والتقصير، بل وفي بعض الأحيان الابتعاد في التطبيق عن الصورة الصحيحة التي طبقت وعاشتها الأمة في أجيالها الأولى، ولذلك كان الاستغراب كبيراً والدهشة أكبر من موقف مصطفى كمال أتاتورك كيف استطاع

(4) مصطفى صبري، المصدر نفسه، ص 40-47، 56-58

(5) مصطفى صبري، المصدر نفسه، ص 61-69، 75-87، 99-108

(1) مصطفى صبري، المصدر نفسه، ص 93-109، 94-118

(2) مصطفى صبري، المصدر نفسه، ص 122-137

وانظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج2، ص 74-83

الإقدام على هدم الخلافة لو لم يملك هذا القدر الكبير من الجرأة والعداء للأمة الإسلامية، والأترك جزء منها، ولعقيدتها ولدينها ونظامها السياسي الاسلامي، مدركاً أن الإجهاز على الرأس يتركها ولقرون تتخبط في متاهات الضياع، ويحقق رغبة وطموح أعدائها في السيطرة عليها لأجيال كثيرة مقبلة، وهو ما عبر عنه رضا نور في مذكراته حين وصف حال الأمة بلا خليفة وبدون مؤسسة الخلافة، مع أنه من المخططين لذلك، لكنه كان يدرك أهمية هذا الأمر بالنسبة للأمة حين قال: " لم يكن عبثاً ذلك الذي تحدث به مصطفى كمال عن الخلافة، أيها الرجل انظر إلى الفاتيكان واعتبر!! الخلافة لا تهدم، وإنما تُصلح، كان يمكن تقويتها، موسوليني كم كان مستبداً مثلك!! ورغم هذا كان يعمل لتقوية البابا، إن هذا لقوة، ولقد أصبح العالم الإسلامي المسكين بلا قائد! بلا أمل!!"⁽¹⁾. وقال: " أحدث هذا العمل، إلغاء الخلافة، تأثيراً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ترك المسلمين يائسين بلا أمل، مع أن إلغاء السلطنة لم يحرك شيئاً في العالم الاسلامي، كم كان إلغاء الخلافة خطأ جسيماً، وسيرينا الزمن عواقبه"⁽²⁾.

ولما كان الحدث جسيماً وآثاره كبيرة، فقد كثرت عبارات الاستغراب والدهشة التي تصف ما قام به مصطفى كمال أتاتورك من انقلاب وتغيير في النظام السياسي في الدولة العثمانية، من ذلك ما قالته باتريك: "تبدلت الأحوال في تركيا تبديلاً فجائياً غير منتظر، فأصبح الدين اعتقاداً شخصياً"⁽³⁾ وقال كاتب مقال تركيا والعرب مدُّ وجَزُر: "وجد العرب أنفسهم أمام تركيا جديدة، ذات نظام جمهوري علماني ومفاهيم ديمقراطية أوربية، مع أنها دولة إسلامية... وهم من جهة أخرى وقفوا مشدوهين أمام جرأة مصطفى كمال في قلب نظام تركيا رأساً على عقب بإلغائه السلطنة والخلافة وإقامته النظام الجمهوري العلماني الذي حظر كل تدخل للدين في شؤون الدولة"⁽⁴⁾.

أما مقدم كتاب الرجل الصنم فيشير إلى أن ما حققه مصطفى كمال كان يفوق كل تصور، ولم يصل إليه إلا بعد إعداد جيد ودقيق وبأسلوب ديكتاتوري فردي، ولا يمكن لهذا البناء أن يصمد طويلاً ما دام بني مخالفاً لعقيدة الأمة ضد رغباتها وقسراً عنها، ولذلك عمل على حمايته بقانون يمنع انهياره وتداعيه، يقول: " إن السبب الكامن وراء كل تزييف للحقيقة هو أن جميع الأبواب والمسالك والطرق تسد في وجه جميع الآراء وتكتم جميع الأفواه، ولا يبقى سوى رأي واحد يسمح له بالوجود، حيث تفتح أمامه جميع الأبواب، وتسخر له جميع الأبواق، ويظل هذا الرأي يتردد ويتردد لسنوات حتى يترسخ في الأذهان كحقيقة لا سبيل إلى نقاشها ... وهذه هي المشكلة بالنسبة لسيرة حياة مصطفى كمال، قبض على الحكم - بعد سلسلة من المناورات - بيد من حديد، وأقام نظاماً ديكتاتورياً تحت لافتة الجمهورية، وقدم نفسه على أنه منقذ تركيا وبانيها،

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 542، السنة/8/11 سبتمبر أيلول، 1981م، ح 12، ص 39

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 579، السنة، 13/13 يوليو تموز، 1982م، ح 49، ص 42

(3) باتريك سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 157

(4) مقال، تركيا والعرب مدُّ وجَزُر، ص 44-45

وأما القواد والكبار الذين قادوا حركة التحرير فقد تركوا لزوايا الإهمال، ومشكلة مصطفى كمال كمسألة ستالين، ومشكلة الكشف عن الهوية الحقيقية لمصطفى كمال أعقد من قضية ستالين، فالذين جاءوا بعد ستالين كشفوا حقيقته، أما الذين جاءوا بعد مصطفى كمال فقد عملوا العكس، أصدروا قانوناً لحماية مصطفى كمال من أي انتقاد، ولا يزال هذا القانون سارياً إلى اليوم، قانون غريب في بلد يدعي أنه يسير على النهج الديمقراطي، قانون يكتم الأفواه ويمنع مناقشة الحقائق، وهو دليل العجز... والخوف من انكشاف الحقائق. تستطيع في تركيا اليوم أن تقدح في ذات الله وفي الرسل والأنبياء والناس أجمعين، وبجميع الكتب السماوية وغير السماوية وبكل شيء، ولكنك لن تستطيع أن تقول حرفاً واحداً ضد مصطفى كمال، لقد جعلوا منه صنماً في حياته وبعد مماته، وهم يحاولون اليوم أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق⁽¹⁾.

وبقدر ما عدّ ذوو الاتجاه السابق إجراءات مصطفى كمال نحو هدم الخلافة عملاً شائناً وسيئاً عاد بالنتائج الخطيرة على الأمة الإسلامية، فقد اعتبره آخرون عملاً تطويرياً لتركيا نقلها إلى عالم التمثيل والحضارة، يقول: زيادة: "أما الدور الذي قام به مصطفى كمال في خلق تركيا الحديثة، فإليه يرجع الفضل في تنريك الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية"⁽²⁾. ويقول الزين: "أنا شخصياً لا أميل إلى الاعتقاد أن أتاتورك كان عدواً للدين كما حاول أن يصوره معظم الذين كتبوا عنه من المؤلفين والمؤرخين الأوربيين، لكنه كان بطلاً وطنياً مخلصاً لبلاده وشعبه، فكان من الطبيعي أن يحارب ويقاوم أعداء هذا الشعب الداخلين، كما حارب أعداءه الخارجيين، حتى لو كان هؤلاء متعممين بعمامة الخلافة"⁽²⁾.

سابعاً: إجراءات مصطفى كمال الانقلابية ضد نظام الخلافة.

"حملة التغريب وتحويل الدولة نحو العلمانية"

أ- إلغاء منصب الخلافة وطرد الخليفة من الأراضي العثمانية.

بعد أن قضى مصطفى كمال على الخلافة في الثالث من آذار عام 1924م، ركز حملته على اقتلاع هذه الشجرة العملاقة من جذورها وجعلها أثراً بعد عين وشيئاً من مخلفات الماضي، ولأجل ذلك بدأ بسلسلة إجراءات وحملة تغريب تصل في النهاية إلى تحقيق مفهوم التغريب، بكل ما لهذا المفهوم من ظلال وتطبيقات على أرض الواقع، فهو أولاً يسعى إلى جعل الدولة والأمة والبلاد تتبع الغرب وتسير على أثرهم في كل شيء، حتى تصبح تركيا بواقعها المعاصر وتوجهها المستقبلي كأنها دولة أوروبية غربية في قوانينها وأنظمتها ودستورها وعاداتها وتقاليدها، وفي كل جزئية من جزئيات الحياة، وثانياً: يريد مصطفى كمال أتاتورك أن يجعل تركيا غريبة عن

(1) ضابط سابق، الرجل الصنم، مقدمة المترجم، ص 7-8

(1) زيادة، العروبة، ص 55

(2) الزين، ذنب الأناضول، ص 229

ماضيها وحضارتها وتراثها وأمجادها، ويخرجها من جلدتها، ويجعلها تنكر ذاتها، لدرجة أنها بالباسها ثوب التغريب لا تصدق ما يحدث معها!! أهي دولة الخلافة العريقة؟ بحيث تصبح كالناظر إلى نفسه في المرآة بعد لبس قناع تنكر، فتأخذ الدهشة والاستغراب من التجافي الجذري بين وجهه السابق ووجهه الحالي، وللوصول إلى هذه الحالة قام مصطفى كمال أتاتورك بحملة مكثفة ضد كيان الدولة العثمانية تناولت كل جزئياتها، بحيث شملت بناء الأمة وتكوينها الاجتماعي ونقضته لبنة لبنة، وشملت هيكلية الدولة وتركيبتها ووزاراتها ومؤسساتها ودستورها وتشريعاتها، وفي الجلسة التي عقدها مصطفى كمال للمجلس الوطني الكبير، الذي يدين نسبة غالبية من أعضائه بالولاء والتبعية والخضوع له، في 3/ آذار سنة 1924م، وبعد جدل حاد وعنيف استغرق طوال الليل اختتمت الجلسة في حوالي الساعة السادسة والنصف صباحاً، وافق المجلس على القانون المقدم لإلغاء الخلافة بتوقيع خمسين عضواً عليه وفي مقدمتهم وزير الشريعة المسمى سيد بك، الذي استخدمه مصطفى كمال في فتاوي السوء ضد الخلافة الإسلامية، ثم لفظه وأبعده عنه⁽¹⁾، ونص هذا القانون على:

1- خلع الخليفة وإلغاء الخلافة، لأن الخلافة في أصلها مندمجة في معنى ومفهوم الحكومة والجمهورية.

2- حرمان الخليفة المخلوع وأفراد العائلة العثمانية ذكوراً وإناً وأصهارهم من الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية إلى الأبد، ويشمل هذا أولاد نساء هذه العائلة أيضاً.

3- إجبار الجميع على مغادرة البلاد خلال عشرة أيام.

4- سلخ الرعوية التركية عن الأشخاص المذكورين (سحب الجنسية التركية منهم).

5- حظر تصرف أي منهم بالأموال غير المنقولة داخل الجمهورية مع حفظ حقوقهم بمراجعة محاكم الدولة بطريق التوكيل لتصفية علاقاتهم خلال سنة واحدة، بحيث يسقط حقهم في المراجعة إلى أي محكمة بعدها.

6- إعطاء نفقات سفر لهم لمرة واحدة متناسبة مع حالة كل منهم.

7- وجوب تصفية الأموال غير المنقولة خلال سنة واحدة وبعلم الحكومة وإذنها، وإذا لم تصف من قبلهم في المدة المذكورة تصفى بمعرفة الحكومة وتعطى لهم أثمانها.

8- نقل ملكية الأموال المسجلة في الطابو في بلاد الجمهورية على أسماء السلاطين إلى الأمة.

9- نقل ملكية جميع ما في قصور وأماكن السلطنة الملغاة من مفروشات وأوانٍ ولوحات وتحف وسائر الأموال المنقولة إلى الأمة.

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 579، السنة/13/13 يوليو تموز، 1982م، ح 49، ص 42 مصطفى صبري، النكير على منكري النعمة، ص 48، ميكوش، مصطفى كمال، ص 362، عفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 41 OZTUNA, BUYUK. OSMANLI TARIHI. CILD.5.P. 512-513

10- نقل ملكية جميع الأملاك الخاقانية وأملاك الخزينة الهمايونية (الأملاك التابعة لديوان الخليفة) ومحتوياتها ومباني القصور وملحقاتها إلى الأمة⁽¹⁾.

تبلغ الخليفة بهذه القرارات الجائرة فتلقاها بصبر عجيب كما تقول باتريك في مساء يوم 4/ آذار في اليوم التالي لصدورها، وطلب منه مغادرة البلاد⁽²⁾، فغادر في صباح 15/ آذار 1923م مع ابنه وابنتيه يتبعه عدة سيارات تقل أفراد أسرته وحواله إلى سويسرا في اكسبرس الشرق، وتعتبر باتريك نفي الأسرة العثمانية وتشتيتها نزولاً عند إرادة الشعب "وتشتتت شمل الأمراء والأميرات واضطروا لأن يعملوا كأفراد عاديين ليحصلوا على قوتهم الضروري"⁽³⁾.

ب- إلغاء وزارتي الشرعية والأوقاف.

كان قرار إلغاء هاتين الوزارتين قد قدم ضمن اللائحة القانونية مع لائحة إلغاء الخلافة، فوافق عليه المجلس الوطني في الجلسة نفسها التي ألغيت فيها الخلافة في 3/ آذار 1924م، ولهذا التلازم بين قرار إلغاء الخلافة وقرار إلغاء وزارتي الشرعية والأوقاف معنى هام ودلالة بليغة، وتعني تجريد الدولة العثمانية من الطابع الاسلامي الرسمي الذي يتلازم مع معنى الخلافة، وهذا تطبيق عملي لفكرة فصل الدين عن الدولة، ولإبعاد الشريعة الاسلامية عن حياة الأمة والمجتمع في مجال التشريع والأحوال الشخصية والأسرة المسلمة، وقد احتوى القانون النصوص الآتية:

1- إن تشريع الأحكام المتعلقة بأمور الناس وتنفيذها عائد لمجلس الأمة وحكومة الجمهورية وفيما عدا ذلك فإن ما يتعلق بالعقائد والعبادات الدينية إلى رئاسة الأمور الدينية التي أسست بموجب هذا القانون في مقر الجمهورية.

2- إن وزارتي الأوقاف والشرعية ملغتان.

3- رئيس الأمور الدينية ينصب من قبل رئيس الجمهورية بناءً على اقتراح من رئيس الوزراء .

4- رئاسة الأمور الدينية تابعة لرئاسة الوزراء وميزانياتها ملحقة بها، وتقرر تشكيلاتها بنظام خاص.

5- إدارة جميع الجوامع والمساجد الشريفة والزوايا الموجودة داخل الجمهورية عائدة لرئيس الأمور الدينية، كما أن عزل وتعيين الأئمة والخطباء والوعاظ والمشايخ والمؤذنين والفؤام وسائر المستخدمين عائد إليه.

6- رئيس الأمور الدينية هو مرجع المفتين.

(1) دروزة، تركيا الحديثة، ص 68-69، قدرى، مصطفى كمال أتاتورك، ص 25-30
(2) باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 157 وانظر: ميكوش، مصطفى كمال، ص 362
(3) ميكوش، مصطفى كمال، ص 362
وانظر: باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 157، درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص 99-101

7- أمور الأوقاف تودع إلى مديرية عامة مربوطة برئاسة الوزراء إلى أن يقرر لها شمل يتفق مع مصالح الأمة الحقيقية.

وفي 8 نيسان 1924م أصدر المجلس الوطني الكبير قانوناً بتشكيلات المحاكم ألغيت بموجبه المحاكم الشرعية، وعهد بمهام هذه المحاكم لمحاكم الصلح، وقد جاء في هذا القانون:

1- إن المحاكم الموجودة في بلاد الجمهورية هي محاكم صلح ومحاكم أصلية ومحاكم تمييز.

2- كل القضايا التي كانت من اختصاص المحاكم الشرعية مثل الوقف والطلاق والزواج والإرث والوصاية والولاية والحجر والنفقة والمهر والنسب والتركات تحول إلى المحاكم النظامية المدنية.

3- كل ما هو مخالف لهذا القانون من أحكام ملغى.

وبهذا القانون أقيمت المحاكم الشرعية، وأصبح القضاء موحداً في الدولة⁽¹⁾، وفي هذا قالت باتريك: "وتعدلت قوانين البلاد فأخذت الحكومة القانون الجزائري من إيطاليا، والمدني من سويسرا، والتجاري من ألمانيا، وأصبح الزواج مدنياً، كما أنه منع تعدد الزوجات"⁽²⁾. ويتحدث رضا نور عن تطبيق القوانين المدنية الغربية في المحاكم التركية بدلاً من الأحكام الشرعية التي كانت مجلة الأحكام العدلية المستمدة من الشريعة الإسلامية، والتي كانت هي السائدة في جميع أنحاء الدولة العثمانية ومن ضمنها البلاد العربية، يقول: "عندما بدأ تطبيق القانون المدني السويسري اضطربت المحاكم اضطراباً كاملاً، لم يكن هناك قاض واحد يفهم هذا القانون، وصدرت أحكام في منتهى الخطأ، لا سيما وأن القانون الجديد يسمح باجتهاد القضاة وهذا مضر جداً"⁽³⁾، ويشير رضا نور أيضاً إلى أن تغيير القوانين واستبدال أنظمة المحاكم وتشريعاتها وقوانينها من التشريعات الإسلامية المعمول بها في مجلة الأحكام العدلية، بأنظمة وقوانين مستمدة من الدول الغربية كسويسرا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا، إنما هو في الأصل تحول في العلاقات من العلاقات مع العرب وأعرافهم وتشريعاتهم المستمدة من الإسلام والشريعة الإسلامية، إلى العلاقات مع الغرب وتشريعاتهم المستمدة من القانون الروماني، يقول رضا نور تحت عنوان شكونا من العرف العربي المسلم ففرض علينا العرف المسيحي السويسري: "تمت الموافقة على هذا القانون في مجلس الأمة بلا مناقشة، مع أن هذا القانون المدني يضم التراث المسيحي، أما نحن الأتراك فقد أسلمنا منذ عشرة قرون، القانون يعني العرف، كنا نشكو أننا أخذنا أعراف العرب،

(1) دروزة، تركيا الحديثة، ص 69-70، درويش، الإسلاميون وتركيا العثمانية، ص 101، 107

(2) باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص 157، وكذا: ميكوش، مصطفى كمال، ص 366

ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 324-325

(3) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 581، السنة 13/3/أغسطس آب، 1982، ح 51، ص 43

وانظر: أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 234-242، غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 42

مقال، تركيا والعرب مدّ وجزر، ص 45، صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص 240

والآن نأخذ العرف المسيحي، مع أن العرب مسلمون مثلنا، ثم إن أساس التشريع السويسري هو التشريع الروماني، لذا كان لا بد من إحداث تعديلات، إن الأخذ به هكذا هو خطأ كبير، لقد أصبح الأتراك بموجبه يحق لهم التزوج بأخوة الرضاع، مع أن الكنائس في فرنسا تمنع هذا الزواج، والقانون المدني السويسري ينص على عدم زواج إخوة الرضاع، لكنها الإضافات والأخطاء⁽¹⁾. وفي مجال الحجاب يقول رضا نور بعد تطبيق قوانين أتاتورك الجديدة: " يقل الحجاب في تركيا، بدء نزاع الحجاب زمن الاتحاديين ويقولون: إن نزاع الحجاب إنما هو أحد الانقلابات التي أحدثها الغازي في تركيا، لكن الحجاب واسطة هامة لبعد المرأة عن الفواحش، وبهذه الصورة يكون الحجاب خادماً لسلامة العائلة"⁽²⁾.

ج- إلغاء المدارس الشرعية.

- وتم إلغاء المدارس الشرعية في الجلسة نفسها التي تم فيها إلغاء وزارتي الشرعية والأوقاف، وقد احتوى القانون الذي أقر في هذه الجلسة على:

1- جميع المؤسسات العلمية والتدريسية في بلاد الجمهورية قد ربطت بوزارة المعارف.

2- جميع ما يدار من قبل وزارتي الأوقاف والشرعية، أو من قبل الأوقاف الخصوصية من مدارس ومكاتب ربط بوزارة المعارف⁽³⁾، وقد قضى بهذه الخطوة على التدريس الشرعي الذي كان يجري على شكل حلقات في المساجد، وكان هذا النوع من المدارس كثير جداً، حتى أنه في ولاية قونية لوحدها في سنة 1317هـ 1899م، يوجد 66/مدرسة، وكانت هذه المدارس تغذي مساجد القرى والمدن والزوايا بالأئمة والوعاظ والحفاظ والمرشدين، وكان لها تأثير عظيم في نشر الثقافة الإسلامية والمحافظة على الفضيلة والأخلاق في المجتمع والأمة⁽⁴⁾.

د- إلغاء الطرق الصوفية.

وقام مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الطرق الصوفية رداً على ما اعتبره من دور لهذه الطرق في الدعوة إلى المظاهرات وإثارة الشعب ضد النظام العلماني في تركيا بعد ما ظهر بشكل جلي وواضح مقاصد أتاتورك في محاربة الاسلام وعدائه له، وقد قدمت لائحة قانونية لأتاتورك بإلغاء الطرق الصوفية والزوايا والتكايا فوافق على ذلك في: 20/ تشرين الثاني سنة 1925م⁽¹⁾.

هـ- تحديد الزی لعلماء الدين الإسلامي وأئمة المساجد والمفتين.

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 581، السنة/3/13/ أغسطس آب، 1982م، ح 51، ص 43

(2) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 582، السنة/11/13/ أغسطس آب، 1982م، ح 52، ص 37 وانظر: صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص 273، قدری، مصطفى كمال أتاتورك، ص 33035

(3) دروزة، تركيا الحديثة، ص 72

(4) دروزة، المرجع السابق، ص 72

(1) دروزة، المرجع السابق، ص 76، غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 42 صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص 257

وتمت هذه الخطوة على أثر تقرير إغلاق الزوايا وإلغاء الطرق الصوفية،
وصدر فيها قرار وزاري نص على ما يلي:

1- الذين يدخلون في صف العلماء في بلاد الجمهورية هم: رئيس الأمور الدينية،
أعضاء الهيئة الاستشارية في رئاسة الأمور الدينية، المفتون وكتبة الإفتاء في مراكز
الولايات والأقضية، الأئمة والخطباء والوعاظ ومعلمو القرى المعينون من قبل رئاسة
الأمور الدينية والتابعون لها.

2- العلامة الفارقة لزي العلماء هي عمامة بيضاء وجبة سوداء، ولون عمامة
أئمة الجيش وجيبهم تابع لمقتضى العسكرية.

3- لا يجبر العلماء على اكتساء زيهم الخاص خارج وظائفهم.

4- أن الأصل أن يكون العلماء في الدوائر الرسمية مكشوفي الرؤوس، ومع ذلك
فهم مخيرون في كشفها أو الاحتفاظ بالعمامة عليها.

5- العلماء مخيرون في طريقة السلام داخل الأبنية أو خارجها بين رفع غطاء
الرأس أو الإشارة بأيديهم، غير أن عليهم تطبيق القانون في مراسم عيد الجمهورية
الرسمي، ويحيوا بالعيد مكشوفي الرأس.

6- لا يجوز لأحد غير الذين ذكروا في المادة الأولى أن يتزيا بالزي العلمي
الديني الاسلامي.

وقد نفذ هذا القرار بجد وسعة، فاختلفت العمام والجبب التي كانت كثيرة جداً،
لأنه كان يلبسها طلبة العلم الشرعي وكثير من الناس في المجتمع ممن يطلبون هذا
العلم في حلقات المساجد، ونسبة كبيرة من أفراد المجتمع⁽¹⁾.
و- إلغاء الطربوش العثماني وفرض القبعة وتعميم الزي الغربي.

وتعد هذه الخطوة مكملّة لما سبقها من خطوات وقوانين وقرارات تحارب
المظاهر الاسلامية في ظل الجمهورية العلمانية الجديدة التي فرضها مصطفى كمال
بالقوة والبطش على الشعب التركي المسلم، وقد تزامنت أيضاً مع نظيراتها من
القرارات في الأسبوع نفسه الذي اتخذت فيه القرارات السابقة، وقد عمل مصطفى

(1) درّوزة، تركيا الحديثة، ص 78-79

كمال أتاتورك على تشكيل المحاكم العسكرية الميدانية لإعدام كل من يخالف تعليماته وقراراته إعداماً فورياً رمياً بالرصاص أو شنقاً في الساحات العامة في المدن والقرى لإرهاب الناس وحملهم على تنفيذ قراراته بالقسر دون مخالفة أي منها، أما النص القانوني لإلغاء الطربوش وفرض القبعة (الفلنسة) الغربية فهو كما يلي: "إن جميع أعضاء المجلس والموظفين والمستخدمين في جميع المؤسسات الرسمية والخصوصية مجبرون على اكتساء القبعة التي اكتستها الأمة، وقد أصبحت غطاء الرأس لجميع الشعب التركي، وعلى الحكومة منع كل غطاء رأس غيرها"⁽²⁾.

وقد أحدث هذا القانون ردة فعل قوية لدى أوساط الشعب التركي كافة، وقوبلت بالفرض والاستنكار الشديدين، وقامت الثورات المسلحة في أنحاء البلاد ضد هذا القرار، إذ رأى فيه الشعب المسلم تحدياً لمشاعره، لأن الطربوش رمز الدولة العثمانية، وشعر الشعب أنه طعن في شعاره القومي على حد قول أرمسترونج⁽³⁾، وذكر دروزة أن فريقاً غير يسير من المحافظين والمتدينين في المدن والقرى أضمرُوا وما يزالون يضمرون النقرة الشديدة على هذه الخطوة، حيث رأوا فيها رمزاً من رموز الإلحاد والزندقة⁽⁴⁾. أما رضا نور فقد أسهب في الحديث عن قانون القبعة الذي فرضه مصطفى كمال على الشعب المسلم في تركيا كبديل إجباري عن غطاء الرأس المتعارف عليه "الطربوش" طوال العهد العثماني، ويؤكد رضا نور أن الاتحاديين كانوا طوال مدة حكمهم (1909-1918م) كانوا بشكل عملي وتدرجي يفرضون التقليد للغرب على الشعب التركي، ويروجون حملة التغريب بالتطبيق البطي والممارسة العملية لتصبح العادات الغربية رائجة بين أفراد المجتمع مع مرور الزمن، ولذلك فإن مصطفى كمال أتاتورك ليس إلا استمراراً في تطبيق ما بدأه أسلافه من الاتحاديين في ترويج حملة التغريب على الأمة المسلمة في تركيا، ولكن بأنظمة وقوانين ملزمة وبعقوبات صارمة وشديدة على المخالفين لتلك القوانين، وهو ما يمكن أن يقال عنه فرض التغريب بالقوة وحمل الأمة على القبول به بالإكراه، يقول رضا نور: "في عهد الاتحاد والترقي بدأ الناس يستخدمون القبعة، وفي الحرب العالمية الأولى كان بعض النساء التركيات يخرجن إلى الشوارع مثل المرأة الأوروبية، وكان سيتم انتشار القبعة رويداً رويداً، إلا أن مصطفى كمال ليثبت عبقريته فرض القبعة على الشعب بقوة القانون... بعد إعلان حالة الطوارئ وجد مصطفى كمال طريقاً حراً لمزاولة هوسه ورغباته، ذات يوم وضع مصطفى كمال على رأسه قبعة وذهب في جولة في البلاد، وعندما وصل إلى قسطنطيني (منطقة تركية) هبَّ على مزاجه ربح إصدار قانون يقضي بتحريم الطربوش وفرض القبعة، التزم المشايخ بالصمت، ومن الغريب أن أول من لبس القبعة حتى قبل إصدار قانونها كان شيخاً مفتياً، كان هذا المفتي هو صاحبنا الشيخ حسن فهمي الكرجي ذو اللحية الحمراء... أحدث هذا القانون

(2) دروزة، تركيا الحديثة، ص 79

(3) أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 224-230

(4) دروزة، تركيا الحديثة، ص 79-80

انكساراً معنوياً لدى الشعب، فقد ظن الناس أننا أصبحنا كفاراً، وأخذوا يسنون أسنانهم لمواجهة الحكومة، إن هذا القانون سبب ضرراً اقتصادياً بالغاً، وكان اليهود هم المستفيد الوحيد من ذلك، فقد جلبوا إلى البلاد ملايين القبعات الجديدة والقديمة من إيطاليا وفرنسا، يشترون القبة الواحدة بليرتين أو ثلاثة ويبيعونها بعشرة ليرات على الأقل⁽¹⁾ ثم يندد رضا نور بعلماء الشريعة الإسلامية لأنهم لم يثوروا على فرض القبة، مع علمه أن الإعدام عقوبة من يفعل ذلك، ثم يذكر أن الشعب ثار ضد القبة، وأن أحد العلماء شنقوه لأنه أصدر رسالة علمية (كتيباً) ضد القبة، على أن إصداره هذه الرسالة كان قبل فرض قانون القبة، يقول رضا نور: "كنا قد التقينا بالشيخ رائف في المجلس (مجلس النواب) ذات يوم بعد القبة، قلْتُ له: أين أنتم أيها المشايخ؟! إنكم سريعاً ما تكفرون كل شيء وتقيمون الدنيا وتعدونها، أما بالنسبة لأمر القبة، فكان من الواجب أن تكونوا أول من يثور عليه!! لكنكم ارتديتموها جيداً، إنكم معشر المشايخ أكثر فئة في الأمة التركية تعفناً! فقال لي: الحق معك... ويتابع قوله: قامت ضد قانون فرض القبة على الشعب التركي عدة ثورات في سيواس وأرضروم وأماكن أخرى، وسريعاً ما أمر مصطفى كمال بأن تقوم محكمة الاستقلال فوراً تحت رئاسة علي الأترع بالانتقال إلى مكان الأحداث، لقد أعدموا رجالاً كثيرين لا تعرف أعدادهم، تألمت كثيراً من أجل شيخ أعدموه، نشر المسكين رسالة علمية ضد القبة، وكان هذا قبل صدور قانون فرض القبة، كما كان هذا النشر بإذن وتصريح من وزارة المعارف التركية، أخذوا هذا الرجل إلى محكمة الاستقلال، لم يستمع إليه أحد وشنقوه"⁽²⁾ ويشير رضا نور إلى قيام الثورات العديدة ضد مصطفى كمال على تحديه لمشاعر الشعب وطعنه في صميم كرامته، بما فرضه عليه من قوانين العلمانية من أجل حمله على ترك إسلامه وعقيدته وعاداته وتراثه واتباعه الغرب في كل شيء، يقول رضا نور: "الأكراد يثورون ثورةً عارمةً، لم تكن ثورتهم لقيام دولة كردية، فهم لا يفكرون في هذا، وإنما ثورتهم نتيجة التتكيل الشديد الذي فعلته من قبل قوات مصطفى كمال ضد الشيخ سعيد الكردي، انضم للثوار عدد من ضباطنا فيهم من يحمل رتبة الباشا العسكرية، جاء واحد من استانبول أخبرني بالآتي: تظاهر الشعب في الشوارع صائحين: يسقط مصطفى كمال، مما أفقده صوابه"⁽³⁾. ويبين رضا نور أن سبب ثورة الشيخ سعيد الكردي ضد مصطفى كمال هو إغلاق المدارس الشرعية وفرض القبة: "كان الشيخ سعيد عظيم الدين، لقد أثار إلغاء مصطفى كمال للمدارس الدينية والزوايا، وكذلك مسألة فرض القبة، كل هذا أثار ثائرة الشيخ، فقام بعصيانته، فهم مصطفى كمال هذه الحركة على أنها تمرد قومي كردي، وفي نفس الوقت حركة رجعية (إسلامية)، مع أن التحقيقات أثبتت أنه لا يوجد على الإطلاق

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 580، السنة/27/13 يوليو تموز، 1982، ح 50، ص 36-37

وانظر: ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 313-324

(1) رضا نور، المذكرات، مجلة المجتمع الكويتية، ع 580، السنة/27/13 يوليو تموز، 1982م، ح 50، ص 37

(2) رضا نور، المصدر السابق، ع 583، السنة/17/13 أغسطس آب، 1982م، ح 53، ص 38، وانظر عن ثورة الشيخ سعيد النورسي والتعريف به: درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص 146-157

عصيان كردي قومي، قال لي صائب عضو محكمة الاستقلال: لا توجد مسألة كردية في هذا الأمر، لم تكن هذه الحركة إلا بدافع الدين، استولى الشيخ سعيد ورجاله على ديار بكر وعدة أماكن مثلها، وتقدموا حتى خربوط، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد اقترح مصطفى كمال على فتحي (رئيس أركان الجيش)، عمل قانون طوارئ يسمى: قانون تقرير السكون، وحل المسألة بعد ذلك، وشمل هذا القانون كل أنحاء البلاد، وفي ثورة الشيخ سعيد أرسل مصطفى كمال جيشاً إلى كردستان، لم يترك هذا الجيش مكاناً هناك إلا وأطلق عليه الرصاص، أحرق القرى وقتل الناس، وأعقب هذا الجيش محكمة الاستقلال، شنت المحكمة الشيخ سعيد وكثيراً من قاداته⁽¹⁾.

ز- استبدال اللغة العثمانية بحروفها العربية باللغة التركية الحديثة بحروفها اللاتينية.

- وجرياً على مبدأ التحول نحو التغريب، حمل مصطفى كمال الشعب التركي على ترك اللغة العثمانية التي تكتب بأحرف عربية، واستحدث لغة جديدة مصدرها الأحرف اللاتينية، حيث كلف في حزيران سنة 1928م وزير المعارف تشكيل لجنة لوضع اللغة الجديدة بحروفها اللاتينية، وقام مصطفى كمال بجولات ميدانية على المدارس في أنحاء البلاد يتابع من خلالها عملية التحول من اللغة العثمانية إلى اللغة الجديدة بحروفها اللاتينية⁽²⁾، لأنه يعتبر اللغة العثمانية سبب التأخر العلمي!! ولأجل تعلم الحروف اللاتينية أجبر الرجال والنساء دون سن 24 سنة على تعلم اللغة الجديدة، واضطر الكبار من الرجال والنساء لدخول المدارس الليلية لتعلم هذه اللغة⁽³⁾، كما أجبر المؤذنين في المساجد على ترك الأذان باللغة العربية، وأن يؤذن باللغة التركية⁽⁴⁾، وعمل على تغيير الألقاب القديمة التي يتداولها الشعب التركي واستبدالها بألقاب جديدة لتشمل عملية تطهير اللغة وتحويلها كل شيء فيها، فألغيت الألقاب القديمة مثل باشا وبيك وغير ذلك واستبدالها بألقاب جديدة، حتى يمسح كل أثر يتصل بالتاريخ العثماني المرتبط مع العرب باللغة والتراث والعادات والأعراف والألقاب من بين ذلك⁽²⁾.

ح- اتخاذ أنقرة عاصمةً للجمهورية التركية الحديثة.

أراد مصطفى كمال أن يطبع كل شيء في الدولة بطابع جديد يبعده عن التاريخ العثماني، ويبدأ به مرحلة منفصلة تماماً عن ذلك التاريخ وتراثه الحضاري، من أجل أن يكون له تعظيم وتمجيد في المستقبل، لأجل ذلك عمل على اتخاذ أنقرة كعاصمة جديدة، نظراً لما تشغله استانبول من مركز عظيم في أذهان الشعب التركي المسلم⁽³⁾ (إسلام بول)

(1) رضا نور، المصدر نفسه، ع 581، السنة 13/3/ أغسطس آب، 1982م، ح 51، ص 42 وانظر: ميكوش، مصطفى كمال ص 364-366، دروزة، تركيا الحديثة، ص 74-75

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 333-353، درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص 128-132

(3) ميكوش، مصطفى كمال، ص 366

(1) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 353-354

(2) ضابط سابق، الرجل الصنم، ص 355-360، وانظر: أرمسترونج، مصطفى كمال أتاتورك، ص 230-234. غفور، تاريخ تركيا المعاصر، ص 43، صويص، أتاتورك منقذ تركيا، ص 262

قُدري، مصطفى كمال أتاتورك، ص 31-32، 39

(3) دروزة، تركيا الحديثة، ص 80

مدينة الاسلام وعاصمته التي ارتبطت بالتاريخ العثماني، ولما لها من مكانة مرموقة في العالم العربي والعالم الاسلامي، لذلك أراد أن يتخذ أنقرة عاصمة للدولة التركية الحديثة التي يريد أن يلحقها بأوروبا، ويسلخها عن أي ارتباط بالاسلام والمسلمين، فاتفق مع رئيس وزرائه عصمت على ذلك، وأوعز إليه بأن يقدم اقتراحاً قانونياً بجعل أنقرة مركزاً للدولة، وقد أقر هذا الاقتراح في: 13/تشرين الأول عام 1923م، وصارت العاصمة الجديدة لجمهورية تركيا، ودخل هذا النص فيما بعد في صلب الدستور الجديد للجمهورية⁽⁴⁾.

ط- تحويل العطلة الأسبوعية إلى الأحد بدل الجمعة.

حسم مصطفى كمال أتاتورك العطلة الأسبوعية لتتماشى مع كافة القوانين الجديدة التي تهدف إلى جعل تركيا في عهد الجمهورية تفتني أثر الغرب في سائر مناحي الحياة، وقد كانت العطلة الأسبوعية إحدى المسائل التي شملتتها حملة التغييرات الجديدة، وسلك في تنفيذها مسلك التدرج، فقد أصدر في 2/كانون الثاني لسنة 1924م قانوناً باسم عطلة الأسبوع ينص على قرارات عديدة ما يهم منها في هذا المجال هو جعل العطلة الرسمية يوم الجمعة، وقد ظل الأمر كذلك لمدة عشر سنين، ثم بدل يوم الجمعة بالأحد، وجعل الأحد عطلة يوم الأسبوع عامة لكل الدولة، وصدر في ذلك قانون عام 1935م حدد الأعياد الرسمية ومنها عطلة الأسبوع، وينص هذا القانون في المادة رقم (4) علي ما يلي: إن عطلة الأسبوع هي يوم الأحد⁽¹⁾. وبذلك تصبح العطلة الأسبوعية منسجمة مع مثيلاتها من المسائل والأمور التي حذا فيها مصطفى كمال حذو الغرب، وصارت العطلة الأسبوعية في تركيا بموجب القانون يوم الأحد، شأنها في ذلك شأن أية دولة من دول الغرب.

ي- اتخاذ التقويم الغربي تقويماً جديداً لتركيا.

وقد أصدر مصطفى كمال قانوناً باتخاذ التقويم الغربي تقويماً رسمياً في تركيا في 26 كانون الأول سنة 1925م كما حدد استعمال التاريخ الهجري (القمرى) في حالات مخصوصة محدودة، ووضح أن الخطوة متسقة مع الفكرة العامة في أخذ عادات الغرب العامة بطريق التشريع⁽²⁾.

مما سبق يُخلص إلى القول إن مصطفى كمال أتاتورك عمل على قطع عرى الترابط الوثيقة التي جمعت بين العنصرين التركي والعربي تحت راية الاسلام وفي نطاق الرابطة العثمانية والجامعة الاسلامية، وكانت العلاقات بين هذين العنصرين قوية ومتينة تشمل كل جوانب الحياة، ولذلك لم يكن من السهل تقطيعها والعبث بها، ودليل ذلك أن مصطفى كمال أتاتورك بذل جهوداً مكثفة خلال المدة التي عمل فيها مع التيار التغريبي والحركة الماسونية تحت غطاء ما يسمى بالحركة الوطنية، حتى

(4) دروزة، تركيا الحديثة، ص 82-81

(1) دروزة، تركيا الحديثة، ص 82-86

(2) دروزة، المرجع نفسه، ص 86

استطاع تثبيت نفسه في موقع القرار كقائد للبلاد ورئيس للجمهورية، ومن ثم بدأ في القضاء على البناء العثماني الضارب جذوره القوية والثابتة في أعماق التاريخ لقرون عديدة سابقة، واحتوى برنامجه الانقلابي خطاً تغييريةً لكل شيء في أنظمة الدولة وتشريعاتها ومؤسساتها ودوائرها، وفي القضايا الحياتية اليومية للفرد والمجتمع والدولة والأمة، واستخدم في سبيل ذلك كل وسائل التغيير المتاحة، واستعمل كل أساليب القوة والشدة والترهيب لحمل الناس على القبول به، متجاهلاً الأعراف والتقاليد والطبيعة التكوينية للشعب المسلم في تركيا، الذي جُبل على التدين بطبيعته الفطرية، ودلت شمولية خطة أتاتورك الانقلابية على تصميمه توجيه البلاد نحو الغرب، وتقطيع كل أسباب الالتقاء والاتصال بين العرب والأتراك، وجعل تركيا في مستقبلها بعيدة كل البعد عن ماضيها وتاريخها العثماني وحضارتها القائمة على النظم الإسلامية المظلمة براية الخلافة مصدر قوة المسلمين ورمز هويتهم وعزتهم، والتي كانت أسباب الارتباط مع العرب، لأن العرب مادة الاسلام وحملة رسالته، وهم الذين بلغوا الرسالة الإسلامية إلى الأتراك وإلى غيرهم من الشعوب والأمم، وبجحاح مصطفى كمال أتاتورك في القضاء على الدولة العثمانية ومؤسسة الخلافة، وتحويل هذه الدولة عن مناهجها الإسلامي إلى العلمانية، وفصل الدين عن الدولة، يكون بهذا قد قطع كل شرايين الحياة في العلاقات بين الدولة العثمانية والعرب عامة، وبلاد الشام بشكل خاص، وفي الوقت ذاته تمكن من إيجاد فجوة بين العرب والأتراك بتتكره ومحاربتهم للأسباب التي كانت عوامل الاتصال بين الجانبين، وكانت أسباب الالتقاء والتآخي لقرون سالفة بينهما، صهرت هذين العنصرين في بوتقتها، وأذابت انتمايهما القومي، وشكلته في قالب جديد ضمن إطار الرابطة العثمانية، وبهذا أسقطت الخلافة العثمانية وقطعت العلاقات بين العرب والعثمانيين التي توجت بتاج العز والتآخي في ظل دولة الخلافة لمدة دامت أكثر من أربعة قرون، ولم يتمكن هؤلاء الأعداء من القضاء عليها إلا باجتثاث دولة الخلافة من جذورها، وانتهت هذه العلاقات بتغريب مصطفى كمال لتركية وسلخها عن عثمانيتها، وعن العرب الذين التقوا معها بهذه الرابطة العثمانية.

الخاتمة

حملت الدولة العثمانية راية الخلافة الإسلامية بعد أن وصل المماليك إلى درجة من الضعف والعجز لم يعودوا قادرين فيها على القيام بمسؤولية الدفاع عن الأمة الإسلامية ودولتها المترامية الأطراف في المشرق والمغرب، وباتت أساطيل الغرب وجيوشهم تهدد البلاد العربية من كل أطرافها في الشام ومصر وبلاد المغرب عند سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكذلك سواحل الخليج العربي، ووجدت الدولة العثمانية الفتية نفسها أمام هذا التحدي الكبير، فصممت على مواجهته والنهوض بأعباء المسؤولية والأمانة التاريخية الملقاة عليها تجاه الأمة الإسلامية، وبحكم نشأتها كدولة عسكرية بلغت أوج قوتها مع مطلع القرن السادس عشر، وبدأت تتحرك نحو العالم العربي بعد أن شمل توسعها العسكري منطقة أوروبا الشرقية أو ما يعرف بدول البلقان، وشعرت الدول الكبرى آنذاك كفرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا أن العثمانيين باتوا يهددونهم في مناطق نفوذهم وفي مصالحهم، وازداد هذا الشعور حين تقدمت الجيوش العثمانية المسلمة نحو بلاد الشام ودخلتها ظافرة في عام 1516م، 923هـ، وبسطة سيطرتها عليها منهيّة بذلك عهد المماليك في حكم هذه البلاد، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة بلاد الشام في ظل دولة الخلافة العثمانية، ورحب أبناء الشام بالعثمانيين من منطلق أن الدولة العثمانية تحكمهم باسم الإسلام، وجاءت لبلادهم لترد عنها خطر الحملات الصليبية الذي عانت منه لقرون سابقة، ولم يعد بإمكان المماليك القيام بهذا الواجب الإسلامي، ولهذا تنتفي عن الدولة العثمانية صفة الاحتلال والاستعمار، لأنها جاءت إلى البلاد العربية للقيام بواجب الدفاع عنها في وجه الخطر الاستعماري الصليبي الحديث، من حيث كونها دولة إسلامية جاءت تحمي البلاد الإسلامية من الهجمة الأوروبية الجديدة، وتؤدي رسالتها الإسلامية في هذه الحماية كامتداد للأمويين والعباسيين وآل الزنكي والأيوبيين والمماليك وفي حمل الراية الإسلامية، وقد اعرب العثمانيون عن هذا الموقف في خطابهم السياسي الإسلامي الموجه لأبناء بلاد الشام ولغيرهم من أبناء البلاد العربية حين دخلوا هذه البلاد، وفي المقابل أدرك العرب المسلمون أهمية الدور الذي جاء العثمانيون إلى بلادهم للقيام به، فاستقبلوا العثمانيين وفتحوا لهم قلوبهم، وأعلنوا انقيادهم وولاءهم لهم، وخطبوا لخلفائهم على منابر المساجد، ودعوا لهم من فوق هذه المنابر كأئمة للمسلمين وخلفاء وقادة وحماة لديار الإسلام وحراس للعقيدة والشريعة الإسلامية، ولم يبدأ هذا التآخي بين العرب والعثمانيين بالفتح العثماني لبلاد الشام والبلاد العربية الأخرى، بل عبّر العرب والعثمانيون عن تقاربهم وتواصلهم قبل ذلك منذ أيام السلاطين العثمانيين الأوائل، حين بدأ هؤلاء السلاطين يتوددون إلى العرب بدافع الأخوة الإسلامية، ويرسلون المعونات المالية لأشراف مكة وهو ما عرف بـ "الصُرّة السلطانية" كما يرسلون الكسوة للكعبة المشرفة، ويرسلون الحجاج إلى بيت الله الحرام ويزودونهم بالهبات والعطايا والهدايا لأبناء الحجاز ولل سكان المجاورين للحرمين الشريفين في

مكة المكرمة والمدينة المنورة، بل وتعدى التعبير عن الأخوة وصدق العلاقة إلى أكثر من ذلك، عندما أرسل السلطان محمد الفاتح إلى حاكم مصر المملوكي يبشره بفتح القسطنطينية (استانبول) وأن ذلك عز ومجد للعرب والمسلمين قاطبة، وتوالى الرسائل المتبادلة بين السلاطين العثمانيين وسلاطين المماليك إلى نهاية عهد المماليك، ودخل السلطان سليم الأول مصر فاتحاً لها بعد بلاد الشام عام 1517م، ووفد إليه إلى القاهرة ممثل شريف مكة مسلماً إياه مفاتيح الحرمين الشريفين، ومعلنًا ولاء الحجاز لدولة الخلافة الإسلامية وخليفة المسلمين السلطان العثماني، ومعلنًا بدء الخطبة للخليفة العثماني بالدعاء له كخليفة للمسلمين، وانسجاماً مع هذا أكد لهم السلطان سليم الأول أنه جاء إلى البلاد العربية ليضم هذه البلاد إلى دولة الخلافة العثمانية، ويجعلها جزءاً هاماً منها يظلها بحماية ورعاية الخليفة، ويتشرف بحمل لقب أول خادم للحرمين الشريفين، واستمرت العلاقات القوية والمتينة بين العرب والعثمانيين، كدولة خلافة تحكم البلاد العربية، وكعرب رعايا لهذه الدولة ومواطنين فيها حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث أدى الصراع المرير الذي خاضته الدولة العثمانية ضد أعدائها الأوروبيين المتحالفين ضدها، إلى إضعافها، وبدأت تدب في أوصالها روح الوهن، وتبدو عليها علامات الانهيار، كما أنه في منتصف بدأت تهب على الدولة العثمانية رياح التغيير بفضل عوامل عدة، منها الانهك الاقتصادي والعسكري الذي أصيبت به جراء الحروب الكثيرة التي خاضتها ضد الدول الأوروبية في البلقان وغيرها، ومنها هبوب رياح القوميات عليها بتحريض وتحريك من الأوروبيين، وخاصة الفرنسيين والبريطانيين، الذين نشطوا في إرسال الإرساليات التبشيرية إلى الشام وفتح المدارس والكليات البروتستانتية والكاثوليكية التي تتنافس فيما بينها للترويج للفكر الغربي، وإيجاد موطئ قدم في هذه البلاد للفرنسيين والبريطانيين، وللوصول إلى ذلك أيضاً سَخَرُوا بعض أبناء بلاد الشام من المتأثرين بالتغريب المنبهرين بالحضارة الأوروبية الحديثة، وخاصة من نصارى الشام، وبالأخص من لبنان، الذين لم يكن يربطهم بالعثمانيين أية روابط، فكانوا الرواد الأوائل للفكر الغربي، ودعاة التغريب والنافخين في كير القومية في بلاد الشام، وبدأ هؤلاء الرواد يعزفون على النغمة الطائفية، ويثيرون النعرة القومية والدينية والعصبية العربية ضد العثمانيين، بحجة إحياء أمجاد العرب واستنهاضهم وتنبيههم من غفلتهم وتخلفهم !! وأن سبيل ذلك الاقتداء بالغرب وتقليده، واقتباس فكره ومدنيته وأساليب حياته، وبدأت هذه التيارات التغريبية تقوى وتكثُر الدعوة لها في ربوع الدولة العثمانية بعد دخول القرن التاسع عشر، حيث نجح التيار القومي التركي في فرض واقع جديد على هذه الدولة، بحمل السلاطين العثمانيين الذين قادوا الدولة في هذه الفترة، محمود الثاني ومن بعده ابنه السلطان عبد المجيد الأول، ثم ابنه الثاني السلطان عبد العزيز، على إدخال إصلاحات على الدولة، وتطوير التشريعات وأنظمة الحكم فيها لمواكبة روح العصر، وهو ما تم العمل به وعرف بعهد التنظيمات، لكن التيار التغريبي ممن عرفوا بالعثمانيين الجدد لم يكتفوا من السلطان عبد العزيز بما قام به من خطوات

تجديدية على الدولة، بل طلبوا منه التنحي وتسليمهم مقاليد الدولة لتحويلها إلى دولة علمانية، ثم قتلوه، لأنه رفض العمل بخططهم بالشكل الذي رسموه، لأن ذلك يعني تحويل الدولة العثمانية عن نظام الحكم العثماني المطبق للتشريعات والقوانين الإسلامية إلى النظام الرئاسي الجمهوري الذي يسير على قوانين وأنظمة الغرب، ولذلك تخلصوا منه بخنقه وصورة بشعة، وجاءوا بابن أخيه مراد الخامس، وهم واثقون من نجاح برنامجهم، لأن مراداً، منتظم معهم في الحركة الماسونية وفي الوقت ذاته مقتنع وموافق لهم على تطبيق ذلك البرنامج، لكن القدر أفشل خططهم بما طراً على مراد من جنون، الأمر الذي أدخلهم في حلبة الصراع مع أخيه الأصغر الأمير عبد الحميد الثاني، واضطروا لمفاوضته على ما يريدون، من أجل استمرار السير بالدولة العثمانية نحو التغريب ونحو العلمانية، وكانوا مرغمين على التفاوض معه لكونه ولي العهد الأحق بالخلافة، وتمكن عبد الحميد بدهائه وحنكته من استجراهم للموافقة على توليه العرش، وبويع بالخلافة في عام 1876م، مبدئياً لهم كل المرونة والتجاوب ليتمكن نفسه في سدة الخلافة، وتطميناً لهم أعلن عن موافقته على إعلان المشروطة الأولى (القانون الأساسي) أو ما عرف بالدستور، الذي وضعه وزراؤه دعاة التغريب، وفي مقدمتهم مدحت باشا، ولم يكن العرب بغائبين عن هذا الحدث الضخم، فقد أعلنوا تأييدهم كراعيا للدولة العثمانية لحركة الدستور، وهلل التيار القومي العربي في بلاد الشام للعمل بالدستور، وكانت ملامح هذا التيار قد بدأت بالظهور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مع بدء عهد عبد الحميد الثاني، حيث أعرب التيار القومي العربي في بلاد الشام عن ابتهاجه بإعلان الدستور، لكن سرعان ما خيب السلطان عبد الحميد آمال زعماء التيار القومي بشقيه العربي والتركي، وأفصح عن شخصيته الإسلامية بعد أن ثبتت أقدامه في سدة الخلافة، وبدأ بتنفيذ برنامجهم القائم على أربعة دعائم هي:

أولها: الحفاظ على إسلامية الدولة العثمانية وتجذير هذا المفهوم وتدعيمه.

وثانيها: التخلص من الخطر الذي يهدد نظام الخلافة العثمانية ويبعد الدولة عن حضارتها وتراثها الإسلامي، ويسعى لقلب نظامها، وذلك بإبعاد زعماء التيار التغريبي العلماني الذي يشكل هذا الخطر، ومن ثم تعطيل القانون الأساسي أو المشروطة، وإيقاف العمل به، لما يحمله هذا القانون من مضار على الدولة في حال الاستمرار بتطبيقه، لكونه الوسيلة التي ينفذ من خلالها دعاة التغريب للوصول لأهدافهم في توجيه الدولة والأمة نحو التغريب.

وثالثها: التمسك بالعلاقات العربية العثمانية وتمتين أواصر الإخاء بين العنصرين العربي والتركي، وتقريب العرب والتحبب إليهم والحفاظ على بلادهم، كجزء هام من أجزاء الدولة العثمانية.

ورابعها: العمل على النهوض بالدولة ومحاولة بنائها بعد أن وصلت إلى مرحلة أطلق عليها أعداؤها تسمية الرجل المريض، وكان على رأس أولويات ذلك تقوية

الجيش والنهوض بالاقتصاد. لكن الأعداء الداخليين والخارجيين لم يمهلوا عبد الحميد، فكثفوا من الحملة الدعائية ضده ووصموه بالاستبداد، وأطلقوا على عهده عهد الاستبداد، لأنه أسكت كل الأصوات النشاز التي تسعى لإسقاط راية العثمانيين وإسقاط الخلافة الإسلامية، وهو بسياسته هذه يعمل على تقوية الخلافة، ولذلك غضبت أوروبا الصليبية من جديد، وبدأت بتحريك القوميات التي يتشكل منها سكان الدولة العثمانية، وتحرضها على الثورة ضد العثمانيين، وكانت بريطانيا وفرنسا الخصمان الرئيسان لهذه الدولة قد تبنتا مهمة دعم التيار القومي في بلاد الشام وإثارتها، لكن العرب المسلمين في بلاد الشام أثبتوا ولاءهم للدولة العثمانية وحافظوا على كيانها في ظل الرابطة العثمانية التي تربطهم بإخوانهم الأتراك، وتعاونوا مع الخليفة عبد الحميد في تقوية الجامعة الإسلامية من أجل إسكات النعرة القومية لدى العرب، أما عبد الحميد فقد حافظ على نظام المركزية في إدارة الدولة، في سبيل الحفاظ على وحدتها وعدم تجزئتها.

وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تجد بريطانيا وفرنسا من أبناء العرب في بلاد الشام، وخاصة نصارى لبنان، من يستجيب للتعاون معها تحت ذريعة الحرية والاستقلال والتخلص من الظلم والاستبداد الحميدي كما يشيعون!! إضافة لكون نصارى بلاد الشام، لا سيما في لبنان أكثر أقاليم الشام استجابة لبريطانيا وفرنسا في النزوع للانفصال عن الدولة العثمانية، لأنهم لا يرتبطون بها بأية روابط، فكانوا الأقرب إلى الخروج عن هذه الدولة، ولكن وبالرغم من بروز التيار القومي العربي في بلاد الشام خلال عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، وبالرغم من تصدر نصارى لبنان لهذا التيار، فإن العلاقات العربية العثمانية بقيت حتى نهاية عهد عبد الحميد قوية وجيدة، بفضل سياسته الإسلامية التي اسكتت النعرات القومية والعصبية العرقية بشقيها العربي والتركي، وكان السمت العام لهذا العهد هو غلبة الرابطة العثمانية الإسلامية بين العنصرين العربي والتركي على الرابطة القومية، وعدم تمكين النعرة القومية من الظهور وإسكاتهما، من خلال السياسة المتوازنة التي أدارها التيار الإسلامي في دولة الخلافة العثمانية، والتي تمثلت بشخص الخليفة عبد الحميد، وظهرت ثمار هذه السياسة عملياً على العلاقات العربية العثمانية، بإطفاء النعرة القومية الطورانية، ومحاربتها الصارمة والشديدة من قبل الخليفة عبد الحميد، وفي الوقت نفسه تقريب العرب، من خلال إفساح المجال للتيار العربي الإسلامي الإصلاحي، المتمسك بالرابطة العثمانية والمؤمن بالجامعة الإسلامية والحامل للوائها، من التقدم للمراكز الأولى في الدولة العثمانية والمشاركة في رسم سياساتها، لا سيما في الإدارة والجيش والمواقع الأولى في الدولة، ولهذا كانت نقمة التيار القومي الطوراني شديدة على عبد الحميد، وعمل في الخفاء وبشكل منظم ودقيق مستفيداً من طريقة الماسونيين في بناء الجهاز التنظيمي السري، ومستنداً إلى دعمه وتعاونهم، وتمثل هذا التيار بجماعة الاتحاد والترقي التي عملت على إسقاط الخلافة العثمانية الإسلامية، وخلع الخليفة عبد الحميد الثاني، وكان لتغلغل الماسونية ويهود الدونمة في

جمعية الاتحاد والترقي ، الدور الأبرز الذي أثر بشكل رئيس وفعال في تسريع الانقلاب على الخليفة عبد الحميد، وفي دقة وتنظيم صفوف القائمين على الانقلاب، وكان الدافع الأقوى لهؤلاء الاتحاديين للانقلاب على الخلافة وعلى عبد الحميد ، هو وقوفه في وجه مخططات اليهود لجعل فلسطين وطناً قومياً لهم، ورفضه بشكل قطعي ومطلق الدخول في أية مساومات مع الحركة الصهيونية بقيادة هرتزل ، من أجل الموافقة على مطلبها المذكور آنفاً، ولهذا كان قرار المجلس اليهودي الصهيوني العالمي خلع عبد الحميد وإسقاط الخلافة ، وضمان موافقة زعماء الاتحاد والترقي على مشروعهم في الوصول إلى فلسطين، وتم تنفيذ الانقلاب في عام 1909م، ثم خلع السلطان عام 1909م . ومهد الاتحاديون لخلع السلطان عبد الحميد بإجباره على إعادة العمل بدستور عام 1876م الذي وضعه مدحت باشا وتياره، وذلك لتهيئة الظروف والأسباب لتنفيذ الانقلاب، وجاء الاتحاديون إلى الحكم بعد انقلابهم على عبد الحميد تحت غطاء إعطاء القوميات ومواطني الدولة العثمانية حريتهم، ورفع الاتحاديون شعارات الماسونية: الحرية، العدالة، المساواة، كشعارات للعهد الجديد ، يخدعون بها مواطني الدولة العثمانية، وكان العرب عامة وأبناء بلاد الشام من المرشحين بالحكم الجدد، ومن المؤيدين لهم ، لما رفعوه من شعارات، ولما يأملونه من هؤلاء الحكام من إعطائهم إدارة لامركزية لبلادهم ضمن إطار الرابطة العثمانية، ولم يمض الكثير من الوقت حتى انقلب الاتحاديون على العرب وتنكروا لوعدهم لهم، وسلخوا معهم سياسة جديدة تقوم على التنريك وممارسة البطش والإرهاب ضدهم، والسعي لإذابة الشخصية العربية في الإطار القومي الطوراني التركي، والتنكر للرابطة العثمانية والجامعة الإسلامية التي كانت أساس العلاقة بين العنصرين العربي والتركي، وقد أحدثت السياسة الطورانية الجديدة التي انتهجها الاتحاديون ردة فعل قوية في نفوس العرب، بعد أن تنازلوا لبعض الوقت في بداية حكم جماعة الاتحاد والترقي عن شخصيتهم القومية، وقبلوا في سبيل استمرار العلاقات العربية التركية في الإطار العثماني، السكوت عن إجراءات الاتحاديين التي اتخذوها في إدارة الدولة، والتي تغض من شأن اللغة والثقافة العربية في بلاد الشام، لكن عندما أدرك العرب أن جماعة الاتحاد والترقي تسعى لتغيير وجه البلاد العربية الحضاري وطمس هويتها العربية، وإذابة الشخصية العربية في كل الميادين، وتغليب النزعة الطورانية التركية على الرابطة الأخوية الإسلامية، عندئذ بدأوا برفع أصواتهم منددين بالمسلك الجديد للاتحاديين، وشرعوا في المرحلة الأولى بتشكيل الأحزاب والجمعيات التي تؤكد على مبدأ اللامركزية في إدارة الدولة، وإعتماد الحوار سبيلاً لحل الأزمة بين الطرفين، وتأسست في هذه المرحلة منذ عام 1909م وحتى عام 1913م أحزاب عربية عدة في بلاد الشام وفي استانبول عاصمة الخلافة، تسعى إلى معالجة قضايا الدولة والأمة عن طريق التفاهم مع الأتراك دون طرح فكرة الانفصال التام عن الدولة، كجمعية الأخاء العربي العثماني وحزب الحرية والائتلاف وحزب اللامركزية العربي العثماني وجمعية التشبث الشخصي، لكن الاتحاديين شددوا من قبضتهم على البلاد، ووسعوا

دائرة إجراءاتهم التنكيلية والعنصرية ضد العرب وضد الروابط التي تربط العنصرين العربي والتركي، وبدأوا ينتكرون لكل القيم والنظم الإسلامية ويحاربونها في قطاعات الدولة كافة، إضافة لحملة تطهير شاملة في دوائر الدولة ومؤسساتها ضد العرب وتراثهم وإسلامهم، مما جعل ردة الفعل العربية تزداد، ونقمتهم ضد هذه الإجراءات تشتد، وبدأوا يشكلون الجمعيات والأحزاب التي تدعوا للانفصال عن الترك كحزب العهد والعربية الفتاة والقحطانية، وبدأوا يتكتلون وينظمون أنفسهم في سبيل الثورة على الاتحاديين، الذين أخرجوا العلاقات العربية العثمانية في هذه الفترة من دائرة العلاقات الأخوية الجيدة إلى دائرة التآزم والقطيعة، إضعافاً لمقام الخلافة وعزلاً لها عن العنصر الأقوى والأكثر تأييداً لها، وبلغت الذروة في ذلك عام 1916م، حيث كانت حملة الإعدامات لرجال الحركة القومية العربية في بلاد الشام، إضافة لزع الدولة العثمانية في أتون الحرب العالمية الأولى، العاملان الرئيسان اللذان جعلهما العرب من أبرز أسباب ثورتهم على الاتحاديين، وتولى قيادة هذه الثورة الشريف الحسين بن علي أمير مكة بعدما عانى هو الآخر من ويلات الاتحاديين وظلمهم، وأثار حميته الإسلامية وغيرته تنكر الاتحاديين ومحاربتهم للقيم الإسلامية، وانتهاك حرمت الإسلام، والاعتداء على قواعده وتشريعاته وعقيدته، ووجد العرب في الحلفاء الانكليز بغيتهم للحصول على الدعم اللازم للقيام بالثورة، مقابل وعود الانكليز للعرب بإعطائهم استقلالهم، ومعاونتهم على إقامة دولة خلافة عربية بديلة تضم الشام والحجاز والعراق، ويرأسها الشريف الحسين، وذلك بعد انتهاء الحرب، لكن العرب في بلاد الشام ومعهم الشريف الحسين لم يستوثقوا من اتفاقهم مع الحلفاء بمعاهدات مكتوبة، وكان الانكليز متلهفين لوقوف العرب معهم ضد الدولة العثمانية، لما لهم من ثقل بشري واستراتيجي، ولما لبلادهم من موقع حساس في التأثير على مجريات الحرب، هذا علاوة على حرص الانكليز الإجهاز على الدولة العثمانية الإسلامية التي وقفت لهم بالمرصاد، ومنعهم من السيطرة المبكرة على العالم الإسلامي، وحاربتهم وحجمتهم في منطقة حوض البحر المتوسط وفي المنطقة العربية بشكل خاص، كل هذا جعل بريطانيا تقف إلى جانب العرب في ثورتهم ضد الاتحاديين، وتقدم الدعم لهم في هذه الثورة، من أجل تحقيق مصالحها ضد الخلافة العثمانية، لكنها لم تعبأ بمطالب العرب في الاستقلال وإقامة الدولة العربية في المناطق التي تفاوض الشريف الحسين على إقامة هذه الدولة فيها، وهي بلاد الشام والحجاز والعراق، على الرغم من الثقل العربي في كفة الصراع بين العثمانيين والانكليز، والسبب في هذا أن سياسة الاتحاديين التتريكية ضد العرب أفقدتهم توازنهم، وجعلتهم يسارعون إلى مساندة الانكليز ضد الدولة العثمانية دون أخذ الضمانات الموثقة لاستقلالهم، وبهذا يكون سقوط دولة الخلافة العثمانية بخسارتها للحرب ضد الحلفاء، بسبب الاتحاديين الذين كانوا في هذه الحالة أسوأ طبيب لأضعف رجل مريض، وفق ما أطلق على الدولة العثمانية حينذاك، وكانت خسارة الدولة العثمانية للحرب، وخروج البلاد العربية في الشام والعراق من سلطتها، ووقوع هذه البلاد فريسة الأطماع الاستعمارية الفرنسية

والانكليزية، وتقسيما بينهما، كان ذلك الضربة القاضية التي ضربها الاتحاديون للعلاقات العربية العثمانية، وإيصال هذه العلاقات إلى درجة القطيعة والنهاية بين العثمانيين والعرب، ثم جاء مصطفى كمال أتاتورك ليكمل ما بدأه من سبقه من الاتحاديين، في الإجهاز على العلاقات العربية العثمانية وإماتها، وقطع كل الخيوط التي نسجت تلك العلاقات على أساس إسلامي، بإلغاء السلطنة العثمانية ثم إلغاء نظام الخلافة، بالانقلاب الجذري على كافة النظم والأعراف والقيم الإسلامية، وتحويل تركيا إلى دولة علمانية بعيدة عن الإسلام تحارب نظمها، ومن خلال ما سبق يمكن ذكر أهم النتائج التي خلّص إليها المؤلف للإستفادة منها وللبناء عليها مستقبلاً، لإعادة العلاقات العربية التركية الحلية إلى سابق عهدها في العهد العثماني، وعلى أساس الإخاء الإسلامي، لأن في ذلك قوةً وتكاملاً بين العرب والأتراك، وليكونوا مع بعض سداً منيعاً في وجه ما يراد لبلادهم من تقسيم وتشكيل جديد، يضعفهم ويقوي سيطرة القوى الكبرى على هذه المنطقة تحت مسميات عديدة كالشرق الأوسط الكبير، أو الشرق الأوسط الجديد!! وهذه النتائج هي:

1- أقام العثمانيون علاقاتهم مع العرب في بلاد الشام على أساس العقيدة والشريعة الإسلامية، وظلّوا هذه البلاد وسائر البلاد العربية الأخرى بمظلة الخلافة الإسلامية، من أجل حمايتها من الاستعمار الأوروبي الحديث الذي تطلع لاحتلال هذه البلاد منذ فترة مبكرة.

2- حرص العثمانيون على إقامة علاقات أخوية مع العرب قبل الفتح العثماني للبلاد العربية، وذلك منذ أيام السلاطين العثمانيين الأوائل، من خلال عنايتهم بالحرمين الشريفين في الحجاز وتبادل الرسائل والهدايا مع قادة وزعماء العرب في الشام ومصر والحجاز.

3- حافظ العثمانيون طوال العهد العثماني على البلاد العربية، وحفظوا للعرب مكانتهم في الدولة على أنهم حملة الإسلام ومبلغوه للأمم الأخرى، وحافظوا على الهوية العربية وعلى اللغة العربية لغة القرآن، وعلى التراث والحضارة العربية من منطلق إسلامي بحت.

4- نظر العرب المسلمون إلى الدولة العثمانية نظرة الاحترام والولاء والاعتزاز بها باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية.

5- تعامل العرب والعثمانيون طوال فترة التي استظل فيها العرب بمظلة الخلافة العثمانية حتى نهاية خلافة عبد الحميد الثاني تعاملًا إسلاميًا لم يكن مطروحاً فيه العنصر القومي التركي أو العربي، ولم يشعر العرب طوال العهد العثماني بأي شعور قومي عنصري تجاه الأتراك كامة، وتجاه الدولة كدولة حاكمة، وكان ذلك إلى نهاية عهد الخليفة عبد الحميد الثاني.

6- تأثر العرب كغيرهم من العناصر السكانية في الدولة العثمانية بهبوب رياح القومية على بلادهم، وكانت بلاد الشام أكثر البلاد العربية تأثراً بعدوى القومية، وأولى

الولايات العثمانية حملاً لهذه الفكرة، وكان النصارى في لبنان هم أوائل رواد الفكر القومي.

7- كانت علاقات العرب في بلاد الشام مع الدولة العثمانية في أعلى درجات قوتها وتحسنها أثناء فترة حكم الخليفة عبد الحميد الثاني، وكانت الرابطة العثمانية هي جوهر العلاقة في هذه الفترة.

8- نادى العرب بالفكرة القومية وتمسكوا بها كردة فعل مقابل القومية التركية الطورانية للحفاظ على الهوية والشخصية العربية في وجه حملة التتريك المركزة التي قامت بها جماعة الاتحاد والترقي ضد العرب في بلاد الشام.

9- انطلقت جماعة الاتحاد والترقي في انقلابها على الخليفة عبد الحميد الثاني من منطلقات عدائية للإسلام والعرب، بعد تغلغل اليهود والماسونيين في صفوفها ووصولهم إلى المراكز القيادية فيها، لاتخاذ القرارات وتبني السياسات التي تخدم أغراض وأهداف اليهود في الدولة العثمانية، وكان القرار الأبرز هو السماح لليهود وبالسيطرة على فلسطين بعد رفض الخليفة عبد الحميد ذلك بصورة قطعية حازمة.

10- تحمل العرب في بلاد الشام من أجل التمسك بعلاقاتهم مع الدولة العثمانية سياسة التتريك التي مارسها ضدهم الاتحاديون، ولم يتحركوا للثورة إلا بعد استنفاد كل وسائل التفاهم مع الاتحاديين.

11- كانت الثورة العربية التي قام بها العرب في بلاد الشام بالتنسيق مع الشريف الحسين بن علي أمير مكة، ثورةً ضد حكم جماعة الاتحاد والترقي الذين حكموا الدولة العثمانية بعد انقلابهم على الخليفة عبد الحميد الثاني، ولم تكن الثورة العربية الكبرى ثورةً ضد الخلافة العثمانية، لأن الاتحاديين يستبدون بالسلطة في دولة الخلافة بوجود الخليفة الشكلي دون أن يكون له أي دور في حكم الدولة.

12- نهج الاتحاديون في حكم الدولة العثمانية نهجاً يقوم على محاربة الإسلام والانتقال بالدولة العثمانية نحو العلمانية، وإبعاد الإسلام عن الدولة، الذي اتخذه العثمانيون منهاجاً يحكم الأمة العثمانية، وكان ذلك أساس العلاقات المتينة بين العثمانيين والعرب.

13- أوصل الاتحاديون وبشكل مقصود علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام إلى درجة القطيعة، جراء السياسة العنصرية التتريكية التي طبقوها في هذه البلاد، وهياؤوا بذلك المناخ المناسب لتيار مصطفى كمال أتاتورك ليكمل خطوات قطع العلاقات العربية العثمانية والإجهاز على الخلافة .

14- سلك الاتحاديون مسلكاً عدائياً للعرب، وأردوا قطع العلاقات معهم بعد انقلابهم على الخليفة عبد الحميد الثاني، لأنهم اعتبروا العرب من مؤيديه في سياسته الإسلامية التي اتخذها وسيلة لمحاربة التيار القومي التركي الطوراني.

15- تخطى الاتحاديون عن الرابطة العثمانية التي انصهر العرب مع الترك في بوتقتها، وذلك باتباعهم سياسة التتريك ضد العرب في بلاد الشام، وكان هذا بمثابة المبرر للعرب للخروج على الدولة العثمانية وطلب الانفصال عنها، وأن الفترة التي أعقبت خلافة عبد الحميد الثاني من عام 1909- حتى 1924م، لم تكن من الناحية العملية من فترة الخلافة العثمانية، وإن لم تلغ هذه الخلافة اسماً حتى عام 1924م.

16- تسبب الاتحاديون في سقوط الدولة العثمانية حين زجوا بها في خضم الحرب العالمية الأولى وعرضوها للهزيمة في نهاية الحرب، وانتهى وضعها إلى التقسيم والانحلال.

17- اشترك الاتحاديون والعرب على حد سواء في تعريض البلاد العربية في الشام والعراق للاحتلال الأوروبي والتقسيم بين فرنسا وبريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، من خلال تحالفهم مع الطرفين المشتركين في الحرب.

18- لم يكن دافع العرب في بلاد الشام والحجاز من وقوفهم إلى جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، سوى طلب الحرية والاستقلال لبلادهم، ولم يكن مقصدهم تجزئة الدولة العثمانية أو إسقاطها، بل جاء ذلك نتيجة هزيمتها أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد خطط الحلفاء لذلك منذ فترة طويلة، وكانت النتيجة الحتمية أن يقسم الحلفاء البلاد العربية فيما بينهم كجزء من غنيمة الحرب في نهايتها.

19- استطاع الحلفاء أن يستفيدوا من دور العرب الهام جداً في حسم الحرب العالمية الأولى لصالحهم ضد الدولة العثمانية، وتمكنت بريطانيا من توظيف قدراتهم البشرية والعسكرية، والاستفادة من موقع بلادهم في كسب الحرب لصالحها، ثم أجهضت حركتهم القومية بمنعها من تحقيق أهدافها في الحصول على استقلال بلادهم ، بعد إخراج هذه البلاد من مظلة الخلافة العثمانية.

20- تمكن الحلفاء البريطانيون والفرنسيون من استغلال الأزمة في العلاقات بين العرب والاتحائيين، لكسب العرب إلى جانبهم في الحرب، وبذلك وسعوا شقة الخلاف وعمقوا حالة العداء بعد انتهاء الحرب جراء اصطفاف العرب إلى جانب الحلفاء، وتوجيه الاتهام إليهم بالمساعدة على سقوط الخلافة العثمانية.

21- عمل الحلفاء على تجزئة بلاد الشام بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتحويلها إلى أربع دويلات إقليمية، بعد أن كانت ولاية واحدة بمثابة دولة قوية في ظل الخلافة العثمانية، ثم مكّنوا مفهوم الاقليمية والقطرية في عقول ونفوس أبناء هذه الأقطار الأربعة، وحلّ المفهوم القطري بدل المفهوم العروبي الإسلامي الشامل الذي نادى به الشريف الحسين بن علي، وكإطار عام لدولة عربية موحدة تخيف الأعداء لو استقلت بعد الحرب العالمية الأولى .

22- ثبتت معاهدة لوزان عام 1923م ما أحدثته نتائج الحرب العالمية الأولى من تخلي الحكام الجدد للدولة العثمانية، عن البلاد العربية في الشام والعراق والحجاز، وبذلك أكسبت انقطاع العلاقات العربية العثمانية صفةً قانونيةً على المستوى الدولي، وأكدت تفكك الدولة العثمانية بشكل رسمي، والاعتراف دولياً بتركيا الحديثة العلمانية بدل دولة الخلافة الإسلامية.

23- استكمل مصطفى كمال أتاتورك الخطوات التي بدأها الاتحاديون في تغيير وجه الدولة العثمانية، وقطع كل الأسباب والروابط التي تربط بين العرب والأترك بسلسلة الإجراءات الانقلابية ضد دولة الخلافة العثمانية بعد إلغاء الخلافة، واستبدال كل ما يتعلق بها من عثماني إلى علماني بعيداً عن العرب والإسلام والحضارة العثمانية.

لقد نجح العثمانيون نجاحاً خلدته التاريخ لهم كمأثرة من مآثرهم، في بناء علاقات طيبة ومميزة، وأثبتوا عبر أجيال كثيرة وطوال قرون تمسكهم بهذه العلاقات، وحرصهم على ديمومتها وتطويرها، وأثبتت الواقع صدق هذا التوجه حتى في عهد آخر خلفائهم العظام الخليفة عبد الحميد الثاني، حيث شهد عهده علاقات مميزة ومزدهرة عن الحالة التي مرت بها هذه العلاقات في مراحل سابقة من عهود العلاقات العربية العثمانية، ولولا حملة الدعاية المكثفة ضد هذا الخليفة المسلم من الصهيونية العالمية وأدواتها من حملة الفكر التغريبي من أبناء الترك والعرب على حد سواء، إضافة لحملات التشويه والفساد والكذب عليه، لما سعى فريق من العرب للتعاون مع الاتحاديين من أجل إسقاطه وخلعه، متأثرين بوعود جماعة الاتحاد والترقي البراقة بالحرية والاستقلال للعرب، وإعطائهم حقوقهم في الدولة العثمانية، مع تثبيت الوعود بالحفاظ على الدولة كدولة عثمانية، يحكم علاقة العرب فيها بالأترك الإطار العام والضمانة الأكيدة وهما الخلافة والرابطة العثمانية، ويؤججها شعار الجامعة الإسلامية التي كانت منبع العلاقة بين العنصرين التركي والعربي، وما أن تنكرت جماعة الاتحاد والترقي للرابطة العثمانية، نتيجة ضغط النفوذ الماسوني واليهودي المؤثر والفعال على الاتحاديين، حتى انتقلت هذه العلاقة بين الترك والعرب من إخوة تذيب نزعتهم القومية والعرقية إلى أعداء يتضادان ويتحاربان بسيف القومية والاقليمية البغيض، الذي أغمده الإسلام وقضى على حده الفتاك، وأبطل قابلية القتل فيه، وحوله إلى معدن ثمين من التبر المسبوك تباهي به الأمة الإسلامية العثمانية أمم الأرض جمعاء، وتطبق فيه قول الله تعالى: "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [الأنفال: 63]. ومن هنا تأتي مسؤولية أبناء الأمة الإسلامية من العنصرين العربي والتركي بأجيالها الحاضرة والمستقبلية، في إدراك ما فعلته أيدي الأعداء في الخفاء وفرقت بينهما، وتحليل العوامل التي ساعدت هؤلاء الأعداء في إنجاح خطتهم الشيطانية في هدم راية الخلافة وقطع أسباب الالتقاء بين العرب والأترك، ومن ثم الأخذ بأيدي بعض، ونشر الثقافة التي تساعد على التقارب والتحابب بين العرب والأترك، لبناء مستقبل خَيْر قائم على

التواصل وإعادة اللّحمة للجسد العثماني الإسلامي، والتقريب بين الأشقاء، ونسيان
صفحات الظلم والتباعد، من أجل حاضرٍ مستقرٍ مثمرٍ ومستقبلٍ واعدٍ مشرقٍ، تنعم به
الأجيال القادمة من عرب وأتراك في تعاونٍ وتقاربٍ وتفاهمٍ أخوي دائمٍ.



الملاحق



الملحق الأول⁽¹⁾

(1) المصدر : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص 257 – 277 .



القانون الأساسي الدستور العثماني في

ممالك الدولة العثمانية الذي صدر عام 1876م

المادة 1- أن الدولة العثمانية تشمل الممالك والخطط الحاضرة والولايات الممتازة وهي كجسم واحد لا تقبل الانقسام أبداً لأية علة كانت.

المادة 2- أن عاصمة الدولة العثمانية هي مدينة اسلامبول وهذه المدينة ليس لها أدنى امتياز على غيرها من البلاد العثمانية ولا هي معفاة من شيء.

المادة 3- أن السلطنة السنية هي بمنزلة الخلافة الإسلامية الكبرى وهي عائدة بمقتضى الأصول القديمة إلى أكبر الأولاد في سلالة آل عثمان.

المادة 4- إن حضرة السلطان هو حامي الدين الإسلامي بحسب الخلافة وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها.

المادة 5- إن حضرة السلطان مقدس وغير مسؤول.

المادة 6- إن حقوق سلالة بني عثمان وأموالهم وأملاكهم الذاتية ومخصصاتهم المالية في مدة حياتهم هي تحت الضمانة العامة.

المادة 7- إن عزل الوكلاء ونصبهم وتوجيه المناصب والرتب وإعطاء النياشين وإجراء التوجيهات في الإيالات الممتازة وفقاً لشروطها، وضرب النقود وذكر الاسم في الخطب وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية وإعلان الحرب والصلح وقيادة القوة البحرية والبرية وإجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقانونية وسن النظمات المتعلقة بدوائر الإدارة وتخفيف المجازاة القانونية أو العفو عنها وعقد المجلس العمومي وفضه وفسخ هيئة المبعوثين عند الاقتضاء بشرط انتخاب أعضاء جديدة لها، جميع ذلك من جملة حقوق السلطان المقدسة.

" في حقوق تبعة الدولة العثمانية العامة "

المادة 8- يطلق لقب عثماني على كل فرد من أفراد التبعة العثمانية بلا استثناء

من أي دين أو مذهب. ويسوغ الحصول على الصفة العثمانية وفقدانها بحسب الأحوال المعينة في القانون.

المادة 9- إن جميع العثمانيين متمتعون بحريتهم الشخصية وكل منهم مكلف بعدم

تجاوزه حقوق غيره.

المادة 10- إن الحرية الشخصية هي مصونة من جميع أنواع التعدي ولا يجوز

إجراء مجازاة أحد بأي وسيلة كانت إلا بالأسباب والأوجه التي يعينها القانون.

المادة 11- إن دين الدولة العثمانية هو الدين الإسلامي. ومع مراعاة هذا الأساس وعدم الإخلال براحة الخلق والآداب العمومية تجري جميع الأديان المعروفة في الممالك العثمانية بحرية تحت حماية الدولة مع دوام الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه.

المادة 12- إن المطبوعات هي حرة ضمن دائرة القانون.

المادة 13- إن تبعة الدولة العثمانية مرخصة بتأليف كل نوع من أنواع الشركات المتعلقة بالتجارة والصناعة والفلاحة.

المادة 14- يسوغ لكل فرد من أفراد التبعة العثمانية أو الجملة منهم تقديم عرضحال بحق مادة وجدت مخالفة للقوانين والنظامات المتعلقة بالعموم إلى مرجع تلك المادة. كما أنه يحق لهم تقديم عرضحالات ممضاة إلى المجلس العمومي بصفة مدعين أو متشكين من أفعال المأمورين.

المادة 15- أن التعليم حر وكل عثماني مرخص له بالتدريس العمومي والخصوصي بشرط مطابقة القانون.

المادة 16- جميع المكاتب هي تحت نظارة الدولة وسيصير النظر بالوسائل التي من شأنها جعل التبعة العثمانية على نسق اتحاد وانتظام واحد لا تمس اصول التعاليم الدينية عند الملل المختلفة.

المادة 17- أن العثمانيين جميعهم متساوون أمام القانون كما أنهم متساوون كذلك في حقوق وظائف المملكة ما عدا الأحوال الدينية والمذهبية.

المادة 18- يشترط على التبعة العثمانية معرفة التركية التي هي اللغة الرسمية لأجل تقليد مأموريات الدولة.

المادة 19- يقبل في مأموريات الدولة عموم التبعة، ويعينون في المأموريات المناسبة بحسب أهليتهم واستحقاقهم.

المادة 20- إن تكاليف الدولة تطرح وتوزع بين جميع التبعة بحسب اقتدار كل منها وفقاً لنظامها المخصوص.

المادة 21- كل واحد أمين على ماله وملكه الجاري تحت تصرفه بحسب الأصول ولا يؤخذ من أحد ملكه ما لم يثبت لزومه للنفع العام ويدفع ثمنه الحقيقي سلفاً وفقاً للقانون.

المادة 22- إن مسكن كل واحد في الممالك العثمانية مصون من التعدي ولا تقدر الحكومة أن تدخل جبراً في مسكن أحد أو منزله إلا في الأحوال التي يعينها القانون.

المادة 23- لا يسوغ إجبار أحد على الحضور إلى محكمة غير المحكمة المنسوب إليها قانونياً وفقاً لقانون أصول المحاكمة الذي سيصير ترتيبه.

المادة 24- المصادرة والتسخير من الأمور الممنوعة وإنما يستثنى من ذلك التكاليف والأحوال التي تعين في أوقات الحرب بحسب الأحوال.

المادة 25- لا يجوز أن يؤخذ من أحد بارة واحدة باسم ويركو ورسومات أو بصفة أخرى ما لم يكن ذلك موافقاً للقانون.

المادة 26- إن التعذيب وكل أنواع الأذى ممنوع قطعياً بالكلية.

" في وكلاء الدولة "

المادة 27- إن مسند الصدارة والمشيخة الإسلامية يفوضان من قبل السلطان إلى الذوات الذين يثق بهم وكذلك مأموريات باقي الوكلاء فإنها تجري بموجب إرادة سلطانية.

المادة 28- إن مجلس الوكلاء ينعقد تحت رئاسة الصدر الأعظم وهو مرجع جميع الأمور المهمة الداخلية والخارجية. أما قراراته المحتاجة إلى الاستئذان فإنها تجري بموجب إرادة سنوية.

المادة 29- إن كلاً من الوكلاء يجري من الأمور العائدة إلى إدارته ما هو مأذون بإجرائه وفقاً لقواعده، وأما ما كان خارجاً عن دائرة مأذونيته فيعرض إلى الصدر الأعظم بمجرى مقتضيات المواد التي تحتاج إلى المذاكرة ويستأذن عنها من الحضرة السلطانية وما كان محتاجاً منها للمذاكرة يعرضه ويستأذن إلى مجلس الوكلاء للتذكر به ويجري إيجابه بمقتضى الإرادة السنوية التي تصدر بها. أما أنواع ودرجات هذه القضايا فستعين بنظام مخصوص.

المادة 30- إن وكلاء الدولة مسؤولون عن الأحوال والإجراءات المتعلقة بمأمورياتهم.

المادة 31- إذا تشكى واحد وأكثر من أعضاء مجلس المبعوثين على أحد وكلاء الدولة بما يوجب عليه المسؤولية في المواد التي هي من متعلقات هيئة المبعوثين فعلى رئيس هذه الهيئة الذي يتقدم له بتقرير التشكي أن يرسل ذلك التقرير وبطرف ثلاثة أيام إلى الشعبة التي تتعلق بها المذاكرة في أنه هل يجب إحالته إلى الهيئة المناط بها رؤية هذه المواد أو لا وفقاً لنظام هيئة المبعوثين الداخلي، وهذا بعد أن تفحص هذه الشعبة ذلك التقرير وتجري التحقيقات اللازمة وتستوفي الإيضاحات الكافية من الذي اشتكى عليه، فإن قررت بالأكثرية أن هذا التشكي حرى بالمذاكرة تقدم قرارها إلى هيئة المبعوثين للاطلاع عليها وإذا مست الحاجة تستدعي المشتكي عليه وتسمع الإيضاحات التي يقدمها بنفسه أو بواسطة غيره. فإن وافقت أكثرية الهيئة المطلقة أي ثلثها على لزوم المحاكمة تتقدم المضبطة المتضمنة طلب المحاكمة إلى مقام الصدارة

العظمى. وعند عرضها للاعتاب السلطانية تحال الدعوى إلى الديوان العالي بموجب إرادة سنية.

المادة 32- إن حصول محاكمة الوكلاء الذين يقعون تحت التهمة ستعين في قانون خصوصي.

المادة 33- لا فرق البتة بين الوكلاء وبين باقي أفراد العثمانيين في الدعاوى الشخصية الخارجية عن مأموريتهم فتجري المحاكمة على هذه القضايا في المحاكم العمومية التي يتعلق بها ذلك.

المادة 34- إذا حكمت دائرة التهمة في الديوان العالي على أحد الوكلاء بكونه واقعاً تحت التهمة ينزل عن مأموريته إلى أن تظهر براءته.

المادة 35- إذا وقع اختلاق على مادة ما بين الوكلاء وبين هيئة المبعوثين وأصر الوكلاء على تقرير تلك المادة فرفضتها هيئة المبعوثين ثانية رفضاً قطعياً بأكثرية الآراء مبينة تفصيل الأسباب الموجبة لذلك فللحضرة السلطانية حينئذ وحدها أن تغير الوكلاء أو أن تفض المبعوثين بشرط انتخاب هيئة جديدة خلافاً في المادة القانونية.

المادة 36- إذا اقتضت الحال ضرورة في غير وقت انعقاد المجلس العمومي لوضع قانون صيانة للدولة من الخطر أو وقاية للأمن العام من الخلل ولم يكن الوقت كافياً لجمع المجلس للمذاكرة بهذا القانون فتجتمع هيئة الوكلاء وتقرر ما يلزم من الأمور بشرط مراعاة أحكام القانون الأساسي وبموجب إرادة سنية يكون لقرارها قوة القانون للحكم مؤقتاً إلى أن تجتمع هيئة المبعوثين وتعطي قرارها بهذا المعنى.

المادة 37- يحق لكل من الوكلاء في أي وقت شاء أن يحضر اجتماعات كلتا الهيئتين أو أن ينيب عنه فيها أحد رؤساء المأمورين الذين تحت إدارته وله التقدم في الكلام على الأعضاء.

المادة 38- إذا استدعي أحد الوكلاء إلى مجلس المبعوثين بموجب قرار الأكثرية لإعطاء إيضاح عن أمر ما يحضر إلى المجلس بنفسه أو يرسل أحد رؤساء المأمورين الذين تحت إدارته ويجيب عن المواد التي يسأل عنها ويحق له أن يؤخر جوابه إذا رأى لزوماً لذلك أخذاً المسؤولية على نفسه.

" في المأمورين "

المادة 39- جميع المأمورين ينتخبون من أرباب الأهلية والاستحقاق للمأموريات التي تفوض إليهم بحسب الشروط المعنية في النظام وكل مأمور ينتخب على هذه الصورة لا يجوز عزله ولا تغييره ما لم يبد منه حقيقة ما يوجب العزل قانوناً أو يستعفي من تلقاء نفسه أو يرى عزله، لازماً لضرورة تقتضيها أحوال الدولة. ومن كان من أصحاب الاستقامة وحسن السلوك من المأمورين وعزل عن ضرورة كما ذكر يكون جديراً بالتقدم ويعين له معاش التقاعد أو العزل بحسب نص النظام الخصوصي الذي سيصير ترتيبه.

المادة 40- سيعين نظام مخصوص لوظائف كل مأمورية وكل مأمور هو مسؤول في إدارة وظيفته.

المادة 41- من الواجب على كل مأمور احترام أمره ورعايته إلا أن الطاعة لا تتجاوز الدائرة المعينة قانونياً والطاعة للأمر في الأمور المخالفة للقانون لا تقي من المسؤولية.

" في المجلس العمومي "

المادة 42- إن المجلس العمومي يركب من هيئتين تسمى إحدهما هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثين.

المادة 43- أن كلا من هيئتي المجلس العمومي تجتمع في ابتداء شهر تشرين الثاني من كل سنة وتفتح بموجب إرادة سنوية وتقبل كذلك بإرادة سنوية في أول آذار ولا يجوز انعقاد إحدى هاتين الهيئتين بغير وقت اجتماع الأخرى.

المادة 44- إذا رأت الحضرة السلطانية وجوباً تقتضيه أحوال الدولة فإنها تفتح المجلس العمومي قبل وقته، وتقتصر اجتماع المجلس كذلك، أو تطيله عن المدة المعينة.

المادة 45- إن افتتاح المجلس العمومي يتم بحضرة الذات السلطانية أو بحضور الصدر الأعظم نائباً عنها أو بحضور وكلاء الدولة مع أعضاء الهيئتين ويتلى حينئذ نطق سلطاني في ما يلزم اتخاذه في المستقبل من الوسائل والتدابير بخصوص أحوال الدولة الداخلية وصلاتها الخارجية في السنة الحالية.

المادة 46- أن الأعضاء الذين ينتخبون أو يعينون للمجلس العمومي يحلفون بالإمانة للحضرة السلطانية وللوطن وبمراعاة أحكام القانون الأساسي والأموال المودعة لعهدتهم والابتعاد عن مخالفة ذلك، وهذا اليمين يتم بحضور الصدر الأعظم في يوم افتتاح المجلس ومن لم يكن حاضراً من الأعضاء في ذلك اليوم يحلف هذه اليمين بعينها بحضور الرئيس والهيئة التي هو منها.

المادة 47- أن أعضاء المجلس العمومي أحرار بآرائهم وأفكارهم ولا يقيد أحد منهم بوعده أو تهديد ما ولا يرتبط بتعليمات البتة ولا يجوز إلقاء التهمة على أحد منهم بوجه من الوجوه بسبب إبراز آرائه أو بيان أفكاره باثناء مفاوضات المجلس إلا إذا بدا منه مخالفة لنظامات المجلس الداخلية فحينئذ تجري معاملته بموجب النظامات المذكورة.

المادة 48- إذا اتهم أحد أعضاء المجلس العمومي من قبل الهيئة المنسوب إليها بجناية ما أو بمحاولة إلغاء القانون الأساسي أو بالارتكاب وتقررت هذه التهمة بموجب أكثرية تلك الهيئة المطلقة، أي بثلثي الآراء أو إذا حكم قانونياً على أحد الأعضاء بالحبس أو النفي فتسقط عنه صفة العضوية وتجري محاكمته ويحكم بمجازاته على أفعاله هذه في المحكمة التي يتعلق بها ذلك.

المادة 49- يحق لكل عضو من أعضاء المجلس العمومي أن يبرز رأيه بنفسه أو يمتنع عن إعطاء رأيه فيما يتعلق برفض أو قبول مادة مطروحة تحت المذاكرة.

المادة 50- لا يجوز أن يكون شخص واحد عضواً في كلتا الهيئتين المذكورتين في وقت واحد.

المادة 51- لا يسوغ الشروع بالمفاوضات في إحدى الهيئتين بدون حضور نصف الأعضاء المرتبين وعضو واحد زيادة عن النصف. وتقرر كل المواد بأكثرية الأعضاء الحاضرين المطلقة خلا الأمور المشترط بها أكثرية هي ثلثا الأعضاء، وإذا تساوت الآراء فرأى الرئيس بحسب مضاعفاً.

المادة 52- إذا قدم شخص ما عرض حال إلى إحدى هيأتي المجلس العمومي بخصوص دعوى متعلقة بشخص ثم ظهر أن ذلك الشخص لم يقدم دعواه إلى مأموري الدولة الذين يتعلق بهم رؤيتها ولا إلى مرجع أولئك المأمورين فإن عرضه حاله يرفض ويرد له.

المادة 53- إن سن قانون جديد أو تغيير بعض القوانين الموجودة متعلق بهيئة الوكلاء. إلا إنه يحق لكل من هيأتي الأعيان والمبعوثين أن تطلب تجديد قانون أو تغيير القوانين الموجودة في المواد التي هي ضمن دائرة وظائفهم. وحينئذ يستأذن بذلك من الحضرة السلطانية بواسطة الصدر الأعظم. فإن صدرت الإرادة السنية بذلك تحال الكيفية إلى مجلس شورى الدولة لأجل ترتيب اللوائح المقترضية على مقتضى الإيضاحات والتفاصيل التي تؤخذ من الدوائر التي يتعلق بها ذلك.

المادة 54- إن لائحة القوانين التي يربتها مجلس شورى الدولة بعد أن يجري البحث والتدقيق عليها وقبولها في هيئة المبعوثين أولاً ثم في هيئة الأعيان تكون دستوراً للعمل إذا صدرت الإرادة السنية السلطانية بإجرائها. وكل لائحة قانون ترفض رفضاً قطعياً من قبل إحدى هاتين الهيئتين لا يجوز طرحها ثانية تحت المذاكرة في تلك السنة.

المادة 55- كل لائحة قانون لا تعتبر مقبولة ما لم تقرأ أولاً في هيئة المبعوثين ثم في هيئة الأعيان بنداً بنداً ويقرر كل منها بأكثرية الآراء ثم تقرر بالأكثرية أيضاً في هيئة المجلس العمومية.

المادة 56- لا يسوغ لهيئتي المجلس أن تقبلا أحداً أتى إليها للإفادة عن مادة بطريقة الوكالة ولا أن تسمعا تقريره ما لم يكن من هيئة الوكلاء أو من حضر بالنيابة عنهم أو من نفس أعضاء المجلس أو من المأمورين الذين استدعوا للحضور رسمياً.

المادة 57- إن المفاوضات في الهيئتين تجري باللغة التركية، أما لوائح المفاوضات فإنها تطبع وتوزع على الأعضاء قبل اليوم المعين للمذاكرة.

المادة 58- إن إبراز الآراء في كلتا الهيئتين يتم أما بتصريح الأسماء أو بالإشارة المخصصة أو بالطريقة السرية إلا أن إبراز الآراء بالطريقة السرية يتوقف على أكثرية الأعضاء الحاضرين.

المادة 59- إن ضبط الأحوال الداخلية في كل هيئة منوط برئيسها.

المادة 60- إن رئيس وأعضاء هيئة الأعيان يعينهم حضرة السلطان رأساً ولا يتجاوز عددهم ثلث هيئة المبعوثين.

المادة 61- إن من يعين بصفة عضو في هيئة الأعيان يجب أن يكون قد فعل ما يجعله أهلاً للثقة العثمانية وسبقت له خدمات حسنة مشهودة في الدولة وأن لا يكون سنة دون أربعين سنة.

المادة 62- أن مدة العضوية في هيئة الأعيان هي مدة الحياة وتوجه هذه المأمورية لمن هو أهل لها من معزولي الوكلاء والولاة والمشيرين وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة ورؤساء الحاخامية والفرقاء البرية والبحرية ولغيرهم من الذوات الحاصلين على الصفات المطلوبة، أما من يعين من أعضاء هيئة الأعيان لإحدى مأموريات الدولة بطلبه فتسقط عنه صفة العضوية.

المادة 63- إن معاش العضوية الشهري في هيئة الأعيان عشرة آلاف قرش، وإذا كان لأحد الأعضاء معاش آخر أو غير مخصصات من الخزينة دون عشرة آلاف قرش فتزداد إلى هذا القدر وإن كانت عشرة آلاف أو أكثر تبقى على حالها.

المادة 64- إن هيئة الأعيان تدقق البحث في القوانين ولوائح الموازنة الصادرة من هيئة المبعوثين فإن وجدت بها ما يخل أساساً بالأمر الديني أو بحقوق حضرة السلطان السنية أو بالحرية أو بأحكام القانون الأساسي أو باستقلالية ملك الدولة أو بأمنية المملكة الداخلية أو بوسائل المدافعة والمحافظة على الوطن أو بالأداب العمومية فلها أن ترفضها قطعياً مع إيراد ملاحظتها، أو أن تردّها إلى هيئة المبعوثين لأجل إصلاحها وتصحيحها. أما اللوائح التي تقبلها وتصادق عليها، فتقدم للصدر الأعظم، وكذلك المعروضات التي تقدم للهيئة تفحص بالتدقيق وتقدم لمقام الصدارة إذا وجد لزوماً لذلك مع إضافة الملاحظات اللازمة عليها.

المادة 65- إن أعضاء هيئة المبعوثين يكون باعتبار شخص واحد من كل خمسين ألف نفس من ذكور التبعة العثمانية.

المادة 66- إن أمر الانتخاب مؤسس على الطريقة السرية وستقرر كيفية الانتخاب في قانون مخصوص.

المادة 67- لا يمكن الجمع بين عضوية هيئة المبعوثين ومأمورية أخرى في الحكومة خلا من ينتخب من الوكلاء لهذه العضوية فيجوز له ذلك، وأما من ينتخب لهيئة المبعوثين من باقي مأموري الدولة فهو في خيار من قبول ذلك أو رفضه. إلا أنه إذا قبل العضوية يفصل من مأموريته الأولى.

المادة 68- لا يجوز أن ينتخب لهيئة المبعوثين أولاً من لم يكن من تبعة الدولة العلية. ثانياً: من كان حائزاً مؤقتاً على امتياز خدمة أجنبية بمقتضى النظام المخصوص. ثالثاً: من لم يكن عارفاً باللغة التركية. رابعاً من كان سنه دون الثلاثين. خامساً: من كان مستخدماً عند شخص آخر في وقت الانتخاب. سادساً: من حكم عليه بالإفلاس ولم يعد اعتباره. سابعاً: من كان مشهوراً بالتصرفات السيئة. ثامناً: من حكم عليه بالحجر حكماً لاحقاً ولم يفك عنه الحجر. تاسعاً: من كان ساقطاً من الحقوق المدنية. عاشراً: من يدعي أنه من التبعة الأجنبية. فجميع هؤلاء لا يجوز انتخابهم بهيئة المبعوثين. أما في الانتخاب الذي يجري بعد أربع سنوات فيشترط على المنتخب أن يكون عارفاً القراءة والكتابة في اللغة التركية نوعاً ما.

المادة 69- إن انتخاب المبعوثين العمومي يجري مرة واحدة في كل أربع سنين ومدة مأمورية كل من المبعوثين هو عبارة عن أربع سنين ويجوز تجديد انتخابه.

المادة 70- إن انتخاب المبعوثين العمومي يبدأ به قبل شهر تشرين الثاني الذي هو بداية اجتماع الهيئة بأربع أشهر في الأقل.

المادة 71- إن كلا من أعضاء هيئة المبعوثين يعتبر كنائب عن عموم العثمانيين وليس عن الدائرة التي انتخبته فقط.

المادة 72- من الواجب على المنتخبين أن ينتخبوا المبعوثين من أهالي دائرة الولاية التي هم منها.

المادة 73- إذا فُضت هيئة المبعوثين بإرادة سنية يبدأ بانتخاب جميع الأعضاء الجدد بحيث تتمكن الهيئة من الاجتماع بعد ستة أشهر في الأكثر.

المادة 74- إذا توفي أحد أعضاء هيئة المبعوثين أو وقع تحت الحجز لأسباب قانونية أو انقطع عن الحضور إلى المجلس مدة طويلة أو استغفى لداعي صدور حكم ما عليه أو لسبب قبول مأمورية أخرى فيتعين عضو خلفه بحسب الأصول قبل الاجتماع التالي.

المادة 75- إن مأمورية العضو الذي ينتخب عوضاً عن أحد المبعوثين تدوم فقط إلى وقت الانتخاب العمومي الآتي.

المادة 76- يعطى لكل من المبعوثين عشرون ألف قرش من خزينة الدولة عن مدة الاجتماع في كل سنة وتعطى له أيضاً مصاريف الطريق ذهاباً وإياباً باعتبار كون المعاش الشهري خمسة آلاف قرش وفقاً لنظام المأمورين الملكين.

المادة 77- تنتخب هيئة الأعيان ثلاثة أشخاص لرئاسة الهيئة وثلاثة أشخاص لكل من الرئاسة الثانية والثالثة، ثم تقدم أسماء هذه الأشخاص التسعة إلى الحضرة الشاهانية وبموجب إرادة سنية يعين أحد الثلاثة الأولين لرئاسة الهيئة وشخصان من الستة الباقين بصفة وكيلين للرئيس وتجري مأموريتهم على هذه الصورة.

المادة 78- إن المذاكرة والمفاوضات في هيئة المبعوثين تجري علناً، غير أنه إذا وقعت مادة مهمة أو عند طلب الوكلاء أو خمسة عشر عضواً من أعضاء هيئة المبعوثين إجراء المذاكرة سراً على أمر ما حينئذ يصرف الأشخاص الموجودون في محل اجتماعها خلا أعضائها وبموجب قرار الأكثرية تقبل أو ترفض المتقدم لها وتجري المفاوضات علناً وسراً بحسب القرار المذكور.

المادة 79- لا يجوز القاء القبض على أحد أعضاء هيئة المبعوثين بمدة اجتماع المجلس ولا محاكمته ما لم يثبت بموجب قرار أكثرية الهيئة وجود سبب كاف لألقاء التهمة عليه من قبل الهيئة أو ما لم يرتكب جنحة أو جناية ما ويمسك بوقت ارتكابه ذلك أو عقبه.

المادة 80- إن هيئة المبعوثين تتذكر بلوائح القوانين التي تحال لها فما كان منها متعلقاً بالمالية أو بالقانون الأساسي يسوغ لها أن ترفضه أو تقبله أو تصلحه. وعند تدقيق البحث على المصاريف العمومية بالتفصيل كما هو مصرح به في قانون الموازنة تقرر مقدارها بالاتفاق مع هيئة الوكلاء وتعين كذلك مع هيئة الوكلاء أنواع الواردات المقتضية لمقابلة المصاريف ومقدارها وكيفية توزيعها واستحصالتها.

" في المحاكم "

المادة 81- إن القضاة الذين ينصبون من قبل الدولة بموجب النظام المخصوص وتعطى لأيديهم البراءة الشريفة فهؤلاء لا يعزلون وإنما يجوز قبول استعفائهم. أما صورة ترقى القضاة ومسالكهم ومبادلة مناصبهم وكيفية إجراء تقاعدهم وعزلهم عند صدور الحكم عليهم بذنوب ما، جميع ذلك مصرح في النظام المذكور، وهذا النظام موضح به كذلك الأوصاف المطلوبة من القضاة ومن باقي مأموري المحاكم.

المادة 82- إن جميع أنواع المحاكمات تجري في المحاكم علناً والإعلانات التي تصدر منها مأذون بنشرها غير أنه تجري المحاكمة سراً في الظرف المعينة بالقانون.

المادة 83- يحق لكل أحد أن يستخدم لدى المحاكمة جميع الوسائل القانونية للدفاع عن حقوقه.

المادة 84- لا يسوغ لإحدى المحاكم لأية علة كانت أن تمتنع عن رؤية دعوى هي من متعلقاتها ولا يجوز توقيف الحكم بدعوى ما أو تأخيره بعد الشروع في رؤية تلك الدعوى أو بعد إجراء التحقيقات الأولية المقتضية لرؤيتها، ما لم يكف المدعي عن ملاحقة دعواه. ولكن حقوق الحكومة في الدعاوى الجنائية تأخذ مجراها النظامي.

المادة 85- كل دعوى يجب أن ترى في المحكمة التي يتعلق بها رؤيتها، أما الدعاوى التي تقع بين الأفراد والحكومة فإنها ترى كذلك في المحاكم العمومية.

المادة 86- إن المحكمة بجمليتها تكون عارية من كل نوع من المداخلات.

المادة 87- إن الدعاوى الشرعية ترى في المحاكم الشرعية والدعاوى النظامية ترى في المحاكم النظامية.

المادة 88- إن أنواع المحاكم ووظائفها ودرجات حقوقها وأمر توظيف القضاة كل ذلك يعود به على القوانين .

المادة 89- لا يجوز قطعاً لأية علة كانت ترتيب محاكم غير اعتيادية ولا لجنات لرؤية بعض دعاوى مخصوصة والحكم بها، خلا المحاكم القانونية، وإنما يجوز فقط التحكيم وتعيين مولين بحسب مفاد القانون.

المادة 90- لا يجوز لقاض أن يجمع بين مأموريته القضائية ومأمورية أخرى ذات معاش في الحكومة.

المادة 91- سيجري تعيين مدعين عموميين للدفاع عن الحقوق العامة في الأمور الجنائية. أما وظائف هؤلاء المدعين ودرجاتهم فستقرر في القانون.

" في الديوان العالي "

المادة 92- يتألف الديوان العالي من ثلاثين عضواً، منهم عشرة ينتخبون بالقرعة من رؤساء وأعضاء مجالس التمييز والاستئناف. وهذا الديوان ينعقد عند الاقتضاء بموجب إرادة سنوية في دائرة هيئة الأعيان، ووظيفته إنما هي محاكمة الوكلاء ورؤساء محاكم التمييز وأعضائها وكل من اعتدى على ذات الحضرة السلطانية وعلى حقوقها وكل من حاول إلقاء الدولة في الخطر.

المادة 93- ينقسم الديوان العالي إلى قسمين يسمى أحدهما دائرة التهمة والآخر ديوان الحكم. أما دائرة التهمة فأعضاؤها تسعة ينتخبون ثلاثة من هيئة الأعيان وثلاثة من ديوان التمييز والاستئناف وثلاثة من أعضاء شورى الدولة وكلهم ينتخبون من الأعضاء الذين يعينون للديوان العالي.

المادة 94- يعطي القرار في هذه الدوائر بأكثرية الثلثين على صحة التهمة الملقاة على الذوات المشتكى عليهم أو عدمها أما أعضاء دائرة التهمة فلا يحضرون في ديوان الحكم.

المادة 95- إن عدد الأعضاء في ديوان الحكم واحد وعشرون عضواً من أعضاء الديوان العالي، منهم سبعة من هيئة الأعيان، وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف، وسبعة من شورى الدولة. وهذا الديوان يحكم حكماً باتاً وبمقتضى القوانين المؤسسة في الدعاوى التي قررت دائرة التهمة لزوم المحاكمة عليها، ويتم حكمه بموجب قرار أكثرية بثلث أعضائه. أما أحكام هذا الديوان فلا تقبل الاستئناف ولا التمييز.

" في الأمور المالية "

المادة 96- إن تكاليف الدولة لا يترتب منها شيء ولا يصير توزيع شيء منها ولا جمعه، ما لم يتعين بقانون.

المادة 97- إن لائحة الدخل والخرج في الدولة هي بمنزلة قانون موضح به مقدار وارداتها ومصارفاتها تقريباً فكل تكاليف الدولة يعول بأمر ترتيبها وتوزيعها وجبايتها على هذا القانون.

المادة 98- إن اللائحة المذكورة. أي قانون الموازنة العمومية، يصير البحث والمصادقة عليه بنداً بنداً في المجلس العمومي. وكذلك الجداول المرتبطة بها المتضمنة تفاصيل الواردات والمصارفات تقسم إلى أبواب وفصول ومواد متعددة وفقاً للأصول المتخذة نظاماً وتجري المذاكرة عليها أيضاً فصلاً فصلاً.

المادة 99- إن قانون الموازنة العمومية يطرح أمام هيئة المبعوثين عقب اجتماع المجلس العمومي ليتمكن وضعه في موقع الإجراء عند دخول السنة المتعلق بها.

المادة 100- لا يجوز صرف شيء من أموال الدولة خارجاً عن الموازنة ما لم يعين ذلك بقانون مخصوص.

المادة 101- إذا مست الحاجة لصرف مبلغ ما خارج عن الموازنة في غير وقت اجتماع المجلس العمومي، وذلك لأسباب إجبارية غير اعتيادية، فإن هيئة الوكلاء تستأذن من الحضرة السلطانية عن ذلك آخذة المسؤولية عليها وتتدارك المبلغ لصرفه بموجب الإرادة السنوية التي تصدر. وعليها أن تقدم لائحة ذلك إلى المجلس العمومي عند اجتماعه.

المادة 102- إن حكم قانون الموازنة هو لسنة واحدة فقط. ولا يجري في غير تلك السنة. غير أنه إذا فض مجلس المبعوثين لأسباب غير اعتيادية قبل تقرير الموازنة فيسوغ للوكلاء بموجب إرادة سنوية أن يداوموا إجراء حكم موازنة السنة الماضية إلى أن يلتئم مجلس المبعوثين، بشرط أن لا يتجاوز ذلك مدة سنة.

المادة 103- إن لائحة قانون المحاسبة القطعية يتضمن مقدار المبالغ المتحصلة من واردات السنة المعينة لها وحقيقة المصاريف التي صار دفعها بتلك السنة. وينبغي أن تكون هيئتها وأبوابها موافقة بالتام لقانون الموازنة العمومية.

المادة 104- إن قانون المحاسبة القطعية يطرح أمام المجلس العمومي في كل أربع سنين على الأكثر من ختام السنة المتعلق بها.

المادة 105- يترتب ديوان محاسبات لأجل رؤية حساب المأمورين الموكلين بقبض أموال الدولة وصرفها ولأجل فحص المحاسبات السنوية التي تقدم من الدوائر المختلفة. وهذا الديوان يقدم إلى هيئة المبعوثين في كل سنة تقريراً حاوياً خلاصة فحصه وتدقيقاته ونتيجة أفكاره وملاحظاته وفي كل ثلاثة أشهر يعرض أيضاً على الحضرة السلطانية بواسطة رئيس الوكلاء تقريراً عن أحوال المالية.

المادة 106- إن ديوان المحاسبات يؤلف من اثني عشر عضواً يعينون بموجب إرادة سنية. ويستمررون في مأموريتهم مدة حياتهم ولا يعزل أحد منهم ما لم تصادق هيئة المبعوثين بالأكثرية على لزوم عزله.

المادة 107- سترتب نظام مخصوص لتعيين النفقات المطلوبة من أعضاء ديوان المحاسبات وتفاصيل وظائفهم وصور استعفائهم وتبديلهم وترقيتهم وتقاعدهم وكيفية تشكيل الاقلام المتعلقة بهذا الديوان.

" في الولايات "

المادة 108- إن أصول الولايات ستؤسس على قاعدة توسيع دائرة المأذونية وتفريق الوظائف وستعين درجاتهم بنظام مخصوص.

المادة 109- سترتب قانون مخصوص أوسع من القانون الجاري الآن لانتخاب أعضاء مجالس الإدارة في الولايات والألوية والاقضية لانتخاب أعضاء المجالس العمومية التي تلتئم كل سنة مرة في مراكز الولايات.

المادة 110- إن وظائف المجالس العمومية كما سيصرح به القانون المذكور هي المذاكرة والمفاوضة في الأمور النافعة، كتنظيم الطرق والمعايير وترتيب الصناديق وترقية أسباب الصنائع والتجارة ونشر المعارف العمومية، ومن خصائصه أيضاً حق التشكي إلى المحلات المقتضية عند وقوع مغايرات للقوانين والنظامات المؤسسة لأجل إصلاح ذلك سواء كان بأمر توزيع الأموال الأميرية وجبايتها أو بالمعاملات العمومية.

المادة 111- يترتب في كل قضاء مجلس لكل ملة ينتخب أعضاؤه من أفراد تلك الملة ويكون من خصائصه النظر بمداخل المسققات والمستغلات والنقود الموقوفة لكي تصرف بحسب شروط واقفيها ومعاملتها القديمة لمن له حق فيها، وللخيرات والمبرات والمناظرة أيضاً على صرف الأموال الموصى بها حسبما هو محرر في وصية الموصي، وعلى إدارة أموال الأيتام وفقاً لنظامها الخصوصي. أما هذه المجالس فإنها تعرف الحكومات المحلية ومجالس الولايات العمومية مرجعاً لها.

المادة 112- إن الأمور البلدية تجري إدارتها في مجالس الدوائر البلدية التي سيصير ترتيبها في دار السعادة وفي الخارج وسيصير وضع قانون مخصوص لتنظيم الدوائر البلدية ووظائفها وكيفية انتخاب أعضائها.

" في مواد شتى "

المادة 113- إذا ظهرت بعض علائم وأمارات تنذر بوقوع اختلال ما في إحدى جهات المملكة فيحق للحكومة السنية حينئذ أن تعلن الإدارة العرفية مؤقتاً في ذلك المحل. والإدارة العرفية إنما هي إبطال القوانين والنظامات الملكية بصورة مؤقتة. وسترتب نظام مخصوص لطيفية إدارة المحل الموضوع تحت الإدارة العرفية. أما الذين يثبت بواسطة تحقيقات إدارة الضابطة الصحيحة أنهم سبب في اختلال أمنية الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق أن تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها.

المادة 114- إن التعليم الابتدائي يجعل إجبارياً على كل فرد من جميع أفراد العثمانيين وتفاصيل ذلك تقرر في نظام مخصوص.

المادة 115- لا يجوز توقيع أو إبطال بند من بنود هذا القانون الأساسي لأية علة كانت.

المادة 116- إذا اقتضت الظروف والأحوال تغيير بعض المواد المدرجة في هذا القانون الأساسي أو إصلاحها ووجد لزوم حقيقي وقطعي لذلك فيجوز تغييرها على الشروط الآتية وهي: أنه متى طلبت هيئة الوكلاء وكل هيئة الأعيان والمبعوثين إصلاح قضية ما فإذا صادفت هيئة المبعوثين على ذلك بأكثرية هي الثلثان وصدرت الإرادة السنية بشأنه فإن هذا الإصلاح يعتبر دستوراً للعمل. أما المادة التي يطلب إصلاحها فتبقى مرعية الإجراء حائزة قوة الحكم والنفوذ إلى أن تجري عليها المذاكرة وتصدر بشأنها الارادات السنية كما ذكر.

المادة 117- إذا اقتضى الحال تفسير إحدى المواد القانونية فإذا كان ذلك من الأمور العدلية يتعلق تفسيره في محكمة التمييز، وإن كان من أمور الإدارة الملكية فذلك من

خصائص شورى الدولة، وإن كان من مواد هذا القانون الأساسي فذلك متعلق بهيئة الأعيان.

المادة 118- إن القوانين والنظمات الجارية العمل بها الآن وجميع المعاملات والعوائد تبقى نافذة ومرعية الإجراء ما لم يصر إلغاؤها أو إصلاحها بالقوانين والنظمات التي تسن في المستقبل.

المادة 119- إن التعليمات المؤقتة التي ترتبت بشأن المجلس العمومي في 20 شوال سنة 1293 هـ تبقى أحكامها جارية إلى نهاية اجتماع المجلس المذكور الأول وبعد ذلك يضحى حكمها باطلاً.

7 ذي الحجة 1293 هـ
23 كانون أول 1876 م

الملحق الثاني (1)

(1) المصدر : أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع، إيضاحات عن المسائل السياسية، مطبعة الطنين، 1334هـ، ص 115 -

المحكومون ودواعي محكومياتهم⁽¹⁾

- عبد الحميد الزهراوي

كان مؤسساً للمنتدى الأدبي ومروجاً لبرنامج السري واناوجد في رئاسة جمعية اللامركزيين ومذاكراتها السرية. واشترك في مؤتمر باريس رئيساً له بصفته مندوباً عن الجمعية المذكورة. وتولى إدارة الأملاك التي أوقفها عزت العابد للسعي في تحقيق أمر الاستقلال العربي. وعقب المؤتمر ذهب إلى مصر وتولى رئاسة اللامركزيين. وبعد أن عين عضواً في الأعيان لم يفك ارتباطه باللامركزية بل أنه لم يقبل عضوية الأعيان إلا بعد صدور قرار جمعية اللامركزية في ذلك. وكان في مخابرات مع منسوبي اللامركزية في سوريا إلى الأيام الأخيرة.

حكم عليه بالإعدام

- شفيق بك المؤيد العظم

كان مؤسساً لجمعية الاخاء العربي وكان في اتصال ومذاكرات مع السفير الفرنسي في الاستانة ومأموري فرنسا السياسيين في مصر وسوريا لأجل إمارة سوريا واستقلال العرب ودعى القوى العسكرية الفرنسيين إلى المملكة. ثم أسس رابطة اللامركزيين وثبت أنه بعد العفو العام أيضاً اشتغل بهذه المسائل.

حكم عليه بالإعدام

- شكري بك العسلي

كان من أعضاء اللامركزية. ووقع على ورقة تتعلق بلجنة اللامركزية في الشام وخرج يجب الاقتراح علناً في خطابة التي القاها في مصر أمام تمثال إبراهيم باشا. وأخيراً اختلط بمعتمد فرنسا بالشام وذلك بواسطة الأمير عمر وأدخل ببعض أناس بالذات في جمعية اللامركزيين.

حكم عليه بالإعدام

(1) هم الذين حكم عليهم جمال باشا أحكاماً مختلفة في عامي 1915م، 1916م في المحكمة العرفية ببيروت، ونفذت الأحكام لاحقاً في دمشق وبيروت.

- عبد الغني العريسي

حكم عليه بالإعدام غيابياً وأخيراً أُلقي عليه القبض كان من ضمن الذين دخلوا في اللامركزية وفي تشكيلاتها السرية وكان مأموراً لترتيب أمر القيام في سوريا. كان من العوامل لتهيئة الأفكار المضرة قبل المؤتمر وبعده وكان يسعى بكل قواه لضمان استقلال العرب. وثبت أيضاً بأنه حرض العربان على القيام.

حكم عليه بالإعدام

- سيف الدين الخطيب

كان يدير شؤون المنتدى الأدبي السرية هو وعبد الكريم الخليل. ووقع على البلاغات التي كانت نشرت في أمر افتراق العرب. وذهب سيف الدين الخطيب هذا إلى مصر وتحادث مع أعضاء اللجنة اللامركزية هناك.

حكم عليه بالإعدام

- محمود المحمصاني

كان من ضمن الذين دخلوا في اللامركزية، وأحد مروجي مقاصدها السرية. وأدخل فيها بعض أشخاص وأخذ أختام فروعها في سوريا ووزعها. وكان يدير شؤون فرعها ببيروت بالذات.

حكم عليه بالإعدام

- محمد المحمصاني

أحد مؤسسي فرع بيروت. وقد أريئت له صور المكاتيب التي كان كتبها في لزوم الانفكاك عن الإدارة العثمانية وفي ظلم الاتراك وأذاهم، فصدق بوقوعها. والتحق باللامركزيين وأدى تقاسيطه أيضاً إلها. وأخذ أختام فروعها ووزعها.

حكم عليه بالإعدام

- صالح بك حيدر

كان معتمداً اللامركزية في بعلبك. ووجد مصرحاً في المكاتيب التي كانت وردت إليه والتي أرسلت إلى محمد المحمصاني من مصر بأنه من ضمن الداخلين في التشكيلات السرية.

حكم عليه بالإعدام

- عبد الوهاب الانكليزي

كان - كما اعترف هو بنفسه - مخاصماً للحكومة ببواعث الاحتراس وكان من

الذين دخلوا في تشكيلات اللامركزية حسبما ادعاه وأيده رفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب وغيرهما من باقي الشهود. وحضر الاجتماع الذي كان حصل لأجل إدارة أمر القيام في الشام.

حكم عليه بالإعدام

- رفيق رزق سلوم

كان يكتب الأشعار لتهيج الذين يسعون للاستقلال العربي وتشجيعهم كما اعترف هو بذلك. وكان من الأعضاء المنسوبين للامركزية.

حكم عليه بالإعدام

- عمر حمد

تثبت بالوثائق أنه من ضمن أعضاء اللامركزية. وكان انشد في إحدى مسارح التمثيل قصائد تنفر بين العرب والترك. وكان فر مع عبد الغني العريسي إلى البادية وأوجد معه في حركاته القائم بها عند العربان.

حكم عليه بالإعدام

- عارف الشهاب

كان من أعضاء اللامركزية. ودخل هذا وأهميته مصرحة في المخابرات التي تبودلت بين اللجنة المركزية وفرع بيروت. وهو أيضاً فر إلى البادية ورغب العربان في القيام.

حكم عليه بالإعدام

- عبد الكريم الخليل

كان مع رضا بك الصلح في كل تحريكاته أثناء الحرب العامة. وخلاف ذلك فإنه كان من ضمن الداخلين في جمعية اللامركزية وفي تشكيلاتها السرية. وسافر إلى مصر واشترك في مذكرات اللامركزية.

حكم عليه بالإعدام

- الشيخ أحمد طباره

بناءً على طلب رزق الله أرقش المحكوم عليه غيابياً بالإعدام كان أخذ سعيداً عقلاً المحكوم عليه بالإعدام أيضاً محرراً لحريته. وكان العامل الوحيد في الجمعية الإصلاحية ومدعي الإصلاح. وثبت أنه أهم عضو وعامل خصوصي للامركزية. واشترك في المؤتمر بمصر ووقع على القرارات المتعلقة بتأسيس إمارة مستقلة.

حكم عليه بالإعدام

- أمير عمر

كان يتقاضى الأموال من المعتمد الفرنسي إلى زمن الحرب العامة. وكان ممهداً لأمر التزام جانب فرنسا وهو الذي قدم شكري العسلي وبعض أشخاص غيره إلى المعتمد وأن مقدار ما أبداه من المعونة في أمر التزام جانب الفرنسيين مصرح في أوراق السفير والمعتمد.

حكم عليه بالإعدام

- علي أفندي الأرمنازي

اعترف بأنه أنوجد في مخابرات مع اللامركزيين إلا أنه يدعى بأنه أخيراً انفك عنهم، كان معتمداً للامركزية والذي أتاه بالختم هو نوري القاضي.

حكم عليه بالإعدام

- حافظ بك السعيد

تفيد المكاتيب الواردة من مصر أن الموصي إليه كان معتمداً بيافه. وقد أعترف مؤولاً أيضاً أن بعض طرود كانت باسمه في مصر.

حكم عليه بالإعدام

- آلبر حمصي

كان اعترف باغفالات محمد المحمصاني ودخل في الجمعية. ولكن يدعي بأنه أخيراً انفك عنها.

حكم عليه بالإقامة داخل القلعة خمس سنوات (قلعة بند)

- جورج حداد

كان من أعضاء الجمعية اللبنانية، واشترك في جميع تشبثاتها فعلياً واجتهد بنشرياته لاستقلال لبنان.

حكم عليه بالإعدام

- سعيد عقل

سعى في تشكيل مملكة عربية مستقلة وذلك بفعاله وحركاته ونشرياته في جريدة الاتحاد العثماني التي دخلها بواسطة رزق الله.

حكم عليه بالإعدام

- بترو باولي

لم يمض أوقاته التي انوجد فيها في عالم الصحافة إلا بالتلقينا والتشبهات والنشريات لأجل استقلال مملكة عربية.

حكم عليه بالإعدام

- يطر علي

كان من أعضاء القحطانية التي انقلبت أخيراً إلى الجمعية الثورية العربية والامركزية ووجد مساعيه مع جميع الجمعيات المشكلة أخيراً للاستقلال العربي.

حكم عليه بالإعدام

-محمد سالم بن مصطفى مظلوم

كان استعمل في خدمات عبد الكريم خصوصيه. وعذا هذا فقد كان عضواً فعالاً لعبد الحميد الزهراوي. وتبين أنه انوجد في تلقينات تسوق الشبان إلى اتباع فكرة الإستقلال العربي.

حكم عليه بالإقامة داخل القلعة خمس سنوات (قلعة بند)

- أمير طاهر

تبين أنه أخبر المعتمد الفرنسي بما يتعلق بالسوقيات العسكرية وهو الذي سهل فرار عبد الغني. وخلاف هذا فقد تبين انه اشتغل بحركات تدعو للقيام.

حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤقتة

- نوري القاضي

من ضمن الداخلين في الجمعية. وكان يأخذ اختتام الفروع ويذهب بها إلى الأماكن العائدة إليها. وهو الذي كان يستلم الأوراق المضرة من بريد الفرنسيين.

حكم عليه بالإعدام

- توفيق البساط

كان فر من الفيلق أثناء خدمة فيه وبقي فاراً شهوراً عديدة. وكان توزع يأتي إلى المنتدى الأدبي من المنشورات السرية. واعترف رفيق رزق سلوم بأنه من الداخلين في تشكيلات اللامركزية. وثبت أن فراره هو وجلال البخاري من الجندية كان لا جل تهيج العربان.

حكم عليه بالإعدام

- جلال البخاري

كان فر مع توفيق البساط من الفيلق واشترك معه في جميع فعاله. وثبت أيضاً أنه في الوقت نفسه كان يبذل المجهود قبل النفير العام في المسائل المختصة بالاستقلال العربي.

حكم عليه بالإعدام

رفيق بك العظم، حقي بك العظم، الشيخ رشيد رضا، داود بركات، فارس نمر، الدكتور شبلي شميل خليل افندي المطران، إبراهيم النجار، جورج عبد المسيح، جبرائيل آصف، نجيب بك عازوري، ألفرد بك عازوري، جورج بحري، الأمير خليل أبو اللمع، خليل بولاد. هانري حبيب بولاد، نجيب بك البستاني، أمين بك البستاني، يوسف البستاني، فليب شيماء، نجيب قطان، نجيب قريصاني، جورج رومان، جورج قريصاني، كامل أوه، جان عبيه، نجيب عتاجه، الدكتور غروزوزي، نعمت الله غانم، رفائيل غره، ميشل بك لطف الله، الدكتور يوسف كحيل، الشيخ يوسف الخازن، جورج خير، رشيد بك خياط، ادمون ملحمة، الدكتور خليل شاقه، يوسف سمعان صيد ناوي، الياس حنين، سليم بك شميل، ماريوس بك شميل، يوسف حبيب زنايزي، الياس زهار، ألفونس زينييه، فؤاد الخطيب، قسطنطين نبي، حسن حماد، عبد الحفيظ افندي بن محمود الحسن، رزق الله أرقش، سليم ثابت، عزت العابد، شكري غانم، عزيز علي وبعض أشخاص آخرين...

هؤلاء الأشخاص منهم من كان يعد الأفكار ومنهم من كان يهيء الأسباب للقيام والاختلال سعيًا وراء نزع بلاد العرب وفكها عن الإدارة العثمانية لأجل تأسيس خلافة عربية تابعة لمصر تحت سلطة الانكليز العسكرية. وبعضهم من هو ساع في ذلك بالفعل، أو شريك في هذه التشبثات. وبعضهم من كان مهيباً لترتيبات القيام أو داخلاً فيها. وكلهم فارون.

حكم عليهم غيابياً بالإعدام

- محمد علي الحلبي

كان من الداخلين في الجمعية. وكان اسم مومى إليه محرراً في التذاكر التي أرسلت.

حكم عليه بالإقامة داخل القلعة خمس سنوات (قلعة بند)

- رضا الصلح بك

كان أثناء الحرب العامة مع عبد الكريم في جهات صيدا وصور يجري التلقينات الباعثة لكسر القوة المعنوية، وكان يعلن أن سوريا على وشك السقوط، وأن المواصلات انقطعت بين سوريا واسكندرون. وقال أن النقود المديون بها إلى أخيه سيردها عقب احتلال الانكليز.

حكم عليه بالنفي الأبد

- رياض صلح بك

كان دائماً ملازماً لأبيه ومشجعاً لحركاته.

حكم عليه بالنفي ثلاث سنين وعند المحاكمة الثانية وجدت أدلة جديدة واتضحت أفعاله في كثير من المنشورات فحكم عليه بالنفي مؤبداً

- مصطفى سميسمة

كان داخلاً في التشكيلات السرية اللامركزية، إلا أنه كان يقول أنه لم ينضم إليها إلا لاعتقاده بأنها جمعية خيرية وأن منشوراتها لم يطلع عليها، وكان يدعى بأنه أخيراً فارق بيروت وذهب إلى حلب وأنه من نحو سنة لم يوجد في علاقة ما ببيروت، ولم يتضح أن المومى إليه اشترك في تشبثات بالفعل.

أعطى القرار بوضعه تحت مراقبة نظارة الضبطية مدة سنتين

- أسعد بك حيدر

ادعى بأنه لم ينضم إلى هذه الجمعية لا هو ولا ابنه ومع أن المكتوب الذي كان ورد إلى ابنه من مصر أبرز إليه فقد أصر في دعواه.

أعطى القرار بنفيه سنتين

- حسين بك حيدر

كان يدعى بأنه من نحو سنتين ما كان موجوداً في سوريا ولم تكن له علاقة بالجمعية.
فأعطى القرار أولاً بنفيه مدة سنتين ثم عند المحاكمة الثانية ظهرت وثائق كافية
تدل على اشتراكه في جمعيات الاستقلال فشددت عقوبته.

- يوسف سليمان المخيير وتوفيق الناطور

هذان كانا في افسادات متمادية بين الشبان العرب. واسماهما مذكوران على
التوالي في متن الكتاب.

حكم عليهما بالإشغال الشاقة المؤقتة



الملحق الثالث⁽¹⁾

وثائق باللغة العثمانية تتحدث عن مصطفى كمال أتاتورك وأدواره

(1) المصدر : ضابط تركي سابق، الرجل الصنم، الوثائق من 6 - 30، ص 473 - 492



ودون أن يدري فهو يعطينا الدليل على قيامه ببيع الوطن إلى الانكليز:

وثيقة رقم 6: (1)

فلسطين جبهه سده كى سدهج آرقدا سدرم ، اينكلز سوازيليندك مصطفى كمالك قوماندرا
ايندنگي اوردونك جبهه سى پاشا روه درت اوردونك كرسنه دوشدينگي ، محقلم و خيالهم هيغمايان
بونددكنلش باشى كوستردنگي مصطفى كمال كمالك بماننى قوماندرا سوازيليندك آتلايه و قوماندرا
فاجديغى سويلردى .

باخترق جبهة الجيش الذي كان تحت أمرة مصطفى كمال، وأنهم بذلك وصلوا إلى
مؤخرة أربعة جيوش، حيث تمت الكارثة التي لا يتحملها العقل ولا الخيال، وأن
مصطفى كمال انسحب إلى "أدنة" و "قونية" لكي ينقذ نفسه، بينما بقي "علي فؤاد
باشا" في "دومدار".

نفس الموضوع أيضاً:

وثيقة رقم 7:

اينكلز مصطفى كمالك امر و قوماندرا ايندنگي اوردونك جبهه سى سوازي برلكارليم ياروب
دورت اوردونك كرسنه دوشدر ديو اوردونك قطع لريم افراديم ، ضابطانيم ، مازم سيلم و بوتون
اسلحه لريم دوشمان المي سيمدر درديجي اوردونك قوماندراي كجولك جمال باشا بونورغونده مصطفى
كمال ياشايي دويلى صورتده صوجلي كوره ليش انشاهم آتشدر بر اوردو جبهه سى بر سوازي
قوتيه ياريلماز بر سوازي قوتى كندى باشنه بوتون اوردونك اسير الامازان آخچى بوزولان
اوردونك برلكاريني تعقيب ايدريلير .

" اخترق الانكليز جبهة الجيش الذي كان تحت إمرة وقيادة مصطفى كمال
بواسطة وحداتهم من الخيالة حيث وصلوا إلى مؤخرة أربعة جيوش، وقد وقعت هذه
الجيوش في يد الأعداء بكل قطعاتهم وأفرادهم وضباطهم ولوازمهم وجميع أسلحتهم
وكان قائد الجيش الرابع " كوجك جمال باشا " يرى على الدوام أن مصطفى كمال هو
المسؤول عن هذه الهزيمة، وليس بإمكان وحدة من الخيالة أن تخرق جبهة جيش. كما
أنه ليس بإمكان قوة من الخيالة أن تقوم لوحدها بأسر جميع الجيوش. إنما تستطيع فقط
مطاردة وحدات الجيش المنهزم".

الإشارة إلى جو العلاقة الموجودة بينه وبين الانكليز عند انتقاله إلى الأناضول:

وثيقة رقم 8:

(1) تبرز أهمية هذه الوثائق في كونها تتطابق في معلوماتها مع ما ورد في مذكرات رضا نور، وهذا يؤكد صحتها ودقتها، باعتبار هذه الوثائق ومذكرات رضا نور شواهد حية على الأحداث.

«رأيت باسانك اولهون اول جمهوريته بريانات وار؛ مصطفى كمال باشا اينكلز لهرده
 ساعده سيله آنادولي به كجدي بنه ۱۸ سوارى ايله كندم واپوره بينوب كچدم، سامسونده
 قول اوردر قوماندا لىقى در عهده ايندم، ديمشدى . مصطفى كمال باشا استانبولده آبريلر كن
 اوج كيشيلك بر اينكلز هيت عكرى كندىنى تشييع ايمشدى .
 جولاره صدر الدين باشا ايله مجلده بو مقصدل سرت طاريشمارى كچمى . بر قونايلىده
 ايمشدم : مصطفى كمال باشا سامسون، استانبولده كى اشغال قوتارى باسه قوماندا لى "هارنجتون"
 كچمى .»

"هناك تصريح لرفعت باشا إلى جريدة "الجمهورية" قبل وفاته يقول فيه: "إن مصطفى كمال باشا" ذهب إلى الأناضول بإذن من الانكليز. بينما ذهبت أنا إليه بركوبي الباخرة مع 18 فارساً، حيث قمت بإدارة فرقة الجيش في "سامسون". وقد قام وفد انجليزي مؤلف من ثلاثة أشخاص بتشجيع "مصطفى كمال باشا" عند مغادرته استانبول. وقد حدثت مشادات عنيفة في المجلس مع "جولاق صلاح الدين باشا" حول هذا الموضوع. وقد سمعت من أحد أهالي قونية بأن "هارنجتون" القائد العام لجيش الاحتلال الانجليزي في استانبول هو الذي أرسل مصطفى كمال إلى سامسون".

من الذي قام بتأسيس حركة المقاومة المليية والبدء بها:
 وثيقة رقم 9:

هالوكى مى مجا دل نك ايلك قوريجيلرنده شرقده قارابكر ايسه غربده ده جعفر طيار ايدى وهرايكى
 بو مقصدل برلكده آفلاشمشردى . فقط آنادوليدنه خصوصى آدامد معرفتلم نكردلغنده كى ضابطانه، سر
 اوراده مدافع يايمايكز، آنادولى بكمچكز ديم خبر كوند رمله لى ضابطانك فرقه دن داغيلماسنه سبب
 اولمشدر . بو خصوصه جعفر طيار باشا دهنى آوگزه نه مشدر . هوگرا دن طانيد بقم . زل اراضيا نندوه شوكت
 اسمنده بر صوباي بوجهنارى بلا آيدنوشدر .

"بينما كان أول مؤسسي حركة الكفاح الملي هو "قره بكر" في الشرق وفي الغرب "جعفر طيار" وكانا قد تفاهما حول هذه الناحية. ولكن ارسال رجال من أناضول إلى ضباط "تكير دانج" حاثين إياهم على عدم القيام بالدفاع هناك تسبب في ترك الضباط للفرقة وحتى "جعفر طيار باشا" لم ينتبه لهذا الخصوص، وقد أوضح

لي فيما بعد هذا الأمر السيد " شوكت " أحد ضباط الجندرية الذي تعرفت به فيما بعد .

مجلس الأمة الأعلى ومصطفى كمال:

وثيقة رقم 10:

مصطفى كمال باشا في مجلس هيچ بروقت مرافق آلتند طوتاماسيه، آنجه مصطفى كمال باشا بمجلسى كندى هذه فيه واليه ديكى استقامتد كوتورنگه عزم انجيه، ايجارند د. بمجلسده به لبره ن مخالف ومعارضلى بدوروايونه ايندبرنگه وجوقاينى، سيندبرنگه موقوع اولمشور. چونكه آنقره دهكى حكومت مشروع برحومت ده قل، عاداتا برينه لر حكومتى اولار وه تشكىل انجشدى . مصطفى كمال دك بمجلسده كى قونوشمارند، عويونك مجلسكز ديه هيئتي پوهيپوهدماسى اولاره شانتاژ ياجماسى، كندى غايه سنه اولرى چاليشدبرموه هدفنه معطوفدى. بو هيتندره صبرى نوكره نوب ده ايچي يانا ناره در حال قونوشمارينى ياريدنه بيرافديرز، مول بول تهديد صاوراينليردى مجلس اعضا ليندك، بشارينه خفيه لرده طاقمئدى . بوى كندى كزه بيليوردى .

(لم يستطع هذا المجلس أن يضع مصطفى كمال باشا تحت مراقبته ولكن مصطفى كمال باشا كان قد عقد العزم على توجيه المجلس الجهة التي يرغب بها ونحو هدفه، وقد استطاع أن يقضي على معارضييه ومخالفيه في المجلس بدون تردد كما استطاع ترويض أكثرهم، ذلك لأن حكومة أنقرة لم تكن حكومة شرعية، بل تشكلت وكأنها حكومة عصابات.

كان مصطفى كمال يخاطب المجلس دائماً بقوله: "مجلسكم العظيم" وذلك من أجل نفخ أوداج الأعضاء والقيام بابتزازهم وسوقهم للعمل في سبيل هدفه، أما الأعضاء الذين فرغ صبرهم والذين اكتوت قلوبهم فإنه كان يقاطعهم ولا يدعهم يكملون حديثهم ثم يقوم بإرسال سيل من التهديدات إليهم. كما أنه كان يرسل المخبرين وراء أعضاء المجلس وكان هؤلاء الأعضاء على علم بهذا).

المعارضة الأولى في المجلس والحالة النفسية لمصطفى كمال:

وثيقة رقم 11:

مجلسك ايجنده ايلك مخالفتك دوغماسندك سببي ده مصطفى كمال لك ماليه وكيلى سراج اوغلى شكركيه امر ويره لك بر بحجه ميلون لبراي كويا اسلحه مبايعه سي نامى آلتده آدروپام كوندرسه اولماسيدر. مجلس كيدن اذن وصلاعت آلا روه بوباري كونده ريورنگز ديسه سراج اوغلى صقيشدر ديفي زمان باشا امر ووردى ديمشدر. داها بداينده بر. چته ريشى كبي لايستل حركت ايتكده ايدى. حالبوكه فعلد هيج بر چته لك اسوقومانداسنى درعهده ايتمه ومخاطره لى يرلرده بولنماسه، مدافعه كيريشه مه، آنجه آنقره ده، زراعت مكئنده كى اقامتگاهند. مدافعه وقرردون آلتده مجلسه كيدوب كلمسه صوكره ده استاسيون كوشكندره وچان قايا كوشكندره طرزده قورقوايجنده ايسنه ديكى ياشادى اما. قورقو ايلكلاينه قدر ايشم مشدى. سوروهالنده كى فدايلرينك وپوليسلرينك اورتاسنده دولاشردى.

"إن الشيء الذي سبب أول معارضة في المجلس هو قيام مصطفى كمال بارسال "شكري سراج أوغلو" وزير المالية غلى أوروبا مع 5, 1 مليون ليرة، بحجة شراء أسلحة. وعندما قام المجلس باستجواب "سراج أوغلو" والضغط عليه حول من الذي أعطاه صلاحية إرسال هذا المبلغ قال: لقد أمرني الباشا. لقد كان من البداية يتصرف وكأنه رئيس عصاية لا يُسأل عما يفعل، مع أنه لم يقم بإدارة أية عصاية محاربة ولم يوجد في أي مكان خطر ولم يقم بعمليات دفاعية بل بقي في مقر عمله في مدرسة الزراعة في أنقرة يذهب ويأتي إلى المجلس تحت الحراسة.

ثم استمر في طراز الحياة التي أرادها ضمن محيط من الخوف في بناية المحطة ثم في قصر "جانقايا" لقد كان الخوف يسري حتى في عظامه، إذ كان يتجول وهو في وسط العديد من رجاله الفدائيين ومن رجال الشرطة السريين".

وحول رجال الفدائيين:

وثيقة رقم 12:

بويوك ملت مجلسي ايجنده بايبلده پروياغاذازه، غير مشروع صفتلى اولايه اعضار
 بيله مخالفدى، آنجه مصطفى كمالك اظرافنده طوبلاشمه بر قاج فدائيسى ودالقاوغنى
 مستشاً.... هر وسيله بيله مجلس طبايخچلى، سداغلى كيرهن واعضار آراسنه صوقولوب
 اوطورله بوفدايلار، اوقايه بر اشارت و ديرنمه حالنده همان ملاحدينه آلرني آتارلر،
 مجلسه كيرى تهديد ايدى. رزدي. دنيا قوميت جيلينك مجلسنده بيله كورولمه دك بر حالى،
 بو مجلسه اعضار بول بول شاهد ايتشاردر.

" إذا استثنينا بضعة من رجاله الفدائيين وبضعة من الانتهازيين الملتفين حول
 مصطفى كمال فقد كان الجميع حتى الأشخاص غير الرسميين معارضين
 للدعايات التي كانت تتم داخل مجلس الأمة الأعلى. وكان هؤلاء الفدائيون يدخلون
 المجلس بكل الوسائل وهم يحملون المسدسات والأسلحة ويجلسون بين الأعضاء.
 وكانت أيديهم تمتد إلى أسلحتهم عند أقل إشارة أو ظهور مقاومة وتصلب مهددين
 بذلك أعضاء المجلس، وهذا الحال الذي لا يشاهد حتى في مجالس العصابات كان
 يشاهده أعضاء المجلس على الدوام".

الوضع الذي أدى حتى إلى عصيانات داخلية:

وثيقة رقم 13:

بو طوبولولمه ايجنده غروبلرك اكثر نيسي مصطفى كمالك داوا ريسه و طوتومنه معارضه
 ابدلر. باشانك بر ديكتاتور اولمه، دولتى اله كچيريك و بر جيفلك كى اداره يه يلتمك
 هوسنه دوستيكي، هر كوردكي ايشده قفاسنه بو ذهنيك حاكم اولديكي بك اعلا
 فرمه ايتشاردى. بو طوبولولك ايجندن دالما ياشاي قارشى اعتراض سسلرينك
 يوكاسمى، مجلس خارجه ده بوسلرك عكس ايتي، يرير علكت داخنده
 غصيانك دوغماسنه و مجلس ايجنده ده خاطري صاييلر بر قوتك مخالفت
 غروپنك وجود بو كاسنه سبب اولكشدر.

" لقد كانت أكثرية الأجنحة الموجودة في المجلس معارضة لتصرف وموقف
 مصطفى كمال. إذ أدركوا جميعاً بأن الباشا يرغب أن يكون ديكتاتوراً وأن يمسك بزمام
 أمور الدولة وأن يديرها مثلما تدار مزرعة، وأنه يقوم بفرض رأيه على كل عمل يقوم به.
 إن ارتفاع الأصوات المعارضة ضد الباشا في المجلس وانعكاس أصدائها في الخارج كان
 سبباً في ظهور عصيانات (تمردات) داخلية في كثير من الأماكن وفي ظهور جماعة
 معارضة قوية في المجلس".

حول العصابات الفدائية التي كانت أول من قامت بحركة الدفاع:

وثيقة رقم 14:

حتى دولتي انبلا حطوه به قوران و قورمان ده بوجته ل..... بونلر اولاسايدي
اوردوده تشكي ايدى مزدى يونانليد جوه دها اول آنقره في اشغاله فرصت
بولاييلر لردى .

"...لقد كانت هذه العصابات هي التي قامت بالخطوة الأولى في تكوين الدولة
وفي أنقادها ... ولو لم تكن هذه العصابات موجودة لما تكوّن الجيش ولوجد اليونانيون
فرصة الاستيلاء على أنقرة قبل وقت طويل".

كيف قام بخداع الجركسيين العصاة والمعارضين؟

وثيقة رقم 15:

ايستى م لردى ، بدائته جركس ده مصطفى كمال باشاي تصفيه ايدى بيلر لردى . فقط
صورت حقدن كورمى سنى وزماندن استغاده ايتيه سنى بيلدى بكور اولاسى اينكلر لردى باشمى .
بولايدي كتر بيلر ، پورساده جركسى بكر سامى ، اسكيشرده على فؤاد ، آنقره ده زندارما
عظم قوماندانلر بيلدى جركسى بها ، آنقره آلاى قوماندانلر جركسى رمزى ، جركسى ادهم
وقرده شلى ، كسكنلى رضا بك ، يوزعاده جايان اوغوللرى و بك جوقلرى
ايستى م لردى مصطفى كمالى تصفيه ايدى بيلر لردى . آلاويره دالاورده ايدى باشمى قوماندانلر
ال كجركسكده جوكورم بر دها قايدير مامشدر . عدايلدى واسطى سيل ، قارشى كلنلدى تهديد
ايتمشدر . ويويه ايتدر مشدر عثمانلى اورده سنده بو قدر ظالم و حريص بر عسكر
كوركم مشدر .

(في البداية لو أراد الجركس لاستطاعوا القضاء على مصطفى كمال، ولكنه
استطاع أن يبدو معقولاً، واستطاع بذلك كسب الوقت ... آه من الانكليز! لقد جلبوا
على رأسنا هذا البلاء.

في "بورصة" كان هناك "بكر سامي الجركسي" وفي "أسكى شهر" "علي فؤاد" وفي
أنقرة العميد "بهاء الجركسي" القائد العام للجندرية و "رمزي الجركسي" قائد الفوج و
"جركسي ادهم" واخوانه و "كسكنلي رضا بك" وفي "يوزكات" كان يوجد آل "جوبان
اوغلو" وكثير غيرهم ... فلو أراد هؤلاء لاستطاعوا القضاء على مصطفى كمال باشا ولكنه
بعد أن حصل على منصب القائد العام بالحيل والطرق الملتوية لم يدع هذا المنصب يخرج
أبداً من بين يديه. وقد قام بواسطة رجاله الفدائيين من تهديد معارضيه والقضاء عليهم. ولم
يظهر في الجيش العثماني عسكري ظالم وحريص على المنصب إلى هذه الدرجة مثله".
أسلوبه مع منافسيه:

وثيقة رقم 16:

شہزادہ بی استانبولہ جو پریم لادی آنادولیدہ کی مجلسک باشنہ کیر، اوراسنی تیزلر، مشروع حالہ کتیرہ بیلوردی، شعلیلک صخرہ احتیاج یوہ، دیمہ لہینہ قارشیلوم، اوردودہ برنغر کی ہالیشام، دیدگی حالہ قبول ایدمہ رک کری جو ریلیمسی، مصطفی کمالک مقصدینی آپ آشکار اور تاپ قوعیشدی جلال الدین عارفی دہ بمقصدل مجلسک باشندن نصیخہ ایتمہ سی، کندینی اونل یرینہ کیرمہ سی، آنادولیدہ بولنان باشلری بر رہبانہ ایل صاغہ صول، حدود خارجنہ بیقارماسی، کندینی ہم مجلس ربی و ہم دہ باسہ قوماندہ یادرعاسی، ارج ایدہ دہ کیشہ جلدک بر باسہ قوماندانلق صوگم قدر کنڈی عہدہ سندہ طوتماسی، قارہ بکر لک قول اور دوسلہ شرقہ نہ تیشہ رک یونانیلری بوسکورنگہ موغہ اولمہ کی محتمل ظہرتندہ علی احسان باشانک آفونڈہ برنجی اور دوق تسیو و اصلاح ایدہ رک تعرضہ حاضر بر حالہ کتیرہ تعرض تکلندہ بولنامسندن قوشقویم دوشن مصطفی کمال استشارہ عسکرہ بالیالم دیسہ علی احسان باشانی چاغروب اقامتہ مأمور ایندیرمہ سی، باشانی املکی یہ و دیوانی حربہ سوق ایندیرمہ سی کی آتھقلقلر ...

"لو لم یقوموا بارجاع ولی العهد فی "انبولی" لأصبح رئيساً للمجلس فی الأناضول ولاستطاع أن یضع کل شیء فی نصابه وأن یقوم بالتطهير هناك ... عندما قیل له: نحن لا نحتاج إلیک حالياً. أجابهم: إذن دعونی أعمل کجندي بسیط، ولكنهم لم یقبلوا وأرجعوه، وقد أظهر هذا نية مصطفى کمال بکل وضوح، كما أن قیامه بتصفية "جلال الدین عارف" من رئاسة المجلس وإحلال نفسه محلہ وبعثرة الباشوات الموجودین فی الأناضول ذات الیمین وذات الشمال أو إخراجهم خارج الحدود، والجمع بین رئاسة المجلس والقيادة العامة للجیش والاحتفاظ بمنصب القائد العام بعہدته حتی النہایة، بینما کان من المفروض تبديله کل ثلاثة أشهر، وخوفه من النصر المحتمل عند "قرة بکر" بفرقة الآتية من الشرق وقیامه بإجبار اليونانیین علی التقهقر ... کل هذه الأمور توضح کل شیء.

ثم هناك أعمال دنیئة له مثل خوفه من اقتراح "علي إحسان باشا" - الذي کان قد تقدم باقتراح البدء بالهجوم بعد أن قام بإصلاح الجیش الأول فی "أفیون" وجعله مہیاً للهجوم - واستدعائه إلی "قونية" بحجة القیام معاً بالمشاورات العسكرية ثم وضعه فی الإقامة الجبرية ... وكذلك قیامه بإحالاته علی التقاعد وسوقه إلی المحكمة العسكرية".

وحول الأشخاص والوسائل التي کان یستند علیها:

وثيقة رقم 17:

وقتی آنقره زراعت مکتبده اقامت ابدن مصطفی کمال یاشاندلے محافطہ سندھ اسماعیل حقی اسندنه برندنمکدک ایدارسندنه بریاده طاقعی موجود ایکن قیسم زمانده بو طاقعی بر آلائی قلدورسنه چیقارمهره و آیریجه ده برندنلرما طا بورنی رفاقتنه آلمسه، بو طا بورلک باشنه قلیچ علی، نالے یکنی صالح قلیچ اسندنه کنج و بارلاره بر ضابطی یوز باشیلغه ترفیح ایندیره رک کترمسه، دها صوکرا قارا دگزدن کلن طویال عثمانلک حیت سنی ده بر آلائی حالنه صوقاروه و طویال میللیس قایماقللر رتبه سنی ویره رک اونی ده معیتنه محافطه آلمسه معاشدینن ژندارما عجم قوماندانلر قادر رسندنه و اکمال افزادی نامی آلتده هیقارتدینی تخصیصاتلمه بسله مشدر، بوننده باشق بر یولیس فخره سی ده تشکیل ایندیره رک محافطه سنه عدوه ایشدر، کنکندیلر عاکف قایدان کبی روم ایله ایشقارلی عونته سی، محافطه لری ده حسنه رضا، جواد عباس، صالح بوزاوه، رجب زهدی، اسکوبلی عثمان طوفان صربشین بارلاره مدرم مظفر برنجی یا ور بوندر بک برنجی آدمی، ارنکوبلی قاتل و سابقلی شعبان

" عندما كان مصطفى كمال باشا مقيماً في مدرسة الزراعة في أنقرة كان هناك فصيل من المشاة لحراسته تحت إدارة ملازم اسمه "إسماعيل حقي" ولكن هذا الفصيل سرعان ما زيد إلى سرية كما أضاف إليها فصيلاً من الجندرية وجعل على رأسه ضابطاً وسيماً اسمه "صالح كليج" - وهو ابن أخ علي كليج - ورفعته إلى رتبة رائد، ثم استقدم من جوار البحر الأسود عصابة "توبال عثمان" حيث جعلها في شكل سرية كما أعطى إلى "توبال عثمان" رتبة قائمقام مدني حيث ألحقه في معيته كحارس له وكانت رواتبهم تعطى من القيادة العامة للجندرية من التخصيصات التي أوجدها تحت اسم "تخصيصات الأفراد الاحتياطيين". بالإضافة إلى هذا شكّل مفرزة من الشرطة وألحقها أيضاً بوظيفة حراسته. وكان أمثال "عاكف قبطان" - الذي كان من مجرمي "روملي" - من اعوانه وكان من حراسه أيضاً "حسن رضا" و "جواد عباس" و "صالح بوزوك" و "رجب زهدي" و "اسكيلي عثمان طوفان" ... كما كان الملازم الاشقر الوسيم "مظفر" ياوره الأول ... كما كان "ارنكوبلي شعبان" الذي كان قاتلاً وصاحب سوابق، الرجل الأول فيهم".

نفس الموضوع أيضاً:

وثيقة رقم 18:

مصطفی کمال یاشاء، جعفر طیارلک معنویانه، حدرفت وسلطنته باغلیلقنی فرمه ایشدی .
(اکیلمز) صوی آدینی آلاده جعفر طیار حقیقه سغالت ایچنده دونه جدر قدر بوضولوه کیردی
فقط اولنده بویون آلمه دی .

" كان جواد عباس "وكليج علي" و "رجب زهدي" و "صالح بوزيك" و "عثمان طوفان" وغيرهم وغيرهم من بين فدائييه.

هو وجعفر طيار باشا المؤمن:

وثيقة رقم 19:

مصطفى كمال باشا، جعفر طيار، لك معنوياته، عذرت وسلطته باغلبيلقي فروه اتيمشدي .
(اكيلمز) صوى آدينى آلايه جعفر طيار حقيقتة سفالت ايجنده ده نه جيك قدر بوفسوز له كجبردى
فقط اولده بويون امله دى .

"كان مصطفى كمال باشا قد لاحظ مدى تمسك "جعفر طيار" بالمعنويات وبالخلافة
وبالسلطنة. أن جعفر طيار الذي اتخذ لقب " اكيلمز " قاسى فقراً مدقعا ولكنه لم ينحن لهم".
من ضحاياه: الشخص المؤمن المثالي والطاهر نائب ترازون "علي شكري":
وثيقة رقم 20:

على شكري في مجلسه مرياد اينديكي ايجوه طوبال عثمانه بوعدير مشر، جسدي برحووال
ايجنه صوقاره آنقره نك كور ونمز ماغا الرنده برينيك ايجنه آتدير مشر... بو ترتيبى قيليج
على ده نيلن خبيث تلفونله جان قايدن اداره اتيمشدر .

لقد قام بإصدار الأمر إلى "توبال عثمان" بخلق "علي شكري" لكونه يصرخ
بالمعارضة في المجلس، وقد وضعوا جسده في "شوال" وألقوه في إحدى المغارات
النائية في أنقرة وقد أدار هذه الجريمة تلفونيا من "جانقايا" الشخص الخبيث المدعو
"علي كليج".

المحاولة الفاشلة في إصدار قانون لتتحية مصطفى كمال:

وثيقة رقم 21:

بو مجلس ايجنده صرح الدين، مرسيني كيوك جمال باشا، فارا واصى، و آرقداشلى بر قانون
تكليفده بولنمشدرى. مملكت ايجنده بسه سنه او طور مايان ويليم نه قدر ويركى ويرم مسه
بولوناندك مجلسه اعضا صغيلم قبول ايدلم ملى شرط قوشمشدى. غايه مصطفى كمال ابدى

"من بين أعضاء المجلس قام "صلاح الدين باشا" و "مرسيلى كوجوك جمال
باشا" "وقره واصف" وأصدقاؤهم بتقديم اقتراح قانون يقضي بعدم قبول أي شخص
في عضوية المجلس إن لم يكن قد قضى (5) سنوات في داخل البلد والذي لم يدفع
مقداراً معيناً من الضرائب ... كان مصطفى كمال هو الهدف".

الوجه الحقيقي لمحاكم الاستقلال:

وثيقة رقم 22:

مصطفی کمال مجلس هیچ صورمادن، قرار و موافقت استحوال ایته دن کندي سیدگی. آرقداشاردن اویر بشرکی شیلک برر هیئت تشکیل ایدرک و حدود سر بر صلاحیت ویرده لک ایستدگی ولایتله کوندر مسه، امر و محافظه لارینه برر نذرما مفرزه سی تخصیص ایندی ر مشدر. بو محاکمه لره قوتلک اوستنده در، هر کیدگی یرده خلقلک ایزه رینه عادتنا بر قورقو، بر کابوس کی چوکشدر. هیچ کیم بر صورمادن بر دوزینه انسانی بر کیم ده اعدام ایدر بیلیر. و اینشدر ده. قرار لرینه استنبافی، تمیزی یوقدر. ایستدگی آنده ولایتلک و ایسی دخیل توقیف ایدر و تحت محاکمه آلابیلیر. هیچ کیم دن امر آکایه احتیاجی یوقدر.

"قام مصطفی کمال بتألیف هیئات متعددة. کل هیئة تتألف من 3- 5 أعضاء من رجاله الصادقین دون أن یسأل رأي المجلس ودون أن يأخذ موافقته وأرسلها مع صلاحیات لا حدود لها إلى مختلف المدن التي عینها هو مع تخصیص مفرزة من الجندرمة للقیام بحراستها وتنفيذ أوامرها. كانت هذه المحاکم فوق کل سلطة، وكانت كابوساً ثقیلاً ووسيلة خوف وفزع على الناس أينما ذهبوا أو حلوا فقد كانت تستطيع - وقد فعلت هذا فعلاً - أن تقوم بإعدام عدد كبير من الناس في ليلة واحدة دون أخذ موافقة من أي أحد، ولم یکن هناك استئناف أو تمييز لقراراتها. وكانت تستطيع متى أرادت أن تقبض حتی على الوالي وأن تجره إلى المحكمة ولم تكن لها حاجة إلى أخذ أوامر من أي شخص".

القواد المجهولون الذين صنعوا انتصاره:

وثيقة رقم 23:

عصمت یاشای لوزان نه کونده رکن و عودانیام تارک سنی مذاکره مأمور ایدرکن مجلسه هیچ صور مامشدر. مجلسی هیچ صایمشدر. حالبوکه بو متارک و لوزان نه کی مذاکره کی وقوفله اداره ایدر بیلجک، مجنده ملک باقیمندن ده کفایتلی و قابیلنی، سیویل و عسکر اولانلر واردی. آما اولنری کوندر ملک مصطفی کماللک ایشنه کلیمزدی. چونکه موآنیاره هارینفتون واردی. اولنلک هیمتله آنادولیه کوندر کشدی. اونی ممنون ایتمکی هر باقیمدن لازمدی. رکن یولیتقم سندن انگاز یولیتقم سنه آتلامه زمانی کلیموردی. لوزانده انگاز یولیتقم سنه اکیلیم جکدی.

"أسف" رفعت باشا" لحادثة استقدام "علي إحسان باشا" من جبهة "أفيون" بوسيلة حيلة ثم القيام بفرض الإقامة الجبرية عليه في "قونية" وقد فهم الباشا على الفور الغاية الحقيقية لهذا العمل، لذلك فإنه استنكف عن قبول تسلم قيادة الجيش الأول الذي كلف به. وقد اضطر "نور الدين باشا" اضطراراً إلى قيادة هذا الجيش الذي بقي دون قائد. وقد كانت حرب "القيادة العامة" من حق "علي إحسان باشا" لأنه هو الذي قام بتنظيم الجيش وتهيئته للهجوم في "أفيون" بينما استولى مصطفى كمال على كل نتائج هذه الحرب.

الارتباط السري بالدبلوماسية السرية للانجليز:

وثيقة رقم 24:

علي إحسان باشا نيك آفيون جبهه سندن حيلم يلم آلياروه قونيارده اقامته مأمور ايدكم سي رافنت باشا في ازمسه ، باشا بومرکتک اوز مقصدين در حال قلازمه ، کنديسنه تکليف ايدكم برنجي اردو قوماندانلغي ده بوسيله قبولدن استنکاف ايتشدر . کنديسندره قازان اردو في ، قاجار ، نور الدين باشا درمهنده آيلم مشدر . باشه قوماندانلوه محاربه سي علي احسان باشا نيك حقيدر . آفيون ده اردوي منسوبه ايدن ، تعرضه حاضرلايان علي احسان باشا ، يارساتي طوپريدان مصطفى کمال اوکشددر .

"عندما أرسل عصمت إلى لوزان، عندما خوّله لمحادثات هدنة "مودانية" لم يسأل المجلس إطلاقاً ولم يعره أدنى اهتمام. بينما كان هناك الكثيرون في المجلس من مدنيين وعسكريين يستطيعون إدارة مباحثات الهدنة ومباحثات "لوزان" بكفاءة وقابلية من ناحية مهنتهم. ولكن إرسال هؤلاء لم يكن يلائم هدف مصطفى كمال، ذلك لأن "هارينجتون" كان موجوداً في "مودانية" وكان هو قد أرسل إلى الأناضول بسعي منه، لذلك فقد كان من الضروري إرضاءه، وكان زمن القفز من سياسة التقارب الروسي إلى سياسة التقارب الانجليزي قد حان وقته. وفي لوزان كان عليه أن ينحني للسياسة الانجليزية".

أسلوب معاملته لأصدقائه القدامى:

وثيقة رقم 25:

استانبول مركز قومانداني جواد بلك آنفويه كلشدى . مالى دوروم چووه بوزوقدى . بزم طابورتن
تا بلدوتنده ، صارى قيشلايم كلمرك يلك يردى . آرقادانلار مسافريقه ايدىلردى . بو ذائقا بونه يره ، صرف
اتحادجى اولدىق ايجونه ودها زياده مصطفى كمال بو ذائقا وجودنده اوركديكى ايجونه بروسيله ايله
استفادل محكمه سوق اينديروب حسب آتدرمشدى .

"كان السيد "جواد" - قائد المنطقة في استانبول - قد حضر إلى أنقرة، وكان
وضعه المالي سيئاً جداً. وكان يأتي إلى معسكر "صارى قشله" لكي يتناول الطعام
على مائدة طابورنا وكان يسجل ضعيفاً على الأصدقاء، وقد ساقه مصطفى كمال إلى
المحكمة ثم رمى به إلى السجن دون أي سبب سوى أنه كان من الاتحاديين ولكون
مصطفى كمال يخشى من وجوده".

كونه دنيئاً إلى درجة أنه يستولي على مساعدات العالم الإسلامي، مع أنه ضده
في سجل بذلك لصوصيته على المستوى العالمي:

وثيقة رقم 26:

هندستانده ، عالمى اسلامده كونه ريله معدى يار دى . آلوب ايسه بانقاسى قومونه ...
"أسس بنك العمل "ايش بنكاس" بالمبالغ النقدية التي أرسلها مسلمو الهند والعالم
الإسلامي، والتي استولى هو عليها".
كونه عبداً للسياسة الانجليزية:

وثيقة رقم 27:

اينكلز هر نه اسمه مشه اون قبول و برينه كتيريش ؛ ١ - موصلنى ترك ١٠٠٠ - ٤ - آطولى
يونانلى لره ترك ١٠٠٠ مصر وقبرسى اوزرندى كه عقده فرغت ١٠٠ ٣ - يونانلىلردن
تصميمات فراغت ١٠٠ ٤ - استانبول بين الملل منطقهم حالته كتيرملا (باشده يانا شيلدى) ...
٥ - بوغارلى تحكيمده وعسكر بولنديرمقدن و اوج كيلومتره كيشيلكده قارادگن
بوغارنده چناره قلع بوغارينه قدر اولاره منطقهم عكرده خبريد ايتك وصوگره لره
استانبولده يونانلىلرك قاعاسنه و ثروتارينه صاحب اولماسنه مساعده ايتك - (بو
ماده نك ده ايلك قسى صوگره ده ودها بونول عوضله قارشيلنده ده كيشد برلى
٦ - روملره اينكلز دوستلغى تعقيب ايجونه صيرت چويرما ٧ - عقدهنى الغا ...
٨ - لايلكلى تاسيس ودها نه ل و نه لره ...

"نفذ كل ما طلبه منه الانكليز:

- 1- ترك الموصل.
- 2- ترك الجزر لليونانيين والتنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص.
- 3- التنازل عن طلب التعويضات من اليونانيين.
- 4- جعل استانبول منطقة تحت الإشراف الدولي (أي تدويلها).

5- عدم تحصين المضايق أو وضع جند حولها وتجريد المنطقة الممتدة من مضيق البحر الأسود حتى مضيق "جنة قلعه" وبعرض 3 كلم، من الجنود، والسماح ببقاء اليونانيين في استانبول واحتفاظهم بثرواتهم.

6- لأجل الاحتفاظ بالصدقة الانجليزية يجب الابتعاد عن الروس.

7- إلغاء الخلافة.

8- إعلان العلمانية .. وغيرها وغيرها.

قيامه بإعلان الجمهورية إرضاء لنفسه فقط:

وثيقة رقم 28:

اوردو ضابطانندن هيچ برينك آغزندن ، بر جمهوريت ايسته يوزر ديه برسي
ايشتمه ديلم كى مجلسك همان اكثرين ده بومنى پرويانغندانك عليهنده ايدى . اُسا
آنا دولتيه كين ضابطانك هيى ديولوماريني آليكن ، قراده ، دگرده ، دينه ، دولته ، ملتة ،
اوردوبه ، وطنه ، خلفته وسلطنته اهانته ايتيم جكلاينه ناموسى عكربرى اوزرين سوزديره
والله اوزره بينه عيمن ايتشلىردى . جمهوريتك اعلانده بوضابطانك رايلى آلخاديفى كى
ملتك ده آرزوى هييه صابيلمشدر .

" لم أسمع من أي ضابط داخل الجيش بأنه يريد الجمهورية. كما أن الأكثرية في المجلس كانت ضد هذه الدعاية السلبية. والحقيقة أن جميع الضباط الذين أتوا إلى الأناضول كانوا قد اقساموا - عند تسلمهم شهادة التخرج - بشرفهم العسكري وبالله على أن لا يخونوا الدين والدولة أو الأمة أو الجيش أو الوطن أو الخلافة والسلطنة لا في الأرض ولا في البحر، وعندما أعلنت الجمهورية لم يؤخذ رأي هؤلاء الضباط، كما لم يلتفت إلى رغبة الأمة".

كونه ماسونياً بالرغم من أنه سد المحافل الماسونية:

وثيقة رقم 29:

مصطفى كمال ماسوندر، اوت، فالخ رفقى حقيقتى موبلم مشدر . اكر مصطفى كمال ماسون
او كاسيدى اونلك دورنده بويلم كيزلى بر جمعيتيه انتساب ايتملك كيمك سديدى . خفوى
دولت و حكومت امورنده وظيفه لى ويكسك موقع وصلاجيتلى كيمك ماسونلغ هوس
ايدى بيلر ميدى .! ده كل سيويلر ، اوردو و ثنذارما منسوب بعضى صوباياردى هيچ هيكتيمدن
ماسون لوجالرين قيد او مشدر . اونلك بلاغره بوده رنگى قاياغاسى نو مارادر .

"إن مصطفى كمال ماسوني، أجل لم يقل "فالح رفاقي" سوى الحقيقة. ولو لم يكن مصطفى كمال ماسونياً، فمن كان يتناول إلى الانتساب إلى مثل هذه الجمعية السرية في عهده؟ وهل كان باستطاعة الكثير من الذين يشغلون وظائف رفيعة ويحملون صلاحيات واسعة في الدولة والحكومة من تبني الماسونية؟ ليس المدنيين فقط بل أن كثيراً من منتسبي الجيش والجنדרمة وبعضاً من الضباط كانوا قد سجلوا أنفسهم في المحافل الماسونية دون خوف. أما كونه قد سدّ هذه المحافل فيما بعد فليس إلا ذراً للرماد في العيون".

سبب إغلاق المحافل الماسونية لم يكن فكرياً بل كان نفسياً، وهذا هو السبب في إغلاق المنتديات التركية أيضاً:

وثيقة رقم 30:

مصطفى كمال باشا نيك ماصون اوجا قاريني قاياغاسي سبي شويله در: باشايم ماصون لوجاري شوره مشرق اعظمفني ديرم مشردر: بوندن معبر اولاره واساع دولت والكمسي ايجنده هيجر كيمسي وحق تاريخك بويوك وزير ليسي وهكمدار ليني بيله كندندن بك اشاغى كورون، بر خيلى دعاودوغى ساينده ملت پاراسيد معدى طولى بوكرو هلك ساديه جور ناريجي بويوك داهي، بويوك قوماندان، و اتاتورك عنوانيه كنديسى كوكلاره جيقار مارنوده، بزى سغه ياراتك ديركي حضرت الله مخصوص قدرتي بيله اولك نغنده طوبلايوب كوسترمك هالشانلرده غروره قاپلمسه وشياردجه شمارسه مصطفى كمالك ياكوز ماصون لوجا ليني ده هلا، تورك اوجا قاريني ده قاياغاسنك نسبي، حمد الله صبي نك تدريجا بر وارله هالنه كلمسي

هكم م سندنر.

"إن سبب قيام مصطفى كمال باشا بإغلاق المحافل الماسونية هو أن هذه المحافل لم تعط للباشا درجة المشرق الأعظم وقد حقد عليهم لهذا السبب. وهو الشخص الذي كان يرى كل شخص في الدولة وفي البلد بل حتى كبار الوزراء والحكام العثمانيين في التاريخ أقل منه بكثير، بسبب العدد الكبير من المنافقين والمتزلفين الذين كانوا يحيطون به من الذين اتخمت بطونهم من مال الأمة والذين كانوا يخاطبونه بقولهم له: أنت منقذنا! ... أيها العبقري الكبير ... أيها القائد العظيم ... يا أتاتورك (أي أب الأتراك) وبهذا رفعوه إلى السماء حتى أنهم كانوا يخاطبونه بكلمات لا يخاطب بها

سوى الله سبحانه وتعالى. أمثال أنت خلقتنا، محاولين أن يوهموه بأنه يحمل قدرة إلهية، وهذا أدى إلى زيادة غروره، وزيادة صلفه وعنجهيته.

ولم يقم مصطفى كمال بإغلاق المحافل الماسونية بل قام بإغلاق المنتديات التركية والسبب يعود إلى عدم استطاعته منع نفسه من الشعور بالغيرة من "حمد الله صبحي" الذي بدأ يصبح تدريجياً شخصية مرموقة وقوية".



المصادر والمراجع المصادر القديمة

- 1- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ (12ج) نشر: دار صادر، بيروت، 1979م.
- 2- الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت250هـ/814م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار 2 (ج1مج)، تحقيق: رشدي صالح ملحس، نشر: دار الأندلس، الطبعة الثالثة، بيروت، 1983م.
- 3- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت930هـ/1448م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور (5ج)، الأجزاء (2-5) نشر: الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1984م.
- 4- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ/869م)، الجامع المسند الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره وأيامه، (8ج/4مج)، نشر: مكتبة الثقافة، بيروت، د.ت.
- 5- البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت739هـ/1228م)، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، (3ج)، تحقيق: علي محمد البخاري، نشر: دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت، 1992م.
- 6- البكري، أبو عبيد الله، عبد الله بن عبد العزيز (ت487هـ/1094م)، المسالك والممالك (2ج)، تحقيق أدريان فان ليومن وأندري فيري، نشر: الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1992م.
- 7- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن، يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/1469م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (16ج)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1992م.
- 8- التقي الفاسي، محمد بن أحمد بن علي (ت832هـ/1428م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (2ج)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، نشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1985م.
- 9- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت1237هـ/1822م) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3ج) نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1997م.
- 10- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت911هـ/1505م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، نشر: مكتبة لبنان، طبع دار القلم، بيروت، 1975م.
- 11- ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت241هـ/855م) المسند (6ج)، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- 12- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م) المقدمة (3ج)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، نشر: دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1979-1981م.

- 13- دحلان، أحمد بن زيني (ت1304هـ/1886م) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام (1ج)، طبع: نظارة المعارف، نشر: المكتبة الحقيانة، استانبول، 1986م.
- 14- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد (ت502هـ/1108م)، مفردات غريب ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، نشر: دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى، بيروت، 1992م.
- 15- ابن زنبيل، أحمد بن علي الرمالي المحلي (ت980هـ/1572م) سيرة السلطان الغوري مع السلطان سليم خان، مخطوط على شريط ميكروفيلم، رقم الفيلم 3033، رقم المخطوط 3633، رقم البكرة 61/، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، قاعة الميكروفيلم، انتاج شريط الميكروفيلم: معهد المخطوطات العربية، القاهرة، سجل رقم 1371.
- 16- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م)، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير (2ج)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، مصر، د.ت.
- 17- ابن أبي شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1466م)، الروضتين في أخبار الدولتين، (النورية والصلاحية) رواية: يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي، (2ج/1مج)، نشر: دار الجيل، بيروت، د.ت.
- 18- الطبري، محمد بن جرير (ت310هـ/922م) تاريخ الرسل والملوك (11ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار سويدان، الطبعة الثانية، بيروت، 1967م.
- 19- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (ت953هـ/1546م)، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، نشر: وزارة الثقافة، دمشق، 1964م.
- 20- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين، إسماعيل بن علي بن محمود (ت732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشير، (2ج/1مج)، نشر: دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- 21- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ/1415م) القاموس المحيط (4ج)، نشر: دار الجيل، بيروت، د.ت.
- 22- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م) البداية والنهاية، (14ج/7مج) نشر: دار الفكر، بيروت، 1986م.
- 23- اللخمي الإشبيلي، علي بن محمد (ت بعد 923هـ/1526م) الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق: هانس أرنست، نشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962م.
- 24- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية، تحقيق عبد الرحمن عميرة، نشر: دار الاعتصام، القاهرة، 1994م.

- 25- مسلم، مسلم بن الحجاج (ت261هـ/874م) الجامع الصحيح (5ج) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- 26- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م) لسان العرب (15ج)، نشر: دار صادر، بيروت، 1968م.
- 27- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (ت990هـ/1582م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، نشر: دار اليمامة، الرياض، د.ت.
- 28- ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (ت749هـ/1349م) تنمة المختصر في أخبار البشر، (2ج)، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، 1970م.
- 29- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1228م)، معجم البلدان (5ج)، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1957م.

المصادر باللغة العثمانية

- 1- سالنامه، سالنامه، ولاية حلب (باللغة العثمانية)، مطبعة مدينة حلب، الطبعة الأولى، حلب، 1318هـ/1900م.
- 2- شرف، عبد الرحمن، تاريخ الدولة العثمانية (2ج) باللغة العثمانية، طبع نظارة المعارف، الطبعة الثانية، استانبول، 1315هـ/1897م.

المقابلات شخصية

- 1- السيدة : جاهدة بنت محمد تاج الدين بن حسن خالد بن محمد أبي الهدى الصيادي، مقابلة شخصية معها من الباحث في منزلها في عمان بتاريخ: الجمعة 1999/5/28م.
- 2- المرحومة الدكتورة : سهيلة الريماوي، مقابلة شخصية معها من الباحث في منزلها في عمان بتاريخ 2000/3/27م.

المراجع العربية

- 1- آتخان، جواد رفت، أسرار الماسونية، ترجمه عن التركية وعلق عليه نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، دن، كركوك، العراق، 1956م.
- 2- أرمسترونج، هـ.س، مصطفى كمال أتاتورك، ترجمه عن الانكليزية: حلمي مراد، نشر: دار المعارف، مصر، 1976م.
- 3- إبراهيم، حافظ، الديوان، ضبط: أحمد أمين وآخرون، نشر: الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1987م.
- 4- إبراهيم، حافظ، ليالي سطيح، نشر: دار الهلال، القاهرة، د.ت.
- 5- أدونيس وآخرون، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، 1982م.

- 6- أرسكين، مسز ستورث، فيصل ملك العراق، ترجمه عن الانجليزية: عمر أبو النصر، دن، بيروت، 1934م.
- 7- أرسلان، شكيب، (ت1366هـ/ 1946م)، الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى قدس المطاف (وهي الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان)، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دن، مطبعة المنار، الطبعة الأولى، القاهرة، 1932م.
- 8- أرسلان، شكيب، بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية، نشر: مطبعة العدل، القاهرة، 1913م.
- 9- أرسلان، شكيب، تعليق على تاريخ ابن خلدون (تاريخ الترك)، دن، مصر، 1936م.
- 10- أرسلان، شكيب، سيرة ذاتية، نشر: دار الطليعة، بيروت، 1969م.
- 11- أرسلان، شكيب، السيد محمد رشيد رضا، أو (إخاء أربعين سنة)، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1936م.
- 12- الأسد بادي، ميرزا لطف الله خان، حقيقة جمال الدين الأفغاني، ترجمه عن الفارسية: عبد النعيم حسنين، نشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة أولى، مصر، المنصورة، 1986م.
- 13- الأعظمي، أحمد عزت، القضية العربية (6ج)، نشر: مطبعة الشعب، بغداد، 1932م، ج1، ج4.
- 14- الأفغاني، جمال الدين (ت1314هـ/ 1897م) الأعمال الكاملة (2ج)، تحقيق: محمد عمارة، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1981م.
- 15- الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير (6ج/3مج)، نشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1978م.
- 16- أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، نشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1971م.
- 17- أندريا، تاريخ الدروز وتمرد دمشق، ترجمه عن الفرنسية: حافظ أبو مصلح، نشر: المكتبة الحديثة، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م.
- 18- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تعريب: علي حيدر الركابي، نشر: مطبعة الترقى، دمشق، 1946م.
- 19- أوغلو، عبد القادر ده ده، السلاطين العثمانيون، ترجمه عن التركية: محمد جان، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس، 1990م.
- 20- أوكي، ميم كامل، السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية، ترجمه عن التركية: إسماعيل صادق، نشر: الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، 1992م.
- 21- إيفا نوف، نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمه عن الروسية: يوسف عطا الله، نشر: دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

- 22- باتريك، ماري ملز، سلاطين بني عثمان الخمسة، ترجمه عن الانجليزية: حنا غصن وكامل مسيحه، دار صادر، بيروت، 1933م.
- 23- البارودي، فخري، المذكرات (ستون سنة تتكلم)، (2ج)، ج1، نشر: دار الحياة، دمشق، 1951م، ج2، نشر: مطبعة عجة واتحاد، دمشق وبيروت، 1952م.
- 24- بازلي، قسطنطين، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمه عن الروسية: طارق معصراني، نشر: دار التقدم، موسكو، 1989م.
- 25- البخيت، محمد عدنان، بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني، نشر: لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م.
- 26- البديوي، صبري، صفحات خفية من تاريخ الأمة العربية خلال عشر سنوات، مخطوط، ج1، (1908-1918م)، نقلاً عن سلطان، تاريخ سورية.
- 27- البركاتي، شرف بن عبد المحسن، الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة الشريف حسين، وأعماله في محاربة الإدريسي، تعليق: حسين ناصيف، دن، الطبعة الثانية، بيروت، 1964م.
- 28- برو، توفيق، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، نشر: دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، 1991م.
- 29- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية (5ج)، ج3، تاريخ الأتراك وحضارتهم، ترجمه عن الألمانية: نبيه فارس ومنير البعلبكي، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، 1961م.
- 30- البستاني، سليمان، عبرة وذكرى (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده)، تحقيق: خالد زيادة، نشر: دار الطليعة، بيروت، 1978م.
- 31- البطوش، بسام عبد السلام حميدة، رفيق العظم، (ر.ج)، ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم التاريخ، عمان، 1995م.
- 32- بَيَّهْم، محمد جميل، الحلقة المفقودة من تاريخ العرب، نشر: مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الأولى، مصر، 1950م.
- 33- بَيَّهْم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، نشر: شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، 1954م.
- 34- التل، بلال حسن، الأردن محاولة للفهم، نشر: دار اللواء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 1978م.
- 35- التميمي، عبد الجليل، دراسات في التاريخ العربي الحديث، نشر: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، تونس، 1994م.
- 36- توتل، الأب فرديناند اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب، أخبار اللاتين الروم وما إليهم، 1855-1963م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958-1963م.
- 37- تيخونوفا، تاتيانا، ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي، نشر: دار التقدم، موسكو، 1987م.

- 38- جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمه عن التركية: خليل علي مراد، نشر: مركز دراسات الخليج العربي، العراق، 1985م.
- 39- الجاسم، نجاة عبد القادر، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر (بحث ضمن كتاب: الذكرى والتاريخ)، إشراف شاكر مصطفى، نشر: جامعة الكويت، الكويت، 1977م.
- 40- جب، هاملتون، وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب (3ج)، ترجمه عن الانجليزية: أحمد عبد الرحيم مصطفى، نشر: دار المعارف، القاهرة، 1971م.
- 41- أبو جبل، كاميليا، موقف انكلترا من قيام دولة عبد العزيز بن مسعود، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1989م.
- 42- جمال باشا، أحمد (ت 1341هـ/ 1922م) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المنشكل بعالية، نشر: مطبعة الطنين، 1334هـ/ 1915م.
- 43- الجميل، سَيَّار، تكوين العرب الحديث، نشر: دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان، 1997م.
- 44- الجميل، سَيَّار، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، نشر: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، د.ت.
- 45- آل جندي، أدهم، أعلام الفن والأدب (2ج)، نشر: مطبعة مجلة صوت سوريا، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1954-1958م.
- 46- حَبَنَّاكَة، عبد الرحمن بن حسن الميداني، مكائد يهودية عبر التاريخ، نشر: دار القلم، الطبعة الثانية، دمشق/ 1978م.
- 47- حَجَّاج، سعيد رزق، الأكراد والأرمن في العصر الحميدي، دن، الطبعة الأولى، القاهرة، 1991م.
- 48- حَرَّاز، السيد رجب، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (1840-1909م)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970م.
- 49- حسون، علي، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، نشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، 1983م.
- 50- ابن الحسين، الأمير زيد، المذكرات، تحقيق: سليمان موسى، نشر: مركز الكتب الأردني، الطبعة الثانية، 1990م.
- 51- الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
- 52- الحصري، ساطع، يوم ميسلون (صفحة من تاريخ العرب الحديث)، نشر: دار الاتحاد، بيروت، 1964م.

- 53- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين (ت1358هـ/1940م) منتخبات التواريخ لدمشق (3ج/1مج)، قدم له: كمال الدين الصليبي، نشر: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، 1979م.
- 54- حغدوقة، محمد خير، وثائق ميرزا باشا وصفي (مرحلة من تاريخ بلاد الشام من خلال وثائق ميرزا باشا)، طبع مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن، د.ت.
- 55- الحكيم، حسن، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتداب الفرنسي 1915-1946م، نشر: دار صادر، بيروت، 1974م.
- 56- الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، د.ن، بيروت، 1964م.
- 57- الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، نشر: المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966م.
- 58- الحكيم، يوسف، سوريا والعهد الفيصلي، نشر: دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت، 1980م.
- 59- حَلَّاق، حسَّان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (1897-1909)، د.ن، بيروت، 1978م.
- 60- حمزة، فؤاد، قلب الجزيرة العربية، نشر: مكتبة النصر الحديثة، الطبعة الثانية، الرياض، 1968م.
- 61- الخالدي، مصطفى، وفروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، نشر: المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1953م.
- 62- بو خالفة، نور الهدى، الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمَّان، 1986م.
- 63- خانجي، عزيز، ترك وأتاتورك، نشر: المطبعة العصرية، القاهرة، د.ت.
- 64- خضور، أديب، الصحافة السورية، نشر: دار البعث للصحافة والنشر، دمشق د.ت.
- 65- الخطيب، فؤاد (ت1376هـ/1957م)، الديوان (2ج)، نشر: دار المعارف، الطبعة الأولى، مصر، 1959م.
- 66- خليل، إبراهيم أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، نشر: جامعة الموصل، العراق، الطبعة الأولى، 1989م.
- 67- الخوري، بشارة خليل (ت1383هـ/1964م) حقائق لبنانية (3ج)، منشورات: أوراق لبنانية، بيروت، ج1، حريصا، لبنان، 1960م.
- 68- داغر، أسعد، مذكراتي على هامش القضية العربية، نشر: دار القاهرة، د.ت.
- 69- أبو داهود، يوسف جميل، الثورة والنفي، نشر: وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، عمَّان، 1992م.
- 70- الدَّجَّاني، أحمد صدقي، الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، نشر: دار لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، 1967م.
- 71- الدَّجَّاني، يعقوب كامل، الثورة العربية الكبرى، نشر: دار القدس، عمَّان، 1991م.
- 72- الدَّجَّوي، يوسف بن أحمد، (ت1365هـ/1946م) رد على كتاب الشيخ علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، مطبعة السماح، القاهرة، 1925م.

- 73- دُرُوزَة، محمد عَزَّة، تركيا الحديثة، نشر: مطبعة الكشف، بيروت، 1946م.
- 74- دروزة، محمد عزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- 75- درويش، هدى، الإسلاميون وتركيا العلمانية، نموذج الإمام سليمان حلمي، نشر: دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998م.
- 76- دَقَّاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر المعاصر، دار الشرق، حلب، د.ت.
- 77- الدَّهَّان، سامي، الأمير شكيب أرسلان (حياته وأثاره)، نشر: دار المعارف، القاهرة، 1960م.
- 78- الدهان، سامي، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1984م.
- 79- الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1984م.
- 80- أبو دَيَّة، سعد، في العلاقات العربية العثمانية (ثورة الكَرَك 1910م)، نشر: مؤسسة رم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمَّان، 1992م.
- 81- الرفاعي، عبد الرحمن، جمال الدين الأفغاني، نشر: دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.
- 82- رافق، عبد الكريم، المشرق العربي في العهد العثماني، نشر: المطبعة الجديدة، دمشق، 1986م.
- 83- رامزور آرنست، أ.، تركيا الفتاة وثورة 1908م، ترجمه عن الانجليزية: صالح أحمد العلي، نشر: مكتبة دار الحياة، بيروت، 1960م.
- 84- رستم حيدر، المذكرات، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، نشر: الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، بيروت، 1988م.
- 85- رشيد رضا (ت1354هـ/1935م)، الخلافة، نشر: الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988م.
- 86- الرشيد، سالم، محمد الفاتح، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت، 1969م.
- 87- الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية (2ج)، نشر: دار المعارف، مصر، 1969م.
- 88- رفيع، محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، نشر: نادي مكة للثقافة، الإشراف على الطباعة، دار مكة، الطبعة الأولى، مكة، 1980م.
- 89- رَوَّحِي، حسين (ت1380هـ/1960م) من وثائق الثورة العربية الكبرى (الرحلة الرابعة)، تحقيق: صلاح جَرَّار، نشر: المطابع العسكرية، الطبعة الأولى، عمَّان، 1997م.

- 90- الروسان، ممدوح عارف، مسيرة الثورة العربية الكبرى على الساحة الأردنية (تموز 1917 - أيلول 1918م)، نشر: لجنة تاريخ الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمّان، 1994م.
- 91- الريحاني، أمين (ت1359هـ/1940)، فيصل الأول، نشر: دار صادر، بيروت، 1934م.
- 92- الريحاني، أمين، ملوك العرب (2ج)، نشر: المطبعة العلمية، بيروت، 1925م.
- 93- الرّيس، منير، (المذكرات)، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، نشر: دار الطليعة، بيروت، 1969م.
- 94- الريمائي، سهيلة، الاتجاهات الفكرية للثورة العربية الكبرى من خلال جريدة القبلة، نشر: لجنة تاريخ الأردن في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، عمّان، 1992م.
- 95- الريمائي، سهيلة، جمعية العربية الفتاة السرية، نشر: دار مجدلاوي، الطبعة الأولى، عمّان، 1988م.
- 65- الريمائي، سهيلة، الحكم الحزبي في سورية (فترة الانتداب الفرنسي 1920-1945) (2ج) ج1، 1920-1936م، نشر: المطابع العسكرية، الطبعة الأولى، عمّان، 1998م.
- 97- الزين، عدنان ساري، الثورة العربية الكبرى من منظور إسلامي، نشر: دار الينابيع، عمّان، 1995م.
- 98- الزركلي، خير الدين (ت1396هـ/1976م)، الأعلام (8ج)، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، بيروت، 1989م.
- 99- الزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز (4ج)، نشر: دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت، 1970م.
- 100- الزركلي، ما رأيت وما سمعت، نشر: المطبعة العربية، مصر، 1923م.
- 101- زلوم، عبد القديم، كيف هدمت الخلافة، نشر: دار الأمة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1990م.
- 102- زمبور، إدوارد فون، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمه إلى العربية: زكي محمد حسين، نشر: دار الرائد العربي، بيروت، 1980م.
- 103- الزهراوي، عبد الحميد (ت1334هـ/1916م) الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي، جمع وتحقيق: جودت الركابي وجميل سلطان، نشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، 1962م.
- 104- زيادة، نقولا، أبعاد الثورة العربية الكبرى، نشر: وزارة الشباب، الطبعة الثانية، عمّان، 1995م.
- 105- زيادة، نقولا، الجذور التاريخية للثورة العربية الكبرى، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية الكبرى لمجموعة باحثين، نشر: الشركة الأردنية العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، 1969م.

- 106- زيادة، نقولا، العروبة في ميزان القومية، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، 1950م.
- 107- زيدان، جرجي (ت1333هـ/1914م) تاريخ آداب اللغة العربية (4ج)، تعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، 1914م.
- 108- زين، زين نور الدين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، نشر: دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت، 1977م.
- 109- زين، زين نور الدين، نشوء القومية العربية، نشر: دار النهار، الطبعة الثامنة، بيروت، 1972م.
- 110- الزين، مصطفى، ذنب الأناضول، نشر: مكتب رياض الرئيس للنشر، الطبعة الأولى، قبرص، 1991م.
- 111- سالم، الحاج فتيحة علي، في سبيل الدفاع عن الإسلام، نشر: المطبعة التجارية، طنطا، مصر، د.ت.
- 112- السباعي، أحمد، تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران)، طبع على نفقة مطبوعات نادي مكة الثقافي، الطبعة السادسة، مكة، 1984م.
- 113- ستودارد، لوثر، حاضر العالم الإسلامي (4ج) تعريب وتحقيق الأمير شكيب أرسلان، ترجمة: عجاج نويهض، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1923م.
- 114- سرحان، محمد، النظام العثماني، نشر: دار دمشق للطباعة، الطبعة الأولى، دمشق، 1993م.
- 115- سركيس، يوسف إيلان، معجم المطبوعات العربية والمعرية (2ج)، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- 116- سرهنك، إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار (3ج)، نشر وطبع: المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1312هـ/1894م.
- 117- سعدون، فواز، الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني، نشر: دار النهار، الطبعة الأولى، بيروت، 1994م.
- 118- سعيد، أمين (ت1387هـ/1967م) أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف حسين بن علي، نشر: دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت.
- 119- سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى (2ج) نشر: مطبعة عيسى الحلبي، مصر، د.ت.
- 120- سلام، سليم علي (ت1357هـ/1938م) المذكرات، تحقيق: حسان حلاق، نشر: الدار الجامعية، الطبعة الأولى، بيروت، 1981م.
- 121- السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، تحقيق: محمد حرب عبد الحميد، نشر: دار القلم، الطبعة الثالثة، دمشق، 1991م.
- 122- سلطان، علي، تاريخ سورية (1908-1918م) نشر: دار طلاس، الطبعة الثانية، دمشق، 1996م.

- 123- سومرسييت فراي، بلانتاجيت، /1000/ شخصية عظيمة، ترجمة: مازن طليبات، نشر: دار طلاس، الطبعة الثانية، دمشق، 1992م.
- 124- شاتليه، أ.ل، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، نشر: المطبعة السلفية، القاهرة، 1931م.
- 125- شاكور، محمود، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) نشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1987م.
- 126- الشُّريقي، إبراهيم، الثورة العربية الكبرى، دوافعها ومنهجها، نشر: مؤسسة العرب، الطبعة الأولى، لندن، 1984م.
- 127- شعبان، عثمان شعبان عمر، موقف بريطانيا من حركة الجامعة الإسلامية (1870-1914م)، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، كلية الدراسات العليا، جامعة الإسكندرية، 1979م.
- 128- الشعبوني، محمد، موقف البلدان المغاربية من مسألة الخلافة (ر.ج)، ماجستير، تونس، 1992م.
- 129- شقيرات، أحمد صدقي، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن 1864-1918م، نشر: دار آلاء، الطبعة الأولى، عمان، 1992م.
- 130- الشُّناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (4ج)، نشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984م.
- 131- الشُّناوي، عبد العزيز، الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر، نشر: دار المعارف، مصر، 1963م.
- 132- شهاب، اسامة/ يوسف، الاتجاه الإسلامي في نهضة الشريف الهاشمي، نشر: مركز اللغات، الجامعة الأردنية، عمان، 1995م.
- 133- الشُّهابي، الأمير مصطفى، القومية العربية (تاريخها، قوامها، مراميها)، نشر: معهد الدراسات العربية لجامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، 1961م.
- 134- الشوابكة، أحمد فهد، حركة الجامعة الإسلامية، نشر: مكتبة المنار، الطبعة الأولى، الزرقاء، الأردن، 1984م.
- 135- الشوابكة، أحمد فهد، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية، نشر: دار عمار، الطبعة الأولى، عمان، 1989م.
- 136- شوقي، أحمد شوقي بن علي (ت1351هـ/1932م) الديوان (الشوقيات)، (4ج/2مج)، نشر: دار العودة، بيروت، 1988م.
- 137- صالح، قاسم محمد، و: الدروع، قاسم، النهضة العربية الكبرى، نشر: المطابع العسكرية، عمان، 1989م.
- 138- الصايغ، أنيس، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1966م.

- 139- الصايغ، أنيس، يوميات هرتزل، ترجمة: هلدا شعبان صايغ، نشر: المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الثانية، بيروت 1973م.
- 140- صبري، مصطفى (ت1373هـ/1954م) النكير علي منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، صححه وعلق عليه: حسن السماحي سويدان، نشر: دار القادري ودار البيارق، الطبعة الأولى، بيروت، 1998م.
- 141- الصفصافي، أحمد المرسى، الدولة العثمانية والولايات العربية، بحث مقدم للمؤتمر الخامس للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، نشر: مركز بحوث دراسات العهد العثماني، الطبعة الأولى، تونس، 1984م.
- 142- الصويركي، محمد علي الكردي، شرق الأردن والعهد الفيصلي (1918-1920م)، نشر: دار عمار، الطبعة الأولى، عمان، 1993م.
- 143- صويص، سليم، أتاتورك (منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة)، دن، الطبعة الأولى، 1970م.
- 144- الصيادي، جاهدة، السيرة الذاتية للجد أبي الهدى الصيادي، مخطوط (30 صفحة) محفوظ في مكتبتها الشخصية، عمان، 1999/8/18م.
- 145- الصيادي، أبو الهدى، محمد بن حسن وادي (ت1328هـ/1909م)، داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد، نشر: المطبعة السلطانية، استانبول، د.ت.
- 146- ضابط سابق، الرجل الصنم، ترجمه عن التركية: عبد الله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1977م.
- 147- الطَّبَّاح، محمد راغب (ت1370هـ/1951م) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (7ج)، نشر: المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، حلب، 1923م.
- 148- طربين، أحمد، التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1987م.
- 149- طربين، أحمد، مظاهر من إدارة ولاية سورية في عهد مدحت باشا، مقدم للمؤتمر الخامس للدراسات العثمانية، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، نشر: مركز بحوث دراسات العهد العثماني، الطبعة الأولى، تونس، 1984م.
- 150- طرزي، الفيكونت فيليب دي، تاريخ الصحافة العربية (4ج/2مج)، نشر: المطبعة الأدبية، بيروت، 1913م.
- 151- طريف، جورج فريد، السلط وجوارها بين 1864-1921م، نشر: بنك الأعمال، الطبعة الأولى، عمان، 1994م.
- 152- طقوش، محمد سهيل، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، نشر: دار بيروت المحروسة، الطبعة الأولى، بيروت، 1995م.
- 153- طلاس، مصطفى، الثورة الكبرى، نشر: دار الشورى، الطبعة الثالثة، بيروت، د.ت.
- 154- طلس، محمد أسعد، تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث)، نشر: دار الأندلس، بيروت، 1963م.

- 155- طلس، محمد أسعد، محاضرات عن عبد القادر المغربي، نشر: معهد الدراسات العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958م.
- 156- طوران، مصطفى، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمه عن التركية: كمال خوجة، نشر: دار السلام، الطبعة الرابعة، حلب، 1985م.
- 157- طوران، مصطفى، الدونمة، ترجمه عن التركية، كمال خوجة، نشر: دار السلام، الطبعة الأولى، بيروت، 1977م.
- 158- عائشة أوغلي، عائشة عثمان، مذكراتي (والدي السلطان عبد الحميد)، ترجمه عن اللغة العثمانية: صالح سعداوي، نشر: دار البشير، الطبعة الأولى، عمان، 1991م.
- 159- عازوري، نجيب، يقظة الأمة العربية، تعريب أحمد أبو ملحم، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.
- 160- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت1393هـ/1973م) نقد علمي لكتاب الإسلام واصل الحكم، نشر: المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1925م.
- 161- العبادي، محمد يونس، الرحلة الملوكية الهاشمية من مكة إلى عمان، نشر: وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، 1996م.
- 162- عبدة، إبراهيم، سيرة من الحرمين، نشر: مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1961م.
- 163- عبد الحميد، أبو الثائرين الفريق عزيز المصري، نشر: دار أخبار اليوم مصر، د.ت.
- 164- عبد الرازق، علي بن حسن بن أحمد (ت1386هـ/1966م)، الإسلام واصل الحكم، مطبعة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة، 1925م.
- 165- عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، نشر: دار الكتاب الجامعي، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1986م.
- 166- عبد الله بن الحسين، المذكرات، نشر: أمين أبو الشعر، الطبعة الرابعة، عمان، 1965م.
- 167- عبود، مارون (ت1382هـ/1962م) رواد النهضة الحديثة، نشر: دار الثقافة، بيروت، 1966م.
- 168- العجلوني، محمد، ذكرياتي عن الثورة العربية، نشر: مكتب الحرية، طباعة: مطبعة دير الروم، عمان، د.ت.
- 169- العدوي، إبراهيم أحمد، قادة التحرير العربي في العصر الحديث، دن، القاهرة، 1958م.
- 170- العريان، محمد سعيد، كلمة تأبينية للكواكبي، في المهرجان الذي أقيم لتأبينه، نشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1960م.
- 171- عز الدين، نجلاء، العالم العربي، ترجمه عن الانجليزية: محمد يوسف نجم وآخرون، نشر: مؤسسة فرانكلين ودار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

- 172- العساف، مصطفى عبد الرحمن، الفكر السياسي في سورية في ظل الانتداب الفرنسي 1920-1946م، (ر.ج)، دكتوراه، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمّان، 1997م.
- 173- عطار، أحمد عبد الغفور، صقر الجزيرة (3ج)، نشر: مطابع المؤسسة العربية، الطبعة الثانية، جدة، 1964م.
- 174- العظم، خالد، المذكرات (3ج)، نشر: دار المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، 1972م.
- 175- العظم، رفيق (ت1925م/1343هـ)، أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، نشر: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1972-1973م.
- 176- العظم، البيان في التمدن وأسباب العمران، تصحيح وتهذيب: عبد الهادي الأبياري نشر: المطبعة الإعلامية، مصر، 1886م.
- 177- العظم، الجامعة الإسلامية والعصبية التركية، أو التأليف بين العرب والترك، ضمن مجموعة (آثار رفيق العظم) جمع: عثمان العظم، نشر: مطبعة المنار، القاهرة، 1925م.
- 178- العظم، رسالة في كيفية انتشار الأديان، نشر: مطبعة الإسلام، مصر، د.ت.
- 179- العقاد، عباس محمود، عبد الرحمن الكواكبي، (الرحالة ك)، نشر: دار نهضة مصر، القاهرة، 1986م.
- 180- عليّات، محمد عليان، وآخرون، مسائل في الثورة العربية الكبرى، طباعة: المطابع العسكرية، عمّان، 1996م.
- 181- عمارة، محمد، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1972م.
- 182- عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني (موقف الشرق وفيلسوف الإسلام)، نشر: دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1984م.
- 183- عمارة، محمد، عبد الرحمن الكواكبي، نشر: دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، 1988م.
- 184- العمري، محمد صبحي، أوراق الثورة العربية (3ج)، الجزء الأول: المعارك الأولى، الطريق إلى دمشق، نشر: مكتب رياض الرئيس، الطبعة الأولى، لندن وقبرص، 1991م، الجزء الثاني (لورنس كما عرفته)، نشر: دار النهار، بيروت 1969م.
- 185- عوض، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث، نشر: مكتبة المحتسب، الطبعة الأولى، عمّان، 1983م.
- 186- عويدات، جميل، توماس إدوارد لورنس، دوره في الثورة العربية الكبرى وآراء المستشرقين والغربيين في شخصيته وأدواره، (ر.ج) ماجستير، جامعة القديس يوسف، معهد الآداب الشرقية، بيروت، 1999م.

- 187- غالي، بطرس بطرس، الكواكبي والجامعة الإسلامية، نشر: الدار القومية، القاهرة، دت.
- 188- غرايبة، عبد الكريم، تاريخ العرب الحديث، نشر: الأهلوية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 1987م.
- 189- غرايبة، عبد الكريم، الثورة العربية الكبرى والعالم العربي، بحث ضمن كتاب دراسات في الثورة العربية.
- 190- غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (1840-1876م)، نشر: معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، دار الجيل، القاهرة، 1962م.
- 191- الغزالي، محمد، حقيقة القومية العربية، نشر: دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998م.
- 192- الغزالي، كامل بن حسين بن مصطفى (ت 1351هـ/1933م)، نهر الذهب في تاريخ حلب (3ج)، نشر: المطبعة المارونية، حلب، 1923م.
- 193- الغصين، فائز، مذكراتي عن الثورة العربية، نشر: مطبعة الترقى، دمشق، 1960م.
- 194- غفور، عبد الجبار قادر، تاريخ تركيا المعاصر 1918-1980م، بحث ضمن كتاب: تركيا المعاصرة لمجموعة مؤلفين، نشر: جامعة الموصل، الطبعة الأولى، 1987م.
- 195- غنيم، جمعة سليمان حرب، عبد القادر المغربي (حياته وفكره)، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمان، 1997م.
- 196- أبو غنيم، زياد، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، نشر: دار الفرقان، الطبعة الثانية، عمان، 1986م.
- 197- غوانمة، يوسف، الحسين بن علي الملك الثائر، نشر: دار الفكر، الطبعة الأولى، عمان، 1995م.
- 198- فارس، نبيه أمين، الثورة العربية في الميزان، بحث ضمن كتاب: دراسات في الثورة العربية.
- 199- فاسيلييف، أليكسي، تاريخ العربية السعودية، (2ج)، ج1، ترجمه عن الروسية: خيرى الضامن، نشر: دار التقدم، موسكو، 1986م.
- 200- فرغل، حسن محمود، مدحت باشا والي بغداد، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، جامعة بغداد، بغداد، 1994م.
- 201- فرومكين، دافيد، سلام ما بعده سلام، ترجمة: أسعد كامل إلياس، نشر: شركة رياض الريس للنشر، الطبعة الأولى، لندن، 1992م.
- 202- فريجات، حكمت عبد الكريم، الثورة العربية الكبرى وقضايا العرب المعاصرة، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، 1990م.

- 203- فريحات، حكمت عبد الكريم، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى، نشر: دار المستقبل، الطبعة الثانية، عمان، 1987م.
- 204- فنسك وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية (15 ج) ترجمة وتحرير: إبراهيم خورشيد وآخرون، نشر: دار الفكر، القاهرة، 1987م.
- 205- الفوز، كليب سعود، المراسلات المتبادلة بين الشريف الحسين بن علي والعثمانيين بين 1908-1918م، دن، 1997م.
- 206- فيضي، سليمان، المذكرات (في غمرة النضال)، نشر: دار القلم، بيروت، د.ت.
- 207- القاسمي، صلاح الدين (ت1334هـ/1915م) آثاره (صفحات من تاريخ النهضة العربية أوائل القرن العشرين)، تحقيق: فحب الدين الخطيب، نشر: المطبعة السلفية، القاهرة، 1959م.
- 208- قاسمية، خيرية، الحكومة العربية في دمشق (بين 1918-1920)، نشر: دار المعارف، مصر، 1971م.
- 209- قدرى، أحمد، المذكرات، نشر: وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1993م.
- 210- قدرى، محمد علي، مصطفى كمال أتاتورك (محرر تركيا ومؤسس دولتها الحديثة)، دن، الطبعة الأولى، 1983م.
- 211- القسوس، عودة، المذكرات، مخطوط (مضروب على الآلة الكاتبة) رقم (54)، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، د.ت.
- 212- قفلجلى، حكمت، التاريخ العثماني (رؤية مادية)، عربه عن التركية: فاضل لقمان، نشر: دار الجيل، الطبعة الأولى، دمشق، 1987م.
- 213- القلجى، قدرى، ثلاثة من أعلام الحرية، نشر: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1993م.
- 214- القلجى، قدرى، الثورة العربية الكبرى (جيل الفداء)، نشر: شركة المطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت، 1993م.
- 215- القوابعة سليمان، الطفيلة منذ العصر الحجري حتى 1930م (2 ج)، دن، الطفيلة، الأردن، 1985م.
- 216- كامل، محمود، الإسلام والعروبة، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.
- 217- كامل، مصطفى، المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، ط1، مصر، 1898م.
- 218- كرد علي، محمد (ت1273هـ/1953م)، خطط الشام، (6 ج/3 مج)، نشر: مكتبة النوري، الطبعة الثالثة، دمشق، 1983م.
- 219- كرد علي، محمد، الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، نشر: المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1916م.
- 220- كرد علي، محمد، المذكرات، (4 ج)، نشر: مطبعة الترقى، دمشق، 1948م.
- 221- كرومر، اللورد إفلين، عباس الثاني، ترجمه عن الانكليزية: فؤاد صروف، مطبعة التوفيق، مصر، د.ت.

- 222- كلشي، حسن، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة: محمد الأرناؤوط، نشر: قدسية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، إربد، الأردن، 1991م.
- 223- الكواكبي، عبد الرحمن (ت1320هـ/1902م)، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد جمال طحان، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1995م.
- 224- الكواكبي، عبد الرحمن، أم القرى، نشر: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1931م.
- 225- الكواكبي عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مطبعة المعارف، مصر، د.ت.
- 226- كوبرلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمه عن التركية: أحمد السعيد سليمان، نشر: دار الكاتب العربي، القاهرة/ 1967م.
- 227- كوتلوف، ل.ن تكون حركة التحرر الوطني (منتصف القرن التاسع عشر - 1908م) ترجمه عن الروسية: سعيد أحمد، نشر: وزارة الثقافة، دمشق، 1981م.
- 228- كوثراني، وجيه، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1996م.
- 229- كوثراني، وجيه، مختارات سياسية من مقالات رشيد رضا في مجلة المنار، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1980م.
- 230- ليبب، حسين، تاريخ المسألة الشرقية، نشر: دار الهلال، مطبعة الهلال، مصر، 1921م.
- 231- اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، المؤتمر العربي الأول، نشره: محب الدين الخطيب، طبع بمطبعة البوسفور، الطبعة الأولى، القاهرة، 1913م/1331هـ.
- 232- لوتسكي، فلاديمير بوريوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديث، نشر: دار الفارابي، الطبعة السابعة، بيروت، 1980م.
- 233- لورنس، توماس إدوارد (ت1354هـ/1935م)، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة: محمد نجار، نشر: الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1998م.
- 234- لورنس، توماس إدوارد، الثورة في الصحراء، ترجمه عن الانجليزية: رشيد كرم، نشر: شركة فن الطباعة، مصر، 1949م.
- 235- لونغريغ، ستيفن همسلي، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، نشر: دار الحقيقة، الطبعة الأولى، بيروت، 1978م.
- 236- لويس، برنارد، استانبول وحضارة الدولة العثمانية، ترجمه عن الانجليزية: سيد رضوان علي، نشر: جامعة بنغازي، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1973م.

- 237- ليفين، ز.أ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمه عن الروسية: بشير السباعي، نشر: دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت، 1978م.
- 238- ليلي أحمد، ليلي عبد اللطيف، موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين، نشر: دار الكتاب الجامعي، طبع مطبعة الجبلاني، الطبعة الأولى، القاهرة، 1987م.
- 239- مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية (2ج)، ترجمه عن الفرنسية: بشير السباعي، نشر: دار الفكر، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1993م.
- 240- ماركس، كارل، المسألة الشرقية (حول القوميات في الدولة العثمانية)، ترجمه عن الروسية: جوزيف عبد الله، نشر: دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت، 1980م.
- 241- مجهول، ثورة العرب الكبرى، نشر: وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، عمان، 1991م.
- 242- مجهول، الخلافة وسلطة الأمة، ترجمه عن التركية: عبد الغني سني بك، نشر: مطبعة الهلال، مصر، 1924م.
- 243- محاسنة، محمد حسين، صفحات من تاريخ آل البيت، نشر: مطبعة البهجة، الطبعة الأولى، إربد، الأردن، 1998م.
- 244- محافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، نشر: الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 1978م.
- 245- محاكمة، محاكمة الحركة العربية في لبنان، (من خلال كتاب: إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي لمؤلفه جمال باشا)، نشر: دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1982م.
- 246- المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، نشر: دار النفائس، الطبعة السادسة، بيروت، 1988م.
- 247- محب الدين الخطيب، سيرة جيل (مخطوط)، نسخة محفوظة في مكتبة سهيلة الريماوي، عمان.
- 248- مُحَرَّم، أحمد محرم بن حسن عبد الله (ت1364هـ/1945م)، ديوان محرم (السياسيات)، (1ج/2ق)، جمع وتقديم: محمود أحمد محرم، نشر: مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى، الكويت، 1984م.
- 249- محمد الخضر حسين، محمد الخضر بن الحسين بن علي (ت1377هـ/1958م)، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1925م.
- 250- محمد علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عصره، نشر: دار الأنبار، الطبعة الأولى، الرمادي، العراق، 1987م.

- 251- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، (2/ج1م)، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، بيروت، 1982م.
- 252- مدحت باشا، المذكرات،- تعريب: يوسف حتاتة، نشر: المطبعة الهندية، الطبعة الأولى، مصر، د.ت.
- 253- بني المرجة، موفق، صحوة الرجل المريض، نشر: دار البيارق، الطبعة الثامنة، بيروت، 1996م.
- 254- مسعد، بولس، الدولة العثمانية في لبنان وسورية (حكم أربعة قرون)، دن، 1967م.
- 255- مسعود، جمال عبد الهادي، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية)، نشر: دار الوفاء، الطبعة الأولى، المنصورة، مصر، 1994م.
- 256- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، أصول التاريخ العثماني، نشر: دار الشرق، الطبعة الثانية، بيروت، 1986م.
- 257- مصطفى، عبد المنعم، لورنس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية، نشر: دار الحرية للطباعة، بغداد، 1990م.
- 258- مكاريوس، شاهين، تاريخ الماسونية العملية، دن، 1897م.
- 259- مكاريوس، شاهين، حسر اللثام عن نكبات الشام، دن، الطبعة الأولى، مصر، 1895م.
- 260- الملك عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، نشر: الدار المتحدة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979م.
- 261- الملك عبد الله بن الحسين، الملك حسين والنهضة العربية، ضمن الآثار الكاملة للملك عبد الله، نشر: الدار المتحدة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979م.
- 262- الملك عبد الله بن الحسين، مَنْ أنا، نشر: مطبعة الاستقلال العربي، عمان 1940م.
- 263- الملك فيصل، فيصل بن الحسين بن علي (ت1352هـ/1933م)، المذكرات عن القضية السورية، تعريب: سامي الشمعة، نشر: مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، د.ت.
- 264- منسي، محمود صالح، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دن، القاهرة، 1972م.
- 265- مَنُوءة، مَنُوءة سالم عبد الله، موقف الصحافة العربية في فلسطين من الحركة الوطنية (1920-1935)، (ر.ج)، ماجستير، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمان، 1994م.
- 266- مهرجان، مهرجان الفكر والعقيدة. بحمص لتكريم الزهراوي، نشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، طباعة المطبعة الهاشمية، دمشق، 1963م.
- 267- مورغنتو، السير هنري، المذكرات، عربي عن الانجليزية: فؤاد صروف، نشر: يوسف البستاني، طبع مطبعة المقطم، مصر، 1923م.

- 268- موسى، سليمان، الحركة العربية (سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924م)، نشر: دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت، 1970م.
- 269- موسى، سليمان، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى، نشر: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، (لجنة تاريخ الأردن)، الطبعة الثانية، عمان، 1992م.
- 270- موسى، سليمان، لورنس والعرب (وجهة نظر عربية)، نشر: وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، عمان، 1992م.
- 271- موسى، سليمان، من تاريخنا الحديث (الثورة العربية: الأسباب، المبادئ، الأهداف)، نشر: لجنة تاريخ الأردن، الطبعة الأولى، عمان، 1994م.
- 272- موسى، سليمان، وجوه وملامح (صور شخصية لبعض رجال السياسة والقلم) نشر: وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، 1980م.
- 273- الموصلي، محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، نشر: المكتبة العصرية، بغداد، 1925م.
- 274- المومني، نضال داود، الشريف الحسين بن علي والخلافة، نشر: المجمع العلمي لبحوث الحضارة الإسلامية، (لجنة تاريخ الأردن)، الطبعة الأولى، عمان، 1996م.
- 275- مؤنس، حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1992م.
- 276- ميكوش، داجوبرت فون، مصطفى كمال المثل الأعلى، عربي عن الألمانية: كامل. ص. مسيحة، نشر: المكتبة الأهلية، طبع: مطبعة الوفاء، بيروت، 1933م.
- 277- نامق، كمال بك، عهد الفتح، ترجمه عن التركية: عبد العزيز الخانجي، نشر: مطبعة محمود توفيق، دن.
- 278- نانغ، انتوني، لورنس لغز الجزيرة العربية، نشر: مؤسسة المعارف، بيروت، دت.
- 279- نايتلي، فيليب، و: كولن سمبسون، المخفي من حياة لورنس العرب، ترجمه عن الانجليزية، إيلي لاوند وإبراهيم العابد، نشر: الدار العربية للدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م.
- 280- الننتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، نشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، دت.
- 281- النجادات، نايف محمد، الحويطات ودورهم في الثورة العربية، دن، 1989م.
- 282- نجار، إبراهيم سليم، الملك فيصل الأول، نشر: مطبعة الدبور، بيروت، دت.
- 283- النجار، حسين فوزي، الشرق العربي بين حربيين، نشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دت.

- 284- النديم، عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي (ت1314هـ/1896م)، سلافة النديم (2ج)، جمع: شقيقه عبد الفتاح، نشر: المطبعة الهندية، مصر، 1901م.
- 285- أبو النصر، عمر، موسوعة الحرب العالمية الأولى (1مج/3ق)، نشر: المكتب التجاري، بيروت، د.ت.
- 286- نصيف، حسين بن محمد، ماضي الحجاز وحاضره، الحسين بن علي، ج1، دن، الطبعة الأولى، 1930م.
- 287- النعيمي، أحمد نوري، اليهود والدولة العثمانية، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1997م.
- 288- النمر، إحسان، نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني، دن، د.ت.
- 289- النوايسة، طلعت، الطفيلة، دن، الأردن، 1982م.
- 290- نويهض، عجاج (ت1403هـ/1982م)، بروتوكولات حكماء صهيون (4ج/2مج)، دن، د.ت.
- 291- نويهض، عجاج، المذكرات، (ستون عاماً مع القافلة العربية)، نشر: دار الاستقلال، الطبعة الأولى، بيروت، 1993م.
- 292- نيازي، أحمد نيازي الرسنه لي، خواطر نيازي (المذكرات)، عربيه عن التركية، ولي الدين يكن، نشر: مطبعة علي سكر أحمد، مصر، 1909م.
- 293- الهاشمي، طه (ت1381هـ/1961م) المذكرات (عن الفترة 1919-1943م) تحقيق: خلدون ساطع الحصري، نشر: دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1967م.
- 294- وتلن، آلماء، عبد الحميد ظل الله على الأرض، ترجمه عن الانجليزية: راسم رشدي، نشر: دار النيل للطباعة، القاهرة، 1950م.
- 295- الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ملحق الجزء السادس، الأشراف وابن مسعود)، نشر: مطبعة المعارف، بغداد، 1979م.
- 296- ونسك، أي، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (7ج) نشر: مكتبة بريل، ليدن، 1936م.
- 297- وهبة، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، نشر: لجنة التأليف والترجمة، توزيع: مكتبة النهضة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1961م.
- 298- اليافي، نعيم، جمال باشا السفاح (دراسة في الشخصية والتاريخ) نشر: دار الحوار، الطبعة الأولى، اللاذقية، سوريا، 1993م.
- 299- يكن، ولي الدين، الصحائف السود، تحقيق: جبران مسعود، نشر: دار الحكمة، الطبعة الثانية، بيروت، 1970م.

المجلات العربية

- 1- مجلة الأبحاث، بيروت، السنة /18/، ع /2/، حزيران، 1965م.
- 2- مجلة الاجتهاد، بيروت، السنة /11/، ع /41/، 42/، شتاء وربيع عام 1999م، ع /43/ صيف عام 1999م.

- 3- المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع / 17- 18 / عام 1980م، السنة /7/ ، ع / 65- 66 / ، السنة /19/ 1992م.
- 4- مجلة التمدن الإسلامي، دمشق، م /2/ ، ج3- 4.
- 5- المجلة الثقافية، عمان، ع 38، أيار / تموز، 1996م.
- 6- مجلة دراسات تاريخية، دمشق، ع /7/ ربيع الأول 1402هـ/ كانون الثاني، 1982م، ع / 19- 20 / ، نيسان، تموز، 1985م.
- 7- مجلة الدوحة، قطر، ع /41/ ، مايو / أيار، 1979م.
- 8- مجلة رسالة المعلم، عمان، السنة /10/ ، ع /2/ تشرين الثاني / كانون الأول، 1966م.
- 9- مجلة الضياء، القاهرة، م 2 ، السنة /2/، 1899- 1900م.
- 10- مجلة العربي، الكويت، ع /43/ ، حزيران، 1962م، ع /77/ ، نيسان، 1965م، ع/169/، كانون الأول، 1972م، ع /178/ ، أيلول، 1973، ع /220/ ، آذار، 1977م، ع /282/ مايو، أيار، 1982م.
- 11- مجلة العرفان، بيروت، م 9، ج 7، نيسان، 1924م، م 11، ج 8، شوال 1344هـ/ نيسان 1926م.
- 12- مجلة الفيصل، الرياض، ع /196/ ، نيسان، 1993م، ع /200/ تموز - آب، 1993م.
- 13- مجلة قضايا عربية، بيروت، السنة /7/ ، ع /5/ ، أيار، 1980م.
- 14- مجلة المجتمع، الكويت، الأعداد من / 529- 583 / السنة / 11- 13 / ، 1981م - 1982م، الحلقات من / 1 - 53 / .
- 15- مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م 5، ج 12، كانون الأول، 1925م، م 15، ج 9- 10، ع أيلول وتشرين الأول 1973م/ جمادى الثاني ورجب 1356هـ/ م 22، ج 1-2، كانون الثاني، شباط، 1947م، م 31، ج 3، 1/ تموز، 1956م.
- 16- مجلة المستقبل العربي، بيروت، السنة /3/ ، ع 24 / شباط 1981م، ع 45، 1982م، ع/85/ ، 1982م.
- 17- مجلة المشرق، بيروت، السنة /14/ ، ع /7/ تموز، 1911م، ع /8/ آب، 1911م.
- 18- مجلة المقتطف، القاهرة، م 7، ج 8، آذار، 1883م، م 14، ج 11، ع آب، 1890م، م 27، ج 5، 1/ أيار، 1902م، ج 6، 1/ حزيران، 1902م، ج 7، 1/ تموز، 1902م، م 36، ج 2، شباط، 1910م، ج 3، آذار، 1910م، م 49، 1/ تشرين الثاني، 1916م، م 78، ج 3، ع آذار، 1931، ج 4، أبريل، نيسان، 1931م، ج 6، يونيو/ حزيران، 1931م، م 79، ج 1، يوليو/ تموز، 1931م.
- 19- مجلة المنار، القاهرة، م 1، ع /1/ ، ج 1، الافتتاحية، ص 9- 14، ع / 37 / ، 19/ رجب، 1316هـ، م 2، السنة /2/، ع /21/ آب، 1899م، م 5، ج 6، حزيران، 1902م، ج 7، يوليو / تموز، 1902م، م 8، ج 9، تموز، 1905م،

- م 11، السنة /11/ ، ج 6، ع 28/ تموز، 1908م، ج 10، ع 23/ تشرين الثاني، 1908م، ج 11، ع 24/ كانون الأول، 1908م، م 12، السنة /12/، ج 8، ع أيلول، 1909م، م 14، السنة /14/، ج 1، ع 30/ كانون الأول، 1911م، ج 29/ نيسان، 1911م، م 17، ج 8، 1914م، م 19، ع آب، 1916م، م 21، ج 4، ع حزيران، 1919م، م 23، ج 1، ع كانون الثاني، 1922م، ج 2، ع نيسان، 1933م، م 26، ج 4، ع آب، 1925م، م 28، ج 9، تشرين الثاني، 1927م.
- 20- مجلة النهار العربي والدولي، بيروت، ع 257/، السنة /5/، نيسان، 1982م.
- 21- مجلة الهلال، القاهرة، السنة /1/، ج 2، أكتوبر، 1892م، ج 3، م 1، نوفمبر، 1892م، ج 10، م 1، يونيو، 1893م، ج 13، م 1، أيلول، 1892م، السنة /17/، ج 3، م 17، كانون الأول، 1908م، ج 5، م 17، شباط، 1909م.
- الجرائد العربية**
- 1- جريدة الاتحاد العثماني، بيروت، السنة /1/، 1908م، 4/ تشرين الثاني، ع 35/.
- 2- جريدة الجريدة، القاهرة، 10/ أيلول، 1907م.
- 3- جريدة الحضارة، الأستانة، السنة /2/، ع 54/ نيسان، 1911م، وأيار، 1911م، ع 56/، أيار، 1911م.
- 4- جريدة العاصمة، دمشق، ع 2/، السنة /1/، 1337هـ/ 1919م.
- 5- جريدة فلسطين، يافا، ع 53/، 22 تموز، السنة /1/، 1911م، ع 113-114، 24 شباط، السنة /2/، 1912م، ع 97، 23 كانون الأول، 1911م، 2/ محرم، 1330هـ.
- 6- جريدة القبلة، مكة المكرمة، السنة /1/، 1334هـ/ 1916م، ع 1/، 15 شوال، ع 8/، 10/ ذي القعدة، ع 22/، الاثنين /3/ محرم، السنة /2/، 1335هـ/ 30 أكتوبر / تشرين الثاني، 1916م، ع 28/، الاثنين /24/ محرم 1335هـ/ 1916م، ع 104/، الخميس /28/ شوال 1335هـ/ 1916م، ع 130/، الاثنين /4/ صفر 1336هـ/ 1917م، ع 188/، الاثنين /2/ رمضان 1336هـ/ 11 حزيران 1918م، ع 696/، السنة /8/، 18/ يونيو/ حزيران، 1923م، 3/ ذي القعدة 1341هـ.
- 7- جريدة المباحث، بيروت، 15/ حزيران 1909م، ع 13/.
- 8- جريدة المفيد، بيروت، 8/ أيلول، 1913م.
- 9- جريدة المؤيد، القاهرة، ع 5065، 5066 / 14 كانون الثاني، 1907م، ع 5359 /، الأحد /1/ ذي الحجة، 1325هـ/، 5/ كانون الثاني، 1908م، ع 5441/، 14/ نيسان، 1908م، 13/ ربيع الأول، 1326هـ، ع 5611/، 5/ كانون الأول، 1908م.

المراجع الأجنبية

- 1- AHMAD, FEROS, The young Tyrks: The Committee of union and progress in Turkish Politics. 1908-1914. Oxford, Clarendon Press, 1969.
- 2- EDIB, Adivar Halide, Memories of Halide Edib, Newyork Arno Press, 1972.
- 3- GAURY, GERALD de, Rulers of Mecca, First published, London, 1973.
- 4- GREASY, EDWARD, History of The Ottoman Turks, London, 1878.
- 5- HASLIP, Joan, The Sultan The Live of Abdul Hamid II, Holt Rinehart And Winston, 1958.
- 6- HOGARTH, David Georg, Hejaz Before World War1, Bidwill Cambridge, 1978.
- 7- LEWIS, BERNARD, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London, 1965.
- 8- MARDIN, Serif, The Genesis of YounG Ottoman Thought, Princeton University. Press Newjersy.
- 9- POINCARÉ RAYMOND: Au Service de La France. Les Petits Fils de Plont et Nourrit. Paris, 1945.
- 10- SAAB, HASSAN, The Arab Federalists of The Ottoman Empire, Djambatam. N.V.1958.
- 11- SALEH, Muhammad Al - Amr, The Hihaz Under Ottoman Rule (1869-1914), Riyad University Publication, 1974.
- 12- STORRS, Sir Ronald, The Memoirs, Arno Press, New York, 1972.
- 13- TOYNBEE, ARNOLD JOSEPH, The Modern World Turkey, Green Wood Press Bublishers New York. 1927.
- 14- ZEINE, Nour Zeine, Arab, Turkish Relations And The Emergence Of Arab Nationalism, Beirut. 1958.
- 15- ZEINE, Nour Zeine, The Struggle For Arab Independence, Beirute, Khayate. 1960.

المراجع التركية الحديثة

- 1- AKGUN MUSTAFA, YAHUDiNiN TAHTA KiLiCi, BASKi2, ANKARA, 1994.
- 2- AYVERDi, SAMiHA, TURK TARiHNDE OSMANLI OSiRLARi (3 CiLd), DAMLA YAYiEVi, UCUNCU CiLd, iSTANBUL, 1976.
- 3- BUYUK KULTUR ANSiKLOPEDiSi (12 CiLd), BASKENTT YAYiNLARi, ANKARA, 1984.
- 4- DANIsmEND, iSMAiL HAMi, iZAHLi OSMANLi TARiHi KRONOLOJiSi (5CiLd), TURKiYE, YAYiNEVi, iSTANBUL, 1972.
- 5- iSLAM ANSiKLOPEDiSi (iSLAM ALMi, TARiH, COGRAFA, ETNOGRAFYA, VE BiYOGRAFYA LUGATi, (14 CiLT), MiLLi EGiTIm BASiMEVi, iSTANBUL, 1993.
- 6- KANDEMiR, FERiDUN, PEYGAMBERiMiZiN, GOLGESiNDE, SON TURKLEB, MEDiNE MUDAFaASi, YAYiNEVi YAGMUR, iSTANBUL, 1974.
- 7- KARAL, ENVER ZiYA, DUNYA TARiHi OSMANLi TARiH, (8 CiLd) TURK TARiH KURUMU YAYILARi ANKARA, 1983.
- 8- KiSAKUREK, NECiP FAZiL, ULU HAKAN II ABDUL HAMiD HAN YAYiNLARi BUYUK dogu, iSTANBUL, 1977.
- 9- KurdakuL, Necdet, OSMANLi iMPARATORLUGUNDAN ORTA DOGUYA, Belgelerle SARK Meselesi, DERGAH YAYiNLARi, BiRiNCi BASKi, 1976.
- 10- OiCAY, Nar, Nutuk I,II, BASKiYA, HAZirlayanlar, Birol Emil ATATurk serisi 1, 2 iSTANBUL, 1980.
- 11- OZTUNA, YILMAZ, BUYUK OSMANLi TARiHi (10 CiLd) OTUKEN NESRiYAT. A. S, iSTANBUL, 1994.
- 12- SiRMA iHSAN SUREYYA, BiRKAC SAHiFE TARiH, ESRA YAYinlarl iKiNCi BASKI, KONYA, 1991.
- 13- TOREL, SEDAT, ATATURK The GREAT, The CUMHURiYET SiVAS TURKEY, The First Edition, 1981.

- 14- YiLDiZ, HAKKi Dursun, BUYUK iSLAM TRiHi, DoguSTAN Gunumuze (14 CiLd), CAg YAYinlARi, iSTANbUL. 1989.

المجلات التركية

- 1- KONYA, BUYUKSEHiR BELEDiYESi YAYiN ORGANiDiR, YiL, 4, SAYi: 24 MART, NiSAN, 1990.
2- umrdn, AYLiK SiASi Dusunce Ve Kultur Dergisi, SAYi: 52, ARALiK 1998. P14-15.



فهرس المحتويات

الإهداء	هـ
الرموز والمصطلحات	1
- المقدمة	3
- التمهيد: أوضاع بلاد الشام قبيل الفتح العثماني	19

الفصل الأول

بدء علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام

أصل العثمانيين ونسبهم	29
نشأة وتوسع الدولة العثمانية	35
العلاقات بين العثمانيين والعرب في بلاد الشام قبل الفتح العثماني لها	44
الفتح العثماني لبلاد الشام	58
1- بداية الفتح وأحداثه	65
2- العثمانيون ومسألة الخلافة	76
أوضاع بلاد الشام الإدارية في ظل العثمانيين بين 1516-1876م	84

الفصل الثاني

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1876-1908م

"مرحلة العلاقات الجيدة والحرص عليها"

- مقدمة: العثمانيون والعرب في رد الحملات الصليبية الأوروبية	95
- التيارات الداعية إلى الانفصال بين العرب والعثمانيين	117
- أولاً: التيار القومي العربي في بلاد الشام	117
أ- نشأته	117
ب- العوامل المساعدة على انتشار الوعي القومي العربي في بلاد الشام	119

- 1- الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م 119
- 2- حملة إبراهيم باشا على سورية عام 1830م 120
- 3- الإرساليات التبشيرية 121
- 4- المدارس والكليات العلمية 126
- 5- الجمعيات العلمية والأدبية 131
- 6- الصحافة والطباعة 147
- 7- دعاة التغريب " الرواد الأوائل " 152
- ثانياً: التيار القومي الطوراني 162
- "عثمانيون الجدد جمعية تركيا الفتاة جمعية الاتحاد والترقي" 162
- أ- نشأته 162
- ب- موقف التيار الطوراني من العلاقات العربية العثمانية 165

الفصل الثالث

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1876-1908م

"مرحلة العلاقات الجيدة والحرص عليها"

- التيارات الداعية إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية 179
- "تيارات الرابطة العثمانية / الجامعة الإسلامية" 179
- أولاً: التيار العثماني الإسلامي "مؤسسة الخلافة / الخليفة عبد الحميد الثاني" 179
- 1- شخصية السلطان عبد الحميد الثاني 179
- 2- إعلان الدستور عام 1876م، وموقف السلطان عبد الحميد منه 184
- 3- موقف العرب في بلاد الشام من إعلان الدستور عام 1876م 189
- 4- السلطان عبد الحميد الثاني والعرب في بلاد الشام 208
- تقريب العرب من أبناء بلاد الشام 211
- أ- تعيين أحمد عزت العابد سكرتيراً خاصاً في الديوان السلطاني 211
- ب- تعيين أبي الهدى الصيادي مستشاراً شخصياً له 212
- 5- موقف السلطان عبد الحميد من فلسطين ومن مطامع اليهود فيها 219
- 6- السلطان عبد الحميد الثاني والجامعة الإسلامية 230
- ثانياً: التيار العربي في بلاد الشام الداعي إلى التمسك بالعلاقات العربية العثمانية 243
- تمهيد 243
- التيار العربي الإسلامي الإصلاحي 248
- الاتجاهات الفكرية التي يتكون منها هذا التيار 248

- 1- اتجاه شرقي إصلاحي مؤيد للعلاقات العثمانية ضمن حركة الجامعة الإسلامية "يمثله جمال الدين الأفغاني" 248
- 2- اتجاه إسلامي مؤيد للعلاقات العربية العثمانية، مطابق لموقف الخلافة في إطار الجامعة الإسلامية "يمثله أبو الهدى الصيادي" 264
- 3- اتجاه إسلامي قومي ثوري إصلاحي، يدعو للانفصال بين العرب والعثمانيين، مؤيد لخلافة عربية، عداء للجامعة الإسلامية "يمثله الكواكبي" 274
- 4- اتجاه قومي إصلاحي إسلامي، تأييد للرابطة العثمانية، وعداء للجامعة الإسلامية "يمثله عبد الحميد الزهراوي" 283
- 5- اتجاه قومي عروبي إصلاحي، تأييد للرابطة العثمانية في ظل الخلافة "يمثله محمد رشيد رضا" 287
- 6- اتجاه قومي إصلاحي، تأييد للرابطة العثمانية في ظل الخلافة "يمثله رفيق العظم، عبد القادر المغربي" 291
- 7- اتجاه إسلامي إصلاحي عروبي، تأييد للرابطة العثمانية والجامعة الإسلامية في ظل الخلافة "يمثله شكيب أرسلان" 303

الفصل الرابع

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1908-1914 .

" مرحلة تآزم العلاقات "

- التيار الطوراني التركي ودوره في ذلك 309
- تمهيد 309
- أولاً: تعيين الشريف الحسين بن علي أميراً على مكة ممثلاً للخلافة العثمانية. 311
- ثانياً: خلع السلطان عبد الحميد الثاني وأثر ذلك على علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام. 324
- 1- أسباب إسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني 324
- 2- الاتحاد والترقي والماسونية 328
- 3- دور اليهود والماسونية في الانقلاب على الخليفة عبد الحميد 333
- 4- إعادة العمل بدستور مدحت باشا "المشروطة الثانية عام 1908م" 339

- 5- أحداث انقلاب عام 1909م، وخلع الخليفة عبد الحميد الثاني.....348
 - ثالثاً: موقف العرب في بلاد الشام من الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام 1909م 359
 - رابعاً: سياسة الاتحاديين التتريكية وأثر ذلك على العرب في بلاد الشام 377
 1- مواقف الطورانيين من مستقبل العلاقات العربية العثمانية 386
 2- سياسة التتريك في مجلس المبعوثين " البرلمان " 389
 3- التتريك في الوظائف الحكومية 391
 4- التتريك في التعليم واللغة 392
 5- التتريك الديني (محاربة الاتحاديين لإسلامية الدولة العثمانية) 393

الفصل الخامس

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1908-1914

"مرحلة تأزم العلاقات"

- التيار القومي العربي ودوره في ذلك 409
 أولاً: موقف العرب في بلاد الشام من سياسة التتريك الاتحادية.....409
 - مدخل.....409
 1- ثورة الكرك عام 1910م.....412
 2- اعتقال عزيز علي المصري ومحاكمته 414
 - ثانياً: اتجاهات الأحزاب العربية في بلاد الشام حيال سياسة الاتحاديين
 الطورانية 420
 1- الاتجاه التوفيقى المؤيد لاستمرار العلاقات العربية العثمانية 425
 أ- جمعية الإخاء العربي العثماني 425
 ب- المنتدى الأدبي 430
 ج- حزب اللامركزية الإدارية العثماني 435
 د- حزب الحرية والائتلاف 438
 هـ- المؤتمر العربي في باريس عام 1913م 440
 و- جمعية بيروت الإصلاحية.....462
 2- الاتجاه المناهض بانفصال العرب عن العثمانيين وقطع العلاقات معهم.....463
 أ- الجمعية العربية الفتاة 465
 ب- الجمعية العربية الثورية 476
 ج- جمعية النهضة اللبنانية 478
 3- الاتجاه الداعي إلى استقلال بلاد الشام ثم اتحادها مع الدولة العثمانية 480
 أ- الجمعية القحطانية.....481
 ب- جمعية العهد 486

الفصل السادس

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1914-1916م

"الاتجاه نحو قطع العلاقات"

- أولاً: سياسة جمال باشا في بلاد الشام دفعت العرب للثورة 499
- ثانياً: الثورة العربية الكبرى وأثرها على العلاقات العربية العثمانية 524
- ثالثاً: أسباب الثورة العربية الكبرى 536
- 1- عامل الشرعية التاريخية والدينية 536
- 2- العامل الاقتصادي 538
- 3- العامل القومي 539
- 4- العامل الإسلامي 540
- رابعاً: موقف العرب من اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى 543
- 1- موقف الشريف الحسين بن علي 543
- 2- موقف العرب في بلاد الشام 551
- خامساً: مقدمات الثورة العربية الكبرى 555
- 1- بريطانيا تفاوض العرب في بلاد الشام 556
- 2- مفاوضات بريطانيا مع الشريف حسين "مراسلات حسين مكماهون" 558
- 3- المراسلات وأهميتها 561
- أ- مذكرة الاتفاق من الحسين لمكماهون 566
- ب- رد مكماهون على المذكرة 568
- ج- استنتاجات من المراسلات 569
- سادساً: بلاد الشام بين اتفاق حسين مكماهون واتفاق سايكس بيكو 575
- 1- اتفاق سايكس بيكو 579
- 2- بنود اتفاقية سايكس بيكو 582

الفصل السابع

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد الشام بين 1916-1918م

"قطع العلاقات"

- أولاً: إعلان الثورة العربية وسير أحداثها 591
- 1- الثورة كانت ستعلن من دمشق 591
- 2- بدء الثورة من مكة المكرمة 594
- 3- موقف حكومة الاتحاد والترقي من إعلان الثورة العربية 595
- ثانياً: لورنس وأدواره في الثورة العربية الكبرى 598
- 1- لورنس يحث العرب على الثورة ضد العثمانيين 599
- 2- لورنس مع الأمير فيصل بن الحسين في توجيه الثورة العربية 604
- 3- دور لورنس في معارك الثورة العربية 606
- 4- لورنس يسرق من دمشق إكليل صلاح الدين الأيوبي 610

- ثالثاً: مبايعة الشريف الحسين بن علي ملكاً على العرب 613
- 1- مراسم البيعة للشريف الحسين..... 614
- 2- موقف الدول الكبرى من تتويج الحسين ملكاً على العرب 618
- رابعاً: مشاركة عشائر الشام في جيش الثورة العربية 620
- خامساً: الكشف عن اتفاق سايكس بيكو وموقف العرب من ذلك 625
- 1- البلاشفة الروس يكشفون اتفاق سايكس بيكو..... 626
- 2- جمال باشا يخبر العرب باتفاق سايكس بيكو 627
- 3- رد الفعل العربي تجاه هذا الاتفاق 629
- أ- موقف الشريف الحسين وأولاده من اتفاق سايكس بيكو 629
- ب- موقف العرب في بلاد الشام من اتفاق سايكس بيكو 635
- ج- موقف الضباط العرب في جيش الأمير فيصل من اتفاق سايكس بيكو 638
- سادساً: موقف العرب في بلاد الشام من وعد بلفور 641
- 1- وعد بلفور..... 641
- 2- موقف أبناء بلاد الشام من وعد بلفور 643
- 3- موقف الشريف الحسين بن علي من وعد بلفور 646
- 4- موقف العرب المشاركين في جيش الثورة العربية من وعد بلفور 648
- 5- موقف الاتحاديين من وعد بلفور..... 649
- سابعاً: محاولة إعادة العلاقات العربية العثمانية إلى وضعها الطبيعي 653
- ثامناً: جيش الثورة العربية في بلاد الشام من العقبة حتى مرج دابق شمالي حلب 661
- تاسعاً: علاقة العثمانيين مع بلاد الشام بين أهداف الثورة العربية ونتائجها. 674
- الفصل الثامن

علاقة الدولة العثمانية بالعرب في بلاد بين 1918-1924م

" دخول العلاقات مرحلة القطيعة "

- أولاً: أوضاع الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام 1918م. 687
- 1- انهيار الدولة العثمانية واحتلال الحلفاء لأراضيها 687
- 2- محاولة إيجاد علاقات جديدة بين العرب في بلاد الشام وتيار مصطفى كمال أتاتورك 692
- ثانياً: بروز تيار مصطفى كمال أتاتورك 705
- 1- التعريف بمصطفى كمال 705
- 2- جوانب شخصيته..... 718
- ثالثاً: إلغاء السلطنة العثمانية 738
- رابعاً: توقيع معاهدة لوزان وخروج البلاد العربية بموجبها من نفوذ 742
- الدولة العثمانية 742
- خامساً: إعلان الجمهورية التركية على أسس علمانية 746

751	- سادساً: إلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية
752	1- دوافع مصطفى كمال في إلغاء الخلافة
764	2- مستند مصطفى كمال أتاتورك في إلغاء الخلافة
773	- سابعاً: إجراءات مصطفى كمال الانقلابية ضد نظام الخلافة
773	أ- إلغاء منصب الخلافة وطرد الخليفة من الأراضي العثمانية
775	ب- إلغاء وزارتي الشرعية والأوقاف
778	ج- إلغاء المدارس الشرعية
778	د- إلغاء الطرق الصوفية وإغلاق الزوايا والتكايا
779	هـ- تحديد الزي لعلماء الدين الإسلامي وأئمة المساجد والمفتين
780	و- إلغاء الطربوش العثماني وفرض القبعة وتعميم الزي الغربي
783	ز- استبدال اللغة العثمانية بحروفها العربية باللغة التركية الحديثة بحروفها اللاتينية
784	ح- اتخاذ أنقرة عاصمة للجمهورية التركية الحديثة
784	ط- تحويل العطلة الأسبوعية إلى الأحد بدل الجمعة
785	ي- اتخاذ التقويم الغربي تقوياً جديداً لتركيا
787	- الخاتمة
801	- الملاحق
803	- الملحق الأول
823	- الملحق الثاني
835	- الملحق الثالث
853	- المصادر والمراجع
853	- المصادر القديمة
856	- المصادر باللغة العثمانية
856	- المقابلات الشخصية
856	- المراجع العربية
882	- المجلات العربية
884	- الجرائد العربية
886	- المراجع الأجنبية
887	- المراجع التركية
888	- المجلات التركية
889	- فهرس المحتويات



المصدر:

دور اليهود والإعلام في اسقاط الدولة العثمانية

10 ديسمبر، 2013، الساعة 03:31 صباحاً



اللجنة التي جاءت لتبليغ
السلطان بخلعه من العرش

الإعلام قد يكون تأثيره أقوى من الأسلحة أو القوة العسكرية ، ولهذا نجح اليهود في تفويض أركان الدولة العثمانية دولة الخلافة بالإعلام وبدا ذلك منذ رفض السلطان عبد الحميد الثاني مطالب اليهود في إقامة دولة يهودية في فلسطين بل في إقامة مستعمرات. وقالوا في وجهه : إن هذا الرفض سوف يكلفك عرشك ، وقالوا إنه يأتي يوم يستقبل أحفادك أحفادنا ممثلين دولتنا في هذه العاصمة وفي هذا القصر (أي قصر يلديز قصر السلطان).

ومن الأمور المحزنة والمؤلمة حقاً أن اليهود حققوا مطامعهم وآمالهم في إقامة الدولة اليهودية بسرعة فائقة ، ونفذوا ما هددوا به السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ كان أحد الأربعة من اللجنة التي جاءت لتبليغ السلطان بخلعه من العرش كان يهودياً مشهوراً من مدينة سيلانيك معقل يهود الدونمة (في ذلك الوقت) وهي الآن اليونان وكان نائباً في

مجلس الأمة العثماني ، وكان هذا الرجل هو عمانويل قره سو . وكان يعرفه السلطان!! فلما رآه في تلك اللجنة نظر الى اللجنة وقال متحسراً : ما شأن هذا الرجل معكم؟

وكان الشخص الثاني في تلك اللجنة ممثل الأرمن في مجلس الأمة وهو آرام أفندي ومعلوم أن الأرمن قد تأمروا من قبل لقتله بوضع قنبلة في عربته ، ولم يكن السلطان فيها ، وذلك لحسن الحظ أن السلطان كان قد ذهب الى المسجد لصلاة الجمعة وتأخر في المسجد لمحادثة شيخ الإسلام لأمر طارئ فتأخر في المسجد وانفجرت قبل ركوبه ، فوجود هذا الرجل اشارة الى تعاون اليهود مع الأرمن ايضاً في المؤامرات ، ومعلوم أن الأرمن كانوا يريدون إقامة دولة لهم في أراضي الدولة العثمانية

دور اليهود والإعلام في اسقاط الدولة العثمانية

كان من من أهم الأساليب الإعلامية لليهود هي اساءة سمعة الدولة لإسقاط الخليفة، ومن اساليبهم ما يلي:

1.ترويج الشائعات

2.تضليل الرأي العام بالأكاذيب

3.التشنيع على الدولة بالإعلام العالمي

4.نشر القصص الخيالية التي تخدم أغراضهم

5- نشر الأخبار الملفقة في الصحف العالمية

6- تشويه سمعة الإسلام والمسلمين في الإعلام المحلي والعالمي

7- إقامة مؤسسات زراعية متقدمة وتحويلها الى مستوطنات يهودية

8- إقامة مشروعات اقتصادية تجارية عالمية او الإستراك فيها واستغلالها لأغراضهم بطرق شتى. ومن الأمثلة على ذلك كان اليهود يملكون في مصر فيما بين الحربين العالميتين 39% من مقاعد مجالس ادارات جميع الشركات الصناعية والمالية وهي نسبة تفوق نسبتهم في عدد السكان بمئات المرات. وفي تركيا يمتلكون كثيراً من الشركات الصناعية والمالية ولهم اسهامات أو هم شركاء فيها وبها يؤثرون في الحكام

9- تولي المناصب في الدول المختلفة بإظهار أنفسهم من المواطنين المخلصين من الدرجة الأولى بعد تسليط الأضواء عليهم عن طريق الصحف

10- استخدام المرأة وتسخيرها لأغراض شتى. وكمثال لذلك اقرأ كتاب سارة المرأة - التي هدمت الدولة العثمانية

11- اتخاذ الوعود والتعهدات أو المعاهدات الكاذبة وسيلة لتحقيق أغراضهم

12- تمزيق القوة المعادية لهم أو تفتيتها من الداخل بالأساليب الشيطانية

إصاق التهم المذرية والمنفردة إلى الشخصيات المعادية لهم لإبعاد الناس عنهم ثم -13
تعريضهم للمحاكم والسجون . ومثل اتهامهم بالتزوير وبيع المخدرات ووضعها في
سياراتهم وفي بيوتهم أو في جيوبهم أو اتهامهم بالفحش والشذوذ وخلق صور مركبة

استخدام الجمعيات الماسونية العالمية لخدمة قضاياهم في العالم -14

التظاهر بالدخول في الإسلام ، وإبطال اليهودية ثم الدخول في الجمعيات -15
والمؤتمرات الإسلامية للوقوف على الأسرار، أو لإفشالها بأساليب شتى

تحريك الشباب أو تسخير القطاعات الشبابية والعمالية وتأليبهم ضد الحكام -16
والحكومات المعادية لهم، وذلك لسهولة التأثير فيهم ولوجود الطاقة الإنفعالية لديهم
أكثر.

التخطيط الدقيق والمدرّس لتحقيق أغراضهم عن طريق إحداث مسرحيات مدبرة -17
، محلية وعالمية على حسب الحاجة

إشغال الشعوب المعادية لهم بالقضايا الهامشية عن القضايا المهمة التي بها يمكن -18
النهوض

إضعاف الشعوب الإسلامية وتمزيقها وإثارة الفتن بينها وبين جمعياتها لتبقى -19
متخلفة من الناحية العلمية والصناعية والسياسية والاقتصادية

استخدام القضايا الوطنية وتوجيهها بطريقة تحقق لهم مصالح صهيونية وماسونية -20
بطريق غير مباشر

محاولة مستمرة لإلحاق كبار المسؤولين الأثرياء وكبار الكتاب والصحفيين -21 والإعلاميين إلى الجمعيات الماسونية بالأساليب الشيطانية وتسخيرهم لتحقيق أغراضهم أو لخدمة قضايها.

أساليب تغيير الأنظمة في الدول المختلفة وأساليب الترويج لها -22

إفساد المجتمعات الإسلامية بشتى الطرق -23

ومن أساليبهم إثارة الفتن عن طريق لباس أزياء الفرق أو أزياء الجيش والقيام -24 بأدوار مختلفة

إذا ارادوا إسقاط الشخصية أو الدولة، يسقطون أولاً شأنها ويفضون الناس من -25 حولها بإثارة الضجة وتشويه السمعة بكل الوسائل والأخبار الملققة أو بإثارة أحداث مضادة ثم تكبيرها وجعل الحبة منها قبة. حتى إذا تمت إثارة الناس عليها أو انفض الناس من حولها يبدءون بالإسقاط بالضغط للتنحي أو بالقوة الفعلية العسكرية أو بالانتخاب ويخطط لهذا وذلك تخطيط زمني

استخدام القوة الإقتصادية إلى جانب القوة الإعلامية والسياسية ، وذلك بفضل ما -26 يمتلكون من القوة الإقتصادية في معظم دول العالم

دراسة نفسيات الشخصيات والمجتمعات أو القطاعات الإجتماعية للتأثير الإيجابي -27 والسلبى معاً للدخول في قلوب الناس لإحداث المودة والحب أو لإحداث النفور بالوسائل

الإعلامية الاجتماعية الخاصة أو لإحداث التغيير في الإتجاهات من الحب الى النفور او
العكس.

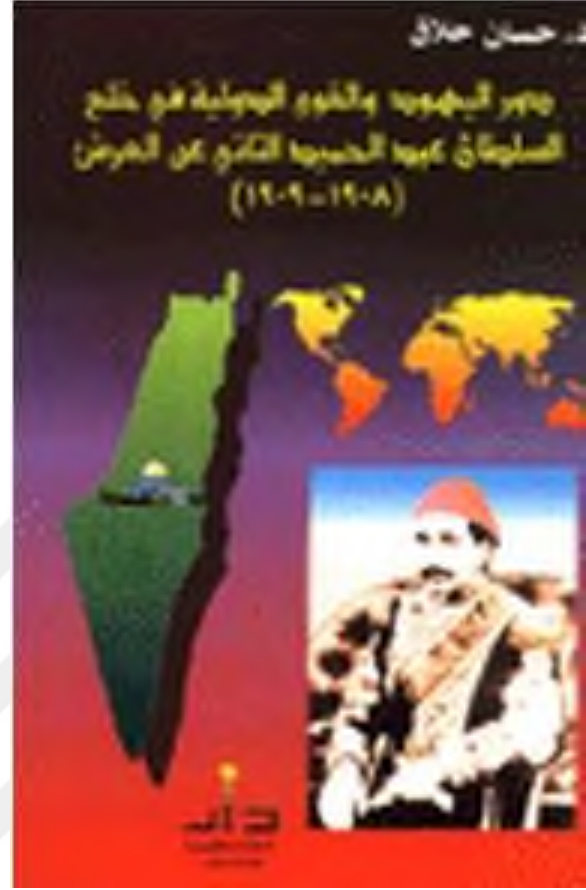
المصدر:

<https://www.abjjad.com/book/2203582499/2203811877/reviews>

دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن
العرش 1908-1909

تأليف

(تأليف) حسان حلاق



المصدر :

<http://vb.elmstba.com/t209760.html>

عبد الحميد الثاني السلطان الرابع و الثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، و آخر من امتلاك سلطة فعلية منهم. ولد في 21 سبتمبر 1842 م وتولى الحكم عام 1876 م. تأمر عليه اليهود - كما أشار د. حسان حلاق في كتاب دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش - لأنه رفض التنازل لهم عن شبر واحد من أرض فلسطين فأبعد عن العرش عام 1909 م بتهمة الرجعية، وأقام تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في 10 فبراير 1918 م

ولد سنة 1842 وتلقى تعليمه بالقصر السلطاني و اتقن من اللغات: الفارسية والعربية وكذلك درس التاريخ والأدب

استلم مقاليد الحكم في 31 أغسطس 1876، وفي نفس السنة دخلت الدولة العثمانية في ازمة مالية خانقه في فترة السلطان عبد العزيز المبذر ونجح العثمانيون الجدد من الاطاحه بحكمه سنة 1876 ونودي بمراد الخامس ليكون السلطان الجديد، الا انه عُزل بعد مده قصيره قوامها حوالي ثلاثة اشهر، فتولى عبد الحميد الحكم من بعده الذي وافق مع العثمانيين الجدد على اتباع سياسه عثمانية متحررة

أظهر السلطان روحاً إصلاحية وعهد بمنصب الصدر الاعظم الي مدحت باشا أحد زعماء الاصلاح فأمر بإعلان الدستور وبداية العمل به، وقد كان الدستور مقتبسا عن دساتير دول أوربيه مثلبحث عن عبد الحميد الثاني ، بحث علمي كامل جاهز عن السلطان عبد الحميد الثانبلجيكا و فرنسا و غيرها). وضم الدستور 119 ماده تضمنت حقوق يتمتع بها السلطان الحقوق الدستورية كأى ملك دستوري، كما نص الدستور على تشكيل مجلس نواب منتخب دعي بهيئة المبعوثان

لم يكن السلطان راضياً بقراره الدستوري الذي يقيد صلاحياته فأخذ ينتهز الفرص لتعطيل والتخلص من زعماء الإصلاح وعلى رأسهم مدحت باشا، وكان ذلك عندما نشبت الحرب الروسية-العثمانية سنة 1877 فانقلب على أعقابهِ وأقاله، وما لبث أن نفاه إلى سوريا اولا ثم إلى الحجاز حيث اغتيل هناك، ثم عطل السلطان الدستور وحكم الدولة العثمانية حكم استبدادي اوتقراطي حتى أُقيل عن حكمه نهائيا سنة 1909 على أيدي اعضاء جمعية الاتحاد والترقي

سياسات السلطان عبد الحميد وقضايا عصرنا

لا يزال النقاش بين المدارس الفكرية في أمتنا حول كيفية الخروج من نفق التخلف، في نفس المربع الذي بدأ فيه منذ مدة طويلة جدا، ورغم وجود تيار قوي عارض في البداية فكرة الإصلاح، فإن الوضع الآن مختلف، حيث تجمع مختلف التيارات على ضرورة التغيير ولكنها تختلف في كفيته: هل يتم بالمحافظة على الهوية والأسس الحضارية لأمتنا مع مقاومة التدخل الأجنبي؟ أم بالذوبان في الغرب وخدمة مصالحه والتبعية له فكريا وسياسيا واقتصاديا؟ ولم يستفد النقاش الدائر بين هذه المدارس من الحوادث والنكبات التي مرت على أمتنا وكان من الممكن أن تلقي ضوءا على حقيقة صراع

القوى وأهداف أطراف هذا الصراع بما يفيد في تحديد اتجاه الطريق الذي ينبغي السير فيه، و لو وصلت الإجابة التي قدمها عصر السلطان عبد الحميد الثاني إلى نهايتها دون تدخل فإنها كانت ستشكل مدخلا إلى النهضة والعصر الحديث، ولكن أوروبا لم تترك الدولة العثمانية تلتقط أنفاسها للحظة، وأدخلتها في دوامة مستمرة من المؤامرات والصراعات الداخلية والخارجية والتي أدت إلى ضرب المشروع الحضاري والإنحدار بنا من سافل إلى أسفل حتى وصل بنا الحال إلى ما نشاهده من فساد وذل وتبعية لا يبدو لها قرار في هذه الهوة السحيقة

الإصلاح والتنظيمات والتحديث

بدأ شعور العثمانيين بالخلل الذي تسلل إلى دولتهم في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ومنذ ذلك الوقت جرت محاولات للإصلاح اتخذت مع الزمن طابع الإعجاب بأوروبا ومحاولة تقليدها ولكن هذا التقليد لم يتخذ طابعا رسميا إلا مع تطبيق سياسة التنظيمات في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان هدف هذه السياسة على الصعيد النظري إصلاح أحوال الدولة والقضاء على الفساد والتخلف اللذين استشرياً فيها، أما عمليا فإن هدفها كان محاولة إرضاء دول الغرب الأوروبي وبخاصة بعد أن وقفت إلى جانب السلطنة في إيقاف زحف والي مصر محمد علي الذي كان يسابق السلطان في كسب رضا أوروبا، أما في المجال النظري فقد اتخذت إجراءات سطحية لا تمس جوهر التخلف مثل تغيير الأزياء والتشبه بالعادات الغربية وبناء القصور المكلفة على الطراز الأوروبي والإهتمام بالموسيقا الأوروبية، وأما فيما يتعلق بالجوهر وهو الحصول على رضا الغرب فقد اتخذت إجراءات تشريعية نتج عنها تكريس الضعف السياسي والتبعية الإقتصادية للسوق الأوروبية وإيجاد وسائل جديدة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، ومع ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني سدة حكم السلطنة 1876م اتخذت عملية الإصلاح منحى جديدا نبع من إيمانه أولا: بأن الإسلام هو "القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوىاء" ، وثانيا: بأن أوروبا لا تريد الخير لدولته وثالثا: بأن ظروف الدول مختلفة، فما يصلح لواحدة قد يضر أخرى، ولهذه العوامل كان يرفض عملية التقليد للغرب وإن كان يرى أن الإسلام لا يمنع اقتباس العلوم والتقنية وأسباب القوة بشرط أن يكون الاقتباس حسب الحاجة الداخلية للدولة وليس تنفيذا لأوامر من الخارج، فالغرب لا يسير إلا خلف مصالحه الذاتية ولهذا فإنه لن يساعد في تقديم المساعدة العلمية للدولة طالما أنه يمكنه بيعها جاهزا ما تود هي تصنيعه، هذا فضلا

عن أنه يسعى لتفتيت الدولة العثمانية والقضاء عليها ولذلك فقد أثبتت التجربة أن اتباع نصائح أوروبا وتنفيذ أوامرها لن يأتي إلا بالهزيمة والدمار، هذا إلى جانب أن ما يصلح لدولة تتكون من عنصر واحد قد يكون سما لدولة تتكون من عناصر شتى من السكان، وظروف دولة تقع في أقصى الأرض تختلف عن ظروف دولة تقع في وسطها.

المعرفة والعمران

قام السلطان بمحاولة نهوض شامل في كافة أرجاء السلطنة وتحديثها- دون تغريب- مركزا على محورين: المعرفة والعمران، مع محاربة التأثيرات الفكرية والسياسية الغربية - التي إضافة إلى أنها نابعة من حضارة أوروبا التي لا سبيل إلى جمعها مع حضارة الإسلام في رأيه - فقد فتحت الباب لاستقطاب الولاء للغرب بين العثمانيين، ولهذا حاول إعطاء هذه النهضة محتوى إسلاميا بدعم نشر الفكر والرابطة الإسلامية؛ فتحت بند المعرفة: تم تأسيس كليات الهندسة، والطب، والعلوم، والآداب، والحقوق، والعلوم السياسية، والفنون الجميلة، والتجارة، والزراعة، والبيطرة ومعاهد المعادن، والغابات، والتجارة العسكرية، والمعلمين واللغات، كما تم بناء المدارس الابتدائية ونشرها في قرى السلطنة، بالإضافة إلى المدارس المتوسطة في مراكز الأفضية والمدارس الثانوية في مراكز الألوية، هذا بعد أن كان بناء المدارس يسير ببطء إلى بداية حكم السلطان وقد نتج عن انتشار المدارس في عهده تضاعف أعداد من يقرأون ويكتبون إلى نسب عالية وصلت في بعض المدن إلى عشرة أضعاف، وقد حرص السلطان على أن يكون محتوى التعليم إسلاميا بمراقبة المناهج واستبعاد أصحاب الميول الغربية والانفصالية من هيئات التدريس، كما عمل على نشر الفكر الإسلامي عن طريق طباعة وتوزيع الكتب الإسلامية ، ومن أمثلة ذلك: أمره بطباعة صحيح البخاري سنة 1892 في المطبعة الأميرية في مصر، وكذلك أمره بطباعة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي الذي يحتوي على مناظرات مع المبشرين، ولعل في هذين المثالين من العبرة مايكفي ومن المرافق العلمية كذلك: المدارس الصناعية ومدارس الصم والبكم والمكتبات: كمكتبة بايزيد ومكتبة يلدرز، والمتاحف كمتحف الآثار القديمة والمتحف العسكري. أما عن العمران: فقد شمل المشاريع المائية، والبريدية، وسكك الحديد، والمعامل المختلفة، والمستشفيات، والغرف التجارية، والصناعية،

والزراعية، ودور العجزة والنفوس، كما تم في هذا العهد إدخال الهاتف، والسيارة، والترام، والتلغراف، في مواصلات واتصالات الدولة

مجالات أخرى شملها التحديث في عهد السلطان عبد الحميد لم تقتصر النهضة الحميدية التحديثية على المعرفة والعمران، بل شملت نواح أخرى لاقت درجات متفاوتة من النجاح منها:

الإقتصاد

شهدت العهود التي سبقت عهد السلطان عبد الحميد تسلا واسع النطاق للنفوذ الإقتصادي الغربي في الدولة العثمانية نتيجة لما أحدثته سياسة التنظيمات ولجوء الحكام إلى الإقتراض الموسع من الدول الغربية ، ورغم تأكيد بعض الباحثين على استمرار اندماج اقتصاد الدولة في العهد الحميدي بالإقتصاد الأوروبي الرأسمالي - بشكل تابع طبعاً - وذلك لعدم قدرة السلطان على وقف الموجة العاتية، فقد رأيناه يتخذ كثيراً من الإجراءات للحد من النفوذ الغربي، ولعل أهم هذه الإجراءات هو تقليص نفقات الدولة ، وقد شمل ذلك العديد من المصاريف غير الضرورية التي كانت تهدر في السابق ، مع عدم المساس بالسلع الرئيسية التي يعتمد المواطن عليها كالخبز مثلاً، وكان هدف سياسة الترشيح هذه هو عدم اللجوء للإقتراض من الخارج، هذا الإقتراض الذي أفلس الدولة وقيد استقلالها وجعل مواردها بيد أعدائها، وقد حاول تنظيم سداد الديون بإنشاء لجنة الديون العثمانية التي مثلت الدائنين في سنة 1881 ودخل في مفاوضات معها جعلها تخفض الدين إلى أقل من النصف (41%) وتخفض الفائدة إلى 1% كذلك، وتم وضع بعض موارد الدولة تحت تصرف هذه اللجنة وأصبحت الديون تسد بانتظام حتى وصلت إلى العشر (10%) في نهاية عهده ومن تلك الإجراءات المناوئة للنفوذ الإقتصادي الغربي أن السلطان كان يحجم عن تنفيذ بعض المشاريع إذا أحس بالخطر من تسرب رأس المال الأجنبي من خلالها، أو يتوجه إلى جهات غير طامعة لتنفيذ هذه المشاريع، كطلبه من اليابان التتقيب عن النفط في الموصل بعد رفضه إعطاء الإمتياز للإنجليز وغضبه من خداع حلفائه الألمان وقد استمر الإقتصاد العثماني في عهده بالإعتماد على قاعدة الذهب والفضة وكانت النقود الذهبية والفضية متداولة أكثر من العملة الورقية وحتى هذه كان بالإمكان تحويلها إلى معادلها من الذهب في كافة أنحاء العالم.

الجيش

كان السلطان عبد الحميد يرى أن الإعمار أهم من دخول الحروب حتى لو تم إحراز النصر فيها، لأنها تأتي بالولايات والدمار للبلاد، بينما المجد المتحصل منها زائف، ولهذا فإنه لم يدخل مختاراً في حرب إلا دفاعاً عن النفس ولكن ذلك لم يمنعه من تحديث جيشه تحسباً ليوم عصيب، فزوده بالأسلحة الحديثة واستدعى المدربين والمستشارين العسكريين للإفادة من خبراتهم، وقد أثبت الجيش فعاليته في حرب اليونان 1897م ولعل من أهم إنجازات السلطان تمويله لتجارب الغواصات التي نتج عنها صناعة الغواصتين عبد المجيد 1887 وعبد الحميد 1888 في استانبول، في الوقت الذي لم يكن لبريطانيا غواصات كما يذكر في مذكراته، ومن إنجازاته أيضاً تحصين مضائق العاصمة بطريقة مكنت القوات العثمانية من صد هجمات الحلفاء في سنة 1915م أثناء الحرب العالمية الأولى وتحقيق الانتصارات المشهورة في شبه جزيرة غاليبولي ويؤخذ على السلطان إهماله للأسطول الأمر الذي برره بأنه لما حاول إحلال قباطنة عثمانيين محل القباطنة الإنجليز تدخل السفير البريطاني لمنع ذلك، مما دفع السلطان لإسقاط أمر الأسطول من حسابه، ولم يلجأ لتصنيع السفن لأن ذلك يستلزم مالا كثيراً والغرب لا يقرض أموالاً لتصنيع ما يمكنه بيعه للدولة جاهزاً.

القضاء

كان السلطان عبد الحميد يؤمن بأن العدل هو الأساس الذي قامت عليه الدولة العثمانية التي لو كانت قد جلبت الظلم لتفتتت منذ البداية، ولهذا حاول القيام بإصلاح في مجال القضاء هدف إلى تحقيق المساواة بين الجميع أمام القانون وكفالة تطبيق العدالة بأسرع وقت عبر التنظيم التشريعي والإداري، ومن الإجراءات التي اتخذها في هذا الحقل: إنشاء كلية الحقوق لإعداد رجال قانون متخصصين، وتنظيم وزارة العدل وعلاقاتها بمختلف أنواع المحاكم ووضع برنامج للإصلاح استهل بقوانين صدرت بداية من سنة 1879م؛ يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي عن أثر هذه الإصلاحات في كتابه الدولة العثمانية ج 3 ص 1171: "وقد حققت هذه القوانين وغيرها مستوى رفيعاً من العدالة والنزاهة والنظام في البنيان القضائي لم تشهد الدولة له من قبل مثيلاً. وكان جميع المتقاضين في المحاكم المدنية على اختلاف درجاتها وكذلك جميع المتهمين أمام

محاكم الجنايات متساوين أمام القانون بصرف النظر عن دياناتهم أو مذاهبهم أو مراكزهم الإجتماعية"، ولكن الغرب لم يكن سعيدا بهذه الإصلاحات لأنها وضعت العثماني والأجنبي أو المتمتع بالحماية الأجنبية داخل الدولة العثمانية على قدم المساواة، وأصرت الدول الأوروبية على عدم تطبيق القوانين الجديدة على رعاياها مستندة في ذلك إلى معاهدات الإمتيازات الأجنبية، الأمر الذي أدى إلى إجهاض الثمار المرجوة من هذا الإصلاح وتحديد فاعليته.

السلطان عبدالحميد والوحدة الإسلامية

ارتبط اسم السلطان عبد الحميد في معظم الدراسات بفكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها واتخذها سياسة رسمية له، وقد توصل إلى ضرورتها بعدما رأى تكالب دول الغرب على العالم الإسلامي داخل الدولة العثمانية وخارجها، ولهذا عمل على جمع المسلمين تحت راية الخلافة لعلهم يتمكنون من صد الهجمة الإستعمارية التي كانت في ذروتها إبان عهده ولم يستثن السلطان أحدا من المنتمين للإسلام من دعوته مهما كان مذهبه أو قوميته أو موقعه الجغرافي، فقد شكل عهده قطيعة مع الماضي فيما يتعلق بالعلاقة بين أهل السنة والشيعة حين حاول إزالة الإحتقان الذي رسبته قرون من سوء التفاهم والعداوة، وفتح للشيعة أبوابا كانت مغلقة مثل حرية التعبير والدعوة والنشر حتى في عاصمة الدولة مما أثار حفيظة بعض المتشددین من أبناء السنة، كما غض النظر عن تشيع كثير من أبناء جنوب العراق ولم يعد ذلك توجهها معاديا للخلافة، وحاول التقارب مع إيران لتفويت الفرصة على بريطانيا وروسيا اللتين تطمعان في أراضي الدولة العثمانية وإيران معا، بل إن دعوته لم تستثن حتى الدروز، ويحكي الأمير شكيب أرسلان كيف أنه عندما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في استانبول أمر السلطان بأن يصلوا الجمعة خلفه في جامع يلدر.

أما ما قدمه السلطان لدعم دعوته بين قوميات مختلفة من المسلمين، فهو لم يكتف بمطالبتهم بالإلتفاف حول الخلافة بل قام بجهود أوجدت أرضية مادية صالحة لانتشار فكرته

السلطان عبد الحميد والأكراد

كانت بلاد الأكراد في بداية عهد السلطان تموج وتغلي بالثورة على الحكم العثماني، كثورة الشيخ عبيد الله سنة 1879م وثورته الكبرى في السنة التالية التي كان ينوي بها الانفصال عن الدولة وطلب دعم بريطانيا والدول الكبرى لذلك، إلا أن معارضة الزعامات الكردية لهذا المشروع وسياسة اللين التي اتبعتها الدولة تجاهه بالإضافة إلى قيام السلطان بتأسيس "الأفواج الحميدية" من الأكراد سنة 1890م لحمايتهم من الإعتداءات الأرمنية ومعارضته الشديدة لتأسيس دولة أرمنية في شرق الأناضول، كل ذلك أدى إلى استجابة الأكراد لوفود العلماء الذين أرسلهم السلطان وحدث تحول جذري في مشاعرهم تجاه الدولة وقبولهم بالتالي لسلطتها، وبذلك "غابت عن ساحة كردستان العثمانية أية ثورة كردية ذات أثر" كما يقول الدكتور عبد الرؤوف سنو في كتابه النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية ص 128

السلطان عبد الحميد والقوميات التي ابتليت بالإحتلال الأجنبي

كان السلطان يفتح أراضي بلاده للمسلمين الذين احتلت بلادهم وكانت فيما سبق تابعة للدولة العثمانية، ومن أمثلة ذلك إسكانه لكثير من مسلمي القوقاز من الشركس والشيشان فيما يسمى اليوم بالأردن بعد اجتياح الروس لبلادهم في حرب سنة 1864م، كما أسكن مسلمي كريت بعد طردهم منها بعد الحرب مع اليونان سنة 1897م في أراضي الدولة وخاصة في حي المهاجرين في دمشق، بل إن العاصمة استانبول نفسها عجت بأكثر من مئتي ألف من المهاجرين الهاربين من البلقان أثناء الحرب مع روسيا وقدمت الدولة لهم كثيرا من المساعدات والتسهيلات رغم ظروفها الإقتصادية الصعبة آنذاك.

السلطان عبد الحميد والعرب

احتل العرب مكانة مميزة في عهد السلطان عبد الحميد، فهم أهل الرسالة وأصحاب لغة القرآن، كما أنهم أحد عنصري الدولة الأساسيين، ولهذا أولاهم السلطان اهتمامه ومنحهم ثقته، وتجلّى ذلك في عدة مظاهر منها

الإكثار من العرب في الوظائف الرسمية

إن كان مأخذ كثير من الباحثين على الدولة العثمانية عدم تولية العرب في وظائف الدولة، فقد تغير هذا الوضع إلى عكسه في العهد الحميدي، إذ لم يكتف السلطان بتولية بعضهم بل عمد إلى الإكثار منهم وأحاط نفسه بهم؛ حتى قيل: إنه إذا كان الباب العالي والوزارة في يد الأتراك فإن القصر أصبح بيد العرب. وهو قول يراه مؤلف كتاب يقظة العرب جورج أنطونيوس قولاً محققاً رغم أنه لا يكن المودة للدولة العثمانية ولا للسلطان عبد الحميد، ومن أشهر رجال العرب في ذلك العهد أحمد عزت باشا العابد السكرتير الثاني للسلطان، وأبو الهدى الصيادي الرفاعي، وشفيق بك المؤيد، وشفيق بك الكوراني، و شكري باشا الأيوبي، وولدا الأمير عبد القادر الجزائري، محمد باشا ومحي الدين باشا، بالإضافة إلى آخرين تطول القائمة بذكرهم، كما اتخذ السلطان من علماء العرب وصوفييهم دعاة للجامعة الإسلامية مثل الشيخ محمد ظافر والشيخ أحمد القيصري إضافة لأبي الهدى صاحب ثقته سابق الذكر ولم يقتصر اهتمامه على المسلمين من العرب بل تعداه إلى المسيحيين منهم، وقد بلغ بعضهم رتبة الوزارة كسليم باشا ملحم الماروني اللبناني الذي صار وزيراً للتعدين والغابات والزراعة، كما وصل (آخرون إلى رتب عالية في الدولة (1)

ويشهد لحال المسيحيين العرب قول بطريرك الموارنة إلياس الحويك بعد خلع السلطان سنة 1909: لقد عاش لبنان، وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولا نعرف ماذا تخبئ لنا الأيام من بعده (2) ولا يظن أن البطريرك كان ينافق سلطاناً معزولاً.

مشاريع الإعمار في البلاد العربية

حصلت بلاد العرب على نصيب كبير من الجهود العمرانية التي قام بها السلطان، ويقول فيليب مانسل في مقدمته لكتاب بيروت والسلطان إن: "عبد الحميد عمد إلى توفير المال وتركيز الاهتمام على الأقاليم العربية بحيث فضلها على العديد من المناطق التركية"، فبالإضافة إلى المدارس التي نشرها في كافة أرجاء السلطنة كما مر، قام بعمليات نهوض عمراني طال مختلف المناطق العربية مثل مدن الحجاز التي تم فيها مشاريع تجديد وإصلاح وترميم وتوسعة لل الحرمين الشريفين شملت الكعبة والمطاف ومقام إبراهيم والمسعى والمسجد النبوي ومساجد المدينة الأخرى، كما شملت بناء

مستشفى وصيدلية في منى وتسوية الطرق المؤدية إلى جبل ثور، وإنشاء مطبعة في مكة لطباعة الكتب بكافة لغات المسلمين، وربط مكة بجدة والطائف ومعان بخطوط البرق، وتزويد مكة وجدة بمياه العيون النظيفة، وقد استمر العمل لمدة ثلاث سنوات ونصف بثلاثة آلاف وخمسمئة عامل في جدة لتزويدها بمياه عين الوزيرية وتخليصها من الشرب من مياه الحفر المتعفنة ولا ننسى في هذا المجال مشروع سكة حديد الحجاز الذي هدف إلى ربط عاصمة الخلافة بالمدن الحجازية وتيسير الحج على المسلمين، واستمر العمل فيه من 1900م إلى 1908م حتى بلغ المدينة المنورة وبلغ إجمالي كلفته أكثر من أربعة ملايين ليرة جمعت بحماس شديد من المسلمين في كافة أنحاء العالم، وكان يراد لهذا الخط الوصول إلى اليمن مروراً بمكة المكرمة، إلا أن معارضة الشريف حسين وعزل السلطان عبد الحميد حالاً دون إتمامه؛ وقبل بدء العمل في سكة حديد الحجاز، التي وصلت دمشق بالمدينة المنورة، تم تدشين خط سكة حديد بين القدس ويافا في سنة 1892، ثم بين بيروت ودمشق سنة 1895، وبين دمشق وحلب سنة 1903، ونتج عن ذلك ثم عن مد فروع لخط الحجاز في أنحاء الشام وإنشاء خطوط البرق والبريد إزدهار المدن الشامية، ففي مدن فلسطينية مثل القدس وبيت لحم ويافا إزدهرت السياحة وتحسنت الأوضاع الاقتصادية ببناء الفنادق وانتشار صناعات التحف وأعمال التشييد والبناء التي وسعت مدينة القدس خارج حدود الأسوار وأوجدت فرص عمل للأهالي من المدينة والريف على حد سواء، كما أدى إنشاء خط بين درعا وحيفا متفرع من خط الحجاز في 1905 إلى ازدهار الأخيرة التي أصبح ميناؤها مركزاً لتصدير المحاصيل الزراعية إلى أوروبا، وفي سبيل مد سلطة الدولة ومقاومة المحاولات البريطانية لمد نفوذ الاحتلال من مصر إلى الشام قام السلطان بفصل قضاء النقب عن غزة وجعل مركزه مدينة جديدة أنشأها في بئر السبع سنة 1901 والتي أخذت تتطور منذ ذلك الوقت ثم ازدادت أهميتها بعد وصول خط الحجاز إليها وأما بيروت "فتحولت إلى واجهة عربية للنظر في الإمبراطورية العثمانية، وقد أطلق عليها الإمبراطور غليوم الثاني إسم: الجوهرة في تاج السلطان، وفي سنة 1888 إرتقت إلى مرتبة عاصمة للولاية وتحولت من مدينة تنتمي إلى القرون الوسطى إلى عاصمة إقليمية عصرية، ولأول مرة منذ الإمبراطورية الرومانية أصبحت المرفأ الرئيس على شرق البحر الأبيض المتوسط وارتفع عدد سكانها من حوالي 80 ألف نسمة سنة 1876 إلى نحو 150 ألف نسمة عام 1908، ومع إنشاء الكليات الأمريكية والفرنسية إلى جانب العثمانية فيها، أصبحت بيروت - كما أعلن عن ذلك إسماعيل كمال بك سنة 1892- ينبوعاً للثروة والتقدم والتعليم العصري" كما قال مانسل أنف الذكر في مقدمة

كتاب بيروت والسلطان الذي صدر سنة 2002 بالتعاون مع بلدية بيروت لتوثيق المشاريع العسكرية والدينية والتعليمية والصحية والترفيهية ومشاريع البنية التحتية التي تمت أثناء العهد الحميدي في المدينة ونقلتها تلك النقلة الواسعة. وعند الحديث عن إعمار البلاد العربية يمكننا ذكر ما فعله السلطان بأملكه الخاصة فيها، إذ يذكر الباحث شارل عيساوي نقلا عن خطط الشام لمحمد كرد علي: أن السلطان كان يملك مليون هكتار فيها نحو 120 قرية ومزرعة شرقي حمص وسلمية، ونصف مليون هكتار في أنحاء حلب فيه أكثر من 500 قرية ومزرعة، وسبع قرى في حوران إضافة إلى بيسان وبعض قراها ولسنا بصدد مناقشة كيفية حصوله على هذه الأملاك الواسعة، إذ ثار حول ذلك مناقشات كثيرة لن نحسمها هنا، المهم أنه "كان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعفي الزراع المستأجرين من الجندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلا ربا حتى عمرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيشون فيها فسادا" ص 421 من التاريخ الإقتصادي للهِلال الخصيب، وعند حديثه عن الأراضي السنية في العراق يذكر عيساوي أنها كانت ملكا للسلطان عبد الحميد "بوسائل مشكوك فيها أحيانا، وعلى كل، ما كاد يحصل على هذه الأراضي حتى تولى رعايتها جيدا، وذكره موضع تقدير كبير في العراق كنموذج للمالك الذي كان أبا لقومه" ص 530 من المرجع المذكور ويذكر الدكتور زكريا قورشون إجراءات مماثلة إتخذها السلطان نحو أراض في الإحساء، وذلك بتسجيل مساحات من الأراضي لخزينة المالية مقابل مبالغ معينة ثم نقلها للخزانة الخاصة، ويلمح للإنتقادات التي وجهت لهذا الأسلوب، ويعقب قائلا: "ولكن يبدو أن مراقبة هذه الأراضي كانت عملية غاية في الصعوبة بسبب بعدها، ولذلك اتبع فيها الأسلوب المذكور وأمكن إعمارها لسنوات طويلة" ص 236 من كتاب العثمانيون وآل سعود. وهناك مشروع كبير لو تحقق فإنه كان سيعود على الدولة العثمانية وولاياتها العربية بفوائد جمة، وهو بقية مشروع سكة حديد برلين - بغداد الذي عرضه الإمبراطور الألماني غليوم الثاني على السلطان عبد الحميد أثناء الزيارة الثانية التي قام بها الإمبراطور للدولة سنة 1898م، وتحمس السلطان للمشروع الذي كان قد أنجز الجزء الأكبر منه وربط قسمه الأوروبي إستانبول بأوروبا ثم امتد في قسمه الآسيوي من إستانبول إلى أنقرة فقونية ولم يتبق إلا مده إلى نهايته في الكويت على ساحل الخليج العربي "خليج البصرة بالتسمية العثمانية"، وقد رأى السلطان في هذا المشروع فرصة للإفادة من التقدم العلمي الألماني ونشر الإزدهار على طول الطريق الذي ستمر به سكة الحديد بالإضافة إلى مواجهة النفوذ الروسي والفارسي في شرق الدولة ولكن بريطانيا وفرنسا وروسيا وقفت متحدة في

مواجهة هذا المشروع وأثارت المشاكل ضده ووضعت العراقيل السياسية والمالية في طريق تحقيقه خشية على مصالحها الإستعمارية، وكانت بريطانيا هي زعيمة المعارضة، وتمكن هذا الحلف من تعطيل المشروع أولاً ثم وقفه نهائياً بقيام الحرب سنة 1914م.

مقاومة المشاريع الإستعمارية في البلاد العربية

تميزت فترة حكم السلطان عبد الحميد بشراسة الهجمة الإستعمارية الأوروبية على العالم غير الغربي كله، وقد نال الولايات العربية في الدولة العثمانية نصيب كبير من هذا الهجوم، فقد احتلت فرنسا تونس سنة 1881م، وجيبوتي سنة 1888م، واحتلت بريطانيا مصر والسودان سنة 1882م، وفرضت الحماية على الكويت سنة 1899م، وحاولت السيطرة على جنوب البحر الأحمر بإثارة المتاعب للعثمانيين في اليمن سنة 1905م، ولما فشلت حاولت السيطرة على شماله بمد نفوذها من مصر إلى العقبة وطابا سنة 1906م، وشرعت إيطاليا بمساندة بريطانية في احتلال اريتريا وجنوب الصومال في 1884م - 1885م وأتمت السيطرة على الأولى في سنة 1896م وعلى الثانية في 1910م وإذا كان السلطان قد أجبر على الإعراف باقتطاع أجزاء من دولته في أوروبا في معاهدة برلين سنة 1878م بعد هزيمة الدولة أمام روسيا، فإنه تمسك بولاياته العربية ولم يستسلم أمام أية محاولة لاحتلالها، وحاول بكل وسيلة يملكها- سياسية غالباً وعسكرية أحياناً - الدفاع عنها، فنجح حيناً وفشل أحياناً ولكنه لم يقدم صك اعتراف بالتنازل عن أي منها واحتاج الأمر إسقاط الدولة ومجيء الحكم الكمالي ليتم تسليم البلاد العربية بشكل رسمي ونهائي للإستعمار الأوروبي من خلال معاهدة لوزان سنة 1923م؛ ففي المسألة التونسية حاول السلطان في بداية الإحتلال إثارة الخلافات بين دول أوروبا ليحقق جلاء الفرنسيين، ورغم فشله في الحصول على نتيجة مهمة، ورغم محاولات فرنسا المتواصلة للحصول على أي اعتراف منه أو تصريح رسمي مباشر أو غير مباشر بقبوله احتلالها، فإنه لم يُقدم على تقديم هذا التنازل مطلقاً وظلت النشرة العثمانية الرسمية السنوية "السالنامة" تعد تونس ولاية تابعة للدولة وواقعة تحت الإحتلال، وفي مسألة مصر والسودان لم تقر الدولة بالإحتلال ولم تتورط في تأييد المشاريع البريطانية التي حاولت جر السلطان لإرسال جيش عثماني لإخماد الثورة العربية، ورغم اضطراب سياسته في بداية الأمر؛ إذ منح أحمد عرابي الباشوية وأيده ثم أعلن عصيانه في خطوة اختلف الباحثون في تقويمها، فإنه رفض إرسال جيشه

لإخماد الثورة ولم يستسلم لواقع الإحتلال، ولهذا ظلت بريطانيا تدّعي من سنة 1882م إلى سنة 1914م أن احتلالها لمصر مؤقت ولم تنف تبعيتها للعثمانيين وأصدرت عشرات الوعود بالجلء عنها ولكنها لم تف بأي منها، وقد حاول السلطان بكل جهده تعكير صفو الأجواء على الإحتلال و"أنفق أموالا كثيرة لعمل دعاية مضادة في مصر وفي السودان لمنع النشاط الإنكليزي هناك... ولم يترك شيئا يستطيع استخدامه ضد بريطانيا العظمى إلا واستخدمه" كما ينقل الدكتور محمد حرب عن كتاب تركيا وإنكلترا لسليمان قوجه باش وذلك في كتاب السلطان عبد الحميد الثاني ص 121، كما لجأ إلى مساندة القوى المناهضة للإحتلال وعلى رأسها الزعيم مصطفى كامل حيث أستدعاه عدة مرات إلى عاصمة الخلافة وأنعم عليه بالألقاب والأوسمة في إشارة إلى دعمه السياسي له، وكان هذا الزعيم الوطني الكبير من القلائل الذين تفهموا السلطان في حياته، وكان يراه "سيد الحكماء وقدوة الساسة" وأنه "أشد حنانا على مصر من أحب أبنائها وأصدقهم نحوها" وهذه الشهادة من زعيم لا شك في إخلاصه ورجل دخل المعركة مع الإحتلال بكل أهوالها تؤكد لنا أن موقف السلطان الأخير من عرابي لم يكن يعني القبول بسياسة المحتل، وقد أنشأ السلطان مدينة بئر السبع في صحراء النقب بفلسطين لمواجهة المحاولات البريطانية للتمدد من مصر، وأخمد العصيان الذي أثاره الإنجليز في اليمن، وقاوم محاولتهم الإستيلاء على العقبة وطابا، فنجح في الإحتفاظ بالأولى بالقوة، وأصر على أن مسألة طابا هي بين مصر والدولة العثمانية ورفض اشتراك الإنجليز في المفاوضات حولها والتي أسفرت عن إلحاقها بمصر؛ لقد كان السلطان يدرك مدى الضعف الذي وصلت إليه دولته، ولهذا لم يدخل حربا كان يراها خاسرة دفاعا عن تونس ومصر، ويرد في مذكراته على من اتهمه بالتقصير حيال هاتين الولايتين لأنه لم يستخدم القوة العسكرية بأنه لو استخدمها في تونس لنتج عن ذلك هزيمة تؤدي إلى ضياع سوريا أيضا ولو دخل حربا للدفاع عن مصر لخسر العراق وفلسطين معها، وهذه التحديدات تشير إلى وعيه بأن فرنسا كانت تطمع في سوريا وأن بريطانيا كانت تستهدف العراق وفلسطين، وهذان الأمران لم يتكشفا للناس إلا في وقت متأخر، أما في مسألة الكويت؛ فإن الدولة العثمانية لم تعترف بفرض الحماية البريطانية عندما علمت بأمر معاهدة 1899م التي عقدت سرا، وحاول السلطان ثني الشيخ مبارك الصباح عن ارتباطه بالإنجليز، واستعمل في سبيل ذلك مختلف وسائل الترغيب والترهيب، ولكن الشيخ كان مصمما على الإستقلال عن العثمانيين، وتطورت علاقته ببريطانيا من عقد المعاهدة بالسر إلى طلب الحماية البريطانية الدائمة والسافرة على الكويت سنة 1901م، إلى استقبال حاكم الهند اللورد

كيرزون سنة 1903م، إلى قبول وكيل سياسي بريطاني في الكويت سنة 1904م، إلى محاولة تغيير علم الكويت العثماني سنة 1905م، وأعطى بريطانيا مجموعة من الإمتيازات لمنع وصول سكة حديد برلين - بغداد إلى الكويت توجت باتفاق سري آخر عقد سنة 1907م لتأكيد معاهدة 1899م ويعلق الأستاذ عبد العزيز الشناوي على علاقة مبارك بالدولة العثمانية وبريطانيا قائلا: "ومن الصعب القول بأن الشيخ مبارك كان يدفعه شعور قومي بالإستقلال، لأنه حين جاهر برفضه السيادة العثمانية على الكويت، ارتمى في أحضان بريطانيا وعقد معها الإتفاقية المانعة سنة 1899م" من كتاب الدولة العثمانية ج3 ص1409؛ بل إن الباحثة الكويتية الدكتورة سلوى الغانم تروي في كتابها الصادر باللغة الإنجليزية "عهد مبارك الصباح"؛ استنادا إلى وثائق بريطانية، أن مبارك ذهب إلى أبعد مما سبق حين حاول قبل وفاته سنة 1915م أن "يهب الكويت لبريطانيا" وذلك بتسليم جميع الموارد الكويتية للإنجليز لإدارتها بأنفسهم وخصم كلفة الإدارة لحسابهم وتسليم الباقي له، الأمر الذي أربك المسؤولين البريطانيين أنفسهم ووصفته الباحثة المذكورة بأنه "من أغرب ما قدم لمسؤول بريطاني خلال قرون من الإنهماك البريطاني في الخليج" ص197، ولم ينفذ الإقتراح نتيجة الرفض البريطاني الممزوج بالذهول ورغم فشل مشروع وصول سكة الحديد إلى الكويت، فإن السلطان رفض الإقرار بالوضع الذي أوجدته بريطانيا في الخليج وظل الأمر بين شد وجذب إلى قيام الحرب الكبرى سنة 1914م ولم يقر السلطان كذلك لفرنسا وبريطانيا وإيطاليا إقتسامهم أريتريا والصومال ولم يتم هذا التنازل إلا بعد انهيار الدولة العثمانية وتوقيع مصطفى كمال معاهدة لوزان مع المحتلين سنة 1923م

